THE LIBRARIES
COLUMBIA UNIVERSITY

GENERAL LIBRARY

الجواهر
في تفسير القرآن الكريم

المشتمل على عجائب بدائع المكونات وغرائب الآيات الباهرات

تأليف

الأستاذ الحكيم الشيخ طنطاوى جوهرى
المدرس بالجامعة المصرية ومدرسة دار العلوم سابقا
متع الله المسلمين بحياته آمين

الجزء الثالث والعشرون

الطبعة الثانية
١٣٥٠ ه — رقم ١٧١

حقوق الطبع محفوظة

طبع بمطبعة
مصطفى البابى الحلبى وأولاده بمصر
عباشرة محمد أمين عمران

BP
130.4
.J27
v.23-24

« وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ »
(قرآن كريم)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تفسير سورة ق

هي مكية

إلا آية : « ولقد خلقنا السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام وما مسنا من لغوب » فمدنية

آياتها ٤٥ ـ نزلت بعد المرسلات

وهي فى : إثبات النبوة والحشر

وذلك فى مبحثين

الأول : فى النظر فى السموات والأرض ، وأخبار الأمم الماضية ، من أول السورة إلى قوله : « بل هم فى لبس من خلق جديد » .

المبحث الثانى : فى الكلام على الموت وسكرته ، وعلى الملائكة المراقبين حركات الإنسان وسكناته ، وفى أحوال يوم القيامة ، من قوله : « ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ماتوسوس به نفسه » إلى آخر السورة :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قٓ وَالْقُرْءَانِ الْمَجِيدِ * بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَٰذَا شَيْءٌ
عَجِيبٌ * أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَٰلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ * قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا
كِتَابٌ حَفِيظٌ * بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ * أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى
السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ * وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا
رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ * تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ * وَنَزَّلْنَا مِنَ
السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ * وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ *

رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَٰلِكَ الْخُرُوجُ * كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ
الرَّسِّ وَثَمُودُ * وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ * وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ
كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ * أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ * وَلَقَدْ
خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ * إِذْ يَتَلَقَّى
الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ * مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ * وَجَاءَتْ
سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ * وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ *
وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ * لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ
غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ * وَقَالَ قَرِينُهُ هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ * أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ
كَفَّارٍ عَنِيدٍ * مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُرِيبٍ * الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ
فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ * قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَٰكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ * قَالَ
لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ * مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ
لِلْعَبِيدِ * يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ * وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ
بَعِيدٍ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ * مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ *
ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ * لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ * وَكَمْ أَهْلَكْنَا
قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِنْ مَحِيصٍ * إِنَّ فِي ذَٰلِكَ
لَذِكْرَىٰ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ * وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضَ
وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ * فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ
قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ * وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ * وَاسْتَمِعْ يَوْمَ
يُنَادِ الْمُنَادِ مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ * يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ * إِنَّا
نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ * يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا
يَسِيرٌ * نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ *

OCT 30 1973

المبحث الأول فيه ثلاث مقامات

المقام الأول فى تفسير البسملة .
المقام الثانى فى معنى «قٓ» .
المقام الثالث فى تفسير الآيات من أول السورة إلى قوله «بل هم فى لبس من خلق جديد» .

المقام الأول فى تفسير البسملة

للرحمة فى هذه السورة أدوار ثلاثة : دور البداية، ودور أهم النشاط فى الأعمال ، ودور النهاية ، وذلك كأدوار الإنسان ، فهو شاب ، وكهل ، وهرم . وكأدوار قصة يوسف :
(١) فهو مع إخوته فى مشاكل الحسد ، والمنافسة ، والإلقاء فى البئر ، ووقوعه فى شرك امرأة العزيز .
(٢) ثم فى حفظ مال الدولة المصرية والقيام بسياستها ، وإكرامه إخوته وأبويه .
(٣) ثم انتهى إلى الله وقال : «رب قد آتيتنى من الملك وعلمتنى من تأويل الأحاديث فاطر السموات والأرض أنت ولىّ فى الدنيا والآخرة توفنى مسلما وألحقنى بالصالحين» .

* * *

(١) هكذا الحكماء الذين عرفوا الله بعقولهم كسقراط ، فأول حياته شك فى نظام العالم ، وفى خالقه ، وعموم علمه ، فى مقابلة حسد إخوة يوسف ورميه فى الجب إلى آخر ما تقدم .
(٢) ثم إنه عثر على رأى أنكساغورس ، فعرف شيئا من الألوهية ، ثم استكمل علمه .
(٣) ثم انتهى إلى انقضاء حياته .

* * *

(١) وهكذا خاتم الأنبياء ، فهو فى مكة فى مشاكل ومجادلات ومخاصمات مع كفار قريش .
(٢) وهو فى المدينة فاتح البلاد وناشر الإسلام .
(٣) ولما انتهى الأمر رجع إلى ربه .

فهكذا هذه السورة ، فأولها إنكار النبوة والبعث ، وأوسطها الحث على النظر فى السماء، وزينتها وبهجة بنائها ، وفى الأرض وجبالها الشامخات ، وزروعها النضرات ، ومطرها المدرار ، ونخلها الباسقات ، ودولها الهالكات ، من عاد إلى أصحاب الأيكة وقوم تبع ، وما استحقوا من وعيد ومحاسبة ، ونهايتها تقريع الانسان على أعماله ، وأنه مسئول عن دخائل نفسه ، فى مجالس أنسه ، وعند إخوته ، وفى خلوته وأنه محوط بالكرام الكاتبين ، يحصون أعماله ، ويرقبون أقواله ، حتى إذا جاءت سكرته ، وحانت منيته حوسب على قول كل كلمة ، وحوسب على كل عمل عمله ، وشهدت عليه الشهود ، وكشف له الغطاء ، ووقع الخصام ، واضطرب النظام ، وتعادى المحبون ، وافترق المجتمعون وغضب الرب غضبته ، فملأ جهنم بأهلها ورحم أعظم الرحمات بملء الجنة بذوى الإيمان والصلاح ، ذلك لأنه لا يجعل المتقين كالفجار ، ولا المؤمنين كالكفار ، ولو استوى الخبيث والطيب لكان خلق هذه العوالم باطلا ، ولكان نظامه حائلا ، ولكن النظام معلوم ، ودوامه مصون .

وجه الرحمة هنا

وإنما منى الإنسان بهذه الوقائع، واتصف بتلك المناقب والمثالب لأنه لايتسنى له الارتقاء إلى الملأ الأعلى إلا بمعاناة الضدين، ومقاساة الأمرين، حتى إذا جاءت سكرة الموت كانت سكرة الطرب، لاسكرة الجزع والهلع، فبينما هو ينظر فى السماء كيف بنيت، وفى الأرض كيف زينت، وفى الزرع كيف ابتهجت، إذا به ارتفع إلى عالم أجمل، وبهاء أكمل، ومقام أرفع، فمعاناة الضدين، ومقاساة الأمرين، سلالم يصعد الإنسان عليها إلى العلا، وصفت سكرة الموت المكروهة ليحترس منها، ويجعل حياته حياة صحو وعلم وعمل ليفارقها وهو مسرور، لايختبط وهو مجبور. وإلى هنا تم الكلام على المقام الأول فى تفسير البسملة. كتب ليلة الأحد ١٥ نوفمبر سنة ١٩٣١ م.

المقام الثانى فى معنى : قٓ

قدتقدم الكلام فى (آل عمران) وفى غيرها من السور كالعنكبوت والروم ويسٓ وصٓ وما بينها، ووضح فيها بعض الحكم والعجائب التى تضمنتها هذه الحروف التى فى أوائل السور، ولكن البحث هنا يكون خاصا بالحرف «ق» الذى فى أول هذه السورة. واعلم أن هذا يحتاج لمقال يتقدمه فأقول :

اعلم أن الله علم قبل أن ينزل القرآن أن أمة الإسلام ستجمع الأحمر والأبيض والأسود، وأنه سيأتى عليها زمان يتناكرون وهم مسلمون، ويتعدون وهم موحدون، ويجهلون وهم مؤمنون، ويذلون وهم متفرقون.

علم الله أننا سنكون على هذه الحال فأنزل لنا من أعاجيب القرآن هاتين العجيبتين : الحجرات وقٓ، هاتان سورتان تضمنتا مابه معرفة الأنفس، وما به معرفة الآفاق، أما مابه معرفة الأنفس، أى أخلاقها وتهذيبها فهو مامر فى (سورة الحجرات) وأما مابه معرفة الآفاق فهو علم السموات والأرض والبحث فى عجائبهما وبدائعهما، وحكمهما وغرائبهما، فيصبح المسلم مهذب النفس، عارفا بما يحيط به من العوالم :

علم الله أن المسلمين ستمر عليهم أجيال وقرون وهم لايعرفون من القرآن إلا الأحكام الشرعية، يعيشون ويموتون وهم لايعقلون إلا هو، وما هو إلا علم القضاء وبعض العبادات الظاهرة.

علم الله أن العالم بالأحكام الشرعية الذى يقبل المسلمون يده يواظب على شروط الصلاة، ويواظب على طهارة ثوبه، ونظافة مكانه، والاتجاه للقبلة فى الصلاة، وفى الوقت نفسه يطلق للسانه العنان، ويغتاب الإخوان، مستحلا ذلك لايبالى.

علم الله أننا نحن الآن سنترك أحكام الأنفس فنجهلها ولا نعرف كيف نطهرها، ولا كيف نحسن أخلاقها ولا كيف نصقلها بالمعارف الحقة، والعلوم المكتسبة، التى تحيط بنا فى الآفاق من نبات وحيوان، وهواء، وماء، وكهرباء وبخار، ومغناطيس، ونجوم وسماء، وأنوار، فأنزل سورة قٓ ناظما تلك المباحث فى عقدها لنتحلى بها بعد التخلى من الرذائل.

علم الله أن المسلمين سينامون جاهلين كسلا وغفلة آمادا وآمادا، ويتبع الآخرون الأولين، ولا ينظرون إلى القرآن إلا نظرة البركة، لانظرة الحكمة والموعظة، ويقولون : قد نظر فيه الأئمة فاستخرجوا لنا علم الفقه، وهو كل شئ، وما القرآن إلا بركة، وإذا ذكر آية فى الاستدلال فإنما نتبع من قبلنا، ومالم يذكر فى الفقه من الآيات فلا نظر لنا فيه إلا نظرا سطحيا تارة، وتبركا تارة أخرى.

علم الله قبل أن ينزل القرآن أنا سنجهل كيف نتعارف ، وأن أبناء العرب الذين تقاربت ديارهم ، واتحدت لغتهم وجنسهم ودينهم يجهل بعضهم بعضا ، فلا يتحدون بلغتهم ولا بدينهم ولا بجنسهم ولا بوطنهم الذي جمعهم وهم متجاورون فيه .

علم الله ذلك ، وعلم أن أمم أوروبا تتحد وجهة كل منها ، وأن الولايات المتحدة فى أمريكا التى هى أمة جامعة لقوم من شتات الأمم لما علموا وعقلوا اتحدوا وطنا ولغة بالتعلم وإن اختلفوا أجناسا وديانات ، فأما أمم الإسلام فلا اتحاد بينهم لأنهم لم يتعلموا ولم يدرس أبناء العرب تاريخ أسلافهم ، ولا منشأهم ، ولا أحوالهم الاجتماعية دراسة تشوقهم إلى أصلهم القديم فيرجعوا مجدهم كما كان ويتحدوا ، وليس معنى هذا أنهم يكونون عذابا على الناس . كلا . بل ينظرون إلى أمم الترك الذين اتحدوا معهم فى الدين وفى الجوار ، وهكذا الفرس وأنهم أمم شرقية ويتحدون معهم ، وهكذا يتحدون مع جميع الأمم الإسلامية ، ويكونون عونا مع جميع الأمم ليعيشوا بسلام .

علم الله قبل أن ينزل القرآن أنا سنكون هكذا فى هذا الزمان خاملين نائمين، فلا علوم ولا تهذيب ولا حكمة فنكون متفرقين ، وتدوسنا الفرنجة ، ونحن أذلاء بين أيديهم ، كل هذا بجهلنا وعلم الأمم ، فعلمهم هو الذى سلطهم ، وجهلنا هو الذى أذلنا ، فانظر ماذا قال الله لنتلافى هذا العيب . قال «لتعارفوا» فى سورة الحجرات فالتعارف لن يكون إلا بعلم ، فان لم يكن علم ودرس فلا تعارف إن التعارف لن يكون إلا بعلم ، فإذا لم تعلم أن زيدا أبوك لم تكرمه ، وإذا لم تعلم أن خالدا من أقاربك لم تحافظ عليه ، وإذا لم يعلم المسلمون علم تاريخهم ولغتهم ، ومنشأ دولتهم ، وجغرافية بلادهم ، وظلم أوروبا لهم ، وموازنة هذا بما كان عليه آباؤهم .

إذا لم يفعلوا ذلك وغيره كدراسة الأرض التى يسكنونها ، ومعرفة خباياها فى مصر واليمن وغيرها ، ويعرفوا معادنها وحاصلاتها وخيراتها وما أشبه ذلك ، إذا لم يعرفوا ذلك فكيف يتعارفون ؟ إنهم إذا رأوا ذلا جامعا ، ولغة متحدة ، وأمما جامحة لإذلالهم ، وأرضا ذات خيرات يطمع العدو فى الانتفاع بها ، هناك تكون الحمية ، حمية الإسلام والمحافظة على الأوطان ، ومجاراة الزمان ، وحفظ الإخوان ، وإذا لم يعرف العرب أمم الترك ، ولا الترك أمم العرب ، ولم يدرسوا الثمرة التى تنتج من اتحادهم فكيف يتحدون؟ وإذا لم يدرس هذان الشعبان أحوال الأمم الإسلامية فكيف يتحدون معها ؟ وإذا لم يدرس هؤلاء المسلمون جميعا نظام الأمم فى الأرض كلها ولم يعرفوا أحوالها فكيف يتحدون معها على رقى الإنسانية ؟

كل هذه المعانى داخلة فى قوله تعالى : «لتعارفوا» ، بغير هذا لا يكون تعارف ، وبغير هذا لا يكون اتحاد ، وبغير هذا لا يكون سلام فى الأرض ، وبغير هذا لا يكون تمام قوله تعالى : « ليظهره على الدين كله » وبغير هذا لا يتم تماما واضحا قوله تعالى : « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » .

نحن إذن خلفاؤه ﷺ فلنكن رحمة للعالمين ، ولنقم بالأمر بعد أن نتعلم ونتربى . فلا تسبقنا أمم الممالك المتحدة فى التعليم ، والتهذيب ، والرقى ، ونظام المدارس ، ونظام السجون التى جعلوها للتهذيب لا للتعذيب .

وأقول أيضا : علم الله أن هذا الداء سيحيط بالمسلمين ويشملهم جميعا ، فأى دواء أعده له ؟ الدواء « ق » ولعلك تقول : وهل هذه المعانى كلها فى « ق » ؟ وهل كلمة « ق » تفيدنا أن المسلمين يقتصرون على علم الفقه ويجهلون فى الغالب آداب النفوس ، ويشتت شملهم ، ويسبقهم غيرهم وهكذا ، ثم يصف بها الدواء ؟ أقول لك نعم : فاعلم أن ق أول حرف فى القرآن المذكور فى آخر سورة ق قال تعالى : « فذكر بالقرآن من يخاف وعيد » ، كأن الله تعالى يقول : إذا نزلت بكم أيها المسلمون صاعقة التفريق ، وأصبح

كل منكم كالغريق ، وتخبطتم فى دياجير الظلام ، وكنتم عبرة الأمم ؛ وسلوة الزمن ، وأنتم فرق متشاكسون وأفذاذ متفرقون ، ونبذتم فهم القرآن ، فلأذكركم بالقرآن ، فارجعوا إليه ولا تسمعوا كلام بعض قدامى الفقهاء الذين ادعوا أن الدين ماعرفوه ، وماسواه فلا حاجة إليه ، كذلك لاتصغوا لقول العباد ، ولا لقول الصوفية ، ولا لأقوال الأغنياء ، فإن كلا منهم يعيب الآخرين ظنا منه أنه هو المخصوص بالكرامة ، وماعداه فهو فى جهالة ، لاتسمعوا لهؤلاء جميعا ؛ وادرسوا القرآن ، فقد جربتم صغار الصوفية ، وجربتم صغار الفقهاء ، وجربتم الأغنياء [1] وجربتم العباد (بتشديد الباء) والصالحين ، فقد استبد كل فريق بناحيته ، واستقل بأمره ، وجهل ماعند سواه ، فتفرقت الأمم الإسلامية شذرمذر ، وأحاطت بهم الأمم من كل جانب ، وأذاقوهم عذاب الخزى فى الحياة الدنيا « فذكر بالقرآن من يخاف وعيد » ، والوعيد قسمان : قسم يختص بهلاك الأمم فى الحياة الدنيا ، وقسم يختص بعذاب يوم القيامة وكلاهما فى القرآن فلتقرءوه وعلى مقتضاه تدرسون جميع الكائنات .

هذه المعانى كلها مخبوءة فى كلة « ق » التى جاءت بين السورتين المختومتين بقوله « فذكر بالقرآن من يخاف وعيد » المشتملتين على مايصلح النفوس وعلى معرفة الآفاق ، وهذان الصنفان من العلوم داخلان تحت قوله تعالى « لتعارفوا » كما أوضحناه .

ألا تعجب معى بعد هذا أن يقول بعض علماء التفسير : إن (ق) اسم من أسماء القرآن ، وهذا هو المعنى الذى أوضحناه لك الآن . انتهى تفسير كلمة «ق» والحمد لله رب العالمين .

المقام الثالث فى تفسير الآيات

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(قٓ . والقرآن المجيد) أى الشريف الكريم على الله ، الكثير الخير والبركة ، وجواب القسم لتبعثن (بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم) إنكار لتعجبهم مما ليس بعجب وهو أن ينذرهم بالخوف رجل منهم قد عرفوا عدالته وأمانته ، ومثله لايكون إلا ناصحا لقومه ، خائفا عليهم من وقوع مكروه ، ومتى أظلهم مكروه وعلمه لزمه أن ينذرهم (فقال الكافرون هذا شىء عجيب) حكاية لتعجبهم ! يتعجبون من اصطفاء محمد صلى الله عليه وسلم للرسالة (أئذا متنا وكنا ترابا) أى أنرجع إذا متنا وصرنا ترابا (ذلك رجع بعيد) أى بعيد عن الوهم والعادة والإمكان ، قال تعالى (قد علمنا ما تنقص الأرض منهم) أى ماتأكل من أجسادهم بعد موتهم ، إنهم لما استبعدوا البعث رد الله عليهم بأن من لطف علمه حتى علم ماتنقص الأرض من أجساد الموتى وتأكله من لحومهم وعظامهم كان قادرا على رجعهم أحياء كما كانوا (وعندنا كتاب حفيظ) محفوظ من الشياطين ، ومن التغيير ، وهو اللوح المحفوظ ، وهو حافظ لما كتب فيه ؛ ثم إنهم جاءوا بما هو أفظع مما قبله ، فاستحق الإضراب عنه ، فلذلك قال (بل كذبوا بالحق) أى النبوة الثابتة بالمعجزات من أول وهلة بغير تفكر (لما جاءهم فهم فى أمر مريج) مضطرب ، يقال مرج الخاتم فى الأصبع إذا اضطرب من سعته ، فيقولون تارة شاعر ومرة كاهن ، ومرة ساحر ، لايثبتون على رأى (أفلم ينظروا) حين كفروا بالله وبالبعث (إلى السماء فوقهم) إلى آثار قدرة الله تعالى فى خلق العالم (كيف بنيناها) رفعناها بلا عمد (وزيناها) بالكواكب (ومالها من فروج) فتوق بأن خلقناها ملساء متلاصقة الطباق ، وهذا

---

(١) هذه أقسام المغرورين المذكورة فى سورة [آل عمران] عند آية : « وغرهم فى دينهم ما كانوا يفترون » ملخصا من الإحياء للغزالى اهـ . المؤلف

هو الرأى الحديث فى عالم السموات، بل الرأى الحديث معجزة للقرآن، وبيانه أن العلماء فى عصرنا الحاضر يقولون : إن هنا عالما لطيفا أرق من الهواء ، وألطف من كل ما نراه ؛ هو مبدأ كل شيء ، وأول كل شيء هو العالم المسمى بالأثير ، وهذا العالم لم يره الناس وإنما عرفوه من وصول أضواء الكواكب إلينا ، فان من الكواكب مالا يصل ضوؤه إلينا إلا فيما يزيد على ألف ألف سنة نورية. ومعلوم أن نور الشمس (التى تبعد عنا مقدار سير القطار إليها لو أمكن نحو ثلثمائة وخمس وستين سنة) يصل إلينا فى مدة ثمان دقائق و ١٨ ثانية ، فانظر كيف يكون بعد تلك الكواكب التى تحتاج بسير النور إلى مليون سنة ونصف مليون سنة ؛ وانظر كيف يدل هذا على أن ذلك الضوء محمول على شيء موجود ، والشيء الموجود هو الأثير ، فلو أن طبقة من الطبقات لم يكن فيها الأثير لانقطع سير النور إلى الأرض ولم نره .

هذا هو السر فى قوله تعالى : « ومالها من فروج » فلو كان هناك فروج تتخلل السموات لانقطع سير النور إلينا ، ومعلوم أن آراء الجهلة فى كل أمة أن كل سماء منفصلة عن الأخرى ، وبينهما فضاء كما يظن لأول وهلة فيما بيننا وبين السماء الدنيا ، فجاء القرآن على عكس ذلك تماما وقال لافروج فى السماء ، وبعبارة أخرى لاخلاء فى العالم .

رأى القدماء

هكذا كان رأى بعض القدماء فى [إخوان الصفاء] إذ قالوا (إن النور والظلمة إما أن يكونا جوهرين أو عرضين . فإن كانا جوهرين فليس فى العالم خلاء لأنه لا يخلو من نور وظلمة ، وإن كانا عرضين فالعرض لابد له من جوهر يقوم به ، وإن كان أحدهما عرضا والآخر جوهرا فهو معلوم من سابقيه) فإذن العالم لاخلاء فيه كما ذكرناه فى [سورة البقرة] فانظر كيف كان نظر الحكماء قديما وحديثا هو عين ما جاء فى هذه الآية « ومالها من فروج » (والأرض مددناها) بسطناها (وألقينا فيها رواسى) جبالا ثوابت (وأنبتنا فيها من كل زوج) من كل صنف (بهيج) حسن (تبصرة وذكرى لكل عبد منيب) راجع إلى ربه ، متفكر فى عجائب صنعه ، يقول الله : بنينا السماء وزيناها ، ومددنا الأرض ، وألقينا فيها رواسى ، وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج ، كل ذلك فعلناه لأجل تبصرة العبد المنيب وذكراه ، وهذا من حيث المعنى وإن كانا فى الإعراب منتصبين بالفعل الأخير ، فإن رفعت السماء فلذكراه ، وإن زينتها بالكواكب والنور فليتبصر بما يراه ، وإن بسطت الأرض وأرسيتها بالجبال فكذلك ، وإن أنبت النبات زينة للأرض ، فليعتبر وبذكر بمرآه (ونزلنا من السماء ماء مباركا) كثير المنافع (فأنبتنا به جنات) أشجارا وثمارا (وحب الحصيد) وحب الزرع الذى من شأنه أن يحصد كالحنطة والشعير والأرز والعدس وغيرها (والنخل باسقات) طوالا أو حوامل ، يقال : أبسقت الشاة إذا حملت (لها طلع نضيد) الطلع كل مايطلع من ثمر النخل، والنضيد المنضود بعضه على بعض لكثرة الطلع وتراكمه ، أو لكثرة ما فيه من الثمر (رزقا للعباد) أى أنبتناها رزقا للعباد كما جعلناها تبصرة وذكرى للمنيب منهم ، فالتبصرة للمفكرين والرزق لجميع الأحياء من الآدميين ، فهى مأكل الآكلين من نوع الإنسان « كلا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وماكان عطاء ربك محظورا» فنحن نطعم عبادنا ونرزقهم ولكنا لانجعل هذه البساتين والأشجار والثمار درسا معروفا، وعلما مقروءا، إلا للممتازين من نوع الإنسان ، فالخواص للنبات دارسون ، والعامة والخاصة منها آكلون ، ولما كانت دراسة النباتات والاستفادة من علومهما لم يظهر له مثال أعقبه بذكر مثال يبين كيف يدرس فقال (وأحيينا به) بذلك الماء (بلدة ميتا) أرضا جدبة لانماء فيها (كذلك الخروج) أى كما حييت هذه البلدة يكون خروجكم أحياء بعد

موتكم

موتكم ، فالناس يتغذون وينمون ، ويتزوجون ويلدون ، ويحيون ويموتون ، وهذه الأحوال كلها في النبات فهو له حياة وغذاء ونمو وتوالد فموت ، ثم تيبس الأرض ، ثم تحيا بالنبات ، فليقس عليه حال الإنسان فإنه بعد موته يحيا ، وهذا برهان إقناعي ، ونظيره في كلام سقراط ، يقول : [إن الإنسان يحيا بعد الموت لأن كل ضد يتولد عنه ضده ، فالصحة بعد المرض ، والعز بعد الذل ، وهكذا مما لانهاية له ، فلتكن الحياة من الموت] فانظر كيف أتى الله بهذا القياس التمثيلي الذي يجعل للنفس ائتناسا بالموضوع وفهما فيه من النبات ليفتح للعقول مجال التبصرة بعثات من المسائل العلمية ، فتفكر فيما قدمته في (سورة الشعراء) وغيرها من أنواع النبات الكثيرة التي تفرعت كلها من أصل واحد ، وكان تنوعها كلها ظاهرا في زهراتها ، فالزهرة تنوعت أنواعا كثيرة لكل صنف من النبات شكل في الزهرة خاص ، فإذا قرأت ذلك دخلت في بحر لاساحل له من العلم والحكمة . وعرفت سر البدائع الإلهية ، وهناك ثم هناك تفهم قوله تعالى « تبصرة وذكرى لكل عبد منيب » وهكذا مواضع أخرى من هذا التفسير ، ثم قال تعالى (كذبت قبلهم قوم نوح وأصحاب الرس وثمود وعاد وفرعون) أي فرعون وقومه (وإخوان لوط وأصحاب الأيكة وقوم تبع كل كذب الرسل) كل واحد أو قوم منهم الخ (فحق وعيد) فوجب وحل عليه وعيدي فلتستعد يا محمد ولتستعدوا لنزول العذاب يا أهل مكة ، وانظر أيها الذكي كيف كان ترتيب سور القرآن ، إن قوم نوح وأصحاب الرس وثمود وعادا وفرعون قد تقدموا في السور السابقة ، فانظر كيف ذكروا في هذه السور بطريق إجمالي ، فهناك ذكرت القصص والتاريخ وهنا ليكون الاعتبار .

يقول الله : ها أنتم أولاء قرأتم قصص السابقين ، وأخبار الأولين في السور المتقدمة ، فلأذكركم بأحوالهم فقد كذبوا فهلكوا .

يقول الله : أذكركم بالسماء ، وبالأرض والجبال والماء والنبات ، أذكركم بهذا كله ، وأذكركم بالأمم الخالية ، والأجيال البائدة ، كيف هلكوا وهم مكذبون ، وكيف نصرنا الأنبياء ، فليكن هكذا محمد وكل مصلح من أمته ، فهم منصورون وبضدها تتميز الأشياء .

يقول مؤلف هذا التفسير : إن ظني بالله جميل أن يجعل هذا التفسير نافعا للأمة الإسلامية ، وأن يكون مساعدا على الانقلاب الفكري في العالم الإسلامي حتى يصبح المسلمون أمة حكمة وعلم « ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز » .

﴿ تذكرة ﴾ هذه الجملة كتبتها حين تأليف الكتاب ، وهو الآن يطبع الطبعة الأولى ، ولقد صدق ظني وأجيبت جميع مطالبي ، وإني أحمد الله فلقد تقدم في المجلد السابق في سورة الفتح أن الفكرة قد عمت مسلمي بلاد الصين والتركستان الصينية فضلا عن سائر بلاد الإسلام .

ثم قال تعالى (أفعيينا بالخلق الأول) أي أفعجزنا عن الإبداء حتى نعجز عن الإعادة ، يقال عيي بالأمر إذا لم يهتد لوجه عمله ، والهمزة للانكار (بل هم في لبس من خلق جديد) يقول تعالى : هم لاينكرون قدرتنا على الخلق الأول ، بل هم في خلط وشبهة ، قد لبس عليهم الشيطان وحيرهم ، وذلك تسويله إليهم أن إحياء الموتى أمر خارج عن العادة . انتهى البحث الأول من السورة .

المبحث الثاني

في الكلام على الموت وسكرته ، وعلى الملائكة المراقبين حركات الإنسان وسكناته ، وفي أحوال يوم القيامة .

قال الله تعالى (ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ماتوسوس به نفسه) ماتحدثه به نفسه ، وهو مايخطر بالبال

والوسوسة الصوت الخفي ، ومنه وسواس الحلى (ونحن أقرب إليه من حبل الوريد) أى ونحن أعلم بحاله ممن كان أقرب إليه من حبل الوريد ، أهذا مثل فى فرط القرب ، والوريد عرق فى باطن العنق ، والحبل العرق أى حبل هو الوريد ، فأجزاء الإنسان وأبعاضه يحجب بعضها بعضا ، ولا يحجب عن علم الله شىء فهو بيان لكمال علم الله تعالى بالإنسان ، أو يقال بالاختصار نحن أعلم به منه فيكون تجوزا بقرب الذات لقرب العلم ، وقوله (إذ يتلقى المتلقيان) ظرف لقوله أقرب إليه ، يقول الله : نحن أعلم بحاله من كل قريب حين يتلقى ، أو يتلقن الحفيظان مايتلفظ به مع أننا أغنياء عن استحفاظ الملكين لشدة قربنا منه ، لكن هكذا كان نظامنا لالزام الحجة ، وقوله (عن اليمين وعن الشمال قعيد) أى عن اليمين قعيد وعن الشمال قعيد ، أى مقاعد كجليس ، وقد حذف الأول لدلالة الثانى عليه كقوله :

ومن يك أمسى بالمدينة رحله فإنى وقيارها لغريب

وكقول الآخر :

رمانى بأمر كنت منه ووالدى بريئا ومن أجل الطوى رمانى

أى كنت منه بريئا وكان والدى منه بريئا ، وقد يطلق الفعيل للواحد والمتعدد كقوله تعالى « والملائكة بعد ذلك ظهير » (مايلفظ من قول) مايرمى به من فيه (إلا لديه رقيب) ملك يرقب أعماله (عتيد) حاضر معه فيكتب مافيه ثواب أو عقاب ، وكل شىء حتى أنينه فى مرضه ، وفى الحديث : « كاتب الحسنات أمير على كاتب السيئات ، فإذا عمل حسنة كتبها ملك اليمين عشرا ، وإذا عمل سيئة قال صاحب اليمين لصاحب الشمال دعه سبع ساعات لعله يسبح أو يستغفر » .

واعلم أن هذا الحديث هو الموافق لنظام هذا العالم ، ألا ترى رعاك الله أن الله لم يخلق الناس لتعذيبهم ، وإنما خلقهم لتهذيبهم وتربيتهم ، وليس معنى التربية أن تكون كلها تعذيبا ، فكل ألم فهو لرقى النفس ، فإذا كان كاتب الحسنات أميرا على كاتب السيئات ، فلأن العالم المادى الموجود من طبعه أن يكون نفعه أكثر من ضره ، وعلى هذا الناموس يكون خلقنا لغاية شريفة نافعة لنا ، والحسنات أصل والسيئات عارضة كما أن النافع فى الطبيعة أصل والضار عارضة ، النار خلقت لمنفعة ، والماء لمنفعة ، والهواء لمنفعة ، فإذا أحرق ثوب الناسك ، وأغرق رب صبية لاعائل لهم ، وأصاب البرد عالما فانتهى بموته ، فهذا كله عارض ، والأصل فى هذه كلها المنافع ، هكذا نوع الإنسان خلق للخير ولكن الشر عارض ، وللحسنات لكن السيئات عارضة ، فقول النبوة من منبع النظام الأصلى العام ، ثم إن الله لماذكر استبعادهم البعث للجزاء ، وأزاح ذلك بتحقيق قدرته وعلمه أعلمهم بأنهم يلاقون ذلك قريبا عند الموت وعند قيام الساعة ، ولذلك عبر بالماضى تنبيها على اقتراب ذلك فقال (وجاءت سكرة الموت بالحق) أى شدته الذاهبة بالعقل ملتبسة بالحق : أى بحقيقة الأمر أو بالحكمة (ذلك) الموت أيها الانسان (ما كنت منه تحيد) وتهرب (ونفخ فى الصور) نفخة البعث (ذلك يوم الوعيد) أى ذلك اليوم الذى وعد الله الكفار أن يعذبهم فيه (وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد) كاتب السيئات سائق ، وكاتب الحسنات شهيد ، ويقال له (لقد كنت فى غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك) أى الغطاء الحاجب لأمور المعاد كالغفلة والانهماك فى المحسوسات ، والإلف بها ، وقصور النظر عليها (فبصرك اليوم حديد) نافذ لزوال المانع للإبصار ، فكأن الغفلة غطاء غطى بها جسده كله ، أو غشاوة غطى بها عينيه فلا يبصر شيئا ، فإذا كان يوم القيامة تيقظ وزالت عنه الغفلة وغطاؤها فيبصر مالم يبصره من الحق ، ويكون مبدأ ذلك عقب الموت (وقال قرينه) وقال الملك الموكل به (هذا مالدى عتيد) أى معد محضر : أى يقول الملك : هذا الذى وكلتنى به من بنى آدم قد أحضرته وأحضرت ديوان عمله ، فلما قال قرينه ذلك ، قال الله

للسائق والشهيد (ألقيا فى جهنم كل كفار عنيد) معاند للحق (مناع للخير) كثير المنع للمال عن الحقوق المفروضة ، وللاسلام أن يذاع وينتشر كالوليد بن المغيرة لما منع بني أخيه عنه (معتد) متعد (مريب) شاك فى الله وفى دينه (الذى جعل مع الله إلها آخر) بدل من كل كفار ، وقوله (فألقياه) تكرير للتأكيد (فى العذاب الشديد) فقال الكافر : يارب إن قرينى من الشياطين أطغانى (قال قرينه) أى الشيطان المقيض له (ربنا ما أطغيته ولكن كان فى ضلال بعيد) عن الحق لأنه هكذا استعداده ، وهكذا كان ديدنه وطبعه فسار على النهج الذى يناسب أخلاقه : أى فى ضلال بعيد طويل لايرجع عنه إلى الحق: وهذا كقوله تعالى: « وما كان لى عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لى » (قال) الله تعالى (لا تختصموا لدى) فى موقف الحساب إذ لافائدة فيه (وقد قدمت إليكم بالوعيد) وقد أوعدتكم بعذابى على الطغيان فى كتبى وعلى ألسنة رسلى فما تركت لكم حجة ، وقدمت بمعنى تقدمت فعدى بالباء (ما يبدل القول لدى) أى بوقوع الخلف فيه فلا تطمعوا أن أبدل قولى ووعيدى بادخال الكفار النار (وما أنا بظلام للعبيد) فلا أعذب عبدا بغير ذنب جناه ، وظلام إما بمعنى ذى ظلم ، وإما للمبالغة، يقول الله :واذكر (يوم نقول لجهنم هل امتلأت وتقول هل من مزيد) مزيد مصدر كالمجيد أى هل من زيادة ، وهذا السؤال والجواب جىء بهما للتخييل والتصوير ،والمعنى أنها مع شدة زفيرها وحدتها لاتزال فى شغب بدخول العصاة فيها ، فهى كالنهم الذى لايشبع ، فكما أن الجنة لا نهاية لمداها ، هكذا النار لانهاية لمداها ، ويقول ابن عباس رضى الله عنهما ، سبقت كلمته «لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين» فلما سيق أعداء الله إليها صارت لايلقى فيها فوج إلاذهب فيها ولايملؤها شىء فتقول : ألست قد أقسمت لتملأنى ؟ فيضع قدمه عليها فيقول هل امتلأت؟ فتقول قط قط امتلأت وليس من مزيد . وروى البخارى ومسلم عن أنس بن مالك رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لاتزال جهنم يلقى فيها وتقول هل من مزيد حتى يضع رب العرش (وفى رواية) رب العزة فيها قدمه فيزوى بعضها إلى بعض وتقول قط قط بعزتك ولا يزال فى الجنة فضل حتى ينشىء الله لها خلقا فيسكنهم فضول الجنة» ولأبى هريرة نحوه ، وزاد : « ولا يظلم الله من خلقه أحدا » .

واعلم أن هذا القول يرجع إلى النظام العام ، وهو أن الله تعالى خلق العالم للخير لا للشر ، وأن الشر عرض والخير أصل ، فإذا سمعت أن الرب أسكت النار وقالت قط قط ، وأنه خلق للجنة قوما يسكنون فى فضولها فذلك هو الذى يفهم من أعماله فى هذه الحياة ، فإن الحياة طافحة بالخير فى هذا العالم مع نقصه ، فتراه لايدع حالا من الأحوال إلا أدخل فيها الحياة ، فالنبات يعيش فى الشمس ، وخلق للظل نباتا يعيش فيه ، ولم يذر البحر ولا البر من حيوان ولا نبات ، فلا ملوحة البحر ، ولا برودة الثلج ، ولاحرارة القيظ، ولا غور البحر بمانعات من الحياة ، ومعنى هذا أن الرحمة فائضة ، وهذا دلالة على أن جنته التى هى الرحمة الكبرى أوسع من جهنم التى هى دار العذاب ، ومثل هذه الأحاديث لا يدرك سرها ولا القصد منها إلا بدراسة علوم الحكمة ، وفهم نظام العالم ، وحكمه المدهشة ، وإذ ذاك يدرك الناس ماذا يقصد النبى صلى الله عليه وسلم بمثل هذه الأحاديث ، فأما تفسير الألفاظ فهو سهل متى عرفنا أن هذا تمثيل وهو ظاهر فى علم المعانى ولا حاجة إلى التطويل (وأزلفت الجنة) قربت وأدنيت (للمتقين) الذين اتقوا الشرك حال كونها شيئا(غير بعيد) ويقال لهم (هذا ماتوعدون) هذا الذى وعدتم به فى الدنيا على ألسنة الأنبياء ،وقوله (لكل أواب) رجاع عن المعصية إلى الطاعة بدل من المتقين باعادة الجار ، وقوله (حفيظ) أى حافظ لحدوده (من خشى الرحمن بالغيب) أى خاف الرحمن فأطاعه وإن لم يره ، وفى الخلوة بحيث لا يراه أحد (وجاء بقلب منيب) مخلص مقبل على طاعة الله يقال لهم (ادخلوها بسلام) سالمين من العذاب وزوال النعم ، أو مسلما عليكم من

الله والملائكة (ذلك يوم الخلود) فى الجنة إذ لا موت فيها ، والخلود هنا مقدر كقوله تعالى «ادخلوها خالدين» ثم إن الناس يسألون الله مايشتهون فى الجنة فيعطون ما يسألون ، ثم يزيد الله عباده فوق ما سألوا ، وذلك قوله تعالى (لهم مايشاءون فيها ولدينا مزيد) مما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، ومن أجلها النظر إلى وجه الله الكريم ، إذ يتجلى لهم الرب فى كل جمعة فى دار كرامته ، فهذا من المزيد . (وكم أهلكنا قبلهم) قبل قومك (من قرن هم أشد منهم بطشا) قوة كعاد وثمود وقوم تبع (فنقبوا فى البلاد) التنقيب التنقير عن الأمر والبحث والطلب ، فهم ساروا وتقلبوا فى البلاد ، وسلكوا كل طريق وتصرفوا فيها ، وجالوا فى الأرض كل مجال حذر الموت (هل من محيص) أى هل لهم محيص من الله : أى فلم يجدوا لهم مهربا من أمر الله ، ولا مفر من الموت الذى يعقبه عذاب الله ، فهكذا أهل مكة ، لأن ما جاز على أحد المثلين جاز على الآخر ، فهم أيضا تصرفوا ونقبوا فى البلاد ، فلا مهرب لهم من عذاب الله إما بإنزال العذاب عليهم كعاد وثمود ، وإما أن يموتوا فيدخلوا النار .

ولما كان ماتقدم فى هذه السورة وما قبلها من أبدع الحكم والعلوم ، وهما مع اختصارهما قد جمعا تفصيلا آداب الأمم مع النبى ﷺ ومع أنفسهم ، وكيف يكون السلام بين الناس وكيف يكون الصلح ، وكيف يصان اللسان ، وكيف يتعارفون ويتعلمون وينظرون فى خلق السموات والأرض ، وفى العجائب للدهشة ، بحيث أن هاتين السورتين اللتين فصل بينهما بلفظ (ق) الذى شرحناه لك قريبا يكفيان لرقى الأمة الإسلامية وإسعادها متى رجعوا إليهما ، فيذهب التقاطع ، ويتعلم الجهال ، ويجتمع الشمل ، وينتظم الجمع ، ويخيم الأمن فى ربوع الأمم الإسلامية ، لذلك قال الله تعالى (إن فى ذلك) الذى تقدم فى السورتين لأن الأولى للتخلية والثانية للتحلية (لذكرى) لتذكرة (لمن كان له قلب) أى قلب واع يتفكر فى حقائق الأشياء المذكورة فيه (أو ألقى السمع) أى أصغى لاستماعه (وهو شهيد) حاضر بذهنه ليفهم معانيه ، ليس بساه ولا غافل ، وفى تنكير القلب إشعار بأن كل قلب لايتفكر ولا يتدبر كلاقلب ، ثم أعقبه بما يجول فيه القلب ويتفكر فقال (ولقد خلقنا السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام ومامسنا من لغوب) إعياء ، وتعب فنحن قد ملأناها بالعجائب ولا نزال نزيدها كل حين لأنا لا يلحقنا التعب والإعياء ، فاقرءوا عجائبنا التى لانهاية لمداها ، ولتتجه قلوبكم إليها ولتلقوا فيما تسمعون من القول السمع وأنتم حاضرو الذهن فعجائبنا لاتتناهى ، ولتكذبوا اليهود الذين قالوا [إن الله خلق السموات والأرض فى ستة أيام أولها الأحد وآخرها الجمعة ، واستراح يوم السبت ، واستلقى على العرش ، فنحن لايعسنا لغوب ، وعجائبنا لاتقف عند حد] (فاصبر على مايقولون) على مايقوله المشركون من إنكارهم البعث فإنى خلقت العالم بلا إعياء ، فإذن أنا أقدر على بعثهم ثم أنتقم منهم (وسبح بحمد ربك) ونزهه عن العجز عن أى ممكن كان كالبعث حامدا له على ما أنعم عليك من إصابة الحق وغيرها من النعم الكثيرة التى لا تتناهى (قبل طلوع الشمس وقبل الغروب) أى وقت الفجر ووقت الظهر والعصر (ومن الليل فسبحه) أى وسبحه بعض الليل (وأدبار السجود) وأعقاب الصلاة ، ومعنى هذا أن يقول «سبحان الله والحمد لله» فى أحوال أربعة : وقت الفجر ، ووقت الظهر والعصر أو العصر فقط ، وفى الليل ، وعقب الصلوات ، فيكون التسبيح على ظاهره ، وقيل . إن التسبيح نفس الصلاة ، فيكون ، صلاة الفجر ، وصلاة الظهر والعصر ، وصلاة المغرب والعشاء ، أو التهجد ، والرابع النوافل بعد الصلوات ، وإنما سميت هذه الصلوات تسبيحا تسمية بالجزء منها ، وهو ما فى الركوع والسجود من التسبيح ، فالتسبيح على الأول خارج الصلاة والتسبيح فى الثانى صلاة وتسبيح داخل فيها ، ولا جرم أن الحمد مذكور فى الفاتحة والتسبيح فى الركوع والسجود ، ومعنى « أدبار السجود » وقت انقضاء السجود كقولهم [آتيك خفوق النجم] وفى حديث البخارى عن ابن عباس قال : أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يسبح

فى أدبار الصلوات كلها يعنى قوله « وأدبار السجود » . وفى حديث مسلم : تحديد التسبيح ٣٣ والحمد ٣٣ والتكبير ٣٣ وتمام المائة لا إله إلا الله وحده لاشريك له، له الملك وله الحمد يحيى ويميت وهو على كل شيء قدير، وذلك كله دبر كل صلاة .

وعلى هذا يكون التسبيح أعم منه ومن الصلاة ، فالآية تشمل القسمين ، فليصل المؤمن الصبح والظهر والعصر والمغرب والعشاء وليصل النوافل التى هى وقت أدبار السجود وليصل بالليل ، وليسبح بعد الصلوات كل ذلك داخل فى الآية ، فكله تسبيح بالحمد ، وبهذا جمع بين الأقوال كلها (واستمع) يامحمد لما أخبرك به من أهوال يوم القيامة ، وفى ذلك تهويل وتعظيم لشأن الخبر به ؛ وماهو ذلك الخبر؟ إنهم يخرجون من القبور (يوم يناد المناد) وهو إسرافيل ؛ أوجبرائيل ، فيقال : أيتها العظام البالية ، والأوصال المتقطعة ، واللحوم المتمزقة ، والشعور المتفرقة ، إن الله أمركن أن تجتمعن لفصل القضاء . يقول الله : يوم يناد المناد (من مكان قريب) بحيث يصل نداؤه إلى الكل على السواء ، ونظيره فى الدنيا أن الرزق والحياة والنور والنوم واليقظة ، كل هذه تأتى إلى أهل الأرض جميعا كأن مناديا يناديهم من قريب ، ويأمرهم بالنوم وبالحياة وبالاستيقاظ وبالأكل وبالشبع وما أشبه ذلك ، فهكذا يوم القيامة ، لأن الله مع كل نسمة خلقها ، فنداؤه قريب فى الدنيا وفى الآخرة ، وقوله (يوم يسمعون الصيحة) أى النفخة الثانية ، وهذا بدل من يوم ينادى المناد ، وقوله (بالحق) متعلق بالصيحة ، والمراد به البعث والجزاء ، (ذلك يوم الخروج) من القبور . قال الله تعالى تلخيصا لما تقدم كله من أول السورة إلى هذه الآية (إنا نحن نحيى ونميت) أى نحيى فى الدنيا ونميت عند انقضاء الأجل (وإلينا المصير) فى الآخرة (يوم تشقق الأرض عنهم سراعا) أى يوم تتصدع عنهم فتخرج الموتى من صدوعها حال كونهم مسرعين (ذلك حشر علينا يسير) هين ، وقوله يوم متعلق بقوله يسير وقدم للاختصاص (نحن أعلم بما يقولون) فيك وفينا ، وهذا تهديد لهم (وما أنت عليهم بجبار) بمسيطر أى ما أنت بمسلط عليهم ، إنما أنت داع وباعث ، أو ما أنت بوال عليهم تجبرهم على الإيمان (فذكر بالقرآن من يخاف وعيد) كقوله « إنما أنت منذر من يخشاها » إذ لاينفع التذكير إلا فيه . انتهى التفسير اللفظى .

فى هذه السورة ثلاث لطائف

الأولى فى عجائب السموات ، وهو قوله تعالى : «أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم» .

الثانية فى عجائب الأرض فى قوله تعالى «والأرض مددناها وألقينا فيها رواسى وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج ، تبصرة وذكرى لكل عبد منيب» .

الثالثة فى قوله تعالى : «إذ يتلقى المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد ، مايلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد» .

اللطيفة الأولى : عجائب السموات

لقد أطنبت فى هذا التفسير فى السموات وعجائبها وغرائبها وحكمها وبدائعها ونظمها فى البقرة وفى آل عمران ، وفى الأنعام ، وفى سور كثيرة فلترجع إليها .

اللطيفة الثانية: فى عجائب الأرض والنبات

لقد جاء فى سورة الأنعام والشعراء وغيرها بدائع النبات ورسم الزهرة ، وكيف كانت أنواع النبات التى تعد بالآلاف قد ظهر تنوعها فى الزهرة وتقسيمها ناجم منها ، وكذلك فى كثير من السور ولكن لابد من

أن آخذ بيدك الساعة ، وأطوف معك فى الحدائق والجنات ، ذلك لأن السور السالفة قريبا لم نكثر فيها من الكلام على العجائب النباتية ، فلتقم معى ، ولنطف حدائق الأرض ، ولننظر أفانين الزهر ، وأعاجيب الثمر وأصناف الشجر ، والطرف الشائقة ، والنعم الواردة من المقام الأقدس ، والهدايا والتحف والمزايا ، ولست أقف بك مع طائفة الجامدين الذين لايقصدون إلا لذات الجسم التى لها حد محدود ، ومقدار موقوت ، بل أريد أن تكون من الذين قال الله فيهم : «تبصرة وذكرى لكل عبد منيب» وأن ترتقى عن الطوائف التى قال فيها : «رزقا للعباد» فلتكن تلك رزقك ، وليكن علمها نورا لقلبك ، فجسمك يتغذى بأثمارها ، وروحك تحظى بحكمها ، إن الأشجار والمزارع كتاب كتبه الله بيده ، خطه فى الأرض ورسمه وهندسه وزوقه ، ورفع الأستار عن بعض القلوب ، وقال : ياعبادى انظروا جمالى الذى احتجب عنكم فهذه آثاره وعلى مقدار علمكم به يكون نظركم لوجهى يوم القيامة ، ألم أقل : «نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم بشراكم اليوم» ولا نور إلا ما كتسبه الفكر ، واقتبسه النظر من العوالم المشاهدة المسطورة ، والصورة المنمقة المشروحة ، الشارحة للصدور .

إن الدراسة تكون لأربعة أشياء : للكتب السماوية ، والمناظر الطبيعية ، وللكتب الحكمية ، التى اقتنصتها من العوالم العقول البشرية ، وللنفوس الإنسانية .

هذه هى الصحائف الأربعة التى يدرسها الإنسان ، فكتاب الطبيعة كتابى ، وكتاب نفوسكم كتابى ، وكتاب الدين كتابى ، وكتاب الفلسفة والحكمة إشراق من نورى على عبادى فهو كتابى ، وما كتب الفلاسفة ولا كتب الوحى والديانات إلا مرشدات لبحثكم العلمى فى العالم السماوى والأرضى ، وممهدات لكتاب النفس وكتاب الأفق ، وكل ماقرأتموه فى الطبيعة فإنه مخزون فى صحائف قلوبكم ويكون نورا مبينا .

إن من نظر فى العجائب النباتية ، وفكر فى الغرائب الحكمية ازدادت بصيرته هدى ، وعقله حكمة ، وازداد أجنحة يطير بها إلى الملا ، إن للملائكة أجنحة مثنى وثلاث ورباع يزيد فى الخلق مايشاء ، تلك أجنحة القدرة والعلم ، والعلم هو الأصل ، فليزدد الناس فكرا فى النبات وغيره تزدد عقولهم عددا كما ازداد الملائكة مددا ، إن النظر فى النبات ازدياد أجنحة للطيران إلى عالم الأفلاك فوق السماك .

حديقة فيها ٢١ نوعا من الشجر ، وأفانين ، العبر مختلفة الثمر

النخل ، والرمان ، والنبق ، والجوز ، واللوز ، والتين ، والعنب ، والأجاص ، والمشمش ، والخوخ ، والأترج ، والنارنج ، والليمون ، والحبة الخضراء ، والفستق ، والسماق ، والصنوبر والبلوط ، والعفص ، والسرو ، والاهليلج

(١) — التمر الذى هو ثمر النخل

طويل الشكل ، مدحرج الخلقة ، مختلف الألوان ، على نواه قشرة رقيقة ، حريرية ، لينة اللمس ، صلبة النسج ، وعلى هذه النواة شحمة ثخينة ، عليها قشرة صلبة ملساء ، وعلى ظهر النواة نقرة ، وفى الجانب المقابل نقرة مستطيلة فيها حشو ليفى ، وعلى رأس الثمرة من خارج قمعه ، عليهاشظيات متفرقةمتشبثة بالثمرة ومادة هذه الثمرة قبل النضج عفصة ، وبعد النضج حلوة لزجة ، فهذه خمسة عشر وصفا للثمرة .

(٢) — شجرة الرمان وثمرها

ثمر الرمان : شكله مستدير ، وخلقته كبيرة ، عليه قشرة كثيفة ليفية ثخينة ، مجوفة من داخل ، واسعة

فيها خزائن مقسومة ، فيها دعاص مقسمة ، عليها حبوب مرصعة ، أشكالها مخروطة ، فى جوف تلك الحبوب نواة خزفية ، رخوة ، فى داخلها لبة دسمة ، وفى خارج رأس الثمرة من خارج فتحة مستديرة ، فيها غشاوة ليفية ، وعليها شظيات نابتة زبيرية ، وحولها شرفات قائمة مخروطة .

(٣) — النبق وثمره

ثمر النبق : مستدير ، أملس ، شحمته ثخينة ، فى جوفه نواة مستديرة ، حسن اللون ، خشن الملمس ، فى داخل النواة لبة دسمة .

(٤) — الجوز

ثمر الجوز : أشكاله مستديرة ، سفطية ، عليها قشرة ليفية ثخينة ، فى داخلها قشرة أخرى خزفية صلبة مجوفة ، فيها خزائن مقسومة ، فيها لبة دسمة ، عليها قشرة رقيقة ، وبينها حجب ، منخرقة أقسامها مهندمة وإذا فصلت هذه الثمرة انفصلت بنصفين كالسفطين .

(٥) — اللوز

ثمر اللوز : شكله مخروط ، سفطى عليه قشرة ليفية ، فى داخلها قشرة خزفية صلبة ، فيها ثقوب نافذة فيها فتائل ليفية ، فى داخل هذه القشرة لبة دسمة ، عليها قشرة رقيقة صلبة .

(٦) — التين

ثمرة ليس له نوى ، عليه قشرة لحمية ، وشكله مخروط صنوبرى ، وفى أسفله ثقبة مستديرة ، فيها شظيات زبيرية ؛ وفى جوف هذه الثمرة حبوب صغار رخوة ، وطعم مادته قبل النضج لبن أبيض غليظ حاد محرق وبعد النضج طعمه حلو .

(٧) — العنب

ثمره مختلف الأشكال : مستدير ومستطيل ومد حرج ومخروط ، ومختلف الألوان : أسود وأبيض وأحمر وأصفر وأغبر ، عليها قشور رقيقة صلبة ملساء ملتزقة بشحمتها ، وفى جوف شحمتها حبوب مختلفة الأشكال ، زيتونية ، قماعية ، مفردة ومزدوجة ، وثلاثة وأربعة ، خزفية وعظامية ، ومنها صلبة ، ومنها رخوة ، فى جوف تلك الحبوب لبة دسمة ، ومادة شحمتها قبل النضج حامضة ، وقبل ذلك عفصة ، وبعد النضج حلوة .

(٨) - الأجاص (٩) - والمشمش (١٠) - والخوخ

أشكال أثمارها مخروطة ، أو صدفية ، عليها قشور رقيقة ملتزقة بشحمتها وهى غليظة ثخينة ، فى داخلها نواة خزفية ، أشكالها صدفيه داخلها ملساء ، فيها لبة دسمة ، وألوان هذه الثمار مختلفة .

(١١) - الأترج (١٢) - والنارنج (١٣) - والليمون

أشكال أثمارها كروية ، أو مستطيلة ، أو مدحرجة ، وعليها قشور لحمية غليظة ، شحمتها حامضة ، وفى داخلها حب صغار ، على دعاص مرصعة شبه التلال ، ما بين خللها لحمه ، طعمها حامض ، وألوان قشرها حمر وخضر وصفر ، ومادتها قبل النضج عفصة .

(١٤) - الحبة الخضراء (١٥) - الفستق (١٦) - السماق (١٧) حب الصنوبر

ثمارها ذات حبة صغيرة ، وفى داخلها نواة خزفية ، وفى جوفها لبة دسمة .

(١٨) - البلوط (١٩) - العفص (٢٠) - السرو (٢١) - الاهليلج

ثمار هذه الأشجار لاتنضج . انتهى الكلام على هذه الحديقة وأشجارها ٢١ شجرة .
وهاك عشرين حكمة لتقيس عليها حكما أخرى في الشجر والنبات .

(١) الحب : تنظر الحب فتراه مخلوقا في أوعية تشبه الخرائط ، وتلك الخرائط على رءوسها أمثال الأسنة تمنع الطير أن يأكلها لتحفظ للانسان ، فكأن الحبوب في حصون محصنة لتحفظ للانسان . يرى الإنسان سنابل القمح تمايل ذات اليمين وذات الشمال ، ويرى تلك السفا كالأسنة فوقها فالجاهل لايدرى والحكيم يعرف نعمة الله : «ولكن أكثر الناس لايعلمون» .

(٢) الشجر وأصناف النبات مخلوقات لاقدرة لها على الحركات كما للحيوان ، فوقفت رابضة في أماكنها وأخذت ترضع من الأرض كما يرضع ولد الحيوان لبن أمه ، وتجتذب الأغذية من الأرض ، وتلك الأغذية تقسم على الورق والأغصان والأزهار والأثمار ، كل يأخذ مايناسبه .

(٣) جذور النبات تمتد في الأرض كما تمتد الأطناب ، فكما أن الخيام تمتد أطنابها من كل جانب لتثبت تلك الخيام فلا تسقط ولاتميل ، هكذا النبات عروقه منتشرة في الأرض ، ممتدة إلى كل جانب لتمسكه وتقيمه ، ولولا ذلك لم تثبت الأشجار العالية ، لاسيما في الرياح العاصفة ، إن حكمة الله سبقت في النبات فامتدت عروقه إلى الجهات كلها ليحفظ الشجر عند العواصف ، هكذا صنع الناس الخيام وجعلوا أطنابها ممتدة من سائر الجهات تقليدا لما رأوا في الأشجار .

(٤) نسج الورق : أنظر إلى الورقة الواحدة كيف ترى فيها مايشبه العروق مبثوثة ، فمنها الغلاظ الممتدة في طولها وعرضها ، ومنها الدقاق المتخللة تلك الغلاظ ، المنسوجة نسجا دقيقا عجيبا ، ولو كان البشر هم الصانعون له لم يفرغوا من ورقة واحدة في طول الأزمان ، وبالنظر إليها يرى أنها كجسم الإنسان المنبثة فيه العروق الغلاظ ، ثم الدقاق ، ثم الشعرية الدقيقة جدا ، ثم إن العروق الغليظة تمسك الورقة بصلابتها وقوتها . أنظر هذا المقام موضحا بالأشكال في سورة يس عند قوله : سبحان الذى خلق الأزواج كلها الخ .

(٥) العجم والنوى : اعلم أن الله جعلنا مغرمين بكنز الذهب والفضة والأحجار الثمينة ، فترانا نخزنها ونصونها ، وهذا معروف عند العامة والخاصة ، فأما العامة فإنهم يموتون ولايدرون حكمة غرامنا بتلك الجواهر ، وأما الخاصة فإنهم يقولون : لننظر إلى ما كنزه الله أمامنا ، إن الله حكيم ولا يخزن شيئا إلا لحكمة ، فما الحكمة إذن في وضع النواة في باطن التمرة ، والعجم في باطن الفاكهة ؟ إننا نكنز الأشياء ذات القيمة ولكن الله يكنز مالا قيمة له في نظرنا ، كنز النواة ، والنواة لاثمن لها ، وربما طحناها وجعلناها علفا للابل ، وبعد التفكر العظيم يقولون : عجبا ! إن النواة أفضل ألف مرة من الماس والياقوت والمرجان ، إن النواة تستحق أن تخزن في أعز خزائننا في خرائط الجواهر الثمينة ، هذا هو السبب في أن الله خزنها ، إن النواة أصل النخلة كما أن الحبة أصل نبات القمح ، فالله خزن النواة وحصنها ، وجعل جرم التمرة غطاء لها لأنها أصل النخلة وهكذا بقية النوى ، فإذا حافظ الله عليها وأكثر منها فذلك للمحافظة على حياتنا ، أما إذا وضعنا الدرة اليتيمة في حرز فليس لها منفعة إلا في التحلي بها ، والنواة منفعتها حياتنا وبقاؤنا ، وما به البقاء خير مما به التحلي ، إذ لاحلية إلا للأحياء ، فجل الله إذ عرفنا قيمة هذه المخازن والخرائط والصناديق المقفلة :

(٦) الصلابة في النواة : إن صلابتها ممسكة لرخاوة الثمار ورقتها ، فلو أن النواة لم تكن صلبة لسرى الفساد إليها قبل إدراكها .

(٧) قشرة الحب والنوى : خلق لكل منهما فى ظاهره قشرة ، فإذا سقطا فى التراب أو غيره لم يفسدا سريعا ، وإذا ادخرا لوقت الزراعة بقيا محفوظين ، فصار قشرهما الخارج حافظا لما فى باطنهما ، فالذى فى باطنهما كالشىء النفيس الذى له صندوق يحفظه ، ولولا تلك القشرة على النواة والحبة لأسرع إليهما العطب ولم يصلحا لزرعهما مرة أخرى ، وكم من امرئ يأكل القمح والذرة وهو لايدرى لم كانت هذه الصلابة ، ولو علم الحقيقة لأدرك أن تلك الصلابة عليها مدار بقائنا وحياتنا ، وأن هذه القشرة أشرف من كل مايحفظ أجمل الجواهر ، فباطن الحبة محفوظ أولا بغلافها وبسفاها ثم بصلابتها ، وباطن التمرة محفوظ أولا بالكفرى وهو وعاء الطلع ، ثم بجرم التمرة ، ثم بالصلابة .

(٨) نبات الحب والنوى متى وضع كل منهما فى الأرض وسقى خرج منه عرق فى الثرى ، وغصن فى الهواء ، وكلما ازداد غصنا ازداد عرقا تتقوى به أصل الشجرة وينصرف الغذاء منه إلى الغصن فتكون الفروع محفوظة عن السقوط بالهواء والانكسار ، ويصعد الماء فى جذرها إلى أعالى الشجرة .

(٩) تقسيم الغذاء على أجزاء الشجر والزرع تقسيما عادلا كما تقدم .

(١٠) خروج الأوراق قبل الإثمار : انظر إلى الثمرة تجدها ضعيفة عند خروجها تستضر بحر الشمس وبرد الهواء ، فخرجت الأوراق قبلها لصيانتها كما خلق النبات والحيوان قبل الإنسان لحياته ومنفعته .

(١١) نظام الأوراق : إن الأوراق تكون سائرة للثمرة لحفظها من الحر والبرد ، ولكن الثمرة لاتزال فى احتياج إلى الحرارة الشمسية لتنضجها ، لذلك ترى بين الأوراق مداخل وفروجا فى خللها لدخول الشمس والهواء التى لاغنى للثمرة عنها ، وكما جعلت الأهداب على العين مانعة الغبار ، مدخلة الضياء ، هكذا هنا منعت الأوراق الحر والبرد ، وأدخلت مايلزم من الهواء والحرارة . هذا هو العلم الذى يرقى العقول . هذا هو الذى يقول الله فيه (قٓ) على مافهمت من معناها . هذا هو الذى قال الله فيه : « فذكر بالقرآن من يخاف وعيد » هذه هى الحكمة الشريفة ، والآيات المنيفة ، والعلوم العالية ، والجواهر الغالية ؛ ألا تعجب لكنوز مكشوفة مستورة ، وجواهر محجوبة منظورة ، وأسرار ظاهرة خافية وبدائع غالية ، رخيصة ، انظر كيف يجلس المسلم تحت الأشجار والأثمار ، والريح تعبث بالغصون والأوراق ، ولايدرى لم هذه الأوراق ؟ انظر لمسلم الزمان المستقبل كيف يفهم ماحجبه الله عن المسلم القديم ، يقرأ سطور الكائنات فى خلال الأوراق ، ويعجب من شمس تتخللها ، وهواء يداخلها ، ليعطى الثمرة حظها ، ويقرأ المسلم فى المستقبل : « وكل شىء عنده بمقدار » . أما أكثر المسلمين والفقهاء فيما مضى ، فقد كانوا عن الفهم محجوبين ، العلم أمامهم مكشوف ولكنهم لايفقهونه ، اقرأ قول الله تعالى : « أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها » فإذا أقفلت القلوب لم تفهم الحكم التى ضمنها فى حب الحصيد ، ولا فى النخل الباسقات التى لها طلع نضيد .

(١٢) الثمرة فى غلافها : منذ أيام كنت مارا أمام (كوبرى الملك الصالح) وأمامى نخلة قد انشق (كفراها) أى غلاف طلعها ، وانشقاقه كان من الجهة الغربية حيث تصيبه الشمس لأنه مكشوف من جهتها أما الذى فى جهة الشرق فلم ينشق ، ثم إنى عجبت كيف كان انشقاقه تدريجيا شيئا فشيئا . فأخذت أفكر فى ذلك العجب ، وأن الذى برز إلى الشمس هو الذى قوى على تحمل الجو ، وأن الذى لايزال مستورا هو الذى لم يقو ، وكلما اشتد مستور ظهر للشمس والريح ، ومنذ يومين مررت فوجدت جميع طلع هذا الغلاف قد ظهر ، فأما غيره فإنه لايزال بحاله لم يشقق لبعده عن ضوء الشمس .

(١٣) موازنة بين الثمار وبين الأجنة : كلاهما مادام لايقوى على الجو يبقى فى مكمنه ، فمتى قوى خرج منه .

(١٤) اعتبر ذلك فى أمم الأرض من حيث الدين والعلم ، يعلم الناس الدين ويحجبون عن الحكمة المخبوءة فيه كما ترى فى أمة الإسلام، يقرءون الأحكام الشرعية فإذا قويت العقول والفطن أطلعهم الله على بدائع صنعته ، فهذا الذى نقوله الآن يفهمه أكثر الناس ، لكن لايذوق الحكمة ويحس بها فى نفسه إلا من أصبحوا أشبه بالجنين وقد نزل من الرحم ، وبالثمرات وقد خرجت من الأكمام، فأما من عقله لم يزل ناقصا فهو أشبه بالثمر فى الأكمام ، فليلزمه شيوخه بالعبادات ، وليمنعوه من هذه الآيات .

(١٥) حب الرمان المرصع المتقدم ذكره : ترى فى داخل الرمان كما تقدم شحما مركوما غليظ الأسفل رقيق الأعلى كأمثال التلال فى ألوانه ، أو كالبناء الذى وسع أسفله للاستقرار عليه ، ورقق أعلاه حتى صار مرصوفا رصفا كأنه منضد بالأيدى ، ولا جرم أن الأيدى تعجز عن ذلك التدخل الذى نظم حبها فى الشحم المذكور ، وترى هناك أقساما كل قسم منها مقسوم وبلطائف رقيقة منسوجة أعجب نسج وألطفه لتحجب حبها حتى لايلتقى بعضه ببعض فيفسد ولا يلحق البلوغ والنهاية .

(١٦) غذاء الحب فى الرمان : لو أن الحب كان هو الحشو للرمان لاسواه ولم تكن هناك حواجز فمن أين يستمد الحب الغذاء ؟ فلذلك جعل ذلك الشحم خلاله ليمده بالغذاء ، فلذلك ترى أصول الحب مركوزة فيه ، لماذا ؟ ليمدها الشحم بالغذاء ، وهناك عروق رقاق توصل للحب غذاءه ، وإلى حبة حبة غذاءها .

(١٧) فى حب الرمان أيضا الحلاوة فى المرارة : ترى الحب حلوا وهو مغروس فى أصول مرة شديدة المرارة قابضة ، وهناك لفائف لطيفة على الحب لتمسكه فلا يضطرب وتحفظه ، وحفظ جميع ذلك فى قشر غليظ واق تام الوقاية .

(١٨) عود الرمانة : قد جعل متينا قويا حتى تستكمل خلقها فلا تسقط قبل بلوغها الغاية .

(١٩) البطيخ واليقطين والقثاء : عود هذه النباتات محتاج إلى الماء أشد الاحتياج، لأنه على الدوام يجتذب ماء كثيرا ، ولذلك ترى الفلاحين فى ضواحى مصر يسقون تلك النباتات كل يوم مرة، لأنها تجتذب ماء كثيرا ليملأ ثمرها العظيم جدا ، فترى البطيخة مثلا كبيرة كالجرة العظيمة ، وربما كان فى الشجرة الواحدة كثير ، فكان العود دائما مشبعا بالماء ليوصله إلى ثمره ، فكان أشبه بالقناة الرطبة. فلن يستطيع أن يكون قائما ، لذلك انبسط على الأرض ، وترك ثمره على الأرض والأرض تحمله ، لأن هذا العود الطرى اللين لايقدر على حمل نفسه فضلا عن حمل هذا الثمر العظيم .

(٢٠) البطيخ وما معه : لاتخلق إلا عند الحاجة إليها ، وفى الأزمنة المناسبة ، فلا تخلق فى الشتاء لأنه بالصيف أليق .

فهذه عشرون حكمة ذكرتها لك لتدرس رياض الجنات فى الدنيا ، وتنال رياض الجنات بدراسة هذه الرياض فى الآخرة ، والله هو الولى الحميد .

شذرات علمية فى النبات

(١) نبات يفيد ويستفيد : قال اللورد أفبرى فى كتابه (محاسن الطبيعة) : هناك أنواع الفطر (بضم الفاء والطاء) والكمأة التى تنمو بين الأشجار ، وقد تكون على الجذوع أيضا ، وقد ترى القسم الظاهر من جذور الشجرة مغطى بطبقة من هذه النباتات المجهولة الفضائل حتى الآن ، هذا النبات قد كان يظن

النباتيون أنه يضر الشجر ضررا كبيرا ، وقد عرفوا أخيرا أنه يمتص الغذاء بالجذور ويصير عصيرا فى تلك النباتات ، ويتسرب فى عروق الشجرة ويزيدها نماء .

(٢) وصف الغابات فى البلاد الحارة . قال اللورد المذكور : عجب عجب للغابات فى المناطق الحارة، ترى الشجرة ملتفة بالشجرة متعانقة الأغصان ، محبوكة منسوجة نسيج الثياب سدى ولحمة ، فكأنها بساط عظيم ، ترفع بصرك فترى شبابيك من الأغصان المشتبكة المختلطة المتداخلة المتعانقة ، والأزهار تقبل الأزهار ، والأثمار تحيط بالأثمار ، والأوراق متلاصقات ، وربما وقفت بين جذوع عاريات لاجمال فيها ، ثم ترفع بصرك فترى نفسك تحت قبة فى جو السماء خضراء بهجة تسر الناظرين ، قد حجبت نور الشمس وقت الظهيرة بذلك السقف المرفوع الزبرجدى البهج المنسوج البديع .

(٣) كيف خربت أقطار واسعة من سورية وفلسطين وآسيا الصغرى وشمالى أفريقية ، يقول اللورد المذكور : إن تلك الأقطار كانت أكثر سكانا ، وأعظم مدنا ، وأنعم عيشا ، وبلادها تدر لبنا وعسلا ، ثم تحولت إلى صحارى قاحلة ، وأرض جرداء خالية ، قال : إن الأمم انقرضت لما انقرضت أشجارها وغاباتها ، ولو أنهم حرصوا على غاباتهم لكانوا أشد حرصا على دولتهم ، يريد أن من أولع بالتخريب صار ذلك ديدنه فيئول أمره إلى البوار . انتهى الكلام على اللطيفة الثانية .

اللطيفة الثالثة

فى قوله تعالى : « إذ يتلقى المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد . مايلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد »

لقد أسلفت فى هذا التفسير فى مواطن كثيرة آراء القدماء والمحدثين فى عالم الملائكة ، وعالم الجن ، وسأذكر هنا مختصرا موجزا منه فأقول :

(١) لقد ترى أن الناس يختلفون فى أشكالهم وألوانهم وأخلاقهم ، حتى إن كل امرئ يكاد ينطق بما استكن فى نفسه ، وهيئة الإنسان وسيماه تدل على مافى نفسه من المحاسن والمساوى كما شرحه العلامة ابن خلدون فى المقدمة .

(٢) إن الأمم اليوم ومنها أمتنا المصرية قد عرفت أن خطوط إبهام اليد فى المرء لاتشتبه فيها بسواه ، فلذلك جعلوه علامة على صاحبها لاتختلط بسواه .

(٣) قد رأى الناس اليوم الآلة الحاكية وهى (الفونوغراف) فهو كصدى الصوت يحكى ما قيل بلا خلل .

وقد أمكن الناس اليوم أن يحفظوا الأصوات فى أسطوانة ويديرونها فتنطق بما نطق به الإنسان ويتكرر ذلك سنين وسنين ، قد زاد الإنسان على ذلك ، فترى علماء النفس فى بلاد أمريكا عرفوا علما يسمى علم الأثر ، وملخصه كما تقدم موضحا فى (سورة النساء) أن بعض النفوس إذا غابت بتنويم مغناطيسى ، ثم أعطى لها أثر إنسان أو حيوان أو جماد أو نحوه أخذت تلك النفس تقص ما جرى لصاحب الأثر ، حتى إن أحد هؤلاء القادرين على ذلك المتعودين عليه إذا دخل فى حجرة ذكر كل مامر بها من خير وشر ، ووصف هيئات الذين عاشوا فيها وحسناتهم وسيئاتهم .

(٤) قد علمت أن علم الأرواح انتشر ، ولقد قدمت لك آراء آلاف من العلماء قرروا هذه الحقائق ، ولقد مضى فى هذا التفسير أن اللورد (أوليفر لودج) قال فى محفل عام أيام الحرب الكبرى : « إن هناك عوالم أعقل منا تحيط بنا وتساعدنا ، والله نفسه يساعدنا » كل ذلك بالتجربة العلمية .

(٥) أفلست ترى معى أن العلم الحديث كأنه إنما جاء ليعرف الناس دين الإسلام ، وإلا فكيف يقول الله تعالى : إن هنا ملكين أحدهما على اليمين والآخر على الشمال ، ويقول : إن الإنسان له قرين من الملائكة وقرين من الجن ، ويقول : لكل امرىء ملك يسوقه وملك يشهد عليه .

هذه أمور سمعية ليس للعقل فيها مدخل ؛ ولكن العلم الحديث أثبت هذا كله ، أثبت ما هو أعجب ! أثبت أن الجماد الذى يحيط بنا يرسم فيه ما يجول بخواطرنا فضلا عما نعمل أو نتكلم به حتى قال أحد علماء النفس فى أمريكا كما تقدم فى هذا التفسير : (سيأتى قوم بعد ألفى سنة أو أكثر وبهذا العلم يسكون بحجر مما كان حولنا ، ويقصون حسناتنا وسيئاتنا وآراءنا وأخلاقنا ، وما كنا نخشى أن نقوله بألسنتنا) .

يا عجبا كل العجب ! فإذا كان الجماد أصبح يخبرنا ويخبر غيرنا بما عملنا فكيف لا تعرف ذلك الأرواح المجردة من المادة ؟ المادة أصبحت تخزنا لعلومنا فكيف بالأرواح المجردة التى أثبتها العلم الحديث .

اللهم إن دين الإسلام لا يظهر إلا فى المستقبل ، أما القرون الماضية فلم يكن بعد الصدر الأول من العلم إلا القشور ، اللهم إنك أنزلت الإسلام ، وها أنت ذا سبحانك تفهمنا قولك : سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق « فدين الإسلام الآن يظهر فى الأنفس ويظهر فى الآفاق ، وما نحن فيه الآن ظهوره فى الأنفس .

ففز بعلم تكن حيا به أبدا   فالناس موتى وأهل العلم أحياء

اللطائف العامة فى هذه السورة (١)

اللطيفة الأولى فى سر (ا ل م) فى قوله تعالى : « أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج » .

اللطيفة الثانية فى أسرار قوله تعالى : « أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم » الخ . وفى هذه اللطيفة مبحثان (المبحث الأول) فى عجائب العين اختصت بنظر السماء (المبحث الثانى) فى عجائب نفس السماء ، وذلك بفهم آلة النظر والجسم المنظور .

اللطيفة الثالثة فى قوله تعالى : « والأرض مددناها وألقينا فيها رواسى وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج تبصرة وذكرى لكل عبد منيب » .

اللطيفة الرابعة فى قوله تعالى : « يوم نقول لجهنم هل امتلأت وتقول هل من مزيد » .

اللطيفة الأولى

فى سر (ا ل م) فى قوله تعالى : « أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج »

ما كدت أكتب هذا العنوان حتى حضر صديق العلامة الذى اعتاد محادثتى فى هذا التفسير . فقال :

(١) هذه اللطائف لم يكن لها وجود عند التأليف ، ولم يفتح الله بها إلا عند تقديم هذه السورة للطبع (المؤلف) .

إن

إن غرامك بالعلويات والسفليات من الكواكب والزروع والشجر والجبل جعلك مغرما بالكلام فيها حتى إن أكثر هذا التفسير راجع إلى هذه المعانى ، فهلا أقللت من هذه المعانى فى نحو هذه الآيات ؟ فقلت ياصاح : قد تعجلت ولم تستطع صبرا على ما أريد أن أقوله ، إن كتابتى فى هذه الليلة إحدى ليالى شهر شعبان سنة ١٣٥٠ هجرية الموافقة ليلة الخميس ٣١ شهر ديسمبر سنة ١٩٣١ م ترجع إلى (ا ل م) فى قوله : « أفلم ينظروا » : فقال : وما لهذه فى هذا المقام ؟ فقلت يا صاح : إن هذه بينها وبين (ا ل م) فى أول (سورة البقرة) صلة . فقال : وأى صلة بين البقرة وسورة (قٓ) ومافيها من الآيات؟ فقلت صلة وثيقة عجيبة ، إن هنا سرا كان مخبوءا والله أبرزه اليوم فى هذا التفسير ، وحرام على أن أكتم عن الأمم الإسلامية ما وقع فى صدرى فى هذا المقام من عجائب القرآن . فقال : إنك تصف أمرا عظيما فما هو؟ قلت (ا ل م) من مفاتيح علوم القرآن . فقال : أرجو الإيضاح ؟ فقلت : ابتدأ الله القرآن بالفاتحة ، وابتدأ الفاتحة بالبسملة ، فالبسملة أشبه بمقدمة للفاتحة ، وبراعة استهلال ، والفاتحة كذلك بالنسبة للقرآن ، ولم يبق بعد براعة الاستهلال أو المقدمة وهى الفاتحة التى هى أم الكتاب إلا أن يبتدىء فى تفصيل ذلك المجمل ، فكان الابتداء برمز هو (ا ل م) وهى من الحروف التى فى أول السور ، وقد تقدم الكلام عليها فى كل سورة على حدتها ، وأعم الكلام فيها ما جاء فى أول (سورة آل عمران) فقد ذكرت هناك آراء طوائف المتقدمين الثلاثة ؛ وهى ما يذكره أمثال ابن عباس رضى الله عنهما : وأمثال ما يذكره بعض الصحابة والتابعين من مناسبات هذه الحروف من حيث أوصافها وأحوالها وانتظام أوضاعها (راجعه هناك) ومن حيث مناسباتها للعالم المحيط بنا إلى آخر ما هنالك ، ومثل ماتبدى لنا فى هذا الزمان من العجائب والبدائع ، مثل أن (ا ل م) فى سورة (آل عمران) تذكر مسلمى زماننا بما قصه الله من حال اليهود فى زمن النبوة ، وأنهم باتكالهم على شفاعة آبائهم وتخفيف العذاب عنهم يوم القيامة ، أو تحديد أيامه فى جهنم قد أخلوا بشرائط الدين فذلوا وزال ملكهم واستولى المسلمون على ما يملكون . فإذا عرف المسلمون أن (ا ل م) فى أول آل عمران قد أشارت بطرف خفى إلى هذه المعانى ، ورأوا أن ذلك إيقاظ من الله لهم فى زماننا هذا ، يدعوهم ذلك إلى الجد والتشمير فى العمل وأن من ظن أن الشفاعة التى أجمع عليها المسلمون يعقبها الكسل والتواكل وترك العمل كما كان اليهود فى زمن النبوة فهو مغرور ، وأن الأمة الإسلامية التى تكون هذه حالها لامحالة آيلة إلى الاضمحلال والزوال .

أقول : إذا عرف المسلمون ذلك جدوا حالا فى العلم والعمل وعدم التواكل كما هو الحاصل فعلا الآن ، وهذا المعانى هى التى ذكرتها فى سورة (آل عمران) هى الموافقة لقوله تعالى : « أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها » ولا جرم أن (ا ل م) من القرآن ، ولقد تدبرناها فألفيناها ناطقة بهذه المعانى ، وهذه المعانى سائغة ، وفيها من البلاغة مالاحد له ، والمعنى المأخوذ منها عظيم الأثر جليل النفع . فقال صاحبى : نعم هذا تقدم ولكن نحن الآن فى سورة (قٓ) و (ا ل م) فيها فى وسطها لافى أولها ؛ قلت : أيها الصديق لا تعجل ، إن المفتاح الذى جاء بعد الفاتحة قد فتح به أولا خزائن علوم الصبر على مكاره القتال ، وعدم الفرار منه ، وعن الشهوات حتى يقدر الجندى على المصابرة فى الحرب ، فهما صبران : صبر على اصطلاء نار الحرب ، وصبر عن شهوات النفس ، وهذان لايتم نصر إلا بهما ، فالأول فى آية : « ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف » والثانى فى آية : « ألم تر إلى الملأ من بنى إسرائيل من بعد موسى » فقد جاء فى هذه الآيات مسألة شرب الماء وأن من شرب منه قليلا أمكنه المصابرة فى القتال ، ومن شرب كثيرا كر راجعا مهزوما ؛ فالقليل من هؤلاء الصابرون فازوا فى الحرب على الكثير من الأعداء الشهوانيين الكافرين ، فهاتان خزانتان

فتحنا بهذا المفتاح فى (سورة البقرة) : خزانة الصبر على مكاره نفس الحرب ، وعلى مكاره ترك الشهوة ، أى الشجاعة والعفة ، وباجتماعهما مع العلم يكون كمال الإنسان ، والخزانة الثالثة جاء مفتاحها (ا ل م) فى سورة (آل عمران) وهى ترك الأمانى والتعليل بالأباطيل كما ذكرناه ، بل يجب تجريد الشفاعة من المعانى المناقضة للنشاط والإقدام والمثابرة وإلا كان هذا الفهم مجتثا للدين من أساسه ، وكم من خزائن فى القرآن فتحت بهذا المفتاح مثل قوله تعالى: « أولم يهد للذين يرثون الأرض من بعد أهلها أن لو نشاء أصبناهم بذنوبهم ونطبع على قلوبهم فهم لا يسمعون » وقوله تعالى : « أولم تكونوا أقسمتم من قبل مالكم من زوال وسكنتم فى مساكن الذين ظلموا أنفسهم وتبين لكم كيف فعلنا بهم وضربنا لكم الأمثال » فهاهنا فى هاتين الآيتين جاء ذكر (ا ل م) وجعل ما بعدها مذكرا لمن فوق الأرض بأحوال من هم تحتها فى قبورهم ، وأن الله قد ضرب الأمثال للأحياء فإذا لم يتعظوا أصابهم الله بذنوب الأموات الذين سكنوا ديارهم ، وهذا بعينه هو الذى حصل فى ديار الإسلام .

يا سبحان الله ، ويا عجبا يا ربنا ! ألم يسكن المسلمون أيام الدولة الأموية والعباسية ديار أمم الروم والفرس ، ألم يصب الله هذه الممالك بعدوى الفرس والروم ، فابتدأ معاوية رضى الله عنه بتقليد الروم فى أبهة الملك الظاهرى كما قدمناه ، واتسع ذلك النطاق فكانت الدول الإسلامية شديدة الإسراف ، واتبعوا سنن من قبلهم ، أليس هذا بعينه قوله تعالى : « أن لو نشاء أصبناهم بذنوبهم ونطبع على قلوبهم » وقوله تعالى : « وسكنتم فى مساكن الذين ظلموا أنفسهم وتبين لكم كيف فعلنا بهم » الخ .

ولا جرم أن المسلمين السابقين واللاحقين تبين لهم كيف فعل الله بدولتى فارس والروم اللتين حل المسلمون بديارهم وسكنوها وورثوها فلم يعتبروا فحل بهم ما حل بمن قبلهم ، لأن الله بالمرصاد وعدل حكيم (اقرأ هذا المقام فى سورة الأحقاف عند آية : « أذهبتم طيباتكم فى حياتكم الدنيا » ثم اقرأ تفسير سورة القتال والفتح ففى غضون ذلك ترى هذه العجائب من تاريخ الإسلام] فإنك ترى أن الله طبع على قلوب هذه الأمم بحيث ترى الأسلوب فى النظام واحدا فى بغداد ودمشق وقرطبة ومصر قديما . كل ذلك يرجع للمفتاح الذى فى أول (سورة البقرة) الذى ذكره الله بعد الفاتحة .

هذه هى الخزانة الرابعة من خزائن العلم التى مفتاحها [ا ل م] ولنتجاوز ذكر الخزائن الأخرى التى يفتحها هذا المفتاح ، لأنك أيها الذكى يسهل عليك فتحها بعد ما اقتصرنا عليه مما بيناه ، ولنذكر الخزائن التى فى هذه السورة فى هذه الآية ، وهى خزائن علوم السموات والأرض ، إذ يلفت الله نظرنا نحن المسلمين إلى آيات الكواكب والأقمار والشموس والمجرات والسدم ، فهذا المفتاح الذى فتحت به خزائن العلوم فى سور كثيرة جىء به هنا لفتح العلوم . فقال : إن هذه العلوم مفتحة الأبواب ، وقد فصلت فى هذا التفسير كثيرا كما قلته فى أول سؤالى فقلت نعم ولكنها لم تفتح خزائنها إلا فى هذا الزمان ، ولما فتحت عرفنا بعض أسرار (ال م) التى جاءت مفتاحا فى أوائل السور ، وها هى هنا بها فتحت تلك العلوم .

فقال : إن الناس هذه المعانى من الحروف فيه تساهل ، وهل سبقك بهذه المعانى أحد ؟ أو ليس هذا يعد تفسيرا بالرأى ؟ ثم إن تكرار الكلام على عجائب السموات والأرض يشعر المسلمين بأن للمفسر يجب عليه أن يعرف علوم الفلك والطبيعة وغيرها من علوم عصرنا ولم يقل به أحد ، ألا ترى أن صاحب الإتقان ذكر شرط المفسر وحصرها فى ١٥ علما وهى :

(١) اللغة .

(٢) والنحو .

(٣) والصرف .

(٤) والاشتقاق كاشتقاق المسيح هل هو من السياحة، أو من المسح ؟ والمعنى يختلف تبعا للاشتقاق .

(٥) والمعانى .

(٦) والبيان .

(٧) والبديع .

(٨) وعلم القراءات .

(٩) وأصول الدين .

(١٠) وأصول الفقه .

(١١) وأسباب النزول والقصص .

(١٢) والناسخ والمنسوخ .

(١٣) والفقه .

(١٤) والأحاديث المبينة لتفسير المجمل والمبهم .

(١٥) وعلم الموهبة ، وهو علم يورثه الله تعالى لمن عمل بما علم الخ .

قال ثم قال : فهذه هي العلوم التى أوجبها العلماء على المفسر . فلما أتم سؤاله قلت له : أما قولك : إن هذه المعانى لم يسبقنى بها أحد ، وإنى فسرت بالرأى ، وإن العلوم الكونية من العلوم التى تشترط فى المفسر فجوابه أن أقول :

اعلم أن فعل العاقل يكون مشابها لقوله ، قال تعالى : «ياأيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولا سديدا يصلح لكم أعمالكم» فمن أصلح قوله صلح فعله ، وبين أدب النفس وأدب الدرس مناسبة ، والله الذى ليس كمثله شئ قال وفعل ، ونحن لم نعرف من قوله إلا الوحى ، وفعله هى هذه العجائب فى السموات والأرض ؛ نراه أبدع المجرات والسدم والشموس والأرضين ، فأولا خلق الأثير ، ثم من الأثير خلق المجرات والسدم ومن هاتين أخرج الشموس ، ومنها أبدع السيارات والأرضين ، ومن هذه أبدع الأشجار والزروع ، وعلى هذه نثر الأزهار والأثمار ، فكل عالم من هذه العوالم زهر لما قبله ، فالزهر للشجر ، والشجر زهر الأرض ، والأرض والكواكب أزهار الشمس ، والشموس أزهار المجرات ، والمجرات أزهار الأثير والأثير صنع لله بلا مادة .

هذا كله فى عوالم المادة التى منها الإنسان الذى هو من زهر الأرض ، فهذا الإنسان أيضا له زهر وزهره هى الحكم التى تلقى على قلبه ، وقد اختص به دون سواه من العوالم ، إن عوالم الحيوان كذوات الفقرات من الطير والسمك ، وذوات الأربع ، وكالحشرات ، كل هذه زهرات فى الأرض ولكن الإنسان أرقى ، إن كل حيوان فيها يعيش بغريزته ، والغريزة منحة من الله لانصب فى تحصيلها ، ولكن الله يريد عالما أرقى من ذلك العالم يجب أن يتعلم الاستقلال فى عمله ورأيه ، وذلك بوقوعه بين متضادين ، وهما الخير والشر ، فيربى ملكته ويحكم بعقله ولا يتكل على الغريزة ، لأن الله يريد عقولا مدبرة لها استقلال ، وهذه العقول لن يملكها إلا الإنسان ، فهو يربى ليتعلم الاستقلال ، والاستقلال لايكون إلا على هذا المنوال : نصب وجد فى الاختيار والأعمال ، وإصدار أحكام فيما تشابه من الأمور خيرها وشرها . ومتى كملت تلك العقول عرجت إلى ملأ أعلى وإلا بقيت مع العوالم المنحطة . فهذه العقول الإنسانية لها زهر أيضا وهى الحكم التى يلقيها الله على القلوب وهى الشرط الخامس عشر الذى ذكرته أنت من شروط المفسر ، وقد جاء فى صفحة ١٨١ فى نفس

كتاب (الإتقان) بعد ماذكرته أنت من شروط المفسر مانصه : (علم الموهبة علم يورثه الله تعالى لمن عمل بما علم) وإليه الإشارة بحديث : «من عمل بما علم ورثه الله علم مالم يعلم» .

قال ابن أبي الدنيا : (وعلوم القرآن وما يستنبط منه بحر لاساحل له) . قال : (فهذه العلوم التي هي كالآلة للمفسر لايكون مفسرا إلا بها فمن فسر بدونها كان مفسرا بالرأى المنهى عنه ، وإذا فسر مع حصولها لم يكن مفسرا بالرأى المنهى عنه) . قال : (والصحابة والتابعون كان عندهم علوم الدين بالطبع لابالاكتساب واستفادوا العلوم الأخرى من النبي صلى الله عليه وسلم) انتهى .

فانظر إلى قوله « علوم القرآن وما يستنبط منه بحر لاساحل له » . أيها الأخ : نحن جئنا فى زمان فيه وجدنا أوائلنا قد محصوا هذه العلوم تمحيصا وسهلوا دراستها لنا ، فهذه القرون الطويلة بعد النبوة لم تدع قولا لقائل ومهدت الطرق لنا ، وسهلت السبل لنا ، وأصبحنا حين نقرأ القرآن نجد أمامنا الأبواب مفتحة فى كتب أوائلنا فنجدهم قد استوفوا لنا تلك الشرائط وأكملوها فلا نصب اليوم فى تحصيلها ، إنما النصب فى تحصيل العلوم الأخرى التى أشاروا لها بالموهبة والتى قالوا : إن علوم القرآن وما يستنبط منه بحر لاساحل له :

فهذا الذى نقوله نحن من أن (ال م) فى أول البقرة مفتاح ، وهذا المفتاح فتحت به خزائن وخزائن ، ومنها خزائن للعلوم الكونية فى هذه السورة وفى غيرها . فالعلوم العصرية تعين على علم الموهبة المذكور ، إذن ثبت أن كلام المتقدمين دخلت فيه هذه العلوم من حيث إنها معينة على تلك الموهبة التى ذكروها ، فأما التفسير بالرأى والهوى فمثل تفسير الروافض : « مرج البحرين يلتقيان » إنهما على وفاطمة « يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان » يعنى الحسن والحسين . فأما نحن فالحمد لله قد راعينا هذه الشروط الخمسة عشر بفضل آبائنا العظماء ، ثم وجدنا أن أمتنا الإسلامية قد نامت نوما عميقا وتركت علوما وعلوما ، وألفينا هذا القرآن منسيا مجهولا ، مقروءا لفظا ، متروكا معنى ، وكل طائفة من طوائف المسلمين نامت عند أقوال شيوخها ، ثم تركت حبل الأمور على غاربها ، فلم نجد بدا من إيقاظها وبعث همم أبنائها ، ونحن إذا قلنا إن هذه الحروف التى فى أول السورة قد أشارت إلى هذه المعانى التى أسلفناها فقد قلناه ونحن مطمئنون لما نقول ، ألا ترى رعاك الله أن هذه العلوم التى قلنا إن الحروف تشير لها كلها فروض كفايات ، إذن استخراج المعانى على هذا المنوال لم يكن موجبا بدعة ، ولا أمرا منافيا للدين ، بل هو من واجباته ، وفروض الكفايات نام عنها المسلمون قرونا وقرونا وناموا نوما عميقا ، فهذه الحروف فى أوائل السور يقرؤها المسلمون ويكتفون بقولهم (الله أعلم بمراده) مع أن الله قال : « أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها» فهذه من القرآن وقد تدبرها آباؤنا فقالوا : ما فتح عليهم بحسب ما ينفع زمانهم ، ونحن تدبرناها فألفيناها مفاتيح لهذه العلوم التى فى زماننا ولغيرها وإلا فلماذا ترى « أولم يروا » و « ألم تر الخ » كلها تحث على علوم نحن أجهل الناس بها ولا يعرفها إلا الفرنجة ، فما هذا التوبيخ فى القرآن على الترك والتقريع؟ نرى علماء أوروبا يدرسون الأجيال الغابرة والأجيال الحاضرة ، ويستخرجون نتائجها لينفعوا بها فى حياتهم أفليس هذا نفسه هو قوله تعالى فيما قدمنا : « أفلم يهد لهم كم أهلكنا قبلهم من القرون يمشون فى مساكنهم إن فى ذلك لآيات لأولى النهى » وهو نفس قوله تعالى أيضا : « وسكنتم فى مساكن الذين ظلموا أنفسهم » أليس هذا حضا على دراسة آثار قدماء المصريين والفرس والروم وسبأ وجميع الأمم التى سكنا بلادها كما تدرس جميع النجوم والزروع ، أو ليست هذه هى العلوم التى جهلها المسلمون جهلا فاضحا فصاروا هزءا بين الأمم وأذلاء ، وأى ذل أشد من هذا الذل ! نعيش ويدرسنا ويدرس آباءنا الفرنجة ، ونحن نعيش

ولا

ولا ندرس أنفسنا ، ولا ندرس آباءنا إلا قليلا فضلا عن الأمم التي سكنا ديارها فلا نستخرج منها نتائج تنفعنا لنحترس مما وقعوا فيه . إن ما كتبته في هذا التفسير من معاني هذه الحروف لا أزال أزداد فيه يقينا كلما طلعت شمس .

أيها الصديق : انظر إلى ما أقصه عليك من أنباء ملوك الإسلام السابقين ، واعجب كيف انتفعوا برموز الحروف المذكورة . وهاك ما جاء في الجزء الثالث من كتاب [تاريخ التمدن الإسلامي] صفحة ١٢ وما بعدها وهذا نصه :

[على أنهم لفرط اشتغالهم بحفظ القرآن وفهمه لو ذكر الرجل حرفا أو كلمة انتبه السامع للآية كلها ، وكثيرا ما كانوا يرمزون بالكلمة الواحدة إلى آية يفهمها العارف بها ويعمل بها ، وقد تخفى على كثير . ومما يحكى من هذا القبيل أن السلطان محمود الغزنوي الشهير بعث إلى الخليفة يطلب أن يذكر اسمه في الخطبة ببغداد ، وينقش اسمه في سكة الذهب والفضة ، فامتنع الخليفة من ذلك ، فبعث إليه كتابا فيه تهديد ووعيد ، قال في جملته : (لو أردت نقل حجارة بغداد على ظهور الفيلة إلى غزنة لفعلت) فبعث إليه الخليفة كتابا مختوما ، فلما فتحه لم يجد فيه بعد البسملة إلا ألفا ممدودة ، وفي وسطه لام ، وفي آخره ميم ، والصلاة ، والحمد لله ، فحار السلطان وأهل مجلسه من ذلك حتى دخل عليهم أبو بكر القهستاني ، ففكر في ذلك وقال : عندي شرحه فقال : اذكر ولك ما تريد ، فقال : بعث إليهم السلطان يهددهم بالفيلة فبعثوا له هذا الكتاب وفيه ألف ولام وميم إشارة إلى قوله تعالى : « ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل ، ألم يجعل كيدهم في تضليل ، وأرسل عليهم طيرا أبابيل ، ترميهم بحجارة من سجيل ، فجعلهم كعصف مأكول » فارتاع السلطان محمود لذلك ووقع في قلبه الخوف والندم ، وعاد إلى أحسن الأحوال من الرضا والأدب(١)] اهـ

* * *

فانظر كيف انتفع الخليفة العباسي برسم الفيل مع ذكر (ا ل م) وكيف ارتاع السلطان محمود الغزنوي من هذا المعنى ، وترتب على ذلك حقن الدماء ، وحفظ البلاد ، في أعظم بقاع الأرض من سفك دماء مئات الألوف من الجيوش ، وتخريب الديار ، وحلول الدمار . ولقد تقدم مختصر هذا في سورة البقرة في الطبعة الثانية .

فهذا كله تم بمعونة (ا ل م) والسر في ذلك أن هذا الانسان المخلوق في المادة لا سعادة له إلا بالسعي ولذلك تجده لا يحب إلا ما منع عنه ، والمبذول مبتذل ، والعزيز مرغوب فيه ، هذا دأب هذا الإنسان وهذا شأنه ، ومعاني الرموز محيرة مشتبهة ، فمتى وصل الانسان إلى حلها سارع إلى العمل بها بفرح وسرور ، لأن تحصيل معانيها جاء بنصب وتعب ، وكل ما حصلناه بنصب وتعب أحببناه ، وهذا سر حياتنا في الدنيا ، هذه الحياة الدنيا جعلت لتدريبنا على تعقل الأشياء وعلى العمل فيها ، وهذا هو الذي يعرفنا ما نزاوله فكرا وقولا وعملا ، وليس قول القائل للسلطان محمود الغزنوي : إن الظلم مرتعه وخيم كما حل بأصحاب الفيل كقول خليفة بغداد (ا ل م) فهذه حيرت العقول ، فلما اهتدى إلى المعنى عمل الناس به ، وإذا كنا نرى هذه الحروف الثلاثة في الحديث السابق كان هذا نتائج معانيها ، أفليس من أعاجيب القرآن أننا نرى المسلمين كانوا نائمين قرونا وقرونا وهم يقولون : الله أعلم بمراده ، أو يلتمسون معاني جزئية علمية حتى إذا جاء وعد ربك بالفتوح على الأمم الإسلامية برزت هذه المعاني بعد اللتيا والتي ، فكتبناها لأنها تناسب زماننا . وقد ضرب الله مثلا لأحوال المسلمين اليوم بما كان بين هذين الملكين وإن كان ذلك أمرا جزئيا وهاهنا

(١) من ابن خلكان ٣٠٨ ج ٢ — ترتيب الدول ٦٩ .

أمر كلى ، وليس ما دار بين الملكين إلا مجرد تنظير ومجرد تذكرة ، فذلك أشبه بقطرة وما هنا أشبه ببحر ، وكما تفطن القوم لمعنى الرمز فى مخاطباتهم العادية ، فهكذا يتفطن المسلمون فى أمرهم العظيم وهو رقيهم وسعادتهم :

إن (الم) فى سورة (قٓ) مفتاح فتحت به خزائن الفلك والطبيعة والعلوم المبنية عليها ، وهذا زمان الفتح لا غير ، لأن هذا الزمان هو الزمان الذى فيه ظهرت هذه العلوم والمسلمون فى حاجة إليها ، كما أن المسلمين فى بغداد فى حاجة إلى هذا الرمز ، ففسره علماء السلطان محمود الغزنوى بما انتفع به المسلمون ، لحقنت الدماء هكذا هنا تحفظ دول الاسلام بهذه المعانى المستخرجات فى هذا الزمان بعد نصب العلماء فيها أجيالا وأجيالا ، فزال الإشكال ، وحل العقال ، وارتقى الإسلام :

قلنا إن قول الله كفعله ، وللفعل ثمرات تقدم وصفها ، هكذا للقول زهرات وهذا شرحها ، هى هذه الحروف فى أوائل السور ، وحروف أوائل السور متميزات منيرات ، والزهرات رمز الثمرات ، فهذه الحروف رمز لثمرات هى علوم ومعارف قد أظل أوانها ، وأقبل إبانها ، وحان حينها ، (وبعبارة أخرى) إن هذه الحروف دلالات على علوم هى سعادات أمم الإسلام فى هذه الأيام وفى مستقبل الزمان . إن هذه العلوم والسعادات قد ظهر نموذجها فى هذا التفسير ، إن أمم الاسلام قد أخذت تخطو إلى العلا ، إن أمما وأمما فى زماننا وبعد مبارحتنا هذه الدار سيقرءونه ويأتون بعلوم وحكم لم يحن حينها ، وليس هذا الجيل بمستعد لها « ولتعلمن نبأه بعد حين » فالحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله .

فلما سمع ذلك صاحبى قال : لقد شفيت نفسى ، فقلت : الحمد لله رب العالمين . انتهى الكلام على اللطيفة الأولى فى سر (الم) فى قوله تعالى : « أفلم ينظروا » الخ ابتدأت فى كتابة هذا المقال قبل فجر هذا اليوم وهو آخر ديسمبر سنة ١٩٣١ وانتهيت من كتابته بعد صلاة الفجر الساعة السادسة إلا دقائق ، فالحمد لله على التمام .

اللطيفة الثانية

فى أسرار قوله تعالى : « أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج »

أى فى المبحث الأول من مبحثيها ، وهو مبحث عجائب العين التى اختصت بنظر السماء

هذا ما انشرح له صدرى قبيل الفجر ليلة الجمعة ١١ ديسمبر سنة ١٩٣١ م — استيقظت قبل الفجر فى ذلك التاريخ ، ونظرت إلى السماء ، ولحظت نفسى الكواكب التى كنت ألحظها فى الأعوام السابقة فى مثل هذه الأيام ، وهى الثريا والدبران والهقعة والهنعة وما يشبهها ، وقد تقدم الكلام عليها فى (سورة الصافات) فى أولها . وتقدم أيضا قبل ذلك فى سورة أخرى ، ولكن الذى توجه له نظرى فى تلك الليلة غير ذلك وهو أمران : كيف أنظر السماء ؟ وما نوع الرحمات التى أنعم الله بها على فى عينى حتى نظرت هذه السموات ، أخذ منى العجب كل مأخذ ، وأخذت أقول : ياليت شعرى سماء واسعة سعة لا ندرى مداها ؟ هاهم أولاء بنو آدم فى الأرض يبحثون ؛ فهاهم أولاء لم يجدوا للسموات نهاية ، وقد وصلت نجومها إلى ٢ على يمينها ٢٤ صفرا ، وهذا عدد مدهش وعظيم . هذه جنات تجلت للمفكرين فى الدنيا ، وإنما الذى زاد دهشتى أن لى عينين تنظران هذه السماء والعين صغيرة عبارة عن كرة قدر الجوزاء ، وهى مدمجة فيها صور وعجائب لا حد لها ، وباجتماعها أمكننى النظر ، عين صغيرة تجمع هذه العوالم كلها ، كيف بنيت عينى ؟ وما هى المناسبة بين عينى وبين الشمس والقمر والكواكب والأضواء فى أرضنا ؟ أنت عجيبة جدا أيتها العين ، لنترك الكلام على السموات الآن . ولنشرع فى معرفة عيوننا حتى نعرف بذلك بعض ما أعطينا من الرحمات فى الأرض ونحن

ذاهلون

ذاهلون جاهلون ضعفاء أغبياء مبعدون عن الجمال والحكم والبدائع ، كل ذلك لمعرفة الرحمة فى أول هذه السورة التى جاء فيها الحض على النظر إلى هذه السموات .

مسامرة بينى وبين صديق العلامة الذى اعتاد محادثتى فى هذا التفسير

بينما أنا أكتب هذا إذ حضر صديق العالم وقرأ ماتقدم فظهر عليه السرور والبهجة والنور ، وأخذ يظهر الإعجاب بهذا الموضوع ، ثم سكت قليلا وقال : إنك الآن تريد البحث فى العين ، والبحث فى السموات حتى نفهم كيف ننظر وبعد ذلك تبحث فى عالم السموات . فقلت نعم . فقال : أليس هذا مكررا مع ماتقدم فى أول سورة (آل عمران) ومع ماتقدم فى (سورة المؤمنون) عند ذكر السمع والبصر هناك ، ولقد شرحت العين فى (سورة آل عمران) شرحا بديعا جميلا لم أر له نظيرا ، وهناك وضعت رسمها ، وهكذا فعلت فى (سورة المؤمنون) ولكن الرسم فى هذه كان أوضح من الرسم فى الأولى التى أبديت فيها عجائب للعين بديعة تشرح الصدور وتسر الناظرين ، فأما السموات فإنك شرحتها فى البقرة عند ذكر السماء فى أول السورة وفى : « إن فى خلق السموات والأرض » فيها أيضا ، وفى أول (آل عمران) وفى (سورة الأنعام) فى أولها ، وفى آية إبراهيم : «وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر» الخ ، وفى آية : «إن الله فالق الحب والنوى» وفى سور أخرى مثل (سورة يونس) فى أولها عند ذكر السماء ، وفى آخرها عند قوله تعالى : « فاليوم ننجيك ببدنك » فهناك تبدت عجائب مثل صور البروج التى وجدت مرسومة على صندوق أحد الفراعنة ، وهى صور واضحة عجيبة وتبعها هناك سورة الهرم وعجائبه المدهشة ، وكيف كان الهرم نسبة عجيبة إلى الشمس وبعدها عنا ومدار الأرض حولها فى السنة ، وكيف كان بين مساحات الهرم وبين المكاييل والموازين المصرية ومساحاتها نسب عجيبة . كل هذا تقدم وهكذا فى آخر الكهف وسورة الفرقان ويس وأول الصافات وهكذا ، فالكلام على العين وعلى السموات قد استوفيته فيما تقدم ، أفليس يكون الكلام هنا تكرارا فقلت : أنا أحمد الله إذ وفقنى أن أرى أمثالك من الفضلاء أهل العلم وأنا لا أزال حيا يقرءون هذا التفسير فى أثناء تأليفه وطبعه ويتعقبونه ويذكروننى بما نسيت .

ومما يشجعنى على السير فى هذا الموضوع الآن أن أجدك قد استوعبت أكثر ما كتبته وهو حاضر فى ذهنك ، ومن استوعب مامضى فقد استعد استعدادا تاما لما ألقيه الآن ، لأنى سأذكر فى العين مالم أذكره قبل الآن ، ومن فهم ماتقدم فهو جدير أن يفهم ما أكتبه الآن وهكذا ماسأكتبه فى السموات .

الله أكبر : إن حياتنا كلها جمال ولكن يظهر لى أننا أشبه بقوم حبسوا فى قصر ملك عظيم كريم ، وأمروا أن يغمضوا أعينهم ، لأنهم لو نظروا جمال القصر لزال عنهم العناء ولأحسوا بفرح كأهل الجنة فى الجنة ، إننا الآن فى الأرض محبوسون ، وهذا الحبس به قلت سعادتنا ، ولكن الله عز وجل يريد لشدة رحمته بنا أن يفتح لنا باب السجن شيئا فشيئا حتى نشاهد النور خارجه ، ولا أعرف بابا لهذا السجن إلا الدرس والعلم والنظر فى هذا الكون .

أيها الصديق : من نحن ؟ وما هذه الحياة ؟ وما هذه العناية العظيمة بنا ؟ لو أن شابا أحب فتاة وهو محبوس عنها ولكنه يعلم أن لها به عناية وعطفا لفرح بهذه العناية فرحا لاحد له ، ويصبح الحب غذاء له ، وسعادة لاحد لها ، ونحن الآن فى الأرض عمى عن أجسامنا وعقولنا ، لانفكر فى خلقها والأعمار قصيرة ؛ فكيف تمر هذه الأعمار ولا نفتح هذا الكتاب الذى نعيش بين دفتيه ؟ وهو هذه الدنيا ؟ وأقرب شئ إلينا

أجسامنا ، ومن عجائب أجسامنا عيوننا التى تنظر هذه السماء ، ومتى عرفنا العناية أحببنا من هذه أعماله ، وصارت دار الدنيا سعادة .

إنى أيها الذكى ليلة الجمعة الماضية لما نظرت إلى السماء أخذ هذا الفكر بمجامع عقلى ، وما كادت الشمس تطلع حتى فتحت كتاب [علوم للجميع] فى الجزء الثالث منه ، فرأيت فيه ما يأتى :

العين ومنفعتها

وقد كتب تحت هذا العنوان ما ترجمته : « ما أسهل على الإنسان أن يستعمل آلة وهو يجهل تركيبها ، ولا يعلم أى شىء عن أجزائها مطلقا ، إن آلافا من السياح فى كل سنة يأخذون الصور فى الجبل والسهل وهم لا يعلمون أى شىء عن عجائب تلك الآلة التى بها يأخذون تلك الصور ، وبأى وسيلة تمكنت هذه الآلات العجيبة من إحضار الصور البعيدة عنهم فجعلتها أمامهم .

وكم آلاف آلاف الملايين من الناس يستعملون عيونهم فى جميع الساعات التى هم فيها مستيقظون مدى حياتهم وهم مع ذلك لا يعلمون شيئا عن بناء تلك العين وهندستها ونظامها ، وبدائع طبقاتها الباهرة النافعة للناظرين ، ولكن إذا أخذ الإنسان يبحث فى عجائب العين فما أسهل أن يفهمها ، وأن يدرس دراسة كافية حتى يفهم :

(١) كيف ركبت طبقات العين ؟ .

(٢) وكيف كانت طبقاتها تعمل متحدة بهيئة موسيقية منظمة عجيبة .

(٣) وكيف أمكننا بهذه الآلة المنظمة أن نعرف الصور ، والأحجام والمسافات وغيرها .

وهاهنا أخذ يضرب لذلك مثلا ، فقال : إذا أردنا أن نعرف الآلة المسماة (بالتلسكوب) فإننا لابد أن نفك تلك الآلة ونجعل كل جزء منها على حدته ، وندرس تلك الأجزاء ، ومتى انتهينا من دراستها كلها عرفنا نفس (التلسكوب) هكذا فلنفعل فى العين ، فكما فصلنا ونظرنا ودرسنا أجزاء التلسكوب هكذا يجب أن نفصل أجزاء العين واحدا واحدا ، ومتى تابعنا البحث فيها بدقة ، ووالينا التجارب والموازنات فيها فإننا لاجرم نصل تماما إلى ما توجهت نفوسنا إلى فهمه وهو : كيف ركبت العين وما منفعتها ؟ .

ومن حسن الحظ لهذا الموضوع أن عين بقرة أو نعجة أو ذكرهما كافية لدراسة هذا الموضوع ، فإذا أرسلت إلى (القصاب) الجزار وطلبت منه زوجا من العيون أرسل لك ذلك بسهولة كما اتفق لى ، فمتى حصلت على العين فأولا أزل ما عليها من اللحم المحيط بجوانبها وإذن ترى بعينك أن العين كرة وفيها حبل أبيض خارج من خلفها ، وهذا الحبل يمتد فى داخل العين ، وقد كان قبل أن يقطع قويا متينا موصلا العين بالمخ ، إننا نستطيع أن ندرس العين من غير قطعها بأن ننظر فى المرآة بها وندرس أجزاءها الظاهرة دراسة سطحية بمجرد النظر إلى المرآة :

(١) فلننظر أولا الجزء المقدم الشفاف الكروى البارز القبب ، ألا وهو (القرنية) .

(٢) إن هذه القرنية متصلة بالطبقة البيضاء المسماة بالصلبة ، وهي التى بها تحفظ كرة العين وتثبت فهى لها حفاظ يصونها .

(٣) وتحت هذه القرنية الشفافة يرى الإنسان حلقة ذات لون وما هى هذه إذن ؟ هى القزحية أو العنبية قد نسبت لقوس قزح من حيث ألوانه ، وللعنبة من حيث لونها كذلك .

(٤) وفى وسط هذه القزحية ترى (البؤبؤ) وهو إنسان العين ، وهى فتحة يدخل منها الضوء فيصل إلى البلورية ويتجه إلى الشبكية كما ستراه مفصلا .

(٥) هاهنا نستطيع أن نضع فتحة لنمتحن بها داخل العين . فلنأت إذن بآلة حادة ونجعل في عين البقرة مثلا فتحة ، ولا تكاد القرنية تفتح حتى يظهر لنا حالا سائل مائى يسمونه بالفرنجية (كويس هيومر) وبالعربية يسمونه (الرطوبة البيضية) وهو سائل أبيض .

(٦) فإذا اتسعت هذه الفتحة اتساعا كافيا فاضغط على كرة العين بلطف فإنك ترى عضوا هو أجل الأعضاء فى العين ، وما هو إذن ؟ هو العدسية المسماة البلورية والجليدية ، لأنها شفافة كالبلور وكالجليد وهى خالية من الشوائب مثلهما ، وهذه البلورية شفافة عند الصغار والشبان ، أما الرجل المسن فإنها تكون أقرب إلى الصفرة ، وهذه الصفرة تحدث خللا فى نظر الكبير لا حاجة لتفصيله الآن لئلا نخرج عن المقام .

(٧) ثم أخذ المؤلف يصف المادة الزجاجية التى تقع تحت البلورية التى تتصل بها من فوقها الرطوبة البيضية .

ووصف الشبكية ومن ورائها المشيمية التى تليها الصلبة التى تقدم الكلام عليها ، وأنا لا أطيل الكلام فى هذا المقام ، لأنى أعرف أيها الأخ أنك تعلم تفصيل هذه الأجزاء مما تقدم فى هذا التفسير . فلنجمل القول أولا برسم هذه الصورة التى رسمها المؤلف المسمى (وليم اكرويد) وهي هذه (انظر شكل ١)

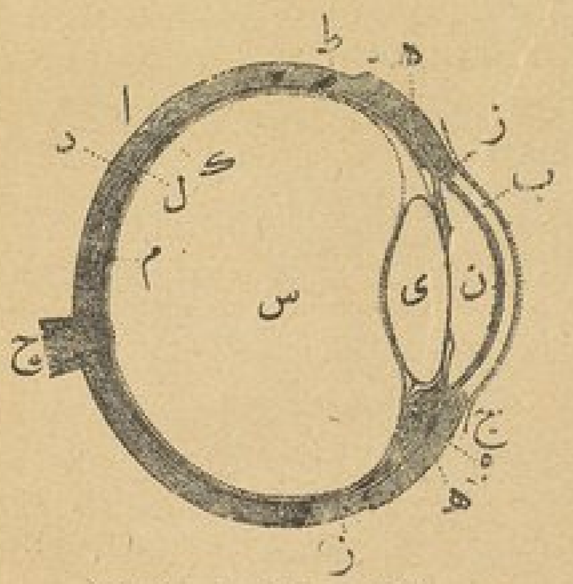

(شكل ١ — قطعة من العين الإنسانية)

(١) — (ا) الصلبة .
(٢) — (ب) القرنية .
(٣) — (ج) الملتحمة .
(٤) — (د) غطاء المشيمية .
(٥) — (هـ) عضلات هدبية شعرية .
(٦) — (و) ابتداء الأهداب الشعرية .
(٧) — (ز) القزحية المسماة أيضا عنبية .
(٨) — (ح) مبدأ العصب البصرى .
(٩) — (ط) محيط الشبكية .
(١٠) — (ى) الجليدية وتسمى البلورية .
(١١) — (ك) المشيمية .
(١٢) — (ل) الشبكية .
(١٣) — (م) البقعة الصفراء فى الشبكية .
(١٤) — (ن) الرطوبة البيضية .
(١٥) — (س) الرطوبة الزجاجية .

فلما سمع صاحبي ذلك وظن أنى قد انتهيت من المقال ونظر هذه الصورة . قال : هذا حسن ولكننا الآن أولا لم نصل للمقصود وهو اتصال هذه العيون بالكواكب ، وكيف تمت الصلة بينهما ، وثانيا : إذا رسمت صورة العين التى تقدمت فى سورة المؤمنون هنا فإن القارىء بموازنة كل واحدة منهما بالأخرى يفهم الحقائق حق الفهم ، ثالثا : إنك ذكرت أن المؤلف يقول : علينا أن ننظر عيون البقر أو الغنم ، ولا جرم أن المشاهدة بالعين أقوى أثرا من قراءة الكتب ، وقد جرت عادة الله ألا يجعل للقائلين قبولا عند سامعيهم

ولا المؤلفين عند قراء كتبهم إلا إذا كانوا هم موقنين بما يقولون ، وأى إيقان لكم أكثر من إطلاعكم أنفسكم كما قال تعالى «وقل الحمد لله سيريكم آياته فتعرفونها» وهذه هى الشهادة بالحق التى ذكرها الله فقال : « إلا من شهد بالحق وهم يعلمون » وأى شهادة بالحق أكثر من الاطلاع على نفس العين وتشريحها ؛ لاسيما أن المؤلف الذى ترجمت أن كلامه قد فتح الباب أمامك ، وسهل الطريق فجعلها معبدة ، فما أسهل السير فيها على السارين ، وما أسهل عيون البقر والغنم للطالبين وللمؤلفين ، فقلت أيها الذكى : أما قولك إننا لم نصل المقصود فهو حق وما ذكرته الآن إنما هو مقدمة ، وهاك صورة العين المرسومة فى (سورة المؤمنون) فيما تقدم فى الجزء الحادى عشر من التفسير (انظر شكل ٢) .

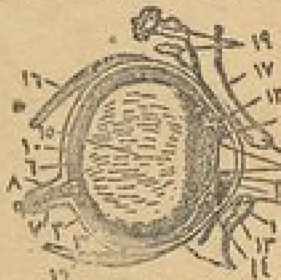

(شكل ٢)

وأما ما ذكرت من أنه يحسن بى أن أنظر بعينى هذا فقد تم هذا اليوم صباحا ، وذلك أننى لما نظرت إلى السماء قبل فجر يوم الجمعة الفائتة ، وتاقت نفسى للمعرفة المفصلة قرأت ذلك الكتاب يوم السبت ؛ وفى هذا اليوم (الأحد ١٣ سبتمبر سنة ١٩٣١ ميلادية) توجهت إلى (السلخانة الأميرية) وهى قريبة من منزلنا ، وأخذت منها عينى بقرة ، وتوجهت بهما إلى المستشفى الرمدى بالجيزة ، وقابلنى أحد الأطباء هناك ، وطلبت منهم تشريح العين إذ هم أدرى بذلك ، فشرحوها لى ، ونظرت كل هذه الأجزاء المذكورة المتقدمة ، وفوق ذلك أرانى مدير المستشفى العين الصناعية وهى مكبرة جدا ، وشاهدت البلورية وما فوقها من الأوردة والشرايين والقزحية والبلورية ، وبقية الطبقات ؛ ورجعت وقت الظهر ، وها أنا ذا الآن أكتب ماأيقنت به بعد المطالعة . فقال : الحمد لله إذ فعلت ذلك وها أنا الآن جالس معك وأقرر أن كثيرا من الشبان فى هذا الزمان وفى المستقبل سيبحثون بأنفسهم فى كل شىء كما بحثت أنت الآن ، وستصير هذه ملكة راسخة فى بلاد الإسلام فيبحثون كل شىء كما بحثت أنت الآن ، وتصير هذه أعظم اللذات للشيب وللشبان . فقلت : أنا بذلك من الموقنين .

جمال العين وبهجتها ، وعجائب إتقانها
وما فيها من الآلات البصرية ومنافعها

ثم قلت : أيها الأخ الذكى : هانحن أولاء فرغنا من تعداد الآلات البصرية فى العين ، وقد عرفنا نظامها وتشريحها ، وأشهرها هذه الخمسة : القرنية الرطوبة ، البيضة ، البلورية ، الزجاجية ، الشبكية ، وهذه الآلات لايستطيع العقلاء فهمها فهما حقيقيا إلا بضرب أمثال مما يشاهدونه ، إن العلم إن لم يتصل بما يعرفه الناس كل يوم فلا ثبات له ، وهذه الآلات البصرية يمثلها ما يأتى (انظر شكل ٣)

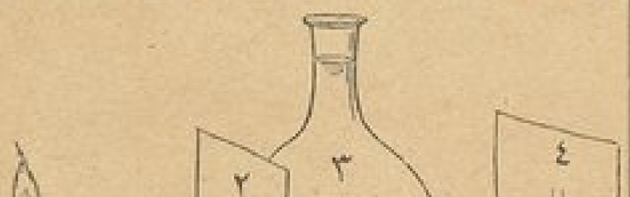

(شكل ٣ تجربة تبين منفعة أجزاء معلومة من العين)

(١) المصباح (٢) لوح أبيض مثقوب (٣) زجاجة مملوءة ماء (٤) لوح أبيض غير مثقوب لقبول الصورة الواردة من نمرة (١) المخترقة ثقب نمرة (٢) الواصلة إلى الزجاجة المائية نمرة (٣) . ومن صفات هذه الزجاجة وأمثالها أن الضوء إذا اخترقها ولم يكن هناك نمرة (٢) قبلها ووصل إلى نمرة (٤) فإنه لايكون واضح الصورة

(وهى مقلوبة طبعا) بل هى تكون أقرب إلى الزرقة ، ولكن اللوحة المثقوبة نمرة (٢) لابد منها لإصلاح تلك الصورة .

وإذا تأملت هذه الآلات ألفيت نمرة (٢) تمثل القزحية ونمرة (٣) وهى الزجاجة المائية تمثل البلورية واللوح نمرة (٤) القابل للصورة يمثل الشبكية ، وعلى هذا ظهرت هنا قيمة القزحية لأنها فى علم البصر لها منفعة عظيمة فى بعض الصور إذ هى المساعدة لتمام الصورة على اللوحة .

وأنت من هذا أيها الأخ الذكى عرفت أن أهم الأدوات البصرية فى أعيننا إنما هى القزحية والبلورية والشبكية التى مثلنا (١) اللوحة البيضاء المثقوبة (٢) والزجاجة المملوءة ماء ، واللوحة البيضاء القابلة التى لاثقب فيها ، هذه أهم تلك الأدوات :

الكلام على المنشورات البلورية القائمة مقام الزجاجة المملوءة ماء .

إنما قدمنا المثال المذكور لسهولته ، ولأنه فى متناول الجميع ، ذلك أن الزجاجة يعرفها العام والخاص ، وهى تمثل لنا البلورية التى فى أعيننا والتى رأيتها أمس حين تشريح عين البقرة فى مستشفى الجيزة ، ولكن العلم يعوزه ماهو أرقى من تلك الزجاجة ألا وهى أجسام زجاجية مضلعة يسمى كل منها بالمنشور (انظر شكل ٤) .

(ا) قطعة من بلورتين محدبتين .

(ب) جزء من منشورين وضعت قاعدة أحدهما ملاصقة لقاعدة الآخر :

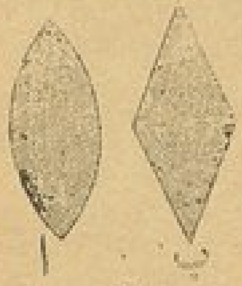

(شكل ٤)

لقد بسطنا الكلام على القزحية وما يشبهها ، وأنها ذات نفع عظيم فى إكمال الصورة التى مرت فى الزجاجة المائية ، فلنبحث الآن فى منفعتها إذا مر النور من منشور بلورى مثل (ب) التى رسمناها لنفهم بها (ا) وهى البلورية المحدبة ، وبيانه أن البلورية فى العين ثخينة من وسطها ، رقيقة عند طرفيها ، وهذه الصفة تجعلها مشبهة منشورين معا ، فلو أننا ضممنا بلورتين ثم قسمناهما قسمين لرأينا أحد القسمين المذكورين من مجموع البلورتين يشبه مافى صورة (ا) شكل ٤ وهذه الصورة ليست مخالفة لصورة (ب) التى فيها قد وضع المنشوران معا قاعدة أحدهما ملتصقة بقاعدة الآخر ، ولا جرم أن النور وهو مار بالمضلعات المنشورية تجتمع أصوله السبعة فتصير لونا أبيض ، وهكذا يفعل الضوء فى صورة (ا) لأنها تماثل صورة (ب) فهاهنا تشابهت البلورية والمنشور فى توحيد أجزاء الضوء إذا مر منهما .

تحليل الضوء إلى ألوانه السبعة إذا مر فى المنشور

إنك أيها الذكى تعرف من دراسة العلوم ، أو مما تقدم فى كتابنا هذا أن الضوء إذا مر فى منشور فإنه يحلل إلى أصوله السبعة وهى : الأحمر ، والبرتقالى ، والأصفر ، والأخضر ، والأزرق ، والنيلى ، والبنفسجى ومن عادة الأزرق أن يميل ميلا كثيرا ، وللأحمر ميل أقل كثيرا (انظر شكل ٥) .

(شكل ٥ ميل الضوء)

انظر إلى نقطتى (ا) و (ب) المضيئتين المشبهتين قلمى رصاص رفيعين فى (شكل ٥) وقد مر هذا الضوء فى المنشورين المرسومين أمامك ، وقاعدة أحدهما ملتصقة بقاعدة الآخر ، فتأمل فى سير الضوء أيها الأخ فإنك ترى الأشعة الزرقاء أسرعت فاجتمعت عند حرف (ف) فأما الأشعة الحمراء فإنها اجتمعت بعد ذلك عند حرف (فَ) .

وإذا نحن وضعنا بلورتين معا كما وصفنا فإننا نرى سير الضوء فيهما كسير الضوء فى المنشورين الموضوعة قاعدة أحدهما ملاصقة لقاعدة الآخر .

حال الضوء فى وسط الحقل الضوئى وفى أطرافه

وهاهنا نلاحظ أن الضوء الجارى فى هذين المنشورين المتلاصقين منضمة أجزاؤه ، متحدة فى وسطه ، فيكون لونا أبيض ، فأما فى الجانبين فإن الأمر يخالف ذلك على خط مستقيم ، وكيف لا ونحن نرى النور عند حرف (س) التى قبل البؤرة الضوئية التى اجتمع فيها الضوء يميل إلى الحمرة والبرتقالية ، ولكننا نراه بعد مفارقة البؤرة الضوئية يميل إلى الزرقة عند حرف (سَ) .

هذه صفة الضوء فى المنشورين المذكورين اللذين ذكرناهما لنقرب بهما فهم البلورية التى فى أعيننا ، والتى وجدنا أنها أشبه بقطعة من بلورتين متحدتين معا كما تقدم ، وهاتان البلورتان المتحدتان معا تشبهان المنشورين المتصلين كما تقدم ، ولقد وجد العلماء أن سير الضوء فى البلورتين الموصوفتين بما ذكر يشبه تمام المشابهة سيره فى المنشورين المذكورين .

فائدة القزحية

هاأنت ذا أيها الأخ الذكى عرفت أن الضوء فى وسط الحقل الضوئى أبيض ، وفى حافة هذا الحقل يكون أزرق أو أحمر برتقاليا ، ولا جرم أن ذلك نقص يعوق النظر ، ولقد احتال علماء الضوء فوضعوا ستارة حلقية فى الآلة البصرية (التلسكوب) فمنعت هذا العائق ، ولقد حقق كثير من العلماء بمباحثهم أن القزحية التى فى أعيننا تعمل عمل هذه الستارة التى تشبه الحلقة ، فلها الفضل فى حفظ الصورة الضوئية من ميل بعض أجزاء الضوء الأبيض كالزرقة والحمرة فيما تقدم عند مروره بالبلورية المسماة بالجليدية أيضا والعدسية ، إذن ظهر أن للقزحية فائدتين : إحداهما أنها تفعل فعل اللوح المثقوب فى أنها تجعل الصورة واضحة على اللوحة التى تقبل الصورة ، وثانيتهما أنها إذا مر الضوء من منشورين أو بلورتين فإنها تحفظ هذا الضوء من ميل بعض عناصره إلى الجوانب .

وظائف القزحية والبلورية والشبكية

فهاهنا استبان أن وظيفة القزحية أن تحفظ الصورة واضحة لاخلل فيها ووظيفة البلورية أنها ترسلها إلى ماوراءها فترسم على الشبكية ووظيفة الشبكية أنها تصدرها إلى الدماغ فيراها الإنسان والحيوان ولقد فصلنا القول فى القزحية والبلورية فلنفض الكلام على الشبكية فنقول :

إن الشبكية عضو شفاف يختلف فى ثخنه من جزء من ٨٠ إلى جزء من ١٦٠ من البوصة الواحدة وهو مبطن للسطح الداخل من محيط كرة العين كما رأيته فيما تقدم وكما رأيته أنا فى العين الحقيقية وفى صورتها المجسمة كما تقدم .

إن أى بقعة رقيقة من بقع الشبكية ما عدا مركزها الذى يسمى البقعة الصفراء ، وكذلك مدخل العصب البصرى كلاهما إذا نظر بالمكرسكوب فانه يبين لنا هذا الهيكل الذي تراه فى هذه الصورة (انظر شكل ٦)

(شكل ٦

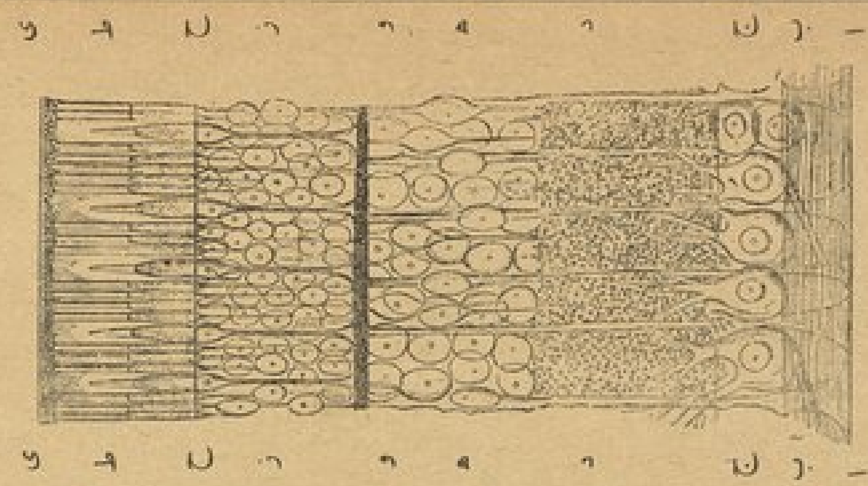

(شكل ٦ شبكية العين الإنسانية)

فأنت ترى أن هذا الجسم من حرف (ب) إلى حرف (ح) أجزاء عصبية مجتمعة بما يسمونه [النسيج الحافظ] وما وراء حرف (ح) المذكور هو بقية الشبكية المشتمل على الأغشية العصبية ذات الشكل الذى يشبه بعضه (العود) وبعضه يشبه (القصبة) وهذا الأخير أشبه بورق قصب السكر (انظر شكل ٧) .

(ا) سطح الشبكية عند اتصاله بالمادة الزجاجية .

(ب) امتداد ألياف العصب البصرى .

(ج) ذرات ذات اجتماع بشكل دوائر ونحوها .

(د) طبقات ذرية وألياف عصبية .

(ه) ذرات مجتمعات تشبه الحب والنوى .

(و) طبقات متداخلة وألياف عصبية حاملات مايشبه الحب فى الداخل .

(ز) هاهنا مايشبه الحب فى الطبقات الخارجية .

(ح) سطح جمل جدا لما تحته ومقاما يحمل العيدان والقصبات وبه ينتهى النسيج المحكم تحته .

(ط) العيدان والقصبات .

(ى) سطح وضع حدا المشيمة فوقه .

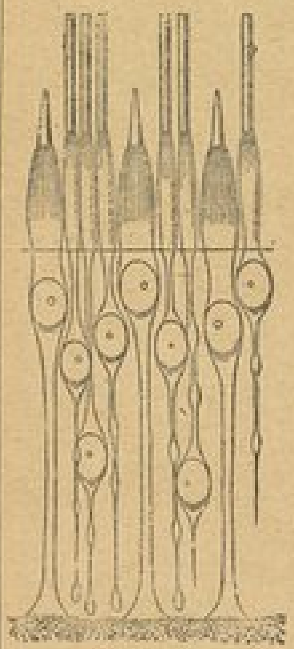

(شكل ٧ العيدان والقصبات مبينة مكبرة ، فهاهنا ثلاث قصبات تتخلل ستة عيدان) .

إن العصب البصرى وهو داخل فى كرة العين تتفرع منه أغشية فى جميع الجهات به تتكون الطبقة الأمامية عند حرف (ب) فى شكل ٥ المشتمل على الشبكية وهى بلا ريب مرتبطة بالعصى والقصب من خلف . هذا ماعن لى أيها الصديق فى هذا المقام ، والحمد لله رب العالمين .

هنالك قال صديق العالم : ماهذه العجائب والبدائع ؟ أهذا كله لأجل أن نبصر الأشياء حولنا ؟ فقلت نعم . قال عجب عجاب ! إنك قد فتحت لى باب الكلام بهذه المباحث ، فاسمح لى بذلك. فقلت : سل ماتشاء. فقال : هل الجزء الذى يقابل الضوء من الشبكية هو الذى يتأثر به فينقله إلى المخ ؟ فقلت له : إن الكلام فى هذا يحتاج إلى إيضاح ، إن العصى والقصبات المرسومات فيما تقدم هن القائمات بأمر الإحساس ، ولاجرم أنهن فى آخر الشبكية من خلفها ؛ فهناك يقوم بهن الإحساس بالضوء بعد أن مر فى تلك الأوساط الشفافة الموضوعة قبل الشبكية فى طريق النور . فقال : لقد ذكرت فى هذا الموضوع ما كتبته أنت فى (سورة

آل عمران) إذ رسمت العين والأذن هناك وشرحتهما، وذكرت للعين نحو ٢٦ حكمة، وللأذن نحو ١٤ حكمة ونقلت عن (اللورد أفبرى) فى كتابه (مسرات الحياة) ما يأتى :

(إن فى الجسم الإنسانى أكثر من مائتى عظم ، ولكل منها شكل مخصوص بها ، ولولا حسن صنعها لعاقت حركاتنا التى نأتيها كل يوم (يقول مؤلف هذا التفسير : وسيرد عليك قريبا هندسة الأعضاء وقياسها العجيب منقولا عن آبائنا حكماء الإسلام) » .

ثم قال : (وفيه ٥٠٠ عضلة كل منها تتغذى بمئات الأوردة والعروق تديرها أعصاب كثيرة ، والقلب وهو بين هذه العضلات ينبض فى السنة ثلاثين مليون مرة ، فإذا توقف عن الخفقان قضى الأمر وانقطعت الحياة ، ولو تأملنا فى أدوات الحس كالعين مثلا بما فيها من قرنية ، وعدسية ، وطبقات مائية ، وزجاجية تنتهى فى الشبكية لتولانا العجب ، فإن هذه الشبكية التى لا تزيد عن ثخن الورقة تتألف من تسع طبقات مختلفة ، أبعدها يتألف من نحو ثلاث ملايين مخروط ، ونحو ثلاثين مليون اسطوانة ، وأعجب من هذا كله الدماغ ، فقد حسب أحد الفسيولوجيين أن المادة السنجابية التى فى تلافيق الدماغ نحو ستمائة مليون خلية تتألف كل منها من ألوف من الدقائق الظاهرة ، وكل دقيقة تتكون من ملايين الجواهر) . وقد قال قبل ذلك : (لقد نحيا السنين الطوال ولا نكاد نشعر أن لنا جسما) انتهى .

فهل ثلاثة الملايين من نوع الأشكال المخروطة ، والثلاثون مليونا من الاسطوانات كلها من هذا القبيل ؟ فقلت نعم وربى ، فالأشكال المخروطة يراد بها هنا القصبات ، والأشكال الاسطوانية هى المعبر عنها هنا بالعصى فقال : إذن هذه المخاريط ، وهذه الاسطوانات كلها لأجل إحساسنا . فقلت نعم . فقال : ولماذا هذا كله؟ قلت لأن النور من عالم الحس وأمره سهل ، ولكن وصول صوره إلى نفوسنا التى ليست من المادة فى شئ يعوزه آلات لها خواص فوق عقولنا . وهذه الآلات هى الاسطوانات والمخاريط اللاتى تعد بعشرات الملايين نحن هنا فى مقام الجمال والبهجة .

إن أكثر هذا النوع الإنسانى يعيشون ويموتون ولاهم يذكرون ، وكم من رجل يدرس علم الضوء وعلم التشريح وهو غافل عن هذه العجائب التى يقرؤها ولا لذة لها فى نفسه لأنه مجبور على الدرس ، مقهور على التحصيل ، والله عز وجل لم يرفع أمة بعد ضعتها إلا بأناس يختارهم هو ، يخلقون فى الأمم ، وهم الذين يعشقون هذا الجمال الذى يتضاءل فى جنبه كل جمال ، فهؤلاء يؤثرون فى أممهم لأن القلوب تحس بالقلوب وإن طال المدى ومضت عصور ودهور ، وأى أمة خلت من هؤلاء العشاق لهذا الجمال فهى لا محالة مريضة مرضا لا يزيله إلا ظهور حكماء عشاق لهذا الجمال ، فهؤلاء إذا اطلعوا على هذه الحكم يدهشون من كوكب بيننا وبينه آلاف السنين وضوؤه يصل إلى عيوننا ، وهذه العيون لما خلقت وضعت على مقتضى نواميس الضوء الرسل من أبعاد شاسعة ، وهذا الضوء يمر فى أوساط لكل وسط منزلة خاصة ، فمنها ما يحفظ الصورة التى يحملها الضوء ، ومنها ما يجمع الضوء ، ومنها ما ترسم الصورة عليه ويوصلها إلى ما خلفها .

إن الإنسان إذا نظر إلى هذه الشبكية يدهشه أمرها ، فما هذه الطبقات فى تلك المسافة الضيقة ؟ فهل سمك الحدقة يتخلله تلك الملايين ومئات الملايين ؟ إن ذلك أمر عجب .

علم الله أن المسلمين سينامون نوما عميقا ، وهم يجهلون رحمته الواسعة لغفلة أكثرهم عن العلوم ، فأنزل بسم الله الرحمن الرحيم تقرأ فى الصلوات ، وفى الغدوات والروحات ، وفى مبدأ الأكل والملبس ، وكل أمر ذى بال ، إذن ذكر الرحمة ملازم للمسلم فى جميع أحواله ، أليس هذا معناه ادرسوا الرحمة أيها المسلمون « أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها » وهذه آية من القرآن ، فأين التدبر إذن؟ إن العين وعجائبها وعجائب

الضوء من الرحمة العامة التى غفل عنها أكثر الناس فى الأرض ، وكل من درسها وتعمق فيها فإنه فى هذه الدنيا قد نال السعادة الحقيقية ، وأى سعادة لهذا الإنسان أعظم من الاطلاع على الحقائق ، إن الحقائق وفهمها هى السعادة الحقيقية لهذا النوع الإنسانى ولكن أكثر الناس لايعلمون ولا يستعدون .

ومن أعجب العجب أن الاطلاع على هذا المجال بدراسة العلوم سعادة للنفس فما نكتبه فى هذا التفسير وغيره يرقى الناس فى هذه الحياة الدنيا ، إذن فهم الرحمة فى هذه العجائب مسعد للنفس فى الدنيا والآخرة ومرقى المدنية فى هذه الحياة .

الله أكبر : أنا أقول سيكون فى بلاد الإسلام كثيرون من هؤلاء العشاق ، لأن الله أذن بذلك اليوم ، وهؤلاء هم الذين يملئون بلاد الله علما ، ويكونون رحمة لجميع الأمم بعد أن يرقوا أمم الإسلام ، لهذا أنزل الله «بسم الله الرحمن الرحيم» وكررت فى كل مقام فى جميع الأحوال .

تأثير الضوء فى النبات والحيوان والجماد

فقال صاحبى : أتذكر أن فى (سورة يس) كلاما حسنا على الضوء وتأثيره ، وهناك الصور الشمسية للورق ، وفى كل ورقة حجرات تعد بالآلاف ؟ فقلت نعم إننا ذكرناهناك أن مقادير غاز حمض الكربونيك فى الجو قليلة ، فهى بالنسبة إلى الهواء كنسبة واحد إلى ألف ألف ، والفحم الصافى فى الجو ١٣٨ ألف ألف ألف طن تقريبا ، والنبات بتعرضه للهواء يمتص غاز حمض الكربونيك من الجو بمساعدة الأوراق ، ولن يتم ذلك إلا بمساعدة الشمس ، إذن الشمس لها أثر فى أعيننا نهتدى به فى أعمالنا وطرقنا ، وفى النبات بإحداثها فى معامل الأوراق تفاعلا به يكمل النبات ويعيش الحيوان والإنسان ، وهذا الموضوع قد تعرض له مؤلف كتاب (علوم للجميع) وقد أوضحناه الآن إيضاحا أتم ، وذكر أن المستشفيات أما كنها المعرضات للشمس أكثر تكون أقرب إلى صحة المرضى من غيرها . فقال : الحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات . وبهذا تم الكلام على تركيب العين ومعرفة أجزائها ليعرف المسلمون ماهو النظر المذكور فى آية : «أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج» وهو المبحث الأول من اللطيفة الثانية .

المبحث الثانى من اللطيفة الثانية

فى عجائب السماء والكواكب

وإذ فرغنا من الكلام على العين فلنبحث الآن فى نجوم السماء وشموسها ومجراتها وسدائمها فنقول ومن الله التوفيق :

الكلام على السماء

قلت لك أيها الأخ الذكى فيما تقدم إن هذا العالم مملوء جمالا ، وهذا الجمال مخبوء عنا ، وهو حاضر لدينا هذه عيوننا كيف نرى تركيبها فى غاية العجب ، بل هو كالسحر ، فما هذه الشبكية التى تبلغ عشر طبقات وإذا كان غلظها لايزيد على نحو جزء من ستة أجزاء من الليم فكيف تنقسم إلى عشر طبقات ؟ وكيف يكون فى الطبقة الواحدة (٣) ملايين مخروط و (٣٠) مليون عمود ، والأعمدة والمخاريط تقدم تصويرها موضحة فى صورة مرسومة آنفا لإيضاح الأعمدة والأساطين تجد ثلاثة مخاريط تتخلل ست أساطين موضحة باهرة جميلة .

فياليت شعرى كيف تكون الطبقات الباقية من الشبكية فكم فيها من أشكال ، وإذا ضربنا عشرة فى (٣٣) مليون يكون عندنا (٣٣٠) مليونا كلها فى الشبكية والشبكية طبقة واحدة يحيط بها نحو تسع طبقات فتكون (٣٣٠) أخرى لطبقة واحدة من التسع ويصير الطبقتان نحو (٦٦٠) مليونا ، وليس هذا الحساب

مدققا بل هو تقريبي ، وعلى هذا بقية الطبقات ، والعين الثانية كذلك فيكون عندنا ملايين تعد بالآلاف إذا فرض أنها مثلها في تعداد أشكالها ، وإذا فكرنا فيما هو أعظم من ذلك وهو الدماغ وأخذنا جزءا صغيرا منه ، وهو المادة السنجابية فإننا نراها (٦٠٠) مليون خلية ، والمادة السنجابية بالنسبة للدماغ ضئيلة فكيف يكون جميع الدماغ ؟ وكيف يكون عدد خلاياه ، إن هذه العجائب العلمية المتقدمة في النظر تلفت عقولنا للمنظورات السماوية والكواكب ، ونحن إذا أردنا الكلام على السموات فإننا لا ندري في أي باب نكتب وهذا العلم له شعب كثيرة ، وخير مانختاره اليوم أن نذكر سعة السموات وكثرة نجومها حتى نوازن مابين كثرة الكواكب وكثرة الأشكال العجيبة في أعين الحيوان والإنسان :

(١) فنحن لانقف في هذا المقام على بعد القمر عن الأرض .

(٢) وإنه ٢٣٨٨١٧ ميلا :

(٣) ولا على عطارد الذي يتم دورته المحورية في ٢٤ ساعة و ٨ دقائق .

(٤) ولا على الزهرة التي لايزيد يومها عن ٢٣ ساعة ونيف .

(٥) ولا على المريخ الذي ظهر للعلماء أن الثلج في قطبيه لايذوب إلا ببطء ، ويؤكد الأستاذ (بكرنج) أن ترع المريخ حقيقية لاخداع فيها وله غيوم تسير حوله ، ومن رأيه أيضا أن النبات في المريخ مؤكد الآن وكذلك بعض الحيوان ، وقد كان الرأى السائد أولا أن في المريخ سكانا ثم تغير الرأى فقالوا لاسكان فيه ، ثم رجعوا الآن وقالوا فيه سكان ، وقاسوا طول بعض الغيم فيه فوجدوه بلغ (١٢٠٠) ميل والعرض (٥٠٠) ميل ويسير بسرعة ١٤ ميلا في الساعة ولم يقتصر العلامة (بكرنج) على أن فيه نباتا وبعض الحيوان ، بل قال إن فيه عقلاء وهم يريدون مخاطبتنا .

(٦) وهكذا المشترى وأقماره التسعة .

(٧) ولا نكتفي أيضا بمعرفة زحل وحلقاته الثلاث المتقدمة في هذا التفسير وأقماره العشرة .

(٨) ولا بأورانوس وأقماره الأربعة .

(٩) ولا بنبتون الذي يدور حول محوره في سبع ساعات وخمسين دقيقة .

(١٠) ولا بالسيار الجديد الذي كشف سنة ١٩٣٠ في ١٣ مارس المسمى (بلوطو) .

(١١) وإذا بحثنا في نظام شمسنا الآن فإنما نجعله توطئة لما بعده ، لأن ذلك شرحناه سابقا في سور كثيرة إن الشمس نجم صغير جدا بين مئات الملايين من الشموس الكبيرة وهي فوق سطح المجرة وتبعد عنه (٥٠٫٠٠٠) خمسين ألف سنة نورية ، وليست مقيدة بذلك بل هي سائرة مع شموس أخرى بسرعة مليون ميل في اليوم ، وآخر كشف لبعدها عن الأرض أنه ٩٢٫٨٣١٫٠٠٠ ميلا وحرارتها على سطحها (٧٤٠٠) درجة بقياس سنتغراد ، وذلك سنة ١٩١٠ م وعلى سطح الشمس قد ترى كلف كثيرة كالتي رآها العلماء سنة ١٩٠٧ م ومجموع مساحتها (٨٠٠) مليون ميل مربع ، ثم ظهر مجموع آخر بعد ذلك مساحته ألفا مليون ميل مربع ، وكلما ظهرت هذه الكلف نقصت الحرارة على الأرض ، وهي من نتيجة ظهور كلف الشمس ، إن الشفق القطبي الشمالي يظهر إذ ذاك ويبهر ويقال : إن أحوال كلف الشمس الظاهرات على وجهها تشبه براكين ثائرة فتدفع منها مواد مكهربة تنتشر في الفضاء فيصل بعضها إلى الأرض ويسبب الشفق القطبي ، ومنه الذي ظهر في أوروبا أبهر بشكل بديع حتى وصل إلى سوريا ورؤي رأى العين .

وإذ ذكرنا نبذة عن الشمس فلننتقل إلى عوالم أخرى ونجوم جديدة ، إن أول نجم جديد عرفه الناس

كان

كان قبل الميلاد سنة ١٣٤ ق . م ثم ظهر من ذلك الزمن إلى الآن ١٩ نجما جديدا أى إنهاظهرت أوخلقت بعد أن لم تكن :

ويقول الأستاذ شابلى فى جامعة (هرفرد) : إن النجم الصغير الذى اسمه (دورادس) تابع لغيوم مجلان بعده عنا (١٢٠) ألف سنة نورية ويلمع فوق لمعان شمسنا (٦٠٠) ألف مرة ، وظهر فى غيوم (مجلان) نجوم يفوق لمعانها لمعان شمسنا من (١٥٠٠٠) إلى (٦٠) ألف شمس .

يقول الدكتور (ديزن) فى خطبة تلاها فى المعهد العلمى بلندن : إن من النجوم مايبعد عنا (١٠٠) برسك والبرسك (٢٠٠٫٠٠٠) مائتا ألف ضعف بعد الشمس عنا ، وإشراقها يختلف أيضا فترى :

٢٤	نجما إشراق كل منها مثل ١٠٠ شمس			
٣٤٠	»	»	»	٥٠ شمسا
١٣٥٠	»	»	»	٢٥ »
٤٨٤٠	»	»	»	١٠ شموس .
١٣٢٠٠	»	»	»	شمس واحدة :
٩٣٣٠٠	»	»	»	١/١٠ شمس .

فنجم القطب من النوع الأول وبعده عنها أربعة ملايين بعد الشمس عن الأرض أى ٣٧٢٠ مليون مليون ميل ، وهناك نجوم أبعد من نجمة القطب وأشد إشراقا منها ، فترى هناك ٢٦٩ من النجوم الحمراء بعدها عنا (٢٠٠) مليون بعد الشمس عن الأرض والنجوم الصفراء منها مابعده عنا أقل من ٢٠ مليون بعد الشمس عن الأرض ؛ ومنها مابعده عنا أكثر من ١٠٠ مليون بعد الشمس عن الأرض .

شمس الشموس

لقد تقدم فى الجزء الأول فى هذا الكتاب فى أوله أن جميع الشموس فى مجرتنا تجرى حول شمس عظيمة وهذه الشمس تسمى (شمس الشموس) وهى العيوق (بتشديد الياء) التى تدور كواكب المجرة كلها حوله ويقولون : « إن جرمه أكبر من الشمس مليونين و ٤٢٠ ألف مرة وإشراقه أكبر منها ٤٩٧٠٠ مرة وبعده عنا ٤٨٩ سنة نورية .

ويقولون : إن جميع الشموس ومنها شمسنا تدور حوله ، وعدد هذه النجوم فى مجرتنا ٣٠ ألف مليون نجم أو شمس ، وقطر المجرة يقدر بنحو ٣٠٠ ألف سنة نورية ، وقطر السديم الذى فى المرآة المسلسلة يبلغ عشرين ألف سنة نورية ، وأخفى السدم يبعد عنا ١٠ مليون سنة نورية .

ومن أعجب العجب أن تظهر اليوم (سدم) جديدة ، فقد كشف (هبل) أكثر من ألفى سديم فى ٩٠ صورة فوتوغرافية ، ووجد منها ٨٠٠ سديم ألمع من غيرها ، ومن هذه ٣٠ حلزونية ، وهناك سدم لولبية ومنها سديم المثلث ، وهذا السديم يبعد عنا ٨٠٠٫٠٠٠ سنة نورية ، فهو أبعد جدا من المجرة ، ومجرتنا المذكورة يظن بعض علماء الفلك أنهاسديم لولبى أيضا ، ولا يراها هكذا إلا من كان بعيدا جدا ، وبعد سديم المرأة المسلسلة ٦٠٠٫٠٠٠ سنة نورية ، ويطول قطره ٢٠٫٠٠٠ سنة نورية .

ويقول (هبل) : إن بعده ٩٥٠ ألف سنة نورية ، وهو أبعد سديم عرف إلى الآن . إن السدم على اختلاف أنواعها عبارة عن عوالم كعالم مجرتنا التى تحوى ٣٠ ألف مليون شمس كما تقدم ، ولقد قلنا إن سديم المرأة المسلسلة فما تقدم أن بعده فوق ٩٠٠ ألف سنة نورية ، وهناك فى جهة كوكبة (شعر برنيق) والسنبلة سدم بعدها عنا مليون سنة نورية ، وسرعة بعضها ٣٠٠ كيلو متر فى الثانية ، وبعضها ٦٠٠

كيلو متر فيها ، وقد ظهرت أبعاد مجموع من نجوم وسدم تبلغ ٢٨٢٢ للأستاذ شابلى إذ أبعدها كلها مليون سنة نورية ، فلو أن كوكبا منها فقد منذ ٩٠٠ ألف سنة فإن نوره لايزال يجرى إلى الأرض ، ويبقى بعدنا مائة ألف سنة ، وهذه عجائب فوق عقولنا ، ماأوسع هذا الكون ؟ إن النور يسير فى الثانية ١٨٦ ألف ميل ، وإذا دار حول الأرض لم يستغرق أكثر من سبع ثانية وإذا دار حول هذا العالم احتاج إلى مائة مليون سنة نورية . وأرضنا لو صغرت كالجوهر الفرد (كما قدمنا) وصغر العالم على مقتضاها رأينا ألف مليون أرض منتشر حولها .

قدمنا أن فى مجرتنا (٣٠) ألف مليون شمس ، وكل شمس لها سياراتها وتوابعها كشمسنا ؛ وفى الفضاء مليونان من السدم ، وكل سديم أشبه بمجرتنا ، وفى الكون فضاء يفوق الفضاء الذى يرى بالتلسكوب ألف مليون ضعف ، ويقدر عدد السدم فيه إذ ذاك بما يبلغ ألفى مليون مليون سديم ، فإذا كان فى كل سديم منها ألف مليون نجم كان عدد النجوم فى الفضاء المنظور وغير المنظور نحو ٢ على يسارها ٢٤ صفرا ، أو ٢ مليون مليون مليون مليون كوكب ، أو ٢ ألف ألف ألف ألف ألف ألف ألف ألف كوكب .

ولأقتصر على هذه الخلاصة الآن من علم السماء لتعرف أيها الأخ رحمة الله الواسعة ، وإسعاده لنا ، وإشراق نوره علينا .

الله أكبر : ما هى هذه السماء ؟ وما هى عينى التى تنظر السماء ؟ اللهم حار فكرنا فى جمالك ، ما هذه السماء ؟ وأى عالم تسير فيه الكواكب ؟

الله أكبر : انظر أيها الأخ الذكى فيما كتبناه فى (سورة الصافات) فى أولها ، واعجب من أن عالم الأثير الذى تجرى فيه هذه الكواكب المذكورة عالم لايحس ولا يرى ولكنه وهو كالمعدوم أثقل من الحديد والرصاص والذهب أضعافا مضاعفة ، أى أنه لو كان جرما لكان كذلك ؛ فارجع إليه هناك وادرسه ؛ فهذا الفضاء المملوء بالأثير الذى لاندرك وجوده أثقل من أثقل المواد الأرضية ، وهذا أمر عجيب غريب ، وهو مع غرابته تسبح فيه عوالم تبلغ إذا عرفت كلها ملايين الملايين ، وكل عالم منها يشابه مجرتنا التى تجمع ٣٠ ألف مليون شمس ، وهذه الأعداد مدهشة .

هذا هو الفضاء فوقنا ، وهذه عوالمه ، ألست أيها الذكى وأنا أدرس العين معك قد رأينا هناك ملايين من الأشكال فى طبقة واحدة من عشر طبقات من الشبكية ، وهناك طبقات أخرى ، والعين جزء صغير من أجسامنا فكيف تكون حال المخ ؟ وكيف تكون حال بقية الجسم كله ؟ أفلا ترى معى أيها الذكى أن عيوننا تحوى من العوالم نحو عدد ما تحويه مجرتنا من الشموس ، وأن مخنا فى عظمته يشبه شمس الشموس فى عظمتها ، وأن جسمنا كله يشبه المجرات كلها والسدم كلها فى عدد كواكبها .

دهشنا يا الله من عجائب عيوننا ، ومن عجائب أجسامنا ، ومن عجائب عوالمك الكثيرة ، وبهذا عرفنا بصيصا من قولك : « أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج » .

إن فى هذه السورة : (١) الرحمة فى البسملة (٢) والنظر (٣) والسماء فى الآية ، ولمعرفة هذه الثلاث كتبنا هذه المقالة ، وسيدرس ذلك المسلمون بعدنا قرونا وقرونا ، وستفتح لهم أبواب وأبواب فى هذه الثلاث ، ولكنهم بعد آلاف السنين يخاطبهم الله قائلا « وما أوتيتم من العلم إلا قليلا » .

أيها المسلمون : « ألسنة الخلق أقلام الحق » ، قد اشتهر فى كل مجلس ومقام مايقوله العامة والعلماء على حد سواء ، وهو : « القرآن لا تنتهى عجائبه ، ولا تنقضى غرائبه » وفى الحديث : « إن أعلاه لمثمر ، وإن أسفله لمغدق ، وإنه يعلو ولا يعلى عليه » .

الله أكبر

الله أكبر : ها هو ذا باب العجائب قد فتح الآن ، فلجوه وادرسوا ، فتح على مصراعيه فاستبشروا بالسعادات والهناء والكمال .

تطبيق أقوال الصلاة على عجائب البصر وعجائب السموات

سيقرأ هذا المقال فى تفسير الرحمة ، وتفسير : « قل انظروا ماذا فى السموات والأرض » فيقولون : إننا فى الرفع والاعتدال نقول : « ربنا لك الحمد ملء السموات وملء الأرض وملء ما بينهما وملء ماشئت من شىء بعد » ، ثم يقولون « إن الحمد ليس مادة تملأ بها السموات ، وإنما الحمد ثناء بالجميل على من له جميل اختيارى ، وهذا الثناء لفظى لا ينبعث إلا عن امتلاء القلب بجميل أفعال الممدوح ، إذن الحمد لايصح إلا بعد العلم بمزايا الممدوح ، والله أبرز لنا هذه العوالم وكلها بديعة ، فنحن نحمده عليها وليس يصح حمدنا عليها إلا بعلمنا بها ، والعلم إنما هو حضور صورة المعلوم فى نفس العالم ، وعلى مقدار استكمال العلم فى نفس الحامد يكون استكمال حبه للمحمود ، وهذا الحب يحرك اللسان بالثناء ، والجوارح بالأفعال ، فالمصلى يكون حمده على مقدار إحاطته بالعوالم ، فذكر المصلى للسموات والأرض وما بينهما وما بعدهما يراد علمها سواء أكان قليلا أم كثيرا والحمد على مقتضاه ، وكلما ازداد المصلى علما بهذا ازداد من ربه قربا .

هذا معنى ملء السموات والأرض إلى آخره ، لأن صفات الله ظهرت آثارها فى هذه العجائب ، وعبر عن إحاطتها بالعلم بلفظ الملء ، كأن المصلى العالم قد أدرك الأشياء فكأن علمه أحاط بها وملأها . وكل امرىء يملأ العوالم ، هذا فى حال الرفع والاعتدال ، فأما فى حال السجود فان المصلى يقول : « سجد وجهى للذى خلقه وصوره ، وشق سمعه وبصره ، تبارك الله أحسن الخالقين » فهاهنا ذكر المصلى السمع والبصر والله يقول : « فاسجد واقترب » فهاهنا الاقتراب لأن الدقة فى صنع السمع والبصر كما قدمناه أحرى بأن تقرب العبد من ربه ، والنظر للسماء فى حال الرفع أشبه بالمقدمة لذلك ، فالمسلم فى ذكره السموات كالمبتدىء ، وفى ذكره السمع والبصر فى السجود كالمنتهى ، وهذا هو الحق الصراح ، ألا ترى رعاك الله أن موضوع البصر الذى شرحناه فى هذا المقام يأخذ بلب العارف به ويرى فى نفسه شوقا وحبا وغراما ، ويكاد فؤاده يطير من الحب والبهجة والجمال ، ولكن ذلك لا يكون إلا لقليل من الأذكياء فى هذا النوع الإنسانى بهذا يقترب الإنسان من ربه اقترابا علميا مع الحب والبهجة .

هذا معنى قوله تعالى : « واسجد واقترب » فها هوذا سبحانه ذكر السجود والاقتراب بعد ذكر السمع والبصر ، وتشريح السمع والبصر ، والوقوف على عجائبهما ، وهذا يذهل اللب فيكون الحب والقرب ، أما النظر إلى السماء فليس فيه هذه البدائع ، فليس المدار على عظمة الأجرام كأجرام الكواكب ، ولكن المدار على إحكامها ودقتها كدقة حدقة العين التى تقدم شرحها .

الله أكبر : إن الآلات الدقيقة المعدنية الفلكية قد لاتساوى درهما أودراهم قبل صنعها وهى بعد الصنع قد تساوى مئات الجنيهات ، وهل هذا الثمن إلا لدقة صنعها ؟ ولما كان المدار على دقة الصنع والإحكام ، لا على عظم الأجرام حشرنا الله فى هذه الأرض وأمرنا ألا نطير منها إلى عوالم أخرى ، يريد منا أن ندرس هذه الأرض وما حولها وهو يعلم أننا لن ندرسها إلا إذا احتجنا إلى ما فيها ، وهل هناك حاجة أكبر من حياتنا نحن وبقائها فحكم علينا أن نغتذى منها هى ، وأحوجنا إلى العمل لاستخراج كنوزها ، وكل هذا نتيجته ارتقاء نفوسنا ، كل هذا يفهم من أقوال المصلى فى صلاته إذ يشكر ربه على السمع والبصر بعد أن شكره على السموات والأرض ، ثم سمع الله يقول : « واسجد واقترب » ، إذن السجود به يكون الاقتراب ، لماذا ؟ لأنه درس أدق الأعضاء ، فأما دراسة العوالم كلها إجمالا فانما هو تشويق للمباحث الجزئية .

اللهم إنا نحمدك حمدا كثيرا على نعمك ، ونشكرك على آلائك ، نحمدك على العلم ، ونشكرك على الفهم ، ومن أجل النعم أن دين الإسلام ممزوج بمصالح الدنيا بحيث إن أجل العبادت وأشرف الأعمال ما كانت وجهته المنفعة العامة للأمة ، فها هي ذه مسألة العين وطبقاتها وإبداعها وجمالها كيف كانت دراستها من أسباب حبك ، والاستغراق في بهجة جمالك ، والهيام بالحكمة ، والازدياد من العلم ، وكيف كان المصلي في رفعه وفي سجوده في أقواله يجمع مابين مبادئ العلوم في الأول ونهاياتها في الثاني ، وكيف كانت أقواله في الرفع منطبقة على الدراسة العامة في المدارس الثانوية في جميع مدارس العالم ، لأن تلك الدراسة يراد بها الالمام بالعوالم المحيطة بنا بقدر الإمكان ، ثم كيف كانت أقواله في السجود في حال اقترابه منك موافقة كل الموافقة للدراسة الخاصة التي بها يكون الإنسان مستحوذا على علم خاص قد ملك ناصيته .

ومن أعجب العجب أن ماتقدم في دراسة العين وما فيها من دقة الوضع وحسن الاتقان بصائر للناس وهدى ورحمة .

تسبيح المخلوقات

فهذا يفهمنا بصيصا من معنى قوله تعالى : «وإن من شئ إلا يسبح بحمده ولكن لاتفقهون تسبيحهم إنه كان حليما غفورا» ، ألم تر يارعاك الله إلى سواد القزحية ، وضبطه للنور فيما تقدم ، وحفظه للصورة التي حملها حتى تصل إلى المخ ، فهذا السواد ينظر له كل امرئ على مقتضى إدراكه ، فأما العاشق فلا يهمه إلا أنه جمال ظاهري فيكون إذ ذاك سببا للتناسل ودوام العيش في الحياة ، وأما الطبيب فإنه ينظر إليه من حيث الصحة والمرض ، وفي الحال الثانية يستعمل العقاقير ، فأما الحكماء فإنهم أرقى منزلة ، وأرفع قدرا ، ألا ترى رعاك الله أنهم ينظرون نظرا عاما فيقولون : إن هذا السواد إنما وضع هنا لحكم ، فيه حفظ الصورة وضبط الضوء ، وهذه تذكرنا بألوان الحيوان المذكورة في (سورة المؤمنون) وفي (سورة الروم) وكيف نرى أن الجمل والأسد والنمر كانت ألوانها موافقات لبيئاتها ، وللرمال والجبال حولها ، وكيف كان سواد الفأر لكثرة أعدائه ، فلو كان بلون غيره لأظهره النور فصار طعمة للمفترسات! ثم كيف نرى ذلك الطائر الأبيض في أمريكا يظهر بذيله الطويل ليلا وهو غير خائف ولا وجل مما حوله من الفاتكات ، ذلك لأن له رائحة خبيثة يطلقها على كل من اقترب منه وآذاه ، كما يفعل الظربان من ذوات الأربع في القفار ، ثم كيف نرى الزنبور ظاهرا برقشه ونفسه لايخاف عدوا ، ولا يبالي بصروف الأيام ، ذلك لأن له حمة تفتك بالأعداء .

هذا كله مشروح شرحا وافيا في (سورة المؤمنون) وفي (سورة الروم) مع الصور الشمسية فارجع إليه ، أليس هذا كله تنزيها لله عن العبث في أفعاله ، وأنه لايضع لونا ولا شكلا ولا حجما إلا لحكمة ، ولم يلون العين ويجعل في قزحيتها السواد مثلا ، ولم يجعل لها قرنية ولا رطوبة بيضية ولا قزحية ولا إنسان عين وهي الفتحة في القزحية ، ولا بلورية ، ولا رطوبة زجاجية ، ولا شبكية ، ولا مشيمية ، ولا صلبة إلا لحكمة خاصة ترجع للنظر .

فياليت شعري هل للتسبيح معنى إلا هذا ؟ هذا تسبيح وهذا حمد ، أما الحمد فعلى هذه النعمة وهي نعمة العين ، وأما التسبيح والتنزيه فذلك أن هذه الأشكال وهذه الطبقات وهذه الألوان ظهر أنها كلها محكمة تفوق الوصف ، بهذا يفهم المسلمون قوله تعالى : «وإن من شئ إلا يسبح بحمده ولكن لاتفقهون تسبيحهم » .

أو ليس من العجب أن التعبير بلفظ الفقه وهودقة الفهم بذكر بآية الأنعام إذ يقول : « فالق الإصباح وجعل الليل سكنا والشمس والقمر حسبانا ذلك تقدير العزيز العليم » .

ثم قال : « وهو الذى أنشأ كم من نفس واحدة فمستقر ومستودع قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون » لجعل العلم فى جانب علم الفلك ، والفقه فى جانب الإنسان وعلم التشريح ، إذن قوله تعالى : « ولكن لاتفقهون تسبيحهم » يشير إلى مافى الطبيعة من العجائب كطبقات العين وبدائعها المذكورة ، وقوله : « إنه كان حليما غفورا » ، فأما حلمه فهو ظاهر ، فإن الإنسان منا يحلم على الأطفال والجهال إذا أخطأوا وجهلوا ، ويرى الإنسان طفله لايعقل نعمه ولا يفهم مقدارها فيحلم الإنسان عليه لقلة إدراكه ، وهذا هو السبب فى قوله تعالى : « إنما نطعمكم لوجه الله لانريد منكم جزاء ولا شكورا » ، فهكذا يعامل الله عباده فهو يعلم أنهم يجهلون جهلا فاضحا ما أعطاهم من النعم ، فإننا لانجد عالما ولا جاهلا فى نوع الإنسان يدرك نعمة العين مثلا ، ولكنه يفهم مقدار الطعام عند من أكرمه به ، ويفهم العطايا المعتادة ويصبح محبا لمن أعطاه ، ولكنه قط لايتذكر نعمة العين ، بل هو يجهل تفصيلها ، إذن الله يعامل عباده لجهلهم بنعمه معاملة أحدنا ولده ومعاملة أشرافنا وأنبيائنا الفقراء ، والمساكين لأنهم لايعرفون نعم المحسنين لهم ، فهذا معنى كون الله « حليما » فى هذا المقام ، وأما الغفران فهو راجع لمن أعطاهم الله استعدادا للعلم والفهم فدرسوا هذه العلوم فعرفوا النعمة فأحبوا مسديها كما يحب الرجل العامى من أعطاه مالا ، أو كساه ثوبا ، والغفران هنا كالغفران فى أول سورة الفتح الذى جعل بابا للفتح بالعلم والمعرفة ، فالله حليم على عبده لجهله فإذا استعد للعلم وبه يعرف النعمة ويحب ربه يجعل الغفران مقدمة لذلك الفتوح والله هو الولى الحميد .

سر من أسرار حكم العين وسواد قزحيتها

سواد القزحية حفظ النور كما تحفظ الجسور ماء الأنهر ، وكما تحفظ القوة الغضبية أشخاص الحيوان ، فهاهنا نور حفظه سواد القزحية فى العين ، وهاهنا ماء حفظه الجسور ، وهاهنا قوة شهوية فى الحيوان أحاطت بها قوة غضبية لتحفظ بقاءها بمدافعة الفاتكات ، وهاهنا أمم تحفظها جيوشها من هجوم الأعداء ، إذن سواد العين ، وجسر النهر ، وغضب الحيوان ، وجيوش الدول ، كل هذه حافظات لما ينفع الناس من نور وماء وحياة فرد أو حياة أمة . انتهى الكلام على اللطيفة الثانية فى آية : « أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج » أى مبحثيها معا وهما مبحث العين وطبقاتها ، ومبحث السماء ونجومها وكل هذا قد لوحظ فى بسم الله الرحمن الرحيم والحمد لله رب العالمين .

اللطيفة الثالثة

فى قوله تعالى : « والأرض مددناها وألقينا فيها رواسى وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج ، تبصرة وذكرى لكل عبد منيب »

فى هذه اللطيفة مقالتان

المقالة الأولى فى قوله تعالى : وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج

لما وصلت إلى هذا المقام حضر صاحبى العالم وقال : لقد تقدم فى هذا التفسير مقالات كثيرة فى النبات ولكنى أريد اليوم الوقوف على ملخص علم النبات بحيث يكون كأنه حاضر أمامى . فقلت : أيها الأخ الذكى : إن هذه الأرض والعوالم حولها كثيرة كثرة لاضابط لها إلا العلم ، ولا جرم أن النباتات على الأرض مبعثرة مشتتة ولن يضبطها إلا الوحدة ، فقال مامعنى الوحدة هنا ؟ فقلت إن عقول الناس فى هذه الأرض مشغوفة بالوحدة لأن الوحدة هى التى تطمئن بها القلوب ألا ترى أنهم يجعلون لكل منزل رب أسرة ولكل

بلدة رئيسا، ولكل أمة ملكا ، أو أميرا ، أو رئيس جمهورية، كل ذلك للوحدة، ونظير هذا فى العلوم فإنهم قسموها إلى مجموعة سموها علما، ثم قالوا : هذه العلوم كلها تسمى واحدا ، وهذا الواحد انقسم إلى علوم ، وكما يرجعون جميع الأعداد إلى الواحد ويرجعون العالم كله إلى الوحدة فيقولون : الله خلق العالم أى بعد البحث والتمحيص ، فهناك تطمئن القلوب الحكيمة التى درست هذا الوجود كله دراسة حقيقية ، أما العامة وصغار المتعلمين فهم من واد واحد يعيشون ويموتون وهم متحسرون على السعادة الحقيقية وهى الاطمئنان ووقوف النفس على الحقائق ؛ لاسعادة لأهل هذه الأرض إلا فى هذه المسألة التى هى مسألة المسائل فهكذا فيما نحن فيه وهو علم النبات ، وما علم النبات إلا كجميع هذه العوالم ، تراها مبعثرة مشتتة : نهر، بحر، أرض ، جمل ، جبل ، خيش ، أكواخ ، سحب ، كواكب ، هواء ، ذئب ، أسد ، حمل ، حمار ، غزال ، سمك وهكذا أمور لايدرى الإنسان أولها ولا آخرها ، فبالعلوم والحكمة تضبط هذه كلها كذلك علم النبات فإنا نقول : أرز ، نخل ، حشائش ، عنب ، نجل ، صنوبر ، قمح ، وهكذا لاضابط ولا قانون فلا علم ، وإنما هى أمور مبعثرات هنا وهناك ؛ فإذا رجعناها للوحدة سعدنا وأحسسنا فى أنفسنا بسعادة علمية جزئية ، ومتى درسنا مجملات العلوم كلها ورجعناها لوحدتها سعدنا السعادة التى لانهاية لها فى نفس هذه الحياة سعادة معجلة محققة . فقال صاحبى : والله لقد شوقتنى إلى هذه الوحدة فى النبات التى بها تكون سعادتى . فقلت : إن جميع الكائنات الحية نباتية كانت أو حيوانية مركبة من وحدة أو وحدات صغيرة تسمى كل منها خلية ، وهذه صورتها (انظر شكل ٨ الآتى) .

وأشرحها لك فأقول : « إذا تركب جسم النبات من خلية واحدة سمى « وحيد الخلية » أما إذا تركب من جملة خلايا فيقال له « عديد الخلايا » وتتركب مادته من جدار خارجى مادته كربو أيدراتية صلبة مرنة شفافة تسمى « السليولوز » وفى داخل الجدار مادة لزجة تسمى « البروتوبلازم » وهو الجزء المهم فى الخلية ، لأنه هو المادة الحية ، ولسنا نعرف بالضبط كنه الحياة ، غير أن المادة الحية المسماة « البروتوبلازم » صفات تميزها عن الأجسام الميتة منها .

أولا : أن للبروتوبلازم القدرة على هضم وتمثيل الغذاء (أى تحويله إلى مركبات بروتوبلازمية) .

ثانيا : أنه يؤكسد الغذاء ويخرج الفضلات .

ثالثا : أن له القدرة على النمو .

رابعا : أن له القدرة على الحركة .

خامسا : أنه يتأثر بالضوء والحرارة والرطوبة .

سادسا : أن له القوة على التكاثر والتوالد .

وبروتوبلازم الخلية يشمل جسما براقا أكثر كثافة منه يسمى « النواة » والمادة البروتوبلازمية التى حول النواة تسمى « السيتوبلازم » .

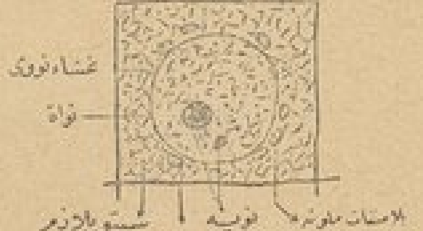

(شكل ٨)

النواة

تتركب النواة من شبكة مكونة من قضبان صغيرة تسبح فى سائل يعرف « بالسائل النووى » ويحيط بالنواة من الخارج غشاء رقيق هو « الغشاء النووى » (انظر شكل ٨) وقد يوجد داخل النواة جسم كروى صغير يسمى « النوية » وقد تحتوى النواة على نوية واحدة أو أكثر .

والنواة أهم جزء فى الخلية ، ويمكن الاستدلال على ذلك بقطع خلية إلى قسمين : يشمل الأول منهما نصف البروتوبلازم بما فيه النواة كلها ، ويكون الثانى خاليا من النواة ، أما القسم الأول فينمو ويستعيد ماانقص منه ، وأما الثانى فيموت بعد فترة من الزمن اه .

فقال صاحبى : إذن هذه الخلية هى أصل كل حيوان وكل نبات ؟ فقلت نعم . فقال : يظهر لى أن هذه الخلية أشبه بمنزل فيه أسرة تسكنه لأنه محيطها والسليلوز يحفظ مافى داخلها وهو الجزء المهم ، إذن هى كالجوزة ، أو كرأس الإنسان لها عظام فى داخلها المخ ؟ قلت نعم نطقت بالصدق ، وأيضا فى الحيوان قوة يحافظ بها على نفسه تسمى غضبية ، وقوة بها يعيش وهى الشهوية ، فالأولى كالمسكن ، والثانية كالساكن ، إذن القاعدة واحدة فى هذا النظام العالمى ، وهذه الآراء هى مبدأ السعادة التى حدثتك عنها ، فاذا أمكننا إرجاع كل نبات إلى تلك الوحدة وأخذنا نفرع عنها فروعا تشمل كل نبات كان ذلك سعادة جزئية خاصة بالنبات

فقال : أريد التفصيل بعد هذا الإجمال ؟ فقلت : إن النبات على قسمين : دنيئة ومرتقية ، فالدنيئة يكون انقسام الخلية فيها انقساما مباشرا ، والمرتقية يكون الانقسام فيها غير مباشر :

١ — الانقسام المباشر

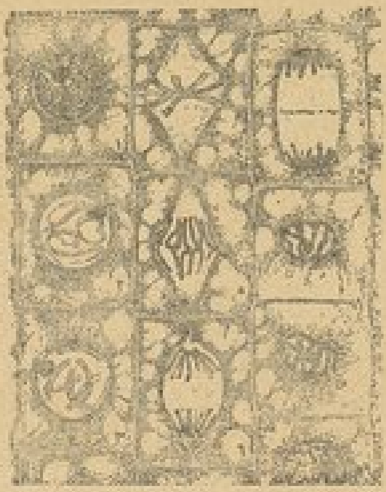

(شكل ٩)

انقسام الخلية غير المباشر ١–٩ أدوار مختلفة فى الانقسام

تسكون طريقة الانقسام فى خلايا بعض النباتات الدنيئة فى الغالب بسيطة ؛ فيحصل حز فى وسط النواة يمتد إلى باطنها شيئا فشيئا حتى تنقسم إلى قسمين : يتبع ذلك انقسام السيتوبلازم ، ويسمى هذا النوع بالانقسام المباشر .

٢ — الانقسام غير المباشر

انقسام النواة فى الخلايا العادية للنباتات الراقية يكون أكثر تعقيدا منه فى الحالة السالفة (شكل ٩) فعند ماتأخذ النواة فى الانقسام تنفصل القضبان التى تتكون منها الشبكة النووية ، ثم ينشطر كل منها طوليا إلى شطرين متساويين ومتشابهين من كل الوجوه ، وينجذب كل من الشطرين إلى قطب الخلية المقابل له ، فتجتمع أنصاف القضبان فى قطب ، والأنصاف الأخرى فى القطب الآخر ، ثم تتحد أفراد كل مجموعة مكونة بذلك شبكة نووية جديدة ، وينشأ بعد ذلك تكون غشاء فى السيتوبلازم يفصل النواتين الجديدتين . وتنقسم الخلية بهذه الطريقة إلى خليتين تكون نواتاهما متشابهتين فى صفاتهما وعدد قضبانهما ، وتسمى هذه الطريقة بالانقسام غير المباشر . اه

ثم قلت . انظر أيها الصديق إلى الخلية الواحدة ، ألا تراها كمنزل تسكنه أسرة ، ثم انظر كيف صار هذا المسكن مساكن بطريقة تخالف طرائقنا فى بناء مدننا ، فنحن نبنى بيتا بجانب آخر » أما هذه الخلية فانها تكبر وتنقسم بطريقتين مختلفتين . فقال : حسن ولكن أريد أن أعرف هل هذه الخلايا شكلها واحد أم هى أشكال مختلفات ؟ فقلت : كما أن الناس اختلفت أشكالهم هكذا تختلف أشكال هذه الخلايا ، بل أن هذا أمرا عجيبا ! ذلك أن هذه الخلايا تعمل عمل العقلاء من الناس ، فان العقلاء يجعلون الهواء يتخلل بيوتهم هكذا هذه الخلايا فهى مختلفة فى صورها كالناس محكمة نظام وضعها بحيث يتخللها الهواء (أنظر شكل ١٠)

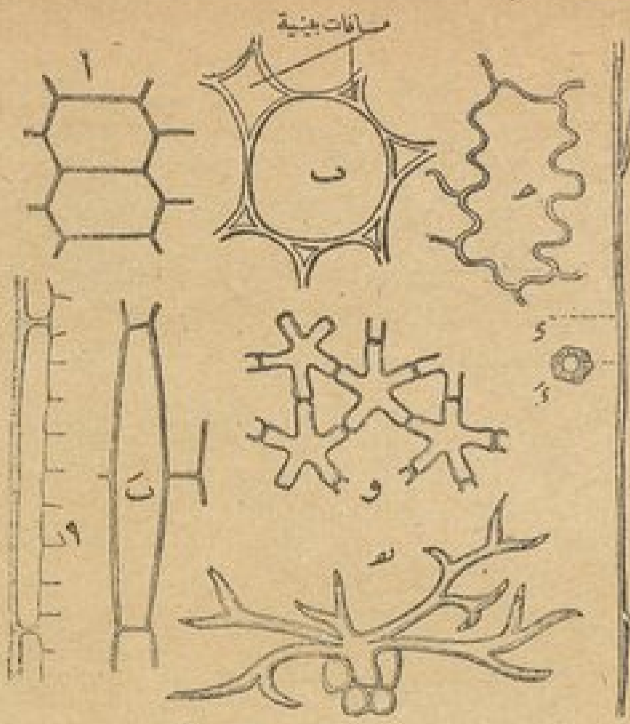

(شكل ١٠ – (ا) خلايا مرستيمية (ب بَ) خلايا برنشيمية (حـ حـَ) خلايا البشرة ويرى جدارها العلوى غليظا (د دَ) خلايا ليفية (هـ) خلية شعرية وبرية متفرعة، (و) خلايا نجمية الشكل بينها مسافات بينية واسعة)

إن الخلايا البالغة متعددة الأنواع مختلفة التركيب، فما كان منها متساوى الأقطار كرويا أو مستطيلا قليلا رقيق الجدران، وبه فجوة وسطية سمى بالخلايا البرانشيمية، وعند ماتنمو الخلايا البالغة تتفكك أركانها، ويتكون بينها وبين بعضها مسافات يتخللها الهواء تسمى بالمسافات البينية (شكل ١٠ـب) وهى موزعة فى النبات بحيث يتمكن الهواء من تخلل جميع أجزائه، وقد تستعمل المسافات البينية لتخزين بعض منتجات الخلايا كما فى نبات الصنوبر:

ثم قلت: انظر للصنوبر والبرتقال والليمون مثلا كيف فعلت مانفعله نحن فإننا نضع أمتعتنا فى الخلاء الذى فى داخل مساكننا، وإلى الغاب كيف تحللت منه خلايا ليكون فيها هواء، كما تفعل الحكومات إذ تهدم أبنية لتجعل فيها الشوارع:

فقال صاحبى: أما الآن فإنى قد فهمت وحدة النبات فهما حقيقيا، فأريد الآن أن أعرف أدنى النباتات وأعلاها. فقلت: أما أدنى النباتات فهى النباتات الدنيئة التى تتركب أجسامها من خلية واحدة؛ تقوم هذه الخلية بجميع الوظائف اللازمة كالامتصاص والتنفس والنمو والحركة والتناسل، أما فى النباتات الراقية فيتكون جسم النبات الواحد من عدد لايحصى من الخلايا، ولكى يقوم النبات بوظائفه خير قيام تتخصص مجاميع من خلاياه بأعمال خاصة، وتسمى كل مجموعة بالنسيج، وعلى ذلك يكون النسيج عبارة عن مجموعة من الخلايا المتشابهة فى الأصل، وغالبا فى الشكل تقوم بعمل متماثل وأنسجة النبات الحى تتعاون جميعا فى تأدية وظائفه الحيوية، ولا يمكن للنسيج الواحد منها أن يستقل بذاته ولو فصل عن باقى الأنسجة لماتت خلاياه تدريجا.

ثم قلت: انظر أليس تركيب النبات يشبه كتركيب الجسم الإنسانى العام. فقال: وكيف ذلك؟ فقلت ألست ترى أن النباتات الدنيئة التى هى من خلية واحدة وهى التى لانراها بأعيننا التى تشبه فى صغرها أدنى وأصغر الحيوانات الذرية التى لانراها أيضا قد أشبهت رجال البادية، فإن البدوى فى خيمته هو كل شىء، وهو الذى له السلطة على منزله، وهو المدافع عنه، وهو الحافظ له، ويعيش مستقلا كأنه دولة واحدة، أما النباتات الراقية فهى حتما أشبه بالأمة التى فيها جماعات كل جماعة لها عمل كرجال المالية والعسكرية والزراعة والتجارة والطب الخ، وكما أن كل فوج من هؤلاء فى الجمعية الإنسانية لاقيمة له مستقلا، هكذا كل فوج من جماعات الخلايا إذا استقل فإن خلاياه تموت.

وسترى فى سورة الواقعة عند آية : « إنهم كانوا قبل ذلك مترفين الخ » أن الأمم كلما كانت أقرب إلى خط الاستواء كانت أكثر تعرضا للأمراض ، وكلما بعدت عنه كانت أبعد عن تلك الأمراض ، وذلك أن الرطوبة والشمس بهما تنتشر الأمراض فى الأول ، وعلى ذلك إذا لم تقم كل جماعة بما يخصها من حفظ البلاد كدرس حال الجو وحال الحشرات وأسبابها والوقاية منها فإن الأمراض تكثر وتضعف الأمة كما يهلك النبات الراقى بكسل جماعات منه وضعفها .

فلما سمع صاحبى ذلك . قال : أريد أن تشرح لى أولا النبات ذا الخلية الواحدة ، وبعد ذلك تشرح لى النبات المركب من خلايا كثيرة منه ؟ فقلت : أذكرك بما مر فى سورة حم فصلت فى المجلد التاسع عشر عند آية : «ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة» فإنك ترى هناك البكتريا وأنواعها مرسومة مختلفة الأشكال وبها الحياة وبها الموت » فلولاها لم يكن نبات مما ننتفع به لأنها هى التى تفتت المواد الغذائية لتكون صالحة لأن يمتصها النبات ، ومنها تكون الجراثيم القتالة المهلكة لنوع الإنسان ، ولكن منافع هذه الأنواع أكثر من ضرها ، لذلك أبقاها الله فى الأرض ، ومن النبات الدقيق الفطرى الذى هو خلية واحدة الخميرة ونحوها هذا هو الذى تقدم .

فنحن إذن لانعيده هنا فإنه موضح هناك أى إيضاح . فقال نعم . فقلت : إذن نرجع إلى ما نحن فيه ونشرح تركيب ساق الشجرة ، فإذا كان النبات المركب من خلية واحدة قد تقدم شرحه فلنتمم الآن النبات المركب من خلايا ، ونبدأ بشرح ساقه سواء أكان النبات من ذوات الفلقتين أم من ذوات الفلقة الواحدة فذوات الفلقتين مثل : الكرنب ، والقنبيط ، والفجل ، واللفت ، والشليك ، والتفاح ، والكمثرى والمشمش ، والخوخ ، والكرز ، والبرقوق ، والورد ، والباذنجان ، والطماطم ، والتبغ ، والبطاطس والفلفل ، والسنط ، والقثاء ، والبطيخ ، والسنجية ، والتمر هندى ، والخروب ، والسنامكى ، والفول البلدى ، والفول الرومى ، والفاصوليا ، والعدس ، والحلبة ، والحمص ، والفول السودانى ، واللوبيا ، والبسلة ، واللبلاب ، والترمس ، والبرسيم البلدى ، والبرسيم الحجازى ، والقطن ، والبامية ، والخبازى واللوف ، والحنظل . فهذه كلها من ذوات الفلقتين .

أما ذوات الفلقة الواحدة فذلك مثل : البصل ، والثوم ، والكراث البلدى ، والكرات أبو شوشه والهليون ، والصبار ، والنخل ، والدوم ، وجوز الهند ، والقمح ، والأرز ، والذرة الشامية ، والذرة العويجة الرفيعة ، والشوفان ، والشيلم ، والدخن ، والدنيبه ، وقصب السكر ، والغاب .

فقال : هذا حسن ، قد عرفت ذوات الفلقة الواحدة وذوات الفلقتين ، وكنت أود أن أعرف ذلك من قبل ولكن الحمد لله على نعمة العلم ، فأريد الآن أن تشرع فى شرح ساق كل منهما لأنك شوقتنى إليه ، فإنى أرى الفول والفاصوليا والعدس والحلبة والحمص مثلا وآكلها ، ولكن لا أعرف كيف يكون تركيب ساقها ومن العار أن يكون الجمال حاضرا أمامنا ونحن عنه غافلون كالعميان أمام الغادات الحسان ! فقلت : إن النبات ذا الفلقتين تكون أول طبقة منه يراها الإنسان :

(١) ما يسمى (كيوتين) وهى مادة شفافة مرنة ، تمنع نفاذ الماء والهواء ، وبذلك تقى النبات تأثير الجفاف من زيادة بخر مائه الداخلى ، وقد يكون الكيوتين سميكا فى النباتات التى تعيش فى المناطق الجافة ورقيقا فى النباتات التى تعيش فى المناطق الرطبة ، هذه هى الطبقة الأولى : ثم قلت :

(٢) الطبقة الثانية : البشرة المركبة من طبقة سمكها خلية واحدة ، وهى خلايا متلاصقة حية ، وليست بينها مسافات .

(١) وهذه البشرة قد عتد منها شعر رفيع ، وكل شعرة من خلية أو خلايا ، وقد يفقد الشعر ماق داخله فيمتلىء بالضوء فيظهر كأنه أبيض ، وتارة تكون فيه مادة لاذعة تحافظ على النبات مما يأكله ، فهى له وقاية حقيقية .

(ب) وفى هذه البشرة ثقوب ، وتسمى ثغورا ، وظيفتها أن يدخل منها الهواء ويخرج .

(٣) الطبقة الثالثة : القشرة وخلاياها رقيقة جدا ، بينها مسافات ، وتارة تكون خلاياها سداسية الشكل تقريبا .

(٤) الاسطوانة الوعائية ، ويليها كتل مثلثة الشكل ، مرتبة على شكل دائرة ، وهى قطاعات عرضية للحزم الوعائية .

(٥) الحزمة الوعائية .

(ا) وفى أعلاها حواجز تشبه الغربال تسمى الحاجز الغربالى ، وتسمى اللحاء .

(ب) وفى أسفلها من جهة مركز الساق قسم يعرف بالخشب أو الزيلم .

(ج) ويفصل اللحاء عن الخشب قسم يسمى (الكمبيوم) .

(د) وخارج اللحاء قد تكون هناك ألياف ، وهذه قد تتكون منها أسطوانة كاملة حول الحزم الوعائية .

(٦) النخاع .

(٧) أشعة نخاعية وهى تصل القشرة بالنخاع بواسطة خلايا تمر بين الحزم الوعائية .

فقال صاحبى : هذا حسن ولكنى لم أفهم منه شيئا ، لأنها أقوال وتعريفات صامتة ، وهذه سبعة أحوال وقد دخل أحوال أخرى تبلغ نحوها فى العدد ، فأرجو إيضاح هذا بالأشكال . فقلت : (انظر شكل ١١)

فهذه ظهر فيها : الشعاع النخاعى ، واللحاء ، والخشب والبشرة ، والكمبيوم ، والنخاع ، والقشرة . فقال : ولكن أين (الكيوتين) ذلك الذى يحفظ للزرع مافيه من الماء إلى آخر ماتقدم . فقلت : (انظر شكل ١٢) فى الصحيفة الآتية

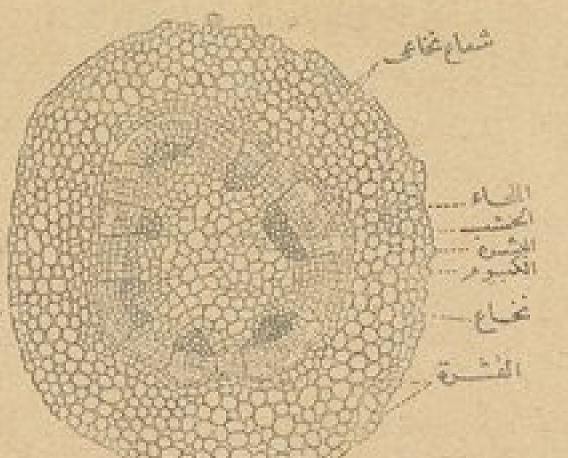

(شكل ١١ ــ قطاع عرضى فى ساق حديثة)

(شكل ١٢)

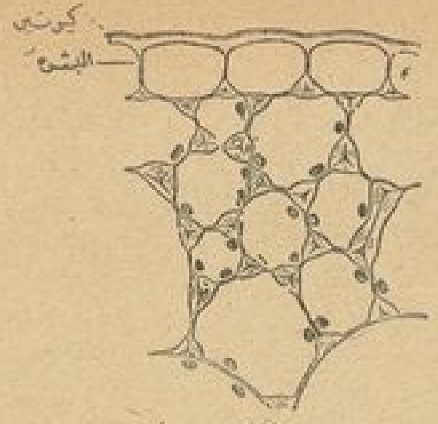

(شكل ١٢)

فقال : أنا مارأيت الحزم الوعائية؟

فقلت : هاهى ذه (أنظر شكل ١٣) :

(شكل ١٣ ـ قطاع عرضى فى حزمة وعائية صغيرة)

فقال ، وأين الحاجز الغربالى ؟ فقلت هاهو ذا (أنظر شكل ١٤)

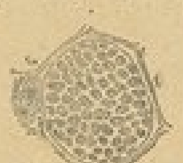

(شكل ١٤ ـ حاجز غربالى) ←

فقال : ولكن أين الخلايا الليفية ؟ فقلت (انظر شكل ١٥)

(أ)

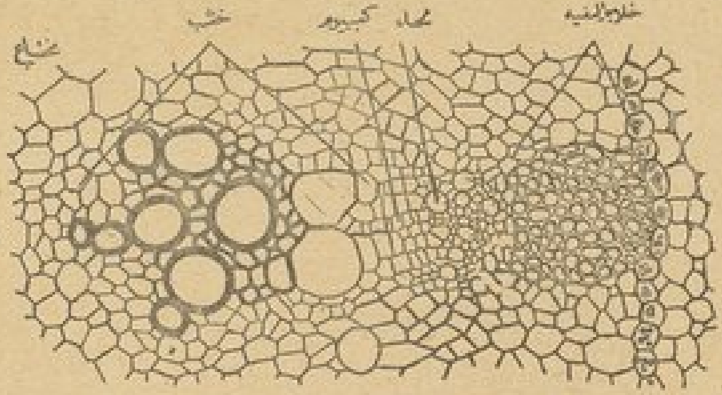

(ب)

(شكل ١٥)

(ا) قطاع عرضى فى حزمة وعائية ، وترى الألياف بجوار اللحاء .

(ب) قطاع طولى فى نفس الحزمة .

فقال . قد فهمت سوق النباتات ذات الفلقتين ، ولكنى أريد أن أمتحنها بنفسى فى الخارج . فقلت : من السهل الميسور مشاهدة الخيوط الليفية التى تمتد طولا فى ساق نبات رخو كالحلبة أو الملوخية بإزالة مايحيط بها من الأنسجة الرخوة ، ويعرف مجموع تلك الألياف فى الساق بالاسطوانة الوعائية ، والخيط الواحد بالحزمة الوعائية ، وتقوم هذه الحزم الوعائية

بتوزيع الأغذية المختلفة فى النبات ، ومن السهل أيضا مشاهدة الأنسجة الرخوة التى تحيط بالاسطوانة الوعائية من الداخل والخارج ، فالنسيج الذى فى داخل الاسطوانة ويشغل الجزء المركزى من الساق يسمى (النخاع) والذى يحيط بالاسطوانة من الخارج يسمى (القشرة) وتغلف الساق من الخارج بنسيج شفاف رقيق مكون من طبقة واحدة من الخلايا يعرف بالبشرة كما فى شكل ١١ المتقدم قريبا .

فقال : وكيف تتكون هيئة النباتات ذى الفلقة الواحدة ؟ فقلت: الحزم الوعائية فى سوق ذوات الفلقتين مرتبة على شكل دائرة منتظمة ، أما فى سوق ذوات الفلقة الواحدة فانها كثيرة العدد مبعثرة بغير نظام واضح (أنظر شكل ١٦ ، ١٧) .

ولذلك لا يمكن تمييز مناطق القشرة والاسطوانة الوعائية والنخاع بوضوح فيها ، وزيادة على ذلك فإن

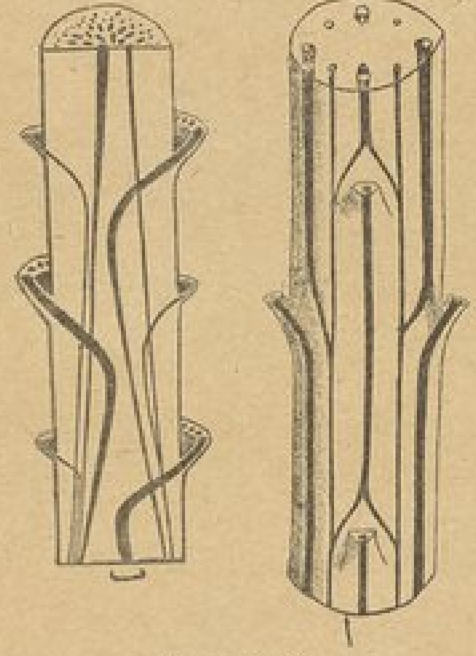

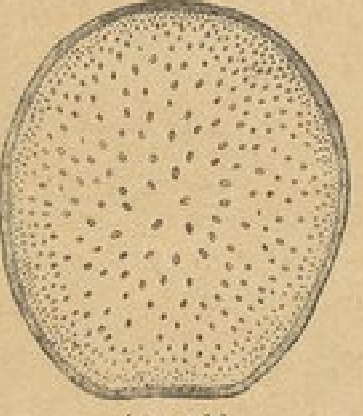

(شكل ١٦)

قطاع عرضى فى ساق من سوق ذوات الفلقة الواحدة

(شكل ١٧)

(ا) يبين سير الحزم الوعائية فى ساق ذوات الفلقتين.

(ب) يبين سير الحزم الوعائية فى ساق ذى الفلقة الواحدة.

حزم سوق ذوات الفلقة الواحدة خالية من الكمبيوم (أنظر ١٨)

فقال صاحبى : أريد أن أعرف بين نمو ساق النبات ذى الفلقة الواحدة وساق النبات ذى الفلقتين فقلت . إن ساق النبات ذى الفلقتين يزداد فى السمك عاما بعد عام إلا فى بعض أحوال شاذة (أنظر شكل ١٩) مثلا فى شجر الجميز ، أو اللبخ أو السنط ، وكلها من ذوات الفلقتين ، يلاحظ أن أطراف الأفرع (أى أحدث أجزاء الساق سنا) رفيعة ، وأنها تأخذ فى الغلظ كلما اقتربت من أسفل الساق (أى جزء الساق الأكبر سنا) ، أما فى النخل وهو من ذوات الفلقة الواحدة ، فيلاحظ أن غلظ الساق متساو تقريبا على طول النبات ؛ وذلك لعدم حصول ذلك فى السمك .

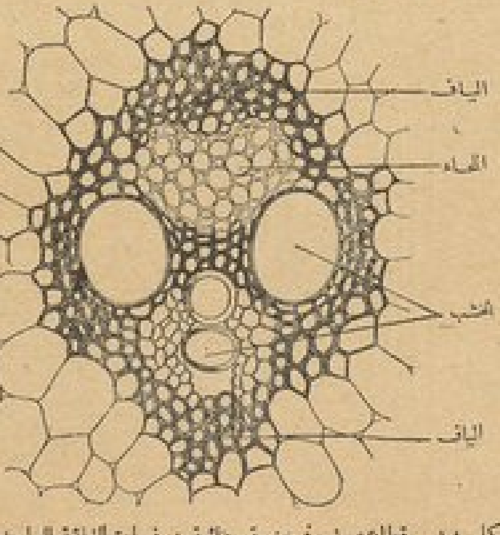

(شكل ١٨ ـ قطاع عرضى فى حزمة وعائية من ذوات الفلقة الواحدة)

شكل ١٩

والزيادة في السمك ترجع إلى نشاط طبقة الكمبيوم التي في حزم الساق بين الخشب واللحاء ، فتنقسم خلايا الكمبيوم مكونة خشبا في الداخل (أي في جهة النخاع) ولحاء من الخارج (أي في جهة القشرة) وفي نفس الوقت تتحول خلايا الأشعة النخاعية التي توصل بين كمبيومي حزمتين متجاورتين إلى خلايا من ستيمية وتكون خشبا في الداخل ولحاء من الخارج ، وتتصل بذلك حلقة الكمبيوم .

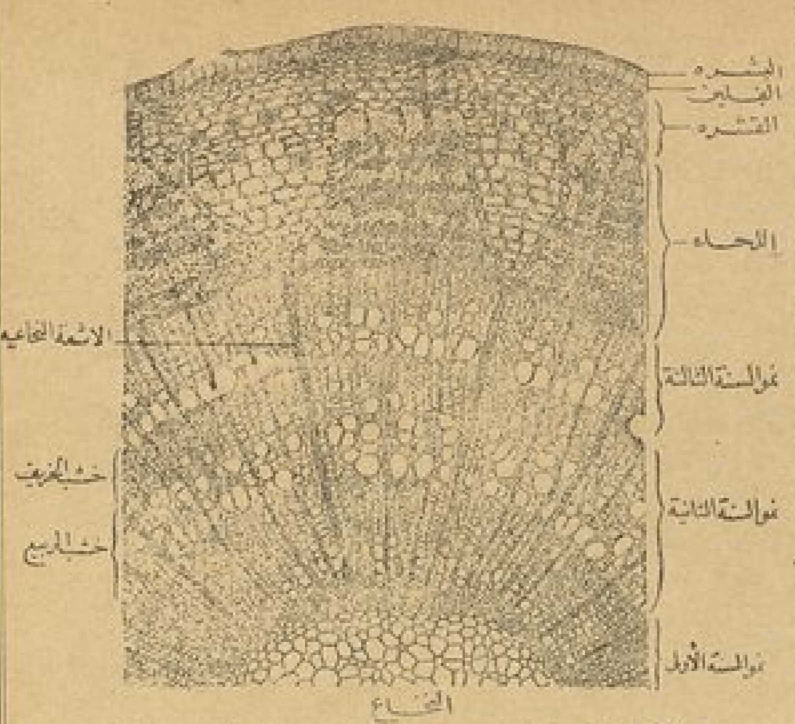

(شكل ١٩ ــ قطاع عرضي في ساق عمرها ثلاث سنوات)

الحلقات السنوية شكل ١٩

الخلايا الخشبية التي تتكون في الربيع تكون كبيرة الحجم ، رقيقة الجدر ، وذلك لأن النبات يحتاج في فصل الربيع (أي في فصل النشاط الذي يلي فصل السكون إلى مقدار وافر من العصارة لنمو أوراقه وأزهاره الخ .

أما في فصل الخريف فتكون خلايا الخشب صغيرة الحجم ضيقة غليظة الجدر ، وذلك لعدم احتياج النبات إلى مقدار كبير من العصارة في ذلك الوقت بعد أن يكون قد أتم نموه السنوي وبدأ يستعد لطور السكون .

وفي الربيع التالي تتكون الخلايا الخشبية الواسعة مرة أخرى . ولذلك يلاحظ في القطاع العرضي للساق المسنة حلقات ناشئة من وجود خلايا خشبية صغيرة مجاورة لخلايا خشبية كبيرة (شكل ١٩) وكل حلقة من هذه الحلقات تدل على مقدار نمو سنة كاملة ، ولذلك تسمى بالحلقات السنوية ، ويمكن تقدير عمر الساق إذا عمل فيها قطاع عرضي وعدت حلقاته السنوية شكل ١٩ ثم ٢٠

وتشاهد الحلقات السنوية في سوق النباتات التي تتساقط أوراقها في أواخر الخريف ، وخصوصا في البلاد التي فيها فارق عظيم بين درجتي حرارتها في الصيف وفي الشتاء ، أما في الأشجار المستديمة الاخضرار فمن الصعب تمييز هذه الحلقات . وذلك لأن النمو يستمر طول السنة تقريبا .

فقال صاحبي : كفى ما تقدم في ذوات الفلقة وذوات الفلقتين إجمالا ولكني أريد أن أعرف شيئا قليلا عن

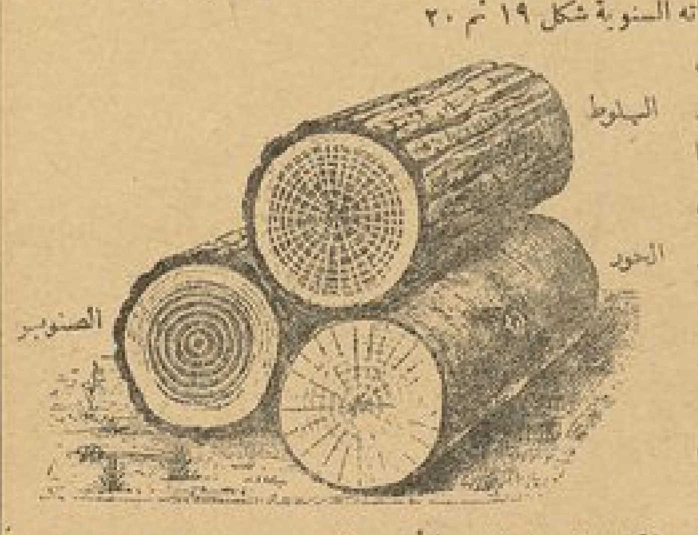

(شكل ٢٠) شكل الخشب في أشجار مختلفة . لاحظ الحلقات السنوية . والقلف

تركيب الجذر ؟ فقلت : إن الجذور يطول الكلام عليها ، ولكن أذكر منه أمرا واحدا ، وهى المنطقة الدائغة فيه (انظر شكل ٢١) .

فقال : أنا الآن أكتفيت بما تقدم فى تشريح النبات ، فأرجو أن أعرف أقسام المملكة النباتية . فقلت : هى أربعة تعرف كل منها بالمجموعة النباتية وهى :

(١) مجموعة النباتات الثالوسية .

(٢) مجموعة النباتات الحزازية .

(٣) مجموعة النباتات السرخسية .

(٤) مجموعة النباتات البذرية .

ثم قلت : أما النباتات الثالوسية فهى التى تقدمت فى سورة فصلت ، وقد عرفت آنفا ملخص ماهناك فإن فيها البكتريا والفطر (بضم الفاء والطاء) والطحالب ، وهذه كلها واضحات هناك فارجع إليها ؛ فإنك تعرف أكثر مما هو حاضر فى ذهنك ، وهناك صور جميلة توضح الموضوع . فقال : أريد معرفة النباتات الحزازية . فقلت (أنظر شكل ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٤) وهاك صورها .

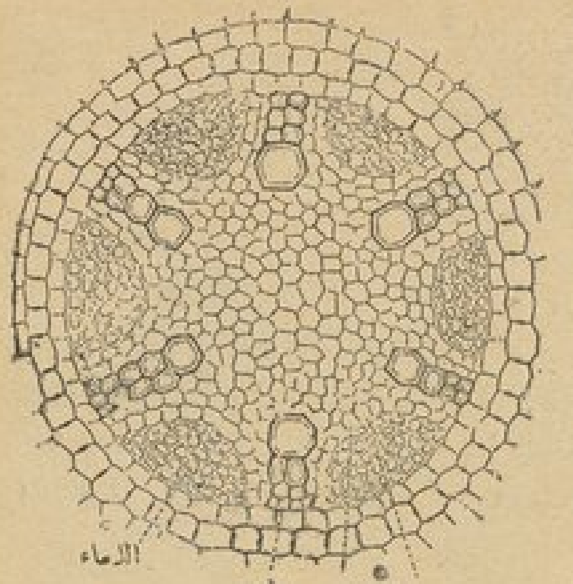

(شكل ٢١ ــ قطاع عرضى فى الإسطوانة الوعائية لجذر)

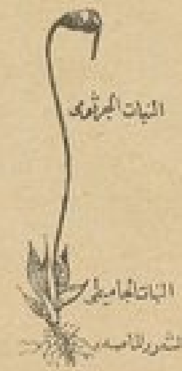

شكل ٢٣ نبات حزازى قائم

شكل ٢٢ نبات حزازى منبسط

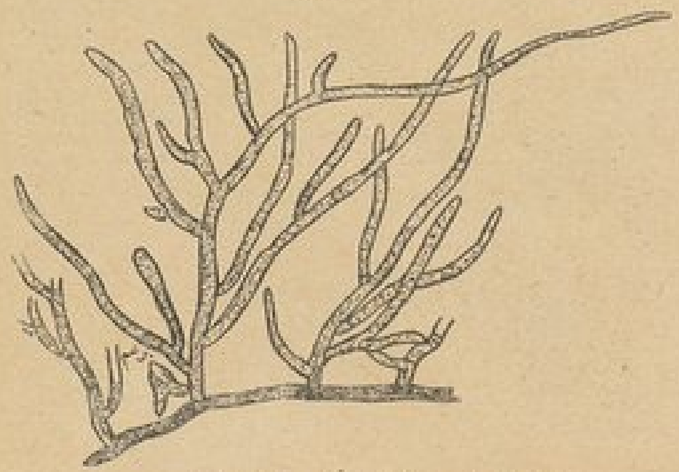

شكل ٢٤ ــ الخيط الأول وعليه برعم

فقال : وما مثال النباتات السرخسية ؟ فقلت انظر شكلى ٢٥ ، ٢٦ فى الصفحة التالية

(شكل ٢٦)

(شكل ٢٥ – أحد النباتات السرخسية الشجرية)

فقال لم يبق إلا الكلام على النباتات البذرية . فقلت : الكلام عليها يطول ولكن نختصره هنا فنقول : تعتبر النباتات البذرية أرقى المجاميع النباتية ، وتمتاز نباتاتها بتكوين البذور من البويضات التي تتكون في أعضاء خاصة تعرف بالأزهار ، وتنقسم النباتات البذرية إلى قسمين رئيسيين : —

(١) النباتات المعراة البذور : وهي التي تتكون بويضاتها معرضة للخارج ، ولا تحاط بغلاف خاص (مبيض) كالصنوبر والسرو ، ونباتات هذا القسم في الغالب خشبية ، وكانت عظيمة الانتشار في العصور الجيولوجية الغابرة ، غير أنها أخذت في النقص والاضمحلال بعد نشوء النباتات المغطاة البذور .

(٢) النباتات المغطاة البذور : وهي التي تحاط بويضاتها بغلاف خاص مقفل كالصندوق يسمى المبيض : وهذا القسم من النباتات البذرية له أهمية اقتصادية كبيرة ، إذ أن معظم نباتات المحاصيل تابع له . وتنقسم النباتات المغطاة البذور إلى : —

(١) النباتات ذوات الفلقة الواحدة .

(٢) النباتات ذوات الفلقتين .

وتختلف نباتات هذين القسمين من عدة وجوه ، والجدول الآتي يبين أهم مواضع الاختلاف :

موازنة بين النباتات ذوات الفلقة الواحدة وذوات الفلقتين

ذوات الفلقتين	ذوات الفلقة الواحدة
(١) لأجنتها فلقتان.	لأجنتها فلقة واحدة
(٢) الحزم الوعائية تحتوى على كمبيوم بين الخشب واللحاء ، وهى مرتبة على شكل دائرة فى الساق .	الحزم الوعائية لاتحتوى على كمبيوم بين الخشب واللحاء ، وهى مبعثرة بدون نظام خاص فى الساق ؛
(٣) تزداد سوقها فى السمك عاما بعد عام .	لاتزداد سوقها فى السمك إلا فى أحوال نادرة وبطريقة تختلف عما فى ذوات الفلقتين .
(٤) عروق الأوراق متفرعة على شكل شبكة .	العروق عادة متوازية ، وفى النادر شبكية .
(٥) أجزاء الزهرة ثنائية أورباعية أوخماسية .	أجزاء الزهرة ثلاثية أو مكررات ثلاثة .

وإلى هنا تم الكلام على المقالة الأولى ، والحمد لله رب العالمين ،

المقالة الثانية فى قوله تعالى : تبصرة

اللهم إنا نحمدك على توفيقك ، وإلهامك ، وإسعادك ، وامدادك ، ها نحن أولاء يا رباه عرفنا إبداعك فى نباتك :

(١) فإنك أبدعت فى تركيبه بحيث جعلت فى كل ساق مجموعات من النسيج الحلوى ؛ ولكل مجموعة منها عمل خاص ، فهى إذا أشبه بهيئة دولة لكل طائفة منها عمل ، وليس فى عملك معطل : « وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما لاعبين » .

(٢) وتراك أبدعت البشرة (انظر شكل ١١) بحيث جعلت خلاياها متلاصقة تمام التلاصق : وجعلت مايلى الهواء أغلظ مما سواه لتقدر على تحمل مايحيط بها ،

(٣) وجعلت الكيوتين لمنع الماء من البخر.

(٤) وجعلته سميكا فى البلاد الحارة رقيقا فى غيرها .

(٥) وإذا كانت هذه البشرة قد أعدت لمنع دخول ماهو خارج عنها لحفظ النبات ، والنبات لايصبر عن الهواء الخارجى ، فقد قضت الحكمة أن تكون فيها ثقوب ليدخل منها الهواء لحياة النبات .

(٦) ثم كيف كانت نفس هذه البشرة مزروعة بشعر يخرج منها فيحفظ بكثرته مافى باطن النبات من الماء ، ويمنع تأثير الضوء الخارجى ، فالشعر إذن ذو منفعتين داخلة وخارجة ،

(٧) ولما كانت البشرة وشعرها لاتكفى لمنع الحيوان قضت الحكمة أن يكون فى الشعر مادة يكرهها الحيوان فيحفظ النبات .

(٨) ياليت شعرى : ماهذه الكتل الثلاثة المرتبة على هيئة دائرة فى الحزم الوعائية (شكل ١١) وماهذا التنظيم الجميل ؟ .

(٩) ثم ماهذا الخشب (شكل ١٥) الذى ينقل العصارة من الجذور إلى الأوراق وغيرها ، إذن هو فى النبات قائم مقام القطار فى سكة الحديد ، أو المراكب الشراعية لنقل الميرة .

(١٠) ثم ماهذه الغرابيل (شكل ١٤) التى تنقل ماتم نضجه فى الأوراق كالمادة السكرية ونحوها إلى أجزاء النباتات الأخرى ، فهذه الغرابيل أشبه بالخدم يقدمون الطعام إلى ساداتهم .

(١١) ثم ماهذه الألياف ؟ وما هذا المسمى (الكمبيوم) الذى يتحول تارة إلى لحاء وتارة إلى خشب (شكل ١٥) فيزداد الساق غلظا ، إذن هو أشبه بقوم لما نرفع عليه بيوتنا ، فهو مقو للساق ، والساق يرتفع عليه البنيان .

(١٢) ثم

(١٢) ثم ماهذه الحلقات السنوية (شكل ١٩) و (شكل ٢٠).

(١٣) ثم ماهذه الخلايا التي جعلت مخازن لنحو السكر والنشاء والزيت.

(١٤) عناية جليلة وأمر بديع ، وهنا نسائل أنفسنا : ماهـذه الأعمال كلها ، وماهـذه البدائع ، أعراس والله وأفراح ، وزينة منصوبة ، لجل الله الذى غشي على عقولنا فلم نعرف هذه الزينة البديعة ، شمس تضيء ونورها يعتد على الأرض ، وبه حياة النبات ، ولـكن النبات إذا أحس بشدة ضوئهـا ظهر له شعر كشعر الإنسان ، وذلك الشعر يحميه من شدة ضوئها كما يساعد البشرة فى حفظ الماء فى داخل النبات من البخر.

هذه أعمال عجيبة وجميلة ، لم كانت هـذه كلها ، إنما كانت لأجل حياتنا نحن فى الأرض ، ربع مليون من أنواع النبات ، وكلها ذات أفراح وأعراس وجمـال وبهجة ، وكلها لأجلنا نحن . ثم إننا نرى فى أنفسنا من العجائب والبدائع أضعاف مارأينا فى النبات ، والا فما هذه القرنية فى العين (انظر هـذا المقام مفصلا فى سورة آل عمران وفيما تقدم فى هـذه السورة قريبا فهى أكثر تفصيلا : تلك القرنية الشفافة ، ومن تحتها العنكبوتية والقزحية ، وإنسان العين فى وسطها ، ثم ما هذه البلورية ، وهى المسماة أيضا عدسية وجليدية أيضا ، ثم ماهـذه الرطوبة البيضية فى أول العين ، والرطوبة الزجاجية التى بعد العدسية ، ثم ماهذه الشبكية والمشيمية والصلبة ، تلك الطبقات والرطوبات المنتظمات اللاتى أدهشن العلماء بنظامهن الدقيق . وإذا كنا نرى النبات قد حفظت الشعرات النابتات على البشرة مافيه من ماء ، ومنعت عنه مايزيد من الضوء ، وهكذا نرى فى البشرة ثغورا مدخلات فى النبات الهواء ، فهكذا رأينا أهداب العين حفظتها من دخول الغبار وان أباحت دخول الضوء ، وساعد على ذلك شعر الحواجب.

سبحانك اللهم ، وبحمدك ، أنت القدوس ، تقدست أن تفعل بلا حكمة ، صنعت هذه النباتات كلها ، وجعلتها خوادم لنا ، وأودعت فينا حكما لا حدلها كلها للمحافظة على حياتنا ، إذن حياتنا أمر عظيم ، وكيف لايكون عظيما ، وهـذه العين كما سبق قد كملت أوصاف وضعها ، وقد رأيت بالرسم أن الشبكية مع أنها لاتزيد ثخنها عن الورقة مقسمة عشر طبقات ، وفى آخرهن أسطوانات ومخروطات تعدبالملايين كلهن جعلن لأجل أبصارنا ، هذا كله لحياتنا نحن.

الله أكبر : حياتنا لاقيمة لها والله إلا بأن نعلم هذه العجائب ، وهذه هى التبصرة المذكورة فى الآية . فبدراسة هذه العجائب تقوى عقولنا وتـكون لنا بصائر ، وتتمرن على النظام والحـكمة ، وتتسع قوانا وتنفع أممنا ، هذه هى التبصرة ، ولهذا المعنى نجد هذه العلوم تدرس اليوم فى أوروبا وأمريكا واليابان . لماذا ؟ لتعطيهم التبصرة فلذلك ارتقوا فى الحياة ، إن الإنسان عند مشاهدة هذه الحـكم يكون مطلعا على أعمال معلم النبيين والمدرسين فى الأرض ، بل الإنسان إذ ذاك يشهد الملكوت بنفسه.

رجال أوروبا وقواد شعوب أمريكا كلهم يدرسـون أمثال هذا بهيئة أوسع ، وهذا عين قوله تعالى : «تبصرة» والإنسان بدون تبصرة لاقيمة لحياته . ذلك أن هذه النباتات ونحوها للوزعات على الأرض لم تخلق لأجل الطعام واللباس والدواء فحسب ، وإنما هذه المذكورات مغريات بالدراسة ، والدراسة توسع العقول وهو المقصود ، وهذا معنى التبصرة ، فعلى المسلمين أن يدرسوا هذه العلوم جميعها فى المدارس الثانوية كما تدرس فى جميع الأمم حولنا لنفهم قوله تعالى : «تبصرة» . فأف لمن مات وهو بهذه العجائب جهول ، وأف لأمم الإسلام بعدنا إذاهم أهملوا ماذكرناه . وأقول وأنا واثق مما أقول : أن أمم الإسلام بعدنا خير أمة أخرجت للناس ، وسيكون رقى الإنسانية على يديهم ، وهذا الـكتاب من مقدمات نهضتهم ، والله هو الولى الحميد.

المقالة الثالثة في قوله تعالى : « وذكرى لكل عبد منيب »

عرفنا إجمال علم النبات ، وعرفنا كيف كان تبصرة فلم يبق إلا أن نفهم معنى الذكرى ، درسنا النبات وعرفنا عجائبه ، وازدادت بصائرنا فصارت عقولنا راجحة لأنها مرنت على ما رأته من الحكمة، فهي لامحالة تكون حكيمة في أقوالها وأفعالها ، ولكن نفوسنا الشريفة العالية بعد هذا كله تقول : لكل مخلوق نتيجة وما نتيجتي أنا ؟ ، والإجابة على ذلك أن نتائج أرواحنا أنها تتذكر : أي تتذكر عالمها الذي أخرجت منه ، إن المادة جميعها نقط ضوئية أصلها كهارب ، والكهارب نواتج من موجات في بحر الأثير ، وهذه الأضواء صارت مواد نراها مختلفة الأشكال وهي غليظة ، ولكن أرواحنا أرق منها ، فهي جاءت من عوالم أرق ، فهذه الدروس تذكرها بعالمها ، وهو عالم الجمال والحكمة .

إيضاح هذا المقام

اللهم إنك أنت اللهم المعلم خلقتنا وخلقت فينا برحمتك آلاما تسوقنا إلى الغذاء والكساء والدواء ، ثم خلقت حولنا ٢٥٠ ألف نبات وأبدعتها ، وقلت لنا : « هاؤم اقرءوا كتابيه » فقرأناه فوجدنا عجبا ! وجدنا أننا نعمل لازالة هذه الآلام ، وفي أثناء ذلك نجد عندنا أمرا عجيبا ! وهي لذات نحس بها في نفوسنا من الدراسة ، وهذه اللذات نوع آخر شريف نحس به عقولنا كما نحس بالطعام معدتنا ، ترى الناس ماداموا أحياء لايسعدون إلا بصور تدخل عقولهم فتفرحهم ، وهكذا جميع المدارس والديانات والعلوم الرياضية والطبيعية والروايات والشعر والنثر ومحادثات الإخوان ، وقراءة الجرائد والأخبار ، ولن ترى أحدا في الأرض يشبع من دخول الصور عقله كل لحظة ، لأن التفكر لايقف لحظة ، ولا معنى للفكر إلا بصور ذهنية ، وكما تنوع النبات فكان منه مايمتد على الأرض ، ومنه مايوضع فوق عروش ، ومنه شجر ، ومنه نجم : أي لاساق له وهو أنواع شتى ، وكل منها له غرض في حياتنا ، هكذا الصور الذهنية ، فالسمع أعد لمدارس العالم كلها وللروايات والمحادثات ، والبصر أعد لصور العوالم كلها ، وأمامه كل نبات ، وكل حيوان ، وبحر وبر فهذه كلها ترسل صورها والبصر يتقبلها ويرسلها للنفس فتغتذي بها ، النفس لاتفتأ تقبل كل صورة أرضية وسماوية من مناظر العين ، وكل صورة مصدرها منطق اللسان وحركات الهواء والأمواج والموسيقى ، وتقبل الروائح من الأنف وأنواع اللذات من حاسة اللمس والذوق . إذن هنا صور لاحد لها غذاء لأرواحنا ونحن لانعلم أنها غذاء لنا ، أولا لأنها كثيرة جدا فغفلنا عنها كما غفلنا عن الهواء المحيط بنا ومنفعته ، وثانيا لأنها لايصحب غيبتها آلام كآلام الجوع والعطش بغيبة الطعام والشراب بل يكون الشوق بدل الألم ولا حياة للانسان بدونها بل هي ملازمة له مادام حيا ، إذن الناس يظنون خطأ أن غذاءهم الوحيد إنما هو الطعام ، وفاتهم أن عقولهم تتوارد عليها الصور دائما ، فغذاؤها دائم لامقطوع ولا ممنوع ماداموا في الحياة وهو ألزم لهم من الطعام ، وهذه الحال أشبه بضرب مثل للذات الناس في عالم الأرواح ، لأن الروح لاغذاء لها أفضل من العلم والحكمة إذا كانت من الأشراف العظماء ، غاية الأمر أن الصور هناك لاسخافة فيها كسخافة الصور العقلية لذوي النفوس الضعيفة في الأرض فهم يشمتون بالأعداء فيظنون أنهم سعداء بهذه الشماتة وهم غافلون فهذا غذاؤهم كما تتغذى الفيران والحشرات بالقاذورات .

أما الأرواح الشريفة العالية بعد الموت فإنها تتوارد عليها صور جميلة علمية ، وهذا الذي نراه في عجائب العين نوع منها ، فهذه كما أنها غذاء لعقول شريفة هنا هكذا تكون تغذيتها أعظم للروح إذا خلصت من الجسم ويشير إليه ماورد في الأخبار أنهم يلهمون التسبيح كما نلهم نحن النفس ، وما هو التسبيح ؟ هو التنزيه والله منزه عن النقص في أفعاله فتكون أفعاله كاملة ، وهذا هو الكمال والحكمة ، هذا الذي تقدم

فى النبات ونحوه نموذج لحكمة الله تعالى ، وهذه الحكمة هى التى بها تنزه الله عن النقص فى فعله ، وهذه اللذة العلمية يحس بها الناس الآن فى الدنيا ، بل يرونها أعظم اللذات ، فهى هى حقائق التسبيح ، فالتسبيح اللفظى عنوان عليه وإلا فلا معنى لحقيقة التسبيح إلا بأمثال ماذكرناه والله يقول : «سبح لله مافى السموات وما فى الأرض» الخ ، ويقول : «يسبح لله مافى السموات ومافى الأرض» الخ .

التسبيح والتحميد والتكبير

جاء فى الحديث : «إن الجنة طيبة التربة عذبة الماء وغراسها سبحان الله والحمد لله والله أكبر» وجاء فى القرآن : «وإن من شئ إلا يسبح بحمده ولكن لاتفقهون تسبيحهم» والمسلم يسبح فى كل ركوع وسجود ، ووراء الصلوات ، وقبل طلوع الشمس ، وقبل غروبها ، وقبل النوم يسبح ويحمد ويكبر ٣٣ مرة بعد الصلاة ، فهذا التسبيح والتحميد والتكبير غراس الجنة ، ونسمع علماءنا رحمهم الله يقولون : «إن تسبيح المخلوقات باللفظ كما يسبح العقلاء ونحن لانسمع» ويقول آخرون : كلا . بل هو تسبيح بلسان الحال .

واعلم أن الناس ماداموا على شاطئ بحر المعرفة فإنهم يختلفون كما يختلف الصيادون وهم على شاطئ نهر أو بركة فى كثرة الأسماك وقلتها بحسب استعداد كل منهم والعلامات التى يراها ، فاسمع الحقائق الواضحة ودع القشور ، هذا التفسير فيه من كل فاكهة من فواكه العلم زوجان ، فاعجب لما ذكرتك به آنفا كيف ترى هدب العين وشعرات الورق تمنع شدة الضوء عن العين وعن النبات ، وكيف تكون مادة (الكيوتين) حافظة للماء فى داخل النبات كما يحفظ لون القزحية الصور الداخلة فى العين من التشويش كما رأيته مبرهنا عليه فى أول هذه السورة فى تفسير البسملة مع آية «أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها ومالها من فروج» :

وهاهنا حكمة ومعها آلاف الحكم مرت وستمر فى هذا الكتاب ، ألست أيها الذكى تحس فى نفسك متى طاب الوقت ، وصفا الزمان ، وخلوت من المشاغل الشاغلة لك أنك أسعد من على الأرض لأنك كأنك فى حضرة الجمال والحكمة ، ألست ترى فى نفسك بهجة لم يحلم بها إلا أمثالك فى ذلك الجمال والحكمة ، وعلى ذلك تكون حياة الحكيم المعجب بهذا الجمال فى الدنيا حياة فوق كل حياة ، والناس فى الأرض جميعا تبع لهذه الطائفة الممتازة بصفاء البصيرة والحكمة ، إن العين وطبقاتها ، والنبات وعجائبه ، وكل نظام منظور ومسموع يحدثنا حديثا حقا ويقول : أنتم شهدتم الحكمة ، وشهدتم النظام ، وهذا الحديث الذى نشعر به هو سر التسبيح ، لأن العقل حالا يشهد شهادة عيان أن العالم فى غاية النظام ، وإذن منظمه حكيم ، وهذا النظام المحكم نتج عن نعم لاحد لها ، وهذا هو الحمد بعينه ، فالتسبيح والتحميد متلازمان ، وهذا هو السر فى قوله تعالى : «وسبح بحمد ربك» إذ لامعنى لتنزيه عن النقص إلا بالكمال ؛ فالله منزه عن النقص فى أفعاله ، وذلك بالحكمة فى النظام ، والحكمة فى النظام نجم عنها نعم كثيرة ، وهى التى تستوجب الحمد ، ومع هذا كله فهذه النعم وهذه الحكم كلها شئ يسير بالنسبة لصانع العالم ، فإذن يقال : الله أكبر : هذا هو السر فى طلب التسبيح والتحميد والتكبير فى كل آن فى الدين الإسلامى ، إذن هذه بذور بذرت فى بلاد الإسلام : كما أن الله عز وجل أودع فى نباتات البرية وغيرها بذورا ، وأمر الرياح أن تحركها فجرت هنا وهناك ، ونبتت فى أماكن شتى لمنفعة كل حيوان ، ولكن رجال الطب الذين يعرفون قيمة هذه الحشائش أندر من الكبريت الأحمر ، ونظيرهم هنا فى التسبيح والتحميد رجال الحكمة الدارسون العلوم الذين سيكثرون بعد ظهور أمثال هذا التفسير : ولكنهم قوام هذه الأمة ، وهم هم الذين عرفوا سر التسبيح والتحميد ، وهم الذين يفهمون سر الحديث الشريف : «وأن الجنة غراسها سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر» ويقولون

إن الجنة للجهلاء وصغار العلماء تكون قريبة من الجنات الحسية ، وهؤلاء يكتفون بظواهر التسبيح وهو العبادة بتكرار اللفظ فى المناسبات المتقدمة ، والعامة لهم درجات عند ربهم ونعمة وهم بها فرحون .

أما أكابر الأمة فهم هم الذين شهدوا هذا النظام ، وأصبحوا فى نعمة لاحد لها ، مبدؤها فى الدنيا وبعد الموت مباشرة يحسون بما لاحد له من النعيم لأن أرواحهم تفرغت لما كانوا يعشقون فى الدنيا ، إذن التسبيح اللفظى فى الحقيقة أشبه بمقدمة للتسبيح الحقيقى الذى يفقهه الحكماء فى الإسلام .

اعتراض على المؤلف وجوابه

فلما اطلع على هذا صديقى العالم الذى اعتاد محادثتى فى هذا التفسير . قال : ماذا تقول فى الشيخ الدباغ ؟ فقلت : لقد نقلت عنه فى التفسير كثيرا ، وهو رجل مفتوح عليه فقال إنه يخالفك فإنه يقول إنه كان فى بداية أن فتح عليه يستحم فى ماء ، فسمع أصواتا لاحصر لها تسبح الله ، فخرج يجرى من فوره ، وسمع أصوات الأحجار بلغات مختلفات ، وسمع حجرا منها له أصوات مختلفات فى التسبيح ، ثم بحث عنه فعرف أنه معجون من أحجار كثيرة .

فهذا دليل على أن تسبيح المخلوقات لفظى . فقلت : أولا نحن لاندرى هل هذا القول المنسوب له ورد عنه أم لا ؟ وإن كان فى نفس الكتاب . ثانيا أنه سمع ذلك وهو فى أول أن فتح عليه ، وما هذه الأصوات المختلفات بالتسبيح إلا كتسبيحنا نحن ، وماتسبيحنا إلا ألفاظ تدل على معان ، وامتلاء عقولنا بالمعانى المفصلة هو المطلوب كما أن تسبيح هذه العوالم يقصد منه ماوراءه وهو أنها تعرف هذه المعانى على التسليم بأنها تعقل وما تسبيح هذه المخلوقات أمام المفتوح عليهم إلا خوارق للعادات ، وخوارق العادات غير مقصودة لحكماء الأمم الإسلاميه وعقلائها ، والقرآن صرح بأنه لامدار عليها ، فرجع الأمر إلى أن المسبحين بعد أن كانوا عددا معلوما وهم بنو آدم أصبحوا أعدادا لانهاية لها ، وإذا كان تسبيح السادين العقلاء أنفسهم لاقيمة له إلا بمدلوله ومدلوله هى هذه العلوم التى ندرس بعضها فى هذا التفسير ، فإذن التسبيح الحقيقى لكل عاقل من ملك وإنس وجن إنما هو ماشرحنا بعضه فى هذا الكتاب ، إذن التسبيح اللفظى إنما هو نموذج والتسبيح الحقيق هو المقصود ، فإذا سمعنا الله يقول : سبح لله مافى السموات وما فى الأرض» وإذا سمعناه يقول : «يسبح له مافى السموات ومافى الأرض وهو العزيز الحكيم» عرفنا أن هذا هو معناه ، فأما عقلاء بنى آدم فان تسبيحهم اللفظى مقدمة لهذا التسبيح فليسبح المسلمون فى جميع الأوقات » فهذا عبادة فى حد ذاته ، وأكابرهم يصلون للحقائق وينفعون بها إخوانهم فى الدنيا والدين ، كما أن نبات الأرض غذاء لكل حيوان ، وبنو آدم له زارعون ، وعلماء النبات فى نوع الإنسان كحكماء الإسلام فى أمة الإسلام .

فقال صاحبى : هـذا حسن ولكن أليس الكلام على التسبيح والتحميد كان الأليق به آخر (سورة الطور) عند قوله تعالى : «وسبح بحمد ربك حين تقوم» الآية ، أو أول (سورة الحديد) : «سبح لله» الخ فقلت نعم إن هذه المعانى كلها خطرت لى وأنا أشاهد المزارع خارج القاهرة وكانت مقرونة بهاتين الآيتين اللتين ذكرتهما ، ولكنى بعد ذلك حين قدمت هذه السورة للطبعة وجدت أن الآية فى هذه السورة يعوزها الكلام على النبات ، ووجدت المناسبة تامه فجعلتها فى هـذا المقام لهذه المناسبة . فقال : وهنا سؤال آخر ، وهو : هل آية « وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج » يعوزها هذا كله ؟ قلت نعم وأكثر منه . فقال : ولكن المتقدمون لم يطيلوا فى مثل هـذا كما أطلت أنت ، فقلت : أطالوا أكثر مما أطلت أنا ، فقال : وكيف ذلك فقلت : إن آباءنا كانوا يحكمون الأمم فاحتاجوا إلى العلوم التى بها يضبطون تلك الأمم فكان علم الفقه إذ نبغ أمثال إمامنا الشافعى وأبى حنيفة ومالك وابن حنبل وزيد وأئمة الشيعة رضى الله عنهم أجمعين فعلموا ملوكهم ،

وأقاموا الدين بالقسط ، ولم يدعوا العامة يتخبطون فى ديجور الظلام ، بل سهلوا لهم أحكام الأفراد من صلاة وصوم وغيرها ، فهم رحمهم الله أفادوا وأجادوا فيما يحفظ كيان دولهم ، ويحفظ العبادات ، ونحن جئنا فى زمان وجدنا الأمم الإسلامية كثيرة ، والأحكام مدونة ، والعلماء كثيرون والحمد لله ، ووجدنا الأمم فى الأرض قد ارتقت مداركها ودرست هذه العلوم ، ووجدنا القرآن اهتم بها اهتماما عظيما ، فرأيت بل أيقنت أنى يجب على أن أؤلف لهذه الأمم الإسلامية أعظم علوم الاسلام لكى تترك لعلماء الإسلام بعدنا الطريق ممهدة ، ليربوا هذا الشعب المسكين التربية التى لم تكن لتحدث فى الزمان الماضى لأن الأمم لم تكن مستعدة لها ، والقرآن جاءنا بأمرين اثنين : أولهما نظام الأمم وحكمها وتهذيبها ، وثانيهما تربية العقول تربية راقية علمية حكمية . ولما كانت الفرس والروم أيام النبوة قد اختلت دولهم ، وورث المسلمون أرضهم وديارهم ، ونساءهم وأموالهم ألهم علماءهم وأئمتهم أن يعينوا ملوكهم بتلك الأحكام ، ويعينون المحكومين بما يجب عليهم فى أحوالهم الخاصة فنفعوا عباد الله ، ثم دالت دولهم ، وأصبحنا اليوم نرى أمما وأمما وعلوما وعلما ، فلنفعل نحن فى هذه العلوم لتربية الأفراد والأمم مافعله آباؤنا فى تلك الأحكام (وبعبارة أصرح) إذا رأينا آيات الطلاق المعدودات ، وآيات الدين وغيرها تؤلف لها كتب تعد بالآلاف عند الطوائف المختلفة ، وذلك كان واجبا فى ذلك الزمان ، فهكذا نحن فى زماننا نفعل مافعله آباؤنا فى زمانهم بعد أن أتموا ماعليهم ، وإذا سمعنا الشافعى رضى الله عنه يستخرج من آية : « فاعتبروا يا أولى الأبصار » نحو ربع الأحكام الشرعية وهو القياس ، ويقول إنها توجب علينا القياس ، وإذا رأينا آية الوضوء تستنفد جهد العلماء فى التأليف وتشغلهم شغلا عظيما فأولى ثم أولى منها آية « والأرض مددناها وألقينا فيها رواسى وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج » . إن الوضوء شرط للصلاة ، والصلاة للتسبيح والتحميد ، والتسبيح والتحميد نتيجتهما هذه المعارف ، والعلوم والمعارف هى المخبوءات فى نحو هذه الآية ، وأنا واثق جد واثق ، بل كأنى أشاهد أمامى أمم الإسلام فى أقرب زمن وفيما بعد إلى ماشاء الله ، وهم يدرسون كل علم ، ويرون أن مانكتبه الآن إن هو إلا مذكرات لما يدرسون ، ومقدمات لما يعلمون ، ونور لما هم به مستبصرون ، والله من ورائهم محيط . والله بكل شىء عليم ، وفوق كل ذى علم عليم ، والحمد لله رب العالمين . انتهى يوم الثلاثاء ٦ أكتوبر سنة ١٩٣١ م .

جمال العلم وبهجة الحكمة

ها نحن أولاء درسنا أعيننا وعجائبها ، والسماء وسمتها وكواكبها ، فإذا كانت أعيننا لاحد لعجائبها، وهى مركبة فى أجسامنا المشتقة من أرضنا فكيف تكون عجائب أرضنا ؟ هى بالأولى لاحد لها ، ونذكر منها قلا من جل بعد ما كتبناه فيما سبق فى هذا التفسير مثل ماجاء فى تفسير قوله تعالى : « وفى الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب » وغيرها ، فنشرح وادى الموت وغور الشيطان والجليد الخ :

(١) أما وادى الموت فهو فى الجنوب الشرقى من أمريكا ، وما دخله أحد إلا مات لشدة حرارته ، فلا يعيش فيه نبات ولا حيوان ، ولكن فيه كنوز عجيبة ؛ وما هى هذه الكنوز ؟ هى (البورق) وقد كشفه رجل اسمه (هارون ونترس) كان يسكن بعيدا عن ذلك الوادى بمئات الأميال ، فذكر له رجل أنه إذا مزج البورق بمادة كيماوية معلومة اشتعل بلهب أزرق ، فتذكر راسبا أبيض فى طرف ذلك الوادى ؛ فسار هو وزوجته ٢٠٠ ميل ، وابتاعا بعض ذلك من الامريكيين الحمر ، وامتحن ذلك الراسب الأبيض ، فوجد لهبه أزرق ، فطار فرحا ، وباع هذا الكشف بخمسة آلاف جنيه ، ولقد وجدوا فى ذلك الوادى

مناجم كثيرة للبورق ، ولكن الصعوبة فى نقله ؛ لأنه يميت من يدخله ، وقد مدوا لوادى الموت سكة حديدية ، وأنشئت قرية للعمال فى نفس الوادى ، وفيها بناء طوله ٨١٦ قدما ولهم فيه ٢٠٠ غرفة للنوم ؛ فيه جميع مايلزم للراحة ، وغرفة للمائدة تسع ٢٠٠ نفس ، والآجر الذى بنى به ذلك البناء قليل التوصيل للحرارة ، وإذا كانت درجة الحرارة فى الظل هناك تبلغ ١٢٠ درجة فهى فى غرف النوم لم تزد عن ٨٩ درجة ، لأنهم يبردون هواء البناء بجعله يمر فى رشاش الماء ، ويستخرجون من ذلك الوادى كل سنة ١٢٠ ألف طن من البورق ، وهى تساوى نصف مليون جنيه ، وإذا بيعت فى بلاد الانجليز فانها تساوى ستة ملايين وستمائة ألف جنيه ، هذا ماجاء فى كتاب العلم والعمران ، وهل لك أيها الأخ الذكى أن تتذكر ماتقدم فى (سورة إبراهيم) إذ ذكرت لك هناك « البحر الميت » وأن ثروته أكثر من ثروة جميع المسلمين الآن فى الأرض ، وقد جهلها المسلمون وعرفها الفرنجة وهم يستخرجونها ، وها هو ذا وادى الموت الذى لايصلح للحياة ظهر أنه كنز عظيم ، وهذا هو قوله تعالى : « والأرض فرشناها فنعم الماهدون » وقوله تعالى هنا « والأرض مددناها » الخ نعم الله ممدوح على تمهيد هذه الأرض ، فالمعادن الجليلة النافعة يجعل استخراجها صعبا ، والمزارع يجعلها فى غاية السهولة ، وما أشبه إدراك الحقائق التى يجهلها أكثر الناس إلا بالبحر الميت فى فلسطين ووادى الموت فى أمريكا ، كلاهما يعرفه الناس فى حال جهالتهم ولكنهم ينظرون إليه بالسخرية والاستهزاء ، فإذا جاء أهل العلم استخرجوا مايشاءون من الكنوز ، هكذا أعيننا وأجسامنا والكواكب حولنا ، يراها العالم والجاهل على حد سواء ؛ فالجاهل يحقر البحث فى هذه العجائب والعالم هو الذى يعرف قيمتها ويصرف نفيس عمره فى المعرفة كما تجشمت انكلترا مشاق الحرب العظمى ، وبلغت مآربها فى البحر الميت ، وكما صرفت الشركة الأمريكية آلاف آلاف الجنيهات فى استخراج كنوز وادى الموت وهو البورق الكثير هناك .

أيها الذكى . اصرف عمرك كله فى استخراج حقائق العوالم فأنت سعيد بذلك الاستخراج وقوم بعدك سيقلدونك فى ذلك ، وآخرون يستخرجون منافع الأرض كالتى فى وادى الموت والتى فى البحر الميت ، فهذه كنوز أقل من كنوز العلم ، ونفس مانكتبه الآن وأمثاله كما يحث الناس على الأعلى يحثهم على الأدنى ، ولكل من الناس درجة فى عمله والله هو الولى الحميد .

(٢) (غور الشيطان) : أما غور الشيطان فهو غور فى أرض صخرية بولاية (اريزونا) من ولايات أمريكا حيث الارتفاع (٦٠٠٠) قدم عن سطح البحر وهو كبير مستدير ، قطره نحو ١٣٠٠ متر وعمقه ١٧٥ مترا ، وهذا الغور إنما حصل بسبب جرم سماوى مزق ماوقع عليه من الطبقات الصخرية وأحدث هذا العمق الواسع ، وكانت سرعته تزيد على سرعة رصاص البنادق ٥٠ ضعفا ، فكسر الصخور الصلبة وسحق الهشة ، فانتثرت الكسر والسحيق حول الغور فى أرض مساحتها ٧٥ ميلا مربعا ، ولقد زحزح طبقات الصخور المجاورة فارتفعت من جهة وانخفضت من جهة أخرى ، وحول هذا الغور حجارة نيزكية ومغناطيسية ، وكلها فيها الحديد والنيكل والبلاتين والأريديوم ونحوها من المعادن الثمينة ، ولقد تألفت شركة منذ عشرين سنة لحفر بئر يصل إلى الجسم النيزكى الذى أحدث هذا الغور ، وقد صرفت الشركة أكثر من مائة ألف جنيه ، وأوصلت البئر إلى ١٤٠٠ قدما ، وهناك أصابت جسما أشد صلابة من الفولاذ ، لاتفعل فيه القنابل وترتد عنه ارتداد الحصى عن الصخر ، وهذا الجسم العجيب النيزكى الذى ترى هذه الشركة أنه كنز عظيم ، يقدر قطره بنحو ٣٠٠ قدم ، ويقدر ثقله بمليون طن ، وبعضهم يجعل قطره أربعة أمثال ما ذكر ، ولما أصاب الأرض وغار فيها أخرج منها ماثقله أكثر من ٣٠٠ مليون طن وبعثر ماحوله .

(٣) الكلام على الجليد والفحم القطبي : إن العصر الجليدي الأخير الذي أصاب الجانب الشمالي الغربي من أوروبا : أعنى أرلندا واسكتلندا وأسوج ونروج والبلطيك ، كان قبل التاريخ بين ٣٠ ألف سنة ، و١٨ ألف سنة ، ودام إلى ٦٠٠٠ سنة قبل الميلاد ، إن القطب الجنوبي قد كشفت فيه طبقات فحمية سمكها كلها ١٥٠٠ قدم على الأقل ، ومن حيث العرض ٨٥ درجة على بعد ٥ درجات من القطب الجنوبي وبعض هذه الطبقات رقيق جدا ، ووجدت آثار الجذور في الطين الذي وجد مع الفحم الحجري ، وذلك دليل قاطع على أن تلك الأصقاع كانت حارة وكانت الأشجار تغطيها عصورا متطاولة ، وذلك على مقتضى انتقال القطبين ، انتهى الكلام على اللطيفة الثالثة في آية : «والأرض مددناها وألقينا فيها رواسى» الخ والحمد لله رب العالمين .

هاهنا ثلاث جواهر

الجوهرة الأولى في بهجة العلم في قوله تعالى : «وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج» .

الجوهرة الثانية في قوله تعالى : «تبصرة وذكرى لكل عبد منيب» .

الجوهرة الثالثة في قوله تعالى : «مايلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد» .

الجوهرة الأولى

بهجة العلم في قوله تعالى : وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج

سيأتى في (سورة الذاريات) الكلام على الذكور والإناث من النبات ، وأن علماء النبات حاروا في تقسيمه ، فإن قسموه بواسطة مايرون من شجرات وشجيرات وأنجم ، وهى الزروع المعروفة التى لاساق لها فإن ذلك التقسيم لايفيد وكيف يفيد إلا بتحديد الأقسام تحديدا تاما ، وإن قسموه بواسطة أنه نبات سنوى وغير سنوى كما سيأتى ، فهذا غير كاف ، لأن البرسيم مثلا وحده بعضه سنوى وبعضه غير سنوى ، فإذن قد التجأوا أخيرا إلى دراسة الزهرة والحب والفاكهة فانتظمت الأقسام حينئذ ، ورأوا أيضا أن من الأزهار مايكون ذكرانها على شجرة وإناثها على شجرة أخرى كما سيأتى إيضاحه هناك ، وذلك كشجر النخل فإذا كان بين النخلة والأخرى مسافة بعيدة ، فإن الهواء يحمل الطلع من الذكر إلى الأنثى ، والإنسان لاعلم له بهذا «فتبارك الله أحسن الخالقين» .

حكاية

جاء في كتاب (الآيات البينات ، في علم النباتات) للأستاذ أحمد أفندى ندى ماتصه : « إن التلقيح في النباتات ذات المسكنين يمكن حصوله من بعد عظيم ، وهناك عدة أمثلة نافعة لبيان هذه الظاهرة فكان منذ زمن طويل يستنبت شجرتان من الفستق الأنثى ، وكانت كل شجرة منهما تحمل كل سنة أزهارا ولايتحصل منهما ثمار أصلا ، فتعجب المعلم (جوسيو) لما رأى أن هاتين الشجرتين قد انعقدت ثمارهما ونضجت على ماينبغى في سنة من السنين ، ومن ذلك الوقت خطر بباله أنه لابد أن يكون بباريز أو في أكنافها شجرة فستق ذكر حاملة لأزهار ، فشرع في البحث عن ذلك ، فعرف أن شجرة فستق ذكر أزهرت أول مرة في جنينة تربية النباتات الكائنة بقرب (لوكسامبور) فأتى الطلع المحمول بالهواء من فوق أبنية جزء من باريز ولقح نبات الإناث ، وهناك نبات يسمى (السنيرياسبرالس) أى الحلزونى الذى هو نبات ذومسكنين (من الفصيلة البشنينية) ينبت بمقدار عظيم في الترع وفى القنوات ، ففى هذا النبات ظاهرة عجيبة جدا في زمن تلقيحه ، وهى أن يكون النبات موضوعا في قاع الماء أى قاطنا فيه تماما ، وذكوره وإناثه تنبت مختلطا بعضها ببعض ، فالأزهار الإناث المحمولة على ذنيبات زهرية طولها قدمان أو ثلاثة تقريبا ، وملتفة على هيئة

حلزون تأتى على سطح الماء لكى تبتسم ، وأما الأزهار الذكور فكل جملة منها تكون موضوعة فى لفافة غشائية وهى محمولة على ذنيب زهرى قصير جدا ، فاذا أتى زمن التلقيح تنفتح وتمزق اللفافة القرطاسية ، وتنفصل من حاملها الزهرى العام ، وتأتى على سطح الماء فتبتسم وتلقح الأزهار الإناث ، وبعد زمن يسير تنزل هذه الأزهار الإناث تحت الماء ، ثانيا بالتفاف الذنيبات الزهرية الحلزونية التى تحملها ، وفيه تصل ثمارها إلى نضجها التام » انتهى .

أقول : وهذا من أعجب العجب ! إن هاتين العجيبتين تفتح لنا أبواب علوم كثيرة ، كيف لا وهذه شجرة الفستق كانت لاتثمر وهى أنثى ، ولكن لما ظهرت شجرة فستق ذكر جاء لها الطلع منها فأثمرت. إن هذه الدنيا جميلة وبديعة ، أليس هذا من أعجب الإبداع ، يلقح النبات من نبات آخر والناس لايعلمون وكيف يكون البشنين نابتا فى برك بلادنا ونحن ننظر إليه نظرة جاهلة لأنه ينبت فى البرك ولكنا نراه يضحك وهيئة أزهاره جميلة ، وهل كان يدور بخلدنا ونحن نلهو ونلعب فى حال طفوليتنا أن هذه الزهرة الضاحكة المستبشرة هى الأنثى ، وأن الذكران قد انتبذوا مكانا قصيا فى قاع البركة ، وأنهم وقت الالقاح هم بدورهم سيخرجون من أجداثهم سراعا وهم فرحون مستبشرون ، فيجدون هؤلاء العانسات واقفات منتظرات قدومهم فيحصل الالقاح فى أمن وأمان ، ولم يبق لهؤلاء الذكران من فائدة ، أما الإناث فانهن ينزلن إلى قاع البركة ، وهناك يتم نمو الثمرات «فتبارك الله أحسن الخالقين» . «وفى الأرض آيات للموقنين ، وفى أنفسكم أفلا تبصرون» . «ومن كل شىء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون» فلنتذكر فى أمر السياسة ونقول :

إن الله الذى خلق النبات هو نفسه الذى خلق الأمم ، ولقد يخيل لى الآن أن فى الشرق عقولا وتلك العقول كانت مغطاة فى قاع بركة هذه الدنيا ، كما أن ذكران البشنين كانت ملتفة بأغشية فى قاع بركة الماء ، وهاهو ذا اليوم أقبل الزمان الذى فيه تظهر تلك العقول من أغشيتها وتلقى على العالم دروسا كما ظهرت ذكور البشنين فى وقت الالقاح وفعلت ماخلقت له وتم الإلقاح .

إن للشرق لصولة فوق صولة الغرب ، ومن هذه العجائب نفهم قوله تعالى : «لكل أجل كتاب» . وقوله : «إن ذلك فى كتاب إن ذلك على الله يسير» . وقوله : «وكل شئ عنده بمقدار» .

وإذا كان لقاح البشنين بمقدار فهكذا لقاح عقول الشرقيين له زمان لابد منه ، وهل اللقاح غير التعاليم الله أكبر إن من أنواع اللقاح فى الشرق الكتب والجرائد المنتشرة اليوم ومنها هذا التفسير ، إن لقاح العقول الشرقية اليوم حاصل ، والشرق يغلى كما تغلى القدور : «وربك يخلق مايشاء ويختار وهو اللطيف الخبير» انتهى يوم الأربعاء أول يونيو سنة ١٩٣٢ م .

الجوهرة الثانية

فى قوله تعالى : تبصرة وذكرى لكل عبد منيب

رباه : جمل فعلك ، وحسن قولك ، كم نتفيأ ظلال الأشجار ، ونجلس فى الحقول ، ونأكل من الفاكهة والحب مالذ وطاب ، نعيش ونموت ونحن غافلون عن الجمال ، وعن الحكمة ، وعن عجائب الإبداع ، كم من ورق تحيط به أوبار ونحن ننظرها ولا ندرى ماحكمتها ، تشرق الشمس وتغرب ، ويطلع القمر ويأفل ونحن نشاهد تلك الأوراق الكاسيات بتلك الأوبار ، ولا ندرى لماذا كانت هذه الأوبار أو الأشعار ، نظرت فى كتاب (جمال الطبيعة) للورد أفبرى صفحة ١٠٩ فألفيته شرح هذا الموضوع شرحا واضحا ، فاستبان به أن الوبر أعدته العناية الإلهية ، إما ليق النبات من شر هاجم من خارج النبات ، وإما ليكون حافظا لما فى النبات من قوة حيوية بها بقاؤه ونظام حياته ، فأما أول الأمرين فذلك .

(١) إن

(١) إن من النبات ماتعترضه الحيوانات السائمة فتقطع عليه حياته فيكون ذلك الوبر وقاية له .
(٢) ومنه ماتهاجمه الحشرات فيكون ذلك الوبر حصنا حصينا .
(٣) ومنه ماتحيط به الرطوبة فتكاد تهلكه لولا ذلك الوبر الكاسى للأوراق .
(٤) ومنه ماتلح عليه حرارة الشمس فيكون ظل تلك الأوبار حافظا النبات من البوار كما يحفظ جسم الإنسان من الحر بالملابس : «وجعل لكم سرابيل تقيكم الحر وسرابيل تقيكم بأسكم كذلك يتم نعمته عليكم لعلكم تسلمون» .

ولو علم المسلم أن نعمة الملابس ليست خاصة به ، بل هناك ملابس تحفظ النبات من الهلاك ليكون نعمة له أيضا ومتاعا لخر صعقا ولدهش من تلك العناية التى تحير الألباب . هذا هو الأمر الأول .

أما الأمر الثانى فذلك أن من النبات ماينبت فى الصحراء فتلح عليه الشمس فيتطاير منه البخار ، فما الذى يحفظ حياة النبات إذن إذا خرج بالحاح الشمس بقية الرطوبة فى ذلك النبات ؟ أعد الله تلك الأنابيب الشعرية الوبرية ، فهى المانعات من ذلك البخر فيعيش ذلك النبات . هذه نبذة من معنى قوله تعالى هنا «تبصرة وذكرى لكل عبد منيب» .

أيها المسلمون : لاحياة إلا حياة العلماء ، والجاهلون جميعا موتى ، فليكن الإنسان عالما أو متعلما أو مستمعا أو محبا كما فى الحديث ، وليحذر أن يكون كارها للعلم فذلك من الأخسرين ، والحمد لله رب العالمين.

انتهى الكلام على الجوهرة الثانية .

الجوهرة الثالثة

فى قوله تعالى : مايلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد

لقد تقدم الكلام على هذه الآية فى (سورة الحجرات) وقد ذكرنا هناك عشرا من آفات اللسان من (إحياء علوم الدين) للغزالى رحمه الله ، وكذلك بعض غوائل الأعمال القلبية من كتابنا (جوهر التقوى) وأرجأنا بقية مافى الإحياء وما فى كتاب (جوهر التقوى) إلى هذا المقام هنا فى سورة قٓ فلنبدأ بالكلام على مافى الإحياء فنقول :

الآفة الحادية عشرة : السخرية والاستهزاء

وهذا محرم مهما كان مؤذيا كما قال الله تعالى : «ياأيها الذين آمنوا لايسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيرا منهن» ومعنى السخرية الاستهانة والتحقير والتنبيه على العيوب والنقائص على وجه يضحك منه ، وقد يكون ذلك بالمحاكاة فى الفعل والقول ، وقد يكون بالإشارة والإيماء ، وإذا كان بحضرة المستهزأ به لم يسم ذلك غيبة ، وفيه معنى الغيبة ، قالت عائشة رضى الله عنها:(١) «حاكيت إنسانا فقال لى النبى صلى الله عليه وسلم والله ماأحب أنى حاكيت إنساناولى كذا وكذا» وقال ابن عباس فى قوله تعالى : «ياويلتنا مالهذا الكتاب لايغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها» : إن الصغيرة التبسم بالاستهزاء بالمؤمن ، والكبيرة القهقهة بذلك ، وهذا إشارة إلى أن الضحك على الناس من جملة الذنوب والكبائر . وعن عبد الله بن زمعة (٢) أنه قال : «سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو

---

(١) حديث عائشة : «حاكيت إنسانا فقال لى النبى صلى الله عليه وسلم مايسرنى أنى حاكيت إنسانا ولى كذا وكذا» أبو داود والترمذى وصححه .

(٢) حديث عبد الله بن زمعة : «وعظهم فى الضحك من الضرطة وقال علام يضحك أحدكم مما يفعل» متفق عليه .

يخطب فوعظهم فى ضحكهم من الضرطة فقال علام يضحك أحدكم مما يفعل » وقال صلى الله عليه وسلم (١) « إن المستهزئين بالناس يفتح لأحدهم باب من الجنة فيقال هلم هلم فيجيء بكر به وغمه فإذا أتاه أغلق دونه ثم يفتح له باب آخر فيقال هلم هلم فيجيء بكر به وغمه فإذا أتاه أغلق دونه فما يزال كذلك حتى إن الرجل ليفتح له الباب فيقال له هلم هلم فلا يأتيه» . وقال معاذ بن جبل (٢) قال النبي صلى الله عليه وسلم : «من عير أخاه بذنب قد تاب منه لم يمت حتى يعمله » وكل هـذا يرجع إلى استحقار الغير والضحك عليه استهانة به واستصغارا له ، وعليه نبه قوله تعالى : « عسى أن يكونوا خيرا منهم » أى لاتستحقره استصغارا فلعله خير منك ، وهذا إنما يحرم في حق من يتأذى به ، فأما من جعل نفسه مسخرة وربما فرح من أن يسخر به كانت السخرية فى حقه من جملة المزاح ، وقد سبق مايذم منه وما يمدح ، وإنما المحرم استصغار يتأذى به المستهزأ به لما فيه من التحقير والتهاون ، وذلك تارة بأن يضحك على كلامه إذا تخبط فيه ولم ينتظم ،أو على أفعاله إذا كانت مشوشة كالضحك على خطه وعلى صنعته أوعلى صورته وخلقته إذا كان قصيرا ،أو ناقصا لعيب من العيوب ؛ فالضحك من جميع ذلك داخل فى السخرية المنهى عنها . انتهى الكلام على الآفة الحادية عشرة ، والحمد لله رب العالمين .

الآفة الثانية عشرة : إفشاء السر

وهو منهى عنه لما فيه من الإيذاء والتهاون بحق المعارف والأصدقاء ، قال النبي صلى الله عليه وسلم (٣) «إذا حدث الرجل الحديث ثم التفت فهى أمانة» وقال(٤) مطلقا (كذا) «الحديث بينكم أمانة» وقال الحسن إن من الخيانة أن تحدث بسر أخيك . وروى أن معاوية رضى الله عنه أسر إلى الوليد بن عتبة حديثا فقال لأبيه يا أبت إن أمير المؤمنين أسر إلى حديثا وما أراه يطوى عنك مابسطه إلى غيرك قال فلا تحدثنى به فإن من كتم سره كان الخيار إليه ، ومن أفشاه كان الخيار عليه ، قال فقلت ياأبت وإن هذا ليدخل بين الرجل وبين ابنه فقال لاوالله يابنى ولكن أحب أن لاتذلل لسانك بأحاديث السر ؛ قال فأتيت معاوية فأخبرته فقال ياوليد أعتقك أبوك من رق الخطإ فإفشاء السر خيانة ، وهو حرام إذا كان فيه إضرار ، ولؤم إن لم يكن فيه إضرار . وقد ذكرنا مايتعلق بكتمان السر فى كتاب آداب الصحبة فأغنى عن الإعادة . انتهى الكلام على الآفة الثانية عشرة ، والحمد لله رب العالمين .

الآفة الثالثة عشرة : الوعد الكاذب

فإن اللسان أسباق إلى الوعد ، ثم النفس ربما لاتسمح بالوفاء فيصير الوعد خلفا ، وذلك من أمارات النفاق ؛ قال الله تعالى : « ياأيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود » وقال صلى الله عليه وسلم

---

(١) حديث : إن المستهزئين بالناس يفتح لأحدهم باب من الجنة فيقال هلم هلم فيجيء بكربه وغمه فإذا جاء أغلق دونه ،الحديث» ابن أبى الدنيا فى الصمت من حديث الحسن مرسلا ، ورويناه فى ثمانيات النجيب من رواية أبى هدبة أحد الهالكين عن أنس .

(٢) حديث معاذ بن جبل : « من عير أخاه بذنب قد تاب منه لم يمت حتى يعمله » الترمذى دون قوله قد تاب منه وقال حسن غريب وليس إسناده بمتصل قال الترمذى ، قال أحمد بن منيع قالوا من ذنب قد تاب منه .

(٣) حديث : «إذا حدث الرجل بحديث ثم التفت فهى أمانة » أبو داود والترمذى وحسنه من حديث جابر .

(٤) حديث : «الحديث بينكم أمانة» ابن أبى الدنيا من حديث ابن شهاب مرسلا .

« العدة

«العدة عطية»(١) وقال صلى الله عليه وسلم(٢) «الوأى مثل الدين أو أفضل» والوأى الوعد، وقد أثنى الله تعالى على نبيه إسماعيل عليه السلام فى كتابه العزيز فقال : «إنه كان صادق الوعد» قيل إنه وعد إنسانا فى موضع فلم يرجع إليه ذلك الإنسان بل نسى فبقى إسماعيل اثنين وعشرين يوما فى انتظاره ، ولما حضرت عبد الله بن عمر الوفاة قال إنه كان خطب إلى ابنتى رجل من قريش وقد كان منى إليه شبه الوعد فو الله لا ألقى الله بثلث النفاق أشهدكم أنى زوجته ابنتى (٣) . وعن عبدالله بن أبي الخنساء قال : «بايعت النبى صلى الله عليه وسلم قبل أن يبعث وبقيت له بقية فوعدته أن آتيه بها فى مكانه ذلك فنسيت يومى والغد، فأتيته اليوم الثالث وهو فى مكانه، فقال يافتى لقد شققت على أنا هاهنا منذ ثلاث أنتظرك ، وقيل لابراهيم : الرجل يواعد الرجل الميعاد فلا يجىء ؟ قال ينتظره إلى أن يدخل وقت الصلاة التى تجىء ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم (٤) إذا وعد وعدا قال عسى» وكان ابن مسعود لا يعد وعداً إلا ويقول إن شاء الله وهو الأولى، ثم إذا فهم مع ذلك الجزم فى الوعد فلا بد من الوفاء، إلا أن يتعذر فإن كان عند الوعد عازما على أن لا يفى فهذا هو النفاق ، وقال أبو هريرة قال النبى صلى الله عليه وسلم (٥) « ثلاث من كن فيه فهو منافق وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم : « إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا ائتمن خان » . وقال عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (٦) « أربع من كن فيه كان منافقا ، ومن كانت فيه خلة منهن كان فيه خلة من النفاق حتى يدعها : إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا عاهد غدر ، وإذا خاصم فجر » وهذا ينزل على من وعد وهو على عزم الخلف أو ترك الوفاء من غير عذر ، فأما من عزم على الوفاء فمن له عذر منعه من الوفاء لم يكن منافقا وإن جرى عليه ما هو صورة النفاق ، ولكن ينبغى أن يحترز من صورة النفاق أيضاً كما يحترز من حقيقته ، ولا ينبغى أن يجعل نفسه معذوراً من غير ضرورة حاجزة ، فقد روى «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم (٧) كان وعد أبا الهيثم بن التيهان خادما فأتى بثلاثة من السبى فأعطى اثنين وبقى واحد فأتت فاطمة رضى الله عنها تطلب منه خادما وتقول ألا ترى أثر الرحى بيدى فذكر موعده لأبى

---

(١) حديث : «العدة عطية» الطبرانى فى الأوسط من حديث قباث بن أشيم بسند ضعيف وأبو نعيم فى الحلية من حديث ابن مسعود ، ورواه ابن أبى الدنيا فى الصمت والخرائطى فى مكارم الأخلاق من حديث الحسن مرسلا .

(٢) حديث «الوأى مثل الدين أو أفضل» ابن أبى الدنيا فى الصمت من رواية أبى لهيعة مرسلا ، وقال : الوأى يعنى الوعد ، ورواه أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من حديث على بسند ضعيف .

(٣) حديث عبد الله بن أبي الخنساء : «بايعت النبى صلى الله عليه وسلم قبل أن يبعث وبقيت له بقية فواعدته أن آتيه بها فى مكانه ذلك فنسيت يومى والغد فأتيته اليوم الثالث وهو فى مكانه ، فقال يا بنى قد شققت على أنا هاهنا منذ ثلاث أنتظرك » رواه أبو داود ، واختلف فى إسناده ، وقال ابن مهدى : ما أظن ابراهيم بن طهمان إلا أخطأ فيه .

(٤) حديث : « كان إذا وعد وعدا قال عسى » لم أجد له أصلا .

(٥) حديث أبى هريرة : «ثلاث من كن فيه فهو منافق» الحديث وفيه «إذا وعد أخلف» متفق عليه وقد تقدم .

(٦) حديث عبد الله بن عمرو : «أربع من كن فيه كان منافقا» الحديث متفق عليه .

(٧) حديث : «كان وعد أبا الهيثم بن التيهان خادما فأتى بثلاثة من السبى فأعطى اثنين وبقى واحد فجاءت فاطمة تطلب منه» الحديث وفيه «فجعل يقول كيف بوعدى لأبى الهيثم ، فآثره به على فاطمة» تقدم ذكر قصة أبى الهيثم فى آداب الأكل وهى عند الترمذى من حديث أبى هريرة وليس فيها ذكر لفاطمة .

لأبي الهيثم؟ فآثره به على فاطمة لما كان قد سبق بوعده له مع أنها كانت تدير الرحى بيدها الضعيفة (١) ولقد كان صلى الله عليه وسلم جالسا يقسم غنائم هوازن بحنين فوقف عليه رجل من الناس ، فقال : إن لى عندك موعدا يارسول الله قال صدقت فاحتكم ماشئت ، فقال أحتكم ثمانين ضائنة وراعيها قال هي لك وقال احتكمت يسيرا ولصاحبة موسى التي دلته على عظام يوسف كانت أحزم منك وأجزل حكما منك حين حكمها موسى عليه السلام فقالت حكمى أن تردنى شابة وأدخل معك الجنة ، قيل فكان الناس يضعفون ما احتكم به حتى جعل مثلا فقيل : أشح من صاحب الثمانين والراعى ؛ وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (٢) « ليس الخلف أن يعد الرجل الرجل وفى نيته أن يفى » وفى لفظ آخر : « إذا وعد الرجل أخاه وفى نيته أن يفى فلم يجد فلا إثم عليه » . انتهى الكلام على الآفة الثالثة عشرة ، والحمد لله رب العالمين .

الآفة الرابعة عشرة : الكذب فى القول واليمين

وهو من قبائح الذنوب ، وفواحش العيوب ، قال إسماعيل بن واسط : سمعت أبا بكر الصديق رضى الله عنه يخطب بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال (٣) « قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم مقامى هذا عام أول ثم بكى وقال : إياكم والكذب فإنه مع الفجور وهما فى النار » وقال أبو أمامة (٤) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الكذب باب من أبواب النفاق » . وقال الحسن : كان يقال : إن من النفاق اختلاف السر والعلانية ، والقول والعمل ، والمدخل والمخرج ، وأن الأصل الذى بنى عليه النفاق الكذب . وقال عليه السلام (٥) « كبرت خيانة أن تحدث أخاك حديثا هو لك به مصدق وأنت له به كاذب » ، وقال ابن مسعود قال النبى صلى الله عليه وسلم (٦) « لا يزال العبد يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذابا »

---

(١) حديث : « أنه كان جالسا يقسم غنائم هوازن بحنين فوقف عليه رجل فقال إن لى عندك موعداً قال صدقت فاحتكم ماشئت » الحديث ، وفيه لصاحبة موسى التى دلته على عظام يوسف « كانت أحزم منك » الحديث ابن حبان والحاكم فى المستدرك من حديث أبى موسى مع اختلاف ، قال الحاكم صحيح الاسناد وفيه نظر .

(٢) « حديث ليس الخلف أن يعد الرجل الرجل وفى نيته أن يفى » وفى لفظ آخر : « إذا وعد الرجل أخاه وفى نيته أن يفى فلم يجد فلا إثم عليه » أبو داود والترمذى وضعفه من حديث زيد بن أرقم باللفظ الثانى إلا أنهما قالا فلم يف .

(٣) حديث أبى بكر الصديق : « قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم مقامى هذا عام أول ثم بكى وقال إياكم والكذب ، الحديث » ابن ماجه والنسائى فى اليوم والليلة وجعله المصنف من رواية إسماعيل بن أوسط عن أبى بكر ، وإنما هو أوسط بن اسماعيل بن أوسط وإسناده حسن .

(٤) حديث أبى أمامة : « إن الكذب باب من أبواب النفاق » ابن عدى فى الكامل بسند ضعيف وفيه عمر بن موسى الوجيهى ضعيف جدا ، ويغنى عنه قوله صلى الله عليه وسلم : « ثلاث من كن فيه فهو منافق » وحديث « أربع من كن فيه كان منافقا قال فى كل منهما وإذا حدث كذب » وهما فى الصحيحين وقد تقدما فى الآفة التى قبلها .

(٥) حديث : « كبرت خيانة أن تحدث أخاك حديثا هو لك به مصدق وأنت له كاذب » البخارى فى كتاب الأدب المفرد وأبو داود من حديث سفيان بن أسيد وضعفه بن عدى ورواه أحمد والطبرانى من حديث النواس ابن سمعان بإسناد جيد .

(٦) حديث ابن مسعود : « لا يزال العبد يكذب حتى يكتب عند الله كذابا » متفق عليه .

ومن

ومر[١] رسول الله صلى الله عليه وسلم برجلين يتبايعان شاة ويتحالفان يقول أحدهما والله لا أنقصك من كذا وكذا ويقول الآخر : والله لا أزيدك على كذا وكذا فمر بالشاة وقد اشتراها أحدهما فقال أوجب أحدهما بالإثم والكفارة » وقال عليه الصلاة والسلام [٢] « الكذب ينقص الرزق » ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن التجار[٣] هم الفجار فقيل يارسول الله أليس قد أحل الله البيع قال نعم ولكنهم يحلفون فيأثمون ، ويحدثون فيكذبون » . وقال صلى الله عليه وسلم [٤] . « ثلاثة نفر لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا ينظر إليهم : المنان بعطيته ، والمنفق سلعته بالحلف الفاجر والمسبل إزاره » وقال صلى الله عليه وسلم [٥] « ماحلف حالف بالله فأدخل فيها مثل جناح بعوضة إلا كانت نكتة فى قلبه إلى يوم القيامة » وقال أبوذر الغفارى [٦] قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ثلاثة يحبهم الله رجل كان فى فئة فنصب نحره حتى يقتل أو يفتح الله عليه وعلى أصحابه ، ورجل كان له جار سوء يؤذيه فصبر على أذاه حتى يفرق بينهما موت أو ظعن ، ورجل كان معه قوم فى سفر أو سرية فأطالوا السرى حتى أعجبهم أن يمسوا الأرض فنزلوا فتنحى يصلى حتى يوقظ أصحابه للرحيل ، وثلاثة يشنؤهم الله : التاجر أو البياع الحلاف ، والفقير المختال ، والبخيل المنان » وقال صلى الله عليه وسلم [٧] « ويل للذى يحدث فيكذب ليضحك به القوم ويل له ويل له » . وقال صلى الله عليه وسلم [٨] رأيت كأن رجلا جاءنى فقال لى قم فقمت معه فإذا أنا برجلين أحدهما قائم والآخر جالس ؛ بيد القائم كلوب من حديد يلقمه فى شدق الجالس فيجذبه حتى يبلغ كاهله ثم يجذبه فيلقمه الجانب الآخر فيمده فإذا مده رجع الآخر كما كان فقلت للذى أقامنى ماهذا ؟ فقال هذا رجل كذاب يعذب فى قبره إلى يوم القيامة ، وعن عبد الله بن جراد

---

(١) حديث مر برجلين يتبايعان شاة ويتحالفان الحديث وفيه فقال أوجب أحدهما بالاثم والكفارة أبوالفتح الأزدى فى كتاب الأسماء المفردة من حديث ناسخ الحضرمى ، وهكذا رويناه فى أمالى ابن سمعون ، وناسخ ذكره البخارى هكذا فى التاريخ ، وقال أبو حاتم هو عبد الله بن ناسخ .

(٢) حديث : الكذب ينقص الرزق ، أبوالشيخ فى طبقات الأصبهانيين من حديث أبى هريرة ورويناه كذلك فى مشيخة القاضى أبى بكر وإسناده ضعيف .

(٣) حديث : إن التجار هم الفجار الحديث ، وفيه ويحدثون فيكذبون أحمد والحاكم وقال صحيح الإسناد والبيهقى من حديث عبد الرحمن بن شبل .

(٤) حديث : ثلاثة نفر لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا ينظر اليهم : المنان بعطيته ، والمنفق سلعته بالحلف الكاذب ، والمسبل إزاره ، مسلم من حديث أبى ذر .

(٥) حديث : ماحلف حالف بالله فأدخل فيها مثل جناح بعوضة إلا كانت نكتة فى قلبه إلى يوم القيامة الترمذى والحاكم وصحح إسناده من حديث عبد الله بن أنيس .

(٦) حديث أبى ذر : ثلاثة يحبهم الله الحديث وفيه ثلاثة يشنؤهم الله : التاجر أو البائع الحلاف أحمد واللفظ له وفيه ابن الأحمس ولا يعرف حاله ورواه هو والنسائى بلفظ آخر بإسناد جيد ، وللنسائى من حديث أبى هريرة أربعة يبغضهم الله : البياع الحلاف الحديث وإسناده جيد .

(٧) حديث : ويل للذى يحدث فيكذب ليضحك به القوم ويل له ويل له ، أبوداود والترمذى وحسنه والنسائى فى الكبرى من رواية بهز بن حكيم عن أبيه عن جده .

(٨) حديث : رأيت كأن رجلا جاءنى فقال لى قم فقمت معه فإذا أنا برجلين أحدهما قائم والآخر جالس بيد القائم كلوب من حديد يلقمه فى شدق الجالس الحديث : البخارى من حديث سمرة بن جندب فى حديث : طويل .

قال (١) سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت يارسول الله : هل يزنى المؤمن ؟ قال قد يكون ذلك ، قلت يانبي الله هل يكذب المؤمن ؟ قال لا ، ثم أتبعها صلى الله عليه وسلم بقول الله تعالى : إنما يفترى الكذب الذين لايؤمنون بآيات الله ، وقال أبو سعيد الخدرى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم (٢) يدعو فيقول فى دعائه : اللهم طهر قلبى من النفاق ، وفرجى من الزنا ، ولسانى من الكذب . وقال صلى الله عليه وسلم (٣) ثلاثة لايكلمهم الله ولا ينظر اليهم ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم : شيخ زان ، وملك كذاب ، وعائل مستكبر . وقال عبد الله بن عامر (٤) جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم بيتنا وأنا صبى صغير ، فذهبت لألعب ، فقالت أمى : ياعبد الله تعال حتى أعطيك فقال صلى الله عليه وسلم وما أردت أن تعطيه ؟ قالت تمراً ، فقال : أما إنك لولم تفعلى لكتبت عليك كذبة . وقال صلى الله عليه وسلم (٥) لو أفاء الله على نعما عدد هذا الحصى لقسمتها بينكم ثم لا تجدونى بخيلا ولا كذابا ولا جبانا ، وقال صلى الله عليه وسلم وكان متكئا (٦) ألا أنبئكم بأكبر الكبائر : الإشراك بالله ، وعقوق الوالدين ، ثم قعد وقال ألا وقول الزور . وقال ابن عمر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (٧) : « إن العبد ليكذب الكذبة فيتباعد الملك عنه مسيرة ميل من نتن ما جاء به . وقال أنس (٨) قال النبى صلى الله عليه وسلم « تقبلوا إلى بست أتقبل لكم الجنة فقالوا وما هن؟ قال إذا حدث أحدكم فلا يكذب ، وإذا وعد فلا يخلف ، وإذا ائتمن فلا يخن ، وغضوا أبصاركم ، واحفظوا فروجكم ،

---

(١) حديث عبد الله بن جراد أنه سأل النبى صلى الله عليه وسلم هل يزنى المؤمن ؟ قال قد يكون ذلك ، قال هل يكذب ؟ قال لا ، الحديث ابن عبد البر فى التمهيد بسند ضعيف ، ورواه ابن أبى الدنيا فى الصمت مقتصراً على الكذب ، وجعل السائل أبا الدرداء .

(٢) حديث أبى سعيد : اللهم طهر قلبي من النفاق ، وفرجى من الزنا ، ولسانى من الكذب ، هكذا وقع فى نسخ الإحياء عن ابن سعيد ، وإنما هو عن أم معبد ، كذا رواه الخطيب فى التاريخ دون قوله وفرجى من الزنا ، وزاد : وعملى من الرياء ، وعينى من الخيانة ، وإسناده ضعيف .

(٣) حديث ثلاثة لايكلمهم الله ولا ينظر إليهم الحديث وفيه . والإمام الكذاب ، مسلم من حديث أبى هريرة .

(٤) حديث عبد الله بن عامر جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بيتنا وأنا صبى صغير فذهبت لألعب فقالت أمى ياعبدالله تعال أعطيك ، فقال وما أردت أن تعطيه ؟ قالت تمرا ، فقال : إن لم تفعلى كتبت عليك كذبة ، رواه أبوداود ، وفيه من لم يسم ، وقال الحاكم : إن عبدالله بن عامر ولد فى حياته صلى الله عليه وسلم ولم يسمع منه ؛ قلت : وله شاهد من حديث أبى هريرة وابن مسعود ورجالهما ثقات إلا أن الزهرى لم يسمع من أبى هريرة .

(٥) حديث لو أفاء الله على نعما عدد هذا الحصى لقسمتها بينكم ثم لا تجدونى بخيلا ولا كذابا ولا جبانا رواه مسلم وتقدم فى أخلاق النبوة .

(٦) حديث : ألا أنبئكم بأكبر الكبائر الحديث ، وفيه ولاقول الزور متفق عليه من حديث أبى بكرة

(٧) حديث ابن عمر : إن العبد ليكذب الكذبة فيتباعد الملك عنه مسيرة ميل من نتن ماجاء به ، الترمذى وقال حسن غريب .

(٨) حديث أنس : تقبلوا إلى بست أتقبل لكم الجنة إذا حدث أحدكم فلا يكذب ، الحديث الحاكم فى المستدرك والخرائطى فى مكارم الأخلاق وفيه سعد بن سنان ضعفه أحمد والنسائى ووثقه ابن معين ورواه الحاكم بنحوه من حديث عبادة بن الصامت وقال صحيح الإسناد .

وكفوا

وكفوا أيديكم . وقال صلى الله عليه وسلم (١) إن للشيطان كحلا ولعوقا ونشوقا : أما لعوقه فالكذب ، وأما نشوقه فالغضب ، وأما كحله فالنوم . وخطب عمر رضى الله عنه يوما فقال (٢) : قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم كقيامى هذا فيكم فقال : أحسنوا إلى أصحابى ثم الذين يلونهم ثم يفشو الكذب حتى يحلف الرجل على اليمين ولم يستحلف ويشهد ولم يستشهد . وقال النبى صلى الله عليه وسلم (٣) « من حدث عنى بحديث وهو يرى أنه كذب فهو أحد الكذابين » . وقال صلى الله عليه وسلم (٤) « من حلف على يمين بإثم ليقتطع بها مال امرىء مسلم بغير حق لقى الله عز وجل وهو عليه غضبان » . وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم (٥) أنه رد شهادة رجل فى كذبة كذبها وقال صلى الله عليه وسلم (٦) « كل خصلة يطبع أويطوى عليها المسلم إلا الخيانة والكذب » . وقالت عائشة رضى الله عنها (٧) : ماكان من خلق أشد على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من الكذب ، ولقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يطلع على الرجل من أصحابه على الكذب فما ينجلى من صدره حتى يعلم أنه قد أحدث توبة لله عز وجل منها . وقال موسى عليه السلام : يارب أى عبادك خير لك عملا ؟ قال من لايكذب لسانه ، ولايفجر قلبه ، ولايزنى فرجه . وقال لقمان لابنه : يابنى إياك والكذب فإنه شهى كلحم العصفور عما قليل يقلاه صاحبه : وقال عليه السلام فى مدح الصدق (٨) : أربع إذا كن فيك فلا يضرك مافاتك من الدنيا : صدق الحديث ، وحفظ الأمانة ، وحسن الخلق ، وعفة طعمة .

---

(١) حديث : إن للشيطان كحلا ولعوقا الحديث الطبرانى وأبو نعيم من حديث أنس بسند ضعيف وقد تقدم :

(٢) حديث : خطب عمر بالجابية الحديث وفيه ثم يفشو الكذب الترمذى وصححه والنسائى فى الكبرى من رواية ابن عمر عن عمر :

(٣) حديث : من حدث بحديث وهو يرى أنه كذب فهو أحد الكذابين ، مسلم فى مقدمة صحيحه من حديث سمرة بن جندب .

(٤) حديث : من حلف على يمين مأثم ليقتطع بها مال امرىء مسلم ، الحديث متفق عليه من حديث ابن مسعود .

(٥) حديث : أنه رد شهادة رجل فى كذبة كذبها ابن أبى الدنيا فى الصمت من رواية موسى بن شيبة مرسلا ، وموسى روى معمر عنه مناكير قاله أحمد بن حنبل :

(٦) حديث :- كل خصلة يطبع أو يطوى عليها المؤمن إلا الخيانة والكذب ، ابن أبى شيبة فى المصنف من حديث أبى أمامة ورواه ابن عدى فى مقدمة الكامل من حديث سعد بن أبى وقاص وابن عمر أيضا وأبى أمامة أيضا ورواه ابن أبى الدنيا فى الصمت من حديث سعد مرفوعا وموقوفا والموقوف أشبه بالصواب ، قاله الدار قطنى فى العلل :

(٧) حديث : ماكان من خلق أشد على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من الكذب ولقد كان يطلع على الرجل من أصحابه على الكذب فما ينحل من صدره حتى يعلم أنه قد أحدث لله منها توبة أحمد من حديث عائشة ورجاله ثقات إلا أنه قال عن ابن أبى مليكة أو غيره ، وقد رواه أبو الشيخ فى الطبقات فقال ابن أبى مليكة ولم يشك وهو صحيح .

(٨) حديث : أربع إذا كن فيك فلا يضرك مافاتك من الدنيا : صدق الحديث ، الحديث الحاكم والخرائطى فى مكارم الأخلاق من حديث عبد الله بن عمرو وفيه ابن لهيعة .

وقال أبو بكر رضي الله عنه (١) في خطبة بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم مثل مقامي هذا عام أول ثم بكى وقال عليكم بالصدق فإنه مع البر وهما في الجنة . وقال معاذ قال لي صلى الله عليه وسلم (٢) أوصيك بتقوى الله ، وصدق الحديث ، وأداء الأمانة ، والوفاء بالعهد ، وبذل السلام ، وخفض الجناح .

(وأما الآثار) فقد قال علي رضي الله عنه : أعظم الخطايا عند الله اللسان الكذوب ، وشر الندامة ندامة يوم القيامة . وقال عمر بن عبد العزيز رحمة الله عليه : ما كذبت كذبة منذ شددت على إزاري . وقال عمر رضي الله عنه : أحبكم إلينا مالم نركم أحسنكم اسما ، فإذا رأيناكم فأحبكم إلينا أحسنكم خلقا ، فإذا اختبرناكم فأحبكم إلينا أصدقكم حديثا ، وأعظمكم أمانة . وعن ميمون بن أبي شبيب قال : جلست أكتب كتابا فأتيت على حرف إن أنا كتبته زينت الكتاب ، وكنت قد كذبت فعزمت على تركه فسمعت من جانب البيت «يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة» . وقال الشعبي : ماأدري أيهما أبعد غورا في النار الكذاب أو البخيل ؟ وقال ابن السماك : ماأراني أوجر على ترك الكذب لأني إنما أدعه أنفة وقيل لخالد بن صبيح : أيسمى الرجل كاذبا بكذبة واحدة ؟ قال نعم . وقال مالك بن دينار : قرأت في بعض الكتب : مامن خطيب إلا وتعرض خطبته على عمله ، فإن كان صادقا صدق ، وإن كان كاذبا قرضت شفتاه بمقاريض من نار كلما قرضتا نبتتا . وقال مالك بن دينار : الصدق والكذب يعتركان في القلب حتى يخرج أحدهما صاحبه . وكلم عمر بن عبد العزيز الوليد بن عبد الملك في شيء ، فقال له كذبت ، فقال عمر والله ما كذبت منذ علمت أن الكذب يشين صاحبه .

بيان مارخص فيه من الكذب

اعلم أن الكذب ليس حراما لعينه بل لمافيه من الضرر على المخاطب أو على غيره فإن أقل درجاته أن يعتقد المخبر الشيء على خلاف ماهو عليه فيكون جاهلا ؛ وقد يتعلق به ضرر غيره ، ورب جهل فيه منفعة ومصلحة فالكذب محصل لذلك الجهل فيكون مأذونا فيه ، وربما كان واجبا . قال ميمون بن مهران : الكذب في بعض المواطن خير من الصدق ، أرأيت لو أن رجلا سعى خلف إنسان بالسيف ليقتله فدخل دارا فانتهى إليك فقال أرأيت فلانا ؛ ما كنت قائلا ؟ ألست تقول لم أره وما تصدق به ، وهذا الكذب واجب :

فنقول : الكلام وسيلة إلى المقاصد ، فكل مقصود محمود يمكن التوصل إليه بالصدق والكذب جميعا فالكذب فيه حرام وإن أمكن التوصل إليه بالكذب دون الصدق فالكذب فيه مباح إن كان تحصيل ذلك القصد مباحا ، وواجب إن كان المقصود واجبا ، كما أن عصمة دم المسلم واجبة ، فمهما كان في الصدق سفك دم امرىء مسلم قد اختفى من ظالم فالكذب فيه واجب ، ومهما كان لايتم مقصود الحرب أو إصلاح ذات البين أو استمالة قلب المجني عليه إلا بكذب فالكذب مباح إلا أنه ينبغي أن يحترز منه ماأمكن ، لأنه إذا فتح باب الكذب على نفسه فيخشى أن يتداعى إلى مايستغنى عنه وإلى مالا يقتصر على حد الضرورة فيكون الكذب حراما في الأصل إلا لضرورة ، والذي يدل على الاستثناء ماروى عن أم كلثوم (٣) ماسمعت رسول

(١) حديث أبي بكر : عليكم بالصدق فإنه مع البر وهما في الجنة ، ابن ماجه والنسائي في اليوم والليلة ، وقد تقدم بعضه في أول هذا النوع :

(٢) حديث معاذ : أوصيك بتقوى الله وصدق الحديث أبو نعيم في الحلية وقد تقدم :

(٣) حديث أم كلثوم : ماسمعته يرخص في شيء من الكذب إلا في ثلاث ، مسلم وقد تقدم :

الله

الله صلى الله عليه وسلم يرخص فى شىء من الكذب إلا فى ثلاث : الرجل يقول القول يريد به الإصلاح ، والرجل يقول القول فى الحرب ، والرجل يحدث امرأته ، والمرأة تحدث زوجها . وقالت أيضا : وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (١) : « ليس بكذاب من أصلح بين اثنين فقال خيرا أونمى خيرا » . وقالت أسماء بنت يزيد (٢) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « كل الكذب يكتب على ابن آدم إلا رجل كذب بين مسلمين ليصلح بينهما » وروى عن أبى كاهل (٣) قال : وقع بين اثنين من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم كلام حتى تصارما فلقيت أحدهما فقلت : مالك ولفلان ! فقد سمعته يحسن عليك الثناء ، ثم لقيت الآخر فقلت له مثل ذلك حتى اصطلحا ، ثم قلت : أهلكت نفسى وأصلحت بين هذين ، فأخبرت النبى صلى الله عليه وسلم فقال يا أبا كاهل أصلح بين الناس أى ولو بالكذب . وقال عطاء بن يسار (٤) قال رجل للنبى صلى الله عليه وسلم أكذب على أهلى ! قال لا خير فى الكذب ، قال أعدها وأقول لها قال لا جناح عليك . وروى أن ابن أبى عذرة الدؤلى وكان فى خلافة عمر رضى الله عنه كان يخلع النساء اللاتى يتزوج بهن ؛ فطارت له فى الناس من ذلك أحدوثة يكرهها فلما علم بذلك أخذ بيد عبد الله بن الأرقم حتى أتى به إلى منزله ، ثم قال لامرأته . أنشدك بالله هل تبغضيني قالت لا تنشدنى ، قال فإنى أنشدك الله قالت نعم ، فقال لابن الأرقم أتسمع ثم انطلقا حتى أتيا عمر رضى الله عنه ، فقال : إنكم لتحدثون أنى أظلم النساء وأخلعهن فاسأل ابن الأرقم فسأله فأخبره فأرسل إلى امرأة ابن أبى عذرة فجاءت هى وعمتها ، فقال : أنت التى تحدثين لزوجك أنك تبغضينه فقالت : إنى أول من تاب وراجع أمر الله تعالى إنه ناشدنى فتحرجت أن أكذب أفأكذب يا أمير المؤمنين قال نعم فاكذبى فإن كانت إحداكن لا تحب أحدنا فلا تحدثه بذلك ، فإن أقل البيوت التى تبنى على الحب ولكن الناس يتعاشرون بالإسلام والأحساب وعن النواس (٥) بن سمعان الكلابى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « مالى أراكم تتهافتون فى الكذب تهافت الفراش فى النار ، كل الكذب يكتب على ابن آدم لا محالة إلا أن يكذب الرجل فى الحرب فإن الحرب خدعة ، أو يكون بين الرجلين شحناء فيصلح بينهما ، أو يحدث امرأته يرضيها » . وقال ثوبان « الكذب كله إثم إلا ما نفع به مسلما ، أو دفع عنه ضررا » ، وقال على رضى الله عنه : إذا حدثتكم عن النبى صلى الله عليه وسلم فلأن أخر من السماء أحب إلى من أن أكذب عليه ، وإذا حدثتكم فيما بينى وبينكم فالحرب خدعة » فهذه الثلاث ورد فيها صريح الاستثناء ، وفى معناها ماعداها إذا

---

(١) حديث أم كلثوم أيضا : ليس بكذاب من أصلح بين الناس ؛ الحديث متفق عليه وقد تقدم والذى قبله عند مسلم بعض هذا .

(٢) حديث أسماء بنت يزيد : كل الكذب يكتب على ابن آدم إلا رجل كذب بين رجلين يصلح بينهما أحمد بزيادة فيه ، وهو عند الترمذى مختصرا وحسنه .

(٣) حديث أبى كاهل : وقع بين رجلين من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم كلام الحديث وفيه : يا أبا كاهل أصلح بين الناس ، رواه الطبرانى ولم يصح :

(٤) حديث عطاء بن يسار قال رجل للنبى صلى الله عليه وسلم أكذب على أهلى ؟ قال لا خير فى الكذب قال أعدها وأقول لها قال لا جناح عليك ، ابن عبد البر فى التمهيد من رواية صفوان بن سليم عن عطاء بن يسار مرسلا ، وهو فى الموطأ عن صفوان بن سليم معضلا من غير ذكر عطاء بن يسار .

(٥) حديث النواس بن سمعان : مالى أراكم تتهافتون فى الكذب تهافت الفراش فى النار كل الكذب مكتوب ، الحديث أبو بكر بن لال فى مكارم الأخلاق بلفظ تتتابعون إلى قوله فى النار دون ما بعده فرواه الطبرانى وفيهما شهر بن حوشب .

ارتبط به مقصود صحيح له أو لغيره . أما ماله فمثل أن يأخذه ظالم ويسأله عن ماله فله أن ينكره ، أو يأخذه سلطان فيسأله عن فاحشة بينه وبين الله تعالى ارتكبها فله أن ينكر ذلك فيقول مازنيت وما سرقت ، وقال صلى الله عليه وسلم (١) « من ارتكب شيئا من هذه القاذورات فليستتر بستر الله » وذلك أن إظهار الفاحشة فاحشة أخرى ، فللرجل أن يحفظ دمه وماله الذى يؤخذ ظلما ، وعرضه بلسانه وإن كان كاذبا . وأما عرض غيره فبأن يسأل عن سر أخيه فله أن ينكره ، وأن يصلح بين اثنين ، وأن يصلح بين الضرات من نسائه بأن يظهر لكل واحدة أنها أحب إليه ، وإن كانت امرأته لاتطاوعه إلا بوعد لايقدر عليه فيعدها فى الحال تطييبا لقلبها ، أو يعتذر إلى إنسان وكان لايطيب قلبه إلا بانكار ذنب وزيادة تودد فلا بأس به ، ولكن الحد فيه أن الكذب محذور ، ولو صدق فى هذه المواضع تولد منه محذور فينبغى أن يقابل أحدهما بالآخر ويزن بالميزان القسط ، فاذا علم أن المحذور الذى يحصل بالصدق أشد وقعا فى الشرع من الكذب فله الكذب وإن كان ذلك المقصود أهون من مقصود الصدق فيجب الصدق ، وقد يتقابل الأمران بحيث يتردد فيهما ، وعند ذلك الميل إلى الصدق أولى ، لأن الكذب يباح لضرورة أو حاجة مهمة ، فإن شك فى كون الحاجة مهمة فالأصل التحريم فيرجع إليه ، ولأجل غموض إدراك مراتب المقاصد ينبغى أن يحترز الإنسان من الكذب ما أمكنه وكذلك مهما كانت الحاجة له ، فيستحب له أن يترك أغراضه ويهجر الكذب، فأما إذا تعلق بغرض غيره فلا تجوز المسامحة لحق الغير والاضرار به ، وأكثر كذب الناس إنما هو لحظوظ أنفسهم، ثم هو لزيادات المال والجاه ، ولأمور ليس فواتها محذورا ، حتى أن المرأة لتحكي عن زوجها ماتفخر به ، وتكذب لأجل مراغمة الضرات ، وذلك حرام ، وقالت أسماء (٢) : سمعت امرأة سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم قالت إن لى ضرة ، وإنى أتكثر من زوجى بما لم يفعل أضارها بذلك فهل على شيء فيه فقال صلى الله عليه وسلم : المتشبع بما لم يعط كلابس ثوبى زور ، وقال صلى الله عليه وسلم (٣) من تطعم بما لايطعم ، أو قال لى وليس له أو أعطيت ولم يعط فهو كلابس ثوبى زور يوم القيامة . ويدخل فى هذا فتوى العالم بما لايتحققه ورواية الحديث الذى لايتثبته إذ غرضه أن يظهر فضل نفسه ، فهو لذلك يستنكف من أن يقول لاأدرى وهذا حرام ومما يلتحق بالنساء الصبيان ، فإن الصبى إذا كان لايرغب فى المكتب إلا بوعد أو وعيد ، أو تخويف كاذب كان ذلك مباحا ، نعم روينا فى الأخبار أن ذلك يكتب كذبا ، ولكن الكذب المباح أيضا قد يكتب ويحاسب عليه ويطالب بتصحيح قصده فيه ، ثم يعفى عنه ، لأنه إنما أبيح بقصد الإصلاح ، ويتطرق إليه غرور كبير فانه قد يكون الباعث له حظه وغرضه الذى هو مستغن عنه ، وإنما يتعلل ظاهرا بالإصلاح ، فلهذا يكتب ، وكل من أتى بكذبة فقد وقع فى خطر الاجتهاد ليعلم أن المقصود الذى كذب لأجله هل هو أهم فى الشرع من الصدق أم لا وذلك غامض جدا ، والحزم تركه إلا أن يصير واجبا بحيث لايجوز تركه كما لو أدى إلى سفك

---

(١) حديث : من ارتكب شيئا من هذه القاذورات فليستتر بستر الله ، الحاكم من حديث ابن عمر بلفظ : اجتنبوا هذه القاذورات التى نهى الله عنها ، فمن ألم بشىء منها فليستتر بستر الله ، وإسناده حسن :

(٢) حديث أسماء : قالت امرأة إن لى ضرة وإنى أتكثر من زوجى بما لم يفعل ، الحديث متفق عليه ، وهي أسماء بنت أبى بكر الصديق .

(٣) حديث : من تطعم بما لايطعم ، وقال لى وليس له أوأعطيت ولم يعط كان كلابس ثوبى زور يوم القيامة ، لم أجده بهذا اللفظ .

دم ، أو رتكاب معصية كيف كان ، وقد ظن ظانون أنه يجوز وضع الأحاديث فى فضائل الأعمال ، وفى التشديد فى المعاصى ، وزعموا أن القصد منه صحيح ، وهو خطأ محض إذ قال صلى الله عليه وسلم [(١)] : « من كذب على متعمداً فليتبوأ مقعده من النار » وهذا لا يرتكب إلا لضرورة ولا ضرورة إذ فى الصدق مندوحة عن الكذب ، ففيما ورد من الآيات والأخبار كفاية عن غيرها ، وقول القائل : إن ذلك قد تكرر على الأسماع ، وسقط وقعه ، وما هو جديد فوقعه أعظم ، فهذا هوس ، إذ ليس هذا من الأغراض التى تقاوم محذور الكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى الله تعالى ، ويؤدى فتح بابه إلى أمور تشوش الشريعة ، فلا يقاوم خير هذا شره أصلا ، والكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم من الكبائر التى لا يقاومها شىء . نسأل الله العفو عنا وعن جميع المسلمين .

بيان الحذر من الكذب بالمعاريض

قد نقل عن السلف أن فى المعاريض مندوحة عن الكذب . قال عمر رضى الله عنه : أما فى المعاريض مايكفى الرجل عن الكذب ، وروى ذلك عن ابن عباس وغيره ، وإنما أرادوا بذلك إذا اضطر الإنسان إلى الكذب ، فأما إذا لم تكن حاجة وضرورة فلا يجوز التعريض ولا التصريح جميعا ، ولكن التعريض أهون . ومثال التعريض ماروى أن مطرفا دخل على زياد فاستبطأه فتعلل بمرض ، وقال مارفعت جنبى مذ فارقت الأمير إلا مارفعنى الله . وقال إبراهيم : إذا بلغ الرجل عنك شىء فكرهت أن تكذب : فقل إن الله تعالى ليعلم ماقلت من ذلك من شىء : فيكون قوله ماحرف نفى عند المستمع وعنده للإبهام ، وكان معاذ بن جبل عاملا لعمر رضى الله عنه فلما رجع قالت له امرأته ماجئت به مما يأتى به العمال إلى أهليهم ، وما كان قد أتاها بشىء : فقال كان عندى ضاغط . قالت كنت أمينا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم وعند أبى بكر رضى الله عنه فبعث عمر معك ضاغطا وقامت بذلك بين نسائها واشتكت عمر فلما بلغه ذلك دعا معاذا ، وقال بعثت معك ضاغطا . قال لم أجد ما أعتذر به إليها إلا ذلك ، فضحك عمر رضى الله عنه وأعطاه شيئا : فقال أرضها به . ومعنى قوله ضاغطا يعنى رقيبا ، وأراد به الله تعالى ، وكان النخعى لايقول لابنته أشترى لك سكرا بل يقول أرأيت لو اشتريت لك سكرا فانه ربما لايتفق له ذلك ، وكان إبراهيم إذا طلبه من يكره أن يخرج إليه وهو فى الدار قال للجارية قولى له اطلبه فى المسجد ولا تقولى ليس هاهنا كيلا يكون كذبا ، وكان الشعبى إذا طلب فى المنزل وهو يكرهه خط دائرة وقال للجارية ضعى الأصبع فيها وقولى ليس هاهنا ، وهذا كله فى موضع الحاجة . فأما فى غير موضع الحاجة فلا لأن هذا تفهيم للكذب ، وإن لم يكن اللفظ كذبا فهو مكروه على الجملة كما روى عبد الله بن عتبة . قال دخلت مع أبى على عمر بن عبد العزيز رحمة الله عليه فخرجت وعلى ثوب فجعل الناس يقولون هذا كساكه أمير المؤمنين ، فكنت أقول جزى الله أمير المؤمنين خيرا . فقال لى أبى يابنى اتق الكذب وما أشبهه ، فنهاه عن ذلك لأن فيه تقريرا لهم على ظن كاذب لأجل غرض المفاخرة وهذا غرض باطل لا فائدة فيه ، نعم المعاريض تباح لغرض خفيف كتطييب قلب الغير بالمزاح . كقوله صلى الله عليه وسلم : « [(٢)] لايدخل الجنة عجوز » ، وقوله للأخرى : « الذى فى عين زوجك بياض » ، وللأخرى : « نحملك على ولد البعير » : وما أشبهه . وأما الكذب الصريح كما فعله نعيمان الأنصارى مع عثمان فى قصة الضرير . إذ قال له إنه نعيمان ، وكما يعتاده الناس من ملاعبة الحمق بتغريرهم بأن امرأة قد رغبت فى تزويجك

---

(١) حديث : من كذب على متعمدا فليتبوأ مقعده من النار : متفق عليه من طرق ، وقد تقدم فى العلم .

(٢) حديث : لايدخل الجنة عجوز ، وحديث : فى عين زوجك بياض ، وحديث : نحملك على ولد البعير تقدمت الثلاثة فى الآفة العاشرة .

فإن كان فيه ضرر يؤدى إلى إيذاء قلب فهو حرام ، وإن لم يكن إلا لمطايبته فلا يوصف صاحبها بالفسق ، ولكن ينقص ذلك من درجة إيمانه . قال صلى الله عليه وسلم : « (١) لا يكمل المرء الإيمان حتى يحب لأخيه مايحب لنفسه ، وحتى يجتنب الكذب فى مزاحه » ، وأما قوله عليه السلام « (٢) إن الرجل ليتكلم بالكلمة ليضحك بها الناس يهوى بها فى النار أبعد من الثريا » أراد به مافيه غيبة مسلم أو إيذاء قلب دون محض المزاح ، ومن الكذب الذى لايوجب الفسق ماجرت به العادة فى المبالغة ، كقوله طلبتك كذا وكذا مرة : وقلت لك كذا مائة مرة فإنه لايريد به تفهيم المرات بعددها . بل تفهيم المبالغة فان لم يكن طلبه إلا مرة واحدة كان كذابا ، وإن كان طلبه مرات لايعتاد مثلها فى الكثرة لايأثم ، وإن لم تبلغ مائة وبينهما درجات يتعرض مطلق اللسان بالمبالغة فيها لخطر الكذب ، ومما يعتاد الكذب فيه ويتساهل به أن يقال : كل الطعام فيقول لا أشتهيه ، وذلك منهى عنه وهو حرام ، وإن لم يكن فيه غرض صحيح . قال مجاهد : (٣) قالت أسماء بنت عميس : « كنت صاحبة عائشة فى الليلة التى هيأتها وأدخلتها على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومعى نسوة . قالت فوالله ماوجدنا عنده قرى إلاقدحا من لبن . فشرب ثم ناوله عائشة . قالت فاستحيت الجارية . فقلت لاتردى يد رسول الله صلى الله عليه وسلم خذى منه . قالت فأخذت منه على حياء فشربت منه ثم قال ناولى صواحبك فقلن لانشتهيه . فقال لاتجمعن جوعا وكذبا . قالت فقلت يارسول الله : إن قالت إحدانا لشىء تشتهيه لا أشتهيه أيعد ذلك كذبا ؟ قال إن الكذب ليكتب كذبا حتى تكتب الكذيبة كذيبة » ، وقد كان أهل الورع يحترزون عن التسامح بمثل هذا الكذب . قال الليث بن سعد كانت عينا سعيد بن المسيب ترمص حتى يبلغ الرمص خارج عينيه . فيقال له لومسحت عينيك . فيقول وأين قول الطبيب : لا تمس عينيك . فأقول لا أفعل ، وهذه مراقبة أهل الورع ، ومن تركه انسل لسانه فى الكذب عن حد اختياره فيكذب ولايشعر . وعن خوات التيمى . قال جاءت أخت الربيع بن خثيم عائدة لابن له فانكبت عليه . فقالت كيف أنت يابنى فجلس الربيع . وقال أرضعتيه ؟ قالت لا . قال ماعليك لوقلت يابن أخى فصدقت ، ومن العادة أن يقول يعلم الله فيما لا يعلمه . قال عيسى عليه السلام : إن من أعظم الذنوب عند الله أن يقول العبد إن الله يعلم لما لا يعلم وربما يكذب فى حكاية المنام ، والاثم فيه عظيم . إذ قال عليه السلام « (٤) إن من أعظم الفرية أن يدعى الرجل

---

(١) حديث : لايستكمل المؤمن إيمانه حتى يحب لأخيه مايحبه لنفسه ، وحتى يجتنب الكذب فى مزاحه ذكره ابن عبدالبر فى الاستيعاب من حديث أبى مليكة الذمارى وقال فيه نظر ، وللشيخين من حديث أنس : لايؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه مايحب لنفسه وللدارقطنى فى المؤتلف والمختلف من حديث أبى هريرة : لايؤمن عبد الإيمان كله حتى يترك الكذب فى مزاحه ، قال أحمد بن حنبل منكر .

(٢) حديث : إن الرجل ليتكلم بالكلمة يضحك بها الناس يهوى بها أبعد من الثريا ، تقدم فى الآفة الثالثة .

(٣) حديث : مجاهد عن أسماء بنت عميس كنت صاحبة عائشة التى هيأتها وأدخلتها على رسول الله صلى الله عليه وسلم الحديث : وفيه قال لاتجمعن جوعا وكذبا ، ابن أبى الدنيا فى الصمت والطبرانى فى الكبير ، وله ونحوه من رواية شهر بن حوشب عن أسماء بنت يزيد ، وهو الصواب فان أسماء بنت عميس كانت إذ ذاك بالحبشة ، لكن فى طبقات الأصبهانيين لأبى الشيخ من رواية عطاء بن أبى رباح عن أسماء بنت عميس زففنا إلى النبى صلى الله عليه وسلم بعض نسائه الحديث ، فاذا كانت غير عائشة ممن تزوجها بعد خيبر فلا مانع من ذلك

(٤) حديث إن من أعظم الفرى أن يدعى الرجل إلى غير أبيه أو يرى عينيه فى المنام مالم تريا أو يقول

إلى

إلى غير أبيه أو رى عينيه فى المنام مالم ير أو يقول على مالم أقل » ، وقال عليه الصلاة والسلام « [١] من كذب فى حلم كلف يوم القيامة أن يعقد بين شعيرتين ، وليس بعاقد بينهما أبدا » .

الآفة الخامسة عشرة ، الغيبة والنظر فيها طويل

فلنذكر أولا مذمة الغيبة وما ورد فيها من شواهد الشرع ، وقد نص الله سبحانه على ذمها فى كتابه وشبه صاحبها بآكل لحم الميتة ، فقال تعالى : « ولا يغتب بعضكم بعضا أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا فكرهتموه » ، وقال عليه الصلاة السلام «[٢] كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه » ، والغيبة تتناول العرض ، وقد جمع الله بينه وبين المال والدم . وقال أبو برزة . قال عليه الصلاة والسلام «[٣] لاتحاسدوا ولا تباغضوا ولا تناجشوا ولا تدابروا ولا يغتب بعضكم بعضا ، وكونوا عباد الله إخوانا » ، وعن جابر وأبى سعيد « [٤] قالا . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إياكم والغيبة فإن الغيبة أشد من الزنا ، فإن الرجل قد يزنى ويتوب فيتوب الله سبحانه عليه ، وإن صاحب الغيبة لايغفر له حتى يغفر له صاحبه » ، وقال أنس [٥] قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « مررت ليلة أسرى بى على أقوام يخمشون وجوههم بأظافيرهم ، فقلت ياجبريل من هؤلاء ؟ قال هؤلاء الذين يغتابون الناس ويقعون فى أعراضهم » ، وقال سليم بن جابر [٦] أتيت النبى عليه الصلاة والسلام ، فقلت علمنى خيرا أنتفع به ، فقال : لاتحقرن من المعروف شيئا ولو أن تصب من دلوك فى إناء المستقى . وأن تلقى أخاك ببشر حسن ، وإن أدبر فلا تغتابنه » وقال البراء [٧] خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أسمع العواتق فى بيوتهن ، فقال « يامعشر من آمن بلسانه ولم يؤمن بقلبه : لاتغتابوا المسلمين ، ولا تتبعوا عوراتهم ، فإنه من تتبع عورة أخيه تتبع الله عورته ، ومن تتبع الله عورته يفضحه فى جوف بيته » . وقيل أوحى الله إلى موسى عليه السلام « من مات تائبا من الغيبة فهو آخر من يدخل

= على مالم أقل . البخارى : من حديث واثلة بن الأسقع ، وله من حديث ابن عمر ، من أفرى الفرى أن يرى عينيه مالم تريا .

(١) حديث : من كذب فى حلمه كلف يوم القيامة أن يعقد بين شعيرتين . البخارى من حديث ابن عباس .

(٢) حديث : كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه ، مسلم من حديث أبى هريرة .

(٣) حديث أبى برزة : لاتحاسدوا ولا تباغضوا ولا يغتب بعضكم بعضا وكونوا عباد الله إخوانا . متفق عليه من حديث أبى هريرة وأنس ، دون قوله : ولا يغتب بعضكم بعضا ، وقد تقدم فى آداب الصحبة .

(٤) حديث جابر وأبى سعيد : إياكم والغيبة فإن الغيبة أشد من الزنا الحديث . ابن أبى الدنيا فى الصمت وابن حبان فى الضعفاء وابن مردويه فى التفسير .

(٥) حديث أنس : مررت ليلة أسرى بى على قوم يخمشون وجوههم بأظفارهم الحديث ، أبو داود مسندا ومرسلا ، والمسند أصح .

(٦) حديث سليم بن جابر : أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت علمنى خيرا ينفعنى الله به الحديث ، أحمد فى المسند وابن أبى الدنيا فى الصمت واللفظ له ولم يقل فيه أحمد : وإذا أدبر فلا يغتابه ، وفى إسنادها ضعف .

(٧) حديث البراء : يامعشر من آمن بلسانه ولم يؤمن بقلبه لاتغتابوا المسلمين الحديث ، ابن أبى الدنيا هكذا ، ورواه أبو داود من حديث أبى برزة بإسناد جيد .

الجنة ، ومن مات مصرا عليها فهو أول من يدخل النار » ، وقال أنس (١) أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس بصوم يوم، فقال : لايفطرن أحد حتى آذن له : فصام الناس حتى إذا أمسوا جعل الرجل يجيء ، فيقول يارسول الله ظللت صائما فائذن لى لأفطر فيأذن له ، والرجل والرجل حتى جاء رجل فقال يارسول الله : فتاتان من أهلك ظلتا صائمتين، وإنهما يستحيان أن يأتياك فائذن لهما أن يفطرا ، فأعرض عنه صلى الله عليه وسلم فأعرض عنه ثم عاوده ، فقال إنهما لم يصوما ، وكيف يصوم من ظل نهاره يأكل لحم الناس اذهب فمرهما إن كانتا صائمتين أن تستقيئا فرجع إليهما فأخبرهما فاستقاءتا فقاءت كل واحدة منهما علقة من دم فرجع إلى النبي صلى الله عليه وسلم فأخبره ، فقال : والذى نفسى بيده لو بقيتا فى بطونهما لأكلتهما النار» وفى رواية أنه لما أعرض عنه جاء بعد ذلك ، وقال يارسول الله والله إنهما قد ماتتا أو كادتا أن تموتا ، فقال صلى الله عليه وسلم (٢) ائتونى بهما فجاءتا فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم بقدح فقال لإحداهما قيئى فقاءت من قيح ودم وصديد حتى ملأت القدح ، وقال للأخرى قيئى فقاءت كذلك . فقال إن هاتين صامتا عما أحل الله لهما وأفطرتا على ماحرم الله عليهما جلست إحداهما إلى الأخرى فجعلتا تأكلان لحوم الناس ؛ وقال أنس (٣) خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكر الربا وعظم شأنه . فقال : إن الدرهم يصيبه الرجل من الربا أعظم عند الله فى الخطيئة من ست وثلاثين زنية يزنيها الرجل ، وأربى الربا عرض الرجل المسلم ، وقال جابر « (٤) كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مسير فأتى على قبرين يعذب صاحباهما ، فقال إنهما يعذبان وما يعذبان فى كبير : أما أحدهما فكان يغتاب الناس ، وأما الآخر فكان لايستنزه من بوله ، فدعا بجريدة رطبة أو جريدتين فكسرهما ، ثم أمر بكل كسرة فغرست على قبر . وقال أما إنه سيهون من عذابهما ما كانتا رطبتين أو مالم ييبسا» ، ولما رجم رسول الله صلى الله عليه وسلم (٥) ماعزا فى الزنا ، قال رجل لصاحبه هذا أقعص كما يقعص الكلب فمر صلى الله عليه وسلم ، وهما معه بجيفة . فقال انهشا منها . فقالا يارسول الله ننهش جيفة . فقال ماأصبتما من أخيكما أنتن من هذه ، وكان الصحابة رضى الله عنهم يتلاقون بالبشر ولا يغتابون

(١) حديث أنس أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس بصوم وقال لا يفطرن أحد حتى آذن له ، فصام الناس الحديث فى ذكر المرأتين اللتين اغتابتا فى صيامهما فقاءت كل واحدة منهما علقة من دم ؛ ابن أبي الدنيا فى الصمت ، وابن مردويه فى التفسير من رواية يزيد الرقاشى عنه ، ويزيد ضعيف .

(٢) حديث المرأتين المذكورتين ، وقال فيه إن هاتين صامتا عما أحل الله لهما وأفطرتا على ماحرم الله عليهما الحديث أحمد من حديث عبيد مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم وفيه رجل لم يسم ، ورواه أبو يعلى فى مسنده فاسقط منه ذكر الرجل المبهم .

(٣) حديث أنس : خطبنا فذكر الربا وعظم شأنه الحديث، وفيه وأربى الربا عرض الرجل المسلم ، ابن أبي الدنيا بسند ضعيف .

(٤) حديث جابر : كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مسير فأتى على قبرين يعذب صاحباهما فقال أما إنهما ليعذبان وما يعذبان فى كبير : أما أحدهما فكان يغتاب الناس ، الحديث ابن أبي الدنيا فى الصمت وأبو العباس الدغولى فى كتاب الآداب بإسناد جيد ، وهو فى الصحيحين من حديث ابن عباس إلا أنه ذكر فيه النميمة بدل الغيبة. وللطيالسى فيه: أما أحدهما فكان يأكل لحوم الناس، ولأحمد والطبرانى من حديث أبي بكرة نحوه بإسناد جيد .

(٥) حديث قوله للرجل الذى ، قال لصاحبه فى حق المرجوم هذا أقعص كما يقعص الكلب فمر بجيفة فقال انهشا منها الحديث ، أبو داود والنسائى من حديث أبي هريرة نحوه بإسناد جيد .

عند الغيبة ويرون ذلك أفضل الأعمال ، ويرون خلافه عادة المنافقين . وقال أبو هريرة «[١] من أكل لحم أخيه فى الدنيا قرب إليه لحمه فى الآخرة ، وقيل له كله ميتا كما أكلته حيا فيأكله فيتضجع ويكلح» ، وروى مرفوعا كذلك ، وروى أن رجلين كانا قاعدين عند باب من أبواب المسجد فمر بهما رجل كان مخنثا فترك ذلك فقالا لقد بقى فيه منه شىء ، وأقيمت الصلاة فدخلا فصليا مع الناس فحاك فى أنفسهما ماقالا فأتيا عطاء فسألاه فأمرهما أن يعيدا الوضوء والصلاة ، وأمرهما أن يقضيا الصيام إن كانا صائمين ، وعن مجاهد أنه قال فى «ويل لكل همزة لمزة» الهمزة الطعان فى الناس ، واللمزة الذى يأكل لحوم الناس . وقال قتادة : ذكر لنا أن عذاب القبر ثلاثة أثلاث : ثلث من الغيبة ، وثلث من النميمة ، وثلث من البول . وقال الحسن : والله للغيبة أسرع فى دين الرجل المؤمن من الأكلة فى الجسد . وقال بعضهم : أدركنا السلف وهم لايرون العبادة فى الصوم ولا فى الصلاة ، ولكن فى الكف عن أعراض الناس ، وقال ابن عباس : إذا أردت أن تذكر عيوب صاحبك فاذكر عيوبك . وقال أبو هريرة : يبصر أحدكم القذى فى عين أخيه ولا يبصر الجذع فى عين نفسه . وكان الحسن يقول : «ابن آدم إنك لن تصيب حقيقة الإيمان حتى لاتعيب الناس بعيب هو فيك وحتى تبدأ بصلاح ذلك العيب فتصلحه من نفسك ، فاذا فعلت ذلك كان شغلك فى خاصة نفسك ، وأحب العباد إلى الله من كان هكذا» . وقال مالك بن دينار : مر عيسى عليه السلام ومعه الحواريون بجيفة كلب ، فقال الحواريون ماأنتن ريح هذا الكلب ، فقال عليه الصلاة والسلام ماأشد بياض أسنانه كأنه صلى الله عليه وسلم نهاهم عن غيبة الكلب ، ونبههم على أنه لايذكر من شىء من خلق الله إلا أحسنه . وسمع على بن الحسين رضى الله عنهما رجلا يغتاب آخر ، فقال له : إياك والغيبة فإنها إدام كلاب الناس . وقال عمر رضى الله عنه : عليكم بذكر الله تعالى فانه شفاء ، وإياكم وذكر الناس فانه داء : نسأل الله حسن التوفيق لطاعته :

بيان معنى الغيبة وحدودها

اعلم أن حد الغيبة : أن تذكر أخاك بما يكرهه لو بلغه سواء ذكرته بنقص فى بدنه أو نسبه أو فى خلقه أو فى فعله أو فى قوله أو فى دينه أو فى دنياه حتى فى ثوبه وداره ودابته . أما البدن فكذكرك العمش والحول والقرع والقصر والطول والسواد والصفرة ، وجميع مايتصور أن يوصف به مما يكرهه كيفما كان . وأما النسب فبأن تقول أبوه قبطى أو هندى أوفاسق أوخسيس أو إسكاف أوزبال أوشىء مما يكرهه كيفما كان . وأما الخلق فبأن تقول هو سىء الخلق بخيل متكبر مراء شديد الغضب جبان عاجز ضعيف القلب متهور وما يجرى مجراه . وأما فى أفعاله المتعلقة بالدين فكقولك هو سارق أو كذاب أوشارب خمر أوخائن أوظالم أو متهاون بالصلاة أو الزكاة أو لايحسن الركوع أو السجود أو لايحترز من النجاسات أوليس بارا بوالديه أو لايضع الزكاة موضعها أو لايحسن قسمتها أو لايحرس صومه عن الرفث والغيبة والتعرض لأعراض الناس. وأما فعله المتعلق بالدنيا فكقولك إنه قليل الأدب متهاون بالناس أو لايرى لأحد على نفسه حقا أو يرى لنفسه الحق على الناس أو أنه كثير الكلام كثير الأكل نئوم ينام فى غير وقت النوم ويجلس فى غير موضعه . وأما فى ثوبه فكقولك إنه واسع الكم طويل الذيل وسخ الثياب ، وقال قوم لا غيبة فى الدين لأنه ذم ماذمه الله تعالى فذكره بالمعاصى وذمه بها يجوز بدليل ماروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم [٢] ذكرت له امرأة

---

(١) حديث أبى هريرة : من أكل لحم أخيه فى الدنيا قرب إليه لحمه فى الآخرة فيقال له كله ميتا كما أكلته حيا الحديث ، ابن مردويه فى التفسير مرفوعا وموقوفا ، وفيه محمد بن إسحاق رواه بالعنعنة .

(٢) حديث : ذكر له امرأة وكثرة صومها وصلاتها لكن تؤذى جيرانها ، فقال هى فى النار ، ابن حبان والحاكم وصححه من حديث أبى هريرة .

وكثرة صلاحها وصومها ولكنها تؤذي جيرانها بلسانها . فقال هي في النار (١) وذكرت عنده امرأة أخرى بأنها بخيلة . فقال فما خيرها إذن فهذا فاسد لأنهم كانوا يذكرون ذلك لحاجتهم إلى تعرف الأحكام بالسؤال ولم يكن غرضهم التنقيص ولا يحتاج إليه في غير مجلس الرسول صلى الله عليه وسلم ، والدليل عليه إجماع الأمة على أن من ذكر غيره بما يكرهه فهو مغتاب لأنه داخل فيما ذكره رسول الله صلى الله عليه وسلم في حد الغيبة وكل هذا وإن كان صادقا فيه فهو به مغتاب عاص لربه وآكل لحم أخيه بدليل ماروى أن النبي صلى الله عليه وسلم (٢) قال هل تدرون ماالغيبة قالوا الله ورسوله أعلم . قال ذكرك أخاك بما يكرهه : قيل أرأيت إن كان في أخي ماأقوله ؟ قال إن كان فيه ماتقول فقد اغتبته ، وإن لم يكن فيه فقد بهته . وقال معاذ بن جبل (٣) ذكر رجل عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا ماأعجزه . فقال صلى الله عليه وسلم اغتبتم أخاكم قالوا يارسول الله قلنا مافيه . قال إن قلتم ماليس فيه فقد بهتموه وعن حذيفة عن عائشة رضي الله عنها (٤) أنها ذكرت عند رسول الله صلى الله عليه وسلم امرأة . فقالت إنها قصيرة فقال صلى الله عليه وسلم اغتبتها . وقال الحسن ذكر الغير ثلاثة : الغيبة ، والبهتان ، والإفك ، وكل في كتاب الله عز وجل . فالغيبة أن تقول مافيه ، والبهتان أن تقول ماليس فيه ، والافك أن تقول مابلغك ، وذكر ابن سيرين رجلا . فقال ذاك الرجل الأسود ثم قال أستغفر الله إني أراني قد اغتبته ، وذكر ابن سيرين إبراهيم النخعي فوضع يده على عينه ولم يقل الأعور وقالت عائشة (٥) لايغتابن أحدكم أحدا فإني قلت لامرأة مرة وأنا عند النبي صلى الله عليه وسلم : إن هذه لطويلة الذيل فقال لي : الفظي الفظي فلفظت مضغة لحم .

بيان أن الغيبة لاتقتصر على اللسان

اعلم أن الذكر باللسان إنما حرم لأن فيه تفهيم الغير نقصان أخيك وتعريفه بما يكرهه فالتعريض به كالتصريح والفعل فيه كالقول والإشارة والإيماء والغمز والهمز والكتابة والحركة وكل مايفهم المقصود فهو داخل في الغيبة وهو حرام ، فمن ذلك : قول عائشة رضي الله عنها (٦) دخلت علينا امرأة فلما ولت أومأت بيدي أنها قصيرة . فقال عليه الصلاة والسلام اغتبتها ، ومن ذلك المحاكاة كأن يمشي متعارجا أو كما يمشي فهو غيبة ، بل هو

(١) حديث : ذكر امرأة أخرى بأنها بخيلة فما خيرها إذن ، قال الخرائطي في مكارم الأخلاق من حديث أبي جعفر محمد بن علي مرسلا ورويناه في أمالي ابن شمعون هكذا .

(٢) حديث : هل تدرون ماالغيبة ، قالوا الله ورسوله أعلم قال ذكرك أخاك بما يكره الحديث ، مسلم من حديث أبي هريرة .

(٣) حديث معاذ ذكر رجل عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا ماأعجزه ، الحديث الطبراني بسند ضعيف .

(٤) حديث : عائشة أنها ذكرت امرأة فقالت إنها قصيرة فقال اغتبتها رواه أحمد وأصله عند أبي داود والترمذي وصححه بلفظ آخر ووقع عند المصنف عن حذيفة عن عائشة ، وكذا هو في الصمت لابن أبي الدنيا والصواب عن أبي حذيفة كما عند أحمد وأبي داود والترمذي ، واسم أبي حذيفة سلمة بن صهيب .

(٥) حديث عائشة : قلت لامرأة إن هذه طويلة الذيل فقال صلى الله عليه وسلم الفظي فلفظت بضعة من لحم ، ابن أبي الدنيا وابن مردويه في التفسير وفي إسناده امرأة لاأعرفها .

(٦) حديث عائشة دخلت علينا امرأة فأومأت بيدي أي قصيرة ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم قد اغتبتها · ابن أبي الدنيا وابن مردويه من رواية حسان بن مخارق عنها ، وحسان وثقه ابن حبان وباقيهم ثقات .

أشد من الغيبة لأنه أعظم في التصوير ، ولما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم عائشة حاكت امرأة قال (١) مايسرني أني حاكيت إنسانا ولي كذا وكذا ، وكذلك الغيبة بالكتابة فإن القلم أحد اللسانين ، وذكر المصنف شخصا معينا وتهجين كلامه في الكتاب غيبة إلا أن يقترن به شيء من الأعذار المحوجة إلى ذكره كما سيأتي بيانه . وأما قوله قال قوم كذا فليس ذلك غيبة إنما الغيبة التعرض لشخص معين إما حي وإما ميت ، ومن الغيبة أن تقول بعض من مر بنا اليوم أو بعض من رأيناه إذا كان المخاطب يفهم منه شخصا معينا لأن المحذور تفهيمه دون مابه التفهيم ، فأما إذا لم يفهم عينه جاز ، كان رسول الله ﷺ (٢) إذا كره من إنسان شيئا قال مابال أقوام يفعلون كذا وكذا فكان لايعين ، وقولك بعض من قدم من السفر أو بعض من يدعى العلم إن كان معه قرينة تفهم عين الشخص فهي غيبة وأخبث أنواع الغيبة غيبة القراء المرائين إنهم يفهمون المقصود على صيغة أهل الصلاح ليظهروا من أنفسهم التعفف عن الغيبة ويفهمون المقصود ولايدرون بجهلهم أنهم جمعوا بين فاحشتين الغيبة والرياء ، وذلك مثل أن يذكر عنده إنسان فيقول الحمد لله الذي لم يبتلنا بالدخول على السلطان والتبذل في طلب الحطام ، أو يقول نعوذ بالله من قلة الحياء ، نسأل الله أن يعصمنا منها ، وإنما قصده أن يفهم عيب الغير فيذكره بصيغة الدعاء ، وكذلك قد يقدم مدح من يريد غيبته فيقول ما أحسن أحوال فلان ، ماكان يقصر في العبادات ولكن قد اعتراه فتور وابتلى بما يبتلى به كلنا وهو قلة الصبر فيذكر نفسه ومقصوده أن يذم غيره في ضمن ذلك ويمدح نفسه بالتشبه بالصالحين بأن يذم نفسه فيكون مغتابا ومرائيا ومزكيا نفسه ، فيجمع بين ثلاث فواحش ، وهو بجهله يظن أنه من الصالحين المتعففين عن الغيبة ، ولذلك يلعب الشيطان بأهل الجهل إذا اشتغلوا بالعبادة من غير علم فإنه يتبعهم ويحبط بمكايده عملهم ، ويضحك عليهم ، ويسخر منهم ، ومن ذلك أن يذكر عيب إنسان فلا يتنبه له بعض الحاضرين فيقول سبحان الله ماأعجب هذا حتى يصغى إليه ويعلم مايقول فيذكر الله تعالى ويستعمل اسمه آلة له في تحقيق خبثه وهو يمتن على الله عز وجل بذكره جهلا منه وغرورا وكذلك يقول : ساءني ماجرى على صديقنا من الاستخفاف به ، نسأل الله أن يروح نفسه فيكون كاذبا في دعوى الاغتمام وفي إظهار الدعاء له ، بل لو قصد الدعاء لأخفاه في خلوته عقيب صلاته ولو كان يغتم به لاغتم أيضا بإظهار مايكرهه ، وكذلك يقول ذلك المسكين قد بلى بآفة عظيمة تاب الله علينا وعليه ، فهو في كل ذلك يظهر الدعاء ، والله مطلع على خبث ضميره ، وخفي قصده ، وهو لجهله لايدري أنه قد تعرض لمقت أعظم مما تعرض له الجهال إذا جاهروا ، ومن ذلك الاصغاء إلى الغيبة على سبيل التعجب ، فإنه إنما يظهر التعجب ليزيد نشاط المغتاب في الغيبة فيندفع فيها ، وكأنه يستخرج الغيبة منه بهذا الطريق فيقول عجب ماعلمت أنه كذلك ماعرفته إلى الآن إلا بالخير ، وكنت أحسب فيه غير هذا عافانا الله من بلائه فإن كل ذلك تصديق للمغتاب ، والتصديق بالغيبة غيبة ، بل الساكت شريك المغتاب . قال صلى الله عليه وسلم (٣) : «المستمع أحد المغتابين» ، وقد روى عن أبي بكر وعمر رضي الله عنهما (٤) أن أحدهما قال لصاحبه إن فلانا لنؤم ثم إنهما طلبا أدما من رسول الله صلى الله عليه وسلم ليأكلا به الخبز فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم قد ائتدمتما

---

(١) حديث : مايسرني أني حكيت ولي كذا وكذا تقدم في الآفة الحادية عشرة .

(٢) حديث : كان إذا كره من إنسان شيئا قال مابال أقوام يفعلون كذا وكذا الحديث : أبو داود من حديث عائشة دون قوله ، وكان لايعينه ، ورجاله رجال الصحيح .

(٣) حديث المستمع أحد المغتابين ، الطبراني من حديث ابن عمر : نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الغيبة وعن الاستماع إلى الغيبة ، وهو ضعيف .

(٤) حديث : إن أبا بكر وعمر قال أحدهما لصاحبه : إن فلانا لنؤم ، ثم طلبا أدما من رسول الله صلى الله

فقالا مانعلمه ، قال بلى إنكما أكلتما من لحم أخيكما فانظر كيف جمعهما ، وكان القائل أحدهما والآخر مستمعا ؟ . وقال للرجلين اللذين قال أحدهما أقعص الرجل كإقعص الكلب (١) انهشا من هذه الجيفة ، لجمع بينهما ، فالمستمع لايخرج من إثم الغيبة إلا أن ينكر بلسانه أو بقلبه إن خاف وإن قدر على القيام ، أو قطع الكلام بكلام آخر فلم يفعل لزمه ، وإن قال بلسانه اسكت وهو مشته لذلك بقلبه فذلك نفاق ولا يخرجه من الإثم مالم يكرهه بقلبه ، ولايكفى فى ذلك أن يشير باليد أى اسكت أو يشير بحاجبه وجبينه ، فإن ذلك استحقار للمذكور ، بل ينبغى أن يعظم ذلك فيذب عنه صريحا . وقال صلى الله عليه وسلم (٢) « من أذل عنده مؤمن فلم ينصره وهو يقدر على نصره أذله الله يوم القيامة على رءوس الخلائق » . وقال أبو الدرداء (٣) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من رد عن عرض أخيه بالغيب كان حقا على الله أن يرد عن عرضه يوم القيامة » ، وقال أيضاً : (٤) « من ذب عن عرض أخيه بالغيب كان حقا على الله أن يعتقه من النار » ، وقد ورد فى نصرة المسلم فى الغيبة ، وفى فضل ذلك أخبار كثيرة أوردناها فى كتاب آداب الصحبة وحقوق المسلمين فلانطيل بإعادتها .

بيان الأسباب الباعثة على الغيبة

اعلم أن البواعث على الغيبة كثيرة ، ولكن يجمعها أحد عشر سببا ، ثمانية منها تطرد فى حق العامة ، وثلاثة تختص بأهل الدين والخاصة : أما الثمانية (فالأول) أن يشفى الغيظ ، وذلك إذا جرى سبب غضب به عليه فإنه إذا هاج غضبه يشتفى بذكر مساويه فيسبق اللسان إليه بالطبع إن لم يكن ثم دين وازع ، وقد يمتنع تشفى الغيظ عند الغضب فيحتقن الغضب فى الباطن فيصير حقدا ثابتا فيكون سببا دائما لذكر المساوى ، فالحقد والغضب من البواعث العظيمة على الغيبة (الثانى) موافقة الأقران ، ومجاملة الرفقاء ومساعدتهم على الكلام فإنهم إذا كانوا يتفكهون بذكر الأعراض فيرى أنه لوأنكر عليهم ، أوقطع المجلس استثقلوه ونفروا عنه فيساعدهم ويرى ذلك من حسن المعاشرة ، ويظن أنه مجاملة فى الصحبة ؛ وقد يغضب رفقاؤه فيحتاج إلى أن يغضب لغضبهم إظهارا للمساهمة فى السراء والضراء فيخوض معهم فى ذكر العيوب والمساوى (الثالث) أن يستشعر من إنسان أنه سيقصده ويطول لسانه عليه ، أو يقبح حاله عند محتشم ، أو يشهد عليه بشهادة فيبادره قبل أن يقبح هو حاله ويطعن فيه ليسقط أثر شهادته ، أويبتدىء بذكر ماقيه صادقا ليكذب عليه بعده فيروج كذبه بالصدق الأول ويستشهد ويقول : مامن عادتى الكذب فإنى أخبرتكم بكذا وكذا من

= عليه وسلم فقال قد ائتدمتما ، فقالا مانعلم ، فقال بلى ما أكلتما من لحم صاحبكما ، أبو العباس الدغولى فى الآداب من رواية عبدالرحمن بن أبى ليلى مرسلا نحوه :

(١) حديث : انهشا من هذه الميتة ، قاله للرجلين اللذين قال أحدهما أقعص الرجل كما يقعص الكلب ، تقدم قبل هذا باثنى عشر حديثا .

(٢) حديث : من أذل عنده مؤمن وهو قادر على أن ينصره فلم ينصره أذله الله يوم القيامة على رءوس الخلائق ، الطبرانى من حديث سهل بن حنيف ، وفيه ابن لهيعة

(٣) حديث أبى الدرداء : من رد عن عرض أخيه بالغيب كان حقا على الله أن يرد عن عرضه يوم القيامة ، ابن أبى الدنيا فى الصمت ، وفيه شهر بن حوشب ، وهو عند الطبرانى من وجه آخر بلفظ : رد الله عن وجهه النار يوم القيامة ، وفى رواية له : كان له حجابا من النار ، وكلاهما ضعيف .

(٤) حديث : من ذب عن عرض أخيه بالغيب كان حقا على الله أن يعتقه من النار ، أحمد والطبرانى من رواية شهر بن حوشب عن أسماء بنت يزيد .

أحواله فكان كما قلت (الرابع) أن ينسب إلى شيء فيريد أن يتبرأ منه فيذكر الذي فعله وكان من حقه أن يبرئ نفسه ولا يذكر الذي فعل فلا ينسب غيره إليه أو يذكر غيره بأنه كان مشاركا له في الفعل ليمهد بذلك عذر نفسه في فعله (الخامس) إرادة التصنع والمباهاة وهو أن يرفع نفسه بتنقيص غيره فيقول فلان جاهل وفهمه ركيك وكلامه ضعيف ، وغرضه أن يثبت في ضمن ذلك فضل نفسه ، ويريهم أنه أعلم منه ، أو يحذر أن يعظم مثل تعظيمه فيقدح فيه لذلك (السادس) الحسد وهو أنه ربما يحسد من يثني الناس عليه ويحبونه ويكرمونه فيريد زوال تلك النعمة عنه فلا يجد سبيلا إليه إلا بالقدح فيه فيريد أن يسقط ماء وجهه عند الناس حتى يكفوا عن كرامته والثناء عليه لأنه يثقل عليه أن يسمع كلام الناس وثناءهم عليه وإكرامهم له ، وهذا هو عين الحسد ، وهو غير الغضب والحقد ، فإن ذلك يستدعي جناية من المغضوب عليه ، والحسد قد يكون مع الصديق المحسن ، والرفيق الموافق (السابع) اللعب والهزل والمطايبة وتزجية الوقت بالضحك فيذكر عيوب غيره بما يضحك الناس على سبيل المحاكاة ، ومنشؤه التكبر والعجب (الثامن) السخرية والاستهزاء استحقارا له فإن ذلك قد يجرى في الحضور ويجرى أيضا في الغيبة ومنشؤه التكبر واستصغار المستهزأ به .

وأما الأسباب الثلاثة التي هي في الخاصة فهي أغمضها وأدقها ، لأنها شرور خبأها الشيطان في معرض الخيرات وفيها خير ولكن شاب الشيطان بها الشر (الأول) أن تنبعث من الدين داعية التعجب في إنكار المنكر والخطأ في الدين فيقول ما أعجب ما رأيت من فلان فإنه قد يكون به صادقا ويكون تعجبه من المنكر ولكن كان حقه أن يتعجب ولا يذكر اسمه فيسهل الشيطان عليه ذكر اسمه في إظهار تعجبه فصار به مغتابا وآثما من حيث لا يدرى . ومن ذلك قول الرجل : تعجبت من فلان كيف يحب جاريته وهي قبيحة ! وكيف يجلس بين يدى فلان وهو جاهل (الثاني) الرحمة وهو أن يغتم بسبب ما يبتلى به فيقول مسكين فلان قد غمني أمره وما ابتلى به فيكون صادقا في دعوى الاغتمام ، ويلهيه الغم عن الحذر من ذكر اسمه فيذكره فيصير به مغتابا فيكون غمه ورحمته خيرا ، وكذا تعجبه ، ولكن ساقه الشيطان إلى شر من حيث لا يدرى ، والترحم والاغتمام ممكن دون ذكر اسمه فيهيجه الشيطان على ذكر اسمه ليبطل به ثواب اغتمامه وترحمه (الثالث) الغضب لله تعالى فإنه قد يغضب على منكر قارفه إنسان إذا رآه أو سمعه فيظهر غضبه ويذكر اسمه وكان الواجب أن يظهر غضبه عليه بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، ولا يظهره لغيره ، أو يستر اسمه ولا يذكره بالسوء ، فهذه الثلاثة مما يغمض دركها على العلماء فضلا عن العوام ؛ فإنهم يظنون أن التعجب والرحمة والغضب إذا كان لله تعالى كان عذرا في ذكر الاسم وهو خطأ ؛ بل المرخص في الغيبة حاجات مخصوصة لا مندوحة فيها عن ذكر الإسم كما سيأتي ذكره . روى عن عامر بن واثلة (١) أن رجلا مر على قوم في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فسلم عليهم ، فردوا عليه السلام ، فلما جاوزهم قال رجل منهم : إني لأبغض هذا في الله تعالى ، فقال أهل المجلس : لبئس ما قلت والله لننبئنه ، ثم قالوا يا فلان لرجل منهم قم فأدركه وأخبره بما قال ، فأدركه رسولهم فأخبره ، فأتى الرجل رسول الله صلى الله عليه وسلم وحكى له ما قال ، وسأله أن يدعوه له . فدعاه وسأله ، فقال قد قلت ذلك ، فقال صلى الله عليه وسلم لم تبغضه ؟ فقال أنا جاره وأنا به خابر والله ما رأيته يصلى صلاة قط إلا هذه المكتوبة ، قال فاسأله يا رسول الله هل رآني أخرتها عن وقتها ، أو أسأت الوضوء لها ، أو الركوع أو السجود فيها ؟ فسأله فقال لا ، فقال والله ما رأيته يصوم شهرا قط إلا هذا الشهر الذي

---

(١) حديث عامر بن واثلة : أن رجلا مر على قوم في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فسلم عليهم فردوا عليه السلام ، فلما جاوزهم قال رجل منهم : إني لأبغض هذا في الله ، الحديث بطوله ، وفيه : فقال قم فلعله خير منك ، رواه أحمد بإسناد صحيح ؛

يصومه البر والفاجر ، قال فاسأله يارسول الله هل رآنى قط أفطرت فيه ، أو نقصت من حقه شيئا ؟ فسأله عنه فقال لا ، فقال . والله مارأيته يعطى سائلا ولا مسكينا قط ولا رأيته ينفق شيئا من ماله فى سبيل الله إلا هذه الزكاة التى يؤديها البر والفاجر ، قال فاسأله هل رآنى نقصت منها ، أوما كنت فيها طالبها الذى يسألها فسأله فقال لا ، فقال صلى الله عليه وسلم للرجل قم فلعله خير منك .

بيان العلاج الذى به يمنع اللسان عن الغيبة

اعلم أن مساوى الأخلاق كلها إنما تعالج بمعجون العلم والعمل ، وإنما علاج كل علة بمضادة سببها ، فلنفحص عن سببها ، وعلاج كف اللسان عن الغيبة على وجهين : أحدهما على الجملة ، والآخر على التفصيل أما على الجملة فهو أن يعلم تعرضه لسخط الله تعالى بغيبته بهذه الأخبار التى رويناها ، وأن يعلم أنها محبطة لحسناته يوم القيامة فإنها تنقل حسناته يوم القيامة إلى من اغتابه بدلا عما استباحه من عرضه فإن لم تكن له حسنات نقل إليه من سيئات خصمه وهو مع ذلك متعرض لمقت الله عز وجل ، ومشبه عنده بآكل الميتة ، بل العبد يدخل النار بأن تترجح كفة سيئاته على كفة حسناته ، وربما تنقل إليه سيئة واحدة ممن اغتابه فيحصل بها الرجحان ويدخل بها النار ، وإنما أقل الدرجات أن تنقص من ثواب أعماله ، وذلك بعد المخاصمة والمطالبة والسؤال والجواب والحساب . قال صلى الله عليه وسلم (١) «ماالنار فى اليبس بأسرع من الغيبة فى حسنات العبد» . وروى أن رجلا قال للحسن : بلغنى أنك تغتابنى ؟ فقال مابلغ من قدرك عندى أنى أحكمك فى حسناتى ، فمهما آمن العبد بما ورد من الأخبار فى الغيبة لم يطلق لسانه بها خوفا من ذلك . وينفعه أيضا أن يتدبر فى نفسه فإن وجد فيها عيبا اشتغل بعيب نفسه ، وذكر قوله صلى الله عليه وسلم (٢) : «طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس» ، ومهما وجد عيبا فينبغى أن يستحى من أن يترك ذم نفسه ويذم غيره ، بل ينبغى أن يتحقق إن عجز غيره عن نفسه فى التنزه عن ذلك العيب كعجزه ، وهذا إن كان ذلك عيبا يتعلق بفعله واختياره ، وإن كان أمرا خلقيا فالذم له ذم للخالق ، فإن من ذم صنعة فقد ذم صانعها . قال رجل لحكيم ياقبيح الوجه ، قال ما كان خلق وجهى إلىّ فأحسنه ، وإذا لم يجد العبد عيبا فى نفسه فليشكر الله تعالى ولا يلوثن نفسه بأعظم العيوب فإن ثلب الناس وأكل لحم الميتة من أعظم العيوب ، بل لو أنصف لعلم أن ظنه بنفسه أنه برئ من كل عيب جهل بنفسه ، وهو من أعظم العيوب . وينفعه أن يعلم أن تألم غيره بغيبته كتألمه بغيبة غيره له ، فإذا كان لا يرضى لنفسه أن يغتاب فينبغى أن لا يرضى لغيره مالا يرضاه لنفسه ، فهذه معالجات جملية . أما التفصيل فهو أن ينظر فى السبب الباعث له على الغيبة ، فإن علاج العلة بقطع سببها ، وقد قدمنا الأسباب . أما الغضب فيعالجه بما سيأتى فى كتاب (آفات الغضب) وهو أن يقول ، إنى إذا أمضيت غضبى عليه فلعل الله تعالى يمضى غضبه على بسبب الغيبة إذ نهانى عنها فاجترأت على نهيه ، واستخففت زجره ، وقد قال صلى الله عليه وسلم (٣) «إن لجهنم بابا لايدخل منه إلا من شفى غيظه بمعصية الله تعالى» . وقال صلى الله

---

(١) حديث : ماالنار فى اليبس باسرع من الغيبة فى حسنات العبد ، لم أجد له أصلا .

(٢) حديث : طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس ، البزار من حديث أنس بسند ضعيف .

(٣) حديث : إن لجهنم بابا لايدخله إلا من شفى غيظه بمعصية الله ، البزار وابن أبى الدنيا وابن عدى والبيهقى والنسائى من حديث ابن عباس بسند ضعيف .

عليه وسلم (١) « من اتقى ربه كل لسانه ولم يشف غيظه » . وقال صلى الله عليه وسلم (٢) « من كظم غيظا وهو يقدر على أن يمضيه دعاه الله تعالى يوم القيامة على رءوس الخلائق حتى يخيره فى أى الحور شاء » . وفى بعض الكتب المنزلة على بعض النبيين : « يا ابن آدم اذكرنى حين تغضب أذكرك حين أغضب فلا أمحقك فيمن أمحق » وأما الموافقة فبأن تعلم أن الله تعالى يغضب عليك إذا طلبت سخطه فى رضا المخلوقين فكيف ترضى لنفسك أن توقر غيرك وتحقر مولاك فتترك رضاه لرضاهم إلا أن يكون غضبك لله تعالى وذلك لا يوجب أن تذكر المغضوب عليه بسوء بل ينبغى أن تغضب لله أيضا على رفقائك إذا ذكروه بالسوء فإنهم عصوا ربك بأفحش الذنوب وهى الغيبة . وأما تنزيه النفس بنسبة الغير إلى الخيانة حيث يستغنى عن ذكر الغير فتعالجه بأن تعرف أن التعرض لمقت الخالق أشد من التعرض لمقت المخلوقين ، وأنت بالغيبة متعرض لسخط الله يقينا ولا تدرى أنك تتخلص من سخط الناس أم لا فتخلص نفسك فى الدنيا بالتوهم وتهلك فى الآخرة وتخسر حسناتك بالحقيقة ويحصل لك ذم الله تعالى نقدا وتنتظر دفع ذم الخلق نسيئة وهذا غاية الجهل والخذلان . وأما عذرك كقولك إن أكلت الحرام ففلان يأكله ، وإن قبلت مال السلطان ففلان يقبله ، فهذا جهل لأنك تعتذر بالاقتداء بمن لا يجوز الاقتداء به فإن من خالف أمر الله تعالى لا يقتدى به كائنا من كان ولو دخل غيرك النار وأنت تقدر على أن لا تدخلها لم توافقه ولو وافقته لسفه عقلك ، ففيما ذكرته غيبة وزيادة معصية أضفتها إلى ما اعتذرت عنه وسجلت مع الجمع بين المعصيتين على جهلك وغباوتك ، وكنت كالشاة تنظر إلى المعزى تردى نفسها من قلة الجبل فهى أيضا تردى نفسها ، ولو كان لها لسان ناطق بالعذر وصرحت بالعذر . وقالت المعز أكيس منى وقد أهلكت نفسها ، فكذلك أنا أفعل لكنت تضحك من جهلها ، وحالك مثل حالها ، ثم لا تعجب ولا تضحك من نفسك وأما قصدك المباهاة وتزكية النفس بزيادة الفضل بأن تقدح فى غيرك . فينبغى أن تعلم أنك بما ذكرته به أبطلت فضلك عند الله ، وأنت من اعتقاد الناس فضلك على خطر ، وربما نقص اعتقادهم فيك إذا عرفوك بثلب الناس فتكون قد بعت ما عند الخالق يقينا بما عند المخلوقين وهما ولو حصل لك من المخلوقين اعتقاد الفضل لكانوا لا يغنون عنك من الله شيئا . وأما الغيبة لأجل الحسد فهو جمع بين عذابين لأنك حسدته على نعمة الدنيا ، وكنت فى الدنيا معذبا بالحسد فما قنعت بذلك حتى أضفت إليه عذاب الآخرة فكنت خاسرا نفسك فى الدنيا فصرت أيضا خاسرا فى الآخرة لتجمع بين النكالين ، فقد قصدت محسودك فأصبت نفسك وأهديت إليه حسناتك فإذن أنت صديقه وعدو نفسك إذ لا تضره غيبتك وتضرك وتنفعه إذ تنقل إليه حسناتك أو تنقل إليك سيئاته ولا تنفعك ؛ وقد جمعت إلى خبث الحسد جهل الحماقة ، وربما يكون حسدك وقدحك سبب انتشار فضل محسودك كما قيل :

وإذا أراد الله نشر فضيلة ... طويت أتاح لها لسان حسود

وأما الاستهزاء فمقصودك منه إخزاء غيرك عند الناس بإخزاء نفسك عند الله تعالى ، وعند الملائكة والنبيين عليهم الصلاة والسلام فلو تفكرت فى حسرتك وجنايتك وخجلتك وخزيك يوم القيامة يوم تحمل سيئات من استهزأت به وتساق إلى النار لأدهشك ذلك عن إخزاء صاحبك ، ولو عرفت حالك لكنت أولى أن تضحك منك ، فإنك سخرت به عند نفر قليل ، وعرضت نفسك لأن يأخذ يوم القيامة بيدك على

(١) حديث : من اتقى ربه كل لسانه ولم يشف غيظه ، أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من حديث سهل بن سعد بسند ضعيف ، ورويناه فى الأربعين البلدانية للسلفى ؛

(٢) حديث : من كظم غيظه وهو قادر على أن ينفذه ، الحديث أبو داود والترمذى وحسنه وابن ماجه من حديث معاذ بن أنس .

ملأ من الناس ، ويسوقك تحت سيئاته كما يساق الحمار إلى النار مستهزئا بك وفرحا بخزيك ومسرورا بنصرة الله تعالى إياه عليك وتسلطه على الانتقام منك ؛ وأما الرحمة له على إثمه فهو حسن ، ولكن حسدك إبليس فأضلك واستنطقك بما ينقل من حسناتك إليه ماهو أكثر من رحمتك فيكون جبرا لإثم المرحوم فيخرج عن كونه مرحوما وتنقلب أنت مستحقا لأن تكون مرحوما إذ حبط أجرك ، ونقصت من حسناتك ، وكذلك الغضب لله تعالى لايوجب الغيبة ، وإنما الشيطان حبب إليك الغيبة ليحبط أجر غضبك ، وتصير معرضا لمقت الله عز وجل بالغيبة ، وأما التعجب إذا أخرجك إلى الغيبة فتعجب من نفسك أنت كيف أهلكت نفسك ودينك بدين غيرك أو بدنياه وأنت مع ذلك لاتأمن عقوبة الدنيا ، وهو أن يهتك الله سترك كما هتكت بالتعجب ستر أخيك . فاذن علاج جميع ذلك المعرفة فقط ، والتحقق بهذه الأمور التي هي من أبواب الإيمان فمن قوى إيمانه بجميع ذلك انكف لسانه عن الغيبة لامحالة .

بيان تحريم الغيبة بالقلب

اعلم أن سوء الظن حرام مثل سوء القول فكما يحرم عليك أن تحدث غيرك بلسانك بمساوي الغير فليس لك أن تحدث نفسك وتسيء الظن بأخيك ، ولست أعنى به إلا عقد القلب وحكمه على غيره بالسوء ، فأما الخواطر وحديث النفس فهو معفو عنه بل الشك أيضا معفو عنه ، ولكن المنهى عنه أن يظن ، والظن عبارة عما تركن إليه النفس ويميل إليه القلب . فقد قال الله تعالى « ياأيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن إن بعض الظن إثم » وسبب تحريمه أن أسرار القلوب لا يعلمها إلا علام الغيوب فليس لك أن تعتقد في غيرك سوءا إلا إذا انكشف لك بعيان لايقبل التأويل فعند ذلك لايمكنك إلا أن تعتقد ما علمته وشاهدته ومالم تشاهده بعينك ولم تسمعه بأذنك ثم وقع في قلبك فانما الشيطان يلقيه إليك ؛ فينبغي أن تكذبه فانه أفسق الفساق ؛ وقد قال الله تعالى «ياأيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوما بجهالة» فلا يجوز تصديق إبليس ، وإن كان ثم مخيلة تدل على فساد واحتمل خلافه لم يجز أن تصدق به لأن الفاسق يتصور أن يصدق في خبره ، ولكن لايجوز لك أن تصدق به حتى إن من استنكه فوجد منه رائحة الخمر لايجوز أن يحد ، إذ يقال يمكن أن يكون قد تمضمض بالخمر ومجها ، وما شربها أو حمل عليه قهرا فكل ذلك لامحالة دلالة محتملة فلا يجوز تصديقها بالقلب وإساءة الظن بالمسلم بها ، وقد قال صلى الله عليه وسلم⁽¹⁾ « إن الله حرم من المسلم دمه وماله ، وأن يظن به ظن السوء » فلا يستباح ظن السوء إلا بما يستباح به المال ، وهو نفس مشاهدته أو بينة عادلة ، فإذا لم يكن كذلك وخطر لك وسواس سوء الظن فينبغي أن تدفعه عن نفسك ، وتقرر عليها أن حاله عندك مستور كما كان ، وأن مارأيته منه يحتمل الخير والشر ، فان قلت فبماذا يعرف عقد الظن والشكوك تختلج والنفس تحدث فنقول : أمارة عقد سوء الظن أن يتغير القلب معه عما كان فينفر عنه نفورا ما ، ويستثقله ويفتر عن مراعاته وتفقده وإكرامه والاغتمام بسببه فهذه أمارات عقد الظن وتحقيقه ، وقد قال صلى الله عليه وسلم[2] « ثلاث في المؤمن ، وله منهن مخرج » فمخرجه من سوء الظن أن لايحققه أي لايحققه في نفسه بعقد ولا فعل لا في القلب ولا في الجوارح . أما في القلب فبتغيره إلى النفرة والكراهة ، وأما في الجوارح فالعمل بموجبه ، والشيطان قد يقرر على القلب بأدنى مخيلة مساءة الناس ، ويلقى إليه أن هذا من فطنتك وسرعة فهمك وذكائك ، وأن المؤمن ينظر بنور الله تعالى وهو على التحقيق

(١) حديث : إن الله حرم من المسلم دمه وماله ، وأن يظن به ظن السوء : البيهقي في الشعب من حديث ابن عباس بسند ضعيف ولابن ماجه نحوه من حديث ابن عمر .

(٢) حديث : ثلاث في المؤمن وله منهن مخرج : الطبراني من حديث حارثة بن النعمان بسند ضعيف .

ناظر بغرور الشيطان وظلمته ، وأما إذا أخبرك به عدل فمال ظنك إلى تصديقه كنت معذوراً لأنك لو كذبته لكنت جانيا على هذا العدل ، إذا ظننت به الكذب ، وذلك أيضا من سوء الظن ، فلا ينبغي أن تحسن الظن بواحد ، وتسيء بالآخر ، نعم ينبغي أن تبحث هل بينهما عداوة ومحاسدة وتعنت فتتطرق التهمة بسببه فقد رد الشرع [(١)] شهادة الأب العدل للولد للتهمة ، ورد شهادة العدو فلك عند ذلك أن تتوقف ، وإن كان عدلا فلا تصدقه ولا تكذبه ، ولكن تقول في نفسك المذكور حاله كان عندي في ستر الله تعالى وكان أمره محجوبا عني ، وقد بقي كما كان لم ينكشف لي شيء من أمره ، وقد يكون الرجل ظاهره العدالة ولا محاسدة بينه وبين المذكور ، ولكن قد يكون من عادته التعرض للناس وذكر مساويهم فهذا قد يظن أنه عدل وليس بعدل . فإن المغتاب فاسق ، وإن كان ذلك من عادته ردت شهادته إلا أن الناس لكثرة الاعتياد تساهلوا في أمر الغيبة ولم يكترثوا بتناول أعراض الخلق ، ومهما خطر لك خاطر بسوء على مسلم فينبغي أن تزيد في مراعاته وتدعوا له بالخير فإن ذلك يغيظ الشيطان ويدفعه عنك فلا يلقي إليك الخاطر السوء خيفة من اشتغالك بالدعاء والمراعاة ، ومهما عرفت هفوة مسلم بحجة فانصحه في السر ولا يخدعنك الشيطان فيدعو إلى اغتيابه ، وإذا وعظته فلا تعظه وأنت مسرور باطلاعك على نقصه لينظر إليك بعين التعظيم ، وتنظر إليه بعين الاستحقار ، وتترفع عليه بإيداء الوعظ ، ولكن قصدك تخليصه من الإثم وأنت حزين كما تحزن على نفسك إذا دخل عليك نقصان في دينك ، وينبغي أن يكون تركه لذلك من غير نصحك أحب إليك من تركه بالنصيحة فإذا أنت فعلت ذلك كنت قد جمعت بين أجر الوعظ وأجر الغم بمصيبته ، وأجر الإعانة له على دينه . ومن ثمرات سوء الظن التجسس ، فإن القلب لا يقنع بالظن ويطلب التحقيق فيشتغل بالتجسس وهو أيضا منهى عنه . قال الله تعالى : «ولا تجسسوا» فالغيبة وسوء الظن والتجسس منهى عنه في آية واحدة ومعنى التجسس أن لا يترك عباد الله تحت ستر الله فيتوصل إلى الاطلاع وهتك الستر حتى ينكشف له ما لو كان مستورا عنه كان أسلم لقلبه ودينه ، وقد ذكرنا في كتاب الأمر بالمعروف حكم التجسس وحقيقته .

بيان الأعذار المرخصة في الغيبة

اعلم أن المرخص في ذكر مساوي الغير هو غرض صحيح في الشرع لا يمكن التوصل إليه إلا به فيدفع ذلك إثم الغيبة . وهي ستة أمور (الأول) التظلم فإن من ذكر قاضيا بالظلم والخيانة وأخذ الرشوة كان مغتابا عاصيا إن لم يكن مظلوما ، أما المظلوم من جهة القاضي فله أن يتظلم إلى السلطان وينسبه إلى الظلم إذ لا يمكنه استيفاء حقه إلا به . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم[(٢)] « إن لصاحب الحق مقالا» وقال عليه الصلاة والسلام[(٣)] «مطل الغني ظلم» ، وقال عليه الصلاة والسلام[(٤)] لي الواجد يحل عقوبته وعرضه (الثاني) الاستعانة على تغيير المنكر ورد العاصي إلى منهج الصلاح كما روى أن عمر رضي الله عنه مر على عثمان وقيل على طلحة رضي الله عنه فسلم عليه فلم يرد السلام فذهب إلى أبي بكر رضي الله عنه فذكر له ذلك فجاء أبو بكر

---

(١) حديث : رد الشرع شهادة الوالد العدل وشهادة العدو : الترمذي من حديث عائشة، وضعفه لا تجوز شهادة خائن ولا خائنة ولا مجلود حدا ولا ذي غمر لأخيه ، وفيه ولا ظنين في ولاء ولا قرابة ، ولأبي داود وابن ماجه باسناد جيد من رواية عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رد شهادة الخائن والخائنة وذي الغمر على أخيه .

(٢) حديث : لصاحب الحق مقال ، متفق عليه من أبي هريرة .

(٣) حديث : مطل الغني ظلم ، متفق عليه من حديثه .

(٤) حديث : لي الواجد يحل عرضه وعقوبته ، أبو داود والنسائي وابن ماجه من حديث الشريد باسناد صحيح .

إليه ليصلح ذلك ولم يكن ذلك غيبة عندهم ، وكذلك لما بلغ عمر رضى الله عنه أن أبا جندل قد عاقر الخمر بالشام كتب إليه «بسم الله الرحمن الرحيم : حمٓ تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب» الآية ، فتاب ولم ير ذلك عمر ممن أبلغه غيبة إذ كان قصده أن ينكر عليه ذلك فينفعه نصحه مالا ينفعه نصح غيره ، وإنما أباحة هذا بالقصد الصحيح فإن لم يكن ذلك هو المقصود كان حراما (الثالث) الاستفتاء : كما يقول للمفتى ظلمنى أبى أو زوجي أو أخى فكيف طريقى فى الخلاص ، والأسلم التعريض بأن يقول ماقولك فى رجل ظلمه أبوه أو أخوه أو زوجته ، ولكن التعيين مباح بهذا القدر لما روى عن هند بنت عتبة أنها قالت[1] للنبى صلى الله عليه وسلم « إن أبا سفيان رجل شحيح لايعطينى مايكفينى أنا وولدى أفآخذ من غير علمه ؟ فقال خذى ما يكفيك وولدك بالمعروف» فذكرت الشح والظلم لها ولولدها ولم يزجرها صلى الله عليه وسلم إذ كان قصدها الاستفتاء. (الرابع) تحذير المسلم من الشر ، فإذا رأيت فقيها يتردد إلى مبتدع أو فاسق وخفت أن تتعدى إليه بدعته وفسقه فلك أن تكشف له بدعته وفسقه مهما كان الباعث لك الخوف عليه من سراية البدعة والفسق لاغيره ، وذلك موضع الغرور إذ قد يكون الحسد هو الباعث ، ويلبس الشيطان ذلك باظهار الشفقة على الخلق ، وكذلك من اشترى مملوكا وقد عرفت المملوك بالسرقة أو بالفسق أو بعيب آخر فلك أن تذكر ذلك فإن فى سكوتك ضرر المشترى، وفى ذكرك ضرر العبد ، والمشتري أولى بمراعاة جانبه ، وكذلك المزكى إذا سئل عن الشاهد فله الطعن فيه إن علم مطعنا ، وكذلك المستشار فى التزويج وإيداع الأمانة له أن يذكر مايعرفه على قصد النصح للمستشير لاعلى قصد الوقيعة . فإن علم أنه يترك التزويج بمجرد قوله : لاتصلح لك فهو الواجب وفيه الكفاية ، وإن علم أنه لاينزجر إلابالتصريح بعيبه فله أن يصرح به إذ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «[2] أترعون عن ذكر الفاجر اهتكوه حتى يعرفه الناس اذكروه بما فيه حتى يحذره الناس» وكانوا يقولون ثلاثة لاغيبة لهم ، الإمام الجائر ، والمبتدع ، والمجاهر بفسقه . (الخامس) أن يكون الإنسان معروفا بلقب يعرب عن عيبه كالأعرج والأعمش فلا إثم على من يقول روى أبو الزناد عن الأعرج وسلمان عن الأعمش ومايجرى مجراه ، فقد فعل العلماء ذلك لضرورة التعريف ولأن ذلك قد صار بحيث لايكرهه صاحبه لو علمه بعد أن قد صار مشهورا به ؛ نعم إن وجد عنه معدلا وأمكنه التعريف بعبارة أخرى فهو أولى ، ولذلك يقال للأعمى البصير عدولا عن اسم النقص (السادس) أن يكون مجاهرا بالفسق كالمخنث وصاحب الماخور والمجاهر بشرب الخمر ومصادرة الناس، وكان ممن يتظاهر به بحيث لايستنكف من أن يذكر له ولا يكره أن يذكر به فإذا ذكرت فيه مايتظاهر به فلا إثم عليك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «[3] من ألقى جلباب الحياء عن وجهه فلا غيبة له» ، وقال عمر رضى الله عنه «ليس لفاجر حرمة» وأراد به المجاهر بفسقه دون المستتر إذ المستتر لابد من مراعاة حرمته ، وقال الصلت ابن طريف . قلت للحسن : الرجل الفاسق المعلن بفجوره ذكرى له بما فيه غيبة له ؟ قال لا ولا كرامة ، وقال الحسن : ثلاثة لاغيبة لهم : صاحب الهوى ، والفاسق المعلن بفسقه ، والإمام الجائر . فهؤلاء الثلاثة

---

(١) حديث : إن هندا قالت إن أبا سفيان رجل شحيح : متفق عليه من حديث عائشة .

(٢) حديث : أترعون عن ذكر الفاجر اهتكوه حتى يعرفه الناس اذكروه بما فيه يحذره الناس : الطبرانى وابن حبان فى الضعفاء وابن عدى من رواية بهز بن حكيم عن أبيه عن جده دون قوله حتى يعرفه الناس ؛ ورواه بهذه الزيادة ابن أبى الدنيا فى الصمت :

(٣) حديث : من ألقى جلباب الحياء فلا غيبة له ، ابن عدى وأبو الشيخ فى كتاب ثواب الأعمال من حديث أنس بسند ضعيف وقد تقدم .

يجمعهم

يجمعهم أنهم يتظاهرون به ، وربما يتفاخرون به فكيف يكرهون ذلك وهم يقصدون إظهاره ، نعم لوذكره بغير مايتظاهر به أثم . وقال عوف : دخلت على ابن سيرين فتناولت عنده الحجاج . فقال إن الله حكم عدل ينتقم للحجاج ممن اغتابه كما ينتقم من الحجاج لمن ظلمه ، وإنك إذا لقيت الله تعالى غدا كان أصغر ذنب أصبته أشد عليك من أعظم ذنب أصابه الحجاج .

بيان كفارة الغيبة

اعلم أن الواجب على المغتاب أن يندم ويتوب ويتأسف على مافعله ليخرج به من حق الله سبحانه ، ثم يستحل المغتاب ليحله فيخرج من مظلمته ، وينبغي أن يستحله وهو حزين متأسف نادم على فعله إذ المرائي قد يستحل ليظهر من نفسه الورع ، وفي الباطن لا يكون نادما فيكون قد قارف معصية أخرى . وقال الحسن يكفيه الاستغفار دون الاستحلال ، وربما استدل في ذلك بما روى أنس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « (١) كفارة من اغتبته أن تستغفر له » ، وقال مجاهد « كفارة أكلك لحم أخيك أن تثني عليه وتدعو له بخير » ، وسئل عطاء بن أبي رباح عن التوبة من الغيبة . قال أن تمشي إلى صاحبك فتقول له كذبت فيما قلت وظلمتك وأسأت . فإن شئت أخذت بحقك ، وإن شئت عفوت ، وهذاهو الأصح وقول القائل العرض لاعوض له ، فلا يجب الاستحلال منه بخلاف المال كلام ضعيف إذ قد وجب في العرض حد القذف وتثبت المطالبة به بل في الحديث الصحيح ماروى أنه صلى الله عليه وسلم قال « (٢) من كانت لأخيه عنده مظلمة في عرض أو مال فليستحللها منه من قبل أن يأتي يوم ليس هناك دينار ولا درهم إنما يؤخذ من حسناته فإن لم يكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه فزيدت على سيئاته » وقالت عائشة رضي الله عنها لامرأة قالت لأخرى أنها طويلة الذيل قد اغتبتيها فاستحليها ، فإذا لابد من الاستحلال إن قدر عليه فان كان غائبا أو ميتا فينبغي أن يكثر له الاستغفار والدعاء ويكثر من الحسنات . فإن قلت فالتحليل هل يجب ؟ فأقول : لا لأنه تبرع والتبرع فضل ، وليس بواجب ولكنه مستحسن وسبيل المعتذر أن يبالغ في الثناء عليه والتودد إليه ويلازم ذلك حتى يطيب قلبه فان لم يطب قلبه كان اعتذاره وتودده حسنة محسوبة له يقابل بها سيئة الغيبة في القيامة ، وكان بعض السلف لايحلل . قال سعيد بن المسيب لاأحلل من ظلمني ، وقال ابن سيرين إني لم أحرمها عليه فأحللها له إن الله حرم الغيبة عليه ، وما كنت لأحلل ماحرم الله أبدا . فإن قلت فمامعنى قول النبي صلى الله عليه وسلم ينبغي أن يستحلها وتحليل ماحرمه الله تعالى غير ممكن . فنقول المراد به العفو عن المظلمة لاأن ينقلب الحرام حلالا ، وما قاله ابن سيرين حسن في التحليل قبل الغيبة فإنه لايجوز له أن يحلل لغيره الغيبة . فإن قلت فما معنى قول النبي صلى الله عليه وسلم « (٣) أيعجز أحدكم أن يكون كأبي ضمضم ، كان إذا خرج من بيته . قال : اللهم إني قد تصدقت بعرضي على الناس » فكيف يتصدق بالعرض ، ومن

(١) حديث : كفارة من اغتبته أن تستغفرله ، ابن أبي الدنيا في الصمت والحارث بن أبي أسامة في مسنده من حديث أنس بسند ضعيف .

(٢) حديث : من كانت له عند أخيه مظلمة من عرض أومال فليتحلله ، الحديث متفق عليه من حديث أبي هريرة .

(٣) حديث : أيعجز أحدكم أن يكون كأبي ضمضم كان إذا خرج من بيته قال اللهم إني تصدقت بعرضي على الناس ، البزار وابن السني في اليوم والليلة والعقيلي في الضعفاء من حديث أنس بسند ضعيف وذكره ابن عبد البر من حديث ثابت مرسلا عند ذكر أبي ضمضم في الصحابة . قلت وإنما هو رجل ممن كان قبلنا كما عند البزار والعقيلي .

تصدق به فهل يباح تناوله فان كان لا تنفذ صدقته فما معنى الحث عليه . فنقول معناه إنى لا أطلب مظلمة فى القيامة منه ولا أخاصمه والا فلا تصير الغيبة حلالا به ولا تسقط المظلمة عنه لأنه عفو قبل الوجوب إلا أنه وعد وله العزم على الوفاء بأن لا يخاصم . فان رجع وخاصم كان القياس كسائر الحقوق أن له ذلك بل صرح الفقهاء أن من أباح القذف لم يسقط حقه من حد القاذف ومظلمة الآخرة مثل مظلمة الدنيا، وعلى الجملة فالعفو أفضل قال الحسن « إذا جثت الأمم بين يدى الله عز وجل يوم القيامة نودوا ليقم من كان له أجر على الله فلا يقوم إلا العافون عن الناس فى الدنيا» وقد قال الله تعالى «خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين» فقال النبى صلى الله عليه وسلم «(١) ياجبريل ماهذا العفو ، فقال « إن الله تعالى يأمرك أن تعفو عمن ظلمك وتصل من قطعك وتعطى من حرمك » وروى عن الحسن أن رجلا قال له إن فلانا قد اغتابك فبعث إليه رطبا على طبق ، وقال قد بلغنى أنك أهديت إلى من حسناتك فأردت أن أكافئك عليها فاعذرنى فإنى لا أقدر أن أكافئك على التمام :

الآفة السادسة عشرة : النميمة

قال الله تعالى : « هماز مشاء بنميم » ثم قال « عتل بعد ذلك زنيم ». قال عبد الله بن المبارك : الزنيم ولد الزنا الذى لايكتم الحديث ، وأشار به إلى أن كل من يكتم الحديث ومشى بالنميمة دل على أنه ولد زنا استنباطا من قوله عز وجل : «عتل بعد ذلك زنيم » والزنيم هو الدعى ، وقال تعالى « ويل لكل همزة لمزة » قيل الهمزة النمام ، وقال تعالى : «حمالة الحطب » قيل إنها كانت نمامة حمالة للحديث ، وقال تعالى « فخانتاهما فلم يغنيا عنهما من الله شيئا » قيل كانت امرأة لوط تخبر بالضيفان ، وامرأة نوح تخبر أنه مجنون وقد قال صلى الله عليه وسلم (٢) «لايدخل الجنة نمام » ؛ وفى حديث آخر «لايدخل الجنة قتات» والقتات هو النمام . وقال أبو هريرة . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (٣)«أحبكم إلى الله أحاسنكم أخلاقا الموطئون أكنافا الذين يألفون ويؤلفون ، وإن أبغضكم إلى الله المشاءون بالنميمة . المفرقون بين الإخوان الملتمسون للبرآء العثرات وقال صلى الله عليه وسلم (٤)« ألا أخبركم بشراركم . قالوا بلى ؟ قال المشاءون بالنميمة المفسدون بين الأحبة الباغون للبرآء العيب » . وقال أبو ذر (٥) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «من أشاع على مسلم كلمة ليشينه بها بغير حق شانه الله بها فى النار يوم القيامة . وقال أبو الدرداء (٦) قال رسول الله صلى الله عليه

(١) حديث نزول خذ العفو الآية فقال يا جبريل ماهذا فقال إن الله يأمرك أن تعفو عمن ظلمك وتصل من قطعك وتعطى من حرمك . تقدم فى رياضة النفس .

(٢) حديث : لايدخل الجنة نمام ، وفى حديث آخر قتات متفق عليه من حديث حذيفة ، وقد تقدم .

(٣) حديث أبى هريرة: وأحبكم إلى الله أحسنكم أخلاقا الموطئون أكنافا، الطبرانى فى الأوسط والصغير، وتقدم فى آداب الصحبة .

(٤) حديث : ألا أخبركم بشراركم قالوا بلى قال المشاءون بالنميمة : الحديث ؛ أحمد من حديث أبى مالك الأشعرى وقد تقدم .

(٥) حديث أبى ذر : من أشاع على مسلم كلمة ليشينه بها بغير حق شانه الله بها فى النار يوم القيامة ، ابن أبى الدنيا فى الصمت والطبرانى فى مكارم الأخلاق ، وفيه عبد الله بن ميمون فإن يكن القداح فهو متروك الحديث .

(٦) حديث أبى الدرداء أيما رجل أشاع على رجل كلمة هو منها برىء ليشينه بها فى الدنيا كان حقا على

وسلم « أيما رجل أشاع على رجل كلمة وهو منها برىء ليشينه بها فى الدنيا : كان حقا على الله أن يذيبه بها يوم القيامة فى النار » . وقال أبو هريرة (١) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من شهد على مسلم بشهادة ليس لها بأهل فليتبوأ مقعده من النار » ويقال أن ثلث عذاب القبر من النميمة، وعن ابن عمر عن النبى صلى الله عليه وسلم (٢) إن الله لما خلق الجنة قال لها تكلمى ؛ فقالت سعد من دخلنى ؛ فقال الجبار جل جلاله : وعزتى وجلالى لا يسكن فيك ثمانية نفر من الناس : لا يسكنك مدمن خمر ، ولا مصر على الزنا ، ولا قتات . وهو النمام ، ولا ديوث ، ولا شرطى ، ولا مخنث ولا قاطع رحم ، ولا الذى يقول علىّ عهد الله إن لم أفعل كذا وكذا ثم لم يف به » . وروى كعب الأحبار أن بنى إسرائيل أصابهم قحط فاستسقى موسى عليه السلام مرات فما سقوا فأوحى الله تعالى اليه إنى لا أستجيب لك ولمن معك وفيكم نمام قد أصر على النميمة . فقال موسى يارب من هو دلنى عليه حتى أخرجه من بيننا قال ياموسى أنهاكم عن النميمة وأكون نماما فتابوا جميعا فسقوا ، ويقال اتبع رجل حكيما سبعمائة فرسخ فى سبع كلمات فلما قدم عليه . قال إنى جئتك للذى آتاك الله تعالى من العلم أخبرنى عن السماء وما أثقل منها ، وعن الأرض وما أوسع منها ، وعن الصخر وما أقسى منه ، وعن النار وما أحر منها ، وعن الزمهرير وما أبرد منه ، وعن البحر وما أغنى منه ، وعن اليتيم وما أذل منه ؟ فقال له الحكيم : البهتان على البرىء أثقل من السموات ، والحق أوسع من الأرض ، والقلب القانع أغنى من البحر ، والحرص والحسد أحر من النار ، والحاجة إلى القريب إذا لم تنجح أبرد من الزمهرير ، وقلب الكافر أقسى من الحجر ، والنمام إذ بان أمره أذل من اليتيم .

بيان حد النميمة وما يجب فى ردها

اعلم أن اسم النميمة إنما يطلق فى الأكثر على من ينم قول الغير إلى المقول فيه كما تقول فلان كان يتكلم فيك بكذا وكذا ، وليست النميمة مختصة به بل حدها كشف ما يكره كشفه سواء كرهه المنقول عنه أو المنقول اليه أو كرهه ثالث ، وسواء كان الكشف بالقول أو الكتابة أو بالرمز أو بالإيماء وسواء كان المنقول من الأعمال أو من الأقوال ، وسواء كان ذلك عيبا ونقصا فى المنقول عنه أو لم يكن بل حقيقة النميمة إفشاء السر وهتك الستر عما يكره كشفه . بل كل ما رآه الإنسان من أحوال الناس مما يكره فينبغى أن يسكت عنه إلا ما فى حكايته فائدة لمسلم أو دفع لمعصية كما إذا رأى من يتناول مال غيره فعليه أن يشهد به مراعاة لحق المشهود له ، فأما إذا رآه يخفى مالا لنفسه فذكره فهو نميمة وإفشاء للسر . فإن كان ينم به نقصا وعيبا فى المحكى عنه كان قد جمع بين الغيبة والنميمة . فالباعث على النميمة إما إرادة السوء للمحكى عنه أو إظهار الحب

الله أن يذيبه بها يوم القيامة فى النار » ابن أبى الدنيا موقوفا على أبى الدرداء ورواه الطبرانى بلفظ آخر مرفوعا من حديثه وقد تقدم .

(١) حديث أبى هريرة من شهد على مسلم شهادة ليس لها بأهل فليتبوأ مقعده من النار ، أحمد وابن أبى الدنيا ، وفى رواية أحمد رجل لم يسم أسقطه ابن أبى الدنيا من الاسناد .

(٢) حديث ابن عمر ان الله لما خلق الجنة قال لها تكلمى قالت سعد من دخلنى . قال الجبار وعزتى وجلالى لا يسكن فيك ثمانية . فذكر منها ولا قتات ، وهو النمام لم أجده هكذا بتمامه . ولأحمد لا يدخل الجنة عاق لوالديه ولا ديوث ، وللنسائى من حديث عبد الله بن عمر ولا يدخل الجنة منان ولا عاق ولا مدمن خمر ، وللشيخين من حديث حذيفة لا يدخل الجنة قتات ، ولهما من حديث لجبير بن مطعم : لا يدخل الجنة قاطع ، وذكر صاحب الفردوس من حديث ابن عباس لما خلق الله الجنة قال لها تكلمى تزينى فتزينت ، فقالت طوبى لمن دخلنى ورضى عنه إلهى . فقال الله عزوجل : لأسكنك مخنث ولا نائحة

للمحكى له أو التفرج بالحديث ، والخوض فى الفضول والباطل ، وكل من حملت إليه النميمة وقيل له إن فلانا قال فيك كذا أوفعل فى حقك كذا ، أوهو يدبر فى إفساد أمرك أو فى ممالأة عدوك أوتقبيح حالك أو مايجرى مجراه فعليه ستة أمور (الأول) أن لايصدقه لأن النمام فاسق وهو مردود الشهادة قال الله تعالى : « ياأيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوما بجهالة » (الثانى) أن ينهاه عن ذلك وينصح له ويقبح عليه فعله . قال الله تعالى : « وأمر بالمعروف وانه عن المنكر » (الثالث) أن يبغضه فى الله تعالى فانه بغيض عند الله تعالى ، ويجب بغض من يبغضه الله تعالى (الرابع) أن لاتظن بأخيك الغائب السوء لقول الله تعالى : « اجتنبوا كثيرا من الظن إن بعض الظن إثم » (الخامس) أن لايحملك ماحكى لك على التجسس والبحث لتتحقق اتباعا لقوله تعالى : « ولا تجسسوا » (السادس) أن لاترضى لنفسك مانهيت النمام عنه ، ولا تحكى نميمته . فتقول فلان قد حكى لى كذا وكذا فتكون به نماما ومغتابا وتكون قد أتيت ماعنه نهيت ، وقد روى عن عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه أنه دخل عليه رجل فذكر له عن رجل شيئا فقال له عمر إن شئت نظرنا فى أمرك فان كنت كاذبا فأنت من أهل هذه الآية « إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا » وإن كنت صادقا فأنت من أهل هذه الآية « هماز مشاء بنميم » وإن شئت عفونا عنك . فقال العفو ياأمير المؤمنين لا أعود اليه أبدا . وذكر أن حكيما من الحكماء زاره بعض إخوانه فأخبر بخبر عن بعض أصدقائه . فقال له الحكيم : قد أبطأت فى الزيارة وأتيت بثلاث جنايات : بغضت أخى إلىّ ، وشغلت قلبى الفارغ ، واتهمت نفسك الأمينة ، وروى أن سليمان بن عبد الملك كان جالسا وعنده الزهرى فجاءه رجل فقال له سليمان : بلغنى أنك وقعت فىّ وقلت كذا وكذا ، فقال الرجل مافعلت ولا قلت . فقال سليمان إن الذى أخبرنى صادق . فقال له الزهرى لايكون النمام صادقا . فقال سليمان صدقت : ثم قال للرجل اذهب بسلام وقال الحسن . «من نم إليك نم عليك» ، وهذا إشارة إلى أن النمام ينبغى أن يبغض ولا يوثق بقوله ولا بصداقته ، وكيف لايبغض وهو لاينفك عن الكذب ، والغيبة ، والغدر ، والخيانة ، والغل ، والحسد والنفاق ، والافساد بين الناس ، والخديعة ، وهو ممن يسعى فى قطع ماأمر الله به أن يوصل ويفسدون فى الأرض . وقال تعالى : «إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبغون فى الأرض بغير الحق» ، والنمام منهم وقال صلى الله عليه وسلم «(١) إن من شرار الناس ؛ من اتقاه الناس لشره» ، والنمام منهم ، وقال «(٢) لايدخل الجنة قاطع : قيل وما القاطع ؟ قال . قاطع بين الناس ، وهو النمام . وقيل : قاطع الرحم» ، وروى عن على رضى الله عنه أن رجلا سعى إليه برجل ، فقال له ياهذا نحن نسأل عما قلت . فإن كنت صادقا مقتناك ، وإن كنت كاذبا عاقبناك ، وإن شئت أن نقيلك أقلناك . فقال أقلنى يا أمير المؤمنين ، وقيل لمحمد ابن كعب القرظى : أى خصال المؤمن أوضع له ؟ فقال كثرة الكلام ؛ وإفشاء السر ، وقبول قول كل أحد . وقال رجل لعبد الله بن عامر وكان أميرا : بلغنى أن فلانا أعلم الأمير أنى ذكرته بسوء . قال قد كان ذلك . قال فأخبرنى بما قال لك حتى أظهر كذبه عندك . قال ما أحب أن أشتم نفسى بلسانى ، وحسبى أنى لم أصدقه فيما قال ، ولا أقطع عنك الوصال ، وذكرت السعاية عند بعض الصالحين ، فقال ماظنكم بقوم يحمد الصدق من كل طائفة من الناس إلا منهم ، وقال مصعب بن الزبير . نحن نرى أن قبول السعاية شر من السعاية لأن السعاية دلالة ، والقبول إجازة ، وليس من دل على شىء فأخبر به كمن قبله وأجازه فاتقوا الساعى فلو كان صادقا فى قوله لكان لئيما فى صدقه ، حيث لم يحفظ الحرمة ، ولم يستر العورة ، والسعاية

(١) حديث : إن من شر الناس من اتقاه الناس لشره ، متفق عليه من حديث عائشة نحوه .

(٢) حديث : لايدخل الجنة قاطع ، متفق عليه من حديث جبير بن مطعم .

هي النميمة إلا أنها إذا كانت إلى من يخاف جانبه سميت سعاية ، وقد قال صلى الله عليه وسلم « (١) الساعى بالناس إلى الناس لغير رشدة » يعنى ليس بولد حلال ، ودخل رجل على سليمان بن عبد الملك فاستأذنه فى الكلام . وقال إنى مكلمك يا أمير المؤمنين بكلام فاحتمله ، وإن كرهته فإن وراءه ما تحب إن قبلته . فقال قل : فقال يا أمير المؤمنين إنه قد اكتنفك رجال ابتاعوا دنياك بدينهم ، ورضاك بسخط ربهم : خافوك فى الله ، ولم يخافوا الله فيك ، فلا تأمنهم على ما ائتمنك الله عليه ، ولا تصغ اليهم فيما استحفظك الله إياه : فإنهم لن يألوا فى الأمة خسفا ، وفى الأمانة تضييعا ، والأعراض قطعا وانتهاكا أعلى قربهم البغى والنميمة ، وأجل وسائلهم الغيبة والوقيعة ، وأنت مسئول عما أجرموا ، وليسوا المسئولين عما أجرمت ، فلا تصلح دنياهم بفساد آخرتك ، فإن أعظم الناس غبنا من باع آخرته بدنيا غيره ، وسعى رجل بزيادة الأعجم إلى سليمان ابن عبد الملك فجمع بينهما للموافقة فأقبل زياد على الرجل . وقال :

فأنت امرؤ ما ائتمنتك خاليا ‏ خنت وأما قلت قولا بلا علم
فأنت من الأمر الذى كان بيننا ‏ بمنزلة بين الخيانة والإثم

وقال رجل لعمرو بن عبيد أن الأسوارى ما زال يذكرك فى قصصه بشر . فقال له عمرو يا هذا ما رعيت حق مجالسة الرجل حيث نقلت الينا حديثه ولا أديت حق حين أعلمتنى عن أخى ما أكره ، ولكن أعلمه أن الموت يعمنا والقبر يضمنا والقيامة تجمعنا والله تعالى يحكم بيننا وهو خير الحاكمين ، ورفع بعض السعاة إلى الصاحب بن عباد رقعة نبه فيها على مال يتيم يحمله على أخذه لكثرته فوقع على ظهرها : السعاية قبيحة وإن كانت صحيحة ، فإن كنت أجريتها مجرى النصح فخسرانك فيها أفضل من الربح ؛ ومعاذ الله أن تقبل مهتوكا فى مستور ، ولولا أنك فى خفارة شيبتك لقابلناك بما يقتضيه فعلك فى مثلك ؛ فتوق يا ملعون العيب فإن الله أعلم بالغيب ، الميت رحمه الله ، واليتيم جبره الله ، والمال ثمره الله ، والساعى لعنه الله . وقال لقمان لابنه يا بنى أوصيك بخلال إن تمسكت بهن لم تزل سيدا ، أبسط خلقك للقريب والبعيد ، وأمسك جهلك عن الكريم واللئيم ، واحفظ إخوانك ، وصل أقاربك ، وآمنهم من قبول قول ساع أو سماع باغ يريد فسادك وروم خداعك ، وليكن إخوانك من إذا فارقتهم وفارقوك لم تعبهم ولم يعيبوك ، وقال بعضهم : النميمة مبنية على الكذب ، والحسد ، والنفاق ، وهي أثافى الذل ، وقال بعضهم لو صح ما نقله النمام اليك لكان هو المجترىء بالشتم عليك ، والمنقول عنه أولى بحلمك لأنه لم يقابلك بشتمك . وعلى الجملة فشر النمام عظيم ينبغى أن يتوقى . قال حماد بن سلمة باع رجل عبدا ، وقال المشترى ما فيه عيب إلا النميمة . قال قد رضيت فاشتراه فمكث الغلام أياما ثم قال لزوجة مولاه : إن سيدى لا يحبك ، وهو يريد أن يتسرى عليك فخذى الموسى واحلقى من شعر قفاه عند نومه شعرات حتى أسحره عليها فيحبك : ثم قال للزوج إن امرأتك اتخذت خليلا وتريد أن تقتلك فتناوم لها حتى تعرف ذلك ، فتناوم لها . فجاءت المرأة بالموسى فظن أنها تريد قتله : فقام اليها فقتلها فجاء أهل المرأة فقتلوا الزوج ، ووقع القتال بين القبيلتين فنسأل الله حسن التوفيق :

(١) حديث : الساعى بالناس إلى الناس لغير رشدة ، الحاكم من حديث أبى موسى من سعى بالناس فهو لغير رشدة أو فيه شىء منها ، وقال له أسانيد هذا أمثلها ، قلت فيه سهل ابن عطية قال فيه ابن طاهر فى التذكرة منكر الرواية قال ، والحديث لا أصل له ، وقد ذكر ابن حبان فى الثقات سهل بن عطية ورواه الطبرانى بلفظ لا يسعى على الناس إلا ولد بغى وإلا من فيه عرق منه ، وزاد بين سهل وبين بلال ابن أبى بردة أبا الوليد القرشى

الآفة السابعة عشرة كلام ذى اللسانين

الذى يتردد بين المتعادين ويكلم كل واحد منهما بكلام يوافقه ، وقلما يخلو عنه من يشاهد متعادين وذلك عين النفاق . قال عمار ابن ياسر (١) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من كان له وجهان فى الدنيا كان له لسانان من نار يوم القيامة » ، وقال أبوهريرة (٢) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « تجدون من شر عباد الله يوم القيامة ذا الوجهين الذى يأتى هؤلاء بحديث » ، وفى لفظ آخر : « الذى يأتى هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه » وقال أبو هريرة لاينبغى لذى الوجهين أن يكون أمينا عند الله ، وقال مالك ابن دينار قرأت فى التوراة بطلت الأمانة والرجل مع صاحبه بشفتين مختلفتين يهلك الله تعالى يوم القيامة كل شفتين مختلفتين ، وقال صلى الله عليه وسلم « (٣) أبغض خليقة الله إلى الله يوم القيامة الكذابون والمستكبرون ، والذين يكثرون البغضاء لإخوانهم فى صدورهم فإذا لقوهم تملقوا لهم والذين إذا دعوا إلى الله ورسوله كانوا بطاء ، وإذا دعوا إلى الشيطان وأمره كانوا سراعا » . وقال ابن مسعود لايكونن أحدكم إمعة قالوا وما الإمعة ؟ قال الذى يجرى مع كل ريح ، واتفقوا على أن ملاقاة الإثنين بوجهين نفاق وللنفاق علامات كثيرة وهذه من جملتها ، وقد روى أن رجلا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم مات فلم يصل عليه حذيفة فقال له عمر يموت رجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم تصل عليه . فقال يا أمير المؤمنين انه منهم ، فقال نشدتك الله أنا منهم أم لا . قال اللهم لا ولا أؤمن منها أحدا بعدك . فإن قلت بماذا يصير الرجل ذا لسانين وما حد ذلك ؟ فأقول إذا دخل على متعادين وجامل كل واحد منهما وكان صادقا فيه لم يكن منافقا ولا ذا لسانين فإن الواحد قد يصادق متعادين ولكن صداقة ضعيفة لاتنتهى إلى حد الأخوة إذ لو تحققت الصداقة لاقتضت معاداة الأعداء كما ذكرنا فى كتاب آداب الصحبة والأخوة ؛ نعم لو نقل كلام كل واحد منهما إلى الآخر فهو ذو لسانين وهو شر من النميمة إذ يصير نماما بأن ينقل من أحد الجانبين فقط . فإذا نقل من الجانبين فهو شر من النمام وإن لم ينقل كلاما ، ولكن حسن لكل واحد منهما ما هو عليه من المعاداة مع صاحبه فهذا ذو لسانين ، وكذلك إذا وعد كل واحد منهما بأن ينصره ، وكذلك إذا أثنى على كل واحد منهما فى معاداته ، وكذلك إذا أثنى على أحدهما وكان إذا خرج من عنده يذمه فهو ذو لسانين بل ينبغى أن يسكت أو يثنى على المحق من المتعادين ويثنى عليه فى غيبته وفى حضوره وبين يدى عدوه . قيل لابن عمر رضى الله عنهما (٤) إنا ندخل على أمرائنا فنقول القول فإذا خرجنا قلنا غيره ، فقال كنا نعد هذا نفاقا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وهذا نفاق مهما كان مستغنيا عن الدخول على الأمير وعن الثناء عليه فلو استغنى عن الدخول ، ولكن إذا دخل يخاف إن لم يثن فهو نفاق لأنه الذى أحوج نفسه إلى ذلك ، فإن كان مستغنيا عن الدخول لو قنع بالقليل وترك المال والجاه فدخل لضرورة الجاه والغنى وأثنى فهو منافق ، وهذا معنى

---

(١) حديث عمار بن ياسر : من كان له وجهان فى الدنيا كان له لسانان من نار يوم القيامة ، البخارى فى كتاب الأدب المفرد وأبو داود بسند حسن .

(٢) حديث أبى هريرة : تجدون من شر عباد الله يوم القيامة ذا الوجهين ، الحديث متفق عليه بلفظ تجد من شر الناس لفظ البخارى ، وهو عند ابن أبى الدنيا بلفظ المصنف .

(٣) حديث : أبغض خليقة الله إلى الله يوم القيامة الكذابون والمستكبرون والذين يكثرون البغضاء لإخوانهم فى صدورهم فإذا لقوهم تملقوا لهم ، الحديث لم أقف له على أصل .

(٤) حديث : قيل لابن عمر إنا ندخل على أمرائنا فنقول القول فإذا خرجنا قلنا غيره . قال كنا نعد ذلك نفاقا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، الطبرانى من طرق ،

قوله صلى الله عليه وسلم «(١) حب المال والجاه ينبتان النفاق فى القلب كما ينبت الماء البقل » لأنه يحوج إلى الأمراء وإلى مراعاتهم ومراآتهم . فأما إذا ابتلى به لضرورة وخاف إن لم يثن فهو معذور . فإن اتقاء الشر جائز . قال أبو الدرداء رضى الله عنه « إنا لنكشر فى وجوه أقوام ، وإن قلوبنا لتلعنهم » . وقالت عائشة رضى الله عنها « (٢) استأذن رجل على رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال ائذنوا له فبئس رجل العشيرة هو ، ثم لما دخل ألان له القول . فلما خرج قلت يارسول الله قلت فيه ماقلت ثم ألنت له القول ، فقال ياعائشة إن شر الناس الذى يكرم اتقاء شره » ، ولكن هذا ورد فى الإقبال وفى الكشر والتبسم . فأما الثناء فهو كذب صراح ، ولا يجوز إلا لضرورة أو إكراه يباح الكذب بمثله كما ذكرناه فى آفة الكذب بل لايجوز الثناء ، ولاالتصديق ولاتحريك الرأس فى معرض التقرير على كل كلام باطل فإن فعل ذلك فهو منافق بل ينبغى أن ينكر فإن لم يقدر فيسكت بلسانه وينكر بقلبه :

الآفة الثامنة عشرة المدح

وهو منهى عنه فى بعض المواضع ، أما الذم فهو الغيبة والوقيعة وقد ذكرنا حكمها ، والمدح يدخله ست آفات : أربع فى المادح ، واثنتان فى الممدوح (فأما المادح : فالأولى) أنه قد يفرط فينتهى به إلى الكذب . قال خالد بن معدان من مدح إماما أو أحداً بما ليس فيه على رؤوس الأشهاد بعثه الله يوم القيامة يتعثر بلسانه (الثانية) إنه قد يدخله الرياء ، فانه بالمدح مظهر للحب ، وقدلايكون مضمرا له ولا معتقدا لجميع مايقوله فيصير به مرائيا منافقا (الثالثة) أنه قديقول مالايتحققه ولاسبيل له إلى الاطلاع عليه ، روى(٣) أن رجلا مدح رجلا عند النبى صلى الله عليه وسلم . فقال له عليه الصلاة والسلام « ويحك قطعت عنق صاحبك لو سمعها ما أفلح » ثم قال إن كان أحدكم لابد مادحا أخاه فليقل أحسب فلانا ولا أزكى على الله أحدا حسيبه الله إن كان يرى أنه كذلك ، وهذه الآفة تتطرق إلى المدح بالأوصاف المطلقة التى تعرف بالأدلة : كقوله إنه متق وورع وزاهد وخير وما يجرى مجراه ، فأما إذا قال رأيته يصلى بالليل ويتصدق ويحج فهذه أمور مستيقنة ، ومن ذلك قوله إنه عدل رضا فإن ذلك خفى ؛ فلا ينبغى أن يجزم القول فيه إلا بعد خبرة باطنه . سمع عمر رضى الله عنه رجلا يثنى على رجل . فقال أسافرت معه . قال لا . قال أخالطته فى المبايعة والمعاملة ؟ قال لا . قال فأنت جاره صباحه ومساءه ؟ قال لا . فقال والله الذى لا إله إلا هو لاأراك تعرفه (الرابعة) أنه قد يفرح الممدوح وهو ظالم أو فاسق وذلك غير جائز قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « (٤) إن الله تعالى يغضب إذا مدح الفاسق » . وقال الحسن : من دعا للظالم بطول البقاء فقد أحب أن يعصى الله تعالى فى أرضه ، والظالم الفاسق ينبغى أن يذم ليغتم ولا يمدح ليفرح (وأما الممدوح : فيضره من وجهين) أحدهما . أنه يحدث فيه

---

(١) حديث حب الجاه والمال ينبتان النفاق فى القلب كما ينبت الماء البقل ، أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من حديث أبى هريرة بسند ضعيف إلا أنه قال صاحب الغناء . وقال العشب مكان البقل .

(٢) حديث عائشة استأذن رجل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ائذنوا له فبئس رجل العشيرة الحديث ، وفيه إن شر الناس الذى يكرم اتقاء شره ، متفق عليه ، وقد تقدم فى الآفة التى قبلها

(٣) حديث : إن رجلا مدح رجلا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ويحك قطعت عنق صاحبك متفق عليه من حديث أبى بكرة بنحوه ، وهو فى الصمت لابن أبى الدنيا بلفظ المصنف .

(٤) حديث : إن الله يغضب إذا مدح الفاسق ابن أبى الدنيا فى الصمت والبيهقى فى الشعب من حديث أنس وفيه أبو خلف خادم أنس ضعيف ؛ ورواه أبو يعلى الموصلى وابن عدى بلفظ : إذا مدح الفاسق غضب واهتز الرب العرش . قال الذهبى فى الميزان منكر وقد تقدم فى آداب الكسب .

كبرا وإعجابا ، وهما مهلكان . قال الحسن رضى الله عنه كان عمر رضى الله عنه جالسا ومعه الدرة والناس حوله إذا أقبل الجارود بن المنذر . فقال رجل هذا سيد ربيعة فسمعها عمر ومن حوله وسمعها الجارود فلما دنا منه خفقه بالدرة ، فقال مالى ولك يا أمير المؤمنين قال مالى ولك أما لقد سمعتها . قال سمعتها من ثمه . قال خشيت أن يخالط قلبك منها شيء فأحببت أن أطأطىء منك (الثانى) هو أنه إذا أثنى عليه بالخير فرح به وفتر ورضى عن نفسه ، ومن أعجب بنفسه قل تشمره ، وإنما يتشمر للعمل من يرى نفسه مقصرا ، فأما إذا انطلقت الألسن بالثناء عليه ظن أنه قد أدرك ، ولهذا قال عليه الصلاة والسلام : قطعت عنق صاحبك لو سمعها ما أفلح . وقال صلى الله عليه وسلم[١] : « إذا مدحت أخاك فى وجهه فكأنما أمررت على حلقه موسى وميضاء » وقال أيضا لمن مدح رجلا[٢] عقرت الرجل عقرك الله » . وقال مطرف « ماسمعت قط ثناء ولا مدحة إلا تصاغرت إلى نفسى » . وقال زياد بن أبى مسلم : ليس أحد يسمع ثناء عليه أو مدحة إلا تراءى له الشيطان ، ولكن المؤمن يراجع ، فقال ابن المبارك : لقد صدق كلاهما ، أما ماذكره زياد فذلك قلب العوام ، وأما ما ذكره مطرف فذلك قلب الخواص » . وقال صلى الله عليه وسلم[٣] « لومشى رجل إلى رجل بسكين مرهف كان خيرا له من أن يثنى عليه فى وجهه » . وقال عمر رضى الله عنه : المدح هو الذبح ، وذلك لأن المذبوح هو الذى يفتر عن العمل ، والمدح يوجب الفتور ، أو لأن المدح يورث العجب والكبر وهما مهلكان كالذبح فلذلك شبهه به . فإن سلم المدح من هذه الآفات فى حق المادح والممدوح لم يكن به بأس ، بل ربما كان مندوبا اليه ، ولذلك أثنى رسول الله صلى الله عليه وسلم على الصحابة فقال[٤] : « لو وزن إيمان أبي بكر بإيمان العالم لرجح » . وقال فى عمر[٥] « لو لم أبعث لبعثت ياعمر » ، وأى ثناء يزيد على هذا ! ولكنه صلى الله عليه وسلم قال عن صدق وبصيرة ، وكانوا رضى الله عنهم أجل رتبة من أن يورثهم ذلك كبرا وعجبا وفتورا ، بل مدح الرجل لنفسه قبيح لما فيه من الكبر والتفاخر إذ قال صلى الله عليه وسلم[٦] « أنا سيد ولد آدم ولا فخر » أى لست أقول هذا تفاخرا كما يقصده الناس بالثناء على أنفسهم ؛ وذلك لأن افتخاره صلى الله عليه وسلم كان بالله وبالقرب من الله لابولد آدم وتقدمه عليهم كما أن المقبول عند الملك قبولا عظيما إنما يفتخر بقبوله إياه وبه يفرح لابتقدمه على بعض رعاياه ، وبتفصيل هذه الآفات تقدر على الجمع بين ذم المدح وبين الحث عليه . قال صلى الله عليه وسلم[٧] وجبت لما أثنوا على بعض الموتى . وقال مجاهد : إن

---

(١) حديث : إذا مدحت أخاك فى وجهه فكأنما أمررت على حلقه موسى وميضا ، ابن المبارك فى الزهد والرقائق من رواية يحيى بن جابر مرسلا .

(٢) حديث : عقرت الرجل عقرك الله . قاله لمن مدح رجلا ، لم أجد له أصلا .

(٣) حديث : لومشى رجل إلى رجل بسكين مرهف كان خيرا له من أن يثنى عليه فى وجهه . لم أجده أيضا

(٤) حديث : لوزن إيمان أبى بكر بإيمان العالمين لرجح ، تقدم فى العلم .

(٥) حديث : لو لم أبعث لبعثت ياعمر . أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من حديث أبى هريرة ، وهو منكر ، والمعروف حديث عقبة ابن عامر : « لو كان بعدى نبى لكان عمر بن الخطاب » . رواه الترمذي وحسنه .

(٦) حديث : أنا سيد ولد آدم ولا فخر ، الترمذى وابن ماجه من حديث أبى سعيد الخدرى والحاكم من حديث جابر وقال صحيح الإسناد ، وله من حديث عبادة بن الصامت : « أنا سيد الناس يوم القيامة ولافخر » ولمسلم من حديث أبى هريرة : « أنا سيد ولد آدم يوم القيامة » .

(٧) حديث : وجبت ، قاله لما أثنوا على بعض الموتى ، متفق عليه من حديث أنس .

لبنى

لبنى آدم جلساء من الملائكة ، فإذا ذكر الرجل المسلم أخاه المسلم بخير قالت الملائكة ولك بمثله ، وإذا ذكره بسوء قالت الملائكة يا ابن آدم المستور عورتك أربع على نفسك واحمد لله الذى ستر عورتك ، فهذه آفات المدح .

بيان ما على الممدوح

اعلم أن على الممدوح أن يكون شديد الاحتراز عن آفة الكبر والعجب وآفة الفتور ، ولا ينجو منه إلا بأن يعرف نفسه ، ويتأمل ما فى خطر الخاتمة ، ودقائق الرياء ، وآفات الأعمال ، فإنه يعرف من نفسه مالا يعرفه المادح ولو انكشف له جميع أسراره وما يجرى على خواطره لكف المادح عن مدحه ، وعليه أن يظهر كراهة المدح بإذلال المادح . قال صلى الله عليه وسلم (١) : « احثوا التراب فى وجوه المادحين » ، وقال سفيان بن عيينة : « لا يضر المدح من عرف نفسه » ، وأثنى على رجل من الصالحين فقال : اللهم إن هؤلاء لا يعرفونى وأنت تعرفنى : وقال آخر لما أثنى عليه : اللهم إن عبدك هذا تقرب إلى بمقتك ، وأنا أشهدك على مقته . وقال على رضى الله عنه لما أثنى عليه : «اللهم اغفرلى مالا يعلمون ، ولا تؤاخذنى بما يقولون ، واجعلنى خيرا مما يظنون » . وأثنى رجل على عمر رضى الله عنه فقال « أتهلكنى وتهلك نفسك » . وأثنى رجل على على كرم الله وجهه فى وجهه ، وكان قد بلغه أنه يقع فيه ، فقال : أنا دون ما قلت ، وفوق ما فى نفسك .

الآفة التاسعة عشرة

الغفلة عن دقائق الخطأ فى فحوى الكلام لاسيما فيما يتعلق بالله وصفاته ويرتبط بأمور الدين فلا يقدر على تقويم اللفظ فى أمور الدين إلا العلماء الفصحاء ، فمن قصر فى علم أو فصاحة لم يخل كلامه من الزلل ، لكن الله تعالى يعفو عنه لجهله ، مثاله ما قال حذيفة : قال النبى صلى الله عليه وسلم (٢) : « لا يقل أحدكم ما شاء الله وشئت ولكن ليقل ما شاء الله ثم شئت » وذلك لأن فى العطف المطلق تشريكا وتسوية ، وهو على خلاف الاحترام . وقال ابن عباس رضى الله عنهما (٣) : جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يكلمه فى بعض الأمر فقال ما شاء الله وشئت فقال صلى الله عليه وسلم : أجعلتنى لله عديلا ؟ بل ما شاء الله وحده . وخطب رجل عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال (٤) : « من يطع الله ورسوله فقد رشد ومن يعصهما فقد غوى ، فقال : قل ومن يعص الله ورسوله فقد غوى » فكره رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله ومن يعصهما لأنه تسوية وجمع . وكان إبراهيم يكره أن يقول الرجل : أعوذ بالله وبك ، ويجوز أن يقول : أعوذ بالله ثم بك ، وأن يقول لولا الله ثم فلان ويقول لولا الله وفلان . وكره بعضهم أن يقال : اللهم أعتقنا من النار ، وكان يقول العتق يكون بعد الورود ، وكانوا يستجيرون من النار ويتعوذون من النار . وقال رجل : اللهم اجعلنى ممن تصيبه شفاعة محمد صلى الله عليه وسلم ، فقال حذيفة : إن الله يغنى المؤمنين عن شفاعة محمد وتكون شفاعته للمذنبين من المسلمين . وقال إبراهيم إذا قال الرجل للرجل يا حمار يا خنزير قيل له يوم القيامة حمارا

---

(١) حديث : احثوا فى وجوه المداحين التراب ، مسلم من حديث المقداد .

(٢) حديث حذيفة : لا يقل أحدكم ما شاء الله وشئت الحديث ، أبو داود والنسائى فى الكبرى بسند صحيح :

(٣) حديث ابن عباس : جاء رجل إلى النبى صلى الله عليه وسلم فكلمه فى بعض الأمر فقال ما شاء الله وشئت فقال : أجعلتنى لله عديلا ؟ قل ما شاء الله وحده ، النسائى فى الكبرى بإسناد حسن ، وابن ماجه :

(٤) حديث : خطب رجل عند النبى صلى الله عليه وسلم فقال : من يطع الله ورسوله فقد رشد ومن يعصهما فقد غوى ، الحديث مسلم من حديث عدى بن حاتم .

رأيتنى خلقته خنزيرا رأيتنى خلقته . وعن ابن عباس رضى الله عنهما إن أحدكم ليشرك حتى يشرك بكلبه فيقول لولاه لسرقنا الليلة ، وقال عمر رضى الله عنه (١) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن الله تعالى ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم من كان حالفا فليحلف بالله أو ليصمت . قال عمر رضى الله عنه فوالله ما حلفت بها منذ سمعتها وقال صلى الله عليه وسلم (٢) « لا تسموا العنب كرما إنما الكرم الرجل المسلم » وقال أبو هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لايقولن أحدكم عبدى ولا أمتى كلكم عبيد الله وكل نسائكم إماء الله ، وليقل غلامى وجاريتى ، وفتاى وفتاتى ، ولا يقول المملوك ربى ولا ربتى ، وليقل سيدى وسيدتى ، فكلكم عبيد الله ، والرب الله سبحانه وتعالى . وقال صلى الله عليه وسلم (٣) : لاتقولوا للفاسق سيدنا فإنه إن يكن سيدكم فقد أسخطتم ربكم » . وقال صلى الله عليه وسلم (٤) : ومن قال أنا برىء من الإسلام فإن كان صادقا فهو كما قال ، وإن كان كاذبا فلن يرجع إلى الإسلام سالما » فهذا وأمثاله مما يدخل فى الكلام ولايمكن حصره . ومن تأمل جميع ما أوردناه من آفات اللسان علم أنه إذا أطلق لسانه لم يسلم ، وعند ذلك يعرف سر قوله صلى الله عليه وسلم (٥) : « من صمت نجا » لأن هذه الآفات كلها مهالك ومعاطب وهى على طريق المتكلم فإن سكت سلم من الكل وإن نطق وتكلم خاطر بنفسه إلا أن يوافقه لسان فصيح وعلم غزير وورع حافظ ، ومراقبة لازمة ، ويقلل من الكلام ، فعساه يسلم عند ذلك ، وهو مع جميع ذلك لاينفك عن الخطر ؛ فإن كنت لاتقدر على أن تكون ممن تكلم فغنم ، فكن ممن سكت فسلم ، فالسلامة إحدى الغنيمتين .

الآفة العشرون

سؤال العوام عن صفات الله تعالى ، وعن كلامه ، وعن الحروف ، وأنها قديمة أو محدثة ، ومن حقهم الاشتغال بالعمل بما فى القرآن إلا أن ذلك ثقيل على النفوس ، والفضول خفيف على القلب ، والعامى يفرح بالخوض فى العلم إذ الشيطان يخيل إليه أنك من العلماء وأهل الفضل ، ولايزال يحبب إليه ذلك حتى يتكلم فى العلم بما هو كفر وهو لايدرى ، وكل كبيرة يرتكبها العامى فهى أسلم له من أن يتكلم فى العلم لاسيما فيما يتعلق بالله وصفاته ، وإنما شأن العوام الاشتغال بالعبادات ، والإيمان بما ورد به القرآن ، والتسليم لما جاء به الرسل من غير بحث ، وسؤالهم من غير مايتعلق بالعبادات سوء أدب منهم يستحقون به المقت من الله عز وجل ويتعرضون لخطر الكفر وهو سؤال ساسة الدواب عن أسرار الملوك وهو موجب للعقوبة ، وكل من سأل عن علم غامض ولم يبلغ فهمه تلك الدرجة فهو مذموم فإنه بالإضافة إليه عامى ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم (٦) « ذرونى ماتركتكم فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم ؛ مانهيتكم عنه فاجتنبوه ، وما أمرتكم به فأتوا منه ما استطعتم » . وقال أنس (٧) : سأل الناس رسول الله صلى الله عليه

---

(١) حديث عمر : إن الله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم ، متفق عليه .

(٢) حديث : لا تسموا العنب كرما إنما الكرم الرجل المسلم ، متفق عليه من حديث أبى هريرة

(٣) حديث : لاتقولوا للفاسق سيدنا ، الحديث أبو داود من حديث بريدة بسند صحيح .

(٤) حديث : من قال أنا برىء من الإسلام ، فإن كان صادقا فهو كما قال الحديث النسائى وابن ماجه ، من حديث بريدة بإسناد صحيح

(٥) حديث : من صمت نجا الترمذى ، وقد تقدم فى أول آفات اللسان .

(٦) حديث : ذرونى ماتركتكم فإنما هلك من كان قبلكم بسؤالهم الحديث متفق عليه من حديث أبى هريرة .

(٧) حديث : سأل الناس رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما حتى أكثروا عليه وأغضبوه فصعد المنبر

وسلم

وسلم يوما فأكثروا عليه وأغضبوه ، فصعد المنبر وقال سلونى ولاتسألونى عن شئ إلا أنبأتكم به، فقام إليه رجل فقال يارسول الله من أبى ؟ فقال أبوك حذافة ، فقام إليه شابان أخوان فقالا يارسول الله من أبونا ؟ فقال أبوكما الذى تدعيان إليه ، ثم قام إليه رجل آخر فقال يارسول الله أفى الجنة أنا أم فى النار ؟ فقال لا بل فى النار ، فما رأى الناس غضب رسول الله ﷺ أمسكوا ، فقام إليه عمر رضى الله عنه فقال : رضينا بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد ﷺ نبيا، فقال : اجلس ياعمر رحمك الله، إنك ماعلمت لموفق، وفى الحديث[1] « نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن القيل والقال ، وإضاعة المال ، وكثرة السؤال » : وقال صلى الله عليه وسلم[2] « يوشك الناس يتساءلون حتى يقولوا قد خلق الله الخلق فمن خلق الله ؟ فاذا قالوا ذلك فقولوا « قل هو الله أحد ، الله الصمد » حتى تختمون السورة ، ثم ليتفل أحدكم عن يساره ثلاثا، وليستعذ بالله من الشيطان الرجيم : وقال جابر[3] : « ما نزلت آية التلاعنين إلا لكثرة السؤال » ، وفى قصة موسى والخضر عليهما السلام تنبيه على المنع من السؤال قبل أوان استحقاقه إذ قال : « فان اتبعتنى فلا تسألنى عن شئ حتى أحدث لك منه ذكرا » فلما سأل عن السفينة أنكر عليه حتى اعتذر وقال : «لاتؤاخذنى بما نسيت ولا ترهقنى من أمرى عسرا » فلما لم يصبر حتى سأل ثلاثا « قال هذا فراق بينى وبينك » وفارقه. فسؤال العوام عن غوامض الدين من أعظم الآفات ، وهو من المثيرات للفتن ، فيجب دفعهم ومنعهم من ذلك وخوضهم فى حروف القرآن يضاهى حال من كتب الملك إليه كتابا ، ورسم له فيه أمورا فلم يشتغل بشئ منها ، وضيع زمانه فى أن قرطاس الكتاب عتيق أم حديث فاستحق بذلك العقوبة لا محالة ، فكذلك تضييع العامى حدود القرآن واشتغاله بحروفه أهى قديمة أم حديثة ؟ وكذلك سائر صفات الله سبحانه وتعالى ، والله تعالى أعلم : انتهى ما أردته من كتاب (إحياء علوم الدين) للامام الغزالى ، والحمد لله رب العالمين .

* * *

ولنشرع الآن فى ذكر ما جاء فى كتابى (جوهر التقوى) فقد جاء فيه فى صفحة ١٢٩ وما بعدها تحت العنوان الآتى ما نصه :

الحسد

الحسد هو كراهة النعمة وحب زوالها عن المنعم عليه ، ومن تمنى مثل نعمة غيره فهو الغابط والمنافس ، وهو ليس بحاسد :

أسبابه

(١) العداوة (٢) التعزز (٣) الكبر (٤) العجب (٥) الخوف من فوت المقاصد المحبوبة (٦) حب الرئاسة (٧) حب النفس وبخلها ، فيثور الحسد فى النفس على مقتضى الأسباب :

فقال سلونى فلا تسألونى عن شئ إلا أنبأتكم به : الحديث متفق عليه مقتصرا على سؤال عبدالله بن حذافة وقول عمر ، ولمسلم من حديث أبى موسى : فقام آخر فقال من أبى ؟ فقال أبوك سالم مولى شيبة .

(١) حديث : النهى عن قيل وقال ، وإضاعة المال ، وكثرة السؤال ، متفق عليه من حديث المغيرة ابن شعبة .

(٢) حديث : يوشك الناس يتساءلون بينهم حتى يقولوا قد خلق ، الحديث متفق عليه من حديث أبى هريرة وقد تقدم :

(٣) حديث جابر : مانزلت آية التلاعب إلا لكثرة السؤال رواه البزار باسناد جيد .

فمن كره امرأ ثقلت عليه نعمته ، وسرته بليته ، واستعذب شقاءه ، ومرت عليه حلاوته ، ومن لم تنل شرته دامت حسرته : وكم من امرئ كانت نعمته الموهوبة وسعادته المستحدثة وسيلة للاستعلاء فيثور الحسد فى قلب قرينه ، ويأبى إلا التعزز عليه فلا يخضع لاستطالته ، ولا يصغر لعظمته ، ومن كانت الكبرياء صفة نفسه لم يستطع أن يرى المتكبر عليهم يساوونه ، ولم يطق صبرا على نعمة لهم حدثت وسعادة أقبلت ، ليبقى عليهم ظاهرا ، وفوقهم قاهرا ، ذلك بسبب الكبر الذى فى نفسه وإن لم يتعاظموا عليه . وكم من فتى أثار الحسد فى قلبه ، واشتعل نيرانه ، وألهب سعيره ؛ تعجبه من ترادف النعم النعم على من يخالفونه ، واستغرابه من تتابع المواهب ، وتواصل المنح ، وتوارد اللطائف ، وقد يشفق من زوال محبوب يبتغيه ، أو فوات مطلوب يرتجيه ، إذ ذاق معارفه نعمة من بعد ضراء مستهم ، فينافسونه على مطالبه ويزاحمونه فى سلوك سبيله ، كأرض يملكها أو عرس يبنى بها ، أو درجة يرقاها ، أو نعمة يلقاها . ومن الناس من يحسد حبا للرياسة ، وما يخشاه من وهن سلطانه ، وانقضاض بنيانه ، وتفويت عزه واستقلاله ، وآخرون خبثت نفوسهم ، وضل سعيهم ، إذ يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله بلاسبب إلا مرض نفوسهم وشحها ، وسوء طويتهم ؛ يودون أن لو منع الله الرحمة عن العباد لا يطلبون الانفراد بها ، ولا السيادة على غيرهم ، ولكن أنفسهم ضيقة العطن ، عديمة الفطن ، قليلة الخير ، ميتة الأفئدة ، أولئك هم الحاسدون الضالون ؛

وكلما تضافرت الأسباب بالاجتماع فى المجالس ، والتجاور فى المنازل . والاشتراك فى الحرمة ، والاقتراب بالنسب أو المصاهرة كان اضطرام نار الحسد أشد ، وامتداد لهيبها أسرع ، وازداد سعيرها ، وطغى شررها وغلت مراجلها ، فزاد إحراقها لمواد المحبات ، وإبادتها لملذات المودات ، وكانت الحياة حياة الأشرار إذ ذاك شرا وبيلا ، وعذابا أليما ، قال صلى الله عليه وسلم : « الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب » . وقال عليه السلام ؛ « لا تحاسدوا ولا تقاطعوا ولا تباغضوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله إخوانا » : وقال أنس : « كنا جلوساً عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يطلع عليكم من هذا الفج رجل من أهل الجنة ، فطلع رجل من الأنصار تنطف لحيته من وضوئه ، قد علق نعليه فى يده الشمال فسلم فلما كان الغد قال النبي صلى الله عليه وسلم مثل ذلك ، فطلع ذلك الرجل وقاله فى اليوم الثالث ، فطلع ذلك الرجل ، فلما قام النبي صلى الله عليه وسلم تبعه عبد الله بن عمرو بن العاص ولزمه ثلاثة أيام فى بيته فلم يجده يصلى بالليل ، فاحتقر عمل الرجل ، فسأله ما الذى بلغ بك ؟ فقال هو ما رأيت ، غير أنى لا أجد على أحد من المسلمين فى نفسي غشا ولا حسدا على خير أعطاه الله إياه ، قال عبد الله : فقلت هى التى بلغت بك وهي التى لانطيق وقال صلى الله عليه وسلم : « ثلاثة لا ينجو منهن أحد : الظن ، والطيرة ، والحسد ، وسأحدثكم بالمخرج من ذلك : إذا ظننت فلا تحقق ، وإذا تطيرت فامض ، وإذا حسدت فلا تبغ » : وقال الشاعر :

يا أحمد اقنع بالذى أوتيته ... إن كنت لاترضى لنفسك ذلها
واعلم بأن الله جل جلاله ... لم يخلق الدنيا لأجلك كلها

لاتسلط على قلبك نيران الحسد التى يثيرها أسبابها ، وتفكر فى مصائبه ورذائله ، ومايتجم عنه من العذاب الأليم فى الحياة الدنيا ، ولعذاب الآخرة أشد وأبقى .

ومن ابتلى بالحسد والعياذ بالله كيفما كانت أسبابه تقطعت به الأسباب وأذرى به الكمد ، وتنغص عيشه ألا ترى أن نعم الله مترادفة لاينقطع مددها ، ولاينفد خيرها ، ومن ذا أشقى ممن عد نعم الله شقاء عليه وجنته نارعذابه ، ودار شقائه ، فهل يمسك الله المطر خشية عليه ، أويمسك الكواكب لئلا ينقطع فؤاده :

فالشمس والقمر والنجوم والجبال والأرض والأنهار مسخرات للعباد وهناءتهم وراحتهم وسعادتهم ؛ فسبحانك اللهم أشقيت قلوبا بالرحمات ، إذ نسوا أنفسهم فتاهوا فى أودية الضلالات ، فعدوا نعم الله على الناس نقما ، وحسبوها لهم شقاء دائما ، فما أكثر نعم الله ، وما أدوم شقاءهم ، وقالت :

وفى القلب نيران وفى القلب جنة　　　وما أكثر الآلام إلا من الفكر

وكفى الحاسد عذابا أنه معذب بنعيم غيره ، معاقب على الحسد بنفس الحسد ، فلذلك كان طول الحياة له شقاء ، وموته راحة له ، فكما يتمنى الحاسد زوال نعمة المحسود يشفى غليل صدر محسوده أن تطول حياته فيطول عذابه كما قيل :

لا مات أعداؤك بل خلدوا　　　حتى يروا فيك الذى يكمد

لازلت محسوداً على نعمة　　　فإنما الكامل من يحسد

الثبات والعزيمة

الثبات المداومة على العمل ، والعزيمة من أحوال الإرادة ، والثبات حال داعية لإدامة العمل إلى النهاية . كم فى الناس من عامل ؟ وقل ألو العزم ، ولم ينل الرغائب ، ويحظ بالمطالب ، إلا من صحح العزم ، وشمر عن ساعد الجد ، وامتطى العمل :

دراك المعالى فى اقتحام المخاوف　　　ونيل الأمانى فى ارتقاء التنائف

وما نال مجداً من أدار عروسه　　　وباتت تعاطيه سلاف المراشف

وقد قلت :

إلى ذروة العلياء ياسائق الحرف　　　فإنى شممت اليوم منها شذا العرف

وما جمع امرؤ أمره ، وجد فى طلب ماروم ، إلا خضعت له الآمال ، ودانت له المعالى ، وفاز بالسعادة والكمال ، وتأمل كيف مدح الله أولى العزم فقال : « فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل » وقص عليه أنباءهم ، وكان قصارى أمرهم أنهم فازوا بالسعادة هم والتابعون ، وخسر أولئك الجاهلون .

الصبر

الصبر ثبات الباعث للخير والفضيلة فى مقابلة الباعث للشر والرذيلة ، وذلك أن الإنسان يشارك الدواب فى الشهوة والغضب ، وليس للصبى ولا للمجنون ولا للبهائم من داع يدعو لقهر الشهوات ؛ ولا من رادع يردع عن اللذات ، ألا إنما يظهر جهادهما ، ويبين التغاضى عنهما ، والتخلى من غائلتهما ، لمن عقل واستبصر وادكر وتفكر ، ورأى سبيل الرشد فاتخذه سبيلا ، وسبيل الغى فلم يتخذه سبيلا .

وبذلك يمتاز العاقل من الإنسان عن المجنون والصبى والحيوان ؛ فالحيوان أسير شهواته ، والعاقل من الإنسان عليم بما يعقب الأسر من الإذلال ، وما يجر من الوبال ، وهنالك تبتدئ داعية المجاهدة ، وتتولد فى النفس حال تدعو للمقاومة والمناضلة ؛ فهذه الحال هى المسماة بالصبر الناجمة من العلم والهداية الداعية لترك الضلال والغواية ، ألا وإن العلم بعقبة الشهوات وغائلة اللذات ، باعث لقيام حال النيات بالأنفس ، وتلك الحال تثمر الأعمال ، فالعلم شجرة ، والأحوال أغصانها ، والأعمال أثمارها .

أسماء الصبر

الصبر فى الأخلاق كالحديد فى الصناعات والملح فى الطعام ، فلا ترى طاعة ، ولاخلقا حسنا إلا والصبر مفتاحه وعماده وقوامه ، ألا ترى كيف شمل الأعمال البدنية ، والأحوال النفسية ؛ فمن احتمل المرض

والألم والجراح الصحية ، وقام بالأعمال الشريفة في عبادة يقيمها ، أو زراعة يتقنها ، أو صناعة يحسنها ، أو تجارة يديرها ، أو إدارة ينظمها ، فهو من الصابرين في النوعين : الاحتمال والأعمال .

العفة

ومن زكى نفسه بالتباعد عن مقتضى شهوتي البطن والفرج فهو العفيف حتى لا يطيع دواعي اللهو والزينة ، ولا يتدانى من المحرمات . ومن تعالت نفسه عن الخضوع لنائبات الدهر سمى صابرا ، وإلا فهو الجازع والهلوع ، برفع الصوت ، وضرب الخد ، وشق الجيب .

ضبط النفس والبطر والمرح

وإذا لم تستفزه داعيات الغنى ، فهو الضابط لنفسه ، وإلا فهو البطر المرح .

الشجاع والجبان

وإن قاوم الأقران في ساحة الحرب والميدان ، فهو الشجاع وإلا فهو الجبان ، وإن كظم غيظه ، ولزم السكينة عند اهتياج الغضب ، فهو الحليم وإلا فهو الأحمق السفيه .

كتم السر وإفشاؤه

وإذا أخفى الكلام لاقتضاء المقام فهو الكتوم للسر ، وإلا فهو المفشي للأسرار ، فإن اطمأنت نفسه فلم تجزع على فضول العيش فهو الراضي ، وإلا فهو الحريص .

القناعة والشره

ومن اكتفى بالقليل فهو القنوع ، وضده الشره ، فأنت من هذا ترى أن الصبر ما ترك بابا من الأخلاق إلا ولجه الصبر ، ولا خصلة إلا قرعها ، فهو جدير بقوله صلى الله عليه وسلم لمن سأله عن الإيمان (هو الصبر) .

ولما كانت أحوال الإنسان لا تخلو من مكروه يحتمله ، أو محبوب يشكر عليه : روى ابن مسعود أنه صلى الله عليه وسلم قال « الإيمان نصفان : نصف صبر ، ونصف شكر » ولما كان الصبور عليه إما شهوة وإما غضبا ، كان الصوم صبرا عن شهوتي البطن والفرج ، لا الغضب ، ولذا ظهر سر قوله صلى الله عليه وسلم « الصوم نصف الصبر » فيكون الصوم ربع الإيمان ، وقد يراد بالإيمان ما يشمل العلم والعمل ، ولا عمل إلا مع الصبر تركا أو فعلا ، فيكون الإيمان راجعا ليقين وعمل على مقتضاه ، فلذلك قال صلى الله عليه وسلم « من أقل ما أوتيتم اليقين وعزيمة الصبر ، ومن أعطي حظه منهما لم يبال بما فاته من قيام الليل وصيام النهار ، ولأن تصبروا على ما أنتم عليه أحب إلى من أن يأتيني كل امرئ منكم بمثل عمل جميعكم ، ولكني أخاف عليكم أن تفتح الدنيا عليكم بعدي فينكر بعضكم بعضا ، وينكركم أهل السماء عند ذلك ، فمن صبر واحتسب ظفر بثوابه. ثم قرأ قوله تعالى : (ما عندكم ينفد وما عند الله باق) » .

وروى جابر « أنه سئل صلى الله عليه وسلم عن الإيمان فقال: الصبر والسماحة » . وقال صلى الله عليه وسلم : « الصبر كنز من كنوز الجنة » . وعن عطاء عن ابن عباس قال : « لما دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم قال أمؤمنون أنتم ؟ فسكتنا فقال عمر نعم يا رسول الله ، قال : وما علامة إيمانكم ؟ قالوا نشكر على الرخاء ، ونصبر على البلاء ، ونرضى بالقضاء ، فقال صلى الله عليه وسلم مؤمنون ورب الكعبة » . وقال تعالى « والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس » أي المصيبة والفقر والحرب .

الصبر واحد ؛ وإنما اختلفت الأسماء لاختلاف المواطن كضوء الشمس يسطع على الأشجار والأزهار والثمار فاختلفت الألوان لتعدد الأشكال ؛ واحذر أن تضل في الألفاظ ، وارع المعاني ، واحذر شبهات الاصطلاحات الواردة :

الشجاعة

الشجاعة هي الإقدام على الأهوال مع الروية والتدبير . ومن أقدم بلا روية أو أحجم وقد فاجأه العدو فليس بشجاع ، وإنما هو في الأولى متهور ، وفي الثانية جبان ضعيف . الشجاعة أحد الأركان الأربعة ومنزلتها منها منزلة الجنود من الممالك ، والحصون من الأمصار ، ولكم تمدح شعراء الشرق والغرب بالشجاعة ؛ وحضوا عليها أممهم ، فالمعظم من لبس تاجها ، والوضيع من حرم فضيلتها ، وحيل بينه وبينها . الرجل الضعيف القلب الجبان مهضوم الحق مقصوص الجناح ، لايقضون له حاجة ، ولا يسمعون له قولا ، الجبان أشبه شيء بالدجاجة يؤكل لحمه وهو مهين ، والشجاع كالأسد ، يحترم ويحرم أكله ، وهو مصون ، وما من أمة فقدت شجاعتها ، واستسلمت ، ونامت على فراش الراحة الوثير إلا ضرب الله عليهم الذلة والمسكنة ، وباءوا بغضب من الله ، ذلك بأنهم قوم مستضعفون . ألم تر إلى عمرو بن كلثوم ، حين قالت هند أم عمرو ملك العرب لليلى بنت المهلهل بن ربيعة أخى كليب وائل أم عمرو بن كلثوم ياليلى ناوليني الطبق كيف تحمس ابن كلثوم وقتله وقال في معلقته :

أبا هند فلا تعجل علينا ... وأنظرنا نخبرك اليقينا

بأنا نورد الرايات بيضا ... ونصدرهن حمرا قد روينا

بأى مشيئة عمرو بن هند ... نكون لقيلكم فيها قطينا

ومنها :

لنا الدنيا ومن أمسى عليها ... ونبطش حين نبطش قادرينا

بغاة ظالمين وما ظلمنا ... ولكنا سنبدأ ظالمينا

أفرط وغلاهنا في القوة الغضبية ، وتجاوز الحد كزهير وعنترة فيما سيأتي وهذا مذموم كالجبن : الجبن مذموم ، والتهور مذموم ، والشجاعة الوسط . وقال زهير :

ومن لايذد عن حوضه بسلاحه ... يهدم ومن لا يظلم الناس يظلم

ثم انظر كيف قتل جساس البكرى كليبا التغلبي بناقة سعد جارهم ، وكيف طلب التغلبيون من البكريين قتل جساس قاتل سيدهم ، فأخذت مرة أبا جساس العزة بالاثم وأبى تسليم القاتل فكانت الحروب الشعواء والداهية الدهياء ، وتفانى الحيان بكر وتغلب .

هذه صفة شجاعة العرب الجاهلية الأولى إذ كانوا يحمون الذمار ، ويدفعون العار ، ويوقدون النار ، ويحفظون الجار ، تلك فضيلة وأى فضيلة ، ذلك شرف وأى شرف ، فخر وأى فخر ، ولكنه مصحوب بالجهل تابع لنزغات الشيطان ، ناصر للزور والبهتان ، فكانت الحاجة داعية إلى مايقوم معوجها ، ويصلح فاسدها ، ولو تبصرت أحوال بلادنا اليوم لرأيت الحمية فيها جاهلية ، والنصر تابعا للعصبية ، لا للعدل في القضية ، فترى الناس سكارى في تشاجرهم وماهم بسكارى ولكن الجهل عظيم :

فنحن أحوج إلى عقل يقومنا ، وتمسك بالدين يرجعنا إلى الحق والصواب ، ألا تتعجب كيف جاء القرآن فوجه شجاعة العرب إلى الوجهة العامة والفضيلة الشريفة ، فقال تعالى : « ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين » . وقال : « ياأيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم » ولقد مدح الاعتدال في القوة إذ قال : «أشداء على الكفار رحماء بينهم » ونفر من الظلم فقال : « فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا » .

بذلك ذهبت تلك الحمية ، حمية الجاهلية الأولى ، الحمية المكانية الوقتية ، واستبدلت بأحسن منها وهى

الشجاعة التي بها دوخوا المعمورة شرقا وغربا . وقد ذم الله رذيلة الجبن فقال : «وقالوا لاتنفروا في الحر قل نار جهنم أشد حرا لو كانوا يفقهون فليضحكوا قليلا وليبكوا كثيرا » . ما أشأم أيام الأمة الخائرة العزيمة الضعيفة القوى ، الميتة الصبر تضاحكها الأيام قليلا ، وهم على أرائك الراحة متكئون ، وتبسم لها ثغور الزهر على أشجار الحنظل في ساحة العيش الهنى ، حتى إذا وقعت الواقعة ، وقرعت القارعة ، وحكمت القنا والقضب في أعناق الرجال ، عبست الأيام بعد ابتسامها ، وذاقوا مر الحنظل فقطع أمعاءهم بعد أن راقهم منظره الزاهر ، وأظلهم ورقه الناضر . فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون ، فقطع دابر القوم الذين رضوا بالظلم واستناموا للخسف فأصبحوا في ديارهم صاغرين :

ليست الشجاعة قاصرة على القتال والذب عن البلاد بالحرب . كلا . فليس يتم للناس عمل إلا بقوة القلب وتحمل المكروه في قول الحق ، ومامن عالم إلا ابتلى بمن يشنؤه .

لن ينقض بنيان البدعة فتقام على أنقاضه قصور السنة إلا بقول الحق ولو كره الحاسدون ، ولن تموت الرذيلة ، وتحيا الفضيلة ، إلا إذا قاوم المصلحون تلك العقول الجامدة ، وهزموا صفوف تلك النفوس الخامدة . ولعمرك إن الشجاعة في مقال الحق لأعلى منارا ، وأرفع شأنا ، وأشرف منالا من اقتحام الهيجاء ، والحرب قائمة ، والرماح مشرعة ، والسيوف مصلتة ، ألا إن العالم بقوله يصلح الألوف والألوف ، ولذلك كان الصديقون أعلى من الشهداء مقاما ، وأقرب إلى الأنبياء مجلسا .

ألا أحدثكم أيها الأذكياء بحديث السلف الصالح رضى الله عنهم ورضوا عنه ، إذ كانوا يصدعون بالحق وبه يعدلون كأبي بكر الصديق وطاووس اليماني وسفيان الثوري وعطاء بن أبي رباح وأبي حازم وعمر بن عبد العزيز وغيرهم ، وأولئك الذين هدى الله فقالوا الحق وصدقوا في القال ولم يخافوا لومة لائم ولم يخشوا إلا الله .

روى عن ضبة بن محصن العنزى قال : كان علينا أبو موسى الأشعرى أميراً بالبصرة ، فكان إذا خطبنا حمد الله وأثنى عليه وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم ، وأنشأ يدعو لعمر رضى الله عنه ، قال فغاظني ذلك منه ، فقمت إليه فقلت له : أين أنت من صاحبه تفضله عليه ؟ فصنع ذلك جمعا ، ثم كتب إلى عمر يشكوني يقول : إن ضبة بن محصن العنزى يتعرض لي في خطبتي ، فكتب إليه عمر أن أشخصه إلى قال فأشخصني إليه ، فقدمت إليه ، فضربت عليه الباب ، فخرج إلى فقال من أنت ؟ فقلت أنا ضبة ، فقال لي : لا مرحبا ولا أهلا ، قلت : أما المرحب فمن الله ، وأما الأهل فلا أهل لي ولا مال ، فبما استحللت يا عمر إشخاصي من مصرى بلا ذنب أذنبته ، ولا شيء أتيته ؟ فقال ما الذي شجر بينك وبين عاملي ، قال قلت الآن أخبرك به ، إنه كان إذا خطبنا حمد الله وأثنى عليه وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم ثم أنشأ يدعو لك ، فغاظني ذلك منه ، فقمت إليه وقلت له : أين أنت من صاحبه تفضله عليه فصنع ذلك جمعا ، ثم كتب إليك يشكوني ، قال : فاندفع عمر رضى الله عنه باكيا وهو يقول : أنت والله أوفق منه وأرشد ، فهل أنت غافر لي ذنبي يغفر الله لك . قال : قلت غفر الله لك يا أمير المؤمنين ، قال : ثم اندفع باكياً وهو يقول : والله لليلة من أبي بكر ويوم خير من عمر وآل عمر ، فهل لك أن أحدثك بليلته ويومه ؟ قلت نعم . قال : أما الليلة فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما أراد الخروج من مكة هارباً من المشركين خرج ليلا فتبعه أبو بكر وجعل يمشى مرة أمامه ومرة خلفه ، ومرة عن يمينه ، ومرة عن يساره ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما هذا يا أبا بكر ما أعرف هذا من أفعالك ! فقال يارسول الله أذكر الرصد فأكون أمامك ، وأذكر الطلب فأكون خلفك ، ومرة عن يمينك ، ومرة عن يسارك ، لا آمن عليك ، قال فمشى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة على أطراف أصابعه حتى حفيت ؟ فلما

رأى أبو بكر أنها قد حفيت حمله على عاتقه ، وجعل يشتد به حتى أتى فم الغار فأنزله ثم قال : والذى بعثك بالحق لاتدخله حتى أدخله فإن كان فيه شىء نزل بى قبلك ، قال فدخله فلم ير فيه شيئا فحمله وأدخله ، وكان فى الغار خرق فيه حيات وأفاع ، فألقمه أبو بكر قدمه مخافة أن يخرج منه شىء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فيؤذيه ، وجعلن يضربن أبا بكر فى قدمه ، وجعلت دموعه تنحدر على خديه من ألم ما يجد ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول له : يا أبا بكر لاتحزن إن الله معنا فأنزل الله السكينة عليه والطمأنينة لأبى بكر ، فهذه ليلته .

وأما يومه فلما توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم ارتدت العرب ، فقال بعضهم : نصلى ولا نزكى ، فأتيته لا آلو نصحا فقلت ياخليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم تألف الناس وارفق بهم ، فقال لى : أجبار فى الجاهلية خوار فى الإسلام فبماذا أتألفهم ؟ قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم فارتفع الوحى ، فوالله لو منعونى عقالا كانوا يعطونه رسول الله صلى الله عليه وسلم لقاتلتهم عليه ، قال فقاتلنا عليه فكان والله رشيد الأمر ، فهذا يومه . ثم كتب إلى أبى موسى يلومه .

أما طاووس اليمانى فإنه كان من التابعين : وكان من حديثه مع هشام بن عبد الملك ، إذ أتى المدينة أن قال له هشام عظنى ، فقال : سمعت من أمير المؤمنين على رضى الله عنه يقول : إن فى جهنم حيات كالقلال ، وعقارب كالبغال ، تلدغ كل أمير لا يعدل فى رعيته .

وأما سفيان الثورى : فقد كان من حديثه أنه لما دخل على أبى جعفر المنصور ، قال له أبو جعفر : ارفع إلينا حاجتك ، فقال : إنما نزلت هذه المنزلة بسيوف المهاجرين والأنصار وأبناؤهم يموتون جوعا ، فاتق الله وأوصل إليهم حقوقهم ، فطأطأ المنصور رأسه :

وأما عطاء بن أبى رباح : فإنه لما دخل على عبد الملك بن مروان وهو جالس على سريره وأجلسه معه عليه قال ماحاجتك ؟ فقال يا أمير المؤمنين اتق الله فى حرم الله وحرم رسوله فتعهده بالعمارة ، واتق الله فى أولاد المهاجرين والأنصار ، فإنك بهم جلست هذا المجلس ، واتق الله فى أهل الثغور فإنهم حصن المسلمين ، وتفقد أمور المسلمين فإنك وحدك المسئول عنهم .

وأما أبو حازم : فانه لما سأله سليمان بن عبد الملك بقوله : أى الكلام أسمع ؟ أجابه : قول الحق عند من تخاف وترجو ، قال فأى المؤمنين أخسر ؟ قال : رجل خطا فى هوى أخيه وهو ظالم فباع آخرته بدنياه .

وأما عمر بن عبد العزيز فانه كان يوما مع سليمان بن عبد الملك فسمع سليمان صوت الرعد فجزع ووضع صدره فى مقدمة الرحل ، قال عمر : هذا صوت رحمته فكيف إذا سمعت صوت عذابه ؟ .

قيل إن عبد الملك بن مروان خطب يوما بالكوفة فقام إليه رجل من آل سمعان فقال مهلا يا أمير المؤمنين اقض لصاحبى هذا بحقه ثم اخطب ، فقال وماذاك ؟ فقال إن الناس قالوا والله ما يخلص ظلامتك من عبد الملك إلا فلان فجئت به إليك لأنظر عدلك الذى كنت تعدنا به قبل أن تتولى هذه المظالم ، فطال بينه وبينه الكلام ، فقال له الرجل يا أمير المؤمنين : إنكم تأمرون ولا تأتمرون ، وتنهون ولا تنتهون ، وتعظون ولا تتعظون ، أفنقتدى بسيرتكم فى أنفسكم أم نطيع أمركم بألسنتكم ؟ فإن قلتم أطيعوا أمرنا واقبلوا نصحنا فكيف ينصح غيره من غش نفسه ؟ وإن قلتم خذوا الحكمة حيث وجدتموها ، واقبلوا العظة ممن سمعتموها ، فعلام قلدناكم أزمة أمورنا وحكمناكم فى دمائنا وأموالنا ، أو ماتعلمون أن منا من هو أعرف منكم بصنوف اللغات ، وأبلغ فى العظات ، فإن كانت الأمانة قد عجزت عن إقامة العدل فيها فخلوا سبيلها وأطلقوا عقالها يبتدرها أهلها الذين قاتلتموهم

فى البلاد وشتتم شملهم بكل واد . أما والله لئن بقيت فى بديكم إلى بلوغ الغاية واستيفاء المدة لتضمحلن حقوق الله وحقوق العباد ، فقال له : كيف ذلك؟ فقال لأن من كلمكم فى حقه زجر ، ومن سكت عن حقه قهر ، فلا قوله مسموع ، ولا ظلمه مرفوع ، ولا من جار عليه مردوع ، وبينك وبين رعيتك مقام تذوب فيه الجبال حيث ملكك هناك خامل ، وعزك زائل ، وناصرك خاذل ، والحاكم عليك عادل ، فأكب عبد الملك على وجهه يبكى ، ثم قال له فما حاجتك؟ فقال عاملك بالسماوة ظلمنى ، وليله لهو ، ونهاره لغو ، ونظره زهو ، فكتب إليه بإعطائه ظلامته ثم عزله .

قال الجاحظ فى كتاب (البيان والتبيين) حدثنا يزيد بن هارون ، قال : أخبرنا هشام بن حسان عن الحسن أن زيادا بعث الحكم بن عمرو على خراسان فأصاب مغنما ، فكتب إليه زياد : «إن أمير المؤمنين معاوية كتب إلي يأمرنى أن أصطفى له كل صفراء وبيضاء ، فإذا أتاك كتابى هذا فانظر ما كان من ذهب وفضة فلا تقسمه واقسم ماسوى ذلك» .

فكتب إليه الحكم : «إنى وجدت كتاب الله قبل كتاب أمير المؤمنين ، ووالله لو أن السموات والأرض كانتا رتقا على عبد فاتقى الله لجعل الله له منهما مخرجا والسلام» ثم أمر المنادى فنادى فى الناس أن اغدوا على غنائمكم فقسمها بينهم .

وإنا نحمد من ضبة ومن بعده صدقهم ، ولكن لانشاد الناس مشادتهم . قل الحق وتلطف ، لاتكن فظا فلكل مقام مقال ، وللكلام مواطن . ولقد جرب الناس قديما القول فرأوا أنجعه فى العقول ألطفه ، وأنفعه فى النفوس أجمله . قال تعالى لموسى وهارون عليهما السلام : «فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى» وقال الله تعالى على لسان نبيه عليه الصلاة والسلام : «وإنا أو إياكم لعلى هدى أو فى ضلال مبين» .

فإياك أن تقلد كل ماتسمع ، بل اعرض كل شىء على كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم وتذكر قول الله تعالى : «ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم فى الأمر» . وإذا قرأت فى تاريخ اليونان أن سولون الحكيم قابل أكرسيوس فى مملكة ليديا وهو فى أبهته وسلطانه وعظمته متجملا بأفخر الثياب ، متحليا هو وأعوانه وأرباب دولته بأنواع الحلى الملكية ، والجواهر الغالية الثمينة ، فقال أكرسيوس لسولون : هل رأيت أحدا يلبس ملابسى؟ فقال : نعم الديوك الأهلية والبرية والطاووس ، فغضب ثم قال : هل رأيت أحدا أسعد منى؟ فقال الملك طيلوس من أهل مدينة أثينا ، مات سعيدا قرير العين بنصرة وطنه ، ولقد حزن عليه سائر البلاد ، فهذا أسعد منك ، ويليه أخوان اسم أحدهما (كليوبيس) واسم الآخر (بيطون) ، كانا فاضلين صالحين ، أكرما أمهما الصالحة ، حتى إنهما جراعربتها إلى المعبد ، فدعت لهما ، وأثنى الناس عليهما فماتا صالحين ، مرضيا عليهما من الله والناس ، وعند ذلك غضب أكرسيوس وظن أن سولون مجنون ، ثم عرف له فضله بعد حين إذ وضع على النار ليحرق فصرخ بقوله (سولون) فز خرج عن النار ، وسأله الملك عدوه فأخبره بما جرى له مع سولون فانخلع قلبه وأطلقه .

وإذا سمعت عن ذلك الحكيم الهندى (بيدبا) مؤلف كتاب (كليلة ودمنة) وقد دخل على ملك الهند وأغلظ له فى القول ، وقال : لقد ظلمت الرعية ، وأضعت ملك آبائك ، وخربت البلاد ، وأضعت العباد ، فحبسه ثم أطلقه ، وولاه الملك بعد حين ، فاعلم أن هؤلاء قالوا الحق ، ووطنوا أنفسهم على المكاره ، فخذ من النار ضوءها ، واعتدل فى قولك ، وتابعهم فى قول الحق ، وإصلاح شأن الامة ، واعدل عن الشتم ، فذلك خير وأحسن تأويلا ، واقرأ قوله تعالى : «وقل لعبادى يقولوا التى هى أحسن إن الشيطان ينزغ بينهم إن الشيطان كان للإنسان عدوا مبينا» ، وقوله : «وقولوا للناس حسنا» وقوله : «ولا تستوى الحسنة

ولا

ولا السيئة ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم ، وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم» وقوله تعالى : «وليتلطف» .

واعلم أن الأطباء إنما يضعون الدواء المر في غلاف ليسهل تعاطيه ، فلتكن أطباء صالحين . وإذا رأيت نفسك خائرة القوة ، هيابة ، تفر من الظلام ، وتفزع من الأحلام ، فسلط على الجبن ضده ، وأيقظ النفس من خمولها وخمودها ، وحركها إلى الأنفة والشمم والإباء ، وعدم تحمل الضيم ، وافعل ماحكاه ابن مسكويه عن بعض المتفلسفين أنه كان يتعمد مواطن الخوف فيقف فيها ويحمل نفسه على المخاطرات العظيمة بالتعرض لها ، وركب البحر عند اضطرابه وهياجه ليعود نفسه الثبات في المخاوف ويهيج منها القوة التي تسكن عند الحاجة إلى حركتها ، ويخرجها عن رذيلة الكسل ولو احقه .

ولقد كنت وأنا بالجامع الأزهر الشريف أقرأ هذا الكتاب ، فأخذت أعلم نفسي علم الشجاعة كما في ابن مسكويه ، وما أحسن مدارس التعليم ! فليكن لفضيلة الشجاعة التعليم العسكري ، وبعض الأمم المتحضرة تعلم أبناءها عموما النظام العسكري كما في سويسرا، ألا فلتفعل مصر ذلك كما أوضحنا في كتابنا (نهضة الأمة وحياتها) الذي قصدت به نظام الأمة علما وسياسية وعملا .

فلعمرك إن الجبن سجن المترفين ، قيدهم بأغلال وصفدهم في الأداهم ، ولعلكم قرأتم كتاب (السبق والرمي) في علم الفقه والناس غافلون لايعلمون لم وضع هذا الباب ، وما أغفل المسلمين اليوم عن هذه الفضيلة فإذا لم توقظ الحكومات الناس فليقم الأفراد بتربية أبنائهم ليدلوهم على فطرهم الإنسانية ، فذلك أبقى للأمم وأحسن وأشجع للأفراد ، فإذا ماتت الشجاعة حل محلها الجبن ، واستولى الترف ، وحاق بالناس الهلاك : «وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا» .

أسئلة

(١) اذكر شجاعة العرب الجاهلية .

(٢) قارن مابين حال المصريين اليوم وحال العرب الجاهلية في الشجاعة .

(٣) ماذا ترى في الشجاعة الوقتية المكانية أهي نافعة للأمم ؟

(٤) وماذا يجب على مربي الأمة المصرية في شجاعتهم ؟

(٥) قارن حال انتقال الأمة العربية من حمية الجاهلية بحال تربيتنا المصرية الآن .

(٦) ماقصة ضبة مع عمر بن الخطاب ، وما ترى في شجاعته الأدبية ؟

(٧) أعط فكرة عامة على الشجاعة الأدبية في صدر الإسلام .

(٨) قارن ذلك بحالنا اليوم .

(٩) مادواء الجبن ؟

(١٠) هل تستنتج من الأبواب السابقة في الكتاب أسباب الشجاعة وعلاجا آخر للجبن ؟

(١١) إذا قسا المعلم على التلاميذ فماذا تكون شجاعتهم ؟

(١٢) إذا قهرت الحكومة الأمة وقست عليها فماذا تكون حال الأمة ؟

(١٣) ماذا يجب على المعلمين وعلى الحكام حتى لايميتوا الشجاعة .

الكرم والبخل

من أدى من ماله واجب الشرع ، وواجب المروءة اللائقة به فهو الكريم ، ومن قصر فيما وجب عليه

فهو البخيل ، فمن شاح فى المحقرات وضايق فى الصغائر والهنات مع الخدم ، أو أطال فى مشاحنة عياله وأهله أو قريبه على نفقة وسم بالبخيل ، ولا قيد يحصر أقسام البخل وأوصاف البخلاء إلا العادة والعرف ، فلقد ينفق الرجل كثيرا ويشح بالقليل فيحسب بخيلا فإنه قصر حيث ينبغى الإيفاء ، ومنع حيث يجدر الإعطاء لا كرم إلا حيث يكون البذل محبوبا ، والعطاء مرغوبا ، وإلا فتكرم وتكلف . سبب البخل غلبة الشهوات وطول الأمل ، ورحمة الولد ، وخوف الفقر ، وقلة الثقة بمجىء الرزق وعشق المال لذاته .

من غلبت عليه شهواته فليعلم أنها نار تلظى مهما أمدها بالوقود احتدم وطيسها ، وغات مراجلها ، وارتفع لهيبها ، وقالت هل من مزيد ، ومن طال أمله فليتذكر الإخوان والأقران الذين طمعوا كما طمع ، وجمعوا كما جمع ، ثم اختطفهم المنون ، وهم عن التذكرة معرضون ، ومن جمع المال للولد فليعلم أنه إن يكن من المؤد بين المتعلمين فقد عاش كما يحيا المجتهدون ، ولله فى خلقه شئون ، وإن كان ممن ارتطموا فى أوحال الشهوات ، وباعوا أنفسهم للموبقات ، وعكفوا على اللذات ، فالمال طامة كبرى ، وآفة عظمى ومجلبة لشقائه ، وزيادة فى بلائه .

ومن خاف الفقر وقلت ثقته بالله عزوجل فليكشف الغطاء عن عينه ، وليتفكر فى الحشرات والطيور والبهائم «وكأين من دابة لا تحمل رزقها الله يرزقها وإياكم وهو السميع العليم» . ومن أصبح عاشقا للمال مغرما بجمعه كان كالشيخ الهرم الذى جمع مالا وعدده ، يحسب أن ماله أخلده ، تحت أطباق الثرى حتى لا يرى ، فلقد علم أنه لا ينفعه فى حياته ، ولا ينتفع به بعد مماته ، ومن ابتلى بهذا الداء فقلما يرجى علاجه . وقد قلت :

وماهذه الدنيا سوى البرق لامعا فهذا به يلهو وذا رائد القطر
وماهذه الدنيا سوى الروض يانعا وأثمارها حسن الأحاديث والذكر

فمن كرمت نفسه ، وأنفق ماله ، انطلقت الألسنة بمدحه ، وتناقلت الركبان ثناءه ، وجنى ثمرات عمله كرتين فى الدنيا والآخرة « كمثل جنة بربوة أصابها وابل فآتت أكلها ضعفين » فمن أنفق فلنفسه يرجع الثناء وله يكون الهناء ، ومن قتر فهو المحروم ، المبعد عن الله والناس « هاأنتم هؤلاء تدعون لتنفقوا فى سبيل الله فمنكم من يبخل ومن يبخل فإنما يبخل عن نفسه » وتذكر ماخاطب به حاتم ماوية بنت عفزر :

أماوى إن المال غاد ورائح ويبقى من المال الأحاديث والذكر
أماوى إنى لا أقول لسائل إذا جاء يوما حل فى مالي النكر
أماوى إما مانع فمبين وإما عطاء لا ينهنهه الزجر
أماوى مايغنى الثراء عن الفتى إذا حشرجت يوما وضاق بها الصدر
أماوى إن يصبح صداى بقفرة من الأرض لا ماء لدى ولا خمر
ترى أن ماأنفقت لم يك ضرنى وأن يدى مما بخلت به صفر
لقد علم الأقوام لو أن حاتما أراد ثراء المال كان له وفر

النفوس الكريمة تريد أن تكون شموسا مشرقة وآنية فياضة ، فيجودون بالموجود من صدقة ، ويألمون لقلة ذات اليد حرصا على الكرم . قال الإمام الشافعى :

يالهف قلبى على مال أفرقه على المقلين من أهل المروءات
إن اعتذارى إلى من جاء يسألنى ماليس عندى لمن إحدى المصيبات

ومما يسر عند السمر ، ويحلو فى البدو والحضر ، ماروى أن أبا تمام دخل على إبراهيم بن شكلة وامتدحه

بأبيات

بأبيات وكان عليلا فتقبلها وأمر حاجبه أن يبوئه مبوأ صدق، ويعدله نزلا ومرحبا سهلا حتى يبل من مرضه فأوحشه طول المقام ، فكتب إليه يقول :

إن حراما قبول مدحتنا وترك مانرتجى من الصفد (١)
كما الدنانير والدراهم فى الـ ـبيع حرام إلا يدا بيد

فلما وصل البيتان إلى إبراهيم قال لحاجبه : كم أقام بالباب قال شهرين ، قال أعطه ثلاثين ألفا وجئنى بدواة ، فكتب إليه يقول :

أعجلتنا فأتاك عاجل برنا قلا ولو أمهلتنا لم نقلل
فخذ القليل وكن كأنك لم تقل ونكون نحن كأننا لم نفعل

أذلك خير أمن صار مثلا فى الآخرين ، ونكالا فى الغابرين ، كمثل أعرابى أقبل يطلب رجلا وبين يديه تين فغطى التين بكسائه ، فجلس الأعرابى ، فقال له الرجل : هل تحسن شيئا من القرآن قال نعم ، فقرأ « والزيتون وطور سينين » . فقال : وأين التين قال هو تحت كسائك ؛ انتهى ماأردته من كتابى (جوهر التقوى) وبهذا تم الكلام على اللطيفة الرابعة فى قوله تعالى : « مايلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد » والحمد لله رب العالمين .

اللطيفة الخامسة

فى قوله تعالى : « يوم نقول لجهنم هل امتلأت وتقول هل من مزيد؟ »

اللهم إنى أحمدك على نعمة العلم التى لانعمة تفضلها ، وأشكرك على جزيل مواهبك ، وجميل آلائك ، فلقد فتحت باب العلم فتحا مبينا ، وشرحت صدرى لهذا التفسير ، وأصبح مافى كتابك من المعانى الغائبة عن الناس أشبه بالملموس باليد . المنظور بالعين ، المسموع بالأذن ، فأنت يارب العلم والملهم ، وأنت رب العالمين : من ذا الذى كان يختلج فى صدره أن معانى هذه الآية التى ذكرت فى أحوال الآخرة أصبحت كالشاهد المحسوس الذى تدل أوائله المشاهدة على أواخره الغائبة ، إن هذه الآية قد ضمت فى فحواها جميع مايناب الناس فى الحياة الدنيا من الإذلال والآلام وهم لايشعرون :

(١) إن أول ماأيقظنى لمعناها مااتفق لى وأنا شاب ، وقد جلست مع الفلاحين فى قريتنا ، وسمعتهم يذكرون رجلا انتابه مرض خاص لا أتذكره ، وكلما وضعوا البطيخ فى فمه فأكله اعترته حال شديدة فعطش فأعطوه غيره ، فخطرت لى هذه الآية حالا ، وقلت فى نفسى : هذه جهنم قد ظهرت فى معدات الإنسان ، وفى حرصه وطمعه ، وجميع أحواله ، وهذا الذى سمعته الليلة ماهو إلا إعلام من الله لى بتفسير هذه الآية إن إلحاح الشهوات والعطش المستمر على هذا المريض هو عينه مايحس به الفقراء والأغنياء والعلماء والجهلاء والملوك والسوقة من الرغبات التى لاحد لها فى جميع أطوار الحياة ، إذن هذه الدنيا مبادئ جهنمية غاية الأمر أنها خفية لم يتفطن لها الناس .

(٢) ولما دخلت مدرسة (دار العلوم) وكنت مرة فى زمن العطلة الصيفية ، وقد توجهت إلى القاهرة فزرت حديقة الحيوانات بالجيزة يوما ثم رجعت قابلنى وأنا راجع عند الكوبرى رجل جمعتنى وإياه المصادفات فى المدة التى فتح فيها الكوبرى لمرور المراكب فقص على قصصا ، قال : أنا كنت متعلما فى مدرسة الألسن التى أنشأها محمد على باشا . ثم صرت موظفا ، وهناك أحوال خاصة ألزمتنى المنزل فأصبحت لاعمل لى

---

(١) العطاء .

فلازمت بنت الحان ، وصرت مدمنا ، ولى أصدقاء مدمنون مثلى ، ولكنى وقتا فوقتاً أتذكر ما كنت أسمعه من الأساتذة : «إن شاربى الخمر يصابون بأمراض تفتك بهم» وهاهنا تقوم حرب شعواء بين هذه الشهوة التى ملكت قيادي وبين العلم الذى لا أشك فى صدقه القاطع بضرر الخمر ، وهاهنا العذاب الواصب الذى ماله من دافع ، فأنا دائما بين نارين : نار الخوف الدائم من حلول الأوصاب والأمراض ، ونار الشهوة المحرقة المطلعة على فؤادي ، وطالما ذهبت إلى سيدنا الحسين ، وصليت فى مسجده ، وطلبت من الله أن يرحمنى من هذا المصاب ، فأتوب يومين ، فيرجع لى إخوان السوء ، فيلحون على ، فأرجع كرة أخرى ، ولكن هذه المرة قد تركت تعاطى الخمر (١٤) يوما ، فأنا فرح بهذه النعمة ، وعسى الله أن يتوب على إنه هو التواب الرحيم ، وهنالك أقفل الكوبرى فمررنا عليه وسلم على وانصرف اه .

ولا جرم أن هذه حال هذا الإنسان كله فيما يحيط به ، غاية الأمر أن السكارى هم أوضح مثال لما علق بالناس من العادات ، وأحوالهم صورة ظاهرة واضحة لآيات كثيرة فى وصف أهل جهنم كقوله تعالى : «يريدون أن يخرجوا من النار وماهم بخارجين منها ولهم عذاب مقيم» وقوله : «ويأتيه الموت من كل مكان وما هو بميت» الآية ، وقوله : «كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم أعيدوا فيها وذوقوا عذاب الحريق» وقوله : «فإن له جهنم لايموت فيها ولا يحيى» ، وقوله : «وقالوا ياليتنا نرد ولانكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين . بل بدالهم ما كانوا يخفون من قبل ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون» وقوله : «كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها ليذوقوا العذاب» :

ومن أعجب العجب أن يذكر فى الأهرام حديث يشبه الحديث المتقدم يوم السبت ٩ أغسطس سنة ١٩٣٠ وبين هذا الحديث والحديث الذى سقته لك الآن ٤٠ سنة ، والحديثان متشابهان غاية الأمر أن الحديث فى هذه السنة (١٣٥٠ هجرية) وهى سنة طبع هذه الأجزاء يدل دلالة واضحة على تقدم الفحشاء والمنكر فى بلادنا المصرية تقدما محسوسا ، فإن الفتى الذى قابلنى عند الكوبرى كان يبكى ويحزن لأجل الإدمان على شرب الخمر ، وأقوى عامل أورث شيوع الخمر فى بلادنا إضلال الاستعماريين من أهل أوروبا لشباننا ، وبهم استأصل داء الجهالة والغواية ، والفقر والدين واستحكم وأفسد الطباع ، ونجح الأوروبيون نجاحا عظيما فى إفساد أبنائنا بسبب الامتيازات الأجنبية ، وأهل الرأى فى البلاد عاجزون عن تربية هذا الشعب ، وأكثر العقول منصرفة عن حقائق العلوم ، عاكفة على ظواهرها وعلى حفظ اللغات ، وذلك كله بفتنة الاستعمار التى لم تجد لها مرتعا خصيبا إلا فى بلادنا : و «لله الأمر من قبل ومن بعد» .

واعلم أن هذا الشاب الذى قابلنى عند الكوبرى هو وأمثاله مثل ساقه الله لتفسير هذه الآية ، وهذا المثل ليس خاصا بهذا الفتى ، بل الناس كلهم تحكمهم عادات وأخلاق لايجدون عنها محيصا كما قدمت ذلك من قبل ، فها نحن أولاء نشاهد أنفسنا قد اعتدنا على ملابس ومآكل ومشارب وأحوالا اجتماعية لانجد منها مخرجا ونقول نفس مايقوله هذا الفتى سواء بسواء ، نحن نأكل الأطعمة الضارة بالصحة ثم ندم هذه العادة التى ملكتنا ، وها نحن أولاء نسمع بحديث الفتيامين المتقدم المذكور فى (سورة ص) عند قوله : «فبعزتك لأغوينهم أجمعين» فنريد أن نحافظ على صحة أجسامنا ، وجمال عقولنا ، فنأكل الفواكه والخضر والحبوب ونحو ذلك فنجد العادات التى ورثناها لنا بالمرصاد ، ونسمع علماء الطب يقولون لنا : «إن مقابلة الأجسام للشمس والهواء أو أكثرها تورث صحة وعافية ، وإن كثرة الملابس تحجب الأجسام عن الشمس والهواء وهما النعمة العظمى للصحة» فنجد العادات تقول لنا : لتبقوا محجوبين عن الشمس ، ولتكونوا اضعافا خوفا من الفضيحة والعار ، ونرى المحرم بالحج قد لبس الملابس الخفيفة تعبدا ؛ فنقول : هذا ديننا قد فتح لنا

باب

باب الصحة ، فما لنا لا نلبس كما يلبس العرب فى البادية والمحرم بالحج ، فنقف عاداتنا سدا حصينا بيننا وبين الصحة والعافية ، ونرى الأمم الأوروبية قد أخذت علوم آبائنا وانتفعت بها والقرآن يحض عليها ، والطيارات أحاطت بنا ، من كل جانب ونحن أبناء العرب ممزقون متفرقون ، فالمصريون أمة ، وأهل تونس أمة ، وأهل الجزائر أمة ، وأهل مراكش أمة ، وفى سورية أمم بفعل أهل أوروبا تفريقا لنا ، وفى العراق أمة وفى نجد ، وفى الحجاز أمة ، وفى اليمن أمة ، وكل هؤلاء متباعدون متفرقون ، ومتى أراد عقلاؤهم الخروج من هذا التفرق قابلتهم عاداتهم وأهواؤهم ، وما ورثوه من آبائهم فى القرون المتأخرة ، فاستمر التفريق ودخول الدخلاء بينهم مما لم تتصف به أمة غيرهم فى زماننا من الفرس والألمان والإنجليز والأسبان وغيرهم ، ولكن هذا التفسير وأمثاله سيكون من أسباب التغلب على العادات الموروثة إن شاء الله تعالى ، وستزول الآلام الشخصية والاجتماعية «فالله خير حافظا وهو أرحم الراحمين» والحمد لله رب العالمين .

جوهرة فى إعجاز القرآن من حيث بلاغته

حديث عجيب فى بلاغة آية : «يوم نقول لجهنم هل امتلأت وتقول هل من مزيد»

فى يوم ١٣ يونيو سنة ١٩٣٢ قابلنى الأديب المصرى الأستاذ كامل كيلانى فحدثنى حديثا عجيبا كان أشار إليه قبيل ذلك بمدة قبيل تقديم هذه السورة إلى الطبع ، وهذا الحديث راجع إلى البلاغة التى ظهرت فى آية : «يوم نقول لجهنم هل امتلأت وتقول هل من مزيد» فهاك حديثه :

قال : كنت مع الأستاذ (فنكل) وهو من أفاضل المستشرقين الأمريكيين ، وكانت بينى وبينه صلات أدبية وثيقة : وكان يأخذ برأيى فى ذكر المشاكل التى تقابله فى الأدب لما يعتقده فى من الصراحة ، ففى ذات يوم همس فى أذنى متهيبا ، فقال : خبرنى عن رأيك بصراحتك المعروفة أممن يعتقدون إعجاز القرآن أنت أم لعلك تجارى جمهور المسلمين الذين يتلقون ذلك كابرا عن كابر ، وابتسم ابتسامة كل معانيها لا تخفى على أحد وهو يحسب أنه قد ألقى سهما لا سبيل إلى دفعه ، فابتسمت له كما ابتسم لى وقلت : لكى نحكم على بلاغة أسلوب بعينه يجب أن نحاول أن نكتب مثله أو نقلده فلنحاول ليظهر لنا أنحن قادرون أم عاجزون عن محاكاته وتقليده ، فلنجرب أن نعبر عن سعة جهنم فماذا نحن قائلون فأمسك بالقلم وأمسكت به ، فكتبنا نحو عشرين جملة متخيرة الأسلوب نعبر بها عن هذا المعنى أذكر منها :

(١) إن جهنم واسعة جدا .
(٢) إن جهنم لأوسع مما تظنون .
(٣) إن سعة جهنم لا يتصورها عقل إنسان .
(٤) إن جهنم لتسع الدنيا كلها .
(٥) إن الجن والإنس إذا دخلوا جهنم لتسعهم ولا تضيق بهم .
(٦) كل وصف فى سعة جهنم لا يصل إلى تقريب شىء من حقيقتها .
(٧) إن سعة جهنم لتصغر أمامها سعة السموات والأرض .
(٨) كل ما خطر ببالك فى سعة جهنم فإنها لأرحب منه وأوسع .
(٩) سترون من سعة جهنم ما لم تكونوا لتحلموا به أو تتصوروه .
(١٠) مهما حاولت أن تتخيل سعة جهنم فأنت مقصر ولن تصل إلى شىء من حقيقتها .
(١١) إن البلاغة المعجزة لتقصر وتعجز أشد العجز عن وصف سعة جهنم .

(١٢) إن سعة جهنم قد تخطت أحلام الحالمين وتصور المتصورين .
(١٣) متى أمسكت بالقلم وتصديت لوصف سعة جهنم أحسست بقصورك وعجزك .
(١٤) إن سعة جهنم لا يصفها وصف ، ولا يتخيلها وهم ، ولا تدور بحسبان .
(١٥) كل وصف لسعة جهنم إنما هو فضول وهذيان .

إلى آخر هذه الجمل التي لا أذكرها إلا ما ذكرت لتقادم العهد وطول الزمان ، فقلت له مبتسما ابتسامة الظافر الواثق : الآن تتجلى لك بلاغة القرآن وإعجازه بعد أن حاولنا جهدنا أن نحاكيه في هذا المعنى ، فقال : هل أدى القرآن هذا المعنى بأبلغ مما أديناه فقلت لقد كنا أطفالا في تأديته ، فقال مدهوشا : وماذا ؟ قال : قلت له قال : «يوم نقول لجهنم هل امتلأت وتقول هل من مزيد» ، فصعق أو كاد ، وفتح فاه كالأبله أمام هذه البلاغة المعجزة ؛ وقال لي : صدقت نعم صدقت ، وأنا أقرر لك ذلك مغتبطا من كل قلبي (هذا لفظه) فقلت له : ليس عجيبا أن تذعن للحق وأنت أديب خبير بقيمة الأساليب ، وهذا المستشرق يجيد الإنجليزية ، لأنها لغة بلاده في أمريكا ، والألمانية لأنها اللغة التي درس بها الأدب ، والعبرية لأنها لغة الأمومة ، والعربية لأنها اللغة التي وقف حياته على درس أدبها ، فهو رجل متخصص للأدب ، وقد جعل حياته وقفا عليه . انتهى الحديث .

هذا حديث الأستاذ (كامل كيلاني) ذلك الشاب الذي ظهر ببلادنا المصرية في هذه السنين ، وله كتب منشورة نهج فيها منهجا حديثا .

موازنة بين الأدب في هذا العصر أي سنة ١٩٣٢

وفي المدة الأولى أيام شبابي في نحو سنة ١٨٨٧ م

ذلك أن مصر في ذلك العهد كان فيها بعض الأدباء والشعراء ، وأنا كنت أتعلم إذ ذاك في الجامع الأزهر ، ومن العجب أن السؤال الذي وجه إلى هذا الشاب الأديب وجهته إلى أستاذي العلامة الشيخ محمد النجدي ، وقد كنت أتلقى عليه الأدب بالطريقة القديمة إذ كنا نقرأ كتاب السعد للتفتازاني في الأدب ، وكذلك الأشموني في النحو والصرف ، ونصرف زمن الشباب في ذلك الأدب ، ونحن لا نذوق منه شيئا ، ذلك أني سألته خارج الدرس قائلا : ياسيدي أنت أعلم العلماء ، فما أعلم بفن الأدب ، وأنا أعلم أنك مؤمن بأن القرآن حق وبأنه معجز في فن البلاغة ، ولكن هل ذقت أنت نفس هذه البلاغة ، وأحسست من غير أن تتأثر بما تلقيته عن الأشياخ ؟ فأجابني قائلا كلا . ياشيخ طنطاوي : ألا ترى أننا نضيع حصة كاملة في إعراب بيت في كتاب الأشموني أو إجراء استعارة تصريحية أو مكنية أو نحو ذلك ، وهل خرجنا من هذا السجن إلى جو البلاغة المضيء البهيج البديع ؟ . انتهى

عجبا يارباه : أم الإسلام التي خلقت فيها هاهي ذه لما كنت أدرس الأدب وأنا شاب لم يكن ذلك الأدب إلا آثارا ، أمم تذهب وأمم تجيء ، والأدب يقرأ والغاية منه مجهولة والطريق وعرة .

اللهم لك الحمد والمنة ، ها أنا ذا الآن أرى الأحوال قد تغيرت ، والوجهة انتظمت ، والعقول استنارت ، ها هو ذا الأديب المصري مع الأديب الأمريكي يرجعان بالأدب إلى حقيقته ويوازنان بين القرآن وكلام الناس وكانت النتيجة أن القرآن بليغ .

أيها المسلمون : قد استبان من هـذا الحديث أن التعاليم القديمة في الأدب أخذت تنمحي ، وهاهي ذه

الأجيال القادمة يظهر لى كما قلت مرارا فى هذا التفسير مقبلون على أيام علم وحكمة وأدب وسعادة وارتقاء . أوليس من العجب أن يكون سؤالى لأستاذى رحمه الله تعالى فى شبابى معادا عينه فى مشيبى ، ثم تكون الآخرة خيرا من الأولى ؛ أوليس من المدهش هذا الانقلاب السريع فى أمة الإسلام ، إذن ما كنت أتوقعه لأمة الإسلام وذكرته كثيرا فى هذا التفسير آت لاريب فيه ، والحمد لله رب العالمين .

(تذكرة) فى سورة الفاتحة . موازنة بين بلاغة سورة الفاتحة وفواتح السور وبين بلاغة فواتح المعلقات فارجع إليها إن شئت . وإلى هنا تم الكلام على سورة ق ، والحمد لله رب العالمين .

تفسير سورة الذاريات

هى مكية

آياتها ٦٠ ـ نزلت بعد الأحقاف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا * فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا * فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا * فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا * إِنَّمَا
تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ * وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ * وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ * إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ *
يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ * قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ * يَسْأَلُونَ أَيَّانَ
يَوْمُ الدِّينِ * يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ * ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَٰذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ
تَسْتَعْجِلُونَ * إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ
ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ * كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ * وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ *
وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ * وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ * وَفِي أَنْفُسِكُمْ
أَفَلَا تُبْصِرُونَ * وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ * فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ
مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ * هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ * إِذْ دَخَلُوا
عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ * فَرَاغَ إِلَىٰ أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ *
فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ * فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ *
فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ * قَالُوا كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ

إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ * قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ * قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ * لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ * مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ * فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ * وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ * وَفِي مُوسَى إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَى فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ * فَتَوَلَّى بِرُكْنِهِ وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ * فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ * وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ * مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ * وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّى حِينٍ * فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنْظُرُونَ * فَمَا اسْتَطَاعُوا مِنْ قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُنْتَصِرِينَ * وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ * وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ * وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ * وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ * فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ * وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ * كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ * أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ * فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ * وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ * وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ * مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ * إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ * فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذَنُوبًا مِثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ * فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ *

هذه السورة ثلاثة أقسام

القسم الأول : فى تفسير البسملة .

القسم الثانى : فى دلائل البعث من العلوم الطبيعية ، والعجائب النفسية ، وفى ذكر جزاء المتقين ، وأخبار الأمم المروية من أول السورة إلى «لعلكم تذكرون» .

القسم الثالث : فى تسلية النبى صلى الله عليه وسلم ، وفى الفرار إلى الله من هذه الدنيا المزدوجة المقاصد ، المحفوفة بالمخاطر ، من قوله تعالى : « ففروا إلى الله » إلى آخر السورة .

بسم الله الرحمن الرحيم

رباه: لك الحمد على نعمة العلم وبهجة الحكمة وسعادة الكشف والإيضاح، رحمتك طلسم الوجود ولغز الحياة، وأحجية الدنيا والدين، حرنا يا ربنا فى رحمتك، رأيناها حاصلة بالضدين: الخير والشر، والضر والنفع. أوليس من العجب أن نرى الجهال من نوع الإنسان وأكثرهم جاهلون، والدواب جميعا تسوقهم للعمل الشهوات وما هى الشهوات إن هى إلا مهاميز وسياط ونيران تلظى فى هذه الحياة الدنيا تسوق الناس إلى أعمالهم، ينشط العامل لعمله، والتاجر لتجارته، والسياسى لنظام دولته، بم انشط هؤلاء، لم يكن ذلك إلا لما يحسون فى أنفسهم من ألم الجوع وبوار التجارة وضياع المجد والخزى والعار أمام الأعداء والأهل والأصحاب.

سبحانك اللهم وبحمدك، سبحانك ربنا، إذن حسراتنا وأحزاننا وآمالنا ومسراتنا الوقتية وعداواتنا إن هى إلا محركات لهممنا، سائقات لعزائمنا، جعلتها يارب أسواطا بها تسوقنا كما نسوق نحن بهائمنا وأنعامنا بما لدينا من سياط وعصى وأدوات.

يركب أحدنا الحصان والحمار والفيل والجمل، ويسوقه بما معه من سياط، وإنما نفعل ذلك لما نعلمه من أن هذه الدواب لا تسير سيرا على مقتضى رغائبنا غالبا إلا إذا نظمنا سيرها بإيقاظها بضرب السياط وإعمال المهاميز، نفعل ذلك ونحن نجهل أنك أنت تفعل معنا مانفعله نحن مع دوابنا. الله أكبر: نحن فى عالم المادة والمادة هذا شأنها؛ عالمنا مادى فالمادة كلها آلاته. لذلك قضيت علينا وحكمت حكما عدلا أن يكون جوع وشبع، وخير وشر، وضر ونفع. وحبيب وعدو. فان كان خيرا فرح الحبيب فأفرحنا. وإن كان شرا شمت العدو فحركنا للعمل كما نسر بتعاطى الطعام، وبمسرات اجتماع الزوجين الذكر والأنثى، والصحة والجمال. ونحزن للفقر والمرض والذل والخضوع للأعداء. فنجد للعمل حتى نسترد ما كنا به فى بهجة وحبور: هما ضدان اتخذتهما برحمتك سوطين يسوقاننا لأعمال الحياة. أفليس من عجب أن تكون شماتة الأعداء أكبر مقوم لنا ومرق فى الحياة من رضا الحبيب وغفلته أو تغافله عن عيوبنا. إذن الضدان لابد منهما لرحمتنا حتى نحيا سعداء سعادة ما. يشير لذلك قوله تعالى فى هذه السورة: «ومن كل شىء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون. ففروا إلى الله».

اللهم إن أكثر نوع الانسان مسوقون بهذين السائقين وهم فى رحمتك بهما، وهذا قوله فى سورة أخرى «قتل الإنسان ما أكفره» وقوله: «ولكن أكثر الناس لايعلمون». وهناك صنف من الناس ارتقى عن هذه الطوائف فكان عمله للخير المحض والسعادة المطلقة؛ وهذه هى النفوس العالية التى تشرق على هذا النوع الانسانى آنافآنا.

الله أكبر: هو الرحمن الرحيم، الله أكبر: هو الذى خلق الشمس والقمر والنجوم، والجبال والشجر والدواب خلقها برحمته هو إبداعا، وصقل الدنيا كلها بصقال الجمال، وجعل فى العقول الإنسانية من يكونون فى الأرض أشبه بتلك النجوم والشموس والأقمار، يضيئون على الناس كاتضىء الكواكب والشمس والقمر على الأرض.

الله أكبر: ما أكثر غفلة نوع الانسان، هذه الطائفة هم الذين قال الله فيهم: «وقليل من عبادى الشكور»، ألا ترى أن شكر النعمة أن يوجه الانسان جميع مواهبه إلى وجهتها. وبعبارة أخرى يكون مع الناس ومع ربه أشبه بالشمس والكواكب فى عموم النفع بلا طلب مكافأة ولا مجازاة، وكما أن الشمس

منقادة تسير على النظام المجيد الذى رسمه لها المبدع ، وتطيعه طاعة أشبه بطاعة المحب لمحبوبه طلبا لرضاه ، وسعيا لامتثال أوامره ، هكذا هذه الطائفة فى هذا النوع الإنسانى نزلوا إلى الأرض لهذه الفضيلة ، شأنهم مع الناس شأن الأمهات مع أولادها ، وشأن الأستاذ الصادق مع تلاميذه النجباء والبلداء ، وشأن الشمس مع الأرض الطيبة والقفراء ، وهؤلاء الشاكرون من نوع الإنسان هم الأنبياء والحكماء الذين يخلقون فى الأمم جيلا لجيلا ، هم فى الأرض مع الله أشبه بالكواكب فى إطاعة النظام . وبعبارة أخرى هم يرقون الأمم بما يحسون فى نفوسهم من حب لها ، وغرام برقيها وإسعادها ، لا يرقبون جزاء ولا شكورا ، ولن يتم لهم ذلك إلا بحب وهيام وغرام ببدع الشموس والأقمار ، فهم عن الله يأخذون ، ولعباده يعطون ، والله يلهم النفوس العالية وهم الملائكة أن تمدهم من الأنوار التى استمدتها منه تعالى ، فهؤلاء العلماء فى الأرض والنفوس الشريفة فى العالم الأعلى هم الذين يشهدون نظام السموات والأرض المذكور ، فى نظرات الخليل عليه السلام وإذن يشهدون الحكمة والجمال والبهجة فى العوالم ، هم المعطوفون على الملائكة فى آية : « شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائما بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم » .

وستكثر هذه الطائفة فى ديار الإسلام بعد نشر هذا التفسير فى زماننا . وفى الملائكة المذكورين يقول الله فى هذه السورة : « فالمقسمات أمرا » ، وفى تربية الناس ليستخرج منهم من هو مستعد للتلقى عن تلك النفوس العالية وإن كانوا قليلا يقول فيها أيضا : « كانوا قليلا من الليل ما يهجعون وبالأسحار هم يستغفرون وفى أموالهم حق للسائل والمحروم » . هذه أوصاف العابدين ، ومن هؤلاء العابدين من تسمو نفوسهم إلى هذه الطائفة بما ركب فيهم من الاستعداد والقوى النفسية وهم المفكرون فأسمعهم ما بعد ذلك فقال : « وفى الأرض آيات للموقنين ، وفى أنفسكم أفلا تبصرون ، وفى السماء رزقكم وما توعدون ، فورب السماء والأرض إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون » .

فلتنظر أيها الذكى فى نفسك ، فإن كان عملها للناس لغرض المكاسب كما هو دأب أكثر هذا النوع الإنسانى أو للشهوة أو اللذة ، أو العلو على الناس ، فأنت لا تزال فى درجات الدنيا من العبادة ، وإن كان عملها بسائق الحب كما تفعل الأم بولدها فأنت فى الذروة العليا ، ثم انظر فى آخر هذه السورة : « وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون » فإن كانت هذه العبادة لأجل الجنة وما فيها فهى المرتبة الدنيا ، وإن كانت الأعمال والعبادات صادرة بحب خالص فإن السعادة والبهجة تعجل لصاحب هذا العمل فى نفس الحياة الدنيا ، وهذه الطائفة من الآن سعداء ، دنياهم كآخرتهم ، يعبدون الله كأنهم يرونه ، ومن عبد الله كأنه يراه فهذا لا ينتظر جزاء بعد ذلك فقد نال مقصوده ، فكن أيها الحبيب ذلك العبد إن شاء الله .

هذا ما فتح الله به صباح يوم الثلاثاء ٢٩ شوال سنة ١٣٥٠ هجرية الموافق ٨ مارس سنة ١٩٣٢ م وكتبته وقت الضحى : وبهذا تم الكلام على القسم الأول فى تفسير البسملة ، والحمد لله رب العالمين :

القسم الثانى من السورة

فى دلائل البعث من العلوم الطبيعية ، والعجائب النفسية ، وفى ذكر جزاء المتقين ، وأخبار الأمم المروية من أول السورة إلى قوله تعالى : « لعلكم تذكرون » :

التفسير اللفظى

بسم الله الرحمن الرحيم

(والذاريات ذروا) الرياح تذرو التراب وغيره (فالحاملات وقرا) أى الرياح الحاملات للسحاب (فالجاريات يسرا) أى الرياح الجارية فى مهابها بسهولة (فالمقسمات أمرا) هى الرياح التى تقسم الأمطار

بتصريف السحاب ، فالفاء هنا لترتيب الأفعال ، والذات واحدة ، وهى الرياح وجواب القسم قوله (إنما توعدون لصادق) فإن هبوب الرياح وذروها التراب ، وحملها السحاب ، وجريها فى الهواء بسهولة ، وتقسيمها الأمطار كل ذلك مخالف لناموس الجاذبية ، إن كل ما على الأرض منجذب لها واقع عليها ، ولكن هنا تصرفت الرياح تصرفا عجيبا ، وهذا التصرف تابع لسير الكواكب ، لأنها بجريها ومجرى الشمس تؤثر جميعها فى أرضنا وفى هوائها فيتم ماذكر ، وهذه الكواكب والشمس تجرى بنظام مقدر محكم يدل على تدبير عقلى ونظام حكمى ، فإذن يكون ذرو التراب ، وحمل السحاب ، وجريه وتفريقه تابع لنظام سير الكواكب التابع لتدبير النفوس والعقول العالية ، وهم الملائكة المدبرون للعالم الأرضى . فما ذرت الرياح التراب ، ولا حملت السحاب ، ولاقسمت المطر على البقاع إلا بالحركات الفلكية المنظمة بالعقول الملكية ، وهذا يجمع لك كلام المفسرين رحمهم الله ، فإذا سمعت بعضهم يقول : الداريات الكواكب ، وبعضهم يقول الملائكة فاعلم أنهم جميعا لاخلاف بينهم لأن الأسباب والمسببات مرتبطات محكمات ، أعلاها سبب فى أدناها ، وليس من الحكمة أن يكون هذا النظام محكما من الأعلى إلى الأسفل كما قال تعالى : « يدبر الأمر من السماء إلى الأرض » ثم تكون نتيجة ذلك الفناء المطلق الذى يدل على أن لا حكمة فى خلق هذا الإنسان ، لذلك جعل الله تلك المذكورات مقسما بها . وبعبارة أخرى . براهين على البعث إذ لولا البعث لكان هذا كله عبثا ، فالمدبرات لهذه العوالم لم تدبره ليفنى ، لذلك قال (إنما توعدون لصادق ، وإن الدين لواقع)أى وإن الجزاء لحاصل نفيا لفعل العبث من هذه النظم المحكمة (والسماء ذات الحبك) ذات الطرائق جمع حبيكة كطريقة : وطرائق السماء قسمان : محسوسة وهى مسير الكواكب ، ومعقولة وهى مسير العقول فى التفكير فيها للتوصل إلى العلوم والمعارف ، أو ذات النجوم ، والنجوم تزين السماء كما تزين طرائق الوشى الثوب ، وتحسن شكله ومنظره ، يقال فى هذا أيضا حبيكة وحبك وحباك وحبك ككتاب وكتب ، يقسم الله بالسماء (ذات طرائق النجوم وطرائق العقول بالتفكر ، أو طرائق الوشى والزينة بنفس النجوم ومعلوم أن طرق النجوم ونفس النجوم كلها مرتبطات متعاضدات متحدات المقاصد والأغراض) (إنكم لفى قول مختلف) فى الرسول وفى القرآن ، وفى القيامة ، وفى أمر الدين كأن يقولوا : إن الرسول شاعر ، أو ساحر ، أومجنون الخ ولقد كانوا يتلقون الرجل فيقولون له : إياك وأن تسمع محمدا إنه ساحر أو كاهن الخ فيصرفونه أى عن الإيمان به ولذلك قال تعالى (يؤفك عنه من أفك) أى يصرف عن القول المختلف أى بسببه من صرف عن الإيمان وهذه الجملة صفة بعد صفة للقول (قتل الخراصون) الكذابون من أصحاب القول المختلف ، وهذا دعاء بالقتل ولكنه جرى مجرى اللعن (الذين هم فى غمرة) فى جهل يغمرهم (ساهون) غافلون عما أمروا به (يسألون أيان يوم الدين) أى فيقولون متى يوم الجزاء : أى وقوعه ، وجواب هذا السؤال أنه يقع ذلك (يوم هم على النار يفتنون) أى يحرقون حال كونهم مقولا لهم تبكيتا (ذوقوا فتنتكم) أى تقول لهم خزنة النار : ذوقوا عذابكم وإحراقكم فى النار (هذا الذى كنتم به تستعجلون) أى هذا العذاب هو الذى كنتم به تستعجلون (إن المتقين فى جنات وعيون آخذين ما آتاهم ربهم) قابلين لكل ما أعطاهم من الثواب راضين به وآخذين (إنهم كانوا قبل ذلك) قبل دخول الجنة فى الدنيا (محسنين) قد أحسنوا أعمالهم . وذكر منها ما يأتى : (كانوا قليلا من الليل مايهجعون) ينامون وما زائدة : أى كانوا يهجعون فى طائفة قليلة من الليل ، أو هجوعا قليلا (وبالأسحار هم يستغفرون) فهؤلاء يحيون الليل متهجدين ، فإذا أسحروا أخذوا فى الاستغفار كأنهم أسلفوا فى ليلهم الجرائم . والسحر : السدس الأخير من الليل . ويقال إنهم مع قلة هجوعهم وكثرة تهجدهم إذا أسحروا أخذوا فى الاستغفار . وقال ابن عباس رضى الله عنهما فى قوله تعالى :

« كانوا قليلا من الليل ما يهجعون » كانوا قل ليلة تمر بهم إلا صلوا فيها شيئا إما من أولها أو من وسطها .
وقال أنس بن مالك : كانوا يصلون بين المغرب والعشاء » أخرجه أبو داود (وفى أموالهم حق) نصيب يستوجبونه على أنفسهم تقربا إلى الله وإشفاقا على الناس (للسائل والمحروم) المستجدى والمتعفف الذى يظن غنيا فيحرم الصدقة (وفى الأرض آيات للموقنين) أى فيها دلائل من أنواع المعادن والحيوان والنبات والعجائب (وفى أنفسكم) آيات (أفلا تبصرون) تنظرون نظر من يعتبر . وصف الله المحسنين بأنهم مجدون فى العبادة البدنية وإخراج المال لمستحقه ، وفيهما إشارة إلى الزكاة والصيام والحج ، لأن الأول معلوم من الآية والثانى من نوع العبادة البدنية ، والثالث مركب من المال والبدن ولم يبق إلا الإيمان والعلم فلذلك أتى بهذه الجمل وهى النظر فى الآفاق وفى الأنفس بأسلوب آخر كأنه كلام مستقل مع أن هذا من قبيل العلم والأول من قبيل العمل ، وكل متمم للآخر ، وإنما فصل هذا لأنه مختص بطائفة راقية العقل تنبغ فيه ، فالأولون صالحون ، والآخرون هم الصديقون قال تعالى تتميما لمسائل العلم (وفى السماء رزقكم) أى أسباب رزقكم أو تقديره (وما توعدون) من الثواب ، ذلك لأن الجنة فوق العوالم السماوية ، أو يقال : إن الأعمال وثواب الأعمال مقدرات فى العالم الأعلى (فورب السماء والأرض إنه) أى ماتوعدون (لحق) حقا (مثل ما أنكم تنطقون) أى مثل نطقكم ، فكما أنه لاشك لكم فى أنكم تنطقون ينبغى أن لاتشكوا فى تحقق ذلك . ويمكن أن يقال أنه أى الرزق ، وعليه ما يأتى :

(حكى الأصمعى) . قال : أقبلت من جامع البصرة فطلع أعرابى على قعود ، فقال من الرجل؟ فقلت : من بنى أصمع . قال : من أين أقبلت ، قلت من موضع يتلى فيه كلام الله تعالى ، قال اتل على ، فتلوت : « والذاريات ذروا » فلما بلغت : « وفى السماء رزقكم وماتوعدون) ، قال حسبك ، فقام إلى ناقته فنحرها ووزعها على من أقبل وأدبر ، وعمد إلى سيفه وقوسه فكسرهما وولى : فلما حججت مع الرشيد ، وطفقت أطوف فإذا أنا بمن يهتف بى بصوت رقيق ، فالتفت فإذا بالأعرابى قد نحل واصفر فسلم على واستقرأ السورة فلما بلغت الآية صاح . وقال : قد وجدنا ماوعدنا ربنا حقا . قال : وهل غير هذا ، فقرأت : « فورب السماء والأرض إنه لحق » فصاح وقال : ياسبحان الله ، من ذا الذى أغضب الجليل حتى حلف : لم يصدقوه بقوله حتى حلف قالها ثلاثا ، وخرجت معها نفسه .

واعلم أن مثل هذه الحكاية لاتؤخذ بظاهرها ، وكم للأصمعى من حكايات من عنده . واعلم أن الله عز وجل هو الذى تكفل بالرزق وحده ، فأما زرع الأرض مثلا فليس إلا عملا قليلا جدا ، فما هو إلا وضع حب وإنزال ماء وخدمة ، ولكن النمو والخلق وجميع الرزق حاصل بأسباب سماوية من حرارة تارة وبرودة أخرى وعمل عظيم فى الخلق والتصوير والتقدير والعجب العجاب ، فأى دخل للناس فى هذا ؟ هذا معناه إذا أرجع الضمير للرزق فافهم .

ولما فرغ من الدلائل العقلية ، والعبادات البدنية ، وما تقدمها شرع بقص القصص وابتدأ بقصة ضيف إبراهيم التى جاء فى آخرها : « وتركنا فيها آية » المناسبة بينها وبين : « وفى الأرض آيات للموقنين » قال تعالى (هل أتاك حديث ضيف إبراهيم) وفى هذه الجملة تفخيم للحديث ، والضيف فى الأصل مصدر يطلق على الواحد والمتعدد ، وقوله (المكرمين) أى المكرمين عند الله تعالى وعند إبراهيم إذ خدمهم بنفسه وزوجته وكانوا اثنى عشر ملكا فى صورة الضيف حين أضافهم إبراهيم (إذ دخلوا عليه فقالوا سلاما) أى نسلم عليك سلاما (قال سلام) أى عليكم السلام ، وابتداء جملة فعلية ، والرد جملة اسمية تفيد الثبات والأولى للحدوث ، فالرد أوكد ، فهذه تحية أحسن من الابتداء . ثم قال أنتم (قوم منكرون) فعرفونى من أنتم (فراغ إلى أهله)

فذهب

فذهب إليهم فى خفية من ضيفانه ، وذلك لأن من أدب الضيافة أن يبادر رب الدار بالقرى خفية أن يمنعه الضيف أو يطول انتظاره (فجاء بعجل سمين) لأنه كان عامة ماله البقر (فقربه إليهم) بأن وضعه بين أيديهم (قال ألا تأكلون) منه ، وذلك حث منه لهم على الأكل من العجل المشوى لأنه لايؤكل منه إلا بعد ذلك فلما كانوا من الطعام (فأوجس) فأضمر (منهم خيفة) خوفا فإن من لم يأكل طعامك لايحفظ ذمامك ، وكان فى زمانه إذا أكل الرجل من طعام صاحبه أمنه كما هو حاصل اليوم عند طوائف من العرب ، فلما علموا خوف إبراهيم (قالوا لا تخف) منا يا إبراهيم إنا رسل ربك (وبشروه) من الله (بغلام) بولد (عليم) يبلغ ويعلم أونبى وهو إسحاق (فأقبلت امرأته) سارة (فى صرة) أى حال كونها فى صيحة وهى من الصرير (فصكت وجهها) فلطمت بأطراف الأصابع جبهتها كما يفعل المتعجب (وقالت) أنا (عجوز عقيم) فكيف ألد (قالوا كذلك) مثل ذلك الذى قلنا وأخبرنا به (قال ربك) فنحن نخبرك عن الله والله قادر على ماتستبعدينه (إنه هو الحكيم) فى فعله (العليم) فلا يخفى عليه شىء . فلما علم أنهم ملائكة (قال فما خطبكم) أى فما شأنكم ، وما طلبتكم ، وفيم أرسلتم ؟ (أيها المرسلون) أى أ إلى البشارة وحدها أرسلتم أم هناك أمر آخر (قالوا إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين) أى قوم لوط (لنرسل عليهم حجارة من طين) أى طين مطبوخ كما يطبخ الآجر حتى يصير فى الصلابة كالحجارة (مسومة) معلمة من السوم وهو العلامة ، وعلامتها تدل على أنها ليست من أحجار الدنيا (عند ربك للمسرفين) أى المجاوزين الحد فى الفجور (فأخرجنا من كان فيها) فى قرى قوم لوط (من المؤمنين) ممن آمن بلوط (فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين) أى غير أهل بيت من المسلمين وهم لوط وابنتاه ، وهم موصوفون بالإسلام والإيمان (وتركنا فيها آية) علامة (للذين يخافون العذاب الأليم) فإنهم المعتبرون بها وهى تلك الأحجار . ثم قال تعالى : (وفى موسى) وهو معطوف على : « وفى الأرض » (إذ أرسلناه إلى فرعون بسلطان مبين) هى معجزاته كاليد والعصا (فتولى بركنه) أى فتولى عما كان يتقوى به من جنوده ، والركن اسم لما يركن إليه الشىء ، ويتقوى به (وقال ساحر) أى هو ساحر (أو مجنون) فكان ماظهر من الخوارق على يديه منسوب إلى الجن (فأخذناه وجنوده فنبذناهم فى اليم) فأغرقناهم فى البحر (وهو مليم) آت بما يلام عليه (وفى عاد إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم) وإنما كانت عقيما لأنها أهلكتهم وقطعت دابرهم (ما تذر من شىء أتت عليه) مرت عليه (إلا جعلته كالرميم) كالرماد ، من الرم وهو البلى والتفتت (وفى ثمود إذ قيل لهم تمتعوا حتى حين) وفى آية أخرى : « تمتعوا فى داركم ثلاثة أيام » فهذا هو الحين هنا (فعتوا عن أمر ربهم) فاستكبروا عن امتثاله (فأخذتهم الصاعقة) أى العذاب بعد الثلاث (وهم ينظرون) إليها فإنها جاءتهم معاينة بالنهار (فما استطاعوا من قيام) وهو قوله فى آية أخرى : « فأصبحوا فى دارهم جاثمين » (وما كانوا منتصرين) ممتنعين منه (وقوم نوح) أى وأهلكنا قوم نوح (من قبل) من قبل هؤلاء المذكورين (إنهم كانوا قوما فاسقين) خارجين عن الاستقامة بالكفر والعصيان . ثم رجع إلى ذكر آيات الآفاق المذكورة من الأرض والسماء سابقا فقال (والسماء بنيناها بأيد) بقوة ، والأيد القوة (وإنا لموسعون) أى لموسعون مابين السماء والأرض ، أو وإنا لقادرون ، من الوسع وهو الطاقة ، والموسع القوى على الإنفاق (والأرض فرشناها) بسطناها ومهدناها (فنعم الماهدون) نحن (ومن كل شىء) من الحيوان والنبات (خلقنا زوجين) ذكرا وأنثى (لعلكم تذكرون) فعلنا ذلك كله من بناء السماء وفرش الأرض وخلق الأزواج لتتذكروا فتعرفوا الخالق وتعبدوه . انتهى التفسير اللفظى للقسم الثانى من السورة .

القسم الثالث من السورة

فى تسلية النبى صلى الله عليه وسلم ، وفى الفرار إلى الله من هذه الدنيا المزدوجة المقاصد ، المحفوفة بالمخاطر

قال تعالى (ففروا إلى الله) من الشرك ، ومن طاعة الشيطان ، ومن كل ماسواه (إنى لكم منه نذير مبين ، ولاتجعلوا مع الله إلها آخر إنى لكم منه نذير مبين) مبين مايجب أن يحذر منه (كذلك) أى كما كذبك قومك وقالوا ساحر أومجنون ، كذلك (ماأتى الذين من قبلهم) أى من قبل كفار مكة فى الأمم الخالية (من رسول) يدعوهم إلى الإيمان والطاعة (إلا قالوا ساحر أومجنون) قال الله تعالى (أتواصوا به) أى كأن الأولين والآخرين منهم أوصى بعضهم بعضا بهذا القول حتى قالوا جميعا (بل هم قوم طاغون) جمعهم على هذا القول طغيانهم (فتول عنهم) أى أعرض عنهم (فما أنت بملوم) أى لالوم عليك فقد أديت الرسالة وماقصرت ، فلما نزلت هذه الآية حزن النبى صلى الله عليه وسلم وظن أن الوحى انقطع وأن العذاب نازل فنزل (وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين) فلما نزلت هذه الآية طابت نفوسهم ، والمعنى عظ بالقرآن فإن الذكرى تنفع من علم الله من استعداده أنه يؤمن منهم (وماخلقت الجن والإنس إلا ليعبدون) إلا أن آمرهم وأكلفهم : أى ماخلقت الجن والإنس إلا أمرتهم أن يوحدونى ، ويعبدونى ، وهذا تفسير سيدنا على كرم الله وجهه ، وقراءة ابن عباس : (وما خلقت الجن والإنس من المؤمنين إلا ليعبدون) . ويصح أن يراد الجميع من حيث إنهم مستمدون بفطرهم للتوحيد ، وإنما منعهم عن ذلك الاستعداد ماحصل من الأبوين فإنهم يهودان المولود وينصرانه ويمجسانه ، فالمقصود على هذا الرأى أنهم خلقوا على الفطرة فلا ينافى أن العوارض أزاحتهم عن فطرهم : أى إلا ليكونوا مستعدين بفطرهم ، وجعل ذلك غاية للمبالغة فى ذلك (ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون) ما أريد أن أصرفكم فى تحصيل رزقى ، فاشتغلوا فيما أنتم كالمخلوقين له والمأمورين به ، فلست معكم كالسيد مع عبيده من الآدميين يعملون ليطعمون ، إن الأمر هنا بالعكس فإنى أنا أرزقكم (إن الله هو الرزاق) الذى يرزق عباده لا أنهم هم يسعون لرزقه (ذو القوة المتين) شديد القوة ، وإذا كان شديد القوة فإنه قادر أن يعذب الذين ظلموا (فإن للذين ظلموا ذنوبا) أى فإن للذين ظلموك من أهل مكة نصيبا من العذاب (مثل ذنوب أصحابهم) مثل نصيب نظائرهم من الأمم السالفة ، وقد كانت السقاة يقتسمون الماء بالدلاء ، والذنوب هو الدلو على شرط الامتلاء بالماء . وقال الزجاج : الذنوب فى اللغة النصيب (فلا يستعجلون) بقولهم : « متى هذا الوعد إن كنتم صادقين » (فويل للذين كفروا من يومهم الذى يوعدون) من يوم القيامة ، أو يوم بدر وأمثاله فى الدنيا . انتهى التفسير اللفظى للقسم الثالث من السورة والحمد لله رب العالمين .

لطائف هذه السورة

(١) فى قوله تعالى : «والذاريات ذروا ، فالحاملات وقرا ، فالجاريات يسرا ، فالمقسمات أمرا ، إن ماتوعدون لصادق ، وإن الدين لواقع . والسماء ذات الحبك» .

(٢) وفى قوله : «وفى الأرض آيات للموقنين ، وفى أنفسكم أفلا تبصرون ، وفى السماء رزقكم وما توعدون ، فورب السماء والأرض إنه لحق مثل ماأنكم تنطقون» :

(٣) وفى قوله تعالى : «ففروا إلى الله» .

(٤) وفى قوله تعالى : «فويل للذين كفروا من يومهم الذى يوعدون» .

اللطيفة الأولى والثانية

فى هاتين اللطيفتين مبحثان

المبحث الأول علمى ، والمبحث الثانى أدبى

المبحث العلمى

لقد سبق لك فى (سورة ق) والحجرات أنهما قد جمعتا بين الأخلاق النفسية فى الحجرات ، والعلوم

الطبيعية

الطبيعية والفلكية فى (سورة ق) وأن لفظ ق قد جىء به فى وسط العلمين كالتذكرة لهما ، وقد بينا أن الأمم الإسلامية اليوم أحوج مايكون إلى علوم الأنفس والآفاق ، وأن مافى السورتين المذكورتين نموذج لهما وأن رقيهم لايكون إلا بها ، وأن أوروبا المحيطة بنا من كل جانب تبعث فيهما ، وأن الله لم يذر وسيلة من وسائل الإرشاد للفتنا إلى ذلك إلا جعلها فى هذا القرآن ، لعلمه أننا بعد القرون الطويلة سننام على علم الفقه ونظن أنه كاف فى إسعادنا فى الدنيا والآخرة . كل هذا قد تقدم فى السورتين .

أفلا تنظر معى الآن كيف جعل هذه السورة كالمؤكدة لما تقدم فإنه ابتدأها بذكر الرياح التى تذرو التراب وغيره ، وتحمل السحاب ، وتجرى بسهولة ، وتفرق المطر على الأقطار ، وبأن السماء ذات الحبائك وأنواع الوشى والزينة من كل نجم مشرق اللون ، باهر الجمال يزين السماء بزينة باهرة (وقرىء كالبرق والنجم والجبل والسلك والإبل والقفل) كل هذا بنحو ذلك المعنى ، كأنه عز وجل يقول : هاأنا ذا ياعبادى قد أمرتكم أن تنظروا السماء ، وتعتبروا بالأرض فى (سورة ق) فماذا بعد توبيخكم على التقاعد عن النظر وحثكم بقولى : « أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها ومالها من فروج» فماذا بعد ذلك إلا أن أجعل العجائب الأرضية ، والطرق السماوية ، وأنواع الزينة الكوكبية قسما أقسم به ، وهل بعد إعظام هذه العجائب مقال لقائل ؟ وهل بعد أن يحلف بها خالقكم من محيص عن النظر فيها والتفكر ؟ .

أقول : ياعجبا لأمة الإسلام ، يظنون أن مايخاطب به الكافر قد نجوا منه ، ويظنون أن الإيمان الموروث عن الآباء كاف ، وأن توبيخ الكافرين على التقصير فى العلم لايوجب توبيخ المسلمين فيه ، وكأن المسلم يفهم أن الجهل مغتفر منه متى نطق بالشهادتين ، فقد قال الله تعالى فى حق الكافرين : أذهبتم طيباتكم فى حياتكم الدنيا واستمتعتم بها » ولقد تقدم فى حديث عبد الله بن زياد مع عمر أنه رضى الله عنه خاف من هذه الآية وقال : لو شئت لملأت هذه الرحاب صبائك ورقاقا وصنابا ، ولكنى رأيت الله نعى على قوم فقال : «أذهبتم طيباتكم فى حياتكم الدنيا» فها هو ذا عمر خاف من هذه الآية مع أنها عملية وقد قيلت فى حق الكفار فما بالك بهذه الآيات التى فى هذه السورة المؤكدة لما قبلها ، فقد ذكر الله العجائب الأرضية والعجائب السماوية على طريق القسم وأعاد ذكرهما فقال : « وفى الأرض آيات للموقنين» إلى آخر السورة ، ثم ثلث ذكرهما فقال : «والسماء بنيناها بأيد وإنا لموسعون» الخ .

هاهو ذا الله يذكر السموات والأرض ثلاث مرات متفرقات فى هذه السورة عناية بنا ولفت نظر ، وذكر النفس كما ذكر أخلاقها وتطهيرها فى (سورة الحجرات) من أدناس الغيبة والسخرية وما أشبه ذلك .

وفى النفس آيات ثلاث أصليات لها فروع كثيرات ، إن النفس تعقل وتغضب وتشتهى ، فالشهوة بها حياة الأجسام ، والغضب به حفظ النظام ، وبالعقل التدبير والعلم والأحكام ، وكأنما النفس نهر له ثلاثة جداول أو قبيلة لها ثلاث بطون ، أو شجرة لها ثلاثة فروع ، أو رجل ، فهو من جهة حداد ، ومن جهة نجار ، ومن جهة كاتب فله أسماء باعتبار صفاته كما نرى التفاحة حمراء ذات رائحة طيبة حلوة ، فهذه ثلاث صفات لشىء واحد ، فالنفس واحدة ولها الحواس الخمس تجاب لها أنواع الألوان والأشكال وأمثالها بالعين ، وأنواع الأصوات بالأذن ، وأنواع المشمومات بالأنف ، وأنواع الطعوم من حلو وحامض ، ومر ومز ، وحار وملح وما أشبه ذلك بالذوق ، وأنواع الملموسات من ثقل وخفة وحرارة وبرودة ورطوبة ويبوسة وما أشبه ذلك بحاسة اللمس ، فهذه المعلومات التى عدها علماء المقولات ستا وثلاثين نوعا تستخرج من المحسوسات وتجتمع عند الحس المشترك ، وهناك تحفظ فى القوة المخيلة كما يجفف الناس الطين بالحرارة فتقلب اللبن وتجعله آجرا ، فكما أن الناس يوقدون على اللبن فيصير آجرا هكذا فى نفوسنا قوة تحفظ صور المحسوسات وتخزنها

بها يقال لها المخيلة ، فالحس المشترك يأخذ الصور من الحواس ويسلمها لتلك القوة فتتصرف فيها في اليقظة وفي المنام وفي حال السكر والجنون ، فتفعل أفعالا غريبة في الصور وتبرزها بأحوال مختلفات وتراكيب عجيبة يعرفها جميع الناس في أنفسهم وعلماء البلاغة والشعراء ومؤلفو الروايات ، ثم إن الناس كما يتخذون الآجر في البناء هكذا النفس لها قوة تقوم مقام البناء تسمى المفكرة وهي تتصرف في المعاني المأخوذة من الصور تصرف البناء في البناء بالإجادة وبضدها . ثم إن هناك قوة تدرك المعاني الجزئية تسمى الواهمة ، وهناك قوة أخرى تحفظ تلك المعاني تسمى الحافظة فعندنا صور أتت بها الحواس والحس المشترك قبلها والمخيلة خزنتها وتصرفت فيها والمفكرة استخلصت المعاني وخزنتها في العوالم العلوية الروحية ، والمعاني الجزئية تدركها الواهمة كعداوة الذئب للشاة ؛ وخزانتها تسمى الحافظة . هذه هي القوى التي في نفوسنا ، وقد أبدع علماء العصر الحاضر في أمر النفس وجعلوا أن الدماغ مقسم أقساما كل قسم له جزء مخصوص من العلوم بحيث يكون الدماغ أشبه بمناطق الأرض لكل منطقة مزارع خاصة بها . فكما لاينبت النخل في البلاد الباردة ، ولا البندق في البلاد الحارة ، هكذا لاتكون العلوم الرياضية في مواضع العلوم الطبيعية في الدماغ ، ولا تكون مخازن العلوم في الدماغ مستعدة لقبول علوم اللغات . هذا جزء يسير من عجائب النفس التي ذكرها الله إذ قال : «وفي الأرض آيات للموقنين ، وفي أنفسكم» أي آيات ، فهذه بعض آيات الأنفس .

والمتأمل لهذه الآيات يجد فيها عجبا عجابا ! يقول الله : «والسماء ذات الحبك إنكم لفي قول مختلف يؤفك عنه من أفك» كأنه يقول : أي عبادي : هأنا ذا زينت السماء بالنجوم وبطرقها ، وجعلتها حبائك ترونها مزينة لها وأنتم ترون زينتها وحبكها ، وكلما كانت الزينة أكثر عددا وأبدع نظاما كان السرور بها أكثر ، وكانت الحكمة فيها أعظم . وقد قلت لكم : إن في هذه السماء ذات الزينة رزقكم وما توعدون فلم لاتوجهون نظركم إليها ولا تعولون في بحثكم عليها وعلى الأرض وآفاقها ، وكيف تكون أنواع الزينة والأنوار في السماء التي هي قبلة الأنظار ، وأنتم تستمدون منها جميع ماتعيشون به ، ثم تكون سيركم مخالفة لنظامها ، فإن طرقكم ظلمانية ، وأعمالكم شيطانية ، أفلا تنظرون السماء مشرقة وأنتم مظلمون ، طرقها هداية وطرقكم ذات ضلال ، أحاطت بكم السماء المزينة المرصعة التي فيها رزقكم وفيها الجنة ، فوعزتي وجلالي لاتسكنون هناك إلا إذا كانت أعمالكم مشاكلة لزينة السماء فكيف تكون السماء ذات حبك وأعمالكم ذات ظلمات ، فهل يستوي الأعمى والبصير ، ألم أقل في القرآن : «إن الذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها لاتفتح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة» فأبواب السماء والجنة محال مشرقة بهجة لايدخلها إلا من تربوا تربية تناسب ذلك الجمال ، فكيف تكون السماء ذات حبك وزينة وجمال ونظام ، وأعمالكم ذات ظلمات واختلاف واختلال ، وعزتي وجلالي لأحرمن السماء والجنة على كل من لايكونون على نسق ذلك الجمال . وقد تقدم في (سورة آل عمران) إيضاح الكلام في أن الجنة في السماء المناسب لقوله تعالى هنا «وفي السماء رزقكم وما توعدون» .

ياعجبا كيف أصبح المسلمون أبعد عن عالم الجمال ، وقد تولوا عن النظر في السموات والأرض ، اللهم إني أشهدك وأشهد العالم الإسلامي أن أحوال المسلمين اليوم ذات نقص محزنة ، وكيف لاتكون نقصا ونحن الآن نجعل كل همنا نقل أقوال الأئمة رضوان الله عليهم ، ونكثر نقل الخلاف في علم واحد وأصوله وهو الفقه ، وقد أعرضنا عن الذاريات ذروا الخ وعن السماء ذات الحبك ، وشغلنا أنفسنا بطرق وعلوم تغشى على عقولنا ؛ فلا ننظر الطرق السماوية ، والعلوم الحكمية ، والبهجة الربانية ، إن المسلمين طرقا من هذه الآية ، إن بعضهم عن السماء محجوبون ، محجوبون بالتقاليد وبدراسة علم الفقه ، ويقول الشيوخ بأنها

تكفي

تكفى للارتقاء يوم القيامة كأنهم ماقرأوا « والذاريات ذروا » ولا قرءوا «والسماء ذات الحبك» ولاقرءوا «والسماء بنيناها بأيد» .

فلينظر المسلمون فى العلوم ، وليعلموا أن أوان ماأقوله قد أقبل ، وتدهور الإسلام قد أدبر ، وسيظهر فى الإسلام جيل يكون نبراس الأمم فى العلم والحكمة ، والله هو الولى الحميد . انتهى المبحث العلمى فى هاتين اللطيفتين . وإن أردت سر قوله تعالى : «ومن كل شىء خلقنا زوجين» فانظره فى أوائل (سورة الأنعام والشعراء) وهكذا تنظر عجائب النبات فى سور كثيرة أقربها (سورة ق) .

المبحث الأدبى

هاهنا أخذ الله يقسم بعجائب المخلوقات . وسيقول: (والطور وكتاب مسطور) الخ، والنجم، وقوله: «فلا أقسم بمواقع النجوم» فى (سورة الواقعة) وهكذا ، كل هذه ذكرها الله تعالى إعظاما لأمر الأنفس والآفاق ، وتذكيرا للمسلمين أن يتعلموها ، ثم إن العرب لم تكن تعرف القسم بهذا الأسلوب ، وسنوازن فى هذا المقال بين أسلوب العرب وأسلوب القرآن نقلا من كتابى (مذكرات آداب اللغة العربية) الذى ألقته لتلاميذ المدرسة الخديوية ، فهناك ماجاء فيه تحت العنوان الآتى ، وهذا نصه :

أقسام العرب وأقسام القرآن

جرت عادة العرب أن يقسموا بلفظ أقسم كقوله :

فأقسم أن لو التقينا وأنتم ... لكان لكم يوم من الشر مظلم

وبلفظ يمين كقوله :

فقلت يمين الله أبرح قاعدا ... ولو قطعوا رأسى لديك وأوصالى

وبلفظ العمر كقوله :

لعمرك ماأدرى وإنى لأوجل ... على أينا تعدو المنية أول

وبلفظ يمينا قال زهير :

يمينا لنعم السيدان وجدتما ... على كل حال من سحيل ومبرم

ومن عجب مانرى من أقسام القرآن فنراه يقسم بما لم يقله عربى قط . قال : «أقسم بالشفق ، والليل وما وسق ، والقمر إذا اتسق لتركبن طبقا عن طبق» . يقول أحلف بما ترون من ذلك النور المتوسط فلا هو غاية فى الإضاءة ، ولا هو حالك الظلام أرسلته الشمس بعد مغيبها ، وعكسته على السحب العاكفة فى جهات المغارب المسماة بالشفق ، وبالليل وما جمع من كل مخلوق نائم ومتحرك وساكن ، وبالقمر إذا تم ضوؤه وتكامل نوره ، وبالجملة . يقول أقسم بأحوال الليل من أنواع الأنوار المختلفة ، وماأجن الليل من مخلوق فى الأرض . إنكم معاشر الإنس ستنقلون من حال إلى حال من هذه الحياة بالرقى فى المدنية . أو أن تخالف دولة دولة ، وبالانتقال من الحياة إلى البرزخ إلى جنة أو إلى نار كما يقول الليل بألوانه الثلاثة على الأجسام وكأن القسم جاء تمهيدا للقضية المقسم بها وتشبيها لها وتنظيرا أو كشبه العلة لشبه المعلول لحركات الأفلاك تحدث الأنوار والظلمات وتحيط بالمخلوقات ، ومنها الإنسان الذى قضى عليه بالتنقل فى الدنيا من حال إلى حال تبعا لحركات الأجرام السماوية بتقدير العزيز العليم الذى دبر الخريف ، والربيع ، والشتاء ، والصيف ، والدهور والعصور ، فاختلفت الدول والممالك باختلاف الأحوال العلوية ، والحركات الفلكية : ثم يأتى بعد ذلك يوم الدين ، وحشر العالمين : فإما فى جنة وإما فى جحيم .

وقال: أقسم بالليل إذ يغطى كل شىء، وبالنهار إذا ظهر، وبخلق الله الذكر والأنثى من إنسان وحيوان ونبات بالتزاوج والإلقاح. إن أعمالكم مختلفات فأما من جاد بالمال واتق عذاب ربه وصدق بالحسنى فله اليسر يوم القيامة، وأما من بخل بالمال وأعرض عن الله وكذب بالدين فسيكون فى عسر.

أقسم باختلاف الليل والنهار والذكور والإناث وجعله كالدليل على اختلاف مساعينا فى حياتنا وثمراتها بعد موتنا قال: « والليل إذا يغشى والنهار إذا تجلى وما خلق الذكر والأنثى إن سعيكم لشتى فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى، وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى » وقال: « أقسم بما تبصرون ومالا تبصرون. إنه لقول رسول كريم ذى قوة عند العرش مكين » فى هذا أقسام بكل ماذرأ الله مما يحس بالحواس من الجواهر والعناصر والمعادن والنبات والحيوان والأفلاك والأنوار، وكل مالا يبصر من القوى والعقول والنفوس والأرواح ومافوق ذلك من ملائكته، والمقسم به أن القرآن كلام نزل به رسول كريم على قلب سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، والرسول هو جبريل عليه السلام يقول فى القسم: إن المخلوقات قسمان: محسوسات، ومعقولات، وجبريل من آخر القسمين أفلا تؤمنون، وليس من قول شاعر ولا كاهن مما ترون « وما هو بقول شاعر قليلا ماتؤمنون ولا بقول كاهن قليلا ماتذكرون تنزيل من رب العالمين ».

وقال: « والفجر وليال عشر، والشفع والوتر، والليل إذا يسر، هل فى ذلك قسم لذى حجر » أقسم بالفجر، وبالليالى العشر، الأولى من الشهور العربية لازدواج ظلامها بضيائها كما أن الفجر نوره مزدوج بظلامه، وأقسم بالأعداد كلها أزواجها وأفرادها، وما حوت من أسرار الارتماطيق، والخواص المدهشة العجيبة؛ وبالليل إذا يسر مقبلا ومدبرا، إن هذا القسم عجيب لم يسمعه العرب. ثم قال: « هل فى ذلك قسم لذى حجر » ثم أتبعه بقوله: « ألم تر كيف فعل ربك بعاد إرم ذات العماد » الخ كأن المقسم به محذوف تقديره: إن الكافرين لامحالة هالكون: لأنا أبنا لهم فجر الحكمة، ومبادىء العلم كأنها أوائل الشهر، فإن هلال الحكمة يبتدى، ضئيلا، ثم يتسق ويعتلى، وحسبنا أعمالهم شفعا ووترا، ولم يؤمنوا، فسنعذبهم مرتين، فى الدنيا بالخزى، وفى الآخرة بالنار كما فعلنا بعاد وثمود وفرعون. « ألم تر كيف فعل ربك بعاد، إرم ذات العماد، التى لم يخلق مثلها فى البلاد، وثمود الذين جابوا الصخر بالواد، وفرعون ذى الأوتاد، الذين طغوا فى البلاد، فأكثروا فيها الفساد، فصب عليهم ربك سوط عذاب، إن ربك لبالمرصاد ».

إنذار من الله للأمم التى أضاء لها نور العلم فأشرقت على وجوههم الحكمة إن هم لم يقتبسوها، ولم ينتفعوا بها أهلكهم كما أهلك الأمم البائدة كما حصل لأهل أمريكا الحمر الأصليين، وكما فعل بمسلمى الأندلس إذ أراهم اتحاد الأسبان، والاتحاد نور من الله فلم يتحدوا « فصب عليهم ربك سوط عذاب » وهكذا كل أمة ودولة أنذرها علماؤها، وعلمها حكماؤها، فتجاهلت الأنذار، وتغاضت عن الحكمة. ساء مصيرها وقطع دابرهم كدولة الرومان إذ عصوا حكماءهم فى أواخر عهدهم، وإدبار سعدهم فأخذتهم صاعقة العذاب الهون، وتكالأت عليهم الأمم المتوحشة، فورثوا أرضهم، وديارهم، وأموالهم، وعلومهم وقوانينهم. إن فى الفجر وليالى الشهر الأولى أضواء ضئيلة ستؤول للكمال باشراق الشمس وبتمام البدر، فمن عطل إتمام نور فجر الحرية، والحكمة، وهلال العلم، والمعرفة باء بظلام حالك، وأضحى من الهالكين، وهذا بطريق الإشارة والمفهوم بشارة إلى الأمم التى ظهرت فيها مبادىء الحكمة وأوائل الحرية أنها ستنال قسطها من الحكمة، وحظها من الحرية. إذا هى سعت لإتمام الأنوار، ولم تقف فى سبيل العلم كما يصير الفجر نهارا، والهلال بدرا كاملا. انتهى ماأردته من كتابى (مذكرات آداب اللغة العربية).

اللطيفة الثالثة

فى قوله تعالى : «فويل للذين كفروا من يومهم الذى يوعدون»

آخر هذه السورة مناسب لأولها ، وأولها مناسب لآخر السورة قبلها ، وآخر هذه السورة يناسب أول سورة الطور الآتية بعد هذه ، لأنه أقسم أن عذاب ربك واقع وهو مذكور هنا فى قوله : « وإن للذين ظلموا ذنوبا مثل ذنوب أصحابهم فلا يستعجلون » . اه

اللطائف العامة فى هذه السورة (١)

(١) اللطيفة الأولى فى قوله تعالى : « وفى الأرض آيات للموقنين » .

(٢) اللطيفة الثانية فى قوله تعالى : « وفى أنفسكم أفلا تبصرون » وما بعدها من الآيات ، وهاتان اللطيفتان فى الآيات التى أولها « إن المتقين فى جنات وعيون ، آخذين ما آتاهم ربهم إنهم كانوا قبل ذلك محسنين ، كانوا قليلا من الليل ما يهجعون ، وبالأسحار هم يستغفرون ، وفى أموالهم حق للسائل والمحروم وفى الأرض آيات للموقنين ، وفى أنفسكم أفلا تبصرون ، وفى السماء رزقكم وما توعدون ، فورب السماء والأرض إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون » .

(٣) اللطيفة الثالثة فى قوله تعالى : «ومن كل شىء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون » ؟

اللطيفة الأولى

فى قوله تعالى : « وفى الأرض آيات للموقنين ، وفى أنفسكم أفلا تبصرون ، وفى السماء رزقكم وما توعدون »

هذه آيات ثلاث متلاصقات ، متتابعات ، متصلات ، معطوفات ، وآخرها ذكر فيها الرزق ، فهاهنا علاقة بين عجائب الأرض وطبائع نفوسنا ورزقنا الذى مصدره السماء فى هذه الدنيا والجنة التى وعدنا بها وهى فى السماء أيضا نبات الأرض وحيوانها وجمادها ونفوسنا وأضواء الكواكب والشمس وأرزاقنا ثم الجنة التى وعدنا بها ، كل هذه بينها اتصال .

محاورات بينى وبين صديق العالم الذى اعتاد محادثتى فى هذا التفسير

العلاقة بين هذه العوالم معقولة ، ولكن ما لرزقنا وللجنة ؛ فقلت : سأوضح هذا المقام هنا حق الإيضاح بعد ما أوضحته فى مواضع كثيرة بطرق مختلفة . إن للأغذية المستخرجة من الأرض تأثيرا على نفوسنا فى أخلاقنا وعاداتنا وأحوالنا وصحتنا ومرضنا ، ثم إن أحوال نفوسنا وأخلاقها يتبعها نتيجتها وهو ارتقاء النفوس وصفاؤها فتكون الجنة فى الآخرة ، أو انخفاضها وانحطاطها وسوء فعلها فتكون جهنم ، فان زعم الناس أن علم الأخلاق يكفى وحده لتهذيب النفوس ، أو العلوم الدينية ، فقد جهلوا جهلا بينا ، فالصحة من أهم عوامل السعادة فى الدنيا والآخرة ، وهناك يمكن التحلى بمكارم الأخلاق بواسطة الدين ، أو بواسطة التهذيب والتربية والنصائح الدينية ونحو ذلك ، وأيضا للمعارف والعلوم التى تورث اليقين المذكور فى هذه الآية لن تكون إلا لصحيح الجسم ، فإذا انحرف الجسم انحرف العقل فلا علم ولا يقين : «وفى الأرض آيات للموقنين» لايتم للإنسان ذلك إلا بالصحة ، والصحة تتوقف على جودة الغذاء أى موافقته للبنية والنبات متوقف على الأضواء ، والأضواء آتية من السماء كما أن نفوسنا كذلك ، هذه هى المناسبات .

فقال : الآن أرجو أن تذكر لى كلاما عاما فى هذه الأنفس الإنسانية ينحو نحو الصحة والمرض ، فإن ازدواج هذه الآيات وتتابعها يدعو إلى ذلك ، فقلت : لقد تقدم الكلام على ذلك فى (سورة الفتح) فإنى

---

(١) هذه اللطائف لم يكن لها وجود عند التأليف ، ولم يفتح الله بها إلا عند تقديم هذه السورة للطبع المؤلف

ذكرت نظام الجسم الإنسانى هناك من حيث إنه أشبه بمدينة حصينة والأعداء يحيطون بها من كل جانب لمناسبة قوله تعالى : «ولله جنود السموات والأرض» فها أنا ذا ألخصه هنا لك ، ثم أتبعه بما يناسب المقام هنا من حيث علاقة أجسامنا بما حولنا من عوالم الأرض والسماء ، وقصرت الكلام على أجسامنا لأنه المناسب لهذا المقام ، ولم أرد الخوض فى علم النفس ؛ (فهاهنا فصلان : الفصل الأول) فى ملخص ماتقدم فى (سورة الفتح) عند آية : «ولله جنود السموات والأرض» (الفصل الثانى) فى علاقة أجسامنا بعوالم السموات والأرض وما يتبع ذلك من طول العمر وقصره ، والصحة والمرض ، ليكون المسلمون بعدنا أصح أجساما ، وأصفى عقولا ، وأجمل نفوسا ، وأرقى اجتماعا ، وأصح مدنية ، لأنهم سيفهمون ماكتبه ، وسيعملون به ، ويرونه من أسرار القرآن المخبوءة التى ظهرت فى زماننا ، ويعلمون أن الله هو الذى علمهم ذلك بواسطة عباده فى الشرق والغرب ، وأن هذا التعليم مصداق لقوله تعالى : «سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم» ولقوله «سأريكم آياتى فلا تستعجلون» وإنما قال «فلا تستعجلون» لأن لكل عمل وقتا يكون فيه ، والأمم قبلنا لم تكن مستعدة لهذه العلوم ، فأما فى زماننا فالأمم مستعدة للفهم ومنها أمة الإسلام ، فأما كاتب هذه الأسطر الآن فأحس فى نفسى بمسرة لأنه وقر فيها أن هذا كائن لامحالة وحاصل فى زماننا هذا أثناء قراءة هذا الكتاب وبعد انتقالى من هذه الدار وأنا مغتبط منشرح الصدر بما أعلم من سعادة أممنا الإسلامية وصحة أبدانها ، وعزتها القومية ، والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم .

الفصل الأول فى ملخص ماتقدم فى سورة الفتح

المناسب لآية : «وفى السماء رزقكم وما توعدون»

ذلك أن الجسم الإنسانى إن هو إلا مدينة محصنة منيعة الجوانب ، وفى داخلها أمم وأمم ، وهل حصنها إلا الجلد ، وحول هذا الحصن آلاف آلاف من الأعداء التى تتربص دخول هذه المدينة العظيمة ، وليس لهؤلاء من مقصد إلا أن يعثن من الأقوات المدخرة فيه التى خزنها الإنسان فى أنحاء جسمه ، فهى دائما تحاول دخوله ، ولكن الجلد يمنعها ويصدها ، وهل هؤلاء الأعداء اللاتى تعد بالملايين إلا الميكروبات ولا تجد لها طريقا إلا من الفم فتدخل مع الطعام والشراب ، فإذا وصلت إلى المعدة وجدت هناك حصنا منيعا وقوة دافعة وهى السوائل المطهرة القاتلة لتلك الميكروبات ؛ فإذا كانت المعدة سريعة هضم الطعام بحيث ينزلق بسهولة إلى الأمعاء ، هنالك لاتموت تلك الميكروبات ولكنها تموت فى نفس الأمعاء ، لأن الأمعاء خالية من الأكسوجين ، والأكسوجين ضرورى لحياة تلك الميكربات المهلكة فتموت ويساعد على موتها ماأنعم الله به على الإنسان فى الأمعاء من الميكروبات الصالحة النافعة التى تعيش هناك عيشة هادئة نافعة فإنها تساعد على هضم الطعام .

الله أكبر : هاهنا حصن الجلد وحصن عصير المعدة ، والحصن الأخير هو حصن الأمعاء ، هذا إذا دخلت الأعداء من باب المدينة وهو الفم ولم تتعد ماذكرناه ، ولكن الضر كل الضر والأذى كل الأذى أن يدخل الأعداء من نفس السور وهو الجلد أو يتكاثرون على أى وجه كان ، فهنالك تعم البلوى ويعظم الخطب ، ولكن العناية الإلهية قد أعدت لحياة الإنسان كل وقاية ونعمة ؛ وذلك أن أولئك الأعداء متى تكاثروا فى الداخل أسرعت الجنود (وهى الكرات البيضاء) فأخذت تصطف صفوفا وراءها صفوف حتى تبنى حول أولئك الأعداء حصنا منيعا ، وهناك تكون المجزرة ويحمى وطيس الحرب ، ويشتد الكرب ، ويعظم الخطب ، وتشمر الحرب عن ساقها ، وتجندل الأبطال فى ساحات الوغى ، وكل يقول : يارب سلم سلم ، حتى إذا وقعت

الواقعة ، وسقط من الجنود فى ساحات القتال ألوف وألوف ومن الميكروبات كذلك ، وأخذت الجنود المدافعة تذيب تلك الخلايا التى هجمت عليها الأعداء ، فهناك يكون الدمل أو الخراج أو نحوهما .

سبحانك يارب ، ما أبدع صنعك ، كنا نحسب الدماميل ونحوها أمراضا مؤلمة ، وماهى بأمراض ، إن هى إلا أودية هى ساحات القتال التى اشتعلت فيها الحرب بين جنود وجنود .

الله أكبر ، حاصرت جنودنا الداخلة فى أجسامنا جنود الأعداء الداخلة فيها ، لتقصيرنا ولجهلنا ولرداءة أغذيتنا ، ولإسرافنا فى طعامنا وشرابنا ، فاذا حاصرت جيوشنا المحاربة جيوش الأعداء ارتفعت الحرارة لكثرة القتلى من الجانبين فيكون الدمل . الله أكبر : الدمل ساحة للحرب وقلعة للقتال والقتال لبقاء حياتنا .

الله أكبر : صدق الله : «إن كل نفس لما عليها حافظ» . «وربك على كل شئ حفيظ» : «قتل الإنسان ما أكفره» .

إن جهلنا بالأغذية وبالنظافة وبالرياضة هو الذى ساق لنا هذه الجيوش الجرارة التى تتغلب عليها جيوشنا وهى الكرات البيضاء فتحملها داخل هذه القلعة الحصينة ثم تهلكها ويكون ماتقدم من القيح ، وهذا القيح يخرج من الجلد الذى ترققه جنود الجسم بأكلها إياه ليفتح فتخرج رمم الأموات وهو الصديد . وبعبارة أخرى تقذف رمم الأعداء خارج الجسم ؛ ولكن المسألة إذا وقفت عند الأورام والبثور والدماميل كان ذلك خيرا ، وإنما الأمر فوق ذلك ، فان هذه الجيوش قد تتغلغل فى الجسم وتدخل فيه أفواجا وهم من كل حدب ينسلون ، ولكن العناية الإلهية قد أعدت لهذا الحادث عدته فأمدت الجسم بالغدد اللمفاوية التى تقدم شرحها فى هذا التفسير ورسمها بالتصوير الشمسى ، وهذه هى القلعة الثالثة بعد الجلد وبعد قلاع الدماميل ونحوها ، ومعلوم مما تقدم فى التفسير أيضا أن الغدد اللمفاوية تربى فيها مخلوقات حية تتوارد بكثرة وتتجه إلى محل الحوادث الناشئة من تكاثر العدو الخارجى :

اللهم إنك أنت الحكيم وأنت المعلم ، هل كان يدور بخلد أحد فى الأرض قبل الآن أن الإنسان إذا جرح فى أصبعه ودخلت من ذلك الجرح ميكروبات لاعدد لها ، وهنالك نرى ورما تحت الإبط .

أقول : هل كان يدور بخلد أحد أن ذلك الورم الذى تحت الإبط إن هو إلا ثكنات لجنود الدفاع ورباط عسكرى ومقام تقوم فيه الجيوش لتسرع إلى محل الجرح لتحارب الجيوش الجرارة المنظمة .

سبحانك اللهم وبحمدك . جل وجهك ، وعز جاهك ، ولا إله إلا أنت ، ولقد قلنا فى بعض أجزاء هذا التفسير إن (اللمفا) يساعد على نموها أكل الزيت ، فالزيت إذن غذاء الجنود المخلوقين فى (اللمفا) والجنود تطرد الميكروب ، ولها ثكنات تخلق عند الحاجة نسميها ورما ، وأخرى نسميها خراجا أودملا ، وتارة يشتد المرض ، ويعظم الخطب ، فتحصل الحمى :

اللهم أنت الحكيم أحكمت صنعك ، فما هى الحمى ؟ هى من هـذا القبيل ، هى نافعة ، هى مصلحة ، هى نعمة ، فإن الجسم إذا لم يكن متزنا فى نفسه فإن الاستحمام بالماء الدافئ مع التدليك يصلحه ؛ وكذلك المعالجة بالكهرباء ، أو بالهواء الساخن ، أو بالبخار الساخن ، أو بالحرارة المشعة ، كل ذلك علاج له يرجع له التوازن ، لأن ذلك كله يرفع درجة حرارته درجة من الدرجات المئوية ، أو أكثر من درجة فيحترق الدم وهذا الاحتراق يوجب ذلك الاتزان ، فإذا قصر الإنسان فى ذلك أو جهله فلم يصنعه فإن الحمى هى التى تفعل ذلك فإن ارتفاع الحرارة بها يوجب احتراق الدم الذى يكون به ذلك الاتزان ، فاحتراق الدم فى الحمى وغيرها يكون بتلك المواد المخزونة فى الجسم والأخلاط المتراكمة ، إن الاستحمام بالشمس ومباشرتها للجسم يفعل

ذلك فيجب المبادرة إلى ذلك والاكثار منه ، ومثل ذلك كثرة التمرينات العضلية ، أو المشى ، أو كلاهما .

فقال صاحبي : عجب والله ! إذن الحمى والدماميل والأورام والقروح ليست أمراضا؟ قلت: كلا . فقال هاهنا ظهر الحق ، أنا أريد أن أقول لك الحق ، أنا كنت فيما مضى أسمعك تقول : إن المصائب إن هي إلا نعم واقرأ كثيرا مما تقدم ، ومع ذلك كنت غير موقن بها ، نعم عندى تصديق ولكن البراهين فى هذا المقال واضحة ، إن العلم اليوم وضح وظهر ، إنه اليوم يقين .

يقول الله : «إنا كل شىء خلقناه بقدر» ويقول المسلم فى صيغة إسلامه مانصه أمام رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يعاهده على الإسلام «وأن تؤمن بالقدر خيره وشره من الله» .

هذه الجملة يقولها المسلمون كلهم وهى فى القرآن ، يقول الله : «قل كل من عند الله» وإذا كان الأمر كذلك فالله من عنده الخير والشر ، واللغة العربية لاتقول إن الحمد يكون على الشر ، بل يقولون إن الحمد هو الوصف بالجميل على الجميل الاختيارى على جهة التعظيم ، إذن الشرور لاحمد عليها لأنها ليست جميلا بل هى قبيحة ، والنبوة تحثنا على الحمد على الخير والشر والله يقول : «ونبلوكم بالشر والخير فتنة» ويقول المسلم فى صلاته . «فلك الحمد على ماقضيت» والقضاء جاء بالشر وبالخير . فأحد شق القضاء لانحمد عليه ، وهذه عقدة العقد ولغز الوجود ، فهاهنا أخذت هذه العقدة تنحل ، وألفينا الدمل والخراج والأورام والحمى كلها منقذات لامهلكات ، وإذا كانت هذه من نوع الشرور فيما يظهر لنا وقدظهر أنها خيرات فالحمد عليها حتم ، إذن صدق الله وصدق رسوله فلك الحمد على ماقضيت ، لأنك إذا قضيت بما يؤلمنا فقد جعلته لمسرتنا وسعادتنا فهكذا موتنا وويلاتنا فى الحياة الدنيا كلها نعم لا نقم ، هنالك قلت له : الحمد لله الذى ألهمنا الحكمة وعلمنا الصواب وبهذا انتهى الفصل الأول فى تلخيص ماتقدم فى (سورة الفتح) مع زيادة عليه من نفس الكتاب السنوى الثانى للمجمع المصرى للثقافة العلمية .

الفصل الثانى فى علاقة أجسامنا بعوالم السموات والأرض
وما يتبع ذلك من طول العمر وقصره ، والصحة والمرض الخ

ولأذكر لك ملخصا مما ألقاه مواطننا الدكتور (محمد شاهين باشا) وكيل الداخلية للشئون الصحية عند طبع هذا الكتاب فى سنة ١٩٣١ فى المجمع المصرى للثقافة العلمية فى سنته الثانية ، وهذه من نعم الله عز وجل علينا فى هذا الزمان الذى ظهرت فيه بعض الحقائق ، وظهر لنا أن هذه النفوس الإنسانية قد ظلمها الناس فذلت بسبب الجهل بمقدار ماتتناوله من أرزاق السموات والأرض التى أنعم الله علينا بها ، إن محاضرته ألقاها فى ثمانية فصول :

(١) فى التعمير وأسبابه .
(٢) وفى هضبة الحياة والعوامل التى تعمل فيها ، والمراد بهضبة الحياة زمن الشباب وبعض مابعده .
(٣) وفى منحدر الحياة : أى فى آخر الكهولة وزمن الشيخوخة .
(٤) وفى أسباب الشيخوخة والموت .
(٥) ومنفذات الشيخوخة .
(٦) ثم الغدد التناسلية .
(٧) وتجديد الشباب .
(٨) ووسائل التجديد وإطالة العمر الخ .

وهذه

وهذه الفصول الثمانية ليست تهمنا كلها لأننا فى تفسير هذه الآيات ، فليكن كلامنا حول محورها ، لأن الفصول الأولى فيها مباحث خاصة فى أمر الغذاء والشمس ، وهذه هى آيات السموات والأرض المحيطة بالجسم فنستفيد (فائدتين : الأولى) التفكر فى هذه العجائب النافعة لأجسامنا (الثانى) نفس الانتفاع بها فى حياتنا الدنيا ، فيكون قوله تعالى : «أفلا تبصرون» راجع للعلم والعمل معا ؛ لأننا إذا بصرنا آيات الله بعقولنا فذلك لايتم إلا إذا كانت أجسامنا سليمة معافاة ، وهذان الأمران فى هذا المقام .

(١) أولا : قد جاء فى هذه الخطبة أن الأطباء فى العالم الإنسانى شرحوا جثث الشيوخ الذين ماتوا فاتضح لهم أن النادر منهم مات بسبب الشيخوخة ، وجمهورهم هم الذين ماتوا بأمراض كانت هى السبب المباشر لموتهم ، فعرفوا من ذلك أن هذا النوع الإنسانى جاهل بالغذاء جد جاهل ، والحيوان أقرب منه إلى حفظ صحته بتعاطى ماينفعه وترك مايضره .

(٢) ثانيا : إن الجسم البشرى يتم نموه فى سن (١٨) والسبب فى ذلك أن الجهاز العصبى معقد كل التعقيد فيطول زمان نموه فيعوق الجسم حتى يبلغ ١٨ وهناك يتم النمو ، هذا قوله (وقد تقدم أن نمو الإنسان لايتم إلا فى (٢٥) سنة ، فهذان رأيان ، وإنما نقلت لك الرأى الثانى لأنه تقدم فى هذا التفسير ، فربما تظن أن هذا خطأ فى النقل ولكن لاخطأ هما رأيان والرأى الذى يقول إنه (١٨) سنة لم أعرفه إلا فى هذا المقام ، يقول : ولولا تعقد الجهاز العصبى لكان الإنسان يتم نموه فى ٤ سنين ، ثم يموت فى سن (٢٠) . هذا قوله ، وأقول : وقد قرأنا فى الجرائد قريبا أن صبيا بلغ (٤) سنين فى تركيا فطلب أن يتزوج ، فهذا هو الذى عاش بجهاز عصبى أشبه بجهاز البهائم فتم نموه فى ٤ سنين . ثم قال : إن الإنسان يجب أن يكون سن الكهولة له من (٧٠) إلى (٨٠) سنة وهنالك تبتدئ الشيخوخة وتنتهى فى سن (١٢٠) . يقول : وهذه السن أى سن (١٢٠) لايصل لها من الناس فى زماننا إلا القليل ، وأبان أن الناس فى زماننا تبتدئ أجسامهم فى الضعف من سن (٥٠) وأخذ يذكر السبب فى ذلك فقال فى صفحة ٥٠ وما بعدها من كتاب (المجمع المصرى) للثقافة العلمية مانصه :

« يتنازع الإنسان فى ساحته الأرضية قوتان : القوة الحيوانية ، والقوة النفسانية ، وللقوة الأولى أكبر غلبة عليه فى الشطر الأول من عمره . وهو شطر الفتوة والشباب وبدء دور الكهولة ، ثم يأخذ فى التغلب عليها تدريجيا كلما تقدم فى السن حتى يفوز عليها عند بلوغه الستين من عمره فإذا ماوصل الإنسان إلى هذا الدور ، دور الرزانة والاتزان ، وتغلب بما كسبه من صروف الدهر وتجاربه على ما كان يتنازعه من متزاحم الأمانى والأحلام نضج عقله وأخذ يتفرغ إلى الاشتغال بالأعمال المجدية بحسب ماوهب من ملكة واستعداد ، ولكن المشاهد أن الإنسان عند مايبلغ الستين تفتر همته ، وتخمد جذوة نشاطه ، مع أن هذه السن هى سن النضج والانتاج العقلى ، وسبب ذلك الافراط فى مختلف الشهوات فى الأدوار الأولى من الحياة ، والإهمال فى اتباع شتى القواعد الصحية ، ولذلك قل من يحتفظ بشىء من قوة جسمه فى سن الستين ، والغالبية العظمى تعمل على هدم بنيانها ، وتدفع بنفسها إلى الشيخوخة العاجلة ، وتسعى إلى تقصير الأجل ، وتقريب يوم الرحيل من هذه الدنيا التى يرى الإنسان على الدوام جد حريص على إطالة بقائه فيها بكل الوسائل الممكنة ، فيختلف عن هذا التفريط الكثير من الأمراض التى يقع فريستها ، ويمتنع عليه الشفاء منها ، مع أنه بمجهود قليل يبذله الإنسان فى سبيل الاحتفاظ بصحته والاحتفاظ بجسمه يحيا معافى سليما ، وهذا المجهود ليس شيئا مذكورا فى جانب الجهود الكبيرة التى يضطر لبذلها فى التماس الشفاء من هذه الأمراض ، وهذه قد يشفى بعضها ، وقد يستعصى البعض الآخر على العلاج مع أن النجاة من هذه الأمراض لايكلفه سوى العناية باتباع

أوليات علم الصحة فى معيشته . ولقد كان الإنسان منذ القدم شديد الحرص على الاستدفاء والاكتنان ، واجتناب البرد والهواء ، وفى سبيل حصوله على أوفر قسط من الدفء كان يغلق منافذ مسكنه ، ويكثر من التدثر والغطاء هربا مما رسخ فى اعتقاده من مضار الهواء ، وقد درج على ذلك أجيالا عديدة ، ولم يتمكن علماء الصحة من زحزحته عن هذا الظن الخاطىء إلا من عهد قريب ، إذ نجحوا فى إقناعه بمضار الاكتنان فى المساكن المغلقة وبفوائد المعيشة فى الهواء الطلق الخالص من الفساد والأدران كما يعيش الحيوان الذى ألهمته غريزته بأن الهواء من ضروريات الحياة . ويشتغل علماء الصحة الآن بمحاربة عادة ذميمة أخرى فى الإنسان هى أشد ضررا بصحته من الانحباس فى المساكن المغلقة وهى عادة الإفراط فى الغذاء ، لأن الإنسان قد تعود - بحكم تغلب الحيوانية عليه - أن يرخى لنفسه العنان فى التلذذ بما تصل إليه يده من شهى الأطعمة والمأكولات فيتناول منها دائما أكثر من القدر الذى يستطيع جهاز الهضم أن يمثله ويستخلصه منها لتجديد قوى جسمه . مما يؤسف له أن جهل الانسان بأصول التغذية الصحيحة فاش بين جميع الناس على اختلاف طبقاتهم ، والإفراط فى الغذاء هو منشأ كثير من أمراض الجهاز الهضمى التى تكون غالبا مستعصية الشفاء وتودى بحياة الإنسان قبل الأوان ، وقد جاء فى الأحاديث الشريفة : « المعدة بيت الداء ، والحمية رأس الدواء ».

ويبدأ فى عصرنا هذا أن يدب الوهن إلى جسم الإنسان بعد بلوغه سن الثلاثين ، ومتى وصل إلى سن الخمسين تبدأ حالة جسمه فى التردد بين القوة والضعف ، ويمكن الاستدلال بكل سهولة على شذوذ حالته بما يشاهد من ضخامة بطنه ، وقد اعتاد الناس أن ينظروا إلى السمن بعد سن الأربعين كأنه أمر طبيعى ، ولا يهتم الواحد منهم بأن يزيد وزن جسمه فى هذه السن خمسة كيلو جرامات أو سبعة وهو لا يعلم أن زيادة وزن الجسم فى هذه السن من الأمور الضارة به ، وأن حصول الجسم على هذه الزيادة إنما هو دليل على أن أجهزته قد كلفت ماهو فوق طاقتها وخصوصا الجهاز الهضمى ، ولذلك فلا يستغرب إذا ضعفت هذه الأجهزة قبل الأوان ، ومع أن المادة الشحمية التى يزدردها الجسم فوق حاجته تختزن فى الأنسجة التى تحت الجلد إلا أن الثابت أن بعضها يتسرب إلى بعض الأعضاء الرئيسية والأعضاء المجاورة لها فيزداد وزنها ، وبعد ذلك تقل صلاحيتها لتأدية وظائفها . ويمكن أن نقرب للأذهان إدراك مقدار ما يحدثه السمن من الضرر للجسم بذكر ما ينشأ من ضرر لأحد خيول السباق إذا زيد ثقل رطلين مثلا فماذا عسى أن يكون تأثير زيادة سبعة كيلو جرامات فى أنسجة جسم إنسان فى سن الخمسين ، فإن هذه الزيادة قد تحول دون وصول هذا الإنسان إلى مابعد السبعين ، وليس من شك فى أنه من أخص الأسباب التى تعجل وفاة الانسان هى أخطاء التغذية الشائعة بين الناس لاعتقادهم بأن الاكثار من الغذاء ينمى الجسم ويقويه ، والنتيجة المحتمة للافراط فى الغذاء هى إنهاك قوى الجسم وإضعافه والتعجيل بوفاة الانسان قبل الأوان .

ولا يفوتنا أن نذكر أن الذين تبرز بطونهم بسبب الإفراط فى الغذاء ، وتتشحم أحشاؤهم وأفخاذهم يصابون بداء الملوك ، أو بارتفاع الضغط الدموى ، أو البول السكرى .

وبالاختصار فإن المفرطين فى الأكل يحملون أجسامهم أعباء ثقيلة ويسوقونها نحو التلف والدمار ، ويتبين من ذلك بأجلى وضوح أن الاعتدال فى الغذاء هو الطريق الأكيد المؤدى إلى التعمير الطويل ، وقد يتساءل البعض عن مدى هذا الاعتدال . والجواب عن ذلك هو أنه يجب على الإنسان أن يوازن بين مقدار مايكسبه جسمه بواسطة الغذاء ، ومقدار مايفقده بالحركة والعمل ، ويشمل هذا الواجب عناية الإنسان بنوع مايتناوله من الغذاء ومقداره ، ولو أننا وازنا بين تغذى الإنسان وتغذى الحيوان لاتضح لنا

أن

أن الطريقة التى يسير عليها الإنسان فى غذائه إنما هى طريقة خاطئة ، وبما أن الإنسان لايختلف تركيب جسمه فى شىء عن الحيوان والحيوان لايتغذى إلا بالمواد الطازجة فكذلك الإنسان فى حاجة قصوى إلى هذا النوع من الغذاء .

انظر إلى اللحم ، فمع أنه أهم غذاء يحصل منه الإنسان على المواد البروتينية وعلى الفيتامين لدرجة ما إلا أنه يفقد مابه من الفيتامين بالطبخ ، وكذلك الخضر ، ونذكر بهذه المناسبة ذلك الخطأ الشائع بين معظم الناس : وهو أنهم يخصون الحيوان بقصد أن يزيدوا من مقدار لحمه وشحمه ، وهذا خطأ فاحش لأن هذا الحيوان وإن ازداد سمنه بالخصى فإن اللحم تقل قيمته الغذائية ، ويصير أقل تغذية من لحوم الأسماك والطيور . والسكر هو من الأغذية التى تؤذى الانسان إذا أفرط فيها لأن الخمائر التى تؤثر فى السكر وتمثله فى الجسم محدودة المقدار ، فإذا تناول مقدارا من السكر أكثر من مقدار الخمائر التى تؤثر فى تمثيله كانت نتيجة هذا الاكثار أن يصاب الانسان بعسر الهضم ، وإذا أخذ فى قوام سوائل مركزة فإنه يسبب تهيجا فى المعدة ويجعلها تكثر من إفراز المواد المخاطية ، وقد ينشأ عنه نوع من البول السكرى الذى ربما انقلب إلى بول سكرى مستديم وهذا من أسباب قصر العمر بلا نزاع ، فمن ذلك يرى أنه يجب على الإنسان أن يعود إلى الغذاء الطبيعى وهو المركب من المواد غير المطبوخة .

ولابد لنا هنا من التكلم عن الأملاح التى هى من مقومات الجسم ، وإذا كان دم الانسان لايختلف فى تركيبه عن تركيب ماء البحر ، ويشتمل على الكربات والمواد العضوية السابحة فيه ، فمن الحتم تجديد أملاح الجسم من وقت لآخر ، لأن سائلها يغمر جميع الأنسجة ، فأملاح الجير واليود والمغنسيوم والصوديوم والبوتاسيوم والحديد ليست ضرورية فقط لحفظ الصحة بل هى ضرورية أيضا لحفظ الحياة وهى لاتوجد بمقدار واف فى غذائنا المطبوخ ، واليود مثلا نحصل عليه من المحيطات بما نأكله من أسماكها ونحصل عليه فى ملح الطعام ، ولكن مما يدعو إلى الأسف أن الانسان بجهله ينزع اليود من ملح الطعام بتكريره وتقديمه للطعام باسم ملح المائدة ، ونحصل على الكالسيوم من اللبن والخضر وبعض الفواكه ، وعلى الفوسفور من اللبن والبيض وبعض الحبوب ، كما نحصل على اليود أيضا من الخضر وزيت كبد الحوت ، ونحصل على القلويات من الخضر والفواكه ، وكل خضر تكثر فيها الأملاح يكون الفيتامين موجودا فيها بكمية وافرة ، ويمكننا أن نعتبر أن المواد الغذائية المستوفية للطبخ هى نوع من أنواع السموم ، وما دام الإنسان مستمرا على التغذى بها فلا شك أنه سيبقى فريسة هذه السموم التى تهدم كيانه وتحول بينه وبين البقاء فى هذه الحياة المدة التى كان من حقه أن يقضيها فيها .

ووجوب تخلص الجسم من فضلات الغذاء لايقل أهمية عن اختيار أحسن أنواع الأغذية وأنسب مقادير منها ، والخطر الناشىء عن كسل الأمعاء فى طرد فضلات الطعام لايقل عن الخطر الناجم عن التغير الذى يطرأ على الدم ، لأن هذا التغير غالبا مايكون سبب مرض الشرايين ، فتصلبها مثلا ينشأ عن التهيج المزمن الذى يحصل بادىء ذى بدء فى النسيج المبطن لها ، وذلك نتيجة احتكاكها بالدم غير النقى فى أثناء مروره فيها ، ويمكننا أن نجزم أيضا بأن الكسل الذى يصيب الأمعاء ينجم غالبا عن السموم التى تحملها المواد التى توجد فى هذه القناة إذ معلوم أنه توجد بعض مواد مهيجة للقناة المعوية كما توجد بعض مواد أخرى مسكنة لها وكذلك توجد بعض الأغذية أو فضلاتها أحد للفعلين ، وإذا كان الغذاء الذى نتناوله غير صالح ومنزوعا منه المواد الضرورية للجسم فيحق لنا القول بأن غذاء كهذا لايمكن أن ينبه عضلات الأمعاء ، بل ربما كانت مواده معطلة لها ، أو مسببة لشلل فى حركتها ، ومن هذا نرى أن الأطعمة الخالية من الفيتامين ، أو المركزة التى

اعتاد الانسان أن يتناولها لاشك أن لها دخلا كبيرا فيما تصاب الأمعاء به من كسل ، وكلنا نعلم أن الأطعمة التي لا تترك فضلات كافية يتولد عنها إمساك ؛ وغني عن الذكر أن الأغذية المطهية أو المركزة الشائعة الاستعمال الآن تنقصها هذه المواد الضرورية وهي الفضلات ، وهذه الأطعمة المطبوخة تكون خالية أيضا من مواد ضرورتها للانسان كضرورة الفيتامين ، وهذه المواد لا توجد إلا في الأطعمة التي بحالتها الطبيعية ، وهـذه المواد وإن كانت تصعب الآن معرفتها إلا أن فعلها قد أصبح معروفا وهي مواد مجرد وجودها يوقظ النشاط في بعض التفاعلات الكيمائية التي تحصل في الجسم ، ولولا وجودها لما نشطت تلك التفاعلات . خذ مثلا ثاني اكسيد الهدروجين فانه ينحل مع وجود مادة غير قابلة للذوبان كغلز الفضة بينما الفضة لا يحصل بها أي تغيير ، وكذلك خمائر الأمعاء تنشط في عملية تحليل الغذاء مع وجود مواد كهذه في الأطعمة بحالتها الطبيعية ، وقد تكون هي أهم عامل في عملية الهضم ، ويستخلص من ذلك أن الإنسان مع كونه أرقى مخلوق هو الحيوان الوحيد الذي لا يعرف كيف ينتقي غذاءه ، وكأنه قد فقد من هذه الناحية غريزة الابقاء على النوع ، وأكبر شاهد على ذلك استسلامه للتسمم المزمن الذي يصيبه من التغذية الخاطئة وهو قانع راض عن ذلك ، بينما هو في الواقع يعرض جسمه وعقله للتلف والهلاك بسبب شرهه وجهله وتكون النتيجة التي لابد منها أنه لا يعيش بأي حال من الأحوال في هذه الدنيا المدة التي هي حق من حقوقه كما عاش آباؤه الأولون .

ومما يجلب التلف للصحة ما يتناوله الإنسان من سموم مختلفة كإدمان شرب الكحول وغيره من السموم مع أنه لو توفر على العناية بنفسه وهو أكمل مثال لأقصى ما وصل إليه الارتقاء في أنواع الحياة لعاش متمتعا بالصحة الجيدة إلى أقصى مدة ممكنة ، ولاستقبل الموت بعدها ضاحكا مستبشرا ؛ لأن هذه سنة الله في خلقه ولن تجد لسنة الله تبديلا ، بل هذه هي النتيجة الفسيولوجية للحياة بحسب ما وصلت إليه معلوماتنا وإن كان البحاث قد تمكنوا من استنبات الخلايا على مختلف أنواعها ولكنها الخلايا السليمة من العطب ، وكل هذا يزيد ما ذهبنا إليه من الاستهانة بآلة الجسم المحكمة الصنع التي هيئت للقيام بكل عمل من عظائم الأعمال يؤدي بها إلى الدمار ؛ والعناية بها تمكن كل إنسان من حياة طويلة مقرونة بالعافية والرفاهية مع التفوق فيما يباشره الإنسان من الأعمال » .

هذا ما أردت نقله من كلامه بنصه ، وأزيد عليه ملخص ما ذكره بعد ذلك ، فهو يقول في صفحة ٦٥ من الكتاب المذكور ما نصه :

(١) « إن (ميتشنكوف) يقول إن التعمير ممكن بتدابير تتخذ لتطهير الأمعاء . وقال : إن هذه النظرية لا تزال بعيدة لم يعترف بها العلماء . وقال : يجب اجتناب جميع الأطعمة الدسمة من كل نوع ، وخصوصا اللحم ، وعدم تناول الخمر . ثم قال : ويقول (ميتشنكوف) أيضا بأنه إذا وصل الإنسان صحيحا إلى متوسط طول العمر الطبيعي ولم يصبه الانحلال الشيخوخي فإنه يكتسب غريزة جديدة وهي غريزة الاستخفاف بالموت ، فيصبح الموت والحياة عنده سيان ، ويستقبل الموت كما يستقبل النوم العادي . وقد اتفق الكثيرون من البحاث على أن لكل نوع من الكائنات طولا طبيعيا للعمر ، لأن العمليات الفسيولوجية التي تجري في أجسامها تعين عدد السنوات التي يصل إليها كل نوع من أنواع الكائنات » .

(٢) ثم أخذ يشرح في صفحة ٦٩ وما بعدها هذا المقام فقال : « أولا إن الناس لا يكادون يبلغون سن الخمسين حتى ينحدروا إلى الضعف فالموت ، ذلك لأنهم لا يملكون زمام أنفسهم ، بل يتركونها فريسة للشهوات ، فلذات الشباب مقربات المشيب والهلاك والردى والموت ، فالإنسان يصل إلى قمة الحياة في سن الثلاثين ؛ ثم بعد ١٥ سنة أو نحوها ينحدر إلى أدنى ثانيا بخطئه وجهله ، وإذا وصل إلى ما بين ٥٠ و ٦٠ سنة

تظهر على أسارير وجهه علامات الضعف وإنهاك القوى من فعله هو وجهله ولذاته، وكثرة أغذيته الخاطئة، ويضعف سمعه وشمه، وتيبس مفاصله، ويزداد وزنه من خمس كيلو جرامات إلى ١٠ ويشكو الإمساك، ويشكو تمدد الأوردة فى ساقه فيضعف».

(٣) ثم أخذ فى صفحة (٧٠) يذكر مايجب أن يكون عليه الغذاء. قال مانصه بالحرف فى الكتاب الثانى للمجمع المصرى للثقافة العامة: «لاأحاول هنا أن أشرح وسائل التغذية فى كل أدوار الحياة وإنما أمر عليها لماما، لأنه ليس من شك فى أن لها دخلا كبيرا فى حفظ الصحة، وبالتالى فى التعمير، وأعيد هنا أنه يجب على الإنسان أن يتناول مواد الأطعمة بحالتها الطبيعية، لأن الإنسان فى مبدأ خلقه لم يجد لحفظ حياته إلا الجذور والفواكه والأعشاب ومنتجات اللبن، وإذا أراد لحما كان يجده فى الجراد، ومن الراجح أنه كان يأكله نيئا فلكى نتجنب أذى السموم التى تؤذى الأمعاء الغلاظ، وبالتالى تسمم الغدد الصماء يجب أن نتعلم هذا الدرس البسيط من الإنسان الأول ألا وهو وجوب استعمال المواد الطبيعة غير المطبوخة فى غذائنا وهى الخضر والفواكه ومنتجات اللبن، وليس معنى هذا الاقتصار فى الغذاء على ماذكر بل نقصد بهذا أن يشمل غذاؤنا كمية وافرة من هذه المواد مع غيرها، ولا شك أن الطعام المتوافرة فيه هذه المواد الطازجة يؤدى إلى عدم تعرض الشيوخ إلى أمراض عديدة كالتهاب المفاصل وعسر الهضم وارتفاع ضغط الدم والإكزيما. ولايخلو من الفائدة أن أذكر هنا بعض ملاحظات عما يجب تناوله من الأطعمة فى الأوقات المختلفة من اليوم؛ فطعام الإفطار يجب أن لايكون مثقلا بالأطعمة المتنوعة، إذ من الواجب على الشخص أن يبدأ نهاره بغذاء خفيف، لأن الصباح هو وقت إخراج مفرزات الجسم، فلو أرهقنا أعضاء الهضم بالعمل فى ذلك الوقت فإن جزءا عظيما من نشاط الأعضاء (طاقتها) يقل؛ وفى هذا ضرر بلا شك لأن الأنسجة تغمر بالسائل اللمفاوى أثناء النوم فى العمل وتلقى اليه بفضلاتها، وهذه الفضلات يتخلص منها فى الساعات الأولى التى تعقب النوم، ولذلك فإن قاعدة تناول وجبة طعام خفيفة فى الصباح ترتكز على أساس فسيولوجى، ولهذا السبب كان الأرق مجلبا للنحافة، وحبذا لو كان طعام إفطارنا مماثلا لما كان يتناوله آباؤنا الأولون، وهو لم يكن إلا فاكهة طازجة أو خضرا. وأما الوجبة الثانية فيلاحظ فيها أن تكون خفيفة أيضا، لأنه ليس من الحكمة فى شىء أن تثقل أعضاء الهضم بالعمل بعد فترة راحة فضلا عن أنه يعقب أكلة نصف النهار عادة بعض العمل سواء كان عقليا أو جثمانيا، وذلك عند معظم الناس، والا اضطر الإنسان إذا أكل أكلة ثقيلة إلى غفوة بعدها وحبذا لو انتفع الناس بأكل الخضر باعتبارها من السلطة بدل طهيها، وبذلك لاتفقد معظم مزاياها ومن المستحسن جدا أن يستعاض بالفاكهة الطازجة عن الحلوى المطبوخة بتاتا، ولو اتبع المبدأ الذى أشرت اليه فى وجبة الظهر لأمكن كل إنسان أن يقوم بعمله بعد هذه الأكلة بغير ملل أو فتور أو شعور بثقل فى الدماغ، أو ميل للنوم، وقبل أن أتكلم عن طعام العشاء أشير إلى عادة استحدثت فى بلادنا وهى عادة تناول أكلة خفيفة وقت العصر، وهى المعروفة بأكلة الشاى، وهذه الأكلة ضارة من الوجهة الفسيولوجية، ولا حاجة لها البتة، لأن المعدة تحتاج إلى أربع أو خمس ساعات لهضم أكلة الظهر، فإذا فرضنا أن أكلة الظهر تنتهى عند غير الموظفين حوالى الساعة الثانية، وعند الموظفين حوالى الساعة الثالثة، فلاشك أن الجهاز الهضمى يكون مشغولا فى الهضم حتى الساعة السابعة أو الثامنة، فكيف يكون حال هذا الجهاز عند مايتناول أكلة أخرى حوالى الساعة الخامسة أو السادسة لاشك أنه يصبح فى حالة سيئة، ولا يمكن أن يسمح بهذه الأكلة مهما قيل عن الشاى أو القهوة من أنهما منبهان لذيذا الطعم. ولايغيب عن البال مايؤخذ معهما من كعك وزبد وغيرها وأما أكلة العشاء فلابأس من احتوائها على نوع من اللحوم مع تناول مقدار قليل منه وعلى

شيء من الخضر المطهي ، ويجب أن تحتوي كذلك على جانب من الفاكهة ، ويلاحظ أنه أحيانا ماينشأ عسر الهضم أو الأرق عن تناول فنجان القهوة الذي يؤخذ عادة بعد العشاء ، ولأنبه هنا إلى أن الأرق الذي يكون منشؤه مرضا معروفا أومشاغل ذهنية لاشك في أن سببه عسر الهضم ، وعلاجه لايكون بتعاطي المنومات ، أو المخدرات ، بل بفحص حالة الجهاز الهضمي وتنظيمها مع تناول دواء بسيط للمعدة . ويلاحظ أني لم أذكر شيئا عن أنواع الفيتامين وفوائدها ، وقد تعمدت ذلك لأني وجدت أن لاضرورة لذكر شيء عنها مادمت أحض على تناول المواد الغذائية بحالتها الطبيعية ، وهي المصدر الوحيد للفيتامين . ومن الأضرار البليغة التي تنجم عند متوسطي العمر ، أو الشيوخ من الإفراط في التغذية عجز الكبد عن القيام بتنقية الدم الذي يمر فيها فينشأ عن ذلك التسمم العام الذي تشاهد أعراضه عند المصابين بعسر الهضم بسبب الإفراط في التغذية فضلا عن التأثير السيء الذي يحدث للكبد وللجسم عموما من تعفن وتخمر الغذاء الزائد عن الحاجة في الجهاز الهضمي ، هذا علاوة على الاضطراب الذي يحدث في الغدد الصماء ، ويظهر أثر ذلك جليا ، وخصوصا عند المرأة ، ولاسيما في سن اليأس لأنها تكون قد فقدت الافراز الداخلي للمبيضين ، والمسألة لاتتعلق بما تطيقه المعدة وما تقدر عليه من العمل ، بل انها أيضا مسألة ما يتيسر للأجهزة المخرجة قذفه من الجسم ، فلو فقد الجسم التوازن في إجراء كل هذه العمليات لما أمكنه أن يقضي مدة طويلة في الحياة وهو سليم ، ولتأثرت جميع الأجهزة الهامة كالدورة الدموية والجهاز البولي ، ولاينجو أي جهاز آخر حتى الجلد نفسه من الاختلال ، وقد عرف العلم حديثا بعض الخاصيات الطبيعية المهمة بعد أن درست بعناية ، ومنها تأثر الجلد بضوء الشمس ، وقد أصبح فنا خاصا يعرف بالمعالجة بالشمس وصار المعتقد الآن أن لضوء الشمس علاوة على وظيفة تنقية سوائل الجسم من المواد السامة خاصية تنبيه عملية الاستحالة الغذائية ، أو الميتابولزم بدرجة أنه يعيد نشاط الأنسجة المريضة إلى العمل الصحيح . وغني عن البيان أن ضوء الشمس هو المطهر الطبيعي الذي يقتل الميكروبات بغير شك وهذه الخاصية تمتاز بها الأشعة التي فوق البنفسجية المنبعثة من طيف ضوء الشمس ، ولهذه الأشعة مزايا أخرى ، منها أنها تعين على تمثيل المواد الجيرية بمقادير وافرة في الجسم كما أنه يستعاض بها عن عدم اتزان الغذاء نتيجة نقص الفيتامين فيه ، فيتضح من ذلك أن فعل هذه الأشعة متساو مع افرازات الغدد الصماء ومع الفيتامين ، هذا ولاشك في أن ماتحدثه من صبغ الجلد إنما هو ذو علاقة أكيدة بالغدد الصماء ، وخصوصا الغدد التي فوق الكلى والغدد النخامية . وقبل أن ننتقل من موضوع الغذاء أجدني في غير حاجة إلى أن أتكلم عن الخمر وعن أثرها في منع التعمير ؛ لأن هذه الأضرار أشهر من أن تذكر ، وجدير بي أن أشير بكلمة عجلى إلى باقي أجهزة الجسم ، وخير الطرق للمحافظة على سلامتها إذ لايحتمل المقام الإطالة ، فأبدأ بالرئتين ، ولا نزاع في أن خير مايجدد قوتهما هو الهواء النقي ، وهو لهما بمثابة الحمام للانسان ، لأنه بلا جدال العامل الأقوى في تجديد شباب كل عضو من أعضاء الجسم من المخ حتى الجلد . ومما يؤسف له أن كثيرا من مواطنينا الأعزاء لايقدرون هذه الأداة الفعالة حق قدرها ويهملون الانتفاع بها مع أنها في متناول الجميع هبة من الله تعالى بلا عوض . وأما الجهاز العصبي وجوهره المخ ، فهو للانسان بمثابة الطبقة الحاكمة من الشعب تدبر أموره ، فتدر عليه المنافع ، وتدرأ عنه الغوائل ، وأكبر أعداء هذا الجهاز اثنان . وهما القلق والمشاغل الفكرية إذا تمكنتا منه كانت نتيجة ذلك الحتمية قصر العمر . أما الترياق الفسيولوجي لهذه الحالة فهو اجراء التمارين العضلية الشديدة لتجديد نشاط الأعصاب ، ومنع طاقتها من الفقدان ، دون الاستعاضة عما يفقد منها بقدر جديد من الطاقة ، ومادام جهازنا العصبي سليما نستطيع أن نتغلب على جميع الأمراض الجسمية والنفسية بقوة الإرادة » اه

(٤) ثم أخذ يشرح فى صفحة ٨٠ ومابعدها (منحدر الحياة) فقال : « مهما عنى الإنسان بصحته ومهما كان قويا متين البنية فلا شك أنه يأتى عليه يوم يشعر فيه بأنه يهوى فى منحدر الحياة جثمانيا لأنه ليس من الضرورى أن تتناقص القوى العقلية كلما تقدم الإنسان فى السن ، ويمكن تعليل بقاء القوى العقلية سليمة حتى سن متقدمة أوحتى نهاية الشيخوخة بأن المخ يستمر نشطا على حساب العضلات والمفاصل وباقى الأنسجة التى كلما تقدمت السن قل عملها ومايتبقى من نشاط فى جهاز الدورة الدموية تنصرف طاقته إلى العضو الأكثر احتياجا اليه ، وهو العضو الذى يستمر نشطا حتى آخر الحياة ألا وهو المخ ، وهناك تعليل آخر ، وهو أنه بما أن المخ آخر مايتم نموه فى الجسم فطبيعيا يكون آخر مايتأثر بالشيخوخة ، ولذلك نجد أن الأوعية الدموية التى تكون تامة النمو عند الولادة هى ضمن أجزاء الجسم التى تبدأ فى التأثر بالشيخوخة ، ولكن مع ذلك فالمخ يصله نصيبه من الدم كاملا بينما يكون قد قل نصيب أجزاء أخرى من الجسم ، وكلما استبقى مجرى الدم فى حالة معقولة من النقاوة كلما كانت قوى المخ لاتتأثر ، وعندئذ يأتى دور استحالة الأوعية المخية عادة متأخرا ، وهذه الاستحالة تنشأ عن تأثير السموم إما على جدر الأوعية أو على الدم كما سبقت الإشارة إلى ذلك . وليس معنى ذلك أن النشاط المخى لايتأثر بدور الهبوط الجثمانى بل بالعكس ، فإن هذا النشاط تتغير طبيعته ، ولو أن هذا التغير يتناول نوعه أكثر من مقداره (طاقته) فالإنسان بمجرد مايجد نفسه فى المنحدر يلقى الخيالات ظهريا ، ولو أنه يستبقى مااعتبره المثل الأعلى من أفكاره وتفقد الشهوات والعواطف حدتها حتى أن بهرج مظاهرها كالغزل وروايات الحب لاتوقظ شعوره كثيرا ، وكذلك لاتستهويه تلك الجاذبية العجيبة التى انفرد بها الجنس اللطيف ، ورغم ذلك يستبقى نشاطه الذهنى ، فأمام هذه الاعتبارات ، وتلقاء هذه الميزة التى اختص بها المخ من احتكار جزء من الدم له فى مؤخر الحياة أصبح على الإنسان لزاما أن يستفيد من هذه الميزة فلا يترك قواه العقلية يعلوها الصدأ ، وعليه أن يستمر عاملا فى هذه الحياة لأن التجارب أثبتت أن الرجل الذى ينسحب من ميدان العمل مبكرا يموت مبكرا ، وهذا بعكس النظرية التى كانت سائدة بأن الاستعمال التام لأى عضو ينهكه ، ويسبب الإسراع فى استحالته ، ولكن قد لوحظ أن أغلبية سعاة البريد يندر أن تصيبهم أمراض فى أطرافهم السفلى كما يندر أن يصاب الذين يشتغلون أشغالا عقلية بالتهاب سحائى ، ولكن هذا لايمنع من أن الذين أسرفوا فى استعمال بعض أعضائهم يكونون عرضة لأن يجنوا عواقب سيئة نتيجة إسرافهم ، أما المخ فالغالب أنه لايمكن أن يحل به الإجهاد لدرجة تسبب انحطاطه قبل الأوان ، وهذا بطبيعة الحال لايصدق على العواطف ولكن يقصد به النشاط العادى ، لأن الإنسان قد يدفع نفسه إلى التفكير لمدة طويلة ولكن يأتى وقت لايتيسر له فيه أن يستمر فى التفكير ، فبينما يستمر المخ فى حاجته إلى نصيبه كاملا من الدم تكون حاجة معظم باقى أعضاء الجسم للدم قد قلت وهذا واضح فيما يتعلق بالعضلات والعظام والمفاصل ولكنه يحتاج إلى شىء من الإيضاح فيما يتعلق بأعضاء الهضم ، وتعليله هو أنه بضمور العضلات تقل كفايتها للتصرف فى منتجات الهضم ، ولذلك وجب أن تخفض كمية المواد الغذائية التى تدخل الجهاز الهضمى ، وهذا يقلب معتقد أسلافنا رأسا على عقب من جهة تغذية الشيوخ لأنهم كانوا يعتقدون وجوب تغذية الشيوخ بسخاء ، وكانوا يظنون أن مثل ذلك كمثل الدعائم التى تقام لتوطيد الجسم الشائخ الهش الهيكل ؛ ولاشك أن هذا المبدأ كان أضر مايكون بالشيوخ ، لأن الاعتدال فى الغذاء ليس لازما للشيوخ فحسب ؛ بل للناس فى كل الأعمار . ومما يشاهد أثناء الهبوط فى منحدر الحياة تساقط الأسنان ، وهذا أمر غير طبيعى ، وحدوث ذلك نتيجة لازمة للافراط فى أكل اللحوم والمواد السكرية وعدم العناية بالأسنان بعد هذا الإفراط ، وهاهو السير اسحاق نيوتن لم يفقد إلا سنا واحدة فى سن الخامسة والثمانين ، وكذلك ضعف الأبصار ، وهو معظم

الأحيان ينشأ عن تيبس العدسة ، ويبدأ ما بين سن ٤٥ و ٥٠ سنه ، وضعف العضلة الهدبية ، وقد يصحب تأثر جهاز الإبصار في هذه الفترة من الحياة ظاهرة فقد حدة السمع ، حتى أنه يندر وجود شخص يتمتع ببصر وسمع سليمين بعد سن الستين . وضعف السمع ينشأ عادة بسبب ضمور العصب السمعي وان كان يحصل أحيانا بأسباب أخرى كتثبيت عظم الركاب أو إصابة صماخ الأذن الظاهرة بالأكزيما القرسية ، أو تجمع الصملاخ به كما قد يصابون بطنين الأذن أو بسماع أصوات داخلية متعددة وهذا يسبب لهم مضايقة كبيرة ، وكذلك قد يشعرون في هذ الدور بدوخة قد تكون بسبب مرض في الأذن ، أو ورم في المخيخ ؛ أو غير ذلك من الأمراض المخيه ، أو أمراض العيون ، وقد أشرنا إلى الدوخة الوقتية التي يصاب بها الشيخ عند قيامه من الفراش ؛ وقلنا إن سببها ناشيء عن ضغط الدم الذي قد يرتفع بسبب انقباض الأوعية الدموية من تصلب الشرايين ، وكلما انحدر الانسان نحو نهاية العمر كلما ظهرت علامات ذلك على الجلد وملحقاته حيث يجف الجلد ويرق ويصير أملس وتظهر فيه تجعدات ، فيتغضن الوجه بسبب اختفاء النسيج المرن والنسيج العضلي ، وهذا يدل أيضا على أن الأوعية الشعرية تقل في الحجم والعدد حيث تضمر بسبب عدم الاستعمال ، فتتأثر تغذية الجلد ، ويعقب ذلك اصفرار أو شحوب اللون ، وإن كان يشاهد عند بعض الشيوخ نوع من التلون في جلودهم ، ويظن البعض أن هذا إنذار بمرض خبيث ، كما أن هذا التلون ربما يكون وسيلة للوقاية من بعض الأشعة التي في طيف الشمس حتى أنه إذا ظهر هذا التلون يكون ذلك دليلا على نقص فسيولوجي في الإنسان ، وهـذا النقص خطر في بلاد المنطقة الحارة ، وقد يفسر هذا النقص بعدم كفاية الغدد التي فوق الـكلى ، أو الغدد النخامية ، وقد يكون النمش محاولة مبكرة لتدبغ الجلد فيحل محل التلون ، ويسبب هذا التلون أيضا التعرض للشمس ، وقد يستعاض عن عدم التلون بنمو الشعر غير الطبيعي ، لأن اللون في جلد الانسان يقوم مقام الشعر في القردة من حيث الوقاية ، ولذلك يتأثر الجلد كثيرا خصوصا في زمن الشيخوخة في الذين ليس عندهم استعداد لحدوث التلون في جلودهم ، أو لنمو الشعر فيها بغزارة غير طبيعيه » :

(٥) ثم أخذ في صفحة ١٢٢ وما بعدها يشرح وسائل تجديد الشباب وإطالة العمر ، فعول كثيراً على نظام الغذاء ، وقال : « قد ألمعنا في كلماتنا السابقة إلى وسائل تجديد الشباب وإطالة العمر ، وأتينا على بعضها ، وتحقيقا للغرض الذي حدا بي للعناية بهذا الموضوع أفرد هـذا الفصل لجمع شتات هذه الوسائل . تنقسم الوسائل التي نحن بصددها إلى ثلاثة أقسام : القسم الأول يتعلق بالمحافظة على الصحة الشخصية منذ يوم أن يتنسم الإنسان أول نسمة في الحياة حتى سن الـكهولة ، والقسم الثاني موضوعه طرق العناية بالـكهولة في أطوارها المتأخرة وبالشيخوخة ومنذراتها ، ويبحث القسم الثالث في وسائل مدارك مضاعفات الشيخوخة ، وسنتوج هذه المواضيع ببسط أثر المحافظة على الصحة العامة في تجديد الشباب والتعمير — :

(١) فأما وسائل المحافظة على الصحة الشخصية حتى سن الـكهولة فهي عديدة ، وقد قتلت بحثا ووضع فيها المختصر والمطول من المؤلفات ، وعم صوت رجال الصحة والاجتماع في تلقين مبادئها للناس كافة في قطرنا المحبوب أو في غيره من الأقطار ، وقد أخذ الـكثيرون من أفراد المجتمع في اقتطاف ثمار هذا المجهود العظيم حتى أصبح كل بيت لا يخلو من مبشر للصحة . ومما أذكره بالإعجاب أنه يغلب في بلادنا أن يكون هذا المبشر من أبنائنا الشباب فتيانا وفتيات ، ولذلك سأذكر بعض المخالفات البارزة لسنن الطبيعة ، وألحقها بطرائق معالجتها فأقول : —

(١) يشمل هذا النوع من الوسائل ، وهو الذي له الفضل الأكبر في إطالة العمر العناية بالصحة الشخصية من كل ناحية من نواحيها كالانتفاع بالهواء النقي ، وقضاء معظم الوقت في الهواء الطلق والعناية بالثياب من

حيث

حيث تناسبها مع الفصول ، والاهتمام بأمر الطعام والتغذية من حيث النوع والكمية ، والامتناع عن إعطاء الفرصة لأى سم كان من التسرب إلى الجسم سواء كان من الداخل أو الخارج ، ومعنى ذلك العناية التامة بالنظافة الشخصية ، فما أحكم الحديث الشريف القائل « النظافة من الإيمان » لأنه جمع فأوعى ، ومن الوسائل الهامة والموصلة إلى إطالة العمر بلا نزاع الوقاية من الأمراض السرية ، وكذلك العناية بالأسنان واللثة التى تتسرب عن طريقها سموم جمة بسبب العفونة التى تنشأ عن فضلات الطعام الراسبة عليها ، أو التخللة لها ، ولا يفوتنا أن ننبه إلى فائدة الحركة سواء بالاستعانة بأى نوع من أنواع التمرينات الرياضية ، أو الصلاة ، أو الألعاب ، وكذلك توجه الأنظار إلى مزية الرياضة العقلية إما بالقراءة الصحية ، وهذه تتنافى كلية مع القصص المحشوة بسافل المعنى وبذىء العبارة ، أو بوسائل أخرى ، إذ من الرياضة العقلية أيضا بعض الألعاب التى تحتاج لفكر وروية ، وهذا بطبيعة الحال بغير إفراط أو إجهاد . ومن الأمور البدهية حاجة الجسم والعقل إلى الراحة ، وأهم وسيلة لذلك هى النوم الهادىء ، والأهم من ذلك كله أن يكون للانسان عمل يقوم به يعود نفعه عليه وعلى بنى جنسه ، لأن البطالة من موارد التهلكة للجسم والعقل .

(٢) ومما يساعد كل المساعدة على إطالة العمر الإقلال من تناول الأطعمة المركزة أو المطهية التى تعمل على هدم كيان الجسم ، وأن يعود الانسان إلى الأغذية الطبيعية التى هى أنسب الأغذية له ولذلك أرى أنه جدير بى أن أذكر (بعد أن أجملت فيما سبق لى قوله) موضوع العناية بالغذاء والتغذية بشىء من التفصيل الذى يسمح به المقام ، لأن إهمال هذا الأمر الحيوى عام بين كل الطبقات وعند جميع الأمم . إن فائدة مواد الغذاء التى تؤكل بحالتها الطبيعية تظهر بجلاء فى تأثير بشيلس القولون العادى عليها ، لأن فعل هذا الباشيلس يتوقف على طبيعة المزرعة التى يتناول غذاءه منها فإذا زرع على بروتين حيوانى كما يحصل فى حالة أمعاء الانسان فإنه يحدث تعفنا ويصبح من ألد خصوم الإنسان ، ولا يقتصر تأثيره على الأمعاء الغلاظ وحدها ، بل يؤثر أيضا تأثيرا شديدا فى الأحشاء المجاورة ، ويسبب لها أمراضا عدة مع أنه إذا زرع هذا الباشيلس القولونى العادى فى مزرعة تحتوى على مواد نشوية أو خضرية فإنه لا يحدث تعفنا ويتحول إلى جرثومة تخمرية : أى ينقلب من خصم لدود إلى صديق نافع ، فمتى عرفنا هذا أمكننا أن نحل معضلة كيفية توصيل المواد النشوية والخضرية من الفم حتى الأمعاء الغلاظ بدون أن تتأثر أقل تأثير بالعصارات المختلفة التى فى القناة الهضمية ، وأظن أن الجواب على ذلك قد أصبح جليا ، وهو أن تؤكل هذه المواد الغذائية بحالتها الطبيعية مغلفة بغلافها السليولوزى الذى لا تنفذه عصارات الهضم ، والذى يمكن هذه المواد من الوصول إلى مقر باشيلس القولون العادى ، ومعنى هذا أن الذين يعيشون على الأغذية الطبيعية لا يشكون البتة من كسل الأمعاء ، وكما أدركنا حكمة ذلك فى الحيوان يجب أن ندرك حكمة الصوم الذى تصومه الحيوانات الدنيا ، فهو يحفظ التوازن بين دخل الجسم وخرجه ، وعند ما يصاب الانسان بالبول السكرى يكون دخل جسمه أكثر من خرجه ، والصوم يعادل بين ذلك ، ولكن هناك أمرا مهما يجب الالتفات إليه عند ممارسة الصوم وهو التأكد قبل ذلك من عدم وجود فضلات فى الجزء الأسفل من الأمعاء الغلاظ حتى لا تمتص الأمعاء المذكورة هذه المواد أثناء الصوم ، ولذلك يجب أن يسبق الصوم بمسهل ، وهناك أمر آخر لا يقل أهمية عن الأول وهو أن يكون الصوم صوما مطلقا بحيث لا يتعدى الشفتين إلا الماء ، لأن الإنسان إذا تناول شيئا من الطعام كان ذلك محرضا له على طلب المزيد ، أما إذا اقتصر على الماء دون غيره ، فإن شهوة الأكل تنعدم عنده ، ولاسيما إذا كان الصائم دائم الاشتغال أثناء الصوم عقلا وجسما ، لأن شهوة الطعام تقل بسرعة فى اليوم الثانى ، وفى اليوم الثالث تنعدم بتاتا . وقد قيل : أنه يحسن بالصائم أن يلازم فراشه أثناء الصوم ، ولكن إذا كانت صحته جيدة فالأنسب أن يمارس عملا

أثناءه أولى من ملازمة الفراش كالمرضى والضعاف العاجزين ، والأمر الثالث الواجب على الصائم الالتفات إليه هو أن يكتفى عند الافطار بوجبة صغيرة فى اليوم الثالث ، وبوجبتين أقل من هـذه فى اليوم الرابع : والمتفق عليه أن صوم ثلاثة أيام كاف لإعادة التوازن . هذا والصوم يمارسه الحيوان غريزيا عند مرضه . وقديما قيل : « جوعوا تصحوا » : ومن ذلك يمكننا أن ندرك أهمية الصوم فى تصحيح الأبدان ، لأن غريزة كهذه ما كانت لتوجد فى الحيوان إلا ولها أساس فسيولوجى متين ، ونحن أولى بالانتفاع بهـا ، وقد دلت التجارب على أن فوائد الصوم لاتقتصر على تخليص الجسم من بعض أنواع التسمم المهددة لكيان الانسان بل هى توقظ فيه روح الهمة والنشاط ، وبما أن الصوم قد يحدث أحيانا نوعا من التسمم الحمضى ، فينصح عادة للصائمين بتناول كمية وافرة من سائل قلوى أثناء الصوم كماء فيشى .

(٣) وتوجد وسيلة أخرى لحفظ التوازن بين دخل الجسم وخرجه ، وهى الاستحمام بالماء الدافىء ويكون مصحوبا بالتدليك ، أو بالمعالجة بالكهرباء ، لأن هـذا الاستحمام سواء كان بالماء الساخن أو بالهواء الساخن ، أو بالبخار الساخن ، أو بالحرارة المشعة ، يكون من نتيجته رفع حرارة الجسم نحو درجة مئوية أو أكثر ، فينشأ عنها احتراق فى الدم كان لا يمكن الحصول عليه إلا بإصابة حمية أو برياضة عضلية ، ولذلك كثيراً ما يقال ، ولعله قول حق : إن الإنسان تتحسن صحته من إصابته بحمى عما كانت عليه قبلها ؛ ولاشك أن سبب ذلك هو الاحتراق الذى أحدثته الحمى فى المواد التى كانت مخزنة وغير محترقة فى الجسم ، ولذلك يجب الحث على الاستحمام بالشمس الذى يباشر الآن كثيراً ، وأظن أنه لم يحن الوقت بعد للحكم على قيمة الاستحمام بالأشعة فوق البنفسجية ولكن مما لاشك فيه أن الفوائد التى تجنى من التعرض لهذه الأشعة تنشأ عن ازدياد الاحتراق وتنبيه الاستحالة الغذائية (ميتابولزم) .

(٤) ولكن الوسيلة التى تفضل كل هذه الوسائل الصناعية هى الوسيلة الطبيعية وهى تنبيه الاستحالة الغذائية ، وحبذا لو أمكن الحصول على هذه الاستحالة بمقادير كافية بواسطة الرياضة العضلية التى لاتفضلها أية واسطة أخرى ، لأن فائدة هذه الرياضة بما تحدثه من التأثير الحسن على الجهازين العصبى والهضمى لاتعادلها فائدة أخرى من حفظ الصحة ، إذ ليس من شك فى أن الإفراط فى الغذاء الغير صالح ، وعدم قيام الأشخاص الذين تضطرهم أعمالهم للجلوس بالقسط الكافى من الرياضة البدنية هما من أخص العوامل التى تجلب الأمراض المزمنة لهؤلاء الأشخاص ، وهى الأمراض التى تهدد حياتهم بالخطر . ويمكن لسكان المدن أن يمارسوا الرياضة البدنية فى منازلهم باستعمال الآلات الخاصة بها ، غير أن ممارسة هذه الرياضة فى الهواء الطلق أفضل بكثير ، وأحسن أنواع هذه الرياضة هى المشى ، ويمكن لكل إنسان أن يمشى يوميا من أربعة إلى خمسة كيلومترات وأخص من يجب عليهم مباشرة هذه الرياضة هم الأشخاص الذين لاتتاح لهم الفرصة لعمل تمرينات رياضية منتظمة ، والعائق الوحيد الذى يمنع بعض الناس من ممارسة هذا التمرين الطبيعى هو أنهم لايعرفون كيف يمارسونه فالمشى الصحى ليس الغرض منه مجرد جر الأرجل بل الغرض منه أن يمشى الإنسان وقوامه منتصب وصدره مرفوع إلى الأمام كما يفعل الجندى فى مشيه حتى تنقبض عضلات جدر بطنه وإلا ضاعت الفائدة المرجوة من المشى ، ويجب دائما على الإنسان أن يمارس بعض التمارين التى تقوى عضلات البطن ، لأنها إذا استرخت نشأت عنها هبوط الأحشاء ، وهو من الأسباب الرئيسية لكسل الأمعاء ، ولأمراض أخرى ، وهذه التمارين يجب أن تمارس بانتظام كل صباح ، ومثلها فى ذلك مثل حمام الصباح وتسويك الأسنان .

(٥) ويحسن بنا أن نشير أيضا إلى المشروبات الروحية التى لانرى أى ضرورة لتعاطيها حتى ولو كان ذلك

لايقاظ شهوة الطعام ، لأن تأثيرها فى هذه الحالة هو إحداث تهيج فى المعدة ينشأ عنه ميل كاذب لتناول الطعام ، وهذا يؤدى إلى عسر الهضم وأمراض أخرى .

(ب) — وأما وسائل العناية بالكهولة فى أطوارها المتأخرة ، وبالشيخوخة ومنذراتها ، فقد أشرنا أيضا إلى الكثير منها فيما تقدم » . انتهى ما أردنا ذكره من كلامه .

وهنا أخذ يذكر الإمساك وقصور الكلى عن القيام بوظيفتها ، وأخذ يذكر الجلد ووظيفته إلى أن قال : « وقد أشرنا فى فصل سابق إلى المعالجة بأشعة الشمس الطبيعية ، وأشعتها الصناعية ، وا كتفى بأن أذكر هنا بعض أخطار المعالجة بالشمس والطرق للوقاية منها ، وهذه الأخطار هى ضربة الشمس (الرعن) والصهر والحرق ، ويحدث الأول بسبب الرفع الموضعى لدرجة حرارة المخ والجسم جميعه بينما ضربة الحرارة تحدث بسبب رفع حرارة الجسم فقط ، وإذا ارتفعت حرارة المخ لدرجة عالية نشأت عن ذلك الوفاة ، ولهذا السبب وجب وقاية الرأس والعمود الفقرى من حرارة الشمس ، ويسبق ضربة الحرارة عادة خلل فى عملية إفراز العرق التى يتوقف عليها تنظيم حرارة الجسم ولاسيما فى البلاد الحارة ، ويساعد على حدوث الرعن الإصابة بمرض آخر ، وتعالج هذه الحالة بالتعريق الصناعى ، وتحصل ضربة الحرارة فى الجو الجاف الذى لاريح فيه وكذلك فى الأماكن المرتفعة الحرارة ، وقد يتولد عن الإصابة بالحرق استعداد للحالتين السابقتين بما يحدث عند الإنسان من ضعف المقاومة بسبب امتصاص متخلفات الأنسجة المحروقة ، أما معالجة الحروق الناشئة عن حرارة الشمس فلا تختلف عن الحروق الناشئة عن أسباب أخر ، وبعض الأشخاص لا يطيقون المعالجة بالشمس كالصغار والمسنين والمصابين بأمراض عصوية مزمنة ، وأولئك الذين يطيقون المعالجة الشمسية يتمتعون بمناعة ممتازة من البرد والتهابات الجهاز التنفسى ، ولهذا السبب حبذا لو انتفع كل مواطنينا بالشمس الجميلة التى أنعم الله بها على بلادنا ، والتى لا يوجد شك فى أنها لو استعملت بحذق لكانت من الأسباب العظيمة لتقوية بناء الجسم ولإطالة العمر . أما أهمية ضوء الشمس فهى فى حيازته لخاصية قتل الجراثيم ، وهو ما تقوم به الأشعة التى فوق البنفسجية الموجودة فى الطيف الشمسى ، هذا عدا عن فعلها فى تنشيط ميتابولزم الكالسيوم ، ولهذه الأشعة علاقة متينة بالفيتامين ومفرزات الغدد الصماء ، كما تكسب الدم خاصية أهلاك الجراثيم كما كشف عن ذلك الأستاذ (ليوناردهل) » .

(٦) ثم أخذ يشرح حمام الرئه فقال فى صفحة ١٣٣ ما يأتى : إن الرئه لا تقوم بوظيفه إخراج حمض الكربونيك فحسب بل هى عند الضرورة تخرج سواه ، ولذلك تشم رائحة الكحول فى زفير المخمور ، والطريقه الوحيدة لتطهير الرئه هي التنفس العميق ، أو التنفس أثناء الرياضة البدنيه فى الهواء الطلق ، وبهذه الطريقه يجدد شباب كل عضو من الأعضاء من المخ حتى الجلد » .

(٧) وهنا شرح أمراضا كثيرة لاداعى لذكرها ، ولنقتصر على ما يفيدنا . قال فى صفحة ١٥٣ وما بعدها ما يأتى : « فالمحور الذى تدور حوله كل جهود رجال الصحة هو سعادة الإنسان ، أو بالتالى إطالة عمره فى صحة وعافيه لأنها والسعادة توءمان ، وبديهى أن السعادة ليست فى وفرة المال فحسب ، بل هى السلام وهدوء البال وأهم أركانها التمتع بالصحة ، ونعمة الصحة تدعم حياة الإنسان إذا توافر له الغذاء الجيد النوع الكافى المقدار ، وما يقيه من الملبس والمسكن ونحو ذلك ومتى رزق النسل الصحيح البنيه ، وهذه هى المسائل الأربع الهامه التى تبذل المصالح الصحية المختلفة فى أنحاء العالم كل جهود لتوفيرها لبنى الإنسان ، ولذلك كان من رأيى أن العناية بالصحة العامة هى الوسيلة الأولى لإطالة العمر ، لانه لا توجد عقبة فى سبيل طول حياة الإنسان إذا توفرت لديه كل هذه الوسائل . وكم كان يعيش الناس سعداء آمنين مطمئنين لو أتيح لكل منهم أن يحصل على نصيبه من الوسائل الآنفة الذكر وكيف كانت تكون حال الدنيا من الهناء إذا طالت أعمار بنيها إلى الحد الأقصى

فى صحة ورخاء ، لاشك أنهم كانوا يستهينون بالموت ، بل وينتظرونه كحادث طبيعى لابد من حلوله فى أوانه ، وحقا إننا إذا أدركنا هذه الغاية بلغنا منتهى مايتمنى الإنسان ، فى الحياة ولايخفى أن طول الحياة فى هذه الحالة سيكون خير واسطة لتقدم الانسان ، وذلك لإمكان زيادة الانتاج العلمى والادبى والمادى ، ولاسيما فى سن التعقل والرزانة ، والله المستعان على مافيه خير لامة والإنسانية جمعاء » .

«أصبح التعمير أو إطالة العمر من الأمور العلمية بعد أن كان من الأمانى والأحلام التى لايرجى أن تحققها الأيام ، وقد وضعت له أسس وقواعد أملاها العلم وأيدها الاختبار ، وخصوصا علم الصحة العامة الذى تقدم تقدما كبيرا فى السنين الأخيرة ، لأن التعمير من أهم مايعنى به رجال الصحة فى كافة البلاد ، حتى أنه بفضل جهودهم أصبح متوسط عمر الإنسان فى العصر الحديث أطول منه فى العصور الغابرة فلقد زاد متوسط مايعيشه الإنسان فى الخمسين سنة الأخيرة نحو اثنتى عشرة سنة» انتهى ما أردته شرحا وتلخيصا ونقلا من كلام طبيبنا مواطننا (شاهين باشا) ولقد أجاد وأفاد ، وبان أن كلامه كله يرجع أهمه إلى الأغذية والأهوية والمشى والتمرينات العضلية .

ولا جرم أن الأغذية هى ماحولنا من المخلوقات ، وقد قال : « إن الشمس نافعة للصحة» فباجتماع التمرين العضلى مع ضوء الشمس على الجسم مع الأغذية الطازجة التى لا إفراط فيها يعيش الإنسان عيشا أهنأ وهو سعيد فى نفس هذه الحياة :

واعلم أن الاستحمام بالشمس تقدم فى (سورة يونس) عند آية : «هو الذى جعل الشمس ضياء» الخ وقد تقدم الكلام على الأغذية ونحوها فى سور كثيرة ؛ فى سورة البقرة عند آية : « أتستبدلون الذى هو أدنى بالذى هو خير» وفى سورة الأعراف عند آية : «وكلوا واشربوا ولا تسرفوا» وفى أول الحجر عند الإشارة إلى آدم ، وفى سورة (طه) عند ذكر آدم أيضا ، وفى سورة الشعراء عند آية : « وإذا مرضت فهو يشفين» وفى سورة (ص) عند آية آدم فى آخرها وعند ماقبلها فى قصة داود وفى سور أخرى .

اللهم إنى أحمدك حمدا كثيرا ، لأنك علمتنا مالم نكن نعلم ، وهديتنا الصراط المستقيم ، وأزلت عنا الحجب المانعات من سعادتنا وهنائنا فى نفس هذه الحياة الدنيا ، وأريتنا تفسير قولك فى كتابك العزيز : «وفى الأرض آيات للموقنين ، وفى أنفسكم أفلا تبصرون ، وفى السماء رزقكم وما توعدون » فوجدنا هناك تآلفا واتحادا بين الخضر والفاكهة مما فى الأرض مع ضوء الشمس على صحة أجسامنا . وإلى هنا تم الكلام على اللطيفة الأولى فى قوله تعالى: «وفى الأرض آيات للموقنين » وما بعدها . والحمد لله رب العالمين . كتب يوم الخميس ٢٢ أكتوبر سنة ١٩٣١ :

اللطيفة الثانية فى قوله تعالى : « وفى أنفسكم أفلا تبصرون» وما بعدها .

كتب قبيل الفجر ليلة السبت ١٦ إبريل سنة ١٩٣٢ م

تفسير : « وفى أنفسكم أفلا تبصرون » الداخلة فى قوله تعالى : إن المتقين فى جنات وعيون ، آخذين ما آتاهم ربهم إنهم كانوا قبل ذلك محسنين ، كانوا قليلا من الليل مايهجعون ، وبالأسحار هم يستغفرون ، وفى أموالهم حق للسائل والمحروم ، وفى الأرض آيات للموقنين ، وفى أنفسكم أفلا تبصرون ، وفى السماء رزقكم وما توعدون ؛ فورب السماء والأرض إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون »

كتبت هذا العنوان بحضور صديق العالم الذى اعتاد أن يناقش فى هذا التفسير ، فقال : ماذا تريد من أمر النفس اليوم والتفسير مشحون بعجائبها ؟ فقلت : إن العجائب التى سأذكرها هنا لم يسبق لها نظير .

فقال

فقال : وكيف ذلك ؟ فقلت : إن فى النفس لحدائق وبساتين ، وجنات وعيونا ، وبهجة غفل عنها الناس . فقال : الناس أجمعون ؟ فقلت نعم أجمعون . فقال : إنى أخاف من إطلاق هذا القول ، إن علم النفس اليوم ارتقى ارتقاء مدهشا ودخل فى تربية المدارس فى هذا القرن بهيئة عجيبة . فقلت : أنا سأبرهن لك فى هذا المقام على ما أقول وسأريك أولا حدائق النفس وبساتينها وأشجارها بهيئة تسر الناظرين ، ثم أقفى بتبيان أن هذه الحدائق انتفع الناس بظلها الظليل ، فتفيئوا ظلالها ، وعاشوا فى منا كبها ، وذلك فى علوم الفلك والطبيعة والنبات والحيوان والمعادن وجميع الصناعات ، وأبين ذلك بالأمثلة الواضحة ، ثم أثلث بأن الأمم كلها وإن استظلت بظل تلك البساتين فى العلوم والصناعات لم تجن الثمرات ولم تتناول القطوف الدانية من الغصون الوارفة فى تلك الأشجار الباسقة ؛ بل هم لا يزالون مفتونين بالظواهر ، مشغولين عن نفوسهم ودراستها ، ولو أنهم كما درسوا نظام هذه الدنيا درسوا نفوسهم أيضا من حيث نظامهم لبنوا سياستهم فى الحياة الدنيا على نظام أقل ما فيه أنه يشبه نظام النحل أو النمل أو الأرضة ، ولكنهم إلى الآن جهال مبعدون عن هذه السعادة فى أرضنا هذه وهم غافلون . فقال ، والله إن هذا الكلام عليه مسحة الحق ، لقد شاقنى هذا البيان أن أسمع منك فقلت إنها فصول ثلاثة الفصل الأول منها فى الجذر والتربيع والمتوالية العددية والهندسية والكسر الدائر ونحوها . ثم قلت : انظر هذه الحديقة .

الجذر والتربيع

قواعد	ارتفاعات	أوتار	أعداد رواسم
٣	٤	٥	١ و٢
٥	١٢	١٣	٢ و٣
٧	٢٤	٢٥	٣ و٤
٩	٤٠	٤١	٤ و٥
١١	٦٠	٦١	٥ و٦
١٣	٨٤	٨٥	٦ و٧

٤ من ١٢	١٢ من ٢٤	٢٤ من ٤٠	٤٠ من ٦٠	٦٠ من ٨٤
٨	١٢	١٦	٢٠	٢٤
٤	٤	٤	٤	

هذه فروق متساوية فى الارتفاعات

٥ من ١٣	١٣ من ٢٥	٢٥ من ٤١	٤١ من ٦١	٦١ من ٨٥
٨	١٢	١٦	٢٠	٢٤
٤	٤	٤	٤	

فروق متساوية فى الأوتار

هذه هى الحديقة الغناء . فقال : اللهم إنى أفهم فى رقعة الشطرنج وأنواع الألعاب ولا أفهم فى هذه الحديقة شيئا . فقلت : أيها الصديق : إن هذا الجدول كله يرجع لأمر يعرفه العالم والجاهل وهو ١ ٢ ٣ ٤ ٥ ٦ ٧ ٨ الخ ولكن للمعرفة السطحية جاهلة ، فانظر فى الجدول المرسوم تحت عنوان أعداد رواسم أليس هذا الجدول عبارة عن نفس هذه الأعداد ؟ قال نعم . فقلت : أتدرى ماذا حصل فيها ؟ قال لا . قلت ربعوا ١ و ٢ ثم طرحوا مربع الأول من مربع الثانى فكان باقى الطرح ٣ ثم جمعوهما فكان المجموع ٥ وضربوا ١ فى ٢ ثم ضربوا الحاصل فى ٢ فصار ٤ فالعمل إذن رجع إلى التربيع وطرحه وجمعه ؛ وإلى ضرب نفس الجذرين فى بعضهما ثم تضعيفهما . فقال : ما معنى جذر ؟ فقلت ٢ جذر و ٤ تربيع له ٣ جذر و ٩ تربيع له وهكذا . فقال فهمت . فقلت : إذن عندنا ٣ و ٤ و ٥ قال نعم . قلت : وهذه ناتجة من عددى ١ و ٢ قال حقا بسبب التربيع طرحا وجمعا ؛ والجذر ضربا وتضعيفا . قلت : الحمد لله قد فهمتنى . ثم قلت

هذا هو المثلث القائم الزاوية (ا ب ج) :

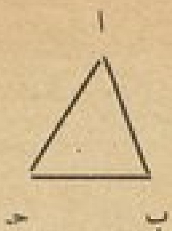

فخط (ا ح) ارتفاع ، وخط (ب ح) قاعدة ، وخط (ا ب) وتر ، فاذا كان خط (ب ح) (٣) فى المثلث القائم الزاوية (ح) فان (ا ب) فيها يكون ٥ و (ا ح) يكون ٤

فانظر أيها الذكى ألست ترى أن مربع ٥ وهو ٢٥ يساوى مجموع المربعين وهما ١٦ و٩ — قال حقا والله . قلت : أليست هذه هى النظرية المشهورة فى الهندسة وهى مربع وتر المثلث القائم الزاوية يساوى مجموع مربعى الضلعين الآخرين . فقال : أهى هذه ؟ قلت نعم هى هى التى كشفها (فيثاغورس) . فقال عجب ! أهذه البدائع كلها ترجع إلى ١ و ٢ فقط . فقلت نعم وغاية الأمر جعلناهما جذرا وربعناهما تارة وضربناهما أخرى واستعملنا الطرح والجمع والضرب فخرج هذا كله . فقال هذا حسن ، وحسن جدا ، وإذا دمت فى الإفهام على هذا المنوال حتى استوفيت المسائل إلى أن تصل علم السياسة فإن عقلاء الأمم يفهمونها وتحدث أثرا على مقدار طاقة نوع الإنسان فى هذه الأرض . فقلت : ثم انظر إلى عددى ٢ و ٣ فى نفس هذا الصف وهو صف أعداد رواسم فلنجعلهما جذرا والمربعان ٤ و ٩ إذا جمعنا هما كان المجموع ١٣ وبالطرح يكون الباقى ٥ وبضرب ٢ فى ٣ وتضعيف الحاصل وهو ٦ يكون عندنا ١٢

فهذه هى أضلاع المثلث السابق مكبرا ، فان ١٣ وتر و ١٢ ارتفاع و ٥ قاعدة ، ولاجرم أن مربع ١٣ وهو ١٦٩ يساوى مجموع مربعى ١٢ و٥ وهما ١٤٤ و٢٥ . فقال بالله ماأبهج العلم وألذ الحكمة وأبدعها، إذن بقية الأعداد هكذا : أى ٣و٤ ثم ٤و٥ ثم ٥ و٦ . قلت نعم كلها على هذا النمط قواعد وارتفاعات وأوتارا بحيث يستمر الحساب إلى مالا نهاية له من غير حصر .

ملاحظات

بالنظر فى هذه الجداول نجد أن ترتيب المثلثات المذكورة على الأعداد البسيطة أنتج أولا أن الفرق بين القواعد عدد ٢ لأنها ٣ ٥ ٧ ٩ الخ — ثانيا : أن بين كل ارتفاع ومايليه نسبة وباقى طرح أحدهما من الآخر إذا قابلناه بباقى طرح مايليهما كان الفرق بين باقى الطرح ٤ مثلا ارتفاع ٤ نطرحه من ارتفاع ١٢ والباقى ٨ وارتفاع ١٢ نطرحه من ارتفاع ٢٤ فالباقى ١٢ وهكذا فإننا نجد الفرق بين كل باق ومايليه ٤ ، ومثل مافعلنا فى الارتفاعات نفعل فى الأوتار سواء بسواء ، فنفعل فى ٥ و ١٣ و ٢٥ الخ مثل هذا فيكون الفرق أيضا ٤ وهذا هو العجب ، إذا نرى الأعداد البسيطة على ترتيبها تظهر منها هذه الأعاجيب ، نظام مقدس فى القواعد لأن الفرق ٢ ونظام مدهش فى الارتفاعات والأوتار ، لأننا نجد الفرق بينهن ١ وهذا أمر عجيب جدا ونظام غريب فى بواقى طرح الارتفاعات والأوتار وهو ٤

مساواة مربع الوتر لمربعى الضلعين الآخرين

وذلك كله بدخول الجمع والطرح والضرب على مقتضى الأحوال . أليست أيها الصديق هذه هى الحديقة الغناء من ١ و ٢ و ٣ وهكذا . فهذه الأعداد البسيطة عند الجاهل لاقيمة لها ، فكما أنه لايعقل نفسه لايعقل جمال هذه الاعداد ، بل هذه الأعداد جزء من النفس فالنفس الإنسانية فى أول أمرها مبهمة غير مفصلة ، ولكن كشف هذه الحقائق لها يجعلها مفصلة واضحة لأن إحساسها بعد أن كان أمرا مجملا أخذ الحساب يفصله ،

وأخذ

وأخذ يطالع فى نفسه هذه العجائب الناجمة من الاعداد البسيطة السهلة ، إن أمر الحساب لعجب ! أمر الحساب عظيم ، أنظر كيف يقول الله : « والفجر وليال عشر ، والشفع والوتر ، والليل إذا يسر » ثم يقول : « هل فى ذلك قسم لذى حجر » ثم ذكر أمر الدول وخرابها ، ويقول فى آخر السورة : « يا أيتها النفس المطمئنة ارجعى إلى ربك راضية مرضية فادخلى فى عبادى وادخلى جنتى » فأى مناسبة للشفع والوتر مع الفجر والليالى ؟ ثم ما مناسبة هذه كلها للنفس ورضاها ودخولها الجنة .

هذه إشارات بعيدة الغور ستعرفها الإنسانية فى المستقبل ، فإن الحساب ونظامه لبنات جميلة بنى بها هيكل النفس فى أول أمرها أشبه بخلية الجسم فى أول أمره ، خلية الجسم واحدة تنقسم إلى ٢ وهذه تكون ٤ و٨ و١٦ و٣٢ وهكذا ، فهذه متوالية هندسية كل الأجسام فيها سواء ، وعمدة حياة هذه العوالم كلها الحساب ، فالحساب الذى هو جزء مهم من نفوسنا هو الذى بنى عليه نظام أجسامنا وأجسام العالم كله ، فكما أن خلية الجسم الأولى صارت آلافا وآلافا من الخلايا ، ولكل خلية حياة خاصة ترجع إلى الجسم العام هكذا النفس الواحدة المشبهة الخلية تتسع بكل محسوس ومعقول ، فهذه المعلومات تزيدها اتساعا كما يزيد الجسم حجما بالأغذية ، والفرق بينهما أن الجسم يتجزأ ، والنفس لا تتجزأ ، فهى تعظم بهذه الصور الروحية وتزداد عظما روحيا لا جسميا ، ولو أن الأعداد وما ماثلها من جميع العلوم ذهبت من النفس لأصبحت أشبه بالدودة الضعيفة

إذا تقرر هذا نقول : إن الجداول المتقدمة المنتظمة أمر ثابت فى نفسه مجرد عن المادة ، ولما كانت النفوس أقرب إليه دخل فى أمزجتها وصار جزءا منها لا يتجزأ ، فجميع هذه الجداول وبدائع الحساب ثابتات كلها فى نفوسنا ، وهذه النفوس تكشف هذه الخبايا فيها بالدراسة فتزداد سعادة .

مثلا : فى هذا اليوم ١١ ابريل سنة ١٩٣١ م زار بلادنا المصريه (جراف زبلن) وهذا المنطاد مرفوق القاهرة ، ورأيته أمس آخر النهار يطوف بالعباسية ، وهو أشبه بالحوت فى البحر ، له لون فضى جميل ورأيته صباح اليوم قبيل كتابة هذا المقال ، ولف حول الحى الذى أنا فيه الآن (شارع زين العابدين) وكنت أمس واليوم أجد جميع سكان القاهرة رجالا ونساء وصبيانا وشيوخا يقفون فوق السطوح فرحا بهذا الأمر العظيم المدهش ، لأنه أمر عجب ! ولم يروا مثله ، وأعوزه جهاد عظيم وعلم غزير حتى برز للموجود . إن هذا سرور للنفس ، ولا جرم أن خبايا النفس إذا ظهرت لكاشفها تكون أكبر سعادة لها .

إن فى الأعداد المستقرة فى النفس الشفع والوتر المذكورين فى الآية ، أما الوتر فقد ظهرت أمثلة له فى قواعد الجداول المتقدمة ، وهنا يدهش الفيلسوف من قاعدة واحدة تكفل آلافا مؤلفة من المثلثات القائمات الزاوية المختلفات اختلافا تاما بحيث أن ماقلناه فى المثلث الأول ينطبق على كل مثلث بعده . ولنا أن نجعل الارتفاعات والأوتار السابقات فى الجدول المتقدم رواسم هنا ، فكما أننا جعلنا ١ و ٢ و٣ الخ رواسم لتلك الجداول نجعل ماترتب على تلك الرواسم من الارتفاعات والأوتار قواعد فماذا يكون إذن ؟ يكون هذا الجدول فتكون القواعد كلها مربعات للقواعد المتقدمة فى الجداول السابقة .

قواعد	ارتفاعات	أوتار	أعداد	رواسم	قواعد	ارتفاعات	أوتار	أعداد	رواسم
٩	٤٠	٤١	٤	٥و	٨١	٣٣٨٠	٣٢٢٨١	٤٠	٤١و
٢٥	٣١٢	٣١٣	١٢	١٣و	١٢١	٧٣٢٠	٧٣٢١	٦٠	٦١و
٤٩	١٢٠٠	١٢٠١	٢٤	٢٥و	١٦٩	١٤٣٨٠	١٤٢٨١	٨٤	٨٥و

فهاهنا أصبحت القواعد أعدادا مربعات ، ولهم طرق أخرى يجعلون فيها القواعد كلها زوجيه مثل هذه :

راسم	عدد	وتر	ارتفاع	قاعدة
٣و	١	١٠	٨	٦

وهو يجرى على القاعدة عينها ، فلنكتف بهذا في هذا المقام . انتهى الكلام على الجذر والتربيع من الفصل الأول والحمد لله رب العالمين .

الكلام على المتوالية العددية والهندسية

المتوالية العدديه مثل ١ ، ٣ ، ٥ ، ٧ ، ٩ ، ١١ الخ ، وهذه متوالية عددية تصاعدية ، أو نقول هكذا ١١،٩،٧،٥،٣،١ فهذه متوالية عددية تنازلية ، والفرق بين كل عددين متواليين يسمونه أساسا للمتوالية وهو فى هذه ٢ ويكون ٤ فى الآتية ٢٦ ، ٢٢ ، ١٨ ، ١٤ ، ١٠ ، ٦ ، ٢ ولو أخذ ثلاثة أعداد (حدود) كان مجموع الطرفين ضعف الوسط كحدود ١٤ ، ١٠ ، ٦ من التنازلية فإن ضعف ١٠ وهو الوسط ٢٠ ومجموع الطرفين وهما ١٤ ، ٦ يساوى ٢٠ وفى التصاعدية كذلك مثل ١٤ ، ١٨ ، ٢٢ فإن ١٤ فى ٢٢ يساوى ١٨ فى ٢ فإذا أخذنا ٤ حدود كان مجموع الطرفين يساوى مجموع الوسطين وهو الظاهر .

الكلام على المتوالية الهندسية

هى مثل ٣ ، ٦ ، ١٢ ، ٢٤ ، ٤٨ ، ٩٦ وهذه تصاعدية ، ويقال فيها نسبة ٣ إلى ٦ كنسبة ٦ إلى ١٢ كنسبة ١٢ إلى ٢٤ وكل حد يساوى الحد الذى قبله مضروبا فى الأساس مثل ٦ يساوى ٣ مضروبا فى ٢ أى يساوي الحد الذى قبله مضروبا فى الأساس ، ٢ هنا هو الأساس ، وهو الخارج من قسمة كل حد على الحد الذى قبله وهو لايتغير ، وهذه المتوالية تكون تنازلية كما تكون تصاعدية ، وما قيل فى الوسطين والطرفين هناك يقال هنا ولكن بطريق الضرب فنقول هنا حاصل ضرب الطرفين يساوى حاصل ضرب الوسطين ؛ أو حاصل ضرب الطرفين يساوى حاصل ضرب الوسط فى نفسه (مربع الوسط) مثلا ٣ ، ٦ ، ١٢ مربع الوسط فيها وهو ٣٦ يساوى حاصل ضرب ٣ فى ١٢ وهذا واضح .

إنما ذكرت ذلك هنا ليكون ذلك تذكيرا لمن لم يعرف علم الحساب ، وأريد هنا أن آتى ببعض المقصود فأقول : إن للمتوالية العددية والمتوالية الهندسية فوائد فى علم الأوفاق ، وقد تقدم فى هذا التفسير شذرات منه ، ولكنى أريد هنا أن أذكر منه عجبا :

جدول وفق فردى

١١	٢٤	٧	٢٠	٣
٤	١٢	٢٥	٨	١٦
١٧	٥	١٣	٢١	٩
١٠	١٨	١	١٤	٢٢
٢٣	٦	١٩	٢	١٥

كل قطر أو وصف أفق أو رأسى هنا إذا جمع يساوى ٦٥ أى يساوى حاصل ضرب جذر عدد الخانات

وهو

وهو ٢٥ فى عدد ١٣ الذى هو وسط المتوالية الذى هو (فى مربع تقاطع قطرى هذا الجدول) فالجذر ٥ فى ١٣ يساوى ٦٥ وكيفية تعمير هذا الجدول تراها فى كتاب أستاذنا المرحوم على مبارك باشا فى كتابه (خواص الأعداد) وفى كتابى (بهجة العلوم) فى الفلسفة العربية وموازنتها بالعلوم الحديثة .

جدول وفق زوجى

هذان الوفقان المنتظمان العجيبان فيهما متوالية عددية أولها ١ وآخرها ٢٥ فى الأول ، ١٦ فى الثانى ، وفيهما بدائع وعجائب ، فالخط الأفقى والرأسى والقطر كلها متساوية ، وجذر العدد الفردى وهو ٢٥ بضربه فى وسط المتوالية الموضوع فى الوسط يكون هو نفسه ذلك المجموع ، ولأكتف بما ذكرته الآن فى أوفاق المتوالية العددية .

٣٤

١	١٥	١٤	٤
١٢	٦	٧	٩
٨	١٠	١١	٥
١٣	٣	٢	١٦

٣٤

أوفاق المتوالية الهندسية

إن كل ما قيل فى أوفاق المتوالية العددية يقال نظيره فى أوفاق المتوالية الهندسية ، ولكن الأمر هنا يكون بالضرب وهناك بالجمع ، فتجد فى الوفق المثلث الآتى أننا عمرناه بهذه المتوالية :

١، ٢، ٤، ٨، ١٦، ٣٢، ٦٤، ١٢٨، ٢٥٦ فرتبناها ترتيب كترتيب الوفق العددى لكل قطر وكل صف أفقى أو رأسى حاصل ضرب أعداده يساوى ٤٠٩٦ وهو مكعب ١٦ الذى فى الخانة الوسطى ، وطريقة التعمير هنا كالطريقة هناك :

٨	٢٥٦	٢
٤	١٦	٦٤
١٢	١	٣٢

وفق مثلث للمتوالية الهندسية :

٤	٩	٢
٣	٥	٧
٨	١	٦

وفق مثلث للمتوالية العددية .

فوازن بينهما أيها الذكى فانك تجد عدد كل صف وكل قطر فى الفردية ١٥ وهو من ضرب ٥ الذى هو فى الخانة الوسطى وهو وسط المتوالية أيضا فى ٣ الذى هو جذر عدد الخانات وهو هنا ٩ .

أما فى وفق المتوالية الهندسية فإنك تجد حاصل ضرب أعداد كل صف أفقى أو قطرى أو رأسى مساويا لمكعب تلك الخانة التى فى الوسط وهى هنا ١٦ فى الفردية ٥ مضروبة فى جذر عدد الخانات ، وهنا مكعب تلك الخانة التى هى فى الخانتين يمر بها القطران معا وتكون وسط الوفق بالضبط ، فهى فى الوفق كقلب الإنسان أو الحيوان .

عند ذلك قال صاحبى : لقد فهمت المتوالية بقسميها ، وفهمت أوفاق العددية بقسميها ، ولكن لم أطلع على وفق للمتوالية الهندسية يكون زوجيا ، فقلت : إن الأمر يطول ، وأنا لم أذكر شيئا من ذلك هنا إلا مقدمة لما سأذكره فى الفصل الثانى ، والثانى مقدمة للثالث أعنى أنى كما قلت لك سابقا أريد بهذه المقدمة أن أبين عجائب الأعداد فى نفوسنا ، ولكنى لا أطيل أكثر من اللازم ، وأثنى بأن أمثال هذه القوانين التى فى نفوسنا وجدت فى نفس الطبيعة ، ثم أثنى بأن أقول : من العار على هذا الإنسان (الذى وجد فى نفسه تلك

القوانين ، ثم عرفها فى الطبيعة ، ثم استعملها فى الصناعات التى يعيش بها) أن يكون غافلا أشد الغفلة ، جاهلا أفحش الجهل ، إذ لم يطبقها على نفس الإنسان ، فالذى أريده من ذلك كله أن أبين أن للانسان فى نفسه بصيرة ولكنها محجوبة عنه ، وما دامت محجوبة فإنه يكون معذبا فى حياته الدنيا والآخرة ، وهذا أصبحت به موقنا ، فعلى إذن أن أبينه لنوع الإنسان . قال : إذن فلنكتف فى هذا الفصل بما ذكر ونبتدىء فى الفصل الثانى . فقلت : نعم ولكن بقى أن آتى بلمعة يسيرة لأتمم هذا المقال ، وذلك بذكر الأعداد المتحابة وذكر الأعداد الكاملة لتدهش أيها الذكى من عجائب نفوسنا البديعة . فقال : أرجو أن توضحه هنا إيضاحا تاما فقلت : إنه سيأتى فى (سورة الرحمن) عند قوله تعالى : « الشمس والقمر بحسبان » فإنى سأبين هناك أن العوالم كلها مبنية على الحساب كنص الآية ، ولكنى أشير إليه هنا إشارة بسيطة لاستيفاء المقام :

اعلم أن العدد الكامل هو الذى يساوى مجموع مضاريبه ، أما الناقص والزائد فهما على خلافه فعدد ٦ من ضرب ٢ فى ٣ ومن ضرب نفس العدد فى ١ وبجمع ٢ ، ٣ ، ١ يكون المجموع ٦ وهذا العدد نادر جدا وعدد ٢٨ ناتج من ضرب ٢ فى ١٤ ومن ضرب ٤ فى ٧ ومن ضرب ٢٨ فى ١ وبجمع ١ ، ٢ ، ٤ ، ٧ ، ١٤ يكون المجموع ٢٨ وليس فى الأعداد من ١ إلى ١٠٠ سوى هذين العددين ، وله جدول تجده فى هذا التفسير عند ذكر خلق السموات والأرض فى ستة أيام ، وهنا أذكر قاعدة استخراج الأعداد الكوامل لمناسبة المتوالية الهندسية المذكورة التى رأينا فيها عجائب الأوفاق العددية السابقة ، فانظر ما يأتى :

٢ ٤	٤ ٨	١٦ ٣٢	٦٤ ١٢٨	٢٥٦ ٥١٢
٦	٢٨	٤٩٦	٨١٢٨	١٣٠٨١٦
٣ فى ٢	٧ فى ٤	٣١ فى ١٦	١٢٧ فى ٦٤	٥١١ فى ٢٥٦

فلما نظره قال : لم أفهم شيئا ؟ فقلت : إن هذه هى المتوالية الهندسية ، فإنك فى الصف الأفقى الأعلى تجد ٢ ، ٤ ، ٨ و ١٦ وهكذا ، فى الصف الذى تحته تجد الأعداد الكوامل وهى ٦ ، ٢٨ وهكذا ، أما فى الصف الأسفل فإنك تجد أن ٢ التى فى أول الفاصل الأول من أعلى قد نقلت تحت ٤ فى نفس الفاصل وتجد عدد ٣ فى نفس الفاصل قد وضعت فى محاذاة ٢ وعدد ٣ هذا هو عدد ٤ فى الفصل الأول المذكور نقصنا منه واحدا ، وبضرب ٣ فى ٢ يكون الحاصل ٦ وهذا هو المطلوب ، وهكذا نفعل فى الفاصل الثانى فإن عدد ٤ الذى فى أعلاه قد وضعناه فى أسفل الصف الذى فى أعلاه ثمانية ، ٧ التى هى فى محاذاة ٤ هى عين ٨ التى عند الفاصل الثانى وقد نقصت واحدا ، وبضرب ٧ فى ٤ يكون عندنا ٢٨ وهو العدد الكامل ، ونفعل مثل هذا على التوالى فى كل المتواليات الهندسية بلا حصر ، ويمكننا أن نضع جدولا بأعداد كوامل من غير نصب يبلغ آلافا وآلافا ، وقد ذكرت هذا الجدول المذكور فيما تقدم من هذا التفسير ، ولكن لم أذكر هذه القاعدة هناك ، والقاعدة هنا خير مما هناك :

فقال : إن هذا عجب عجاب ! كيف تكون المتوالية الهندسية ذات خواص على هذا المنوال ، فإنها ذات أوفاق عددية وزوجية عجيبة ، وبها أمكننا استخراج الأعداد الكوامل ، ولكن لم أعرف الأعداد المتحابة فقلت : إنها واضحة هى وطريقة استخراجها فى (سورة الرحمن) فيما يأتى . فقال : ولكنى أرجو أن أعرف طرفا منها هنا لأتصور أمرها ؟ فقلت : هى من أسرار عدد ٢ كالتى قبلها ، فإنك تجد عددى

٢٢٠ ، ٢٨٤ متحابين ، لأن ٢٢٠ يساوى مضاريب ٢٨٤ والعكس ، لأن ٢٢٠ يساوى ١ و ٢ و ٤ و ٧١ و ١٤٢ وهـذه عينها مضاريب ٢٨٤ و ٢٨٤ يساوى مضاريب ٢٢٠ وهى ١ و٢ و ٤ و٥ و١٠ و١١ و٢٠ و٢٢ و٤٤ و٥٥ و١١٠ واستخراج هذا كله بسبب عدد ٢ لأنه إذا ضرب فى ٣ ثم فى ٦ ثم ضرب مربعه وهو ٤ فى ١٨ حصل عندنا ٦ و١٢ و٧٢ فإذا نقصنا من هذه الثلاثة واحدا واحدا كان هكذا ٥ و ١١ و٧١ وإذا ضربنا ٥ فى ١١ وضربنا الناتج وهو ٥٥ فى ٤ كان الناتج ٢٢٠ وهو أحد العددين السابقين ؛ ويمكن إيجاد العدد الآخر بضرب ٧١ فى مربع ٢ للذكور ، وهو ٤ فيكون الناتج ٢٨٤ وهو العدد الثانى وهو المطلوب ؛ وهكذا يمكن استعمال أى قوة من قوى عدد (٢) على هذا النمط لاستخراج الأعداد المتحابة ، وهـذا سيتضح اتضاحا تاما فى (سورة الرحمن) فانتظره . فقال : حقا قد استوفينا هـــذا المقام بقدر الامكان . فقلت : بقى الكلام على الكسر الدائر البسيط والمركب ، فانظر ١/٣ فهو إذا جعل كسرا إعشاريا يكون هكذا ٠ر٣٣٣٣ وهكذا إلى مالا نهاية له فهذا كسر دائر بسيط ، وانظر الكسر الدائر المركب فهو كذا ١/٧ وهكذا إلى مالا نهاية ٠ر١٤٢٩٥٧١٤٢٩٥٧ وترى كسر ١/٦ ٠ر١٦٦٦ إلى مالا نهاية له . واعلم أن الأعداد البسيطة على ثلاثة أقسام : زوجية وكلها كسورها منتهية وهى ١/٢ و١/٤ و١/٨ فهى تساوى ٠ر٥ و٠ر٢٥ و٠ر١٢٥ وفردية وهى كلها غير منتهية ، وقد تقدمت هنا ، وأعداد أولية مثل ١/٥ و١/٧ والأول ٠ر٢ فهو منته كالأعداد الزوجية ، والثانى غير منته كالأعداد الفردية ؛

اللهم إنا نحمدك ونشكرك ، أنت الجميل ، أنت الحكيم ، أنت البديع ، أبدعت نفوسنا وملأتها بالجمال ، أنت العليم تعلم كل شىء ، ولما أبدعت أرواحنا أشرق عليها نورك فأصبحت الأعداد من كيانها ومزاجها وحقيقتها ، وهذه الأعداد لها نظام جميل ، فإذا كانت الكسور المتقدمة قد اختلفت (فمنها ماله نهاية ، ومنها مالا نهاية له ، ومالا نهاية له إما كسر دائر بسيط ، وإما كسر دائر مركب ، ولكل من هذه الأقسام التى امتزجت بنفوسنا نتائج ظاهرات فى العوالم حولنا) فإن أمر نفوسنا إذن لعجيب ، إذ كيف ترى ما حسبناه فى الأعداد الممتزجة بنفوسنا تصير مظاهره فى العوالم حولنا كما سيأتى فى الفصل الذى يلى هذا وما بعده مثل :

(١) إن سير الكواكب لم يخرج عن الكسر الدائر المركب ، وذلك بسبب تكرار الأدوار فى القرون والدهور .

(٢) ومثل إن هـذا النوع الإنسانى لايعلم لأجزاء المادة نهاية عند تحليلها الكيمائى كما لاعلم له بنهاية الكسر الدائر ؛

(٣) ومثل عدم علمه بنهاية العالم من حيث المكان من جهاته الست .

(٤) وكذا هو لايعلم متى ابتدأ ولامتى ينتهى ، إن هذا كله قد أوضحه الكسر الدائر الذى وعته نفوسنا إذن نفوسنا كمنت فيها العوالم أو نماذجها .

(٥) ومن هذه أيضا ندرك أن الله لانهاية لعلمه ، وإذا كان الكسر الدائر لانهاية له وقد انطوت عليه نفوسنا وصار فيها مجملا . وعلومنا بالنسبة لعلم الله أقل آلاف مرات من نسبة أجسامنا إلى العوالم كلها ، فهو إذن فى علم الله مع عدم نهايته مفصلا ، وإذا نحن عرفنا الكسوف والخسوف بعد آلاف آلاف السنين معرفة مجملة فالله يعلم ذلك مفصلا ، ويعلم كل الحوادث الصغيرة والكبيرة التى لانهاية لها مفصلة وذلك التفصيل ضرب له المثل بما سيأتى :

(٦) ألم تر المثلثين اللذين رسمناهما آنفا وفيهما المتواليتان العددية والهندسية ، أفلا تعجب معى أيها الأخ الذكى ؟ أفلا تدهش أن ترى عدد ٥ فى المتوالية العددية وعدد ١٦ فى المتوالية الهندسية قد جاء وضعهما فى المربع الذى هو فى وسط المثلثين ، فكما كان عدد ٥ هو وسط ٩ هكذا عدد ١٣ وسطها ، ثم إن ضرب ٥ فى جذر ٩ هو عين مجموع الصفوف الأفقية والرأسية والقطرية ، هكذا تكعيب ١٦ هو حاصل ضرب كل صف وكل قطر ، هذا النظام الذى تقدم فيهما يدلنا على أن نظام العالم على هـذا النمط كما ترى نظيره فى ترتيب العناصر الذى تقدم ذكره فى سورة العنكبوت ، فإن صانع العالم رحمنا بعلم الحساب وبهذه العجائب فيه التى أرتنا مفصلات الجداول منظمة مرتبة لاخلل فيها ولاخطأ ، ولو اختل منها واحد لاختل الجميع ، وهذا الذى نفهم به على سبيل اليقين والمشاهدة ولو بطريق التنظير قوله تعالى : « وكل شىء فصلناه تفصيلا » وقوله « إنا كل شىء خلقناه بقدر » وقوله : « انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض » وقوله : « وما ظلمناهم ولـكن كانوا أنفسهم يظلمون » وذلك لأن الحساب لايغير ، ولو غـير الحساب لاختل نظام المجموع ، فكل امرئ فى الأرض أشبه بعدد فى مربع من تلك الأعداد ، وكل أمة أشبه بجـدول أفقى أو رأسى ، وبين الأفراد علاقات لاخلل فيها ، وكل فرد وكل أمة تختلف عن الأخرى ، وهكذا خلق كل حيوان وكل إنسان وكل معدن الخ :

(٧ و ٨) نظام الأمم ، وتشريح الأجسام : وكما أن علم الله مبنى على نظام واحد وهو حساب محكم ظهر لنا نموذجه الذى تقبله عقولنا الضعيفة هكذا يجب أن يكون نظام أمم الأرض جميعا ، لأن اختلاط الأمم الآن دلنا أنهن متعاونات مرتبطات ارتباط هذه الأعداد ببعضها ارتباطا لاانفصام له ولا انقطاع ، وأى فرق بين ارتباط الأمم وتعاونها وارتباط أعداد هذه الأوفاق وتناسب أعضاء الجسم الواحد ؟ فالرجل لو نطقت لقالت أنا أحب العين وكلاهما يحب الـكبد والـكلية والعظم وما أشبههن .

الله أكبر ، جل الله : ظهر الحق واستبان السبيل. فقال صديق : وأى حق غـير ماتقدم ؟ فقلت : هو سر الأسرار وعلم الأبرار . فقال : وماهو يرحمك الله ؟ فقلت أى صديق : إذا كانت هذه حال الأعضاء من الصداقة والمودة بحيث يرى كل عضو لوكان يعقل أنه يحب بقية الأعضاء ، ولايحسد واحدا منها ، لأن الجميع ينفع بعضه بعضا ، غاية الأمر أن الأعمال اختلفت كما أن عدد ١ و ٢ و ٣ الخ فى الوفق المتقدم كل واحد منها فى مربعه وهو مرتبط بجدوله وبالجداول الأخرى وبينهن مناسبات عجيبة ، بل لو نطقن لقال كل واحد إنى أحب باقى الأعداد لأن الوفق كله لايتم إذا نقص واحد منها أو زاد أو انتقل من محله كما ينقص الجسم بنقص عضو واحد وتتألم لفقده بقية الأعضاء ، والذى يخطر لى كثيراً أن هذه العقول الإنسانية فى الأرض سائرة إلى هذه الحال يوما ما ، وهى قبل أن تصل إلى هذه الحال لاتزال فى ذل وعذاب مهين كأهل أرضنا اليوم ، فإن كل أمة من شدة الجهالة الفاشية فى نوع الانسان تريد أن تستقل بالحياة ، وهى فى ذلك أشبه بعضو فى الجسم ، أو مربع فى الوفق يريد الاستقلال بالحياة وحده ويذهب الباقى من الحياة ، وهـذا هو السبب فى أن الحقد والحسد وبغض الناس من الـكبائر ، لأن ذلك حجاب حجب هذه النفوس عن الاتحاد الذى يجعل كل نفس تفرح بالبقية ، وهـذا إلى الآن لم يكن له أثر فى أرضنا إلا قليلا ، وقد نجد رجال الحكومات يتعاونون ورجال الصناعات وغيرهم ، ولـكنه تعاون ظاهرى ، وكل يقصد نفسه ، وخير لـكل امرئ فى الأرض أن يقصد المجموع الانسانى كما قدمناه فى (سورة الزمر) منقولا عن الأستاذ (كانت) الألمانى فى رسالته عن التعليم ، فإنه حض جميع أفراد الأمم على أن يكون المقصد الأسمى سعادة المجموع . هذا هو الحق الصراح ، فليجد المسلمون من الآن فى إسعاد جميع النوع الانسانى ، وهذا هو سبيل الله والجهاد فيه موصل للقاء الله

عز وجل ، وكيف يلاقى الناس ربهم ، وهذه حال قلوبهم المملوءة جهالة بهذا الوجود وبهذه النفوس . وبهذا انتهى الكلام على الفصل الاول فى حدائق النفس وبساتينها :

الفصل الثانى : فى حدائق العلوم التى تفيأ الناس ظلالها

وعاشوا فى أكنافها من علم الفلك والطبيعة والنبات والحيوان والمعادن وجميع الصناعات

لقد ذكرنا فى الفصل السابق الجذر والتربيع ، وأبنا أسرارا بديعة جميلة ، وحكما بالغة ، وذلك فى المثلثات القائمات الزوايا ، وكيف كان عدد ١ و ٢ و ٣ الخ بواسطة الجذر والتربيع أمكن استخراج آلاف آلاف المثلثات القائمات الزوايا ذوات الأوتار والقواعد والارتفاعات اللاتى لهن من المناسبات والاتفاقات والعجائب مالا حصر له . هذا هو الذى رأيناه فى خفايا نفوسنا . كما قال تعالى : (وفى أنفسكم أفلا تبصرون) فها هو ذا الذى فهمته نفوسنا واشتملت عليه ، سواء أكانت جاهلة به أم عالمة ظهر فى نفس الطبيعة ، ألا تذكر بعض ماتقدم من الجذر والتربيع فى هذا التفسير ؟ فقال نعم قد تقدم فى مواضع كثيرة مثل ماجاء فى أول (آل عمران) ذلك أن سرعة الأجسام الساقطة إلى بئر مثلا من فوق جبل ، أو ارتفاع ما ، أو من فوق الأرض نفسها تكون بحساب ١٦ قدما مضروبة فى ١ فى الثانية الأولى ، وفى ٣ للثانية الثانية ، وفى ٥ للثانية الثالثة ، وفى ٧ للثانية الرابعة وبعبارة أخرى ١٦ فى الأعداد الوترية ١ ٣ ٥ ٧ ٩ ١١ ١٣ ١٥ وهكذا لكل ثانية على التوالى ، وإذا ضربنا عدد الثوانى مربعا فى ١٦ قدما كان ذلك هو البعد الذى سقطه الجسم ، فالثانيتان يكون البعد فيهما ٤ فى ١٦ والثلاثة ٩ فى ١٦ والاربعة ١٦ فى ١٦ (وبعبارة أخرى) ١ ٣ ٥ ٧ ٩ ١١ ١٣ ١٥ إذا ضرب كل منهما فى ١٦ كان الحاصل هو الذى سقطه الحجر فى تلك الثانية فقلت : أحسنت أيها الأخ متذكر تمام التذكر وهناك زيادة إيضاح ، ولكن الذى ذكرته أيها الأخ كاف فيما نحن بصدده ، ذلك أننا نريد فى هذا الفصل أن نبين أن المربعات (التى تقدمت فى الفصل السابق وجذورها وهى فى نفوسنا ماهى إلا أعداد مجردة لها نظام عجيب من تربيع وجذر ولها نتائج فى حساب المثلثات العقلية المنظمة العجيبة) قد ظهر آثارها فى الطبيعة حولنا مما يدل على أن نفوسنا بينهما وبين العالم حولنا مناسبة وكلما زدنا دراسة زدنا علما بنفوسنا ، وكنا أقرب إلى ربنا ، وهل يكون قرب إلا بالعلم ؟ وهل العبادة إلا فتح باب للعلم ، وهل الصيام والحج والزكاة إلا مساعدات على خلوص النفس من أوحال هذه الدنيا فتلحق بالعالم المجرد عن هذه المادة فتقرب من ربها ، وهل ترى أعجب من أن التربيع والجذر الكامنين فى نفوسنا قد ظهرا فى الطبيعة التى صنعها الله عز وجل بيده بحسابه المشاكل لما فى نفوسنا « ولله المثل الأعلى » الذى بدرسه نزيد حبا له وعشقا وغراما

ثم قلت له : هذا هو الجذر والتربيع فى حركات الأحجار الساقطات ، فهل تذكر جذرا وتربيعا فى غير ذلك ؟ فقال نعم قد تقدم فى (سورة الرعد) عند قوله تعالى : « وكل شىء عنده بمقدار » فهناك الجذر والتربيع فى سرعة النور والصوت والحرارة والجاذبية ، ذلك أن شدة الصوت تقل بمقدار مايزيد مربع البعد عن الجسم الصائت كما إذا أتينا بأربعة أجراس بحجم واحد ووضعناها على بعد ٤٠ ذراعا ووضعنا جرسا آخر بحجمها أيضاً على بعد ٢٠ ذراعا ، فإنا نجد صوت الأربعة كصوت الواحد ، لأن بعدها كبعده مرتين و ٢ فى ٢ تساوى ٤ فإذن يكون كل واحد من الأربعة صوته كربع صوت الجرس القريب ، ونقول مثل ذلك فى الحرارة ، وفى النور ، وفى الجاذبية فهن سواء ، والتمثيل والايضاح تقدم هناك ، فهل أعيده ؟ فقلت . كلا ، لأننا هنا نريد التذكير بما مضى ومن أراد فليراجع ماتقدم . ثم قلت : هل تتذكر فيما مضى عجائب المتوالية العددية والهندسية المتقدمة فى الفصل السابق حتى يكون التطبيق عليها مما سبق فى هذا التفسير ؟

فقال نعم أتذكر مامر فى (سورة العنكبوت) عند آية : « قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق » فإن هناك جدول العناصر البسيطة التى كشفها العلماء ، وقد وضعت منظمة بحيث رأينا أن الايدروجين هو الوحدة التى يقاس عليها ، وأن الهليوم زاد عليه اثنين تقريبا ، وهكذا عناصر أخرى عدوها مع ضم الادروجين إليها ٨ وثامنها الاكسوجين وهو له عدد ١٦ فكان لكل واحد اثنان فى الجملة وإن اختلف بعض أفرادها ونجد أن ذرة الكبريت ٣٢ وكسر وهى تمام الثمانية الثانية ، وعلى كل فالنسبة بين كل عنصرين اثنان ولكن هذا أمر تقريبى قد يختلف ، ثم لننظر إلى الصفوف الرأسية التى يسمونها الطوائف فنجد أن الليثيوم فى الصف الرأسى ٦ر٩٤ والصوديوم تحته ٢٣ والفرق بينهما ١٦ ثم إن البوتاسيوم تحته ١ر٣٩ فالفرق بينهما ١٦ فهناك ثبت أن ترتيب زيادة العناصر ٢ ــ ٢ ــ ٢ عند وزنها يعنى أن الايدروجين وهو أخفها جعل وحدة يقاس بها كما يقيس الناس بالذراع ، وهذه العناصر كلها أثقل منه بعدد ٢ ــ ٢ ــ ٢ إلى آخرها ثم وجد تناسب بينها فى الخطوط الرأسية ، إذن هى تفاوتت ٢ــ٢ــ٢ أفقيا وتفاوتت رأسيا بمضاعف ٢ وهو ١٦ وهو العدد المسمى بزوج الزوج الذى هو عدد الشطرنج المعروف ، فلما أجاب بذلك قلت : لقد كنت قوى الذاكرة ، فلنكتف بهذا حتى إذا أراد أحد الأذكياء توسعا فى ذلك ورجع إلى نفس الجدول هناك رأى تفصيله . ثم قلت : وهل تذكر أثرا لأمثال هذا النظام فى علم النبات ؟ فقال نعم قد تقدم فى (سورة البقرة) عند آية الطير وإبراهيم أن العناصر تدخل فى نظام النبات بحساب ، فإذا شئت بسطت القول فيه فهو هناك مفصل . فقلت : كلا . فمن أراده فليراجعه هناك وفى أى سورة أخرى غير البقرة . قال فى سور كثيرة ومنها سورة الحجر ، فإن هناك بين الأوراق مناسبة عجيبة جدا لأننا نجد شجرة التفاح المرسومة هناك أوراقها ذوات دوائر منظمة تامة النظام ، وكل دائرة تحوى دائرتين ، صغيرتين ، وتشتمل على خمس ورقات فتكون ⅖ فالرقم الأعلى يشعر بالشكلين الحلزونيين ، والرقم الأسفل يشعر بعدد الأوراق وهناك نباتات أخرى فيها نسبة بين أوراقها وأشكالها الحلزونية ، وهناك نظمت هذه النسب وجعلت بهيئة جميلة ، ولما نظر فيها العلماء وجدوا بين النسب بدائع حسابية جميلة . فكما كانت العناصر بينها نسب هندسية وحسابية ، هكذا جميع أوراق الشجر فى مشارق الأرض ومغاربها بين بسط كل منها مع مقامه مناسبات لبسط باقى النبات ومقامه . فقلت : وهذا عجب يخجل هذا الإنسان المجهول الذى لم يدرس نفسه حتى يعلم أن بين أفراده فى جميع أممه نسبا حسابية ، وهذه النسب جعلت للانتفاع بالمزايا الإنسانية المختلفة لا القضاء عليها ولا محاربتها (انظر شكل ٢٧ و٢٨)

قد جاء فى المجلد الثامن من هذا التفسير مانصه : (هاتان الصورتان المرسومتان أولهما صورة لغصن التفاح أو البلوط وقد دارت الأوراق عليه مبتدئة من الأسفل دائرة حول الغصن ، فالورقة الأولى المعنون عنها بعدد واحد تتلوها خمس قد صنعت دورتين حلزونيتين كما قدمنا ، والخامسة منها التى هى السادسة فى العدد تراها أمامك فى الرسم فوق الأولى على خط مستقيم وهى تمام الدائرة الأولى وتليها الدائرة الثانية ونهايتها ومبدأ الدائرة الثالثة عدد ١١ وهكذا هذا واضح فى الشكل الأول ، ولكن لما كان هذا لا يظهر

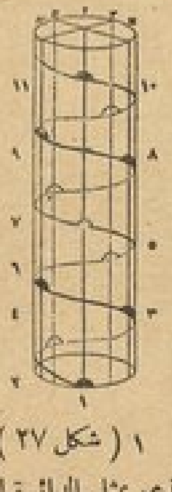

١ (شكل ٢٧)

٢ (شكل ٢٨)

منه أن كل خمس ورقات دائرة تامة وجب رسم الشكل الثانى الذى يمثل الدائرة التامة من هذه الدوائر بورقاتها الخمس بوضعها الأفقى لتظهر للناس فيعلمون أن هذه الأوراق الموضوعة وضعا رأسيا هى دائرة تامة منظمة مقسمة خمس أقسام بخمس ورقات كل قسم منها ٧٢ درجة تقسيما عادلا) .

فانظر

فانظر فى الشكل الثانى (شكل ٢٨) فإنك تجد الورقات الخمس التى صنعت دورتين حلزونيتين قد ظهرت واضحة جلية ، فالورقة الأولى عدد ١ والثانية عدد ٢ والثالثة عدد ٣ وهكذا إلى السادسة التى جاءت فى مقابلة الأولى على خط مستقيم ، ومن أراد الزيادة فليقرأ هذا الموضوع هناك اهـ

موازنة حساب الأجرام السماوية بالكسر الدائر

ثم قلت : فهل تذكر مما تقدم فى هذا التفسير نظيرا للكسر الدائر ؟ فقال نعم تقدم فى بعض السور كثير منه ولكنى لا أتذكره . فقلت إننا كما نقول إن الكسر الاعتيادى $\frac{1}{7}$ إذا حولناه إلى كسر اعشارى يصير مركبا من ستة أعداد تتكرر بلا نهاية هكذا نقول فى حساب الكواكب بعد أن نعرف عدد أيام السيارات بهذا الجدول :

	عدد الأيام		عدد الأيام
عطارد	٨٨	المشترى	٤٣٣٣
الزهرا	٢٢٥	زحل	١٠٧٥٩
الأرض	٣٦٥	أورانوس	٣٠٦٨٧
المريخ	٦٨٧	نبتون	٦٠١٢٧

تذكرة

أعداد أيام السيارات التى حصل فيها جبر للكسر

لتسهيل الموازنة بين الكسر الاعشارى السابق وبين حساب الكواكب ، قلنا إن الكسر $\frac{1}{7}$ يساوى ١٤٢٩٥٧ ١٤٢٩٥٧ ١٤٢٩٥٧ر٠ وهكذا تكرر هذه الأرقام بلانهاية وهى ١-٤-٢-٩-٥-٧ هكذا نقول عطارد يدور إلى الأبد على مقتضى هذه الأعداد ٨٨ ٨٨ ٨٨ ٨٨ وهكذا إلى مالا نهاية له ، ونقول : الأرض تسير على هذا النمط ٣٦٥ ٣٦٥ ٣٦٥ ٣٦٥ ٣٦٥ ٣٦٥ إلى مالا نهاية له ، وأورانوس يدور على هذا الحساب وهو ٣٠٦٨٧ - ٣٠٦٨٧ - ٣٠٦٨٧ - ٣٠٦٨٧ :

اللهم إنك أنت الحكيم الجليل العليم ، أنت أبدعت الجمال والحكمة ، وأريتنا الكسر الدائر ظاهرا نظيره فى سير الكواكب ، وفى تركيب كل مركب ، فهو فى الحركات وفى نظام العناصر ، فياليت شعرى هل كانت هذه الدورات الفلكيه نتيجة تقسيم الواحد الصحيح إلى أجزائه ، أم ماذا كان ؟ وكيف كان الكسر $\frac{1}{7}$ تكررت فيه ٦ أرقام من الأعداد البسيطة ، وأورانوس تكرر فيه ٤ منها ، ونبتون كذلك ، وهكذا المشترى وزحل وفى عطارد ٢ وفى الزهرة والمريخ والأرض ٣ ، فيظهر لى أن العوالم أجمعها كأنها وحدة ، وهذه الوحدة تتجزأ ، دائما وتتبع طريقا مرسوما لاتتحول عنه كما لم يتحول الكسر الدائر عن منهجه ، وإذا كان الكسر المذكور لاتنتهى أدرواره ، هكذا هذه الدرارى لاتنتهى أدوارها انتهاء معلوما لنا بل علم الانتهاء عند خالقها ومدبرها ، وبهذا تم الكلام على الفصل الثانى ، وهو تطبيق ماظهر فى العوالم من الحساب الموافق لما فى نفوسنا جذرا وتربيعا وكسرا دائرا ومتواليات هندسية وحسابية وغيرها.

الفصل الثالث

فى أن الأمم وإن استظلت بظلال تلك العلوم فى حياتها لم تجن ثمراتها فى سياساتها ، ولم تتناول القطوف الدانية ، من الغصون الوارفة ، فى تلك الأشجار الباسقة ، بل هم لايزالون بنظام أنفسهم فوق الأرض جاهلين.

ألم ترأيها الصديق أن هذا الإنسان رأى الثعلب يصيد فقلده، وللعنكبوت شبكة للصيد فقلده ، ولبعض السمك منشارا وبلطة فقلده ، وللسرطان درعا فقلده ، وأخذ أحقاق النشوق عن (أم الحلول) ، وحرث الأرض عن الخنزير ، والتباعد عن الروائح الكريهة من الهرة ، وتعاطى المسهلات عن الكلب ، وتجنيد الجنود عن النمل ، والمشاورة عن اللقلق ، والحذر عن الغراب : واتخاذ الجلساء عن النسناس ، والحيلاء عن النمر ، والهندسة عن النحل ، وعلم الطقس عن الخلد (بفتح الخاء واللام) ، وأخذ الكهرباء عن السمك الرعاد ، والغناء عن الطيور ، وبناء الأقبية عن بعض الفيران ، والمهارة في البناية والنجارة عن كلب الماء ، وصناعة الورق عن الزنابير ، والغزل عن دود القز ، والنسج عن دود الربيع ، والحياكة البديعة الدقيقة عن بعض الطيور ، وهكذا الخياطة والكدح ليلا ونهارا عن النمل .

كل ذلك وأكثر منه قد تقدم في (سورة طه) فكل مايصنعه الإنسان اليوم لرقي حياته تعلمه من الحيوان ونعم مافعل ، ولكنه لايزال في سياسته طفلا غرا جاهلا أبله ، ذلك أنه استعمل عقله في درس هذا الوجود ، وابتدأ معارفه بالعلوم الرياضية ، والعلوم الرياضية هدته إلى استعمال العوالم التي حوله ، فها هو ذا الإنسان شرقيه وغربيه أدرك أن الجذر والتربيع المشروح آنفا ورآهما ظاهرين وضحين في الطبيعة كما تقدم في بعض الفصول السابقة ، وأن الضوء والجاذبية والكهرباء والصوت كلها انتشرت حولها بمقتضى هذين القانونين ، وهكذا رأى هذا الإنسان أن ١ ٢ ٣ الخ بجذرها وتربيعها وأعمال حسابية أخرى نتجت منها مثلثات لاعدد لها ، منظمة الحساب ، قائمة الزوايا كما تقدم ، فاستعمل ذلك كله ، ورأى الكسر الدائر المشروح فيما تقدم فوجد له نظيرا في المادة وهو أولا أنها لم تعرف لها نهاية في جميع أقطارها علوا وسفلا ويمينا وشمالا ، ولا في زمانها أزلا وأبدا ، ولا في عظمتها وبعدها المكاني ، ولا في أجزائها عند تحليلها ، فكل هذه لم يعرف لها الإنسان نهاية كما لم يكن للكسر الدائر نهاية ، وقد تقدم هذا كله ، وأعددناه هنا لنرتب عليه ما يأتي ، وهو المقصود من هذه المقالات كلها .

الانسان لم يدرس حقائق السياسة كما درس أحوال الحياة

هذا الانسان درس ذلك كله مدفوعا بعامل الحاجة المقومة لهيكله ، الحافظة لحياته ، ولكنه إلى الآن لم يتفرغ لدراسة نظامه السياسي ، ذلك لأن النظام السياسي كمال ونظام الحياة مقدمة له ، والمقدمات عادة تصنع قبل النتائج :

إذا كان الإنسان قدر على استكمال نظام حياته واستعان عليها بالرياضيات التي تغلغلت في صميم العوالم المحيطة به من كل جانب فأحرى به الآن أن يستكمل السياسة بالعلوم الرياضية أيضاً ، مثلا الجداول المتقدمة المسماة بالأوفاق فانظر فيها أليس المربع الذي فيه عدد ١ والذي فيه عدد ٢ وهكذا إلى نهاية الجدول كل منها في مرتبة لايسد بها غيره ، وله صلة بجميع الأعداد ، وفي الوسط هناك عدد هو أكبرها ، فتأمل هناك تجد نظاما حسابيا بديعا أشبه شيء بنظام الجسم الانساني والحيواني ، فكما أن كل عدد في الوفق لايغني عنه سواه ويتوقف عليه جميع ماسواه : هكذا كل عضو في الجسم لايغني عنه سواه ويتوقف عليه ماسواه ، ولو نطقت تلك الأعضاء أو تلك الأعداد لقالت إن المحبة بيننا تامة لشدة حاجة بعضنا إلى بعض ، وإذا كانت العناصر المذكورة في (سورة العنكبوت) المشار إليها آنفا بينها نسب هندسية وحسابية ، وهكذا أوراق النبات المرسومة المحسوبة في (سورة الحجر) .

أقول : إذا كانت هذه كلها بينها نسب فليس من المعقول أن تكون عقول النوع الإنساني وحدها هي المجردة من الحساب والنظام فثبت ثبوتا لاشك فيه أن بني آدم يجهلون أنفسهم وحقائقها ولابد من دراستها

حق

حتى يعرفوا استعداد كل أمة وكل قبيل وكل طائفة ، وتوضع كل أمة وكل فرد فى مرتبته التى فطر عليها ، وهذا آت لاشك فيه ، والسبيل لذلك قد شرحته فى كتابى (أين الإنسان) وهذا يتضمن معنى الآيات التى نحن بصدد الكلام عليها وهي : «وفى الأرض آيات للموقنين» والحمد لله رب العالمين . كتب يوم الثلاثاء ١٢ مايو سنة ١٩٣٢ م .

اللطيفة الثالثة : فى قوله تعالى «وفى أنفسكم أفلا تبصرون»

اعلم أيها الذكى أن هذه الآية أشبه بالبسملة فإن الرحمة فى البسملة تستدعى ذكر كل ماشملته الرحمة ، وذلك لايسعه زمان ولا مكان ، هكذا أمر النظر فى النفس فإنه لاحد لها ، ولقد تقدم فى هذا التفسير مافيه جمال وبهجة لأذكياء المسلمين ، ولكن لابد من أن نذكر هنا (ثلاث شذرات جميلات) تبصرة وذكرى ورحمة للمذكرين ، وتلك الشذرات لاتختص بعلم تشريح البدن الذى هو الممهد لعلم النفس ، ولا بعلم الطب الذى به إصلاح البدن ، ولا بعلم النفس الذى هو المقصود بالذات ، بل يعم هذه الثلاثة .

الشذرة الأولى فى كريات الدم الحمراء

جاء فى جريدة الأهرام أول يناير سنة ١٩٣٢ م تحت هذا العنوان مانصه: (نشرت صحيفة ألمانية) خلاصة إحصاء وضعه الأستاذ (كبزلنج) عن عدد الكريات الحمراء فى دم الإنسان ، ففى الألتار الخمسة (وهى مقدار مافى جسم الإنسان العادى من الدم) من الدم ٢٥ تريليون كرية حمراء ، وإذا وضعت تلك الكريات الواحدة إلى جنب الأخرى ألفت خطا طوله ٠٠٠ر١٨٧ كيلو متر ، ويقتضى عدها ثمانين ألف سنة بلا انقطاع إذا عدت عشر كريات فى الثانية ، وإذا[1] وضعت الكرية الواحدة فوق الأخرى بلغ ارتفاعها ٦٢ ألف كيلو متر : أى مايبلغ مرة ونصف من محيط الأرض ، وذلك يساوى مسافة يقطعها قطار الاكسبريس فى مائة يوم إذا كان يقطع سبعين كيلو مترا فى الساعة ، وإذا وضعت الكريات الحمراء بعضها إلى جنب بعض غطت سطحا تبلغ مساحته ١٤٠٠ متر مربع) انتهت الشذرة الأولى .

الشذرة الثانية

فى بعض المنافع الطبية التى تقدم فى هذا الكتاب كثير منها تغنى أولى الألباب عن الطبيب غالبا كما جربته ولكن الذى ذكرته فى طب الأسنان كان يعوزه ماهو أكمل فيه لأنه تقدم فى هذا التفسير أن الأسنان عليها مدار أكثر الصحة فى الحياة ، وقلنا هناك إن الأمة الألمانية وغيرها لاتدع مريضا إلا كتبت قبل الشروع فى مداواته عن صحة الأسنان ، فمتى داوتها كان ذلك خطوة فى صحة المريض ، فهاك ماقاله الدكتور محمد على عثمان طبيب الأسنان المعروف بالقاهرة خريج كلية الطب الملكية المصرية ، وهذا نصه : ـ

وجوب المحافظة على الأسنان

الأسنان هى أجسام صلبة تشبه العظام ، موضوعة فى مدخل القناة الهضمية ، ومثبتة فى قطعتين من العظم يقال لهما الفكان ، وظيفتها قضم ومضغ الطعام وتهيئته حتى يسهل على المعدة هضمه ، فطبيعى أن نظافة الطعام المعد للهضم ، وخلوه من الميكروبات تتوقف على نظافة الأسنان وخلوها من المواد المتعفنة ، فإذا كانت الأسنان غير نظيفة فعند المضغ يختلط الطعام بما عليها من الأوساخ والمواد العفنة ، ويدخل المعدة فيسبب أمراض الامعاء ، وعسر الهضم ، وما إليها من أمراض القناة الهضمية . وجائز بل ومحتم أن يمتص الدم جزءا من هذه المواد العفنة فيسبب كثيرا من الأمراض منها بل وأظهرها أمراض المفاصل وأمراض العين وغيرها ، فمن ذلك نرى أن العناية بنظافة الأسنان هى أساس الصحة .

(١) فى هذا خطأ وصواب ولكن نقلناه بالحرف اهـ .

تنظيف الأسنان

سواء أكانت بالسواك أو الفرجون (الفرشة)، فكلاهما تؤدى الغرض إذا استعملت بالطريقة الصحيحة. الطريقة الشائعة فى استعمال السواك أو الفرجون هى تدليك الأسنان بالأداة المستعملة، وجعل اتجاه تحريك الأداة فى اتجاه مضاد للاتجاه الطولى للأسنان، هذه الطريقة خطأ، فبينما استعمال هذه الطريقة ينظف ماظهر من الأسنان، فهى فى الوقت نفسه تدفع فضلات الطعام بين الأسنان فتتخمر وتكون نواة يتجمع حولها الأوساخ فتتكون المواد الجيرية على الأسنان وتظهر كأنها طبقة منها، وهذه الطبقة الجيرية هى الأساس الأكبر فى كل أمراض اللثة وتسوس الأسنان؛ واستعمال هذه الطريقة يسبب تآكل اللثة شيئا فشيئا حتى تتعرى الأسنان وتبتدئ تتخلخل.

الطريقة الصحيحة

هى بتحريك الأداة فى اتجاه واحد مواز للاتجاه الطولى للأسنان بمعنى أنه عند تنظيف أسنان الفك الأسفل توضع الأداة عند ابتداء اللثة وتحرك الأداة إلى أعلى، ويكون التحريك دائما من أسفل إلى أعلى فبذلك تخرج كل الفضلات التى بين الأسنان، أما فى أسنان الفك الأعلى فيكون التحريك من أعلى إلى أسفل ويجب عمل هذه العملية على كل الأسنان (انظر شكل ٢٩).

(شكل ٢٩ — صورة تبين طريقة تنظيف الأسنان السفلى. اتجاه الفرجون من أسفل إلى أعلى)

بعد الانتهاء من تنظيف الأسنان يجب تدليك اللثة بالأصبع حتى تصير اللثة ذات ملمس ناعم غير لزج فهذا التدليك يفيد:

أولا: فى أنه يزيل الطبقة الرقيقة من الطعام التى قد تكون على اللثة.

ثانيا: تجذب جزءا كبيرا من الدم النقى إلى هذه الجهة فتقويها.

ملاحظة يجب تدليك اللثة بعد كل أكل، بل وكلما أمكن الإنسان فى أى لحظة وقت غسيل الفم. أما عملية تنظيف الأسنان فيجب أن تكرر مرتين فى اليوم على الأقل (الأولى) قبل النوم مباشرة، لأن الإنسان عندما ينام فمه دائما مقفلا فلا يمر فيه إلا هواء الزفير المملوء بثانى أكسيد الكربون الذى يساعد على سرعة عملية التخمير مع بقايا الطعام إن كانت موجودة فى الفم (والثانية) عند القيام من النوم، وذلك أن الإنسان فى مدة النوم التى تتراوح بين ٦ — ٨ ساعات فيها لايتجدد لعابه فيكون غير مستعد لأن يؤدى وظيفته على الوجه الأكمل كما أن طعم الفم عند الصباح لايكون مقبولا.

عدد الأسنان عند الرجل والمرأة ٣٢ سنا، منها ثمانية قواطع، وأربعة أنياب، وثمانية أضراس صغيرة واثنتا عشرة طواحن. وتتركب السن من تاج وهو الجزء الظاهر فى الفم، وجذر وهو الجزء المثبت فى الفك ومغطى باللثة؛ وبين التاج والجذر طبقة لها (عنق السن)، وهى تكون الحد الفاصل بين الجزر والتاج وفى الحالة الطبيعية تكون (عنق السن) مغطاة باللثة. وتتكون الأسنان من :—

(ميناء) : وهى مادة صلبة جدا، بل أصلب مادة فى جسم الإنسان، وهى تغطى التاج فقط.

(سيمنت) : وهى طبقة تشابه العظم العلوى من جسم الأسنان فى التركيب وتغطى الجذر.

(العظم) : وهى طبقة سميكة يتكون منها معظم جسم السن، وتكون مغطاة بالميناء والسيمنت، وتمتد من الداخل إلى اللب.

(اللب) وهو مركز الحياة فى السن ، وهو عبارة عن مجموعة شرايين وأوردة وعروق ، ومكانها فى تجويف داخل عظم السن ، ومحتويات اللب تتصل بالدائرة الدموية العامة فى جسم الإنسان ، ومن هذه المحتويات أيضا تتفرع فروع دقيقة جدا تتخلل عظم السن والسيمنت ، وقد تمتد إلى جزء فى الميناء ، ويتصل السن بعظم الفك بطبقة ليفية رفيعة تحيط جذور الأسنان ، ويمر فى هذه الطبقة بعض الشرايين والأوردة والعروق التى توصل الفروع المتفرعة من اللب إلى الفروع الموجودة فى عظم الفك .

من ذلك ترى أن الأسنان عبارة عن أجسام حية ، لا كما يظن البعض أنها أجسام ميتة لاحياة فيها

جذور الأسنان

كل القواطع والأنياب العليا والسفلى لها جذر واحد .

الأضراس الصغيرة كلها أيضا لها جذر واحد ماعدا الضرسين الصغيرين الأولين فى الفك الأعلى ، فقد يكون لهما جذران :

الأضراس العليا كلها لها ثلاثة جذور .

الأضراس السفلى كلها لها جذران فقط .

هذا التقسيم هو الشائع ، ولكن قد تشذ بعض الأسنان فتخالف المألوف .

تسويس الأسنان

يتكون تسويس الأسنان من : أن الإنسان يترك بعض فضلات الطعام فى الفم فتتخمر وتفرز أحماضا تؤثر على مادة الأسنان فتذيبها ، وبذلك تتكون فتحة فى الأسنان قابلة لأن تمتلىء ببقايا الطعام عند ما يكون التسويس واصلا للعظم فقط قد يشعر الإنسان بآلام عند شرب الماء البارد ، أو الساخن ، أو مع استعمال كثير من التوابل ، أو عند الأكل ، وقد لايشعر الإنسان بآلام قط ، وإذا ترك هذا التسويس بدون علاج يمتد إلى اللب فيسبب آلاما شديدة متقطعة غير محتملة ، وتزيد الآلام عند ماينام الإنسان أفقيا وتكون حادة جدا عند الأكل أو الشرب .

عند مايكون التسويس فى الأسطح الجانبية للأسنان وهى الأسطح التى ليس عليها ضغط قد لايشعر الإنسان بأى آلام ، وقد يصل التسويس إلى اللب بدون أن يدرك المريض ، فى هذه الحالة قد يموت اللب ويبقى متعفنا يسبب خراجا .

أمراض الطبقة الليفية

قد تتكون أمراضا حادة ، وفى هذه الحالة يكون الألم مستمرا دقاقا ، وتتكون اللثة حول الأسنان محمرة ومتورمة ، وتتألم لأى ضغط ، والأسنان أيضا تتألم عند الأكل ، أو بمجرد الضغط ، وتتكون فى الغالب مخلخلة وفى هذه الحالة يتكون فى الغالب خراج حول السن المريضة ، والأمراض المزمنة لهذه الطبقة تكون بتآكل اللثة مع هذه الطبقة ، وسببها يكون من ضغط المادة الجيرية التى تتكون على الأسنان ، وقد تكون من أسباب أخرى كثيرة لايتسع المقام لذكرها .

أمراض اللثة

(التهاب فى اللثة) : وفى هذه الحالة تدمى اللثة من أقل لمس ، وسببها الأوساخ والمواد الجيرية التى تتكون على الأسنان وعلاجها يكون بإزالة هذه المواد .

(تضخم اللثة) : قد تظهر اللثة متورمة ، وتدمى لأقل لمس ، وسببها كالمرض السابق وغيرها من أمراض أخرى ، وأغلب أمراض اللثة تتقدم بدون أن يعيرها الإنسان أدنى التفات فتسبب امتصاص العظم

الذى حول الأسنان فتكون بذلك بين الأسنان وبين اللثة مسافة قابلة لتخزين فضلات الطعام فتتخمر فى هذه الجيوب ، فتجعل الفم ذا رائحة كريهة ، وعند ضغط اللثة تفرز صديدا ، وبعض من هذا الصديد يمتص فى الدم فيولد أمراضا كثيرة غير الأمراض التى تتولد من امتصاص هذا الصديد مع الطعام إلى المعدة والأمعاء .

من كل ماسبق نجد أن جميع الأمراض التى تتكون فى الفم نتيجتها وساخة الأسنان .

ملاحظة : إذا تكونت المواد الجيرية على الأسنان قد تترك سطحا خشنا ، فمن كثرة احتكاك اللسان بهذا السطح يتكون فيه قروح قد تسبب سرطانا . عند مايتقدم امتصاص العظم الذى حول الأسنان تجد الأسنان تتخلخل وتقع من زوال مايربطها بالفك . لايصح أن يعتبر كل تآكل فى العظم الذى حول الأسنان مرضا ، فإن تقدم السن يكون مصحوبا دائما بتآكل هذا العظم ، ففى حالة كبر السن لايصح أن يعتبر تعرية الأسنان مرضا إلا إذا كانت مصحوبة بعوارض أخرى .

تركيب الأسنان الصناعية

قد تسمم رأى معظم الناس بأن العلاج الوحيد للأسنان من أى مرض كان هو تغطيتها بغطاءات ذهبية

ماعمل هذه الغطاءات الذهبية ؟

أولا : أنها تعزل السن المريض عن العوامل الخارجية فلا يتأثر بالحرارة والبرودة وغيرهما .

ثانيا : فى الوقت نفسه يبقى المرض داخل الضرس فينخر فيه ، فبعد تركيب الغطاء الذهبى بمدة وجيزة يبتدىء الضرس فى تسبب متاعب كثيرة ، وقد يكون علاجها شاقا جدا على المريض والطبيب .

ثالثا : إن هذه الأغطية تثبت على الضرس بطبقة من الأسمنت ، وأن هذه الطبقة قابلة للذوبان فى اللعاب فتترك بذلك مسافة بين الضرس والغطاء يصعب تنظيفها فتتخمر فيها بقايا الطعام وتسبب بذلك أمراض اللثة وما ينتج عنها من الأمراض الوبيلة .

رابعا : قد يضغط الذهب على اللثة فيسبب للانسان اختلالا فى الأعصاب لايعرف لها سببا .

خامسا : إن صعوبة تنظيف الفضلات التى بين الذهب والسن تجعل رائحة الفم دائما كريهة .

فمن هذا ترى أضرار الغطاءات الذهبية المنتشرة فى كل أنحاء المعمورة ، والتى يجب أن نمتنع عنها بكل ماأوتينا من قوة ، ولعلاج الأسنان يجب أن نبحث عن سبب المرض فنزيله ، فإن كان الضرس به تسوس يجب أن تنظف الضرس جيدا بإزالة الأجزاء المريضة ، وبعد ذلك نضع فى الضرس حشوا ليحل محل ماأزيل من الضرس ، وبذلك نتفادى عن عمل الأغطية الذهبية . وإن كان لايمكن إزالة المرض يجب خلع الضرس إصالة حتى لايسبب للانسان متاعب لاداعى لها .

كثير من الناس عند مايخلع له ضرس لايفكر مطلقا إلا فى تركيب بدله شيئا ثابتا ، أو بمعنى آخر بتركيب (كبرى ذهبى) والكبرى هو عبارة عن غطاءين ذهبيين مثبتين على الضرسين اللذين حول الضرس المخلوع وبين هذين الغطاءين يوجد ضرس ذهبى ملحوم بهما ، فأظننا بحثنا سابقا أضرار الأغطية الذهبية ولا داعى لذكرها الآن ، إنما أحسن طريقة لوضع بدل الأضراس المخلوعة هو طريقة الأجهزة المتحركة التى يمكن إخراجها وتنظيفها كلما دعت الحالة فبذلك يبقى الفم دائما حافظا لرونقه .

الأسنان اللبنية للأطفال

تبتدىء أسنان الأطفال فى الظهور من سن ٦ أشهر تقريبا . وتكمل فى سن ٣٠ شهرا وعددها ٢٠ وتقسيمها :

أربعة أسنان أمامية عليا ، ومثلها سفلى .
نابين أعلى ، ومثلهما أسفل .
أربعة أضراس عليا ومثلها سفلى .

أسنان الأطفال عرضة للأمراض بسرعة ، فتركيبها من مادة ليست من الصلابة الكافية بحيث تقاوم ماهى معرضة له من تخمر فضلات الطعام ، ومن الحلوى المغرمة بها الأطفال ، فعندما يشكو الطفل من أضراسه يجب عرضه على الطبيب مباشرة حتى يزيل سبب الألم ، وبعض الأضراس عند مايهمل علاجها تبقى فى الفك مدة زيادة عن المقررة لها ، فتسبب بذلك اعوجاج الأسنان الأخرى الثابتة التى تستحل محلها ، فيظهر لنا الشخص فى بعض الأحيان ذا بروز فى أسنانه الأمامية أو خلل فى ترتيب أضراسه . ويكون نتيجة ذلك سرعة تسرب مرض الأسنان .

واجب الأم نحو طفلها

يجب على الأم أن تمسح أسنان طفلها يوميا بقطعة مغموسة فى (السبرتو الأبيض النقى) حتى تبقى أسنانه دائما نظيفة .

الاضطرابات التى تحدث للطفل فى وقت التسنين

عند التسنين تحدث جملة اضطرابات عند الطفل من الضغط الذى يحدث من السن على اللثة التى فوقها منها :

(١) فقدان الشهوة عند الطفل فيرفض كل طعام يقدم له ، ولايقبل أن يرضع من ثدى أمه .
(٢) يحدث عند الطفل تشنجات وحركات عصبية .
(٣) ترتفع درجة حرارته وقد تصل إلى ٤٠ فيشك أن عنده حمى .
(٤) الأرق المستمر .
(٥) يتقايأ كثيرا ، ويطرد اللبن الذى يعطى له .
(٦) يحصل عنده إسهال شديد .
(٧) بعض الأحيان لايستطيع الطفل أن يرى النور .
(٨) بعض الأحيان يحصل تصلب فى عضلات الرقبة وتراجع الرأس إلى الخلف ، فيشك فى الالتهاب السحائى (الحمى الشوكية) . فى الوقت نفسه يحدث التهاب عام فى فم الطفل ، وفى بعض الأحيان تحصل قروح صديدية فى فمه .

فى هذه الحالات يجب عرضه على الطبيب لعلاج مرض الطفل العام ، وفى الوقت نفسه يعرض أيضاً على طبيب الأسنان ليعالج الالتهابات ، أو يفتح اللثة ، حتى يخفف الاضطرابات عن الطفل .

هذا موضوع مقتضب عن حالة الأسنان وأمراضها يمكن به الإنسان أن يعرف حالة أسنانه مؤقتا حتى يستشير أصحاب الرأى فى ذلك ، وما سبق لا يجب أن يتخذه الإنسان قاعدة عامة تسن على كل حالة ، بل لكل حالة علاجها الخاص ، ولكن مما سبق يمكنه أن يكون رأيا مبدئيا عن أى حالة كانت ، وبذلك يستعد لأن يفهم مايقوله له الطبيب عند مايعرض عليه الحالة . والذى دعانى إلى كتابة تلك الكلمة الموجزة عن الأسنان وأمراضها أستاذنا الكبير فضيلة (الشيخ طنطاوى جوهرى) مؤلف هذا التفسير .

دكتور محمد على عثمان
جراح وحكيم أسنان
خريج كلية الطب الملكية المصرية

الشذرة الثالثة

مسامرة بينى وبين صديق العالم الذى اعتاد أن يحادثنى فى هذا التفسير
فى قوله تعالى : « وفى أنفسكم أفلا تبصرون »
وذلك فى يوم الجمعة ١٩ صفر سنة ١٣٥١ هجريه الموافق ٢٤ يونيو سنة ١٩٣٢ م بعد العصر
فى أمر النفس وعجائبها ، ومدار الحديث على ما يأتى :

(١) الحقول هى الكلية الأولى لعلم النفس وما حوله من العلوم .

(٢) الأزهر .

(٣) المدارس النظامية .

(٤) فلاسفة القدماء .

(٥) الفلاسفة المحدثون ونظام علم النفس عندهم مع العلوم الأخرى .

(٦) علم النفس فى إخوان الصفاء .

(٧) فى جمهورية أفلاطون من حيث قياس نظام النفس الواحدة على نظام الأمة .

(٨) فى علم التربية الحديث ، وأن علم النفس فيه أوسع نظاما بحيث يرجع إلى مبدأ الخليقة متبعا سلسلة الرقى الحيوانى والإنسانى ، فكأن كل فرد فى حياته سلسلة منتظمة من العوالم كلها ، وهذا آخر ما وصل إليه العلم الآن ، وهذا بعض سر : «وفى الأرض آيات للموقنين ، وفى أنفسكم أفلا تبصرون» .

قال محدثى : إنى اليوم أريد أن أحدثك فى هذه الآيات : « إنهم كانوا قبل ذلك محسنين ، كانوا قليلا من الليل ما يهجعون ، وبالأسحار هم يستغفرون ، وفى أموالهم حق للسائل والمحروم ، وفى الأرض آيات للموقنين ، وفى أنفسكم أفلا تبصرون ، وفى السماء رزقكم وما توعدون ، فورب السماء والأرض إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون» .

فهاهى ذه آيات انتظمت فيها أولا جواهر العبادات من صلاة واستغفار ، ثم تبعها العطف على الناس بالإحسان ، ثم الكلام على الآيات فى الأرض ، ثم النفس الإنسانية ، ثم السماء ، ثم ختم هذا المبحث بهذا القسم ، وبماذا أقسم ؟ أقسم بنفس السموات والأرض اللاتى أحاطت بالنفس من كل جانب ، فقلت : أيها الأخ الذكى : إن هذا النظام معلوم مما قررته فى مواضع كثيرة من هذا التفسير . فقال : ولكنى أريد قولا أوسع ، ودرسا أتم ، وإيضاحا أوفى ، بحيث تسكن إليه نفس الحليم ، ويطمئن إليه قلب الحكيم . فقلت : أيها الأخ أحدثك عما زاولته فى ذلك مدة حياتى فى هذه الدنيا ، وذلك فى ثمانية فصول :

الفصل الأول : علم النفس فى الحقول

رباه : أنت قد أشرق نورك ، وتجلى جمالك فى البر والبحر ، والعامر والقفر ، والجبل والسهل ، والنهر والحقل . ذلك أنى أيام الصبا وزمن الحيرة المطلقة لم يكن لى مدرسة إلا فى حقلنا الذى كنا نزاول الزراعة فيه (فى أرض الثانية) بكفر عوض الله حجازى ، فسبحانك اللهم وسعدانك ، ماذا كانت دراستى ؟ دراستى فيها كانت راجعة إلى ما فى الحقل من ذرة وقمح وقطن وبرسيم ، وما حوله من ماء جار وطرق يطرقها المارون ثم ما فوق الحقل من الهواء والسحاب والمطر ، والأضواء والنجوم ، والشمس والقمر ، والحر والبرد .

هذا هو الذى كنت أدرسه ، ولكننى كنت جاهلا جد جاهل ، أدرس ولا أدرى ماذا أدرس ، أنظر بعين حائرة ، وقلب خافق مضطرب ، ونفس وثابة إلى العلا ، فالنفس وامقة ، والشقة طويلة ، فأين المفر ؟ . هنالك حرت فى هذا الوجود الذى يرجع لثلاثة أمور : نفسى المطربة وما فوقها وما تحتها ، فالوجود كله ثلاثة فى حقلنا .

هذه أيام حيرتى ، ولكنى كنت أستعين بالصبر والصلاة ، أصلى ليلا وأصوم نهارا ، وأضرع إلى صانع نفسى وأخاطبه وأنا أنظر إلى النجوم ليلا قائلا : يا الله : قد ظهر لى أنك بر رحيم بهذه الطيور ، قد علمتها ووهبتها كل ماتحتاج إليه . وأنا أريد المعرفة ولست أدرى من يعلمنى ، أفلا ترى أيها الأخ أن مااتفق لى فى ذلك يوافق أول هذه الآيات من حيث الإكباب على العبادة والالتجاء لصانع العالم ، وهذه مجرد مصادفة لأنى ما كنت أدرى من هذا شيئا . لأنى كنت أحفظ القرآن بلا علم ولا عقل ولا هدى ولا كتاب منير .

ولكم كنت أسامر النجوم ليلا ، وأتفقد الشجر والزهر ، والثمر والحب ، وكل حشرة ودابة الخ فهذه كلها كنت أدرسها درسا غامضا ، ألتمس الحقيقة بين هذه المخلوقات . انتهى الفصل الأول .

فقال : قبل أن ننتقل للفصل الثانى أرجو أن تذكر لى قبل المباحث الأخرى لماذا ذكرت النفس بعد العبادات وبعد آيات الأرض ؟ فقلت : هذا الترتيب يظهر لك فى الفصول الآتية ؛ لأنك سترى أن الأمم قبلنا لم تجد لها مناصا من دراسة العوالم التى حولنا قبل دراسة أنفسنا ، لأن هذه العوالم مقدمات لخلق نفوسنا ، فدراستها يجب أن تكون مقدمة على دراسة النفس ، فها هو ذا أفلاطون فى الجمهورية يجعل النفس مقيسة على نظام الأمة ، وهاهم أولاء الفلاسفة المتقدمون وهو منهم يقولون : إن لها قوى ثلاثة سيأتى إيضاحها ، وهذه القوى نظامها كنظام النبات والحيوان وهى الشهوية والغضبية والعاقلة . فقال : قد اكتفيت بهذا الآن . فقلت :

الفصل الثانى : دراستى فى الجامع الأزهر

كنت أدرس فيه علوم اللسان من النحو والصرف وعلم الأحكام الفقهية ، وبعض المنطق والتوحيد ، وهو الذى حرك وجدانى للبحث ، لأن نظامه إذ ذاك لم يكن مثل نظامه اليوم ، فهو اليوم أرقى مما كان عليه إذ ذاك ، وسيزداد إن شاء الله تعالى .

ولطالما كنت وأنا أحفظ فى (متن المنهج) وهو آخر كتاب لدراسة الفقه أنظر إلى السماء وأقول : يا الله : أنا أريد الحقائق ، وقد طابت منك مافوق هذا ، ولقد أوضحت هذا المقام فى ثنايا هذا التفسير وفى كتابى (التاج المرصع) الذى ترجم إلى القازانية ببلاد الروسيا ، وإلى الأوردية ببلاد الهند ، ونشر فى جميع بلاد الإسلام ، فليراجعه من أراد . انتهى الفصل الثانى .

الفصل الثالث فى مدرسة دار العلوم

لما دخلت هذه المدرسة اعترانى الدهش مما رأيته ، فإن العلوم الطبيعية من الضوء والحرارة والصوت ونحوها هى التى كنت أفكر فيها فى حقلنا وهكذا الحيوان والنبات ، ثم علم الفلك ، فكنت فى المدرسة مثلى فى الحقل أقرأ بشوق وتوق لتشبع النفس مما كانت تتوق إليه ، إذن الحقل كان لى مشوقا ، أفلا ترى أيها الأخ الذكى أنى على حق إذا قلت : إن أمم الإسلام يجب عليها أن لاتهمل أبناءها كما أهملت أنا فى الصغر وضاع زمان المراهقة فى حفظ القرآن بلا عقل ، وأن تبادر بتعليم الأطفال ما كنت أتعلمه وأنا فتى ؛ فليروهم جمال الأشجار والأزهار والأنهار والنجوم ؛ وليحببوهم فى ذلك ، فإذا انتظموا فى سلك الدراسة قالوا هذا الذى كنا ندرسه من قبل ، وهذه الطريقة هى المتبعة فى جميع بلاد الله شرقا وغربا الآن ، ولكن العلوم فى تلك المدرسة علوم جزئية فلا بد من البحث فى :

الفصل الرابع : فى الكلام على الفلاسفة القدماء

هنالك اشرأبت نفسى إلى أن أقف على آراء النوع الإنسانى فى علم النفس وسوابقه ولواحقه بهيئة نظامية فإن الحقل لاعلم فيه إلا المشوقات ودراسة الدين بالطريقة القديمة دراسة جزئية ، وبعض الكتب والعلوم تريك النفوس ، ودراسة المدارس إيضاح لما أشكل على فى الحقل .

ولكنى أريد أن أنظر النظام العام وآراء الأمم جميعا فيه حتى تطمئن نفسى وأقول إنى لم أهملها فى التعليم فماذا وجدت؟ وجدت أن محصل علوم الأمم القديمة فيما كنت أدرسه فى الحقل هكذا . نظروا فى مقادير المادة من العدد والمقدار والحركات، ومعنى هذا أنهم قبل أن يدرسوا نفوسهم اضطروا أن يدرسوا المادة التى تتركب منها أجسامهم التى تسكنها نفوسهم ، ذلك لأن أجسامنا مركبات مما حولها فدراسة ماحول الأجسام الإنسانية مقدمة لدراستها ، ودراسة تلك الأجسام مقدمات لدراسة النفوس ، ومتى درسنا نفوسنا ، انتقلنا إلى ماينتج عنها من الاجتماع المدنى والمنزلى والتهذيب الخلقى ، فعندنا مادة حولنا وأجسام لنا ونفوسنا وتنائج نفوسنا ، وقوة قاهرة فوق الجميع ، ولكن هذه المادة لاتصح دراستها إلا بمقدمات وهى الأعراض القائمات بها ، وذلك مثل العدد والمقدار والحركات وهكذا فإذن ابتدءوا بعلم الرياضيات ثم الطبيعيات المختومة بعلم النفس ثم الإلهيات ، وأخروا العلوم السياسية الثلاثة وهى : تهذيب النفس وتدبير المنزل وتدبير المدينة ، فأول العلوم عندهم علم (الارثماطيق) تسمة أقسام مشروحة فى كتابنا (بهجة العلوم) فى الفلسفة العربيةوموازنتها بالعلوم العصرية (تحت الطبع) . وثانيها الهندسة (الجومطريا) الذى يبحث عن النقطة والخط والسطح وهكذا ولها علوم تتفرع عليها وصناعات تتبعها ، ولاجرم أنى فى الحقل كنت أفكر فى أعداد هذه الأشياء ، وفى الامتداد والطول والعرض وأشكال المخلوقات البديعة وبدائعها ، إذن هذان العلمان مبدؤهما كان فى الحقل من عد وامتداد : وثالثها علم الفلك (الاسطرونوميا) وفيه صفحة البروج والمنازل وحساب الشمس والقمر وهكذا ، ولاجرم أن هذا العلم هو الذى كنت أفكرفيه ليلا وأنا أنظر النجوم بلاعلم ولاهدى ، ويلحق بعلم الفلك عند القدماء علم الجغرافيا ، ورابع العلوم علم الموسيقى ، وعلم الموسيقى ليس شيئا سوى مقياس حركات الأصوات كما أن الزمان مقياس حركات الأفلاك ، قاسوا حركات الكواكب فقالوا علم الفلك ، وقاسوا حركات الأصوات فقالوا علم الموسيقى ، وهذا العالم كله موسيقى ، وقدجعل الله لنا دليلا على ذلك غناء الأطيار على الأشجار ، وحفيف الأوراق ، ونغمات الأشجار إذاهبت الأرواح وفاءت الأفياء . هذههى الموسيقى التى وضعها الله وأنعم بها على العالمين ولكن أكثر الناس لجهلهم بها لايطربون ، ويظنون أن الطبيعة لاطرب فيها الأمم غافلون :

هذه هى العلوم الرياضية عند القدماء وهى ترجع إلى الأعداد والحركات والمقادير (وبعبارة أخرى) إن هذه لابد منها قبل دراسة المادة المقدمة على الجسم المقدم على النفس المقصودة بالذات :

خامس العلوم علم المنطق الذى به ينتظم الفكر كما انتظم النطق بالنحو ، وبهذا انتهت العلوم الرياضية وما يقرب منها وهو المنطق .

سادس العلوم إلى ثالث عشرها هى العلوم الطبيعية ، وما هى العلوم الطبيعية ؟ هى التى كنت أجاهد وأنا فى الحقل لأعرف حقائق المادة التى أزاول العمل فيها ، مثلا علم (سماع الكيان) وماهو سماع الكيان ؟ عبارة عن دراسة الهيولى والصورة والحركة والزمان والمكان وما يخص الجسم من الأعراض الزائلة واللازمة ، وهو العلم السادس .

سابع العلوم « السماء والعالم » وهو عبارة عن شكل العالم العام ونظامه فى أفلاكه وكواكبه وطبقاته ولكن تكون الدراسة إجمالية . ولاجرم أنى فى الحقل كنت أبحث عن ذلك وهذه العوالم تحيط بى .

ثامن العلوم : يبحث فيه عن تكون المعدن والنبات والحيوان وما أشبه ذلك ، وهذه كلها كانت محل نظرى فى الحقل وفى دار العلوم ، وهذا يسمى (علم الكون والفساد) .

تاسع العلوم : هو الذى يبحث فيه عن حوادث الحر والبرد والسحاب والمطر والثلج والرعد والبرق وقوس قزح والهالات ، ومنشأ السحب من البخار ، وغير ذلك من النور والظلمة ، وتصاريف الرياح ،

والأنهار

والأنهار والبحار ، وما يكون من الغيوم والضباب ، والطل والندى ، والشهب وذوات الأذناب ، وماشا كل ذلك ، وهذا العلم يسمى (الآثار العلوية) وهى التى كنت ألاحظها فى الحقل ولا أفهمها .

عاشر العلوم : وهو الذى يبحث فيه عما فى التراب والطين والأرض السبخة كالكباريت والأملاح والشبوب والزاجات ، أو فى قاع البحار كالدر والمرجان ، أو فى كهوف الجبال ، وجوف الأحجار ، وهو (علم تكوين المعادن) .

حادي عشرها : (علم النبات) والبحث عن أجناسه وأنواعه وخواصه ومنافعه ومضاره ، وما ينبت منه على رءوس الجبال ، وعلى شواطىء الأنهار ، وفى الآجام ، وما يغرس فى القرى والبساتين ، وما يكون منه تحت الماء ، وما ينبت منه على وجه الماء ، وما ينسج على الشجر ، وعلى وجه الصخور وهكذا .

ثانى عشرها: (علم الحيوان) وعجائبه وطبائعه ، وأنه متصل بالنبات من أدناه ، مرتبط بالإنسان من أعلاه .

ثالث عشرها : (علم الإنسان) وفى هذا العلم يبحث عن أمرين : تركيب جسده وهو علم التشريح ، ومعرفة نفسه وما يلزمها وهى الحواس الخمس وما فيها من الحس المشترك ، والقوة المخيلة والمفكرة والذاكرة وهكذا .

فترى من هذا أن علوم المادة وأحوالها قد قدمت على علم جسم الإنسان ، لأنه لايفهم إلا بعد فهمها ، وهذا هو السبب فى قوله تعالى : «وفى الأرض آيات للموقنين ، وفى أنفسكم أفلا تبصرون» فالقرآن قدم الأرض ومباحثها وهى العلوم المتقدمة وهى اثنا عشر علما على علم النفس ، وهكذا الفلاسفة ، إذن القرآن أشار بقوله : «وفى الأرض آيات للموقنين» إلى هذه العلوم الاثنى عشر ، وأتى بعدها بعلم النفس .

نرجع إذن إلى أقوال الفلاسفة القدماء ، فنقول : قد اطلعنا فى كلام أمثال ابن سينا والفارابى وابن رشد على علم النفس فوجدنا أنهم يقولون بناء على ماوصل لهم من علم اليونان أن فى الرأس مواضع منها ماهو للفكر فى وسطها ، ومنها ماهو للخيال فى مقدمها ، ومنها ماهو للتذكر فى مؤخرها ، وكانوا يقولون : إنهم عرفوا ذلك بواسطة علماء الطب ، لأنهم لما رأوا أن مرضا يحل بجهة من هذه الجهات يختل ماهو منوط بذلك الجزء من الإدراك كالتخيل والتفكر والتذكر .

قرأنا ذلك إجمالا غامضا وانتهى ذلك الدور ، ثم وجدناهم أيضا يقولون : إن للنفس قوة شهوية وهي للنبات أقرب ، وقوة غضبية وهى بالآساد والنمور من الحيوان ألبق ، وقوة عاقلة وهى إلى الملائكة أقرب ، فعليه ترى أن ماسنذكره فى علم التربية حديثا من جعلهم أن الطفل يمر على الأدوار السابقة للانسانية من مبدئها إلى آخر ماسيأتى إن هو إلا أشبه بتفصيل لما أجمله القدماء .

ثم إن القدماء يأتون بعد هذه العلوم بأبحاث عامة . وهذه الأبحاث العامة يسمونها (العلم الإلهى) أو (السكلي) أو (العلم الأعلى) وذلك العلم الإلهى أو الأعلى جعلوه أقساما :

(١) فمنها قسم سموه (الأمور العامة) مثل : ماهو الوجود والماهية والوحدة والكثرة والوجوب والإمكان والامتناع ونسب ماينها وما يخصها من حيث هى موجودات (مثال ذلك) أن يقولوا : إن الوحدة فى جسم الإنسان ظاهرة ، فهو واحد من جهة لكنه كثير من جهات أخرى ، فله أعضاء وحواس وأجزاء لايعرف عددها ، وجواهر فردة الخ فهاهنا وحدة وهاهنا كثرة ، والعدد الذى لانهاية له واحد من جهة أنه عدد وكثير من جهة أفراده ، والعالم كله واحد كثير من جهات ، وهكذا من تلك المباحث .

(٢) ومنها قسم فى النظر فى مبادئ العلوم كلها وتبيين مقدماتها ، وهكذا المقولات العشرة المذكورة فى ثنايا هذا التفسير مشروحة كالكم والكيف الخ .

(٣) ومنها قسم للنظر فى إثبات الإله الحق والدلالة على وحدته وتفرده بالربوبية وإثبات صفاته، وبيان أنها لاتوجب كثرة فى ذاته .

(٤) ومنها قسم للنظر فى إثبات الجواهر المجردة وهو العقول والنفوس والملائكة .

(٥) ومنها قسم للنظر فى أحوال النفس البشرية بعد الموت .

فهذه خمس علوم سموها (علم ماوراء الطبيعة) ولخصها ابن سينا فى كتاب (الشفاء والإشارات)، فهذه بضمها إلى ماقبلها تبلغ العلوم ١٨ علما ١٣ فى الرياضيات والطبيعيات وخمسة فى الإلهيات ، وهذه يسمونها العلوم العلمية ، وهى رياضية وطبيعية وعلوم كلية لاتختص بقسم من القسمين الأولين ، وهذه هى العلوم العلمية ويتبعها نتائجها ، وهى العلوم العملية ، وهى الخاصة بعمل الإنسان وما قبلها كلها راجعة لعمل الله؛ وهذه العلوم ثلاثة : علم الأخلاق الباحث عن القوى الثلاث المتقدمة الشهوية والغضبية والعاقلة ، وعلم تدبير المنزل فى معرفة معاشرة الأهل والخدم الخ وسياسة المدينة ، وهو علم السياسة المعروف، وفى هذا العلم إجمال عام لسياسات الأمم .

فهذه عشرون علما ١٧ علمية وثلاثة عملية . وهذه العلوم لها فروع كثيرة (مثال ذلك) علم الهندسة له فروع مثل علم المناظر ، وعلم المرايا المحرقة ، وعلم مراكز الأثقال ؛ وعلم المساحة ، وعلم أنباط المياه ، وذلك لاحياء الأرضين ، وعلم جر الأثقال ، وعلم البنكامات، وهو علم به يعرف إيجاد الآلات المقدرة للزمن مثل هذه الساعات التى يحملها الناس اليوم ، ومثل الآلات الحربية .

فهذه فروع الهندسة ، وهذه أصبحت صناعات تدرس فى مدارس خاصة ، وترى أن علمي النباتات والحيوان يتفرع عليهما فروع كثيرة فإن صناعتى النجارين والجزارين ترجعان إلى النبات والحيوان ، وعلى هذا فقس فالعلوم المذكورة وفروعها عند القدماء بلغت نحو ٦٠ ولهذه الستين فروع بلغت مئات سجلها قدماؤنا فى كتبهم .

هذا ماوصل إليه علم القدماء ، ولكن نفسى التى تعلمت مبادئ هذه العلوم فى الحقل وخرجت منه فى شوق إلى العلم لاتقف عند كلام القدماء ، هنالك نظرت فى كلام المتأخرين فماذا رأيت ؟ رأيت مايأتى :

الفصل الخامس : فى ذكر مارآه الأستاذ بيكون الانجليزى

إنه قسم العلوم المذكورة إلى ثلاثة أقسام : (أولا) نظر إلى العلوم الاثنى عشر الأولى ومعها علم التشريح . فقال هذه لاأسميها فلسفة ، وقال : كل علم منها له تاريخ فلنسمها هكذا : التاريخ الرياضى، التاريخ الطبيعى كالحيوان والنبات الخ . ثم قال : فأما علم النفس ومعرفة نظام الطبيعة ومعرفة الله فهى التى أسميها فلسفة ، إذن الفلسفة الحديثة هكذا : تواريخ العلوم المتقدمة على علم النفس ، ثم نظام الطبيعة ، ثم علم النفس .

إذن (بيكون الإنجليزى) بهذا التقسيم الذى عليه مدار الدراسة فى كرتنا الأرضية الآن تقريبا جعل العلوم التى كانت تسمى رياضية وطبيعية مقدمات للفلسفة ، وسميت بتواريخ لهذه العلوم وعليه الدراسة فى المدارس العامة الآن ، والأمور العامة وهى العلوم الخمسة جعلها قسمين : قسم منها وهو الخاص بنظام الطبيعة سماه نظام الطبيعة ، والقسم المختص بالله فصله وحده وأخذ علم النفس أيضا فقال هكذا : (الله : نظام الطبيعة ونفسي) وإنما ذكر نظام الطبيعة لأن جزئياتها مشروحة قبل هذا العلم فى الذى سماه تواريخ العلوم .

فأما العلوم العملية الثلاثة فانه ضم إليها علم المنطق ، وقال : هكذا النفس تعقل المنطق؛ إذن هذا العلم

يتبع

يقبع نفسى ، ثم إن نفسى تعرف الجمال ويعوزها التهذيب ونظام الأسرة ونظام المدينة فيقول : إن نفسى يتفرع عليها علم الجمال بعد المنطق ، وعلم الأخلاق ، وعلم تدبير المنزل ، وعلم سياسة الأمة .

مبدأ التقسيم عند القدماء وعند المحدثين

نظر (بيكون) إلى تقسيم المتقدمين فرأى أنهم يقولون هكذا : العلم الطبيعى يحتاج إلى المادة فى ذهننا وفى الخارج ؛ والعلم الرياضى يحتاج إلى المادة فى الخارج لافى أذهاننا لأننا نتصور العدد بدون التقيد بمادة خاصة ؛ والعلم الإلهى لايعوزه مادة فى أذهاننا ولا فى الخارج .

أقول : لما نظر هذا التقسيم . قال : وما لنا وللمادة فلنرجع التقسيم إلى نفوسنا ، إن نفوسنا فيها قوة الخيال ، وقوة الفكر ، وقوة التذكر ، فهذه إليها ترجع جميع العلوم .

فأما القوة المخيلة فإليها يرجع كل ما كان من قبيل الشعر والنقش والتصوير والموسيقى ؛ فهذه العلوم التى ترجع إلى التصور والتخيل فإنها ترجع إلى تلك القوة .

وأما قوة الذاكرة فلها جميع العلوم الرياضية والطبيعية ، وهى الثلاث عشر المتقدمة . وعلم التاريخ الأثرى والبشرى ، فهذه كلها تواريخ حفظت فى ذاكرة الإنسان وعليه العمل اليوم كما تقدم ، فالتاريخ البشرى منه عام وخاص ، والتاريخ الأثرى هو ماجاء فى الكتب السماوية ، وهكذا التاريخ الطبيعى والرياضى الخ .

أما القوة العاقلة فعلومها هى المختصة بالفلسفة : (الله ، ونظام الطبيعة ، ونفسى) ومن النفس تفرع المنطق والجمال وما والاها كما شرحناه .

تبين من هذا أن النوع الإنسانى اليوم رجع العلوم إلى النفس فمن العلوم سوابق وهى ١٣ علما ، ومنها معرفة الله ونظام الطبيعة ، ومنها لواحق وهى علوم نظام الأمم (وبعبارة أخرى) أن نظام العوالم ودراسته مقدم على علم النفس ، ونظام الإنسان مؤخر عن دراستها ؛ إذن دراسة مدارس الأمم الآن تجرى على نظام هذه الآيات ، فقوله : «وفى الأرض آيات للموقنين» يدخل فيها علوم نظام الطبيعة وما قبله ومعرفة الله ، وقوله : «وفى أنفسكم» الخ إليه يرجع علم النفس ، تلك النفس التى جعلت مبدأ لتقسيم تلك العلوم سوابقها ولواحقها ، إذن آيتنا التى نحن بصددها الآن يجب على المسلمين أن يفكروا فيها ، إذن نحن نستحق أن نعنف على جهلنا فيقول الله لنا : «وفى أنفسكم أفلا تبصرون» وهذا التعنيف يخجل نفوس الأذكياء منا معاشر المسلمين فلندرس .

فقال صاحبى العالم : إن هذا البيان لجميل جد جميل ، ولكنى أريد أن أسألك سؤالا يجول فى خواطر أكثر الناس : هل هذه الآية يترتب عليها هذا كله ؟ أى إنك تقرأ علوم الأمم كلها ، وهل أذكياء المسلمين مكلفون بذلك ؟ فقلت : لم لاوما المانع ؟ ألست أنا شهيدا على الناس ؟ فقال أنت أنت . فقلت : وأنت أيضا ألم تسمع الله يقول : «لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا» فكيف نشهد على الناس ونحن لانعقل علومهم ! فليقم الخواص بدراسة علوم الأمم ، وأهمها علم نفوسنا . فقال : إن علماء الإسلام لم يقولوا ماتقوله أنت فى هذا المقام . فقلت : ولكن القرآن يقول . فقال القرآن ؟ فقلت نعم . فقال : ماذا يقول فى هذا ؟ قلت : إنه لم يقتصر على قوله : «لتكونوا شهداء على الناس» بل أوضحها فى آية أخرى وهى : «وما شهدنا إلا بما علمنا وما كنا للغيب حافظين» فهل نشهد على الأمم إلا بعد العلم بما نشهد به .

فقال حسن جدا ، فأرجو إيضاح علم النفس الآن : فقلت : ذلك فى :

الفصل السادس
فيما قاله (إخوان الصفاء)

إن كتاب (إخوان الصفاء) جاءت فيه العلوم موجزة ولكنها أوضح مما في الكتب التي قبلها ، وقد جعل أكثر العلوم المذكورة في خمسين رسالة ، وأكثرها ثمين وأقلها غث ، وفيها آراء يجب تعديلها أو محوها فلنذكر مافيها من حيث علم النفس ، وهذا الموجز سأنقله بنصه وفصه من نفس الكتاب ، ومؤلفه هو الذى لخصه فى أوله ، وهاك نصه :

الرسالة العاشرة : فى الحاس والمحسوس

والغرض منها هو البيان عن كيفية إدراك الحواس محسوساتها واتصالها بواسطة القوة الحاسة واتصالها إلى الحاسة المشتركة الروحانية الواصلة التي منها انبعثت قوى الحواس الظاهرة وأنها ترد كالخطوط الخارجة من المركز إلى المحيط بنقط كثيرة الراجعة إليه بنقطة واحدة وهو أول منازل الروحانية ، إذ القوة الحاسة المؤدية إليه جسمانى بوجه وروحانى بوجه ، والحاسة المشتركة أعنى الداخلة روحانية محضة لأن حكم الجزء منها حكم الجميع وإن كانت التجزئة لاتقع عليه بالحقيقة ، لأن تصورها الشىء بإدراكها واتصالها إلى القوة المتخيلة التى مجراها مقدم الدماغ لتوصلها إلى القوة المفكرة التي مجراها وسط الدماغ لتميزها وتخلصها بجولانها فيها وتعرف حقائقها ثم توصلها إلى القوة الحافظة الذاكرة التى مجراها مؤخر الدماغ لتمسكها ، وتحفظها معتقدة أو غير معتقدة إلى وقت التذكار ، ثم تؤديها إلى القوة الناطقة العاقلة التى هى ذات الإنسان المدبرة للكل الباقية بالذات تنزع جميع المعانى والصور ، ثم تصور تلك المعانى والصور المنتزعة من مصوراتها المترسمة فيها ، وهى القوة الناطقة أيضا بوساطة الأولى ، فتلك الصورة هى لها كالموضوع وكالهيولى ؛ والقوة المعبرة أيضا للنطق الخارج هى القوة الناطقة أيضا على وجه ثان بواسطة الألسن . فإذا همت الأولى بإظهار شىء إلى خارج وهو النطق الإلهى على الحقيقة من صورة النفس تصورت النفس الثانية إذ هما جوهر واحد لتجردهما عن المواد وتعريهما عن الهيولى أعنى الجسمانية فتأدت إلى القوة الناطقة التى مجراها على اللسان لتعبر عنها بالألفاظ الدالة للمخاطبين على المعانى التى تخرج من النفس إلى القوة الصانعة التى مجراها اليدان لتخط بالأقلام على أوجه الألواح ، وصفحات الدفاتر ، وبطون الطوامير ، تلك الألفاظ وهى النطق الخارج والكلام الظاهر لتبقى العلوم بصورها الذاتية أعنى معانيها محفوظة من الأولين إلى الآخرين ، وخطابا من الحاضرين للغائبين ، إلى يوم يبعثون . انتهى ماأردته من كتاب «إخوان الصفاء» وبهذا تم الكلام على الفصل السادس والحمد لله رب العالمين .

الفصل السابع
فيما جاء فى جمهورية أفلاطون

نظر أفلاطون فى علم نظام الأمم فقال : « لاسبيل إلى نظام الدولة إلا بأن يكون فيها فلاحون وعمال وصناع وتجار الخ . وهؤلاء أشبه بالقوة الشهوية فى الإنسان ، وبأن يكون فيها جند مدربون بالكراع والسلاح ، وهذه هى القوة الغضبية لحفظ الدولة فى الداخل والخارج ، ونظيرها فى الإنسان قوة غضبية بها يحافظ على شرفه وأدبه ، وبأن يكون فيها رجال عرفوا بسمو النظر والعقل الراجح ، وهم رجال السياسة الذين يأمرون الجند ، وهؤلاء الساسة وجندهم لهم السلطان والاشراف على الزراع والصناع والتجار ، وهذه الطوائف الثلاث لابد من نظام واعتدال فيها وهذا هو العدل » .

ولقد شرحت هذا النظام فى مواضع كثيرة من هذا التفسير كالذى فى (سورة النحل) عند آية : « إن الله

يأمر

يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون » فهكذا قوى الإنسان الثلاثة إذا قويت القوة العاقلة فحكمت على الغضبية وهى تشرف على القوة الشهوية وتم النظام بين الثلاثة كان العدل ، فهذه أربعة أصول فى مقابلة الأربعة الأولى .

فلما سمع ذلك صاحبى قال حسن والله : لقد اطلعنا على هيئة العلوم فى العالم ، ولكن لم تذكر لنا علماء الصين ، هل كان علمهم على هذا النمط ؟ فقلت : لقد تقدم فى (سورة الحجرات) مايفيد أن أمم الصين قبل التاريخ كانت معارفها على هذا النمط (وبعبارة أخرى) أن القرآن فى أكثر سوره يمثل لنا عقول الأمم وعلومها . فقال : هذان أمران فأرجو إيضاحهما . فقلت نعم : أما الأمر الأول فهو قول (كونفشيوس) فيلسوف الصين قبل الميلاد المذكور فى (سورة الحجرات) فإن أقواله هناك هكذا :

(١) إن قدماءهم نظموا الممالك .

(٢) بعد أن نظموا أسرهم .

(٣) وهذا بعد تهذيب أخلاقهم .

(٤) وهذا بعد تنقية نفوسهم .

(٥) وهذا بعد كونهم مخلصين صادقين فى تفكيرهم ، منزهين فى أغراضهم .

(٦) وهذا بعد توسيع معارفهم .

(٧) وتوسيع معارفهم كان عن طريق البحث والمشاهدة . انتهى ـ (وبعبارة أخرى) هكذا .

(١و٢) توسيع المعارف بالمشاهدة : أى مشاهدة الأشياء والأفعال .

(٣) ثم كمال المعارف .

(٤) ثم خلوص أفكارهم ونزاهة أغراضهم .

(٥) ثم تهذيب أخلاقهم . ومقاومة نفوسهم

(٦) انتظام أسرهم .

(٧) ثم انتظام دولهم . وهذا هو الأمر الأول .

أما الأمر الثانى فهو هذه الآية : « وفى الأرض آيات للموقنين ، وفى أنفسكم أفلا تبصرون » . فقال : ولكن الآية قدمت الأرض على السماء ، فلم يكن ترتيب العلوم الذى شرحناه مطابقا لها . فقلت : هو مطابق كل المطابقة ، إنه قدم الأرض وبعدها النفس ، ثم ذكر السماء والأرض معا مقدما السماء ، وذلك معناه تقديم العلوم الرياضية ، لأن علم الفلك من نتائجها . فقال حسن ولكنى أريد أصرح من ذلك فى القرآن بحيث ينطبق على نظام علوم الأمم كلها المذكور هنا . فقلت : هناك سورة تفيد ذلك وهى : « والشمس وضحاها ، والقمر إذا تلاها ، والنهار إذا جلاها ، والليل إذا يغشاها ، والسماء وما بناها » . فهذه الخمس ترجع لعلم الفلك وهو من العلوم الرياضية ، بل هو أجل ثمراتها ، ثم هو من جهة أخرى علوم مشاهدة أشار لها (كونفشيوس) وقوله : « والأرض وما طحاها ، ونفس وما سواها » موافق لآيتنا هنا : « وفى الأرض آيات للموقنين ، وفى أنفسكم أفلا تبصرون » ومعنى هذا أن العلوم الطبيعية المشروحة قريبا تكون قبل علم النفس فى نظام المدارس وفى القرآن ، والعجب العجيب من القرآن أنه قدم الأرض على النفس فى هذين الموضعين وفى غيرهما وألهم الأمم جميعها أن تفعل ذلك وقال (ليكون) : يابيكون اجعل نظام الطبيعة قبل علم النفس كما قال لكونفشيوس بالصين ولإخوان الصفاء ، وللأمم كلها ، إن هذا القرآن مدهش ، إذن عندنا مزرعتان :

مزرعة هى أرضنا ، ومزرعة هى نفوسنا ، ومزرعة نفوسنا هى المذكورة فى سورة الشمس إذ يقول الله بعد ذلك « فألهمها فجورها وتقواها ، قد أفلح من زكاها ، وقد خاب من دساها » .

جل الله : أليس هـذا بعينه هو الأخلاق والسياسة ونظام الدولة ، أليس الفجور والتقوى واضحين فى الأخلاق والأسرات والممالك ، أليس هذا بعينه هى السياسة العملية المتقدمة عند فلاسفة اليونان والعرب وأوروبا والصين ، فها هو ذا بيكون يقول : نظام الطبيعة ثم النفس ثم الأخلاق وسياسة الناس ، وهاهم أولاء فلاسفة القرون الأولى يؤخرون الأخلاق وما عطف عليها عن العلوم ، وها هو ذا كونفشيوس يفعل ذلك ناقلا عن آبائه المتوغلين فى القدم ، وهم لا يعرفون علوم اليونان ولا غيرهم .

أيها المسلمون : لاعطر بعد عروس ، ولامخبأ بعد بوس ، حم الأمر وأزفت الآزفة ليس لها من دون الله كاشفة ، لتقرءوا مزارع الله فى الآفاق ومزارعه فى النفوس ، إن القرآن لوح رسمت فيه صور علوم الأمم تذكرة لكم فهل أنتم مدكرون !

تباركت يا ألله : أريتنا علوم الأمم السابقة كلها فرأينا مدارها على علم نفوسنا ، فنفوسنا هى الصدر الأصلى ، فقد جعلوا علوم الرياضيات والطبيعيات مقدمات لمعرفة النفس وعلوم السياسات والأخلاق والجمال نتائجها ، ومنهم من غير بعض النظام ، وذلك تبع اختلاف الأنظار وتباين الآراء ، والنتيجة من هذا كله فهم قولك فى قرآننا الكريم : « وفى أنفسكم أفلا تبصرون » .

ها نحن أولاء نظرنا فى أنفسنا نظرا مستمدا من آراء الأمم كلها لنشهد على علم ، ولكن لاتتم شهادتنا فى ذلك إلا بدراسة علم النفس والتربية الحديثة ، لأن العلوم المذكورة نقلها تلاميذ ابن رشد من يهود ومسلمين إلى أوربا منذ نحو ٧ قرون فارتقت تلك العلوم ، وإذا بقينا على ماقرأناه من كلام قدمائنا أصبحنا كأننا نعيش فى القرن الثالث عشر الميلادى ، ولكن نحن فى القرن العشرين ، إذا فلنذكر :

الفصل الثامن فيما جاء فى علم النفس الحديث

أمامى الآن كتاب (أصول النفس وأثره فى التربيـة والتعليم) تأليف الأستاذ (أمين مرسى قنديل) أستاذ علوم النفس والتربية بمدرسة المعلمين العليا ، وألفه بعد أن أخذ شهادات عالية فى هذا العلم من جامعات أوربا ، فهو كتاب موثوق به يدرس بمصر الآن ، وهو علم لم يدرس من قبل فى بلادنا ، وموضوعات الكتاب هكذا مثلا : معنى العلم وأغراضه ، حقيقة علم النفس ، طرق البحث فى علم النفس ، فروع علم النفس ، التربية وعلم النفس ، العقل ، الشعور ، اللاشعور ، الاستهواء ، الجهاز العصبى ، رد الفعل ، الأعمال المنعكسة ، تربية الجهاز العصبى ، الغرائز والميول ، ، دراسة طائفة من الغرائز والميول الفطرية ، العادات ، التعلم ، التمرن ، الشوق ، التشويق ، الشوق والتربية ، الانتباه ، عوائق الانتباه كالتعب ، الأعمال المدرسية ، وهكذا .

نظرة عامة فى علوم النفس عند القدماء والمحدثين

أيها الأخ الذكى هذه صفحة عامة من صفائح نفوسنا المشرقات ، تلك النفوس التى هى مزارع الله عزوجل فى أجسامنا ، وحقوله التى تولى هو غرسها بيديه وقال لنا : « وفى أنفسكم أفلا تبصرون » بعد أن أرشدنا إلى أن ننظر دراسة مزارع أرضنا .

هاهو ذا الآن أمامى كتاب (سلوك المالك ، فى تدبير الممالك) الذى ألفه شهاب الدين أحمد بن محمد بن أبى الربيع ، ألفه للخليفة المعتصم بالله العباسى ، إن المؤلف فى هـذا الكتاب قسم الفضائل والرذائل تقسيما عجيبا جدا ، وأوضح ذلك أيما إيضاح ، وعلم الملوك والسوقة والفضلاء وغير الفضلاء ، ولم يترك بابا إلا ولجه ، ولا فضيلة إلا فصلها ، ولا رذيلة إلا أوضحها ، بجداول جميلة وعبارات طريفة وبهجة وجمال ، ولأقتصر على

ماجاء

ماجاء فيه من جداول الأخلاق الناقصة ، ثم أتبعه بما جاء فى علم التربية الحديث المذكور ، أريد بذلك أن يرى المسلمون وأنت أيها الذكى أولهم آراء الأولين والآخرين فى أحوال نفوسنا ، وأنهم جميعا يسعون لغرض واحد متجهين لنتيجة واحدة ، ذلك أنهم جميعا يعاملون النفوس فى محو رذائلها معاملة الأجسام فى شفاء أمراضها بحيث أصبح تهذيب النفس مطابقا لشفاء الجسم من حيث سير العلاج الجسمى والروحى معا سيرا منظما ، فانظر كيف يقول صاحب كتاب (سلوك المالك ، فى تدبير الممالك) فى صفحة ٣٨ مانصه :

إن من شر رذائل القوة الغضبية الغضب ، وهو أكبر الرذائل ، وله مواد وأسباب :

الرذيلة	مداواتها
الزهو	باستعمال التواضع
العجب	بمعرفة عيوب النفس
الفخر	بالتيقن أنه من جنس عبده
المرح	بالتشاغل بما يجب من الحقائق
الهزل	بالجد فى طلب الفضائل
الهزؤ	بالتكريم عن أذى الناس
التعيير	بالقدرة على ترك الأقاويل القبيحة
الملاحاة	بصيانة النفس عن مر الجواب
المضادة	بترك العناد
الغدر	باستعمال الوفاء

ثم أبان أن هذه كلها سببها الخوف : أى أنه يزهو لأنه يريد العلو ويخاف من عدم هذه الصفة وهكذا البواقى ، فإذا استهزأ بغيره فمعناه أنه أعلى منه وهكذا ؛ ثم أخذ يذم أمثال الكسل الذى هو جزع من أن يفعل فعلا ما كسل عنه ففيه معنى الخوف أيضا لأنه يخاف أن يعمل ، ثم الخجل والحياء ، فالأول جزع من أن يعرف بشىء قبيح لم يفعله ، والثانى جزع من أن يعرف بشىء قبيح فعله ، وذكر (الفرق) بفتح الراء من فعل شىء عظيم يضعف عن احتماله (والحذر) وهو الجزع من شعور أمر مترقب واشتباهه ، ثم الذعر وهو الجزع من صورة ليست مألوفة الخ .

هذه صفحة من علم الأخلاق فى كلام قد مانا فى العصور الأولى ، وعلم الأخلاق ربيب علم النفس ، فهاهم أولاء جعلوا لكل منقصة دواء ، وما هو هذا الدواء ؟ هو أن يجعلوا الضد مزيلا لضده كما يفعل الأطباء بحيث يداوون الحار بتعاطى البارد والعكس بالعكس ، فلننظر إذن فى كلام علماء التربية فى عصرنا ، فهذا كتاب : « أصول التربية » فقد جاء فيه فى صفحة ١٥٣ تحت عنوان « استعمال غريزة ضد أخرى » ما ملخصه : —

إن المربى يستعمل غريزة ضد أخرى ليخفف من شرها ، فغريزة الخضوع تخفف شر غريزة السيطرة والظهور ، والخوف يردع به الطفل عن كثير من الشرور ، وهؤلاء يقولون : « إن الغرائز لا تجوز إزالتها بل يجب تهذيبها وتوجيهها إلى المثل الأعلى لاقتلها فإن قتلها جناية » — (مثال ذلك) غريزة المقاتلة والإقتناء يجب أن توجه إلى مغالبة الآلام والتغلب على العقبات التى تعترض المرء فى طريقه ، وإلى المنافسة فى عمل الخير وإلى الدفاع عن مبدأ نبيل ، وضربوا لذلك مثلا بأن الحكومات تتخذ اللصوص القدماء وسائل لمساعدة

رجال الشرطة فى ضبط السارقين والقاتلين ، فهذا معناه أن المربى ينقل الغريزة من حال ضارة إلى حال نافعة ، فالغضب والمقاتلة عند المهذب يكونان معينين على كل فعل نبيل كالدفاع عن كل ضعيف .

هذه هى الصورة الواضحة فى التربية الحديثة ، وهى على منوال التربية القديمة ، فالعلم هو عينه غاية الأمر أن الحديث قد أوضح إيضاحاً أكمل ، وأبان وجوه الإصلاح أيما إبانة .

وإذ فرغت من إيضاح الصور التهذيبية عند القدماء والمحدثين فلأشرع فى شرح المزارع التى تزرع فيها تلك التعاليم والحدائق الغناء الآلهية التى تنبت فيها تلك الأزهار والرياحين .

تبصرة وتذكرة لآياتنا التى نحن بصدد الكلام عليها

« وفى الأرض آيات للموقنين ، وفى أنفسكم أفلا تبصرون »

فقال صاحبى : إن المسافة طويلة ، والشقة بعيدة بين مزارع الأرض ومزارع الدماغ ونبات الأخلاق فيه ، إن مزارع الحقول مشاهدة ، وهل شوهدت مزارع الغرائز فى حقول الدماغ ، غاية الأمر أنها عرفت بطريق الاستنتاج : فقلت : اعلم أيها الأخ الذكى إنى كما كنت فى الحقل أيام الفتوة أرى المزارع وهى كانت درسى نهاراً ، والنجوم وهى كانت درسى ليلا ، هكذا اليوم أشهد فيما ستراه فى الدماغ مزارع الغرائز متجلية واضحة تزدهر فيها الغرائز والأميال ، فكما كانت النجوم والحقول وما بينهما من نفوس الناس هى التى منها استمدت جميع العلوم التى شرحناها هنا فى الأمم كلها ، هكذا هذه الجمجمة الصغيرة التى ستراها الآن أصبحت مزرعة فيها جميع المزارع التى كنت أشاهدها ، والنجوم التى كنت ألحظها ، والعلوم التى درستها ، والسياسات التى عرفتها .

تباركت يا ألله : جعلت الأرض مكان الإنبات ، وجعلت أدمغتنا حدائق ، كل حديقة منها مختصرة من هذا العالم العظيم وعلومه المفصلات . جل الله ، جل الله . ومما أدهشنى فيما ستراه أيها الأخ النبيل أن ما كنت أقرؤه فى الكتب القديمة من أن المخيلة فى مقدم الدماغ ، والمفكرة فى وسطه ، والقوة الذاكرة فى مؤخره كما ذكرته سابقا ، وأن ذلك استنتجه الفلاسفة من تجاريب الأطباء فى مرضاهم أصبح اليوم مشروحاً على هذا النمط بعينه ، فسترى أن هناك مناطق ثلاثة : أمامية ووسطى وخلفية ، جعلت للتفكير والتصور ، وباضطرابها لا يكون الإنسان عاقلا ولكن علماء العصر الحاضر برعوا براعة أوسع من السابقين :

(١) أرونا أن فى المخ تلافيف وشقوقاً تتضح فى العقول الكبيرة ، وتصغر ولا تتضح فى العقول الصغيرة وفى الحيوان .

(٢) أرونا أن للمخ نصفين كل نصف ينقسم أربعة أقسام ، فهذه ثمانية أقسام ، وكل قسم يسمى باسم عظم القحف الذى يقرب منه ، وكل واحد من هذه الثمانية ينقسم إلى أقسام على حسب التلافيف التى فيه المخ .

(٣) إن المخ محط جميع المواصلات فى الجسم .

وستشاهد أن فى هذا المخ مناطق معينة للحس وأخرى للحركة وأخرى لربط المعلومات ، فترى منطقة البصر عند الفحص المؤخرى من الرأس ، وهناك منطقة إدراك المرئيات والقراءة ، ويلى تلك المنطقة من الداخل منطقة السمع ثم الذوق والشم ، وهاتان بالقرب من الفص الصدغى . وترى فى المنطقة الخلفية التى تقرب من الفص الجدارى مراكز ربط تلك المعلومات وترتيبها وتنظيمها ، وترى أيضا منطقة ربط أخرى أمامية .

أيها الأخ الذكى : إننى الآن فى دراسة مخ الإنسان لم أعد ما كنت أدرسه فى الحقول أيام الشباب

كيف لا

كيف لا ، أليست هذه المزارع التى فى أدمغة الإنسان بعد أن يدرسها المدرسون ويعرفوها، يحتالون فى تهذيبها وتوجيهها ، وفى انتزاع وإهلاك ماضر منها ، ويوجهون الغرائز من الضار إلى النافع .

فياليت شعرى أى فرق بين تقطيع الحشائش فى الحقول وبين إزالة الكذب من أفواه الأطفال ، ثم أى فرق بين تهذيب القوة الغضبية فى الطفل بأن نوجهها إلى اقتناء الفضائل ، وإلى الحماسة فى حماية الضعيف وبين تقليمنا الأشجار وتشذيبنا الأغصان لتعدل الأشجار عن إضاعة قواها فيما لايفيد ، ولتتجه إما إلى ازدياد الخشب فى نحو الصنوبر ، وأما إلى ازدياد الثمار فى الأشجار المثمرة ، إذن نظام العالم واحد «ماترى فى خلق الرحمن من تفاوت» وحقلنا كما كان مضرب مثل لعلوم الأمم هكذا هو مضرب مثل لعلوم النفس وتهذيب الأخلاق ونظام مناطق مخ الإنسان .

فقال صديق : الله أكبر ، الله أكبر ، حسن حسن ، يظهر لى أنك ذكرت هذه المقدمة لتكون نورا يأتنس به من يطلع على هذه المعانى فيما تريد أن تلقيه ، لأن هذا العلم صعب المنال بل إذا لم يفهم القارىء إلا ماذكرته لحسبه ، والعقول الكبيرة ستفهم نفس الموضوع بتفاصيله وصوره الشمسية . فقلت : نطقت بالصدق ، فهاك الموضوع الذى اخترته من ذلك الكتاب بتمامه ، فقد جاء فيه فى صفحة ١٠٩ وما بعدها مايأتى بالحرف الواحد :

المخ

«يعلأ الجزء العلوى من القحف ممتدا من الأمام إلى الخلف ، وحده الأسفل من الأمام مستوى الحاجبين ، ومن الجانبين حذاء الأذنين (انظر شكل ٣٠)

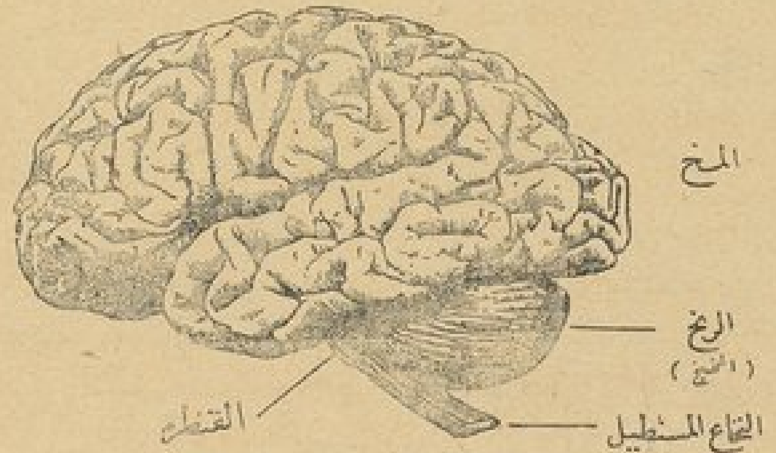

(شكل ٣٠)

ويبلغ متوسط وزنه ١٤٠٠ جرام [١] إذ هو يختلف عادة بين ١٣٠٠ ، ١٨٠٠ جرام ، ويشبه

(١) لقد حاول كثيرون أن يجعلوا زيادة وزن المخ على هذا المتوسط دليلا على الذكاء ، فمخ الأبله والغبى يكون عادة أقل من المتوسط بكثير ، فى حين أن مخ العالم الطبيعى (كوفييه) كان يزن ١٨٦٠ جراما ، ومخ (اللورد بارن) الشاعر الإنجليزى ١٨٠٠ جرام ، ومخ (كرمول) ٢٢٠٠ جرام ، ومع ذلك فإن هذه لاتتخذ قاعدة ثابتة ، فمخ (غمبتا) الخطيب الفرنسى يزن أقل من المتوسط ، ولكن يقال أن تلافيفه كانت أعمق من المعتاد ، والحقيقة أنه لابد من أن نحسب لنوع المخ حسابا ، وأن لا يقتصر على الثقل وحده .

على أنه قد حاول كذلك كثير من العلماء إيجاد نسبة بين ثقل المخ والجسم ، ليتبينوا من وراء ذلك مقدار الذكاء ، وغاية مايستطيع الجزم به هو أنه كلما كانت النسبة كبيرة كان الحيوان أذكى من غيره ، ومع ذلك فهذه الحقيقة ليست مطلقة ، فبعض الطيور كالعقعق نسبة ثقل مخها إلى جسمها الصغير أكبر من نسبة ثقل مخ الإنسان إلى جسمه اهـ .

فى الشكل قلب الجوزة ، فهو منقسم بشق مستطيل إلى نصفين متماثلين : النصف الأيمن ، والنصف الأيسر ويعرف كل منهما بنصف كرة ، والنصفان ليسا منفصلين بعضهما عن بعض تمام الانفصال بل متصلان من الأسفل بحزمة من الألياف العصبية تعرف بالجسم الصلب ، وبكل نصف منهما ثنايا كثيرة تعرف بالتلافيف بينها منخفضات ظاهرة تسمى شقوقا ، وهذه الثنايا تجعل سطح المخ فى مجموعه كبيرا جدا ، وبذلك تكون المادة السمراء أو اللحاء كبيرة أيضا ، لأنها تدخل فى الشقوق وتغطى التلافيف كلها ، وهذه التلافيف قليلة ليست ظاهرة فى الحيوانات ، ولكن كلما ارتقى الحيوان بدت الشقوق والتلافيف عميقة جلية حتى إنها تكون واضحة كل الوضوح فى الإنسان فكأن نموها وعددها يسيران يدا بيد مع نشوء الحيوان وترقيه فى سلم النشوء والتطور . تتميز التلافيف بعضها عن بعض بالشقوق التى بينها ، وأهم هذه الشقوق اثنان : شق رولندو ، أو الشق الأوسط ، وشق سلفيوس ، أو الشق الجانبى ، والتلافيف تختلف اختلافا قليلا باختلاف الأفراد ولكنها فى جملتها ثابتة ، ولذلك وضع لكل منها اسم خاص كما وضع لكل شق اسم خاص به أيضا وتراها واضحة فى (شكل ٣٠) الذى تقدم قريبا .

ينقسم كل نصف من نصفى المخ إلى أربعة فصوص يسمى كل منها باسم عظم القحف القريب منه ، وهذه الفصوص هى : (١) الفص الجبهى (٢) والفص الجدارى (٣) والفص الصدغى (٤) والفص المؤخرى

وكل فص من هذه الأربعة ينقسم إلى أقسام أخرى حسب ما فيه من التلافيف ، فالفص الأمامى مثلا ينقسم إلى أربعة تلافيف التلفيف : الأوسط الأمامى (الصاعد الأمامى) والتلفيف الأعلى ، ثم الأوسط ، والأدنى .

مادة المخ البيضاء

تتكون هذه المادة البيضاء من الألياف العصبية المغلفة بذلك الغلاف الأبيض العازل الذى يجعلها بيضاء اللون ، وأغلبها خارج من الخلايا المحركة التى فى المخ ، والبعض الآخر وارد إليه من الخلايا الحساسة التى فى المحيط ، فالألياف الصادرة تخرج من أجسام الخلايا المتعددة فى اللحاء ، ثم تجتمع هذه الألياف بعضها مع بعض وتكون حزمتين كبيرتين من المادة البيضاء تتصلان بالقنطرة وبالنخاع المستطيل (انظر شكل ٣١)

(شكل ٣١ ـ مقطع جانبى للمخ يبين الألياف الرابطة متجهة بين كل تلفيف وآخر وبين الفصوص المختلفة وترى الجسم الصلب فى الوسط)

(شكل ٣٢)

مقطع مستعرض للمخ يوضح الألياف الصدرة وتقاطعها عند النخاع المستطيل (ق) قنطرة (ج ص) الجسم الصلب (س) شق سلفيوس

والألياف

والألياف البيضاء التى تتكون منها مادة المخ البيضاء أربعة أنواع :

(١) ألياف رابطة وترى متجهة بين التلافيف تربط خلاياها كل نصف كرة بعضها ببعض كما ترى فى شكل ٣١ وبذلك تتصل مراكز اللحاء كلها بعضها ببعض .

(٢) الألياف الضامة : وهذه أيضا رابطة ، ولكنها تربط نصفى الكرة بعضها ببعض بواسطة الجسم الصلب وغيره ، بذلك تكون التلافيف التى فى كل نصف كرة مرتبطة بالتلافيف التى فى النصف الآخر .

(٣) الألياف المصدرة وهى محركة ، وقد تسمى الألياف النازلة .

(٤) الألياف الموردة وهى حساسة ، وقد تسمى بالألياف الصاعدة .

وكلا الألياف المصدرة والموردة هذه تربط اللحاء بالأجزاء السفلى من المخ وبالحبل الشوكى ، ويتصل بالدماغ مباشرة اثنا عشر عصبا تذهب إلى الرأس كلها تقريبا وتتفرع فى أعضاء الحواس المختلفة (شكل ٣٢)

اللحاء

تغطى الدماغ كله طبقة رقيقة من المادة السمراء وهذه تتكون كما تقدم من جسوم الخلايا العصبية وأوائل فروعها ، ويختلف سمكها القليل الذى لايزيد على ثلاثة ملليمترات باختلاف أجزاء المخ واللحاء على رقته يتكون من خمس طبقات من الخلايا بينها طبقات أخرى من الألياف العصبية ، وخلايا الطبقات تختلف شكلا ووظيفة .

(١) فالطبقة العليا ، أو السطحية تتكون من خلايا قليلة العدد تمتد فروعها امتدادا أفقيا وأكثرها يتكون من فروع خلايا الطبقات التى تحتها ، ومن نهايات الأعصاب الموردة ، وهى كلها لاتزيد نصف ملليمتر ولاشك فى أن وظيفتها ربط الخلايا الحساسة (الموردة) بالخلايا المحركة (المصدرة) .

(٢) تلى هذه الطبقة طبقة أخرى بها خلايا كثيرة العدد مختلفة الحجم ، هرمية الشكل ، وظيفتها الربط أيضا ، وسمك هذه الطبقة يزداد برقى الحيوان فى مرتبة النشوء ، ثم طبقة :

(٣) ذات خلايا صغيرة نجمية الشكل محاورها قصيرة كثيرة التفرع .

(٤) ويلى هذه طبقة رابعة فيها خلايا هرمية كبيرة الحجم طويلة المحاور : وأغلبها فى منطقة الحركة فى المخ .

(٥) وأخيرا توجد طبقة خامسة خلاياهامتعددة الشكول مختلفة الحجوم .

خلايا اللحاء المخى كثيرة جدا معقدة التركيب ومختلفة الشكل ، كل خلية ترسل فروعا كثيرة متشابكة تشابكا كبيرا بعضها مع بعض ومع غيرها من فروع الخلايا الأخرى ، وهذا التشابك الكثير مما يميز الإنسان الراقى عن غيره من

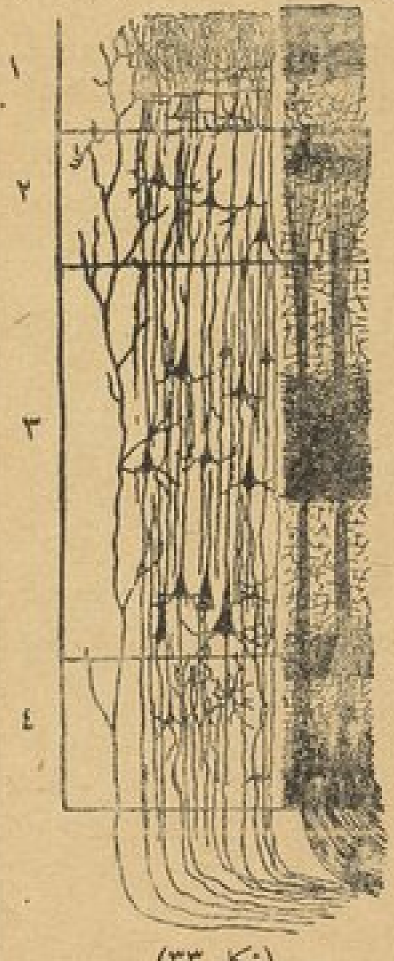

(شكل ٣٣)

مقطع فى اللحاء يبين طبقاته وأشكال خلاياه المختلفة . الجزء الأيمن من الشكل يوضح الألياف العصبية . والأيسر يوضح الخلايا . وهذان الشكلان يجب أن يتصورا معابعضهما فوق بعض . وبذلك يتضح التعقيد الكبير فى تركيب اللحاء .

الحيوان ، وفى الوقت نفسه إلى اللحاء نهايات محاور كثيرة أيضا من أجزاء شتى تتشابك أطرافها مع فروع الخلايا الأخرى ، وإذا تذكرنا أن بالمخ مراكز تمثل جميع أعمال الجسم الكثيرة ووظائف أعضائه المختلفة اتضح لنا مقدار التعقيد الكبير فى تركيب المخ ، ولا سيما فى طبقته الرقيقة الخطيرة الشأن المعروفة باللحاء .

وظائف المخ

المخ أهم أجزاء الجهاز العصبى ، فهو الذى يشرف على سلوك الإنسان ويدبره ويراقب كل حركة إرادية أو غير إرادية من السلوك ، ويوفق بين أعمال الأعضاء المختلفة ويربطها بعضها ببعض ، وهو موطن العمليات العقلية السامية ، ففيه مراكز الإحساس والإدراك الحسى والذكر والتفكير وربط العمليات العقلية بعضها ببعض ؛ وهو موطن الشعور ، فكل تأثير يقع على أى جزء من أجزاء الجسم ، ولم يصل أثره إلى المخ فان المرء لا يتفطن إليه ولا يشعر به ، ولذلك فانه إذا نزع مخ حيوان كالضفدعة أو الحمامة مثلا فإنها تفقد كل حركاتها الإرادية ، وتصبح كأنها آلة من الآلات لا تتحرك بإرادتها وباختيارها ولا تحس بما يسلط عليها من المؤثرات فالمخ هو محط جميع خطوط المواصلات فى الجسم ، وهو مستوى جميع المراكز العليا .

مناطق اللحاء

لكل جزء من أجزاء اللحاء المختلفة علاقة بأجزاء معينة فى الجسم يشرف عليها ويديرها ، فالنصف الأيمن من المخ يسيطر على الجزء الأيسر من الجسم وبالعكس (انظر شكل ٣٤) .

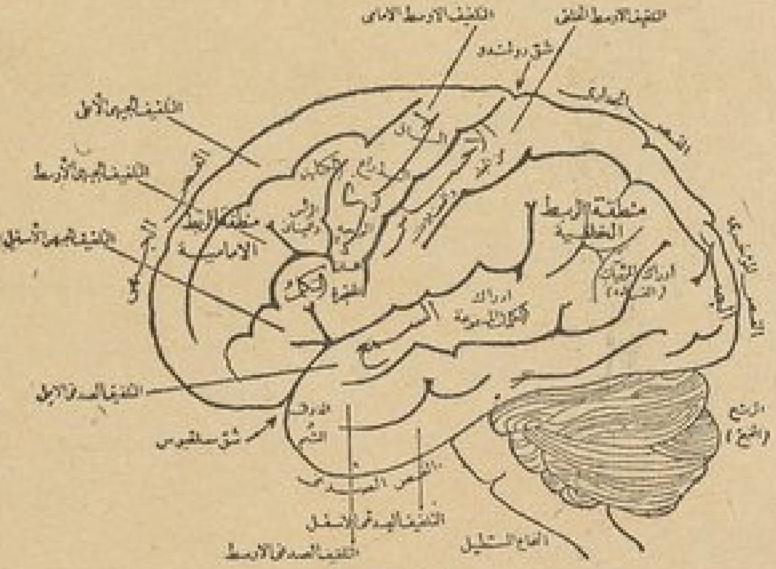

(شكل ٣٤)

ولقد تمكن الباحثون من علماء وظائف الأعضاء والتشريح من تعيين مواضع كثير من المراكز المختلفة فى اللحاء التى تقوم بوظائف خاصة ، وكثير من هذه المراكز ينحصر فى ثلاث مناطق : مناطق الحس ، ومناطق الحركة ، ومناطق الربط . فللحس مراكز : للبصر ، والسمع ، والشم ، والذوق ؛ واللمس ، وتحريك العضلات ، وللحركة مراكز كثيرة أيضا تمثل عمل الأعضاء المختلفة ، فهناك مراكز لتحريك الرجل واللسان واليد وغيرها كما سترى ، وهذه المناطق توجد فى كل من نصفى المخ إلا أنه لتصالب المحاور قرب النخاع المستطيل صارت مراكز النصف الأيمن تشرف على النصف الأيسر من الجسم ، ومراكز النصف الأيسر من المخ تشرف على الجزء الأيمن من الجسم :

(منطقة الحركة) : توجد فى الفص الجبهى فى تلفيفه الأوسط الأمامى ممتدة أمام شق (رولندو) وبها مراكز لتحريك أعضاء الجسم المختلفة ، ففى الجزء الأعلى من هذه المنطقة مركز تحريك أصابع القدم تليه مراكز تحريك الركبة فالحرقفة فالأطراف العليا فالوجه وهكذا بترتيب تنازلى ، فكل حركة إرادية تنشأ من عمل مركز خاص فى هذه المنطقة ، إذا أصيب مركز منها بضرر أو مرض أعقبه شلل العضو المتعلق به فلا يمكن تحريكه بالإرادة .

(منطقة الحس) : توجد موازية لمنطقة الحركة على الجانب المقابل لها من شق (رولندو) فى الفص الجدارى ، وفيها مراكز الإحساسات الآتية من الجلد وحركة الأعضاء المختلفة ، وترتيب مراكز الإحساس فى هذه المنطقة عين ترتيبها فى منطقة الحركة ، فمراكز الإحساسات الآتية من الساق مثلا توجد حذاء مراكز تحريكه وهكذا .

(منطقة البصر) : مراكز البصر توجد فى الفص المؤخرى من المخ ، فأى إصابة لها تحدث العمى مع أن العين نفسها قد تكون سليمة من كل شائبة ، وفى الفص المؤخرى هذا مراكز أخرى لإدراك المرئيات ، فمنها ما يتعلق بادراك الكتابة ، ومنها ما يتعلق بإدراك الألوان أو الأشياء وهكذا .

(منطقة السمع) : تقع فى الجزء الخلفى من التلفيف الصدغى الأعلى ، وهو تلفيف يقع أسفل شق سلفيوس ، وهى متصلة مباشرة بالأذنين ، فأى أثر يلحق بمراكز الإحساس السمعى فيها يحدث الصمم ، وقرب هذه المنطقة كما فى منطقة البصر مراكز مختلفة لإدراك الكلمات المسموعة ، أو لتمييز الأنغام المختلفة وهكذا .

مناطق الربط والاتصال

يختلف مخ الإنسان عن مخ القردة العالية وغيرها من الحيوانات الأخرى بأن به مناطق (صامتة) أوسع رقعة مما لديها ، وليست لهذه المناطق وظيفة الحس أو الحركة وإنما ترتبط مراكز الحس بعضها ببعض ومراكز الحركة كذلك والتوفيق بين أعمالها الكثيرة المعقدة ، فإذا أصيبت هذه المراكز لا يحدث للمرء ضرر مادى فى جسمه مثل شلل أو فقدان الحس ، وإنما يفقد قدرته على التفكير أو المهارة المكسوبة فيختلط عقله ويلتاث أو يضطرب اضطرابا واضحا فى كل عمل من الأعمال التى كان يؤديها قبلا بمهارة وحذق ، وتوجد هذه المناطق فى ثلاثة مواضع :

(١) المنطقة الأمامية ، وتقع فى الفص الجبهى أمام شق (رولندو) وأمام منطقة الحركة .

(٢) المنطقة الخلفية ، وتقع فى الفص الجدارى بين منطقتى الإحساس والبصر .

(٣) المنطقة الوسطى ، وتقع فيما يعرف بجزيرة (رايل) .

فهذه المناطق الثلاث ملتقى الإحساسات المختلفة الآتية من الحواس ، وفيها ترتبط بعضها ببعض وتحبك بواسطة الألياف الرابطة ، فيحدث الإدراك الحسى والتذكر والترابط وسائر العمليات العقلية السامية من التفكير والحكم والاستدلال ، فهى مناطق التفكير بمعناه المعروف ، أو إن شئت فقل هى أعضاء التفكير وقد دل التشريح وعلم الأمراض أن لحاء البله وضعاف العقول يكون أرق من المعتاد فى هذه المناطق فى حين أنه يكون سميكا نوعا ما ، وتكون التلافيف عميقة ومعقدة عند النابغين والمفكرين ذوى العقول الكبيرة ، ومن هذا يستنتج أن مقدرة الإنسان العقلية تتوقف على عاملين :

(١) على التربية والتدريب .

(٢) وعلى صفات المخ الخلقية التى فطر عليها .

أو بعبارة أخرى على البيئة ، وعلى الوراثة ، فمن الناس من يولد ذا استعداد طبيعي للموسيقى مثلا ، فهذا معناه أنه ولد وبعض أجزاء من مناطق الربط في مخه منظمة تنظيما خاصا مخالفا لغيره يجعلها متهيئة لقبول مهارة خاصة والنبوغ فيها إذا وجدت الأحوال معينة لها ، كأن يوجد الشخص المجدود هذا في بيئة موسيقية أو يجد من مدرسته تشجيعا وحثا على العناية بتغذية موهبته هذه . فالمواهب السامية العاملة ليست ثمرة التدريب وحده ، بل ثمرة تدريب استعداد فطريّ وتربيته ، والواقع أن التربية لا تستطيع أن تبنى إلا على أساس الفطر والغرائز والاستعدادات ، فهي لا تخلق ما ليس موجودا ، ولكن تذكى الموجود منها وتنظمه وتوجهه إلى العمل في متجهات خاصة بما تغذيه به من الخبرات ، وبما تدر به عليه من الأعمال وتوجده فيه من ميول .

مراكز اللغة في اللحاء

في لحاء المخ أربعة مراكز ذات شأن كبير في التربية المدرسية لاتصالها باللغة ، وهذه هي مراكز (الكلام) و (الكتابة) و (إدراك الألفاظ المسموعة) و (الألفاظ المكتوبة) ، وكل مركز منها يقع قرب المركز العام المتعلق به ، فمركز الكلام يقع في النصف الأيسر من المخ في التلفيف الأدنى من الفص الأمامي أمام مركز تحريك اللسان ، وذلك عند من يكتب بيده اليمنى ، فالطفل يتعلم التعبير عن خواطره بألفاظ وعبارات خاصة يكتسبها بالمحاكاة والمرانة ، فتذكر التعبير بهذه الأصوات يتركز في هذا المركز ، ومنه ينتقل الأثر إلى المنطقة الحركية المجاورة له فيتحرك اللسان وينطق بالألفاظ ، فإذا أصيب مركز الكلام هذا بضرر ما فقد الانسان القدرة على التعبير بالألفاظ ، أو كان تعبيره على الأقل مضطربا لا تآلف فيه ولذا لا يفهم مع أن لسانه يكون صحيحا غير مصاب بأي شلل ما ، فهو ليس بأبكم ولكنه مع ذلك يعجز عن التعبير عما في نفسه بعبارات يدرك السامع مدلولها ومعناها ، ويقع (مركز الكتابة) فوق مركز الكلام أمام مركز حركة اليد وهو مرتبط بها كل الارتباط ومتوقف عليها . وإذا أصيب بضرر فقد المرء القدرة على الكتابة وما عاثلها من الأعمال التي تستلزم مهارة وتدريبا مكتسبا بطول الخبرة والمرانة . ويقع مركز (إدراك الألفاظ المسموعة) قرب منطقة السمع ، ويعرف بمركز فرنك ، وإصابته تحدث ما يعرف بالصمم اللفظي ، فالمصاب يسمع الألفاظ ولكن لا يفهم معناها ، ويقع مركز (إدراك الكلمات المرئية) أو (مركز القراءة) في الفص المؤخرى قرب مركز البصر ، ومرضه أو إصابته تحدث العمى اللفظي ، فلا يستطيع المصاب أن يدرك لما يرى من الكلمات المكتوبة معنى ما ، مع أن نظره قد يكون سليما من كل شائبة مرض ، فموقفه يكون أشبه بمن يرى لغة غريبة عنه لم يتعلمها قط ، ولربما كان عجز بعض الأطفال عن التقدم في القراءة راجعا الى ضعف في هذا المركز .

وهذه المراكز فضلا عن كونها مراكز ارتباط في نفسها متصلة بعضها ببعض ، ولا سيما مركز إدراك الألفاظ المسموعة والكلام ، والأول منها يسبق الثاني في ترقيه ، فالطفل يفهم كثيرا من الألفاظ والعبارات التي يسمعها من أهله ويدرك معناها قبل أن يستطيع التلفظ بها على الوجه الصحيح ، ولربما تظل هذه الحال كذلك في الإنسان طول حياته ، فتكون قدرته على الفهم أكبر من قدرته على التعبير عما يجول بنفسه ، ولهذا فان هذا المركز أهم المراكز الأولية كلها ، فعند القراءة الجهرية تتأثر العين بما ترى من الكلمات ، ويسير أثر الإنفعال إلى مركز القراءة ثم يتجه إلى مركز إدراك الكلمات المسموعة بواسطة ألياف رابطة فيستثير ذكرى أصواتها ، ثم تتصل هذه بألياف رابطة أخرى إلى مركز بروكا أو مركز الكلام ، فيلفظ المرء الأصوات التي ترمز إليها الكلمات التي يقرؤها ، وكذلك الحال عند ما يكتب الانسان ما يملى عليه ، فان الألفاظ المسموعة تتجه من الأذن إلى مركز إدراكها ، ثم تتصل بمركز الكلمات المرئية فتستثير ذكرى أشكال الحروف التي

ترمز إليها ثم تتصل بمركز الكتابة ، وهذا كما علمت متصل كل الاتصال باليد ، فتتحرك هذه عندئذ وتكتب الألفاظ التي تدل على ماسمع ، ومن هذا نعلم أن فى التدريس يجب استعمال أكثر من حاسة واحدة ، لأن ذلك يعين على سرعة الفهم وحسن تذكر مافهم لكثرة الارتباطات التي تتم بين المراكز المختلفة .

الرنح أو المخيخ

يوجد الرنح خلف المخ وهو أصغر منه حجما ، ويشبهه من حيث وجود المادة السمراء على سطحه ، وبكثرة مافيه من التلافيف ، وهو منقسم إلى قسمين كبيرين بينهما قسم صغير يعرف بالدودة ، على أن تلافيف الرنح تختلف عن تلافيف المخ من حيث شكلها ، فشكلها مستعرضه وضحلة بخلاف المخ .

وإذا شق الرنح رؤى أن المادتين السمراء والبيضاء تتدخلان فى بعضهما البعض تدخلا يجعلها تشبه تفرع شجرة ، ولذا يطلق عليها شجرة الحياة .

وظيفته

من الثابت أن وظيفة الرنح هى ضبط حركات الجسم المختلفة ، والاحتفاظ باتزان الجسم فى حالى الحركة والوقوف ، وهو يؤدى هذا العمل بنفسه عادة من غير تدخل المخ إلا فى أحوال استثنائية تقتضى تدخله عند ماتكون الحركات غير عادية كالسير على حبل ممدود مثلا ، أو فى حالة الترنح من السكر ، فالرنح ليس مركز حركات إرادية إنما هو مركز توفيق بين هذه الحركات ، فاذا قطع أو أصيب كانت حركات الحيوان مضطربة اضطرابا كبيرا لا توافق بينها ولا تآلف فلا يستطيع الوقوف أو السير المنظم ، وقيام الرنح بعمله هذا لا يصحبه شعور عادة ، ولذلك لاينتبه إليه المرء إلا فى الأحوال الاستثنائية . ولكى يستطيع الرنح أن يقوم بأداء وظيفته هذه لابد له من أن يكون على اتصال تام بالأجزاء المركزية الأخرى ، ولذا فهو متصل بالمخ والنخاع المستطيل والحبل الشوكى بواسطة ثلاث قوائم من الألياف العصبية . انتهى ماجاء فى كتاب (أصول علم النفس) والحمد لله رب العالمين .

هذا ما أردت ذكره فى هذا المقام ، وعسى أن أوفق إلى أن أكتب فى سورة « والشمس وضحاها » عند آية : « ونفس وما سواها ، فألهمها فجورها وتقواها » إذ أنقل ماجاء تحت عنوان (الشوق) من حيث أن كل عمل نعمله ونحن به مغرمون يجعلنا سعداء به فى الحياة الدنيا ، وكل عمل نحن نكرهه لايتم على أيدينا ، فهذه الحياة لا كمال فيها إلا بالغرام والشوق لما نعمل ، وهذا الشوق راجع إلى القوى المركوزة فى نفوسنا بل المعلوم الذى ضعفت منطقته فى الدماغ لانعقله ولا نفهمه ، فالتعلم مثير لما كمن فينا ، ولكنه لايحدث فينا أمرا ليس فينا استعداد له .

نظرة عامة على هذه المشاهد فى علم النفس الحديث
وكيف كانت هذه المناظر مثيرة فى نفسى التعاون العام لنوع الإنسان
وكيف كان ذلك كله كنظام الكلام عند نوع الإنسان وكأن هذه العوالم كلمات

أيها الأخ الذكى : إن منظر الصور المتقدم قد أثار فى نفسى أمرين عجيبين أثار فيها التعاون العام فى نوع الإنسان ، وأثار فيها ما كمن من أن هذه العوالم كلها أشبه بكلمات صادرات من رب العالمين .

انظر إلى الصورة التي فيها مقطع جانبي المخ (شكل ٣١ المتقدم) وفيه الألياف الرابطة قد تخللت الفصوص المختلفة والألياف المختلفة ، وما هي إلا أعصاب حساسة واردة من محيط الجسم موصلة لما يرد على الحواس الخمس إلى المخ ، وأعصاب أخرى خارجات من مراكز الإحساس فى داخل المخ من الخلايا المتعددة فى اللحاء فهذان النوعان اجتمعا وكونا حزمتين كبيرتين من المادة البيضاء إلى آخر ماتقدم . وبعبارة أخرى : إن هذه

الألياف هي التي يقال لها أعصاب الحس وأعصاب الحركة ، فالأولى واردة من الحواس في ظاهر الجسد والثانية خارجات لتنفيذ ماتنتج من آثار الأولى من الأعمال .

فها أنا ذا حينما نظرت هذا الشكل البديع تذكرت التيارات البحرية المرسومة في (سورة الشورى) في ملحقات آية : « ومن آياته الجوار في البحر كالأعلام إن يشأ يسكن الريح فيظللن رواكد على ظهره » فترى هناك في (شكل ٧) أن التيار الذي يخرج من الخليج والتيار الذي يخرج من البرازيل في المحيط الأطلسي ، وتيار كورسيوه ، وتيار شرق في استراليا في المحيط الهادي ، وتيار موزنبيق في شرق أفريقيا في المحيط الهندي ، هذه التيارات بعضها يتجه من الجهات الاستوائية إلى العروض البعيدة لتلطف حرارة تلك التيارات برودة تلك الجهات ، فلكل من التيارات الباردة أو الحرارة أعمال حسنة ، فالبحار الشمالية مثلا ترسل تيارات إلى الأقطار الإستوائية مثل تيار (لبرادوا) ومثل تيار شمالي شرق اليابان ، فهذه تيارات باردة ملطفات لحرارة خط الاستواء .

أليس من العجب أيها الأخ الذكي أن أرى هذه التيارات العصبية من أعصاب الحس وأعصاب الحركات تتخلل نصفي الدماغ وتتصل بعضها ويلطف بعضها بعضا فتتحد في العمل .

الله أكبر . أيها المسلمون : أيتها الأمم التي في الأرض ، أنتم نسيتم العلم ، نسيتم أنفسكم ونسيتم الدين ، التيارات البحرية متصلة متشابكة لإحداث السعادة لسكان الأرض ، وأدمغتكم جعل تركيبها على هيئة تضامن عام ووحدة منظمة تامة النظام ، وهكذا نظام كل خلية في حيوان أو نبات أوشجر أوصوان ، بل هكذا نظام مملكة النحل ومملكة النمل وممالك الأرضات (بفتحات) التي تقدمت في هذا الكتاب ، وهكذا مملكة المجموعة الشمسية فهي شمس حولها سيارات لها منجذبات انجذاب النحلات والنملات لملكاتها ، هكذا وحدة المخ الإنساني مسكن النفس :

أليس هذا النظام معناه أن نوع الإنسان الآن لايزال في المهد صبيا ، هذه دروس لها معناها أن يكون الناس أمة واحدة كالبحار وتياراتها ، والشمس وسياراتها وتوابعها ، ومملكة النحل والنمل والأرضة وأعوانها منظمات تامات النظام .

ألم يصبح اليوم نوع الإنسان متصلا متقاربا متواصلا ، يكلم الشرق الغربي والغربي الشرقي ، وينظر كل صورة أخيه :

ياسبحان الله : إن الأمم لاسعادة لها إلا بأن تكون على هيئة النظام الذري المتقدم ذكره في سورة العنكبوت بحيث أصبحت جميع العناصر بينها نسب هندسية وحسابية في الجدول هناك وقرابة طبيعية وأخرى كيمائية ، وبأن تكون أشبه بأوراق الشجر المتقدم رسمها وشرحها في (سورة الحجر) عند آية : « وأنبتنا فيها من كل شيء موزون » ، وبأن تكون كالبحار الملحة فيها تيارات تأتي من خط الاستواء إلى القطبين وبالعكس ليكون الإصلاح العام ، وبأن تكون أشبه بمملكة النحل والنمل والأرضة (بالفتح) ، وبأن تكون أشبه بنظام المخ من حيث توزيع أعصاب الحس وأعصاب الحركة فيه مع بهجة النظام ، هذه غاية حياة هذا الإنسان على الأرض :

إن للانسان لمستقبلا سعيدا ، وحالا جديدة لم يحلم به الإنسان ، وستعلم الأجيال المقبلة صحة مارأيناه ، وصدق مافهمناه ، وعلى أمة الإسلام أن تعلم علما ليس بالظن أنها خير أمة أخرجت للناس ، وأنها الآن تخللت جميع الأمم : في الصين ، في اليابان ، في الهند ، في افريقيا ، في آسيا ، في استراليا ، في أوروبا .

أنا من هذه الأمة التي قال الله في نبيها صلى الله عليه وسلم : « وإنك لعلى خلق عظيم » . وقال أيضا :

« وما

« وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » ، وأعم الرحمات انتظام الأمم كلها كأمة واحدة كمملكة النحل والنمل يقتسمون الأعمال ويوزعونها ، ويترك لكل امرئ حريته في دينه ، وأمرها هو الذي يقوم به الجماعات إن القرآن قد أصبحت العلوم اليوم والعلوم المستقبلة سره وحقيقته ، وأمة هذا شأنها تعم الأمم كلها ، فكل دين غير الاسلام لا يهتم إلا بنظام الجماعات الانسانية ، فأما خلق العوالم ونظام الطبيعة ونحوها فهو غالبا بضرب الأمثال والحكايات المصطنعة ، الاسلام أخذ أعلى دور أيام العصور الأولى فنفع الانسانية ، ثم انحط أهله انحطاطا لا نظير له ، وهاهم أولاء الآن يريدون أن يكونوا بين الأمم في عصرنا في أمر السلام العام كما كان شأنهم أيام عصر الصحابة والتابعين هم الذين يدعون إلى سلام الأمم انتهاجا منهج الآية : « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » ونحن أتباعه فعلينا أن نقوم بما أنزل الله من صفات الكمال .

أما الأمر الثاني فهو أن هذه الدنيا وما حوت إنما هي كلمات الله .

فلما سمع صاحبي ذلك . قال كون الدنيا كلمات الله هذا أمر مجازي لا كنه الألسن كثيرا فهو أشبه بالأمر المعروف ، وجاء على لسان الصوفية الذين يقولون : « إن خطاب الله يسمعه الانسان بجميع جسمه لا بحاسة سمعه فقط » وهذه أمور لا قبل لنا بفهمها . فإذا قلت لنا إن هذه الأجسام وهذه العوالم كلمات الله فلماذا لم تسمع — إن صح كلام الصوفية — إلا بآذاننا . ولماذا لم تسمع أبصارنا ولا جلودنا أو لحومنا وهكذا ، فأنا أرى أن هذا المقام يصح إغفاله رفقا بالقارئين .

فقلت ياصاح حياك الله وبياك : أنا أكتب هذا اليوم الأحد ٢٢ صفر سنة ١٣٥١ هجرية الموافق ٢٦ يونيو سنة ١٩٣٢ م وأنت معي ولكن ظهر لي خاطر قبيل صلاة الجمعة الماضية وأنا متأهب اصلاتها بمسجد الحبيبي في شارع السيدة زينب ، وهذا الخاطر عجيب ! فبعد أن صليت لم أرجع إلى المنزل بل جلست وحدي في الخلاء لأفهم ماورد إلى خاطري من الآراء ، وذلك الخاطر ملخصه .

إن عوالم المادة ترجع كلها (كما تقدم في سورة النور عند آية : الله نور السموات والأرض) إلى نقط كهربائية يدور سالبها حول موجبها نحو ستة آلاف مليون مليون مرة في الثانية الواحدة ، وباختلاف عددها كثرة وقلة وتباينا أشكالها تظهر لعيوننا جبلا وجملا وشجرا وحجرا الخ فهناك خطر لي أنه من المسلم به الآن عند الأمم شرقا وغربا أن المادة ما هي إلا حركات ، وهذه الحركات في الأثير ، والمحرك لها هو الله عز وجل .

حدثني أيها الذكي رعاك الله ما الصوت ؟ قال : هو حركات تنتقل في الهواء وفي الأثير من فم القائل إلى أذن السامع . فقلت له : وهذه الحركات إن كانت أقل من ٣٢ في الثانية الواحدة لم تسمعها الآذان ، وإن كانت فوق ذلك سمعت ، وتزداد شدة كلما ازدادت عددا حتى تصل إلى نحو ٣٢ ألفا في الثانية الواحدة ، فإذا زادت عن ٣٢ ألفا لا يسمعها الناس . قال نعم هكذا تقدم في هذا التفسير . فقلت له : ماهي المادة ؟ فقال هي حركات في الأثير . فقلت : إذن الكلام حركات في الأثير ، والمادة حركات في الأثير ، وقصارى الأمر وحماداه أن الحركات التي يحدثها الإنسان في الأثير بأعضاء فمه المتصلات أضعف أثرا وأقل عددا من حركات الأثير التي صنعها الله لاحداث الأجسام والأضواء وجميع العالمين . فقال هذا حق لأن الضوء لا يصل لأبصارنا إلا إذا كانت حركاته قد وصلت إلى ٤٠٠ مليون مليون حركة في الثانية فيحس بلون الحمرة ، ولا يزال يزداد فتكون هناك ألوان أخرى حتى تصل عدد الحركات إلى ٧٠٠ مليون مليون حركة في الثانية فيكون اللون البنفسجي وما وراء ذلك غير معلوم .

فقلت له : إذن أيها الأخ جميع الحركات من ٣٢ ألفا إلى ٤٠٠ مليون مليون لم نعط لها حاسة حتى

نعرفها ، ومافوق ٧٠٠ مليون مليون لانعرفه حتى نصل إلى ستة آلاف مليون مليون فهذا لانعرفه ، وتتجلى لنا تلك الحركات بصفة مذوقات ومشمومات وملموسات ناعمة وخشنة وهكذا ، فهاهنا أمران : حركات لانعلمها ، وحركات وصل لنا علمها ، والحركات التي وصل لنا علمها ، منها ماهو من فعلنا ، ومنها ماهو من فعل خالقنا ، فما كان من فعلنا فهو ضعيف كحركات تسمى أصوات كالكلام والغناء ، وما كان من فعل خالقنا فهو قوى جدا ظهر بهيئة ضوء تارة ، وتارة بهيئة حديد ونحاس وأرض وسماء وهكذا ، ونسبة كلامنا إلى قوة كلام الله وهى هذه العوالم نسبة ضئيلة جدا ، ذلك أن ٣٢ ألفا بالنسبة إلى مليون واحد إنما هى نحو جزء من ٣٠ جزءا ، فكيف بها إذا نسبت إلى ألف مليون ، ثم إلى مليون مليون ، ثم إلى ستة آلاف مليون مليون ، إنها إذا تصبح كالعدم ، فهى كنسبة الإنسان الضعيف الذى يشبه المعدوم إلى خالقه القادر العظيم ؛ أليس هذا معناه أن العوالم كلمات الله فعلا ، لأنها حركات كحركات كلامنا بحسب ما كشفه العلماء فى عصرنا وهو يقرأ فى مدارس الشرق والغرب . قال بلى . قلت : أفليست كلمات الله إذن هى هى أنفسها هذه المخلوقات وهو هو المتكلم بها ، ثم كلماته إن كانت أصواتا سمعتها آذاننا كأصوات الرياح ، أو كانت مذوقات أو مشمومات أو مبصرات أو حارة أو باردة أو بيضاء أو حمراء مثلا أدركتها حواسنا ، إذن الكشف الحديث أبان لنا معنى قوله تعالى : « إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون » الآية « قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربى » ، « وكلمته ألقاها إلى مريم » وليس معنى هذا أن ذلك كلام الله القديم . كلا . وإنما هو كضرب مثل له ، إن من هذا النوع الإنسانى من صفت أرواحهم فيرون أن هذا العالم خطاب من الله لهم وكأنهم فى حضرته الآن ، هكذا يخطر لى أن فى الأرض أناسا على هذا المنوال .

أقول : إن آية : « إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون » وإن كان يراد بها ضرب المثل فإن العلم أرانا أن الممثل له قريب المنال ، فهو وإن لم يسم فى العرف كلاما ولكنه يشبه الكلام لأنه حركات فى الأثير ، وهذه الحركات قوية متينة وآثارها مدهشة بحيث تشعر بها جميع حواسنا على اختلاف طبقاتها وتعطينا جميع اللذات المحسوسات والمعقولات الآن فى الدنيا ، فإذا متنا وانكشف الغطاء لنا ، وتجردت أرواحنا ذاقت من اللذات أضعاف أضعاف مانذوق هنا وهى محجوبة فى هذه الحياة ، إذن خطاب الله يصدر عنه المتكلم به ويظهر فى الخارج عند النطق به (وهذا ليس هو الكلام القديم بل ضرب مثل له) ويبقى آمادا ونحس به جميع الحواس ، وكلام المخلوق لاقدرة له إلا على الوصول إلى الأسماع فحسب ، ولا نتيجة له إلا مايفعله السامعون .

ولما عرفت ذلك وكنت إذ ذاك خارج القاهرة تبين لى أن هذه الأشجار والأحجار والأنهار والأزهار والماء والسماء كلها كلمات ، وهذه الكلمات مفرقات على حواس الإنسان والله نفسه كأنه بها يخاطبنا ، فالعلوم المشروحة فى هذا المقام جميعها شرح لبعض تلك الكلمات التى نعيش فيها ؛ إذن العالم كله كلمات فعلا ، والكلمات مقروءات لأولى الألباب .

هذا ماخطر لى يوم الجمعة السابقة فى التاريخ المذكور والحمد لله رب العالمين : فرغت من هذه المقالة صباح يوم الاثنين ٢٣ صفر سنة ١٣٥١ هجرية — ٢٧ يونيو سنة ١٩٣٢ م بحى السيدة زينب بشارع زين العابدين .

حديث طريف

حضر صاحبى العالم بعد ذلك فى نفس اليوم وقال لى : لقد نسيت أن تذكر شيئا أشرت إليه فى علم التربية ألم تقل فيما تقدم إن الإنسان فى أدوار حياته يضارع أطوار الخليقة ، ووعدت أن تشرح ذلك . فقلت حقا :

« إن

« إن الله لا يخلف الميعاد » إن العلماء فى عصرنا نظروا فى لعب الأطفال فرأوها أمرا عجبا مدهشا ، وهـذا الأمر المدهش معناه قول الله تعالى : « وما خلقنا السموات والأرض ومابينهما لاعبين » ونحن نسمى لعب الأطفال لعبا ولـكن للأطفال غريزة ومزرعة والله هو الزارع ، فهل يخلق الله اللعب ؟ هذا لعب عندنا ، وجد عند الله والحكماء ، إن الحكيم ينظر إلى لعب الأطفال والصغار ويحدق بنظره إلى أسلاف الطفل وأسلاف الحيوان فيجد ذلك اللعب ما هو إلا مافطر عليه أجداده فى كرهم وفرهم ، وصيدهم وقنصهم ، سواء أكان إنسانا أوحيوانا ، وهذا اللعب من جهة أخرى يدل على مستقبل الطفل ، فهو وارث لأعمال الآباء ، يجددها من جهة وهو من جهة أخرى يستعد لحياة جديدة يتمرن عليها ، إذن اللعب أعطى صورتين : صورة الماضى ، وصورة المستقبل كلاهما فى آن واحد ، الفتاة تلعب بالعروس وتغنى لها ، والفتى يتقلد السيف والرمح وركب العود كأنه فرس ، وهما يحكيان أفعال الآباء والأجداد ، ومن جهة أخرى هما يتأهبان للمستقبل القريب ، بل الأمر أعظم من ذلك .

إن الإنسان يلخص فى الرحم جميع الأدوار ، فالتى مرت فيها الخليقة كلها من خلية واحدة إلى الانسان ثم هو يلخص فى أدوار ترقيته من وقت ميلاده إلى نضوجه جميع الأدوار التى مر بها الجنس البشرى فى تقدمه من الوحشية إلى الحضارة . إن كل لعب من ألعاب الأطفال يدل على دور من أدوار الآباء فى أعمالهم العادية تقبله الطفل هنا بهيئة لعب ، ثم إن لـكل امرئ مواهب خاصة تظهر ما استعد له ، فإذا راقبنا ذلك ووضعنا كل امرئ فيما خلق له فذلك هو اليوم الذى يسعد فيه الانسان ، وهذا القول ملخص آراء الأستاذ (ستانلى هول) والأستاذ (كارل جروس) أحد أساتذة (جامعة بال) فى سنة ١٨٩٦ م انتهى الحديث فى نفس التارع ، وحسبنا الله ونعم الوكيل ، ولاحول ولاقوة إلا بالله العلى العظيم .

تذكرة

سنذكر إن شاء الله تعالى فى سورة « والشمس وضحاها » فصولا من علم التربية جميلة نافعة اهـ

جوهرة فى قوله تعالى : « ومن كل شىء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون
ففروا إلى الله إنى لـكم منه نذير مبين »

خلقت اللهم من كل شىء زوجين ، ودعوتنا للتذكر ، وأمرتنا بالفرار إليك ، ونحن لانتذكر إلا بالعلم لاسيما علم الحيوان الذى ظهر فيه الزوجان ظهورا تاما ، وسمعناك تقول فى (سورة الجاثية) : « وفى خلقكم وما يبث من دابة » الخ وفى (سورة الزخرف) : « والذى خلق الأزواج كلها وجعل لـكم من الفلك والأنعام ماتركبون لتستووا ، إلى : وما كنا له مقرنين » وفى (سورة الغاشية) : « أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت ، وإلى السماء كيف رفعت ، وإلى الجبال كيف نصبت » ثم تقول : « فذكر إنما أنت مذكر » نحن الآن تذكرنا ونظرنا فوجدنا أن ذكر الابل فى الآية لم يقصد به إلا ضرب مثل ، لأن الابل مراكب الصحراء والعرب عليها يركبون ، وهى تحمل أثقالهم ، فذكر مايناسب عملهم ، ولو أن القرآن نزل على رجل هندى لقيل أفلا ينظرون إلى الفيل كيف خلق ، أو على الذين يعظمون الحيات فى أواسط أفريقيا لذكر الحيات ، أو الذين يجلون القرود فى الهند أيضا لذكر القرود ، إذن الله بهذه الآية وأمثالها فتح لنا باب التذكرة والعلم فلنبحث إذن فى كل حيوان ، ولنقدم مقدمة فنقول :

إن الله عز وجل أكثر فى القرآن من ذكر العقل فيقول : « إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون » ومن ذكر التدبر والتذكر ، وعول جد التعويل على العقول ، فلننظر بعقولنا فى هذه الفطرة الإنسانية العامة ،

إننا لما خلقنا في هذه الأرض وجدنا لنا شهوة لطلب الغذاء ، ولطلب التناسل ، وغضبا لمدافعة الأعداء ، وقوة أعلى منهما لمعرفة الحقائق كلها كالذي نحن فيه ؛ ووجدنا الديانات تطلب منا الاعتدال في القوتين الأوليين فنسمع الله يقول : «وكلوا واشربوا ولا تسرفوا» ويقول : «ولا تقربوا الزنا» ويقول : «فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم واتقوا الله واعلموا أن الله مع المتقين» إذن الديانات والوعظ والقضاء إنما جاءت لتلطيف هذه القوى فينا لا غير ، إن شهوة الغذاء ، وشهوة التناسل ، والقوة الغضبية فينا كلها قوى شريفة رفيعة المنزلة أنزلها الله لحياتنا ، وإنما المذموم الخروج بها عن مقاصدها ، وإلا فنحن بغيرها لا حياة لنا ، فكل قانون ، وكل وعظ ديني أو دنيوي وظيفتها أن تجعل هذه القوى معتدلة لا غير ، ولكن القوة العليا وهي الفكرية المسيطرة على القوتين السابقتين لها مطالب أيضا ومطالبها هو العلم وغذاؤها صور المعلومات ، فكما كان لشهوة الغذاء أنواع الطعام ، ولشهوة الوقاع أنواع النساء ، وللقوة الغضبية أنواع القتال ، هكذا للقوة العاقلة أنواع الصور العلمية المكتسبة من المواد المحيطة بنا ، وهذه وظيفة تامة قائمة بنفسها لا لأنها مهذبة فحسب ، بل هي شهوة مقدسة وهي الخاصة بالإنسان ، فإذا غذاها صار إنسانا تاما وإذا تركها بقي حيوانا لأنه لم يرتق عن الحيوان فهو مثله في الشهوتين السابقتين ، نعم إذا كان قد هذب الشهوتين السابقتين فقد تكمل في العمل ، ولكن العلم هو الخاصية الإنسانية ، الحيوان ليس في حاجة إلى التهذيب أما الإنسان فهو في حاجة إليه ، واذكر منظرا شاهدته قبل كتابة هذه الأسطر بساعات لأني الساعة أكتب هذا قريبا من منتصف ليلة الجمعة ١٧ يناير سنة ١٩٣٠ م وفي عصر الخميس كنت أرتاض ماشيا عند مصر القديمة مارا على (كوبري الملك الصالح) فرأيت راعيا يسوق عنزات ذوات ضروع مملوءة لبنا ومعهن تيسهن فتأملت ذيولهن إذا هي مرفوعة دائما ، وقد عرى السيلان عما يغطيهما فترى الذيل كأنه قوس رجع إلى الخلف فقلت في نفسي : يقول الله تعالى : «يابني آدم قد أنزلنا عليكم لباسا يواري سوآتكم وريشا ولباس التقوى ذلك خير» فنحن أمرنا وامتن الله علينا باللباس الذي يواري سوآتنا ، أما هذه الحيوانات فقد كشف سوآتها وعاشت بهذا والله لا يخلق إلا الكمال ففكرت فيما علق بالنفس من أمر هذه الحيوانات ، وأن ذكورها لا تقرب إناثها إلا وهي غير حاملة ، ومتى حملت لا تقربها ، وهذا عجيب ! إذن كشف العورة لا يضرها هي ، لأن هناك قانونا مسنونا ، وهو أن التيس لا يقرب العنز إلا ورحمها خال من الجنين ، فسألت الراعي فقال نعم إنها متى حملت لا يقربها التيس ولو في اليوم الثاني ، فأما الإنسان فإنه أعطيت له الحرية في كل شيء ، فشهوة الغذاء لا حد لها وهكذا شهوة الوقاع ، فهذه الحرية وجب أن تقيد بالقيود الشرعية والعقلية لتحفظ حياته وكماله ، وهذه الحرية شرف له لأنه طلب منه الجهاد بنفسه ، فهو هو الملزوم بالمحافظة على قواه فإذا قدر على أنواع الطعام وفنون ألوانه ولم يجد مانعا يمنعه من تناول أنواع الشهوات في الوقاع ، فهو المكلف بأن يمنع نفسه بنفسه كما منعت ذكور تلك الحيوانات بغرائزها في بعض الأحوال ، وهكذا ترى الحيوانات لا تشرب إلا إذا عطشت بخلاف الإنسان فإنه يشرب الحلوى متلذذا بغير عطش ، فهذه حرية أعطيت له وقد كلف أنه هو الذي يقيد هذه الحرية ، أما الحيوانات التي في البرية فالغريزة والسليقة أغنتها عن الشرائع وتكاليف الإنسان بمقاومة شهواته إعظام له فكأنه قيل له : أنت حر فدبر نفسك بنفسك ، لأننا نريد أن تكون ملكا على عواطفك لا أنك مقيد بقيود طبيعية تحجرك ، بل قيودك تكون من تلقاء نفسك وهذا شرف لك ، وخذلان لك إن قصرت ، والمقصود من هذا الجهاد أن تعتاد نفسك المران على العمل ؛ وترتقي إلى ما هو أعلى منه وهو تغذية القوة العاقلة بالصور الحكمية ، ولن تستقيم أيها الإنسان حالك إلا بجدك واجتهادك .

إن

إن هذه العنزات التي رأيتها اليوم قرأت فيها درسين : الدرس المتقدم وهو درس الشهوات وحفظها بالغريزة في الحيوان ، واحتياج الإنسان في حفظها إلى العلم والدين ، ودرس الألوان ، فإن العنزات رأيت منهن البيضاء والسوداء والحمراء والصفراء والداكنة اللون ، ومنهن من كان جسمها مختلط البياض بالسواد أو بالحمرة ، أو بالصفرة ، أو بالجميع ، أو بالبعض ، وهن متصاحبات متحابات ، فقلت في نفسي هذا معنى قوله تعالى : «قتل الإنسان ما أكفره» لأن الناس كما احتاجوا في طعامهم وشرابهم ودفاعهم إلى وازع ليحفظ قوامهم هكذا في السياسة العامة يحتاجون إلى وازع يرفع من شأنهم ، فهاهم أولاء أهل أمريكا يعادي البيض منهم السود لمجرد اللون ، وهكذا في بلاد الانجليز في هذه السنة لم يقبل أصحاب المطاعم والمجتمعات العامة رجلا أسود أمريكيا مع أنه مثر عظيم ، ذلك كله لمجرد اللون ، فهؤلاء لم يجدوا ما يهذب هذه النفوس المحبوسة في أمور تافهة كالألوان ، ولكن هذه العنزات متحابة معا وهن مختلفات الألوان لأنهن يرين أن النظر لهذه الفوارق اللونية أمر تافه ونظرة حمقاء ، وقلة عقل وقصر في العلم ، ولكن ليس هذا عندهن علما وإنما هو غريزة كغريزة امتناع الوقاع أثناء حمل الأنثى ، فهاهنا درسان درستهما اليوم على هذه العنزات درس أخلاق ودرس سياسة ، ولهذا قال الله تعالى : «يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم» .

وورد في الحديث : «لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى» وقال صلى الله عليه وسلم : «اسمعوا وأطيعوا وإن ولي عليكم عبد حبشي» وأمر بلالا أن يؤذن في الكعبة يوم فتح مكة بمحضر من قريش ، كل ذلك تهذيب لهذه النفوس الإنسانية في الأمور السياسية العامة ، والحيوان لم يحتج إلى هذا لأن غريزته تكفيه ، الحيوان ليس مستعدا لحوز العلوم والمعارف ولذلك لم يكلف بالجهاد لحفظ شهواته ، بل كفته الغريزة كما قدمنا ، أما الإنسان فجهاده في مدافعة شهواته يكون مقدمة لجهاده في إكمال نفسه بالعلم وإدراك الحقائق التي لم يخلق إلا لإدراكها ، إذن هذه الشهوات وإطلاق الحرية للانسان فيها جعلت أشبه بامتحان له فإن جد في المحافظة على قواه الشهوية كان ذلك دليلا على أنه سينال العلوم العقلية ويكون رجلا كاملا ، وإن بقي في غمرات شهواته دل ذلك على أنه ليس أهلا لأن يستكمل نفسه بالعلم .

هذا ما أردت جعله مقدمة لما سأكتبه في هذه الآية : «ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون» وما ماثلها من قوله تعالى : «والذي خلق الأزواج كلها» الخ ، فلأشرع إذن في دراسة هذه الأزواج الحيوانية وأقول :

لقد تقدم الكلام عليها مفرقة في هذا التفسير ، فتراها في سورة فاطر ، وفي سورة النحل ، وفي سورة الحج عند آية : «إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له» وهكذا في سور كثيرة ، ولكني أريد هنا أن أذكر حادثة عجيبة . ذلك أني قدمت في سورة يونس أني أرسلت خطابا إلى الحكومة المصرية ، وإلى رجال البرلمان أبين لهم فيه أن تعليم الشبان في المدارس الثانوية ناقص إذ لا نبات ولا حيوان ولا تشريح ، ولا علم طبقات الأرض ، ولا علم الفلك تدرس فيها ، فالتلميذ يخرج وهو جاهل ما حوله ، فيجب أن تدرس هذه العلوم ، وأن يجعل التعليم الثانوي خمس سنين ، لأن هذه المواد قد حذفت من المدارس لما دخل الانجليز البلاد فوجب رجوعها وأنتم الآن عندكم استقلال ، وبقية الخطاب تجده هناك مسطورا .

أفلا تعجب معي أن هذا القول قد عمل بأكثره الآن ! أفلا تعجب أن ما كنت أقوله كثيرا في هذا التفسير أن بلاد الإسلام سترتقي قريبا قد أخذ يتحقق بعضه ، وهذه بلادي لما كتبت ذلك الخطاب منذ بضع سنين لم تكن هذه العلوم فيها ، فها أنا ذا الآن أرى أمامي علم الحيوان وعلم النبات مشروحين في كتبهم

شرحا وافيا عجيبا، وأنا لا أزال أزاول طبع التفسير، أفليس هذا معناه أن ما بشرت به المسلمين من أنهم سيرتقون سريعا قد ابتدأ تحقيقه وهذا من البشائر. وها هو ذا أمامى كتاب فى علم الحيوان تأليف ثلاثة من علماء هذا الفن المصريين، فلأبين طرفا من ذلك الكتاب هنا بحيث يكون مفيدا فوائد أحسن مما سبق فى هذا الكتاب وأريد بذلك أن أبين لك طريقة دراسة هذا الفن فى بلادنا اليوم بعد أن حرمت تلك العلوم فى أيام الاحتلال، فقد جاء فى الكتاب المذكور تحت العنوان التالى مانصه :

أقسام المملكة الحيوانية

تنقسم الحيوانات تبعا لتركيبها الخلوى إلى مملكتين وهما :ـ

(١) الحيوانات الوحيدة الخلية أو البروتوزوه ؛ وتسمى كذلك بالحيوانات الأولية ، وهى مايتركب جسمها من خلية واحدة .

(٢) الحيوانات العديدة الخلايا أو الميتازوه ، وهى مايتركب جسمها من خلايا عديدة تتكون عنها أنسجة مختلفة تقوم بالوظائف الحيوية للجسم . وتنقسم الحيوانات العديدة الخلايا إلى قسمين كبيرين وهما :

(ا) الحيوانات اللافقرية هى ماليس لها سلسلة فقرية ، وتنقسم إلى ثمان رتب كما هو مبين بالجدول الآتى :

(ب) الحيوانات الفقرية هى مالها سلسلة فقرية ، وتنقسم إلى خمس رتب كما هو مبين بالجدول كذلك

- المملكة الحيوانية
  - الحيوانات الوحيدة الخلية
    - الاميبية . .
    - الهدبية . .
    - السوطية . .
    - الجرثومية .
  - الحيوانات العديدة الخلايا
    - اللافقرية
      - الإسفنجية . . . .
      - الاخطبوطية . . . .
      - النجمية . . . .
      - الديدان المفرطحة . . . . . .
      - الديدان الأسطوانية . . . . .
      - الديدان الحلقية . . . . . .
      - المفصلية . . . .
      - الرخوة . . . .
    - الفقرية
      - الأسماك . .
      - الضفادع . .
      - الزاحفات . .
      - الطيور . .
      - الثدييات
        - بروتوثيريا . .
        - الكيسية . .
        - الحوتية . . .
        - الحافرية . . .
        - القراضة . . .
        - أكلة اللحوم . .
        - أكلة الحشرات .
        - الخفاشية الرئيسية .

فالحيوانات

فالحيوانات الوحيدة الخلية هذه جعلت أربعة أقسام تراها فيما تقدم هنا ، ومن هذه الأربعة (الأميبا) (انظر شكل ٣٥) .

الأميبا

الأميبا كائن حي دقيق الحجم يعيش في البرك والمستنقعات، أو على سيقان النباتات المائية، أو على الأحجار الراسية في القاع ، ويرى أكبرها بصعوبة بالعين المجردة .

شكلها

عند ماتشاهد (الأميبا) بالمكرسكوب تكون عبارة عن كتلة بروتوبلازمية شفافة هلامية عارية أى لاجدار لها ، وليس لها شكل معين حيث تتشكل بأشكال مختلفة في وقت قصير تبعا لبروز أجزاء بروتوبلازمية من جسمها ، ويلاحظ كذلك أن البروتوبلازمية في حركة مستمرة . (انظر شكل ٣٥) .

القسم الثانى من وحيد الخلية : الحيوانات الهدبية والذى يهمنا منها أن نعرف أن الحيوانات الطفيلية التى تعيش في الغشاء المخاطى للأمعاء الغليظة فتسبب الاسهال المخاطى الدموى المسمى (الدستناريا) إنما هى من هذه الحيوانات الهدبية ، وهى من الوحيدة الخلية . انتهى الكلام على القسم الثانى .

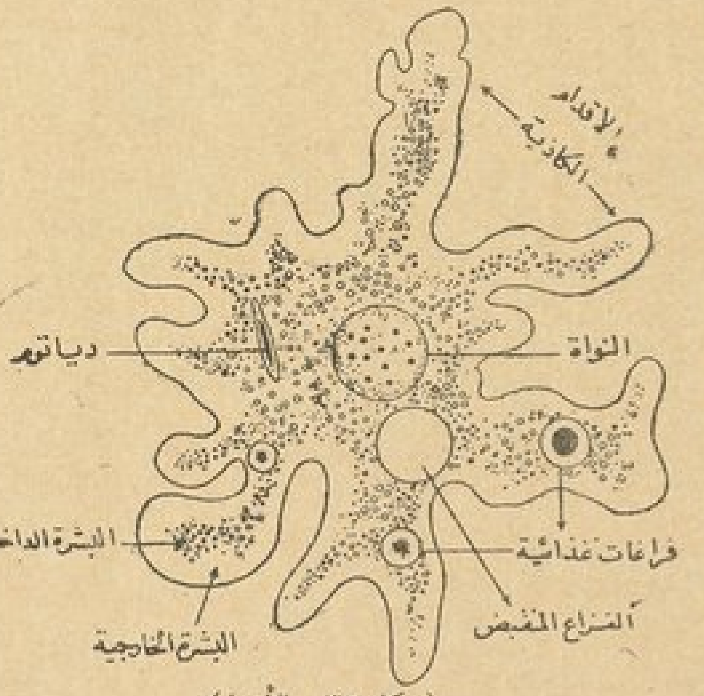

(شكل ٣٥ ـ الأميبا)

القسم الثالث من وحيد الخلية

الحيوانات السوطية

والحيوانات السوطية هى حيوانات أولية ، يكون في أحد طرفيها زائدة سوطية تشبه الذنب ، تساعدها على الحركة ، وقد يكون يبعض أنواعها سوطان ، والبعض الآخر لاسوط له ؛ تعيش هذه الحيوانات في وسط سائل ، وتتحرك فيه بواسطة حركة سوطها الكرباجية .

والذى يهمنا من هذا النوع (اليوجلينا) وهى حيوانات مكروسكوبية تعيش على سطح المياه العذبة الراكدة في البرك والمستنقعات ، وشكلها مغزلى ، وبأحد طرفى جسمها سوط طويل بجانبه فتحة الفم .

وتتغذى بالكائنات الدنيئة ، وبقايا المواد العضوية التى تجدها في الماء ، وتتغذى (اليوجلينا) بطريقة نباتية ، وهى أنها تستخلص الكربون من غاز ثانى أكسيد الكربون الذائب في الماء وتمثله في جسمها ، ثم تمتص الآزوت وغيره من العناصر بشكل أملاح ذائبة في الماء .

وتتغذى كذلك بطريقة حيوانية، وهى إدخال قطع المواد العضوية السالفة الذكر من فتحة فمها (انظر شكل ٣٦) وهو حيوان سوطى صغير يعيش معيشة طفيلية فى دم الإنسان ، ويسبب له مرض النوم وهو مرض منتشر فى أواسط أفريقيا وتنقله إلى الإنسان ذبابة خاصة تسمى (جلوسينا) يعضى فى جسمها حيوان مرض النوم جزءا من حياته ، وعند ماتمص الذبابة الملوثة دم الإنسان تمر هذه الحيوانات فى لعابها إلى الجرح الذى تمص منه ثم تدور مع الدم وتتكاثر فيه وتسبب الأعراض المرضية للمصاب .

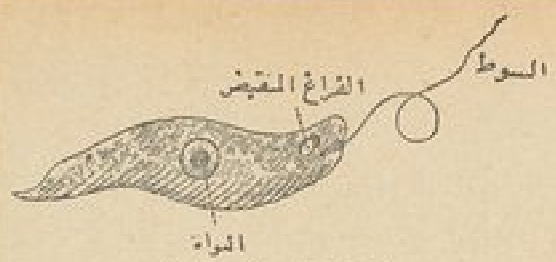

(شكل ٣٦ ـ البوجلينا)

القسم الرابع من الحيوانات الوحيدة الخلية

الحيوانات الجرثومية

الحيوانات الجرثومية هى حيوانات أولية ليس لها أعضاء خاصية للحركة، وتعيش معيشة طفيلية فى الأنسجة المختلفة لأجسام الحيوانات التى تصيبها وتسبب لها أمراضا قتالة . فمنها :

(١) (الككسيديا) : وهو حيوان دقيق يصيب حيوانات مختلفة ، ففى الأرانب يعيش فى أنسجة كبدها ويسبب لها مرض تعفن الكبد ، وفى الأغنام يعيش فى الغشاء المخاطى لأمعائها ، وينتشر بينها بسرعة ويعرف بوباء الككسيديا .

(٢) (حيوان الملاريا) : وهو يعيش فى دم الإنسان ، ويسبب له حمى الملاريا .

ثم إن الناموس على قسمين : قسم ينقل هذه الملاريا ، وقسم لاينقلها ، والقسم الذى ينقلها حينما يتغذى بدم الإنسان المصاب بالملاريا تتناسل تلك الحيوانات فى جوف الناموسة ، وهناك تكون معدية فتنقل ذلك النسل إلى جسم إنسان آخر فتحصل العدوى ، وهذه صورة معدة الناموسة المذكورة (انظر شكل ٣٧)

(شكل ٣٧ ـ معدة الناموس وعليها حوصلات الملاريا)

الكلام فى الحيوانات العديدة الخلايا

فمنها الإسفنجية كما تقدم وهذه صورتها (انظر شكل ٣٨) فى أول الصفحه التالية :

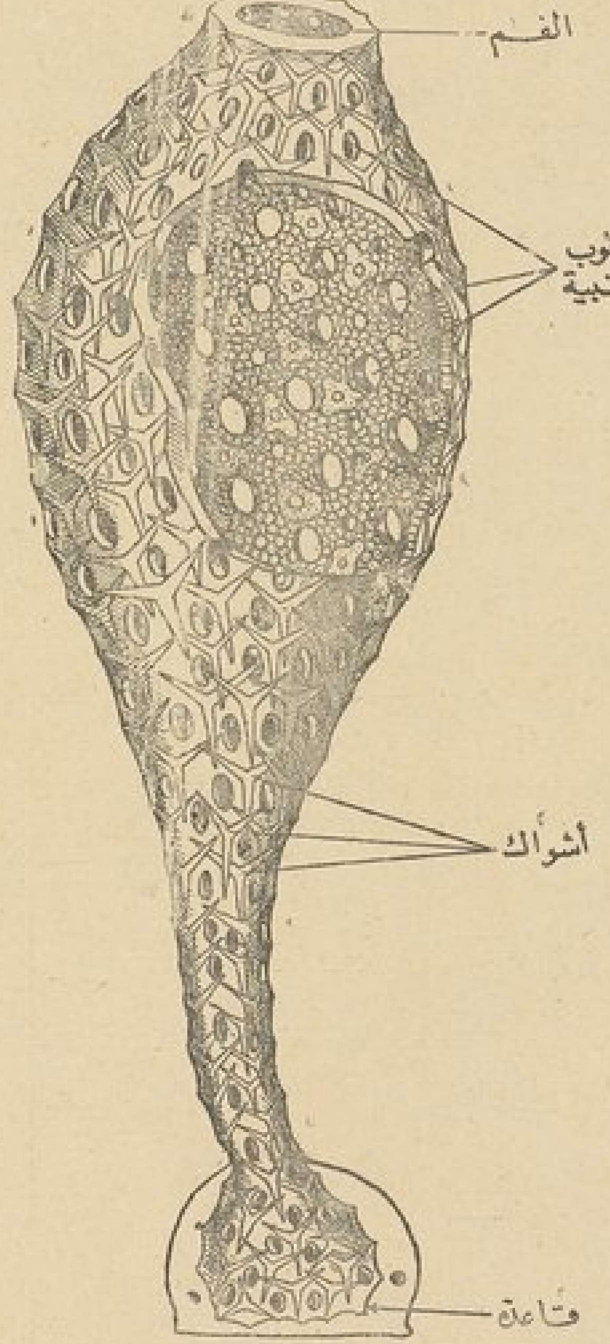

(شكل ٣٨ ـ نوع من الإسفنج الحجرى البسيط)

ومنها اسفنج الحمام ، وهذه صورته (انظر شكل ٣٩) فى الصحيفة التالية :

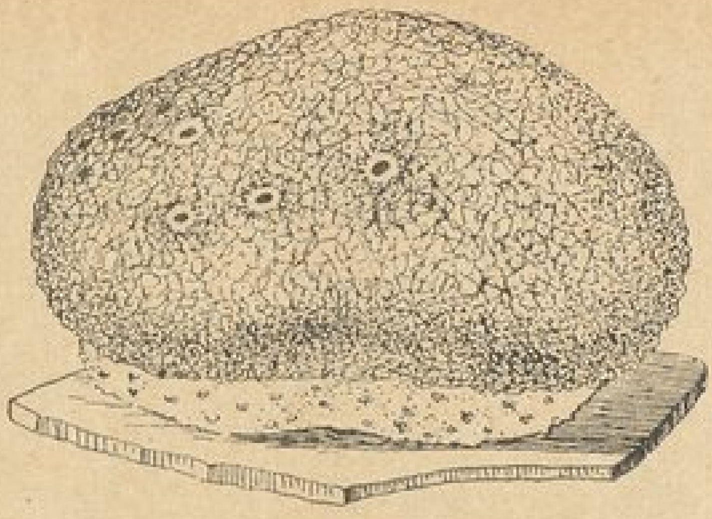

(شكل ٣٩ ـ إسفنج الحمام)

القسم الثانى من الحيوانات كثيرة الخلية

الحيوانات الأخطبوطية

(انظر شكل ٤٠)

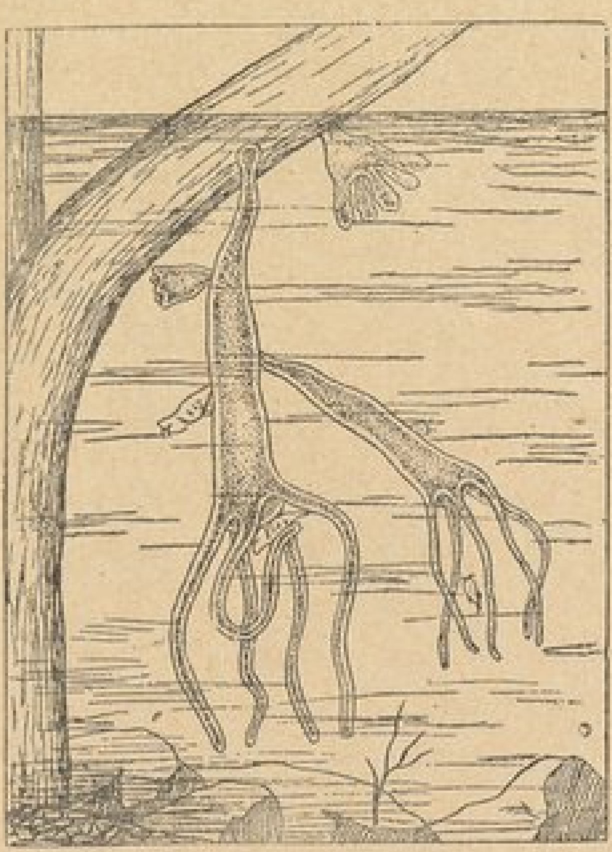

شكل ٤٠ ـ أخطبوط فى حالته الطبيعية (×٧)

ومن الحيوانات الأخطبوطية حيوان المرجان ، وقد تقدم فى سورة الجاثية ، وفى سورة النحل .

القسم الثالث من الحيوانات العديدة الخلايا

الحيوانات النجمية ، وهى ذوات الجلد الشوكى

(انظر شكل ٤١)

نجم يفترس محارا

(شكل ٤١)

حيوانات هذه الرتبة كلها بحرية ، يعيش بعضها على سواحل البحار كنجم البحر ، والبعض بالقرب من الشواطئ كقنفذ البحر ، والبعض الآخر فى وسط البحار كخيار البحر .

وكل هذه الحيوانات ذات شكل منتظم أعضاؤها متشعبة كأنصاف أقطار الدائرة حول مركزها ، وأجسامها فى الغالب مغطاة بأشواك قد تكون طويلة كما فى قنفذ البحر ، أو قصيرة كما فى نجم البحر ، وقد لاتظهر أصلا وتعوض بصفائح حجرية صغيرة موضوعة تحت الجلد كما فى خيار البحر ، وقد تكون هذه الصفائح كثيرة وتتصل بعضها ببعض فتكون شبه صندوق كما فى قنفذ البحر ، وقد توجد الصفائح والأشواك معا فى الحيوان الواحد ؛ وتشاهد على أجسام هذه الحيوانات زوائد بيضاء اللون متحركة تمتد وتنكمش عند الإرادة ، وتنتهى كل واحد منها بقرص صغير مقعر قليلا ، وهذه الزوائد هى أعضاء الحركة والالتصاق والحركة فى هذه الحيوانات بطيئة جدا .

الذكور فى هذه الحيوانات منفصلة عن الإناث ، ومن الصعب جدا التفرقة بينهما من غير الاستعانة بالتشريح .

(نجم البحر) يشبه هذا الحيوان النجمة فى شكلها لهذا سمى نجم البحر ، ويتركب جسمه من قرص وسطى

يتفرع منه عدد من الأعضاء (خمسة فى الغالب) وكلها متشابهة شكلا وفى الغالب متساوية حجما ، وتعرف هذه الأعضاء بالأذرع ؛ وللحيوان سطحان : أحدهما علوى والآخر سفلى ، والسطح العلوى أقتم لونا من السفلى ، وبواسطة فتحة صغيرة جدا لا ترى بسهولة تعرف بالأست .

ويوجد على حافة القرص من أعلى أيضا وبجوار نقطة اتصال ذراعين من أذرع الحيوان جزء قشرى مستدير به عدة ثقوب صغيرة يعرف بفتحة الجهاز المائى .

ويوجد عدد كبير من صفائح كلسية منتشرة تحت جلد الحيوان تبرز منها أشواك كثيرة تظهر فوق سطح الجسم كما أنه تبرز من بعض هذه الصفائح أعضاء صغيرة كالأشواك شبيهة بالملقط ، وظيفتها التقاط الأشياء الصغيرة كالحشائش المائية ، وكذلك تنظيف جسم الحيوان مما قد يلتصق به من أوساخ (انظر شكل ٤٢)

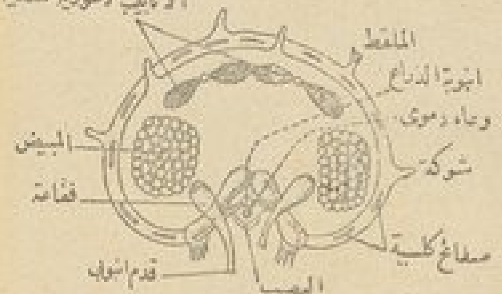

(شكل ٤٢ - قطاع عرضى فى الذراع)

وتظهر على جسم الحيوان فى المواضع الخالية من الصفائح الكلسية زوائد صغيرة شبيهة بالأصابع ذات جدر جلدية رقيقة للغاية يحصل الحيوان بواسطتها على ما يحتاج إليه من الأكسوجين الذائب فى الماء المحيط به ، فهى إذن أعضاء للتنفس .

وتوجد فى وسط القرص من أسفل فتحة تعرف بالفم محوطة بأشواك كلسية .

القسم الرابع من الحيوانات العديدة الخلايا التى لا فقرات لها كالتى قبلها
الديدان المفرطحة ومنها الدودة الكبدية

تعيش الدودة الكبدية وهى فى طورها الكامل فى القنوات المرارية الكبيرة فى كبد الأغنام والمواشى والجمال ، وأحيانا الإنسان ، ويبلغ طولها سنتيمتران أو أكثر ، وتسبب لهذه الحيوانات مرض تعفن الكبد أى تفتت الكبد ، لأن الكبد المصاب يصير خشن الملمس غير مرن ، وسهل التفتت . (انظر شكل ٤٣) .

ومنها دودة البلهارسيا (انظر شكل ٤٤ فى الصفحة التالية) .

(شكل ٤٣)
الدودة الكبدية الكاملة

(شكل ٤٤ ــ دودة البلهارسيا)
(١) بيضة بلهارسيا المجارى البولية . (٢) بيضة بلهارسيا المستقيم .

القسم الخامس

من الحيوانات عديدة الخلية

الديدان الاسطوانية

ديدان (الانكلستوما) هى ديدان رفيعة بيضاء ، يبلغ طولها سنتيمترا تقريبا وتعيش فى الأمعاء الدقيقة ملتصقة بجدرها وتمتص الدم منها ، وتحدث للمصاب بها ضعفا وانحطاطا مستمرا فى قواه ناشئا من فقر الدم ينتهى بالموت ، ويسمى فقر الدم الناشىء من الانكلستوما عند الفلاحين (بالرهقان) أى سرعة دقات القلب عند القيام بأى مجهود جسمانى .

وإناث الانكلستوما أكبر بقليل من ذكورها ، وتعيش الإناث منفصلة عن الذكور بخلاف البلهارسيا ، ولا تتصل بها إلا عند التزاوج .

(انظر شكل ٤٥)

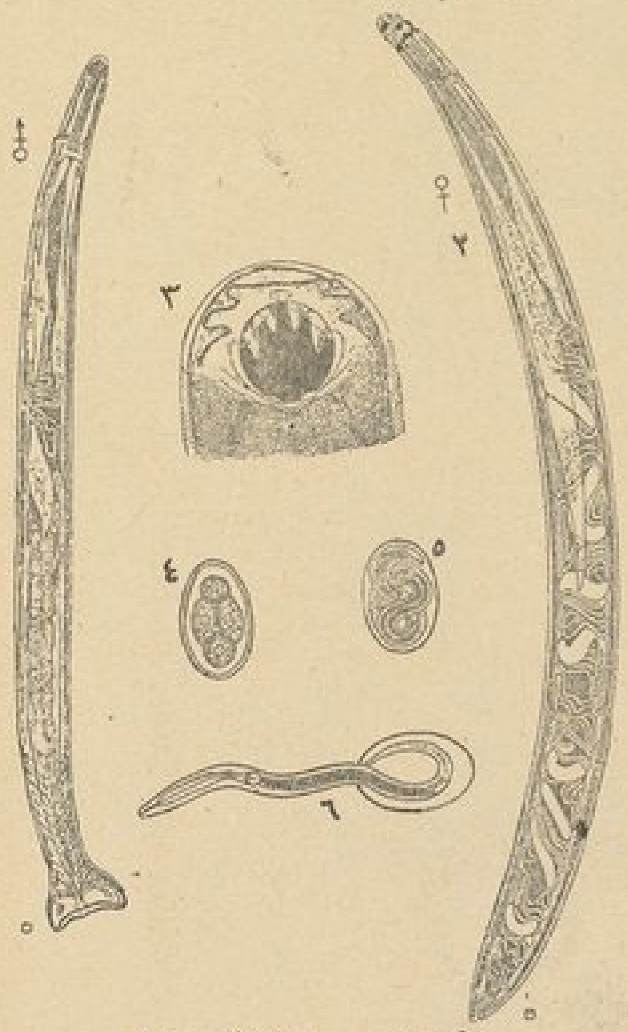

(شكل ٤٥ ــ دودة الانكلستوما)
(١) الذكر (٢) الأنثى (٣) فم الدودة مفتوحا (٤) البيضة عند وضعها (٥) البيضة عند نضج الجنين فيها (٦) اليرقة

القسم السادس من الحيوانات عديدة الخلية

الديدان الحلقية ، وهى من الحيوانات التى لافقرات لها

ومنها دودة الأرض ، وقد تقدم الكلام عليها فى (سورة فصلت) فراجعه هناك إن شئت :

القسم السابع من الحيوانات عديدة الخلية التى لافقرات لها

الحيوانات المفصلية

ويدخل فى هذا القسم الحيوانات القشرية كالجمبرى ، أو الكثيرة الأرجل كأم أربعة وأربعين (انظر شكل ٤٦) والعنكبوت ونحوه ، والحشرات : كالجراد ، وفرس النبى ، والصرصار ، ودودة القطن ، والذباب والناموس ، والبق ، والبرغوث ، والقمل (انظر شكل ٤٧) ودودة القز ، والنحل ، والعقارب (انظر شكل ٤٨) . و (شكل ٤٩ تراه فى الصفحة التالية) ثم الجمبرى (شكل ٥٠ تراه فى الصفحة التالية أيضا)

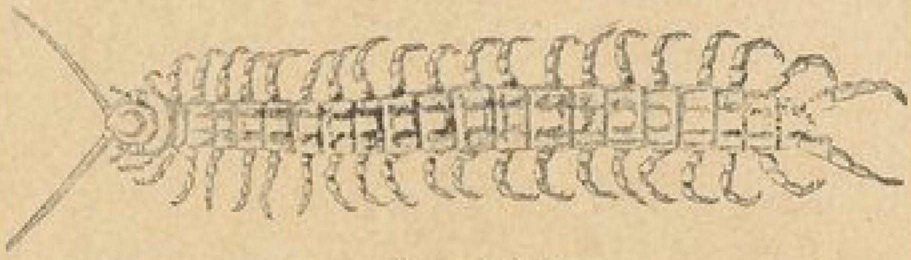

(شكل ٤٦) أم أربعة وأربعين

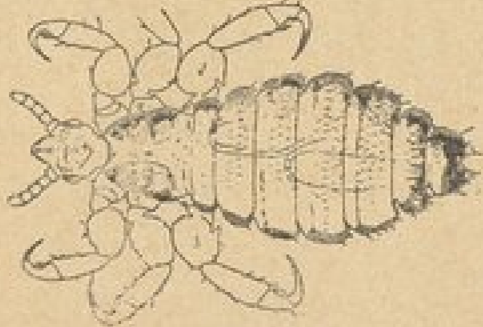

(شكل ٤٧) صئبان الرأس

(شكل ٤٨ — عقربان يتصافحان عند مقابلتهما)

شكل

(شكل ٤٩ – عقربة تحمل صغارها على ظهرها)

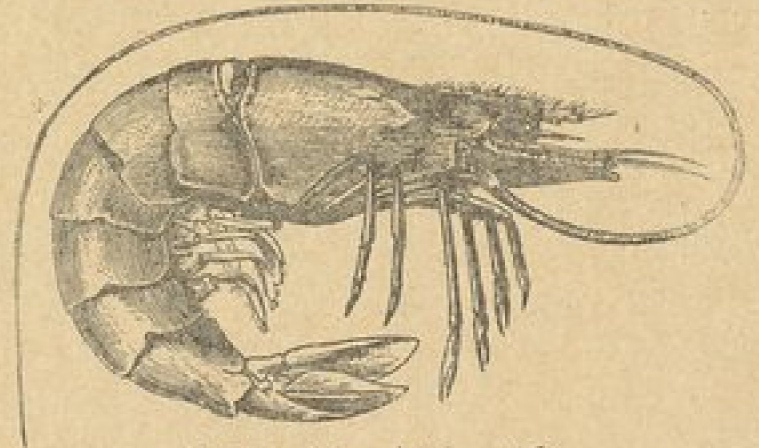

(شكل ٥٠ – الجمبرى بالحجم الحقيق)

القسم الثامن من الحيوانات عديدة الخلايا وهى ليست ذات فقرات
الحيوانات الرخوة ، ومنها القواقع ، وبلح البحر
(انظر شكل ٥١)

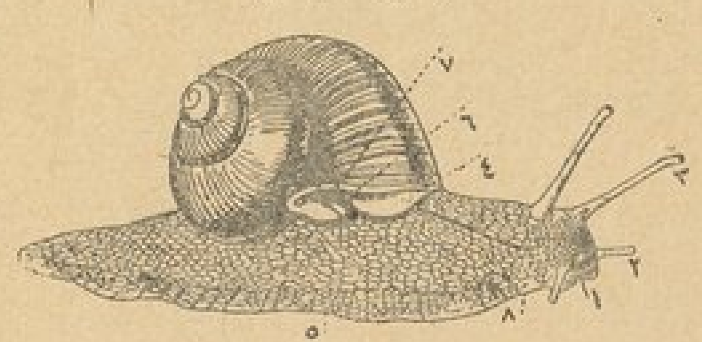

(شكل ٥١ – القوقع الرومانى)

(١) الفم (٢) الزوائد الأمامية (٣) الزوائد الخلفية الحاملة للعين (٤) حافة البرنس (٥) القدم (٦) الفتحة التنفسية (٧) الفتحة الشرجية (٨) الفتحة التناسلية

(شكل ٥٢ — بلح البحر مدفونا فى الصخر بحالته الطبيعية)

هذا ماأردته من كتاب «علم الحيوان» فى هذا المقام ، وبهذا تم الكلام على أقسام الحيوانات الثمانية الوحيدة الخلية والعديدة الخلية ، والحمد لله رب العالمين :

بهجة الحكمة فى هذه المناظر الحيوانية وعجائبها وبدائعها

أنا يالله وجميع المغرمين بعجائبك وقراء هذا التفسير المطلعين على أكثره من أهل الفطنة موقنون إيقانا مبنيا على المباحث العقلية ، والمشاهدات الحسية ، والنظريات الحكمية ، إنك رحيم رحمة لاحد لها، بحيث أصبحت رحمة الأمهات والآباء بالنسبة لها قليلة الجدوى ، وبهذا فهمنا قولك : «شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائما بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم» فأنت عززت فحكمت وأحكمت التدبير وأولو العلم هم الذين يشهدون بالحق ، والجهال مؤمنون لاغير ، وفهمنا أيضا معنى قولك فى القرآن : «وهو أرحم الراحمين» فكل منا عنده رحمة ولكنها رحمة جزئية ، فأما رحمتك التى شهدناها فإنها لاحد لها ، ومن آيات ذلك إحكامك الصنع فى أجسامنا ، ودقة صنع أعيننا ، وتلك الطبقات العجيبة المنظمة ، وكيف وضعت بهيئة بها تقبل ضوء الشمس ، وهذا الضوء يوصل الصور المرئية ، وهذه الصور تدخل فى تلك الطبقات وتخترق العدسة وتمر فى الشبكية وراءها ، ثم تصل إلى أعصاب الإحساس البصرى وتتجه إلى القوة الباصرة فى الدماغ وهناك يكون الإحساس ، وما هذه إلا وسائط ، وقد فعلت أمثال ذلك فى إحساسنا بالأصوات وفهم الكلمات والجمل ، وأبدعت وصورت وأحكمت ، وأودعت فى آذاننا قطعات تتلوها قطع تتحرك حركات تنتقل من واحدة إلى الأخرى ، وهكذا من العجائب التى لو كانت ممثلة لنا دائما لاستغرقت قوانا وعقولنا الأوقات فى الإعجاب ثم الحب والهيام والغرام بصانعها الحكيم.

ومن أنعم النظر فى عجائب الأشجار والأزهار والأوراق والجذور وبدائع الحيوان يدهش من تلك الثروة الحكمية ، وأن نظرة واحدة لورقة واحدة (كما تقدم فى سورة يس عند آية : سبحان الذى خلق الأزواج كلها الخ) بل لخلية واحدة من خلايا الورقة المرسومة هناك يدهش كل الدهش ويعجب كيف خلقت الشمس وبيننا وبينهما نحو ٣٥٠ سنة بسير القطار و ١٢ سنة بجرى قلة المدفع و ٨ دقائق و ١٨ ثانية بسير النور ، خلقت هذه الشمس فى ذلك البعد العظيم عنا ، ولو أنها قربت منا لأحرقتنا فلم نعش ، فهذه الشمس ترسل

نورا لأعيننا به نرى الطرق ونقرأ الكتب ، وهذا النور نفسه يدخل فى الخلية من الورقة المحتوية على آلاف من الخلايا بل عشرات آلاف الآلاف فى بعض الورق ، وهذه الخلية ذات حيطان شفافة مسقوفة بسقف من مواد شفافة موضوعة وضع اللبنات فى أبنيتنا لينة بجانب أخرى ، فهى إذن مقفلة ، وهذا الإقفال لا يمنع دخول نور الشمس ، فماذا يفعل ذلك النور ، يا ترى يقابل السائل الذي فى وسط تلك الحجرة ، فيجد فيه مادة خضراء ، وهو (كلوروفل) فباجتماع هذا الضوء المسافر من أقطار شاسعة مع هذه المادة الخضراء تجتذب الورقة (المادة الكربونية) من الهواء .

الله أكبر : إذن هذه الخلية أشبه بالرئة للحيوان والكربون أشبه بالأكسوجين للحيوان والأكسوجين الذي يخرج من الورقة قائم مقام المادة الكربونية التى يخرجها الإنسان والحيوان .

هاهنا هاهنا وصلنا إلى المقصود وهو أن خلية واحدة من خلايا الورقة اتحدت مع الشمس المرسلة ضوءها لحياة الشجرة ، ولا ريب أن هذه الرئة واحدة من آلاف آلاف آلاف آلاف آلاف الخلايا فى الشجرة ، والشجرة واحدة من آلاف آلاف النبات والشجر فى الأرض ، وكل هذه صنعت لأجل حياتنا نحن ، فهاهنا رحمة لا حد لها وحكمة وإتقان لا نهاية لهما ، والرحيم الحكيم محبوب على مقدار رحمته وحكمته ، ولعمرى ليس يحب الله أحد من الناس حبا حقيقيا إلا من درسوا أمثال ما نكتبه الآن ، فالرحمة والحكمة لا حد لهما ، وإذا نظرنا نظرا أرقى وقلنا إن نفس هذه المادة وأوراقها وأشجارها وحيوانها كلها ليست موجودة بالفعل وما هى هذه إلا حركات انقلبت ضوءا ، وهذا الضوء كهربائى متحرك سالبه حول موجبه آلاف آلاف فى الثانية الواحدة : وباختلاف الحركات والأحوال اختلفت المظاهر كما هو رأى علماء عصرنا الحاضر .

أقول : إذا نظرنا هذه النظرة أدركنا معنى : «الله نور السموات والأرض» وأدركنا «والله خلقكم وما تعملون» وأنه هو المتجلى فى كل عمل دق أوجل «ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهودا إذ تفيضون فيه وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا فى كتاب مبين» .

فلما سمع صاحبى ذلك . قال : هذا المقال جميل ، ولكنه ليس أمرا جديدا فى هذا التفسير ، فهو كله على هذا النمط ، ولكن هذا الأسلوب شيق يهيج القلوب ويحركها إلى المعالى ، وعندى سؤال : وهو أنك فى هذا المقال أبنت الرحمة العامة ، وحل هذا الموضوع يناسب ذكر الصور المتقدمة ، أنت ابتدأت الكلام بذكر ما شاهدته من الرجل الذى يرعى المعز ، وأنك استنتجت من منظر المعز وألوانها أمرين : الأمر الأول علم الأخلاق ، الأمر الثانى علم السياسة ، وأن انكشاف عضو التناسل فى أنثى المعز جاء لحكمة ، وهي أن الحيوان عنده غريزة تحفظه من التمادى فى شهوة الوقاع ، وأن الإنسان حر يتصرف كما يشاء ، فهو أبدا يعوزه المذكرات العقلية والدينية ومزعجات الأيام والليالى حتى يرجع من تلقاء نفسه بتلك المذكرات فيعرج بهذه القوة التى اكتسبها من المران على حفظ شهوته إلى الحكمة والعلم اللذين خلق فى الأرض لهما ، ويظهر من كلامك أن أهل الأرض جميعا لا فائدة تامة لهم إلا لطائفة خاصة وهم الحكماء ، وبقية الناس همج الهمج ، فإن هؤلاء الذين ظنوا الشهوات من المطعم والمشرب ، أو غلبة الأعداء هى المقصودة من الحياة جاهلون أغبياء إلا من تاب وعرف وقرأ الحكمة .

فهذا هو الذى ذكرته أنت فى مقدمة هذا المقال ، ورسمت بعده صور الحيوانات ، وأبنت الحيوانات ذوات الخلية الواحدة الأربعة وهى : (الأميبه) و (هدبيه) و (سوطيه) و (جرثوميه) ثم الحيوانات ذوات الخلايا التى لا فقرات لها مثل : (الاسفنجية) و (الأخطبوطية) و (النجمية) إلى آخر الأقسام الثمانية المتقدمة

فهذا هو الذى ذكرته أولا ، فهل الكلام على رحمة الله بعدها مناسب لها كل المناسبة ؟ هذا ما أريد سؤالك عنه ؟ فقلت حياك الله . إن الرحمة التى ذكرتها بعد انتهاء هذه الصور الحيوانية إنما نقلتها على سبيل التمثيل للرحمة بمثال سهل مقبول ، ورحمة الله تعالى لنا بتلك الحيوانات رحمة شريفة عالية ، إن الرحمة على قسمين : رحمة الأم ، ورحمة الأب ، أما رحمة الأم فانها يقل فيها التفطن والتفكر والتأديب ، أما رحمة الأب فهى الكاملة ، لأن الأب واسع النظر حكيم يريد للولد مستقبله ، أما الأم فهى تريد الأحوال الجزئية والمنافع السطحية .

فهذا المثل الذى ضربته هنا بخلية الورقة جاء فى الرحمة المشبهة رحمة الأم ، فأما هذه الحيوانات وما فيها من الأعضاء والمنافع فانها كرحمة الأب التى تشتمل على التأديب والزجر كما تشتمل على تغذية البدن بأنواع الغذاء . قال : فبين لى هذا المقام على شريطة أن تكون الأمثلة من نفس تلك الحيوانات المصورة فيما تقدم .

فقلت : اللهم إننا خلقنا فى هذه الأرض فرأينا أسلوبا واحدا متبعا فى حياتنا ، فكما أن الشهوات للغذاء وللتناسل حفظها بالغرائز فى الحيوان وهذبها فى الإنسان (الذى أعطى الحرية فى التصرف) بالمنذرات والعبر والعلوم والمعارف ، وجعلت عقولنا هى المسيطرات على قوانا المخلوقة فينا . وغرائز الحيوان لاحاجة معها إلى عقل كبير ، ثم إننا نظرنا حولنا ياربنا فرأينا أغذية نتعاطاها وفيها الضار والنافع ، فقامت عقولنا بما تعرفه من التجارب والعلم ، فاختارت منها ماينفعنا ونبذت مايضرنا ، وهكذا رأينا ماء ينزل من السماء ويسيح على الأرض ، فألهمت عقولنا أن تحفر لها الأنهار وتقيم له السدود لتحفظه فيسقى زرعنا كما أقامت هذه العقول موانع وحواجز حجزت شهواتنا عن التوغل والإسراف لحفظ حياتنا .

ثم إن هذه العقول أنفسها بها نظمنا دولنا ، فنحن فى هـذا كله أرقى من الحيوان ، لأن الحيوان نظم دوله بغرائزه ، أما نحن فقد أحكمنا عقولنا فتصرفت فى شهواتنا بخلاف التيس مع العنزات فى المشاهدة التى ذكرتها سابقا ، فالمانع له غريزته ، وتصرفت أيضاً فى نظام طعامنا وشرابنا ، وسقى زرعنا ، وإقامة دولنا ، والغريزة عندنا لاحكم لها هنا وإنما الحكم لعقولنا ، وبهذه العقول قويت إرادتنا ، وعملنا باختيارنا لابغرائزنا .

أما الحيوان فهو مسوق لاسائق ، ومقود لاقائد ، فإذا رأينا حيوان الملاريا يدخل الكرات الدموية الحمراء ويهلك مافيها ويميتها ، وبهذا العمل ترتفع درجة الحرارة فى فترات منتظمات كل يومين أوثلاثة على حسب نوع الملاريا ؛ ثم تستمر هذه النوبات بضع أسابيع حتى يضعف المصاب بها (وهذا الحيوان دقيق الجسم جدا من الحيوانات الجرثومية ذوات الخلية الواحـدة وهو يتكاثر ، ثم يساعده فى الانتقال إلى جسم إنسان آخر ليجعل له مستعمرة هناك حشرات الناموس المعروفة تمتصه الإناث منها وتذهب به إلى إنسان آخر فتمتص دمه وتبق بجسمه ذلك الحيوان الفتاك فيتكاثر فيه) .

أقول : إذا رأينا حيوان الملاريا هكذا فلم يخرج ذلك عن إعطائنا الحرية والعلم وعن أنه مهماز يسوقنا إلى العمل ، ولولا ذلك لكان الكسل ولكان الموت .

الله أكبر : أى فارقة بين شهواتنا التى أطلقت لنا الحرية فيها (بخلاف الحيوان ذى الغريزة) وبين خلق هـذه الحيوانات لنا ؛ الحيوانات هى المساعدات لنا ، كما أن الشهوات لولاها لم نعش ، فالمخلوقات الخارجية مساعدات لنا ، والقوى الباطنية فينا كشهوة الغذاء والوقاع لاحياة لنا بدونها ولا بقاء ، وقد أطلقت لنا الحرية فى شهواتنا وبالمحافظة عليها يتم لنا نظام الحياة ، وبعدم المحافظة عليها والاسراف يكون شقاء الحياة فالنتيجة من ذلك تدريبنا على حكم أنفسنا وأن نتولى نحن بأنفسنا العمل لها بخلاف الحيوان ، فهل نحن إذا رأينا (حمى الملاريا) تقتل آلافا منا (كما أن حشرة النحل ودودة الحرير وأنواع الجاموس والبقر والخيل جالبات الخير والسعادة لنا) قد خرجنا عن المثال السابق . كلا . فلوأننا أعطينا العسل والحرير والصوف واللحم

والليبن

واللبن من الحيوان ثم لم يصاحب هذه النعم ضدها لكنا أغنياء كسالى ، بل كنا حيوانات أقل من الانسان لأننا قلنا في مثال العنزات إن الفارق بيننا وبين الحيوان المحافظة بأنفسنا على قوانا وعلى نعمنا حتى نستأهل للارتقاء إلى عالم فوق هذا ، إذن الله عز وجل يكلمنا دائماً ليلا ونهارا بكلام بلا حرف ولاصوت ، يقول : ياعبادى اعقلوا عنى هذه قواكم فيها الخير وفيها الشر فاحترسوا ، وهذا الماء ، وهذا الهواء ، وهذا الحيوان فيها كلها الخير والشر فاحترسوا ، وعملى هـذا يعلم أشبه لكم بعمل الأب لابنه منكم « ولله المثل الأعلى » فهو يأخذه فى دكانه ، أوفى حقله ، أو فى محل تجارته ، ويترك له الحرية حتى يخطئ ويصلح خطأه بعقله وبنفسه ، ولكنه عادة فى بعض بلاد الشرق لايعلم ابنته هذا التعليم ، لأنها فى نظره غير أهل لتلك النعمة ، نعمة الرجال الذين يفكرون بأنفسهم لأنهم خلقوا للاستقلال ، ولو أنى لم أخلق من الحيوان إلا ما تقتعكم ، ولم أخلق لكم أنواع الملاريا التى تتربى فى دمائكم ، ويحملها الناموس من واحـد إلى آخر منكم لكنتم فى مرتبة صغيرة حيوانية جاهلة .

بهذا تفهمون أيها الناس قولى : « فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه فيقول ربى أكرمن ، وأما إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول ربى أهانن ، كلا بل لاتكرمون اليتيم ولا تحاضون على طعام المسكين » .

أيها الناس : إن المدار على عملكم أنتم لاعلى العطايا والمواهب وحدها ، وأعظم عطائى ونعمى علمكم وعملكم ، لهذا خلقتم فى الدنيا ، وعلمكم وعملكم لايتمان إلا بالمتضادين ، ولذلك قلت : « ومن كل شىء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون ، ففروا إلى الله » فها أنا ذا هنا خلقت لكم الضار والنافع فى قواكم الشهوية والغضبية ، فالاعتدال نافع ، والإسراف ضار ، وخلقت الضار والنافع فى الهواء ، وفى الماء ، وفى الحيوان ، وتركت لكم الحرية فلتختاروا ماتشاءون لأنكم إلى راجعون ، وهل يرجع إلى ويكون عندى فى مقعد صدق وأنا الملك المقتدر أحد إلا إذا تخلق بالصفات الشريفة من العلم والعمل ، وكل من ازداد علما وأحسن عملا فى صناعة أو أى عمل كان قريبا منى بقدر منفعته للناس وإتقانه لصناعته .

ياعبادى : هاهوذا عملى معكم ، خلقت فيكم حيوان الملاريا ، وماهو إلا كلمات يعقلها الموقنون ، وهذا القول مجسم بخلاف أقوالكم فهى أصوات والأصوات يفهمها العلماء والجهلاء ، والكلام المجسم لايعقله إلا الحكماء ، فهؤلاء الذين أفهمهم أنا كلماتى المجسمة فيفهمونها ويعلمونها للناس فى مشارق الأرض ومغاربها ، وهؤلاء الحكماء هم الذين يقولون لكم عنى ويبلغونكم أنى أنزلت هذه الحيوانات الخلوية الدقيقة ، وخلقت دودة (البلهارسيا) وقلت لها : أيتها الدودة عيشى فى أكباد بنى آدم ، وكلى واشربى من دمائهم ، واحدثى ضعفا فيهم ، ثم انزلى إلى المجارى البولية فيكون النزيف الدموى ، أو انزلى فى المستقيم ، واحدثى نزيفا دمويا فى البراز ، فيكون هناك صعوبة وآلام فى أثناء قضاء الحاجة ، فإذا نزل بيضك بهذه الصفة ووقع فى نهر فإنى أجعله يفقس هناك وتخرج الذرية على مثالك فألهمها أن تعمد إلى القواقع التى خلقتها هناك فتدخل فيها بعد أن تثقبها وتعيش فيها ، ثم تخرج الذرية فتعوم فى الماء ٤٨ ساعة ، فإن لم تجد إنسانا تعيش فى جسمه ماتت ، فإن رأته فهنالك تكون سعادة ذريتك فتثقب جلده وتتجه إلى كبده كما اتجهت إلى كبد القوقعة أولا ، ودخولها جسم الانسان إما بالاستحمام أو الشرب أو الاغتسال بالماء الملوث بها ، ذلك هو عمل دودة البلهارسيا ، ومثلها الدودة الشريطية التى تعيش فى بعض الحيوان ، وتصيب من لم يطبخه طبخا جيدا إن لم يكشف عليه كشفا صحيا الطبيب العام فى البلاد ، وهكذا دودة الانكلستوما وبقية الحشرات السابقات كالقمل والعقارب وما أشبهها ، فكل هذه أيها الناس كلماتى المجسمة أنزلتها عليكم وقلت لها : لاتدخرى وسعا فى إلحاق الأذى

والمكروه بالأمم فى الأرض وبالأفراد ، فإن أجمعوا أمرهم بينهم على قتالك وإزالتك من الأرض واتهموا بأنهم صاروا متضامنين جميعا فى الشرق والغرب فذلك هو الذى أريد سوقهم إليه بهذه الرزايا والنوائب بحيث تنتقل العدوى من بلد إلى بلد ، ولا فرق بين البلدان فى هذه الرزايا . فيا أيتها المخلوقات المؤذية لبنى آدم استمرى فى عملك ولا تفرق بين أهل الديانات والممالك ، وافتكى بهم فتكا ذريعا حتى يعلموا أنهم خلقوا أمة واحدة تتعاون ، وهناك تكونين قد أديت مهمتك الشريفة فى هذه الأرض .

هذا ما يقوله الحكماء لأهل الأرض فى هذا الزمان ليدلوهم على المحبة والمودة ، وتعميم السلام العام ، والحمد لله رب العالمين ، كتب ليلة السبت ١٨ يناير سنة ١٩٣٠ م قبيل الفجر .

زيادة إيضاح قوله تعالى: «ومن كل شىء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون»

كتب ليلة الثلاثاء قبيل الفجر يوم ٢١ يناير سنة ١٩٣٠ م

بعد أن كتبت ما تقدم ملخصا من ذلك الكتاب أخذت أطالع ما جاء فى أحوال الديدان الحلقية التى منها دودة الأرض التى تقدم رسمها ووصفها فى (سورة فصلت) وأنها تكون سببا فى خصب الأرض الخ ومنها العلق الطبى ، فماذا رأيت ؟ رأيت أن الأمم المستعمرة إذا منعت الناس عن العلم والحكمة ودراسة أمثال هذه العجائب فإنها بهذا تفوز وتملك البلاد ، ولماذا تملكها ؟ تملكها لأن الناس بلا علم بأمثال هذه العجائب يكونون أشبه بالبهائم فيسهل التسلط عليهم وإذلالهم وتسخيرهم كما تسخر الدواب .

ولما وصلت إلى هذا المقام . قال صاحبى بعد ما قرأ هذا : ها أنت ذا رجعت إلى الذم والتقريع فعلام هذا اللوم ؟ أعلى دودة فى الأرض منبوذة لا علاقة لها بالدنيا ولا بدين ، فهل يكون المسلمون وقد جهلوا هذا الدود قد استعدوا لإذلال الأمم لهم ، إن هذا منك مبالغة ، ثم لماذا أعدت القول فى هذه الدودة وحدها ، وهل الجهل بها وبأمثالها هو الذى مكن الإنجليز من بلادكم فيما مضى ؟ فقلت : اعلم ياصاح : أن الجاهل أعمى . والأعمى يستحق قائدا يقوده ، لقد كنت فى حقل وأمامى ساقية قد دار فيها ثور ، وكان على عينيه غطاء فانكشف الغطاء ، فوقف الثور ، فلما أن أعيد إليه الغطاء جرى كما كان ودارت الساقية ، وما أشبه الأمم الإسلامية وقد غطيت بصائرها عن نظر العجائب الكونية إلا بهذا الثور الذى كان أمامى لما غطيت عيناه ، وأنا لا أشبهها وقد أزيل هذا الغطاء عن بصائرها بالفهم والعلم إلا بنفس هذا الثور إذا أزيل عن عينيه الغطاء فوقف عن السير .

فقال صاحبى : هذا لم يزد عن أنه من ضرب الأمثال . فقلت : ياصاح إن للقول بقية ، لقد أدهشنى وصف دودة الأرض المتقدمة فى (سورة فصلت) بل أذهل عقلى أى إذهال من فرط التعجب وزاد يقينى بأن هذه الدنيا جنة خلقنا فيها وحجبنا عن بساتينها وحدائقها وأزهارها وأثمارها ، نحن معذبون فى الدنيا لشدة جهالتنا فإذا علمنا فنحن من المقربين ، دود منبوذ فى الأرض يكون سببا لإسعادنا وإمدادنا بالخبز والفاكهة والتين والرمان والحب والعصف والريحان ، دود منبوذ يكون سببا لتغذية العلماء والحكماء والأنبياء ، دود منبوذ يقوم بحرث الأرض وتسميدها والناس لا يعلمون ، دود منبوذ يفتت القطع الأرضية فيدخل الهواء فيها فيحسن الزرع فتكون سعادة الحياة ، ويخجلنى والله أن نعيش فى الأرض ونحن غافلون .

أما أنا فإنى أحمدك يارب على نعمة العلم ، وأنا أعلم أن من الناس من يقرءون ما ذكرته فيها ولا يعجبون وأكثر علماء النبات والحيوان يعرفون أضعاف ما فى هذا الكتاب وهم غافلون ، فهم يرون الجمال وكأنه لا جمال ، ويرون الحسن والاحسان وكأنه لا حسن ولا إحسان ، أكثرهم عمى وقد رأوا الغداة الحسان ، صم وقد سمعوا أجمل النغمات ، وليس هذا عجيبا فقد نرى الحسان ونسمع أبهج النغمات . وقد اعترانا

فى النفوس موانع وهموم ، فلا نهتز طربا ولا نهتاج شوقا وغراما ، هكذا أغلب نوع هذا الإنسان ، إننى لما قرأت ماستسمعه تذكرت أن هذه العوالم التى نعيش فيها إنما هى شموس فى مجرات والمجرات كثيرات ، ووراءها السدم ، ووراء السدم سدم وهكذا إلى مالا نهاية له كما هو مقرر فى علوم الفلك اليوم ، وهذا هو الذى غذى نفوسنا ، إن نفوسنا تود أن تزيد علما ، ولو كان للعلم نهاية لكان ذلك عذابا لنفوسنا إذن العلم غذاؤها فإن انتهى العلم نفد الغذاء .

قد كنا أيام الصبا وزمن المراهقة نحمل الشص (الصنارة) لنصطاد السمك ، ونبحث فى الطين لنستخرج دود الأرض (قد تقدم رسمه والكلام عليه فى سورة فصلت فراجعه هناك إن شئت) لنضعه فيها فيأكله السمك فيعلق بالشص فنصطاده فنأكله فهذه علومنا ونحن صغار بالنسبة لهذه الدودة ، والفلاحون وجميع المسلمين غالبا لايزيدون علما بهذا عن الأطفال .

أقول : فهل كان يدور بخلدى وأنا مراهق ، أو يدور بخلد أكثر عامة المسلمين وعلمائهم أن الفدان الواحد فيه ٥٣ ألف دودة ، وكل هؤلاء إنما هم حراثون يحرثون الأرض ويقدمون لها سمادا يغطى نصف سنتيمتر من سطح الأرض .

والحق أقول : إن الله لما خلق لنا الحيات والعقارب ، وأمثال هذا الدود جعلها فى المحسوسات أشبه بالحكايات الخيالية فى المسموعات ، نسمع حكايات (كليلة ودمنة) وماشاكلها من حكايات (ألف ليله وليله) فنظن أننا بها عالمون ، ومتى عقلنا وعلمنا أدركنا أنها أعظم قدرا مما كنا نظن ، الجهال والأطفال يسمعون حكاية الحمامة المطوقة ، وقد اجتمعت مع صواحبها فى ذلك الكتاب ، وقد أجمعن أمرهن وتخلصن من الشبكة بمساعدة حيوانات أخرى ، فيظنون أن هذه حقائق وأنهم بها عالمون ، ويقصونها على غيرهم وهم لايعقلون ، ولكن الحكماء والعلماء يستنتجون منها نتائج وهم يفكرون ، هكذا العقارب لايعرف منها الناس إلا أنها مؤذية ، وقد علمت فيما تقدم فى غير هذا المكان أنها آكلات لحشرات ضارات بأمتعتنا ، وهكذا الحيات لايعرف الناس إلا أنها سامات ، ولكنهم فى الوقت نفسه يرون رجلا وهو المشعوذ الذى يسمونه (الحاوى) تأبط منها كثيراً فلا تلدغه ، وهو قد حمل معه الحيات التى لاسم لها وهى تملأ الخافقين والناس لايعلمون ، وهكذا دودة الأرض التى كلامنا فيها يراها الناس مزدراة محقورة إذا هى عونهم وغوثهم وحارثهم ومسمد أرضهم .

ياسبحان الله وياسعداه ، يقول الله : « وجعلنا الليل لباسا ، وجعلنا النهار معاشا ، وبنينا فوقكم سبعا شدادا ، وجعلنا سراجا وهاجا » ، فهذا السراج الوهاج إذا أظهره لنا كان المعاش وإذا غيبه عنا كان اللباس ، ولكن هذه الدودة التى نحن بصددها ، ومثلها النمور والأسود والفهود وجميع السباع كالذئاب قد عكس الأمر عليها ، فالليل معاشها والنهار لباسها ، فالسبع الشداد ياربنا جعلت فيها سراجك الوهاج فأقمت به طائفة وأعمت أخرى إذا أضاء ، وإذا أظلم ، فإذا أضاء أمرت أنواع العصافير مثل أبى ذيل أبيض وأبى ذيل أحمر وأبى رقبة بيضاء ، ومثل المغنى فى الصفصاف ، ومثل المغنى الأصفر والمغنى الأحمر ، وأبى ذيل طويل وأبى قصادة وأبى ذور أحمر وآكل الذباب والقنبرة الأفرنجية والوروار بأنواعه والهدهد والعنز وأبى قردان والكروان والزقزاق المطوق والزقزاق الشامى ، والزقزاق البلدى مما شرحته هناك فى أول سورة يوسف ، فهؤلاء أنت يا الله تأمرهم إذا أطلعت شمسك أن يأكلن الحشرات الآكلات لزرعنا ، ويحفظن بلادنا ، ويكن عونا على حياتنا وحيواننا كما أن الليل إذا جن تبعث دود الأرض فيطوف حقولنا ويلتقط الورق منها ويعيش فى هناء وسعادة ، ويغيب فى جوفها إذا طلع النهار ، فالليل والنهار آيتان مدهشتان فلاندرى أيهما نفضل وقد عرفنا

بهذا العلم أن المانوية كاذبون إذ يقولون بإلهين : إله الخير ، وإله الشر ، وأن إله الشر هو الذى خلق الليل فها هو ذا الليل فيه يتمتع الدود النافع لمزارعنا المنمى لحاصلاتنا .

تباركت يا الله وتعاليت ، وأريتنا رحمتك الواسعة ، وعرفتنا أننا غافلون جاهلون ، ندرس القليل ، ونجهل الكثير ، وأصبحت اليوم أقول : لو أنى درست بعد موتى جميع المجرات وجميع السدم التى كشفت حديثا واطلعت على جميع سكانها ، وخبرت بواطن أحوالهم ، وأسرار حياتهم لقلت إنى لا أزال كما أنا الآن أيضا أجهل الكثير كما جهل اليوم عموم المسلمين إلا النادر منهم عجائب دودة الأرض التى ذكرناها ، ومنافع الطيور التى بيناها ، وإحساسنا بالجهل يحسنا على العلم ، والعلم غذاء أرواحنا ، فلنكن باحثين فى الدنيا لنرقى الأمم وذلك يجعلنا من المجدين فى العلم بعد الموت لتتغذى به أرواحنا ، وكلما ازددنا علما قربنا من ربنا ، وربنا هو الجميل الحكيم الذى منه ينزل كل جمال وكل حكمة .

ألا فليسمع المسلمون أنى أكتب هذا وأنا أحس بسعادة تفوق كل سعادة أرضية ، ولقد جربت كما جربت جميع الحيوانات والناس أنواع السعادات واللذات فوجدت اللذة العلمية طورا لا صلة بينه وبين تلك الأطوار ، إن ارتباط الشمس وضوئها ، ودود الأرض وحشراتها ، ومزارعها وطيورها ، وآكلها ومأكولها أشبه برواية تفوق كل الروايات . إن الناس فى أحوالهم العادية يذهبون إلى محال الصور المتحركة ودور التمثيل التى تمثل فيها الروايات الغرامية ويفرحون بذلك العلم ويقرءون الروايات فى (ألف ليلة وليلة) وهم فرحون بتلك الصور الخالية ، إن سعادة الناس بالعلم تابعة لمقداره ، فهى فى الخياليات خيالية ، وفى الحقائق حقيقية وهل يستوى الرجلان : رجل عرف هذه الحقائق فرأى تمثيلا حقيقيا ، وامتزجت فى نفسه مشرقات الكواكب ومنيرات الشموس مع الطيور والعلق والدود ، وانكشف لنفسه بدائع المناظر العجيبة ، يرى ستارا ينزل فيكون الظلام ، فهناك تمثل الروايات الليلية التى أسلفناها ، فإذا أشرقت الغزالة أسدلت الستار على مناظر الليل فغابت تلك المناظر الكوكبية فى دياجى الظلمات ، وهجعت الطيور الليلية والبوم فى أعشاشها ، والأسود فى آجامها ، ودود الأرض فى باطنها ، وأخذت الشمس تظهر الألوان ، والبحار والأشجار ، والمسالك والممالك .

وسيكون من قراء هذا التفسير من تكون الأرض لهم جنات ونعيم وإن شاركوا الناس فى أتراحهم وأفراحهم ، ولكنهم يرون فى نفوسهم مالا يراه الأكثرون ، وهؤلاء إذا أخذوا يصلون وهم يسلمون على أنفسهم فى التشهد ، وعلى عباد الله الصالحين وعلى الأنبياء والمرسلين ، إذ يقولون : السلام عليك أيها النبى الخ يفهمون معانى تشبه ما ذكرناه الآن ، إذ هم بعد أن درسوا الوجود على هذه الشريطة وأدركوا أنه عالم جميل وبديع ومتسق ، وبين أعلاه وأدناه نسب بديعة بحيث يرون الرباط محكما بين دودة الأرض وعلقها ، وبين الطيور والنبات والإنسان والشمس ، هكذا هنا يرون المناسبة والرباط بين المصلى وبين عباد الله الصالحين والأنبياء والمرسلين ، وأن هذا الوجود مبنى على هذا ، فالصلاة نوع من العلم والتذكرة ، فالمسلم يذكر نبيه صلى الله عليه وسلم وجميع الصالحين من الأمم القديمة والحديثة والآتية بعدنا ليعلم من الآن أن ربنا سيجمع جميع الصالحين على مقتضى درجاتهم بعد مفارقة الأجسام أولا وبعد الحشر ، فهو من الآن يتعرف بهم ، ومنهم الملائكة الذين يذكرون فى جميع الديانات ، فالصلاة تذكرة حتى إذا فارقنا أجسامنا وقابلنا الأرواح من جميع الأمم ومن الملائكة لم نكن فى حال شديدة الغرابة علينا ، والعلم الآن يساعدنا على الرقى هناك ، لأن عالمنا الحسى قد ضرب مثلا للعالم الروحى ، فهنا رباط وثيق عجيب بين أخس الأشياء وأرفعها ، وهناك نفس هذا الرباط بين الأخس والأرفع ، وترى أضعف المؤمنين يقول : «السلام عليك أيها النبى»

كما ترى دود الأرض بين ظهرانينا ذا علاقة بالشمس إذ يطلع ليلا فيأكل الورق ، والورق ماتما إلا بسبب ضوء الشمس الذى أشرق عليه فامتص الكربون من الهواء ، ولولا ذلك الضوء مع (الكلوروفل) ملون الورق لم يكن ذلك الامتصاص فلم يكن نبات ، ولم تكن دودة تمثل فى دياجى الظلمات فى مسرح الوجود هذه الفصول التى شرحناها . فأعلى الأرواح له صلات بأدناها كما أن للشمس صلة بأدنى الحيوان وهو دود الأرض ، وهذا كله ظاهر فى التشهد فى صلاتنا الإسلامية .

ولا جرم أن هذه المعارف التى شرحت فى هذا المقام تجعل نفوسنا مشوقة إلى إسعاد جميع الناس ، لأننا إذا عرفنا أن للشمس صلة بالدودة أفلا يكون لنا صلة بنوع الإنسان ، فياحسرة على الأمم الإسلامية الحالية ، اللهم إنك أنت تعلم أن الجهل فرقهم ، والبدع طمست على بصائر الكثيرين منهم ، ولكن آن أوان ارتقائهم وإسعاد أممهم ، والله هو الولى الحميد ، والحمد لله رب العالمين . كتب فى ضحى يوم الثلاثاء ٢١ يناير سنة ١٩٣٠ .

مسامرة بينى وبين أحد العلماء الفضلاء

فى آيات : وفى السماء رزقكم وما توعدون ، فورب السماء والأرض إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون» مع آية : «ومن كل شىء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون . ففروا إلى الله إنى لكم منه نذير مبين »

حضر صاحبى العالم الذى اعتاد الحديث معى فى هذا التفسير يوم الاثنين صباحا ١٤ من شهر المحرم الحرام سنة ١٣٥١ هـ — ٣٠ مايو سنة ١٩٣٢ م فأخذ يجاذبنى أطراف الحديث فى هذه الآيات ، ومما قاله لى .

لقد رأيتك فى آيات القرآن المتشابهة المعانى بحسب ظواهرها تذكر فى كل منها من المعانى ماليس فى غيرها فيكون ذلك مسرة وتذكرة للناس ، وعبرة للمعتبرين ، ونشاطا للقارئين ، فماذا تقول فى قوله تعالى هنا : «ومن كل شىء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون» وماهذا الفرار إلى الله الذى ذكر عقبها ، وما هذا الإنذار؟ فقلت : لقد تقدم الكلام على الذكور والإناث من أنواع النبات فى سورة الأنعام ، وفى سورة طه ، وفى سورة (الشعراء) وغيرها . فقال : ولكنى فى سؤالى لك قد صرحت بأنك دائما تنوع الكلام فى الآيات المتشابهات ، نعم قد تقدم فى (سورة الأنعام) أن علماء النبات لم يجدوا طريقا لتقسيمه إلا بتشريح الزهر ، وتبيان ذكرانه من أناثه ، ولكن المقام يعوزه إيضاح أتم . فقلت : لقد اطلعت على ماذكره (بول بيرت) العالم الطبيعى الفرنسى ، وهو أستاذ فى (السربون) ووزير المعارف العمومية فى كتابه المترجم إلى اللغة الانجليزية . قال فى صفحة ٩٨ ماترجمته :

«سأشرع فى الكلام الآن على تقسيم النبات إلى فصائله ، ولكن هذا ربما كان أشد تعقيدا وأكثر صعوبة من تقسيم الحيوان ، ألا ترى رعاك الله أن فصائل الحيوان وأنواعه يمتاز بعضها عن بعض بسهولة ، ولا كذلك النبات ، فإن أنواعه وفصائله متشابهة ، إن الناس يعرفون بكل سهولة الفرق بين الحشرات والطيور ، بل يعرفون أيضا الفرق بين الذباب وحشرة أبى دقيق اللذين هما من نوع الحشرات ، ولكنهم لايتسنى لهم بسهولة أن يرسموا خطوطا فاصلة مابين فصائل المملكة النباتية وأنواعها ، إن ذلك على الناس عسير» .

ثم نادى أحد التلاميذ قائلا : (يابول) لو أنى كلفتك بأن تقسم النبات إلى فصائل فماذا أنت صانع ؟

(ج) كيف يصعب ياسيدى هذا ؟ إنه لأمر سهل ، أنا أقسمه إلى ثلاثة أنواع : شجرات ، وشجيرات وأنجم : أى وهو مالا ساق له ، كالقمح ، والذرة ، والشعير .

(س) حسن ، إن هذا الرأى يغلب على كثير من المفكرين ، ولكن انظر هل تعرف كم من العقبات فى طريق تقسيمك هذا ، وكم من المتشابهات فيه التى تورث العقول حيرة وارتباكا ، وتضيع الزمن على المفكرين ، فأرجو أن تبين لى الحدود الفاصلة بين هذه الأنواع الثلاثة؛ خبرنى إلى أى مدى تنتهى أصناف الشجيرات ؟ ومن أين تبتدئ الأشجار ؟ ومتى نطلق على النبات أنه شجيرة بدل أن نطلق عليه أنه نجم ، خبرنى يابنى : أنبات البندق من الشجرات أم من الشجيرات ؟ وهل مايقال له (دفرز) باللغة الانجليزية (وهو نبات شوكى دائما أخضر وله زهر أصفر) أمن الشجيرات هو أم من الأنجم ؟ اللهم إن الفاصل بين هذه الأنواع والفصائل عسير غير يسير . ثم أشار إلى تلميذ آخر فقال :

(س) ماالذى تقوله ياجورج ؟

(ج) ياسيدى أنا أقسم النبات إلى نبات سنوى ، وإلى نبات ذى سنتين ، وإلى نبات ذى سنين كثيرة بسبب جذوره فقط ، وإلى نبات ذى سنين كثيرة حقيقية .

(س) هذه فكرة أجمل وأتم ، ولكن يرد عليها اعتراض، فانظروا : أليست مظاهر المراعى تشابه مظاهر مزارع الحبوب، ولكن الحب سنوى أما الحشائش فإنها تعيش سنين فى الأرض. إن الحشائش والحب إذن يدخلان تحت نوعين مختلفين من أنواع النبات ، فهما من جهة ذوات حب ، ومن جهة أخرى هذا سنوى وهذا ذو سنين كثيرة ، بل هناك ماهو فوق ذلك ، فهذا نبات (الشوفان) وقد تقدم الكلام عليه فى هذا التفسير ، فهذا إذا زرعناه صار سنويا ، ولكنه إذا نبت بنفسه بدون زرع كالذى ينبت فى جوانب الطرق فإنه يعيش سنين كثيرة . وأيضا هاهنا نوعان من نبات ترجمته بالانجليزية (كأس الزبدة) .

هاأنا ذا وضعت مااختلف منه بعضه بجانب بعض ؛ فها هو ذا بعضه سنوى والآخر ذو سنين كثيرة ويعسر إزالته من الأرض وإهلاكه ، إذن هذا غير موفى التقسيم حقه ، ولا قائم بما توخيناه .

أهمية الزهر فى تحقيق تقسيم النبات

هاهنا أخذ المؤلف يشرح هذا التقسيم النباتى بواسطة درس الزهرة النباتية . جل الله . جل الله . ياعجبا ياربنا ! يعيش الناس فى الدنيا ويموتون وينظرون ياربنا جمال زهرك ، ويشمون روائحه ، ويتهادونه ويفرحون ويمرحون ، وهم ساهون لاهون .

ياسبحان الله : فى الأرض أزهار ، وفى السماء شموس وأقمار ونجوم وسدم ومجرات ، هناك المجموعة الشمسية ، فالشمس تحيط بها السيارات ، ولها أبعاد خاصة لولاها لاختل النظام وتقدم موضحا فى هذا التفسير .

الله أكبر : منه الجمال وهو مفيضه على الأرض وعلى الناس ، العوالم التى نعيش فيها كتاب مفتوح لايقفل ، صفحة منه تظهر لنا نهارا ، وأخرى تظهر ليلا ، فصفحة النهار تظهر بواسطة ضوء الشمس ، وصفحة الليل تظهر بواسطة النجوم ، فهذه النجوم بينها وبين زهر النبات مناسبة ، وأى مناسبة هذه ؟ إنها لمشابهة قوية ، ألم تر أن الزهرة الواحدة فيها أوراق خضر يسمونها الكأس ، وفى داخلها أوراق ملونة يسمونها (تويج) وفى داخل هذه أعضاء الذكور التى فيها اللقح ، ووراء هذه أعضاء الإناث التى تتلقى هذا الطلع ، وينزل فيها إلى محل النمو مايشبه الجنين فى الحيوان فيكون الحب أو الثمر ، وفى داخل الثمر يكون النوى ، فهاهنا مملكة ، ولكن الإحكام والإبداع فيها يدهش العقول العظيمة كما يدهشها نظام المجرات ونظام

المجموعة الشمسية ، إذ يرى الإنسان السيارات جاريات بنظام حول الشمس ، وهن يرسلن الأشعة لمنفعة أهل الأرض هكذا هذه الزهرة الصغيرة منظمة محكمة مبدعة ، وهذا الإبداع كله لأجل حصول الثمرات النافعات للانسان والحيوان ، وأعظم مساعد على تغذية النبات ضوء الشمس الآتى إلينا من بعد شاسع جدا يبلغ بسير قلة المدفع ١٢ سنة ، وبسير القطار السريع نحو ٣٥٠ سنة ، فضوء الشمس يهجم على الورقات من منافذها فيساعد على التغذية فيكون النمو فالثمرات والحبوب ، وينتج من الزهرات وثمراتها منافع تناسبها كما ينتج من الشموس والكواكب منافع تناسبها ، وهناك ضوء وجمال ، وهنا بهجة وجمال ، فصحيفة الليل بهجة جميلة ، وصحيفة النهار بديعة بهية .

رباه : هذا كتابك الذى صنعته أنت ، وأريته لنا ، وقلت أنظروا فنظرنا فأدهشنا صنعك . تقول لنا «ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون» تذكرنا فوجدنا أن علماء النبات حاروا فى تقسيم النبات أيقسم بأنه شجر وشجيرات وأنجم . وسترى صور هذه الثلاث فى سورة النبأ إن شاء الله

ولكن هذا التقسيم غير مجد ولا نافع ولا محدد ، أم يقسمونه باعتبار أنه سنوى ، أو ذو سنتين ، أوذو سنين كثيرة ، ولكن هذا التقسيم أيضا غير مجد ، لأننا نرى البرسيم فى بلادنا المصرية منه ماهو سنوى وهو البرسيم المعتاد ، ومنه مايبقى سنين كثيرة وهو البرسيم الحجازى ، وهو الآن مزروع فى حقلنا جهة (المرج) فهذا أمثل به ليتضح لأهل الشرق الأدنى فوق أمثلة المؤلف؛ فماذا يصنعون إذن ؟ رجعوا إلى الزهرة والثمرة والحبة ، فدراسة هذه هي التى بها قسم النبات إلى فصائل بحيث تجتمع كل طائفة منه تحت شكل من أشكال الزهرة ، ولا تختلف فيه إلا قليلا ، وبهذا انحل الاشكال عند أهل الأرض ، انحل الإشكال بفعل الله عز وجل فى نظام الزهرة وهو نظام ثابت جميل .

ثبت نظام الكواكب والمجموعة الشمسية وبثباتها انحل إشكال ماعلى الأرض من سير السفن فى البحار لأنها لاتعتمد إلا على النجوم الثوابت والسيارات ، فثباتها فى السماء وحسن نظامها ، واتساقها فى مسيرها هو الذى على مقتضاه سارت السفن ، السفن فى بحر الظلمات ، وفى بحر الهند وجميع الاقيانوسات إن لم تهدها النجوم ويلاحظها الربان ضلت سواء السبيل وهلكت ، لولا ثبات النجوم فى السماء لضاعت معالم فن المساحة فى الأرض ، فمساحة الأرض الواسعة ووضع حدودها يقتضى ملاحظة الكواكب ، وهذا لايعرفه إلا أكابر علماء المساحة .

لولا ثبات النظام السماوى ونجومه لم يثبت المكيال المصرى مثلا ولا الميزان ولا المقياس ، ألم تر إلى ماتقدم فى سورة يونس وأن العلم أثبت أن هناك ارتباطا بين مساحات الهرم بالجيزة وبين بعد الشمس ومدار سيرها وأن أبعاد الهرم أساس للأردب والكيلة الخ والفدان والقيراط الخ والذراع المعمارى والبلدى الخ والقنطار والرطل والأوقية الخ . كل هذا موضح فى (سورة يونس) فارجع إليه أيها الذكى إن شئت . هذا فعل الله عز وجل بالكواكب فى أرضنا «فتبارك الله أحسن الخالقين» .

الزهرات تنوب عن النجوم فى بعض آثارها

انظر إلى الزهرات فى النباتات ، إن كل زهرة أشبه بمجموعة شمسية ، لأن نظامها متزن كما تقدم قريبا . الله أكبر : كأس وتويج وأعضاء ذكور وأعضاء إناث وروائح ومادة عسلية ونحلات وحشرات أخرى تغدو وتروح وهناك يكون الثمر وهناك تكون الحياة ، فالزهرات فى نظامها الدقيق البديع قائمات مقام المجموعات الشمسية بهجة سارة للناظرين . وبهذا الثبات وهذا النظام قسم النبات إلى أنواع وفصائل ، فالتقسيم هنا تابع لثبات نظام الزهرات كما كانت المكاييل والموازين والمساحات وسير السفن فى البحر تابعات لثبات

الكواكب ، وكما كانت الساعات والدقائق . وحساب الناس فى المعاملات تابعات لسير الشمس الصادق المتقن ، فعلى الاتقان وحسن النظام يكون ثبات الأعمال ، فهاهنا فى الزهرة ثبت نظام تقسيم النبات لحسن اتقانها بخلاف ظواهر النبات من حيث إنه شجيرات أو شجيرات ، ومن حيث إنه سنوى أوغيره .

جملت النجوم ، وجملت الزهرات ، والجمال أس السعادات ، فلنرجع إلى ماوراء النجوم ليلا ، وإلى ماوراء الزهرات نهارا ، ولننظر بعقولنا فنرى تلك العقول تلمح وراء هذا الجمال من هو أجمل وهو الحكيم وهو البديع وهنالك تطمئن وتحس بالسعادة فى الحياة ، ثم ترجع ثانيا هذه النفوس فتدرس أقسام هذه الزهرات فماذا ترى؟ ترى أن من الزهر مايكون الذكر والأنثى منه فى زهرة واحدة كزهرة القطن ، ومنه مايكون أحدهما فى زهرة والآخر فى زهرة أخرى فى نبات واحد كما يرى فى الذرة ، فالذكر أعلى ، والأنثى فى وسط العود ، ومن الزهرات ما يكون زهرة الذكر فى نبات وزهرة الأنثى فى نبات آخر كالنخل ، وهذا القسم إن تباعدت الديار بحيث صارت الذكور فى إقليم والأناث فى إقليم آخر فلا ثمر لهؤلاء ولا لهؤلاء ، وذلك كشجر الصفصاف فإن الصفصاف الذى فى بلاد آسيا كله ذكور ، والصفصاف الذى فى أوروبا كله إناث ، فلا ثمر لهذا ولا لذاك ، فلو اقترب هؤلاء من هؤلاء لكان للصفصاف ثمرات .

ومما يدهشنا أن نرى ذكور الصفصاف فى الشرق دلالة على أن الشرق هو الذى يجب أن يلقح الغرب ، لأن الغرب يأخذ بالظواهر ، والشرق يبحث عن البواطن ، ولذلك كانت الديانات من الشرق فاستعمرت الغرب ، إذن الشرق لابد منه لإصلاح عقول الغرب ، وهذه الإنسانية لن تستقيم مالم يظهر فى الشرق نابغون يصلحون الأمم ، ذلك مأخوذ من الإشارة التى فهمناها من نظام شجر الصفصاف ، فهو فى الشرق ذكر وفى الغرب أنثى ، وهما الآن عقيمان . الله أكبر ، إن نظام الزهر كما قدمنا به كان تقسيم النبات .

الفصيلة الأولى من فصائل النبات

ومن أهم أقسام النبات الفصيلة الخضرية ، سميت بذلك لأن كثيرا من هذه الفصيلة يطبخ لأكله ، ومن هذه الفصيلة : الفول ، واللوبيا ، والبسلة (الجلبان [١]) شجيرة شوكية ذات ورق دائم الخضرة وزهر أصفر ، والعدس ، وشجر السنط ، وشجرة تسمى المكنسة والبرسيم وغيرها ، فهذه النباتات كلها كأسها مكون من خمسة أوراق ، والتويج كذلك ، وفى داخلهما عشرة ذكور : واحد مرتفع إلى أعلى ، وتسعة متحدة عند القاعدة تكون أنبوبة واحدة ، ثم ينتج اللقاح فى آخر الأمر قرونا ، وهذه القرون فى داخلها حب ، وكل حبة فلقتان .

كل نبات إما مخرج ذا فلقة واحدة وإما مخرج ذا فلقتين

الله أكبر : إن جميع النبات لن يخرج عن إحدى حالين : إما أن ينتج ماهو ذو فلقتين ، وإما أن ينتج ماهو ذو فلقة واحدة ؛ فما كان مخرجا ذا فلقتين فإن ساقه تكون مخروطية ، وما كان مخرجا ذا فلقة واحدة فإن ساقه تكون أسطوانية ، أليس هذا من العجب ! أليس من العجب أن نرى النخل أسطوانى الشكل ، بخلاف العدس والفول واللوبيا وكل ما كان ثمره ذا فلقتين ، فليس أعلى عود العدس واللوبيا كأسفله ، وهكذا الشوك والسنط والبرسيم ، فهذه كلها نرى أعلاها أدق من أسفلها ، أما النخل مثلا فأعلاه كأسفله لماذا ذلك ؟ لأن النواة فى التمرة غير منقسمة قسمين كما انقسمت حبة الفول وحبة اللوبيا وقرظ السنط .

أليس هذا أيها الذكى هو السر الذى قدمته من أن جمال الزهر والحب والنوى والفاكهة يشبه الثبات والجمال فى المجموعات الشمسية ، وأن الثبات فى العالم العلوى ظهر أثره فى قطراتنا وساعاتنا المنظمات وسنن

(١) بضم الجيم وتشديد اللام وفتح الباء .

كما ظهر أثر نبات الحب والفاكهة والزهرات الجميلات فى تنظيم فصائل النبات ، ومن أروعها وأبدعها نظام كل ساق لكل نبات لأن ذلك النظام يتبع الحبة ، فإن كانت ذات فلقتين كان نظام ذلك الساق مخروطيا ، وإن كانت ذات فلقة كان نظام ذلك الساق أسطوانيا ، نظام فى السماء أنتج ثباتا فى الأرض ، ونظام فى الأزهار وما والاها أثبت نظاما فى تركيب النبات .

تذكرة

إن ذكر الفلقة والفلقتين جاء هنا تبعا للكلام على الفصيلة الأولى الخضرية التى يطبخ بعض أفرادها ، فلنرجع الآن إلى فصائل النبات ولنذكر الفصيلة الثانية وهى الفصيلة الوردية ، ويدخل فيها الورد والكمثرى واللوز والكريز والعليق (والعريس) الذى يشبه ثمره ثمر التوت والتفاح والبرقوق وهكذا ، فهذه كلها متشابهات من حيث نظام زهرها ، فالكأس فى الورد البرى خمس والتويج خمس ، فأما أعضاء الذكور فهى كثيرة جدا ، وبقية المذكورات معه ونحوها مثله تماما ، فسميت كلها باسم الفصيلة الوردية ، وهناك فصائل أخرى كالفصيلة الزنبقية الخ .

فهذه الفصائل إنما رتبت ونظمت على مقتضى الأزهار والثمار والحبوب ، وكيف كان الزهر منظم الكأس والتويج وأعضاء التناسل ؛ وهذا النظام يكون متحدا فى كل فصيلة من فصائل النبات .

الله أكبر : هاهنا هاهنا ظهر سر قوله تعالى : «ومن كل شىء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون» . الله أكبر : الله أكبر بنظام الذكور والإناث فى الأزهار عرف الناس فصائل النبات ، وبنظام الذكور والاناث فى نوع الإنسان ألفت أنا «طنطاوى جوهرى كتاب» (أين الإنسان) لنظام هذه الأمم الأرضية على مقتضى نظام الله فى وضعه عواطف أصناف الناس واستعدادهم كما أنه وضع بنفسه نظام الذكور والاناث .

الله أكبر : إذن آية : «ومن كل شىء خلقنا زوجين» فيها ثبات نظام النبات ، وثبات نظام الانسان فى السياسة . أما النبات فقد انتظم وعرف ، وأما نظام الجمعية الانسانية ، فإنه لايزال فى اختباط واختلاط حتى يظهر فى بلاد الشرق رجال يعلمون أوروبا المتخبطة الجشعة التى يعوزها عقول من الشرق تدبر أمرها فى السياسة كما دبرت أمر الدين ؛ والله هو الولى الحميد .

فلما سمع ذلك صاحبى قال : حيا الله العلم ، وحيا الله الحكمة ، إن هذا لعجب ! وحكمة ونظام ، كيف تكون آية : «ومن كل شىء خلقنا زوجين» يعوزها نظام الأزهار ، وتقسيم فصائل النبات حتى تفهم ، ويعوزها نظام الأمم وعواطفها وقواها المختلفة ، وكيف حملتنا هذه الآية على أن نسيح فى هذه العوالم فندرسها وكيف كانت هذه الأزهار التى تضمنتها الآية لها ارتباط بالكواكب العليا من حيث أن ضوء الشمس مساعد على نمو أشجارها فتزهو هى وتثمر ، وكيف نرى الله فى نفس السورة : أى سورة الذاريات يقول : «وفى السماء رزقكم وما توعدون» ويقول : «والسماء بنيناها بأيد وإنا لموسعون» فهو نفسه كما ربط هذه الأزهار بالعوالم العلوية جعل الكلام على العلويات مرتبطا بالزوجين الذكر والأنثى ، فجعل كلامه كفعله ، فقول الصانع راجع لفعله . ثم قال : وهاهنا قد عرضت لى تذكرتان :

التذكرة الأولى فى اتجاه العقول الإسلامية قديما

إنى ليدهشنى هذه المفارقة ، فبينما القرآن يوجه العقول إلى النظام الجميل البديع ، وهذا النظام لايعقل إلا بدرس الزهرات وأنواع النبات والجمال البديع فى السموات والأرض إذا بشعراء الإسلام لايتغنون إلا بما يثير الشهوات ، ويظن هؤلاء الغافلون النائمون الجاهلون أنهم سيروضون عقولهم لبلاغة القرآن فوا أسفاه فهل بلاغة القرآن وصدق القرآن وإبداع القرآن لايتم إلا بالتغنى بما يثير الشهوات .

أمم والله نائمة ، هام شيوخها وهام شبانها بما ينيم العقول ويضيع الوقت ، ويرجع بالإنسان إلى الحال البهيمية ، فالقرآن فى ناحية والمسلمون فى ناحية .

لقد تقدم فى هذا التفسير عند آية : «والشعراء يتبعهم الغاوون» فى سورة الشعراء ، كيف حكم العلماء فى أوروبا بأن ضياع بلاد الأندلس إنما نشأ من إكباب العلماء على الشعر وترك العقول فارغة ، والأسبان فى نفس الوقت يفكرون فى تدمير المسلمين :

إن المسلمين فى المستقبل غير هؤلاء السابقين فى القرون المتأخرة ، هم سيكونون كالصدر الأول ويخرج جيل لانظير له ، ويكونون تلاميذ الصحابة والتابعين الذين يعرفون من أين تؤكل الكتف .

فياليت شعرى : أهذا الذى نراه من الجمال الرائع والإبداع فى نظام هذه العوالم الجميلة ، أم مايتغنى به أطفال الرجال ولا يتعدونه فى القرون المتأخرة الإسلامية ، فيقرءون موشحة الوزير أبى عبد الله بن الخطيب شاعر الأندلس والمغرب لعصره إذ يقول :

جادك الغيث إذا الغيث همى ... يازمان الوصل بالأندلس
لم يكن وصلك إلا حلما ... فى الكرى أوخلسة المختلس
إذ يقود الدهر أسباب المنى ... تنقل الخطو على ماترسم
زمرا بين فرادى وثنى ... مثل مايدعو الوفود الموسم
والحيا قد جلل الروض سنا ... فسنا الأزهار فيه تبسم
وروى النعمان عن ماء السما ... كيف يروى مالك عن أنس
فكساه الحسن ثوبا معلما ... يزدهى منه بأبهى ملبس
فى ليال كتمت سر الهوى ... بالدجى لولا شموس القدر
مال نجم الكاس فيها وهوى ... مستقيم السير سعد الأثر
وطر مافيه من عيب سوى ... أنه مر كلمح البصر
حين لذ النوم منا أو كما ... هجم الصبح نجوم الحرس
غارت الشهب بنا أو ربما ... أثرت فينا عيون النرجس
أى شىء لامرئ قد خلصا ... فيكون الروض قد كنن فيه
تنهب الأزهار فيه الفرصا ... أمنت من مكروه ماتتقيه
فإذا الماء تناجى والحصا ... وخلا كل خليل بأخيه
تبصر الورد غيورا بدما ... يكتسى من غيظه مايكتسى
وترى الآس لبيبا فهما ... يسرق الدمع بأذنى فرس
ياأهيل الحى من وادى الغضا ... وبقلبى مسكن أنتم به
ضاق عن وجدى بكم رحب الفضا ... لا أبالى شرقه من غربه
فأعيدوا عهد أنس قد مضى ... تنقذوا عانيكم من كربه
واتقوا الله وأحيوا مغرما ... يتلاشى نفسا فى نفس
حبس القلب عليكم كرما ... أفترضون خراب الحبس
وبقلبى فيكمو مقترب ... بأحاديث المنى وهو بعيد
قمرا يطلع منه المغرب ... شقوة المغرى به وهو سعيد

قد تساوى محسن أو مذنب ... فى هواه بين وعد ووعيد
ساحر المقلة معسول اللمى ... جال فى النفس مجال النفس
سدد السهم رمى ورمى ... بفؤادى نهبه المفترس
إن يكن جار وخاب الأمل ... وفؤاد الصب بالشوق يذوب
فهو للنفس حبيب أول ... ليس فى الحب لمحبوب ذنوب
أمره معتمل ممتثل ... فى ضلوع قد براها وقلوب
حكم اللحظ بها فاحتكما ... لم يراقب فى ضعاف الأنفس
ينصف المظلوم ممن ظلما ... ويجازى البر منها والمسى
ما لقلبى كلما هبت صبا ... عاده عيد من الشوق جديد
كأن فى اللوح له مكتتبا ... قوله إن عذابى لشديد
جلب الهم له والوصبا ... فهو للأشجان فى جهد جهيد
لاعج فى أضلعى قد أضرما ... فهى نار فى هشيم اليبس
لم تدع من مهجتى إلا الدما ... كبقاء الصبح بعد الغلس
سلى يانفس فى حكم القضاء ... واعمرى الوقت برجعى ومتاب
واتركى ذكرى زمان قد مضى ... بين عتبى قد تقضت وعتاب
واصرفى القول إلى المولى الرضى ... ملهم التوفيق فى أم الكتاب
الكريم المنتهى والمنتمى ... أسد السرح وبدر المجلس
ينزل النصر عليه مثل ما ... ينزل الوحى بروح القدس

فإذا كان الوزير هذا ديدنه يضيع ذكاءه فى أمثال هذا النظم ، وليس لهذه النجوم ، ولا لهذه الأزهار فى نظره إلا أنها ضرب أمثال للحبيب وابتسامته ، وأمة هؤلاء حكامها لابد من أن يعتورها الانحلال .

فقلت هذا حق أيها الحبيب ؛ إن نسبة هؤلاء الذين لايعرفون من الزهر والكواكب إلا ظواهرها ، وذكرى الحبيب بها إلى العارفين بعجائب الكواكب وبواطن الزهر كنسبة لون الكوكب والزهر ونحوها إلى حقائق العوالم السماوية ونظامها وتركيب الزهرات وإبداعها ، فالأول كطفل للثانى ؛ وهؤلاء الأطفال هم أكثر شعراء الإسلام الذين يعيشون ويموتون ولاهم يذكرون « والشعراء يتبعهم الغاوون . ألم تر أنهم فى كل واد يهيمون ، وأنهم يقولون مالا يفعلون » وترى المتعلمين فى الديار العربية على هذا المنوال فى زماننا إلا قليلا منهم وهم العقلاء .

وهذا الكتاب الذى نقلنا عنه نظام الأزهار لم يؤلفه إلا وزير المعارف فى فرنسا ، فالوزير الفرنسى قلبه معلق بنظام النبات والنجوم وغيرها ، والوزير الأندلسى مثلا ليس له من العلم إلا الحظ الأدنى وهو تحويل العوالم الجميلة إلى مسألة التناسل التى تنقضى إذا حل الكبر واشتعل الرأس شيبا ، ثم ينظر الإنسان فلايجد فى عقله متسعا للحكمة وهو خال من كل فضيلة وكمال .

فقال صاحبى : هذه هى التذكرة الأولى ، أما التذكرة الثانية فإنى حينما سألتك فى أول الأمر عن أمر الأزهار ومامعها أجبتنى بجواب هو فى أسلوبه أشبه شىء بما جاء فيما تقدم فى الأجزاء السابقة فى (سورة الزمر) من حيث الكلام على انكسار الضوء ، فإن الأسلوب هناك جميل كالأسلوب هنا ؛ والذى ذكرنى به تلميذ فى المدرسة الخديوية فى السنة الرابعة ، فإنه لما قرأ انكسار الضوء هناك اغرورقت عيناه بالدموع وقال

هـذا الأسلوب أسهل وأجمل مما نعطاه فى المدرسة ، لأنه بهيئة سؤال وجواب ، فلما سمعت الأسلوب هنا فى مسألة الأزهار وجدتها تطابق ذلك الأسلوب ، فقلت حياك الله إن المؤلف واحد .

فقال صاحبى : إذن أرجو أن تفصل الكلام على عالم السماء المذكور هنا فى هذه السورة بهذا الأسلوب كما فصلته على أزهار النبات فى آية : « ومن كل شئ خلقنا زوجين » ؟ فقلت أيها الأخ الذكى : إن المقام هنا قد طال جدا فسأوضح الكلام بهذا الأسلوب فى (سورة الملك) على عالم السموات وعلى الأنوار ، وكيف نرى الضوء النازل من الشمس النافذ فى حجراتنا يصطحب معه بحرارة ثم تحكم عقولنا بأن ذلك النور يجرى على خط مستقيم ، وتحكم علومنا بأن سرعته فى الثانية تبلغ نحو ١٨٥ ألف ميل ، ثم نضع أيدينا على ذلك النور فنحكم بالحرارة المصطحبة معه ، فهاهنا حكمان : حكمنا باستقامة الخط بالبصر ، وبالحرارة باللمس ، ثم ننتقل من هذا إلى أن الصور الواصلة من الخارج إلى حجراتنا معكوسة مقلوبة لتقاطع الأشعة الداخلة فى حجراتنا وهكذا ندخل فى أودية من العلم فيها أزهار وأثمار وحدائق وجنات ، فنرى أن هذا الضوء إذا عارضناه بمرآتنا فإنها تعكسه على الحائط المقابل للضوء الداخل ، وتكون تلك الأنوار الساطعات على ذلك الحائط تابعة فى ثباتها وذبذبتها إلى المرآة التى بأيدينا ، وتكون هناك زاوية للسقوط وأخرى للانعكاس بينهما ارتباط وثيق .

أليس هذا من أعجب العجب : إن ماتقدم يفسر وضع صورنا فى المرآة أمامنا ، فيميننا موضوع فى المرآة جهة اليسار والعكس بالعكس ، وهكذا نرى البعد الواقع بيننا وبين المرآة مماثلا للبعد الذى بين المرآة والصورة المصورة كما حصل لما عرضنا المرآة للضوء وانعكس منها على الحائط المقابل ، وهكذا ننتقل من المرآة الزجاجية إلى الماء فنجده مرآة أيضاً ، وهو يتقبل الصور المحيطة به كما يتقبلها الزجاج ، وهناك نرى أن النور متى دخل فى الماء حصل له مايسمى بانكسار الضوء الذى وضحناه فى (سورة الزمر) كما ذكرتنا به أيها الأخ الذكى الآن ، وهذا الانكسار نعمة عظيمة فى هذه العوالم ، ولولا انكسار الضوء ما كان صبح ولا مغرب . وانكسار الضوء له حالان : فإما أن يسير الضوء من طبقة لطيفة إلى أخرى كثيفة ، فهناك ينكسر الضوء إلى ناحية خاصة ، وإذا كان العكس فإنه ينكسر إلى الجهة الأخرى .

العدسات والميكرسكوبات والتلسكوبات والمناظر
وأضواء الشمس السبعة

هنالك هنالك يدخل العلماء فى باب واسع من العلم ، وهاهنا يكون الكلام على العدسات ، وهى إما محدبات ، وإما مقعرات ، فالعدسات المحدبات زجاجات منتفخات من الجانبين ، فهذه تكبر الأحجام المنظورة من خلالها ، فإذا نحن وضعنا جملة من هـذه الزجاجات متحدة بنظام خاص كان عندنا مانسميه ميكروسكوب (الآلة المعظمة) وهـذه قد تكبر الشئ ألف مرة بل أكثر ، وقد توضع تلك العدسات بهيئة خاصة أخرى وهى تسمى (التلسكوب) الآلة المقربة ، فهى تكبر الأجسام البعيدة فترى قريبة لنا ، فبهذا سميت مقربة ، وهل أتاك نبأ العدسات المقعرات اللاتى تفعل عكس العدسات المحدبات ، إن هذه تصغر الأجسام كما كانت التى قبلها تكبرها ، وهاهنا يدخل الضوء فى علم الطب فتكون العدسة المصغرة لصاحب النظر القصير والمكبرة لصاحب النظر الطويل .

للعدسات المكبرات عمل آخر

وذلك أنها تستعمل لإحداث حرارة وضوء على ماوراءها من ورق مخصوص مثلا ، فهاهنا يدخل ضوء الشمس فى العدسة ، ويستمر جازيا إلى ماوراءها ، وهناك تكون بؤرة خاصة فى بعد مخصوص : أى أن

الحرارة فى بعد مخصوص تجتمع فى نقطة خاصة، وهذه الحرارة قد تتقد بها النار ، بل إن ربان السفينة لما عنده من العلم إذا كان فى الأقطار الشمالية التى ليس فيها إلا الثلج يقدر بتلك العدسة المكبرة للضوء المحدبة الوجهين أن يستعملها فى إيقاد النار فى الصوفان مثلا ، وذلك بأن يستعمل عدسة من نفس الثلج ، وهذا الثلج يجمع ضوء الشمس الضعيف فى تلك الأقطار ، وفى البؤرة فى البعد المخصوص يضع ذلك الربان ما يريد إحراقه فيشتعل ، فيذهل من ذلك نوتية السفينة ، ويذهل سكان الأقطار الشمالية (وهم الإسكيمو) .

وهاهنا مباحث أخرى لامحل لتفصيلها الآن مثل أضواء الشمس السبعة وعجائبها ، ولعلنا نفصل الكلام على هذه العجائب فى (سورة الملك) إن شاء الله تعالى بشرح أطول وصور بديعة تشرح الموضوع كما تشرح الصدور . ولعلنا أيضاً نفصل الكلام إن شاء الله تعالى فى (سورة النبأ) « عم يتساءلون عن النبأ العظيم » على أنواع النبات المتقدمة ، والفصائل بصورها وأشكالها بمناسبة قوله تعالى : « وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجا ، لنخرج به حباً ونباتاً وجنات ألفافا » كما نذكر بعض ما تقدم مجملا عند الكلام على قوله تعالى فى (سورة الحشر) : «هو الله الذى لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم . هو الله الذى لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر سبحان الله عما يشركون : هو الله الخالق البارئ المصور له الأسماء الحسنى يسبح له ما فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم » لنبين أن هذه العجائب لا تفسر أسماء الله حق تفسيرها إلا بها ، وأن من أراد أن يفقه معنى البارئ والمصور ونحوها فليس له إلا طريق هذه العجائب .

فلما سمع صاحبى ذلك قال : الحمد لله قد أثلجت صدرى بهذا البيان . فقلت الحمد لله رب العالمين . وإلى هنا تم الكلام على (سورة الذاريات) . كتب فى ١٥ ربيع الثانى سنة ١٣٥١ هجرية .

تفسير سورة الطور

هي مكية

آياتها ٤٩ — نزلت بعد السجدة

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

وَالطُّورِ * وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ * فِى رَقٍّ مَنْشُورٍ * وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ * وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ * وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ * إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ * مَالَهُ مِنْ دَافِعٍ * يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا * وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا * فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ * الَّذِينَ هُمْ فِى خَوْضٍ يَلْعَبُونَ * يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا * هٰذِهِ النَّارُ الَّتِى كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ * أَفَسِحْرٌ هٰذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ * اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا

تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ * إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ * فَاكِهِينَ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ
وَوَقَاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ * كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ * مُتَّكِئِينَ
عَلَى سُرُرٍ مَصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ * وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ
أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ *
وَأَمْدَدْنَاهُمْ بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ * يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ *
وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَكْنُونٌ * وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ *
قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ * فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ * إِنَّا كُنَّا
مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ * فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا
مَجْنُونٍ * أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ * قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ
الْمُتَرَبِّصِينَ * أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَامُهُمْ بِهَٰذَا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ * أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَلْ
لَا يُؤْمِنُونَ * فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ * أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ
الْخَالِقُونَ * أَمْ خَلَقُوا السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ * أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ
أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ * أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ *
أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ * أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ * أَمْ عِنْدَهُمُ
الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ * أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ * أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ
غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ * وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ
مَرْكُومٌ * فَذَرْهُمْ حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ * يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ
شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ * وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ
لَا يَعْلَمُونَ * وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ * وَمِنَ
اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ *

هذه السورة ثلاثة أقسام

القسم الأول في تفسير البسملة .

القسم الثاني في ذكر العذاب والنعيم ، ووصف أهل الجنة وأهل النار ، مبتدئا ذلك كله بالقسم بما في العلويات والسفليات من أول السورة إلى قوله : «إنه هو البر الرحيم» .

القسم الثالث في إلزام الكافرين بالحجة ، ومجادلتهم بالتي هي أحسن في صدق النبوة ، وإثبات الألوهية من قوله تعالى : «فذكر فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون» إلى آخر السورة .

القسم الأول في تفسير البسملة

تنوعت الرحمات في هذه العوالم التي أبدعها الله عز وجل ، وهذا التنوع يدعو إلى استيقاظ الأرواح ، ونشاط النفوس التي خلقت في هذه العوالم ، موت وحياة ، وذل وعز ، وجهل وعلم ، وشقاء وسعادة ، ثم نار وجنة ، وهذان هما المذكوران في هذه السورة ، كل مخلوق في هذه العوالم الأرضية يبدو في أول أمره ناقصا ثم يأخذ في الاستكمال شيئا فشيئا حتى يصل إلى درجة الكمال كالزروع والحيوان والإنسان ، فالنقص قبل الكمال ، والنار قبل الجنة «وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتما مقضيا ، ثم ننجي الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثيا» .

الإنسان يخرج من بطن أمه لايعلم شيئا والعلم يبدو له قليلا قليلا ، وأكبر مذلة في هذه الحياة للأفراد والأمم الجهل ، وأعظم سعادة بالعلم ، وأولهما مقدم على ثانيهما ، وفي هذه السورة نرى آيات العذاب جاءت في أول السورة ، وتلتها آيات النعيم والجنات كما يتلو العلم الجهل والسعادة الشقاء ، ومن أجل الرحمات وأبهج السعادات أن تصل النفوس إلى مبتغاها بعد حرمانها ، وإلى سعادتها بعد شقاوتها ، وتتذكر ما كانت تعانيه وتوازنه بما نالته من الهناء والسعادة ، ويشير لذلك إقبال بعض أهل الجنة على بعض يتساءلون ويتذكرون أنهم كانوا يخافون العاقبة وسوء المنقلب ، فنجوا من العذاب وتمتعوا بأنواع اللذات ، متكئين على سرر مصفوفة وهم مزوجون بالحور العين .

ومن أبدع مايسر النفوس ويشرح الصدور الحجج القيمة والبراهين المنتظمة ، كأن يقال : أهذا العالم خالق نفسه ؟ أم وجد بلا خالق ؟ وكلاهما باطل ، إذن له خالق وهو الله تعالى ، وهذا أيضا راجع للعلم بعد الجهل ، والعز بعد الذل ، فكأن الرحمة في هذه السورة متجهة لمنهج واحد معبد (بتشديد الباء) وذلك على سبيل النشوء والارتقاء ، فالإنسان قبل إتمام الحجة جاهل بالنتيجة والجهل عذاب ، ورسوخ العقيدة بتمام الحجة نعيم ، كما أن الجنة بعد المرور على الجحيم ، ولقد جاء في (إخوان الصفاء) أن شقاء الناس تابع لجهلهم . وقد مثل ذلك سقراط فإنه أبان أن الإنسان لايفعل المعصية إلا لظنه أنها نافعة له من وجه ، ولو أيقن أنها ضارة له لم يفعلها ، وأوضح ذلك الإمام الغزالي رحمه الله تعالى فقال : لو أن طبيبا قال للمريض هذا الكوب فيه سم قد تخلل الشراب الذي يملؤه وهو واثق طبعا بكلام الطبيب لم يشربه المريض ولم يقربه ، وفر منه فراره من الأسد ، فلو أن الناس أيقنوا بمضرة الذنوب وثوقا حقيقيا لم يذنبوا ولكن العلم الناقص لايفيد ، إذن نقص العلم باب من أبواب جهنم ، والعلم التام باب من أبواب الجنة .

وليس ينال المرء كمالا في هذه الحياة إلا بأمرين : الصبر عن الشهوات ، وعلى البلاء ، وفي الأعمال حتى تكمل ، ومن أجل الأعمال في هذه الحياة الدنيا الوقوف على سر هذا النظام ، وسره أن كل شر في هذا العالم لم يقصد به إلا أنه مقدمة لخير ، فالخير والشر يتجهان معا لنظام العالم نظاما تاما يستوجب الحمد ، ولذلك

ختم السورة بهذه الآيات : «واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا وسبح بحمد ربك حين تقوم ومن الليل فسبحه وإدبار النجوم» .

في أول السورة ذكر العذاب والنعيم ، وفي آخرها اطمئنان النفس بالصبر وبالعلم وهما المقصودان من هذه الحوادث الإنسانية في هذا الوجود ، التسبيح والتحميد معا سر هذه الحياة . فالتسبيح كما شرحناه مرارا ملازم للتحميد ، إذ نرى سلامة عيوننا من المرض ملازمة لتمتعنا بالنعمة الموجبة للحمد ، فتنزيه الله عن العبث وعن الظلم بطريق البحث العلمي ملازم لحصول الخيرات لنا ، ولذلك كان التسبيح والتحميد ملازمين لأهل الجنة ، فهم هم الذين أدركوا سر هذا الوجود واطمأنوا بنور عقولهم إلى أن كل شر لم يقصد به إلا الخير بل أيقنوا أنه لاخير بلا شر ، ولا يمكن حصوله بدونه ، فالشر لابد منه لحصول الخير ، وهذه الطمأنينة نهاية سعادة هذا الإنسان في الدنيا والآخرة ، فإذا لاحظ النجوم وسيرها وجمالها فرح بجمالها وجمال مبدعها ، وكان في هذه الحياة الدنيا في سعادة وحبور ، ومن أيقن بهذا بطريق العلم فهم معنى : «وسبح بحمد ربك حين تقوم، ومن الليل فسبحه وإدبار النجوم» انتهى الكلام على القسم الأول في تفسير البسملة . كتب يوم الثلاثاء ١٦ أغسطس سنة ١٩٣٤ م .

القسم الثاني : في ذكر العذاب والنعيم
ووصف أهل الجنة ووصف أهل النار

التفسير اللفظي

بسم الله الرحمن الرحيم

(والطور) طور سينين ، وهو جبل بمدين كلم الله موسى عليه السلام فيه ، والطور بالسريانية الجبل (وكتاب مسطور) مكتوب ، يقال سطره رتب حروفه المكتوبة ، والكتاب المسطور كل ما كتب من القرآن أو التوراة ، أو بقية الكتب السماوية ، وما سطر في القلوب الإنسانية من المعارف ، وما في نفوس الملائكة من الحكمة ، وما في اللوح المحفوظ ، بل كل مادل على حكمة يرمز له بالكتاب المسطور (في رق منشور) الرق هو الصحيفة ، أو الجلد الذي يكتب فيه ، وأريد به هنا مجازا ماهو أعم ، والمنشور المفتوح لاختم عليه (والبيت المعمور) أي الكعبة المعمورة بالحجاج والمجاورين ، وقلب المؤمن الممتلىء بالمعارف والحكمة والإخلاص ، وهكذا كل مكان فيه عبادة كالذي ورد في الحديث الآتي ، وهو بيت في السموات العلى قدام العرش (والسقف المرفوع) أي السماء، (والبحر المسجور) أي الموقد المحمى بمنزلة التنور المسجور كما قاله ابن عباس ، وهذا البحر هو الذي كشف في العصر الحاضر على سبيل الظن ، وقد أشارت له الأحاديث ، ولكن الأمم قديما لم تعرفه ، فعن عبد الله بن عمر : «لايركبن رجل البحر إلا غازيا أو معتمرا أو حاجا فإن تحت البحر نارا وتحت النار بحرا» ولا جرم أن هذا البحر هو باطن الأرض الذي اتضح اليوم وعلم من الكشف أن الأرض كلها كبطيخة وقشرتها كقشرة البطيخة : أي أن نسبة قشرة البطيخة إلى باطنها الذي يؤكل كنسبة قشرة الأرض إلى النار التي في باطنها ، فنحن الآن نسكن فوق نار عظيمة : أي فوق بحر مملوء نارا ، وهذا البحر مغطى من جميع جهاته بالقشرة الأرضية المحكمة سدا عليه ، ومن وقت إلى وقت يتصاعد من ذلك البحر نار تظهر في البراكين أو بالزلازل كالزلزلة اليابانية التي حدثت في سنة ١٩٢٥ وكبركان ازوف بإيطاليا ، وهذا البحر المسجور الآن يعتبر من أكبر المعجزات للقرآن ، فإنه لم يعلم به أحد من الأمم الإسلامية ، ولا غير الإسلامية بعد النبوة ، ومن عجب أن يذكر في الحديث أن تحت البحر نارا ، وهذا عجب ! وأما كون النار تحتها ماء فمعناه أن البحر فوق الأرض والنار في باطنها ، وفي الجهة المقابلة يكون

البحر ، فالبحر في الجهتين المتقابلتين والنار محصورة بينهما . أقسم الله بهذه كلها وجواب القسم (إن عذاب ربك لواقع) لنازل (ماله من دافع) يدفعه (يوم تمور السماء مورا) تضطرب ، والمور تردد في المجيء والذهاب (وتسير الجبال سيرا) أي تسير عن وجه الأرض فتصير هباء (فويل يومئذ للمكذبين) يقول : إذا وقع ذلك فويل لهم (الذين هم في خوض يلعبون) أي يندفعون في الباطل والكذب كما قال تعالى أيضا في سورة أخرى : «وكنا نخوض مع الخائضين» (يوم يدعون إلى نار جهنم دعا) يدفعون إليها بعنف بحيث تغل أيديهم إلى أعناقهم وتجمع نواصيهم إلى أقدامهم ويقال لهم (هذه النار التي كنتم بها تكذبون) ولقد كنتم تنسبون لمحمد أنه يسحر العقول ويغطي على الأبصار ، فهل هذا الذي هو مصداقه سحر أيضا ، وهذا قوله (أفسحر هذا أم أنتم لاتبصرون) هذا أيضا كما كنتم لاتبصرون في الدنيا مايدل عليه ، وهذا تقريع وتهكم (اصلوها فاصبروا أو لاتصبروا) أي ادخلوها على أي وجه شئتم من الصبر وعدمه (سواء عليكم) الأمران الصبر وعدمه . ثم علل الاستواء المذكور بأن الجزاء لابد منه فلا يتوقف على الصبر فقال (إنما تجزون ما كنتم تعملون) .

ولما فرغ من ذكر أهل النار شرع في الكلام على أهل الجنة فقال (إن المتقين في جنات ونعيم فاكهين) معجبين بذلك ناعمين (بما آتاهم ربهم) من الخير والكرامة (ووقاهم ربهم عذاب الجحيم) يقال لهم (كلوا واشربوا هنيئا) مأمون العاقبة من التخمة والسقم (بما كنتم تعملون) في الدنيا من إيمان وطاعة (متكئين على سرر مصفوفة) موضوعة بعضها إلى بعض مصطفة (وزوجناهم بحور عين والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان) هذا مبتدأ خبره (ألحقنا بهم) أي نلحق بهم (ذريتهم) في إيمانهم ولو كان أولئك الأبناء مقلدين لآبائهم ، فالآباء إيمانهم نظري والأبناء إيمانهم تقليدي لاتباعهم الآباء ، فنحن نلحق الأبناء بالآباء في الإيمان ، ونجعل غير الناظرين كالناظرين المفكرين ، ويلزم من ذلك أن يدخلوا الجنة معهم (وما ألتناهم) وما نقصناهم (من عملهم من شيء) بهذا الإلحاق (كل امرىء بما كسب رهين) بعمله مرهون عند الله تعالى ، والعمل الصالح يفكه والإهلاك (وأمددناهم بفاكهة ولحم مما يشتهون) أي وزدناهم وقتا بعد وقت مايشتهون من أنواع النعم الحسية والمعنوية (يتنازعون فيها كأسا) يتعاطون في الجنة هم وجلساؤهم ويتجاذبون خمرا في كأس (لا لغو فيها ولا تأثيم) لايتكلمون بلغو الحديث في أثناء شربها ، ولا يفعلون مايؤثم به فاعله ، بخلاف خمر الدنيا ، فالشارب لها كثير اللغو فعال للآثام (ويطوف عليهم) بالكأس (غلمان لهم) مماليك مخصوصون بهم (كأنهم) في الحسن والبياض والصفاء (لؤلؤ مكنون) مخزون مصون لم تمسه الأيدي « وقد سئل صلى الله عليه وسلم فقيل له هذا الخادم فكيف المخدوم ؟ فقال : فضل المخدوم على الخادم كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب » (وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون) يسأل بعضهم بعضا في الجنة أي يتذاكرون ما كانوا فيه من الخوف والتعب في الدنيا (قالوا إنا كنا قبل في أهلنا) في الدنيا (مشفقين) خائفين من العذاب (فمن الله علينا) بالمغفرة (ووقانا عذاب السموم) عذاب النار النافذة في المسام نفوذ السموم (إنا كنا من قبل ندعوه) أي كنا من قبل ذلك في الدنيا نعبده ونسأله الرحمة ووقاية العذاب فنقول «وقنا عذاب النار» ثم إن في تجاذب الكأس بينهم وإقبالهم بعضهم على بعض ، وعدم اللغو في مجالسهم إشارات إلى لذات فوق لذات أهل الأرض كما قال ابن الفارض :

صفاء ولا ماء ولطف ولا هوا ونور ولا نار وسكر ولا خمر

وقوله (إنه هو البر) أي المحسن (الرحيم) انتهى التفسير اللفظي للقسم الثاني من السورة .

القسم الثالث فى إلزام الكافرين بالحجة
ومجادلتهم بالتى هى أحسن فى صدق النبوة وإثبات الألوهية

قال تعالى (فذكر) فعظ يا محمد بالقرآن كفار قريش ومن معهم (فما أنت بنعمة ربك) برحمته وعصمته وإنعامه عليك بالنبوة ، أو بحمده وإنعامه (بكاهن ولا مجنون) الكاهن من يوهم الناس أنه يعلم الغيب ويخبر به (أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون) أى بل أيقولون هو شاعر ، وريب المنون مايقلق النفوس من حوادث الدهر ، أو نفس الموت ، يقال منه إذا قطعه (قل تربصوا فإنى معكم من المتربصين) أتربص هلاككم كما تتربصون هلاكى (أم تأمرهم أحلامهم بهذا) أى بل أتأمرهم عقولهم بهذا التناقض فى القول ، فالشاعر غير الكاهن غير المجنون ، وفرق عظيم بين مجنون العقل ومن يزن الشعر بحكمة ودقة ومن هو كاهن (أم هم قوم طاغون) مجاوزون الحد فى العناد (أم يقولون تقوله) اختلقه من تلقاء نفسه (بل لايؤمنون) فيرمونه بهذه المطاعن كفراً وعناداً ، وفى قوله « بل » رد لما زعموا أى ليس الأمر كما زعموا (فليأتوا بحديث مثله) أى بحديث مختلق مثل القرآن (إن كانوا صادقين) فى زعمهم ، وفيهم الفصحاء . ثم شرع يبين فساد نظرياتهم فى الإلهيات بعد النبوات فقال (أم خلقوا من غير شئ) أى بل أخلقوا من غير خالق ، ومعلوم أن الحادث لابدله من محدث ، أم هم أحدثوا أنفسهم ويلزم عليه أن الشىء مقدم على نفسه وهو مستحيل ، فهم باعتبار أنهم خالقون مقدمون على أنفسهم فى الوجود باعتبار أنهم مخلوقون ، وهذا هو قوله (أم هم الخالقون) أى بل أهم (أم خلقوا السموات والأرض) أى وإذا فرض أنهم خلقوا أنفسهم أفهل هم خلقوا السموات والأرض اللتين عليهما تتوقف حياتهم ؟ فإن من يخلق شيئا يخلق أسبابه ، وإذن لابد أن يخلقوا السموات والأرض ، وهذا معلوم كذبه طبعا (بل لايوقنون) إذا سئلوا من خلقكم ومن خلق السموات والأرض ؟ قالوا الله ، ولو أنهم أيقنوا ذلك ماأعرضوا عن العبادة (أم عندهم خزائن ربك) خزائن رزقه حتى يعطوا النبوة لمن يشاءون ، ويصطفوا لها من يختارون (أم هم المصيطرون) الغالبون على الأشياء يدبرونها كيف يشاءون (أم لهم سلم) مرتقى إلى السماء (يستمعون فيه) كلام الملائكة وما يوحى إليهم من علم الغيب حتى يعلموا ماهو كائن من تقدم هلاكه على هلاكهم وظفرهم فى العاقبة دونه (فليأت مستمعهم بسلطان مبين) بحجة واضحة تصدق استماع مستمعهم (أم له البنات ولكم البنون) سفه سبحانه أحلامهم إذ اختاروا لله البنات ولهم البنين ومن كان هذا رأيهم لايعتد بهم (أم تسألهم أجراً) على تبليغ الرسالة (فهم من مغرم) من التزام الغرم (مثقلون) محملون الثقل فلذلك زهدوا فى اتباعك (أم عندهم الغيب) اللوح المحفوظ المثبت فيه المغيبات (فهم يكتبون) مافيه حتى يقولوا لانبعث ، وإذا بعثنا لم نعذب (أم يريدون كيدا) وهو كيدهم فى دار الندوة برسول الله صلى الله عليه وسلم (فالذين كفروا) أظهر فى موضع الإضمار لتسجيل الكفر عليهم (هم المكيدون) هم الذين يحيق بهم الكيد ويعود عليهم وبال كيدهم وقد تم يوم بدر (أم لهم إله غير الله) يعينهم ويحرسهم فيكفرون بالله ويلتجئون إلى ذلك الإله (سبحان الله عما يشركون) عن إشراكهم (وإن يروا كسفا) قطعة (من السماء ساقطا يقولوا) من فرط طغيانهم وعنادهم هذا (سحاب مركوم) تراكم بعضه على بعض ، وهذا جواب لقولهم : « فأسقط علينا كسفا من السماء » . يقول الله : لو عذبناهم بسقوط قطعة من السماء لقالوا أول ظهورها ليس بعذاب مكابرة كما هى عادتهم (فذرهم حتى يلاقوا يومهم الذى فيه يصعقون) عند النفخة الأولى (يوم لايغنى عنهم كيدهم شيئا) أى شيئا من الاغناء فى رد العذاب (ولاهم ينصرون) يمنعون من عذاب الله (وإن للذين ظلموا) من كل أمة وجيل (عذابا دون ذلك) أى دون عذاب الآخرة فى الحياة الدنيا كقحط قريش وقتلهم يوم بدر ، وهكذا المصائب التى تحيط بالمسلمين اليوم

بإغارات الفرنجة عليهم وغير ذلك ، وكعذاب القبر (ولكن أكثرهم لايعلمون) ذلك (واصبر لحكم ربك) إذ أمهلهم وأوقعك فى نصب معهم فذلك لأجل معلوم (فإنك بأعيننا) فى حفظنا ورعايتنا فنحن نراك ونكلؤك ، وجمع العين للمبالغة فى الحفظ (وسبح بحمد ربك حين تقوم) من أى مكان قمت ، من منامك ، وإلى الصلاة (ومن الليل فسبحه) فإن العبادة فيه أشق على النفس وأبعد من الرياء (وإدبار النجوم) وإذا أدبرت النجوم من آخر الليل : أى فى أعقابها إذا غربت أو خفيت ، والمراد أن يقول «سبحان الله وبحمده» فى هذه الأوقات ، وقيل التسبيح الصلاة إذا قام من نومه ، ومن الليل صلاة العشاءين ، وإدبار النجوم صلاة الفجر . انتهى التفسير اللفظى للقسم الثالث من السورة .

* * *

وينبغى للإنسان أن يقول : سبحانك اللهم وبحمدك إذا قام من المجلس . وزاد الترمذى : أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك ، فإنها تكفر مابينهما . وغيره يقول : ذكر الله بالليل من حين تقوم من الفراش إلى أن تدخل الصلاة . وقالت عائشة رضى الله عنها : «كان صلى الله عليه وسلم إذا قام بالليل يفتتح بالتكبير عشرا والتسبيح عشرا والتهليل عشرا والاستغفار عشرا ويقول : اللهم اغفرلى وارحمنى واهدنى وارزقنى وعافنى ، وكان يتعوذ من ضيق المقام يوم القيامة . وأيضاً كان صلى الله عليه وسلم يفتتح الصلاة بقوله : سبحانك اللهم وبحمدك ، وتبارك اسمك ، وتعالى جدك ، وجل ثناؤك ، ولا إله غيرك» .

لطائف هذه السورة

(١) فى قوله تعالى : « والطور » الخ .

(٢) وفى قوله . « والبيت المعمور ، والسقف المرفوع ، والبحر المسجور » .

(اللطيفة الأولى فى قوله تعالى : والطور)

أقسم الله فى هذه السورة بأعلى مكان وأشرفه وأكثره رحمة وهو السماء ، وبأدنى مكان قد ملىء جحيما وعذابا وهو البحر المسجور فى باطن الأرض ، وبما بين ذلك من الكتب المسطورة والعلوم المنشورة ، والحكم المنثورة ، والآراء المبثوثة ، المقروءة فى كتب الديانات ، وبدائع الآيات ، وحكم السموات ، ومعارف النفوس وإشراق القلوب ، وبأماكن العبادات من البيت الحرام ، وغيره من أماكن فى عوالم لايعلمها أحد إلا الله .

أقسم الله بالسموات العلى ، وبما تحت الثرى ، وبيوت العبادات فى الأرض والسموات ، وبالعلوم المعقولات فى الأرض وفى السماء .

أقسم الله بذلك كما أقسم بالذاريات ذروا ، هناك أقسم الله بالرياح وتصريفها ، وبالسماء وحسنها وجمالها ، وهنا أوسع القسم إيساعا فلم يذر عالما سماويا ولا أرضياً ، ولا موضع عبادة ، ولا مكان علم إلا أدخله فى القسم أو أشار إليه ، انتهت اللطيفة الأولى .

(اللطيفة الثانية فى قوله تعالى : والبيت المعمور الخ)

وأعجب ما أقسم به البحر المسجور الذى فى باطن الأرض على مايظن الناس ، والبيت المعمور ، والرق المنشور ، وقد روى «أن الله تعالى يجعل البحار كلها يوم القيامة ناراً فيزاد بها فى نار جهنم» ، فإذا أضفنا هذا الحديث إلى الحديث المتقدم وهو «إن تحت البحر نارا» يكون البحر الذى هو باطن الأرض منضما إليه البحر الملح فيتسع نطاق النار ، فإذن باطن الأرض نار الآن ، والبحار يوم القيامة تصير ناراً ، وهذا واضح لأن البحر المسجور الذى هو عبارة عن باطن الأرض إذا جاء أجل الأرض ووقع ماء البحر فى باطن الأرض

لم تكن البحار التى على وجه الأرض شيئا مذكورا بالنسبة للنار فتتحول نارا فى لمح البصر ، فإنا نشاهد أننا إذا أنزلنا الماء على النار ليطفئها وكان الماء قليلا تحول الماء إلى نار ، وزاد فى اشتعالها ، لأن الأكسوجين الذى فى الماء نار فينقلب الماء إليها ، وهذا من أعجب العلم والمعجزات فى القرآن .

وأما البيت المعمور الذى يقال له (الضراح) فيقال إن حرمته فى السماء كحرمة الكعبة فى الأرض . وقد جاء فى حديث المعراج من أفراد مسلم عن أنس « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى البيت المعمور فى السماء السابعة قال فإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألف ملك لايعودون إليه . وفى رواية أخرى : فانتهيت إلى بناء فقلت للملك ماهذا ؟ قال بناء بناه الله للملائكة يدخل فيه كل يوم سبعون ألف ملك لايعودون يسبحون الله ويقدسونه ، ولعل ذلك البيت فى عوالم مما لايخطر بالبال ذكرها غابت عنا لبعدها ، ومن تأمل علم الفلك أيقن بما تقدم لاسيما ماروته روح الفيلسوف غاليلى لما أحضرت وطلب منها التكلم عن العالم ذكرت أن هناك كواكب شمسنا بالنسبة لها كحبة بالنسبة لجبل ، وحياتهم ونظامهم أرقى من حياة أهل الأرض ونظامهم ، بل لايخطر بالبال السعادة هناك والهناء والعظمة وأنواع المعيشة ، وهناك الشموس التوائم جمع توأم فإن نظام أهلها لايخطر بالبال ، ولم تسمعه أذن ، ولم تره عين ، بل هو فوق متناول الخواطر من البهجة والجمال ، ويقول : إن تلك العوالم كلها مسكونة وهى تعد بمئات الملايين ، فما جاء فى هذا الحديث وهذه الآية أصبح مما يقرأ فى العلم الفلكى والعلم الروحى بأوروبا .

وأما الرق المنشور الذى ذكر بعد الطور المتناول كتاب التوراة وكل كتاب سماوى وحكمى الخ فإنه قد ظهر أتم ظهور فى هذا الزمان ، إذ لم يكن النوع الإنسانى ليعرف رقا منشورا كما تعرف نحن الآن ، فلقد أظهر الله فى سائر الأرض الجرائد والمجلات منشورة يقف بها الباعة فى الطرقات والحارات والشوارع ، وقد نشروها فى أيديهم وقرأها الناس فى كل مكان ، ولم يكن ذلك معروفا قبل هذا العصر عصر الورق ، والقرآن يسميه الرق المنشور .

فانظر كيف أقسم الله بالبحر ، وبالبيت المعمور ، وبالرق المنشور ، ولم يظهر بحر النار ، ولا أن هناك عوالم فى الكواكب لاتتناهى ، ولا أن هنا فى الأرض جرائد تنشر وتباع للعامة والخاصة ، ولا أن هناك تعليما عاما يشترك فيه الخاصة والعامة من كل الأمم إلا فى هذا الزمان :

نشر الصحف على قسمين : أحدهما انتشار التعليم والتربية وهو التعليم العام الذى أخذ ينتشر انتشارا سريعا فى الوقت الحاضر . وثانيهما ظهور الجرائد والمجلات منشورة فى كل مكان ، ومن هذا الباب عموم التليفون والتلغراف (البرق) الذى له سلك والذى لاسلك له ، وهكذا المسرة (التليفون) . كل هذه فى معنى الرق المنشور ، فهذان القسمان من الصحف المنشورة لم يكن لهما وجود قبل هذا الزمان أخبر عنها القرآن .

لم يكن فى الأرض أمة قط تعلم تعليما عاما أيام النبوة ، لم يكن فى دولة الرومان تعليم إلا لأبناء الأشراف ، وهكذا دولة الفرس الذين يجعلون التعليم لطبقة معلومة ، جاء القرآن وقال : « اقرأ باسم ربك الذى خلق خلق الإنسان من علق » .

كانت البراهمة تجعل الناس أربع درجات : فمنهم من هم كالرأس وهم رجال الدين ، ومنهم من هم كالصدر وهم رجال الجيش ، ومنهم من هم كالبطن ، ومنهم من هم كالرجلين ، ومعنى هذا أن الرق لم يكن منشورا عاما بل كان خاصا ، جاء الإسلام وعمم العلم وقال : « فى رق منشور » ولا نشر على الوجه الأكمل إلا فى هذا الزمان ، فهو يرمى لغرضين : الأول تعميم التعليم ، والثانى الإخبار عما حصل فى هذا الزمان من قولهم : (انتشار التعليم) وقولهم (تعميم التعليم) وقولهم (نشر الصحف) وقولهم (نشر المدنية والحضارة) وقولهم (نشر الكتب) وما أشبه ذلك .

نتائج هذه المعجزة القرآنية فى النفوس

إن نتائج هذا المقال فى العقول قسمان : القسم الأول ما يحصل فى عقول بعض المؤمنين من أمتنا فيفرحون بهذا القول ويقولون الله أكبر : إن نبينا حق والإسلام حق ويفرحون ؛ وهؤلاء هم الكسالى الغافلون الذين يقتصرون على الإيمان وهم نائمون (القسم الثانى) هم أهل الحكمة والبصيرة الذين سيقرءون هذا الكتاب وأمثاله ويدركون بنور البصيرة مستقبل الإسلام فيقولون : لم يذكر الله ذلك ليريد مجرد الإيمان كلا . وإنما يريد أن يحثنا نحن أبناء هذا الجيل على العلم والحكمة ، وأن نأخذ حظنا فى الأمم ومركزنا فى الحياة ، وهذا الفريق يقول : إن هذه الآيات حجة علينا ، فإذا كان الله نشر العلم فى العالم الإنسانى ؛ وأبرز مكنون الحكمة كالبحر المسجور والبيت المعمور ، وإذا كان جل جلاله يقسم بما هو فوق السموات العلى ، وبما هو تحت الأرض السفلى ، وبما بينهما من العلم المنشور ، وقد أقسم قبل ذلك بعجائب الرياح والسحاب والمطر التى بها كان نظام حياتنا ، وذلك بعد أن لفت عقولنا للسماء والأرض فى (سورة ق) . إذا فعل الله ذلك وكرره فليس له نتيجة إلا أن المسلمين إذا قصروا فى معرفة علوم العالم العلوى والسفلى لاسيما بعد ظهور الصحف المنشورة فى عصر العلم والعرفان فإنهم لا يستحقون الوجود ، وأن هذا الدين ينقل منهم إلى قوم آخرين ويسكن الله أرضهم قوما خيرا منهم لأنهم لا يصلحون للحياة ، فالناظر لهذه الأقسام من أرباب الفكر يحدون فى ارتقاء أمتهم خائفين من ربهم إذا قصروا فى العناية بما أقسم به .

أقول قولى هذا ، وأستغفر الله لى ولوالدى وللمسلمين والمسلمات ، وأسأل الله أن يفتح بهذا الكتاب بابا يلجه المسلمون للعلوم والعرفان ، وأن يكثر فى هذه الأمة من رجال العلم العاملين ، وإلى هنا تم الكلام على «سورة الطور» والحمد لله رب العالمين . كتب فى ٢٠ ربيع الثانى سنة ١٣٤٥ هجرية .

تفسير سورة النجم

هى مكية

إلا آية : «الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللمم إن ربك واسع المغفرة هو أعلم بكم إذ أنشأكم من الأرض وإذ أنتم أجنة فى بطون أمهاتكم فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى » فمدنية

آياتها ٦٢ ـ نزلت بعد الإخلاص

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ * مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ * وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ * عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ * ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ * وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ * ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ * فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ * فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ * مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ * أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ * وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ * عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ * عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ * إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ * مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ *

لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى * أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى * وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى *
أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنْثَى * تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى * إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا
أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ
وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى * أَمْ لِلْإِنْسَانِ مَا تَمَنَّى * فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَى * وَكَمْ
مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى *
إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةَ الْأُنْثَى * وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ
إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا * فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ
ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ
سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَى * وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا
بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى * الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا
اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ
فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى * أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى *
وَأَعْطَى قَلِيلًا وَأَكْدَى * أَعِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَى * أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ
مُوسَى * وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى * أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى * وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا
مَا سَعَى * وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى * ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى * وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى *
وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى * وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا * وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ
وَالْأُنْثَى * مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى * وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الْأُخْرَى * وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَى وَأَقْنَى * وَأَنَّهُ
هُوَ رَبُّ الشِّعْرَى * وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَى * وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَى * وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ
إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَى * وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى * فَغَشَّاهَا مَا غَشَّى * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَ
تَتَمَارَى * هَذَا نَذِيرٌ مِنَ النُّذُرِ الْأُولَى * أَزِفَتِ الْآزِفَةُ * لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ
كَاشِفَةٌ * أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ * وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ * وَأَنْتُمْ سَامِدُونَ
فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا *

هذه السورة ثلاثة أقسام

القسم الأول فى تفسير البسملة .

القسم الثانى فى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يوحى إليه ، وفى قربه من ربه ، من أول السورة إلى قوله : «لقد رأى من آيات ربه الكبرى» .

القسم الثالث : تقريع المشركين على جهلهم وكفرهم بعبادة الأصنام ، ونسبتهم البنات إلى الله ، وأخذهم بالظن وبخلهم ، وفى حكم علمية ، وفى صفات لله علية .

القسم الأول فى تفسير البسملة

إيضاح الرحمة فى البسملة فى (سورة النجم) وبيان أن الرحمة قد اكتنفت البسملة ، فإن فى آخر السورة قبلها رحمة كصلاة الليل ، وفى أول السورة بعدها إفاضة علمهم على الناس

آخر سورة الطور وأول سورة النجم

خواطرى فى صلاة الصبح يوم الخميس ٢٧ أغسطس سنة ١٩٣١

كتب هذا فى يوم الجمعة ٢٨ أغسطس سنة ١٩٣١ م

كنت أقرأ فى الركعة الثانية من صلاة الصبح أول سورة النجم ، فخطر لى فى الصلاة وبعدها ما يأتى : إن سورة الطور مختومة بقوله تعالى : « واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا وسبح بحمد ربك حين تقوم ومن الليل فسبحه وإدبار النجوم » إن آخر سورة الطور متصل بأول سورة النجم كأن الله يقول : أيها الناس قوموا الليل إلا قليلا ، تهجدوا فى آخر الليل ، وسبحوا واحمدوا ، ثم أخذ يقسم بالنجم مذكرا المصلى بالنجوم التى تقارن صلاته آخر الليل ، أقسم بالنجم ليذكر المصلى والمسبح والنجوم فى إدبارها آخر الليل إن الصلاة والتسبيح العاريتين عن الفكر ضعيفتا الأثر ، قليلتا الخطر ، لاهما فى العير ولا فى النفير ، وهل يقسم الله إلا بما هو جليل وعظيم ! والجليل والعظيم والآيات الكبرى هى التى إليها تتجه الأنظار وبها تطمئن القلوب :

(١) أقسم الله بالنجم وقال فيه : « وإنه لقسم لو تعلمون عظيم » لماذا هذا ؟ لأنه يعلم قبل أن ينزل القرآن لأهل الأرض أن أمما وأمما ستظهر بعد نزول القرآن ، وتدرس النجم ، وتفتح لها أبواب السماء والأرض ، وذلك بعلم النجوم ، ذلك العلم الذى به أمكن الناس السير فى المحيط الهادى والهندى والصينى والأطلسى والبحر الأبيض المتوسط وغيرها . يا سبحان الله : كيف يعرف الربان مكانه فى وسط البحار اللجية إلا بواسطة الآلة الفلكية التى لا اعتماد لها إلا على النجوم الثوابت والسيارات ، فإذا غفل ثانية طاح وضاع فى وسط اللجج ولات حين مناص .

(٢) أقسم الله بالنجم إذا هوى ، لأن النجم فى وسط السماء فى خط نصف النهار ، لا يعرف اتجاهه ، لكنه إذا هوى ومال إلى الغروب عرف اتجاهه فهدى السارين فى الصحراء . أقسم بهذا النجم الموصوف بهذه الصفة أن محمدا ما ضل وما غوى ، وكما أن النجم إذا هوى لا يصحبه فى هذه الحال ضلال ، هكذا محمد صلى الله عليه وسلم لا يصحبه ضلال ، بل هاد للناس كما يهدى ذلك النجم الربان .

(٣) أقسم الله بالنجم لأنه يعلم أن أمما وأمما تبحث فى مقادير الكواكب وأعدادها ، وهذا من آيات الله العظيمة ليرشد المسلمين إلى تلك الآيات ، إن سير نور الكوكب ١٨٦ ألف ميل فى الثانية أو ٣٠٠ ألف كيلومتر ، وهكذا الأمواج التى لا سلك لها وكلاهما يجرى حول الأرض فى سبع ثانية مرة واحدة ، ويجرى حول الكون كله نحو مائة مليون سنة ، إذن نسبة محيط الكرة الأرضية إلى محيط ما عرف من الكون

كنسبة سبع ثانية إلى مائة مليون سنة ، وأيضا إن الأرض إذا صغرت فصارت مقدار حجم الجوهر الفرد بلغ حجم السكون الذى عرفه الناس بأقوى التلسكوبات على هذه النسبة حجم الأرض مرة واحدة ، وبلغ حجم السكون كله على ما هو ممثل فى مذهب النسبية ألف مليون أرض منتشرة حولها فى الفضاء ، النظام الشمسى يشتمل على الشمس وتسعة سيارات تدور حول أكثرها أقمار ، وهذه الشمس وعالمها جزء من المجرة ، والمجرة فيها نجوم تبلغ ٣٠ ألف مليون نجم كلهن شموس كشمسنا أو أكبر أو أصغر ، ويقول الأستاذ (شابلى) أحد أساتذة علماء الفلك فى (هارفرد) إنها مائة ألف مليون نجم ، وقطر المجرة الأطول ٠٠٠و٢٢٠ سنة ضوئية ، أعنى أن الضوء الذى يسير فى الثانية ١٨٦ ألف ميل يقطع المجرة فى مائتين وعشرين ألف سنة بهذه السرعة ، وفى خارج هذه المجرة سدم لولبية أقربها إلينا يبعد عنا ٠٠٠ر٨٥٠ سنة نورية ، والسديم الواحد فيه مادة تكفى لتكوين ألفى مليون نجم ، ويقول الدكتور (هبل) إن تلسكوب مرصد جبل ولسن الذى قطر مرآته العاكسة ١٠٠ بوصة يستطيع الوصول إلى مليونين من هذه العوالم الجزرية يبعد أحدها عن الآخر نحو مليونى سنة ضوئية ، وأبعدها عنا يبعد ١٤٠ مليون سنة ضوئية ، والمنتظر أنه متى تم بناء التلسكوب الجديد الذى سوف يكون قطر مرآته ٢٠٠ بوصة تمكن الراصدون من الوصول إلى ١٦ مليون مجرة من هذه المجرات بدلا من مليونين . ويقدرون عمر الشمس بنحو خمسة ملايين مليون سنة ، وعمر الأرض بنحو ألفى مليون سنة ، وعمر الحياة عليها بنحو ٣٠٠ مليون سنة ، وعمر الإنسان عليها بنحو ٣٠٠ ألف سنة ، إن شمسنا التى تزيد عن أرضنا ألف ألف مرة وثلثمائة ألف مرة كوكب له توابع وسيارات ونيازك وذوات أذناب لاحد لها ، وهذا الكوكب وتوابعه واحد من ثلاثين ألف مليون شمس وهذه كلها تكون مجرتنا ، وهذه المجرة لها نظائر ، وهذه النظائر هى السدم اللولبية ، وكل سديم منها فيه شموس فى دور التكوين ، أو هو مادة سيأتى عليها ذلك الدور الذى فيه تحول إلى شموس ، وقد وجدوا أن كل سديم فيه مادة تكفى لتكوين ألف مليون شمس ، وفوق ذلك إن تلك المادة لطيفة جدا ، إذ يبلغ حجم كل جزء من مليون جزء من الأوقية منها حجم جبل مثل جبل (الماترهورن) وعلوه نحو ١٥ ألف قدم ، فنسبة كل من هذه السدم إلى جبل (الماترهورن) كنسبة ألف مليون شمس كشمسنا إلى جزء من مليون جزء من الأوقية . هذه صورة سعة السكون وشموسه (ولقد أوردنا كلاما يقرب من هذا فى سور كثيرة منها آخر سورة الكهف) . وقد قدر الأستاذ (هبل) أن هذه السدم التى وصفناها تبلغ نحو مليونى سديم كلها منتشرة فى الفضاء الذى يمكننا رؤيته بتلسكوب مرصد جبل ولسن ، وأن فى السكون فضاء يفوق الفضاء الذى يرى بالتلسكوب ألف مليون ضعف ، فعدد السدم فى الفضاء كله يبلغ نحو ألفى مليون مليون سديم ، فإذا كان فى كل سديم منها ألف مليون نجم كان عدد النجوم التى فى الفضاء المنظور وغير المنظور نحو (٢) على يمينها (٢٤) صفرا أى : ٠٠٠ر٠٠٠ر٠٠٠ر٠٠٠ر٠٠٠ر٠٠٠ر٠٠٠ر٠٠٠ر٢ — هذه هى الآراء التى وصل لها عقل الإنسان الآن ، وأن النجوم التى أعظم أمرها الله هذا عددها وهذه مقاديرها وبهذا نفهم لماذا يقول : « إنه لقسم لو تعلمون عظيم » إذن الله ما أقسم بالنجوم إلا لعظم قدرها والله يقول إننا لانعلم قدرها إلا إذا علمنا ، فهذا هو العلم ، هذا هو العلم الذى به نعرف قيمة النجم ، فإذا لم يتعلم المسلمون هذه العلوم فإنهم لايعرفون قيمة القسم بالنجم فى أول هذه السورة ، وهذه من عجائب القرآن التى خبأها الله فيه لتبرز لأبناء المسلمين الذين يقرءون هذا التفسير فى حياتنا وفيما بعدها ، ومن عجب أن آية : « وإنه لقسم لو تعلمون عظيم » جاءت فى سورة متأخرة عن سورة النجم وهى سورة الواقعة مشعرة بعظم هذا القسم ولله الحمد وله الشكر على العلم والفهم .

(٤) أقسم الله بالنجم على شرف الهداية المحمدية ليفتح لنا باب العرفان ، ولما فتح لى فى الصلاة ذلك الباب ولجت منه ، فدخلت فى دائرة المعارف ، فألفيت فيها تلاميذ مبتدئين ، وآخرين قد أتموا الدروس منتهين ، وفيها أساتذة معلمون مهذبون ، ولقد هالنى الأمر إذ وجدت فى هذه الدائرة كل ماجادت به الأمم المتحضرة فى دوائر تعليمها .

محاورة بينى وبين صديق العالم الذى اعتاد مجالستى فى هذا التفسير

فلما اطلع على ذلك صاحبى سكت واجما وقال نعم أحسنت فى ذكر النجوم وعددها ومقاديرها العظيمة وأحسنت أيضا فى ذكر القسم والإبداع فيه . وأن المسلم لن يعرف معنى هذا القسم ولا عظمته إلا بدراسة هذه العلوم حتى يعرف عظمة مبدع هذا الوجود ، هذا قول لامرية فيه وقد جمع الحسن كله ، فأما قولك إنك وأنت فى الصلاة قد دخلت فى دائرة العرفان ، وأن تلك الدائرة حوت كل نظام علمى فى الأمم المتحضرة ، فهذا من الأقوال التى اعتاد الناس أن يرسلوها سهلا ، ولعمر الله ماهذه بعادتك ، إن من نعم الله على أممنا الإسلامية أن الكتاب (بالتشديد) اليوم فيها يكتبون وأكثرهم يبرهن على مايكتب وأنت منهم ، فكان الأجدر أن تترك هذه الجملة الأخيرة وتحذفها من نظام هذا المقام . فقلت حياك الله أيها الأخ : لقد وقفت من الجملة على المبتدأ ولم تنتظر الخبر ، أو على الجملة ولم تصبر حتى ترى تفسيرها .

أيها الأخ : أنا جعلت الذين فى دائرة العرفان ثلاثة أقسام : قسم منهم مبتدئ ، وقسم منهم قد انتهى فى التحصيل ، وقسم بعد إتمام التحصيل يعلم غيره . قال نعم . فقلت : إن المبتدئ فى التعلم الآن فى بلاد الإسلام يجب على القائمين بتعليمه أن يقرنوا العلم بالتطبيق سواء أكان ذلك فى العلوم الرياضية أم الطبيعية أم الخلقية والأدبية ، أم فى العبادة . وأى أمة علمت تلاميذها الأخلاق بلا ممارستها ، أو الحساب بلا تطبيق ، أو النحو وما معه من علوم اللسان ، أو الدين بلا عمل ، فإن هذا التعليم لافائدة منه .

فعلى المسلمين فى الأزهر ، وفى المعاهد الدينية ، وجميع مدارس الإسلام فى الشرق والغرب أن يمرنوا التلاميذ من أول درس فى كل علم ، وذلك التمرين يختلف باختلاف العلوم ، وفى الدين يكون بالعبادة كالصلاة وكالتهجد ليلا ، وكالصدقات ، وكالصيام الخ .

فلما سمع صاحبى ذلك ظهرت عليه هيئة الانفعال والغضب ، وقال ماهذا الذى تقوله ؟ أين هذه الأقسام الثلاثة ؟ أنت إنما وصفت قسما واحدا وهم التلاميذ ، ولكنك لم تسمعنى من الآية شيئا ، فأما هذه الآراء فإنك تعرفها من المدارس ومن الكتب ، فأما الآية فما الذى فيها من هذا ؟ فقلت : إن الأقسام الثلاثة فى هذه الآيات فإن فى آخر سورة الطور التسبيح والتحميد ، وبعبارة أخرى قيام الليل ، وهذا من أعظم العبادات والعبادة تمرين على الإيمان ، لأن الأستاذ يقول للتلميذ «الله خالق كل شىء» فإذا لم يكرر التلميذ هذه المعانى فى الصلوات وغيرها حرم التمرين ، ومن حرم التمرين على النظريات عاش جاهلا ، فمن نشر التعلم الدينى ولم يمرن المؤمنين على تلك النظريات بالأعمال الصالحة فدينه ناقص لاثمرة فيه والتمرين فى كل شىء بحسبه ، فأما فى معرفة الله فبالعبادات كالصلوات ، وأما فى الأخلاق فبالتعود عليها كالتعود على الصدق وعلى عدم إخلاف الوعد وعلى الإحسان ، ويبتدئ ذلك من أول الدراسة من أول سنى التمييز ، إذن آخر سورة الطور يشير إلى التمرين على المعارف الإسلامية ، وذلك التمرين ضرب له مثلا بالتسبيح والتحميد فى كل وقت وفى آخر الليل هذا هو القسم الأول وهو القسم الابتدائى ، فإذا أخذ التلميذ فى الترقى شيئا فشيئا فى المعارف وقد أتقن الدور الأول بالتمرن على الطاعات فهو لاجرم يوما ما واصل إلى النهاية المشار إليها بقوله تعالى : «ولقد رآه نزلة أخرى عند سدرة المنتهى ، عندها جنة المأوى» وأخذ يصف تلك السدرة بأنها غشيها ماغشيها ، فهل

كان يغشاها فراش من ذهب ، أو يغشاها ملائكة كأنها الطيور ؟ أو غشيها نور الله ؟ ونبقها كقلال هجر وأوراقها كآذان الفيلة ، أو هي تحمل الحلي والحلل والثمار من جميع الألوان ؛ والورقة منها لو وضعت في الأرض لأضاءت لأهل الأرض وهي شجرة طوبى .

نحن لسنا في مقام أن الأحاديث حسنة أو صحيحة أو ضعيفة ، نحن في مقام عام ، إن هذه الأوصاف كلها إعراب عن العجائب الإلهية ، فلتكن أنوار ؛ وليكن فراش من ذهب ، أو لتكن حلي وحلل ، كل هذا عند حكماء الإسلام جمال الله وجلاله ، ولم يذكر في الأحاديث من جماله وجلاله إلا ماتحتمله عقولنا ؛ فهذه المناظر غاية ماتسمح به مخيلاتنا الضعيفة فتخرج من هذا المقام بنعمة عظيمة ، وحكمة قويمة ، وآية مبينة ، ونعمة حديثة قديمة ، وهي أن المقام جمال وجلال وحكمة وبهاء ، وهذا كله ليس يدركه إلا الذين كان مبدؤهم العبادة كالمذكور في آخر الطور ونهايتهم العلم بجمال الله وكماله ،وهو المشار إليه بقوله تعالى : «وقل رب زدني علما» فالنبي صلى الله عليه وسلم في كل وقت يزيد علما ، فلتكن سدرة المنتهى عظيمة جدا يسير الراكب في ظلها أو في ظل فرع منها مائة عام أو أكثر ، ولتكن الأنوار محيطة بها ، وليكن الفراش من الذهب حولها وليكن الجمال كل الجمال فيها ؛ فالمنتهون في العلم لن يقفوا في معارفهم عند حد ، لأن الوقوف عن الرقى عذاب للواقفين .

إن نهاية كل امرىء أن يزداد علما في كل ساعة من الزمان كما ورد عن سيدنا على كرم الله وجهه : «إذا طلعت شمس يوم ولم أزدد فيه علما فلا بورك لي في ذلك اليوم» وهذا هو الحق الصراح ، إذن هنا مرتبتان : مرتبة المبتدئين ، وهي أن يتمرنوا على الإيمان والاسلام بالعبادات ؛ ومرتبة المنتهين في العلم ، وهم الذين درسوا هذا الوجود وأدركوا حقائقه بقدر طاقتهم ؛

وأما الدرجة الثالثة فهم أولئك المنتهون في العلم إذ أخذوا يفيضون على تلاميذهم وعلى الأمة مما امتلأت به صدورهم ، فهؤلاء يفيضون على الناس من العلم الذى أحرزوه بالجد ، وثبتوه بالطاعة ، فصارت العلوم عندهم ملكات أشبه بالعواطف فيلقونها على الناس بعد إلقاء الأنبياء العلم للناس بالوحي ، وللاشارة إلى هذه الدرجة جاء أنه ماضل وما غوى ، وأنه ماينطق عن الهوى .

ومن عجب أن وصف النبي صلى الله عليه وسلم بأنه يوحى إليه وأنه ماينطق عن الهوى إنما ذكر بعد القيام بالليل مباشرة في السورة قبلها للاشارة إلى أن التمرن بالعبادة على قواعد الإيمان هو الأس الذى يبنى عليه نهاية العلم أولا وإفاضته على الناس ثانيا ، ولا جرم أن النبوة كانت على هذا المهيع ، فإنه صلى الله عليه وسلم كان يتعبد في غار حراء ، ثم أفيضت عليه العلوم بالوحي وأفاضها على الناس ، فهاتان المرتبتان مؤخرتان عن العبادات ، وهي التمرن العملي على القواعد الدينية .

فلما سمع صاحبي ذلك قال : هذه الآراء جميلة وهي من جهة أخرى غريبة ؛ فإذا أفضت فيها بشرح يكفل تبيانها بضرب أمثال تكون المقالة قد أثمرت وآتت أكلها بإذن ربها . فقلت اسمع ياصاح زادك الله هدى وآتاك تقواك ، ماذا يفعل الناس في تعلم النحو ؟ قال : يبتدئون بمعرفة الاسم والفعل والحرف ، ويركبون الجمل ، ويأتون بأقسام الأسماء ، والأفعال والحروف وما تفرع منها ، ويبينون النصب والرفع والجر وهكذا . فقلت : والصرف ؟ فقال : يأتون بالمصادر ويشتقون منها الأفعال وأسماء الفاعلين والمفعولين وهكذا . فقلت وعلم المعاني ؟ فقال : يأتون بالخبر والإنشاء ، والمسند ، والمسند إليه ، وحذفهما ، وذكرهما ، وتوابعهما ، وقصرهما والفصل والوصل ، والإيجاز والإطناب ، والمساواة ، وهكذا . فقلت : والبيان ؟ فقال يأتون بالتشبيه والمجاز والكناية وما أشبهها ، ويفصلون الكلام تفصيلا . فقلت : والبديع ؟ قال يأتون بالمحسنات اللفظية والمعنوية

كالجناس

فالجناس وأنواعه والطباق والاستخدام وهكذا ، فقلت : والحساب ؟ فقال : يجمعون ويطرحون ويقسمون ويضربون ، ويأتون بأبواب كثيرة مبنية على ذلك مثل الحطيطة الداخلية والخارجية ، وحساب الكسور ، وحساب اللوغارتم ، والقاعدة الثلاثية البسيطة والمركبة وهكذا . فقلت : والهندسة ؟ فقال يأتون فيها بالنقطة والخط المستقيم والمنحنى والسطوح والأجسام التعليمية والمربعات والمخمسات وهكذا ، والدوائر والكرات ، وسطوح الكرات ، والاسطوانة والمكعبات وهكذا ، والمخروط وما أشبه ذلك ، ويبنون بعض هذه على بعض فالخطوط تكون منها الزوايا ، ومن الزوايا الثلاث تكون المثلثات ، ومن المثلثات يكون من كل اثنين منها مربع ، وبازدياد مثلث آخر يكون المخمس ، وهكذا يقال فى مساحة محيط الدائرة ومساحة نفس الدائرة وسطح الكرة وحجم الكرة (انظر هذا المقام موضحا إيضاحا تاما فى سورة الروم عند قوله تعالى : « فطرت الله التى فطر الناس عليها » الخ) . فقلت : والطبيعة ؟ فقال : يأتون بأقسام الجسم من حيث إنه صلب أو سائل أو غاز ويأخذون فى تقسيم هذه الأجسام كلها ، ويبحثون فى خواصها ، وهى قسمان : خواص عامة لجميع الأجسام ، وخواص يختص بها أنواع من الأجسام ، فالمسام عامة فى الأجسام ، وكذا عدم التدخل ، ومثل السرعة فى الضوء ، وسرعة الصوت وهكذا ، ويبحثون فى الحرارة والضوء والصوت والكهرباء والمغناطيسية وهكذا ، فأما الكيمياء فإنهم يبحثون فيها عن اتحاد الأجسام بحيث تصبح بعد تركيبها فاقدة خواصها الأصلية كما فى تركيب الماء من الأكسوجين والأدروجين فإن خواص الماء ، وكذا خواص الحيوان والإنسان والنبات غير خواص العناصر التى تركبت منها. فقلت : بناء عليه يكون علم الطبيعة أقرب إلى علم المعانى ، ألا ترى رعاك الله أن الماء إذا صار ثلجاً أو صار بخاراً فإنه يكون أشبه بالمعنى الواحد يذكر بطرق مختلفة مرة بالإيجاز ، والمساواة أخرى والإطناب آونة فالمساواة كحال الثلج ، لأنه يكون أكبر من حجم الماء ، والماء كالايجاز ، والغاز كالإطناب ، وهكذا ترى علم البيان يقرب من الكيمياء ، فله بها نوع من الشبه بسيط لأننا نخرج عن اللفظ الحقيق ونتجوز له بلفظ فهو أشبه بانقلاب العناصر إلى مركبات بخواص جديدة .

فقال صاحبى حسن ما تقول . فقلت : كيف أجبتنى حين سألتك عن هذه العلوم ؟ فقال : تلك الإجابة حضرت عندى لأنى مرنت على هذه العلوم . فقلت حسن جدا ، وهناك علم آخر يعوزه التمرين مثل هذه العلوم ، فإذا كان النحوى وعالم الحساب والهندسة لا يحسن أحدهم إفاضة هذه العلوم على الناس إلا إذا ثبتت تلك العلوم فى نفسه بسبب التمرين وقتا بعد وقت فيركب جملا معربة أو مبنية ويصرف المشتقات ويأتى بعمليات الحساب ويحلها ويحل مسائل الهندسة والطبيعة ، ويدخل المعمل بالمدرسة لأجلها ولأجل الكيمياء ، وهكذا هناك علم آخر له تلاميذ يتعلمون ويصيرون أساتذة ، ولن يفيضوا العلم على الناس إلا بعد أن يثبتوا قواعد ذلك العلم بالتمرين ، ومن هم هؤلاء الناس ؟ هم هداة النفوس ، فأما العلماء المتقدمون فإنما يعلمون أموراً أقرب إلى الأجسام الحسية ، أما هداة النفوس فعلومهم وتماريتهم كلها نفسية ، وهؤلاء لن تعيش أمة فى الأرض إلا بأن يكون هؤلاء منبثين بين أفرادها ، وعلم هؤلاء معرفة الله وتوحيده ، وتمرينهم هى الصلوات ، فإذا قرأ الناس دينا ولم يمرنوا نفوسهم على صلواته فإن هذا الدين لا يرفع هذه الأمة كما لا يرفع علم الحساب ولا علم النحو صاحبيهما إلا إذا كانا قد تمرنا على هذين العلمين ، فإذا سمعنا الله يقول فى آخر سورة الطور : « وسبح بحمد ربك حين تقوم ومن الليل فسبحه وإدبار النجوم » قلنا هذا هو تمرين هذه الطبقة على قواعد علمهم كما يتمرن النحوى على المرفوع والمنصوب ، فالنحوى يحفظ لسانه بذلك التمرين ، وهذا العالم النفسى الذى يرفع نفسه بالصلاة وتصبح نفسه ذات صلة بخالقه لكثرة التكرار فى الصلوات كما يتكرر الحل لمسائل الحساب

فذاك يحل مشاكل الحساب بسهولة وهذا تتوارد المعانى على قلبه بسبب تكرار الصلوات والعبادات ، وهذا هو السر فى ذكر الوحى بعد قيام الليل .

اسمعى يا أمة الإسلام : يجب تغيير المناهج الحالية ، أظهروا عواطف الإسلام ، لاتبتدئوا بعلم الفقه كرة واحدة بحذافيره ، بل يجب الابتداء بما يرقق القلوب ويصفيها ، فتذكرون صفات رسول الله صلى الله عليه وسلم ورحمته وأخلاق أبى بكر وعمر وعثمان وعلى ؛ وليحذف من التعلم كل خلاف شجر بين الصحابة ، ثم لتسمعوهم جمال الطبيعة المسمى بعلم الأشياء مقرونا بالآيات القرآنية ، وأنتم فى ذلك تصلون معهم صلاة حاضرة فيها قلوبهم ، بل مروهم أن يقوموا بالليل كما كان يفعل رسول الله صلى الله عليه وسلم فهذا التمرين لابد منه حتى يثبت حب الله فى قلبه ويمتزج بدمه ، ثم بعد ذلك ادرسوا علوم الفقه والأصول والعلوم الأخرى كما تشاءون .

لماذا وجب المران فى كل شىء

قد ظهر أن المادة ليست شيئا مذكورا ، اللهم إلا أنها أنوار متحركة اجتمعت وقد اختلفت مظاهرها باختلاف حركاتها (انظره فى سورة النور عند آية . الله نور السموات والأرض) .

ياعجبا : إذن أجسامنا نور متكاثف ولكنه متحرك حركات سريعة جدا تبلغ نحو ستة آلاف مليون مليون حركة فى الثانية ، ثم إن هذه الأجسام لاتظهر ثمراتها إلا بالحركات كأن ندلك الأجسام بهيئة خاصة فتكون الكهرباء ، كأنها لما كانت دائمة التحرك أبت أن يستخرج مافيها من الأسرار إلا بحركات جديدة غير حركاتها الطبيعية ، العالم حركات منظمات لاغير فى شىء سوء الأثير ، ولن تستخرج كنوز المادة إلا بالحركة أيضاً ، ولوأمكن استخراج مافى الجوهر الفرد بأى عمل كان وخرج منه ما كان كامنافيه لأخرج حرارة وضوءا بهما تصبح الأرض مشتعلة جميعها . هذا كلام علماء زماننا .

الله أكبر : إذن نحن الآن فى وسط عجائب وغرائب ، إذن جسمى أنا فيه من الكنوز مالا حصر له ، وذلك فى ذراته هو المادية ، وإذا كان جسمى على هذا النمط فكيف بأرواحنا ! تلك الأرواح التى لها صلة ما بصانع العالم ، وهو على طريق المجاز نور وشعاع من إبداعه فلها قرب ما ، ولكن لن يستخرج ما كمن فيها إلا بالعبادات لأنها تكرار وتمرين على القواعد الكلية للدين ، فيها يذكر اسم الله ، ويذكر نعمه ، ويتوجه العبد إليه .

فإذا كان الجوهر الفرد باستخراج ما كمن فيه إن أمكن يقلب الأرض كلها ، فرجل واحد إذا استخرجت قواه بالصلوات والعبادات ، وكان ذا قلب سليم محب للعلم مخلص فهذا يقلب نوع الإنسان كله أو بعضه ، وهؤلاء هم الأنبياء ويتبعهم المخلصون المحققون من أممهم .

وملخص هذا المقام أن العلوم لايتم الانتفاع بها إلا بالتمرين ، وأجل العلوم معرفة الله ، وهذه لاتتم إلا بالعبادات ، وهذه العبادات مثبتات لتلك المعرفة ، معينات على تلقى ذلك العلم إلى النهاية فيصل لربه ويصير مرشداً للأمم ، والنبى صلى الله عليه وسلم كان يصلى بالليل ، ورأى من آيات ربه الكبرى ، وأوحى إليه ، فهدى الناس ، وهكذا تابعوه الخاصون من هذه الأمة لكنهم لايوحى إليهم بل يهتدون بهديه ويصلون ، وخواصهم يقومون الليل كما كان يقوم ، ويتعلمون ويفتح عليهم ، ويقرءون علوم الأمم حتى إذا ماسمعوا أن شجرة المنتهى يسير الراكب فى ظل كل فنن من أفنانها مائة سنة ، أو يستظل بظلها مائة ألف راكب فإنه يقول إن العلوم اليوم قربت هذه المسائل لأننا إذا رأينا فى السدم المتقدم ذكرها وهى ألفا مليون مليون سديم وكل سديم منها فيه ألف مليون شمس على الأقل ، والضوء يجرى فى مجرتنا وحدها مئات الألوف من السنين

فهذا

فهذا معناه أن عالم المادة مدهش وعجيب فكيف بعالم الغيب الذي لا يعرفه إلا الأنبياء ، فأصبحت العلوم اليوم مفهمات ومقربات لمسائل الدين .

فلما سمع ذلك صاحبي قال الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات . وإلى هنا تم الكلام على القسم الأول في تفسير البسملة . انتهى ليلة السبت ٢٩ أغسطس سنة ١٩٣١ م

مقدمة : في مناسبة هذه السورة لما قبلها

لقد ختمت السورة المتقدمة بعبادات تقرب العبد من الله ، وأخلاق شريفة : كالصبر على ما يصيب الإنسان ، وأن يقول المرء عند القيام من الليل ، وعند القيام إلى الصلاة ، وعند القيام من أي مجلس كان : « سبحانك اللهم وبحمدك » ونحوها وبالعبادات ليلا ، كصلاة المغرب والعشاء ، وكصلاة ركعتين بعد الفجر إذا أدبرت النجوم ، وهما ركعتا الفجر قبل الفرض كما أن إدبار السجود الركعتان بعد المغرب ، فهذه العبادات مذكرات بالله ، مقربات العبد من ربه ، لأن كثرة الذكر تؤثر في النفس ، تستحضر المذكور استحضارا تقر به النفس على طول الزمان ، وذلك هو الذي يهيء النفس الإنسانية للإلهام في عامة الناس وللوحي في الأنبياء ولقد كان صلى الله عليه وسلم يتعبد في غار حراء فأوحى إليه ، فهاهنا ذكرت العبادة في آخر (سورة الطور) وأتبعت بالوحي في (سورة النجم) تعليما للأمة أن من أكثر من ذكر الله عند قيامه من النوم ، ومن مجلسه ، وللصلاة ، وصلى المغرب والعشاء بحضور قلب ، وفي بعض الليل ، وركعتي الفجر ، فإنه أقرب إلى الإلهام من غيره .

وينبغي لمن يتصدى لإرشاد الأمة أن يكون هذا خلقه ، فإن لم يفعل ذلك كانت آثاره ضائعة في الأمة لأن النفوس التي لا تشرق بذكر الله لا تؤثر في الأمة ، وكأن الذاكر باقتراب قلبه من المذكور يتجلى عليه فيفيض العلم على قلبه فتحس النفوس بذلك الفيض فتقبله . وفي ذكر إدبار النجوم وتعقيبه بالنجم إذا هوى مناسبة لطيفة ، وكأنه يقول : أيها الناس ، إنه صلى الله عليه وسلم يقوم الليل ويصلي المغرب والعشاء ، ويذكر الله عند قيامه من النوم ، وعند قيامه للصلاة ، ويصلي ركعتي الفجر ، فهو في عبادة إلى مطلع الفجر إذا أدبرت النجوم فاستحق بذلك أن أفيض عليه العلم والوحي ، وذلك في :

القسم الثاني : في أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يوحى إليه . وفي قربه من ربه

التفسير اللفظي

بسم الله الرحمن الرحيم

(والنجم إذا هوى) أي أقسم بجنس النجوم إذا غربت أو طلعت ، يقال هوى هويا (بالفتح) إذا سقط وغرب ، وهويا (بالضم) إذا علا وصعد ، أو بالنجم من نجوم القرآن إذا نزل ، فالنجم السماوي عند شروقه وعند غروبه يشعر النفوس بجمال الإبداع وحكمة الخلق وهكذا نجم القرآن وقد نزل القرآن في عشرين سنة ، أقسم الله بذلك وجواب القسم قوله (ماضل صاحبكم) ما عدل محمد صلى الله عليه وسلم عن الطريق المستقيم (وما غوى) وما اعتقد باطلا ، والخطاب لقريش (وما ينطق عن الهوى) أي بالهوى : أي لا يتكلم بالباطل ، وذلك رد لقولهم : إن محمدا يقول القرآن من تلقاء نفسه (إن هو إلا وحي يوحى) أي ما القرآن إلا وحي يوحيه الله إليه (علمه شديد القوى) ملك شديد قواه وهو جبريل ، ويقال إنه اقتلع قرى قوم لوط وحملها على جناحه ، ورفعها إلى السماء ، ثم قلبها ، وصاح صيحة بثمود فأصبحوا جاثمين ، هذا هو الذي يقوله علماء التفسير رحمهم الله ، وقد جاء في علم الأرواح الحديث أن للأرواح من القوى ما يعجز البشر ، وكلما ارتقت الروح كانت أعلم وأقدر على الأفعال العظيمة ، ولقد مر عليك في هذا التفسير في (سورة البقرة) ما رأيته

خمسة عشر ألف نفس إلى مجلس الأعيان فى الولايات المتحدة وقولهم : إنا رأينا أنوارا وسمعنا أصواتا وشهدنا زلزلة وأمورا عظاما ، فها نحن أولاء جئنا إلى مجلسكم الموقر لنستجلى حقيقة الأمر فى ذلك ، وهذا عند استحضار الأرواح إلى آخر ماهناك وقد ذكرته هناك بلفظه فارجع إليه ، وإذا كان هذا فى الأرواح التى فارقت أرضنا فما بالك بالأرواح العلوية كجبريل ، فانظر للعلم الحديث كيف أظهر ما كان العقل لايصدقه وإنما يؤمن الناس به إيمانا ، فالملائكة أقوياء الأجسام فى عقولهم حصافة رأى وتدبير وحكمة ، وهذا هو قوله (ذو مرة) ولعلك تذكر ما مر فى هذا التفسير نقلا عن علماء الطبيعة فى أوروبا لاسيما (أوليفرلودج) وقوله : «إنى أصبحت موقنا أننا يحيط بنا عالم نحن بالنسبة إليه كالنمل بالنسبة لنا وهم يساعدوننا ويحافظون علينا ويقول هذا وقفت عليه بطريق على يريد تحضير الأرواح ، ثم قال : فاذن ماقاله القديسون من أنهم رأوا الملائكة ، أو أنهم رأوا الله ، كل ذلك حق لامرية فيه ؛ وهذا من عجائب القرآن ، إن سمعياته أصبحت اليوم تذاع بين الناس بصفة علوم روحية وكشف حديث ، وذلك هو قوله تعالى : «سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم» فقوله «فى الآفاق» راجع لما كشف حديثا كالبحر المسجور المتقدم ، وقوله «وفى أنفسهم» كقوله «شديد القوى ذو مرة» فإن القوة الجسمية والعقلية للعالم الروحى قد ظهرت بطريق علم الأرواح ، وهذا يستحيل أن يعرفه الناس إلا بالاستحضار أو التنويم المغناطيسى ، وكلاهما لن يكون إلا بالأنفس البشرية ، فإن التنويم المغناطيسى معناه انخلاع النفس عن البدن انخلاعا جزئيا أو كليا وهى به مربوطة وهناك تتصل بالعوالم الروحية ، فإذن معرفة العالم الروحى لم تتم إلا بواسطة أنفسنا ، ولعلك تذكر ما مر فى (سورة البقرة) من تنويم المريض حتى اطلع على مرضه وعلى دوائه ، وبين أوقات المرض للقبلة بالدقة ، وبين الأدوية اللازمة . وهذا كان أمام أكابر الأطباء بفرنسا كما شرحته هناك ، وتم كل هذا بعد الامتحان الدقيق والحرص الشديد والانتباه التام ، فهذه النفوس الإنسانية المتعلقة بأجسامنا هذا شأنها ، ومن شأنها أن تنطلق وتكلم الأرواح الأخرى كما عرفت ، فهذا هو المقصود من إراءتنا آيات الله فى الأنفس والآفاق . ولقد تجلى لك فى هذا التفسير أكثر ماتجلى فى الآفاق من عجائب الطبيعة ، وما تجلى للأنفس من علم الأرواح والملائكة ، وسترى بعد ذلك مايظهر من العجائب ، فعلى المسلمين أن يفكروا فيها ، وأن يعلموها ، وقوله (فاستوى وهو بالأفق الأعلى ، ثم دنا فتدلى ، فكان قاب قوسين أو أدنى ، فأوحى إلى عبده ماأوحى) أى استقام على صورته الحقيقية التى خلقه الله عليها حين أحب رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يراه فى صورته الحقيقية ، فظهر له فى الأفق الأعلى : وهو أفق الشمس ، فملأ الأفق ، ثم أخذ جبريل يدنو من رسول الله صلى الله عليه وسلم ويتدلى : أى يزيد فى القرب والنزول بقرب النبى صلى الله عليه وسلم حتى كان منه مقدار قوسين ، والعرب تقدر بالقوس وبالرمح وبالسوط وبالذراع والباع : أى فكان مقدار مسافة قربه مثل قدر قوسين أو أقرب على تقديركم ، وعلى مقدار فهمكم : إذ تقولون قدر رمحين أو أنقص ، وليس بعد التدلى والقرب إلا الوحى ، فأوحى جبريل إلى عبد الله محمد صلى الله عليه وسلم ماأوحى ، عبر بذلك تفخيما للوحى به ، مثل أنه أوحى إليه «ألم يجدك يتيما فآوى ، ووجدك ضالا فهدى ، ووجدك عائلا فأغنى ، فأما اليتيم فلا تقهر ، وأما السائل فلا تنهر ، وأما بنعمة ربك فحدث» وهذا من عظائم الأمور ، ولا جرم أن ظهور الأرواح فى صور مرئية أصبح الآن معروفا ، وقد قص علماء الأرواح عجائب ، إذ تظهر الروح فى صور بشرية وصور نورية وتخاطبهم ، وذلك فى حال التنويم المغناطيسى ، وتحضر الفواكه ، وقدتم ذلك فى جهات كثيرة من الأرض والمسلمون لايعلمون ، وقد ذكرت كثيرا من هذا فى هذا التفسير فى مواضع كثيرة ، ظهر ذلك على يد الأمم الأوروبية من أرواح ليست فى شرف جبريل ، ولا هى متنزلة على أنبياء ، بل على

أناس امتازت قواهم بأنها مستعدة للتنويم المغناطيسي وإن لم تكن قدسية كأرواح الأنبياء ، فإذا صح هذا بالنسبة لآحاد الناس اليوم فليكن للأنبياء من باب أولى بطريق يناسب مقامهم ، إذ لاتتجلى الأرواح إلا بالمناسبة بين المتجلى والمتجلى عليه ، وهاهنا ظهر جبريل لنبينا صلى الله عليه وسلم وتبدت صورته له صلى الله عليه وسلم وهذا راجع لقوله : «شديد القوى» لأن ظهوره فى صورة مرئية راجع لقوته وشدتها ، وقوله: «فأوحى إلى عبده ماأوحى» راجع لقوته العلمية : أى قوله «ذو مرة» فهو على سبيل اللف والنشر المرتب ولما كان الإنسان كثيرا مايظن أنه قد تخيل مارآه ويكذب قلبه ماظهر له ؛ بل قال علماء الأرواح إنهم لما خاطبوا الأرواح قالوا لهم : إنكم كثيرا مايظهر لكم عجائب روحية فتظنونها من الوهم وتنسبونها إلى خداع الحواس ، فالناس فى أكثر أحوالهم يكذبون مايقع لهم من غرائب الأرواح مع أن فيهم من هم أقرب استعدادا لتجليها ، فلما كانت هذه عادة الناس أعقبه الله بما يفيد أن النبى صلى الله عليه وسلم لم يقم بنفسه إن هذا خداع الحواس ولا أنه وهم فقال (ما كذب الفؤاد مارأى) أى ماقال فؤاده لما رآه لم أعرفك كما يحصل لبعض العامة بعض التجليات الجزئية فيظنونها وهما لأنهم ليسوا مؤيدين من الله (أفتمارونه على مايرى) أفتجادلونه على مارآه بعينه تلك الليلة ، بل صدقه وحققه (ولقد رآه نزلة أخرى ، عند سدرة المنتهى) أى ولقد رآه مرة أخرى كما رآه هذه المرة فكان ظاهرا له بهيئته ، فكان قاب قوسين أو أدنى ، فأوحى إلى محمد صلى الله عليه وسلم لما حصل فى الأولى حصل فى الأخرى ، ولم يكن ذلك فى الأرض ، بل كان عند شجرة نبق فى السماء السابعة عن يمين العرش ، وهى فى منتهى الجنة أى آخرها ولم يجاوزها أحد فى الرقى من الخلائق وعلم الملائكة ينتهى إليها ، وما وراءها غيب لايعلمه إلا الله ، وأرواح الشهداء أيضا تنتهى إليها ، أو هى منتهى مايعرج من الأرض فيقبض منها ، وإليها ينتهى مايهبط من فوقها فيقبض منها . وفى الحديث أن نبقها كقلال هجر ، وإن أوراقها كآذان الفيلة ، وقد غشيها من نور الله ماغشيها فتغيرت فما أحد من خلق الله يستطيع أن ينعتها من حسنها ، ومن وصفها أن الراكب يسير فى ظل الفنن منها مائة سنة ، أو يستظل بظلها مائة ألف راكب فيها فراش الذهب، ووصفها مقاتل أنها شجرة تحمل الحلى. والحلل والثمار من جميع الألوان ولو أن ورقة وضعت منها فى الأرض لأضاءت لأهل الأرض ، وهى شجرة طوبى التى ذكرها الله فى (سورة الرعد) ولقد فهمت من هذا الملخص قوله تعالى (عندها جنة المأوى ، إذ يغشى السدرة مايغشى) أى رآه إذ يغشى السدرة مايغشاها من الخلائق الدالة على عظمة الله وجلاله ، ومن الأنوار والإشراق والبهجة والحسن والنضارة ، ومن الملائكة ، ومن فراش الذهب ، من كل ماورد فى الحديث (مازاغ البصر) أى بصر رسول الله صلى الله عليه وسلم أى ماعدل عن رؤية العجائب التى أمر برؤيتها ومكن منها ، وما مال يمينا ولا شمالا (وما طغى) وما جاوز ماأمر برؤيته (لقد رأى من آيات ربه الكبرى) أى والله لقد رأى الكبرى من آياته وعجائبه الملكية والملكوتية ليلة المعراج ، ومنها نور رب العزة الذى غشى السدرة فلم يزغ بصره ، بل ثبت فى ذلك المقام الذى تزل فيه الأقدام حافظا قواه ، والآيات الكبرى منها ماذكر ومنها مالم يذكر ، ومنها أنه رأى رفرفا أخضر سد أفق السماء ، وأنه رأى جبريل له ستمائة جناح .

ثم كأن الله يقول : هذا وصف مارآه ، فما ذا رأيتم أنتم أيها المشركون ؟ فهل ترون فى اللات والعزى ومناة من العجائب مارأى محمد ؟ وكيف تحصرون نفوسكم فى العالم المادى وأصنامه وتقطعون على أنفسكم طريق الوصول والارتقاء ، إن النفس لاترقى إلا بما استعدت له ، فإذا وقفت نفوسكم عند هذه المادة وأصنامها لم يكن لها عروج إلى السماء .

القسم الثالث : تقريع المشركين على جهلهم وكفرهم بعبادة الأصنام
ونسبتهم البنات إلى الله ، وأخذهم بالظن وبخلهم ، وفى حكم علمية ، وفى صفات لله علية

قال تعالى (أفرأيتم اللات والعزى ، ومناة الثالثة الأخرى) هذه الثلاثة أصنام كانت لهم ، فاللات كان رجلا يلت السويق للحاج ، فلما مات عكفوا على قبره يعبدونه ، ثم صنعوا له صورة تعبد ، والعزى شجرة بغطفان كانوا يعبدونها فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم خالد بن الوليد فقطعها ، فجعل يضربها بالفأس ويقول :

يا عز كفرانك لا سبحانك إنى رأيت الله قد أهانك

ومناة صخرة كانت لهذيل وخزاعة ، أو لثقيف ، وكانت دماء النسائك تمنى عندها أى تراق ، وقوله صفة ذم : أى المتأخرة الوضيعة المقدار كما فى قوله تعالى : « وقالت أخراهم لأولاهم » أى وضعاؤهم لرؤسائهم وأشرافهم ، ولفظ الأخرى متعارف بين أبناء العرب المصريين بهذا المعنى فيقولون هو الآخر وهي الأخرى بمعنى الضعة ، وتأخر القدر والشرف .

ولما قرعهم على تنزل عقولهم لعبادة الأصنام ، وتناهيها فى الجهالة ، وسقوط المنزلة عن المقام الأرفع عند سدرة المنتهى أخذ يذكر جهالات أخرى من جهالاتهم فقال (ألكم الذكر وله الأنثى) كانوا يزعمون أن هذه الأصنام هياكل للملائكة ، أومواطن لجنيات تسكنها ، والملائكة والجنيات بنات الله ، أفرأيتم هذه الأصنام الثلاثة (ألكم الذكر وله الأنثى) تقريعا لهم وتوبيخا ، إذ يجعلون هذه الهياكل لبنات الله من ملائكة أو جن ، وهم يأنفون من البنات ، ويصطفون الذكور . فكأن الله قد منحهم ما حرمه على نفسه ، فقوله « أفرأيتم اللات والعزى ، ومناة الثالثة الأخرى » مفعوله الثانى « ألكم الذكر وله الأنثى » كقوله « أفرأيتم ما تمنون ،أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون » (تلك إذن قسمة ضيزى) جائرة حيث جعلتم له ما تستنكرون منه وهى فعلى كفضلى من الضيز : وهو الجور ، لكن كسرت فاؤه لتسلم الياء . (إن هي إلا أسماء) أى إن الأصنام من حيث الألوهية إلا أسماء تطلقون عليها وتقولون إنها آلهة وليس فيها شىء من معنى الألوهية (سميتموها) أى سميتم بها (أنتم وآباؤكم) بهواكم (ما أنزل الله بها من سلطان) برهان (إن يتبعون إلا الظن) إلا توهم أن ما هم عليه حق تقليداً وتوهما باطلا (وما تهوى الأنفس) وما تشتهيه أنفسهم (ولقد جاءهم من ربهم الهدى) الرسول أوالكتاب (أم للانسان ما تمنى) بل أللانسان ما يتمناه : أى ليس له كل ما يتمناه ، إذن ليس لهم مطمع فى شفاعة الآلهة المخترعة وليس لهم أن يطمعوا حيث يقولون : « ولئن رجعت إلى ربى إن لى عنده للحسنى » ويقولون « لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم » وما أشبه ذلك ، ومثل هذا أمانى الإنسان فى نفسه أوأمته ، فالله هو المدبر ، وعلى الإنسان العمل والجد (فلله الآخرة والأولى) يعطى منهما ما يشاء لمن يريد وليس لأحد أن يتحكم عليه فى شىء منهما (وكم من ملك فى السموات لا تغنى شفاعتهم شيئا) أى وكثير من الملائكة لا تغنى شفاعتهم شيئا ولا تنفع ، فإذن أمر الشفاعة ضيق فإن الملائكة مع قربهم من ربهم وكثرتهم لو شفعوا بأجمعهم لأحد لم تغن شفاعتهم قط ولم تنفع إلا إذا شفعوا من بعد أن يأذن الله لهم فى الشفاعة لمن يشاء الشفاعة له ويرضاه ويراه أهلا لأن يشفع له . وإذا كان هذا أمر الملائكة الذين هم عالم روحى أقرب إلى الرب من الأصنام وعبادة الأصنام ، فكيف يكون الأمر إذن فى أصنام أرضية ميتة لا روح لها فى غاية البعد عن ذلك المقام الأقدس ، وبهذا فهمت قوله تعالى (إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى ، إن الذين لا يؤمنون بالآخرة ليسمون الملائكة) أى كل واحد منهم (تسمية الأنثى) بأن سموه بنتا (وما لهم به من علم) أى وما لهم بما يقولون من علم (إن يتبعون إلا الظن وإن الظن لا يغنى من الحق شيئا) فإن الحق الذى هو حقيقة الشىء وما هو عليه إنما يعرف بالإيقان لا بالظن والتوهم (فأعرض

أى

عمن تولى عن ذكرنا) فأعرض عمن رأيته معرضا عن ذكر الله وهو القرآن (ولم يرد إلا الحياة الدنيا ذلك) أى اختيارهم الدنيا والرضا بها (مبلغهم من العلم) منتهى علمهم (إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بمن اهتدى) يقول إنه يعلم من استعد للهداية ومن ليس أهلا ، فلا تتعب نفسك فى دعوتهم إنما عليك البلاغ (ولله مافى السموات وما فى الأرض) خلقا وملكا وعبيدا يهدى من يشاء ويضل من يشاء (ليجزى الذين أساءوا بما عملوا) أى بعقاب عملهم (ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى) أى بالمثوبة بالحسنى وهى الجنة على مقتضى النظام الذى وضعه بحيث يسير كل فى الطريق الذى قدره له الله على مقتضى الاستعداد . ثم وصف المحسنين فقال (الذين يجتنبون كبائر الإثم) أى الذنب الذى يستحق صاحبه العقاب (والفواحش) جمع فاحشة ، وهى ماعظم قبحه من الأفعال والأقوال (إلا اللمم) إلا ماقل وصغر من الذنوب أو مقاربة المعصية من غير مواقعة ، فهذا مغفور من مجتنبى الكبائر ، والاستثناء منقطع (إن ربك واسع المغفرة) حيث يغفر الصغائر باجتناب الكبائر ، وله أن يغفر مايشاء من الذنوب صغيرها وكبيرها ، وإنما ذكرها هنا لئلا ييأس صاحب الكبيرة من رحمة الله ، والكبيرة كل ذنب ختمه الله بنار ، أو غضب ، أو لعنة ، أو عذاب أو حد فى الدنيا ، أو أقدم صاحبه عليه من غير استشعار خوف أو ندم ، أو ترتب عليه مفاسد كبيرة ، ولو كان فى نظر الناس صغيرا ، فمن أمسك إنسانا ليقتله ظالم ، أودل العدو على عورات البلاد ، فقد فعل كل منهما أمرا عظيما فيكون أكل مال اليتيم بالنسبة لهذين قليلا جدا مع أنه من الكبائر ، ولو كذب على إنسان كذبا يعلم أنه يقتل بسببه فهذا من الكبائر أيضا ، فأما إذا كذب عليه وترتب على الكذب أخذ تفاحة منه فليس من الكبائر . يقول الله إنه واسع المغفرة (هو أعلم بكم) أعلم بأحوالكم منكم (إذ أنشأكم من الأرض وإذ أنتم أجنة فى بطون أمهاتكم) أى علم أحوالكم ومصارف أموركم حين ابتدأ خلقكم من التراب وحين صوركم فى الأرحام (فلا تزكوا أنفسكم) تنسبوها إلى زكاء العمل ، وتثنوا عليها بزيادة الخير والطاعات ، أو بالطهارة من المعاصى ، فدعوا الثناء عليها واهضموها ، إن الله علم الزكى منكم ، والتقى أولا وآخرا قبل أن يخرجكم من صلب آدم ، وقبل أن تخرجوا من بطون أمهاتكم .

وسبب ذلك أن ناسا كانوا يعملون أعمالا حسنة ويقولون صلاتنا وصيامنا وحجنا ، وكان ذلك على سبيل الإعجاب والرياء ، وليس على سبيل الاعتراف بالنعمة فإنه جائز ، والمسرة بالطاعة طاعة ، وذكرها شكر مالم تصبح كالحجاب على النفس فتمنع مايرد عليها من الواردات كما تقدم منقولا عن الإمام الغزالى فى (سورة آل عمران) وهذه الآية كآية : « إن ذلك فى كتاب إن ذلك على الله يسير لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم » فهناك يقول : كل شىء فى كتاب ، فما جاءكم من نعمة أوفاتكم منها فينبغى أن لايؤثر فيكم فرحا ولا ترحا لأنا نحن كتبناه فى كتابنا ، فكهذا هنا يقول : لاينبغى تزكية النفس لأن ماعملناه مقدر . وملخص الآيتين أن الكامل لايفرح بنعمة ، ولا يحزن بنقمه ، ولا يفتخر بفضل ، لأنه لاعمل له ولاتقدير والعمل لله وحده ، وهذه مرتبة شريفة متى وصلها الانسان كان سعيدا ، وهذه هى التى نقولها فى صلواتنا فى الرفع والاعتدال : « أهل الثناء والمجد أحق ماقال العبد ، وكلنالك عبد ، لامانع لما أعطيت ، ولامعطى لما منعت ، ولاراد لما قضيت ، ولا ينفع ذا الجد منك الجد » فهذا الدعاء يقصد منه الاستكمال بهذه المنقبة الشريفة ، وقوله (هو أعلم بمن اتقى) أى يعلم التقى وغيره منكم قبل أن يخرجكم من صلب آدم (أفرأيت الذى تولى) أعرض عن الإيمان (وأعطى قليلا وأكدى) قطع عطيته وأمسك ، وأصل ذلك أن الحافر تلقاه كدية أى صخرة عظيمة فيمسك عن الحفر (أعنده علم الغيب فهو يرى) أن الكفر والبخل من الأعمال النافعة عند الله (أم لم ينبأ بما فى صحف موسى) أى بل ألم يخبر بما فى صحف موسى وهو التوراة

(وإبراهيم) أى وصحف إبراهيم (الذى وفى) أى وفى وأتم فما أمره الله بشىء إلا وفى به ولم يسأل مخلوقا، فلما قذف فى النار قال له جبريل : ماحاجتك ؟ فقال أما إليك فلا ، وأيضا صبر على نار النمروذ وذبح ولده وقد كان يمشى كل يوم فرسخا يرتاد ضيفا فإن وافقه أكرمه وإلا نوى الصوم . ثم ذكر الله مافى صحفهما، وهو ما يأتى :

(١) أن لايؤاخذ الإنسان بذنب غيره .

(٢) ولا يثاب إلا على عمله .

(٣) وأن عمله سوف يرى يوم القيامة فى ميزانه .

(٤) وأنه يجازى عليه الجزاء الأوفر .

(٥) وأن انتهاء الخلائق ورجوعهم إنما هو إلى ربهم فيجازيهم بأعمالهم .

(٦) وأن الله خالق الضحك والبكاء والفرح والحزن .

(٧) والموت والحياة .

(٨) وأنه خلق الذكر والأنثى من نطفة إذا تصب فى الرحم .

(٩) وهو الذى أعطى الغنى ، وأفاد القنية وهى أصول الأموال وما يدخرونه بعد الكفاية .

(١٠) وأنه هو رب الشعرى ، وهو كوكب يطلع بعد الجوزاء فى شدة الحر وكانت خزاعة تعبدها فقال الله كلا إنه هو ربها . وأول من سن لهم ذلك أبو كبشة من أشرافهم عبدها وقال لأن النجوم تقطع السماء عرضا ، والشعرى تقطعها طولا ، فهى مخالفة لها فعبدها ، وخزاعة تبعه، وتسمى الشعرى أيضا [كلب الجبار] والشعرى اثنتان : عبانية وشامية ، والمجرة بينهما ؛ وإحداهما تسمى العبور ، والأخرى تسمى الغميصاء، وهى أخفى من العبور ، والمراد هنا العبور .

(١١) وأنه أهلك عادا الأولى القدماء، لأنهم أولى الأمم هلاكا بعد قوم نوح .

(١٢) وثمود فما أبقى الفريقين .

(١٣) وقوم نوح من قبل عاد وثمود، وقد كانوا أظلم وأطغى من الفريقين، فلقد كانوا يؤذونه وينفرون عنه ويضربونه حتى لا يكون به حراك .

(١٤) والمؤتفكة : وهى القرى التى ائتفكت بأهلها : أى انقلبت ، وهى قرى قوم لوط ؛ أهواها الله وأسقطها ، فهو بعد أن رفعها قلبها (فغشاها ما غشى) فيه تهويل عظيم .

هذه أربع عشرة مسألة مذكورة فى صحف موسى وإبراهيم وإنما جىء بها لأن الذى تولى وأعطى قليلا وأمسك عطاءه غافل عن علم الله وعن العلم الذى أنزل على أنبيائه ، ومن هذا العلم هذه المسائل ، ومنها أنه لاينفعه إلا ماعمل من صالح كالعطاء فلماذا يمسكه ، والعطاء بدون إيمان لاينفع فكيف يعرض عن الأصل وهو الإيمان وعن الفرع وهو العطاء ، وأكثر المفسرين رحمهم الله أنها نزلت فى الوليد بن المغيرة، كان يتبع رسول الله صلى الله عليه وسلم فعيره بعض المشركين وقال تركت دين الأشياخ وضللتهم فقال أخشى عذاب الله فضمن بعضهم أن يتحمل عنه العذاب إن أعطاه بعض ماله ، فارتد وأعطى بعض المشروط ثم بخل بالباقى ، فهذا يذكره الله بأنه لم يطلع على علم الله حتى يعرف حقائق الأشياء، وأن فعله المذكور ليس مرضيا عند الله وأنه لايؤاخذ أحد بذنب أحد فكيف ظن أن ذلك الرجل يتحمل عنه ذنبه يوم القيامة والآية عامة لاتختص بهذا السبب ولا بغيره كما رأيت .

ولما عدد الله تلك المسائل وفيها عبر وحكم ، ومتى اعتبر بها الإنسان صارت نعمة قال تعالى (فبأى

آلاء

آلاء ربك تتمارى) أى فبأى نعم ربك أيها المخاطب تتشكك أبما أولاك من النعم أم بما كفاك من النقم ؟ وكلها دالة على وحدانية ربك وربوبيته فبأيها تتشكك مع أنها واضحة (هذا) أى محمد (نذير) منذر (من النذر الأولى) من المنذرين الأولين ، أو الأولى على معنى الجماعة ، أو القرآن نذير من جنس الإنذارات الأولى التى أنذر بها من قبلكم (أزفت الآزفة) قربت الساعة الموصوفة بالقرب فى قوله تعالى «اقتربت الساعة» (ليس لها من دون الله كاشفة) أى ليس لها نفس كاشفة أى مظهرة ومبينة متى تقوم إلا الله ، أو الكاشفة بمعنى الكشف كالعافية أى لا يكشف عنها ولا يظهرها إلا الله ، وهما يئولان لمعنى واحد ، أو يقال ليس لها نفس قادرة على كشفها إذا وقعت إلا الله غير أنه لا يكشفها لأنه لا بد ماض فى جزاء كل بما يستحقه كما يقتضيه نظامه فى السموات والأرض ، فالمعنيان الأولان بمعنى بيانها ، والمعنى الأخير بمعنى كشف غمها إذا وقعت . ثم قال تعالى (أفمن هذا الحديث) القرآن (تعجبون) إنكاراً (وتضحكون) استهزاء (ولا تبكون) تحزنا على ما فرطتم (وأنتم سامدون) لاهون أو مستكبرون يقال سمد البعير إذا رفع رأسه فى مسيره ، أو مغنون من السمود وهو الغناء لتشغلوا الناس عن استماعه (فاسجدوا لله واعبدوا) أى واعبدوه دون الآلهة . انتهى التفسير اللفظى للقسم الثالث من السورة ، والحمد لله رب العالمين .

لطائف هذه السورة

اللطيفة الأولى فى قوله تعالى : « والنجم إذا هوى » .

اللطيفة الثانية فى قوله تعالى : « وأنه هو أضحك وأبكى ، وأنه هو أمات وأحيا » .

اللطيفة الثالثة فى قوله تعالى : « وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى ، من نطفة إذا تمنى ، وأن عليه النشأة الأخرى » .

اللطيفة الأولى فى قوله تعالى : «والنجم إذا هوى»

لقد علمت مناسبة أول هذه السورة لما قبلها ، وأدركت السر فى ذلك ، وأزيدك الآن وضوحا فأقول لقد ختمت السورة السابقة بقوله تعالى : «وسبح بحمد ربك حين تقوم ومن الليل فسبحه وإدبار النجوم» والتسبيح بالحمد إما سبحان الله وبحمده ، وإما الصلاة ، ولا جرم أن التسبيح هو التنزيه ، والحمد هو الذكر بالجميل على الجميل الاختيارى : أى أن يشكر الإنسان النعمة ، ليس المقصود مجرد الألفاظ ، إنما يراد بالألفاظ وتكرارها إيقاظ القلوب إلى نعم علام الغيوب . وبعبارة أصرح : أن يتغلغل الإنسان فى معرفة النعم أى أن يدرس هذا النظام الذى نعيش فيه ، فالعامة يكتفون بالتسبيح والتحميد اللفظيين المعينين على نور القلب واستعداده للفيض ، وحكماء الأمة الإسلامية يسبحون ويحمدون ويكبرون لفظا ، ثم يتغلغلون فى الفكر والحكمة والعلم ، ويوقنون بأن الذكر بالقلب واللسان لهما فى أثر المعارف والعلوم ، وعلى ذلك يجدون فى الحكمة ، ولعلك تقول : أين هذا فى هذه الآيات ؟ أقول لك : انظر إلى سورة قٓ وإلى سورة الذاريات وإلى سورة الطور ، ففى (قٓ) قرع الكفار ووبخهم على أنهم لم ينظروا ما فى السموات وما فى الأرض ، وفى الذاريات والطور جعل الرياح والسحاب والمطر مقسما بها تعظيما لشأن العلم بها ودراستها ، وفى الطور أقسم بالعرش والفرش وعمرانهما ومعرفة ما بينهما . ولما ختم السورة أمر بالتسبيح والحمد ، والحمد يرجع إلى النعم ، والنعم إن لم تعرف فلا حمد عليها ، فأصبح أمر الحمد هو نفس أمر العلم ، والعلم بكل مخلوق فى الأرض وفى السماء بقدر الطاقة البشرية ، وما فى الأرض والسماء مذكور أول السورة وما قبلها ، وابتدأ سورة النجم بأن أقسم به لفتا لنظر العبد إلى النجوم فى إقبالها وإدبارها ، وإصباحها وإمسائها ، حتى لا يعيش الإنسان فى دار وهو يجهل ما يحيط به فيها ، وفى ذكر النجم تذكرة بإشراق النجوم وبإشراق النفوس بالعلم وبالعبادة وبإشراق

القرآن ، وبإشراق الشرائع المنزلة ، وبإشراق نور النبوة ، وأن صاحبها صلى الله عليه وسلم دنا من ربه فتدلى إلى آخره أو دنا الله منه ، أو دنا هو من جبريل ، هذه معان ثلاث رآها علماء آخرون جاءت فى التفسير ذكرتها لتطلع عليها حتى تقف على ماذكره العلماء ، ولا تضيع وقتك فى اقتفاء آثار الأقوال ، وإنما يهمنا الحكمة والعلم فنقول :

لما رأى النبى صلى الله عليه وسلم من آيات ربه الكبرى كان هذا نوعا من العلم ، لأن كل ما رآه الإنسان ببصره أو بعقله فهو علم ، وهذا العلم يستوجب الحمد المذكور فى آخر السورة السابقة . يقول الله «فسبح بحمد ربك حين تقوم» وهنا يقول : إنى أطلعتك على عجائب ملكى ؛ وعلى شجرة عظيمة ، وعلى فراش من ذهب الخ وهذا العلم هو الموجب للحمد ، فكأنه فى السور السابقة شوق النفوس للمعارف ، ذلك لأنه أقسم بالمخلوقات فى السورتين السابقتين ، وهذا تشويق للعلم بها ، وذكر فى سورة الطور البيت المعمور ، وهو فى السماء ، ففتح بهذا بابا للنفس ؛ وهنا يقول : انظر إلى عجائب خلق ، ومتى اطلعت عرفت ومتى عرفت النعمة حمدت الله عليها ، فالحمد اللسانى قليل الجدوى .

يقول الله : إن محمدا ماضل وما غوى ، ثم قال إنه اطلع على عالمنا وعجائبنا ، فإذن يكون حمده المصحوب بالتسبيح فى آخر السورة السابقة حمدا مصحوبا بعلم ، فلا حمد إلا على نعمة ، ولا بد أن تكون معلومة للحامد وها هو ذا قد اطلع على عجائبنا وحكمنا فى خلقنا .

ثمرة هذا المقام فى أمم الإسلام

ما من امرئ إلا وأحس فى نفسه بقول خفى تحدثه به نفسه فتقول فى وقت ما ماهذا الكوكب ؟ ماهذا النبات ؟ ماهذا الشجر ؟ ماهذا الحجر ؟ ماهذا المطر ، ومن أين جاء البحر ؟ وما هذه الشمس ؟ وما هذا النور ؟ وما أشبه ذلك ، ويود لو يقف على حقائقها ، ففى هذه السورة ابتدأ بذكر النجم تشويقا لدراسته ، وجاء فيها اطلاع النبى صلى الله عليه وسلم على عجائب هذه الدنيا وغرائبها ، فلئن كان هذا للأنبياء من غير تعلم فليكن لنا بطريق التعلم : وليس عظمة الثروة عند الأغنياء إلا مشوقة لمن دونهم أن يكونوا على شاكلتهم ، فمن جملت صورته طبعا ، ومن ورث الملك عن أبيه ، ومن هو حاد الذكاء من الناس قد كانوا قليلين فى الناس ، وليس معنى هذا أن الناس لايتولون الأحكام مالم يكونوا ملوكا ، ولايدرسون مالم تكن أذهانهم خارقة للعادة ، ولا يتجملون مالم يكونوا آية فى الجمال ، كلا . فالأدنى يقلد الأعلى ، فإذا رأينا فى أنفسنا شوقا إلى الاطلاع إلى العالم فلنجد فى العلم حتى نعرف مانطيقه ، وإذا أطلع الله نبيه على آياته الكبرى وجعلها له نعمة فلندرس نحن بعض آياته المشاهدة فى الطبيعة والفلك ، وإذا وجدنا أنه صلى الله عليه وسلم رأى البيت المعمور ، وأن هناك ملائكة يدخلون وهم كثيرو العدد الخ فلندرس العلوم الفلكية ولنقرأ ماعرفه الناس فإن هناك عوالم عظيمة وكواكب تصغر شمسنا دونها ، وإذا رأينا أن سدرة المنتهى قد انتهت إليها علوم الخلائق فلا يعرفون ماوراءها فلنعلم أن ذلك يفتح لنا باب العلم فندرس مافى طاقتنا دراسته حتى تقف عقول الناس . إن الناس إلى الآن يزيدون علما فى معرفة الكواكب والأفلاك والطبيعة ولم يقف الناس وهم يزيدون كل يوم كشفا وعلما فلندرس علومهم لأنها فى حيز الإمكان . وبعبارة أخرى : لم تصل العلوم إلى سدرة المنتهى فلو أنها وصلت إليها لوقفت العقول وأعلن العلماء أن العلم لايزيد ، ولكن العلم يزيد ، ولايجوز للمسلمين أن يقولوا : إن العلم قاصر على الفرنجة ؛ فها هو ذا نبينا صلى الله عليه وسلم يقول : إن للخلائق حدا فى العلم ، وليس معنى هذا أن يكون العلم خاصا بغير المسلمين فإن قدوتنا صلى الله عليه وسلم هو الذى اطلع على آيات ربه الكبرى بلا تعلم ، فلنطلع نحن على آيات ربنا بالتعلم لأننا من الخلائق ، ولايصح

أن

أن نستثنى أنفسنا لأننا بهذا نكون قدجهلنا ديننا ولم نقتد بنبينا الذى أمره الله أن يقول « رب زدنى علما » فليس يصح لنا أن نقول ذلك .

يفتح لنا صلى الله عليه وسلم باب العلم ويقول إنه رأى سدرة المنتهى ، وأن هناك علوما ومعارف ، ويقول إن ماوراء سدرة المنتهى ممنوع عن الخلائق ، وكل هذا يؤخذ من « سبحان الله والحمد لله والله أكبر » فالتسبيح تنزيه الله . والتحميد معرفة حق النعمة ، والتكبير الاعتراف بأنه أكبر مما نعلم ، فإذا كان التسبيح والتكبير والتحميد وراء الصلوات فهو مذكر لنا بذلك ، مذكرلنا بأن تصفو نفوسنا أخلاقا وآدابا ، وتتفرغ للعلم ، فتنزيه الله عن المادة ولواحقها يفتح لنا باب التفرغ للعلم وترك المألوفات ، والتبرى من العادات ، لأن العلم لايدخل إلاقلوبا لها حظ من التهذيب والتأديب ، وهذا نوع من التنزيه عن المادة والعلم للنفوس المهذبة أقرب وهو المشار اليه بالحمد ، والعلم أمده طويل ولاحدله ، فليجد الإنسان فيه ليقرب من خالقه ، وعلى مقدار علمه يكون قربه ، فما قرب صلى الله عليه وسلم إلاقرباً علميا ونحوه ، لاقرب الذات بل قرب المعنى ، ثم نعلم فوق ذلك أن الله أكبر من كل ماعرفناه وما يعرفه الخلق من ملائكة وجن وإنس ، فالتسبيح والتحميد والتكبير فى الإسلام فواتح لرقى المسلمين كما تراه فى هذا المقام ، فلم يقصد ذكر اللسان وخلو الجنان ، ولو قصد ذلك ماذكرت سورة النجم بعد الطور التى ختمت بالتسبيح والتحميد ، بل جىء بسورة النجم التى فى أولها المعارف والعلوم . وأنه رأى من آيات ربه الكبرى ، فليقرأ المسلمون علوم العوالم المحيطة بنا ، فليقرءوا تلك الكواكب البعيدة المدهشة التى يصل ضوؤها فى مئات السنين ، بل فى ألوف السنين ، بل فى ملايين السنين ، وإذن تكون شمسنا قريبة جدا ، بل تكون المسافة بيننا وبينها بالنسبة لغيرها أشبه بطول رمح صغير بالنسبة لمحيط الأرض عشر مرات ، ويكون ضوؤها وقدرها بالنسبة لغيرها ضعيفين جدا وقليلين ، فراجع ماتقدم فى (سورة آل عمران) تجد مانقلته هناك من أبعاد الكواكب عن أرضنا وفى سور غيرها كالأنعام وهكذا تقدم فى هذا التفسير ماذكرته روح غاليلى من العوالم البديعة ، والخلائق العجيبة ، التى تعيش عيشا لايعلم به أهل الأرض وإلى هنا تم الكلام على اللطيفة الأولى فى قوله تعالى : « والنجم إذا هوى » والحمد لله رب العالمين .

اللطيفة الثانية

فى قوله تعالى : « وأنه هو أضحك وأبكى ، وأنه هو أمات وأحيا ، وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى ، من نطفة إذا تمنى ، وأن عليه النشأة الأخرى ، وأنه هو أغنى وأقنى وأنه هو رب الشعرى ، وأنه أهلك عادا الأولى ، وثمود فما أبقى ، وقوم نوح من قبل إنهم كانوا هم أظلم وأطغى ، والمؤتفكة أهوى ، فغشاها ماغشى ، فبأى آلاء ربك تتمارى »

قال صاحبى الذى اعتاد مسامرتى فى هذا التفسير : الله أضحك وأبكى ، الله أمات وأحيا ، الله أهلك عادا ، الله أهلك ثمودا ، وقوم نوح ، وأهوى المؤتفكة ، وانتهت الآية أن هذه آلاء الله ، الآلاء النعم ، أمن النعم أن يبكى العيون ويهلك الأمم ؟ نعم هذا السؤال ورد كثيرا فى هذا التفسير وكثرت الإجابة عليه ولكن النفس لاتزال تطالب بالمزيد ، فحدثنى أليس الله أرحم الراحمين ؟ أليس الله قدوة لنا فى أفعاله ، الله أهلك أمما وأبكى عيونا ، وإذا قتل أحدنا إنسانا عمدا دخل جهنم ، الله يهلك أمما ، الله يسلط الميكروب على الأمم فيهلكها ، ويسلط الأمم القوية على الضعيفة فتذلها ، الله يسلط الوحوش على آكلات الحشائش فتأكلها ، كل هذا فعل الله ، لأن هذا نظامه ، ثم تشريعه لنا على خلاف ذلك ، فنحن بقتلنا إنسانا عمدا نعذب فى جهنم يوم القيامة ، وتحكم شريعتنا علينا بالقتل . وإذا كان الله أرحم الراحمين هذا فعله فكيف بنا نحن الضعاف فى الأرض ؟ هذه المعانى تتردد فى نفسى صباحا ومساء ، وكل ماجاء فى هذا التفسير من

الأجوبة فيما مضى فإنما هي أجوبة جزئية ، والجزئيات لاتغنى عن الكليات ، فأنا الساعة يوم الأربعاء ١٢ رمضان سنة ١٣٥٠ هجرية — ٢٠ يناير سنة ١٩٣٢ م أريد إجابة شاملة كاملة حتى لاأحتاج إلى سؤال بعدها فى هذا الشأن . فقلت : ماذا تقول فى آية : « لايسأل عما يفعل وهم يسألون » . فقال : وماذا تقول فى آية : « شهد الله أنه لاإله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائما بالقسط » فنحن الآن فى مقام السير فى طريق أولى العلم الذين يشهدون بصائرهم أن صانع العالم قائم فى عمله بالقسط والعدل ، نريد أن نشهد ونحن فى الأرض كيف كان الله قائما بالقسط فى تدبير الخلق ، وفوق ذلك نريد أن نفهم كيف يمكن الجمع بين هذا الاهلاك والابكاء والتدمير وإبادة الأمم وإذلالها وبين اسمه (الودود) . ألم يقل الله (وهو الغفور الودود ذو العرش المجيد ، فعال لما يريد) ولا جرم أن الودود يفعل مايريد . ولكن هل يلقى وده إليهم ويكون فعله محبوبا لأنه أتى على سبيل المحبة ، وهو إهلاك المدن ، وإزالة الدول ، وإبكاء العيون أيكون ذلك ودا وأيضا جاء فى القرآن آيات فى سور كثيرة كلها دالة على تنزيهه فى ذاته وصفاته وأفعاله ، وذلك بصفة التسبيح ، والتسبيح تنزيه ، وهذا المعنى جاء مصدرا وفعلا ماضيا وفعلا مضارعا وأمرا ، فهو مصدر فى سور كثيرة مثل : « سبحان الذى أسرى بعبده ليلا » . « وسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون » وفى هذه السورة ، وفى آخر السورة قبلها : « ومن الليل فسبحه وإدبار النجوم » وسيأتى فى (سورة الحديد) : « سبح لله ما فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم » وذكر الإحياء والإماتة هناك كما ذكرها هنا ، وفى آخر (سورة الحشر) : « يسبح له مافى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم » وفى آخر (سورة المجادلة) : « رضى الله عنهم ورضوا عنه » إن رضا العبد عن ربه وتنزيهه وحبه ووده يعوزه الاطلاع على جمال الأفعال ، والأفعال الإلهية المذكورة مشكلة مع أوصاف الحب والود والرضا الخ فأرجو الإجابة على هذا حتى لاأعود إلى السؤال كرة أخرى . فقلت : سأسامرك إن شاء الله فى أول (سورة الحديد) فى هذه المعانى وهناك تنجلى المعانى التى تريدها وإن كان أكثر ما سأقصه عليك هناك قد مضى كثير منه متفرقا فيما مضى من التفسير ، وسأشرح :

(١) النظام التكوينى .

(٢) والنظام التشريعى وأنهما متفقان .

(٣) وأبين درجات التربية الست .

(٤) تربية الأم لولدها .

(٥) وتربية الأب له .

(٦) وتربية المعلم .

(٧) وتربية الحكومة للأفراد مع مايتبع ذلك من نظام الجندية .

(٨) التربية الإلهية وأنواع الزلازل والحوادث العظيمة .

(٩) وأن الأم حين تمنع ولدها مايضره وهو يبكى لم يمنع ذلك حبها له ، وقد ضربت مثلا لدرجات التربية التى بعدها ، وبمقدار ازدياد العلم تعرف حقائق تلك التربية ويزداد الحب للمربى .

(١٠) وبيان أن العلم إما بهيئة سطحية كعلم الشعراء والأدباء ، وإما بهيئة حكمية فلسفية عالية كعلم الحكماء ، وإيضاح ذلك وتفصيله من كلام (كونفوشيوس) فيلسوف الصين الذى توفى فى القرن الرابع قبل الميلاد .

(١١) ثم بيان أن الحب على مقدار العلم .

(١٢) بيان أن الله توارى عنا بحجبه ولكنه قذف لنا كرات جميلة لاحصر لعددها ، وهي الشموس والكواكب ، وهو يقربها ويبعدها ليجذبنا إلى حضرته ، وجعل الشطرنج والنرد عند اللاعبين مثلا لذلك كما جعل الجمال والحب الأدنيين مثلين لجماله وحبه الأعليين ، وصنع للناس فى الأرض عجائب لولا حوادث الموت والحياة ومزعجات الليالى لذهلت عقولهم ، فمن سرج تجرى فى سقف مرفوع تدور حولهم ، ومن حدائق وحقول حولهم ومناظر بهجات ، وتارة يرسل لهم شهبا تقترب من أرضهم ليوقظهم إلى العلا ، ونسبة هذه الأعاجيب إلى صانعها كنسبة صفات الكرة والصولجان والنرد والشطرنج إلى مخترعيها ، والتعجب يكون على مقدار اتقان الصنعة .

هذا ما سأذكره هناك إن شاء الله مع شذرات فى الآيات التى ذكرتها أيها الأخ الذكى . فلما سمع ذلك قال : إن هذا لعجب ! وإنى لفى غاية الشوق إلى ماوصفت انتهت اللطيفة الثانية .

اللطيفة الثالثة

فى قوله تعالى : « وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى من نطفة إذا تمنى ، وأن عليه النشأة الأخرى »

بسم الله الرحمن الرحيم

الرحمة مذكورة فى البسملة فى أول هذه السورة وهى منبثة فى كل أجزائها كما هى منبثة فى أجزاء العالم الذى نعيش فيه الذى هو محل دراستنا كما أنه مناط حياتنا .

اللهم إنك أنت الحكيم العليم الملهم الهادى ، نحمدك اللهم على الهداية ، وعلى الحكمة ، وعلى النور والعرفان ، العرفان الذى ابتهجت به يوم الأحد الماضى فى تفسير هذه الآيات ، وذلك بتاريخ ١٤ مارس سنة ١٩٣٢ م فى شهر شوال سنة ١٣٥٠ هـ .

خرجت من القاهرة مع أهل بيتى لمشاهدة حقلنا الذى اعتدت فى هذا التفسير أن أكتب خواطرى فيه تلك الخواطر التى ترد فى المزارع والحقول ، وقد امتزج المعقول فيها والمنقول ، نور والله على نور ، نور الوجود على نور الكتاب المبين ، نور الحكمة العلمية يزدان بكتابنا المقدس ، كتابنا الذى جاء به الوحى تفسره المناظر الطبيعية ، وتشرح تفسيره المباهج الحقلية ، ركبنا القطار من القاهرة ، آذن القطار بالمسير إذ ارتفع صفيره ، وازداد شهيقه وزفيره ، وأخذ يطوى الأرض طيا من محطة الليمون عند القاهرة ميمما محطة المرج وهى التى منها نتوجه إلى حقلنا . هنالك أخذ الفكر يجول فى عالمنا الذى خلقنا فيه ، وخيل لى أن روحا علويا نجانى قد تمثل لى بشرا سويا ، وقد أخذ يخاطبنى ، وما أجمل الخطاب ، وما ألذ حديثه المستطاب إذ أخذنا نتجاذب أطراف الحديث من قديم وحديث ، هناك نسيت القطار ومن فيه وخرجت من ضيق الأرض إلى فسيح السموات ، وغبت عن عالم الحس ، وارتقيت إلى عالم الروح والعقل ، وسموت إلى فسيح السموات تذكيرا وتفكيرا .

هناك قال لى الروح ، أنظر إلى عجائب الشمس ، أنظر إليها كيف ترسل ذرات النور متتاليات متتابعات فى الجو ، وانظر كيف تسافر تلك الذرات فى فسيح الجو جاريات منها إلى الأرض ، ما أسرع جريها ، إنها تجرى حثيثا من حين خروجها إلى أن تصل إلى أرضكم هذه فى ٨ دقائق و١٨ ثانية ، تجرى وتلحقها أخرى بتقدير محكم ونظام عجيب ، وهذه الذرات الضوئية المشاهدة يحسبها الناس غير موزونة وهى موزونة (لقد تقدم فى هذا التفسير أن علماء عصرنا قد وجدوا للضوء وزنا ، وأن الشمس تخرج فى الثانية الواحدة منه مايقدر بمئات الملايين من القناطير المقنطرة ، وكل هذا واضح فيما تقدم بأجلى بيان ، ذلك لأن النور عبارة

عن حركات ، والحركات طبعا لها ميل واتجاه ، وهذا الاتجاه له ثقل وإن كان ذلك لايكاد يشعر به أحد ، ولكن اجتماع الكثير الذى لاحصر له يوجب ثقلا عظيما كما قدمناه) . ثم قال : وهـذا الضوء الذى هذه صفته يجرى فى جو أثقل منه بما لا حد له أقول : انظر ماتقدم فى أول سورة الصفات ، فقد أثبت العلماء فى عصرنا أن هذا الجو الفسيح بقطع النظر عن الهواء الذي هو فيه مملوء بما يسمونه (الأثير) والأثير عالم لا نحس به ، وقد قلنا إنه أشبه بخيالنا نحن ، فكما أن خيالنا لاوزن له وهو موجود هكذا هذا الأثير يظن الإنسان أنه لاوزن له بل لاوجود ، ولكن العلماء أثبتوا وجوده ووزنه معا ، ولكنه وزن مدهش إذ قالوا انه لو قدر وكان مادة محسوسة لكان أثقل من الحديد بمئات المرات ، وهذا المقام محقق هناك بقدر الإمكان فارجع إليه ، ويقرب من ذلك أن الشمس والكواكب والأرض كلها متجاذبات ، والحبال التى تتجاذب بها وتتمسك بها هذه الأجرام الكبيرة ، هذا هو الأثير فلنفرضه حبالا ، وهذه الحبال المعنوية بها تجذب الشمس الأرض والسيارات ، وتجذب الأرض القمر (وبعبارة أخري) أننا نعيش فى جو مشبع بالجذب ، فهذا الجذب قوة ، وهذه القوة لو جسمت لكانت أثقل من الحديد والرصاص والأحجار بآلاف المرات ، وهـذا الذى قلته الآن يسهل عليك أيها الأخ فهم مقال الروح لى ، ويزداد به فهم ماذكره العلماء ونقلته فى أول (سورة الصفات) وذكرت هذا الإيضاح هناك .

ثم قال الروح بعد ذلك : انظر الطيور ، انظر الحشرات ، انظر الأشجار ، انظر هذا كله . قلت : ثم ماذا ؟ قال : قد فهمت منظر الشمس ، وفهمت إخراجها لأنوارها ، وأنها جاريات فى عالم قوى متين ، وهذا العالم القوى المتين هو الأثير ، ذلك الأثير القوى المتين الذى به عرفتم قوله تعالى : « وبنينا فوقكم سبعا شدادا » فكل كوكب يحيط به أثير ، والعيون تنظر الجو إلى أمد محدود ، وهنالك ترى قبة منظورة واضحة لايشك من رآها أنها سماء تظله كما لايشك الرجال والنساء فى سقوف بيوتهم أنها تظلهم ، وهذه السماء المنظورة عبارة عن أجزاء من الهواء منبثة فى أجزاء الأثير ، والأثير هو الأصل ، والأثير قوى متين قوة لاحد لها ، وهذا قوله تعالى : «وبنينا فوقكم سبعاً شدادا» فالشدة الآن واضحة أشد وضوح فى زمانكم ، وقوله بعدها : « وجعلنا سراجا وهاجا » بيان للضوء الجارى من الشمس فى ذلك الجو الشديد القوى المتين ، وهذا الجو القوى المتين هو العمد الذى لم تروه فى آية : « الله الذى رفع السموات بغير عمد ترونها » فهذا الأثير عمد غير مرئية ، وهذه العمد قوية متينة ، وكيف لاتكون قوية متينة ، وقد رفع فوقها سماء شديدة (وبنينا فوقكم سبعا شدادا) .

ثم قال : إذا عرفت هذا فأنت الآن وجميع بنى آدم وكل حيوان ونبات تعيشون فى وسط واحد يغمركم جو الأثير ، ذلك العالم الخفى القوى المتين ، النور يشرق عليكم جميعا ، إذن هذا العالم جسم واحد ؛ وهذا الجسم يشرق عليه نوران ، : نور حسى ، ونور معنوى ، فالنور الحسى شرحناه ، والنور المعنوى هو الذى سنشرحه الآن ، فهذه الطيور لها غرائز وأنواع من الإدراك وهذا الإنسان ، بل النبات له نوع إحساس ، وما ذلك كله إلا أنوار معنوية ، وإذا كان للنور منبع وهو الشمس ، وقد سطع على كل بر وبحر ، وعامر وقفر ، ونبات وحيوان وإنسان ، فهكذا ذلك النور المعنوى المنبعث من عوالم أرقى من الشمس ، عوالم هى هى شموس العقول والادراك ، عوالم أنتجت بقدرة الله وعلمه ، هذه الشموس هى أولى باسم الوجود ، هى أولى باسم النور ، هى أعمدة لهذه العصافير الطائرات ، المغردات المربيات لذريتهـا ، هى المعطيات لهذه الحشرات إدراكها وعلمها .

أيها الجوهرى : الاخبرنى رعاك الله ؟ ألم تقرأ ماجاء فى كشفكم الحديث فى أرضكم أن هناك فى المزارع

التى

التى تراها مادة تسمى (الفيتامين) وهى مادة الحياة ، والفيتامين المذكور يقوى فى الفواكه والخضر ، ويقل فى غيرها ، ويشتد ظهوره فى البرتقال وماقاربه ، ويقل فى نحو الأرز الذى فصل من قشره ، كما جربوا ذلك مع الفيران فى ألمانيا ، إذ رأوا ما أكلت الارز منها وهى فى الظلمة قد مرضت وهلكت ، وما أكلت البرتقال منها قويت وسمنت ، فعلموا أن البرتقال أخذ من مادة الحياة المنبثة فى ضوء الشمس ، المنبعث منها عليه أكثر مما أخذ الأرز ، لأن القشر الذي كان عليه هو الذى تلق ضوء الشمس ، فلما فصل منه أصبح هو قليل القوة والمتانة ، وأصبح آكله المقتصر عليه أضعف من آكل البرتقال ونحو البرتقال .

ثم قال : إذن هنا ضوء للشمس فيه قوة الحياة ، وهذه القوة منبعها الشمس ، وهذه القوة تكثر وتقل بحسب القابليات ، فعلى مقدار القابليات تكون العطايا .

الله أكبر . جل الله : أليست هذه الحيوانات من حشرات وطيور ودابة وإنسان قوابل لنور الفكر والعالم العلوى الملكى أشبه بشموس تنبعث منها الأنوار الفكرية ، وهذه الأنوار الفكرية تكون فى الإنسان أكثر من الحيوان ، وتختلف الأنوار الفكرية باختلاف القوابل الحيوانية ، إذن الأنوار الفكرية لاتزال تنبعث عن عوالم نورية تسمى بلسان الشرائع ملائكة ، وبلسان الحكمة عقولا ونفوسا ، اختلفت الأسماء ولكن المسمى أصبح معلوما لكم بطريق القياس ؛ لأننا نكلمكم على قدر عقولكم أيها الناس ، فهناك عوالم روحية نورية عقلية نسبتها إلى عقولكم وعقول حشراتكم ودوابكم كنسبة أجرام هذه الشموس والكواكب إلى أحجام أجسامكم ، وإذا كان للنور المحسوس أجرام عظيمة هى منابعه،هكذا للنور المعقول منابع هى أصوله ، إذن المحسوسات جعلت أمثلة للمعقولات ، وهل أدار الله الشمس حول أرضكم وأجراها جريا متتابعا بحساب إلا لتدرسوها ، ومن أجل دراستها أن تتفكروا وتقولوا هاهى ذه أنواع المآكل اختلفت قوة الحياة فيها قدرا ومنفعة ، حتى إن قشور الفاكهة والحبوب قد كمنت فيها قوة الحياة المستمدة من ضوء الشمس أكثر مما كمن فيما وراء تلك القشور من لب الثمار ولب الحبوب البعيدة عن ضوء الشمس ، فآكل تلك القشور ينال من قوة الحياة أكثر مما ينال آكل ماتحت تلك القشور :

ثم تقولون : وإذا كان ذلك كذلك فى عالم الحس فليكن هكذا عالم الروح ، وأن النفوس لاتأخذ من العوالم الروحية إلا على مقدار مااستعدت له ، فإذا رأينا إنسانا وحشرات وطيورا ودواب ، فهذه لم تختلف فى إدراكها إلا باختلاف قابليتها لما يرد عليها من العوالم الروحية التى تحيط بالشموس وبالثوابت وبالسيارات وإذا كان المسلمون اليوم فى أنحاء الأرض أقل علما من غيرهم فى الأمم فما ذلك إلا لأنهم قد أصبحوا أشبه بما تحت قشور الحبوب والثمار والفواكه ؛ لأن الخرافات قد أحاطت بعقولهم ، وأضلهم بعض شيوخهم ، فمنعوهم العلم ، ومنحوهم مواعيد عرقوبية ، وأفهموهم أن حظوظ الحياة وحظوظ الممات ليس مدارها على العمل ، واتكلوا على المغفرة المجانية ، ونسى كثير منهم أنفسهم وغرائزهم وعقولهم ، فلم يصل لهم من تلك العقول العالية إلا قليل كما لم يصل لما تحت قشور الحبوب إلاقليل ، فقلت مادة الحياة فى الدقيق الناعم فى نحو البر وكثرت فى النخالة وفيما يسمى (بالسن) وهو الذى يتركه الناس فلا يأكلونه ، وقد يطعمونه البهائم جهلا منهم ، وهو الذى فيه قوة الحياة والمنفعة .

إن نور الفكر منتشر انتشار ضوء الشمس ، نور مشرق على جميع هذه الكرة الأرضية كما ينتشر نور الشمس وجميع كواكب السماء ، لامكان فى الأرض ، ولا فى الجو إلا وهو مشبع بأنوار لاحصر لها ، أنتم يابنى آدم لاتكادون تفهمون من الأنوار العلوية فى أرضكم إلا نور الشمس والقمر ، مع أنكم فى الحقيقة تشرق عليكم أنوار كثيرة جدا لاحصر لها ، فكل كوكب كشف أولم يكشف يسطع نوره الآن على الأرض

وتصل منه آثار إلى أجسامكم كما تصل آثار من الشمس والقمر ، وتلك الآثار لها عمل فيها . إذن هنا أنوار كثيرة لاحصر لها تسطع على أجسامكم ، وأنتم لاترونها ؛ وإذا كان ذلك محققا فعلا فى نور محسوس فإن الأنوار العقلية المشرقة العلوية الروحية تحيط بكم ولا حصر لها من مشرقات عليا وهى عوالم الملائكة ونفوسكم تتقبل منها كما تتقبل أجسامكم أنوار الشموس والكواكب والأقمار .

فلتتعرضوا لتلك الأنوار الروحية أيها المسلمون وإن كانت خافية فنظيرها فى الخفاء أضواء الكواكب البعيدة مع أنها محققة ، ولن يتم ذلكم لكم إلا بنبذ الخرافات ودرس نفس هذا الوجود ونفس القرآن وليس يغنى والله ماقرأتم فى كتب أسلافكم الذين درسوا مايناسب زمانهم ولم يتوسعوا فى العوالم العلوية والسفلية توسع أهل زمانكم وإن كانوا لم يقصروا فى ذلك ولحوا تلميحا إلى ماظهر فى هذا الزمان ، إذن هاهنا أمران اثنان لاثالث لهما : نور محسوس ، ونور معقول ، والمعقول أصل المحسوس ، هذا جسمك ياجوهرى تشرق عليه الشمس ويشرق عليه نور الفكر ، يشاركك فى ذلك كل إنسان وحيوان ، بل النبات له حظ من الإدراك ، وهذه العوالم كلها فى المجموعة الشمسية ، والمجرة العامة والمجرات كلها جسم واحد متجاذب فلا فضاء إذن ، وهذا الجسم المتجاذب له قوى متعددة مختلفة ، خلقه الله وبث فيه أنوار الكواكب وأنوار العقول العالية ، فهو الخالق لتلك العقول العالية ولتلك الشموس الكبيرة ، ولا تعجب أن تكون أنت الساعة لك اتصال بعوالم علوية مشرقة وأخرى تزجى الفكر ، وأنت وكل حيوان ونبات تستمدون من النورين وتسعدون بالإشراقين . الله عز وجل لاترونه لأنكم الآن فى حال التربية ، وهذه العوالم هى الغطاء فالعوالم الحسية غطاء حسى ، والعوالم الروحية غطاء روحى ، هما غطاءان لو كشفا لرأيتم الله ، ولكنهما ان يكشفا رحمة بكم وإحسانا ولطفا ، لو أن الله كشف هذه الحجب ورفع الغطاء عن أعينكم الباطنية لهلكتم ولذبتم ، ولكنه لرحمته العظيمة خلق لكم شموسا ظاهرة وشموسا أجمل منها باطنة ، وهي العوالم الروحية وقال لهما تعاونا فى تربية كل إنسان وكل حيوان فتعاونت أضواء الشموس مع أضواء العقول على تربية العالمين .

حيرتى وفراقى لتلك الروح الجميلة

والكلام على الهواء والضياء والقوى الفكرية فى الرئة وفى الغذاء وفى المخ

هنالك وصل القطار إلى محطة المرج ، ومدة جريه نصف ساعة من الزمان ، فأفقت من غشيتى ، ورجعت إلى حسى ، وغاب عنى حالا ذلك الروح الذى تمثل لى بشرا سويا ، فساورتنى حيرة ، واعترانى هم ذلك أن ماتخيلته وأنا فى القطار له قيمة علمية ، ولكن المقصود من تفسير الآية لم أصل إليه بعد ، لأنى أريد أن أفهم لماذا يذكر الله تعالى «النشأة الأخرى» بعد ذكر الزوجين الذكر والأنثى ؟ وما المناسبة بين الذكر والأنثى وبين النشأة الأخرى ؟ ثم لماذا نسمع الله يقول فى (سورة الأنعام) «كتب ربكم على نفسه الرحمة ليجمعنكم إلى يوم القيامة» ولاجرم أن جمعنا يوم القيامة يكون بالنشأة الأخرى ، فهل كون الإنسان ذكرا وأنثى هو الرحمة التى جعلها الله مقدمة لتلك النشأة ؟ أم ماذا يكون ؟ فإذا رأينا الرحمة جعلت فى مقابلة ذكر الزوجين وجعل مابعد كل منهما هو النشأة الأخرى ، فإذن علينا أن نفهم هل فى الذكورة والأنوثة مبادىء للنشأة الأخرى ، هذا هو الذى حار فيه فكرى ، هنالك نزلت من القطار ، ولكنى لم أمش فى طريق من المرج إلى مزرعتنا كما جرت عادتى لأنى اعتدت كما ذكرت فى هذا التفسير مرارا . أنى أنزل من القطار وأمشى نحو ساعة حتى أصل إلى الأرض وهكذا فى الرجوع طلبا لرياضة البدن ، وفرحا بنعمة العلم ، واستنشاقا للهواء النقى ، فإنه إذا كانت أجسامنا لابد لها من غذاء ، وأهمه الفيتامين أى مادة الحياة الكامنة

فى الخضر والفاكهة والحبوب ولا سيما فى قشورها . وإذا كانت عقولنا لابد لها من أنوار فكرية تصل لها إذا خلت من الشواغل الحسية والمعنوية ، وهذه الأنوار الفكرية يحصل عليها كل حيوان بحسب استعداده وكل إنسان بحسب قابليته . هكذا الرئة لابد لها من هواء يدخل بالشهيق ويخرج بالزفير ، وقد ظهر اليوم أن الإنسان إذا استنشق بالشهيق مقدارا كبيرا وهو فى الخلاء ، وعند شواطىء البحار ، وأخذ إذ ذاك يدخل النفس بلطف ويحبسه قليلا ثم يخرجه بالتدريج بلطف فيدخله فى نحو ٦ ثوان أو ٧ مثلا ويبقيه فى مدة كذلك ثم يخرجه فى نحو هذه المدة بالتدريج ، ثم يبقيه خارجا كذلك ، يفعل ذلك آنا فآنا حتى يتعوده ، ثم يزيد فى الزمن على مقدار الطاقة إدخالا وإخراجا ، وحبسا للنفس داخلا وحبسا له خارجا ، فأنا هكذا كنت أفعل أثناء المشى كل مرة وأنا مع ذلك أدرس هذه الطبيعة الجميلة البهجة ذات الجمال .

أقول : فنى هذا اليوم لم أمش بل ركبت مع عائلتى سيارة وسرنا إلى أن وصلنا الأرض (مزرعتنا) عند كفر الباشا من أرض بركة الحج .

منظر الأرض وتفسير الآيات فى مزارع الحقول

أخذنا نجوس خلال الأرض ، وجلنا فيها جولات ، وجلسنا هناك إلى قرب صلاة العصر ، فكان منظر الحقل جميلا أى جمال ، حقل أمامه الجبل شرقا ووراء المزارع الخضرة والنخيل وأنواع الحبوب والحشائش المختلفات غربا ، وقد هبت النسمات فتذكرت الأثر الوارد : «إذا هبت الأرواح ، وفاءت الأفياء ، فاذكروا الله فإنها ساعة الأوابين» .

مناظر الأشجار المحيطة بالحقل فيها النخيل الكثير ، وهناك الأثل : أى العبل ، والطيور مغردات والحشرات مغنيات ، وأنواع الشعير والقمح والبرسيم والفول وهى متمايلات طربا وبهجة ، تهتز اهتزاز الولهين ، وتمشى مشية العروس بهجة للناظرين ، والريح تعبث بالسنابل وتلعب بجريد النخل وأغصان الأشجار تقلبها ذات اليمين وذات الشمال .

ولهذه الأنواع أصوات موسيقية ، ورنات غنائية ، وهى موسيقى حقيقية لاخيالية (ولكن أكثر الناس لايعلمون) . وللحشائش من النغمات ماليس للأشجار والنخيل والأعناب ، العوالم كلها فى طرب وبهجة وحبور ، ولكن هذا الإنسان هو الذى حيل بينه وبين ذلك الطرب والحبور للجهل الفاشى فى نوع الإنسان . هذه هى الخواطر التى خطرت لى أثناء جولانى فى وسط الحقول .

حضور الروح الخيالى فى الحقل معى وتفسيره لآية «وأن عليه النشأة الأخرى»

وبينما أنا غارق فى هذه الأفكار فى الحقل إذ حضر الخيال الروحى الذى كان معى فى القطار . فقال : إن ماذكرناه معك فى القطار يجعل العقل الإنسانى كأنه ناظر إلى ربه ، إن الأمر أصبح واضحا ، إنسان عاقل تحيط به أنوار ، وبداخله فكر ، هو فى أنوار عقلية وأنوار حسية ، هى مرسلات له من الله ولكنه لايزال فى حال التربية . وهو وإن حجب بذلك عن أن يرى الله فإنه إذا صفت بصيرته يرى أنه هو جزء من هذه العوالم التى أرسلها له الله ، وهذه العوالم جميلة جمالا حسيا وجمالا معنويا ، ألاترى إلى جمال الحقول واختلاف الصور والنغمات ، ألا ترى إلى جمال الحقول واختلاف إدراك العصفور والزنبور والنحلة وإدراك الإنسان تلك مناظر ذات جمال وبهاء وسناء . فلئن اختلف شجر النخل وشجر العنب والرمان وأنواع الفول والقمح والشعير من حيث أشكالها ، ومن حيث نغمات الهواء المتخللة أوراقها وأغصانها فلتختلفن آراء الإنسان والحيوان من حشرات ودواب وطيور ، اختلفت الأحجام والأصوات والإدراكات ولكن الأخيرة هى الباقية ، أما الأصوات وأما الأجرام فهن كلهن ذاهبات وعالم الفكر هو الذى إليه تشد الرحال ، وبه يسد

الرجال . وبينا أنا كذلك إذ لاحت منى التفاتة إلى نخلتين فى الحقل إحداهما ذكر والأخرى أنثى ؛ فأردت أن أقتلع (الكفرى)[1] أى وعاء الطلع من النخلة ، فمنعتنى السلاء التى يحملها قحف الجريد المحيط بذلك الطلع ،هنالك تذكرت مامر فى هذا التفسير من أن تلك الشوكات الطالعات بجانب أوراق شجر السنط لم تخلق إلا للمحافظة على تلك الورقات لضعفهن ضعفا كثيرا ؛ فهذه الشوكات تساعدها حتى تتحمل العواصف وتقلب الهواء فى الأجواء والأوقات المختلفات ، ولذلك نرى ورق السنطمع ضعفه يعيش جنبا لجنب مع خوص النخل القوى المتين ، وخوص النخل لايعوزه مايقويه ؛ أما ورق السنط فهو ضئيل ضعيف ، أما ماهنا فى النخلة فإن هذا الشوك المنتظم على جانبى القحف لم يجعل إلا للمحافظة على الطلع فى ذكر النخل ، وعلى خلق التمر وترتبه فى أنثاه ، إذن هذا الشوك اعترضنى حتى لاأمد يدى فأتناول الكفرى من هذه النخلة التى أنتجته لأنى أستعمله فيما لم يخلق له ؛ خلق هذا الطلع ليلقح ثمر النخلة قريبة أو بعيدة ، وفى حقلنا نخلة تقرب منه لذلك جعل الله هذه السلاء (جمع سلاءة) لتمنع الأيدى العابثة فلا تمتد إليها ، هذا الخاطر ورد إلى أثناء هذه المحاولة فجاء غلام صغير فى الحقل وقال : إن هذا يشوكك فابتعد عنه وأنا أنزعه لك ، فتقدم لينزع (الكفرى) فلم يقدر وقال : إنى إن انتزعته انكسر ، ونحن نريد أن نعطيه لك سالما ، فبقول هذا الغلام تم الدرس الذى كنت أفكر فيه ، فجاء رجل من نفس الحقل ، وقال : لا يمكن قطعه إلا بسكين حادة ؛ فقلت فى نفسى الآن حصحص الحق ، أعنى أن هذا الطلع لا يأخذه إلا من له به عناية ، ولا عناية إلا بمنفعة والمنفعة هنا الإلقاح ، والالقاح كثيرا مايكون بيد الإنسان ، فيأخذ الطلع من الذكور إلى الإناث ، وهذه العناية النافعة يتخذ الإنسان لها عدة ، وهى آلة حديدية حادة ، بها يقطع ذلك المطلوب .

هنالك قلت لايتسع الوقت للبقاء وأشكرك ، وأنا الساعة أريد الرجوع إلى المنزل بالقاهرة ؛ هنالك خاطبنى الروح قائلا أنسيت الدرس الذى كنا ندرسه فى القطار ، إن له لصلة بهذا الموضوع الذى هو التفسير لهذه الآيات. فقلت : وكيف ذلك ؟ فقال إن النخلات الذكور والإناث متصلات بنور الشمس الذى شرحناه قريبا ، فهاهنا شمس وهاهنا نخل ، ولولا النظام الدقيق فى حساب الشمس ماأثمر النخل ، هذا أوان فصل الربيع قد بقيت له أيام قليلة ، ولا جرم أن الشمس فى هذا الفصل تأخذ فى الاقتراب من بلادكم ؛ وبها تزدهر الأشجار والزروع ، وتكون الثمرات ، وتزاوج الحيوان ، وظهور الأنوار ، والجمال والحسن ، والعشق والغرام وهاهنا ذكر ،وهاهنا أنثى ، وهاهنا سلاء شائكة حارسات لهؤلاء الذكور وهؤلاء الاناث ، الشمس بقربها أرسلت نورا ، وذلك النور له آثار بفعل الله فى نماء النبات قربا وبعدا ، وفى إنتاجه أنواع الثمرات ، وهذه الشمس لولا حسابها الدقيق لم يكن شجر ولا ثمر ، لأن النماء لابد أن يكون بنظام ، وهذا النظام لابد أن يسبقه نظام فى حساب سير الشمس ، ولو لم تكن الشمس جارية بحساب لم تر عينك اليوم هذا الطلع فى النخلة الصغيرة التى أمامك الآن ، ولو أن الشمس قربت وبعدت بغير نظام لم يكن شىء من هذا ، بل لم تكن أنت موجودا فى هذه الأرض ، ويقال لك : يا أهل يثرب لامقام لكم فارجعوا ، فترجعون إلى عالم الأموات ، إذن بين هذا الطلع وبين نفس الشمس وبين حساب سيرها مناسبة تامة ، وإذا صح ذلك بالنسبة لنور الشمس فليصح نظيره فى مسألة ظهور السلاء على قحوف الجريد : جمع قحف كحمل ، فهل هذه السلاء بارزات بهذه الدقة ولهذه الغاية والمنفعة والمحافظة على تلك الثمرات وطلعها من تلقاء نفسها فإذا كان بروز الثمرات من تلقاء نفسها ولم يكن بأسباب الضوء الجارى من الشمس بنظام وحساب فليكن بروز السلاء الشائكة على قحوف الجريد بغير علة ، بل نظام بلا منظم ، ولكن الأمر ليس كذلك ، إن الثمر فى ظواهر حالة تابع المؤثر ظاهرى ، وهو ضوء الشمس قربا وبعدا بحساب ، ولكن ضوء الشمس لا يعقل ولا يفهم أن هذا الطلع الضعيف يعوزه سلاء تحافظ عليه فتمنعنى أنا من أخذ الطلع ، إذن هناك

(١) بضم الكاف وتشديد الراء .

تلك

تلك الأرواح اللاتى ضربت لها الشموس مثلا فى الوجود، وهن مرسلات أنواراً حكمية على كل بقعة، فإن كانت فى الإنسان فهى عقل ، أو فى الحيوان فهى المسميات غرائز ، وإن كانت فى النخلة ، أو فى أجسام الإنسان والحيوان كان ذلك تنظيما وإحكاما بحيث يعطى كل ذى حق حقه .

فهذه السلاء أيها الجوهرى التى أمامك نظمت بنور حكمى استمد من أرواح عالية كما استمدت هذه النخلة أنواراً من الشمس قربا وبعدا ، وكما كان الحساب فى سير الشمس ظاهر الأثر ظهور الطلع فى إبانه هكذا كان الحساب عند تلك الأرواح العالية ظاهر الأثر فى إبداع تلك الشوكات المختصات بثمر هذه النخلات .

أيها الجوهرى : هذه الحكمة التى وضحت الآن تفسر هذه الآية تفسيرا جميلا لم يسبق له فى كتب المسلمين نظير .

انظر أيها الجوهرى . انظر ، انظر فى جسمك ، ألست الآن فى آخر العقد السابع من حياتك ، انظر ألست ترى الرأس مشتعلة بالمشيب ، ألست ترى هذا الجسم قد أدبر شبابه وأقبل هرمه؟ قلت بلى. قال : ماذا يقول هذا الجسم بلسان حاله ؟ السلاء فى النخلة ها أنا ذا أسمعتك قولها ، فهاك أسمعك أقوال جسمك الذى أدبر شبابه وقوته ، وأقبلت أيام هرمه وضعفه . يقول جسمك اليوم وجسم كل إنسى على شاكلتك : أنا لباس روحك ، تلك الروح التى تحيط بها أنوار حسية وأنوار عقلية ، تشرق عليها من عوالم الجمال والكمال ، كنت فتى وشابا وكهلا ، كل ذلك لتنمو روحك فى هذه الحياة وتجرب هذه الدنيا وتدرسها ، ولكن هذه الحال مقدمات ، والمقدمات لها نتائج ، فإذا أنا ضعفت اليوم فهذا الضعف مقدمة للزوال ، ومتى زلت عنك كشفت روحك هذا الوجود . فقلت للروح الذى تخيلته : أنا إلى الآن لم أفهم المراد ، ولم أعرف سر الآية ؟ فأقول أنا أوضح ذلك .

إيضاح تفسير الآية بمسألة الذكور والإناث

هنالك أخذ الروح يسألنى. هل ترى أن الذكورة والأنوثة واستقلالهما ضرورى فى الحيوان والنبات ؟ قلت لا . قال ولم ؟ قلت : لأن من النبات ما يتولد بغير ذكر كما نرى من الأغصان التى نأخذها من شجرات ونزرعها فتكون شجرات كأمهاتها وذلك كثير فى الأشجار وهكذا .

(المحار) : من أنواع الحيوان . إن المحارة الواحدة تلد الألوف بهيئة بيض ، وهذا البيض يبقى فيها أمداً حتى يفقس، ومتى فقس عاش حولها فى البحار وتربى وهو صغير بهيئة الذر كأنه مادة تلون الماء (هذا المقام واضح فى سورة مريم فاقرأه هناك) فهذه المحارة فيها الذكورة والأنوثة معا ، فلا عشق ولا غرام ولا هجر ولا فراق ، بل هناك ولادة بغير هذه التكاليف كلها ، فلا طلاق ولا خلع ولا نفقة ولا عدة ولا أحكام شرعية ولا حقوق لزوجة ، ولا حقوق لرجل ، بل كل هذا استغنى عنه المحار ، إذن هذا كله لا ضرورة له فى خلق الحيوان . فقال : إذن ما الحكمة فى هذه التكاليف والغرام والهيام ، والوصل والفراق ؟ فقلت : أنا لا أعلمها . فقال : أنا بذلك عليم . اعلم أن كل ما هو حولكم وما يحيط بكم دروس لكم . ولا جرم أن ما فى نفوسكم أقرب إليكم مما حولكم ، ومع كونه أقرب إليكم مما حولكم ترونه أبعد عنكم ، فأنكم لا تفقهون نفوسكم إلا بعد دراسة ما حولكم لتشابه العالمين . درسنا معك السلاء والطلع ، وعرفنا أن هناك أسبابا ونتائج هكذا الأسباب هنا لها نتائج ، وذلك أن العشق والغرام والجمال والحسن ، كل ذلك جعل مقدمات لما بعده من حصول الزوجة أولا والولد ثانياً ، فهناك جمال يتبعه شوق له فزواج ووصال ، وهناك قد تحصل نتيجتان : أولاهما هناء الحياة بقدر الامكان بين الزوجين ، ثانيتهما إنتاج الذرية ، إذن جمال أجسامكم فى حال الشباب له نتيجتان : إحداهما قاصرة على الزوجين وهى هناء الحياة ، وثانيتهما متعدية وهى إنتاج الذرية الباقية

بعد موت الأبوان ، إذن انفصال الذكر عن الأنثى فى الإنسان الذى يهمنا الكلام فيه ، وحصول الهجر والوصل ، والأحوال المختلفة ، والمسرات والأحزان ؛ كل ذلك مقدمات لنتائج والنتائج هى تعاون الزوجين فى أمور الحياة وإنتاج الذرية الباقية بعد الممات ؟ إذا صح ذلك فى ذكورة الإنسان وأنوثته فإنما ذلك جعل مقدمة لما نحن فيه الآن .

النفوس الإنسانية فى شوقها للعلوم أشبه بالشبان فى شوقهم إلى الشابات

إن هذه الأجسام الحاملة لأجسامكم اليوم تقوم بأود الروح وتحملها وتحفظها إلى يوم الموت وهى فى أيام الشباب غارقة فى مهمات الحياة ، ولكنها إذا أقبلت أيام الشيب تفتح لبعض العقول أبواب الفكر والبحث ، وتشتاق شوقا على مقدار همتها إلى الاطلاع على هذه العوالم ، وكلما ارتقت فى العلم ازدادت ولوعا ، ولاتزال فى ازدياد حتى تعانى مايعانيه الشبان من الهجر والفراق ، وخير أيام الفكر أيام كبر السن ، فتذكرت ماقاله الدكتور (شاهين باشا) رئيس الأطباء فى مصر اليوم فى خطبة خطبها فى العام السابق (سنة ١٩٣١ م) إذ قال : « إن الدم يتحول إلى المخ فى زمن الشيخوخة ، فلينتهز تلك الفرصة الشيوخ ، وليفكروا فى تلك السن » . أقول : ولكن ليس معنى هذا أن كل الشيوخ يقدرون على ذلك ، فإن كثيراً من الشيوخ ضعفت قواهم العقلية فى زمن الشباب بالانهماك فى اللذات ، فجاءوا إلى زمن الشيخوخة وهم مقلون فلايفكرون ، بل يرجعون كالأطفال .

ثم قال الروح : إن هذه العوالم المحيطة بكم غذاء لأرواحكم ، وكما أن من يجلس ليلا وهو فارغ من الهم يحس بسعادة فى منظر النجوم وجمالها هكذا أرواحكم المحبوسة الآن إذا خلت من هذه الأجسام ورجعت إلى عوالم الأرواح تحس بسعادة لاحد لها ، وليس المثل كالممثل له بل هو مجرد تنظير وإلا فأرواحكم تصبح إذا فارقت الجسد وعندها استعداد لعالم الجمال سعيدة سعادة مطلقة مغمورة بالجمال ، إذن انقسام الناس إلى ذكور وإناث فيكون شوق وتوق وهجر ووصال ، كل ذلك ممهد لما هو أعلى ، فأنتم فى أيام حياتكم تشتاقون إلى المعرفة والعلم ، والمعرفة والعلم فى الحقيقة غذاء لأرواحكم ! تلك الأرواح المستعدة للبقاء ، وهى تغتذى بتلك المعارف التى هى زادها وتفيد الأرواح التى هى أقل منها هناك علما ومعرفة ؛ فإذن هناك فوائد قاصرة على الروح ، وفوائد متعدية ، فهى بالعلوم تستلذ وتغتذى ، وهى بها تفيد غيرها علما ومعرفة كما يفعل ذلك الزوجان ، فهما بعد الشوق بداعى الجمال والهجر يتصلان فيكون هناك سعادة زوجية بينهما ، وذرية هما يسعدان بتربيتها ، وهكذا تسعد الأرواح بعد الموت بالاطلاع على هذه العوالم الجميلة فتتغذى بها كما تتغذى الأجسام اليوم بالحبوب والثمار وتفيد أرواحا صغيرة فوائد تكون سعادة لها أيضاً كما سعدت بتربية الذرية وأحست بلذة فى هذه الحياة ، إذن ظهر لك السر الآن أيها الجوهرى ؛ وبان لك واتضح أن الجمال والعشق التابع له ، والهجر والفراق وماماثله كل ذلك مقدمات لما هو أهم ، وهو أن المحارة التى لم يتميز فيها الذكر من الأنثى ليست أهلا للمعارف التى ستنالها أرواحكم بعد الموت ، فلم تعذب فى الحياة الدنيا بالهجر والخلع والطلاق والفراق ، بل حملت وولدت بلا كلفة من هذا النوع لأنه تعذيب لانتيجة له ، أما التعذيب فى الإنسانية فإن له ثمرة ، لأنه يعلم النفس ماهو الجمال ، وماهو الحب ، وماهى السعادة مع الإخوان ، وماهى السعادة فى منح الغير هبات وعطايا كالذرية . حتى إذا ارتقت النفس واشتاقت للعلوم والمعارف وأغرمت بها : هنالك تبحث وتجد ، وكلما كبرت وعرفت الحقائق اشتاقت فحنت وأنت وبكت واشتكت ، حتى إذا فارقت هذا البدن المانع لها من عالمها حصل لها الهناء والفوز بحصول المطلوب والعز المرغوب ، فتصبح مغمورة فى جو من الجمال والحكمة والنور لايدركها أحد فى هذه الحياة ، وهنالك يفهم المسلمون لماذا يقول الله فى القرآن :

« فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربى هذا أكبر فلما أفلت قال ياقوم إنى برىء مما تشركون إنى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفا » وذلك لأن الله لابد أن يكون حاضرا بعلمه وقدرته والشمس تقرب وتبعد وتشرق وتأفل، بدليل أن بعدها أورث البرد فى دياركم ، وقربها أورث بروز طلع النخل فى حقلكم ولكن الله ليس كذلك ، ألا ترى أن السلاء الطالعة فى قحف الجريد المذكور آنفا ، وهاهو ذا أمامك معتنى به ليلا ونهارا ، فإن نمو كل نام لايقف ليلا ولانهارا ، أى أن النمو مستمر وإحكامه وتدبيره وتقديره مستمر ليلا ونهارا ، وهذا من عالم روحى « يسبحون الليل والنهار لايفترون » فعوالم الأرواح لاتنام كاينام الإنسان ولاتغيب كما تغيب الشمس ، وعالم الأرواح أقرب إلى الحضرة العلية من عالم الحس فلذلك اعتنت بهذه السلاء فى ظهور الشمس وفى أفولها ، إذن عالم الأرواح أقرب إلى ربه (المنزه عن كل مخلوق ، المتعالى عن كل مربوب) من عالم الأجسام ، وكل محسوس فلقربه منه وكثرة استمداده منه دام إقباله ولم يغب كما تغيب الشمس ، ولو غابت تلك القوى الحافظة للعالم لحظة لهلك كله ، ولتصدعت هذه السلاء طبعا ، فإذا كانت القوى الروحية المحيطة بكم مشرقة لاتغيب فكيف بالله عز وجل ! فهو إذن أكثر منها ظهوراً بما لاحد له ، فإذا ارتقت نفوسكم فإنها يوما ما ستعرف ربها ، وهذا سر الحديث الوارد فى إنكم سترون ربكم كما ترون الشمس ليس دونها سحاب ، وفى رواية أخرى : جاء ذكر القمر على حسب اختلاف مراتب الناس من علماء بهذه العجائب ، ومن عباد محجوبة أفكارهم فلايدركون من كمال الله إلاقليلا كما يدرك الناس من أنوار الشمس على ماانعكس منها على القمر ثم أشرق على الأرض .

هذا هو السر أيها الجوهرى فى قوله تعالى : « وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى ، من نطفة إذا تمنى ، وأن عليه النشأة الأخرى » فى الذكورة والأنوثة تمهيد للشوق والغرام والعشق الحاصلات لكثير من الشبان والشيوخ فى هذه الدنيا ، وهى نفوس مصطفاة لايخلو منها زمان ولامكان ، يعيشون فى أرضكم وفيهم هذا الشوق ، وإذا ماتوا تنعموا بنعيم العالم الروحى ، بل كثيرا مايحسون فى هذه الحياة كأنهم غرقوا فى بحر لجى من جمال الأرواح ، وكأن ربهم يخاطبهم ، وكأنهم يرونه وإن كانوا لايرونه فعلا لضعف مراتبهم وللحوائل الكثيرة ، وهذه النفوس هى المنعشات للأمم جيلا فجيلا وآنا فآنا ، وهذه النفوس تقول فى هذه الحياة : لو كشفت عنى الغطاء ماازددت يقينا . فالنشأة الأخرى التى مقدمتها الموت لها مقدمة وهو عشق العلوم ، وعشق العلوم له مقدمة وهى بهجة المناظر ومحاسنها التى تغرم بها بعض النفوس .

فإذا كانت آية الأنعام جاء فيها أن الرحمة أعقبها أن الله يجمعنا ليوم القيامة ، ففى (سورة النجم) كانت الرحمة المودعة فى انقسام الناس إلى ذكور وإناث متبوعة بالنشأة الأخرى ، لأن الذكورة والأنوثة مرنت النفوس على الغرام فالوصال إلى آخر ماتقدم ، فهكذا هنا غرام وحب ثم هجر وبعد ، ثم خلوص النفس بالموت فتصل إلى السعادة الأبدية .هذا هو السر الذى يمكن أن ألقيه إليك الآن لتنشره فى نوع الإنسان ، وكم فى القرآن من أسرار : « وفوق كل ذى علم عليم » .

كل ذلك وأنا واقف أمام شجرة النخل إذا قائل يقول لى : لقد أزف الوقت لأن موعد صاحب السيارة أن يوافينا الساعة الرابعة ، ولم يبق إلادقائق ، فاستعددت للرجوع ، وأخذت أهلى ووصلنا إلى المكان الذى أمكن السيارة أن تقف فيه ، فتأخر ذلك السائق مدة ، وكنا لم نعطه أجراً حتى يكون ذلك حاملا له على الرجوع إلينا ثم حضر ، وماوصل إلينا حتى قال : أنا أعلم أنى قد أخطأت ، ولكن لتكن المغفرة . فقلت لابأس ، ثم ركبنا السيارة ورجعنا إلى محطة المرج ، وسار بنا القطار إلى محطة القاهرة ثم المنزل ، وذلك يوم الأحد ١٥ مارس سنة ١٩٣٢ م وإلى هنا تم الكلام على (سورة النجم) والحمد لله رب العالمين .

تفسير سورة القمر

هي مكية

إلا ثلاث آيات وهي: «أم يقولون نحن جميع منتصر ، سيهزم الجمع ويولون الدبر ، بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمر » فمدنية .

آياتها ٥٥ — نزلت بعد الطارق

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ * وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ *
وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقِرٌّ * وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ *
حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ * فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نُكُرٍ * خُشَّعًا
أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ * مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ
الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ * كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ
وَازْدُجِرَ * فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ * فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ * وَفَجَّرْنَا
الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ * وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ * تَجْرِي
بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ * وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ * فَكَيْفَ كَانَ
عَذَابِي وَنُذُرِ * وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ * كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ
كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ * إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ * تَنْزِعُ
النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ * فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ * وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ
لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ * كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ * فَقَالُوا أَبَشَرًا مِنَّا وَاحِدًا نَتَّبِعُهُ إِنَّا
إِذًا لَفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ * أَؤُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ * سَيَعْلَمُونَ
غَدًا مَنِ الْكَذَّابُ الْأَشِرُ * إِنَّا مُرْسِلُو النَّاقَةِ فِتْنَةً لَهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ * وَنَبِّئْهُمْ

أنَّ الْماءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُحْتَضَرٌ * فَنادَوْا صاحِبَهُمْ فَتَعاطَى فَعَقَرَ * فَكَيْفَ كانَ عَذابِي وَنُذُرِ * إنَّا أرْسَلْنا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً واحِدَةً فَكانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ * وَلَقَدْ يَسَّرْنا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ * كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ * إنَّا أرْسَلْنا عَلَيْهِمْ حاصِبًا إلَّا آلَ لُوطٍ نَجَّيْناهُمْ بِسَحَرٍ * نِعْمَةً مِنْ عِنْدِنا كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ * وَلَقَدْ أنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنا فَتَمارَوْا بِالنُّذُرِ * وَلَقَدْ راوَدُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ فَطَمَسْنا أعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذابِي وَنُذُرِ * وَلَقَدْ صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً عَذابٌ مُسْتَقِرٌّ * فَذُوقُوا عَذابِي وَنُذُرِ * وَلَقَدْ يَسَّرْنا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ * وَلَقَدْ جاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ * كَذَّبُوا بِآياتِنا كُلِّها فَأخَذْناهُمْ أخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ * أكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَئِكُمْ أمْ لَكُمْ بَراءَةٌ فِي الزُّبُرِ * أمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ * سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ * بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أدْهَى وَأمَرُّ * إنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلالٍ وَسُعُرٍ * يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ * إنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْناهُ بِقَدَرٍ * وَما أمْرُنا إلَّا واحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ * وَلَقَدْ أهْلَكْنا أشْياعَكُمْ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ * وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ * وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌ * إنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ * فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ *

هذه السورة ثلاثة أقسام

القسم الأول فى تفسير البسملة .

القسم الثانى : مذكرات بالساعة وعذاب الدنيا بالهلاك من أول السورة إلى قوله « فأخذناهم أخذ عزيز مقتدر » :

القسم الثالث : فى توبيخ قريش ، وقياس حالهم على حال الأمم الماضية ، وأنهم سيهزمون كما هزم الأولون ويدخلون النار كما دخلوا ، من قوله تعالى : « أكفاركم خير من أولئكم أم لكم براءة فى الزبر » إلى آخر السورة .

القسم الأول : فى تفسير البسملة

يعجب الإنسان من أمر آى القرآن ، وكيف كانت الرحمة المجسمة فى الشمس والقمر والنجوم قد ذكرت فى القرآن بهيئة لم يعهدها العرب الذين نزل القرآن بلغتهم ، يذكر الله الشمس فيقول : « والشمس وضحاها » ويذكر النجم فيقول : « والنجم إذا هوى » ويذكر القمر فيقول عطفا على « والشمس وضحاها ، والقمر إذا تلاها » رحمة عامة ظاهرة واضحة مجسمة ، لذلك يكرر الرحمة فى أول كل سورة ليلفت نظرنا إلى رحمات مجسمة وغير مجسمة ، ومن غير المجسمة ماجاء فى هذه السورة من العبر والحكم والمواعظ والآيات

البينات . سبحانك اللهم وبحمدك جعلت الرحمة تحيط بنا من بين أيدينا ومن خلفنا ، وعن أيماننا وعن شمائلنا .

الله أكبر . الله أكبر : رباه ظهرت أنوارك ولكنها غشت على عقولنا لأنها أنوار لا حد لها ولا نهاية ، شمس وقمر ونجوم وجمال وبهاء ، وعجائب تتلوها عجائب ، ولكن لما كانت العقول خامدة ، والنفوس جامدة ، منحها نعما على قدر طاقتها ، وهي عبر التاريخ وبدائع السير ونظام الأمم ، فأخذ يحدثنا بتاريخ من قبلنا ، فذكر تلك الأمم البائدة التي قرعت أسماع العرب من قوم نوح وعاد وقوم لوط وآل فرعون أخذ يحدثهم بما يعرفون وليس مما ينفعهم أو يؤثر فيهم أن يذكر لهم أمم الصين ، أو أهل استراليا ، أو أهل أوربا ، فهؤلاء لا علم لهم بتلك الأمم فلم يكن هناك بد من تذكيرهم بما يأتون ، وإعلامهم بما يعملون .

فسبحانك اللهم جعلت السابقين عبرة اللاحقين ، والأولين نبراس الآخرين ، إن ذكر هذه الأمم فتح لباب علم التاريخ ، يرشد الله المسلمين إلى الاعتبار بتاريخ كل أمة من الأمم السابقة واللاحقة شرقا وغربا ، فليس ذكر قوم نوح وعاد وثمود بقيد في علم التاريخ كما لم يكن ذكر الإبل وخلقها والسماء ورفعها والجبال ونصبها ، والأرض ونظامها مقيدا لأمم الإسلام بهذه المخلوقات ، بل إن هذه أمثلة ونماذج لعلم التاريخ والاتعاظ والائتساء بحوادثه المختلفة ليعتبر الخلف بالسلف ، ويقتدي الآخرون بالأولين ، واللاحقون بالسابقين ، ومتى درسوا هذه الدنيا عرفوا أنها منتظمة ، وأن كل شيء موزون بميزان لا بخس فيه ، وعلى ذلك النظام ستهزم الجموع الكافرة كما انهزم من قبلهم أمام جيوش الأنبياء السابقين « سيهزم الجمع ويولون الدبر » .

ونتيجة ذلك النظام كله أن يقرب الناس من ربهم متى عرفوا أن عمله متقن وأدركته عقولهم ، وذلك القرب بالعلم والمكانة لا القرب بالمكان ، والنهاية أن يكون الإنسان في مقعد صدق عند مليك مقتدر ، وهذه نهاية السعادات في الحياة الدنيا والآخرة ، فأما في الدنيا فإن الناس جميعا في حيرة مغمورون إلا طائفة واحدة وهي التي أدركت هذا النظام وأعجبت به ، ولن يكون في حضرة الملك القدوس إلا هذه الطائفة ، أما بقية الناس فإنهم إما في جنة ولا يرون الله إلا على مقدار ما عرفوا ، وإما في نار وهم عنه محجوبون ، والحمد لله رب العالمين . انتهى الكلام على القسم الأول في تفسير البسملة . كتب ظهر يوم الثلاثاء ١٦ أغسطس سنة ١٩٣٢ م ١٥ ربيع الثاني ١٣٥١ هـ .

القسم الثاني : مذكرات بالساعة وعذاب الدنيا بالهلاك

التفسير اللفظي

بسم الله الرحمن الرحيم

(اقتربت الساعة وانشق القمر) أي سينشق يوم القيامة ، أو أنه قد انشق كما روي عن أنس « إن أهل مكة سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يريهم آية فأراهم انشقاق القمر مرتين » أخرجه البخاري ومسلم وكيفية ذلك أنه انشق فلقتين : فلقة فوق الجبل ، وفلقة دونه . ومعنى هذا أنه يقول سبحانه : قربت القيامة ، وهاهو ذا القمر انشق من الآن كما تقول : أقبل الأمير وقد جاء البشير بقدومه ، فإن انشقاق القمر دلالة على ما سيئول إليه حال العوالم العلوية والسفلية فإن مآلها الانحلال والبوار . يقول الله : انظروا أيها الناس ، إنكم تظنون الكواكب والشمس والقمر لا يعتريها البلى ، إن القمر يقبل الفناء ، والدليل على ذلك انشقاقه الذي استبان لكم ليدلكم على أنه سيبيد من الوجود كما تبيد أرضكم ، والممكنات بأسرها تقبل الفناء .

يقول المؤلف : ومن عجب أن علماء الهيئة فى العلم الحديث لم يذكروا أن شيئا اشتق من الأرض إلا القمر ، ويقولون انه أثناء دورانها قديما انحل عنها ودار حولها ، وهذا نوع من الانشقاق ، ولكنه انشق من غيره ، وانشقاق القمر من الأرض دليل على أن الأرض تبدل غير الأرض والسموات ، فإذن يكون انشقاق القمر فى القرآن من المعجزات العلمية لا من حيث إن قريشا رأوه منشقا وجبل حراء بين فلقتيه على رواية ابن مسعود فحسب ، بل إن هذا الذى حصل زمن النبوة تذكرة باشتقاقه من الأرض وانفصاله عنها ، فكما انشق القمر نصفين هكذا كان هو مع الأرض سابقاً وانشقت الأرض فانفصل عنها القمر ، ومعنى هذا تجزؤ المادة وفناؤها وذهابها وتبدلها ، هذا ماتشير له الآية وإلا فلماذا خص القمر بالانشقاق ؟ ولماذا لم يختر الله له الشمس أو كوكباً من الكواكب ذلك لهذه النكتة وهو أن القمر هو محل البحث الحديث ، وأن له انشقاقا عن غيره ، فانشقاقه شقين على الجبل ودونه يشير إلى ما كان له قبل ذلك من اشتقاقه من الأرض ، ويكون ذلك من دواعى العلم والكشف والبحث ، فانظر كيف جاء فى هذه السور : البحر المسجور تحت الأرض ، والقمر المنشق من الأرض ، والرق المنشور إشارة لعصر الورق وعصر المدنية والعلم ، والبيت المعمور إشارة إلى العوالم التى كشف الناس بعضها ، كل ذلك تذكرة للمسلمين النائمين الآن ، المستيقظين فى مستقبل الزمان ، فهذه كلها محرضات على العلم مشوقات له ؟ وسيقوم بهذه العلوم أبناء أمة الإسلام فى مستقبل الزمان ، انشقاق القمر فتح لباب العلم والبحث فى أصل الأرض وأصل القمر ، وكل ذلك واجب على أمة الإسلام (وإن يروا آية يعرضوا) عن تأملها (ويقولوا سحر مستمر) مطرد ، وذلك أنهم رأوا آيات متتابعات فلم يعيروها التفاتا (وكذبوا) النبى صلى الله عليه وسلم (واتبعوا أهواءهم) وهو مازين لهم الشيطان من رد الحق الظاهر (وكل أمر مستقر) كل شىء ينتهى إلى غاية تناسبه فأمركم ينتهى إلى غاية من الخذلان والعذاب فى الآخرة : وأمر محمد صلى الله عليه وسلم ينتهى إلى نصر فى الدنيا وجنة فى الآخرة ، وكل حركات الأفلاك ، ونظام العمران ، وأعمال الأمم ، ونظام الإنسان والحيوان والنبات ، كل ذلك داخل فى هذه القاعدة ، فلكل من هذه غاية ينتهى إليها ، وهذه من جوامع الكلم وعجائب الحكم ، فقضية النبى صلى الله عليه وسلم وقضية المشركين داخلتان فى هذه القاعدة العامة ولذلك أعقبها بقوله (ولقد جاءهم من الأنباء) أى جاءهم فى القرآن من أنباء القرون الخالية وأنباء يوم القيامة (مافيه مزدجر) ازدجار من تعذيب العاصين يوم الدين وهلاك دولهم فى الدنيا ، وأبدل من (ما) قوله (حكمة بالغة) غايتها لاخلل فيها ، والملخص أن كل أمر ينتهى إلى غاية ، ومن تلك الأمور المنتهية إلى غاياتها مايتلى فى كتاب الله من العذاب الذى يزجر من يعتبر ، ومن الحكمة المنتهية إلى غايتها مصداقا لما ذكر من أن كل شىء ينتهى إلى غاية تناسبه ، ومع ذلك لم يتعظوا وهو قوله (فما تغن النذر) أى فأى غنى تغنى النذر ؛ جمع نذير بمعنى المنذر ، إذا علمت أن الإنذار لايفيدهم (فتول عنهم) واذكر (يوم يدع الداع) أسقطت الياء اكتفاء بالكسرة والدعاء هنا بمعنى الأمر كقوله تعالى « كن فيكون » أو الداعى إسرافيل (إلى شىء نكر) فظيع تنكره النفوس لأنها لاعهد لها بمثله ، وهو أهوال يوم القيامة (خشعا أبصارهم يخرجون من الأجداث) أى يخرجون من قبورهم ذليلا أبصارهم من الهول ، فخاشعا حال من الواو ، وتقول خاشعاً أبصارهم كما تقول يخشع أبصارهم ، وقرئ خاشعة أبصارهم ، وأما قراءة خشعاً أبصارهم فهى على لغة أكلونى البراغيث كأنك قلت : يخشعن أبصارهم ، وقوله (كأنهم جراد منتشر) فى كثرتهم وتموجهم وانتشارهم فى الأمكنة (مهطعين إلى الداع) مسرعين مادى أعناقهم إليه مقبلين (يقول الكافرون هذا يوم عسر) صعب (كذبت قبلهم قوم نوح) قبل قومك (فكذبوا عبدنا) نوحا عليه السلام ، وهذا تفصيل بعد إجمال (وقالوا مجنون) أى هو مجنون (وازدجر) أى وزجر عن التبليغ بأنواع الأذى

(فدعا ربه أنى) بأنى (مغلوب) غلبنى قومى (فانتصر) فانتقم لى منهم ، وذلك بعد أن يئس منهم (ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر) منصب ، وهذه الجملة مبالغة وتمثيل لكثرة الأمطار وشدة انصبابها (وفجرنا الأرض عيونا) أى وجعلنا الأرض كلها كأنها عيون متفجرة ، وفى هيئة الإعراب عند النحاة يقال أصلها فجرنا عيون الأرض فعدل عنها إلى ما يفيد المبالغة (فالتقى الماء) ماء السماء وماء الأرض وقرئ الماءان (على أمر قد قدر) على أمر قد قدره الله وهو هلاك قوم نوح بالطوفان (وحملناه على ذات ألواح ودسر) هذا من فصيح الكلام وبديعه إذ جعلت الصفة القائمة مقام الموصوف نائبة عنه فأدت مؤداه ، وذكر الصفة التى على هذا المنوال أبلغ من ذكر الموصوف ، فقولك قميصى مسرودة من حديد أبلغ من قولك قميصى درع ، فهكذا هنا ذات ألواح ودسر (جمع دسار ، وهو المسمار من الدسر وهو الدفع لأنه يدفع منفذه) أبلغ من سفينة ، وقوله (تجرى بأعيننا) أى تجرى حال كونها محفوظة بنا ، لأنها إذا كانت بمرآنا فهى فى حفظنا ، وإنما فعلنا ذلك (جزاء لمن كان كفر) وهو نوح ، لأن النبى نعمة من الله ورحمة ، فإذن نوح نعمة مكفورة (ولقد تركناها) أى السفينة ، أو الفعلة أى جعلناها (آية) يعتبر بها إذ شاع خبرها واشتهر أمرها (فهل من مدكر) معتبر (فكيف كان عذابى ونذر) جمع نذير وهو الإنذار : أى فانظر يا محمد كيف كان عذابى ، وكيف كان حال إنذارى لهؤلاء الذين أنذرهم نوح ؟ ألم يتم نصرى لنوح الذى أنذرهم وهلاكى لهم لكفرهم ، وذلك من الحكمة السابقة « وكل أمر مستقر » فهكذا ستكون الأمم وأحوالها ، وهكذا عواقب أمورها (ولقد يسرنا القرآن) سهلناه (للذكر) أى ليتذكر ويعتبر به (فهل من مدكر) أى متعظ بمواعظه (كذبت عاد فكيف كان عذابى ونذر) وإنذارى لهم بالعذاب قبل نزوله ، ألم يتم ، ألم يكن مهولا ؟ وكأنه يقال ماهذا العذاب فقال (إنا أرسلنا عليهم ريحا صرصرا) باردة أو شديدة الصوت (فى يوم نحس) شؤم (مستمر) أى استمر شؤمه فاستمر عليهم حتى أهلكهم (تنزع الناس) تقلعهم من أماكنهم حال كونهم (كأنهم أعجاز) أصول (نخل منقعر) منقلع من مغارسه ساقط على الأرض ، وإنما شبهوا بالأعجاز لأن الريح طيرت رؤوسهم وطرحت أجسادهم ، والنخل اسم جنس جمعى يذكر ويؤنث ، فلذلك جاء فى القرآن : « أعجاز نخل خاوية » وجاء هنا « أعجاز نخل منقعر » ونظير ماهنا « إليه يصعد الكلم الطيب » (فكيف كان عذابى ونذر) كرره للتهويل ، ولأن لهم عذابين : أحدهما فى الدنيا ، والثانى فى الآخرة ، وجاء فى قصتهم « لنذيقهم عذاب الخزى فى الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أخزى » (ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر ، كذبت ثمود بالنذر) بالإنذارات والمواعظ التى جاء بها صالح (فقالوا أبشرا منا) من جنسنا أو من جملتنا (واحدا) منفردا (نتبعه إنا إذا لفى ضلال وسعر) الضلال الخطأ والسعر الجنون ، ومنه ناقة مسعورة وهذه الكلمة مستعملة اليوم عند العامة فى أمتنا المصرية بهذا المعنى (أألقى الذكر عليه من بيننا) وكيف يكون كذلك وفينا من هو أحق منه به (بل هو كذاب أشر) حمله البطر على الترفع علينا بادعائه الوحى فقال الله تعالى على لسان صالح عليه السلام (سيعلمون غداً) عند نزول العذاب بهم فى الدنيا ويوم القيامة (من الكذاب الأشر) الذى حمله أشره على الاستكبار عن الحق وطلب الباطل أصالح أم من كذبه ؟ (إنا مرسلوا الناقة) مخرجوها وباعثوها (فتنة لهم) امتحانا لهم لأنا نمتحن بالنعم وبالنقم (فارتقبهم) فانتظرهم وانظر ماذا يصنعون أيشكرون أم يكفرون (واصطبر) على أذاهم (ونبئهم أن الماء قسمة بينهم) مقسوم بينهم ، وفيه تغليب العقلاء على غيرهم فللناقة يوم ولهم يوم (كل شرب محتضر) أى محضور يحضره صاحبه فى نوبته ، يحضر القوم الشرب يوما وتحضر الناقة يوما كما فى آية أخرى « لها شرب ولكم شرب يوم معلوم » ثم سئموا النعمة (فنادوا صاحبهم) قدار بن سالف أحيمر ثمود (فتعاطى) فاجترأ على تعاطى الأمر العظيم

غير

غير مكترث له (فعقر) الناقة ، أو فتعاطى السيف الخ (فكيف كان عذابي ونذر ، إنا أرسلنا عليهم) في اليوم الرابع من عقرها (صيحة واحدة) صاح بهم جبريل (فكانوا كهشيم المحتظر) أي كالحشيش اليابس الذي يجمعه صاحب الحظيرة لماشيته . وقال ابن عباس رضي الله عنهما : هو الرجل يحظر لغنمه حظيرة من الشجر والشوك دون السباع فما سقط من ذلك فداسته الغنم فهو الهشيم ، والمعنى أنهم صاروا كيابس الشجر إذا بلى وتحطم (ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر ، كذبت قوم لوط بالنذر ، إنا أرسلنا عليهم حاصبا) أي الحصباء وهي الحجارة دون الكف ، وقد يراد بالحاصب الرامي : أي أرسلنا عليهم عذابا يحصبهم أي يرميهم بالحصباء (إلا آل لوط نجيناهم بسحر) أي في سحر ، وهو آخر الليل (نعمة من عندنا) أي إنعاما منا (كذلك نجزي من شكر) نعمتنا بالإيمان والطاعة (ولقد أنذرهم) لوط (بطشتنا) أخذتنا بالعذاب (فتماروا بالنذر) فشكوا بالانذارات ولم يصدقوا (ولقد راودوه عن ضيفه) أي طلبوا منه أن يسلم إليهم أضيافه لما يقبح فعله (فطمسنا أعينهم) فمسحناها وسويناها كسائر الوجه ، وذلك لما دخلوا داره عنوة ، أو طمس الله أبصارهم فلم يروا الرسل فقالوا لقد رأيناهم حين دخلوا فأين ذهبوا ؟ قال تعالى (فذوقوا عذابي ونذر) أي ما أنذركم به لوط من العذاب (ولقد صبحهم بكرة) أي جاءهم وقت الصبح (عذاب مستقر) أي دائم : أي استقر فيهم حتى أفضى بهم إلى الهلاك (فذوقوا عذابي ونذر ، ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر) تكرار هذه وتكرار أمثالها في القرآن كما في (سورة الرحمن) الآتية للإيقاظ والتنبيه وهذا كثير في كلام العرب كقوله :

قربا مربط النعامة مني لقحت حرب وائل عن حيالي
قربا مربط النعامة مني شاب رأسي وأنكرتني عيالي

وهي طويلة على هذا النسق ، وهذا التكرار يكون في الأمر العظيم كما هنا ، فقوله : « ويل يومئذ للمكذبين » ، وقوله : « فبأي آلاء ربكما تكذبان » عند النقم في الأول ، والنعم في الثاني من هذا القبيل وذلك لتكون العبرة حاضرة عند السامع مصورة في الأذهان ، وكذلك تكون صور النعم غير منسية ؛ ثم قال تعالى (ولقد جاء آل فرعون النذر) وفرعون أيضاً من باب أولى (كذبوا بآياتنا كلها) وهي الآيات التسع (فأخذناهم أخذ عزيز) لا يغلب ولا يغالب (مقتدر) لا يعجزه شيء . انتهى التفسير اللفظي للقسم الثاني من السورة .

القسم الثالث : توبيخ قريش وقياس حالهم على حال الأمم الماضية
وأنهم سيهزمون كما هزم الأولون ويدخلون النار كما دخلوا

قال تعالى (أكفاركم) يامعشر العرب (خير من أولئكم) أي أقوى وأشد من الذين أحللت بهم نقمتي مثل قوم نوح ومن بعدهم (أم لكم براءة) من العذاب (في الزبر) أي في الكتب أنه لن يصيبكم ما أصابهم (أم يقولون) أي كفار مكة (نحن جميع) جماعة أمرنا مجتمع (منتصر) ممتنع لا نرام ولا نضام ، أنذر الله الأمم السالفة وتم ما أنذر به هكذا هنا يقول سبحانه (سيهزم الجمع ويولون الدبر) أي الأدبار فكل واحد يولي دبره ، وهذا من دلائل النبوة فإنهم هزموا يوم بدر وما بعده ، ولم يكن له صلى الله عليه وسلم في مكة جيش بل كان أتباعه مشردين في الآفاق ومعذب بعضهم . قال عمر رضي الله تعالى عنه : لما نزلت لم أعلم ما هي ؟ فلما كان يوم بدر رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يلبس الدرع ويقول « سيهزم الجمع » فعلمته . أقول : وليس ذلك قاصرا على يوم بدر بل استمر انهزامهم (بل الساعة موعدهم) موعد عذابهم الأصلي ، وعذاب الدنيا كالمقدمة لعذاب الآخرة (والساعة أدهى) أشد وأعظم داهية من الأسر والقتل

يوم بدر ومابعده ، والداهية أمر فظيع لايهتدى لدوائه (وأمر) مذاقا من عـذاب الدنيا (إن المجرمين فى ضلال) عن الحق فى الدنيا (وسعر) ونيران فى الآخرة (يوم يسحبون فى النار) يجرون فيها (على وجوههم) ويقال لهم (ذوقوا مس سـقر) أى ذوقوا حر النار وألمها ، فإن مسها سبب للتألم ، وسقر علم على جهنم ، تقول سقرته النار وصقرته إذا لوحته (إنا كل شىء خلقناه بقـدر) أى مقدرا مرتباً على مقتضى الحكمة ، وهذا يقرب من قوله فيما تقدم : « وكل أمر مستقر » وأتبع تلك الحكمة بقصص الأمم وختمها بإنذار أهل مكة ، ولما أتم ذلك ذكر النتيجة . فقال : إن كل شىء مرتب على مقتضى الحكمة ، فالأول كأنه قضية يراد الاستدلال عليها ، ولما ذكر قصصهم وإنذار مشركى مكة ذكر الحكمة إشارة لسطوع البرهان وظهور النتيجة ، وهذا كقوله تعالى : « ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت » فالعوالم متشابهة ، وأحوال الأمم متشابهة ، فالمصلحون كلهم نافذة منصورون ، والمفسدون مقهورون معذبون ، ثم أعقبه بأن هذا يسير عليه فقال (وما أمرنا إلا واحدة) فعلة واحـدة ، وهو الإيجاد بلامعالجة ومعاناة، أو إلا كلمة واحدة (كلمح بالبصر) فى اليسر والسرعة ، ومنه أمر الساعة فهو كلمح البصر ، وإذا ثبت لديكم أن كل أمر مستقر ، وأن كل شىء خلقناه بقدر ونظام وحكمة بما قصصناه عليكم من أمر الأمم فكيف تغفلون ولا تتعظون بعد ثبوت هذه الحكمة ؟ وهذا قوله (ولقد أهلكنا أشياعكم) أشباهكم فى الكفر كما قصصناه (فهل من مدكر) متعظ (وكل شىء فعلوه فى الزبر) مكتوب فى كتب الحفظة (وكل صغير وكبير) من الأعمال (مستطر) مسطور فى اللوح (إن المتقين فى جنات ونهر) كبيب أى أنهار ، وإنما وحده لموافقة رؤوس الآى ، وهى أنهار الجنة المتقدمة فى (سورة القتال) وقرئ كجنب جمع نهر (فى مقعد صدق) فى مكان مرضى ، أو فى مجلس حق لالغو فيه ولاتأثيم ولا كذب لأن الله صادق فمن وصل إليه امتنع عليه الكذب فهو فى مقعد صدق (عند مليك مقتدر) مقربين عند من تعالى أمره فى الملك والاقتدار ، وهؤلاء هم الذين قال الله فيهم : « وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة » فهؤلاء هم الذين يحظون بالقرب من ربهم . انتهى التفسير اللفظى للقسم الثالث من السورة ، والحمد لله رب العالمين .

لطائف هذه السورة

اللطيفة الأولى فى قوله تعالى : « ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر » .

اللطيفة الثانية فى قوله تعالى : « إنا كل شىء خلقناه بقدر » .

اللطيفة الثالثة فى قوله تعالى : « وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر » .

اللطيفة الأولى فى قوله تعالى : ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر

بسم الله الرحمن الرحيم

اللهم إنا نحمدك على مامنحتنا من العلم ، وحبوتنا من التيسير ، وأفضت من الخير علينا وعلى المسلمين فى سائر الأقطار فى هذا الزمان الذى به أشرق نور الإسلام وازدهر ، وظهر نوره وانتشر ، وأشرقت أرض الإسلام بنور ربها وأظهرت أسرارا من الفرقان وعلوما من العرفان لأمة الإسلام تناسب حالها ، وتنشلها من وهدتها ، وتوقظها من غفلتها ، وترفعها من كبوتها ، وتطلقها من عقالها ، وتهديها إلى سواء الصراط .

أقص اليوم السبت ١٢ ديسمبر سنة ١٩٣١ م قصص ماكان بينى وبين صديق العالم الذى اعتاد أن يحادثنى فى هـذا التفسير ، إذ حضر الليلة وأفاض علىّ من الأسئلة ، وكلفنى فوق طاقتى من المباحث ، ولكنى والحمد لله استعنت به سبحانه وأجبته بقدر طاقتى « لا يكلف الله نفسا إلا وسعها » وسيظهر فى الأمم

الإسلامية بعدنا أناس لهم قدم صدق وخبرة وحكمة فى كل زمان بحسبه ، فالله لا يظهر الحكم والعلوم إلا مناسبة لزمان ظهورها .

قال صديق العالم : إنى قرأت اليوم (سورة القمر) فوجدت الله تعالى يقول فى سفينة نوح : « ولقد تركناها آية فهل من مدكر » . ويقول : « ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر » وهكذا يقول فى آخر قصة فرعون وعاد ، وفى قصة ثمود ، وفى قصة قوم لوط ، ثم أعاد آية : « فهل من مدكر » عند قوله « ولقد أهلكنا أشياعكم » كرر التذكر وطلبه سبع مرات بهيئة الاستفهام المقصود به الأمر ، وهذا أبلغ فى طلبه ، والقرآن جاء لهدينا نحن ، وإذا نحن أمرنا أن نفكر فى سفينة نوح وأن الله تركها لنا آية ، وفى هلاك من كذبوا من أمته ، وفى قوم فرعون وهلاكهم ، وقوم عاد وثمود ولوط وجميع الأمم التى كذبت ، وهذه كلها غائبة عنا وتذكيرنا بها نافع ، أفليس هذا يكون داعيا حثيثاً بالأولى أن نفكر فيما هو محيط بنا .

الله أكبر : إن هذه السورة فتحت لنا من العلم أبوابا » فتحت لنا أبواب العلم على مصراعيها ، جل الله جل الله ، إن كل مافيها تاريخ قديم ، والتاريخ القديم أتبعه مابعده وامتد الأمر إلى زماننا هذا ، إن الله عز وجل هو الذى أمرنا بالاعتبار بتاريخ الفراعنة وهلاكهم بعد قوم نوح وهلاكهم (وبعبارة أصرح وأبين) إن المسلمين فى زماننا يجب عليهم أن يعتبروا بقدماء المصريين ويدرسوا تاريخهم ، وتاريخهم تقدم منه شىء فى هذا التفسير ليكون أنسا لقرائه ، وفيه عجائب دول المصريين القدماء من حيث تطور أحوالهم من الأحسن إلى الحسن إلى الردىء ، وقد كانت كبوتهم وزوال ملكهم تابعين لانحرافهم وسوء سلوكهم ، وهذا تقدم فى سور كثيرة ومنها سورة غافر عند آية مؤمن آل فرعون ، وهكذا بلاد حضرموت التى تقدم وصفها فى سورة الأحقاف ، وكيف كان بها قوم عاد ، وأن آثارهم باقية ، وهناك قبر هود عليه السلام ، والمسلمون جميعا مقصرون لأنهم لم يرسلوا من يفك تلك الرموز التى فى ذلك القبر كما أخبرنى بذلك من شاهدوه هناك ، وكذلك قبر صالح عليه السلام فى تلك البلاد ، فهذه الأمم التى بقيت آثارها يجب استقصاؤها بالدرس لمعرفة علومها والانتفاع بها ، وكيف تدهورت واضمحلت حتى نجتنب نحن ماوقعت فيه تلك الأمم بالتفصيل ، أما الإجمال فلا خير فيه ، فالادكار المذكور فى الآية يستحيل أن تناله إلا بالتفصيل ، أما الإجمال فهو مقفل الأبواب معطل الحكمة ، والتفصيل هو الخير وهو العلم والحكمة .

هذه الآراء أذكرها الآن لأنى فهمتها من سابق هذا التفسير ، فإن مامضى من التفسير يجعلنى أفهم هذه الآية على هذا الوجه ، وأقول : إن أمم الإسلام المستقبلة ستكون فيها جماعات مختلفات موزعات على العلوم لكل طائفة منها جماعة تدرسها ، هذا هو الذى سيكون ، وإنما قلت إنه سيكون لأن ذلك تكرر مراراً فى هذا التفسير والمسلمون يقرءونه ، فهم لاجرم سيقومون بهذا الأمر وهو توزيع العلوم على جماعات مستعدات للدرس الخاص ، فأنا من هذه الوجهة مطمئن على تلك الأمم الإسلامية المستقبلة ، إنما الذى أريد أن أسأل فيه اليوم (أمران : الأمر الأول) ما أشاهده فى مصر من أن المسلمين قد جعلوا قراءة القرآن ذات هيئة خاصة فى ولائمهم وأعراسهم وختان أبنائهم ، وكذلك إذا استهلت أطفالهم بالولادة ، أو مات أحياؤهم ، فإنى أراهم قد جعلوا أناساً اختصوا بالقراءة فى هذه الأحوال بأجر معين ، فالولادة والموت ووليمة العرس والختان وغيرها كل هذه يقرأ القرآن فيها أناس مختصون ، فالقراءة حرفتهم والناس يسمعونها لاسيما إذا كانت تلك بصوت حسن ، فهل هذا من الذكر المذكور فى الآيات؟ هذا هو الأمر الأول . أما الأمر الثانى فهو ما نسمعه عن الصوفية أو نقرؤه فى كتبهم من ذكر آيات أشبه برموز لبعض المعانى الدقيقة ، فهذا أيضاً من الذكر المذكور فى الآية إذ يقول : « فهل من مدكر » وكيف يكون ذلك الذكر ؟ وإذا كنا مأمورين أن ندكر

آل فرعون وعاد وثمود وغيرهم من الأمم البائدة أفلا تتذكرون وتدبر أمر هؤلاء الأولياء الذين هم أقرب إلينا وكتبهم بين أيدينا ومن هم أحياء الآن وهكذا قراءة القرآن المتقدمة فى الأمر الأول فيجب علينا أن تتذكر وتتدبر فى أمر هذه كل بحسب حالها فما كان منها ضارا اجتنبناه ، وما كان منها نافعا قبلناه ، ومما قرأته من كلام هؤلاء الصالحين ماجاء فى كتاب (درر الغواص ، على فتاوى سيدى الخواص) تأليف الشيخ عبدالوهاب الشعرانى ، فهذا الكتاب وغيره يقرؤه المسلمون ويجدون آيات لامناسبة بينها وبين المعانى التى سيقت الآية لأجلها ، فهل هذا ادكار أم هو أمر لايليق بكتاب الله ؟ فهاهنا يجب تمحيص الحقيقة لأن هذا الزمان زمان مبدأ ظهور الحقائق ، ومن ذلك مايقوله الصالحون ، ومنه ماهو مشاهد فى عمل العامة فى الأمر الأول فالذى نشاهده فى مصر من قراءة القرآن يجب درسه ، والذى نسمعه عن الأولياء يجب تمحيصه بقدر الإمكان ولقد جاء فى كتاب (درر الغواص) ماتحواه :

(١) أولا : أن الشيخ الشعرانى سأل الشيخ الخواص الذى كان رجلا أميا لايقرأ ولا يكتب عن الخواطر القبيحة هل تقع للخواص كما تقع للعوام ؟ فقال له : كلا ، إن الخواص لايشاركون العامة فى خواطرهم التى تطرقهم ، ووصف أكمل الخواص بأنه له النصيب الأتم من مقام العبودية لأنه منزه من أن ينحصر فى وصف دون آخر من حال أو مقام ، قال تعالى : (ياأهل يثرب لامقام لكم) هذا كلام الخواص للشيخ الشعرانى ثم استمر صاحبى فى حديثه قائلا : أين الآية وأين الكلام فى وصف العارف ؟ هل معنى الآية ينطبق على ذلك والآية فى واد ووصف العارف فى واد آخر هل هكذا يكون التذكر ؟ وهل هذا تيسير القرآن للذكر ؟ وهل يكون ذكر القرآن بأمور هو براء منها ؟ فأين الثريا وأين الثرى ؟ مدينة يثرب معروفة ، والآية سيقت لأحوال العارف ، والقصة فى غزوة الأحزاب ، وفى سورة الأحزاب ، كل هذه أمور متناقضات لابد من تمحيصها حتى نفهم هذه السورة وكيف يقول الله : (ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر) . أهكذا يكون تذكر الخواص من أمتنا ؟ .

(٢) يقول الشعرانى : سألته رضى الله عنه عن قوله صلى الله عليه وسلم : (الجنة تشتاق إلى أربع : على وعمار ، وسلمان ، وبلال) ماحكمة تخصيص هذه الأربعة ؟ فأفاده الخواص بأن العلو والعمارة والسلامة من الآفات والبله ، وهى برد القلب من خطور زوال ذلك النعيم ، هذه المعانى الأربعة هى أركان نعيم الجنة وإنهم لايتم نعيمهم إلابها وهؤلاء الأربعة هم الموكلون بالأنهار الأربعة التى هى مظاهر العلوم والأعمال المكسوبة والموهوبة :

(٣) ثم قال : ويوضح ذلك (وإن الدار الآخرة لهى الحيوان لو كانوا يعلمون) فأين على وعمار وسلمان وبلال .

(٤) وأين أنهار الجنة والعلوم والمعارف والأعمال المكسوبة والموهوبة ! وأين هؤلاء أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم ، وآية : (وإن الدار الآخرة لهى الحيوان) أمور متباعدة قرنت معا .

(٥) وسأله عن حقيقة الشجرة التى أكل منها آدم عليه السلام فقال هى الأفعال القابلة لما عليه الأنبياء وكمل ورثتهم من كمال الأفعال والأخلاق ، والسر فى ذلك إظهار منة الله على العبد ، وحمله عليه لاغير والكل منه وإليه ، لكن لايخفى تفاوت الناس فى الذنوب ، فربما كان ماتقرب به عبد يتوب منه عبد آخر ، فأين الشجرة التى فى الجنة ؟ وأين أفعالنا نحن المغايرة لأخلاق الأنبياء ؟ وكيف يجعل الأكل من الشجرة نفس ذنوبنا نحن وأعمالنا ؟ هذا أمر غير مايقول القرآن ، فهل هذا ذكر ؟ وهل هذا ينطبق عليه قوله تعالى : « فهل من مدكر » فأين الادكار هنا ؟ .

(٦) وسأله الشعراني : أيصغى لمدح من يمدحه ؟ فأجاب بقوله : لا تركن قط إلى من يمدحك فإن النفس تألف ذلك وأنت لا تشعر ، وكل شيء ألفته نفسك تخلفت به عن اللحوق والتخلق بآداب العبودية التي من شأنها فقرك دائما ، وغنى ربك دائما ، إذ لا كمال يدعيه الإنسان إلا وهو في الحقيقة لله وهو في ذلك منازع لأوصاف الربوبية من حيث لا يشعر ، كحاله كحال فرعون والنمروذ وسواهما ، حيث ادعيا ماليس لهما من صفات ربهما ، وكان ذلك سببا لهلاكهما ، وقد وقع التوبيخ الإلهي لمن يدعي ماليس له بقوله تعالى : « وماخلقت الجن والإنس إلا ليعبدون » . وقال : «يامعشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا » كل ذلك جاء إعلاما للعبيد أن ينتبهوا لأنفسهم ويعترفوا بالعجز والذل والمسكنة ، وأن لا يتعدوا صفات العبودية التي خلقوا لها ، والله أعلم اهـ — ثم قال صاحبي : فأين آية يأمرنا الله فيها بالعبادة وترك مدح المادحين ؟ أفليس هذا اتساع في معنى الآية غير مألوف .

(٧) ثم قال : وقد سألته بلسان الافتقار عن الأحدية السارية في الوجود ، ولشدة ظهورها مع صفاتها (ظهور الأحدية وصفاؤها قد ظهر بعض سرها في سابق هذا التفسير) فأجاب بقوله : (ألهـا) ثم سكت وقال (كم) ثم (التكاثر) ففهمت ، فأين آية (ألهاكم التكاثر) ومعنى سر الأحدية التي ظهرت في كل مخلوق ، ولكن غفل عنها أكثر الناس مع أن الآية واردة في التكاثر في الأموال والأولاد ، ووحدة الله السارية في الوجود المشرقة للخواص أمر آخر غير الوارد في الآية .

(٨) ثم سأله عن سبب تنوع طرق الأولياء ، وكثرتها مع أن المطلوب عند الجميع واحد لا تصح فيه القسمة ولا يقبلها . فقال : إنما تعددت الطرق لتعدد القوابل والاستعدادات لأنه لا يدرك الاثنان بصفة واحدة أبدا ، ومحال أن يوجد الحق عند واحد ويكون مفقودا عند آخر كما أشار إلى ذلك قوله تعالى : « كل يوم هو في شأن » واليوم هو الزمن الفرد الذي لا يدرك ، وكذلك أشار إليه قوله تعالى : « ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلما » فإن الرحمة غير الذات والعلم صفتها . فآية : « كل يوم هو في شأن » واضحة في نظام هذه العوالم ، أما تنوع المعارف على حسب الاستعداد فذلك مسلك آخر .

(٩) ثم سأله عن خشوع الذاكرين الذي يذهب حالا بعد تمام الذكر ، لماذا يذهب سريعا ؟ فأجابه بجواب واسع أدخل فيه مسألة كرامات الأولياء ، وأن كثيرا منهم تميل نفوسهم إلى الكرامات ليرتفعوا على أبناء جنسهم ، وهذا من حب النفس ، والحق لا يدرك لمحبة النفس وتكبرها وتلصصها على مراتب الأولياء ، وإنما يدرك تعالى به فضلا ، ومنة : « هو اجتباكم وما جعل عليكم في الدين من حرج ملة أبيكم ابراهيم » فسأله ما ملة أبينا إبراهيم ؟ قال التسليم والتفويض لله رب العالمين ثم قال له : إن ستر حالك عنك الآن خير لك ، لأن من أعطى شيئا من محبوبات النفوس في هذه الدار نقص رأس ماله وخرج من الدنيا بخسارة ، اللهم إلا أن يعطيه الحق ابتداء من غير ميل للنفس ، فذلك محمول عن صاحبه ، إلى أن قال : فإياك أن تميل إلى شيء تألفه النفس فإن السم معه ، ولا يعين السم إلا النفس ، وانظر إلى قوله تعالى : « ولا تقربا هذه الشجرة » مع علم آدم عليه السلام بها حال تعليمه الأسماء ، فلما أراد نفوذ قضائه وقدره ألف بينه وبين من كان سببا لأكله من الشجرة وليست إلا حواء الخ .

قال صاحبي لي : فأين ميل النفس إلى الكرامات ؟ وأكل آدم من الشجرة ، وأين آية « هو اجتباكم وما جعل عليكم في الدين من حرج » الخ من مسألة ميل النفس إلى الكرامات وظهورها للناس ، هذا ما أردت سؤالك عنه اليوم فأرجو الإجابة فقلت غدا إن شاء الله عسى الله أن يأتي بالفتح من عنده وهو الفتاح العليم .

حضر صاحبي في الغد وأخذ يطالبني بالإجابة على ماسبق في المجلس السابق فقلت له : إن سؤالك أمس يرجع لأمرين : الأول قراءة القرآن المعروفة اليوم بين المسلمين في الطرقات وفي المنازل والمقابر وفي الختان والولادة والموت وما أشبه ذلك ، وجوابه أن أقول :

أيها الأخ الذكي : لقد كنت أيام الشباب أقف وأنا مدرس بمدرسة الجيزة الأميرية على شاطىء ترعة هناك وسط المزارع الجميلة ، وأفكر في أمر الديانات واختلافها وكثرتها ، ثم في أمر الفرق الإسلامية وتشعبها وأقول : كيف يكون من الديانات ما يحصر الفكر ويضر العقل ، ومنها ما يسرع برقي الأمم ، ومن الديانات ماهو أرفعها وأصلحها ولكن أهله جاهلون فيرجعونه لطريقتهم ، ويحملونه على حسب مألوفهم ، فما كدت أتم ذلك حتى رأيت الجواب في الحقول ، وكأن الزرع والشجر تخاطبني قائلات : إننا نحن ثلاثة فرق : فرقة للغذاء، وفرقة للدواء، وفرقة للهلاك ، فأكثرنا غذاء ، وأندرنا للهلاك بالمواد السمية ، والقليل للدواء . القمح للغذاء، الخروع للدواء، المواد السمية للهلاك ، ولكل منا مزية خاصة لفائدة شريفة ، وحذف أحدنا من الوجود نقص في الطبيعة وخلل في النظام .

ثم انظر إلى هذه البرك والمستنقعات: ألست ترى فيها حشرات وهوام وحشائش قذرة في مائها الراكد ومع ذلك تكون هذه الحشائش مأوى لتلك الحشرات وتلك البرك ومافيها زينة لتلك الحشرات ومرتع وغذاء ومتاع إلى حين ، إن البرك ماؤها ضار ولكن أصله من ماء النيل السعيد المبارك ، فما مثل الديانات إلا كمثل النباتات اختلافا ، فلكل أمة عقائد ألفتها وإن كانت باطلة ، ونحل ورثتها وإن كانت عاطلة ، وملل اعتنقتها وإن كانت منحرفة ، وهذه العقائد كلما كثرت فيها مناهج الأخلاق كانت أقرب إلى إصلاح تلك الأمم ، وكلما كثرت الخرافات والضلالات والتواكل كانت أقرب إلى الإهلاك والتدمير ، فالأولى أشبه بالقمح ، والثانية أشبه بالسم في النبات، ولهذه نتائج في النظام العام العقلى كالنتائج المرتبة على النظام النباتى ، والنظامان متناسبان المادى والعقلى

وأقول الآن : ما مثل قراءة القرآن في الطرقات وعلى المقابر وفي حال الختان والولادة والموت وولائم العرس إلا كمثل تلك المستنقعات والبرك التي انقطع النيل عنها وتكاثرت فيها أنواع الميكروبات والحشائش والمياه القذرة وصارت تنفع لأدنى الحشرات وإطعام الميكروبات ، وإذا أكلت منها الدواب استضرت بالأكل منها وأهلكت بعضها ، فهذه فيها منافع للحشرات ولبعض الحيوانات وللانسان فإنه يصطاد منها السمك ويقتات به ، ولكن سوائمه قد تعرض للخطر بالأكل من تلك الحشائش ، حتى إن الفلاحين في بلادنا المصرية يقولون (فلان جاموسته مغشوشة) يريدون بذلك أنهم يجدون بعد ذبحها في بعض أحشائها أنواعا من الدود والحيوانات الرخوة ، كانت تهلك جثتها في حال حياتها ، فهؤلاء الفلاحون إذا ظلوا عاكفين على ما هم عليه والذى ألفوه فإنهم يأخذون في الانقراض والذل والخضوع ، ولكنهم إذا أصلحوا ترعهم وقناطرهم ، وسارعوا إلى إدخال ماء النيل في مزارعهم فإن الوباء يخف ، والضرر يزول ، وتصلح أرضهم للزرع ، وعقولهم إلى العلم ، ونسلهم إلى الكمال ، هكذا هذه العادات الموروثة ، عند بعض أمم الإسلام كأمتنا المصرية فإنها اتبعت دين الإسلام الذى نزل في جزيرة العرب ، وحمله أجدادنا ، وعملوا بقوله تعالى : « أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها » ورفع دولهم أيام الصحابة والتابعين ، ولما زال ملك الأمويين وحل محلهم العباسيون وحمل القرآن أمم غير عربية كالفرس والترك ، وذل الناس وخضعوا للترهات ، وتقلص ظل الدين ، وأصبح رسوما مرسومة ، وأقوالا محفوظة، وطرائق مخصوصة ، ونزع لبها ، وحفظ قشرها ، هنالك أخذ الناس يقلدون الآباء، وهم يجهلون علومهم ، ويحفظون القرآن بلا علم ولاهدى ولا كتاب منير .

فقال

فقال صاحبي : إذن أنت تقول إن قراءة القرآن على هذه الشرائط وفى تلك الأحوال المعتادة فى أمثال بلادنا المصرية غير محمودة ؟ قلت : إنى قد أوضحت بضرب المثل ، وأقول أيضا : إن قراءة القرآن على هذا النمط لها نفع ما ، فإن الأموات إذا أحسوا بأن الأحياء يذكرونهم حصلت لهم مسرة بذلك ، وإذا قرئ القرآن لأجلهم زادت مسراتهم ، هذا حسن ولكن يظهر لى أن هذه الأمة نسيت أصل دينها ، دينها إنما نزل لتذكر الأحياء وتعليمهم ، وترقيهم وإصلاح شئونهم لا إلى الأموات ، وغاية الأمر أنهم لما ماتت نفوس الأحياء حولوا القرآن وقراءته للأموات ، فقد فعلوا فى أنفسهم ماحكاه لى أحد نظار المكاتب المصرية قبل الاستقلال الداخلى لبلادنا المصرية فى أيامنا هذه ، إذ دخل مفتش انجليزى المدرسة الأولية ، وأخذ يسأل هل عمل ناظر المدرسة بتعليماته ؟ وماهى تعليماته ، إنهم فى ألعابهم يمثلون الميت محمولا على النعش وهم يضحكون ويفعلون قدام نعشه ووراءه مثل مايفعله الفقهاء من الترتيل والأقوال المعلومة تدريباً لهم على الاستخذاء والاستجداء والذل والمهانة ، واتباع الجنازات ، وتعليما لهم أن يكون مايحفظونه من القرآن وسيلة لجلب الرزق من هذه الناحية إحياء للذل والجهل وإماتة للنخوة والعلم ، فهذا تدريب لهم فى حال الصغر منه يضحكون لينشطوا فى دروسهم ، حتى إذا كبروا لم يعوزهم كبير عناء فى الاستباق إلى اتباع النعش ، وتحصيل أجور المشى فى تشييع الأموات إلى قبورها ، ومقاضاة الأحياء فى أجورها ، وهذا قصد جميع المستعمرين ، والمستعمرون على قسمين : قسم هذا شأنه وهو ظاهر فيما تقدم . وقسم آخر استعماره خفى ، وهو استعمار الجهل الذى حاق بالأمم الإسلامية دهوراً ، وأناخ بها قروناً ، فأذل الأبناء وأضر البلاد ، وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون ، وهذه الطوائف بقيت فى مصر مثلا جعلها الله لنا تذكرة كما جعل اللغة الهيروغليفية عند الأقباط بمصر فى أديرتهم ومحال عباداتهم ، يقرءونها تعبداً لأجل دينهم ، وهم منهمكون فيها حتى إذا جاء (شامبليون) العالم الفرنسى وحل هذه اللغة وألغازها ، وأعانه على ذلك هؤلاء العباد (بتشديد الباء) فنشرها فى العالم كله ، وانتفعت نفس مصر بهذا العمل ، هكذا هذه العادات الموروثة وقراءة القرآن على هذا النمط إنما أبقاها الله إلى أيامنا هذه لتفعل مافعلته بلادنا المصرية إذ ردمت المستنقعات ، وروت البلاد بماء النيل ، وحولت تلك البرك إما إلى مزارع نضرة يسقيها ماء النيل ، وإما إلى بيوت وحدائق وجنات وأعناب وفواكه ، فسيحول المسلمون بعدنا تلك المقارىء وعاداتها إلى أن يقيموا فى تلك الأوقات وعاظا فضلاء ، مدربين على إلقاء المواعظ الحسنة ، فيقفون وسط الجموع فى ولائم أفراحهم ، وختان أطفالهم ، وأيام الولادة والوفاة ، ويلقون لهم المواعظ مستشهدين بالقرآن الذى ألفوا سماعه فذلك خير وأبقى ، وذلك كما حول أهل بلادنا البرك إلى مزارع ، وحول شامبليون الفرنسى اللغة الهيروغليفية المحفوظة فى هيا كل العبادات إلى لغة تحل بها الرموز وتظهر بها الكنوز العلمية ، والأسرار الحكمية ، المودعة فى النواويس المخبوءة فى المقابر والبرابى والاهرامات ، وفى صناديق الأموات وعلى حيطانها ، والله خير حافظا وهو أرحم الراحمين .

فقال صاحبي : الله أكبر ، إنى رأيت اليهود والنصارى يفعلون ذلك فى محافلهم ومجتمعاتهم ، فيقوم خطيب واعظ يذكرهم بما فى التوراة والإنجيل . فقلت : إن هذه أمم قد ترقت فى العلم قبلنا فى هذه الأيام ففعلوا ذلك بعقولهم ، وقد كانوا فى غفلة مثلنا ولذلك ارتقوا عنا وإن كان دينهم منسوخا ، ونحن بعون الله سنرتقى سريعا ، ويكون ارتقاؤنا أسرع من ارتقائهم ، لأن ديننا أرفع الأديان ، وهو الناسخ لها إلى آخر الزمان « والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم » .

فقال صاحبي : إن هذا المقام جميل وبديع ، وهذا التشبيه الذى بنيت عليه الجواب بديع قد أظهر الموضوع وجلاه فأصبح واضح المحيا جميل المظهر بديع المخبر ، والحمد لله على نعمة العلم والحكمة ، إنه هو السميع المجيب

وأرجو الشروع فى الإجابة على الأمر الثانى وهى الحكم الملقاة على ألسنة الصالحين والأولياء . فقلت: قدتقدم الكلام على ذلك فى هذا التفسير فى (سورة يونس) عندآية : « ألا إن أولياء الله لاخوف عليهم ولاهم يحزنون » الخ فارجع إليه هناك إن شئت .

اللطيفة الثانية

فى قوله تعالى : إنا كل شىء خلقناه بقدر

القضاء والقدر(١)

لهج الناس فى كل زمان ومكان بذكر القضاء والقدر ويقولون إن الله يقول : « إنا كل شىء خلقناه بقدر » وإذا كان كذلك فلم العذاب ولم العقاب والعتاب ؟ ثم إنه رحمن رحيم ، فأين الرحمة للمعذبين ؟ وأين السعادة للمظلومين ؟ ولمن هم فى عذاب الجحيم .

هذه حال الإنسان على أى ملة كان ، وأى دين فى مشارق الأرض ومغاربها ، حيرة لاحد لمداها ، وأسئلة لاجواب عليها إلا من أناس صفت نفوسهم وعلت عقولهم ، فيكونون فى نوع الإنسان أشبه بالعين . هذه صورة منطبقة على أهل هذه الأرض أجمعين ؛ فهاك أيها الذكى فاستمع ماألقيه الساعة إليك بقلب صاف ونفس واعية وتدبر فإنه لهذا الداء دواء ، ولمرض الحيرة فى القلب شفاء ، وكن من المستبصرين .

لأضرب لك أولا مثلا برجل مهندس عبقرى فى الهندسة ، عزم على أن يبنى بيتا ، وهو بأنواع البيوت عليم ففكر فى صورها بعقله وانتزع منها صورة صورها فى نفسه واصطفاها لمسكنه ، ثم رسم مااختاره وبناه وشاده على أحسن منوال وأجمل مثال ، وفى البيت فرش مرفوعة ، وأكواب موضوعة ، ونمارق مصفوفة ، وزرابى مبثوثة ، وعلى حيطانه أنواع الصور المختلفة الأشكال ، البديعة الجمال ، ويحيط به بستان تقر به عيون الناظرين ، ويسر بمرآه جمهور الزائرين ، فدخل البيت زائرون منهم العميان ومنهم المبصرون ، ولما كان هذا المهندس كريم الشيم ترك للزائرين الحرية أن يدوروا فى البيت كما يشاءون ، ويتفرجوا على فرشه ونمارقه وأشجاره وهم آمنون ، فانطلق أحد العميان فى المنزل ، فاصطدم فى أرض الحجرات بالأرائك ، فخر على الأرض كالصريع ، وماكاد يقف حتى لطمته الألواح المعلقات فأدمت أنفه ، وماكاد يمسحه أويغسله وقدمشى خطوات حتى سقطت رجله فى المرحاض فقعد حزينا كئيبا وأخذ يقول : إن رب هذا البيت رجل عظيم ورحيم ، فكيف خاب ظنى فيه ؟ فأين الهندسة والنظام ؟ وأين الكرم والرحمة للزائرين ؟ ولم يزل كذلك حتى جاءه رجل مبصر فأخذ يشرح له دقائق البيت وما فيه من الجمال وحسن الإتقان ، ففرح أشد الفرح وقال هذا هو النظام ، وهذه هى الرحمة والإحسان . هذا أيها الذكى هو المثل الذى ضربته لبيان هذا المقام . إن(علم المهندس) بنظام البيوت واصطفائه منها واحدا هو أجملها ضرب مثل للقضاء ، فالقضاء راجع لما ثبت فى العلم القديم للمكونات ، وإبراز البيت على ماقدره المهندس فى نفسه على أحسن منوال ضرب مثل للقدر لأنه راجع لظهور المخلوقات على ماسبق به العلم القديم .

(العميان) ضرب مثل لجميع الجهلاء على أى دين كانوا ، ولطائفة الملحدين والمتعلمين تعلما ناقصا فى مدارس الشرق والغرب أجمعين (والمبصرين) ضرب مثل لأناس جادت قرائحهم ، وزكت نفوسهم ، واشتد شوقهم للعلم والبحث فلم يكونوا كأولئك العميان يهرفون بما لايعرفون ، فدرسوا هذه الدنيا دراسة متقنة من الرياضيات والفلك والطبيعيات ؛ وأدركوا بصفاء عقولهم جمالها وبهاءها ، ثم رجعوا إلى إخوانهم وأخذوا يخاطبونهم بما يفهمون ، ويكلموتهم بما يعقلون ، وسعدوا سعادة لاحد لمداها وكانوا من الفائزين ،

(١) هذا المقال نشر فى (مجلة المعرفة) بقلم المؤلف .

وهؤلاء

وهؤلاء يقال لهم : « يا أيتها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك راضية مرضية فادخلي في عبادي وادخلي جنتي » فإذا سمعوهم يتحدثون في القضاء والقدر يخاطبونهم قائلين : أيها الأعزاء : ليس لامرىء أن يقصر في عمله محتجا بالقضاء ، فتلك حجة الكسالى الغافلين ، فإذا ما أتمه على حقيقته واجتاحته الجوائح ، فهنالك يقول : القضاء سلوة المنكوبين وراحة البائسين ، إن هـــذه المسألة ليست بنت اليوم ، ألم تروا كيف يقول الله حكاية عن كفار العرب أيام النبوة . « وقال الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء » فرد الله عليهم مهددا بالوعيد فقال : « كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا إن تتبعون إلا الظن وإن أنتم إلا تخرصون . قل فلله الحجة البالغة فلو شاء لهداكم أجمعين » .

ونقول : كما قامت حجة المهندس رب البيت على الأعمى ، هكذا تقوم حجة الله على من يخوضون في القضاء والقدر وهم جاهلون ، إن الأمم التي فتحت على نفسها باب القضاء والقدر هي التي قد استعدت للفناء وباءت بالوبال ، ونسيت عقولها ، وعدتها حملا ثقيلا عليها ، لأنهم على الشهوات عاكفون ، وفي غمرة الجهالة ساهون ، وكيف يفتحون هذا الباب وهم يجهلون؟ وأنى للعميان أن يدركوا محاسن الجمال في الفتيات والفتيان إن المسلم الذي شغله القضاء والقدر وهو بعد لم يدرس نظام الدنيا وعلومها لحري به أن يبوء بالخسران ، فهذه الطائفة في الدين أشبه بأولئك الذين يجلسون في أماكن الشرب العامة ببلادنا المصرية ، ويدور كلامهم على سياسة الدول وأسرارها وهم يجهلون سياسة منازلهم وأمتهم ، فهم في ذلك مغرورون .

إن الناس ثلاث طبقات : عامة مصدقون ، وحكماء محققون ، ومتوسطون بين هذين مذبذبون متحيرون فالفريقان الأولان مطمئنان ، والفريق الثالث جعلت حيرته مهمازا يسوقه إلى البحث ، فإذا قصر فهو في ضلال مبين ، وكيف يخوض في القضاء والقدر من يجهل تشريح جسمه وبدائع تركيبه ، وأن في كل عين من عينيه سبع طبقات وثلاث رطوبات ، ومن الطبقات السبع طبقة تسمى الشبكة ، وهي لا تزيد في سمكها على سمك ورقة الكتابة ، وهذه وحدها فيها ثلاثة ملايين مخروط وثلاثون مليون اسطوانة ، وهذه كلها مبينة بالتصوير الشمسي واضحة ، وبهذه الملايين يكون الإحساس والنظر . بعد كتابة ما تقدم في هذا المقال وجه إلى أحد الأصدقاء اعتراضا جاء فيه ما يأتي :

إن هناك فرقا بين المثل والممثل له فإن المهندس رب البيت ليس مسئولا عن العمى فليس من حق الأعمى الذي حصل له الألم بشج رأسه أن يقول له لم كنت أعمى ؟ لأن المهندس لا سلطان له على عين الأعمى ولكن الممثل له غير ذلك ، فان الذي أصبح متشككا متحيرا هو نفسه من صنع الله ، وإذن فالإشكال باق ، والمسألة على حالها ، والمثال لا يجدينا نفعا ، فأمن الحاضرون على كلامه . فقلت : لا إشكال ، لا إشكال . فقال الحاضرون : أين أين البرهان ؟ فقلت : هناك أسرتان : أسرة كبرى وهي نوع الإنسان ، وأسرة صغرى وهي المعروفة ، ألستم ترون في الأسرة الصغرى أن صاحب المنزل هو الذي يدبره ، وأن الخدم لا اعتراض لهم عليه في الغالب ، وأن أطفاله لا يفقهون شيئا مما يفعل أبوهم إلا بالتدريج ؟ قالوا نعم . قلت : فهل وجود الأطفال مع جهلهم المطبق بنظام المنزل يعتبر عند العقلاء خللا وظلما ؟ قالوا : كلا ، بل الأطفال نعمة وعدم وجودهم يعتبر نقمة . فقلت : إن العامة في العالم الإنساني يمثل لهم بالخدم ، لأنهم يعملون ولا يفكرون إلا قليلا . وأما رب البيت فهو ضرب مثل لصانع العالم ، وأما الأطفال فيمثل لهم بالطبقة الوسطى من المتعلمين الذين ارتقوا عن العامة قليلا وفكروا في نظام هذه الدنيا ، فهؤلاء أطفال الإنسانية ، والأطفال خلقوا ليجلسوا محل آبائهم وهؤلاء هم المتعلمون تعلما ناقصا ، فهؤلاء إذا أحسوا بحيرة فهذه الحيرة نعمة لا نقمة لأنها تدفعهم إلى استيعاب العلوم ليصيروا حكماء فإذا كسلوا وناموا كما هي الحال عند كثير من المتعلمين

الحالين فانهم لاجرم يحيون حياة كلها اضطراب ، ويرجعون القهقرى ، وتكون الشهوات سلوتهم الوحيدة ، وهذا هو السر فى تأخر بعض أمم الشرق التى كثر العلم فيها ولكن لا استقلال لها لأن الرجال القائمين بأمرها يبنون حياتهم على أساس على غير مكين ، فهل وجود أطفال الأمم خلل فى النظام ؟ قالوا : كلا ، لأنهم يبحثون عن الحقائق كأطفالنا . قلت : إذن العميان فى مثل المهندس رب البيت ضرب مثل لهؤلاء باعتبار نقصهم ، وخلق الناقص المستعد للكمال حالا أوما ًلا عدل وحكمة وكمال . فقالوا نعم ، فقلت الحمد لله إذ عرفتم الحقيقة . انتهى .

هذا ما كتبته فى (مجلة المعرفة) تفسيرا لقوله تعالى : « إنا كل شىء خلقناه بقدر » وإن أردت أيها الذكى الزيادة فاقرأ ما كتبته فى (سورة الفرقان) عند آية : « وخلق كل شىء فقدره تقديرا » وإلى هنا تم الكلام على اللطيفة الثانية ، والحمد لله رب العالمين .

اللطيفة الثالثة

فى قوله تعالى : «وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر»

يقول تعالى خلقنا كل شىء مقدرا مرتبا منظما على مقتضى الحكمة ، وقد كان مكتوبا قبل ذلك فى اللوح المحفوظ معلوما عندنا ، فمتى أردنا أمرا ما من أمورنا التى قررناها فى علمنا ، وقدرناها فى لوحنا المحفوظ فإننا نفعله فعلة واحدة ، ونوجده بلا معالجة ولا معاناة ، فقدرنا سابق ، وقضاؤنا لاحق ، ولا قضاء إلا وهو مرتب على القدر السابق ، وقولنا (كن) هو القضاء . واعلم أن فى أمم الإسلام السابقة قوما يقال لهم القدرية ، وهؤلاء يقولون : « إن الله لا يعلم الأشياء قبل وقوعها ، وكل ما فى الوجود مستأنف لم يعلمه الله فيما مضى ، ولكنه يعلمها بعد وقوعها لا غير » فهم سموا قدرية لإنكارهم القدر ، وقد قال أصحاب المقالات من المتكلمين : إن هذه الفئة قد انقرضت ، ثم قالت طائفة بعدهم : الخير من الله والشر من غير الله ، وهؤلاء كالمجوس الذين ينسبون الخير إلى (يزدان) والشر إلى (اهرمن) والخير يرجع إلى النور ، والشر إلى الظلمة .

جمال هذا المقال

اعلم أن الله عز وجل علم قبل خلقنا أننا لا يتسنى لنا الوقوف على حقيقة التكوين ولا بدائع القدرة ، فجعلنا نحن أشبه بمثل مضروب لذلك ، ألا ترى رعاك الله أن هنا (ثلاث مراتب : المرتبة الأولى) العالم كله (المرتبة الثانية) الإنسان الواحد (المرتبة الثالثة) القوى الذهنية فى الإنسان .

هذه هى المراتب الثلاث فى الوجود ، فالمرتبة الأولى والمرتبة الثانية من فعل الله عز وجل أما المرتبة الثالثة فهى من فعله بواسطة أنفسنا .

جل الله ، الله أكبر : المرتبة الأولى العالم كله من العرش إلى الفرش هيكل واحد ، وهذا الهيكل نشاهد فيه أجساما وصورا شتى لا قبل لنا بحصرها ، وهذه الكواكب التى لا يحصرها العد ، والمجرات والسدم التى أصبحت تعد بالملايين ، وكل مجرة وكل سديم يحوى من الشموس ومما هو فى حكم الشموس مايعد بالملايين ، وتلك الشموس إما كشمسنا أو أكبر منها أو أصغر ، وكل هذه نشاهد لها حركات منتظمات ، وهكذا كل ما على أرضنا ، وما فى جونا ، وما فى بحارنا من المخلوقات كلهن ذوات أفعال منتظمات مقدرات منظمات باعتبار خلقها ، ولاجرم أن هذه الأفعال والصفات والأصباغ إنما كانت بفعل عقل وحكمة فلنسم ذلك عقلا عاما ، وهذا العقل العام لا يمكن إنكاره ، لأننا نشاهد آثاره المنظمة وأفعاله الجميلة .

أما المرتبة الثانية فهى الأجسام الحيوانية والنباتية ، وأخص ذلك كله جسم الإنسان ، فله أفعال إرادية وله جسم كما أن العالم كله جسم وروح .

أما المرتبة الثالثة وهى قوانا العقلية التى تحت تصرفنا نحن فإنها تصورلنا ماشاهدناه أو علمناه .

ياعجبا ياربنا وألف عجب ! لاتكاد نفسى تتوجه للمجرات ، ولا للشموس ، ولا للحبيب ، ولا لعدو حتى يحضر فيها كلمح البصر ، فلندرس هذه القوى التى فينا فإنها كافية لنا فى فهم لغز الوجود ، وأنا أحس بصور لاعددلها ، صور تضارع صور هذا العالم المشاهد ، فأرى الشمس فى مخيلتى مثل مارأتها عينى ، وهكذا الأرض والسماء ، ومتى تصورت صورة حسنة أوقبيحة أومؤذية أونافعة ظهرت فى نفسى آثارها ، وقد أتصور إنسانا يؤذينى فأشعر فى الحال بغم وتجديد عداوة وحقد وضغن ، وقد يتصور المرء صورة ذات جمال فتهيج شهوته ، إذن الصور الخيالية الحادثة فى أذهاننا تبعث تارة على الشهوة وتارة على الغضب ، وهذان عالمان لامنبع لهما إلا خيالنا ، وهناك عوالم أخرى فى الذهن ، ولكنى من جهة أخرى أحس فى نفسى بعالم آخر أرقى من هذه العوالم ينهى النفس ويقول لها : اطردى صور الأعداء ، واطردى صور الشهوات ، ويتحكم فى هذه الصور ويقرب ويبعد .

إن فى الذهن لصورا كثيرة من فريقى الغضب والشهوة والجمال والشجاعة وأضرابها ، وهذه الصور خاضعة لتأثير مؤثر نسميه القوة المفكرة أو العقل وهكذا ، إذن هنا أمران : أمر هو كالصورة الجسمية ، وأمر هو كالروح فالذى هو كالصورة هى الخيالات ، والأمر الذى هو كالروح هو الفكر . ثم ننظر فنرى هذه القوى الذهنية لها السلطان المطلق على الحواس ، ومن الحواس البصر ، والبصر يرى الصور على الشبكية فالشبكية هى التى تقيد الصورة وتوصلها إلى القوة الباصرة فى الدماغ فيراها الإنسان ، وماالذى رآه ؟ هولم ير إلا صورة مرسومة دلت على صورة فى الخارج ، فالمرئى حاصل داخل العين ، وهذه الصورة أقرب إلى الروحانية ، وهى دالة على الصورة الجسمية الخارجية : أى إن مافى النفس مطابق لما فى الخارج ، إذن المعلوم ماملكته النفس فيها وما فى الخارج مطابق له ، إذن البصر فى لمحة يرى صورة أقرب إلى الروحية دلت على مايطابقها ، وهى الصورة الخارجية فى لحظة صغيرة من الزمان ، فلننظر فى سير هذه الصورة فنراها أصبحت فى المخيلة ، وصارت إحدى الصور التى وصفناها بأنها صورة مؤذية أوسارة أوشهوية أوغضبية ، ولكنها بعد أن كانت أشبه بالروح وهى فى العين أصبحت الآن فى الخيال كالجسم ، وأصبحت القوة المفكرة كالروح . وهذا الجسم وهذه الروح اخترعتهما أرواحنا بعناية ربها ، اخترعتهما من العدم ، ليس عندروحى مادة لتصور صورها ، ولامادة ألطف لتصور أفكارها ، هكذا فعل الله فى عالمه الكبير ، ولايعزب عن ذهنك ماقررناه غير مرة وبيناه فى (سورة النور) أن هذا العالم لامادة فيه ، كلا . إنما العالم حركات فى أمر يشبه خيالنا سميناه الأثير ، وماهو الأثير ؟ هو خيال الكون ، خيال الفضاء ، وهذا الخيال قوى متين أمتن من المادة ، والحركات فيه تحدث نقطا كهربائية ، والنقط الكهربائية باختلافها كما وكيفا تتكاثف بنسب مختلفة لاحصر لها فتظهر لحواسنا على هذه الصور المشاهدة ، وإلا فالحقيقة أن هذه العوالم ماهى إلا نور مضغوط مكبوس تبدي لعيوننا على هذا المنوال . وبعبارة أخرى : العالم حركات لاغير ، وهذه نظرية (انشتين) والحركات تنقلب نورا ، وهذا النور هو هذه الدنيا ، وبتنوع النور يكون جمال لاحدله ذو بهجة ، وهذه الصور الحادثات فى العوالم منها ماينفعنا ومنها مايضرنا على قياس الصور الذهنية . وملخص هذا المقام مايأتى :

(١) كما أن الصور الذهنية لامادة لها هكذا الصور التى فى خيال الفضاء .

(٢) وكما أن الفكر ماظهر إلا من أرواحنا بلاواسطة هكذا الأرواح منبعثة من العناية الالهية خلقا أوليا ، ونظيره فى ذلك أفكارنا .

(٣) وكما أن الصور في الأولى منها مايضرنا ومنها ماينفعنا ، هكذا الصور الظاهرة في خيال العالم وهو هذا الفضاء .

(٤) وكما أننا نحن نتصرف في الصور الخيالية بواسطة عقولنا ، هكذا نحن نتصرف في عوالم المادة من أنواع مايعطينا منفعة ومابورثنا مضرة كالنحل والزنابير .

(٥) وكما أن فكرنا له الحرية المطلقة في إصلاح الصور الحاصلة في الذهن أو محوها وإحداث غيرها محلها ، كذلك نحن نفعل في أعمالنا المعتادة في الأرض .

(٦) تشابه العالمان : عالم الأذهان ، وعالم العيان .

(٧) ومثل مارأينا في هذين العالمين يحصل في العالم العام .

(٨) ففي هذه العوالم نفوس وعقول نسبتها إلى هذه العوالم المادية كنسبة أفكارنا إلى صورنا الخيالية وكنسبة عقولنا وقوانا المتصرفة إلى أعضائنا العاملة كاليدين والرجلين والحواس .

(٩) وكما أن نفوسنا وأفكارنا تتصرف في صور الخيال التي لانهاية لها ، وفي صور المادة التي لاحد لها فيما حولنا ، هكذا تلك النفوس والأرواح العالية تفعل بنظامها في هذه العوالم العلوية والسفلية بقوانين منظمة مترتبة بقدر وحكمة ؛ ويمتد من تلك الحكمة فروع تصل إلى عقولنا فتهديها إلى صراطها المستقيم .

(١٠) المادة كلها أنوار بل حركات مضغوطات ومكبوسات ، فأجسامنا وأجسام ماحولنا ماهي إلا أنوار ذات جمال حجبنا عنه ، وهذه الأنوار حركات في الأثير ، كما أن الصور المرسومات في أذهاننا أيضاً حركات أو أنوار في الأثير ، فنحن نور يعيش في نور .

(١١) خلاصة الخلاصة أن هذا الموضوع كله توطئة لفهم قوله تعالى : « وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر » والمقصود الأصلي سرعة الإيجاد بعد إرادة الفعل ، وأدى ذلك إلى البحث في أمر الصور الذهنية ، فالصور الجسمية ، فالأرواح والأجسام ، فالملائكة والعوالم كلها ، وفي غضون ذلك برزت صور من علم الأخلاق ومحاربة القوة العاقلة قوتى الغضب والشهوة ، وتنظيم صور لانهاية لها كما ينظم العقل العام صورا لانهاية لها في العوالم كلها ، وبجهادنا للخلوص من علائق المادة نصل إلى النور الأسمى ، والحمد لله رب العالمين وهو حسبنا ونعم الوكيل . انتهى صباح يوم الخميس ١٩ نوفمبر سنة ١٩٣١ م

نور على نور

حضر صاحبي العالم الذي اعتاد مناقشتي في هذا التفسير فقال : إن هذا المقال حسن ، فقد كان قوله تعالى : «وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر» وحصر التمثيل بلمح البصر في الآية وتقريب المعاني البعيدة بما نألفه سببا أثار تلك العجائب ، وكان لمح البصر وما يرتب عليه من صور ذهنية وأخرى خارجية مخرجا لما استكن من العلم ، وموجباً الارتقاء في الأسباب طبقا عن طبق حتى وصلنا إلى مستوى يسمع فيه الأنبياء والملائكة صرير الأقلام المسطرات مقادير العوالم في اللوح المحفوظ ، ولكن ألا تذكر أن هذا المقام له ارتباط وثيق وائتلاف ؛ بل تكميل لما تقدم في (سورة القتال) عند آية : « فاعلم أنه لاإله إلا الله » فقد ذكرت هناك رأى أفلاطون وفيه الكلام على المثل المسماة مثلا أفلاطونية ، وأن هذه المثل نبذها أرسطاطاليس بعده وقال إن العلم لايعتمد إلا على ثابت ولاثابت إلا المادة وصورتها ، وأن الرواقيين الذين جاءوا بعده وكان رئيسهم (زينون) في القرن الثالث قبل الميلاد ردوا عليه كما رد هو على أستاذه وقالوا : أنت لم تبين لنا كيف يكون ارتباط هذه المادة بصانع العالم الذي أنت توقن به ، وما المناسبة بينهما ؟ ثم إنك تقول : إن المادة مجرد

إمكان

إمكان محض ، وتقول إنها تشتاق للصورة ، وهذا كلام لادليل عليه ، لأنها إذا كانت مجرد إمكان فأين عشقها للصورة الذي تدعيه ، وهل هي تعقل ؟ .

فلما رأى ذلك الرواقيون وبعدهم العلماء الذين جاءوا بعدالميلاد وهم الفرع الإسكندرى ، والفرع الشامى والفرع اللاتينى نظروا فى آراء الحكيمين ، فقوم منهم أكبوا على العلوم الطبيعية كالطب ، وقوم أكبوا على الرياضة ، وهؤلاء أكثرهم من الرواقيين ، ثم إن هـذه الفروع الثلاثة بعد الميلاد وقفوا بين الآراء واستخلصوا خلاصة ، وإليهم ينسب كل ماوصل إلى علماء الإسلام كابن سينا والفارابى والصوفية ، فهذه الحيرة التى فيها وقع القوم بعد الحكيمين سببها أنهما لم يوفقا لانتهاج خطة بها يصلان إلى الطريق التى بها يعرفون كيف توجد هذه العوالم من إله لاصلة بينها وبينه ، فلا أفلاطون قدر أن يبين ، ولاأرسطاطاليس كذلك ، وهما السبب فى اختلاف الأحزاب فيما بعد ذلك ، وقد نقلت من كلام (الأستاذ سنتلانه) المكتوب بخطه فى كتابه (تاريخ الفلسفة العربية) أن حكماء أوروبا لم يبرعوا فى الفلسفة ولم ينالوا من العلم إلا ما كان من قبيل العلوم الجزئية كالطبيعيات والرياضيات ، فاخترعوا وزرعوا وطاروا وحاربوا ، أما العالم الأعلى وعجائب النفس وأصل التكوين التى لأجلها وضعت الفلسفة ، والتى هى المقصود الأصلى لنوع الإنسان من أبحاثه فهم فيها ليسوا بالنسبة لسقراط وأفلاطون إلا كنسبة البقة إلى الفيل ، وأنهم لو عرفوا ذلك مثل هذين الحكيمين لم يكونوا إلا ملائكة .

هذا كله تقدم فى هذا التفسير فى مواضع كثيرة ، وأنت قد رفعت صوتك عالياً وقلت : إلى نوع الإنسان كله شرقا وغربا : أيها الناس إذا كان (أفلاطون وسقراط) قد ضربا مثلين لأصل العوالم ، واختلاف الأحزاب من بعدهم ، وإذا كان الأستاذ (كانت) الألمانى قد خالف طريقهما لما رآها وعرة المسالك ، صعبة المرتقى ، بعيدة المنال ، مربكة العقول ، عرج على أن يصل الإنسان لصانع العالم من طريق علم الأخلاق وأبان أنه إذا لم يكن هناك إله يكون المجرم كالمحسن ، فأثبت الإله من هذه الجهة الضعيفة ، وقد نقلت أنت ذلك عن مترجم (كتاب الأخلاق) لأرسطاطاليس من اليونانية إلى العربية ، وذكرت أنت أن هذا المترجم الفرنسى كما تقدم فى سورة حم فصلت وهى حم السجدة عند آية : «إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا» الخ جعل أفلاطون فى الدرجة العليا والأستاذ (كانت) فى الدرجة الوسطى ، وأرسطاطاليس فى أدنى الدرجات ، كل هذا ذكرته أنت وأبنته فى غير ماموضع .

هاهنا رفعت أنت صوتك عاليا وقلت فى (سورة القتال) فى رسالة مرآة الفلسفة ماممناه ملخصا موضحا مشروحا بعبارة أوسع .

أيتها الإنسانية : اسمعى اسمعى : إن أفلاطون وأرسطاطاليس لم تكن الأمم فى زمانهما لتعقل الحقيقة واضحة فأعطيا العلم للناس على مقدار استعدادهم ، وأعطى كل منهما صورة للناس يظن أنها تقبل عندهم ومضى ٢٥ قرنا انتقلت فيها العقول وارتقت الأفكار فاستعدت لقبول الحقيقة .

أيتها الأمم . أيتها الأمم . اسمعى اسمعى : إن أفلاطون لم يقل المثل الأفلاطونية وهو نائم أوساه ، كلا . إنه لما رأى أن المعقولات هي الفعالة والمؤثرات وما عداها لاحراك له قال مقالته ووضع قاعدته ، ولكن أنا أنبئكم بالحقيقة ، الحقيقة هي أننا لايتسنى لنا معرفة العوالم الغائبة عنا إلا بما نشاهده فى أنفسنا ، وسبب ذلك أن أنفسنا أكمل هـذا العالم ، هى أرقاه لأنها جمعت العوالم الجسمية والعوالم الروحية ، ولنا صور ذهنية وهذه الصور نحس بها ، هى موجودة ، نحن لانكرها ، وهـذه الصور لم تكن لها مادة تخلق منها ، ولا وجودها إلا من أنفسنا ، فلا واسطة بينها وبين نفوسنا ، أفلا نقول هكذا فى العوالم . إن العوالم

حركات فى ضمير الكون وخيال الفضاء ، كما أن صورنا الذهنية حركات فى خيالنا ، فهاهنا انحل الإشكال ، وفك العقال .

هذا معنى ماتقدم فى غير ماموضع لاسيما (سورة القتال) فهل لك أن تفيض فى هذا الموضوع هنا ليتم المقام وينتظم شمله؟ فقلت له: حياك الله أيها الأخ وبياك : ألم تر ما كتبته الآن؟ ألم أذكر لك عشر جمل هى خلاصة ماذكرته فى هذا المقال هنا زيادة عماسبق . فقال بلى ولكنى أريد زيادة تحقيق ، نعم إنك فى (سورة القتال) لم تذكر إلاالصور الذهنية الخيالية ، وهنا ذكرت الخيالية والفكرية وشرحتهما ، فلتفصل لى المقال بعبارة أوضح وقول أبين ، فقلت : إن كل ما نزاوله من أفعالنا ، ونصنعه فى مدننا وحقولنا وليلنا ونهارنا لايصدر إلا عما قررناه فى نفوسنا .

الله أكبر : لامعنى للانسانية إلاالفكر ، لو سلب الإنسان العقل لسميناه مجنونا ، فيصبح ذا غريزة ، كالحيوان فيأكل ويشرب ويتناسل ، وهو صنو الحيوان لافكر عنده ولا تمييز .

الله أكبر : الأرض وماعليها لاتساوى شيئا مذكورا فى نظرنا لولا دراكنا لها ، إذن الإدراك والتعقل هما أصل كل شىء عندنا ، إذا عقلنا فهناك الوجود ، وإذا لم نعقل فهناك العدم جرد المرء من شهوة الطعام إذن لايعبأبه ، جرده من شهوة الغضب إذن لايحارب العدو ، جرده من العقل لايدرى شيئا ، فالإدراك هو الأصل ، وماعداه تبع ، فالوجود كله لامعنى له إلا إذا أدركناه ، نحن علماء بالإدراك ، نحن جهلاء بعدمه ، العالم موجود عندنا لأنا أدركناه غير موجود إذا لم ندركه ، لاوجود للألوان إذا لم تكن عيون ، أو كان الانسان أعمى ، لاوجود للأصوات إذا كان الانسان أصم ، لاوجود لهما إذا كان أصم أعمى ، لاوجود لهـــذا العالم لمن لايحس بالحواس ، بعض الموسوسين والمرضى بالأمراض العصبية ومرض (الهيستريا) يسمعون أصواتا ويرون صورا لاوجود لها ولكنها تفعل فعلها فيهم وتضرهم ضررا بليغا ويموتون ، وأنا شاهدت بعضهم ؛ وبعضهم يرى صورا فى الظلام ، ومن شدة خوفه يرى صورا تزعجه وهو مستيقظ ولايشك فى وجودها ، يحلم الانسان بصور وأشكال ، وجمال وقبح ، وصديق وعدو ، وحقل وجبل ، وهى عنده حقائق لامارى فيها ، ولها فى ذهنه آثار ، ولها فى نفس حياته فى اليقظة بعض الآثار ، فبعضها يورث الفرح وبعضها يورث الحزن الخ دلالة على أن لها وجودا ، والشمس قدر المنخل باعتبار ماوصل إلينا بالعين لابحسب الواقع ، إذن الوجود كله الذى أدركناه يرجع إلى ماوصل إلينا فى أنفسنا وماتقبلته وتصورته لاغير وإن خالف الحقيقة ، فإننا إذا أثبتنا النفى لما أدركناه ، ونفينا المثبت لما لم ندركه نحن فى نومنا نوقن بما ليس بموجود لما أدركناه وندعن بعدم ماهو موجود تبعا لما تصورناه ، فالعبرة بأنفسنا لاغير ، ففيها سعادتنا وفيها شقاؤنا ، وإذا تبدى لنفس مايسعدها فهى سعيدة ، وإذا تبدى لها مايشقيها فهى شقية ، والعالم الخارجى أمر آخر غير نفسى فهو صالح للأمرين ، ولو أن الإنسان عاش أمدا وأبدا ، وحياته كحياة النائم الذى يرى أنه فى روضات الجنات ، فهذا النائم سعيد سعادة حقيقية ، وإن كان كل مارآه لاحقيقة له ، وإن رأى حيات وعقارب وسعيرا وزمهريرا ودام إلى الأبد فهو الشقى شقاء أبديا ، فنفوسنا لايسعدها إلا ماأدركت ولايشقيها إلا مالديها مما هو مؤلم ، فالنفوس إذن أصل الموجود عندنا ، أليس هذا أيها الأخ الذكى هو السر الذى وصل إليه قول (أفلاطون) فى أن أصل العالم هو العالم العقلى ، فاذا كان ذلك هو أدب نفوسنا وهى فروع لنفوس أكبر تدبر هذا العالم ، أفلا نقول : إن النفوس التى اشتقت منها نفوسنا هى على هذا النمط ، فهى أصل لوجود العوالم ، والمدار على تلك النفوس لاعلى ما تفرع منها من العوالم ، وما هذه العوالم إلا صور لما فى تلك النفوس العالية لأن المدار عليها كما أن المدار فى الوجود وعدم الوجود إنما هى عقولنا وإرادتنا وهى الحقيقة عندنا لاغير ،

فإن

فإن كان فى المنام فالحقيقة ماتراه ، وإن كان فى اليقظة فالحقيقة ماتشاهده ، وأصل الوجود هو الأثير والحركات فيه ، واختلفت المناظر باختلاف أحوال الناظر فيها ، وإذا كانت عقولنا ونفوسنا هذا دأبها فلنقل هكذا دأب العقول التى اشتقت عقولنا منها ، وتلك العقول الأولى منزلتها من صانع العالم منزلة أفكارنا من أنفسنا وإن كان هذا مجرد تشبيه لاغير وليس موضحا للحقيقة ، والتشبيه ماهو إلا ضرب مثل لاغير ، وهذا الذى عولنا عليه إيضاح وتبيان للسر الذى ذكره أفلاطون ، وبهذا الإيضاح سيزول إشكال الأمم فى أصل وجود العوالم العلوية والسفلية ، والله هو الولى الحميد .

مسامرتان

ولأذكر لك هنا مسامرتين : الأولى عن الإمام الغزالى . الثانية عن (باسمرك)

يقول الإمام الغزالى : لو أنك خبأت كنزا ثمينا وفيه أموال عظيمة فإنك تجد نفسك به فرحا مغتبطا ، ولو أن امرأ سرق ذلك الكنز وأنت لم تعلم به سنين عديدة لم يؤثر ذلك فى فرحك بل فرحك به دائم مادمت معتقدا وجوده وأنه ملكك . انتهت المسامرة الأولى .

المسامرة الثانية

ما جاء فى كتاب (مختارات الترجمة) باللغة الانجليزية تحت عنوان « لفافة التبغ التى تمتع بها باسمرك من غير أن يدخنها » وذلك أنه كان فى (كونيكارتز) وقد حمى وطيس الحرب واشتد الكرب ، وشمرت الحرب عن ساقها ، وعم ضررها ، ولم يبق لديه إذ ذاك لفافة تبغ واحدة ، قال هو بنفسه مايأتى :

« إن قيمة لفافة التبغ لانعرف إذا لم يكن لديك سواها وكانت آخر ماتملك من هذا القبيل ، ولم يكن هناك سبيل لنيل غيرها ، وفى (كونيكارتز) لم تكن عندى إلا لفافة تبغ واحدة ، حفظتها فى أمتعتى ، وحافظت عليها حفظ البخيل على كنز ماله مدة الحرب كلها ، وقد قررت فى نفسى أن العقل يقضى يبقائها وليس من الحكمة تدخينها ، ولقد كنت أحس بأجمل السعادات ، وأبهى المسرات ، وأعز الساعات ، بعد أن وضعت الحرب أوزارها حينما أتمتع بالنظر إليها وأشاهدها وهى قرة عين لى ببقائها ، ولكن وا أسفاه قد وقع ماليس لى فى الحسبان ، ذلك أن فارسا قطعت يداه أثناء الحرب أخذ يهمس ملتمسا ما يسلى نفسه المسكينة وينعش فؤاده الحزين ، فأخذت أفتش فى حقيبتى ، فوجدت فيها النقود الذهبية ، ولكنها لا تغنيه شيئا مذكورا ، ولا تنعش قواه المنهوكة ، فقلت له اجلس أنا أعطيك لفافة التبغ العزيزة لدى ، والتى هى سلوتى مدة الحرب ، فأشعلت النار فيها ، ووضعتها بين شفتيه الواهنتين ، هنالك تبسم ذلك المسكين فرحا مسرورا شاكرا ، أنا لم أتمتع بلفافة تبغ مدة حياتى كهذه اللفافة التى تمتعت بها ولم أدخنها ، انتهى .

هاتان المسامرتان أيها الأخ الذكى تلقيان شعاعا على موضوعنا ، شرح الله صدرك للحكمة وأنار بصيرتك بالعلم ، وزين صدرك بالإيقان ، وما مثل هاتين المسامرتين إلا كمثل نور المصباح يلقى شعاعه على أصل الموضوع الذى أختمه بما يقوله الفلاسفة : « إن الإنسان يمشى على الحائط فيقع وما أوقعه إلا وهمه ، وهو يمشى على الأرض فى أقل من عرض الحائط » ، فالصور الذهنية مبدأ الشقاء والسعادة ، فكأن الفكر أصل أعمالنا والعالم الملكى الأعلى أصل عوالمنا ، فأصل الوجود للعقول وجميع العوالم إن هى إلا تابعات ، والعوالم كلها أشبه بشجرة ، وهذه الشجرة فيها زهرات كثيرات ، والزهرات هى الأبصار التى ضرب بها المثل فى القدر فقال : « وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر » فلمح البصر كترعرع الأزهار على الأغصان ، ووراء

الزهرات الثمرات ، كما أن وراء العين العقول والنفوس الأرضية والسماوية وترتيب القضاء والقدر ، أفلا نعجب من سر القرآن ! .

فقال صديق : إن هذا البيان عجب ! ولم أسمع مثل هذا السر فى هذا التفسير . فقلت الحمد لله رب العالمين . انتهت اللطيفة الثالثة فى ١٠ جمادى الأولى سنة ١٣٥١ هجرية ١١ سبتمبر سنة ١٩٣١ ميلادية . انتهى تفسير (سورة القمر).

تم بحمد الله وحسن توفيقه الجزء الثالث والعشرون من كتاب « الجواهر » فى تفسير القرآن الكريم ، ويليه الجزء الرابع والعشرون وأوله : تفسير سورة الرحمن

فهرس

الجزء الثالث والعشرون

من كتاب

الجواهر في تفسير القرآن الكريم

صفحة

٢ تفسير (سورة ق) .
بيان أنها نزلت في إثبات النبوة والحشر، والسورة مكتوبة مشكلة كلها .

٤ بيان أن فيها مبحثين : المبحث الأول فيه ثلاث مقامات : تفسير البسملة ومعنى ق ، وتفسير الآيات من أول السورة إلى قوله «بل هم في لبس من خلق جديد» .

٥ وجه الرحمة هنا .
المقام الثانى في معنى (ق) وأن المسلمين علم الله قبل أن يخلق العالم أنهم سينامون عن العلوم غفلة وجهالة فرمز لهم هنا بحرف (ق) إشارة إلى القرآن :

٧ المقام الثالث تفسير الآيات (ق ، والقرآن المجيد) الخ .

٩ المبحث الثانى في الكلام على الموت وسكرته وعلى الملائكة المراقبين حركات الإنسان وسكناته ، وفى أحوال يوم القيامة .

١٣ بيان أن في هذه السورة ثلاث لطائف : اللطيفة الأولى والثانية في عجائب الأرض والنبات :

١٦ بيان عشرين حكمة في الشجر والنبات : الحب ، الشجر ، نسج الورق ، العجم والنوى ، صلابة النواة، قشر الحب والنوى ، الحب والنوى الخ .

١٨ شذرات علمية في النبات .

١٩ اللطيفة الثالثة في قوله تعالى : «إذ يتلقى المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد» .

٢٠ اللطائف العامة في هذه السورة .

٢١ اللطيفة الأولى في سر (ا ل م) في قوله تعالى : «أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها ومالها من فروج» . وتبيان أننا ذكرنا في أول (سورة آل عمران) المعانى الإشارية التى أوردها المتقدمون في هذه الحروف التى في أوائل السور ، وأن (ا ل م) في أول سورة (آل عمران) خاصة تشير إلى ماهناك من قصة اليهود الذين حرفوا التوراة وكتموا العلم الخ .

٢٦ اللطيفة الثانية في قوله تعالى : «أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها ومالها من فروج» .

صفحة
٢٧ مسامرة بيني وبين صديق لي أذكرني بما شرحته من عجائب العين وغيرها فيما تقدم الخ .
٢٨ العين ومنفعتها ، وأن الناس يستعملونها ولايعقلونها. وبيان كيف ركبت طبقات العين وكيف جعلت تلك الطبقات بهيئة موسيقية عجيبة جدا الخ .
٢٩ (شكل ١) قطعة من العين الإنسانية ، وفيها وضحت ١٥ قطعة من داخل العين مثل الصلبة والقرنية والملتحمة وغطاء المشيمة ، وآخرها الرطوبة الزجاجية .
٣٠ (شكل ٢) فيه أجزاء العين مفصلة ، ولكن شرحها قدتقدم في (سورة المؤمنون) فلم يذكرهنا وهو معلوم .
جمال العين وبهجتها وعجائب إتقانها ، وذكر أهم أجزاء العين وهي القرنية : الرطوبة البيضية ، البلورية ، الزجاجية ، الشبكية ، وهذه تفهم بشكل (٣) وهي تجربة تبين منفعة أجزاء معلومة من العين ، فترى المصباح يمثل ضوء الشمس مثلا ، واللوح الأبيض المثقوب يمثل القزحية ، والزجاجية المائية تمثل البلورية ، واللوح نمرة ٤ القابل للصورة يمثل الشبكية ، وبهذا ظهرت قيمة القزحية فهي المساعدة لتمام الصورة على الشبكية .
٣١ الكلام على المنشورات البلورية القائمة مقام الزجاجية المملوءة ماء . إن الزجاجة المتقدمة يعرفها الخاص والعام وهي تمثل البلورية ، ولكن العلم يعوزه ماهو أعظم من ذلك وهي أجسام زجاجية مضلعة (شكل ٤) قطعة من بلوريتين محدبتين وجزء من منشورين .
تحليل الضوء إلى ألوانه السبعة سير الضوء في منشورين قاعدة أحدهما ملتصقة بقاعدة الآخر فصار أبيض في الوسط ، والأشعة الزرقاء أسرعت فاجتمعت أولا ، والحمراء اجتمعت بعد ذلك الخ :
٣٢ وظائف القزحية والبلورية والشبكية : فالأولى لحفظ الصورة واضحة ، والثانية توصلها ، والثالثة توصلها إلى الدماغ ، والشبكية عشر طبقات مفصلات في (شكل ٦) .
٣٣ بيان آخر طبقة منها أن فيها ثلاث ملايين مخروط وثلاثون مليون أسطوانة ، وصورة هذين النوعين ٣٣ (شكل ٧) .
٣٥ تأثير الضوء في النبات والحيوان والجماد .
البحث الثاني من اللطيفةالثانية في عجائب السماء والكواكب ، وهاهنا الكلام الإجمالي على السيارات وعلى الشموس الكبيرة والمجرات ، والشمس تبعد عن سطح المجرة خمسين ألف سنة نورية ، وهي تسير مع شموس أخرى بسرعة مليون ميل في اليوم .
بيان أنه ظهر ١٩ نجما جديدا من سنة ١٣٤ ق م إلى الآن .
٣٩ تطبيق أقوال الصلاة على عجائب البصر وعجائب السموات :
٤٠ تسبيح المخلوقات وشرح الكلام في القزحية وأنها تضبط النور .
٤١ سر من أسرار حكم العين وسواد قزحيتها .

صفحة
٤١ اللطيفة الثالثة فى قوله تعالى : «والأرض مددناها» الخ . وفيها مقالتان: المقالة الأولى فى قوله تعالى : «وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج» .
٤٢ (شكل ٨) .
٤٣ (شكل ٩) :
٤٤ (شكل ١٠) وفيه نوع الخلايا وهى هنا ستة أنواع : مثل الخلايا المرستيمية الخ .
٤٥ شرح الساق فى النبات ذو الفلقتين مثل (الكبوتين) ومثل البشرة تحته ، وهكذا إلى سبع طبقات وآخرها أشعة نخاعية (انظر شكل ١١) و (شكل ١٢) و (شكل ١٣) و (شكل ١٤) ، و (شكل ١٥) .
٤٨ امتحان الساق فى ذى الفلقتين يظهر فى الحلبة والملوخية بسهولة . شرح ساق النبات ذى الفلقة الواحدة وفيهم (شكل ١٦ ، ١٧ ، ١٨) . الفرق بين نمو الساقين أن أحدهما يزداد فى السمك عاما بعد عام وهو ذو الفلقتين وبالعكس ما كان ذا فلقة واحدة كالنخل .
٤٩ الحلقات السنوية (شكل ١٩) .
شكل الخشب فى أشجار مختلفة (شكل ٢٠) و(شكل ٢١) لبيان الجذور ، وأشكال (٢٢ ، ٢٣ ، ٢٤) لأصل النباتات الحزازية .
٥١ (شكل ٢٥) للنباتات السرخسية ، ويليها (شكل ٢٦) .
الكلام على النباتات المعراة البذور والمغطاة البذور .
٥٢ الموازنة بين النباتات ذوات الفلقة وذوات الفلقتين ، وهى خمس فوارق .
المقالة الثانية فى قوله تعالى «تبصرة» والتبصرة باستنتاج ١٤ حكمة مما تقدم .
٥٤ المقالة الثالثة فى قوله تعالى : «وذكرى لكل عبد منيب» إيضاح هذا المقام .
٥٥ التسبيح والتحميد : والكلام على التسبيح والتحميد من المخلوقات أهو باللفظ أم بالمعنى ؟.
٥٧ جمال العلم وبهجة الحكمة فى الكلام على وادي الموت بأمريكا ، فكل من دخله مات من حرارته وعلى غور الشيطان بأمريكا أيضا وعمقه ١٧٥ مترا ، وذلك بسبب جرم سماوى صدمه ، ثم الكلام على الجليد والفحم القطبى .
٥٩ ثلاث جواهر : الأولى فى آية : «وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج » .
٦٠ الجوهرة الثانية فى قوله تعالى : «تبصرة وذكرى لكل عبد منيب» .
٦١ الجوهرة الثالثة فى قوله تعالى « مايلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد » وفيها ذكر بعض آفات من (الإحياء) .
٦٨ بيان مارخص من الكذب ، كمن يكذب للصلح بين اثنين .
٧١ بيان الحذر من الكذب بالمعاريض .
٧٣ الغيبة والنظر فيها طويل .

صفحة

٧٥ بيان معنى الغيبة وحدودها .
٧٦ بيان أن الغيبة لاتقتصر على اللسان .
٧٨ بيان الأسباب الباعثة على الغيبة .
٨٠ بيان العلاج الذى به يمنع اللسان عن الغيبة .
٨٢ بيان تحريم الغيبة بالقلب .
٨٣ بيان الأعذار المرخصة فى الغيبة .
٨٥ بيان كفارة الغيبة .
٨٦ النميمة .
٨٧ بيان حد النميمة ، وما يجب فى ردها .
٩٠ كلام ذى اللسانين .
٩١ آفة المدح .
٩٣ بيان ما على الممدوح .
٩٣ الآفة التاسعة عشرة : الغفلة عن دقائق الخطأ فى فحوى الكلام .
٩٤ الآفة العشرون : سؤال العوام عن صفات الله تعالى ، وعن كلامه ، وعن الحروف أهى قديمة أم محدثة ؟ .
٩٥ شذرات من كتابنا (جوهر التقوى) من الحسد وأسبابه .
٩٧ الثبات والعزيمة ، والصبر وأنواعه ، والعفة والشجاعة ، وكتم السر وإفشاؤه ، والقناعة والشره :
١٠٣ (١٣) سؤالا للتطبيق على الأخلاق المتقدمة : الكرم والبخل الخ .
١٠٥ اللطيفة الخامسة فى قوله تعالى : «يوم نقول لجهنم هل امتلأت وتقول هل من مزيد» .
١٠٧ جوهرة فى إعجاز القرآن من حيث بلاغته .
١٠٨ موازنة بين الأدب فى هذا العصر : أى سنة ١٩٣٢ وفى المدة الأولى أيام شبابى فى نحو سنة ١٨٨٧م .
١٠٩ (سورة الذاريات) مكتوبة مشكلة كلها .
١١٠ بيان أن هذه السورة ثلاثة أقسام .
١١١ القسم الأول فى تفسير البسملة ، وبيان غفلة الإنسان فى هذه الأرض .
١١٢ القسم الثانى من السورة فى تفسيرها اللفظى من أولها إلى قوله «لعلكم تذكرون» .
١١٥ القسم الثالث من السورة فى تفسير الآيات من قوله تعالى : «ففروا إلى الله» إلى آخر السورة .
١١٦ لطائف هذه السورة ثلاث : اللطيفة الأولى والثانية فى مبحث على ومبحث أدبى . وبيان أن العلمى يرجع إلى أن (ق) جىء به مذكرا للمسلمين بعد غفلتهم فى زماننا ، والأدبى يرجع إلى الموازنة بين أقسام العرب وأقسام القرآن .
١٢١ اللطيفة الثالثة فى قوله تعالى : «فويل للذين كفروا من يومهم الذى يوعدون» :

صفحة

١٢١ اللطائف العامة في هذه السورة .

اللطيفة الأولى في قوله تعالى : «وفي الأرض آيات للموقنين» الخ

محاورات بيني وبين صديق العالم الذي اعتاد محادثتي في هذا التفسير :

١٢٢ في هذه المحادثة فصلان الفصل الأول في ملخص ماتقدم في (سورة الفتح) لمناسبة قوله تعالى : «وفي السماء رزقكم وما توعدون» .

١٢٤ الفصل الثاني في علاقة أجسامنا بعالم السموات ، وما يتبع ذلك من طول العمر وقصره الخ .

١٣٦ اللطيفة الثانية في قوله تعالى : « وفي أنفسكم أفلا تبصرون » وما بعدها . وبيان بدائع الحساب من الجذر والتربيع والجمع والطرح في الأعداد (١-٢-٣-٤ الخ) وكيف كانت أنواع الحساب المذكورة فيها .

١٣٧ هاهنا ثلاثة فصول : الفصل الأول في الجذر والتربيع .

١٤٥ الفصل الثاني في حدائق العلوم التي تفيأ الناس ظلالها من علم الفلك والطبيعة ، وظهور غاية الدهش من حساب الأحجار الساقطة في نظام سرعتها ! وكيف دخل فيها الجذر والتربيع الخ :

١٤٨ (شكل ٢٧) و (شكل ٢٨) يمثلان نظام أوراق أمثال شجر التفاح الذي يرجع إلى كسر بسطه عدد (٢) ومقامه عدد (٥) والأول للأشكال الحلزونية في الدائرة الواحدة ، والثاني لعدد أوراقها ، وكيف كانت الورقات الخمس في الدائرة بينها مسافات متساوية ٧٢ درجة من محيط الساق وهو دائرة تامة .

١٤٧ الفصل الثالث في أن الأمم وإن استظلت بظلال تلك العلوم في حياتها لم تجن ثمراتها .

١٤٨ بيان أن الإنسان لم يدرس حقائق السياسة كما درس أحوال الحياة .

١٤٩ اللطيفة الثالثة : في قوله تعالى أيضا «وفي أنفسكم أفلا تبصرون» وفيه ثلاث شذرات .

(الشذرة الأولى) في كريات الدم الحمراء :

(الشذرة الثانية) في بعض المنافع الطبية والمحافظة على الأسنان وتنظيفها ونحو ذلك ، وأن الأسنان الذهبية قاتلة لنوع الإنسان ، وأن الأسنان لابد من تسويكها واللثة لابد من تنظيفها بالأصبع لابالسواك .

١٥٤ الشذرة الثالثة في أمر النفس وعجائبها ، وبيان أن الحقول هي الكلية الأولى لعلم النفس وهي ثمانية وذلك في ثمانية فصول :

١٥٥ بيان أن المؤلف نظر في كتب الفلاسفة المتقدمين ، ثم فلاسفة أوروبا ، فوجد المتقدمين جعلوا العلوم هكذا : رياضيات ، طبيعيات ، إلهيات . والطبيعيات هي سماع الكيان والسماء والعالم ، والكون والفساد ، والآثار العلوية ، والمعادن ، والنبات ، والحيوان ، والإنسان . ثم هم يقولون إن للنفس ثلاث قوى ، ثم يأتون بعد ذلك بالعلم الأعلى وهو خمسة علوم ، وهذه كلها مع الرياضات ومع تهذيب الشخص ونظام الأسرة ونظام الأمة تبلغ ١٧ علما ، ولهذا فروع كثيرة الخ .

١٦٠ الكلام على آراء (إخوان الصفاء) في هذا المقام ، وعلى مافي جمهورية أفلاطون فيه ، وهو مفهوم

صفحة

فى مواضع كثيرة من هذا التفسير ، وينحو نحو هذا الترتيب بعينه (كونفشيوس) الصينى .

١٦٢ فصل فيما جاء فى علم النفس الحديث :

نظرة عامة فى علوم النفس عند القدماء والمحدثين ، والكلام على كتاب (سلوك المالك ، فى تدبير الممالك) مثل أن الرذيلة لها دواء كالشره والعجب ، وأنه لافرق بين دواء المرض بضده ، ومداواة الرذيلة بضدها .

١٦٤ تبصرة وتذكرة فى آية : «وفى الأرض آيات للموقنين» الخ وفيها (شكل ٣٠) للمخ الإنسانى ، وأنه منقسم إلى قسمين كل قسم منهما أربعة فصوص وكل فص من هذه الثمانية ينقسم إلى أقسام أخرى على حسب التلافيف .

١٦٦ (شكل ٣١) مقطع جانبى للمخ يبين الألياف الرابطة ، وبيان الألياف الضامة والألياف المصدرة والألياف الموردة ، ويوضح ذلك أيضا (شكل ٣٢) .

١٦٧ (شكل ٣٣) مقطع فى اللحاء .

وظائف المخ ، مناطق اللحاء ، وهاهنا مناطق عجيبة موزعة على أعضاء الحس وعلى أعضاء الحركة .

١٦٨ مراكز اللحاء فى المخ أربعة : مركز الكلام والكتابة ، وإدراك الألفاظ المسموعة ، والألفاظ المكتوبة وبين هذه الأربعة اتصال ، وكلما كانت كلها متعاونة كان الفهم أسرع ، وذلك نافع فى علم التربية فى المدارس ، وذلك واضح فى (شكل ٣٤) .

١٧١ المخيخ : وظيفته تنظيم حركات الجسم ، ومتى عطل كانت حركات الإنسان غير مضبوطة ، فهو نظير المناطق الثلاثة فى المخ التى تحكم بين الحواس المختلفة وتنظمها .

نظرة عامة على هذه المشاهدة فى علم النفس .

١٧٥ جوهرة فى آية : «ومن كل شىء خلقنا زوجين» وبيان أن القرآن يسمع المخاطبين ماتقبله عقولهم وليست الأمثلة التى فيه حاصرة لما يجب علينا ، وعلى العقول التفكر فى كل شىء :

١٧٨ أقسام المملكة الحيوانية وأنها إما وحيدة الخلية وإما كثيرة الخلايا ، ولكل منهما أقسام وهى أربعة فى الأولى ، وأقسام كثيرة فى الثانية مثل الفقرية وأقسامها الخمسة ، والخامس منها ثمانية أقسام مثل اللافقرية وأقسامها الثمانية .

١٧٩ الأميبا (شكل ٣٥) .

القسم الثالث من وحيد الخلية : البوجلينا (شكل ٣٦) الحيوانات الجرثومية .

١٨٠ حوصلات الملاريا المعدة (شكل ٣٧) و (شكل ٣٨) حيوان الإسفنج .

١٨٢ إسفنج الحمام (شكل ٣٩) ، (شكل ٤٠) أخطبوط .

١٨٣ (شكل ٤١) نجم بحرى يفترس محارا .

١٨٤ (شكل ٤٢) قطاع عرضى فى الذراع .

(شكل ٤٣) الدودة الكبدية الكاملة .

١٨٥ (شكل ٤٤)

صفحة
١٨٥ (شكل ٤٤) دودة البلهارسيا (شكل ٤٥) دودة الانكلستوما .
١٨٦ القسم السادس من الحيوانات عديدة الخلية ، والقسم السابع منها وهى التى لافقرات لها ، وهنا شكل (٤٦ ، ٤٧ ، ٤٨ ، ٤٩، ٥٠ ، ٥١) أما (٥١) فذلك فى القسم الثامن من الحيوانات عديدة الخلايا وهو القوقع الرومانى .
١٨٨ (شكل ٥٢) بلح البحر مدفونا .
١٩٢ زيادة إيضاح «ومن كل شىء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون» .
١٩٥ مسامرة فى آية : « وفى السماء رزقكم وما توعدون » وفيها الكلام على تقسيم النبات أيكون بالشجرات والشجيرات والأنجم ؟ أم يكون بأنه ذو سنة أو سنتين أو سنين الخ .
١٩٧ بيان أن الزهرات تنوب عن النجوم فى بعض آثارها .
١٩٨ الفصيلة الأولى من الفصائل الخضرية كالفول وجميع أوراق زهرها خمس لاغير ، وهى من ذوات الفلقتين التى لايخرج ساقها عن أن تكون مخروطية الشكل ، فأما ذوات الفلقة الواحدة كالنخل فإن ساقها أسطوانية الشكل .
١٩٩ الكلام على الفصيلة الوردية ، وفيها التفاح والبرقوق الخ، فالكأس خمس والتويج خمس ولكن أعضاء الذكور كثيرة جدا ، بخلاف ماقبلها فعددهن عشر لاغير .
الكلام على أنحاء العقول الإسلامية .
٢٠٢ المكروسكوبات والتلسكوبات والمناظر وأضواء الشمس السبعة ، وكيف يمكن استخراج النار بالعدسات الثلجية فى الأقطار الشمالية .
٢٠٣ تفسير سورة الطور ، وهى مكتوبة مشكلة .
٢٠٥ بيان أن هذه السورة ثلاثة أقسام .
القسم الأول تفسير البسملة .
٢٠٦ القسم الثانى : ذكر العذاب والنعم فى التفسير اللفظى لهذه السورة إلى قوله : « إنه هو البر الرحيم » .
٢٠٨ القسم الثالث من أول «فذكر فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون» إلى آخر السورة .
٢٠٩ لطائف هذه السورة .
اللطيفة الأولى فى قوله تعالى «والطور» .
اللطيفة الثانية فى قوله تعالى : « والبيت المعمور » وبيان أن هذه الأقسام كلها تمت بصلة إلى مانحن عليه الآن من العلوم المنشورة ، وإشراق القلوب ، وظهور نار فى باطن الأرض كشفها الناس الآن وهى البحر المسجور . والكلام على « الضراح » الذى يقال إن حرمته فى السماء كحرمة الكعبة

فى الأرض ، وأن هناك ملائكة يصلون إليه كل يوم ولا يعودون أبدا الخ .
٢١١ نتائج هذه المعجزة القرآنية فى بعض النفوس .
تفسير سورة النجم كلها مشكلة .
٢١٣ بيان أن هذه السورة أقسام .
القسم الأول فى تفسير البسملة ، وبيان أن الله أقسم بالنجم وأعظم أمره فقال : «وإنه لقسم لو تعلمون عظيم» الخ .
٢١٥ محاورة بينى وبين عالم ، وفيها الكلام على أن كل علم لابد له من تمرين ، والتمرين على علم الدين بالعبادة المذكورة فى آخر (سورة الطور) ثم تمام العلم مذكور فى (سورة النجم) : «ولقد رآه نزلة أخرى عند سدرة المنتهى» ومتى انتهى الإنسان فى العلم أفاض على غيره، وهذا قوله : «ماضل صاحبكم وما غوى» .
٢١٨ لماذا وجب المران فى كل شيء ؟ وبيان أن المادة نفسها عبارة عن حركات كثيرة انضمت فصارت مظاهر مختلفة .
٢١٩ مقدمة فى مناسبة السورة لما قبلها ، وبيان أن المتصدى لارشاد الأمة ينبغى له أن يقوم بالليل ويفعل ماهو مذكور فى آخر سورة الطور ليقبل الناس قوله .
القسم الثانى فى التفسير اللفظى للايات من أول السورة إلي قوله تعالى : «لقد رأى من آيات ربه الكبرى» .
٢٢٢ القسم الثالث تقريع المشركين على جهلهم وكفرهم بعبادة الأصنام ، وفيه تفسير الآيات من قوله : «أفرأيتم اللات والعزى» إلي آخر السورة .
٢٢٥ لطائف هذه السورة .
اللطيفة الأولى فى قوله تعالى : «والنجم إذا هوى» وهاهنا مذكرة واسعة النطاق بالآيات التى فى آخر سورة الطور ، وعما فى أول سورة النجم . وبيان أن الحمد المذكور فى آخر الأولى لن يتم إلا بالمعارف الخ .
٢٢٦ ثمرة هذا المقام فى أمم الاسلام وبيان أن هذه المعارف التى لايتم الحمد إلا بها تكون للانبياء بلاتعليم ولكنها لاتكون لنا بغير تعليم الخ .
٢٢٧ اللطيفة الثانية فى قوله تعالى : «وأنه هو أضحك وأبكي» الخ .
٢٢٩ اللطيفة الثالثة فى قوله تعالى : «وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى» الخ .
٢٣٨ (سورة القمر) مكتوبة كلها مشكلة .
٢٣٩ بيان أن أقسام هذه السورة ثلاثة :
القسم الأول فى تفسير البسملة وبيان أن الأنوار ظهرت بالشمس والقمر والنجوم فلم يفقه مغزاها أكثر الناس ، فأعطاهم نماذج من التاريخ كقوم عاد ونوح الخ .

صفحة
٢٤٠ القسم الثانى مذكرات بالساعة وعذاب الدنيا بالهلاك .
التفسير اللفظى للسورة كلها .
٢٤٣ القسم الثالث توبيخ قريش ، وقياس حالهم على حال الأمم الماضية .
٢٤٤ لطائف هذه السورة ثلاثة .
اللطيفة الأولى فى قوله تعالى : «ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر» .
٢٥٠ اللطيفة الثانية فى قوله تعالى : «إنا كل شىء خلقناه بقدر» فيها معنى القضاء والقدر .
٢٥٢ اللطيفة الثالثة فى قوله تعالى : «وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر» .

الجواهر

في تفسير القرآن الكريم

المشتمل على عجائب بدائع المكونات وغرائب الآيات الباهرات

تأليف

الأستاذ الحكيم الشيخ طنطاوي جوهري

المدرس بالجامعة المصرية ومدرسة دار العلوم سابقا

متع الله المسلمين بحياته آمين

الجزء الرابع والعشرون

الطبعة الثانية

١٣٥٠ هـ — رقم ١٧١

حقوق الطبع محفوظة

طبع بمطبعة

مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر

بمباشرة محمد أمين عمران

«وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ»
(قرآن كريم)

بسم الله الرحمن الرحيم

تفسير سورة الرحمن

هى مدنية

آياتها ٧٨ ـ نزلت بعد الرعد

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الرَّحْمَٰنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ * خَلَقَ الْإِنسَانَ * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ * الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ
بِحُسْبَانٍ * وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ * وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ * أَلَّا تَطْغَوْا
فِي الْمِيزَانِ * وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ * وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ *
فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ * وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ * فَبِأَيِّ آلَاءِ
رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * خَلَقَ الْإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ * وَخَلَقَ الْجَانَّ مِن مَّارِجٍ
مِّن نَّارٍ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ * فَبِأَيِّ
آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ * بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ * فَبِأَيِّ
آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا
تُكَذِّبَانِ * وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ *
كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا

تُكَذِّبَانِ * يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ * فَبِأَيِّ
آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلَانِ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ *
يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ
فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا
شُوَاظٌ مِنْ نَارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنْتَصِرَانِ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * فَإِذَا انْشَقَّتِ
السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ
عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ
فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * هٰذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي
يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ * يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا
تُكَذِّبَانِ * وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * ذَوَاتَا
أَفْنَانٍ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا
تُكَذِّبَانِ * فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ *
مُتَّكِئِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا
تُكَذِّبَانِ * فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ * فَبِأَيِّ آلَاءِ
رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ *
هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * وَمِنْ دُونِهِمَا
جَنَّتَانِ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * مُدْهَامَّتَانِ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ *
فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ
وَرُمَّانٌ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا
تُكَذِّبَانِ * حُورٌ مَقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * لَمْ
يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * مُتَّكِئِينَ عَلَى

رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ * فَبِأَيِّ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * تَبَارَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَالِ وَٱلْإِكْرَامِ *

هذه السورة ثلاثة أقسام

القسم الأول فى تفسير البسملة .

القسم الثاني : فى عجائب عالم الدنيا من أول السورة إلى قوله تعالى : يرسل عليكما شواظ من نار ونحاس فلا تنتصران .

القسم الثالث : فى عجائب عالم الآخرة من قوله تعالى : «فإذا انشقت السماء فكانت وردة كالدهان» إلى آخر السورة .

القسم الأول: فى تفسير البسملة

هذه السورة فصلت كثيرا من رحمات الله عزوجل لمخلوقاته؛ فكأنها تفسير للرحمة فى البسملة المكررة فى كل سورة ، فمن رحماته :

(١) إنزال الديانات ونشرها بين الأمم ، وآخرها دين الإسلام وكتابه القرآن .

(٢) وخلق الأجسام والعقول الإنسانية .

(٣) وإلهامها العلم والفهم والنطق والحكم .

(٤) فيدرس هذا الإنسان الذى قرأ الدين المنزل نظام الشمس والقمر والكواكب والمجرات والسدم وحسابهن وأقدارهن وأبعادهن .

(٥) ثم ينظر نظرة أخرى فى نتائج هذه العوالم العلوية فيجد نوعى النبات من التى لاساق لها وهى المسماة بالنجم ، والتى لها ساق وهى المسماة بالشجر :

(٦) ثم إذا فرغ من هذين ونظر تبصرة وتذكرة اعتراه الدهش من الحساب المتقن فيهما كما تقدم فى هذا التفسير فماذا يرى ؟ يرى ميزانا منصوبا ، وحسابا معقولا ، ويفهم كيف انتظم هذا العالم من علوى وسفلى فى الفلك بالرياضات ، وفى النبات بعلم الطبيعة ، والمواليد الثلاثة ، والكيمياء العضوية ، ومتى درس ذلك ارتسمت تلك المزايا فى نفسه ، وامتزجت بعقله وعواطفه ، وشعر فى نفسه بأن النظام صفة من صفاته لكثرة ممارسته النظام الذى به تربى الملكات الإنسانية فيحكم بالعدل ويعاشر بالإنصاف ، وتكون حياته كلها موزونة لما شاهده من الكمال والميزان وذلك يصبح كالغريزة له ، ومن ذلك كيله وميزانه للناس بيعا وشراء وأخذا وإعطاء ، وهذه نعم لاحصر لها ، وجمال لايوازيه جمال .

(٧) ثم ينظر فيرى أن العوالم الأرضية المذكورة ومافيها من الفاكهة والريحان الخ وما تقدمها من الكواكب جميعها منتجات ظهور الحيوان والإنسان المخلوق من طين فنطفة فعلقة إلى أن يصير بشرا سويا ، فتزيد النعم فى قلبه ظهورا ، ويزداد شكرا وحبا ، وإذا كان نفس الإنسان لن يراها أحد فهذا دليل على جواز وجود عوالم عاقلة لايراها جاء بها الدين ، وهذه العوالم هى الجان .

(٨) وبعد

(٨) وبعد أن يدرس ماتقدم إجمالا يأخذ فى التفصيل كالمشرق والمغرب اللذين أمرهما يرجع إلى علم الفلك المتقدم ، وكالبحر الملح والعذب اللذين يرجعان للعالم الأرضى المتقدم ذكره . ولما كان البحر يحوى لؤلؤا ومرجانا خصصهما بالذكر تبيانا للمسلمين النائمين نوما عميقا ، كأن ربنا يقول لكم أيها المسلمون : ياعبادي: ألم يكف فى هذه السورة أن أذكر لكم الشمس وحسابها استغناء بها عن المشرقين وعن المغربين؟ أو لم يكف ذكر الأرض وأنى وضعتها للأنام عن ذكرما عليها من الريحان وما فيها من البحار؟ أو لم يكف ذكر البحار عما فيها من الدر والمرجان ، وما عليها من الجوار المنشآت فى البحر كالأعلام .

إذن الله عز وجل يقول لنا : لاتكتفوا أيها المسلمون بالمعرفة العامة ، فلتقرءوا الأجزاء بعد الإجمال ولتقرءوا الجزئيات بعد الكليات، أليس من العجب أن يبتدئ السورة باسمه (الرحمن) ويسند إليه التعليم ؟ إذن هذه السورة جاءت لتبيان طريقة التعلم التى يتبعها المسلمون فى المستقبل ، وهذه الطريقة أشبه بالتى قالها ابن خلدون فى المقدمة ، وذلك أنه رأى المسلمين فى زمانه قد نضب معين العلم عندهم فأخذ يفند آراءهم ولكنه أيس من إصلاحهم فى ذلك ، واعتقد أن الداء عضال وقد صدق ، ولكن هذا الداء قد أخذ يزول اليوم والمسلمون استيقظوا استيقاظا لاسبيل لرده ، ولا رادّ لارتقائه وبلوغه أوج الكمال ، فقد ندد على طريقة التعلم ، وعلى الكتب الصعبة ، وعلى مضايقة التلميذ وحشو رأسه بأقوال متناقضة واختلاف كثير .

ثم قال : إن التعليم يكون على ثلاث درجات : فأولا يؤتى بالقواعد العامة إجمالا ، ثم يعاد مرة أخرى بطريقة أوسع ، ثم يعاد مرة ثالثة ، وهناك تربى الملكات ، والذى فى الآية هو هذا فلم يذكر الله الأرض مكتفيا بها ، ولا بذكر مافيها من الأشجار والبحار، ثم انتقل الكلام من الشجر والنجم العامين إلى أفرادهما المفصلات كالفاكهة ، وزاد الأمر تفصيلا بذكر النخل والحب والعصف والريحان .

هاهنا استكمل النظام الذى يتبع فى التعليم الأولى فى العالم الإنسانى ، وهو أولا دراسة العوالم العلوية والسفلية فى المدارس الابتدائية والثانوية ، فلابد أن تدرس هذه العوالم إجمالا ثم تفصيلا ، فالإجمال هو العلم الذى يسمونه (علم الأشياء) وهذا العلم يشار له بالجمل فى أول السورة ، ثم تدرس فى نفس المدارس الثانوية نفس تلك العلوم ، وهذا هو التفصيل بعد الإجمال المتقدم . ثم إن الذين يختصون بهذه العلوم أى أولئك الذين يدخلون القسم العلمى فى المدارس العالية الذين يخصصون أنفسهم لدراسة هذه العلوم يدرسون هذه العلوم بطريقة أوسع .

إلى هنا تمت دراسة الحياة الدنيا ، وما هذه الدنيا إلا لوح كتبت فيه هذه الأرقام . وإذا تعلم الأطفال ما كتب يجب محوه لكتابة غيره ، هاهنا أخذ يذكر بناء هذه العوالم وأنها مظاهر جلاله وجماله ، وهى الحجب المسدولة بيننا وبينه ؛ ومتى فهمنا الدرس الذى أعطاه لنا عرفنا كيف نقابله ونرى وجهه الكريم ، وهاهنا يذكر بعد الشقة بين هذا الإنسان الضعيف وبين صانع العالم جل جلاله فلن يتمتع بلقائه والسعادة بجواره إلا بعد أن يسأل عما قرأه فى اللوح الذى نشر له فى الدنيا ، والدين الذى أنزله ، فكما أنعم عليه بالسموات والأرض فى الحياة الدنيا يحاسبه على تلك النعم يوم القيامة ، كما أن التلميذ بعد الدراسة يمتحن فيما تعلمه . فكما أن العبد كأن يسأله ربه فى الدنيا المعونة وقد آتى الناس من كل ماسألوه ، هكذا يسألهم هو يوم القيامة عما عملوه، فالسؤال مختلف باختلاف السائل والمسئول .

ثم أخذ هاهنا يصف النعيم والعذاب فى الجنات والنيران مما يبهر العقول لذة وجمالا ، ويفتت الأكباد شقاء ونكالا . ذلك خلاصة ما انتظم فى هذه السورة من معان وما جاء فيها من حكم ، ورحمات مفصلات،

وآيات مبينات، ورقائق ساحرات. وحور مقصورات، وجواهر مكنونات، وعلوم مخزونات، وقضايا عجيبات.

نهج المسلمون المنهج الحسن في الأعصر الأولى . ثم تدلى التعليم في العصور المتأخرة شيئا فشيئا . فأخذوا يذمون علوم الحكمة في بلاد الشرق بالدولة العباسية وفي بلاد المغرب الأقصى والبلاد الأندلسية . وأخذ الملوك يتزلفون إلى العامة بمقاطعة العلماء كما فعل بعض ملوك المغرب في أواخر القرن السادس الهجري في دولة الموحدين إذ نفى ابن رشد ، وكما فعل بعض ملوك العباسيين كذلك في بغداد فيما يقرب من ذلك التاريخ ، فانزوى العلم في بلاد الإسلام ففر هاربا إلى أوروبا مع تلاميذ ابن رشد المسلمين واليهود كما مر مفصلا في هذا التفسير . وهؤلاء دخلوا في حمى بعض ملوك ألمانيا . وتغلغل العلم في بلاد أوروبا فقامت قومتها ثم رجعت إلينا عقابا من الله على مافرطنا .

ياربياه ياربياه . لبيك لبيك ياربياه ، نحن أذنبنا وإليك تبنا . كنا نجهل طريقة التعلم والآن أخذنا نرجع إلى سواء الصراط فيما بتعليمك . ولقد عرفنا أن رحمتك التي وسعت كل شيء لم تخل المسلمين المتأخرين قبلنا مما يحفظ عليهم دينهم .

ربياه عرفنا أن المسلمين لما غم عليهم الأمر وذهبت الحكمة من بلادهم تستر العقلاء فيهم بالتصوف وحجبوا عن العلوم التي جعلت أسا لعلم التصوف . فرأينا الإمام محيي الدين بن عربي ذا العلم الواسع يؤلف في التصوف وهو متضلع من علم الحكمة ، ولكنه لاينطق باسم الفلسفة بل يسمي ذلك تصوفا. ثم رأينا المسلمين بعد ذلك يتدلى التعليم عندهم شيئا فشيئا إلى أن تجاوز سننك المعروف في هذه السورة . فأنت ياربياه ذكرت لنا العوالم التي نعيش فيها، ولكن رجال التصوف والأسرار لمانشروا آراءهم جعلوها عويصة مع أنك أنت أريتنا الجمال الذي يراه الخاص والعام ، وأن ماذكره العارف بالله الاستاذ (عبد الكريم الجيلي) المتوفى سنة ٨٩٩ هجرية في رسالته « الكهف والرقيم في شرح فوائد بسم الله الرحمن الرحيم » تبيان لطرق التعليم عند متأخري الصوفية لأمم الإسلام المسكينة .

إنه رحمه الله ابتدأ هذه الرسالة بخطبة يصف بها الله عز وجل بنعوت الجمال والجلال . وأخذ يذكر أنه استخار الله تعالى في إملاء كتابه هذا لمن طلبه وهو عماد الدين التونسي . ثم أخذ يطالب من القراء أن يفهموا العبارات والإشارات ، والتصريحات والكنايات ، والتقديم والتأخير في رسالته ، ثم أخذ يذكر أن سر الكتب المنزلة كلها في القرآن ، وما في القرآن في الفاتحة وما في الفاتحة في البسملة ، وما في البسملة في الباء ، وكل ما في الباء في النقطة التي تحت الباء ، ولاجرم أن هذا القول يجري اليوم على كل لسان في بلاد الاسلام يشيعه رجال الصوفية كابرا عن كابر .

ثم أخذ يبين أن البسملة يتكلم فيها قوم من جهة علوم النحو والصرف واللغة ، وقوم من حيث منافعها وأسرارها . ولكن هو يتكلم عما فيها من المعاني التي تليق بجناب الحق . وهذه المعاني التي سيقولها في الرسالة ألقيت على قلبه . وهاهنا بيت القصيد . وهو أن النقطة التي تحت الباء فيها السر كله ، منها تشتق الأسرار والعلوم . وأخذ يذكر أن من الحروف مالا يعرف إلا بالنقط . هكذا العوالم لم يعرفها لنا إلا الله . فالله الذي فصل العوالم به عرفت العوالم كما عرفت الحروف بالنقط . وهاهنا أخذ يتوسع في هذه المعاني ، وأخذ يبين أن النقطة في الحروف المهملة متحدة بالحرف كالألف والدال مثلا فلذلك لم تكن للألف نقطة والألف أقلها نقطتان . وهذا القول مأخوذ في علم الهندسة . يعرفه من قرأ مبادئها . ولما وصل إلى هذا أخذ يذكر أنها ظاهرة في جميع الحروف . فالجيم ألف معوجة الطرفين والدال منحنية الوسط ، وانتقل منها إلى أن الحقيقة المحمدية خلق العالم بأسره منها معتمدا في ذلك على حديث جابر وهو ليس من الصحاح فهو أولا يقول : إن النقطة في الحروف سواء أكانت منفصلة كما في الحروف المعجمة أو متصلة كما في الحروف

المهملة كالحق سبحانه وتعالى فهو مع كل أحد بكماله كما أن النقطة مع كل حرف بكمالها . ولما كانت الألف مركبة من نقطتين كانت كالحقيقة المحمدية التي ورد فيها ذلك الحديث المتقدم ، وأن الله خلق العالم كله من النور المحمدي ولذلك قدم الألف على جميع الحروف كما قدم صلى الله عليه وسلم على جميع الأنبياء .

ثم أخذ يجعل هذه النقط إشارات إلى أحاديث مثل : «ما رأيت شيئا إلا ورأيت الله قبله أو بعده أو معه» روايات ، ورجع ذلك إلى حال النقط المختلفة ، ومن النقط ماتكون بيضاء كالنقطة البيضاء في قلب الميم والواو وأمثالها ، وهذه نص عبارته ، فانه محل ما رأيت شيئا إلا ورأيت الله فيه ولهذا تجوف ، لأنه ظهر في جوفه شيء غيره ، فدائرة رأس الميم محل ما رأيت شيئا ، ونقطته البيضاء محل إلا ورأيت الله فيه ، والألف محل «إن الذين يبايعونك» الخ .

وأخذ يفصل الكلام في الحروف على هذا النحو وجعله فصولا ، ففصل مثلا لتطويل الباء بعد إسقاط الألف ، ثم آخر للصق الباء بالسين في البسملة ، وآخر يقول فيه : إن السين عبارة عن سر الله وهو الإنسان .

ثم أخذ يفسر الآيات من أول (يس) وآية آخر التوبة ، ثم رجع إلى الألف ، ثم إلى الميم ، ورجع إلى عددها بالجمل وهو ٤٠ وقال إن هذا العدد هو عين كمال الاعتدال في كل شيء ، وهو الموافق لعدد مراتب الوجود وهي :

ذات ساذج (١) العماء (٢) الأحدية (٣) الواحدية (٤) الألوهية (٥) الرحمانية (٦) الربوبية (٧) العرش : وهو الجسم الكلي (٨) القلم الأعلى : وهو العقل الأول (٩) اللوح المحفوظ : النفس الكلية (١٠) الكرسي : وهو العقل الكلي وقال هو القلب (١١) الهيولى (١٢) الهباء (١٣) فلك العناصر (١٤) الفلك الأطلس (١٥) فلك البروج (١٦) فلك زحل (١٧) فلك المشترى (١٨) فلك المريخ (١٩) فلك الشمس (٢٠) فلك الزهرة (٢١) فلك عطارد (٢٢) فلك القمر (٢٣) فلك الأثير (٢٤) فلك النار (٢٥) فلك الهواء (٢٦) فلك الماء (٢٧) فلك التراب (٢٨) فلك المولدات (٢٩) فلك الجوهر البسيط (٣٠) فلك العرض اللازم (٣١) المركبات : وهي المعدن (٣٢) النباتات (٣٣) الجمادات (٣٤) الحيوانات (٣٥) الانسان (٣٦) عالم الصور : منه ما يلحق بالدنيا (٣٧) عالم المعاني : منه ما يلحق بها البرزخ (٣٨) عالم الحقائق ، ويلحق بها القيامة (٣٩) الجنة والنار (٤٠) الكثيب الأبيض الذي يخرج إليه أهل الجنة .

هذه زبد الكتاب ، فلينظر شبان المسلمين في زماننا الذين يدرسون أمثال هذا التفسير حال الأمم الإسلامية المسكينة ، كيف حجبوا عن العلوم ، واضطر رجال الصوفية والصالحون أن ينتقلوا بهم من الجوهر إلى العرض ومن الحقيقة إلى المجاز ، ومن الأصل إلى الفرع ، ماهو الأصل ؟ هو هذا العالم ، هو المذكور في سورة الرحمن ، وهذا العالم تدل عليه الحروف ، والحروف لاحصر لأشكالها من اللاتينية والعربية والصينية والهيروغليفية وغيرها ، ولما كانت الحروف عندنا نحن المسلمين هي العربية قالوا هذه محل السر مع أن الشجر والحجر والقمر كلها جمال وأسرار ، وهذه جعلت لتدل عليها ، ثم انتقلوا من الحروف إلى الذات العلية وأخذوا يتفننون ، ومن أعجب هذا التفنن أن حرف الميم يشير من حيث شكله إلى حديث : «ما رأيت شيئا إلا ورأيت الله فيه» ومن حيث عده إلى أن مراتب الوجودات (٤٠) وهذا أمر عجب ؛ وهاهنا عمدوا إلى العلوم التي نقلت عندهم عن علماء اليونان ، والمعروف عندهم الكواكب السبعة وفلك البروج والفلك الأطلس فأتى بها كلها وزاد عليها أشياء كالذات الساذج والواحدية والأحدية ونحوها ، ثم كرر في بعضها فذكر المولدات وهي نفس المعادن والنبات والحيوان ، ومن العجب أن يجعل للعرض اللازم فلكا ويجعل المركبات هي المعادن مع أن هذا عند القدماء خطأ بل المركبات تشملها وتشمل الحيوان والإنسان ، ومن أعجب العجب أن يجعل الجمادات

قسما وحدها ، وهذه كلها خطأ محض فى التقسيم والتعليم ؛ وهذا دليل على أن القوم رحمهم الله كانوا يجتهدون ولو بطريق التقريب فى أن يجعلوا هناك معارف مبنية على هذه الحروف من حيث عددها مثلا ، لأن المراتب إذا كانت أربعين وعدد الميم أربعون أحدثت عند الجهال إيمانا وتصديقا ويقولون هذا من الأسرار ، ثم إذا ثبت فى ذهنه ذلك أصبح يرى أن كل العلوم قشور لاقيمة لها ، ويحتقر ماسوى ذلك ، ويعيش ويموت مؤمنا موحدا ، ولكنه يجهل مقاصد دين الإسلام ومقاصد الأنبياء وإن كان هو صالحا ، ثم يرى الأمة كلها دون مرتبته ، لأنه فهم حقائق الوجود والناس دونه ، وأن علماء الدين وشيوخ الإسلام محجوبون ، أما هو وأمثاله فإنهم الواصلون أو شبه واصلين .

أنا أقول إن القوم كانوا يكتبون ذلك وهم يتقربون إلى الله به ؛ وقد فعلوا ماقدروا عليه فى زمانهم ، وقد قلنا إن العلم هرب من الشرق إلى الغرب قبل ذلك بزمان ، فإذا كان موت الشيخ الجيلى رحمه الله فى أواخر القرن التاسع فذلك فى إبان سقوط دول الإسلام وقد فارق العلم بلادهم قبل ذلك لأن ابن رشد كان قبل ذلك بثلاثة قرون ؛ فإذا رحل العلم إلى أوروبا قبل هذا الكتاب بثلاثة قرون فأهل الصلاح معذورون إذا تفننوا فى بقايا العلم وألصقوها بالحروف الهجائية متبعين فى ذلك الباطنية الذين جعلوا الأسرار فى الحروف قبل ظهور حسن بن الصباح فى [قلعة الموت] فى أواخر القرن الخامس الهجرى كما قدمناه فى غير هذا المكان فكانوا يحسبون جملها ويجعلونها أسرارا مع أنها تقبل الضدين ، ولكنهم جعلوها آلة فى أيديهم يتصرفون فيها كما يشاءون (انظر هذا المقام فى سورة الكهف عند آية «وما كنت متخذ المضلين عضدا» ففى غضون الكلام هناك إشارة لبعض ذلك) .

الله أكبر : ظهر الحق واستبان السبيل ، نحمدك ياربنا ، نحمدك على التعليم ، وعلى تنوير أمة الإسلام فى زماننا . الله أكبر ، سيقوم الشبان بعدنا ويقرءون جميع كتب القدماء ، وينقدونها ، ويعرفون غثها من سمينها .

الله أكبر : إن هذا النوع من التعليم يربط القلوب ويقفلها فلا تقبل إلا ماكان من قبيل هذه الأحوال وما بعد ذلك وهم باطل ، بذلك ضاعت أمم الإسلام وذلت قرونا وقرونا ، وما أشبه هذا التعليم من حيث تحكمه فى العقول بما قدمناه فى (سورة سبأ) عند ذكر المهدى محمد بن تومرت ، ذلك العالم الذى أداه اجتهاده إلى أن المسلمين فى زمانه لايحكمون إلا بطريق الاعتقاد ، وأنه المهدى المنتظر ، وجعل له دولة وقال إن هذه الدولة ستبقى إلى آخر الزمان ، ويظهر المسيح عليه السلام ويقابل آخرها ، ولكن هذه الدولة دالت بعد نيف وقرن من الزمان ، انظر قصته هناك فى (سورة سبأ) كما قدمناه ، ولكن هناك نقطة لم تتضح ، فسأذكرها هنا ليظهر للمسلمين فى زماننا كيف كان يحكم آباءهم ، وكيف كان الشيوخ لايجدون طريقا لحكمهم إلا إبهامهم ، وهذا الإبهام يتناقله الحكام بطرق مختلفة ، ويتناقله كثير من الصوفية إلى الآن اعتقادا منهم أن هذا أمر لابد منه فإذا رأينا المهدى محمد بن تومرت يقتل سبعين ألف مسلم لأنهم على خلاف رأيه بالحيلة والخداع . فهكذا نرى الأساتذة المحترمين فى الأمة بعد ذلك يعمدون إلى ألفاظ من العلوم ويجعلونها فى كتاب ويربطونها بالبسملة ، وينشرونها باسم أنها أسرار فيربطون القلوب ويقرؤها الجهال من أيام تأليفها إلى الآن أى فى مدة ٤ قرون ونصف قرن وهم يظنون أنها علوم ولا علم فيها وإنما هى أخلاط وضعت معابهامها للطلاب أنها أسرار ، وإذا نجح المهدى محمد بن تومرت فى أنه نظم دولته والدولة نفعت الناس ثم انتهت ، وإذا نجح الجيلى رحمه الله فى كتابه ، وأن الناس قرءوه وآمنوا بالله ، وناموا على ذلك وهم جهال بكل علم وفن فليس معنى هذا أن ذلك ينفع فى زماننا . كلا والله . فلالحا كم الذى يغشنا بالوهم اليوم بمغن فتيلا كملوك بنى عثمان

فى أواخر

فى أواخر أيامهم ، ولا ذلك الذى يدعى أنه واصل لله تعالى وهو خال من علوم الحكمة بصالح أن يقود أمم الإسلام الآن .

لاظلم اليوم يا أمم الإسلام . أيها المسلمون : أنا فى هذا المقام قرنت إيهام المهدى محمد بن تومرت بإيهام الملوك العثمانيين فى أواخر الدولة . وإيهام شيوخ الصوفية كالجيلى رحمه الله ، لأن العلم والحكم من وادواحد فالحاكم لايقدر على إيقاع الوهم على العلماء وإنما الوهم يقع على الجهال ، ولقد جمع الأمرين معا المهدى محمد ابن تومرت الذى اجتهد فاخطأ ، وهاك بعض حديثه الذى أشرت إليه من كتاب (زحلان) تحت عنوان (ذكر قيام محمد بن تومرت أنه المهدى المنتظر) إذ ذكر أنه من جبل السوس ، وادعى أنه شريف علوى حسنى . قرأعلوما بالمغرب وارتحل إلى المشرق ، وقابل الإمام الغزالى رحمه الله ، ورأى مرتين أنه شرب ماء البحر ، فقام فى نفسه أنه المهدى ، فأخذ فى الزهد وفى الذكر والعبادة ، وكان يقتصر على رغيف كل يوم وعلى الزيت ، ومن أتباعه عبد الله الونشريسى ، وكان هذا عالما متضلعا فى العلوم ، فأمره أن يكتم ماعنده من العلوم ، وأن يجعل نفسه أصم أبكم كالمجاذيب حتى يأتى الوقت الذى تظهر فيه علومه كمعجزة لتتميم مايريده ، فبقى أبكم بين الناس أبله ، ولعابه يجرى على صدره ، ولايتكلم إلا مع الشيخ فى خلوته ، ثم إنهم دخلوا مراكش وأثاروا ثائرة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . وجعلوا ذلك ذريعة لقلب الدولة وحضر بين يدى أمير المسلمين فى مراكش ، وكان وزيره مالك بن وهب رجلا حازما فأشار على أمير المسلمين بقتله لأنه لايريد بالوعظ إلا الملك ، ولكن الملك عفا عنه ، وذهب هو ومن معه إلى السوس ، وذلك سنة أربع عشرة وخمسمائة ، وكان من أمره ما كان ، وتقدم ذكره فى (سورة سبأ) وقد بقيت دولتهم نحو مائة سنة وكانوا يزعمون أن هذه الدولة ستبقى حتى ينزل عيسى ابن مريم وأنه هو المهدى المنتظر إلى آخر ماهناك .

ولقد كان من أصحاب المهدى عمر بن يحيى الهنتاتى ، قيل إنه ينتهى نسبه إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنه صار بعد المهدى من وزراء عبد المؤمن ، وأعطى بنو عبد المؤمن أولاد عمر المذكور ولاية تونس فكانوا يسمون الحفصيين ، استمر ملك تونس فيهم إلى سنة تسعمائة واحدى وثمانين ، فانتزع الملك منهم الدولة العثمانية ، وكانوا يلقبون بالحفصيين ، وكانت مدة ملكهم تونس ثلاثمائة وثمانية وسبعين سنة ، وهم من فروع دولة محمد بن تومرت ، واختلف الناس فى أمر ابن تومرت فقال بعض العلماء : إنه أراد إظهار الحق فاجتهد وأخطأ ، وقال بعضهم . إنه كان على الأمة شرا من الحجاج ويزيد ، والله أعلم بحقيقة الحال اهـ .

ملخص هذا المقام : أن الرحمة التى ذكرت فى بسملة ﴿ سورة الرحمن ﴾ يدخل فيها عجائب السموات والأرض وما بينهما المذكورات فى السورة ، وفيها كيفية تعليم الإنسان ، لأن السورة مبدوءة به ، وأنه يكون بالتدريج الأعم فالأخص ، وأن هذه الطريقة ذكرها ابن خلدون ، وأقول الآن : إن إخواننا رجال (دار العلوم) قد اتبعوها فى تعليم اللغة العربية ونجحوا ، وقلبوا تعليم الأمم الإسلامية فى ذلك ، وإذا كانت رحمة الله عز وجل قد انتشرت فى زماننا فى طريقة التعليم ، فقد ذكرنا عما كان عليه التعليم فى القرون المظلمة الإسلامية أيام أن طردوا العلم فقل من بينهم ، فأتينا بكتاب (الكهف والرقيم ، فى شرح فوائد بسم الله الرحمن الرحيم) للجيلى رحمة الله عليه ، فرأيناه رجع المعارف كلها إلى باء البسملة ، ثم إلى نقطتها والنقطة فى مقابلة الذات العلية إلى آخر ماقال وانتهى أمره إلى الميم من البسملة ، فأدخل فى عددها وهو ٤٠ مرتبة ، وهذه المراتب عبارة عن الكواكب المعروفة فى زمانهم ونظام طبقات العوالم على حسب ذلك الزمن مع تحريف وتكرار واختلاط ، فذكرنا نظام هذا العلم بنظام الملك فوجدناهما فرسى رهان ، فالملوك العثمانيون فى أواخر أيامهم يوهمون الشعوب بعظمتهم الجوفاء فى قصورهم ، وبعض رجال الصوفية

والمهديين يستحلون الأكاذيب مجتهدين خطأ أن هذا هو الباب الموصل لحفظ الأمة فى زمانهم . ولكن الأمة الآن قد أخرجها الله من هذه الجهالات والظلمات ، ومتى استنارت بالعلم طردت كل دجال فلا يملها ولا يحكمها لأن الحق أحق أن يتبع .

لقد كان أمثال المهدى محمد بن تومرت ومن ماثله (من المذكورين فى سورة الشعراء عند ذكر السحر وهم الشعوذون الذين اتخذوا الشعوذة سبباً فى الملك) أشبه بالطبيب يستعمل كى للمريض ، فترى ابن تومرت يردم البئر على الثلاثة الذين شهدوا للونشريسى وأعدم سبعين ألفا قتلا ظلما ليكون أتباعه كالغنم تتبع راعيها وهكذا فعل (حسن بن الصباح) فى قلعة الموت بجهات أصبهان ، فكان يحرم على أصحابه العلم ليبقوا جهلاء والله يقول : « الرحمن علم القرآن ، خلق الإنسان ، علمه البيان » وهكذا فعل ملوك العثمانيين إذ منعوا العلم عن المسلمين ، وقد أخبرنى شاب حجازى منذ أيام فى هذه السنة ١٩٣١ م الموافقة سنة ١٣٥٠ ﻫ أنهم ماعرفوا شيئا من العلم ، ولامن أخبار العالم ، ولامن اللغة العربية التى هى لغتهم إلا بعد ذهاب دولة السلطان (حسين الهاشمى) لأنه كان أولا تابعاً لتركيا ، وهى أوجبت أن لايقرأ النحو إلا باللغة التركية ، وبعد أن خلع طاعتها حرم الجرائد ، ولما زالت تلك الدولة تعلم الناس وقرءوا الجرائد ، هكذا أخبرنى ، فالإنسانية فى مثل هذه الحال تتنزل إلى درجة تحت درجة الحيوان فى النظام ، لأننا قرأنا نظام جمهوريات النمل والنحل مثلا فلم نعثر على هذه الضلالات والأكاذيب والخداع ، إذن الإنسان أمكنه أن يعيش وهو أدنى من الحيوان منزلة مع بقاء عقله محفوظا ولكنه مغمور فى الجهالة ؛ وهذه الحال التى عاش بها المسلمون قرونا بعد العصور الأولى جعلها الله درسا للمسلمين الذين يأتونا بعدنا ، وهذا التفسير قد جعله الله مملوءاً من العبر والمبتدأ والخبر ليكون تذكرة لهم فلن يقعوا فيما وقع فيه آباؤهم ، ولن يضحك عليهم أحد بعد اليوم ، وسيتعلم الرجال والنساء ، ويدرسون علوم الأمم ولغاتهم كل بحسب طاقته ، فالرحمة هنا من وجهين :

الوجه الأول : أن الأمة مع جهلها أمكنها أن تعيش وإن كانت فى نظامها أنزل من نظام الحيوان .

الوجه الثانى : أن هذه الشقاوة التى حلت بالآباء بسبب الجهل تكون مهمازا يسوق الأبناء إلى العلم الصحيح ، والحكم الصحيح ، والتباعد عن الدجل والكذب والبهتان .

إن الأمة تعتبر كلها أولها وآخرها كنفس واحدة شاء الناس أم أبوا ، فخطأ الآباء يحترس منه الأبناء ، وعلم الآباء نافع للأبناء ، الأمة الواحدة فى نفس هذه الحياة نفس واحدة ، فتراها فى الحرب وفى النصر ، وفى العز وفى الذل مشتركة ، ويظهر لى أن هذا النوع الإنسانى يربى فى هذا العالم وفى عوالم أخرى فى البرزخ ليصل إلى درجة أن تكون الأنفس كلها نفسا واحدة ، وأهل الأرض اليوم جهال بهذه القضية منشأ كون والله هو الولى الحميد ، وهو حسبنا ونعم الوكيل ، ولاحول ولاقوة إلا بالله العلى العظيم ، وهذه من أسرار التعليم فى قوله تعالى : « الرحمن علم القرآن ، خلق الإنسان ، علمه البيان » كتب ليلة الجمعة ١٥ جمادى الأولى سنة ١٣٥١ هجرية ، وفرغت منها بعد نصف الليل .

بهجة العلم فى هذا المقال وهو تفسير البسملة فى سورة الرحمن

لقد لخصت الكتاب الذى ألفه (الجيلى) رحمة الله عليه منذ ٤٥٠ سنة تقريبا ، فظهر منه أن العلم إذ ذاك عبارة عن بقايا علوم وآثار منها وأشتات ، فإنه ذكر رءوس المسائل الفلسفية القديمة مثل الأفلاك التسعة المعروفة عندهم ، وترتيب العالم السفلى ، وهذا ملخص الفلسفة القديمة مع انضمام المعدن والنبات والحيوان فضم ذلك كله بالاسم لابالشرح ، وزاد عليه ألفاظا مبهمة وجعلها مراتب الوجود ، والأمم الإسلامية فى هذه القرون تجهل علم الفلسفة القديم لأنها معتاصة وفائدتها ضعيفة ، ولأن الترك إذ ذاك تحت إمرة

بنى عثمان قد قتلوا الأمم الإسلامية تقتيلا ، وأناموهم فناموا نوما عميقا ، لذلك أخذ المتعلمون منهم ذلك باعتباره سرا مصونا ، وماهو بالسر المصون ، وإنما هى كلمات من شظايا العلوم أضيف إليها شظايا من آراء الباطنية ، وهى الحروف وأسرارها ، وضم هذا إلى ذلك ، ووصل به آيات قرآنية ، وأضاف إليه معرفة الله بواسطة الألف ومابعدها من الحروف ، وجعل ذلك أشبه برموز ، كل ذلك إبعاد المسلمين عن معرفة الله بالعلم والحكمة ، وزحزحتهم عن الطبيعة الجميلة إلى حروف صنعها الإنسان ، وماهى الحروف ؟ إن هى إلا رسوم دونها قدماء المصريين وتبعهم اليونانيون فالأمم كلها كاللاتينيين والعرب ، ألم تر إلى الميم فإنها عند قدماء المصريين على صورة البومة ، وإلى التاء فإنها مأخوذة من حية سامة ، وترى حرف الميم فى العربية ، وفى اللغات الفرنجية له نوع شبه بالبومة وكذا التاء بالحية ، فهل فى شرعة الإنصاف أن ينحاز المسلمون إلى رسوم اخترعها الإنسان ويبتعدوا عن صنع ربهم ! ويجهلوا مواطن حياتهم ومعرفة ربهم ، ألا ساء مثلا القوم المتأخرون .

رباه ، رباه : فهمنا والله ماحاق بنا من الجهل ، أنت رحمن وأنت رحيم ، علمتنا العلوم ومنها القرآن . إننا معاشر المسلمين فى جهلنا العلوم فى القرون المتأخرة أشبه بالأمم كلها فى جهلها المركب فى أمر المآكل . الناس يأكلون الطعام مطبوخا ، وهذا كأنه إجماع النوع الإنسانى وهو خطأ فاحش أظهره الأطباء فى زماننا إذ يقولون إن النار تضيع منه قوة الحياة ، إذن كل ماطبخ من الطعام ، أوقلى أوشوى صار فى ذهاب قوة الحياة منه على رأى الأطباء فى زماننا أشبه بكل ماهو متعفن ، أوأصبح نبيذا أوخمرا ، فإن الأطباء اليوم بالإجماع يقولون بضرر ذلك كله ، إذن كل ماغير الطعام غالبا ضار بالإنسان ، بل الفاكهة والخضر التى ليست طازجة تقل منفعتها .

هذا ملخص كلام الأطباء فى زماننا ، ولقد شرحته عشرات المرات فى هذا التفسير ، فهكذا أمور دين الإسلام ، إن المسلمين فى القرون المتأخرة جهلوا العلوم ومقصودها ، فراحوا ينبذون ماهو النافع منها ، ويكتفون بالحثالات والقمامات والفضلات والرجيع والفتات فتركوها للناس فعاشوا بها زمانا ونسوا عهد آبائهم حتى إذا أراد الله ظهور المجد الإسلامى أظهر العلم كرة أخرى ، وعلمنا تلك العلوم فبحثنا فألفيناها على ماذكرناه فبيناها فى هذا الكتاب .

واعلم أن من رحمة الله الواسعة ما تقدم فى أول (سورة القتال) من صور الحشرات المرسومات هناك التى تعيش على العفونات ، فإذا كان الله واسع الفضل حليما فانه لا يذر العفونات ولا الرطوبات بلا فائدة بل خلق لها خلقا يلائمها ويناسبها بها يعيش كما خلق عقولا فى الإنسان نسبتها إلى العقول العالية فيه كنسبة الحشرات إلى أعلى الحيوان تعيش بالغيبة والنميمة والآراء الجزئية ؛ فهكذا فى الأمم الإسلامية المتأخرة لما حرمت العلوم والمعارف سخر الله لها من جمعوا لها قمامات العلم فعاشوا عليها عيش الحشرات على العفونات ، وعيش صغار العقول من الناس على الأحوال الجزئية ، والأخبار العادية ؛ سنة الله فى خلقه ، وهو الرءوف الرحيم .

واعلم أيدك الله أيها الذكى أن الشيخ الجيلى وأمثاله قوم صلحاء يريدون الخير بالأمة ، وقد كتبوا مارأوا أنه خير فى زمانهم ، وبكتابتهم صلح قوم وصاروا أتقياء ، ولكن ليس ذلك يمنعنا من أن نظهر الحقيقة ، ونقول هذه ليست والله بأسرار هى نتف من العلوم ، وها هى ذه العلوم فلتدرس نفس العلوم لا بقاياها ورجيعها وقماماتها ؛ فمن ذا الذى يكتفى من الفاكهة بقشرها ، أو من الكتاب بعنوانه ، أو من الجوهر بالعرض ، فرحم الله الجيلى ، ورحم الله علماء الإسلام والصوفية أجمعين ؛ ولكن الاحترام لهم شىء والرجوع إلى الحقيقة شىء آخر ، وحسن النية ليس كل شىء ، فلابد من العمل كما لابد من النية ، وهم لم يكن لديهم

من العلم إلا ما رأيته من رموز وإشارات ترجع إلى علم الفلسفة القديم ، وقد جاء فى هذا الكتاب قديم الفلسفة وحديثها ، فالحمد لله إذ وفقنى لهذا الكتاب ، أتركه للمسلمين بعدى ، وقد فك قملا عقالهم وانطلقوا يقرءون علوم الأمم . وإلى هنا تم الكلام على القسم الأول فى تفسير البسملة والحمد لله رب العالمين .

كتب يوم الأحد ٢٩ نوفمبر سنة ١٩٣٠ م .

مقدمة فى مناسبة هذه السورة لما قبلها

اعلم أن السور المتقدمة من (سورة ق) إلى (سورة القمر) قد مر فيها الكلام على العالم العلوى والسفلى ، فهو فى سورة ق حث على النظر فى السموات والأرض ، وبناء الأولى وتزيينها ، وأنها لا فروج فيها ، وفى الثانية لفت النظر إلى مدها ، وخلق الجبال فيها ، وإنبات النبات فيها ، وجعلها بصائر لذوى العقول ، وذكر المطر وما يترتب عليه من الجنات والحب والنخل ، وتحبيب الثمر وعموم نفع هذه المخلوقات لنوع الإنسان . وفى (سورة الذاريات) خصص المطر المذكور فى (ق) والرياح بالذكر ليحث الناس على دراسة الآثار العلوية من رياح ومطر وكيف تهب ، وما سبب هبوبها ، وما آثاره ؟ وجعلها فى صورة القسم تعظيما لعلمها ، وتفخيما لقدر العالمين بها . وفى (سورة الطور) عمم القسم بما فى السماء وما تحت الأرضين ، من بيت معمور ، وسقف مرفوع ، وبحر مسجور ، وبما بينهما من علم منشور ، وحكمة مأثورة ، وآيات مقروءة ، ودروس معلومة ، ومدنية مشكورة ، فأصبح بهذا العلم بكل شىء مطلوبا ، والنظر فى الحقائق كلها مرغوبا ، وفى (سورة النجم) ذكر إبداع الوحى ، وعجائب الخلق ، إذ لم يبق بعد ذكر العوالم كلها علويها وسفليها ، وإعظام قدرها وقدر العلم بها والعالم بها لما أن الله أقسم بها إلا أن يذكر أول نفس عالمة بها ، قارئة لنظامها ، مطلعة على بدائعها ، تشويقا للنفوس ، وتعليما للأمم ، فأبان أن نبينا صلى الله عليه وسلم اطلع بطريق الوحى لا بطريق التعليم على آيات ربه الكبرى ، وقد رأى ما لم يره أهل الأرض قاطبة من عجائب الله ، فأول سورة النجم أشبه بضرب مثل لمن علم ذلك من أهل الأرض ، كأن الله عز وجل يقول : أضرب لكم مثلا بنبى آخر الزمان ، فقد اطلع على ما يمكن أن يصل إليه أعلى إنسان فى الأرض ، وانتهى إلى سدرة المنتهى ،

فأما ما وراء ذلك فإنه خاص بى ، ولما أن ضرب هذا المثل وضحت مسألة العلوم والتخيل فلم يبق إلا الإنذار لمن هو غافل عنها ، فجاءت سورة القمر التى أعقبت سورة النجم للمناسبة اللفظية والإشراقية على سبيل الترقى ، فأبان فيها أن الغافلين من أهل الأرض يجب أن ينذروا باقتراب يوم الحساب فيقال لهم : أيها الناس : إذا غفلتم عما أوضحناه ؛ وعن العلم الذى ذكرناه ، وإعظام العالمين به ؛ فإنى أنذركم يوم الحساب وقربه ، والدليل على ذلك ما ترون من انشقاق القمر من الأرض كما قاله علماء العصر الحاضر ، وعثل لذلك بانشقاقه على جبل حراء واطلاعكم عليه ، فإن هذا كمقدمة ليوم الحساب : « يوم تنشق السماء فتكون وردة كالدهان » :

ولا ريب أن ذكر الساعة لا يراد منه إلا تخويفهم وزجرهم بقرب تلك الحقائق ومقدماتها ؛ فهم يزجرون بالقيامة وعذابها وبعذاب الدنيا ، فإن من كان فى هذه أعمى فهو فى الآخرة أعمى وأضل سبيلا ، والجاهل فى الدنيا جاهل فى الآخرة ، والأمم الجاهلة فى الدنيا جاهلة يوم القيامة ، فاقتراب القيامة يتقدمه انشقاق القمر قديما ، أو زمن النبوة . فهاهنا أمران : ساعة تقترب ، ومقدمات تسبقها ، ولذلك جاءت أحاديث

قوم

قوم نوح وعاد وثمود ، وقوم لوط وآل فرعون ، متفقات على أن العذاب فى الدنيا يتبعه العذاب فى الآخرة على وفاق ما فى أول السورة من اقتراب الساعة ومقدمتها انشقاق القمر (وبعبارة أخرى : إن العذاب مبدؤه فى الحياة ونهايته فى الآخرة التى لانهاية لها، فاذا ذكر الله اقتراب الساعة وتقدم انشقاق القمر عليها كالمقدمة لها فهكذا ذكر قصص الأولين وكيف أتبعوا فى هـذه الدنيا لعنة ويوم القيامة ، ثم أتى بما هو كالنتيجة لذلك من أن كفار مكة سيهزم جمعهم ويولون الدبر ، وأن الساعة موعدهم . والساعة أدهى وأمر ، ثم جعل ذلك كله فى قاعدة وهى « وكل أمر مستقر » وأخرى وهى «إنا كل شىء خلقناه بقدر» أى إنا خلقنا كل شىء مرتبا مقدرا على مقتضى الحكمة : وجعل تلك القصص بينهما مصوغة من الحكمة البالغة ، ومن الأمور المرتبة ، ومن استمرار كل أمر ، فإذن تكون نتيجة هذا كله وأوله وآخره أن هناك قانونا عاما . وهو أن كل أمر يسير إلى غاية لايتعداها ؛ فمن كان فى هذه أعمى بالجهالة فهو فى الآخرة أعمى بالندامة والعذاب الأليم ، وهذه هى الحكمة التامة والنظام الأعلى بحيث يشمل العالم كله أوله وآخره ، فإذا كان الجاهل هذا شأنه أتبعه بالعالم فقال « إن المتقين فى جنات ونهر فى مقعد صدق عند مليك مقتدر » فوصف المتقين بأنهم منعمون فى الجنات والأنهار ، ثم أخذ يرتقى بهم فى المعارف والعلوم رجوعا إلى ماذكر فى السور السابقة فقال هم أهل أن يكونوا فى مقاعد صدق مقربين عند ملك تعالى أمره فى ملكوته ، وعظم اقتداره فى خلقه ، ومعلوم أن ملوك الأرض الضعاف لايحظى بالقرب منهم غالبا إلا الذين نالوا حظا عظيما من الأخلاق ومن العلوم ، فكيف تكون حال من يحظى بالقرب من ملك الملوك ، إن ذلك يكون فى أعلى درجات العلم والحكمة والأخلاق، وكلما كان أعلى منزلة علية كان أقرب إلى رب البرية، وهاهنا آن الأوان أن نبحث فى (سورة الرحمن) ومناسبتها لما قبلها من سور القرآن ؛ هاهنا أخذ يبين الصفات التى تؤهل المتقين ليكونوا فى مقعد صدق عند مليك مقتدر ، لذلك أخذ يشرح ما صنعه ذلك المليك المقتدر وما أفاده برحمته لأهل الأرض فأفاد أنه (أولا) علم القرآن إذ أنزله على محمد صلى الله عليه وسلم ، وهو بلغه لأمته ، ولاجرم أن ماأوحى به إلى النبى صلى الله عليه وسلم أصبح يرثه الخلف عن السلف جيلا بعد جيل ، وهذا من رحمته (وثانيا) ذكر خلقه للانسان، ونظام جسمه ، وعجائب اتقانه (وثالثا) أبان أنه علمه النطق وإفهام غيره وهذا لايتم إلا بنفس وعقل وعجائب تقدم كثير منها فى التفسير (ورابعا) أبان تسخير الشمس والقمر ونحوهما له (وخامسا) أبان تسخير الزرع والشجر له (وسادسا) أبان أنه رفع السماء، وأقام الخلق بالحكمة والنظام (وسابعا) ذكر الأرض وما فيها من النخل والفاكهة، ومايشم منه رائحة طيبة (وثامنا) خلق الإنسان من طين مطبوخ (وتاسعا) خلق الجان من نار (وعاشرا) كونه رب مشرقى الصيف والشتاء ومغربيهما (وحادى عشر) أنه أرسل البحر الملح والحلو متجاورين لايختلطان ، (وثانى عشر) أن اللؤلؤ والمرجان يخرجان من البحر الملح والحلو (وثالث عشر) السفن الجاريات فى البحار (ورابع عشر) أن كل هذا سيفنى ويبقى وجه الله (وخامس عشر) أن كل أهل السموات وأهل الأرض مفتقرون إليه فيسألونه .

فهذه هى النعم التى ذكرها الله لنا وتوابعها ولوازمها ، ولكنه لم يذكرها بدون أن يقدم فى أولها أنه علم القرآن ، وأنه علم الإنسان البيان ، وهذا الإنسان المتصف بذلك قد ذكر عقب قوله : «فى مقعد صدق عند مليك مقتدر » فكأنه يقول : إن المليك المقتدر الذى يكون لكم مقعد صدق عنده هو نفسه كثير الرحمة ، وأهم شىء من الرحمة أن تقرءوا العلوم التى رمز لجلها بالقرآن ، فهذا الملك المقتدر الذى أنتم ستكونون فى حضرته وتقربون من مقامه كثير الرحمة للعباد . أنزل لهم الكتب السماوية وأهمها هذا القرآن ليقرأه الناس ، وإنما أنزله لهم لأنهم مخلوقون على هيئة تقبل علومه ، ألم تر أنه قد ألهم لغات يبين بها مراده

وأعطى علوما عقلية وغيرها ليبرزها ببيانه، ويقرأها بلسانه، ويحفظها بجنانه، فإذا كان هذا شأن الإنسان الذي يرجى أن يكون له مقعد صدق عند مليك مقتدر، فمن حقه أن يقرأ علوم هذه الكائنات فيدرس الفلك ونظامه، والتشريح وأحكامه، والشجر وأكمامه، والأرض وعجائبها، والمزارع وغرائبها، وأصول الإنسان وغرائب عالم الأرواح، والبحار وماءها، وما جرى فوقها من سفن، وما نبت تحتها من المرجان أو الدرر الحسان، وأن يبحث هذا العالم بحثا مدققا حتى يعلم أنه كله ذو افتقار إلى من يعينه ويحفظه ويبقيه

إن الإنسان إذا كان مقعده صدقا عند مليك فعليه أن يتخلق بأخلاق الله، وأخلاق الله الكمال المطلق فليكن كاملا على قدر إمكانه، ألا ترى أنه وضع الميزان والنظام العام لأجل أن لا نطغى في ميزاننا، وزن كل شيء وقدره تقديرا من حركات الأفلاك ونظام النبات والأشجار والأزهار والأوراق ونظام الأثمار وهيئاتها وطعومها لأجل أن نقدر الأشياء وزنا وكيلا ومساحة وشهادة بالأقوال الصادقة والشهادات الحقة والموازين المنتظمة، والمكاييل التامة، فيفعل كما فعل، فاذا رأيناه نظم حركات الأفلاك فلننظم حركاتنا، وإذا رأيناه هندس وزوق الأشكال فلنحسن ظواهرنا. وإذا رأيناه جعل كل نبات وكل حيوان بمساحة خاصة ووزن خاص وقدر معلوم فلنعامل في بيعنا وشرائنا بالمكاييل والموازين والمقاييس الحقة، فهذا هو الصدق الذي نتصف به حتى نستعد أن نكون في مقعد الصدق. ومن جلس في مجالس الملوك وهو غير أهل لها نبذوه وطردوه.

تفيد (سورة الرحمن) أن العلوم كلها من خصائص الإنسان من كواكب محسوبة. وشموس منتظمة المسير. وأقمار بديعة، وكواكب مضيئة. فالحساب فيها لا يعرف إلا بالحساب والهندسة والجبر. وذكر الشجر والنجم والنخل والفاكهة والرياحين المشمومة يرجع لعلم النبات. وذكر خلق الإنسان يرجع لعلم النفس والتشريح. وذكر الأرض يتضمن المعادن. وأما علم الحيوان فهو مفهوم من المقام إذ الحيوان بين النبات والإنسان، والحيوان خادم الإنسان مخدوم بالنبات فكأنه ذكر بذكر الطرفين. ولم يبق من العلوم الفلسفية في سورة الرحمن إلا علوم الطب والبيطرة والكيميا وخواص المادة وما أشبه ذلك. وكل هذا يرجع إلى ماهو مذكور. فعلم الزراعة وعلم الطب وعلم البيطرة للنبات والانسان والحيوان. فالعلوم كلها تضمنتها هذه الآيات. وقد صرح فيها بالسفن وبالمرجان وباللؤلؤ. وبالاختصار إن الله أبان أن هذه العلوم كلها من رحمة الله. وأنه هو الذي غرس في قلب الإنسان حبها، والغرام بها، وهيأه لمعرفتها، ولا جرم أن ذلك يؤهل الإنسان لمقعد الصدق عند مليك المقتدر، وليس معنى هذا أن كل واحد في الأمة يعرفها بل يكون لها شيوع في الأمة، ويكون لكل طائفة اختصاص بعلم من العلوم ودراسة طائفة من تلك العلوم باعتبار أنها فرض كفاية وكل علم من العلوم له نفع، وكل صناعة لها فائدة في كل جيل من أجيال الإنسان يحرم على المسلمين أن يهملوه بحيث يأثم الجميع إذا لم يكن فيهم من يقوم به ويكفيهم أمره، وهذه هي مصيبة أمة الاسلام الآن. وإليه الإشارة بقوله: « خلق الإنسان علمه البيان » فالمقصد المجموع لا كل فرد فإن هذا مستحيل ولتتعلم الطائفة الخاصة الراقية من كل فن طرفا، وليختص كل بفن بعد ذلك، ذلك هو الصراط المستقيم في سعادات الأمم، انتهى الكلام على المقدمة.

القسم الثانى فى عجائب عالم الدنيا

التفسير اللفظى

بسم الله الرحمن الرحيم

(الرحمن ، علم القرآن ، خلق الإنسان ، علمه البيان) أى علم محمدا القرآن ومحمد علم أمته ، خلق جنس الإنسان وميزه عن سائر الحيوان بالبيان ، وهو التعبير عما فى الضمير وإفهام الغير لما أدركه. وهذه الجمل الثلاث خلت من العاطف وجعلت أخبارا مترادفة للرحمن على نهج تعداد النعم كما تقول زيد أغناك بعد فقر ، أعزك بعد ذل ، كثرك بعد قلة ، فعل بك مالم يفعله أحد بأحد ، فما تنكر من إحسانه ، كأن كل واحد من هذه المعدودات يصح أن يكون كافيا فى حفظ الجميل ، وإنكاره وحده كاف فى نعت المنكر بكفران النعمة (الشمس والقمر) يجريان (بحسبان) بحساب معلوم مقدر فى بروجهما ومنازلهما ، وعلى مقتضى هذا النسق تنتظم أمور المخلوقات السفلية والفصول والسنون وجداول الحساب ، ولما كان النبات الذى ينجم من الأرض المسمى بالنجم ، وهو مالاساق له ، والشجر وهو الذى له ساق (فالأول كالحنطة والثانى كالنخل) من جملة العوالم المرتبة على سير الشمس والقمر وحسابهما ، وبذلك الحساب انتظم أمر سائر النبات بحيث يزرع فى فصل مخصوص ، ويحصد ويؤخذ ثمره فى فصل مخصوص، وينمو على مقتضى حركات الشمس والقمر والنجوم أردفه الله تعالى بذكر ذلك فقال (والنجم والشجر يسجدان) ينقادان لله فيما يريد منهما طبعا كما ينقاد المكلفون اختيارا ، وهذا الانقياد ظاهر ، ألا ترى أن الشجر والزرع لا يخرجان عن نظام سير الكواكب ، ولايفترقان عن نهج الشمس فى مسيرها ، ثم انظر أيضاً كيف كان الشكل والهيئة واللون والمقدار والطعوم والروائح جارية بقدر ، سائرة لغاية ، كل هذا سجود وطاعة للمسخر الذى نظمها .

واعلم أن ظاهر النظم يقتضى أن يقال : « علمه البيان » أجرى الشمس والقمر بحسبان ، أسجد النجم والشجر ، ورفع السماء ، ووضع الميزان الخ ولكنه عدل عنه ليمتاز البيان عن المبين (بالفتح) .

وإيضاحه أن النوع الإنسانى عرف اللغات والفهم والافهام ، وأودع فى غريزته الاستعداد لكل العلوم، فاللغات المختلفة فى الأرض التى أبلغها بعضهم إلى أربعة آلاف لغة كلها علمها الله للانسان للبيان والفهم والافهام ، فلكل قوم لهم لغة ، ولكل قوم كتابة ، فماذا يكتبون ، وماذا يقرءون، وما الذى عنه يعبرون ؟ فلذلك ذكر الشمس والقمر ومابعدهما تبيانا للمعبر عنه والمبين بعد أن ذكر البيان ،هذا هو السبب فى تغيير نظم العبارة ، وإنما بدأ بالشمس لأنها مبدأ الحياة على وجه الأرض وبدونها لاحياة فيها كما تقدم شرحه (والسماء رفعها) خلقها مرفوعة محلا ومرتبة (ووضع الميزان) العدل والنظام الذى مر شرحه فى أغلب سور القرآن بحيث كان حساب سير الكواكب ، وحساب أجزاء النبات الداخلة فى تركيبه ، وحساب الأحجار الساقطة المحسوبة بالتربيع كما تقدم فى (سورة آل عمران) وحساب الجسمين المتجاذبين كالفلينتين على سطح الماء المتقاربتين بحساب التربيع أيضا وحساب البندولين المختلفين طولا بحيث يكون الأقصر أسرع اضطرابا من الأطول على نسبة عكسية تربيعية ، وهكذا مما شرحناه لك فى هذا التفسير وهكذا نظريات (نيوتن) و (كلبير) التى أبانت المثلثات المساحية عند جرى الكواكب بحيث تكون متكافئة فى الأزمان المتساوية

مع اختلاف الأقواس المقطوعة صيفا وشتاء ، فيكون القوس الذى تقطعه الشمس فى الشتاء وهى مسرعة أكبر من القوس الذى تقطعه فى الصيف وهى فى الرأس مبطئة مع أنهما متساويان مساحة كما تقدم فيها أيضا موضحا مرسوما فارجع إليه ، كل هذا وكل علم الفلك ، وكل علوم الطبيعة ، وكل نظام الموسيقى الذى تقدم فى (سورة يوسف) وكل قواعد العلوم ، وكل قواعد الشعر التى تجرى على نسق واحد موسيقى كما فى بحر الطويل إذا لم تدخله العلل ولا الزحافات يكون ١٢ سببا و ٨ أوتاد، والمجموع ٤٨ حرفا، والسواكن بالنسبة للمتحركات هكذا ٥ – ٧ – ١٠ – ١٤ – ٢٠ – ٢٨ – فتكون المتحركات ٢٨ والسواكن ٢٠ ، ومعلوم أن حاصل ضرب الوسطين يساوى حاصل ضرب الطرفين ، كل ذلك داخل فى الميزان ، إن الميزان هنا لا يفهمه إلا من درس جميع العلوم ، ومن قرأ هذا التفسير كله فقد عرف الميزان، وإذن يكون فى مقعد صدق عند مليك مقتدر ، وقوله (ألا تطغوا فى الميزان) أى لئلا تطغوا فيه[1] ولا تعتدوا ولا تجاوزوا الإنصاف ، فإذا نظمنا ملكنا بحيث جرى على تلك النسبة المنظمة . فإن ذلك يدعوكم لنظام أعمالكم اقتداء بسنتنا ، وسعيا فى رقى نظامكم ، وتحسين أعمالكم وأخلاقكم (وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان) ولا تنقصوه فإن من حقه أن يسوى ، لأنه المقصود من وضعه ، وإنما كرره مبالغة فى التوصية ، ولأن كل واحد من العدل فى الميزان ومن النقص ومن الزيادة مرغوب ذكره للقيام به فى الأول وللتنائى عنه فى الأخيرين (والأرض وضعها) خفضها مدحوة (للأنام) للخلق (فيها فاكهة) ضروب مما يتفكه به (والنخل ذات الأكمام) أوعية الثمر التى يكون فيها الثمر ، لأن ثمر النخل يكون فى غلافه وهو الطلع مالم ينشق ، وكل شىء ستر شيئا فهو كم . ولذلك قال بعضهم : الأكمام ما يكم أى يغطى من ليف وسعف وكفرى فكل ما يغطى وكل مغطى به ينتفع الناس به كالجذع والجمار والثمرة (والحب ذو العصف) الحب كالحنطة والشعير والذرة والأرز ، والعصف ورق النبات إذا يبس والتبن (والريحان) هو إما الذى يشم ، وإما الرزق من قولهم خرجت أطلب ريحان الله أى الرزق (فبأى آلاء ربكما تكذبان) أيها الثقلان الإنس والجان الآلاء جمع ألى وهو النعمة وإنما خاطب الثقلين لدلالة الأنام عليهما ، والأنام الخلق ، وكل ذى روح . أى فبأى نعم من هذه النعم المذكورة تكذبان أيها الثقلان ؟ وهذه الآية كررت فى أحد وثلاثين موضعا من السورة تقريرا للنعمة وتأكيدا للتذكير بها ، فقرأه عدد نعمه على الخلق، وفصل بين كل نعمتين بما يذكرهم بها ويقررها ، فإذا قال الرجل لمن أحسن إليه بنعمة وهو يكفر بها : ألم تكن فقيرا فأغنيتك، أفتنكر هذا ؟ ألم تكن عرياناً فكسوتك ، أفتنكر هذا ؟ ألم تكن خاملا فعززتك ، أفتنكر هذا ؟ وهذا كثير فى كلام العرب شائع، هكذا يقول الله هنا: ألم أخلق الإنسان وأعلمه البيان ؟ وأنظم الشمس والقمر بحسبان، وأنوع الشجر وأبدع الثمر، وأعممهما فى البدو والحضر، لمن آمن ومن كفر، وأسقيهما تارة بالمطر، وآونة بالجداول والنهر ؟ أفتنكرون أيها الناس والجان هذه النعم. فبأيها أنتم مكذبون؟ .

ولما كانت النعم المذكورة بعضها يحتاج لزيادة شرح وإيضاح كخلق الإنسان، وكحساب الشمس والقمر، وكأسباب نمو الزرع والشجر ، وهذه الثلاثة مجامع ما تقدم أعقبه سبحانه بما يبينها على اللف والنشر المرتب فقال فى الأول (خلق الإنسان من صلصال) من طين يابس له صلصلة بحيث يصوت إذا نقر (كالفخار) أى الخزف وهو الطين المطبوخ ، وهذا إيضاح لخلق الإنسان ، وبيانه أنه كما أن الطين المطبوخ مركب من

(١) إن مسألة الميزان ونظام الحياة التابعة لنظام الأفلاك تقدم فى سورة يونس شرحها بأكثر مما ستراه هنا . فهناك ترى رسم الهرم وشرحه فضلا عن حسابه .

مادة أرضية وحرارة سوته وأنضجته لتحفظ كيانه، هكذا هذا الإنسان له شهوة الطعام والشراب والتزاوج لتبق بنيته وتدوم حياته بالمادة الأرضية التي اجتذبتها النباتات من الأرض، وله قوة غضبية تورثه الشجاعة والقوة ليحافظ على بقائه وحياته، ويمنع عن نفسه عاديات الكواسر، ومهاجمات الجيوش والأعداء المحيطة به من كل جانب، وهذه في الإنسان تقابل طبخ الطين ليصير فخارا إذ لا بقاء للطين بغير طبخه بالنار لتستمسك أجزاؤه ويبقى بناؤه، هكذا لولا القوة الغضبية، ومحافظة الإنسان على هيكله المنصوب، وجسمه المحبوب، من عاديات الكواسر، وأهل القوة من بني الإنسان لهلك جسمه وأصبح قتيلا في الفلوات تأكله الطير، أو تهوى بأجزائه الريح بعد تفرقها في مكان سحيق كما ترى الطين إذا لم يطبخ يتفتت وتذروه الرياح، أو يذوب في أجزاء الأرض. هذا هو معنى الآية، وقد تضمن علوم الشهوة وعلوم الغضب المذكورات في سورة (آل عمران) ثم إنه من حيث ترتيب خلقه، خلقه من تراب فصار التراب طينا لازبا أي يلصق باليد لما اختلط بالماء، ثم صار حمأ مسنونا وهو الطين الأسود المنتن فلما يبس صار صلصالا، فاختلاف العبارات في القرآن على مقتضى هذه المراتب (وخلق الجان) الجن (من مارج) من صاف من الدخان، ثم بينه فقال (من نار) يقول: خلق الله الجان من النار الصافية، والمارج المختلط بعضه ببعض فيكون اللهب الأحمر والأصفر والأخضر مختلطات: وكما أن الإنسان من عناصر مختلفات هكذا الجان من أنواع من اللهب مختلطات، ولقد ظهر في الكشف الحديث أن الضوء مركب من ألوان سبعة غير مالم يعلموه، فلفظ المارج يشير إلى تركيب الأضواء من ألوانها السبعة وإلى أن اللهب مضطرب دائما، وإنما خلق الجن من ذلك المارج المضطرب إشارة إلى أن نفوس الجان لا تزال في حاجة إلى التهذيب والتكميل، تأمل في مقال علماء الأرواح الذين استحضروها، إذ أفادتهم أن الروح الكاملة تكون عند استحضارها ساكنة هادئة. أما الروح الناقصة فإنها تكون قلقة مضطربة. وانظر إلى ماقاله سقراط:

اعلم أن الظالمين من نوع بني آدم يعذبون في هذه الحياة، لأنهم إذا عتوا وظلموا الناس أحسوا من نفوسهم بآلام تقلقهم، فالظلم سيف ذو حدين يقتل المظلوم والظالم، فإذا استغاث المظلومون وتألموا هكذا الظالمون، لأن نفوسهم من عالم شريف، فإذا أحست بالظلم اضطربت وأقلقتهم، وهذا أيضا من سر قوله تعالى: «إنهم يألمون كما تألمون وترجون من الله مالا يرجون».

أقول: فإذا مات هؤلاء بقيت نفوسهم في قلق، فالظالمون قلقون في الحياة وبعد الممات، فلفظ «مارج» أفادتنا علمين: علم ألوان الطيف من علم الطبيعة، وعلم أخلاق الجن من علم الأرواح، أليس هذا من بدائع القرآن وعجائب العلم، وانظر كيف جمع خصائص النفس الإنسانية من حيث شهوة الطعام ونظامه؛ وقوة الغضب وعجائبه، وحفظ الثغور، ونظام الجيوش، والدفاع عن الديار، انظر كيف جمع ذلك كله في الصلصال، وكيف أبان عذاب الروح الناقصة من الجن، ومثلها الروح الناقصة الإنسية بعد موتها. لأنهم يكونون أشبه بالجان في أخلاقهم، كل ذلك في لفظ «مارج» ومن هنا فلتعلم حكم القرآن وعجائبه، وقوله (فبأي آلاء ربكما تكذبان) ظاهر.

ولما فرغ من إيضاح خلق الإنسان شرع يوضح مابعده وهو الشمس والقمر بحسبان، فذكر أنه رب مشرق الصيف والشتاء، ومغربهما، وهذه التربية يترتب عليها الفصول الأربعة، ويتبع ذلك تقلب الهواء وتنوعه، ومايلي ذلك من الأمطار والشجر والنبات، ومايتخلل ذلك من الأنهار الجاريات، ولما كان النبات وهو المذكور بعد الشمس والقمر لا يكون إلا بماء عذب ناجم من السحاب المستمد من البحار الملحة؛ وهذه البحار فيها نعمتان، نعمة في باطنها وهي الدر والمرجان، ونعمة فوقها وهي السفن الجاريات كأنها

الجبال الطوال ؛ أخذ يشرح ذلك كله على سبيل الترتيب . فقال (رب المشرقين ورب المغربين فبأى آلاء ربكما تكذبان ، مرج البحرين) أرسلهما ، يقال مرجت الدابة أرسلتها : أى أرسل البحر الملح والبحر العذب متجاورين متلاقيين ، فترى العذب يخرج من الجبال كنيل مصر يجرى من جبال القمر وراء خط الاستواء فيمر شمالا حتى يصب فى البحر الأبيض المتوسط ، فلا الملح يطغى على العذب فيجعله ملحا ، ولا العذب يجعل البحر الملح مثله (يلتقيان) ومع هذا الالتقاء منعهما الله عما فى طبعهما بالبرزخ ، وهو مايحجزهما ويصدهما عن الاختلاط ، والامتزاج وهو قوله (بينهما برزخ) حاجز إلهى (لايبغيان) لايختلطان ولايتغيران أو لا يغرقان الناس بطغيانهما عليهم (فبأى آلاء ربكما تكذبان ، يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان ، فبأى آلاء ربكما تكذبان) اللؤلؤ هو الدر المخلوق فى الصدف ، والمرجان الخرز الأحمر ، وهما يخرجان من الملح وحده وإنما عبر بقوله «منهما» لأن العذب والملح بحر واحد لاينفصل أحدهما عن الآخر ، لأن الأنهار والجداول إنما تكون من ماء الأمطار ، وماء الأمطار من البخار ، والبخار من البحار ، والبحار إليها يرجع ماء الأنهار فى جريه فإذن الملح والبخار والسحاب والأنهار كرة واحدة تحيط بالأرض ، وهذه الكرة منها مايبلغ سبعة من عشرة من محيط الكرة الأرضية وهى البحار كبحر الروم والبحر الأحمر وبحر فارس وبحر الهند وبحر الصين والمحيط الهادى والمحيط الباسفيكى وبحر البلطيق ، فهذه هى الأصل ، فإذا نظرت فوقها رأيت كرة الهواء تحيط بالأرض وبالماء ، وهى دائما مشبعة بالبخار المستمد من البحار ، ومن هذا البخار تكون السحب فالأمطار فالأنهار الجارية على اليابسة كالنيل ودجلة والفرات ونهر النيجر وزمبيزا وما أشبهها وكل هذه الأنهار أصبحت كفروع تتصل بالبحر الملح من جهة مصبها ، وبالجبال من جهة منبعها ، وتستمد ماءها من السحاب ، وهو من بخار الهواء المستمد من البحار الملحة . فما البحر الملح إلا كشجرة جداولها الأنهار فوق اليابسة ، وكان كل نهر غصن ، وكل جدول ورقة ، وكل حقل من الحقول قطعة من الورقة إذا ثبت هذا علمت معنى قوله تعالى «يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان» فانه جعلهما بحرا واحدا . فمن جهة العذوبة والملوحة يقال لهما بحران . ومن جهة خروج الدر والمرجان جعلا كأنهما بحر واحد . وقيل خرج منهما . يقال خرجت من بيوت هذه البلدة وهو لم يخرج إلا من بيت واحد (فبأى آلاء ربكما تكذبان . وله الجوار المنشآت فى البحر كالأعلام) أى وله السفن الكبار أى المصنوعات التى رفع خشبها بعضه على بعض أو هى التى رفعت شرعها فى الهواء . وقوله (كالأعلام) أى كالجبال جمع علم . وهو الجبل الطويل (فبأى آلاء ربكما تكذبان) وانظر فى الجبال التى شبهت بها السفن فوق الماء كيف كانت هى التى جرى منها الماء فى الأنهار . وكأن الله لما خلق الجبال فوق الأرض وهى يابسة تحمل الجبل أراد أن يجعل فى البحر مايشبه الجبال فى البر . وكأنه يقول : انظروا إلى النواميس الطبيعية كيف خرقتها فان ناموس المادة لا يحمل الثقيل إلا الكثيف . أما اللطيف كالماء فلا يحمل الثقيل . فها أناذا أريتكم العجب . ووضعت الجبل فوق ظهر الماء بآيات اخترتها . وعجائب اخترعتها . وألقيت عليكم دروسا من النواميس تفهمكم أن الجسم إذا كان يزن بما عادله حجما من الماء وزنا طفا فوقه . وإن كان أثقل من وزنه من الماء غرق فيه . هذا هو القانون الذى وضعته ، والصراط المستقيم الذى اخترته . والسمكة عرفت ذلك بغريزتها . فإذا أرادت أن تنزل فى أسفل الماء قبضت عوامة فى بطنها مملوءة هواء . وإذا أرادت أن تطفو على وجه الماء نفختها فعظم حجمها نخفت فطفت . وإن أرادت أن تساوى سطح الماء توسطت فى نفخها . وكل سفينة عائمة فى بحر ملح أو عذب على هذه الطريقة . فإنك إذا وزنتها كلها ألفيت جميع وزنها يساوى الماء الذى أزاحته من مستقرها فى البحر ولو أن الماء المزاح بحجمها كان أخف لغرقت . وجسم الإنسان أثقل من مقدار حجمه من الماء ، ولذلك

يغرق

يغرق فى المـاء ، وهذه هى نظرية (أرشميدس) الذى أحس بأن جسمه وهو فى الماء قد خف فاعتقد أن الأشياء وزنها فى المـاء أخف من وزنها فى الهواء ، وظهر بعد ذلك أن الذى ينقص من وزن الأشياء هو مقدار وزن الماء المساوى لها فى الحجم ، فخرج من الماء وهو لايعى ويقول عرفتها عرفتها ، وذلك بعد أن تحير ثلاثة أيام فى معرفة الذهب المغشوش. وكيف يعرف غشه، فأنتج له عقله ، ودله فهمه على هذه الطريقة وأخذ يزن الذهب والمواد الأخرى التى كان الذهب بها مغشوشا حتى عرف الحقيقة ، وسر ملكه بذلك وأظهر له حقيقة الغش فهذه النعم التى ذكرها الله فى هـذه السورة هى مجامع ماأنعم به على أهل الأرض وكأنه تعالى بتكراره التذكير بها وقوله (فبأى آلاء ربكما تكذبان) يقول : أى عبادى : هل ظننتم أن مجرد الإيمان يكفيكم ؟ فهل خلقت الشمس والقمر والنجم ، والشجر والزرع والحب ، والأنهار والبحار ، والدر والمرجان لقوم لايعقلون ، أم خلقتها لقوم يقبلون منى النعمة ؟ وكيف يقبلونها إلا إذا عرفوها .

أيها الناس : اشكروا نعمتى ، ولاشكر عليها إلا إذا عرفتموها ، ولامعرفة إلا بالدراسة، حتى تكونوا عندى فى مقعد صدق ، أليست هذه النعم من رحمتى ؟ ألم أنزل عليكم القرآن ؟ ألم أعلمكم النطق والبيان ؟ ألم أجعل حاجتكم فى الحياة موقوفة على هذه النعم . فهل خلقتها لمن لايعلمون ؟ أم نظمتها لمن لايقبلون . وهذه الآيات وتكرار الآلاء فيها ٣١ مرة فى هذه السورة أشبه بالإنذار لأمة الإسلام إنهم إن تركوا هذه النعم فكأنهم أنكروها ودخلوا فى الأمم التى ذكرت فى (سورة القمر) يقول الله فيها «فكيف كان عذابى ونذر» وهذا وإن لم يذكره القرآن صريحا لوح له تلويحا . وإلا فكيف يشكر النعمة جاهل بها . والجاهل بالنعمة كالمكذب : ثم أردف ذلك كله بأنه فان، فقال (كل من عليها فان) أى كل من على الأرض من الحيوانات والمركبات من الثقلين وغيرهما فان (ويبقى وجه ربك) ذاته بل كل مخلوق الآن من حيث هو فان ومن حيث ربه موجود، فهو فان من وجه موجود من وجه (ذو الجلال والإكرام) ذو الاستغناء المطلق والفضل العام ، فهو ذو العظمة والكبرياء ، وهو مع علوه يعطى جميع خلقه من النعم والإكرام مايليق بحالهم جميعا وهو لطيف بهم ، يراعى العالم ويكلأ الجاهل ، ويتلطف بأدنى الحيوان وأصغره ، ولا يحجب فضله عن مخلوق خلقه . لايحجبه عظم الفيل عن التلطف بالبقة ، بل أعطاها أجنحة وحرمه منها وسلطها عليه . وكرم بنى آدم . ومع ذلك أغرى الحيوانات الذرية الصغيرة فتوغلت فى جسمه وأوردته الحمام بالحمى والوباء والجدرى وما أشبه ذلك ، ثم أرسل له الأطباء ليداووه . فهو لطيف بتلك الحيوانات الدقيقة حيث مكنها من جسم الإنسان ولطيف بالإنسان من حيث إنه سخر له الأطباء ، وعلمه علم الطب ، وإذا مات نقله من حال الجسمية إلى حال الروحية وهى أرقى من هـذه الحال . ففناؤه من أنواع اللطف ، ومرضه من الفضل :

ينظر الإنسان هذه النجوم الثواقب فى ظلمات الليالى فيراها مشرقة بهجة بهية ساطعة باهرة تتلألأ نورا وبهجة وتشرح الصدور ، وبهذا تتجلى العظمة والكبرياء ، ويراه يميت الأحياء وتلك النجوم باقية . والأرض باقية والأحوال لم تتغير بحسب مايظهر للناس فهذا مظهر الجلال والعظمة جمال فى النجوم بهجة فى الإشراق مناظر باهرة أنوار ساطعة أجسام عظيمة وأحجام كبيرة وأحوال تتقلب وأهوال تتعاقب والناس من بينها يخرون صعقين فهذا لعمرك هو الجلال والعظمة ثم تراه من جهة أخرى يتلطف بالمريض ويواسيه بالطبيب وإذا مات أرسله إلى عالم روحى بهيج لطيف ، فهذا بعض الإكرام ، ويقرب من هذا قوله تعالى «إن بطش ربك لشديد ، إنه هو يبدئ ، ويعيد» هذا مما يقرب من الجلال ثم أتبعه بقوله (وهو الغفور الودود ، ذو العرش المجيد) وهذا يقرب من معنى الإكرام فبينما تراه متكبرا محدثا للأمور الهائلة إذا هو يتلطف ويتودد لعباده ، ويواسيهم فى مرضهم ، وفى حال نزعهم ،

وبعد موتهم، وفى حياتهم، فانظر لكبريائه ولطفه وعظمته وتحننه وارتفاعه ودنوه، وهذا قوله تعالى « وهو معكم أينما كنتم » وأيضا « إن ربى لطيف لما يشاء » . وبهذا فهمت قوله تعالى «فبأى آلاء ربكما تكذبان» فالنعم واضحة فى تحليل المركبات . لولا تحليل أجسامنا وموتنا لجدت هذه الأرض . ولتعطلت الحياة، والمادة الأرضية إذا بقيت على حال واحدة كانت القدرة محدودة ، ولكن انبعاث الصور الكثيرة وتلاحقها جيلا بعد جيل ، وقرنا بعد قرن هو عين العدل ، إن من العدل أن تلبس المادة جميع الأشكال ، وجميع الأشكال لا تكون دفعة واحدة ، فإذن يجب أن تلبس شكلا وتخلع شكلا آخر ، وهذا هو الحاصل فيها ، هكذا بنو آدم إذا بقى جيلنا الآن وأخذ هذا الجيل يتوالد قرونا وقرونا فلا يمضى قرون معدودة حتى يكون على القدم ألف قدم ، وتمتلىء الأرض بالآدميين فلا يكفيهم حيوان أرضى ولا نبات مأكول ، وإذن يأكل الناس بعضهم بعضا وتمتلىء الأرض بالرمم . فإذن الفناء فيه نعمتان : نعمة الرحمة بتلاحق الأجيال ، ونعمة الخروج من سجن المادة إلى فسيح الرحمة بعد الموت ، لذلك قال تعالى : « فبأى آلاء ربكما تكذبان » ومن الآلاء الجليلة الفناء الذى هو نعمة بتلاحق الأجيال وبخروجنا من سجن هذه الحياة طوعا أو كرها . ولما كان ما ذكرته لك يتضمن الافتقار المتجدد أوضحه ، فقال (يسأله من فى السموات والأرض كل يوم هو فى شأن ، فبأى آلاء ربكما تكذبان) قد علمت أن المادة كلها تلبس جديدا وتخلق قديما وأجسامنا وأجسام الحيوان على هذا المنوال . فالحيوان والإنسان كل فى حاجة إلى بقاء جسمه ، وإلى التغذية والمداواة . وإذا انحل جسم من الأجسام أخذ يفتقر إلى حال جديدة ، فالتغيرات المستمرة فى المادة افتقار ، والافتقار المذكور دائم فى كل لحظة ؛ فالسؤال المذكور سببه الافتقار ، والسؤال إما بنطق ، وإما بتوجه النفس ، وإما بلسان الحال ، فالمادة الجامدة مفتقرة لبقاء حال يناسبها ، أو تغيرها بما هو أنسب لها ، والنبات فى كل لحظة مفتقر إلى ما يبقى ذاته من ماء وهواء ومواد ، والحيوان جميعه يطلب بهمته ما يحتاج إليه ، والإنسان يسأل بنفسه داخلا وبلسانه نطقا ، فمعنى الآية أن من فى السموات والأرض مفتقرون إليه فى ذواتهم وصفاتهم ، وسائر ما يهمهم ويعن لهم ، كل وقت يحدث أشخاصا ، ويجدد أحوالا على ما سبق به قضاؤه ، واقتضاه مراده ، فليس كما قالت اليهود : إن الله لا يقضى يوم السبت شيئا . إذا فهمت هذا عرفت قوله «فبأى آلاء ربكما تكذبان».

فكم من سؤال أجبته ، وكم من جديد أحدثته ، وكم من ضعيف فى الحياة أرحته إما بصحة تسعده أو بموت من سجن المادة يخرجه (سنفرغ لكم أيها الثقلان) أى سنتجرد لحسابكم وجزائكم ، وذلك يوم القيامة واعلم أن هذا على سبيل التمثيل بدليل قوله تعالى : « يسأله من فى السموات والأرض كل يوم هو فى شأن» أى هو فى كل وقت يحدث أمورا ، ويجدد أحوالا ، ومع ذلك لا يشغله شأن عن شأن ، فإنك تقول لمن تهدده : لأتفرغن لك : أى سأتجرد للإيقاع بك من كل ما يشغلنى ، والمراد التوفر على إحداث النكاية به والانتقام منه ، ولا جرم أن شأن الآخرة ما هو إلا شأن من الشئون فلا يشغله عن شىء آخر ، وهو القائل: « إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون » والقائل : « وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر » (فبأى آلاء ربكما تكذبان) والثقلان الإنس والجان لثقلهما على الأرض ، ولأنهما مثقلان بالتكاليف (يامعشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا) أى إن قدرتم أن تخرجوا من جوانب السموات والأرض هاربين من الله ، فارين من قضائه ، إذ أعطاكم النعم السابغة وعددها عليكم ، ونبهكم إليها ، ثم إنه يفنيكم ويميتكم ، وبعد الموت يقصد حسابكم، وهذا هو أولكم وآخركم، فأنتم فى الدنيا فى قبضته ، وبعد الموت فى قبضته ، وأنتم ما دمتم ناقصين غير كاملين فإن أرواحكم مضطربة معذبة فى قبضته تعالى ، هو يريد رحمتكم بإكمالكم ، والإكمال لا يكون إلا بالإيقاظ بالعلوم ، وبالنوازل ، وتقلب الأحوال عليكم ، كل هذا من الرحمة المذكورة أول السورة؛ ولكنكم بحسب ما يعن لكم وأنتم فى حال

نقص

نفس تشعرون بأنكم معذبون كما يحس التلميذ بقسوة المعلم الذي يريد إبلاغه الكمال ، فإن استطعتم أن تهربوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا : أى فاخرجوا (لا تنفذون) لا تقدرون على النفوذ (إلا بسلطان) إلا بقوة وقهر ولاقدرة لكم على ذلك ، وأولى من هذا الوجه أن يقال : أيها الثقلان إن قدرتم أن تنفذوا فى أقطار السموات والأرض لتنظروا صنعنا فانفذوا ولكنكم لاتنفذون إلا بقوة علمية ومقدمات نصبتها لكم وهى العلوم والمعارف والتهذيب ، وأهم ذلك حب العلم وحب الخالق واجتماعهما يعطى المرء قوة بها يطلع على العلوم والعجائب ليخرج من سجن هذه المادة (فبأى آلاء ربكما تكذبان) من التنبيه والتحذير والعفو وكمال القدرة ، أوالمعارج العقلية التى نصبها الله لارتقاء العقول الإنسانية فى العلوم العقلية فينفذون بها إلى العوالم العجيبة فوق السموات العلى .

إن النفوس الإنسانية لايقر لها قرار إلا بالاطلاع على عجائب هذه العوالم التى ظهر لنا نورها ، وبدت لنا أنوار كواكبها بحيث نرى ضوءها من بعد لايتخيله الوهم بحيث يصل لنا الضوء [الذى يقطع فى الثانية ثلثمائة ألف كيلومترا فى ألف سنة ، أومائة ألف سنة ، أوألف ألف سنة ، بل أكثر من ذلك] فهذا مما يشوق نفوسنا إلى الاطلاع على هذه العوالم المدهشة ، وكيف ننفذ لها ونحن محبوسون فى هذه الأرض ؟ بل كيف تخترق أرواحنا هذه المسافات الشاسعة لو أرادت الصعود لهذه العوالم بعد الموت ، أوعقولنا معرفتها ونحن فى الأرض ممنوعون عن ذلك بعوائق ، فإن لكل عالم من العوالم التى فوقنا جوا خاصا وأحوالا ليست تليق إلا لمن استعد لها ، ونحن لايتسنى لنا اختراق أى جو من الأجواء إلا إذا كانت أرواحنا صافية مستعدة لاختراقه ، ومهيئة له ، والنفوس الإنسانية فى الدنيا لاقبل لها بمعرفة علوم تلك العوالم أيضا معرفة علمية إلا باستعداد خاص عقلى وخلقى ، فالناس فى الدنيا محجوبون إلا من لهم استعداد وعلم وعمل فيعرفون قليلا ، وبعد الموت كذلك إلا النفوس الصافية المستعدة ، ولايهيئ للناس السفر فى تلك الأقطار إلا الاستعداد لها فى هذه الحياة الدنيا بالأخلاق والعلوم والإخلاص ، فقوله (يرسل عليكما شواظ) لهب خالص (من نار ونحاس) وهو الدخان (فلاتنتصران) فلا تمتنعان من الله ، ولا يكون لكم ناصر منه ، يقول الله : إذا عجزتم الآن عن أن تنفذوا من الأقطار فأنتم عن النفوذ والهرب يوم القيامة أعجز ، فإنكم هناك إن هربتم يرسل عليكما لهب ودخان فلا تقدران على الهرب ، إن هذا كله ليفهم الله الناس أنهم فى قبضته ، لايخرجون من حكمه وقضائه .

واعلم أن هذا الذى فى الآية له نظير فى نفوس الناس اليوم ، فكل امرئ فى عاداته ودياناته ومعارفه وأخلاقه وشهواته ووطنه محبوس ، حتى إن من يعيش فى خط الاستواء ، ومن يعيش فى الجزائر الخضراء قرب القطبين إذا نقل كل منهما من مكانه تألم لذلك بل ربما مات ، وهكذا حيوان البر لايعيش فى البحر وبالعكس ، فحيوان البحر إذا نفذ من أقطاره أرسل عليه نيران الشمس وعنصر الهواء الجاف فأذاقه كأس الحمام ، وترى الناس فوق الأرض يكرهون الموت ، لأنهم لم يعرفوه ، ولم يروا هناك حياة غير هذه ، وترى القلوب كلها مستعدة للعلوم ، ولكن الشهوات ، وأنواع الغضب ، والعادات المستحكمة تمنعهم من المعرفة والحكمة وتصدهم كما روى : « لولا أن الشياطين يحومون حول قلوب بنى آدم لنظروا إلى ملكوت السموات والأرض » فالشهوات والوسوسة والعوارض فى حياتنا تمنعنا من إدراك العوالم فهى تشبه الدخان والنار ، فالنار كالشهوات ، والدخان كالعادات والعقائد المرتبكة المانعة من العلم ، ونحن إذا متنا لا نكون هناك إلا فى المكان اللائق بنا فى الجنة أوفيما هو أعلى منها « ولكل درجات مما عملوا » بحيث لا يتجاوز أحد مارسم له لأنه يحجب عنه هناك كما يمنع حيوان البحر أن يعيش فى البر . وإياك أن ترى قولى ماهو أعلى من

الجنة خارجاً عن أقوال العلماء ، فارجع إليه فى (سورة البقرة) عن الإمام الغزالى فتفكر ، فإرسال اللهب والدخان على أهل المحشر وحبسهم فيه له نظير فى كل شىء فى الدنيا والآخرة ، وفى معارج الأرواح ، والاستعداد هو الذى يعين منازل الناس فى الدنيا والآخرة ، والاستعداد لا يكون إلا بمقدمات ، إنك أيها الذكى لو بحثت اليوم فى الناس لوجدتهم جميعاً وأنا وأنت فى حال مخصوصة بحيث لو تركناها لرأينا العوائق دوننا كما صد اللهب والدخان أهل المحشر عن الخروج من القضاء والقدر . فترى كل امرئ لا يعدو ما استعد له وما اعتاده ، هذا تراه فى نفسك وفى أهلك وفى جارك وفى أمتك ، وفى أمم الغرب والشرق ، كل حكم عليه بما هو بسبيله أشبه بحيوان البر وحيوان البحر ، وبعد الموت يسيرون جميعاً فيما استعدوا له ، ولا ينفكون عنه جزاء وفاقا وقانونا مطردا ، فالعادات أحاطتنا بسياج من لهب ودخان لا يجاوزه . ولو قلت لنصرانى صل صلاة المسلمين لرآه فى عذاب وهكذا المجوس وبالعكس ، وتفصيل هذا لا نهاية له ، ولعلنا بعد الموت نطلع على عالم الكواكب بنفس أجسامها ، وليس ينال ذلك منا إلا من استعدت أرواحهم لذلك فخفت فارتقت . فأما الأرواح الضعيفة فإنها لا تنال ذلك لعدم استعدادها ، ولا تظن أن هذا يغاير ماقاله علماؤنا ؛ فلتعلم أن العلم هو أعظم نعيم فى الجنة بل كل نعيم الجنة بالنسبة له أمر ضعيف . وبالعلم تستأهل النفس للنظر إلى وجه الله الكريم ، وما سوى ذلك فهو متاع لا يهم النفوس الشريفة ، والله لا معنى لهذه الحياة إلا بتلك النتيجة العالية الشريفة :

على نفسه فليبك من ضاع عمره   وليس له منها نصيب ولا سهم

هذا هو نهاية تفسير القسم الثانى إجمالا مع بعض التفصيل . وفى هذا القسم (لطيفتان : الأولى) فى قوله تعالى : « ووضع الميزان » .

(الثانية) فى قوله تعالى : « يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان » .

اللطيفة الأولى فى قوله تعالى :

« ووضع الميزان »

قد علمت مما ذكرناه فى هذا المقام وغيره أن الميزان لا يعرفه إلا من درس العلوم كلها ، ولكن الميزان الأرضى من كل ما يقدر به الأجرام الأرضية بمساحة أو بكيل أو بوزن يحتاج إلى بحث مستفيض ليعرف الناس أن هذه مشتقات مقتبسات من النظام السماوى والميزان الإلهى . وكيف يعرف الناس أن الذراع الذى يقيسون به الثياب ، والمقياس الذى يمسحون به الأرض ؛ والرطل الذى يزنون به المأكولات وما أشبهها كيف يعرفون أن ذلك كله مأخوذ من نفس سير الشمس فعلا لا بمجرد قول . ولعمرى إن من يقرأ ماسأقوله الآن فى هذا الموضوع ليرى العجب العجاب . وليسمعن فى هذه المقالة ما يدهشه حيث يرى أن الأردب والقنطار والدرهم ومساحة الفدان ترجع فعلا إلى ميزان السموات .

(وبعبارة أخرى) إلى مدار الأرض حول الشمس ، أو مدار الشمس حول الأرض بحسب الظاهر ، وأن هذه كلها مرتبطات بذلك .

الحق والحق أقول : إن من يفهم أن ماسأوضحه سيعجب غاية العجب ! ويقول : حقا إن هذه معجزة للقرآن مدهشة أكبر من كل معجزة . وكيف لا تكون معجزة والله يقول : « ووضع الميزان ألا تطغوا فى الميزان » أى وضعنا نظامنا لأجل ألا تطغوا فى ميزانكم أى أن ميزانكم : مبنى على ميزاننا . وهاك ماقلته

من رسالة صغيرة سميتها « التربية العملية فى الإسلام » لم تطبع إلى الآن ، قد وضعتها على هيئة محاورة . فهاك مايناسب المقام هنا منها :

(س) قد فهمت ذلك ولكن من أين لنا أن نوقن بأن علوم الرياضيات التى أوجبها أفلاطون مما ينبغى أن تطلبه الأمة الإسلامية لأجل دينها ، وأين ذكر الله هذا فى القرآن ؟

(ج) لقد ذكر الله ذلك فى القرآن فى مواضع كثيرة كقوله تعالى : « والشمس تجرى لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم . والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم » الآية .

(س) أنا أريد أبين من هذا ؟

(ج) اقرأ كتبنا : جواهر العلوم . وميزان الجواهر . والنظام والإسلام . ونظام العالم والأمم . تجد فيها آيات كثيرة وحسابا رياضيا جبريا وفلكيا حقيقيا . وتقف إذ ذاك على ما أودع فى القرآن فى نحو ٧٥٠ آية أبانت أنه ينبغى لأذكياء المسلمين تعلم الرياضيات والطبيعيات لا كما فعل أفلاطون وسقراط إذ خصصا التعليم بالرياضيات فإنها مناط الحق والصدق . ولكنا نقول لن يكن المرء حاكما صالحا إلا بالقوة البدنية والنبوغ فى الرياضيات والطبيعيات . ولقد كذب الذين قالوا إن العلم يصد عن ضبط مصالح الناس فإنما ذلك خاص بالعلم الذى لايصحب بتهذيب وتقويم ، ولاتمرين عضلى ، ولاعشق للحكمة والبحث . فأما ذلك الذى استوفى تلك الشرائط . فما أجدره أن يرفع ذوى النفوس الشريفة إلى مستوى الحكم ، والحكم والعدل فى القضية ، والتسوية بين الرعية . وسآتى لك فى هذه الرسالة بفائدة عجيبة خلت منها كتبنا السابقة ، وهى من أعاجيب الدهر وعجائب الحكمة ، بل هى درة بهية ، وآية سنية ، وحكمة جوهرية ، وشمس إشراقية ، وبديعة نورانية ؛ تلك آية الرحمن . إذ قال الله تعالى : « الشمس والقمر بحسبان ، والنجم والشجر يسجدان ، والسماء رفعها ووضع الميزان ، ألا تطغوا فى الميزان ، وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان » .

(س) وأى عجب فى هذه الآية وأى إبداع ؟

(ج) فيها مالا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولاخطر على قلب المتكبرين . ألا ترى أنه تعالى يقول : رفعت سمائى وحركتها بالحركات العجيبات ، وقدرتها ووزنتها بالميزان العجيب ، فلا شمس تشرق إلا بنظام ، ولا قمر يطلع إلا بحساب ، ولقد وزنت حركاتها وزنا ، وضبطت سيرها ضبطا ، فلا تأخير ولا تقديم ، ولا نجم ولاشمس ولا قمر يتحرك حركة إلا بحساب وميزان ظهر لكم فى تقويمكم السنوى ، وعرفتموه فى نتائجكم المعروفة . فهل رأيتم فى عملى من خلل ؟ أو اطلعتم على تفاوت ، هل نجم النجم قبل إبانه ، أوبدر البدر قبل أوانه ، أوغربت شمس بعد وقتها ، أم أخطأ الليل والنهار ؟ كلا . إن فى ذلك لعبرة لأولى الأبصار لتكون أعمالهم موزونة بهذا الميزان . فكما نظمت سماواتى ، وقدرت كواكبى ، وأدرتها بحساب . فهكذا ياعبادى نظموا أعمالكم كما نظمنا ، وإياكم أن تحجموا عما رسمنا ، فلا تستأخرون دقيقة أوثانية ولا تستقدمون :

(س) قد فهمت إنشاءك ، وعرفت منهاجك ، وعقلت طريقك . فما أتيت فى هذه الآية أكثر مما فى غيرها ؟

(ج) على رسلك صبرا ، ولا ترهقنى من أمرى عسرا . فسأكمل المقال لتطلع على مايجهله الأكثرون . انظر إلى قدماء المصريين ، ألم تر أنهم جعلوا الفدان والأردب والقنطار مشتقات من دائرة الشمس السنوية .

(س) وكيف كان ذلك ؟

(ج) إن الأرض ليس يضبط محيطها كما يضبط محيط مدار الشمس . فلما كان العالم العلوى أضبط وأبق جعله أولئك الفلاسفة مقياسا لنا : أى جعلوا منه الرطل المصرى والكيلة والفدان والقيراط وما أشبه ذلك تصديقا لقوله تعالى : « ألا تطغوا فى الميزان » أى إنا وزنا السماء وقدرناها وحسبناها وضبطناها فى حركاتها لئلا تزيدوا فى موازينكم كالقناطير والأرطال . ومكاييلكم كالإردب والكيلة ، ومقاييسكم كالفدان والقيراط ، إن هذه كلها مبنية على نظام شمسنا ، ولو اختل نظام مدارها لم يضبط لكم كيل ولاميزان كما لاتنضبط أعمالكم إذا تقدم كوكب عن أوانه ، أوطلعت الشمس أو القمر قبل إبانهما .

(س) هذا قول عجيب لاأفهمه أوضحه لى ، فاذا عجبت من جهل الناس فلا تعجب إذا عجب الناس من غموض قولك .

(ج) حياك الله : مهلا . إن الفرنسيين الذين جعلوا وحدة المقاييس ترجع إلى محيط الأرض ، إذ جعلوا المتر جزءا من ٤٠ مليونا من محيط الدائرة الأرضية قد وقع الخطأ فى عملهم . فإنهم رأوا بعد ذلك أن محيط الأرض ليس ٤٠ مليونا بل يختلف اختلافا بينا . فإذا اختلف الناس فى المتر فما بعد فإلام يرجعون . أما قدماء المصريين فإنهم قاسوا مدار الشمس السنوى بالحساب العالى فبنوا الهرم الأكبر على أن محيطه جزء من مليار جزء من محيط مدار الشمس السنوى : أى جزء من ألف ألف ألف جزء من ذلك المحيط ، وارتفاعه جزء من ألف ألف ألف جزء من البعد بين الشمس والأرض : أى مليار وضعف الارتفاع المذكور يساوى قطر محيط دائرة مساوية لمحيط الهرم . فالارتفاع نفسه كما تقدم يساوى جزءا من مليار من البعد بين الشمس والأرض ، ومحيط الهرم يساوى جزءا من مليار من الدائرة التى تدور عليها الشمس التى ذلك البعد نصف قطرها .

وعليه يكون ضلع الهرم مساويا لجزء من ربع مليار من محيط الدائرة الشمسية . ومعلوم أن الضلع المذكور يساوى ٤٠٠ ذراع بلدى ، أو ٣٦٠ هنداسة ، فيكون الذراع البلدى واحدا من مائة مليار من محيط الدائرة الشمسية : أى جزء من مائة ألف ألف ألف جزء من ذلك المحيط ، ثم إن ربع الذراع البلدى المكعب يسع ألف درهم من الماء المقطر ، وكل اثنى عشر درهما أوقية ، وكل ١٢ أوقية رطل ، فالرطل ١٤٤ درهما ، والقنطار مائة رطل ، وعليه تكون المقاييس منها عشرى ومنها ذو الاثنى عشر ، والأردب ذراع بلدى مكعب ، فتعجب كيف كان الأردب ذراعا مكعبا منسوبا إلى ضلع الهرم ، فهو جزء من ٤٠٠ منه ، أو واحد من مائة ألف ألف ألف جزء من محيط الدائرة الشمسية ، ألا ترى كيف قسنا ووزنا وكلنا على نسبة محيط الشمس .

إن الفدان عبارة عن ١٠٠ × ١٠٠ = ١٠٠٠٠ عشرة آلاف هنداسة ؛ فطوله ١٠٠ وعرضه ١٠٠ وهو نسبة عشرية ، والهنداسة جزء من ٣٦٠ جزءا من ضلع الهرم المنسوب لربع محيط الدائرة الشمسية فأصبح الفدان منسوبا مقياسه للدائرة الشمسية . أليس هذا بعينه قوله تعالى : « ألا تطغوا فى الميزن وأقيموا الوزن بالقسط ولاتخسروا الميزان » فأمر بالاعتدال ، وألا نقص وألا نزيد فى وزننا ولا فى كيلنا ومساحتنا كل ذلك على حسب مدار الشمس .

واعلم أن الذراع النيلى ٥/٦ من الهنداسة فيكون ضلع الفدان ١٢٠ ذراعا نيليا ، والفدان ١٤٤٠٠ ذراعا نيليا ، ويكون القيراط ٦٠٠ والسهم ٢٥ والدانق ١٠٠ ، فالذراع النيلى والهندسة كلاهما يمسحان الفدان ١٠٠ × ١٤٤ = ١٤٤٠٠ .

هل يدرى ذلك الفلاح الذى يبيع قطنه بالقنطار أن للقنطار نسبة إلى مدار الشمس فى السماء ؟

هل يعلم أن القنطار المنقسم إلى أرطال إلى دراهم، أن تلك الدراهم منسوبة إلى الذراع البلدى الذى إذا كعب ربعه وسع ألف درهم، وإذا كعب هو وسع ٦٤ ألف درهم، وأن هذا الذراع البلدى جزء من أربعمائة من ضلع قاعدة الهرم، وأن ضلع قاعدة الهرم جزء من ألف ألف ألف جزء من ربع محيط دائرة الشمس حول الأرض، وأن هذا المحيط أحد المحيطات التى للشموس العظيمة التى لا يعلم عددها إلا الله، وهل درى الفلاح الذى يقيس أرضه بالقصبة أن هذا الفدان يساوى عشرة آلاف هنداسة، وأن الهنداسة جزء من ثلثمائة وستين جزءا من ذلك الضلع المنسوب لمحيط الشمس.

وهل علم من يبيع أردب قمح أنه منسوب إلى الذراع البلدى الراجع إلى ضلع الهرم، المستمد من مدار الشمس، سبحان الله، وأن الشمس وما فوقها «إلى ربك منتهاها» هل علم الناس أن الذراع البلدى اشتق كما اشتق الكيل والوزن وهما من الحساب ذى الاثنى عشر، وأن المساحة من الهنداسة والذراع النيلى أولهما عشرى والثانى فيه ذو الاثنى عشر، وأن هذا كله راجع إلى مدار الشمس، الناس فى بلادنا لاهون لاعبون جهلوا الدين وجهلوا نظام المدن، وعاشوا عالة على الذين حلوا من قبل فى ديارنا، وعلى الأمم حولنا، جهلوا أن هذا الأردب، وهذا القنطار، وهذا الفدان، كل ذلك مقادير موزونة محسوبة منظومة راجعة لابداع الشمس ونظام سيرها، كأن القدماء لما رأوا أن الناس غافلون ذكروهم بهذه الموازين العجيبة البديعة فى غدوهم ورواحهم وحسابهم وليلهم ونهارهم لئلا يغفلوا عن ذكر ربهم، وعن ذكر نظام مدنهم، وعن نظام الفلك، أليس هذا عجيبا! إى وربى إنه لحق، إى وربى إنه لحق؛ لقد وضع وقصة بن داهر الحكيم الهندى الشطرنج، ووضع غيره النرد، وكان لتلك الأوضاع بهجة تذكر اللاعبين بسير الشمس والقمر والأيام وأعدادها والشهور وأدوارها، ولكن أعجب من ذلك نظام قدماء المصريين الذين أبرزوا مكنون العلم فى الأعمال اليومية لا الألعاب الصبيانية فتأمل وتعجب! وانظر كيف تعلم اليونانيون علم المصريين، ودرسوا هرمهم وحكمتهم وميزانهم ورطلهم وقنطارهم وأردبهم، وعرفوا أن ذلك منسوب لضلع الهرم المنسوب لدائرة الشمس وأن ذلك كله لم يتم إلا بعلم الحساب والهندسة والجبر العالى، وأمثال ذلك فأوضحه أفلاطون فى جمهوريته وقال: «لن يكون الإنسان عدلا مطيعا لله قائما بأمره صادقا فى حكمه حتى يبرع فى الرياضيات ويتخلق بأخلاق الله» ثم قرأنا ذلك ونظرنا فى القرآن فرأيناها أنزلت على النبى العربى بلا تعليم: «والسماء رفعها ووضع الميزان ألا تطغوا فى الميزان».

أفليس هذا يكفيك أن توقن أن أمة الإسلام اليوم نائمة نوما عميقاً، جاهلة بما بين يديها وما خلفها، وأن الله عز وجل أيقظ فريقا منها ليوقظوها من نوم الغفلة والجهالة والغرور، وأن الحكمة الأفلاطونية الفيثاغورية كانت مصرية، كانت بضاعتنا فردت إلينا، وقد أوحى إلى نبينا بمضمونها، فهلا أعددنا للأمر عدته، ونهجنا منهج نبينا صلى الله عليه وسلم. وقد وافق شرعه شرع النبى إدريس عليه السلام الذى علم قدماء المصريين؛ وجاء وفاقا له فى (سورة الرحمن) (علم القرآن) انتهى ما أردته من رسالتى المسماة: [التربية العملية] كتب الساعة ٦ بعد عصر يوم السبت ١٠ أغسطس سنة ١٩١٨ م — (بالبغالة: مصر العامرة). وبهذا تم الكلام على اللطيفة الأولى فى قوله تعالى: (ووضع الميزان) والحمد لله رب العالمين.

اللطيفة الثانية فى قوله تعالى : يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان

قد تقدم الكلام على اللؤلؤ فى (سورة الفاتحة) وعلى المرجان فى سور أخرى مفصلا ، ولكن لابد من فصل قصير تزين به جيد تفسير هذه السورة فنقول :

من ذا الذى كان يظن أن تلك المرجانة التى تتزين بها النساء فوق براقعهن ببلادنا المصرية فى القرى بحيث تراها صفا واحدا منظما على براقعها ، منتظما من أعلى إلى أسفل ، ويتبعه قطع من الذهب فيكون المرجان فى الأعلى والذهب فى الأسفل :

أقول : من ذا الذى كان يظن أن تلك المرجانة كانت صنع حيوان صغير جدا ، وأن تلك الحيوانات باجتماعها آلافا وآلافا كونت مساكن ، وتلك المساكن أشبه بأغصان الأشجار ، ثم تتكامل اجتماعا ، وتتلاحق اتساعا ، وتمتد ذراعا وباعا ، وتتسع انفراجا فى البحر حتى تتكون منها جزائر ، وتلك الجزائر أيضاً تتكاثر وتتكاثر وعلى مدى الزمان تراها فى المحيط الهندى والمحيط الهادى (الباسفيكى) وكيف تراها على شكل الخاتم ، ووسطها فيه ماء لونه يخالف لون المحيط الذى هو أزرق ، وإذا اجتمعت جزائر كونت حلقة أيضا ، وتعيش الحيوانات فى مائها ساكنة مطمئنة ، آمنة عاديات الدهر وهيجان المحيط ، وترى شجر (الشكولاته) يكسوها وهو جميل بهيج ، ولو رأيت شجر المرجان لرأيته له فروع غبراء كظباء الصحراء ، أوصفراء برتقالية ، أوحمراء قرنفلية ، أوزرقاء تتلاعب بها الأمواج ، والريح تعبث بأغصانها . فانظر كيف تصبح هى أنفسها نفس الصخرات المكونات للجزائر المرجانية ، وتكون منها جزيرة حجرية ، وقد تزيد إلى عشرة إلى مائة إلى ألف إلى عشرة آلاف إلى مائة ألف جزيرة كالجزائر المعروفة باسم (بلكاديف) فهى مائة ألف جزيرة . وكالجزائر المعروفة باسم (ملاديف) فهى ألف جزيرة كلها صخرية حجرية أصلها شجرات نابتات وليست بشجرات إنما هى مساكن بناها الحيوان المرجانى الدقيق الذى سخره الله مع ضعفه ليبنى الجزائر فى البحر ويخططها لتكون مسكن الحيوانات بعد ذلك وموطن الأشجار النافعة للانسان والحيوان ، والجزيرة الواحدة من تلك الجزائر يبلغ محيطها فراسخ عديدة تتكسر أمواج المحيط على جوانبها الناصعة البياض « فتبارك الله أحسن الخالقين » .

فصل : فى اللؤلؤ

وهل أتاك نبأ ماعرفته أنا بعد مارأيته فيما تقدم ؟ رأيت عجبا . ذلك أن عادة علماء التفسير أن يقولوا إن اللؤلؤ والمرجان لايخرجان إلا من البحر الملح مع أن الله يقول (منهما) وقد أولوه بما علمت وتابعتهم عليه . فانظر كيف جاء العلم الحديث جارياً على نفس ظواهر القرآن إذ كشفوا أن اللؤلؤ يكون من الماء العذب . فانظر مايقوله الناس اليوم ، فقد جاء فى مجلة « السياسة الأسبوعية » بتاريخ يوم السبت ٢٧ رمضان سنة ١٣٤٤ هجرية — ١٠ إبريل سنة ١٩٢٦ م تحت العنوان الآتى مانصه :

تكوين اللؤلؤ

يتكون اللؤلؤ فى أنواع كثيرة من الحيوانات الصدفية ، أوالمحارية التى تعيش فى الماء العذب أو فى الماء الملح ، وكانت لآلئ الماء العذب شهيرة عند الرومانيين ، وهى تستخرج حتى الآن من بعض جهات فى أمريكا والصين وغيرها ، وأجمل نوع من اللؤلؤ هو مايتكون فى الحيوانات الرخوة الصدفية التى تعيش فى البحار

الحارة، والحيوان موجود داخل محارتين منطبقتين على بعضهما، ويوجد منها نحو الثلاثين نوعا . وأهم هذه الأنواع ثلاثة :

أولا : مليجرينا مرجريتيفرا : وهو الاسم العلمي، وهو حيوان صدفي كبير، يصل قطره إلى قدر ثلاثين سنتيمترا، ويصل ثقله إلى نحو عشرة الكيلوجرامات، ويعيش في المحيط الهندي والبحر الأحمر ، وفي بحار الهند وسيلان وفي الاقيانوسية، ويوجد اللؤلؤ فيه بنسبة لؤلؤة في كل أربعة حيوانات .

ثانيا : مليجرينا وديانا : وهو حيوان صدفي أصغر حجما من الأول ، لأن قطره يصل إلى اثنى عشر سنتيمتراً، وثقله لا يزيد عادة عن مائتي جرام، وهو يعيش في أغلب البحار الحارة، وخصوصا في البحر الأحمر والخليج الفارسي .

ثالثا : مليجرينا امبريكانا : وهو حيوان صدفي صغير يعيش في البحار الغربية لشواطئ استراليا ، وهو يخالف النوعين السابقين في أنه يعيش في مكانه ملتصقا على الصخور بعضو خاص ، لهذا النوع من الأصداف عضو اسمه (البسوس) توجد هذه الأصداف على شكل جماعات عديدة الأفراد .

واللؤلؤ اللطيف الشكل الجميل الماء (كما يقولون) هو مايسمى باللؤلؤ الحر أو الصافي ، وهو ذو القيمة التجارية الهائلة ، وهو مايطلق عليه عادة اسم اللؤلؤ ، ولا يستخرج أغلبه الآن إلا من الحيوانات البحرية التي سبق ذكرها . وأغلاه ما كان جميل الماء، كروي الشكل ، أو مماثلا للكمثرى في شكلها ، وتختلف ألوانه فمنه الأبيض ، وهو أكثر شيوعا بين الناس، ومنه الرمادي والوردي، والأخضر والأحمر والأصفر والأسود والأزرق ؛ واللؤلؤ الأسود نادر جدا وقيمته التجارية كبيرة .

وهناك نوع من اللؤلؤ الحر ذو لمعان ذهبي جميل، يفضله بعض الغاوين على غيره ، وما يجعل للؤلؤ هذه القيمة الاقتصادية المعروفة هو لمعانه وماؤه ولونه ، وبمرور الزمن وكثرة الاحتكاك في استعماله وتأثير العرق (وهو سبب غير أكيد) يذهب اللمعان والماء ، إذ يبخر كمية من الماء الذي يكون ضمن المواد المكونة لهذا اللؤلؤ فيقول إذ ذاك العارفون : إن اللؤلؤ مات . وهناك أنواع من اللؤلؤ تموت قبل غيرها بمدة طويلة أو قصيرة رغما من وجودها في نفس الظروف المفروض أنها هي سبب الموت، وهذا الاختلاف يرجع إلى ماسماه الأستاذ (دوبوا) ضعف اللؤلؤ أو قوته، ففي نظر هذا العالم هنالك أمزجة مختلفة في اللؤلؤ تجعل بعضه يتحمل المؤثرات الخارجية ، والبعض الآخر لايتحملها فيموت البعض قبل البعض الآخر .

وموت اللؤلؤ هو السبب في أن أغلب لآلىء الصاغ المحفوظ في المتاحف ذهب ماؤها ، واندثر لمعانها . واللؤلؤ الكروي أو القريب منه هو أغلاه . وهنالك أنواع من اللؤلؤ نصف كروية تسمى بأنصاف اللآلئ وهي أقل قيمة من الأولى، وتستعمل في أنواع المصانع التي لايرى فيه إلا أنصاف اللآلئ كرءوس الدبابيس وماشابه ذلك . انتهى ماجاء في المجلة المذكورة ؛ وبهذا تم الكلام على اللطيفة الثانية، والحمد لله رب العالمين.

جوهرة في قوله تعالى :

« يرسل عليكما شواظ من نار ونحاس فلا تنتصران »

تأمل في هذه الآية من [وجهين : الأول] أنه عبر عنها بشواظ من نار وفيا تقدم بقوله : «من مارج من نار» والشواظ والمارج كلاهما اللهب الخالص ، فلماذا جعل الجان مخلوقا من مارج ولم يقل من شواظ ؟ فاعلم أن المارج فيه معنى الاضطراب كما تقدم ، وقد أبنت ذلك هناك ، وهذا الاضطراب يفيد اضطراب الروح كما تقدم في علم الأرواح . وأيضا اختلاط الألوان الآن معروف في التحليل فهو من هذا القبيل ، فانما

أعدت الكلام فيه لورود هذا اللفظ هناك ولم يرد هنا ، فان ذكره هناك لهذا الغرض ، وهذه الفكرة لم تعلم قط إلا فى زماننا هذا فان تحليل الضوء والعلم بأنه مختلط والاطلاع على عالم الأرواح الناقصة وأنها مضطربة لم يكن إلا فى زماننا ، وهذا من أعاجيب القرآن التى لاتدرك إلا بقراءة العلوم ، وليس يعقلها الناس بفن البلاغة المعروف ؛ فلا أصحاب المعلقات يدركونها ، ولا الذين بعدهم يعلمونها، فهل لمثل امرىء القيس ، أو لأبى العلاء أو المتنبى أن يتناولوا هذه المعانى فى أقوالهم ؟ كلا . فهذه بلاغة لا تخطر ببالهم ، وأنى لهم علم الروح حتى يخصصوها بلفظ مارج ، وعند إنزال العذاب يذكرون الشواظ (الوجه الثانى) أن الشواظ والنحاس الواردين فى الآية لهما نظائر فى أحوالنا الإنسانية اليوم كما تقدم ، ولكنى أريد أن أزيدها أيضا :

(١) الناس محبوسون فى شهواتهم كشرب الدخان ، والخمر ، والكوكايين .

(٢) فى أنواع من الطعام .

(٣) فى أنواع من اللباس .

(٤) فى أنواع من الزينة .

(٥) فى أنواع من العادة .

(٦) فى أوطانهم .

(٧) فى دياناتهم .

(٨) فى أرضهم لايخرجون عنها إلى المريخ .

(٩) وكل محبوب عند نفوسنا إذا فارقناه أحسسنا بآلام للفراق ، فنحن للأوطان ولمن نعشقهم ، ونحزن لفراق المألوفات من مال وولد وملك وجاه وما أشبه ذلك ، ولا فراق إلا يصحبه حزن والحزن يعبر عنه الناس بالنار ، يحسون بها فى باطنهم وقد يتعدى الباطن فيورث الحمى والسهر فيقول شاعرهم متحسرا :

يا ليل مالك آخر ... يرجى ولا للشوق آخر
يهنيك بدرك حاضر ... ياليت بدرى كان حاضر
حتى يبين لناظرى ... من منهما زاه وزاهر

والأشعار كثيرة نبغ فيها أسلافنا ، وكلها تصف الأشجان والفراق ونار البعد والحسرة والتوجع فهذه الآية وإن كانت فى أمر الآخرة فهى من جوامع الكلم شملت أحوال الناس من حيث طباعهم فى الدنيا والآخرة ، لأن (من كان فى هذه أعمى فهو فى الآخرة أعمى وأضل سبيلا) ومثل هذه المعانى لن يتصورها الشعراء قديما وحديثا . انتهى تفسير القسم الثانى من السورة .

القسم الثالث فى عجائب عالم الآخرة

قال تعالى (فإذا انشقت السماء فكانت وردة) أى حمراء فهى كلون الورد الأحمر (كالدهان) أى مذابة كالدهان ، وهو اسم لما يدهن به بوزن الحزام أو جمع دهن (فبأى آلاء ربكما تكذبان ، فيومئذ) أى فيوم تنشق السماء (لايسأل عن ذنبه إنس ولا جان) لأنهم يعرفون بسماهم ، وذلك حينما يخرجون من قبورهم ويحشرون إلى الموقف وبعد ذلك يسألون (فبأى آلاء ربكما تكذبان ، يعرف المجرمون بسيماهم) هناك ، ولقد عثر النوع الإنسانى مع قلة علمه على قليل من ذلك فانتفع به فى حصر المجرمين وإذلالهم ، فهاهى ذه

حكومتنا المصرية قد جعلت إدارة خاصة لعلامات المشتبه فيهم ، وذلك أن لكل امرئ خطوطا خاصة في إبهامه لاتشابه خطوط غيره، ولا يحصل التباس ، فمتى أخذوا صورتها على الورقة لم يفلت ذلك المجرم . إذ يعرفونه بتلك العلامة التي لايشاركه فيها سواه في الشرق ولا في الغرب ، وهذا أيضا في أوروبا وجميع العالم الإنساني (١) وهناك بعض العرب في البادية يعرفون الانسان بأثره ويرثها الابن وراثة طبيعية ، وذلك مشهور في طوائف قليلة من الناس وهو من خاصيتهم . وإذا كان هذا في الدنيا فما بالك بيوم القيامة عند من يعلم الغيب . والحاصل أن لكل امرئ أحوالا تخصه في جسمه ، وفي عقله وأخلاقه يعرف الناس قليله الآن وبقية علمه عند الله يعلمه للملائكة وهم يعرفونهم بسيماهم (فيؤخذ بالنواصي والأقدام) مجموعا أو يؤخذون بالنواصي تارة والأقدام أخرى (فبأي آلاء ربكما تكذبان ، هذه جهنم التي يكذب بها المجرمون، يطوفون بينها) بين النار يحرقون بها (وبين حميم) ماء حار (آن) ماء حار قد انتهى حره . فهم يسعون بين الجحيم وبين الحميم ، فاذا استغاثوا من النار جعل عذابهم الحميم الآني الذي صار كالمهل ، والمهل هو دردي الزيت أي عكره (فبأي آلاء ربكما تكذبان) والنعم في هذا نجاة الناجي منه بفضله ورحمته وأن في الانذار به تنبيها وإيقاظا (ولمن خاف مقام ربه جنتان) أي قيام ربه عليه يعني اطلاعه عليه ، فاذا هم بمعصية ذكر الله وأنه مطلع عليه فتركها من مخافة الله ، فمثل هذا يراقب الله في السر والعلانية ، فيفعل الخير للناس في جوارحه ويحب لهم الخير بقلبه ، ويزداد علما يملأ قلبه ؛ فمثل هذا ينال جنتين : جنة روحانية لقلبه ، وجنة جسمانية على شاكلة ما عمل في الدنيا ، فهو في جنات ونعيم ، وقلبه مطلع على جمال الملكوت ناظر لربه ، أو يكون أولا في الجنات الحسية ، ثم تلطف روحه شيئا فشيئا ، وكلما خلعت عاداتها الغليظة لطفت ولا تزال تلطف وهي في الجنات الحسية، ونور علمها يزداد بالجنة الروحية . وهكذا يستمر ازدياد المعنويات ونقص الحسيات حتى تخلص الروح من العوالم كلها وتكون إلى ربها ناظرة . وهذا هو غاية المراد .

وهذا التقرير قد رأيت بعض مايشير إليه في كلام محيي الدين بن عربي، إذ قال: « إن الروحية يكون لها سلطان على الجسمانية » وهذا بعض ما قلناه ونقلته أيضا عن علماء الأرواح في العصر الحاضر ، وقوله (فبأي آلاء ربكما تكذبان ، ذواتا أفنان) أي أغصان جمع فنن وهو الغصنة التي تتشعب من فروع الشجر ، ولاجرم أن الفنن هو الذي يورق ويثمر ويمد الظل ؛ لذلك خصه بالذكر (فبأي آلاء ربكما تكذبان ، فيهما عينان تجريان) حيث يشاءون في الأعالي وفي الأسافل (فبأي آلاء ربكما تكذبان ؛ فيهما من كل فاكهة زوجان) أي صنفان ونوعان. وروى أن فاكهة الدنيا كلها لها مناظير في الجنة ، وهذا المقام له تحقيق مر في (سورة البقرة) في أولها (فبأي آلاء ربكما تكذبان، متكئين على فرش بطائنها من إستبرق) الفرش جمع فراش، والبطائن جمع بطانة، والاستبرق ديباج ثخين ، ومتكئين حال من الخائفين ، لأن من خاف في معنى الجمع (وجنى الجنتين) ثمرها (دان) يناله القائم والقاعد والمضطجع (فبأي آلاء ربكما تكذبان، فيهن قاصرات الطرف) أي في الجنان المدلول عليها بالجنتين لكل خائف وبتعدد الخائف يتكاثر عدد الجنان ، نساء قصرن أبصارهن على أزواجهن لاينظرن إلى غيرهم (لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان) الطمث الجماع بالتدمية : أي لايمس الانسيات إنسي، ولايمس الجنيات جني (فبأي آلاء ربكما تكذبان ، كأنهن الياقوت) صفاء (والمرجان) في حمرة الوجنة، أو أن ألوانهن بياض مشرب بحمرة؛ فالبياض كاللؤلؤ ، والحمرة كالمرجان ، فتعاشق اللونين يحدث منظرا جميلا،

---

(١) قد تقدم الكلام على هذا المقام موضحا بالصور والأشكال في هذا التفسير عند آية « حتى إذا ماجاءوها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون» في سورة فصلت في المجلد التاسع عشر .

وهو أحسن الألوان (فبأى آلاء ربكما تكذبان، هل جزاء الإحسان) فى العمل (إلا الإحسان) فى الثواب وهو الجنة (فبأى آلاء ربكما تكذبان ، ومن دونهما جنتان) أى ومن تينك الجنتين الموعودتين للخائفين جنتان لمن دونهم من أصحاب اليمين (فبأى آلاء ربكما تكذبان، مدهامتان) خضروان تضربان إلى السواد من شدة الخضرة، فينبت فى هاتين الجنتين النبات والرياحين القريبة من وجه الأرض أو المنبسطة عليها، وأما أولئك فلهم أشجار فيها فواكه وفرق بين المقامين (فبأى آلاء ربكما تكذبان ، فيهما عينان نضاختان) فوارتان بالماء، ووصف الأولين أجمل (فبأى آلاء ربكما تكذبان، فيهما فاكهة ونخل ورمان، من عطف الخاص على العام تفضيلهما لفضلهما، وأيضا الرمان فاكهة ودواء، وثمر النخل فاكهة وطعام فليسا خالصين للتفكه . ولذلك قال أبو حنيفة رضى الله عنه : إذا حلف لايأكل الفاكهة فأكل رطبا أو رمانا لم يحنث، وخالفه صاحباه (فبأى آلاء ربكما تكذبان) .

واعلم أن الفاكهة إما عطرية كالتفاح ، وإما مائية كالبطيخ ، وإما حمضية كالليمون ، وإما زيتية كالزيتون ، وإما سكرية كالتمر ، وإما غير ذلك كثمر التوت . وقوله تعالى : (فيهن خيرات حسان) أى خيرات (بتشديد الياء) فهن أقل من السابقات لأن هؤلاء لسن أخير ، لأن خير بمعنى أخير لا يجمع ، وحسنهن فى الخلق والخلق (فبأى آلاء ربكما تكذبان ، حور مقصورات فى الخيام) أى قصرن فى خدورهن والمرأة القصيرة والقصورة والمقصورة المخدرة (فبأى آلاء ربكما تكذبان ، لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان ، فبأى آلاء ربكما تكذبان، متكئين على رفرف خضر) الرفرف الخضر الوسائد الخضر جمع رفرفة (وعبقرى حسان) العبقرى منسوب إلى عبقر تزعم العرب أنه اسم بلد الجن فينسبون إليه كل شئ عجيب. وهو جنس يدخل فيه كل أمر غريب كالديباج الجيل والطنافس وغيرها .

ثم اعلم أن العبقرى أيضا كل جليل نفيس فاخر من الرجال وغيرهم فهو أعم مما هنا . قال صلى الله عليه وسلم فى عمر «فلم أر عبقريا يفرى فريه» ووصف العبقرى بالحسان لحمله على المعنى (فبأى آلاء ربكما تكذبان، تبارك اسم ربك) تعالى اسمه ، وإذا كان الاسم يتعالى فما بالك بذاته تعالى ! (ذى الجلال والإكرام) ذى العظمة والإنعام لأوليائه ولغيرهم فيعطى كلا ماهو أهله .

عن عائشة رضى الله عنها قالت: «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا سلم من الصلاة لم يقعد إلا مقدار مايقول: اللهم أنت السلام، ومنك السلام، تباركت ياذا الجلال والإكرام» أخرجه أبو داود والنسائى غير قولها «لم يقعد إلا مقدار مايقول» .

وروى مسلم عن ثوبان قال « كان صلى الله عليه وسلم إذا انصرف من صلاته استغفر ثلاثا وقال اللهم أنت السلام إلى ياذا الجلال والإكرام » .

لطيفة فى قوله تعالى :

« كل من عليها فان » ، وقوله : « تبارك اسم ربك ذى الجلال والإكرام » .

لما ذكر الله نعم الدنيا ختمها بفنائها، وأن الباقى هو الله، ولما ذكر نعم الآخرة ختمها بأن الله ذو العظمة والإنعام على العباد وجميع المخلوقات، وتكون نتيجة السورة هكذا : الدنيا كلها نعم ولا يبقى سوى المنعم ، والآخرة كلها نعم للخائفين ومن دونهم ، والله هو مستحق للتسبيح والتنزيه : فهو ذو الجلال ، ومستحق للحمد على النعم لأنه ذو الإكرام ، فتكون النتيجة أن هذه الدنيا ومابعدها نتيجتهما العلم ، لأن الحمد لا يكون إلا على العلم بالمحمود عليه ، وبالاختصار أعظم نعيم فى الجنة العلم ، وقد رمز له بالإكرام ،

إذ لا أعرف إكرام الله إلا إذا درست نعمه ، ومن أعطى إنسانا نعمة فوجده يجهل فيمتها لا يعاود إنعامه عليه ثانيا، ولسنا نعرف نعم ربنا لنشكرها إلا إذا درسناها فى هذه الدنيا ؛ فانظر إلى أول السورة كيف بدئت بالرحمة و بالعلم والتعليم ، وختمت بما يشير إلى الحمد ، وما بينهما راجع لهما، فالشمس والقمر والشجر والميزان العام فى السموات والأرض ، وبقية النعم المتقدمة لاتعرف إلا بدراستها ، وبهذه الدراسة يمكننا أن نشكر الله بالقلب بحيث نخلص لله وللناس، وباللسان بالثناء على الله بالحمد ، وبالأفعال بحيث نحسن ونتصرف بالخير بأيدينا .

إن (سورة الرحمن) نزلت إيقاظا للمسلمين أن يكونوا مفكرين حتى يدرسوا النعم وإذن يكونون حامدين لربهم الذى أكرمهم ، والسورة فيها تعريض بأن من جهل النعمة كأنه كذبها ، وفى هذا ماهو كالانذار لمن جهلوا هذه النعم؛ والمسلمون اليوم أقل الأمم علما بعلوم الكائنات . وقد آن أن يرجع لهم مجدهم ويعرفوا نعم ربهم ، ويسابقوا لنيل الخيرات ، والحمد لله رب العالمين اهـ .

اللطائف العامة فى هذه السورة(١)

اللطيفة الأولى فى قوله تعالى : « ووضع الميزان » مع قوله « مرج البحرين يلتقيان » الخ .

اللطيفة الثانية فى عجائب الحسبان فى سورة الرحمن .

اللطيفة الثالثة فى قوله تعالى : « يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان » .

اللطيفة الأولى فى قوله تعالى:

« ووضع الميزان ألا تطغوا فى الميزان» مع قوله « مرج البحرين يلتقيان بينهما برزخ لايبغيان » .

لك الحمد اللهم على نعمة العلم وبهجة الحكمة ، أنت معلم المعلمين ، وملهم الصالحين ، ومرسل الأنبياء والمرسلين ، تباركت وتعاليت ، قد هديتنا وعلمتنا وأعنتنا على إبراز ماوقر فى النفس من نعمة العلم والحكمة أنت الرحمن الرحيم ، وبرحمتك أذعت العلم بين الأمم ، وأنزلت القرآن ، وأبدعت فى خلق الإنسان ، وربيته وعلمته البيان ، فعلم خواصه علما يقينا أن الكواكب كلها بحساب ، ودرسوا أنواع النبات فألفوها ذات بهجة ونظام ، ودرسوا العلويات فألفوها حسنة القوام ، جميلة الإبداع ، رفيعة المقام ، مشرقة مبهجة منعشة مسعدة للأنام ، ورأوا كل مخلوق متزنا بميزان لانقص فيه ولا خلل ولا زيادة فى الميزان ، وبهذا الميزان حفظت الكواكب فى مداراتها ، والسيارات فى أبراجها، والحيوانات فى مسارحها ، وأزهر النبات وأثمر الشجر وسعد بالحياة نوع الانسان .

هذه هى الآلاء والنعم الكبريات ، ولما أفضت على من نعمك العلمية وأردت أن أشرح الميزان ألفيت المقام متسعا ، والمجال فسيحا ، بل هو بحر لجى لايعرف مداه ، ولا يدرى منتهاه ، ولقد تذكرت اليوم ما اتفق لى فى زمان الشباب إذ كنت أفكر فى نظام السموات والأرض، فقرأت للامام الغزالى جملة هذا معناها : [لايعرف الميزان إلا من درس جميع العلوم] فطار إذ ذاك لبى وحار فكرى ، وأخذت أنشد المعارف . وأبحث فى كل تليد وطارف ، وأسأل كل عارف وغير عارف ، ودرست ماقدر لى ، ثم ألفت كتاب

---

(١) يقول المؤلف : هذه اللطائف لم يكن لها وجود عند التأليف ، ولم يفتح الله بها إلا عند تقديم هذه السورة للطبع .

[جواهر العلوم] وأتبعته بكتاب [ميزان الجواهر] تذكرة بما قاله الإمام الغزالى رحمه الله تعالى ، وهل كان يدور بخلدى أو يخطر ببالى أن أعيش حتى هذا الزمان ، وأن أؤيد بروح منك فأفسر القرآن ، وأصل إلى سورة الرحمن كما هى الحال الآن فأفسر آية : «ووضع الميزان ألا تطغوا فى الميزان» .

هذا لم يكن ليخطر لى ببال ، ولم تسكن نفسى تشرئب إلى ذلك المقام، وفى هذا المقام أنشد قول القائل :

وإذا العناية ساعدتك عيونها ... نم فالمخاوف كلهن أمان

واصطدبها العنقاء فهى حبائل ... واقتدبها الجوزاء فهى عنان

فاذا كنت موقنا أن العناية ساعدتنى فى التفسير عامة ، فبالعناية الإلهية أبتدئ فى تفسير هذه الآية التى يشمل معناها جميع ماتضمنه الوجود من النظام ، وأجتزئ بأن أذكر طرفا يسيرا من ذلك النظام :

(١) فأبتدئ بذكر حقائق الجماد بوصف بعض الأحجار الثمينة .

(٢) ثم أقفى بالإشارة إلى نظام النبات .

(٣) ثم أذكر بعض الحيوان الذى يعيش فى البحر .

(٤) ثم أقفى على آثاره بعجائب خلق الحيوان الذى يعيش فى البحر صغيرا . وفى البر كبيرا ، وهو الضفادع التى يرى العاقل فى نموها وتدرجها من العجائب ماتخر له العقلاء سجدا من تلك المادة الهلامية التى تحيط بالبيض وتأخذ فى رفعه كلما زاد نموه حتى تصل به إلى سطح الماء فيكون إذ ذاك قد فقس البيض ؛ فأما المادة الهلامية فانها تنحل بتدبير آخر وإبداع عجيب .

(٥) ثم أقفى بذكر بعض حيوان البر وأبتدئ بالعنكبوت، وأبين كيف يبتدئ فى نسجه وهيئةسيره فيه مما لم يتقدم له نظير حتى تعلم أيها الصديق أن تلك العناية التى أحاطت بأجسام الحيوان نفذت إلى إدراكه وغرائزه فأخذ ينظم أعماله كما نظمت هيئة جسمه وكأنه تلميذ تربى فى معهد جسمه المنظم فأخذ ينسج على منواله .

(٦) ثم أتبعه بذكر عجائب النحل وإبداعه فى عمله مما لم يسبق له نظير فيما مضى ، وكيف كان منه بناءون ونساجون ونجارون وغيرهم .

(٧) ثم أذكر مايقرب منه وهو الزنبور ؛ وكيف يغلف عشه بما يشبه الورق فيكون ذلك الغلاف سببا لدفء صغاره داخل خلاياه التى بناها ونظمها .

(٨) ثم أختم المقام بذكر النمل وعجائبه التى لم يسبق لهانظير مثل النجارين منه والبنائين الذين يبنون أبراجا سترى بعضها قريبا ، وإليك تفصيل ما أجملناه .

فأولا لا أقف عند مافى الجماد من إبداع وإتقان ونظام مثل (الزمرد) (انظر شكل ١) : ومثل الياقوت الأزرق البلورى (انظر شكل ٢) . ومثل الزمرد البلورى المركب (انظر شكل ٣) . ومثل أحد الأحجار الكريمة المخضرلونه المسمى بالفرنجة (برل) (انظر شكل ٤) ومثل الحجر المسمي (كوارتز) (انظر شكل ٥) وهاك أشكالها فى الصحيفة التالية :

(شكل ١)

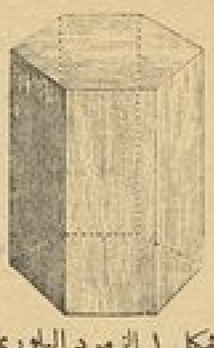

(شكل ١ الزمرد البلورى)

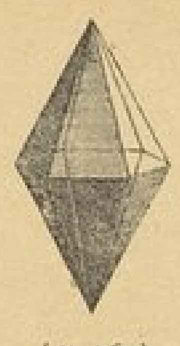

(شكل ٢)

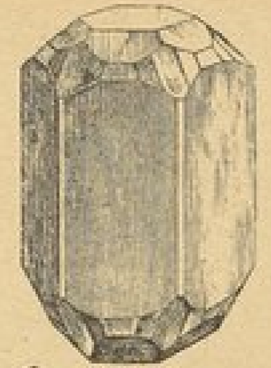

(شكل ٣ زمرد بلورى مركب)

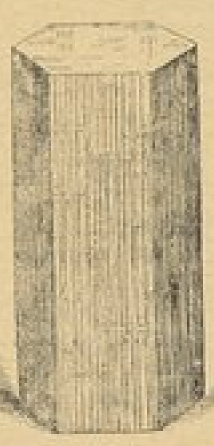

(شكل ٤ ـ برل البلورى ذى الخطوط الطويلة)

(شكل ٥ ـ كوارتز البلورى
ذى الخطوط العرضية المقاطعة)

فهذه الأنواع الخمسة من الأحجار الثمينة نراها ونرى غيرها فى الطبيعة على هيئة البلور مسدسة الأشكال منظمة الأوضاع ، بهجة الألوان ، زينة للدنيا ونورا للعلماء المفكرين ، فهل أقف عند هذه وحدها نموذجا للميزان المنصوب فى الأرض والسماء ؟ كلا . بل أقفى بذكر الميزان فى النبات فأقول :

ثانيا : نرى الحكمة كما سرت فى الجماد ونظمته وأحكمته سرت فيما هو أرقى منه وأبدع وهو النبات كما تقدم فى قوله تعالى فى (سورة الحجر) ، «والأرض مددناها وألقينا فيها رواسى وأنبتنا فيها من كل شىء موزون » وفى هذا التفسير من وزن مايذهل الألباب ، فبأى مقام أذكرك أيها الذكى ؟ :

(ا) أبالمذكور فى سورة (قٓ) .

(ب) أم بالمذكور فى (سورة حمٓ فصلت) .

(ج) أم بما قبل ذلك فى (سورة يسٓ) :

(د) أم بالمذكور قبلها فى (سورة فاطر والسجدة) من تلك الصور البديعة العجيبة ، والأشجار المونقة البهجة الجميلة وأشكالها ، وتشريح سوق الأشجار وانتظام حلقاتها بعدد سنيها من بدائع الحكم المودعة فى النبات ، وكيف كان للأشجار طبقة فوق قشرتها تمنع الماء فى داخلها أن يبخر وتحتها طبقة أخرى تمتد منها شعرات تمنع شدة ضوء الشمس من طغيانها على النبات ، وربما ملئت بسائل حريف أو مر أو نحو ذلك مما يمنع الحيوان عن تعاطى ذلك النبات ، وهناك عجائب الطبقات الخشبية التى جعلت ناقلة الغذاء من الساق إلى فروعه وأوراقه . وعجائب اللحاء التى توصل العصارات التى اكتمل نضجها فى الأوراق إلى بقية الأجزاء فى النبات ، فلقد تقدم هذا هناك موضحا بصوره العجيبة ، ودروسه المنتظمة ، فاقرأه على مكث .

(هـ) أم بما ذكرناه فى (سورة الحجر) عند آية : « وأنبتنا فيها من كل شيء موزون » وهناك ترى شجرات مرسومات منتظمات الدوائر الحاصلات من منابت الأوراق . وفيها بدائع تذهل العقل وتبهج النفس . فبينما نحن نأكل التفاح . ونتفكه به ونظن أن هذا هو المقصود منه فى حياتنا ونفرح به ونقول الحمد لله ، إذا نحن نرى حياة جديدة . نرى الأوراق التى لانأبه لها قد جعلت كل خمس منها مشكلات لدائرة تامة ، بحيث يكون بين كل ورقتين ٧٢ درجة من ٣٦٠ درجة من الدائرة . وفى كل دائرة تامة شكلان حلزونيان . ومن عجب أن الورقة الأولى من الدائرة الأولى على خط مستقيم مع الورقة الأولى من الدائرة التى فوقها . وهكذا الورقة الثانية فيكون هناك فوق نظام الدوائر التامة والأشكال الحلزونية أمر آخر وهو الخطوط المستقيمة المنتظمة فيما بين النظائر فى الدوائر . ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، بل أصبحت هناك نسبة بين تلك الأشكال الحلزونية ودوائرها مع كل الدوائر الأخرى فى نباتات كثيرة وأشكالها الحلزونية حتى إنك ترى هناك سلسلة حسابية منتظمة تسرى فى كل نبات . ولما كان هذا قد تقدم فلا حاجة لاعادته هنا وكفى ماذكرناه تشويقا لمراجعته ، هذا هو الميزان فى النبات وهو المقام الثانى .

ثالثا : فلأخط خطوة فوق ماتقدم إلى حيوان البحر لأنه مقدم على حيوان البر مكتفيا بذكر سمكة تسمى (بلاس) أو (بليس) بإمالة اللام فأقول :

إن هذا السمك الذى يشبه مايسمى فى بلادى المصرية (القنومة) والواحدة منه تضع نحو نصف مليون بيضة وكل بيضة يبلغ قطرها جزءا من ١٢ من البوصة ، وهذا البيض يكون عائما قرب سطح الماء . ونمو الجنين فى البيض يمكن ملاحظة درجاته المختلفة فى داخل البيض (انظر شكل ٦) فى الصحيفة التالية ، و(شكل ٧) فى صحيفة ٣٦

(شكل ٦

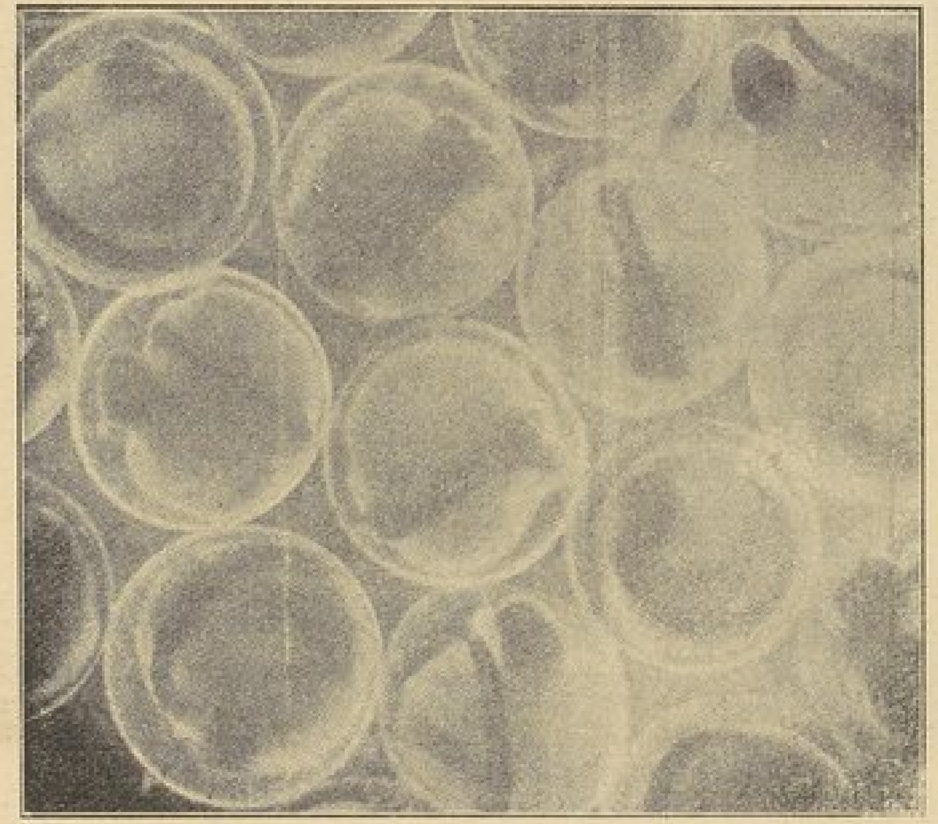

(شكل ٦ ـ نمو سمك بلاس)

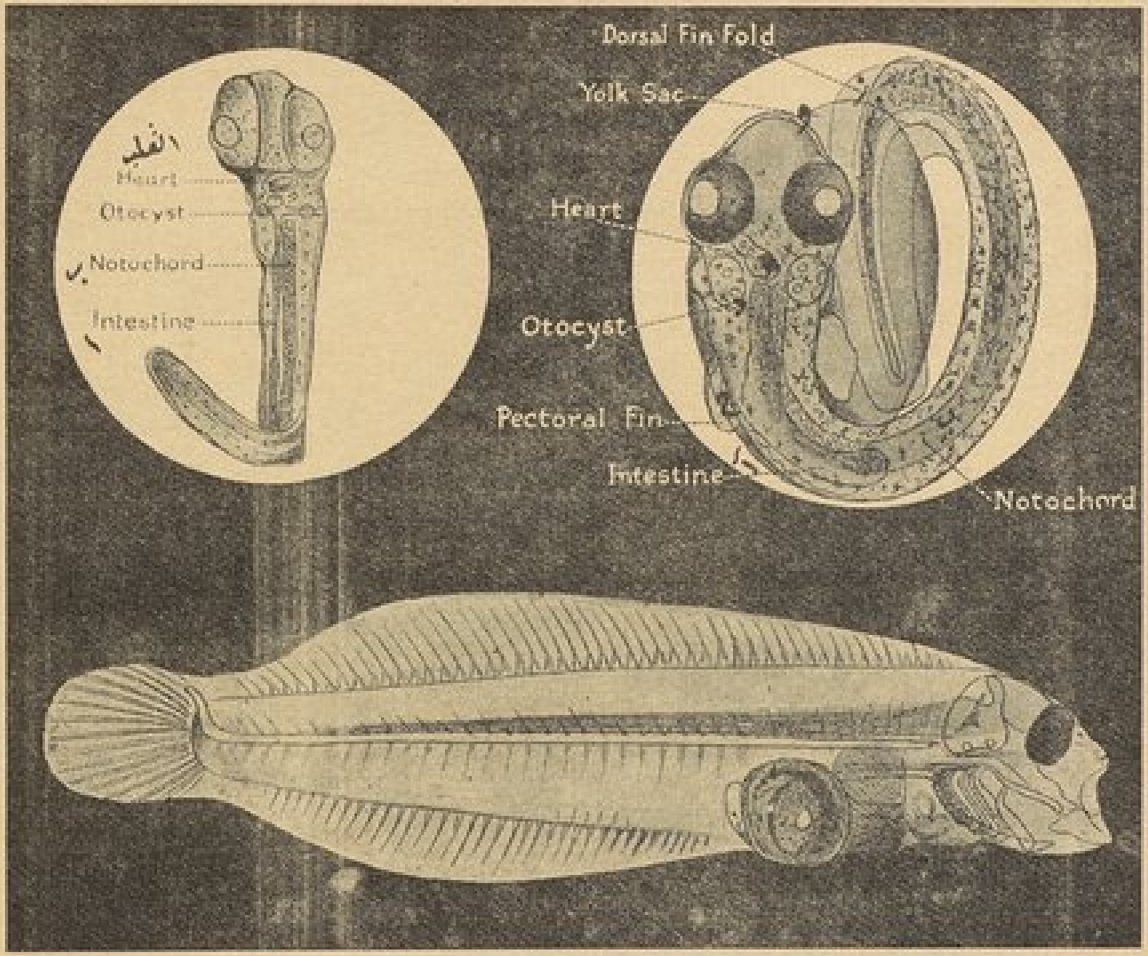

(شكل ٧)

نمو السمك بلاس

(١) إن الصورة العليا اليسرى ترينا جنين السمكة فى اليوم التاسع بعد الالقاح والنقط الصغيرة عبارة عن حواصل ملونة والحجم الطبيعى أقل من جزء من ١٢ من البوصة .

(٢) الصورة العليا اليمنى ترينا الجنين مستعدا للخروج من البيض بعد ١٧ يوما بعد الالقاح. الخلايا الملونة بالسواد أخذت الآن تظهر .

(٣) والصورة السفلى ترينا السمكة الصغيرة نحو ثلاثة أخماس البوصة وهاهى ذه أخذت الآن تأكل المح (صفار البيض) وقد التهمتة جميعه ثم انظر (شكل ٨) فى الصحيفة التالية :

(شكل ٨)

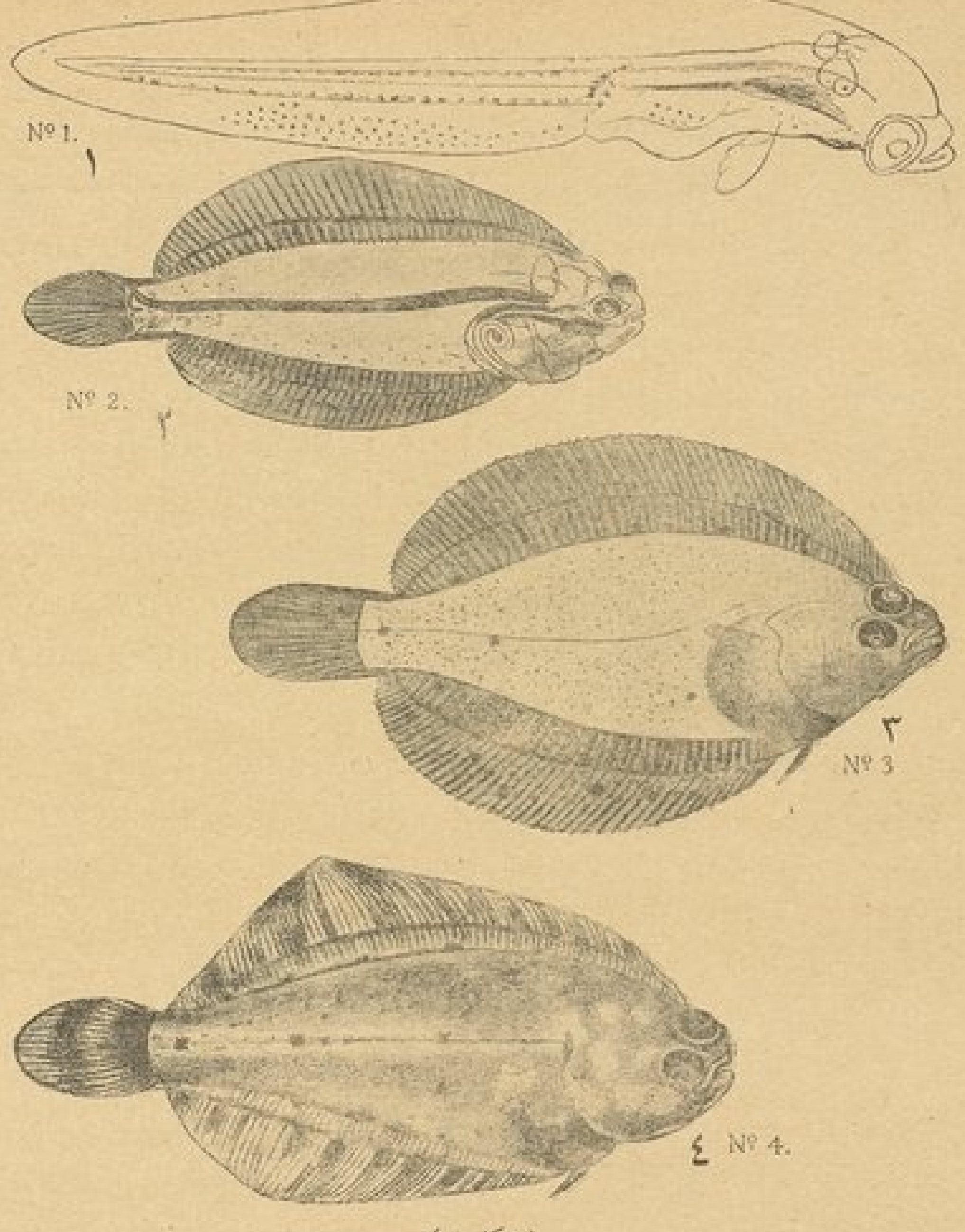

(شكل ٨)

(١) هاهى السمكة الصغيرة تامة مع التوازن المعهود فى السمك.

(٢) ترينا تغيرا واضحا بنجاح ، فالجسم أصبح الآن مسطحا من ناحية إلى الأخرى والعين اليسرى صارت مدورة للجهة اليمنى مائلة نحو الجنب وطولها إلى الآن لا يصل إلى نصف البوصة.

(٣) سمكة شابة وهو تعبير مجازى وصلت الآن قاع النهر هى تستريح تارة وتعوم أخرى على جنبها الأيسر وقد صار طولها بوصة .

(٤) سمكة شابة فى قاع البحر وحويصلاتها الملونة قد أخذت تنحو نحو الجانب الأيمن وهى لا تظهر من الجهة اليسرى نحو الجانب الذى هو فضى اللون أما العينان فانهما جنبا لجنب متجهان إلى أعلى نحو الجانب . انتهى المقام الثالث فى السمك.

رابعاً : هل أقف عند السمك فى الميزان ؟ كلا . بل هناك ماهو أجمل منه وهو عالم الحيوان الذى هو أرقى منه، ولقد مر فى سور كثيرة فى البقرة والأنعام، وسورة المؤمنين ، وسورة النور ، وسورة السجدة ، وفاطر ، وسورة حم فصلت وغيرها، وكنت أود أن أذكر هنا الحيوان الذى يعيش فى البر وفى البحر كعالم الضفادع تتميما للأقسام، ولكن يمنعنى من ذلك أنه قد تقدم مفصلا موضحا بالصور فى (سورة البقرة) فى الطبعة الثانية فإنه هناك أوضح وأجمل وأبدع مما كتب عنها فى (سورة طه) .

ألا ترى رعاك الله أن فيه نوعى الضفادع وكيفية نمو أجنتها، وحسن إبداعها ، وإتقان صنعها ، وكيف يرى بيضها فى الماء على هيئة الخطوط المتوازية ، ولقد فاتنى هناك أن أذكر أن الذى حببنى فى شرحها أننى حينما نظرت ذلك الرسم خطر لى خاطر كان يسنح لى وأنا تلميذ بدار العلوم، ذلك أننا كنا نتعلم فن الرسم وكنا نرسم خطوطا منتظمة، فكنت فى أثناء الرسم أتفكر فى (أمرين : أولهما) أننى فى هذا العمل أعتبر نفسى فى طاعة الله تعالى ، وهذا كان شأنى فى جميع الأعمال .

(ثانيهما) : أنى كنت أثناء الرسم أحس كأنى فى عالم السموات الذى هو عالم منظم ، ورسم هذه الخطوط يذكرنى به .

هذا هو الذى كان يدور بخلدى أيام الدراسة . فلما رأيت رسوم الخطوط لبيض الضفادع المتوازية أذكرنى ذلك فرسمتها وشرحتها ، والحمد لله رب العالمين .

* * *

ولكنى لا أقف فى الميزان عند حد الحيوانات البرية والبحرية . كلا : فلأنتقل للكلام على العنكبوت وهى من الحيوانات التى لا تعيش فى غمرة الماء ؛ وبهذا نبدأ الكلام على عجائب جديدة لم تكن من قبل وبيان أن ماتقدم فى الأحجار الثمينة والنبات والسمك والضفادع ، إن كل ذلك إلا صنعة لم نر صانعها ، فأما هذه الصنائع التى نريد دراستها للبدوءة بصناعة العنكبوت (التى لم يسبق إيضاحها فى سورته كما هنا) فإن أمرها عجب ! نعم عجب للحكيم ، أما الجهال فهم فريقان : فريق هم السواد الأعظم لا يعرفون من العنكبوت ولا من النحل ، ولا من الزنابير ، ولا من النمل إلا ما مس عواطفهم كراهة وحبا ، فيتبرمون من العنكبوت ، ويفرحون بالنحل ، ويخشون الزنابير والنمل ؛

هذه آراء أغلب نوع الإنسان فى أرضنا ، ويلحق بهم أكثر أولئك الذين يتعلمون فى مدارس الشرق والغرب علم التاريخ الطبيعى ، فهؤلاء يقرءون هذه العلوم وأكثرهم لا يدرسه إلا كما يدرس علم النحو أو علم الزراعة كأن أرواحهم لا تعرف إلا الأمور المحسوسة ، أما التفكر والتذكر بل السعادة الحقيقية فإنها هاربة منهم ، بعيدة عنهم ، رحلت من عقولهم ، فهم لا يعقلون ولا يسعدون ، وفريق آخر وهم أقل هذا النوع الإنسانى إذا درسوا أمثال ماسنذكره هنا فإنهم سيدهشون ويقولون نعم رأينا الإبداع فى الأحجار الثمينة البلورية وفى النبات وفى السمك وفى الضفادع ، لأن الذى صنع هذا هو صانع العالم له فلا غرابة فى ذلك ، إنما الأمر المدهش أن صانع نسيج العنكبوت هو نفس العنكبوت ، وصانع خلايا العسل إنما هو النحل ، ويقرب منه الزنبور ، ونرى فى النمل والنحل بنائين ونجارين ، وضباطا وجيوشا ومربين .

فما هذا الحادث الجديد ؟ فهؤلاء يرون أن هذه العوالم ماهى إلا كتلاميذ تربوا فى بيت الحكيم وتحت رعايته فقلدوه ونحوا نحو عمله ، وهل عمله إلا النظام المحكم ؟ مثلا شكل ٩ وهو رسم بيانى لنسيج العنكبوت (انظر الرسم الآتى فى الصفحة التالية) :

(شكل ٩)

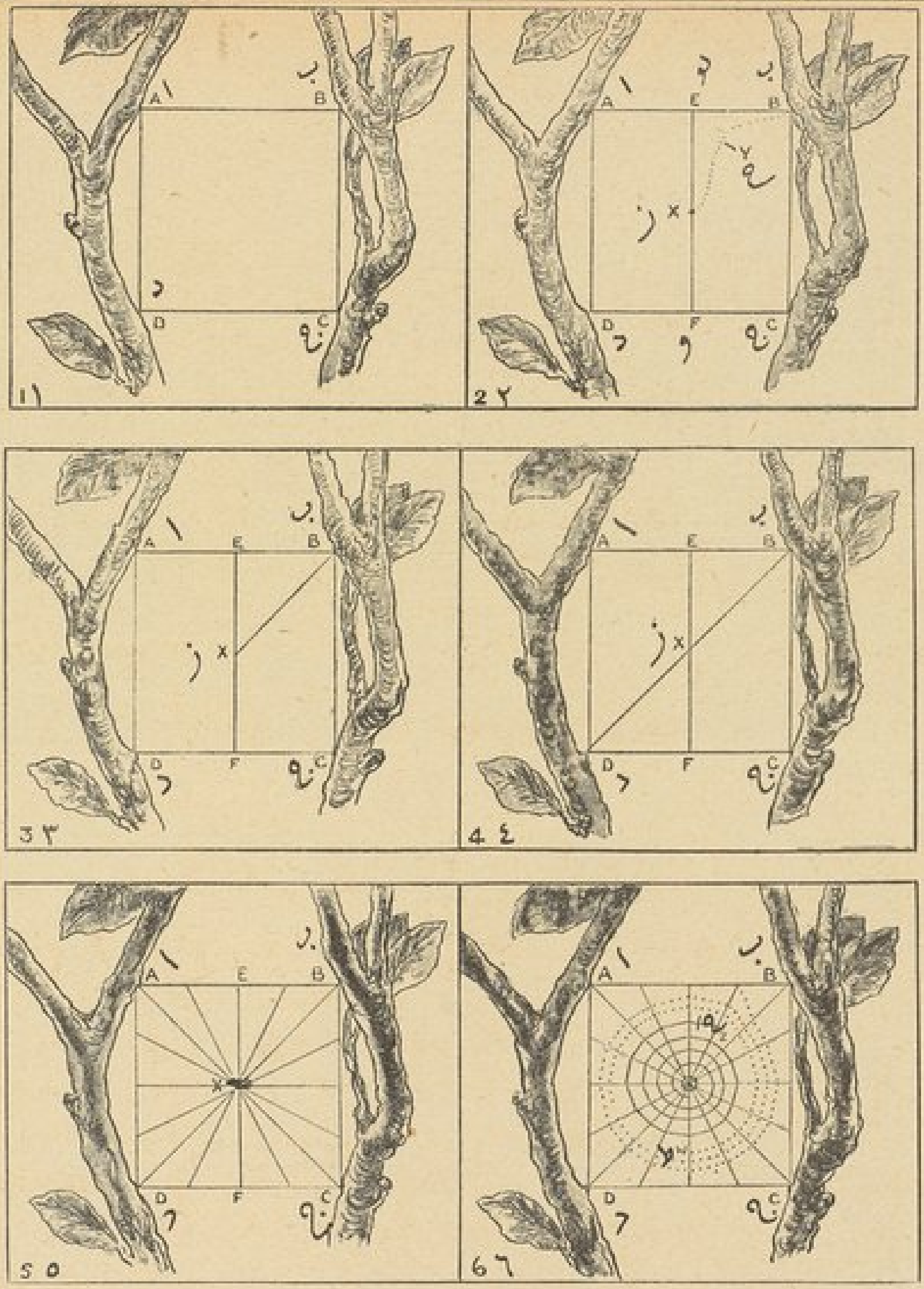

(شكل ٩)

(١) أربع خطوط أصلية (٢) أول خط رأسى (هو) ، (ز) مركز (ح) كيفية صنع الخط الشعاعى (٣) : (ز ب) خط شعاعى (٤) : (ز د) خط شعاعى آخر (٥) خطوط شعاعية صنعت أولا فى جانب ثم صنعت بعد ذلك فى جانب آخر ، وليست هذه الخطوط كلها متساوية ، فهنا أخذت العنكبوت تتم نسجها بإتقان (٦) الخط الأسود الحلزوني الأولى للتف بعضه فوق بعض ينتهى عند (حَ) وأما الخط الحلزونى النقط : أعنى الخط الثانوى الحلزونى فانه ينتهى عند (ط) :

(شكل ١٠ ـ نسيج عنكبوت الحدائق)

(شكل ١١)
(نحل العسل حاملا كرات الطلع الصفراء من هذا النبات المسمى « سم النمر »)

هذه صورة شمسية لنسيج عنكبوت الحدائق ترينا الخط الأعلى الأساسى للنسيج وهو لزج وهذا النساج جالس فى الوسط وربما غادرت العنكبوت ذلك المركز وحينئذ يحمل معه خيطا بسيطا به يقدر أن يميز أى ذبذبة تعرض فى النسيج فكأنها أشبه بآلة التلغراف البرق. انتهى الكلام على القسم الخامس

سادسا وهذا القسم ليس كافيا لمعرفة الميزان فههنا نبدأ فى الكلام على النحل فنقول :

نبتدىء بذكر نبات يسمى سم النمر يشتار منه النحل العسل وهذه صورته انظر شكل ١١

هاهو ذا نحل العسل حاملا كرات الطلع الصفراء من هـذا النبات المسمى سم النمر بالفرنجية وهو بالعربية عابد الشمس .

إن بعض الأزهار يجمع منها النحل ما يصير فى باطنه عسلا ، وبعضها يجمع منه ما يصير غذاء للذرية الصغيرة ، وهى الدود فى الخلايا ؛ وهناك أزهار تصلح للحالين معا ، ويوضح ذلك (شكل ١١) المتقدم ، ثم انظر شكل ١٢

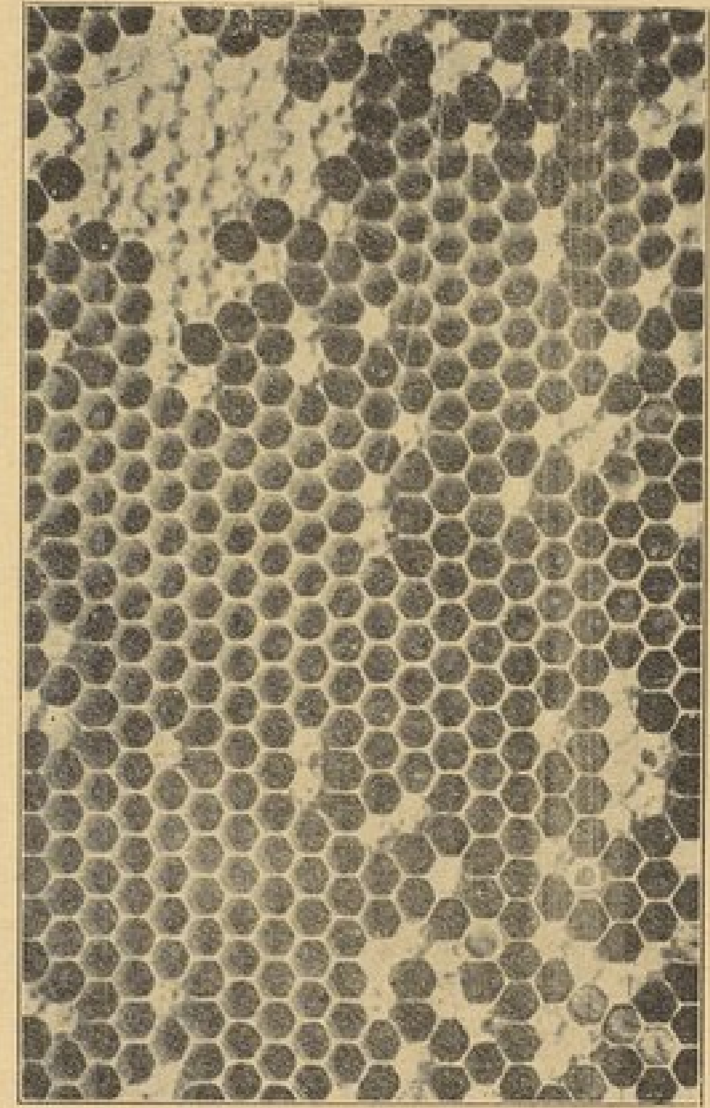

(شكل ١٢)
قرص عرض قرص النحل مع خلايا تحوى دود عاملات النحل
وهى التى تسمى عادة الحضنة

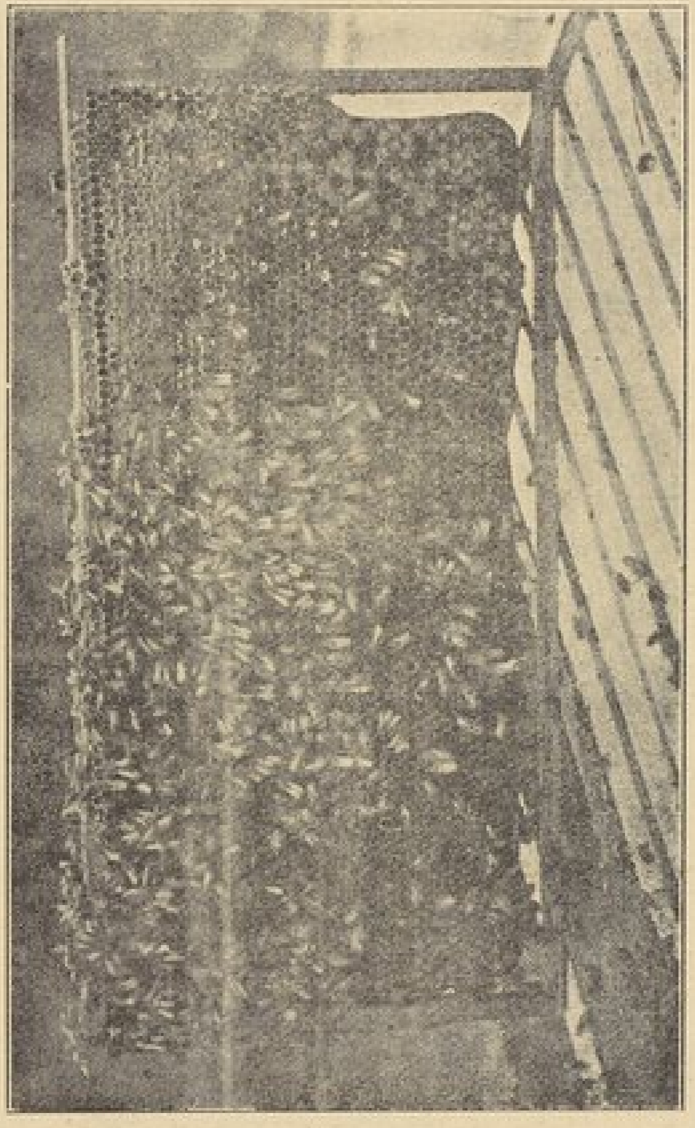

(شكل ١٣ ـ قرص عسل النحل يشتمل على ذكور النحل وعاملاته والخلايا التي فيها العسل)

إن الخلايا التى تربى فيها العاملات من النحل هى الصغريات ، أما التى ينمو فيها الذكور فانها أوسع ، وأما التى فيها الملكات فانها أكثر اتساعا ، وليس فى قفير النحل مايزيد على ست ملكات .

إن الخلايا الخازنات العسل تساوى فى حجمها الخلايا التى تربى فيها ذكور النحل ، هذه القطعة من قرص العسل موضوعة وضعا رأسيا عموديا .

(شكل ١٤

(شكل ١٤ ــ عش النحل الحجرى)

فى هذا العش قد نزع الغطاء الرقيق من فوقه ليظهر القرص وخلاياه ، وقد كسرت خليتان من أعلاها الدودات الصغيرت السمينة البيضاء وهي ذرية النحل ، إن هــذه النحل تعرف بنقطة حمراء فى انتهاء ذيل جسمها الأسود ، وهى لاتصنع عشها أبدا إلا تحت الحجر ، ثم انظر شكل ١٥ وهذه صورته :

(شكل ١٥ ــ هذا عش للنحلة المنفردة وحدها فى هيكل قوقعة الحدائق)

ترى فى الشكل المتقدم (شكل ١٥) نوع النحل الذى يعيش فى عزلة منفردا عن غيره، ولن يعيش إلا فى مكان مجوف، والقوقعة الوسطى تريك نحلة حديثة الولادة قد خرجت حالا من شرنقتها، والصورة اليمنى عبارة عن قوقعة قد كسرت فظهرت فيها الدودة الصغيرة التى تنقلب فيما بعد ذلك شرنقة، وفى كل قوقعة دودتان دائما إحداهما ذكر والثانية أنثى!

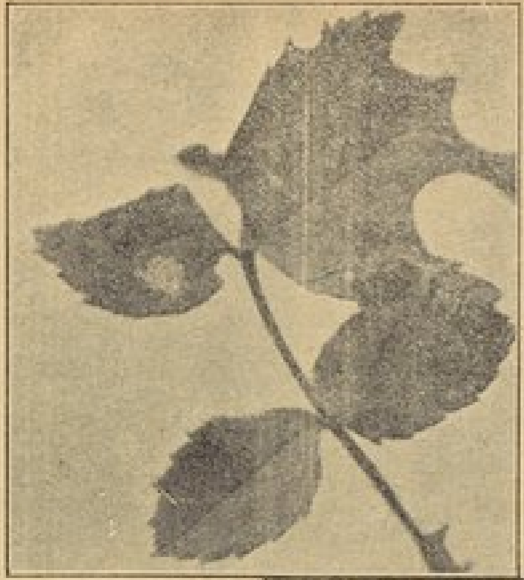

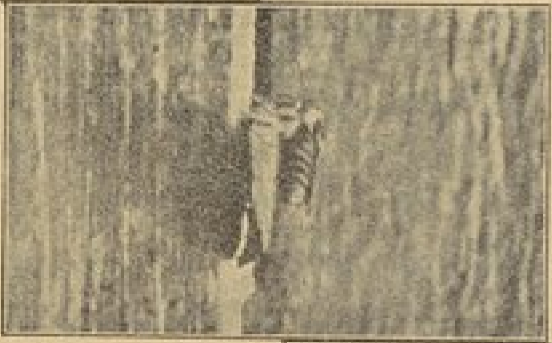

(شكل ١٦)

العليا النحل المستقل بنفسه قطاع الورق الذى حجمه بقدر حجم نحل القفير يقطع الورقة ليتخذ منها بهذا القطع خلية انظر النحلة تعمل وترى فى الجزء الأعلى الأيمن من الورقة فجوتين مقوستين مرتبتين منظمتين وقد قطع منهما أجزاء من الورقة والنحلة تراها فى إحدى الفجوتين وقد خفيت تحت جسمها.

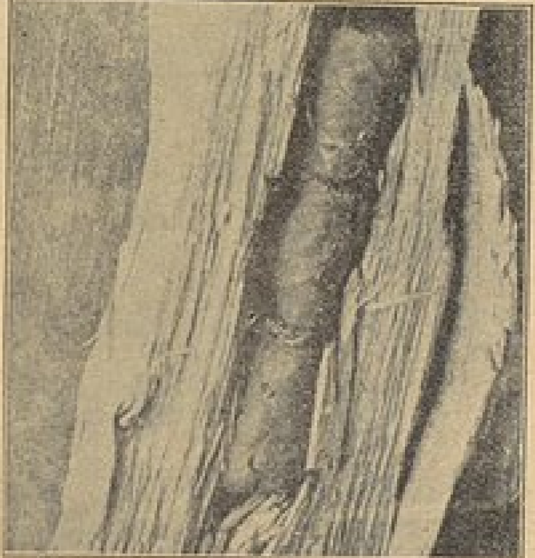

(الوسطى) ههنا النحلة تحمل قطعة من ورقة الورد للخلية ثم الخلايا مركبات من قطع من الورق مقوسة على بعضها والأغطية مصنوعة من القطع الصغيرة :

الخلايا تامة

(السفلى) الأعشاش مصنوعة فى التجاويف والخلايا مرتبة منظمة . آخر كل خلية متصل بآخر الأخرى يظهر من الشكل : إنها لمغتبطة بما صنعت : إن كل خلية مملوءة إلى نصفها باللقاح، وتحتوى على بيضة مفردة ثم انظر شكل ١٧ فى الصفحة التالية .

(شكل ١٧

(شكل ١٧ النحل الثاقب للخشب متعلقا بفكيه فى حالة سكون)

هذا النحل ثاقب الخشب أو النحل النجار يمضى فصل الشتاء فى حالة حياة موقوفة لا عمل له اللهم إلا انه عادة يبحث عن زاوية ليتخذها مأوى . ثم انظر الشكل الآتى فى الصفحة التالية .

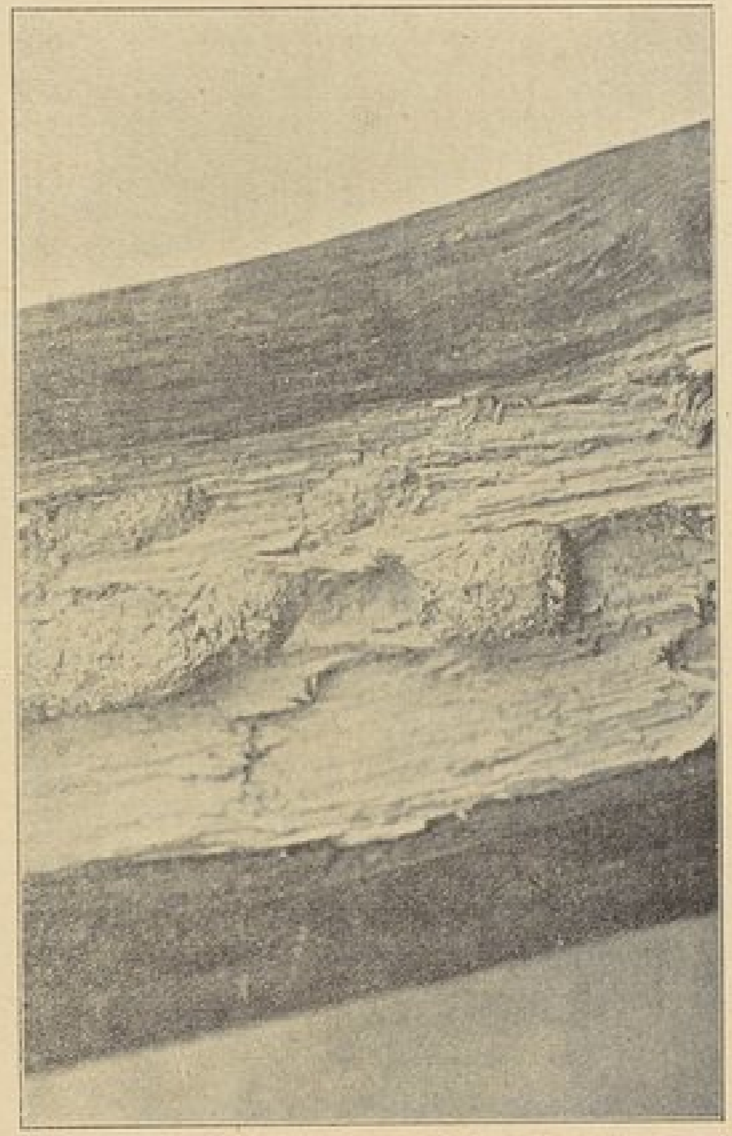

(شكل ١٨ – خلايا النحل ثاقب الخشب)

هـذه الخلايا العريضة التى صنعتها النحلة القوية المتينة مصنوعة من قطع خشبية قد اتسقت وانتظمت بواسطة اللعاب الذى يفعل فعل الغراء . ثم انظر شكل ١٩ الآتى فى الصفحة التالية .

(شكل ١٩

(شكل ١٩ ـ النحل الثاقب للخشب وهو خارج من خليته)

هذه الخلايا التى ينمو فيها جنين النحلة تكون عادة فى أروقة مستطيلة بعريش أساسى مثقوب فى الخشب ، وهذه التى ترى فى أسفل الصورة مفصولة من مركزها الطبيعى والنحل النجار (كما يسمى عادة) أدكن اللون ذو شعر وهو ممتاز مستقل له قوة عضلية ، وهو بها قوى متين ، ثم انظر شكل ٢٠ وهذه صورته :

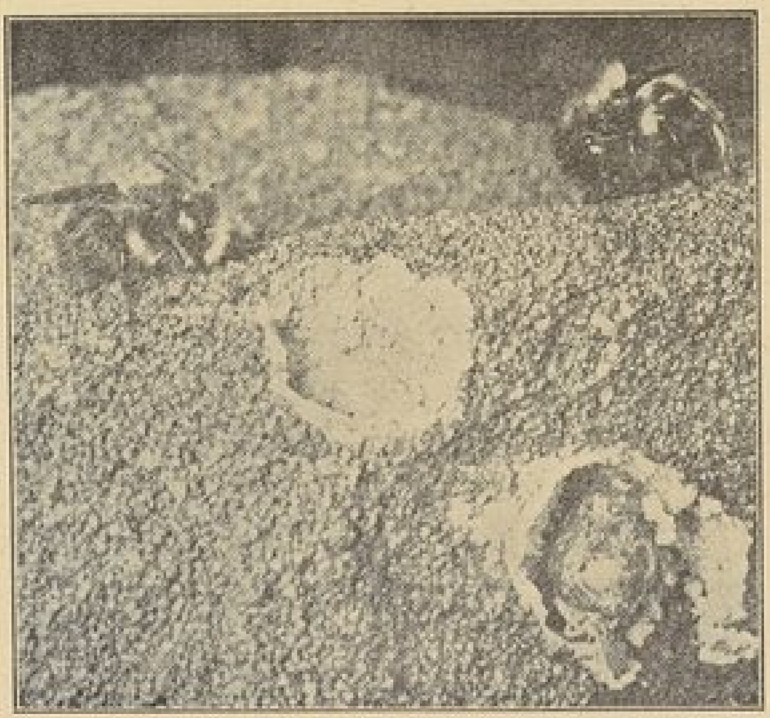

(شكل ٢٠ ـ النحل البناء)

هـذا الشكل أبان خليتين ونحلتين ، النحل البناء المستقل المنفرد قد صنع عشا فى غاية المتانة والقوة من الأرض مخلوطا بسائل من ريقه وهـذا الريق يستعمل للصق الحصيات المصطفيات بحذق ومهارة تامتين ، إن الخلايا حينئذ مملوءات إلى أنصافهن بنوعين مما جنته النحلة وهما الطلع والعسل وبعد أن توضع البيضة تقفل الخلية بمادة الأسمنت. انتهى الكلام على النحل.

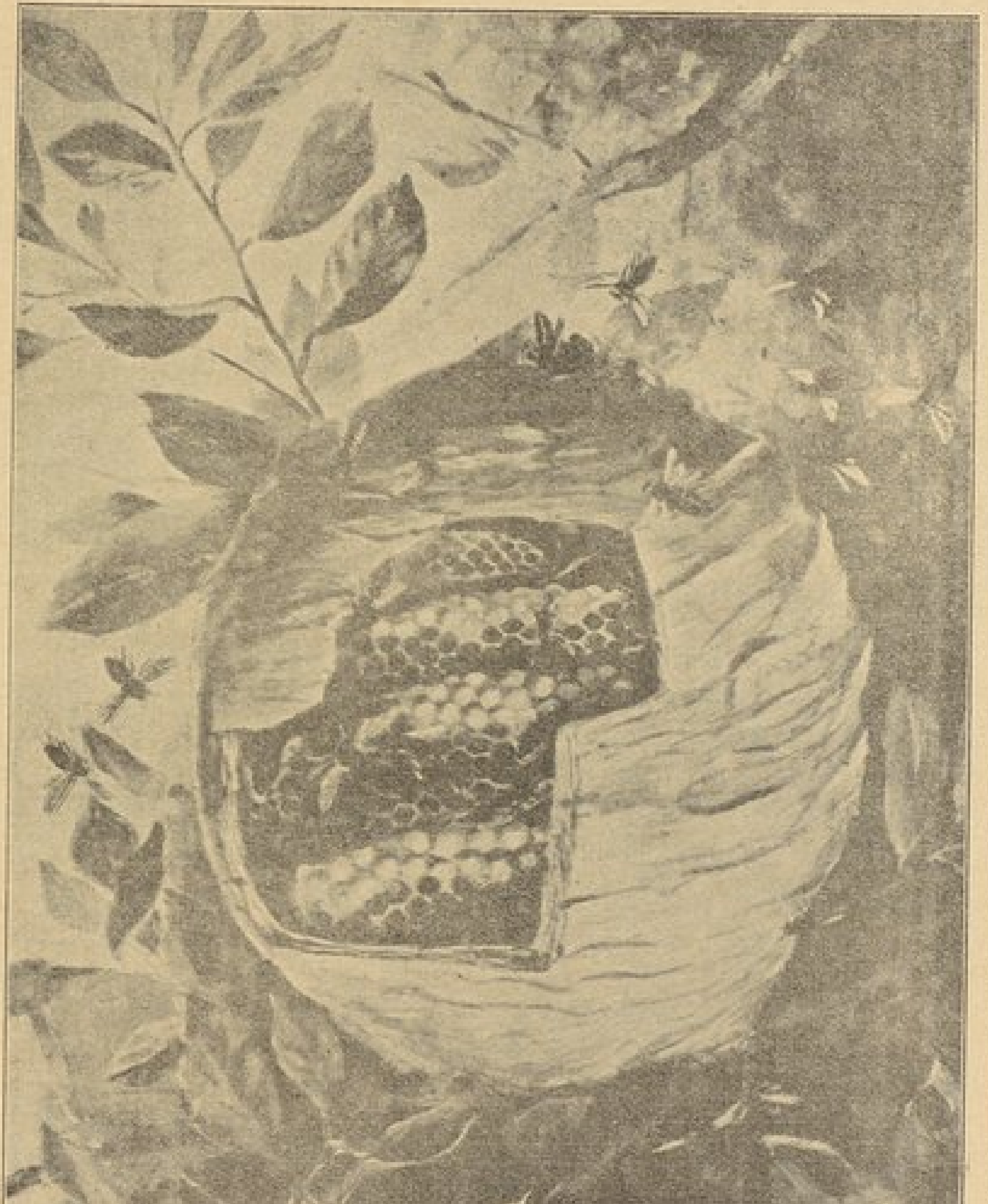

(شكل ٢١ ـ عش زنبار الخشب)

إن عش هذا الزنبور المعتاد يبنى من أغصان الأشجار ، أو من الأخشاب ، وهذا قرص معلق على آخـر

بواسطة

بواسطة حامل عمودى؛ والخلايا مغطاة بأغطية مصنوعة أشبه بورق الكتابة عند الإنسان (وقد تقدم فى سورة طه) أن الزنبور صنع الورق قبل الإنسان، وهذه الأغطية تمنع المطر أن يدخل الخلايا وتحفظ الحرارة فى داخلها فتبق دافئة ، ودرجة الحرارة فى داخل الخلايا قد تكون أعلى منها فى خارجها ٢٥ درجة بميزان فهرنهايت :

الخلايا تكون مفتوحة لأجل إدخال الطعام للدود الصغير وهو ذرية الزنابير ، فإذا كبر الدود أخذ ينسج شرنقة ويقفل باب الخلية إقفالا من أعلاها إلى أسفلها . ثم انظر (شكل ٢٢) وهذه صورته (١)

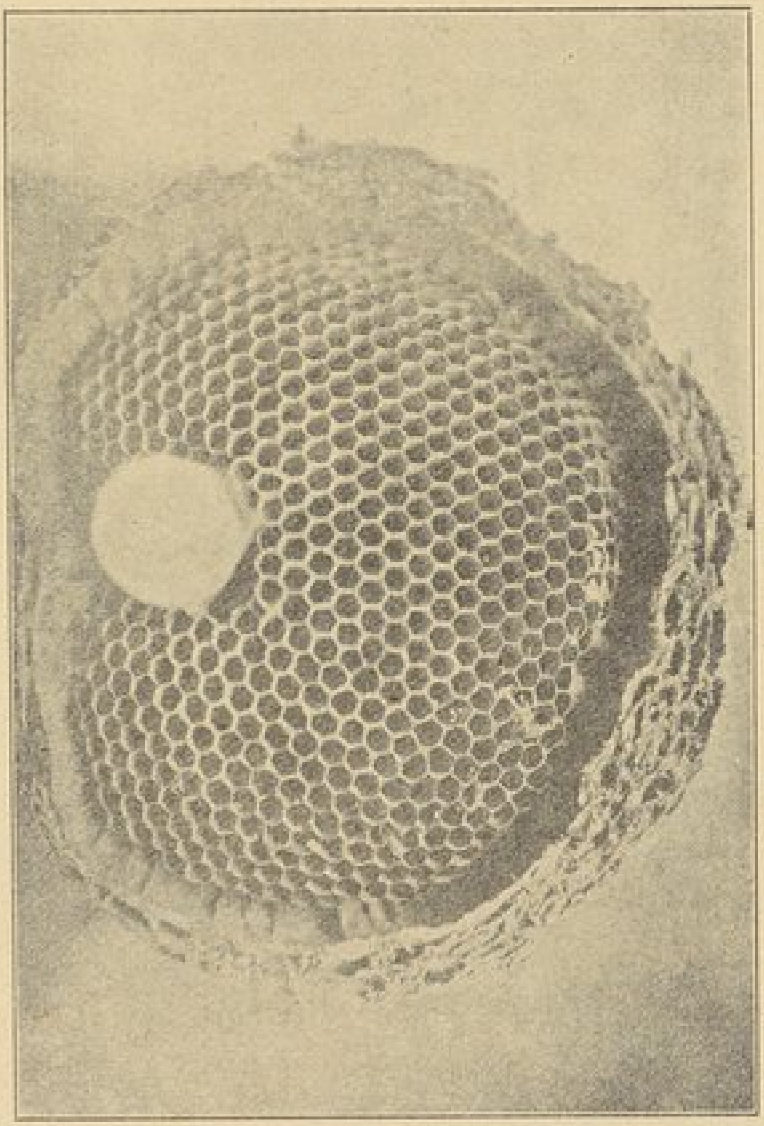

(شكل ٢٢ — قطعة من العش ، أو قرص الزنابير من بلاد البرازيل متصلة بغصن من الشجرة)

إن الصورة الشمسية (الفوتوغرافية) ترينا طبقات بالعش فتحفظه من الماء والهواء ، وفى داخل خلاياه المسدسة الأشكال ، ينمو البيض فينقلب ما فى داخله إلى دود ، والدود ينقلب شرانق (فيالج) والفيالج تصير زنابير كبيرة ، والدائرة البيضاء التى تراها عند أسفل العش عبارة عن غصن مقطوع ثم انظر شكل ٢٣ الآتى فى الصفحة التالية .

(١) هذه الصورة كلها وما شرحتها به قد ترجمته من مجلة (التاريخ الطبيعى الجديد) الباحثة فى عجائب الأرض المدهشة ، عجائبها الطبيعية لصاحبها الأستاذ الابروفسورا (ارثورثومسون) .

(شكل ٢٣ – عش الزنبور البناء)

الزنبور البناء يصنع عشه من الطين فى شقوق الحيطان ، ويكون العش غالبا بهيئة طينية خشنة بحيث ترى على وجهه لطخ من رشاش الطين غير منتظمة ، وهذه تكون سببا لنجاة الزنبور من أن يراه أعداؤه ومع ذلك نرى العش مبنيا بمهارة فائقة ، حافظا لعناصر بنائه مثبتا لها ، وترى دود الفراش (الذى لسعه الزنبور فلقحه بسمه قد أصبح مشلولا عديم الحركة) مخزونا فى الخلايا ليكون قوتا للذرية فيها ومتى خزن ذلك الدود المشلول فى الخلايا سدها الزنبور ، وهذه الصورة تظهر اثنتين مقفلتين على الذرية وعلى قوتها ، فأما غيرهما فلم يكمل . وإلى هنا تم الكلام على الزنابير، والحمد لله رب العالمين .

الكلام على النمل

لقد تقدم الكلام على النحل و النمل والعنكبوت فى سورهن . ولكن مارسمناه هنا أوكتبناه لم يتقدم نظيره وهو هنا تفسير لميزان العام

(شكل ٢٤ — عش نمل الخشب وهو ثلاثة أقدام ارتفاعا)

إن هذا العش النمل المعتاد المصنوع من الخشب مبنى من إبر الصنوبر وقطع من العصى ، وهو غالبا فوق القدمين ارتفاعا والمحيط الدائرى أربعون قدما ؛ وترى حجر لاحصر لعددها وطرقا شتى فى القبة نفسها وفى الأرض من تحتها ؛ وطبعا هناك الآلاف من السكان والمداخل الكثيرة إلى القبة تقفل عند غروب الشمس ، ولعل ذلك لتدفع الأعداء الصغيرة من الدخول فيها .

(شكل ٢٥ — نمل تسوج باشيتا ، وهى طائر صغير أخضر على غصن من عشب وهناك أنواع من النمل تستعمل هذا الطائر الأخضر المسمى (المن) كأنه قطعان ترعى تحت نظرها فى هذا الشجر المسمى جوزبرى)

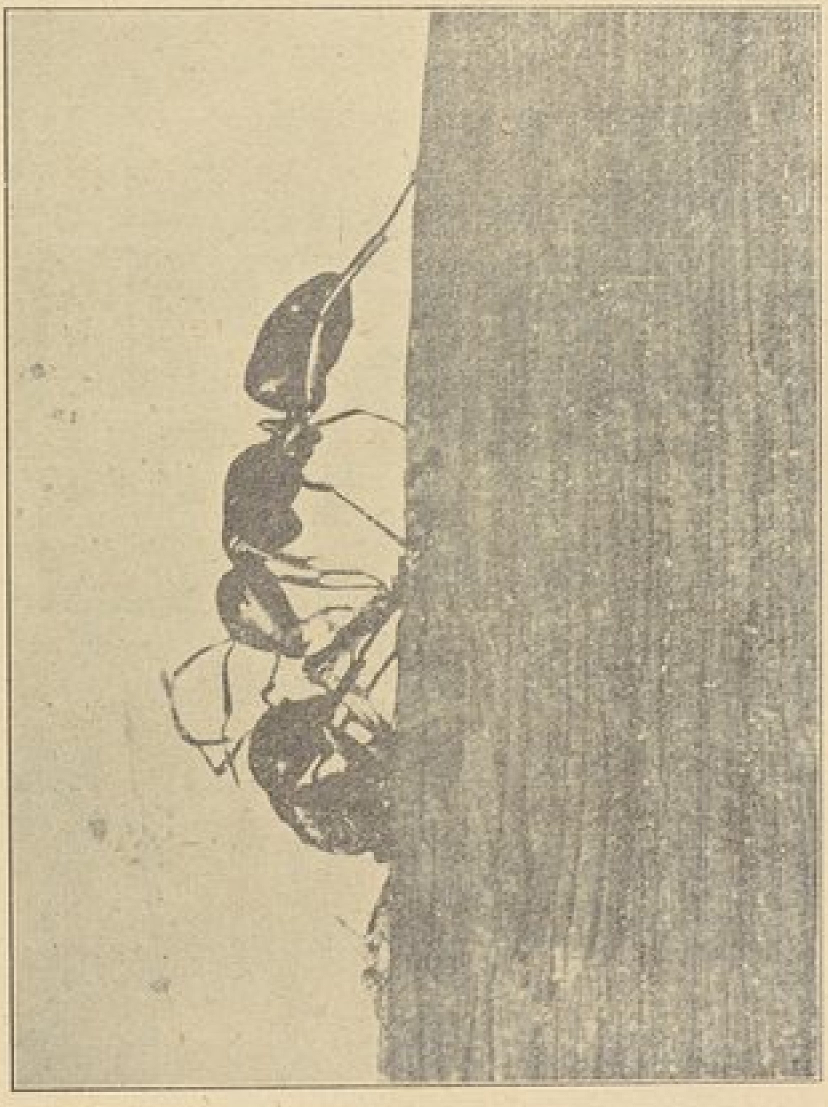

(شكل ٢٦ ـ النمل النجار فى عمله)

النملة التى فى جهة اليسار الواقفة فى مدخل العش المتخذ فى الخشب هاهى ذه تسلم قطعة من الخشب للعامل (العتال) جهة اليمين الذى شرع يحملها ليلقيها بعيدا .

(شكل ٢٧)

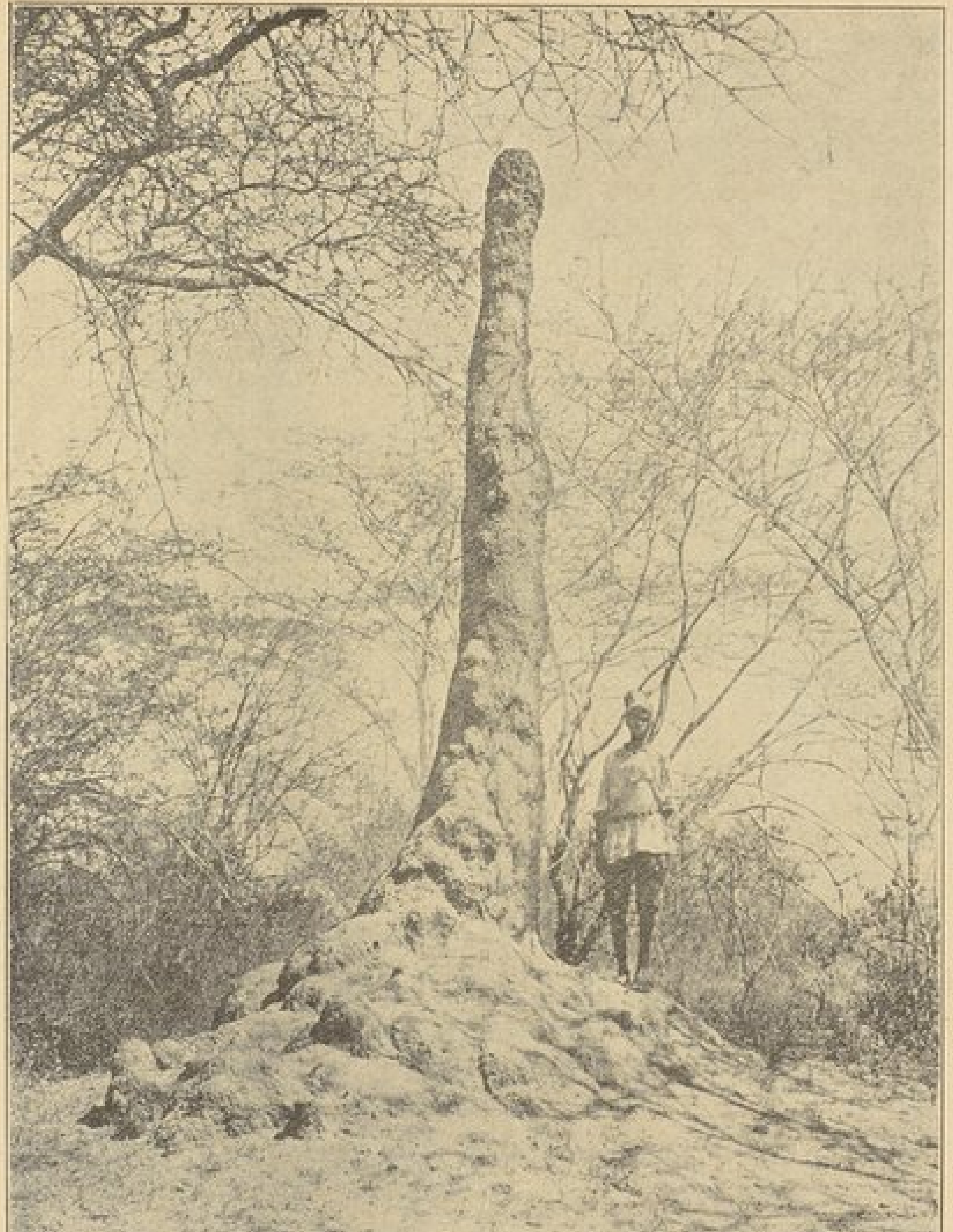

(شكل ٢٧)

هذا البرج الموحش الغريب الخلقة قد شيده النمل الأبيض فى شرق أفريقيا ، إن النمل الأبيض ليس من أنواع النمل الحقيق . كلا ، ولكنه يشبهه فى أطواره ، فترى فيه أخلاق الملكة والذكور ، والنمل القائم بالعمل والعسكر إن البرج فى هذه الصورة الشمسية صنعها النمل من مواد الأرض بعد أن مضغها بفكيه وعجنها بريقه . انتهى ما أردت ذكره فى آية «والسماء رفعها ووضع الميزان» والحمد لله رب العالمين .

هذه صفحة من مناظر هذا العالم الذي نعيش فيه ، هذه صفحة جميلة بهجة . يا ألله ما أجمل صنعك . وأبدع إتقانك ، نظمت الأحجار الثمينة الجامدة فجعلتها أشبه بالبلور فى تسديس أشكالها وإتقان نظامها وجمال هيئاتها . أريتنا فى هذا الزمان بواطن السمك فدرسنا أعضاءه الباطنة مفصلة عضوا عضوا بما أعطيتنا من نعمة التصوير الشمسى وفاء بوعدك : «سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم» وذلك لنعرف معنى الميزان

ومن أعجب العجب ، وأبدع الخلق مازادنى حيرة ، وأحدث فى نفسى نار الشوق العلمى وهو أمر ذرية الضفادع (التى تقدم صورها والكلام عليها فى الجزء الأول من الطبعة الثانية من هذا التفسير) . ألا ترى رعاك الله النوع الأول الذى يتربى بيضه فى كرات هلامية تلازمه فى قاع البرك والمستنقعات ، وهناك يكون الميزان فكلما ازداد الماء ثقلا ازدادت الكرات الهلامية انتفاخا حتى تقاوم ذلك الثقل فترتفع ، أليس من عجب أننا نرى رحما موضوعة فى الماء خارج الحيوان ، وهذه الرحم فيها قوة تجعلها مناسبة لما يحيط بها فترفعه بقانون مسنون .

وأعجب من هذا أن نفس هذه الكرات الهلامية إن هى إلا سجن سجنت فيه تلك الذرية ، فهى من جهة رحم لها وحفاظ ، ومن جهة أخرى إذا طال عليها الأمد وفقس الحيوان كانت شرا وبيلا عليه وعذابا أليما ، وهلاكا حاضرا . فماذا فعلت تلك الحكمة بموازينها ؟ فعلت معها مافعلته فى دول أوروبا بالنسبة لبلاد الإسلام . ذلك أن أوروبا فى هذه السنين أرادت أن تستحوذ على بلاد الشرق وخصوصا بلاد الإسلام . وهل كان أعدى عدو لهذه الأمم إلا دولة الروس التى عناوأتها لبلاد الصين من جهة وبلاد الترك العثمانيين من جهة أخرى فتحت الباب لفرنسا وانكلترا فأوغلتا فى بلاد الإسلام إهلاكا وتدميرا وإذلالا ، فماذا فعل الله بأوروبا ؟ أخرج لها أناسا من بلادها ، فأحدثوا الرأى الاشتراكى ثم البلشفى ، وهذه البلشفية اليوم أخذت حقها فى بلاد الروسيا ، وهذه الدولة الآن هى التى منعت عن بلاد الشرق والإسلام شرها ، وساعدت على استقلال بعض الأمم ، فصارت أوروبا أشبه بجسد قوى أخذ الداء يفتك فيه من نفسه فى داخله وهذا هو نفس ماحصل فى بيض الضفادع ، ذلك الذى أحاطت به كرات هلامية فرقته بمقدار ، ولما انتهى عملها مزقت كل ممزق كما تمزق المشيمة عند ولادة الطفل ، وما الذى يمزقها ؟ هى تلك الحشائش الدقيقة التى لا نراها ومايلازمها من حيوانات ذرية ، فهذه كلها تفتك بتلك الكرات فيخرج الجنين سليما معافى من كل شىء يؤذيه

الميزان واحد ، فهو فى سياسة الأمم نظيره فى سياسة الأفراد ، مزقت كرات أجنة الضفادع بمخلوقات نبتت فى باطنها ، هكذا الأمم الظالمة يكون هلاكها بتفريق كلمتها : « ليحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون » .

مسامرة

ههنا حضر صاحبى العلامة وقرأ هذا الموضوع فسر أيما سرور ، وأعجب بالصور الشمسية والتعليق عليها وقال هذه صفحة جميلة أبانت لنا الضار كالزنبور ، والنافع كالنحل ، والأحجار الثمينة ، والحيوانات الجميلة وأدركنا كيف تنسج العنكبوت مسكنها وهو نفس شبكتها ؟ وكيف تكون الزجة جميلة ؟ وهذه الصورة الشمسية الأولى من صوره ترينا أن عمله فى بناء بيته يشبه أعمال النساجين ، إذ يبتدئون بالسدى ويقفون باللحام ثم كيف رأينا الزنابير بعوزها دود يكون بجانب ذريتها على شريطة أن يكون فى حال شلل فأحضر له الأبوان دودا على هذه الشريطة وبقى حتى فقس البيض وخرجت الذرية وعندها غذاؤها ، ولاعلم للأبوين بها ، أليس هذا هو الميزان والعجب العجاب ! وكيف كان من تلك الحشرات بناء ، ونساج وثاقب خشب ، وقاطع ورق ، ومتخذ من نحو الجبال بيوتا ، ومن القواقع ، وكيف رأينا منه مايعيش وحده كالعرب فى البادية

ومنه مايعيش جماعات ، هـذا عجب عجاب ! فقلت نعم لله درك ، إن الميزان يجمعها، وبالميزان كان الضر فى الزنبور ، والنفع فى النحل واجتماعهما فى الأرض عندنا واجتماع كل ضدين من خير وشر يكون استخراجاً لقوانا وملكاتنا ، وتذكرة للعقلاء ، وتبصرة للحكماء . إن غرائز الحيوان وعجائبه جمات فى الأرض تبصرة وتذكيرا، إن الجسم الإنسانى يعوزه ملبس ومسكن وغذاء ودواء وهواء وماء ، فهذه كلها قوام لجسمه ، هكذا قوام عقله يكون بدراسة هذه المخلوقات ، فظواهرها لجثمانه، وبواطنها لروحه ، فاذا قصر فى أحدهما فهو المسئول .

تربية الأمم الإسلامية فى مستقبل الزمان

ثم قلت : أيها الأخ الذكى، إن بناء جسم الإنسان تابع لما يتغذى به ، فإذا أكل مآكل رديئة ضارة فالضرر لاحق بجسمه « وبضدها تتميز الأشياء » هكذا غذاء العقل إن كان صالحا صلح وإلا فلا ، والغذاء الصالح لعقول أمم الإسلام فى تربيتهم هو هذه العجائب ، فإنهم إذا درسوها صارت تلك الدراسة مهيما لعقولهم ، فبتكرار تلك المباحث وتواردها على العقل شيئا فشيئا يجمل العقل ويصلح ، ويكون أشبه بتلميذ عاشر حكيما فقلده ، وأى حكيم فى العالم يضارع صانعه، فمن راض عقله من الصغر على هذه المشاهدات أصبح عقله مرتاضا على الحقائق ، مفيدا لغيره ، نافعا لنوع الإنسان . إن كتاب الله المجسم دل عليه كتابه المنزل فقال : « ووضع الميزان » .

درجات الحيوان فى الإدراك ودرجات الإنسان

إن هذا الذى يشاهد هذه العجائب وقد مرن عليها ينظر فيجد غرائز الحيوان ترتقى من أدناها إلى أعلاها ثم يرى من الحيوان مايقبل التعليم كالكلب والأنعام وبعض الطيور ، ثم ينظر فيرى منها مايقلد الإنسان بدون أن يعلمه ، فهذا أرقى مما قبله وأعظم وهو القرد ، ثم ينظر فيجد نوع الإنسان يرتقى من أدناه ، وهم الذين يقربون من القردة إلى أعلاه ، وهم الذين يقلدون صانع هذا العالم فى إتقانه البديع .

إن الإنسان اليوم بلغ فى العلم حد المراهقين ، لأنه أخذ يتلمس الحقائق ، ويدرس الحيوان ، ويقتفى أثر صانع العالم اقتفاء ما ، فها هو ذا أخذ يطير فى الجو، ويقطع المسافات سريعا، واخترع وأبدع أيما إبداع ولكنه لايزال فى مبدأ الميدان ، نظر هذا الإنسان فلم يكن نظره قاصرا على بناء بيته كالعنكبوت ، ولا على ملء خزائنه بالغذاء كالنحل والنمل ، بل فكر فى هذا العالم كله ، لأن روحه من عالم فوق هذه المادة . فماذا فعل ؟ فكر فرأى الصور حوله ثلاثة أقسام ، لأنها إما صور مركبة من مادة محسوسة تحيط به . وإما صور حملها الضوء فوصلها إلى العيون ؛ وإما صور فى الهواء بهيئة حروف شكلتها الأصوات فوصلت إلى الآذان. هذه صور العالم كله الذى نعيش فيه ، نظر الإنسان فرآه محوطا بهذه الصور . فألطفها الصور الضوئية وأغلظها الصور المادية ، وأوسطها الحروف والكلمات فى الهواء. درس الإنسان الجماد والحيوان والنبات والسماء والأرض فكانت علوم وعلوم تقدمت فى هذا التفسير كالتى فى (سورة الروم) عند آية : «فطرت الله التى فطر الناس عليها» وكالتى فى سورة الم السجدة وكالتى فى سورة لقمان عند آية : «ولقد آتينا لقمان الحكمة».

أوليس من العجب أن الحروف والكلمات التى يحملها الهواء صور تعبر عما فوقها من الصور النورية الواصلة إلى العيون وعما تحتها من صور النبات والحيوان . درس الإنسان علوم التاريخ الطبيعى وعلم طبقات الأرض ونحوها ، وهذه هى الصور الغليظة ، واستخرج لها موازين من الميزان الذى وضعه الله

العالم ودرس الصور في الهواء، وهي جميع اللغات ؛ واستخرج لها موازين كما رفع الفاعل ونصب المفعول في النحو في اللغة العربية، وكالأبواب الستة في الفعل الثلاثي وهي باب نصر وضرب وفتح وعلم وشرف وحسب وكموازين اسم الفاعل واسم المفعول وهكذا في الصرف، وكالمسند والمسند اليه، والتقديم والتأخير وأحوال متعلقات الفعل، والذكر والحذف والحصر، والفصل والوصل، والإيجاز والإطناب والمساواة في علم المعاني وكالتشبيه وأقسامه، والمجاز وأنواعه، والكناية وفروعها في علم البيان، وكالجناس والطباق في علم البديع وكما وضع موازين للصور الحرفية الهوائية أخذ يضع موازين للصور العقلية، وابتدأ بالمنطق كما تراه موضحا في (سورة الروم) بهيئة عامة تسر الناظرين. ولعلم النفس كما في كتابنا (نظام العالم والأمم) ولعلم السياسة العامة، ولكل شأن من شئون الحياة جل أو دق، ومن ذلك أنه حسب الأجرام الفلكية عما انبعث منها من صور ضوئية؛ فوصلت إلى شبكية العين؛ فأدركها العقل؛ فكان علم التقويم، وعلم النجوم والمجرات والسدم المظلمات؛ كل ذلك تعبر عنه الحروف.

الله أكبر: إن للانسان سبع قوى مدركات: ثلاث عليا، وثلاث سفلى، وواحدة هي واسطة العقد النظيم، أما الثلاثة العليا فهي البصر والعقل والقوة القدسية التي اختص بها الأنبياء والملهمون، وأما الثلاثة السفلى فهي اللمس والذوق والشم، وأما الوسطى فهي حاسة السمع وهي التي اختصت بإدراك صور الحروف المعبرات عن الأقسام الست أعلاها وأدناها.

هذا ملخص نظام هذا الإنسان، وهو الذي أدرك أدق الأشياء من الكهرباء والمغناطيس والراديو وخواص أخرى لا يزال يترقى فيها، وهو الآن في مبدأ الرقي، وهناك معال ومدارج هو فيها سائر إلى الأمام، فياليت شعري أي مناسبة بين ما رأيناه في صناعة العنكبوت والنحل والنمل وبين ما عرفناه من صناعة الإنسان؟.

الله أكبر: إن الإنسان لم ينل هذه النعم العظمى إلا بدراسته غرائز أصغر الحيوان، لأن من لم يفهم الأدنى لا سبيل له أن يدرك الأعلى، ومن جهل المقدمات حرم النتائج، فهذه الأمم التي ارتقت في مدارج الحياة العلمية هم هم الذين درسوا أصغر المخلوقات القريبة التي هي بعض قوله تعالى: «ووضع الميزان ألا تطغوا في الميزان».

فانظر إلى أي حد بلغ الإنسان في أمانيه وهو مسرع إلى الأمام طار في الجو وفاق الطيور، وهاهوذا يسارع إلى المعالي، يقول في نفسه: لماذا لا أصل إلى القمر؟ لماذا لا أصل للمريخ؟ فهل هناك ما يمنعني وأي عائق يقف في طريق ذلك إلى المصاعب وفتحت لي المعاقل، فغصت في قاع البحر وطرت في الجو. كل ذلك بمعرفة الميزان، إن الطيارات التي أطير بها لم تكن في أول الأمر إلا لعبات للصبيان، إن غريزتي التي غرست في قد كمن فيها كل شيء، أنا من عالم أعلى أوحى الله إلى غريزتي وأنا طفل أن أطير في الجو طيارات لعبا ولهوا لأن نفسي من عالم أعلى فلعبها يشير إلى ما كمن فيها، فأخذت أدرس الطيور، فاستنتجت منها علم الطيارات، ثم أرى الناس يطلقون السهام النارية للهو واللعب فلماذا أقف في الارتقاء على الطيارات ولماذا لا أرتقي أعلى وأعلى؟ ولماذا لا أجعل هذه الصواريخ حاملة لجسمي ولأمتعتي، ألست أنا الذي كنت أسير في الأرض على قدمي فرأيت الخيل والبغال والحمير فخطر لي أنها تحملني فحملتني، ثم رأيت الورق وخفيف الخشب يعوم في البحر فصنعت المراكب وسافرت عليها، ثم رأيت القدر على النار يرتفع فيها البخار فاذا كانت القدر مغطاة رأيتها تضطرب وترتفع، فاستنتجت من ذلك أنها تساعد على الانتقال في البر، ثم كانت الطيارات كما تقدم فلماذا لا أجعل الصاروخ مركبي وحامل أمتعتي أنا فوق الجميع الموازين أمامي فلأدرسها أنا هنا في الأرض خليفة الله استخلفني، وركب في العقل وقال لي فكر واعمل، وهذا هو الذي

يجد فيه العلماء اليوم فانظر ماجاء في جريدة الأهرام يوم ١١ أكتوبر سنة ١٩٣١ م ، واعجب كيف يكون هذا في وقت كتابة هذا المقال ، لأجعله بهجة لجماله ، وحلية بهية في نظامه وهذا نصه :

عصر الاختراع والاكتشاف

السهم أو الصاروخ . معجزة هذا القرن

الصاروخ أحدث استنباط لايزال رهن التجربة ، قد يزيل الوقت ويلاشي الأبعاد وينقل البريد بسرعة عشرة أميال في الثانية ، وقد يوصل الناس إلى المريخ ، ويستأصل الحروب أو يزيدها هولا وويلا : فيدك معالم الحضارة دكا ، فمتى بلغ حد الكمال يعدل الناس عن التراسل بالبريد أو البرق ، وعن التخاطب بالتليفون ويعتمدون على الصاروخ فينقل رسائلهم من أميركا إلى أوروبا في نحو خمس دقائق .

فلا تتعجب أيها القارىء الكريم ، ولا تقل ان زمان العجائب قد مضى فان عصر عجائب العلم لايزال في أول عهده ، وقد أرانا في الأعوام القليلة الماضية العجب العجاب ، ولكن الصاروخ هذا سيكون أعجوبة القرن العشرين بدليل التجارب السرية التي أجريت في ألمانيا وروسيا وأميركا .

إن هذا الصاروخ الذي كان فيما مضى من السهام النارية التي يطلقها الناس في الفضاء احتفالا بعيد ، أو تكريما لبطل فاتح قد أصبح بعد أن تناولته يد العلم ، وأتقنته الهندسة ، وأحكم تركيبه الدماغ المبتدع من أعجب ما استنبطه العقل الإنساني ، فالراديو والطيارة ، ونقل الصور بالراديو : والمدهشات الأخرى التي أتحفنا بها هذا الجيل سوف تصبح من التوافه بالنسبة إلى الصاروخ ، فهو سيحدث انقلابا هائلا في وسائل النقل والطيران والحرب ، ومابدا منه حتى الآن يرسم لنا صورا للمستقبل كالسفر إلى القمر والمريخ ، والدوران حول الكرة الأرضية في أقل من ساعة ، فإذا خامر القارىء الشك فيما تقدم بيانه (وهو سيشك في انكاره دون ريب) فإني أنقل له ماقرأته عن ذلك ليزول مابه من الارتياب ، فإن أعظم الأدمغة في العالم قد برهنت مؤخرا بما لا يقبل الريب على أن تحقيق ماذكرته ليس بالحادث البعيد ، فإن مشاكل هذا الاختراع الأساسية قد انحلت ، وأهمها مشكل الجاذبية لاختراق الفسحة الكائنة بين عالمنا والعوالم الأخرى : فمن مضى أشهر معدودة أطلق سهم هائل في الجو على مقربة من برلين فبلغ الطبقات العليا وعاد بعدئذ إلى الأرض .

وكان ارتفاعه عظيما جدا ، مع أنه لم يكن فيه من الوقود سوى جزء من أربعين جزءا مما يسعه ، وقد وافقت الحكومة الألمانية مبتدع هذا السهم على القول أنه لو جهز بكمية وافية من الوقود لاجتاز مسافة ألف ميل في أعماق الجو ، وقد قال الأستاذ (هرمان أوبرت) الألماني أنه أطلق واحدا منها مؤخرا وركب فيه آلة تدفعه من ذاتها ، فبقي محلقا في الفضاء أكثر من ساعة ، ولصاروخ الأستاذ أوبرت قوة دافعة تضاهي قوة دفع القطار الحديدي الكبير تولدها فيه آلة تماثل زجاجة اللبن الصغيرة ، وهذا يدلنا على القوة الهائلة الممكن توليدها في الصاروخ متى تم للقائمين باتقانه أمر وضع مولد كبير للقوة فيه ، ومن التجاريب التي أجريت في أميركا التجربة التي قام بها المستر (روبرت جودارد) فقد أطلق واحدا من هذه السهام التي تحاكي الأنابيب فعلت على الأرض ستين ميلا ، وقال بعد ذلك إنه قد اكتشف السر المعظم الذي يمكنه من ارسال صاروخ إلى القمر ، وجرت مثل هذه التجاريب قبل ذلك في روسيا ومبتدعها الأستاذ (فيودورف) وهو الآن يعمل لاتقانها تحت رعاية حكومة السوفيات في إداراتها الخاصة بالمواصلات الجوية ، ومثله فعل الأستاذ الروسي (زيولوسكي) وهو الآن يجهد الفكر في تحسين الصاروخ التوربيدي على حساب الحكومة الروسية وكان الغرض الأول من ابتداع هذه الصواريخ أن تحشى بالبريد وتنقله بسرعة بين أوروبا وأميركا فيكون تحليقها

فوق الاوقيانوس أعلى كثيرا من سكان الارض حيث لا تلاقى أقل مقاومة من الهواء فتسير عندئذ بسرعة تتراوح بين الخمسة والعشرة أميال فى الثانية ، والصواريخ تدار بالراديو بحيث إنه إذا حدث خطأ يمكن إصلاحه والصاروخ طائرة ، ويدير الصاروخ بواسطة الأجهزة اللاسلكية رجل يبقى على الأرض محدقا على الدوام فى لوح أمامه يريه طريق الصاروخ والمكان الذى وصل إليه من حيث المسافة والعلو ، فاذا أراد المدير تخفيض سرعة الصاروخ أو مضاعفتها وضع يده على مفتاح معلوم فتنطبع بذلك على مولد القوة فى الصاروخ إرشادات المدير الذى على الأرض ، وتنجم عن ضغطها عليه مايراد من سرعة أو بطء ، أو تحول عن خطة السير ، وهذا من الأمور التى يصعب تصديقها ، إلا أن مبتدعى الصواريخ يقولون إنها فى منتهى السهولة ، وقد جربوها مرارا فى ألمانيا من بضعة أشهر ، فعند مايدانى الصاروخ من المكان الذى يقصده ، فإذا كان ذلك المكان [نيويورك] مثلا فإن مديره فى لندن يضغط زرا فيؤثر بالراديو على لوحة الصاروخ فيفلت كيسا من البريد يهبط إلى الأرض فى شبه مظلة ، ومثل ذلك يفعل إذا أراد إنزال الصاروخ فلا تمر أعوام معدودة حتى تضع على الكتاب الذى ترسله عبر الاوقيانوس طابعا خاصا بريد الصاروخ فيصل بعد ساعة إلى صديقك فى أوربا ، ولا يبعد أن تبلغ هذه الصواريخ حدا من الاتقان تصير معه صالحة لشحن البضائع وتكون نفقات إرسالها تافهة إلى الغاية ، ذلك لأن نفقة تسييرها معدومة تقريبا ، غير أن التجاريب المحفوفة بالغموض التى تجرى اليوم فى روسيا وغيرها من البلدان تشير إلى وجه آخر يبعث على القلق ألا وهو استخدامها فى الحروب فلا ريب فى أن صاروخ (التوربيد) سيكون من أعظم مدمرات العمران هولا ، فاذا عول البشر على استخدام هذه الآلة الجهنمية فى الحرب فلا يبقى لإنسان مهرب ولا ملجأ بل يهلك الناس بالألوف ، فهو يضرب بلا إنذار ، ويحول أعظم العواصم إلى آكام من رماد فى بضع دقائق ، وفى أوروبا اليوم أناس يستطيعون إذا شاءوا توجيه واحد من هذه الصواريخ التوربيدية عبر الاوقيانوس إلى الولايات المتحدة فيحدث فيها من التدمير وإهلاك النفوس مالا تحدثه الحرب الطاحنة فى خلال أشهر كاملة ، ومن المعلوم أن الطيارات الحربية مهما كثر عديدها لاتقوى على ضد الصاروخ ، فهو يخترقها بسهولة وبدون أن يصاب بأذى ، وإذا وجه إلى الأساطيل الحربية فانه يغنيها قبل أن يتيسر لها الوقت للفرار ، ولكن الوجه الآخر لهذا الابتداع الجهنمى هو أنه قد يعمل على إبطال الحروب لأنه عند مايبلغ حد الكمال تقتنى كل دولة منه عددا ، فاذا أرادت دولة بدولة أخرى شرا يكون إقدامها على ذلك من قبيل الانتحار ، وأين هى الدولة التى تسول لها النفس خوض غمرات عراك تكون نهايته خرابها المحتم ؟ ومن أجل هذا نقول : إن المساعى الكثيرة التى يبذلها دعاة السلام اليوم لإنهاء الحروب سوف يكللها الصاروخ بالنجاح ، ولكن استخدام الصاروخ فى الحروب وفى نقل البريد ليس بالشىء الذى يذكر فى جنب مايتوقعه منه مبتدعوه وهو القيام باكتشافات مهمة فى القبة السماوية كالذهاب إلى المريخ ، وهذا كان يعد حديث خرافة إلا أن ما أتمه العلم للآن وما قام به رجاله من التجارب بالصاروخ قد أدناه من الحقائق ، فالصاروخ الذى يوجه إلى المريخ يكون بشكل قنبلة كبيرة الحجم ، ويكون فيها من الخمسين إلى الستين مولدا للقوة يذهب فيها جماعة صغيرة من الرجال الشجعان محصورين فى مكان لايدخله الهواء ومعهم من ضروريات الحياة مايستطيعون معه اصطناعها مدة ١٥٠ يوما وهى المدة اللازمة للوصول إلى المريخ والرجوع منه حسب تعديل الفلكيين ، ومن الطبيعى أن يزور الإنسان المريخ قبل غيره من السيارات ، وذلك لوجود دلائل عديدة على أنه مأهول بجنس من المخلوقات التى تحاكى سكان الأرض ، ويعتقد العلماء أن ألمانيا ستكون السابقة إلى إتقان هذا السهم العجيب كأنها ستكون السابقة فى كثير غيره ، فقد قرأت لمراسل جريدة أميركان فى برلين أن كبار علمائها متمكنون

فى درس القوى الكامنة فى الجواهر الفردة للاستفادة منها ، وهزنى الطرب عند ماقرأت أن عالما مصريا اسمه الدكتور (عدنان) يساعدهم فى ذلك اه .
مكاتب الأهرام بنيويورك

وبهذا تم الكلام على اللطيفة الأولى فى قوله تعالى : «ووضع الميزان» مع قوله «مرج البحرين يلتقيان» الخ والحمد لله رب العالمين

اللطيفة الثانية : عجائب الحسبان فى سورة الرحمن

ابتدأ الله السورة بذكر أنه رحمن ، وأخذ بعد الرحمة مبتدئا بما هو أشرف وهو العلم وأتبعها بخلق من يحمله وهو الإنسان ، ثم أعقبهما بما يجمعهما معا وهو التعليم ؛ لأنه لاتعليم إلا حيث يكون متعلم وعلم وههنا قص علينا مبدأ العلوم فى سياق حديث الشمس والقمر وأنهما بحساب ، وبنى على ذلك بناء شامخا ومجدا رفيعا من حيث انتظام أنواع النبات والشجر ، فلولا الحساب فى العلويات لم تنتظم السفليات ، وهنا أتى بما يجمع النظم فى السموات والأرض وهو الميزان السائد فى كل دقيق وجليل وعظيم وحقير ، ولكن مبدأ ذلك كله الحساب ، فلنبين فى هذه العجالة مافتح الله به فى ليالى الأحد والاثنين والثلاثاء فى أواخر شهر مارس سنة ١٩٣١ .

ذلك أن هذا الموضوع أخذ يهتاج قلبى ، ويثير شعورى ، ويحرك وجدانى ، اللهم إن أمر الحساب لعجب : فمنه الشفع والوتر ، وبهما أقسم الله فقال : « والشفع والوتر » أفليس من الغريب أن يقسم الله بأمور مكشوفة للعام والخاص والناس لايهتمون بها ، ولا يولون وجوههم شطرها ، الشفع والوتر عند الجهلاء كأجسامهم ، وكالهواء والماء ، فهم غالبا لايذكرون نعمة الله فيهن . الأعداد حاضرة عند نفوسنا تشاهدها عقولنا كما تشاهد عيوننا الضوء ، ولكن غلب على عقول بنى آدم أن الأعداد معدومة لا وجود لها ؛ فأما الضوء والشمس والقمر ، والجبل والجمل ، والبحر والبر ، فهن موجودات ؛ ذلك لما وقر فى نفوسنا أن ماتشاهده الحواس موجود ، ومالا تشاهده الحواس وجوده عدم .

لما وصلت إلى هذا المقام حضر صديق العالم الذى اعتاد أن يناقشنى فى هذا التفسير . فقال : الشفع والوتر والوجود والعدم مادة الفلسفة ، القرآن واضح والتفسير قد طال فماذا تريد بهذه الكلمات فقلت له التفسير لم يطل ، ولقد استبان لك الآن أن القرآن إلى الآن لم يفسر حق تفسيره فأين تفسيره أيها الصديق فقال : الحمد لله قد فسره المفسرون رحمهم الله وفسرته أنت فقلت : أما من جهتى أنا فإنى أقول لك : إن ماخطر لى بحق وصدق فى تفسير هذه الخمسة الحروف حسبان يعوزه مجلد أو مجلدان ، فقال تريد بذلك علم الحساب ؟ قلت : كلا . فعلم الحساب شىء والحكمة المستنتجة منه شىء آخر ، وتلك الحكمة هى التى بها يعرف بعض سر القرآن ؛ لحياك الله ياأخى ، قل لى : أيبتدئ الله بالحساب فى أول النعم فى السورة التى وسمها بسورة الرحمة مصادفة ، أفلا تتذكر ماجاء فى خطبة الصديق رضى الله عنه ، إذ استدل بتقديم المهاجرين على الأنصار فى القرآن على أن يكون الأمراء من المهاجرين والوزراء من الأنصار ، قال بلى . قلت : أفلم تقم بذلك دولة بنى أمية ودولة بنى العباس اللتان لم تكونا إلا من المهاجرين . قال بلى . قلت : فاذا كان عشرات الملوك والممالك قامت على مجرد أمر اعتبارى وهو التقديم والتأخير فى كلمتين اثنتين ، فما الذى تفهمه الآن من تقديم الحساب على جمل كثيرة فى سورة هى عنوان الرحمة ، ولقد أعظم الله أمر الحساب فقال «إن الله سريع الحساب» وقال : «وأحصى كل شىء عددا» الخ فقال : حقا إن الأمر لعظيم ، ولكن أمر الحساب دقيق ، فرجو أن تلخص حكما منه لتكون نبراسا ونورا بين قراء التفسير فقلت :

(١) إن الواحد ليس قبله عدد .

(٢) وهو يعد جميع الأعداد بخلاف الاثنين فانه يعد نصفها وهكذا .

(٣) إذا زال الواحد زالت جميع الأعداد ، ولقد تزول الأعداد ولا يزول الواحد فهكذا :

(١) الله ليس قبله شيء .

(٢) وهو متصرف في كل موجود .

(٣) ولولا الله لم تكن هذه الموجودات ، وإذا زالت الموجودات لم يزل الله .

فلما سمع صاحبي ذلك قال هذا حسن ولكنه من باب التشبيه : أى أنك الآن ضربت لنا مثلا من العوالم المعقولة فى نفوسنا ، وهذه المعقولات نظمها الله فصارت ضرب مثل لنا .

ثم ماذا ؟ قلت : إن هذه الأعداد وحضورها فى أذهاننا أمرها عجب . فقال حضورها فى أذهاننا عجب وأى عجب فى ذلك الحضور ؟ فقلت : إن وجودها حقيقي وثابت بخلاف ماتراه من الشمس والقمر والأرض والإنسان . فقال : إذن أنت تعتبر العدد فى نفوسنا الذى وجوده ذهنى ثابت وحق ، فأما المحسوسات التى عشنا بها وملأ الله بها القرآن والحكمة ليست ثابتة ، فقلت نعم ، فقال : إن عقلى لا يحتمل فهم هذا فقلت له : بم ثبتت عندك الأرض والسماء وما بينهما ؟ قال بالحواس فنحن نراها ونلمسها الخ وهى باقية . فالشمس والأرض والجبال بقيت ألوف السنين ، أو ألوف الألوف ، والآباء والأجداد يرون ذلك . فأما الأعداد فانما هى أمر ذهنى لا غير فوجودها عدم . فقلت : أفلا تعتبر العقل له إدراك كالحواس ؟ فقال : له إدراك أقوى من الحواس . فقلت : العقل هو الذى يحفظ الأعداد ويتصورها كما ترى العين الضوء وتلمس اليد الحجر . فقال : ولكن الحجر ثابت . فقلت العدد أثبت من ثلاثة وجوه . ألم تر أن حاسة البصر قد تخطىء فترى الصغير كبيرا كالنار من بعد ليلا ، وبالعكس كالشمس لبعدها ، قال بلى . قلت : حاسة الذوق فى المرضى تحس بالحلو مرا ، قال بلى ، قلت : والناس يختلفون فى الجمال ، فكل له فيه ذوق خاص قال حقا . قلت ونفس الجبال والبحار تتبدل بعد مئات الألوف من السنين ، لأن الماء يفتت الصخور ، ويحمل الرمال ويقذفها فى البحر والجبال تتربى هناك فى عصور وعصور ، ثم تأتى زلزلة فتظهر تلك الجبال التى كانت أجنة فى أرحام البحار فقال حقا والله ، فقلت : إذن المحسوسات يعتريها التغير من طريق نقص فى الحاسة ، أو من طريق اختلاف الأشخاص ، أو من طريق تغير المحسوس ، إذن هذه السموات وهذه الأرضون تختلف مناظرها من ثلاثة وجوه ، فهى إذن ليست ثابتة فوجودها أشبه بالعدم .

ثم قلت : ونضيف إلى ذلك أمرا رابعا ، وهو أن هذه العوالم المشاهدة ليست شيئا سوى نتائج حركات ظهرت لحواسنا فأدركناها بحسب ماظهر لنا من عدد الحركات فى الثانية الواحدة ، فان كانت الحركات فى الأثير فى الثانية الواحدة نحو ٦ آلاف مليون مليون مرة فذلك هو أمثال الحديد والنحاس . وإن كان عدد الحركات أقل من ذلك بحيث يكون فى الثانية الواحدة من ٤٠٠ مليون مليون مرة إلى ٧٠٠ مليون مليون مرة فى الثانية الواحدة ، فذلك هو النور بألوانه السبعة ، فالأحمر أدناه والبنفسجى أعلاه : ولا جرم أن هذا الأمر الرابع يفيدنا أن هذه المحسوسات فى نفسها غير موجودة ، وإنما هى تظهر لحواسنا بحسب عدد حركاتها فى الثانية منوعة المظاهر بتنوع حركاتها لا غير ، فأين الوجود الحقيقى إذن لهذه الظواهر . اقرأ هذا المقال واضحا فى سورة (النور) عند آية : «الله نور السموات والأرض» إذن مايظنه الناس والحيوان موجودا وهو المشاهد ليس له حقيقة ، وماجهلته الحواس وأدركه العقل أحق باسم الوجود كالأعداد وجميع الحقائق الثابتة . فالأعداد لا تتغير فى العقول والشمس ستزول ، ولكن العدد هو هو ، فكل عقل وجد تبدو له الأعداد كما بدت لنا ،

وإذا

وإذا اعترض على ذلك بأنه لم يوجد إلا فى ذهننا ، قلت وهل المحسوسات ظهرت إلا لحواسنا ؟ وهل هى شىء غير حركات خفية ظهرت لحواسنا على هذه الأنماط ، فالاعتراض واحد على المحسوس والمعقول ، ولكن يمتاز المعقول بأنه لايعتريه تغير فى نفسه ، ولا تغير باختلاف الأشخاص ، ولا باختلاف الأزمان ، إذن الحساب من الحقائق الثابتة ، فهو موجود ثابت دائم علمه الله فى الأزل ، وجعل العالم على منواله «وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق» فهذا من الحق الذى بنيت عليه السموات والأرض ، الأعداد عوالم لاتحتاج إلى مادة فى وجودها ، هكذا الأرواح عوالم مجردة مثلها ، فكلاهما كالأثير أصل لغيره ، وهو مخلوق ابتداء بلا مادة اشتق منها ، وهذا من بعض أسرار القرآن ، لأن الرحمة بالألف واللام أى كالها لاتتحقق إلا بالدوام والدوام للحقائق الثابتة ومنها الحساب ، ولذلك قال : « الشمس والقمر بحسبان » وقال فى آية أخرى : «وما خلقنا السموات والأرض ومابينهما لاعبين ، ماخلقناهما إلا بالحق» وهل الحق إلا ما كان ثابتا؟ والحساب ثابت ، فبنى الله العالم عليه وعلى غيره من الحقائق الثابتة فى علمه القديم . فقال : إن هذا القول إجمالى . فأريد تفصيله ، فقلت لأفصله فى أربعة فصول :

(١) أولا : إن العدد منه مايقبل القسمة مثل ٤ و ٦ ومنه مالا يقبلهما مثل ٥ و ٧ فان ٤ مضاربها ٢ و ٢ و ١ و ٦ مضاربها ٢ و ٣ و ١ وأما ٥ و ٧ فلا مضاريب لهما ، وإنما ينقسمان على نفسيهما وعلى الواحد لاغير ، فهذا عدد أولى أو أصم .

(٢) ثانيا : إن العدد فيه الكامل والناقص والزائد ، وفيه الأعداد المتحابة وغيرها من عجائب الحساب

(٣) ثالثا : العدد فيه المتوالية العددية مثل ٢ ـ ٤ ـ ٦ وهكذا ، والمتوالية الهندسية مثل ٢ ـ ٤ ـ ٨ ـ ١٦ ـ ٣٢ وهكذا ، ومثل ٣ ـ ٦ ـ ١٢ ـ ١٤ وهكذا .

(٤) رابعا : العدد فيه الكسر الدائر البسيط مثل ١/٣ فإنه يساوى ٣٣٣٣ر٠ فهذا كسر لاينتهى . والكسر الدائر المركب مثل ١/٧ فإنه يساوى ١٤٢٨٥٩ ١٤٢٨٥٩ ١٤٢٨٥٩ر٠ فهذا الكسر لا ينتهى وهو مركب من ٦ أرقام وكسر ١/٣ بسيط لأنه عدد واحد مكرر .

وهذه الصفات الأربع نراها جلية فى المعدودات المشاهدات (أولا) العدد الأصم وغير الأصم لهما نظير فى العوالم المشاهدة ، فإنك ترى الماء والهواء كالعدد القابل للقسمة الصحيحة ، أما الحجر والحديد فهو كالعدد الذى لايقبل القسمة الصحيحة ، فقسمة ٤ على ٢ ليست كقسمة ١١ على أى عدد ماعدا نفسها والواحد .

فقال صاحبى : أريد أن أعرف الأعداد الأولية معرفة إجمالية لأبنى عليها ذلك ؟ فقلت : إنها فى الآحاد ٢ ـ ٣ ـ ٥ ـ ٧ وفى العشرات ١١ ـ ١٣ ـ ١٧ ـ ١٩ ـ ٢٣ ـ ٢٩ ـ ٣١ ـ ٣٧ ـ ٤١ ـ ٤٣ ـ ٤٧ ـ ٥٣ ـ ٥٩ ـ ٦١ ـ ٦٧ ـ ٧١ ـ ٧٣ ـ ٧٩ ـ ٨٣ ـ ٨٩ ـ ٩٧ فهى فى المائة الأولى (٢٥) عددا وفى المائة الثانية ٢١ أولها ١٠١ وآخرها ١٩٩ .

	الأعداد الصماء فيها	أولها	آخرها
المائة الثالثة	١٦	٢١١	٢٩٣
المائة الرابعة	١٦	٣٠٧	٣٩٧
المائة الخامسة	١٧	٤٠١	٤٩٩
المائة السادسة	١٤	٥٠٣	٥٩٩
المائة السابعة	١٦	٦٠١	٦٩١
المائة الثامنة	١٤	٧٠١	٧٩٧

	الأعداد الصماء فيها	أولها	آخرها
المائة التاسعة	١٤	٨١١	٨٨٧
المائة العاشرة	١٤	٩٠٧	٩٩٧

وهكذا إلى ٩٩٠١ الذى ينتهى إلى ٩٩٧٣ ، وفى هذه المائة الأخيرة ٩ أعداد لاغير ، وفى المائة قبلها ١٢ عددا ، وهكذا لانجد مائة فى هذه المئات خالية من الأعداد الأولية :

(١) ولا جرم أن العوالم المشاهدة أكثرها أشبه بالأعداد التى تقبل القسمة ، وأقلها أشبه بالأعداد الأولية ، فضوء الشمس والقمر وعالم الأثير والهواء والماء أكثر جدا من الأرض كما أن الأعداد التى تقبل القسمة أكثر من الأعداد الأولية .

(٢) إن كل مائة فيها أعداد أولية كما تقدم قد تكون ٩ وقد تكون ٢٥ وقد تكون عددا بينهما مثل ١٤ و ١٥ وهكذا فى كل قرن أناس يظهرون فى الأمم لهم مبادئ وحكم جديدة لم تكن من قبل ، ونابغون فى الحرف والصناعات ، نسج الناس على منوالهم ولكن الأكثرون مقلدون ، فهم أشبه بأعداد ٤ و ٨ و ٩ ، ١٢ وغيرها من كل عدد له مضاريب ترجع إلى أعداد أولية . فقال : أنا لم أفهم هذا ، فقلت :

(١) اعلم أننا نعد هكذا : ١ ٢ ٣ ٤ الخ أو ٢ ـ ٤ ـ ٦ ـ ٨ ـ ١٠ ـ ١٢ وهكذا ، أو نقول : ٣ ـ ٦ ـ ٩ ـ ١٢ ـ ١٥ وهكذا ، أو نقول : ٥ ـ ١٠ ـ ١٥ ـ ٢٠ وهكذا : أى أننا نعد : إما بالواحد وإما بالاثنين وإما بالثلاثة وهكذا ، فاذا وصلنا إلى عدد أولى من الأعداد الكبرى مثل : ١٠٠٩ و١٠١٣ و١٠١٩ و١٠٢١ و١٠٣١ وهكذا وأردنا أن نعد به فلا بد أن نكرره مرة ومرتين وثلاثا وهكذا كما نقول ١١ ـ ٢٢ ـ ٣٣ ، فهاهنا لابد لنا أن نعد فى تكراره ١ ـ ٢ ـ ٣ ـ ٤ وهكذا أى أننا مع كل عدد أولى بعد ألف أو مائة ألف أوغيرها لابد أن نعد من أول واحد ونسير كطريقتنا الأولى ، ولا جرم أن هذا معناه أن النابغين فى كل قرن لابد أنهم يعرفون ما فى التاريخ ، ويبنون مجدهم على مقتضاه بطريقتهم هم كما أن العدد الأصم يعد من الواحد وما بعده .

(٢) ثم إننا كما نحلل المركبات فى المعامل الكيمائية إلى عناصرها كتحليل الماء إلى أكسوجين وأودروجين هكذا نحلل الأعداد إلى عواملها الأولية ، فتحليل الأعداد فى نفوسنا له نظير فى الخارج وذلك فى المركبات مثل تحليل عدد ٤٧٢٥ فإنا نقسمه على ٣ فيكون الخارج ١٥٧٥ وهذا نقسمه على ٣ فالخارج ٥٢٥ وهذا نقسمه على ٣ فالخارج ١٧٥ وهذا نقسمه على ٥ فالخارج ٧ وهذا نقسمه على ١ فالخارج ١ فيكون ٤٧٢٥ يساوى ٢٧ × ٢٥ × ٧ = يساوى ٤٧٢٥ وهذا كما نقول للماء حلل إلى ١٦ جزءا من الأكسوجين ، وجزءين من الأودروجين وزنا أيضا ، فالتحليل فى المادة أظهر حقائقها فتصرفنا فيها كما أظهر تحليل الحساب عوامله فتصرفنا فيها وانتفعنا بها ، هذا هو الفصل الأول من الفصول الأربعة .

الفصل الثانى فى عجائب العدد الكامل والأعداد المتحابة

وحساب الجذر والتربيع ونحوها وفى هذا الفصل مسائل : المسألة الأولى

العدد إما كامل وهو ما يساوى جميع مضاريبه مثل عدد ٦ فإن مضاريبه هى ١ ـ ٢ ـ ٣ ومجموعها ٦ وكذلك ٢٨ فإن مضاريبه وهي ١ ـ ٢ ـ ٤ ـ ٧ ـ ١٤ يساوى ٢٨ فهو عدد كامل ، وإن كانت المضاريب أقل منه فهو ناقص مثل ١٠ فإن عواملها ١ و ٢ و ٥ فهى ٨ فهذا عدد ناقص لنقص مجموع مضاريبه عنه

وعدد ١٢ مضاريبه ، هى ٢ و ٦ و ٣ و ٤ و ١ المجموع ١٦ فهو عدد زائد وأ كثر الأعداد ناقصة أو زائدة كما أن أ كثر هذا النوع الإنسانى غير معتدل ، والكامل قليل ، كما أن الكامل فى الإنسان قليل، فهو هكذا :

٦

٢٨

٤٩٦

٨١٢٨

١٣٠٨١٦

٢٠٩٦١٢٨

٣٣٥٥٠٣٣٦

وهكذا ، فترى أنه من عدد (١) إلى (١٠) لاعدد كامل إلا واحدا ، وكذلك من ١٠ إلى ١٠٠ وهكذا من ١٠٠ إلى ١٠٠٠ ومن ١٠٠٠ إلى ١٠٫٠٠٠ ولكنك فى هذا الجدول لا تجد فى الأعداد من ١٠٫٠٠٠ إلى ١٠٠٫٠٠٠ عددا واحدا كاملا ، وهكذا لا تجد فيه من مائة ألف إلى مليون إلا عددا واحدا كاملا، أليس هذا يشابه العالم الخارجى ، فإننا نجد الراديوم قليلا والذهب والبلاتين وغيرهما كثيرة، ونجد الأنبياء والحكماء قليلا .

موازنة بين العدد الكامل والأصم

العدد الأصم يكثر لأنه نظير ذوى الاختراع فى الصناعات والنبوغ فى مختلف الحرف، أما العدد الكامل فهو أقرب فى ندرته إلى ندرة الأنبياء والحكماء والراديوم وهكذا .

المسألة الثانية

قد وجد العلماء أن عدد ١٢٠ يساوى نصف مجموع مضاريبه ، فهذا أشبه بكونه نصف الكامل ، والمضاريب هى : ١ – ٢ – ٣ – ٤ – ٥ – ٦ – ٨ – ١٠ – ١٢ – ١٥ – ٢٠ – ٢٤ – ٣٠ – ٤٠ – ٦٠ ومجموعها ٢٤٠ ونصفه ١٢٠ ، ومثله فى ذلك عدد ٦٧٢ فإنه يساوى نصف مجموع الأعداد المتدخلة فيه وهو ١٣٤٤ ونصفه ٦٧٢ .

المسألة الثالثة

الأعداد المتحابة مثل عدد ٢٢٠ وعدد ٢٨٤ وسموهما متحابين لأنهم وجدوا أن كلا منهما مؤلف من مضاريب الآخر ، فإن (٢٢٠) يساوى مضاريب (٢٨٤) وهى ١ – ٢ – ٤ – ٧١ – ١٤٢ ، و ٢٨٤ يساوى مضاريب (٢٢٠) وهى ١ – ٢ – ٤ – ٥ – ١٠ – ١١ – ٢٠ – ٢٢ – ٤٤ – ٥٥ – ١١٠ إذن عندنا عدد لا مضاريب له وهى الأعداد الأولية ، وعدد مضاريبه أ كثر منه وهو العدد الزائد ، وعدد مضاريبه أقل منه وهو العدد الناقص ، وعدد يساوى هو نصف مضاريبه وقد تقدم ، وعدد يساوى مضاريبه وهو الكامل، وعدد يساوى مضاريب غيره وغيره يساوى مضاريبه وهما العددان المتحابان، فهذه ستة أنواع .

فلما سمع ذلك صاحبى قال ما أجمل هذا العلم ، وما أبدع قوله تعالى : « الشمس والقمر بحسبان » ، والله إن شأن الحساب لعجب ! فقلت أيها الصديق : إذا سرك هذا فلأسمعك ماهو أعجب وأبهج وأبدع؛

قال أحب ذلك ، فقلت : إن هذه الأعداد المتحابة أمكن العلماء البحث عنها واستخراجها . فقال وكيف ذلك ؟ فقلت : يجعلون عدد ٢ هو الأس . فقال ثم ماذا ؟ فقلت : ثم يأخذون ثلاثة أمثاله وستة أمثاله و ٩ أمثاله فى مربع العدد وهو ٤ فيحصل عندهم هذه الأعداد بالتوالى ٦ ـ ١٢ ـ ٧٢ ، لأن ٢ فى ٩ يساوى ١٨ و ١٨ بضربها فى ٤ يكون ٧٢ . فقال : هذا واضح ، ثم ماذا ؟ فقلت ينقصون من هذه الأعداد واحدا واحدا فتكون هكذا : ٥ ـ ١١ ـ ٧١ ، فإذا ضربنا ٥ فى ١١ وضربنا الناتج وهو ٥٥ فى ضعف عدد ٢ وهو ٤ كان الحاصل ٢٢٠ وهو أحد العددين المتحابين ، فأما العدد الآخر فكيفية إيجاده أن نضرب عدد ٧١ وهو العدد الثالث فى ضعف ٢ عدد وهو ٤ كما فعلنا فى العددين السابقين فيكون عندنا عدد ٢٨٤ .

فملخص ذلك أن عددين ضربا فى ضعف ٢ وعدد ٤ ضرب فيه أيضا ، وصار الأمر واضحا ، وأيضا أمكنهم استخراج الأعداد المتحابة من مكعب ٢ بالطريقة المتقدمة ، فيضربون مكعب ٢ وهو ٨ فى ٣ ثم فى ٦ ثم فى ٦٤ وهذا الأخير هو مربع ذلك المكعب الذى هو ٨ فيكون الحاصل بالتوالى ٢٤ و٤٨ و١١٥٢ فإذا نقصنا من كل واحد منها عدد ١ كان الباقى هكذا بالتوالى : ٢٣ ـ ٤٧ ـ ١١٥١ ، فإذا ضربنا ٢٣ فى ٤٧ وهما العددان الأولان ، ثم ضربنا حاصل الضرب فى ضعف المكعب المذكور وهو ٨ وهذا الضعف هو ١٦ فإن حاصل الضرب يكون ١٧٫٢٥٦ فهذا عدد متحاب أول ، والعدد المتحاب الثانى نفعل فيه مافعلنا هناك ، فنضرب ١١٥١ فى ١٦ أيضا فيكون الحاصل ذلك العدد ١٨٫٤١٦ :

وهذه القاعدة التى رأيتها أيها الذكى هنا يمكنك بها إيجاد أعداد متحابة لا نهاية لها بجعلك قوة عدد ٢ هى الأس ، فالعدد المتقدم بقوتها الثالثة أى بضربها فى نفسها ٣ مرات ، فقوتها الرابعة ، وقوتها الخامسة وقوتها السادسة : أى ضربها فى نفسها ٤ مرات ، وضربها فى نفسها ٥ مرات ، وضربها فى نفسها ٦ مرات وهكذا يمكنك بها أن تستخرج أعدادا متحابة إلى مالا يتناهى على شريطة أن تحافظ على هذا النظام .

ثم قلت . ومن أبدع الحكم وأعجب العلم ما استنبطه العلماء غير ماتقدم لإيجاد قاعدة للأعداد المتحابة ذلك أنهم وضعوا صفا أفقيا مركبا من متوالية هندسية تصاعدية أسها ٢ وحدها الأول ٢ أيضا هكذا : ٢ ـ ٤ ـ ٨ ـ ١٦ ـ ٣٢ ـ ٦٤ ثم يضعون تحت هذا الصف صفا آخر مركبا من هذا الصف مضروبا فى ثلاثة فيكون هكذا : ٦ ـ ١٢ ـ ٢٤ ـ ٤٨ ـ ٩٦ ـ ١٩٢ ويضعون فوق الصف الأول صفا تكون أعداده هى عين أعداده بشرط أن تنقص ١ فهى هكذا : ٥ ـ ١١ ـ ٢٣ ـ ٤٧ ـ ٩٥ ـ ١٩١ إذن تكون الصفوف هكذا :

٥	١١	٢٣	٤٧	٩٥	١٩١
٢	٤	٠٨	١٦	٣٢	٦٤
٦	١٢	٢٤	٤٨	٩٦	١٩٢
٠	٧١	٢٨٧	١١٥١	٤٦٠٧	١٨٤٣١

وهذا الصف الرابع إنما حدث بضرب ١٢ من الصف الثالث فى ٦ قبله فالحاصل ٧٢ وينقص ١ فيكون ٧١ وهكذا يصنعون فى الحد الثانى فيضربون الحد الثالث من الصف الثالث فى الحد الثانى منه أعنى ٢٤ فى ١٢ ويطرح من حاصل الضرب ١ وعلى هذه الكيفية يحصل الحد الثالث والرابع وهكذا :

وهذا الجدول تؤخذ منه الأعداد المتحابة ، أفلا تعجب أنك إذا أخذت ٧١ وهو الحد الأول من الصف

الرابع وضربته فى ١١ وهو الحد المقابل له من الصف الأول فإنك تحصل على عدد ٢٨٤ ولو ضربت عدد ١١ فى العدد الذى تحته وهو عدد ٤ لحصل عندك عدد ٤٤ فيضربه فى ٥ الذى على يمين ١١ يكون عندنا ٢٢٠ وهذان العددان هما العددان المتحابان المتقدمان ، وبهذه الطريقة يمكن استخراج أعداد متحابة كما تريد بشرط أن تكون الأعداد المختارة بهذه الطريقة أعدادا أولية لاغير .

فلما سمع ذلك صاحبي قال : إن هذا الموضوع طال ، وكان الأولى أن تقف بنا عند القاعدة المتقدمة قبل هذا الجدول . أما هذا الجدول فإن أعماله كثيرة، وشروطه كثيرة ، وهو صعب على فهو على قراء هذا التفسير أصعب جدا ، فما كان يليق ذكره فى تفسير آية : « الشمس والقمر بحسبان » فقلت : أما هذه الصعوبة فأنا أعلمها وأنا أكتب هذا قاصدا ، فقال : لماذا ؟ قلت : لأن هنا عجبا عجابا ، فقال : وما هو قلت لسر مصون ، وجوهر مكنون :

* ومن خطب الحسناء لم يغلها مهر *

لا تحسب المجد تمرا أنت آكله لا تبلغ المجد حتى تلعق الصبرا

أيها الأخ الذكى : إن أمة الإسلام اليوم يجب أن تلق إليها العلم لتفكر فى أمرها ، وتبحث فى الأرض وفى السماء ، أذكرك أيها الذكى بما مر فى (سورة الحجر) عند قوله تعالى : «وأنبتنا فيها من كل شىء موزون» . فقال أتذكر ذلك ؟ فقلت : ماذا رأيت هناك ؟ فقال : رأيت هناك نظام النبات وهو مرسوم . وهناك مناسبة عجيبة بين أوراق الأشجار (اقرأ هذا المقام وانظر صوره البديعة هناك إن شئت) .

ثم قلت له : إن بين أوراق النباتات المختلفة مناسبات عددية ، ولكل صف علاقة مع بعض الصفوف الأخرى ، أليس هذا هو نفس الوزن ، وهذا الوزن اشتق منه الميزان المذكور فى هذه السورة فإذا سمعنا الله يقول هنا : «والنجم والشجر يسجدان ، والسماء رفعها ووضع الميزان ، ألا تطغوا فى الميزان ، وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان ، والأرض وضعها للأنام ، فيها فاكهة والنخل ذات الأكمام والحب ذو العصف والريحان » فذلك كله بحساب موزون كوزن النبات . قال نعم . قلت : جل الله وجل العلم ، فإذا أنا أيها الأخ الذكى أتيت بالأعداد المتحابة ووضعت الجدول المذكور وهو الصعب فلم أضعه جزافا . كلا . إن المضطر يركب الصعب من الأمور وهو عالم بركوبه ، فأنا الآن أريد أن أبين أن الحساب الذى فطرنا عليه وهو حقائق ثابتة لا تحويل لها ولا تغيير ، بل يستحيل تغييره قد قام عليه نظام العالم ، فكما وجدنا الأعداد المخبوءة فى نفوسنا ذات نظام ثابت ، هكذا وجدنا الأوراق فى الأشجار لها ذلك النظام الثابت ، ووجدنا لها جداول ذات ارتباط وانتظام كالانتظام الذى رأيناه فى نفوسنا عند دراسة الأعداد المتحابة .

فواحسرتاه على المسلمين أولا ، وعلى نوع الإنسان ثانيا ، جهل هذا الإنسان نفسه ، وجهل ربه ، يدرسون الحساب وأكثرهم يعيشون ويموتون وهم لايفكرون : « قتل الإنسان ما أكفره » .

فياليت شعرى أيها الأخ الذكى كيف نرى نفوسنا مفطورة على الحساب والنظام البديع ، ثم نجد نفس ذلك النظام أو ما يشبهه فى نظام الكواكب ، ونظام النبات ونظام الحيوان .

الله أكبر : إن دراسة هذه العجائب هى السعادة ، أليست هذه هى الباب والسلم لمعرفة عجائب نفوسنا ؟ إن نفوسنا مفطورة على الحساب ، والحساب كامن فيها ، والحساب جميل بديع مشوق لما فيه من البدائع والعجائب ، وهذا الحساب الذى عرفنا طرفا منه ثابت فى علم الله عز وجل ، وقد بنى نظام الدنيا عليه ، وبهذا نفهم معنى : « الشمس والقمر بحسبان » ونعرف مئات الآيات من القرآن إذ يقول : لكل أمة أجل » ويقول : « لايستقدمون ساعة ولا يستأخرون » ويقول : « وكل شىء عنده بمقدار » ويقول :

« إن ذلك فى كتاب ، إن ذلك على الله يسير » ومن هنا نشعر بمعنى القضاء والقدر ، ومن هنا نعرف كيف يكون تهذيب الأخلاق :

فقال : تهذيب الأخلاق ! لعل هذا خروج عن الموضوع ؟ فقلت هو فى نفس الموضوع ، بل هو تتميم له . فقال : إن الموضوع هو أن عجائب الحساب تعطينا نموذجا ضئيلا يعرفنا نظام الله وقدره وعجائب صنعه، وأن هذه العوالم منشآت على حساب فطرت عليه نفوسنا ، وهذه حقائق ثابتة ، والله يقول : « وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما لاعبين ، ما خلقناهما إلا بالحق » وهكذا ، فبهذا عرفنا أن هذه العوالم بنيت على حقائق ونفوسنا تشعر بطرف من هذه الحقائق ، فأما الأخلاق فهى شئ آخر . فقلت : إن تمرين الطلاب فى مدارس العالم قاطبة على مقدار تمرنهم فى العلوم الطبيعية والعلوم الرياضية بحيث تصقل نفوسهم بحميد الصفات وجميل الأفعال ، لأن تلك النفوس تشعر بجمال ونظام ثابت فى هذه العوالم فيكسبها صفة الجمال والبهاء والعدل والنظام ، فيظهر ذلك فى أفعالها ، فقال : هذا مقبول عقلا وتؤيده أفعال الإنسان ، لأنى رأيت الحلاق حينما يأتى له صبى ليعلمه يأمره أن يقف زمنا وهو يشاهد مزاولة الحلاق فيكون ذلك أول باعث له على التقليد وسهولة العمل ، والمشاهدة أثر فعال ، فهكذا مزاولة العلوم الطبيعية والرياضية ، ولكن أنا أريد نصا من القرآن على ما تقول ، لأننا الآن فى تفسيره ، ولن يعتقد المسلمون هذا القول إلا بنص من القرآن بشرط أن يكون فى هذه السورة . فقلت : إن النص فيها ، ألم يقل الله تعالى : «ووضع الميزان ألا تطغوا فى الميزان» يقول : نصبت الموازين فى سماواتى وفى أرضى ، وخلقتكم فيها لتشاهدوا أفعالى بالبحث والتنقيب ، فتربى ما سكانكم على النظام ، ومن أحب عملا أحب تقليده طبعا ، فيكون ذلك داعيا لكم أن تزنوا أعمالكم فلا إفراط ولا تقصير . فقال : الحمد لله الذى علم الحكمة وهدى ، وسيكون لهذا القول ما بعده ، وستكون فى الإسلام أمة لم يحلم بها التاريخ ، فإن تفسير الآية اللفظى من غير تدقيق لا يعطى كل هذه المعانى التى تقلب عقول النوع الإنسانى وتغيره من حال إلى حال .

انحطاط تعاليم الحساب فى بلاد الإسلام

وهل له نظير فى المشاهدات الحسية

وكيف عرف الأوروبيون أن الأخلاق تصقلها هذه العلوم ، وإذا كانت أخلاق المتعلمين منهم شريفة فلماذا نراهم يتعلمون فى الشرق ؟

ولكنى أريد أن أسألك إذا أذنت لى فى بعض أمور مرتبة على هذا النظام الحسابى ، فقلت حبا وكرامة فقال : (أولا) إنى وأنا مجاور بالجامع الأزهر كنت أطلع على بعض كتب نحو (شمس المعارف الكبرى) للبونى فأجده يذكر هذه الأعداد المتحابة ، ويقول : تمزج أعداد اسم الرجل بأعداد اسم المرأة الخ وله هناك دعوات وبخور وهكذا . إن المطلع على هذه الكتب يظن أن هذا من الدين . فقلت : اعلم أن هذا الموضوع لا يتم فهمه إلا بمثل وهو نهر النيل . إن نهر النيل يستمد ماءه من المطر النازل من السماء وهذا المطر ينزل بعضه فيكون ثلجا فوق الجبال العالية هناك ، وإن كان ذلك فى خط الاستواء لشدة الارتفاع ، وبقية المطر ينزل بعضه فى باطن الأرض ، وبعضه يجرى على ظاهرها ، والذى يجرى على ظاهرها هو الذى ينزل فى البحيرات هناك ، ومنه يكون نهر النيل ، والثلج فوق الجبال يمد النهر طول السنة بما ينحل من ماله بحرارة الشمس ، فإذا مر الماء فى بلادنا إلى البحر الأبيض المتوسط سقى الزرع وأدر الضرع ، ولكن بعض الماء ينفرد ولا يتصل بالنهر فيكون فى برك ومستنقعات ، فهو منفصل من النيل المتصل بالبحيرات والمطر والجبل ، وهذا الماء المنقطع هو من أفعال الله عز وجل ، ومعلوم أن الله هو الرحمن ، فرحمته تسرى فى كل

شئ

شيء ، فهذه البرك والمستنقعات لايصلح ماؤها للشرب . بل تكون ضارة للانسان والحيوان ، فيخلق الله عز وجل فيها الناموس والذباب والحشرات ، ويعطيها من رحمته قوة وسلاحا ، ويحفظ نسلها مهما حاربها الإنسان وآذاها ، لأنه (أولا) يريد بقاء هذه الحيوانات وتكاثرها لأنها مخلوقاته (وثانيا) بجعلها مطهرات للجو (وثالثا) ليجعلها جنودا تقتل هذا الإنسان الجاهل النظام حتى يرجع عن جهله .

إذا فهمت هذا أيها الأخ الذكي فاعلم أن الأمم جميعها في أول أمرها تكون نشطة مفكرة ذكية ، فإذا حل بها الضعف ، وانتابها الخور فكت أوصال علومها ، وانحلت عراها ، واستعملت العلوم في غير ما وضعت له ، وأصبحت تلك العلوم فيها أشبه بالناموس والذباب وبقية الحشرات فلا تزال تؤذي .

والحشرات مؤذيات . ولله فيها أيضا رحمة ، فهو كما خلق الحشرات وجعل حياتها جارية على قوانين هكذا إذا جهلت الأمم أصول علومها تبعثرت تلك العلوم وتناثرت بعد أن كانت قلادة واحدة ، فترى علم الأعداد مستعملا في غير ماوضع له بحيث ترى الأعداد المتحابة المتقدمة قد جعلت لأمور صبيانية بعد أن كانت دراستها لمعرفة الحكمة ، ونظام الخليقة ، وحب صانع العالم ، والتمكن من العلوم ، لسعادة الحياة وارتقاء الإنسانية وترى علم النحو والصرف والمعاني والبيان والبديع لاتتجاوز معرفة ألفاظ القرآن فيضيع العمر فيها ويقف العقل عندها بعد أن كانت مقدمات لمعرفة أمثال هذه الأسرار ، وترى علم الفقه وأصوله لايقصد إلا لمعرفة آراء الشافعي وأبي حنيفة أونحوهما مع بقاء عقل الطالب في قيد ذلك الامام لايتجاوزه مع أن الأصول ماوضعت إلا للاجتهاد لا للاستعباد ، ثم إن القاضي يتولى القضاء لغرض التبسط في الحياة ، وحوز الدرهم والدينار مع أن هذا ترف ، والترف أصل الشقاء في هذه الحياة نفسها ، والقضاة في زماننا هم الذين يطلبون القضاء لأجل المال ، ولأجل الترف والتنعم في الحياة ، كل ذلك لأن هذه العلوم تقرأ والطالب ذاهل عن أصل وضع الدين ، لأن أصل الدين جاء ليجعل في الناس طبقة تكون سياجا للأمة وقوادا لها ، والقواد يكونون أقرب إلى الزهد ، وهكذا الملوك والأمراء كلهم يحرصون على المال لأنفسهم لا للدولة ، وكل ذلك ناشيء من الجهل بأصول الحياة وبأصول الدين ، فإن صاحب الشرع صلى الله عليه وسلم لم يحز المال لنفسه بل للأمة ، وعمر رضي الله عنه كذلك وبقية الخلفاء ، فخلف من بعدهم خلف جعلوا الإمارة مغنما ، فهؤلاء وهؤلاء أشبه بالحشرات العائشات في البرك والمستنقعات ، والتشبيه صحيح لأن الذين يقرءون سورة يس لأجل جلب الرزق ، أو الذين يكتبون وفقا محسوبا بهيئة خاصة لأجل ذلك ، أو الذين يتولون القضاء أو الإمارة وهم غافلون عن حقائق ماهم بصدده أو الذين يتولون الزعامة لاعطاء العهود ولكن قصدهم جمع المال فقط ، فهؤلاء وهؤلاء لافرق بينهم وبين الحشرات في البرك وفي المستنقعات ، ومثلهم في ذلك الذين يحسبون [بالزايرجة] فهؤلاء لهم حساب منظم نظاما بديعا ، وقد يكون وراء هذا الحساب أخبار ببعض الحقائق ، والأكثر منه يتخلف كما حققته أنا معهم ودرسته دراسة تامة ، وهكذا الذين يعرفون علم الرمل وأمثالهم ، ومثلهم من يحضر الأرواح لقصد المنافع الدنيوية ، فكل هؤلاء يجب الاستيقاظ لهم .

على قادة الأمة (وهل القادة إلا المفكرون الذين قرءوا علوما شتى ومنهم قراء هذا التفسير) أن يحذفوا من البلاد الإسلامية تلك الكتب التي فيها البازرجة والرمل ، وأمثال كتب البوني ، فهذه مضعفات للعزائم ، فان الإنسان يترك العمل ويتكل على الأمل ، وجميع ذلك يضر الأمم ضررا بليغا ، لأن الساحر وأمثاله يريدون أن يعيشوا على حساب الأمة ، وهذا هو الوبال والضلال ، بل يجب أن تحمى الأمة ولا يترك أحد بغير صناعة ، فهذا هو الواجب الآن .

فقال صاحبي : لقد شفيت صدري في هذا السؤال فأرجو الإجابة على السؤال الثاني .

فقلت سل ما تشاء .

السؤال الثانى

إن هذا القول أحدث عندى إشكالا وإشكالا وحيرة ، إنك أثبت من القرآن فى هذه السورة أن العلوم الرياضية والطبيعية تصقل العقول وتهذب الأخلاق : أى تساعد على ذلك ، ولكن يقتضى هذا (أمرين : الأول) أن أبا بكر وعمر رضى الله عنهما وبقية الخلفاء الراشدين كانوا على سداد فى آرائهم وفضل عظيم ، وقد أجمع الناقدون من الأمم المعاصرة لنا أن أبا بكر وعمر رضى الله عنهما كانا أذكى وأعدل من قيصر وكسرى فى زمانهما مع أن المدارس فى الفرس والرومان كانت مكتظة بالطلاب ، وهؤلاء الملوك تعلموا فيها، فكيف وجدنا من لم يقرأ رياضيات ولا طبيعيات أعدل وأتم أخلاقا من القارئين المتعلمين .

(الأمر الثانى) أن بعض الأوروبين الحاليين الذين يقرءون الرياضيات والطبيعيات هم شر خلق الله على الناس وعلى أنفسهم. ثم أخذ يقول: وأى دليل أتم وبرهان أعظم على نقض هذه النظرية مما نراه من الموازنة بين أخلاق الأوروبيين الذين فى زمننا وهم بلا مراء دارسون هذه العلوم ، وبين أخلاق الصحابة الذين لم يدرسوها أيام عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وسرد ماجاء فى الجزء الثانى من كتاب « حاضر العالم الإسلامى » من أن الأمم الأوروبية فى هذه الحرب الكبرى عاهدوا المسلمين ونقضوا العهود ، فهذه أمم ناكثة للعهد لا يوثق بها . ثم قال : أليس من أقبح الأخلاق نقض العهد ! أولم يقرأ هؤلاء هذه العلوم ؟ ثم لننظر ماجاء فى سيرة عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى كتاب « أشهر مشاهير الإسلام » فقد جاء فيه فى صفحة ٣٣١ تحت العنوان الآتى ما نصه :

خبر جندى سابور ، وأمان عبد أمضاه جيش المسلمين

روى الطبرى أن أبا سبرة لما فرغ من السوس خرج فى جنده حتى نزل على جندى سابور ، وزرّ بن عبد الله بن كليب محاصرهم ، فأقاموا عليها يغادونهم ويراوحونهم القتال ، فلم يفجأهم يوما إلا وأبواب البلد تفتح ، ثم خرج الناس وخرج الأسواق وانبث أهلها ، فأرسل المسلمون من ذلك ، وأرسلوا فسألوهم أن مالكم؟ قالوا رميتم إلينا بالأمان فقبلناه وأقررنا لكم بالجزية على أن تمنعونا ، فقال المسلمون مافعلنا ، فقال أهل جندى سابور ونحن ما كذبنا ، فسأل المسلمون فيما بينهم ، فإذا عبد يدعى (مكنفا) كان أصله منها هو الذى كتب لهم ، فقالوا إنما هو عبد ، فقالوا إنا لانعرف حركم من عبدكم قد جاءنا أمان فنحن عليه قد قبلناه ولم نبدل فان شئتم فاغدروا ، فأمسكوا عنهم وكتبوا بذلك إلى عمر فكتب إليهم يقول : إن الله عظم الوفاء فلا تكونون أوفياء حتى تفوا ، مادمتم فى شك أجيزوهم وفوا لهم ، فوفوا لهم وانصرفوا عنهم اه .

* * *

ولما أتم هذا للقال حدق ببصره إلى وأخذ يقول : إن النظرية لاحظ لها من الحقيقة ، فهاهم أولاء القياصرة والأكاسرة قديما ، وهكذا ساسة أهل أوروبا حديثا سقطوا فى الميدان الأخلاقى وهم الدارسون لهذه العلوم ، والصحابة وعمر لم يخونوا العهد وصدقوا ماعاهدوا ، وأهل أوروبا اليوم ناكثو العهود .

جواب هذين الاعتراضين

فقلت أيها الأخ الذكى : إن الأمم لها دوران : دور البداوة ، ودور الحضارة ، فهى فى دور البداوة تكون أقرب إلى الخير لأنها لا تزال على الفطرة ، ولا يعوزها إلا أمران : إزالة الخرافات فى العقائد ، وهدايتهم إلى الصراط المستقيم فى الأخلاق . ومتى زال هذان العائقان انبعثت الفطرة إلى الأعمال الصالحة لأنه لاغشاوة تحجبها ، ولا غطاء ، ولاران عليها ، وهذا جوابى على اعتراضك الأول ، فاذا رأيت أبا بكر وعمر وبقية الخلفاء أفضل من ملوك زمانهم ، فذلك أن هؤلاء الملوك قد حجبت عنهم فطرهم بالحضارة وغشاوات الزلات المنكرة الفاشية فى الأمم التى طال عليها العهد وقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون .

فأما الأمم فى دور الحضارة فإن الشرور والشهوات ، والطمع والبغى ، تكون حجابا على القلوب فلا بد من دراسة العلوم الرياضية والطبيعية لتصقل النفس فتقرب من فطرتها ، وتحب الحق الذى درسته لأنه مخبوء فى النفس وظاهر فى الطبيعة ، فمتى شهدته أخذت ترجع إلى فطرتها شيئا فشيئا ، وذلك من غير جدال شأن جميع الطبقة المتعلمة فى الأمم الراقية ، وهم بلا جدال حافظون لكيان دولهم ، وعندهم عدل بقدر إمكانهم فقال : مادليلك على هذا ؟ قلت : دليلى أننا نرسل أبناءنا يتعلمون القوانين فى مدارسهم وأيضا أن الأمم التى تغير على بلادنا بقضها وقضيضها وتغلبنا ، لن يتم ذلك لها إلا بحفظ بلادها أولا ، لأن الأمم أشبه بالآلات التى تستخرج الماء من الأرض ، فكل صناعة وعلم جزء من تلك الآلة ، ومتى فسدت قطعة منها وقفت حركتها . فإذا كنا نراهم على هذا النمط فمن المستحيل أن يكون القضاة مجبولين على الظلم وإلا لاختل النظام وبقوا فى بلادهم جائعين .

فقال : هذا حق ، ولكنى أقول إنهم يظلموننا نحن ، وقد وازنت بين إخلافهم وعدنا وبين وفاء الصحابة ، فقلت : حقا إن هؤلاء القوم أخلفوا عهودهم معنا ، ولم تنفعهم ثقافتهم بالعلوم ، والصحابة كانوا أقرب إلى العدل مع الأمم منهم ، ذلك لأن هؤلاء أشبه برجل اتبع رأى الأطباء فى الطعام والشراب فأكل الفاكهة والخضر ولكنه ابتلى بشرب الخمر واتبع الشهوات ، فهؤلاء وإن غذيت عقولهم بالعلوم الطبيعية والرياضية وصلحت كما تصلح الأجسام بالأغذية الصحية انتابتهم أمراض اجتماعية أفسدت فطرهم بالنسبة لأمم الشرق كما يفسد الجسم المعتدل بالأغذية الطبيعية إذا شرب الخمر أو أكثر من التبغ والقهوة والشاى والمخدرات الأخرى .

إن هذه الأمم يعطون تلاميذهم فى جامعاتهم وكلياتهم درسا خاصا بأمم الشرق فيقولون : إياكم أن تعاملوا هذه الشعوب معاملة الأوروبيين لأننا نريد أن نبقيهم على حال أدنى ليكونوا تحت طاعتنا خاضعين ، وهذا جوابى عن اعتراضك الثانى ، ولا فرق بين هؤلاء الأوروبيين الذين يذلون الأمم الشرقية وبين كثير من أسلافنا بعد عصر الخلافة الذين ظلموا الأمم وخربوا البلاد (اقرأه فى مقدمة ابن خلدون وارجع إليه فى سورة النمل عند آية : « إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها » الخ . فقال شرحت صدرى شرح الله صدرك ، وبهذا تم الكلام على الإجابة على السؤال الثانى ، والحمد لله رب العالمين .

ملخص ما تقدم

هنالك أخذ صديق العالم يحدثنى فى هذا الموضوع قائلا : إنى أخاف أن يكون هذا القول خارجا عن الموضوع ، نحن فى آية « الشمس والقمر بحسبان » وإنى لما سمعت منك أن دراسة هذه العلوم تعلم العدل خرجت عن الموضوع بذكر السياسة بين الشرق والغرب ، وأردت بذلك اختبار طريقك ، هل مايقوله كثير من الناس حق بالنسبة لك من حيث إنك دائما تخرج عن دائرة التفسير ؟ فقلت إن ماتقوله كنت ألاحظه أثناء كلامك واعلم أنك تريد إخراجى من الموضوع استدراجا ، ولكنى أنا أعلم أن الكلام لم يخرج عن الموضوع فما رأيته أنت نقصا للأسلوب أراه أنا كمالا . فقال وكيف ذلك ؟ فقلت إننا قلنا إن العوالم كلها مبنية على الحساب ، والحساب ثابت فى النفس ، والعالم على مقتضاه ، وقلنا إن الأعداد الأولية أقل من الأعداد التى تقبل القسمة ، وإن الأولية يعوزها بعض البحث ، والأعداد الكاملة تحتاج إلى بحث أتم ، والأعداد المتحابة العجيبة يعوزها تنقيب أكثر لجمالها وقلتها وإبداعها وعجائبها ، وإن هناك المتوالية الهندسية والعددية ، والجذر والتربيع ، والكسر الدائر وغير الدائر ، وأثبت أن هذه العلوم تصقل العقول ولها دخل فى تهذيب الأخلاق ، فلما اعترضت أنت على ذلك بأعمال الأكاسرة والقياصرة ، وبأعمال أهل أوروبا أجبتك بما أقنعك . وبعد هذا وذاك أرى أن هذا كله فى تفسير الآية ، ألم تر رعاك الله أن الشمس والقمر مبنيان على الحساب . قال بلى . قلت والزروع بأقسامها كلها مبنيات على حساب الشمس والقمر ، فقال بلى . قلت أليست هذه هى العلوم الطبيعية والرياضية ؟ قال بلى . قلت أو ليس قوله تعالى « ووضع الميزان ألا تطغوا فى الميزان » راجع لعلم الأخلاق والسياسة معا لأن السياسة أخلاق أيضا فى ساحات أعم من الأخلاق الفردية . قال بلى وربى . قلت إذن ماأوردته أنت لم يخرج بنا عن الموضوع بل هو إتمام له وأنت فى ذلك من المصلحين . قال الحمد لله والشكر له ، وبهذا تم الكلام على الفصل الثانى فى العدد الزائد والناقص والأعداد المتحابة فلنبتدئ فى :

الفصل الثالث فى : الجذر والتربيع
والمتوالية العددية والمتوالية الهندسية

ولا أريد أن أطيل الكلام على بقية المواضيع هنا ، فمن أراد فليراجع ماتقدم فى (سورة الذاريات) عند آية : « وفى أنفسكم أفلا تبصرون » فى المجلد الثالث والعشرين من هذا التفسير ، وإلى هنا تم الكلام على اللطيفة الثانية فى عجائب الحسبان فى سورة الرحمن ، والحمد لله رب العالمين .

اللطيفة الثالثة

زيادة إيضاح قوله تعالى «يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان»

اعلم أن اللآلئ على ثلاثة أنواع طبيعية ومولدة ، وصناعية ، وهذه سنتكلم عليها من (طريقين : الطريق الأول) تمييز كل منها ، وبيان نفعها المادى فى التجارة (الطريق الثانى) بيان جمالها العلمى فى الحكمة .

الـكلام على الطريق الأول وهو تمييز أنواع اللآلىء الثلاثة

اللؤلؤ الطبيعى

لقد تقدم الـكلام عليه فى (سورة الفاتحة) وهناك بيان أنه يخلق فى (المحار) الذى يعيش فى البحار ويتكون فى باطنه : وهناك إيضاح كاف لحياة وأوصاف هذا المحار ، وتزيد عليه هنا أن نقول :

لقد اختلف العلماء فى سبب تـكون اللؤلؤ فى جوف المحار ، فمن قائل إن اللؤلؤ يتكون بسبب حيوان حلمى صغير يدخل جسم المحار فتجتمع حوله المادة اللؤلؤية لتقتله ، وقد بحث (هردمان) و (هورنل) فى لؤلؤ سيلان فقالا إن فى قلب كل لؤلؤة بحثنا فيها نواة هى بزرة دودة من نوع الدود القرعى ، ووافقهما غيرهما على ذلك .

فهذان العالمان ومن وافقهما عينا نوع ذلك الداخل الغريب فى جوف (المحار) الذى اجتمعت حوله مادة اللؤلؤ .

وقال الدكتور (جابموس) قولا لا يخالف ماتقدم بل يوضحه فقط ، ذلك أنه امتحن نوعا مخصوصا من محار اللؤلؤ فوجد أنه تحل فيه الدودة الحلمية المعروفة بلفظ (جمنوفالس) وهذه الدودة يحيط بها كيس من نسيج بشرة المحار الذى يفرز المادة الصدفية ، فاذا ماتت أو خرجت من الـكيس أخذ الـكيس يفرز المادة اللؤلؤية طبقات بعضها فوق بعض فيكون لؤلؤة ، ولا يتكون هذا الـكيس حول جسم آخر إذا دخل أنسجة الحيوان سواء أكان هذا الجسم جمادا أو حيوانا حلميا غير (الجمنوفالس) إذن هذه الدودة المخصوصة هى سبب تـكون اللؤلؤ فى هذا النوع من المحار ، أما غيره فانه يتكون بأى جسم غريب دخل المحار بدليل ماسيأتى فى اللؤلؤ الصناعى وإنه يتكون بادخال أى جسم .

اللؤلؤ المولد

لما عرف الناس ما سبب تـكون اللؤلؤ فى جوف المحار قالوا لماذا لا نربيه كما نربى الدجاج والسمك وسائر الحيوان ؟ فعمدوا إلى المحار ، وأدخلوا فى جوف كل واحدة منه (هنة صغيرة) كالهنة التى تدخل فى الهيئة الطبيعية فتـكون اللؤلؤ ، ولـكنه يحتاج إلى زمان طويل كالذى يقضيه فى اللؤلؤ الطبيعى ، فأخذوا يدخلون فى جوف المحار (هنة كبيرة) فهذه يتـكون حولها اللؤلؤ سريعا على مقدار كبر حجمها ، وقد كسب القوم بهذا فى التجارة مالا كثيرا بسبب العلم ، لولا العلم بسبب تـكون اللؤلؤ ما أمكنهم تربيته ولا تقصير زمنه ولا إكثاره ، ولا يعرف اللؤلؤ الطبيعى من المولد إلا بأشعة [إكس] .

اللؤلؤ الصناعى أو المقلد

جاء فى تاريخ اللؤلؤ أن رجلا فرنسيا سنة ١٦٥ م يسمى (جاكون) كان يغسل نوعا من السمك فى ماء عذب فرأى فى غسالته لمعانا كلمعان اللؤلؤ حين يجف ، فخطر له أن يطلى به خرزا من الزجاج بعد مزجه بشىء من الشمع حتى يلصق بالزجاج ، ففعل وصنع أول لؤلؤة صناعية فى التاريخ ، فاشتهرت لآلئه وأقبلت عليها الغوانى فى ذلك العصر ، وصارت الغانية لا تحسب جواهرها كاملة إن لم يكن بينها عقد من هذا الخرز اللماع ، وقد أصبحت هذه صناعة فرنسية أشار لها العالم (زويتر) سنة ١٧١٦ ومصدر هذه المادة نوع من السمك يسمى (البينوس لوسيدوس) وفى انـكلترا يستخرجونه من قشر سمك (الرنـكة)

المرتع . فهذه الأسماك تغسل بالماء العذب غسلا لطيفا حتى تنظف من الملح والقذر ثم تحك الحراشف التى على بطنها بقفا سكين فترسب المادة اللؤلؤية فى الماء ، وإذا أريد حفظها فى الماء أضيف له شىء من (ألامونيا) حتى لا يتطرق الفساد إليها سريعا ، وكيفية صنع الخرز الذى يطلى بهذه المادة اللؤلؤية هو ما يأتى :

(١) أن يؤتى بخرز فارغ من الداخل يستحضر بنفخ زجاج عادى غير ملون فى قوالب صغيرة بحسب الحجم المطلوب :

(٢) أن يؤتى بكتل صلدة من الزجاج ، فلنوع الأول من الخرز الزجاجى يطلى من الداخل ، ثم يحشى بنوع من الشمع ملون أو غير ملون . أما النوع الثانى فيطلى من الخارج إذ لا جوف له يطلى ، وهذا يفوق الأول فى مشاكلته للؤلؤ الحقيق ، ولكن طلاؤه معرض للدثور بخلاف الأول ، وثمن العقد الواحد من هذا النوع من ريال إلى جنيه فقط . انتهى الكلام على الطريق الأول وهو تمييز أنواع اللؤلؤ . والحمد لله رب العالمين :

الطريق الثانى : بيان جمالها العلمى فى الحكمة

هذا الطريق الثانى لا يتسنى معرفته إلا بعد فهم الطريق الأول لذلك قدمناه . إن الله عز وجل جعل هذه الدنيا ونظامها مرقاة للعقول الإنسانية ترتقى بها إلى معارج الحكمة ، فانظر إلى نظام اللؤلؤ ، وما اللؤلؤ إلا طبقات دقيقة (مبلورة) أى مشكلة بأشكال منتظمة من كربونات الجير ، ثم إن هذا الذى نشاهده من الألوان الزاهية على سطحها لم يكن شيئا سوى تكسر أشعة النور على هذه الطبقات الدقيقة ، هذا هو اللؤلؤ وهذا هو السبب فى جماله ، وهنا يبتدئ العجب فى العلم فنقول :

اللؤلؤ إذن جير مع كربون : أى جير مع فحم ، مادتان اتحدت إحداهما بالأخرى اتحادا خاصا بأجزاء محدودات ، امتصهما المحار من ماء البحر ، فالمحار هو الذى يتغذى بهذه المواد الجيرية والمواد الفحمية وغيرها . وهذا الغذاء يصطفى منه هاتان المادتان : الجير والفحم ، ثم يصيران جسما متحدا واحدا ، وهذا الجسم يلمع لماذا يكون هذا الجمال ؟ ذلك الجمال بسبب ضوء الشمس وغيره ، فضوء الشمس الآتى لنا من طبقات بعيدة يقع على هذا الجسم الجيرى الفحمى ، فيجد هناك ذرات منتظمة تحيط بهذا الجرم صالحة لأن تعكس عنها ذلك النور فيحصل تموج باهر وجميل ، فهذا هو جمال اللؤلؤ ، هو ناشئ من تدبير فى باطن المحار ، وتدبير فى ضوء الشمس ، وتدبير فى هيئة خلق اللؤلؤة ، فهناك مادة من جير وفحم ، وهناك نظام الذرات المنظم ، وهناك شعاع الأنوار كالشمس ، وهذا قوله تعالى : « إن ربى لطيف لما يشاء » فظهر هنا فى هذا كما فى غيره لطفه فى صنع اللؤلؤ ، إذ استخرجه من مواد معروفة عندنا لا بريق فيها ولا لمعان ، فما هو الفحم ؟ إن هو إلا مادة مظلمة نحرقها فنستدفئ بها ، وبها تجرى القاطرات والسفن فى البحار ، وبها ندير آلاتنا ، ونصنع خبزنا وما نريد من الأعمال ، ومنه اشتقت مئات الألوان فى الصباغة ، وهكذا كان الغاز الذى تضاء به شوارع المدن الكبار كالقاهرة والإسكندرية وغيرهما ، إن الفحم أو الكربون هو نفس الماس على شرط أن يكون نقيا وهو اللؤلؤ على شرط اتحاده مع الجير ، إن الله اشتق من هذه المادة لؤلؤا وماسا كما اشتق العقل فى الإنسان من المادة الجامدة ، إن الفحم المظلم قد اشتقت منه الأنوار ، واشتق منه الجمال . فالأنوار معروفة مشاهدة ، وهكذا أنواع ألوان الصباغة ، وأما الجمال فهو ما نحن بصدده من اللآلئ الجميلة ، جعل الله الجمال هنا من مادتين منبوذتين . الفحم والجير ليبين للناس أن كل ما حولكم فيه أسرار لا نهاية لها بل كمن فى كل مخلوق جمال لا يدركه الناس إلا بالعلم ، وأكثر هذا الإنسان مغرورون محجوبون ، والعلم هو الذى

يوقظهم لأمرين : رق دنيوى ، ورق نفسى ، أما الرق الدنيوى فمثل ما ظهر فى هذا المقام من توليد اللؤلؤ وعدم الاكتفاء بما يكون من المحار بحسب طبعه كما قال الله تعالى : « يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان ، فبأى آلاء ربكما تكذبان » فجعل ذلك من الآلاء أى النعم ، وذكر لفظ رب وأضافه للمخاطبين فقال ربكما أيها الإنسان، ويا أيها الجان: وذلك ليدلنا على أمرين . تربيته هو سبحانه لهذا اللؤلؤ ، وتربيتنا نحن له ، وهو اللؤلؤ المولد فإن الناس يربونه الآن ؛ ولعمرك ما ذكره الله هنا وعبر عنا فيه معنى التربية إلا ليوقظ المسلمين إلى أن فى ذلك علما تجب دراسته وجوبا كفائيا لرق العقول ولرقى الصناعات بالتربية العملية من نوع الإنسان لهذا اللؤلؤ ، وكرر الله لفظ « رب » وراء كل نعمة من النعم فى هذه السورة إيقاظاً لنا أن نفكر فى تربية هذه العوالم كلها ونقف على الحقائق ، وهذا هو سر الفاتحة التى يقرؤها المسلم صباحا ومساء فيقول « الحمد لله رب العالمين » .

فسورة (الرحمن) التى جمعت ذكر المخلوقات فى الدنيا والمخلوقات فى الآخرة قد ناطت ذلك كله بالتربية وأفادت إيضاح (سورة الفاتحة) وبينت التربية وأنواعها إجمالا ، فلم تذر شمساً ولا قمراً ولا نجما ولا شجراً ولا سماء ولا أرضاً ولا فاكهة ولا نخلا ولا حبا ولا عصفا ولا إنسا ولا جانا ولا شرقا ولا غربا ولا بحراً ولا برزخا ولا لؤلؤا ولا مرجانا ولا نارا ولا نحاسا ولا سفينة فى بحر ولا جنة ولا حورا عينا ولا غيرها إلا ذكر بها معبراً عنه بالنعمة وبالتربية ذكرى للمسلمين بعدنا ، فسيقرءون هذا القول وأمثاله ، ويدخلون فى بحر لجى من العلم والحكمة وهم مجدون .

من عجائب هذا المقام أنك ترى أن أنواع اللؤلؤ لم تفارق البحر سواء أكان طبيعياً أم مولداً أم كان صناعياً ، ألم تر أن الصناعى إنما هو عبارة عما يكون من مواد عالقة بحراشف السمك ، وهذه المادة اللامعة يطلى بها الزجاج ، فالطبيعى من المحار ، والصناعى مما يرى على حراشف السمك ، وهذا يطلى به الزجاج إما من داخل وإما من خارج ، وما هو الزجاج ؟ إن هو إلا رمل متحد مع مغنيسيا وجير ، فرجع الأمر إلى أن الجمال من لحم وجير ورمل ، فأما المادة التى تلمع على حراشف السمك فإنما خلقت فيه لمنفعة نفسه ، ذلك أنه ينعكس بسبب تلك المادة بريق فضى وهاج عن بطنها ، فبذلك تختفى عن أعين أعدائها لما تلق على أعين أولئك الأعداء من النور الذى يبهر أبصارها فلا تتمكن من رؤيتها فلا تقتنصها ، فتعجب من مادة جاءت للسمكة وقاية من الأعداء ، وللغادات الحسان جذبا للأحباب والأصدقاء « فتبارك الله أحسن الخالقين » . « وفى الأرض آيات للموقنين » وإلى هنا تم الكلام على قوله تعالى : « يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان » وبهذا تم تفسير ﴿ سورة الرحمن ﴾ والحمد لله رب العالمين . كتب صباح يوم الأربعاء ١٧ من شهر أغسطس سنة ١٩٢٧ م .

تفسير سورة الواقعة

هي مكية

إلا قوله تعالى : أفبهذا الحديث أنتم مدهنون ، وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون . فمدنية

آياتها ٩٦ — نزلت بعد طه

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ * لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ * خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ * إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ
رَجًّا * وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا * فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًّا * وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً * فَأَصْحَابُ
الْمَيْمَنَةِ * مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ * وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ * وَالسَّابِقُونَ
السَّابِقُونَ * أُولَٰئِكَ الْمُقَرَّبُونَ * فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ * ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ * وَقَلِيلٌ مِنَ
الْآخِرِينَ * عَلَىٰ سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ * مُتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ * يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ
مُخَلَّدُونَ * بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ * لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنْزِفُونَ *
وَفَاكِهَةٍ مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ * وَلَحْمِ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ * وَحُورٌ عِينٌ * كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ
الْمَكْنُونِ * جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا * إِلَّا قِيلًا
سَلَامًا سَلَامًا * وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ * فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ * وَطَلْحٍ مَنْضُودٍ *
وَظِلٍّ مَمْدُودٍ * وَمَاءٍ مَسْكُوبٍ * وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ * لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ *
وَفُرُشٍ مَرْفُوعَةٍ * إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً * فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا * عُرُبًا أَتْرَابًا *
لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ * ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ * وَثُلَّةٌ مِنَ الْآخِرِينَ * وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ
مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ * فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ * وَظِلٍّ مِنْ يَحْمُومٍ * لَا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ *
إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ * وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنْثِ الْعَظِيمِ * وَكَانُوا يَقُولُونَ
أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ * أَوَآبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ * قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ

وَالْآخِرِينَ * لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ * ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ *
لَآكِلُونَ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زَقُّومٍ * فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ * فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ *
فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ * هَذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ * نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ *
أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ * أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ * نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ
وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ * عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنْشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ * وَلَقَدْ
عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَى فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ * أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ * أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ
نَحْنُ الزَّارِعُونَ * لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ * إِنَّا لَمُغْرَمُونَ * بَلْ
نَحْنُ مَحْرُومُونَ * أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ * أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ
الْمُنْزِلُونَ * لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ * أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ *
أَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ * نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعًا لِلْمُقْوِينَ *
فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ * فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ * وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ
عَظِيمٌ * إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ * فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ * لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ * تَنْزِيلٌ
مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ * أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُدْهِنُونَ * وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ
تُكَذِّبُونَ * فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ * وَأَنْتُمْ حِينَئِذٍ تَنْظُرُونَ * وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ
مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ * فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ * تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ
صَادِقِينَ * فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ * فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ * وَأَمَّا إِنْ كَانَ
مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ * فَسَلَامٌ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ * وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ
الضَّالِّينَ * فَنُزُلٌ مِنْ حَمِيمٍ * وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ * إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ * فَسَبِّحْ بِاسْمِ
رَبِّكَ الْعَظِيمِ *

هذه السورة ثلاثة أقسام

القسم الأول فى تفسير البسملة .

القسم الثانى فى ذكر السابقين وأصحاب الميمنة وأصحاب المشأمة وجزائهم من أول السورة إلى قوله تعالى « هذا نزلهم يوم الدين » .

القسم الثالث فى ذكر العجائب الكونية والاستدلال بها على وجود الخالق سبحانه وتعالى وقدرته ، واختتام ذلك بملخص القسم الأول .

القسم الأول فى تفسير البسملة

أكتب هذا فى صباح يوم السبت ٢٠ أغسطس سنة ١٩٣٢ م ذاكرا ماشاهدته فى مساء يوم الثلاثاء الفائت ١٦ من هذا الشهر ، ذلك أنى توجهت إلى مزرعتنا بجهة المرج بالقرب من القاهرة سيرا على قدمى كما ذكرت نظيره سابقا فى هذا التفسير ، لأن ذلك أقرب للصحة وأروح للبدن ، وكل مؤلف لايسير كل يوم أميالا على قدميه لا حظ له غالبا فى انتفاع الناس بمؤلفه لضعف النشاط فى روحه واعتلال صحته ، وبينما أنا سائر إذ رأيت امرأة أعرابية ترعى غنمات وشابا معها يساعدها فى ذلك ، والمرأة لابسة أهداما قالصة تحمل مخلاة على ظهرها خطر لى ما يأتى :

هذه المرأة فى نظر هـذا الشاب أجمل امرأة وأشرف ، لأنهم يرون الفلاحين وأهل المدينة أدنى منهم منزلة وأقل سعادة ، ثم وازنت بين هذه المرأة وأختها التى تعيش فى القصور بمصر وهى جارتها ، وهـذه الأخيرة لا ترى لها سعادة إلا فى أن تكون مرفهة البال ، محجوبة فى القصر ، قد حرمت من الشمس وضحاها ، والقمر إذا تلاها ، وتمتعت بأنواع اللذات فى قصرها ، ولاعمل لها غالبا إلا أن تتزين صباحا ومساء وإذا ذكرت لها هذه الأعرابية حقرتها وعدتها من سقط المتاع ، إذن السعادة فى هذه الحياة تابعة للعقيدة ؛ فالبدوية سعيدة بعقيدتها ، والحضرية سعيدة بعقيدتها وإن كانت الأولى أقرب للحقيقة لصحة بدنها وارتياضها فى الهواء وضوء الشمس ، وهاهنا ظهرت لى هذه القاعدة : السعادة تتبع العقيدة ، فأهل كل دين فى الأرض يرون سعادتهم بدينهم سواء أعبدوا صنما أم فيلا أم شجرا أم حجرا ، وفى الآية : « وقال إنما اتخذتم من دون الله أوثانا مودة بينكم فى الحياة الدنيا ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضا ومأواكم النار ومالكم من ناصرين » فالناس جميعا يتبعون ماألقى لهم من العقائد والآراء ، فأرباب كل حرفة سعداء بحرفتهم ، بل اللصوص يظنون أنفسهم فى بحبوحة السعادة والهناء .

اللهم إن رحمة كل حى فى الأرض رحمة جزئية ، وهذه الرحمات الجزئية بعالمنا تحيط بها الشموس والأقمار والكواكب ، تلك العوالم التى تدوم قرونا وقرونا ، وعشرات آلاف آلاف السنين ، إذن هذه الرحمات الجزئية فوقها رحمة كلية كأنها دائمة ، تشرق الشمس وتغرب وهكذا القمر والنجوم ، جل الله ، جل الله ، عجب وعجب ! شروق وغروب للكواكب ، وحياة وموت لمن على الأرض وهم يسعدون سعادات جزئية سواء أكانت تلك السعادات ضالة خاطئة ، أم مهدية صالحة ، عبد الناس الشمس والقمر ، لماذا عبدوهما لدوامهما ، ومالا دوام له لاسعادة فيه ، السعادة الوقتية كلا سعادة ، فليعش الناس فى الأرض

وليموتوا وليتمتعوا وليأ كلوا ولتأ كل أنعامهم ثم ليموتوا، فهذه سعادات جزئية، بل الشمس والقمر والنجوم أيضا لا دوام لهن فقد ثبت أنهن متغيرات ، وسيأتى يوم تبدل فيه الأرض غير الأرض والسموات كما أثبت ذلك العلم الحديث .

الله أكبر ! إذن سعادة نفوسنا بعقائدها ، والعقائد المعرضة للتغير لا سعادة بها ، وأهل الأرض غير باقين ، والشموس والأقمار والكواكب ذاهبات من الوجود كأهل الأرضين ، إذن هذه أيضا رحمات جزئيات والرحمة الكلية مصدر تلك الرحمات ، إذن الرحمة على ثلاثة أقسام : رحمة جزئية سريعة التغير ، ورحمة جزئية بطيئة التغير ، ورحمة كلية هى مصدر الرحمتين السابقتين ولا تتغير ، ولقد أثبتنا أن السعادة تتبع العقيدة ، بل لا دوام لحى من العقلاء إلا بفكر يحتذيه ورأى يتبعه ، إن الآراء غذاء العقول كما أن الحبوب وأنواع النبات غذاء الأجسام ، وأكبر العقول من تتغذى بأكبر العلوم وأبهاها وأدومها ، وهو ذلك المصدر الذى منه استمد ذلك الجمال والبهاء، وأنواع الرحمات من شموس وأقمار وأغذية وفواكه وأنواع الحيوان والإنسان يعبد الناس ربهم ، ويظن جهالهم أن ذلك أشبه بما يفعله العبيد مع ساداتهم وهو خطأ فاضح ، إن الناس يغرمون بإعظام الناس لهم ، ولكن الله هو الذى خلق الناس فلا وزن لهم عنده من هذا القبيل ، لأنهم لا عمل لهم إلا بإعانته هو ، أما السيد والملك فعمل الناس ليس مستمدا منه ، فلذلك يفرح بإعظامهم ، إذن قول الله تعالى « وماخلقت الجن والإنس إلا ليعبدون » ليس يقصد منه إلا منفعة العابدين وارتقاؤهم ؛ وقد قدمنا أن السعادة على مقتضى العقائد والآراء ، فكلما ازداد الإنسان عبادة أو علما بهذه الدنيا وجمالها ازدادت النفس اطمئنانا وارتقاء وحكمة بمن هو باق ، ويتبع بقاءه بقاء الشمس والقمر وكل من على الأرض ، وعلى ذلك تبقى هذه النفوس إلى الأبد حية سعيدة لأنها تحيا وتبقى بحياة وبقاء من تفكر فيه بعبادة وبعلم ، إذن بقاء الناس بعد الموت سعداء لن يكون ولن يتم إلا بأن نفوسهم تمتلىء علما بمن هو أجمل وأدوم وأرحم الأحياء وهو الذى أبدع هذا الجمال والبهاء والحسن والإشراق ، وهذا معنى (بسم الله الرحمن الرحيم) فى أول سورة (الواقعة) هنا .

فى سورة الواقعة قوم أشقياء بالنار وقوم سعداء بالجنة ، وأعقب ذلك بعجب وأى عجب ! ذكر الماء والنار والنبات والإنسان والمشرقات فى السموات ، فما على الأرض ليس له إلا السعادة الجزئية لقلة دوامه والمشرقات فى السموات أدوم وأبقى ، وقد ذكرت بعد ذلك فى السورة : « فلا أقسم بمواقع النجوم وإنه لقسم لو تعلمون عظيم » ، إذن عظمة النجوم لا تعقل إلا بالعلم ، ذلك أنها أدوم من الماء والنار والحيوان والنبات المتقدم فى السورة، وختم السورة بالسعادة العليا وهو القسم الثالث من أقسام الرحمة، وهى السعادة الدائمة فقال : « فسبح باسم ربك العظيم » فذكر التسبيح ، وذكر الرب ، وذكر العظمة ، التسبيح تنزيه عن كل مالا يليق لمقام القدس ، فإذا خلق الموت والحياة فى أهل الأرض، وإذا غير الشموس والأقمار فى السموات فذلك لأن العوالم لايتم نظامها إلا بهذه الدرجات ، فكل ألم وكل شر جزئى لم يكن إلا مقدمة للرحمة ، والرحمة الحقيقية امتلاء النفس بمعرفة الربوبية والعظمة الباقيتين: ولولا ذلك لم تخلق هذه النفوس فى الأرضين .

نفحة الرحمات

لما وصلت إلى الضيعة أخذت أطوف بين الحقول ، وأجلس تحت الأشجار ، فخيل إلى أن نغمات الأشجار الباسقات ، وحفيف الأوراق ، وغور الأعشاب ، وتغريد الطيور ، وطنين الحشرات، وهبوب النسمات

فى البطاح ، وأن ضياء الشمس ونور القمر وتلألؤ الكواكب نهارا وليلا لم يخلقن إلا ليكن أعراساً لهذه الأرواح التى تزف الآن من عالم الحسرات إلى عالم الكمال والجمال ، فالنغمات المذكورات قائمات مقام الدفوف والمزامير فى الأعراس الأرضية ، والمشرقات فى السموات قائمات مقام المشاعل فى الأعراس ، بل أنا حينما جلست فى الحقل تخيلت أن نفسى هى التى تزف إلى ذلك العالم الجميل ، والمشرقات فى السماء تزين الموكب وكأن الرحمات العليا تحدثنى بهذه النغمات ، وتؤنسنى بحفيف الأشجار ، وبدائع الأزهار ، وتقول لى : هيا إلى العلا ، قم فبشر أهل الأرض بهذه البشارات ، إن فى الأرض نفوسا امتلأت بهذه المعانى وفهمت هذه الرحمات ، وهذه هى التى تزف إلى العوالم الجميلة ، وهذه الأرواح هى الخلائف فى الأرض ، وهى التى تفهم آية : «وهو الذى جعلكم خلائف الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات» وإلى هنا تم الكلام على القسم الأول فى تفسير البسملة كتب صباح يوم السبت فى التاريخ المذكور ، والحمد لله رب العالمين .

القسم الثانى

فى ذكر السابقين وأصحاب الميمنة وأصحاب المشأمة وجزائهم
مقدمة فى مناسبة السورة لما قبلها

اعلم أن هذه السورة بينها وبين (سورة الرحمن) مشابهة ، ففى هذه ذكر النعم فى القسم الثالث ، وهو خلق الإنسان وخلق الزرع والماء والنار ، وفيه الإقسام بمواقع النجوم على عظمة القرآن ، وهذه كلها من آلاء الله كالمذكورة فى سورة الرحمن ، وفى القسم الثانى وصف الجنة والنار ، وذلك فى سورة الرحمن فبين السورتين تشابه ، وإنما قدم ذكر القيامة وأصحاب الجنة وأصحاب النار ووصف الفريقين ليناسب آخر سورة الرحمن ، فإن القسم الثالث منها فى وصف أهل النار وأهل الجنة والعذاب والنعيم ، وقد وصف أهل الجنة لمناسبة ذكره فى آخر السورة : فكأن (سورة الواقعة) من حيث ترتيبها بعكس (سورة الرحمن) ابتداء وانتهاء ؛ ولنشرع فى التفسير اللفظى للقسم الثانى من السورة فنقول ومن الله التوفيق :

التفسير اللفظى

بسم الله الرحمن الرحيم

(إذا وقعت الواقعة) إذا قامت القيامة سميت واقعة لتحقق وقوعها (ليس لوقعتها كاذبة) أى نفس كاذبة ، فهى حين تقع لا تكون نفس تكذب على الله فتنكره ، ولا على القيامة فتنكرها ، لأنها تحققتها بالوقوع والظهور والمعاينة والعذاب ، فأما فى الدنيا فما أكثر النفوس الكاذبة على الله بإنكاره وإنكارها لأنهم لم يعاينوا العذاب كما عاينه المعذبون ، هى (خافضة) لقوم (رافعة) لآخرين ، وأيضاً تزيل الأجرام من أماكنها فتخفض وترفع ، وهذا بيان لعظمتها ، فإن الوقائع العظام هذا شأنها (إذا رجت الأرض رجا) يقول تعالى هى خافضة رافعة وقت تحريك الأرض حركة شديدة وزلزلتها بحيث ينهدم ما فوقها من بناء وجبل ، وقوله (وبست الجبال بسا) أى صارت كثيبا مهيلا وسيرت على وجه الأرض حتى ذهب بها ، يقال بس الغنم إذا ساقها (فكانت هباء منبثاً) منتشراً (وكنتم أزواجا) أصنافا (ثلاثة) ومعلوم أن كل صنف يذكر أو يوجد مع صنف آخر يسمى زوجا كالعينين والرجلين واليدين والنعلين فكل منهما يسمى زوجا ، وهما

معا زوجان فهاهنا أزواج ثلاثة لا زوجان (فأصحاب الميمنة ما أصحاب الميمنة ، وأصحاب المشأمة ما أصحاب المشأمة) أي فأصحاب المنزلة السنية وأصحاب المنزلة الدنية ، لأن العرب كانوا يتيمنون بالميامن ويتشاءمون بالشمائل ، ويصح أن يقال أصحاب اليمن والشؤم ؛ وقوله : « ما أصحاب الخ » أى أى شىء هم ! وهو تعجيب من حالهم فى المقامين ارتفاعا وانحطاطاً وهو مبتدأ وخبر أخبر بهما عن المبتدأ الأول فى المقامين (والسابقون) مبتدأ : أى السابقون إلى الخيرات فى الدنيا خبره (السابقون) إلى الجنات فى الآخرة (أولئك المقربون فى جنات النعيم) أى هم فى جنات النعيم (ثلة من الأولين وقليل من الآخرين) أى هم ثلة ، والثلة الأمة الكثيرة : أى هم كثير من الأولين ، يعنى الأمم السالفة من آدم عليه السلام إلى نبينا محمد صلى الله عليه وسلم (وقليل من الآخرين) أي أمة محمد صلى الله عليه وسلم ولا ينافى هذا ما ورد : « إن أمتى يكثرون سائر الأمم » فعسى أن يكون سابقو سائر الأمم أكثر من سابقى هذه الأمة ، ويكون أتباع هذه الأمة أكثر ، ويقول بعضهم : من الأولين متقدمى هذه الأمة ، ومن الآخرين متأخريها ، لما روى مرفوعا أنهما من هذه الأمة . يقول الله : هم ثلة من الأولين وقليل من الآخرين كائنون (على سرر موضونة) منسوجة بالذهب مشبكة بالدر والياقوت (متكئين عليها) على السرر (متقابلين) لا ينظر بعضهم فى قفا بعض ؛ فهم حسنو العشرة فى المجالسة ، لاسيما إذا صاروا أرواحا صافية ، فهناك صفاء العيش ، وذهاب الأخلاق المادية من كل ما يوجب الافتراق أو غلبت الروحانية على الجسمانية (يطوف عليهم) للخدمة (ولدان مخلدون) مبقون أبداً على هيئة الولدان وطراوتهم (بأكواب وأباريق) الأكواب جمع كوب ، وهى الأقداح المستديرة الأفواه لا آذان لها ولا عرى ، (والأباريق جمع إبريق ، وهى ذوات الخراطيم والعرى وكأس) وقدح فيه شراب ، فإن لم يكن فيه شراب فليس بكأس (من معين) من خمر تجرى من العيون (لا يصدعون عنها) أى لا يفرقون بسببها كما يحصل فى أهل الدنيا ، أو لا يصدر صداعهم بسببها كما فى خمر الدنيا فإنها تصدع وتحدث الافتراق حال السكر والعربدة (ولا ينزفون) ولا يسكرون ، يقال نزف الرجل ذهب عقله بالسكر ، وقرىء بكسر الزاى أى لا ينفد شرابهم ، يقال أنزف القوم إذا فنى شرابهم (وفاكهة مما يتخيرون) يأخذون خيره وأفضله (ولحم طير مما يشتهون) يتمنون (وحور عين) جمع حوراء عيناء : أى ولهم حور عين ، أى بيض ضخام العيون ، أو معطوف على ولدان ، أى يطوف عليهم ولدان وحور (كأمثال اللؤلؤ المكنون) المصون عما يضر به فى الصفاء والنقاء ، يفعل ذلك كله بهم (جزاء بما كانوا يعملون) أى بأعمالهم (لا يسمعون فيها لغوا) باطلا (ولا تأثيما) ولا نسبة إلى الإثم . أى لا يقال لهم أثمتم (إلا قيلا) أى إلا قولا ، ثم أبدل منه (سلاما سلاما) أى إلا قولا ذا سلامة ، وهذا استثناء منقطع أو سلاما مفعول بقيلا : أى لا يسمعون فيها إلا أن يقولوا سلاما سلاما : أى أنهم يفشون السلام بينهم فيسلمون سلاما بعد سلام ، ويسلم الله عليهم ، والملائكة ، فهم آمنون من المكروه أبدا بخلاف أهل الدنيا إذ لا سلام فى الأرض ، فالأمم فى حرب ومكر دائماً ؛ والأفراد يتعادون ، والله من فوقهم يرسل عليهم صواعق وأنواعا من المكروه ؛ أما فى الجنة فهذا كله لا وجود له ؛ فهم متحابون ، والله لا يرسل عليهم من المكروه ما نراه الآن فى الدنيا (وأصحاب اليمين ما أصحاب اليمين فى سدر مخضود) السدر شجر النبق ، والمخضود الذى لا شوك له كأنما خضد شوكه (وطلح منضود) الطلح شجر الموز ، والمنضود الذى نضد بالحمل من أسفله إلى أعلاه ، فليست له ساق بارزة (وظل ممدود) منبسط ممتد لا يتقلص ولا يتفاوت ، فهو أشبه بظل ما بين طلوع الفجر وطلوع الشمس (وماء مسكوب) مصبوب يسكب لهم كما يشاءون بلا تعب ولا نصب ، فهاهنا أصحاب اليمين ونعيمهم التام هو أكمل ما يتصور لأهل البوادى ، ونعيم السابقين فى تمامه أشبه بأكمل ما يتصور لأهل المدن وذلك ليظهر التفاوت بين المقامين بما نراه نحن الآن فى أهل الدنيا . قال تعالى (وفاكهة كثيرة) كثيرة

الأجناس (لا مقطوعة) لا تنقطع فى وقت (ولا ممنوعة) ولا تمنع ممن يتناولها (وفرش مرفوعة) أى نساء مرتفعة على الأرائك (إنا أنشأناهن إنشاء) أى ابتدأناهن ابتداء جديدا من غير ولادة ، وورد فى الحديث : « هن اللواتى قبضن فى دار الدنيا عجائز شمطا رمصا جعلهن الله بعد الكبر أترابا على ميلاد واحد كلما أتاهن أزواجهن وجدوهن أبكارا » (فجعلناهن أبكارا) عذارى (عربا) جمع عروب ، وهى المتحببة إلى زوجها الحسنة التبعل (أترابا) مستويات فى السن بنات ثلاث وثلاثين سنة وأزواجهن كذلك فهؤلاء أنشأناهن (لأصحاب اليمين ، ثلة من الأولين ، وثلة من الآخرين) أى هم ثلة من المؤمنين الذين هم قبل هذه الأمة ، وثلة من الآخرين . وهم مؤمنو هذه الأمة (وأصحاب الشمال ما أصحاب الشمال فى سموم وحميم) فى حر نار ينفذ فى المسام ، وماء متناه فى الحرارة (وظل من يحموم) من دخان أسود فى جهنم (لا بارد ولا كريم) أى لا بارد الهواء ولا كريم المنظر ، فإن فائدة الظل أمران : دفع الحر وحسن المنظر ؛ وهذا الظل من دخان حار أسود ، فلا يأوى من أذى الحر ولا يسر النظر ، ثم بين سبب ذلك فقال (إنهم كانوا قبل ذلك) فى الدنيا (مترفين) منعمين فشغلهم ذلك التنعم عن الاعتبار والادكار كما فى آية أخرى : «أذهبتم طيباتكم فى حياتكم الدنيا واستمتعتم بها فاليوم تجزون عذاب الهون» وهذا قاعدة عامة فى المتنعمين من المؤمنين والكافرين ، فالتنعم يصد الإنسان عن تهذيب نفسه ، بل إن عاقبة التنعم فى هذه الدنيا الفقر والذلة كما يفعل بعض المسلمين ، إذ يتقربون من الفرنجة ويحاربون إخوانهم المسلمين طلبا لحطام الدنيا كما نسمع اليوم فى بعض بلاد الإسلام ذلك لأجل التنعم فهؤلاء جزاؤهم يبتدىء فى هذه الدنيا فيصيرون أذلاء هم وأعقابهم ، وهكذا المسرفون لأجل النعمة يصبحون أذلاء ، ثم قال تعالى : (وكانوا يصرون على الحنث العظيم) أى الذنب العظيم ، وهو الشرك ، ومن هذا القبيل بلغ الغلام الحنث أى الحلم ، وهو وقت المؤاخذة بالذنب (وكانوا يقولون أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمبعوثون أو آباؤنا الأولون) كررت الهمزة للدلالة على أن البعث يكون إنكاره أشد إذا كنا ترابا وعظاما ، ويكون أكثر شدة إذا تعلق بالآباء الأولين لتقادم عهدهم (قل إن الأولين والآخرين لمجموعون إلى ميقات يوم معلوم) أى أنهم يجتمعون ويحشرون ليوم الحساب (ثم إنكم أيها الضالون المكذبون) بالبعث ، والخطاب لأهل مكة ومن نحا نحوهم (لآكلون من شجر من زقوم) من الثانية للبيان ، والأولى للابتداء (فمالئون منها البطون) لشدة الجوع ، وشجرة الزقوم تنبت فى أصل الجحيم (فشاربون عليه من الحميم) لغلبة العطش (فشاربون شرب الهيم) أى الإبل التى أصابها الهيام ، وهو داء يشبه الاستسقاء ، جمع أهيم وهيماء كأحمر وحمراء (هذا نزلهم يوم الدين) أى ما ذكر من الزقوم والحميم ما أعد لإكرامهم ، وهذا كقول عمرو بن كلثوم :

قريناكم فعجلنا قراكم ... قبيل الصبح مرداة طحونا
يكون ثفالها شرقى نجد ... ولهوتها قضاعة أجمعينا

يقول قريناكم وقت الفجر بصخرة تطحنكم . أى حاربناكم فغلبناكم ، وهذا هو إكرامكم باعتباركم جئتم ضيوفا فى ديارنا ، هكذا هنا أكرم الله هؤلاء بالزقوم والحميم . انتهى التفسير اللفظى للقسم الثانى من السورة ؛ والحمد لله رب العالمين .

القسم الثالث : فى ذكر العجائب الكونية

والاستدلال بها على وجود الخالق سبحانه وتعالى وقدرته

قال تعالى (نحن خلقناكم فلولا تصدقون) أى فهلا تصدقون بالبعث ؟ ومن قدر على الابتداء يقدر على الإعادة (أفرأيتم ماتمنون) ماتصبون فى الأرحام من النطف (أأنتم تخلقونه) تقدرونه وتصورونه وتجعلونه بشرا سويا (أم نحن الخالقون ؟ نحن قدرنا بينكم الموت) أى جعلناكم فى الموت سواء شريفكم ووضيعكم ويكون قدر بمعنى قضى ، أو قسمناه عليكم قسمة الأرزاق على اختلاف وتفاوت فاختلفت أعماركم من يوم إلى سنة إلى مائة أو أكثر أوأقل (وما نحن بمسبوقين على أن نبدل أمثالكم) وما نحن بعاجزين عن أن نأتى بخلق مثلكم بدلا منكم فى أسرع حين (وننشئكم) ونخلقكم (فيما لاتعلمون) أى ننشئكم النشأة الثانية فى وقت لا تعلمونه ولا تعلمون كيفيته كما علمتم النشأة الأولى من جهة التناسل . والقصد التحريض على العمل الصالح ، فإن التبديل والإنشاء أولهما بالموت ، وثانيهما بالبعث ، وكلاهما لايعلم وقته ، فلا الموت معلوم ولا البعث وقته محدد ، فليتخذ الإنسان عدته قبل الفوت (ولقد علمتم النشأة الأولى) الخلقة الأولى ولم تكونوا شيئا مذكورا (فلولا تذكرون) أن من قدر عليها قدر على النشأة الأخرى (أفرأيتم ماتحرثون) أى ماتثيرون من الأرض وتلقون فيه البذر (أأنتم تزرعونه) تنبتونه (أم نحن الزارعون؟) المنبتون (لو نشاء لجعلناه حطاما) هشيما (فظلتم تفكهون) تتعجبون مما نزل فى زرعكم ، أوتندمون على اجتهادكم فيه وقرئ فظللتم على الاصل ، وتقولون (إنا لمغرمون) والغرم : ذهاب المال بغير عوض (بل نحن) قوم (محرومون) حرمنا رزقنا ، إذ حرمنا الذى كنا نطلبه من الريع فى الزرع (أفرأيتم الماء الذى تشربون ، أأنتم أنزلتموه من المزن) المزن : السحاب واحده مزنة ، أو المزن السحاب الأبيض وماؤه أعذب (أم نحن المنزلون؟) بقدرتنا ، والرؤية وهى بمعنى العلم قد علقت عن العمل بالاستفهام (لو نشاء جعلناه أجاجا) ملحا أو مرا لايقدر على شربه (فلولا تشكرون) فهلا تشكرون أمثال هذه النعم (أفرأيتم النار التى تورون؟) تقدحون من الزند ، يعنى التى تقدح منها النار كما تقدم فى (سورة يس) وهما شجرتان رطبتان : المرخ والعفار ، فأحدهما يعتبر زندا ، والثانى يعتبر زندة ، والماء يقطر منهما ، والنار عند القدح تخرج بينهما ، وليست النار خاصة بهما بل هما ممتازتان ، فقد قالوا : فى كل شجر نار واستمجد المرخ والعفار (أأنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون؟) الشجرة التى منها الزناد ، أو نار الدنيا فإنها تذكره بنار جهنم . عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « ناركم هذه التى توقدون جزء من سبعين جزءا من نار جهنم » وقد مضى أن هذا يوافق الكشف الحديث فى (سورة آل عمران) محققا هناك (نحن جعلناها) جعلنا نار الزناد (تذكرة) تبصرة فى أمر البعث وفى الظلام وأنموذجا لنار جهنم (ومتاعا) ومنفعة (للمقوين) الذين ينزلون القواء وهو القفر ، أو للذين خلت بطونهم أو مزاودهم من الطعام ، يقال : أقوت الدار إذا خلت من ساكنها ، فهؤلاء المقوون جعلت النار لهم لإنضاج طعامهم فيصلح لأكلهم (فسبح باسم ربك العظيم) أى قل سبحان ربى العظيم ، ولما نزل قال صلى الله عليه وسلم «اجعلوها فى ركوعكم» (فلا أقسم) يقول تعالى: أنا لا أقسم لأن الأمر واضح فلا حاجة للقسم ، أو فأقسم ولا مزيدة للتأكيد ، وكلا الوجهين دال على شرف النجوم ومواقع النجوم ، وأن الناس ينبغى أن يفكروا فيها ويعتبروا بها ، وقوله (بمواقع النجوم) أى بمساقطها فى مغاربها أو منازلها . ولما كان أمر النجوم فى مواقعها عظيما شأنه أعقب ماتقدم بجملة معترضة

فى أخرى معترضة بين القسم والمقسم به إشعارا بعظمها وآثارها النافعة فقال (وإنه لقسم لو تعلمون عظيم) وقوله (إنه لقرآن كريم) حسن مرضى نفاع جم المنافع (فى كتاب مكنون) الكتاب اللوح المحفوظ ، والمكنون المصون فلا يطلع عليه إلا المقربون ، فقوله (لا يمسه إلا المطهرون) بيان لكونه مكنونا فلا يطلع على اللوح المحفوظ إلا المطهرون من المادة التى تعوق عن إدراك الحقائق ، ولا يكون ذلك إلا فى الملائكة ، وإن جعل الكتاب هو القرآن كانت صيانته ألا يأتيه الباطل ولا يطلبه إلا المطهرون من الكفر ، وقوله : (تنزيل من رب العالمين) أى منزل منه وهو صفة رابعة للقرآن (أفبهذا الحديث) القرآن (أنتم مدهنون؟) متهاونون ، يقال أدهن فى الأمر ألان جانبه فيه ولم يتصلب تهاونا به (وتجعلون رزقكم) أى شكر رزقكم (أنكم تكذبون) بمنحه فتنسبون الرزق للأنواء ، فتقولون مطرنا بنوء كذا ، أو تجعلون حظكم ونصيبكم من القرآن أنكم تكذبون (فلولا إذا بلغت الحلقوم ، وأنتم حينئذ تنظرون ، ونحن أقرب إليه منكم ولكن لا تبصرون ، فلولا إن كنتم غير مدينين ترجعونها إن كنتم صادقين) لولا : للتحضيض فى الآيتين ، والفعل الذى يستلزمه التحضيض هو ترجعونها ، ولولا الثانية مكررة للأولى للتأكيد ، ومدينين : مجزيين يوم القيامة ، أو مملوكين مقهورين ، يقال دانه إذا أذله واستعبده ، يقول الله لأهل الميت : هلا ترجعون نفس ميتكم إذا بلغت الحلقوم وهو يعالج سكرات الموت إن كنتم غير مملوكين؟ والحال أننا نحن أقرب إليه منكم بقدرتنا وعلمنا وبملائكتنا وأنتم تنظرون إلى المحتضر ولكن لا تعلمون ذلك ، أولا تبصرون الذين حضروه من الملائكة . والمعنى أنكم أيها الناس شأنكم عجب ! جحدتم آيات الله ، وكذبتم رسله ، وكتابه ، وقلتم هو سحر وافتراء ، وجعلتم رزقكم من الأنواء ، فملخص حالكم أنه خالق ولا رازق ، وإذا كان الفعل لابد له من فاعل ، وقد نفيتم الله وكذبتم رسله ، فإذن الفاعل لهذا كله أنتم لأن الخالق إما الله وإما أنتم ، فإذا نفيتم الله فأنتم الخالقون ، إذن فلما لا ترجعون الروح لميتكم وهو يعالج سكرات الموت فإن كنتم صادقين فارجعوها ! الحق أنكم لا تعقلون بالبرهان فلما لم تروا الفاعل كذبتم به ، وهذه صفة الحيوان والجهال ، إذ للدليل علوم فليس عدم رؤية الشىء دليلا على عدمه (فأما إن كان) المتوفى (من المقربين فروح) فله استراحة وفرح ورحمة (وريحان) ورزق طيب (وجنة نعيم) ذات تنعم (وأما إن كان من أصحاب اليمين فسلام لك) ياصاحب اليمين (من أصحاب اليمين) أى من إخوانك يسلمون عليك : أى فيقال له ذلك ، أو فسلام لك يا محمد ، أى سلامة منهم ، أى فلا تهتم لهم فإنهم سلموا من عذاب الله (وأما إن كان من المكذبين) بالبعث (الضالين) عن الهدى وهم أصحاب الشمال (فنزل من حميم وتصلية جحيم) إذ يجد فى القبر سموم النار ودخانها ، وهو الذى جعل نزلا لمقدمه كما يجعل للضيف كما تقدم على سبيل الإهانة ، والتصلية الإدخال (إن هذا) الذى ذكر فى السورة (لهو حق اليقين) أى حق الخبر اليقين الذى لاشك فيه (فسبح باسم ربك العظيم) أى نزه ربك العظيم عن كل مالايليق به ، أو فصل بذكر ربك العظيم وبأمره ، وكان صلى الله عليه وسلم يقول فى ركوعه : « سبحان ربى العظيم » وفى سجوده « سبحان ربى الأعلى » انتهى التفسير اللفظى للقسم الثالث من السورة ، والحمد لله رب العالمين .

لطائف هذه السورة (١)

فى هذه السورة لطيفتان :

اللطيفة الأولى فى آية : « إنهم كانوا قبل ذلك مترفين » وهى رسالة أرسلتها إلى بلاد المغرب الأقصى يوم الأربعاء ٢٣ مارس سنة ١٩٣٢ م ثم نشرت هناك .

اللطيفة الثانية فى قوله تعالى : « نحن قدرنا بينكم الموت » .

اللطيفة الأولى فى قوله تعالى : إنهم كانوا قبل ذلك مترفين

تحذير المسلمين من الخطر فيما يشربون

أيها المسلمون : أحذركم من كل ما يعطيكم لذة وقتية ، ويعقبه انحلال فى القوى وضرر عظيم . أيها المسلمون : أنا لا أقول لكم دعوا الخمر فإنها محرمة فإنكم بذلك عالمون ، ولكنى أقول لكم فوق ذلك إنها جعلت فخا لاصطياد أمم الإسلام وإهلاكهم وإذلالهم وإنهاك قواهم فيصبحون صرعى الأوهام فى ديارهم خامدين .

أنا لا أقول لكم إن أمريكا المسيحية حرمت الخمر حفظا لأهل بلادها من عاديات الدهر ومصائب المرض وخلل العقول وضعف الأجسام . أنا لا أقول ذلك لكم لأنكم به عالمون ، فإذا كنتم تعلمون ذلك فاعلموا أنكم أولى بذلك المنع ، لأنكم أولا مسلمون ، ولأن كثيرا منكم تحت دول مستعمرة تنتهز الفرص لإذلال المحكومين .

وهل أتاكم نبأ أهل الأندلس قديما ؟ وقد يئس بابا روما ودوق فينيزيا وبارونات أوربا من إخضاع الأمة العربية إذ ذاك ، وكيف أشار عليهم (براق بن عمار) بأن يعقدوا معاهدة لحرية التجارة والتعليم والدين حتى يتاح لشبانهم شرب الخمر والتمتع بلذات الحياة ، فتقل الحمية والنخوة والمروءة ، وبذلك يخضعون ثم يطردون ، وما وصلت تلك المعاهدة إلى مالك بن عباد بقرطبة وقد فرغ من تحصين مدائنه وقلاعه حتى أرسلها للأمراء فأقروها ، ولم يكد يجف مدادها حتى أسسوا أربع مدارس كبرى على نفقة (دوق فينيزيا) وصار عدد المبشرين بالأندلس ألفا ، وعدد المدنين بالمدارس التى أنفق عليها البابا ٤٥ وأنفق البابا من خزائنه لترويج الخمر خمسمائة ألف (فلورين) راجع كتاب [غادة الأندلس] :

(١) هنالك شرب الشبان الخمر جهارا نهارا .

(٢) وخلعوا رداء الحياء والحشمة .

(٣) وحقروا عوائد آبائهم ودولهم .

(٤) ولبسوا الحرير ونبذوا الصوف والشعر .

(٥) وأهملت تعاليم البلاد .

---

(١) يقول المؤلف: هذه اللطائف لم يكن لها وجود عند التأليف ولم يفتح الله بها إلا عند تقديم هذه السورة للطبع .

وكانت نتيجة ذلك ماتعرفون أيها الشبان مما فعله فرديناند وزوجته إزابيلا ، وهو طرد العرب من تلك البلاد أجمعين أكتعين أبصعين .

أيها المسلمون : حذار أن تظنوا أن الرواية تمت فصولها ، إن للرواية لذيولا ، أتحبون أن أحدثكم بشأنها ؟ اصغوا إلى واسمعوا : تعلمون فى بعض الروايات أن النبى صلى الله عليه وسلم أنذر المسلمين وحذرهم من المسيح الدجال ، وجاء فيها أن معه جنة ومعه نارا ، وأن من اغتر بجنته دخل النار ، ومن اصطلى بناره دخل الجنة ، وأنا أقول رافعا صوتى لكم : أيها المسلمون الفضلاء : إن هذه الروايات لها آثار فى زماننا وأسرار فى أحوالنا الحاضرة ، وذلك أن كل أمة فعلت فى المسلمين ما فعله (بابا رومه) و (دوق فينزيا) و (بارونات أوروبا) من بث الفجور والفسق والخلاعة بين المسلمين لإذلالهم وإضعافهم ، فهو من أنصار ومن أصحاب ومن أشباه المسيح الدجال ، فهو يعطينا الخمر ليسكرنا ثم يدخلنا تحت سيطرته فنصطلى ناره ، نعم هذه الأمم ليست هى نفس المسيح الدجال ولكن الفعل هو نفس الفعل ، فكل من أظهر لنا المودة وأراد إذلالنا فهو لا يشبه المسيح الصادق بل هو المسيح الكذاب الدجال :

فلتحترسوا أيها المسلمون من كل مطعم أو مشرب أو ملبس يغركم بهجته ولذته تكون عاقبته الدمار والهلاك والعار والبوار :

ليس مما يؤلم النفوس أن تقرأ فى التاريخ المتقدم أن قسيسا اشترى عنب قرطبة كله وعصره عنبا ، وقال : لا أعطيه إلا لأحبابى الشبان المسلمين ، فخدع الأمة وأهل البلاد غافلون نائمون لا يعقلون ولا يفهمون فطاحوا أجمعين .

أوليس من العجب أن تقرأ فى كتاب [الكونت هنرى دى كاسترى] الضابط العظيم الفرنسى فى بلاد الجزائر المسمى [خواطر وسوانح فى الإسلام] مانصه بالحرف الواحد فى النسخة المترجمة صفحة ١١١ .

«أما انقراض الأهالى شيئا فشيئا كما دخل التمدن الأوروبى بلادهم (الجزائر) فنحن لا نصدقه إلا قليلا ، لأن احتكاكهم بالمتمدنين ربما قلل من وسائل العيش لديهم ولكنه لا يؤثر فى وجودهم ، بل هم لا يزالون يتناسلون أكثر من الأوروبيين ، ونضيف على ذلك أن المسكرات التى استعملها الأوروبيون للتعجيل على وجود بعض الأمم المغايرة لهم لا تؤثر عند أهالى الجزائر لكونهم يمقتونها مقتا شديدا » انتهى بالحرف الواحد .

أيعجبكم هذا أيها المسلمون ؟ أيعجبكم أن تكون الدروس بالأندلس لا تزال تتلى إلى اليوم ، وأن الخمر ونشرها فى البلاد يراد بها القضاء على أبنائكم وخراب البلاد ، أفليس هذا كلام رجل من أعاظم الفرنسيين يقول لقومه : الخمر والنعيم لم يقللا نسل المسلمين فلننظر طريقا آخر للعيش معهم » أليس الدرس مستمرا ورواية الأندلس تمثل والمسلمون نائمون هائمون ، أتدرون ماذا حصل بعد ذلك أيها المسلمون؟ لعبت الدول المستعمرة دورا آخر فى إبادة المسلمين ، وعرفوا أن الخمرة إذا نجحت فى بلاد لاتبالى بالعقل ولا بالدين فإنها لاتؤثر فى الأمم التى لاتزال ذات مجد أثيل ، وشرف وفضل مبين كالمراكشيين .

ماذا دهى إخواننا المراكشيين ؟ انتشر الشاى بينهم ، والشاي لابد معه من السكر ، والسكر يباع بأغلى الأثمان .

رحماك اللهم رحماك اللهم . إن أمر الشاى أشد خطرا ، وأبعد أثرا ، لأن الشاى لاتظن فيه الظنون ولم تذمه الديانات ولا الشرائع ولا القوانين .

أيها المسلمون : هل تسمعون ماأقول لكم واحسرتاه قد قرأت فى كتاب اسمه [كتاب اليد فى الصحة

والعلاج

والعلاج) للأستاذ (كيلوج) الأمريكي الذى نشره قبل تحريم الخمر بعشرين سنة ، فرأيته رتب المضار أربع رتب : الخمر ، ثم الدخان والشاى . ثم القهوة ، ثم الكاكاو ، فجعل الخمر أشد ضررا ، ويليها الدخان والشاى وأتى ببراهين كثيرة . وأتذكر منها أنهم أتوا بورق الشاى فأكله حصان فمات ، فعدوه إذن سما بطيئا ، وهناك تجارب لا محل لذكرها الآن ، وإنما الذى أريد أن أقوله الآن إن السكر الذى يشرب مع الشاى قد عدوه من الأغذية المميتة ، إن أكل الفواكه ومافيها من السكر الطبيعى نافع وجيد للصحة ، ولكن السكر الصناعى مفسد للأجسام ومنهكها ، وإن كان فى أول الأمر يعطى قوة ، وتظهر الصحة على وجوه الشيوخ والشبان والأطفال ، أنا لست طبيبا فعلى أن أنقل لكم من كلام أطباء أوروبا مابه تقتنعون ، جاء فى كتاب (دستور التغذية) لصديقنا الأستاذ محمد فريد وجدى صفحة ٢٦ مانصه :

« قال الدكتور (جاستون دورفيل) : إذا كان الإفراط فى الأكل من الأخطار الكبيرة فإن تناول الأغذية المركزة كالسكر واللحم بقصد التقوى ، أو تحسين التغذى أشد خطرا على الصحة .

نعم إن تلك الأغذية القوية توجد لنا قوة فنحس بسعادة جسمية ولكنها سعادة وقتية ، إذ تنقلب إلى ضعف وانحطاط ، فهذه الأغذية التى يخيل للناس أنها مقوية هى كضربة سوط تنزل على الحصان المعى فتجعله يجرى قليلا ثم ينحط انحطاطا لا قيام له منه ، فمن من الناس ضحايا هذا القرن الذى يقال إنه قرن النور لم يتناول الأغذية المركزة ، وهاهنا عدد أصنافا وذكر منها السكريات والشكولاتات والحلاوات المشبعة بالسكر والكحول ، فإن هذه المواد مهما كان مقدارها صغيرا فإنها تتجه إلى خلايانا مجتمعة فتحدث اضطرابا ، وهذا الاضطراب نتوهم أنه قوة بدنية ، ولكنه ليس فى الحقيقة إلا خطوة نحو الصدمة الأبدية» انتهى ملخصا

وجاء فيه بعد ذلك مانصه : «وقال الدكتور (جاستون دورفيل) أيضا : السكر أحد الأغذية المهلكة لأجسادنا ، فالمتناول منه كعادة معاصرينا من أربع قطع إلى ست قطع فوق الغذاء المفرط ينتج أمراضا مميتة

لقد كان آباؤنا يجهلون السكر الصناعى ، وكانوا أبطأ منا انحطاطا فى قواهم ، والأرق الذى يكثر فينا الآن إنما هو من السكر المعروف . إن السكر إنما ينفع بهيئة علاج ، فهو دواء ، والدواء إذا استعمل شرابا أوغذاء عاديا كان من المهلكات ، فهو نافع إذا وصف للدواء ، ضار إذا تعاطيناه فى أكثر الأوقات كالطعام والشراب ، ومن أراد السكر فليأكل الفاكهة ففيها سكر طبيعى وهو غذاء نافع ، إن السكر الصناعى مهلك الأبدان» انتهى باختصار .

الشاى الذى مع السكر

فلننظر فى هذا الشاى الذى يشربه الناس مع السكر . قد قدمنا أنه من المواد التى تلى الخمر فى إهلاك الأمم وأزيد عليه الآن أن الشاى يضاف إليه ماء مشبع بالأفيون ، ومتى شرب الإنسان منه فإنه يتعود عليه فلا يأتى موعده إلا وقد انحطت القوى فلا يفيق إلا بشربه . إذن فى الشاى الذى يشرب فى أكثر بلاد الإسلام ثلاث مضار : نفس الشاى بنص علماء الطب ، والأفيون المضاف إليه ، والسكر الصناعى الذى صاحبه :

ولو كان سهما واحدا لاتقيته ولكنه سهم وثان وثالث

أيها المسلمون عموما ، وأهل شمال أفريقيا خصوصا «قتل الانسان ما أكفره ـ إن الانسان لظلوم كفار ـ إنه كان ظلوما جهولا» .

الإنسان اليوم كثير الدهاء ، كثير المكر ، عرفت أوروبا أن الخمرة لا يتعاطاها الصالحون من المسلمين فماذا تصنع أوروبا. تجلب الشاى ، وهل جلبه إلا التجار ، هذا أمر سهل ، ولكن السم فى الدسم والسكر

بحسب الظاهر لاضرر فيه، فانظروا كيف أصبح الناس مستعبدين بسبب الشاى والسكر أشد من استعبادهم بالخمر . يؤلف العلماء فى أوروبا كتبا فى ضرر أغذية ثلاثة ثمينة ويعدون منها السكر وأهل الإسلام نائمون .

لا لا . أيها المسلمون : من تمكنت عادة الشاى ومعه السكر منه فليعلم أن الأفيون معهما، وأنه أصبح فريسة . فيا أيها الشاربون للشاى فى مراكش ، يامن حكم عليكم أن تكونوا شاربين صباحا ومساء، اتقوا الله فى أبنائكم وبناتكم ، حذروهم ، بل اشربوا سرا ولا تعطوهم جرعة واحدة ، ولست أقول لكم اتركوه لأن الذي يتركه منكم أصحاب النفوس الكبيرة أهل العزائم والهمم والمجاهدات .

هذه نصيحتى لأهل مراكش خاصة ، وللمسلمين عامة، أحذركم فتنة أصابت البلاد والعباد ، الله أكبر، استقلال الأمم إنما يكون بعد الامتحان ، والله قد امتحنكم أيها المسلمون بالملابس الفرنجية ، والخمور والشاى والسكر وجعلكم لهذه مستعبدين، فاذا قلتم الاستقلال الشخصى بلبس الملابس الوطنية ونبذ المهيجات من الخمر والشاى المثلث المضار ، فأنتم إذن أهل للاستقلال السياسى ، لااستقلال لأمة إلا باستقلال أفرادها من الملاذ الفردية .

يامن تشربون الخمور وتكرعون الشاى والسكر معها أنتم مقيدون بقيود من حديد أذلاء، فتخلصوا من هذه القيود الفردية تنحل عنكم الروابط الاجتماعية، وتصبحوا سادة فى بلادكم ، أحرارا فى دياركم، سعداء فى أوطانكم ويخرج إذ ذاك المستعمرون .

أين عزائمكم ؟ أين مجدكم القديم ؟ أين نخوتكم العربية ؟ أين ملككم العظيم ؟ أعدكم بهذا كله بعد أن تذروا ماحذرتكم ، فقد حذرت وأنذرت وبرهنت لكم وأنتم أهل لما أقول ، وستعملون به وأنتم به موقنون .

وإلى هنا تم الكلام على اللطيفة الأولى فى قوله تعالى : «إنهم كانوا قبل ذلك مترفين » وهى الرسالة التى أرسلتها إلى بلاد مراكش فى التاريخ المذكور ونشرت هناك ، والحمد لله رب العالمين . كتب فى صباح الأربعاء ٢٣ مارس سنة ١٩٣٢ م بحى السيدة زينب .

اللطيفة الثانية

فى قوله تعالى : «نحن قدرنا بينكم الموت»

نذكر فى هذه اللطيفة ماجاء فى جريدة الأهرام مناسبا لهذه الآية بتاريخ ٣ ديسمبر سنة ١٩٣٠ م تحت العنوان الآتى، وهذا نصه :

الخلود وطول العمر

حوادث مدهشة عن طول الأعمار

يفكر الفلاسفة والأطباء قديما وحديثا فى حياة الإنسان من جهة إمكان إطالة العمر عن المتوسط المعروف أو إلى أن يكون المتوسط مائة أومائة وخمسين أو مائتين، ومن جهة ما إذا كان ممكنا أن يعمر الإنسان إلى الخلود.

ظهر مؤلف حديث للمسيو جورج لاكورسكى بعنوان (العلم والسعادة) وله قبل ذلك مؤلفان أحدهما باسم (أصل الحياة) والثانى باسم (سر الحياة) .

فى كتاب (العلم والسعادة) يعرض مسيو لاكورسكى لمسألة طول العمر والخلود. أشار المؤلف إلى كتاب لمسيو خان فينو الفيلسوف باسم (فلسفة طول العمر) وقال: ان هذا الفيلسوف يطلعنا على أن الأمثلة النادرة

جدا التي يعرفها الناس بشأن طوال الأعمار ليست ندرتها بالدرجة التي يتصورونها ، فمن الأسف أن الإحصاءات الصحيحة الدقيقة لم تكن إلا قريبة العهد ، ومن المستحيل علينا مثلا أن نعتمد على سجل المواليد عن ٩٦٩ سنة عاشها (ماتوسالم) أو الـ ٨٠٢ التي زعم أن ملك جزيرة (لوكباز) قد عاشها والتي تكلم عنها (بلين) و (فاليرما كسيم) . وقد ذكر (استرابون) أن بين سكان بنجاب أفراد قد عاشوا ٢٠٠ سنة ، وقال (بلين) : إنه في عهد فيسباسيان عمل إحصاء ظهر فيه أن عدد سكان بلاد الغول سيزالبين ٣ ملايين نفس كان فيه ١٧٠ شخصا يبلغ عمر كل منهم أكثر من ١٠٠ سنة أي بنسبة واحد من ذوي الأكثر من المائة إلى كل ٢٠ ألف من السكان .

ويقول (بلين) : إن ماركوس ابونيوس عاش أكثر من ١٥٠ سنة ، ويقول لوسيان . إن تيريسياس عاش ستة قرون ، وإن سكان جبل آتوس كان يعيش الواحد منهم ١٣٠ سنة . وقال الكسندر كورنيليوس إن أحد الاليريين عاش ٥٠٠ سنة واسمه دودون . وقال اسكريبون : إن (سنجرين) ملك قبرص عاش ١٦٠ سنة ، وفي حياة القديسين عاش القديس سيمون ١٠٧ سنوات ، والقديس تاكريس ١٦٥ سنة والقديس انطوان ١٠٥ سنوات ، والبوما مطران الحبشة ١٥٠ سنة .

ويقول (هالار) في كتابه « العناصر الطبيعية » إن الإنسان من الحيوانات التي تعيش زمانا طويلا . ويظهر أن الحد الطبيعي لوجوده حيا هو ٢٠٠ سنة ، ويقول بأن اثنين من المعمرين مات كل منهما بحادثة (الأول) توماس بار وعمره ١٥٢ سنة ، وقد مات إثر عسر هضم بعد غذاء حفلة أقامها ملك انجلترا تكريما له ، وأن الثاني توفي متأثرا ببرودة شديدة ، وكان للأول عند وفاته ابن عمره ١٠٢ سنة وللثاني ولد عمره ١٤٠ سنة .

وظهر من إحصاء سنة ١٨٩٧ في بوئس إيرس أن عبدا اسمه برنو كوتريم جاوز عمره ١٥٠ سنة . وفي سربيا بلغ عمر ثلاثة من المعمرين ما يأتي : (الأول) ١٣٥ سنة (والثاني) ١٢٥ سنة والثالث ٢٩٠ سنة ، وبلغ في الولايات المتحدة عدد المعمرين الذين جاوزوا المائة سنة في سنة ١٨٩٠ م ٣٨٩١ ، وفي لندن ٢١ شخصا . وفي روسيا يبلغ عدد المعمرين الذين جاوزوا المائة سنة كثيرا ، ويدل إحصاء ليفونيا على أن معمرا يبلغ عمره ١٦٨ سنة ، ومات في سنة ١٣٤٦ رجل في لوسرن يبلغ عمره ١٨٦ سنة ، ومات زارع إيقاسي عندما بلغ عمره ١٨٥ سنة .

ومازال يعيش في مصر معمر عمره ١٥٤ سنة مازال يذكر عمله القنصلي في عهد نابليون ، وفي تركيا كان يوجد رجل عمره ١٥٦ سنة اسمه زارو ، وقد أرسل إلى أمريكا ليكون مثالا على فوائد منع المسكرات وقد مات أخيرا ، وقد شوهدت صورته في الأفلام السينماتوغرافية وصوره الشمسية ، وقد أعجبت بها إذ الناظر إليه لا يقدر للرجل من العمر أكثر من سبعين سنة إذا نظر إلى مشيته .

لكثرة المعمرين في الدنيا وضع بعض العلماء قوانين عامة ، ومنذ القرن التاسع عشر عملت إحصاءات كثيرة بواسطة الذين يشتغلون لمصلحة شركات التأمين ، إذ هي تبين العمر والسنة وعدد المعمرين في جهات مختلفة من أوروبا أو الولايات المتحدة .

ومما يلفت النظر أنه في الإحصاءات الصادرة ببيان المعمرين الذين وصلوا أو جاوزوا المائة سنة لا تظهر السيدات ، ذلك لأنهن يضعفن بالأمراض المختلفة ، وأن جميع القوى العقلية والحسية تضعف مرة واحدة عندهن ، فقد ظهر أن الرجال المعمرين إلى ما فوق المائة سنة عند ما مروا بسن الشيخوخة فقدوا بعض خاصياتهم ، ولكن بعد ذلك تجددت لهم قوى شباب جديدة .

ويقول (هالاروبلادين) وأطباء آخرون : إنهم لاحظوا ظهور أسنان جديدة ابتداء من ٨٠ سنة ، ويذكر الدكتور جراف أنه شاهد أن امرأة عجوزا صار شعرها أبيض اللون من المشيب عندما كان عمرها ١١٠ سنين ولكن بعد هذا التاريخ عاد إليها لونها الأول، وآخرون تجددت أسنانهم عند سن ٩٠ و ١٠٧ سنين ، ومايذكر أن القوى العقلية والبدنية عند المعمرين كانت سليمة جدا .

لقد اختلفت فى تعليل طول العمر عند المعمرين ، ويمكن القول إجمالا بأن الحياة الهادئة التى يعيشها المعمر ، وفراغ قلبه من الحسد والبغض والهموم واللؤم والغيرة والطمع من أسباب إطالة العمر ، والمعمرون هم الذين يحفظون النسبة بين قواهم العقلية وقواهم البدنية طول حياتهم ، وعند الباحثين فى أمر إطالة العمر يبحث الوسائل التى تؤدى إليها من رياضة وامتناع عن المسكرات ، وحياة هادئة ، لاتغمرها المطامع ، ولاتحفها الشهوات والأحقاد ، ولا يخالجها اليأس ، إن الوصول إلى إطالة العمر ، أو رفع نسبة أعمار الأحياء هو خطوة أولى ولازمة فى سبيل تحقيق الخلود ، فهل الخلود ممكن للإنسان ؟ .

هذا ماجاء فى جريدة الأهرام فى التاريخ المذكور ، وبهذا تم الكلام على اللطيفة الثانية فى قوله تعالى « نحن قدرنا بينكم الموت » والحمد لله رب العالمين . انتهى تفسير سورة الواقعة .

تفسير سورة الحديد

هى مدنية

آياتها ٢٩ — نزلت بعد الزلزلة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * لَهُ مُلْكُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِى وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ * هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ * هُوَ الَّذِى خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ * لَهُ مُلْكُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ * يُولِجُ اللَّيْلَ فِى النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِى اللَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ * آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ * وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ

لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ * هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ * وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ * مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ * يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ * يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا انْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ * يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَى وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ * فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ * أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ * اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ * إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ * وَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ * اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ

يَكُونُ حُطَاماً وَفِي الآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا
إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ * سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ
أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ
الْعَظِيمِ * مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي أَنْفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ
أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ * لِكَيْلاَ تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلاَ تَفْرَحُوا بِمَا
ءَاتَاكُمْ وَاللهُ لاَ يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ * الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ
وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ * لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ
الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ
لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ * وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً
وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ
فَاسِقُونَ * ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَى ءَاثَارِهِمْ بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَاهُ الإِنْجِيلَ
وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا
عَلَيْهِمْ إِلاَّ ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْهُمْ
أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَءَامِنُوا بِرَسُولِهِ
يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ
رَحِيمٌ * لِئَلاَّ يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلاَّ يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ
اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ *

هذه السورة أربعة أقسام :

القسم الأول فى تفسير البسملة .

القسم الثانى فى صفات الله ، وأسمائه الحسنى ، وظهور آثاره ، فى بدائع مخلوقاته ، من أول السورة إلى قوله: «وهو عليم بذات الصدور» .

القسم الثالث فى الحض على الإنفاق من قوله تعالى : « آمنوا بالله ورسوله وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه فالذين آمنوا منكم وأنفقوا لهم أجر كبير » إلى قوله : «وله أجر كريم» .

القسم الرابع فى عشر جواهر (١) بشرى المؤمنين بالنور يوم القيامة (٢) وحث لهم على الجد وذكر الله (٣) وثواب المنفقين (٤) وذم الدنيا (٥) والترغيب فى الآخرة (٦) والتسلية على المصائب (٧) وذم البخل (٨) والحث على العدل (٩) والاعتبار بالأمم السابقة (١٠) والأعمال التى توجب النور المتقدم ذكره، وذلك من قوله تعالى: «يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم، بشراكم اليوم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ذلك هو الفوز العظيم» إلى آخر السورة .

القسم الأول فى تفسير البسملة

تجلت رحمة الله فى عالمنا هذا، وما عالمنا هذا المادى، أليس عالمنا عدميا ؟ وكيف لا يكون عدميا وما هو إلا حركات فى عالم سموه الأثير ، وما الأثير إلا عالم أشبه بخيالنا نحن ، عالمنا حركات فى خيال الفضاء ، وهذه الحركات المذكورات هى التى أجمع عليها علماء زماننا شرقا وغربا فى مدارسهم وشرحناها فى سور كثيرة فى هذا التفسير لاسيما فى (سورة النور) عندآية : « الله نور السموات والأرض » وأثبتنا هناك أن الحديد والصلب والهواء والماء والضوء جميعها حركات والاختلاف بينها لن يكون إلا بعدد الحركات ، فإن كان عددها نحو ٦ آلاف مليون مليون فى الثانية فهى المواد التى نحس بها بحاسة اللمس والشم والذوق من طعام وشراب وفاكهة وماحولها ، وإن كانت أقل من ذلك فنقصت عن هذا العدد فكانت من نحو ٤٠٠ مليون مليون فى الثانية إلى نحو ٧٠٠ مليون فى الثانية فهى الأضواء كضوء الشمس ، فالأحمر ذو العدد الأقل، والبنفسجى ذو العدد الأكبر، وبقية الألوان بينهما كالأخضر والأصفر والبرتقالى والنيلى والأزرق . هذا القول وأمثاله مشروح فى هذا التفسير كثيرا ، ولكن المقصود الآن التعجب من هذا العالم ، فما هو إلا مشبه عدم ، هو خيال ، وهذا الخيال فيه حركات ، وهذه الحركات أشبه بحركات أفكارنا فى خيالنا فلا نعجب نحن من ذلك لأن الله يقول: «وفى أنفسكم أفلاتبصرون» فلما أبصرنا أنفسنا ألفينا فيها أمرا موجودا لا نشك فى وجوده وهو الخيال ، وهذا الخيال نحس بأننا مجبولون على أن نجندره ونصفيه ونهذبه، ونصنع فيه حركات فكرية تنتج لنا علوما ومعارف ، فلا نعجب إذن إذا رأينا خيال الفضاء فيه حركات أحدثت آثارا أبصرتها عيوننا كما أحدثت حركات الأفكار فى الخيال آراء شهدتها عقولنا ، إن نفوسنا نبراس علومنا، ومهيع تفكيرنا ، إن نفوسنا فى صفائها وجمالها واتساعها لحوز العلوم أشبه بما نشاهد فى المادة المحسوسة من أنها كما تعطينا غذاء ودواء وفاكهة هى نفسها تكون مجال أفكارنا ومناط علومنا كما أن نفوسنا كما تكون سببا فى حياتنا وأعمالنا فى الحياة تكون هى مدرسة لنا وكتابا نقرؤه ، فكما نفكر فى أعراضها الخيالية

ومواهبها العجيبة نفكر فى هيئتها فنجعلها لنا مجال دراسة، فنحل المشكلات بقراءتها ودراستها ونقول: لقد رأينا فيها خيالا قامت به حركات أفكارنا ، وهذان عالمان موجودان حيث لا مظنة للوجود ، هكذا هذا الفضاء فيه خيال نسميه أثيرا ليس مظنة الوجود ، وفيه حركات لا ندرى ماهى ، رتبت فصارت عالما تحس به حواسنا .

الله أكبر : لقد أجمع علماء الطبيعة أن البعد بين الذرة والذرة فى المادة كالبعد مابين الشمس والأرض إن دقائق الماء والهواء والسحاب والأرض والحجر والمدر كلها متباعدات تباعدا يقف العقل دونه ، فالمادة فضلا عن أنها مجرد حركات وتلك الحركات تنقلب أنوارا كهربائية ، وهذه الأنوار يجرى سالبها حول موجبها فتكون الأشكال المختلفات عند حواسنا باختلاف أعداد حركاتها وهيئاتها ، هى متباعدات تباعدا مدهشا عجيبا ، وياليت أمرها وقف عند كونها أشبه بالأمور الوهمية من كونها حركات فيما يشبه الخيال ، بل أمرها تعدى ذلك فصار هذا الأمر الشبيه بالوهمى هو نفسه قليل أيضا يشبه المعدوم ، وماذا نقول فى عالمنا هذا الذى نعيش فيه ، وقد أثبت ذلك علم الطبيعة الذى يقرؤه أصغر تلميذ فى مدارس العالم الإنسانى فقد قيل فيه : إن المسام الصغيرة وإن تكن لشدة صغرها لاترى إلا بالمكرسكوب فهى أكبر من الجواهر بما لايقاس ، فلو تصورنا أن فى المسام حيوانا صغيرا جدا بحيث يعيش على جوهر من الجواهر كما يعيش إنسان منا على الأرض وفرضنا أن ذلك الجوهر واقع فى وسط حجر لكان الحيوان المشار إليه يرى أقرب الجواهر إليه بعيدة جدا عنه كما نرى نحن الشمس والقمر والنجوم ، وربما كان يحتاج لمعرفة تلك الجواهر إلى نظارات كبيرة كما نحتاج نحن إليها لمعرفة الأجرام السماوية ، فيظهر من ذلك اتساع المسام بالنسبة إلى الجواهر .

هذا ماجاء فى كتب الطبيعة فى عصرنا الحاضر ودرس للتلاميذ ، إذا كانت هذه صفات المادة ونفس جسمى والفكر الذى أكتب به هذه المقالة والحبر والقرطاس ، وكلها إن هى إلا فضاء واسع كالفضاء بين السماء والأرض والنجوم تتخلله حركات تكون أنوارا كهربائية ، وما تلك الحركات وأنوارها إلا ذرات أشبه بالمعدوم وسط هذا الخلاء ، فهى أمور أشبه بالخيالية نادرة جدا فى وسط جو فسيح تائهات فيه ومع ذلك نرى جسما وقلما وقرطاسا ونقول نحن موجودون ومادتنا ملتئمة مسدودة الأبواب مقفلة ، إذن هذا العالم الذى نعيش فيه حركات وأنوار لاغير ، وهى مع كونها كذلك نادرة جدا ، فأجسامنا هذه أشبه بفضاء واسع لا مخلوق فيه ، فلو ركبنا قطارا فى ذلك الخلاء صادفنا فى كل بضعة أيام نباتا تراه أبصارنا ثم يختفى بسبب سرعة القطار ، إذن عالمنا مبنى على العدد .

يا عجبا : وهل امتاز الحديد والرصاص والماء والهواء والضياء إلا بالعدد ، حركات وأضواء امتازت بأعدادها إذن العدد كأنه أصل الوجود ، وكيف لا يكون أصل الوجود وبه انتظام الأجسام ، وهل الأجسام إلا حركات فى أثير نتجت عنها أضواء ، وهذه الأضواء والحركات لا امتياز لبعضها عن بعض ولا تفريق إلا لعدد الحركات ، فإن قلت كانت لطيفة كالأضواء ، وإن كثرت كانت كثيفة كالأجرام الثقيلة والصلبة .

سبحان الله : إذن العدد به تباينت الأجسام ، والعدد قرأناه فى نفوسنا ، هل أحد منا يجهل الأعداد ؟ الأعداد مرتبة ثابتات فى نفوسنا ، فهذه الأعداد بها نظمت النفوس العالية أمر الأجسام فباعدت مابينها بمراتب الأعداد ، إذن مراتب الأعداد فى نفوسنا كانت سببا فى مراتب مانصعه فى أرضنا ، هكذا هناك نفوس كبيرة نسبتها إلينا كنسبة العوالم المحيطة بنا إلى أعمالنا الضئيلة اليومية ؛ إذن الأعداد كأنها أصل الوجود لأن الأعداد ثوابت والحركات غير ثوابت ، وما كان غير ثابت لا يصلح أصلا ، إن الأعداد ثابتات فى نفوسنا ، وفيها أنواع الواجب والجائز والمستحيل ، فإن ٦ فى ٦ يساوى ٣٦ وهذا واجب ، ومستحيل أن يكون

أقل أو أكثر ، و ٣٦ كما يكون من ضرب ٦ فى ٦ يكون من ضرب ٣ فى ١٢ و ٢ فى ١٨ و ٤ فى ٩ ومن واحد ونصف فى ٢٤ ففيه الواجب والجائز والمستحيل، والعلم كله لم يخرج عن هذه الأقسام المرتبات فى عقولنا ، العالم الذى نعيش فيه لا يخرج كله عن عالمين اثنين : رياضى وطبيعى ، فالعالم الرياضى راجع للعدد لأن العدد سار فى الحساب والهندسة والفلك والموسيقى ، كل العالم الطبيعى موزون محسوب بحساب مهندس بهندسة ، نظامى بشكله ، راجع للوحدات ، تلك الوحدات المرتبات فى نفوسنا ، فالعالم من عرشه لفرشه مقدر موزون محسوب ، والحساب مبدؤه ثابت فى نفوسنا .

من هذا البيان يفهم الناس فى زماننا قول (فيثاغورس) : إن العدد أصل العالم ، وذلك لأنه لا عالم إن هو إلا حركات فى أمر يشبه المعدوم ، والحركات وجودها ضعيف ، وهذا معنى قول علماء عصرنا : إن المادة لا وجود لها ، وإن هى إلا حركات، وللحركات أضواء ، وإذا كانت معدومة فنظامها العدد ، والعدد مرتب فى نفوسنا ، لذلك نسمع الله يقول : « والفجر وليال عشر ، والشفع والوتر » وما الشفع والوتر إلا جميع الأعداد ، وهذا أيضا يوضح لنا قول القدماء : «إن المادة لم يظهر وجودها إلا بالصورة» وهل هذه الصورة المادية إلا ماحددت بالعدد أى عدد الحركات .

نتيجة هذا المقام

إن نتيجة هذا المقال أن الأمر كل الأمر أن عالمنا ثبت أنه أشبه بالذى ليس بموجود ، وأن مايشبه الموجود منه ماهو إلا حركات مع كثرتها فى نفسها هى معدومة فى جانب الخلاء الذى تقع فيه وتضىء فى مواضع نادرة منه، وهذه المظاهر الباهرة كلها أشبه بالوهم، والوهم أخو العدم، أليس بهذا نفهم «بسم الله الرحمن الرحيم ، سبح لله مافى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم » فإذا كان العالم أشبه بالمعدوم ومع ذلك نراه ونسمعه ونتمتع به ، ولم يمتز بعضه عن بعض إلا بالعدد ، إذن الأمر فوق ذلك إن هو إلا تجليات ومظاهر المحيط علما بالعوالم كلها ، لأن هذه العوالم لا ظهور لها إلا بامتياز أعدادها وأقدارها ، والأعداد أمور معقولة لا محسوسة ، وهذا العالم محسوس مشاهد ، إذن الموجود الحق الذى لاوهم يلحقه هو الموجود الذى يستحق اسم الوجود ، وما هذه الصور والأشكال إلا مظاهر أعماله هو أو آثار معلوماته ، طبعت فى هذا الجو الفسيح طبعا ظهرت لنا أصوله بهيئة حركات وأضواء، وتجلى لعيوننا بهيئة نبات وحيوان وشمس الخ . فهذا معنى قوله : « هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شىء عليم » فأما هذه التى ذكرناها فما هى إلا مظاهر رحماته وآثارها .

ضرب مثل

اعلم أيها الذكى المطلع على هذا المقال ، أن هذا المقام خطر فإن عقولنا لا تقدر أن تجمع بين وجود ولا وجود: أى لاتجمع بين الوجود والعدم، هما نقيضان ، والنقيضان مستحيل جمعهما، فنحن الآن موجودون فكيف ساغ لنا أن نقول إن هذا كله وهم كما يقوله علماء الطبيعة أجمعون ، وكيف يقول الله : إن الله هو الأول والآخر والظاهر والباطن الخ فالعلم والقرآن اتحدا على أمر واحد وهوأن هذا العالم وجود ولاوجود، فماذا نقول إذن ؟ لا سبيل لنا إلا ضرب الأمثال ، هذه الشمس مشرقة ، وذرات النور مسافرة فى الجو الفسيح : أى فى العدم باعتبار النظر الظاهرى، أوفيما يشبه العدم وهو الأثير ، وهذه الذرات الضوئية لايظهر

ضوؤها فى الجو إذ لا تظهر إلا على جسم ، ولا جسم في جو السماء إلا ماطار فيه ، فالله ضرب مثلا للشمس ، وأرواح المخلوقات ضرب مثلا للذرات الضوئية وهى تسافر فى العدم المحض بحسب الظاهر أو فيما يشبه العدم وهو عالم الأجسام الذى هو رتبة فى مراتب عالم الأثير ، إن الذرات الضوئية مختفية فى أثناء سفرها من الشمس إلى الأرض أى فى ثمان دقائق و ١٨ ثانية ، وإنما يكون ظهورها إذا وصلت إلى أرضنا لاغير ، فحياة أرواحنا فى أجسامنا أشبه بظهور ضوء الشمس على الأرض التى أشبهها أجسامنا فى أن كلا منهما مظهر ، فأحدهما مظهر للنور ، وثانيهما مظهر للروح ، فإذا نظرنا لضوء الشمس على الأرض فإنا لانجده شيئا سوى حركات مبدؤها الشمس ظهرت لنا بهيئة نور ، وإذا نظرنا للشمس ونحن فى الجو لم نجد إلا ظلمات متراكمة تنتهى بموجود مضىء عظيم هى الشمس ولانرى للذرات الضوئية أثرا فى تلك الظلمات التى لا حد لها ، نعم لهاوجود مستعار من الشمس يظهر لنا إذا ظهرت على جسم معتم كالأرض ، فمن وقف فى جو السماء فإنه لا يرى إلا الشمس المشرقة بنورها فيقول عجبا ! هى الأول وهى الآخر وهى الظاهر وهى الباطن ، لأن هذه كلها ظلمات وغاية الأمر أن لها آثارا مستعارة منها على الأرضين ، وهذا ضرب مثل لا غير « ولله المثل الأعلى » والله ليس كمثله شىء ، ولكن مرادنا هنا الإيضاح لا غير ، فالله منزه عن المادة وعن الشبيه والنظير ، وإياك أن تظن أن ضوء الشمس جزء منها . كلا . بل هو حركات فى الأثير لا غير ، وهذه الحركات غير الشمس كما أن الأرواح غير ذات الله ، فالمخلوق غير الخالق .

بهذا تفهم : « هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شىء عليم ، هو الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام ثم استوى على العرش يعلم مايلج فى الأرض ومايخرج منها وماينزل من السماء ومايعرج فيها وهو معكم أينما كنتم » أى بعلمه ، ولولا أنه معنا ماعلمنا بوجود أنفسنا ، كما أنه لولا أن الشمس مع أضوائها المنبعثات منها ماظهرت تلك الأضواء على وجه الأرض ، هذا مافتح الله به فى تفسير البسملة فى (سورة الحديد) والحمد لله رب العالمين. كتب يوم الثلاثاء ٨ مارس سنة ١٩٣٢ م .

مقدمة فى اتصال هذه السورة بماقبلها

(١) إن السورة المتقدمة والسور قبلها سور ترجع إلى العلم ، وهذه السورة أكثرها للأعمال .

(٢) إن آخر السورة السابقة قوله : « فسبح باسم ربك العظيم » الذى هو مرتب على ماقبله من جزاء كل فريق من أصحاب اليمين وأصحاب الشمال والسابقين كل بما هو أهل له ، وهاهنا يبين صفات الذى أمر بتسبيحه ، وأن تسبيحه ليس خاصا بأهل الأرض ، بل هو عام ، وهذا كقوله « فإن استكبروا فالذين عند ربك يسبحون له بالليل والنهار وهم لا يسأمون » من بعض الوجوه . انتهت المقدمة .

القسم الثانى : فى صفات الله تعالى ، وأسمائه الحسنى ، وظهور آثاره ، فى بدائع مخلوقاته

التفسير اللفظى

بسم الله الرحمن الرحيم

(سبح) ذكر التسبيح بالماضى هنا وبالأمر فى السورة قبلها ، وذكر بالماضى أيضا فى الحشر والصف ، وذكر بصيغة المضارع فى الجمعة والتغابن للاشارة إلى أنه يسبح فى جميع الأوقات ، بل هو مأمور به ، ويقال سبحته وسبحت له كماتقول نصحت له ونصحته ، وتنزيه الله وتسبيحه من العقلاء ، هو القول الدال على تنزيهه كما هو معروف ، فأما غير بنى آدم والملائكة ، فالتسبيح منها الدلالة على العظمة والتنزيه ، أوالانقياد والتسخير

لله تعالى ، فإشارتك لصاحبك بيدك على هيئة مخصوصة يفهم منها تأن واصبر ، وإشارتك بها على هيئة أخرى خاصة يفهم منها لاتفعل وهكذا، فهذه الدلالة فى الحالين أفهمت صاحبك إفهاما كإفهام الكلام بل أشد تفهيما وأبلغ أثرا ، وكم للإنسان فى حركاته من معانى يفهمها الآخرون ، فإذا كان هذا من الإنسان المحدود العلم ؛ فما بالك بما أطلعنا الله عليه من بدائع العلم والحكمة معاشر بنى آدم وفهمنا منه مالا نفهم بالقول ، ولو أنك وقفت فى الخلوات ، وراقبت المزارع والجنات ، والشجر مترنحات ، والحشائش متحركات . والأوراق تغنى بموزون الأصوات ، وقد أرخى الليل سدوله ، وأرسل من الخافقين جحافل جنوده ، وتخللها بريق الكواكب تلمع فى السباسب ، هناك تتجلى لك العبر ، وتقرأ علوم المبتدأ والخبر ، وتغنى لك النسمات ، على أعواد الغابات ، بما يشنف سمعك ، ويطرب أنسك ، ويشرق شمسك . وهناك هناك تناجيك اللذات ، وتسارك الآيات ، وتحيط بك الإشارات ، وتقصر عنها العبارات ، وترى فيها مالا تراه العيون ، والناس حولك ساهون لاهون ، هنالك الأنس والنور ، وهنالك الجنات والحور ، وهنالك السعادة والحبور . وهنالك تفهم قوله تعالى (سبح لله مافى السموات والأرض وهو العزيز) المنتقم ممن يعيش ويموت وهو لايعقل ذلك التسبيح الذى نطقت به الذرات ، وشهدت به الآيات . فضلا عن تركه التسبيح هو . فاذا أمر المسلم أن يسبح فى آخر السورة السابقة فإن الله يعاقبه إذا تمكن من إدراك بعض أسرار الكائنات التى يعبر بها عنها التسبيح وأقفل عنها عينيه ، وأصم عن سماعها أذنيه ، وقوله (الحكيم) أى فى مجازاة من عقل ذلك وسبح لله فيكون عالما عاملا ، ويعم نوره بقية المسلمين من حيث العلم والاقتداء به (له ملك السموات والأرض) لأنه الخالق المتصرف حال كونه (يحيى ويميت وهو على كل شىء قدير) أى يحيى الأموات ويميت الأحياء ، وهو على كل شىء من الإحياء والإماتة وغيرهما قدير (هو الأول) السابق على سائر الموجودات ، لأنه أوجدها (والآخر) الباقى بعد فنائها . وأيضا منه ابتدأت الأسباب . وإليه انتهت المسببات (والظاهر والباطن) فقد ظهرت دلائل وجوده وتكاثرت ، وبطنت ذاته فلم ترها العيون ، واحتجبت عن الظنون ، فهو ظاهر بآثاره وأفعاله . باطن بذاته ومشرق جماله وكماله . قد ظهرت غلبته على المخلوقات وعلم حقائقها . ولم يخف عليه بواطنها فهو ظاهر بغلبته عليها ، باطن لعلمه بما بطن منها (وهو بكل شىء) من الظاهر والباطن والجلى والخفى (عليم هو الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام) تقدمت الحكمة فى أنها ستة فى سورة الفرقان ولماذا اختيرت الستة (ثم استوى على العرش) تقدم الكلام عليه فى سورة يونس وفى سورة هود (يعلم مايلج فى الأرض) مايدخل فيها من الكنوز والبذور والموتى والمعادن . ومن أهمها الحديد الآتى ذكره . الذى فيه بأس شديد ومنافع للناس . فلم يدخل البذر فى الأرض إلا للقوت ومنفعة الناس والدواب . ولم يدخل الناس فى الأرض إلا لإخراج أرواحهم من عالم المادة وإسعادهم ، أو تربيتهم إذا كانوا عاصين الخ . ولم يدخل الكنوز فى الأرض إلا ليبحث الناس عنها ويستخرجوها . فهو لم يولج المعادن إلا بعلم يعلم منافعها . فلذلك دفنها لمن هم مستعدون لاستخراجها (وما يخرج منها) كالمعادن المذكورة والزرع والموتى إذ يخرجون من القبور (وما ينزل من السماء) من الملائكة والمطر ونحوهما (وما يعرج فيها) كالأبخرة والأعمال والدعوات (وهو معكم أينما كنتم) لا ينفك علمه وقدرته عنكم بحال (والله بما تعملون) فى أمور دينكم ودنياكم (بصير) فيعطى كل ذى فضل فضله «ولا يظلم ربك أحدا» ثم قال (له ملك السموات والأرض) وإنما كرره ليرتب عليه مابعده (وإلى الله ترجع الأمور . يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل) تقدم شرح ذلك فى (سورة البقرة) وغيرها (وهو عليم بذات الصدور) أى بمكنوناتها . انتهى التفسير اللفظى للقسم الثانى من السورة ، والحمد لله رب العالمين .

لطيفة فى قوله تعالى : يعلم مايلج فى الأرض ومايخرج منها

اعلم أن الكلام على هذه الآية قد تقدم فى (سورة سبأ) وشرحت لك هناك ماتشير له الآية من الكنوز والآثار والعلوم المدفونة فى خرائب بلاد اليمن ، وكيف سخر الله الفرنجة فقاموا بالحفر والتنقيب والمسلمون هم النائمون لايدرون ماحولهم كأن البلاد ليست بلادهم . وكأن هذه الآية ليست من دينهم . أو كأنها نزلت لمن لايتفكرون فيها . لماذا يذكر الله الايلاج فى الأرض فى أول سورة ذكر فيها قصة سبأ . فهكذا هنا بدأ الله هذه السورة بما يفيد أنه يعلم مايلج فى الأرض ومايخرج منها . ثم رأيناه بعد ذلك يقول : «وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس» فعلمنا أنه يرمز إلى نعمة المعادن التى هى من قبيل الحديد والتى هى الآن فى قبضة الفرنجة . وكيف نام المسلمون عنها والله يقول إنه يعلم مايلج فى الأرض وما يخرج منها . فيعلم منفعتها ، ويعلم الذين ينتفعون بها . ويعلم متى ينتفعون بها . ويعلم متى يستخرجونها ، ويعلم من الذى يحرم منها فتكون الدائرة عليه لجهله فلم يذكر الله ذلك لمجرد معرفة الله مجردة من كمال العباد ومنافعهم وإلا لم يقل فى (سورة ق) : « والنخل باسقات لها طلع نضيد رزقا للعباد » فهذه المخلوقات بها الاستدلال تارة وبها الرزق أخرى ، فليستخرج المسلمون الحديد والذهب والنحاس وجميع المعادن ، ولا يكونوا عالة على أوروبا .

ومما يستخرج من الأرض آثار الأولين كما تقدم فى (سورة سبأ) أيضا . ولن يكون هذا إلا إذا ملكت الدولة رشدها ، وكمل نظامها ، وعظم عمرانها . فهل أنبئك بأمر عجب قرأته فى إحدى جرائدنا المصرية يوم الأحد الخامس من شهر مايو ١٩٢٥ عند تفسير هذه الآية : ذلك أن الغواصين الذين يغوصون على (السفنج) ليستخرجوه فى البحر الأبيض أمام تونس . كان أحدهم قد غاص ونزل فى البحر على عمق ثلاثين قدما . وبينما هو يعالج الاسفنج إذ لمح من بعيد امرأة جميلة لم ير الراءون مثلها ، معتدلة القوام ، باهرة المحاسن ، باسمة المحيا ، والحشائش نابتة حول جسمها ، والسمك يغدو ويروح حولها . فلما رأى هذا المنظر دهش وظن أن عقله ليس فى حاله العادية ، فأشار إلى رفاقه فى البر إشارة الخطر ، فرفعوه فأخبرهم الخبر فنزل رفاقه فوجدوا الأمر كما قال ، وأن هناك مدينة ذات شوارع ومنازل والسمك ذاهب آيب فيها . فأخبروا الحاكم الفرنسى بتلك الأقطار بالجزائر ، فطير الخبر إلى بلاده ، فأرسلوا إلى عالم كبير بالآثار من أمريكا فلما درس الموضوع . قال : إن هذه المرأة هى صورة آلهة الجمال فى قديم الزمان . وإنه يظن أن تلك المدينة ومدنا أخرى قد ابتلعها البحر منذ ثلاثة آلاف سنة ، وأنه يريد أن ينظر فى أمرها هل يبنى سورا حولها إن كان ميسورا ، أم يرفع الأشياء الثمينة منها ويتركها إن لم يتيسر الأول ؟

هذا ملخص الخبر فى جريدة البلاغ المصرية ، فهذه الحادثة مما يلج البحر ومايخرج منه والله يعلمها . وذلك أن الله أولجها فى البحر الذى هو بمثابة الأرض لعله أن قوما سينتفعون بها بعد خروجها . فإن المتأخر إذا اطلع على صناعة المتقدم أدهشه الحسن والجمال والدقة فى الصنع فيستمسك بما ليس عنده ، ويجد فى الوصول إلى الكمال : فإن العلم منشؤه التعجب . ومتى تعجب الناس من جمال صنعة المتقدمين زادهم ذلك نشاطا وجدا . ولى أن أقول لأمة الإسلام : هذا كلام ربنا وهذه آثاره فى الأرض . وهناك آثار سبأ المتقدمة فى سورة سبأ وهى فى أرض المسلمين الآن . وآثار هذه المدينة المجهولة التى أغرقها الله فى البحر أمام تونس ، تونس التى هى بلاد إسلامية والمسلمون هم الآن نائمون . ملكت فرنسا تونس ، فأصبح أهلها وأهل الجزائر وطرابلس وغيرها من شمال أفريقيا لايعلمون شيئا فى بلادهم ولكن الله يقول . «يعلم مايلج فى الأرض»

نعم يعلمه ويخبر عباده به ، فانظر لأمة الإسلام التى تركت الدنيا تنعى من بناها ، وتقول لاأهتم بشىء فلاعلم ولا مال ولا دولة ، وقد آن أوان أن تشرق أيامهم ، وتزدان مدنهم ، ويكون منهم فى كل جيل طوافون فى الأرض ، وعلماء فى كل فن كما هو أوامر شرعنا أن يكون فى المسلمين طوائف لكل فن طائفة تكفى المسلمين الحاجة ، وهذا هو المسمى فرض كفاية بحيث لوترك لأثم المسلمون جميعا ، فسيعلم المسلمون ذلك وسيتولون نظام الأرض كما تولتها أوروبا التى ضيقت الحصار على المسلمين ، وأرغمتهم وهم فى كل واد يهيمون وسيأخذ المسلمون حظهم الموعود ، ويومهم المقبل «ولتعلمن نبأه بعد حين» انتهى الكلام على القسم الثانى من السورة ، والحمد لله رب العالمين .

القسم الثالث فى الحض على الإنفاق

قال تعالى (آمنوا بالله ورسوله وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه) من الأموال التى هى ملكه فى الحقيقة وماأنتم إلا خلفاؤه فى التصرف فيها (فالذين آمنوا) بالله ورسله (منكم وأنفقوا لهم أجر كبير ، ومالكم لاتؤمنون بالله) أى وأى عذر لكم فى ترك الإيمان بالله والرسول يدعوكم إليه ويتلو عليكم كتابه الناطق بالبرهان وهذا قوله (والرسول يدعوكم لتؤمنوا بربكم) الجملة حالية (وقد أخذ ميثاقكم) بالإيمان قبل ذلك بنصب الدلائل والتمكين من النظر (إن كنتم مؤمنين) أى إيمان كان لموجب ما ، فان الإيمان لهذا الموجب أعظم وهو أخذ الميثاق (هو الذى ينزل على عبده) محمد صلى الله عليه وسلم (آيات بينات) القرآن (ليخرجكم) الله تعالى أو نبيه بدعوته (من الظلمات إلى النور) من الكفر إلى الإيمان (وإن الله بكم لرءوف رحيم) إذ أنزل عليكم الكتاب ولم يقتصر على نصب الدلائل العقلية (ومالكم ألا تنفقوا فى سبيل الله ولله ميراث السموات والأرض) أى وأى غرض عرض لكم فى ترك الإنفاق فى سبيل الله والجهاد مع رسوله مع أنكم ستموتون وتتركون أموالكم لغيركم ، فالأولى لكم أن تنفقوها فيما يقربكم إلى الله تعالى وتستحقون به الثواب . ثم أخذ يبين درجات المنفقين ، فقال (لايستوى منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا وكلا وعد الله الحسنى والله بما تعملون خبير) الفتح فتح مكة ، فمن قاتل وأنفق قبله فأجره أعظم ممن أنفق وقاتل بعده مع أن كلا منهما وعده الله المثوبة الحسنى وهى الجنة كما تقدم فى (سورة الواقعة) من الفرق بين السابقين وأصحاب اليمين والله يعلم بظاهر أعمالكم وباطنها فيجازى كلا بما فعل . وأعظم من قاتل وأنفق قبل الفتح أبو بكر الصديق رضى الله عنه . وأكثر المفسرين يرون أن الآية نزلت فيه ، ولكنها بحسب حكمها أعم (من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا) أى من ذا الذى ينفق ماله فى سبيله رجاء ثوابه ، ففيه استعارة لفظ القرض ليفيد لزوم الجزاء (فيضاعفه له) أى يعطيه أجره أضعافا (وله أجر كريم) أى إن هذا الأجر فى نفسه كريم حسن فكيف وقد ضوعف أضعافا . انتهى التفسير اللفظى للقسم الثالث من السورة ، والحمد لله رب العالمين .

القسم الرابع

قال تعالى (يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم) وهو مايوجب نجاتهم وهدايتهم إلى الجنة من العلم والعمل والعبادات والحكمة (بين أيديهم وبأيمانهم) لا من شمائلهم ولا من وراء ظهورهم كالكافرين ، فاختصاص النور بالأمام وبجهة اليمين للاشعار بأنهم هم الذين بحسناتهم سعدوا ، وبصحائفهم البيض أفلحوا فإذا مروا على الصراط يسعون يسعى بسعيهم ذلك النور وتقول لهم الملائكة (بشراكم اليوم جنات) أى

دخول جنات (تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ذلك هو الفوز العظيم) ثم أبدل من «يوم ترى» قوله (يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا انظرونا) أى انتظرونا ، وذلك إذا رأوهم قد أسرعوا كالبرق الخاطف إلى الجنة ، أو انظروا إلينا فإنهم إذا أقبلوا عليهم بوجوههم استضاءوا بنورهم ، إن تنظرونا (نقتبس من نوركم) نستضىء من نوركم (قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نورا) وهذا تهكم بهم وتخييب لآمالهم من المؤمنين وللملائكة ، أو قيل ارجعوا وراءكم إلى الدنيا فالتمسوا نورا بتحصيل العلوم والمعارف الإلهية والأخلاق الفاضلة فلا نور إلا منها ، وأما هنا فلا سبيل لكم أن تنالوا نورا ، إذ لا ينفع المرء إلا عمله ، ومن لم تستعد نفسه للهداية فلا ينفعه آخر (فضرب بينهم) أى بين المؤمنين والمنافقين (بسور) بحائط (له باب) يدخل فيه المؤمنون (باطنه) باطن السور أو الباب (فيه الرحمة) لأنه يلى الجنة (وظاهره من قبله العذاب) من جهته لأنه يلى النار (ينادونهم) أى ينادى المنافقون المؤمنين من وراء ذلك السور حين حجز بينهم وبقوا فى الظلمة (ألم نكن معكم) فى الدنيا نصلى ونصوم ونزكى ونحج (قالوا بلى ولكنكم فتنتم أنفسكم) أهلكتموها بالنفاق والمعاصى والشهوات ، فهذه كلها فتنة (وتربصتم) بالمؤمنين وبالنبى صلى الله عليه وسلم الدوائر (وارتبتم) وشككتم فى الدين (وغرتكم الأمانى) الأباطيل وما تتمنونه كامتداد أعماركم (حتى جاء أمر الله) وهو الموت (وغركم بالله الغرور) أى الشيطان أو الدنيا (فاليوم لا يؤخذ منكم فدية) فداء (ولا من الذين كفروا) ظاهرا وباطنا (مأواكم النار هى مولاكم) أى مصيركم النار هى أولى بكم لما أسلفتم من الذنوب وهى مكانكم الذى يقال فيه هو أولى بكم (وبئس المصير) النار . اعلم أن المؤمنين لما قدموا المدينة أصابوا من لين العيش ورفاهيته ففتروا عن بعض ما كانوا عليه فعوقبوا ونزل فى ذلك : «ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق» الآية . وقال ابن مسعود ما كان بين إسلامنا وبين أن عاتبنا الله بهذه الآية إلا أربع سنين . وقال ابن عباس : إن الله تعالى استبطأ قلوب المؤمنين فعاتبهم على رأس ثلاث عشرة سنة من نزول القرآن فقال (ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع) أى ترق وتلين وتخضع (قلوبهم لذكر الله) لمواعظ الله (وما نزل من الحق) أى القرآن ، وقوله «ألم يأن» أى ألم يأت وقته ، يقال أنى الأمر يأنى إذا جاء أناه أى وقته (ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل) معطوف على تخشع (فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون) أى فطال عليهم الزمان بينهم وبين أنبيائهم وكثير منهم خارجون عن دينهم رافضون لما فى كتابهم ، من فرط قسوة قلوبهم ، والمقصود أن الله نهى المسلمين أن يكونوا فى صحبة القرآن كاليهود والنصارى الذين قست قلوبهم لما طال عليهم الدهر . وروى عن أبى موسى الأشعرى أنه بعث إلى قراء البصرة ، فدخل عليه ثلثمائة رجل قد قرءوا القرآن ، فقال : أنتم خيار أهل البصرة وقراؤهم فاتلوه . ولا يطولن عليكم الأمد فتقسو قلوبكم .

أقول : ولما كانت الأمة الإسلامية اليوم قد أصابها الوهن بطول المدة التى ليست ثلاث عشرة سنة (كما قال ابن عباس بل مضاعفة مائة مرة ، فقد انتهينا الآن من القرن الثالث عشر) كانت هذه الآية أقرب إلى التعبير عن حالها . وإذا كان الله قد وعظ أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بأنهم قد ضعفت عزائمهم ، فالمسلمون بعد ذلك بثلاثة عشر قرنا ظهر الوهن فى عزائمهم ظهورا فاضحا أكثر مائة مرة وأفرط الافرنج فى إذلالهم ، وإذا كان الله يقول لآبائنا الأولين أيام النبوة (اعلموا أن الله يحيى الأرض بعد موتها) أى يحيى القلوب القاسية بالذكر والتلاوة والنشاط فى العلم والعمل .

أقول : إذا كان الله يبشرهم بذلك ونبينا صلى الله عليه وسلم بينهم فالبشارة لعمر الله اليوم لنا أكثر تحقيقا وأقرب رحمة ألا ترى أن الأرض إذا نزل المطر عليها بعد طول الفترة كانت قد استراحت فتعطى ثمرا أعظم بشروط خاصة وكلما كان الليل أشد ظلاما كان النهار أبهر إشراقا ، وطول المشقات يعقبه الفوز ، والضد يتبعه ضده

وتلك

«وتلك الأيام نداولها بين الناس» وإنى أنا أبشر المسلمين اليوم بهذه الآية وبأشياء أخرى لا محل لذكرها، أبشر المسلمين وأقول لهم قد جاء يومهم الموعود ، وأقبل إسعادهم المأمول ، وسترثون العلم والحكمة ، وستكونون أمة لها شأن وأى شأن . وسيكون قراء هذا التفسير من أول العاملين لرفعة شأن هذه الأمة وليقومن فى شمال إفريقيا وفى الحجاز والشام وبلاد العراق واليمن وباقى بلاد الإسلام علماء قريبا ، وحكماء يجددون الأمر ، ويقتفون أثر أجدادهم ، ويجددون ما اندرس من العلم ؛ وستكون الأمة الإسلامية بعد هذا الزمان أمة مفكرة ، بحاثة نافعة لنوع الإنسان ، رحمة للعالمين ، قال تعالى (قد بينا لكم الآيات لعلكم تعقلون) أي كى تكمل عقولكم (إن المصدقين والمصدقات) أى المتصدقين والمتصدقات ، وقرئ بتشديد الدال وحده من التصديق (وأقرضوا الله قرضا حسنا) عطف على المصدقين (يضاعف لهم) يضعف لهم (ولهم أجر كريم) هى الجنة (والذين آمنوا بالله ورسله أولئك هم الصديقون والشهداء عند ربهم) أى إن المؤمنين عند الله بمنزلة الصديقين والشهداء ، وهم الذين سبقوا إلى التصديق واستشهدوا فى سبيل الله (لهم أجرهم ونورهم) أى لهم مثل أجر الصديقين والشهداء، ومثل نورهم، والفرق بين هؤلاء، وهؤلاء، أن نورهم من غير تضعيف ، فأما الآخرون فثوابهم مضاعف (والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب الجحيم) وإلى هنا تم الكلام على بشارة المؤمنين بنورهم يوم القيامة ، وعلى حضهم وحثهم على بذل الجهد وترك الغفلة ، وعلى ثواب المتصدقين والمتصدقات ، ثم أخذ يشرح وصف سرعة زوال الدنيا فقال (اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب) كلعب الصبيان فى الملاعب من غير فائدة (ولهو) يلهون به أنفسهم عما يهمهم كلهو الفتيان (وزينة) كالملابس الحسنة ، والمراكب البهية ، والمنازل الرفيعة . وكزينة النساء (وتفاخر بينكم) كتفاخر الأقران بالأنساب (وتكاثر فى الأموال والأولاد) مباهاة بكثرة الأموال والأولاد ، ثم قرر ذلك فقال (كمثل غيث أعجب الكفار نباته) الكفار الزراع لكفرهم : أى سترهم الأرض بالبذر، والنبات ماانبت بذلك الغيث (ثم يهيج) ييبس (فتراه مصفرا) بعد خضرته (ثم يكون حطاما) يتحطم ويتكسر بعد يبسه ويفنى (وفى الآخرة عذاب شديد) لمن كانت حياته بهذه الصفة ، فمن انهمك فى الدنيا كانت عاقبته شدة العذاب ، وقوله (ومغفرة من الله ورضوان) أى لمن جعلها سبيلا للآخرة (وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور) لمن عمل لها ولم يعمل للآخرة ، ثم شرع فى ترغيب العباد فى العمل للجنة فقال (سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والأرض) أى عرضها كعرضهما ، فإذا كان ذلك عرضها فماذايكون طولها ؟ (أعدت للذين آمنوا بالله ورسله) فهى مهيئة الآن مخلوقة (ذلك) الموعود (فضل الله يؤتيه من يشاء) يتفضل به على من يشاء من غير إيجاب (والله ذو الفضل العظيم) فالتفضل منه ممكن وإن عظم قدره ، ثم أعقبه بتهوين المصائب على المؤمنين تعجيلا للسعادة ، لأن هذه المسألة أهم المسائل فى الحياة الدنيا ، وعليها تكون السعادة ، وبخلافها يكون الشقاء ، ألم تر إلى مانقلته لك عن الحكيم قابس اليونانى ، وكيف شرح جميع أنواع النعم من مال وولد وعلم وصيت ، وانتهى فى آخر الأمر إلى أنه لاسعادة إلا من حيث الصبر ووصول النفس إلى نهاية كمالها الأخلاقى بحيث يمر المال والولد والقوة والعلم عليها فتصيبها تارة وتخطئها أخرى وهى بحالها مطمئنة ، لا يزدهيها الاتصاف بما تقدم ، ولا يحزنها الفوت .

هـذا آخر آراء المتقدمين من الفلاسفة فى سعادة الأنفس البشرية فى هذه الحياة الدنيا ، فكأن الله يقول : أيها المؤمنون : الحياة الدنيا غرور فسابقوا إلى الجنات ، واعلموا أنكم فى هذه الحياة التى سميناها غرورا واقعون فى خيرها وشرها ، فلنجعل لكم السعادة قبل الموت حتى تشموا رائحة الجنة وأنتم أحياء ، وذلك بما نصفه فنقول (ما أصاب من مصيبة فى الأرض) كالجدب والفاقة واحتلال الأجانب من الظالمين ،

واستيلاء الحكام الفاسقين من المسلمين (ولا فى أنفسكم) كرض وفاقة (إلا فى كتاب) إلا مكتوبة فى اللوح المحفوظ ، مثبتة فى علم الله (من قبل أن نبرأها) نخلقها أى المصيبة (إن ذلك) أى إثباته فى كتاب (على الله يسير) لاستغنائه تعالى عن العدد والمدد ، إنى أثبت ذلك وكتبته وأخبرتكم (لكيلا تأسوا) تحزنوا (على مافاتكم) من نعيم الدنيا (ولا تفرحوا بما آتاكم) بما أعطاكم الله منها ، فانظر كيف يقول قابس اليونانى : « إن الصبر مخرج من الشقاء » ويجىء القرآن بما هو أقرب من أول وهلة فيقول : إن كل شىء قدر فى الكتاب فكيف تفرح أو تحزن ! قال عكرمة «ليس أحد إلا وهو يحزن ويفرح، ولكن اجعلوا الفرح شكرا ، والحزن صبرا » . وقال صاحب الكشاف : « المراد بالحزن المخرج إلى مايذهل صاحبه عن الصبر والتسليم لأمر الله ورجاء الثواب ، وبالفرح للطغى الملهى عن الشكر » (والله لا يحب كل مختال) متكبر بما أعطاه الله فى الدنيا (فخور) بذلك الذى أوتى على الناس .

ذم البخل

قال تعالى (الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل) والخبر محذوف مثل فإن الله غنى عنهم محمود وإن لم يحمدوه ، وهذا الخبر مأخوذ من قوله (ومن يتول) أى يعرض عن الإنفاق (فإن الله هو الغنى الحميد) أى الغنى عنه وعن إنفاقه ، محمود فى ذاته ، لايضره الإعراض عن شكره .

التحريض على العدل

قال تعالى (لقد أرسلنا رسلنا) الملائكة إلى الأنبياء ، والأنبياء إلى الأمم (بالبينات) بالحجج والمعجزات (وأنزلنا معهم الكتاب) المتضمن للأحكام وشرائع الدين (والميزان) أى العدل : أى وأمرنا بالعدل (ليقوم الناس بالقسط) ليتعاملوا بينهم بالعدل ولا يظلم بعضهم بعضا ، ولما كان مايزع السلطان أكثر مما يزع القرآن وكان الناس فريقين : فريقا يقوده العلم والحكمة ، وفريقا يقوده السيف والعصا ، وكان العدل والقانون لابد له من حام يحميه وهو الدولة والملك وجنوده وأعوانه ، وهؤلاء لابد لهم من عدة يحمون بها القانون والعدل فى داخل البلاد وخارجها أعقبه بأنه أنزل الحديد لتكون منه السيوف والرماح والسفن البحرية وماأشبه ذلك ، وهذا قوله (وأنزلنا الحديد) قبل أن نخلق الإنسان والحيوان على الأرض حينما كانت آخذة فى التبرد شيئا فشيئا فإنه كان هو وبقية المعادن سائلا تارة وبخارا أخرى ، يرتفع كالسحب فى الجو ، ويمطر على اليابسة ، وينزل فى شقوق الأرض عاما بعد عام هو والذهب والفضة ، وباقى المعادن فانها كلها فى تلك الدهور القديمة كانت مرتفعة الحرارة جدا ، وكلما بردت الحرارة نوعا ما أخذت تلك المواد تبرد بالتدرج ، ومنها الحديد فى دوره الخاص به كما تقدم إيضاحه بالتفصيل فى الأجزاء السابقة من هذا التفسير مع بيان الدرجة التى يصير فيها سائلا ، والدرجة التى يصير فيها جامدا صلبا فلا نعيده ، فصح أن الحديد أنزل من السماء، كما ينزل المطر ، وهذا من عجائب القرآن التى أظهرها علم طبقات الأرض الآن فى المعادن والحديد الذى قال الله فيه (فيه بأس شديد) قوة شديدة ، فبه يقاتلون ، ومنه يصنعون السفن فى هذا العصر للقتال والدروع (و) منه (منافع للناس) فى جميع الصناعات ، فهو فى قطارات السكك الحديدية فى سائر أقطار الأرض كما هو فى الإبرة ومابينهما ، لافرق بين صنع الكرسى وصنع القصر العظيم ، كلاهما داخل فيه الحديد ، وإنما فعلنا ذلك لتجاهدوا فى سبيلى (وليعلم الله من ينصره) باستعمال الأسلحة فى مجاهدة

الكفار

الكفار ، والمحافظة على سلامة الأوطان ، التى هى من أهم الجهاد كما قال تعالى : « ومالنا ألا نقاتل فى سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا » ومعنى [ليعلم الله] ليرى الله (من ينصره) أى من ينصر دينه (ورسله بالغيب) أى حال كونه غائبا عنهم : أى ينصرونه ولا يبصرونه (إن الله قوى) يدفع بقوته بأس من يعرض عن ملته (عزيز) يربط بعزته جأش من يتعرض لنصرته . واعلم أن كتاب الله المنزل من السماء ، والعدل الذى أمر الله به والحديد الذى يجعل فى المدافعة عنهما مرتبطات كما شرحته لك .

ذكر بعض الأمم السالفة التى أنزل عليها الكتاب والميزان

وأن منهم من اهتدى ، ومنهم من فسق . ليرتب عليه مابعده

قال تعالى (ولقد أرسلنا نوحا وإبراهيم وجعلنا فى ذريتهما النبوة والكتاب) فجعلناهم أنبياء وأوحينا إليهم الكتب (فمنهم مهتد) أى فمن المرسل إليهم مهتد (وكثير منهم فاسقون) خارجون عادلون عن الطريق المستقيم (ثم قفينا على آثارهم برسلنا وقفينا بعيسى بن مريم) وذلك بأن أرسلنا رسولا بعد رسول حتى انتهى إلى عيسى (وآتيناه الإنجيل وجعلنا فى قلوب الذين اتبعوه رأفة ورحمة) الرأفة المودة واللين ، والرحمة التعطف على الإخوان (ورهبانية ابتدعوها) وهى أنهم يترهبون فى الجبال ، فارين من الفتنة فى الدين ، مخلصين أنفسهم للعبادة ، والرهبانية هى الفعلة المنسوبة للرهبان كخشيان من خشى ، والرهبان المبالغ فى الخوف ، ومعنى ابتدعوها أخرجوها من عند أنفسهم ، وذلك بعد المسيح بقرون . أيام اضطهاد النصرانية بمصر ، فإن بعض العلماء ترك البلاد وخرج إلى الجبال كما جاء فى كتاب [الخريدة النفيسة ، فى تاريخ الكنيسة] الذى ألفه أحد الرهبان بمصر وطبع سنة ١٨٨٤ م (ما كتبناها عليهم) ما فرضناها عليهم ولكنهم ابتدعوها (إلا ابتغاء رضوان الله فما رعوها حق رعايتها) أى الذين جاءوا بعدهم (فآتينا الذين آمنوا منهم أجرهم) أى الذين ابتدعوها ابتغاء رضوان الله (وكثير منهم فاسقون) وهم الذين جاءوا بعدهم فلما أرسل النبى صلى الله عليه وسلم انحط رجل من صومعته وجاء سائح من سياحته وصاحب دير من ديره فآمنوا به وصدقوه فقال الله (ياأيها الذين آمنوا) بالرسل المتقدمة ومنهم عيسى (اتقوا الله) فيما نهاكم عنه (وآمنوا برسوله) محمد صلى الله عليه وسلم (يؤتكم كفلين) نصيبين (من رحمته) لإيمانكم بمحمد وبمن قبله (ويجعل لكم نورا تمشون به) وهو المذكور فى قوله « يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم » (ويغفر لكم) الكفر والمعاصى (والله غفور رحيم) وإنما فعلنا ماذكر (لئلا يعلم أهل الكتاب ألايقدرون على شىء من فضل الله وأن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم) أى فعلنا ذلك ليعلم أهل الكتاب أنهم لا ينالون شيئا مما ذكر من فضله ، ولا يتمكنون من الكفلين من رحمته ، ولا من النور والمغفرة إذا لم يؤمنوا برسوله محمد صلى الله عليه وسلم فليس ينفعهم إيمانهم بمن قبله وحده ولايكسبهم فضلا فتكون إذن «لا» زائدة وقوله « وأن الفضل بيد الله » عطف على «ألا يقدرون» أى ليعلموا عدم قدرتهم على ماذكر ويعلموا أن الفضل المذكور فى ملك الله وتصرفه يؤتيه من يشاء من عباده ، وإذا جعلت «لا» غير مزيدة يكون المعنى لأجل ألايعتقد أهل الكتاب أنه لايقدر النبى والمؤمنون به على شىء من فضل الله ولاينالونه أن الفضل بيد الله ، فلذلك أعطاه للنبى والمؤمنين . انتهى التفسير اللفظى للقسم الرابع من السورة ، والحمد لله رب العالمين .

لطائف هذه السورة

(١) فى قوله تعالى : فضرب بينهم بسور » أى بحائط الخ .
(٢) وفى قوله : « وجنة عرضها كعرض السماء والأرض » .
(٣) وفى قوله : ورهبانية ابتدعوها » الخ .

اللطيفة الأولى فى قوله تعالى : فضرب بينهم بسور

اعلم أن هذه الآية تفيد أن بين الجنة والنار حائطا له باب ومن دخله دخل الجنة ، ومن هو خارجه فهو فى النار ، والمنافقون واقفون خارج هذا السور يقولون لمن كانوا معهم من المؤمنين «انظرونا نقتبس من نوركم » وأولئك لا يجيبونهم إلا بالتقريع والتوبيخ . واعلم أن هذا الوصف له نظير فى الدنيا ، بل إن مراتب الناس فى الدنيا على هذا المنوال ، بل جميع العوالم النامية من حيوان وإنسان ، ولأضرب لك ثلاثة أمثال :

(المثال الأول) كل فاكهة من الفواكه ، أوحب من المأكول ، أو زهرة فى شجرة ، تجدها ذات قشر غليظ من أعلى يليه ماهو ألطف منه ، ولا يكون فى داخل الجميع إلا الفاكهة المطلوبة ، ولا يكون فى المركز إلا ماهوأهم وهو المقصود، فترى الزهرة يحجبها أولا الورقات المسماة بالكأس ولاجرم أنها أغلظ مما بعدها وهى الوريقات الملونات المسميات بالتويج، وفى داخل هذين تجد أعضاء الذكور وأعضاء الإناث فى داخل الزهرة، إذنظاهر الزهرة أقرب إلى العالم الخشن، وباطنها أقرب إلى العالم اللطيف، وهوالمقصود بالذات، انظر إلى البندق وإلى الجوز كيف كان القشر الأعلى غليظا وماتحته لطيف، وفى داخله المادة المأكولة الحافظ عليها، وهكذا البطيخ والرمان وجميع الفواكه، وترى الثمرة وجميع النخلة كأنها خوادم لنواة الثمر لتكون أصلا لشجرة أخرى ، وهكذا كل نواة فهى محافظ عليها بمثل ذلك :

(المثال الثانى) إن جراثيم الأجنة فى أرحام الأمهات من كل حيوان برى أو بحرى تمر فى أدوار من الخلق ، ثم إنها إذا وصلت إلى ماهى أهل له من الخلق وقفت ولم تجاوز ما استعدت له ، فترى الحيوانات النقاعية التى هى فى آخر مراتب الحيوانية تبقى على حالها لاترتقى وهى فى دور التربية، وترى أنواع العنكبوت والنمل والنحل إذا خرجت من البيض لا تعدو مرتبة أصلها، أماالحيوانات الفقرية فإنها تجاوز تلك المراتب ولا تتجاوز مرتبتها هى ، والإنسان يجاوز المراتب كلها ويرتقى إلى مرتبة الإنسانية ، فكأن كل درجة من درجات الحيوانية غلاف يحفظ ماتحته، وآخرها ارتقاء هو الإنسان الذى أحاط الجميع به محافظة عليه كما يحافظ القشر على لب الثمار ، وكما يحافظ الكأس والتويج فى الزهرة على أعضاء الإلقاح .

(المثال الثالث) : دراسة العلوم فى اللغة العربية ، مثلا : الخط ، الإملاء ، النحو الصرف ، البلاغة القرآن: حكمه وعلومه، إشراق النفس به . وانظر إلى نوع الإنسان كيف كان كل لايتعدى حده الذى حده له استعداده والبيئة التى هو فيها .

يكتب الإنسان ويقرأ ثم يقف بعد ذلك لا يتعدى القراءة البسيطة ، وهو قد امتاز عمن لم يقرأ ومن لم يكتب . ثم يتجاوز ذلك طائفة علماء النحو ويجاوزهم علماء البلاغة ، ويظن هؤلاء أنهم وصلوا إلى قمة العلم ،

فيرتقى عنهم قوم إلى قراءة أشعار العرب ونثرها وخطبها فى الجاهلية والإسلام، ويظن هؤلاء أنهم أعلى الجميع؛ ويزيد عليهم آخرون فيقرءون تاريخ العرب وأنسابهم ولا يتعدون ذلك، ويتجاوزهم آخرون فيعرفون معانى القرآن وبلاغته ويظنون أنهم أرقى: ويتجاوزهم آخرون فيدركون مقاصده من الأخلاق والعلوم ويقفون، ويتجاوزهم آخرون فيعملون بذلك ويدرسون هذه الدنيا ونظامها، ويتخلقون بجميل الأخلاق، ويقفون عند هذا الحد، ويتجاوزهم آخرون فيكونون مخلصين لربهم، نافعين لأممهم، وهؤلاء هم الصديقون والحكماء، فكل طائفة متقدمة كالقشر لما بعدها، وكأن كل واحدة تقول لمن تقدم عليها وتجاوزها: ألم نكن معكم؟ قالوا بلى ولكنكم ظلمتم أنفسكم، واغتررتم بعلمكم، ووقفتم عند حد مخصوص، ولكن نحن عرفنا الحقيقة ووصلنا، فلا تلوموا إلا أنفسكم، إنك ترى هذه الحقائق مجسمة أمامك فى كل آن، وإلى هنا تم الكلام على اللطيفة الأولى، والحمد لله رب العالمين.

اللطيفة الثانية فى قوله تعالى:

وجنة عرضها كعرض السماء والأرض

تقدم هذا فى سورة (آل عمران) فارجع إليه هناك إن شئت.

اللطيفة الثالثه فى قوله تعالى:

ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم

لنشرح هذا المقام من كتاب (الخريدة النفيسة، فى تاريخ الكنيسة) فنقول: جاء فى الكتاب المذكور الذى ألفه أحد رهبان دير السيدة برموس فى برية أنبا مقاريوس الطبعة الأولى بالمطبعة الأميرية ببولاق مصر القاهرة سنة ١٨٨٣ هدية للأب الكلى الوقار (أنبايوانس) مطران البحيرة ووكيل الكرازه المرقسية صفحة ١٦٢ ومابعدها مانصه:

فى أثناء القرن الثالث للمسيح أى فى أواخره أن (بولس السائح) قد انفرد للوحدة وانقطع للعبادة منذ صغره: فكان قدوة بفضائله للأولين والآخرين، وقد ارتشد منه القديس (أنطونيوس) مقتفيا أثره ومنتهجا منهجه الصارم لما كشفه وهو مختف فى مغارة، وبيان ذلك أن القديس أنطونوس اختلجه فكر العظمة ظانا أنه هو أول من سلك طريق الرهبنة منفردا للعبادة والنسك فى البرية، فتداركته نعمة الله باعلان إلهى بأن فى البرية رجلا أقدم منه زمنا، وأفضل قداسة، فأخذ عكازه وخرج يطوف فى البرية قاصدا مكان عبده، وبعد ماسار يوما بتمامه ولم يجد أثرا يدل عليه قام مصليا الليل أجمع مستمدا الارشاد من البارى ثم أخذ يطوف فى اليوم الثانى، فرأى غروبا ذئبة صاعدة إلى جبل، فتعقب أثرها ولم يدعها حتى خيم الظلام، فتركها ومال إلى مغارة يريد أن يبيت فيها، وبينما هو سائر فى الظلام دنا من النور فشعر به القديس بولس، فأسرع وأغلق دونه الباب، فلما وصل إليه جثا على الأرض باكيا وصارخا، إنى لواثق بأنك تعلم من أنا، ومن أين جئت، ولماذا أتيت؟ ولا يخفى عليك أنى لا أخرج من هنا أو أبصرك، فهل يمكنك ياذا الذى يقبل الحيوانات أن تطرد الإنسان، إنى طلبتك وقد وجدتك، وقد قرعت بابك لتفتح لى فإن لم تقبل فإنى أموت هنا. فأقل مايكون أنك تجدنى بعد موتى، ففتح له الباب. وعانق كل صاحبه مسلما عليه بفمه، فقال له القديس بولس: أبصر الآن من فتشت عنه بعناية عظيمة، فترى أعضائى قد وهنت

من الشيخوخة ، وقد ابيضت لحيتي كلها ، وجف جلدي ، فانظر إنسانا يرتد إلى الرماد سريعا قد تكبدت كثيرا بالاستقصاء عني ، فأخبرني عن حال العالم من بعدي ، وهل يوجد من يعبد الشيطان فيه ؟ فأجاب أنطونيوس على ذلك بالتفصيل . ثم سأله عن السبب الذي أحضره إلى ذلك المكان ، فأجابه القديس بولس قائلا : إنه بينما كان الملك (ديسيوس) يفتك بنصارى مصر والصعيد حيث ولدت مات والدي إذ كان عمري ١٢ سنة ، فدخلت مدارس الفلاسفة ، وحرزت علوما وافرة ، فلما اشتدت المصائب على المؤمنين انفردت في منزل كان لي بين مزارعي ، فعرض لي خطر عظيم ، وذلك أن زوج أختي قام علي ورام أن يختلس أموالي أو يشكوني إلى الوالي بأني مسيحي ، وكنت سمعت بأن هذا الوالي أرسل إلى كل مكان رسلا يفحصون عن المسيحيين ليعذبهم . أو ينكروا المسيحية فهربت إلى هذه البرية وتخلصت من خبث خصمي ، وبينما كنا نتفاوض طار إلينا غراب حاملا في منقاره رغيفا وتركه بين أيدينا وطار ، فقال القديس بولس مبارك الرب الذي أرسل إلينا مأكلا ، فاعلم يا أخي أن منذ ستين سنة يأتيني هذا الغراب كل يوم بنصف رغيف واليوم أتى برغيف كامل من أجلك ، فشكرا لله الذي يهتم بقديسه ، ثم صرفنا الليل كله في الصلاة ، وفي الغد استدعاني وقال لي : أنا عرفت منذ زمان أنك مستوطن هذه البرية ، وقد وعدني الله بأنك مزمع أن تزورني وتواريني التراب . وقد وافى الوقت الذي فيه أفارق هذا الجسد البالي ، وأنطلق إلى الرب فأطلب إليك أن تعود إلى ديرك وتأتيني بالرداء الذي أعطاه لك أثناسيوس لتكفنني به ، فبدأت أذرف الدموع متأسفا ، وطلبت أن لا يفارقني قبل أن يلتمس من المسيح أن أنطلق معه ، فقال لي : يجب أن تمكث مدة من أجل خير إخوانك ، ثم أخبرني عن مستقبل مجد الرهبنة وفضلها ، فودعته وعدت مسرعا إلى ديري . ولما صادفت اثنين من الرهبان وسألاني عن سبب غيابي لم أجبهما بكلمة ، بل قلت لهما إنني رجل خاطىء لا أستحق أن أسمي راهبا (للكلام وقت ، وللصمت وقت) ثم أخذت ذلك الرداء ، ورجعت إلى حيث القديس راجيا أن أعاينه وهو حي ، فلما لم يبق إلا مسافة قليلة أبصرت جوقا من الملائكة يرتلون وبينهم نفس البار (القديس بولس) فحزنت وبكيت بكاء مرا ، ولما دخلت المغارة وجدت جسده جالسا جاثيا على ركبتيه ورأسه مستقيما ، ويديه مرتفعتين ، فظننت أنه حي ، فجثوت أصلي بقربه ، ولما نظرت أنه لم يتنهد كعادته في الصلاة ، تفرست فيه جيدا فتأكدت أنه توفي ، فوثبت على جسده أقبله ذارفا الدموع ، ثم كفنته بذلك الرداء ، وفيما أنا مفكر في كيف أنا أدفنه إذلم يكن معي آلة أحفر بها حفرة ساق الله لي أسدين وبدآ يحفران في الأرض حتى أكملا قبرا ، وجثيا أمامي كأنهما يطلبان إذنا للانصراف ، فأشرت لهما بيدي ، ثم واريت الجسد في التراب ، وأخذت ثوبه المنسوج من الخوص ، وعدت به إلى ديري ، وكنت ألبسه في الأعياد الإلهية» انتهى .

هذا هو الذي نقلته من ذلك الكتاب ، أنا أكتب هذا وأنا في غاية العجب ، هذا كتاب لم يظهر إلا في هذه الأيام ، والمسيحيون في مصر لم يعلموا به إلا في هذه الأيام ، والسبب في نقل هذه الرواية على علاتها أني كنت اطلعت في بعض الجرائد على مقالة لمسيحي مصري يقول : «الرهبانية مبتدعة وليست من أصل الدين» وما كنا نعلم ذلك من قبل ظهور قصة القديس بولس الذي عثر عليه أنطونيوس في كتاب الجريدة المذكور فقلت في نفسي عجب ! يقول الله «ورهبانية ابتدعوها» وجميع المسيحيين لم يعلموا أنها مبتدعة إلا في هذه السنة لما عثروا على تاريخ (القديس بولس) الذي ظلمه الملك بمصر ، وقلت في نفسي لا بد من البحث على هذا الكتاب ، فاهتديت إليه ، ونقلت منه العبارة بنصها وها أنا ذا قرأتها وعرفتها .

أقول : أفي يقظة أنا أم في منام . هذه معجزة تفوق جميع المعجزات النبوية الإسلامية ، هذا الابتداع

للرهبانية لايعلمه المسلمون إلا إيمانا بالقرآن ، أما اليقين فهو محتاج إلى العلم ولا علم عندنا ، وإذا كان المسيحيون أنفسهم لا يعلمون فمن الذى يعلم منا إلا بالسماع من القرآن ، إنى أحمد الله إذ وفقت لهذه النعمة وهى المعجزة الكبرى للإسلام والقرآن ، وهل لك أن أسمعك ماجاء فى الآثار ، فقد ورد عن ابن مسعود أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكر أن طائفة لم يستطيعوا القيام مع الملوك الذين ظلموهم لأجل إقامتهم على دين المسيح فساحوا فى البلاد ، وترهبوا ، وهم الذين قال الله فيهم : «ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم» .

وقال أيضا : « كنت رديف رسول الله صلى الله عليه وسلم على حمار وذكر نحو هذا ، ومنه : فتفرقوا فى غيران الجبال وأحدثوا الرهبانية ، ثم قال صلى الله عليه وسلم «رهبانية هذه الأمة الجهاد فى سبيل الله» وقال ابن عباس (كانت ملوك بعد عيسى عليه السلام بدلوا التوراة والإنجيل ، وأطال فى ذلك إلى أن قال فجعل الرجل يقول نسكون فى مكان كذا نتعبد كما تعبد فلان ، ونسيح كما ساح فلان ، ونتخذ دورا كما اتخذ فلان إلى أن قال : فذلك قول الله «ورهبانية ابتدعوها» أى ابتدعها الصالحون منهم والذين جاءوا بعد الصالحين «مارعوها حق رعايتها فآتينا الذين آمنوا منهم أجرهم» وهم الصالحون المبتدعون « وكثير منهم فاسقون » أى الذين جاءوا بعدهم انتهى ملخصا :

وإنى ليأخذنى العجب كل مأخذ أن أجد ابن عباس والآثار والأحاديث كلها تنحو منحى قصة بولس وأنطونيوس ونحوهما ، فذكر النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه اضطهاد الملك والسياحة فى البرية والمغاور والخوف من الملوك والضلالة من اتباعهم فى عدم الرعاية أمر عظيم ، والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات وهذا من أعظم توفيق فى هذا التفسير من الله عز وجل ، وإلى هنا تم الكلام على قوله تعالى : «ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم» والحمد لله رب العالمين :

اللطائف العامة فى هذه السورة[1]

(١) فى قوله تعالى : «سبح لله» :
(٢) فى قوله تعالى : «يعلم مايلج فى الأرض وما يخرج منها» .
(٣) فى قوله تعالى : «اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو» .
(٤) فى قوله تعالى : «ماأصاب من مصيبة» .

اللطيفة الأولى فى قوله تعالى :

(سبح لله مافى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم له ملك السموات والأرض
يحيى ويميت وهو على كل شىء قدير) الآيات

حضر صديق العالم الذى اعتاد محادثتى فى هذا التفسير فقال : نحن نسبح الله ويسبحه مافى السموات والأرض ، فهو منزه فى ذاته وصفاته وأفعاله ، فأذكرك الآن بسؤال وجهته لك فى (سورة النجم) تحت عنوان (لطيفة فى قوله تعالى : وأنه هو أضحك وأبكى ، وأنه هو أمات وأحيا ، وأنه خلق الزوجين الذكر

(١) يقول المؤلف : هذه اللطائف لم يكن لها وجود عند التأليف ولم يفتح الله بها إلا عند تقديم هذه السورة للطبع .

والأنثى ، من نطفة إذا تمنى ، وأن عليه النشأة الأخرى ، وأنه هو أغنى وأقنى ، وأنه هو رب الشعرى وأنه أهلك عادا الأولى ، وثمود فما أبقى ، وقوم نوح من قبل إنهم كانوا هم أظلم وأطغى ، والمؤتفكة أهوى ، فغشاها ما غشى ، فبأى آلاء ربك تتمارى) فقد قلت لك ما نصه :

الله أضحك وأبكى ، الله أمات وأحيا ، الله أهلك عادا ، الله أهلك ثمودا ، وقوم نوح ، وأهوى المؤتفكة وانتهت الآية . إن هذه آلاء الله . الآلاء النعم . أمن النعم أن يبلى العيون ويهلك الأمم ؟ نعم هذا السؤال ورد كثيرا فى هذا التفسير ، وكثرت الإجابة عليه ، ولكن النفس لاتزال تطالب بالمزيد لحدثنى . أليس الله أرحم الراحمين؟ أليس الله قدوة لنا فى أفعاله ؟ الله أهلك أمما وأبكى عيونا . وإذا قتل أحدنا إنسانا عمدا دخل جهنم . الله يهلك أمما . الله يسلط الميكروب على الأمم فيهلكها . ويسلط الأمم القوية على الضعيفة فتذلها . الله يسلط الوحوش على آكلات الحشائش فتأكلها ، كل هذا فعل الله ، لأن هذا نظامه ، ثم تشريعه لنا على خلاف ذلك ، فنحن بقتلنا إنسانا عمدا نعذب فى جهنم يوم القيامة ، وتحكم شريعتنا علينا بالقتل ؟ وإذا كان الله أرحم الراحمين هذا فعله فكيف بنا نحن الضعاف فى الأرض ؟ هذه المعانى تتردد فى نفسى صباحا ومساء . وكل ماجاء فى هذا التفسير من الأجوبة فيما مضى فإنما هى أجوبة جزئية ، والجزئيات لا تغنى عن الكليات . فأنا الساعة يوم الأربعاء ١٢ رمضان سنة ١٣٥٠ هجرية ـ ٢٠ يناير سنة ١٩٣٢ م أريد إجابة شاملة كاملة حتى لا أحتاج إلى سؤال بعدها فى هذا الشأن . فقلت : ماذا تقول فى آية : «لا يسأل عما يفعل وهم يسألون» . فقال : وماذا تقول فى آية : «شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائما بالقسط» فنحن الآن فى مقام السير فى طريق أولى العلم الذين يشهدون ببصائرهم أن صانع العالم قائم فى عمله بالقسط والعدل ، نريد أن نشهد ونحن فى الأرض كيف كان الله قائما بالقسط فى تدبير الخلق وفوق ذلك نريد أن نفهم كيف يمكن الجمع بين هذا الإهلاك والابكاء والتدمير وإبادة الأمم وإذلالها وبين اسمه (الودود) . ألم يقل الله «وهو الغفور الودود ، ذو العرش المجيد ، فعال لما يريد» ولا جرم أن الودود يفعل مايريد ، ولكن هل يلقى وده إليهم ، ويكون فعله محبوبا ، لأنه أتى على سبيل المحبة ، وهو إهلاك المدن وإزالة الدول ، وإبكاء العيون ، أيكون ذلك ودا ؟ وأيضا جاء فى القرآن آيات فى سور كثيرة كلها دالة على تنزيهه فى ذاته وصفاته وأفعاله . وذلك بصفة التسبيح ، والتسبيح تنزيه ، وهذا المعنى جاء مصدرا وفعلا ماضيا وفعلا مضارعا وأمرا مثل : «سبحان الذى أسرى بعبده ليلا ، وسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون» وفى سورة النجم ، وفى آخر السورة قبلها : «ومن الليل فسبحه وإدبار النجوم» وكذلك فى (سورة الحديد) «سبح لله مافى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم» ذكر الإحياء والإماتة ، وفى آخر سورة الحشر (يسبح له ما فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم) وفى آخر (سورة المجادلة) رضى الله عنهم ورضوا عنه » .

إن رضا العبد عن ربه، وتنزيهه وحبه ووده يعوزه الاطلاع على جمال الأفعال ، والأفعال الإلهية المذكورة مشكلة مع أوصاف الحب والود والرضا الخ فأرجو الإجابة على هذا حتى لا أعود إلى السؤال كرة أخرى . فقلت : سأوضح الكلام فى هذه اللطيفة إن شاء الله تعالى فى هذه المعانى ، وهنالك تتجلى المعانى التى تريدها وإن كان أكثر ما سأقصه عليك هنا قد مضى كثير منه متفرقا فيما مضى من التفسير وسأشرح :

(١) النظام التكوينى .
(٢) والنظام التشريعى وأنهما متفقان .
(٣) وأبين درجات التربية الست .
(٤) تربية الأم لولدها .

(٥) وتربية الأب له .
(٦) وتربية المعلم .
(٧) وتربية الحكومة للأفراد مع مايتبع ذلك من نظام الجندية .
(٨) والتربية الإلهية وأنواع الزلازل والحوادث العظيمة .
(٩) وأن الأم حين تمنع ولدها مايضره وهو يبكى لم يمنع ذلك حبها له ، وقد ضربت مثلا لدرجات التربية التى بعدها وبمقدار ازدياد العلم تعرف حقائق تلك التربية ويزداد الحب للمربى .
(١٠) وبيان أن العلم إما بهيئة سطحية كعلم الشعراء والأدباء . وإما بهيئة حكمية فلسفية عالية كعلم الحكماء ، وإيضاح ذلك وتفصيله من كلام (كونفوشيوس) فيلسوف الصين الذى توفى فى القرن الرابع قبل الميلاد .
(١١) ثم بيان أن الحب على مقدار العلم .
(١٢) بيان أن الله توارى عنا بحجبه . ولكنه قذف لنا كرات جميلة لا حصر لعددها وهى الشموس والكواكب، وهو يقربها ويبعدها ليجذبنا إلى حضرته، وجعل الشطرنج والنرد عند اللاعبين مثلا لذلك كما جعل الجمال والحب الأدنيين مثلين لجماله وحبه الأعليين ، وصنع للناس فى الأرض عجائب لولا حوادث الموت والحياة ومزعجات الليالى لذهلت عقولهم، فمن سرج تجرى فى سقف مرفوع تدور حولهم . ومن حدائق وحقول حولهم ومناظر بهجات. وتارة يرسل لهم شهبا تقترب من أرضهم ليوقظهم إلى العلا، ونسبة هذه الأعاجيب إلى صانعها كنسبة صفات الكرة والصولجان والنرد والشطرنج إلى مخترعيها ، والتعجب يكون على مقدار إتقان الصنعة .

هذا ما سأذكره هنا قريبا إن شاء الله مع شذرات فى الآيات التى ذكرتها أيها الأخ الذكى ، فلما سمع ذلك قال : إن هذا لعجب! وإنى لفى غاية الشوق إلى ماوصفت، وها نحن أولاء وصلنا بعناية الله فى التفسير إلى المقام الذى وعدتنى أن تجيبنى فيه . فقلت : ها أناذا أفى بعهدى الآن والله هو الموفق .

أيها الأخ الذكى : مدار سؤالك على أن حب الله ووده وتنزيهه وعدله متوقفات كلها على إدراك مقاصد أفعاله ، فلأجعل هذا المقام فى اثنى عشر فصلا مرتبات على مقتضى السؤال :

الفصل الأول فى النظام التكوينى

اعلم أيها الأخ الذكى أن نظام التكوين مهما قلبنا طرفنا فيه لا نجد فيه إلا مقاصد الإصلاح والبقاء، وكل هدم وتخريب وإهلاك فإنه موجه إلى الإصلاح ، خذ لك مثلا : هذه العوالم حولنا ، تراها فى تغير مستمر ، وهذا التغير منشؤه كله أن المادة لن تقبل إلا صورة وراء صورة فليست كعقولنا التى هى أشرف منها وأرقى، إن عقولنا تسع مالا حد له من الصور والعلوم فى آن واحد، ولكن هذه المادة التى جعلت لخدمة عقولنا لن تقبل إلا صورا وراء صور، وصانع العالم يعلم صورا من الوجود لاحد لها، وهذه الصور بحسب الرحمة العامة لابد من وجودها، ولكن وجودها يستحيل أن يكون فى آن واحد، فلامحيص إذن من شتاء وصيف وموت وحياة، وهكذا جميع المتناقضات، ولامفر إذن من زلازل وبراكين لإحداث تربة جديدة ، ولامحيص من موت الأحياء لتلبس أجسامهم صورا جديدة لأرواح حديثة ترسل إلى الأرض ، وهكذا كل حيوان وكل نبات ، فالعقل بهذا البرهان يقضى أن تتعاقب الصور على هذه المادة ، وأن هذا عدل وخلافه

ظلم ، وأيضا الحياة فى هذه المادة فيها شقاء ، فلابد من عروج هذه النفوس إلى عالم الأرواح لتستريح من هذا الشقاء .

فلئن رأينا موتا وحياة فذلك عدل وسواء ظلم بهذا البرهان ، وكل ماتفرع على هذه القاعدة تابع لها ، فمن فروعها عوالم الحيوانات الذرية التى تسمى بالميكروبات ، تلك العوالم التى أعدت لإبادة أمم وأمم من الحيوان والإنسان . ومن فروعها عوالم الطيور الكواسر فى الجو ، والوحوش والسباع فى الخلاء ، والحر والبرد المفرطان المهلكان بعض الحيوان ، وعوالم الأمراض القاتلات ، وعوامل الجيوش الإنسانية الفاتكة بجيوش أخرى من بنى آدم فوق الأرض كما فى الحرب الكبرى المبتدئة سنة ١٩١٤ م المنتهية سنة ١٩١٨ م فهذه كلها من النظام التكوينى ، وصانع العالم كما ألهم الحيوانات الذرية أن تفتك بالإنسان والحيوان ألهم الجيوش الإنسانية فى الأمم التى تسمي نفسها (متمدينة) بإهلاك جيوش أخرى ، وعلمهم اختراع المهلكات والمدمرات لإبادة إخوانهم ، كل هذه أفعال صادرات عن نفوس ، تلك النفوس مخلوقة لصانع هذا العالم الذى صنعها وصنع نفوس الوحوش والأسود ، فهذه الفروع كلها ترجع للأصل الذى قررناه وهو أن المادة لاتسع إلا صورة وراء صورة ، فلابد من تلاحق هذه الصور ، وكل مارأيناه من هذه الأعمال تنوعات ترجع لذلك الأصل ، إذن أيها الصديق نظام التكوين معقول ومقبول . انتهى الفصل الأول .

الفصل الثانى : فى النظام التشريعى

ولا جرم أننا إذا أقررنا النظام التكوينى السابق فليس معناه أن نجعل النظام التشريعى على مقتضاه . كلا بل التشريع شىء والتكوين شىء آخر ، فقال صاحبى : أليس الأمران من صانع واحد ؟ فقلت نعم ولكن الصانع ميز عالم الإنسان عن هذه العوالم التى حوله كلها من شموس وكواكب وحيوان ، أعطاه قوة عقلية وقال له : أنا وضعتك هنا بين المتناقضات ، ووهبتك قوة فاستعملها ، وإياك ثم إياك أن تحتج بأنى خلقتك ، فلك قوة تمييز فاعمل بها ، فإذا قتل الإنسان إنسانا عمدا وقال لصانع العالم إنك أنت تقتل الألوف والألوف ، وتهدم المدن ، وأنا يارب ما قتلت إلا واحدا أو مائة ؛ فأنا أفعل ماتفعله السباع فى البرية ، وماتصنعه الكواسر فى الجو ، وما تصنعه الحيوانات الذرية من إهلاك الناس ، فهبنى يارب ميكروبات ، أو فهبنى يارب من كواسر الطيور ، أو من أسد البرية ، أوهبنى جنديا من جنود أمة من الأمم تغزو أمة أخرى فإنك سلطتها على غيرها فتبيد منها جنودا وجنودا ، وقد قضى نظام تكوينك أن تلبس المادة صورة وتخلع أخرى ، وأنا من الذين ساعدوا فى ذلك ، فهل على من سبيل ؟ .

إذا قال الإنسان ذلك لصانع العالم يقول له مجيبا : أيها الإنسان ، هذه الكواسر والسباع وحيوان الميكروب القاتلات كلها مسخرات بأمرى ، لها غرائز قضت عليها بذلك ، ولا حياة لها إلا به ، فلم يكن مقصدها الإهلاك والتدمير ، وإنما غرائزها موجهات لما خلقت له ، فهى أشبه بالحر والبرد والزلازل ، فلا مقاصد شريرة هنا ، فالحر والبرد لا إدراك لهما ، وكذا الزلازل ، وهذه الحيوانات مرغمات على ذلك أما أنت وإن كنت مثلها فى أنك مساعد على أن تلبس المادة صورة غير الصورة التى تلبسها ؛ فتخلع قديما وتلبس حديثا ، فإن عملك عمل موجه لفكرة جزئية وهى فكرة الانتقام ، وإما كراهة فى المقتول ، وإما أن تفعل ذلك لنا كل ثمرات كسبه ، والأمور بمقاصدها ، فإذا فعلنا الإهلاك والتدمير فى أرضنا فذلك قام عليه البرهان السابق الذى لا مناقض ولامناهض له ؛ لأننا نريد الإصلاح العام ، فأما أنت فلم ترد بعملك الإصلاح العام ، وإنما أنت أردت شهوة خاصة وهو إشباع قوتك الغضبية انتقاما ، أو إشباع شهوتك البهيمية اغتناما لمال المقتول وفرق بين عملنا وعملك ، فلوجود هذه القوة فيك أصبحت بها مسئولا أمامنا ، نعم أنت بقتلك إنسانا ، فعلت مانفعله نحن بحسب الظاهر ، ولكن ليس المدار على الفعل بل على الباعث عليه ، وباعثك شهوتك

وغضبك

وغضبك وباعث فعلنا رحمة عامة موجهة للمجموع ، وقد تفرع عن هذه الرحمة كل ماحولكم مما اشتبه عليكم ولعلك بهذا تفهم قولنا فى الكتاب الكريم «فلله الحجة البالغة» فهذه من حججنا البالغة التى ادخرناها فى عوالمنا لتظهر للعقول الكبيرة فى أرضكم ، انتهى .

أقول : هذا هو الجواب الذى خطر لى اليوم ، الموجه من جناب صانع العالم إلى عبد من عباده يسأله السؤال المتقدم ، كتبته اليوم صباح الجمعة ١٦ رمضان سنة ١٣٥٠ هجرية — ٢٢ يناير سنة ١٩٣٢ م

وعلى هذا يتفرع أن قتل الخطأ لاقتل فيه ؛ وإنما فيه الدية ، وبه يظهر معنى « متعمدا » فى الآية . وإلى هنا تم الكلام على الفصل الثانى ، والحمد لله رب العالمين .

الفصل الثالث : فى ذكر الآلام التى تحيق بالإنسان

فقال صاحبى : هذا الجواب جميل وبهيج وحسن ، ولكنى أريد أن أتبين وجوه تلك الآلام التى تعترينا وما وجه الحكمة فيها ؟ فقلت : لقد شرحت هذا فى التفسير فى مواضع كثيرة جدا ، لاسيما فى تفسير البسملة التى تكررت هى وتفسيرها فى كل سورة . فقال : ولكننا نريد أن نعرف هنا معرفة عامة . فقلت :

الفصل الرابع : أول مثل ضربه الله لفعله فى خلقه هو فعل الأم فى طفلها

معلوم مما تقدم أن الأم أكثر الناس عطفا على ولدها ، ولكنها قد تجرعه الدواء ، وتلبسه اللباس ؛ وتغسل جسمه ؛ وهو كاره وكثير البكاء ، ولكن الأم لاتبالى بذلك كله ، بل تفعل المصلحة ولاتبالى بآلامه ، ولما كانت الأم أقل من المربين لولدها إدراكا ، تلقفه بعدها من هو أولى بتدريبه وتعليمه وتهذيبه منها ، وهو الأب المذكور فى :

الفصل الخامس

ذلك أن الأب يأخذه إلى الحقل ، أو إلى العمل ، أو إلى المدرسة ، ويحكم عليه بأن يعمل ويجد ، والأم غالبا تشفق عليه فى ذلك كله ، ولكن الأب لا يبالى بما يقاسيه ولده ، وهناك من هو أوسع علما من الأب ، وهو المذكور فى :

الفصل السادس

ألا وهو المعلم ، فيزيد فى تثقيفه وتعليمه ، وتدريبه ، وهذا يسلمه إلى الأمة ، وإلى الحكومة فى :

الفصل السابع

ذلك أن هناك ماهو أوسع مدى من الأم ومن عطف عليها حتى المعلم ، ذلك أن فى الأمة حكومة وقضاء والقضاء قد يحكم عليه بالتغريب ، أو الأشغال الشاقة ، لجرم ارتكبه ، فهاهنا رحمة أوسع من رحمة من تقدم ، ذلك أن الرحمة هنا شاملة لمجموع الأمة ، وهذا فرد منها ، وحياة الفرد لا قيمة لها إلا بحياة المجموع ، فإذا ظهر من الفرد ما يخل بحياة المجموع مرض المجتمع ، ويتبعه الأفراد ، وهذا واحد منهم ، فهذه رحمة أوسع ، وقد تجمع الأمة الجموع لحرب غيرها ، دفاعا عنها ، أو اغتيالا وظلما لها ، فالفرد

هنا مسير بقوة المجموع، ونيته هنا (وإن كانت تابعة للمجموع فى حال الاغتيال والظلم) موجه لعموم أمته لا له وحده، والقاتل لغيره عمدا أكثر إجراما من هذا وإن كان كلاهما مجرما، وهل هناك تربية فوق هذه إلا الآتية فى :

الفصل الثامن

فى التربية الإلهية التى لا تقف عند ما تقدمها، فهناك المصلحة العامة، فلتسكن الزلازل، ولتسكن البراكين ولتزل بلاد، ولتمت أهلها، وليكن وباء عام، ولتخسف أرضون، بل لتزل شمس؛ وأرض من لوح الوجود فهل هذه كلها إلا كموت زيد وولادة عمرو، القاعدة مطردة والفعل فى غاية النظام، والمثل لهذا كله ما فى :

الفصل التاسع

وهو ما نشاهده من رحمة الأم بولدها مع صبرها على بكائه عند إعطائه الدواء الذى أمرها به الطبيب، وهل بعد ما بيناه من درجات التربية من أدناها إلى أعلاها إلا أن تذكر فى :

الفصل العاشر

التربية العامة فى مدارس العالم الإنسانى قديما وحديثا؛ وإلى أى حد وصل هذا الإنسان؟
وهل الأولون والآخرون يرمون لغرض واحد؟ وما هو ذلك الغرض؟

فاعلم أيها الذكى أن التعليم إما ظاهري سطحى، وإما بهيئة حكمية عالية، فالأول كعلم الشعراء والأدباء والخطباء والوعاظ، ورجال الديانات فى الأرض، والثانى كعلم الحكماء، والفلاسفة، وهاهنا وصلنا إلى أبواب المحبة والجمال والسعادة، لا جمال ولا سعادة إلا بالحكمة، نعم الأم تربى، والأب والمعلم، والمدن تنظم ولكن المقصود من وجود هذه الأرواح الأرضية استنارتها وحبها ومعرفتها الجمال، ثم عروجها إلى أعلى، وذلك لم يكن، ولا يكون ولن يكون إلا بجد الإنسان نفسه ومحبته هو، إن مباحث الإنسان كلها موجهات إلى إدراك حقائق جميع الأشياء إجمالا وذلك من الحب والشغف الموجه للمعرفة، فلنذكر أولا أوصاف هذا الحب إجمالا، ثم نقفى على آثاره بوصف الشعراء له، ثم نتبعه بالآثار العالية للحب وهى الفلسفة، فهاهنا ثلاث جواهر:

الجوهرة الأولى فى وصف الحب

ولقد أعجبنى الموضوع الآتى فى وصفه

قال بعض الأدباء: «إن الإنسان الذى يبتغى أن يعيش بالسلام والهناء لا بدله من معرفة قواعد الحب كما يعرف قواعد الكيمياء مثلا، أو أنظمة البلاد التى يقيم فيها، وهى مسألة حياة أو موت، فليس الحب أعمى كما يزعم بعضهم، بل هو بعكس ذلك يعرف دون سواه أن يبصر الحقيقة، ولا يقتصر فى ذلك على العلاقات بين البشر، بل يتناول غير ذلك أيضا، فلماذا يعد (اديسن) فى مصاف الدهاة حينما يدور الكلام على اختراعاته على اختلاف أنواعها فقد يجاوب بعضهم على هذا السؤال بقوله: لأنه أوتى دهاء، وعلما. لاننفى

ماالدهاء والعلم من المقدرة ، ولكن الأمر الجوهرى الذى مهد له سبيل الوصول إلى أغراضه هو حبه للعمل فى مختبره ووقف نفسه عليه .

إن الذى لا يحب الخيل لا يستطيع أبدا قيادة الخيل ، إن الطاهى البارع هو الذى يسر فى مزاولة الطبخ إن القصصى القدير هو الذى يحب الأشخاص الذين يختلقهم محبة شديدة ، إن الممثل الممتاز هو الشديد الولوع بفنه ، والخطيب المصقع هو الذى يميل ميلا شديد إلى الفصاحة ، وليس فى العالم قوة أعظم من قوة الحب ، وليس فيه رؤيا جلية أجلى من الحب ، وليس فيه حكمة أسمى من الحب ؛ وليس فيه فضيلة دينية أفضل من الحب ، ولا يستطيع المعلم أن يعلم التلاميذ شيئا إذا لم يكن يحبهم ، ولا ينشأ عن المال خير دائم ، ولكن القلب المحب ينشأ عنه خير حقيقى أكبر مما ينشأ عن جميع هبات (كارنجى) و (روكفلر) .

الحب سر الأشياء واضحة أما عدم الاكتراث فيراها قاتمة ، وليس فى العالم سوى مأساة واحدة وهى فقد الحب ، والحب دون سواه مبدع أما البرودة فعقيمة ، وزعم (غوتى) أن (مفيستوفيليس) روح الشر هو تخيل محض وأنه لم يحب أحدا ، وقد جاء فى الإنجيل : إن الله محبة ، ولم تصنع الأرض إلا للذين يحبون ، أما الذين لا يحبون فمعدودون فى جملة الأموات وإن كانوا أحياء يرزقون ، وكانوا على سطحها يمرحون » انتهى ماأردته من جريدة الأهرام ، وبهذا تم الكلام على الجوهرة الأولى ، والحمد لله رب العالمين .

الجوهرة الثانية وهى طبقة الشعراء

فهل لك أن تسمع قصيدة بديعة لشاعر صينى يرثى نفسه قبل موته ، عاش سنة ٢٣٥٠ ق . م

جاء فى جريدة « الجهاد » يوم الإثنين ١٨ يناير سنة ١٩٣٢ — ١٠ رمضان سنة ١٣٥٠ هجرية مانصه بالحرف الواحد :

نشرت « البرلترتاجيلاط » ترجمة قصيدة بديعة عثر عليها المنقبون حديثا ، وقد كتبها يرثى بها نفسه الشاعر الصينى (تاوياغنج) الذى ولد فى سنة ٤٢٧ قبل الميلاد وتوفى فى سنة ٣٦٥ ق . م والقصيدة تدل على خيال بديع ، وزهد فى الحياة ، واحتقار لمتاع الدنيا ، وإليك ترجمتها :

« نحن فى الشهر الأخير من سنة (تنجماو) والبرد شديد ، والليل طويل ، كأنما لا آخر له ، والريح تعصف بقوة ، وطيور الليل تضرب بأجنحتها ، وترسل صراخها الثاقب . أما الأشجار فقد رأيتها فى النهار وقد ذبلت أوراقها ، وجفت غصونها ، ودب فيها الجفاف كما يدب الموت فى الحياة ، وها أناذا أتأهب لمغادرة دار الضيافة (الدنيا) التى عشت فيها غريبا وحيدا ، لكى أعود إلى الأبدية التى لا نهاية لها ، والتى هى موطنى الحقيقى ؛ سيبكى الذين عرفونى ، وسيتصدق أهلى بالنبيذ النقى ، والفاكهة الناضجة ، وسترقرق الدموع فى عيونهم فما أتعس الحياة .

أنتم يامن ستقرءون مرثيتى لنفسى ، إنكم وفرتم لأبدانكم كل أسباب النعمة ، أما أنا فولدت فقيرا . وعشت فقيرا ، وكنت دائما فى حاجة إلى الطعام ، وكانت شرايينى تنقصها الدماء . كنت فى الشتاء أرتدى ملابس الصيف ، ولكنى عشت سعيدا وأموت الآن سعيدا . ولطالما انحدرت إلى الغدير أملأ من مائه آنيتى وأعود منه مسرورا أغنى قصائدى وأردد مقطوعاتى .

كنت أختبئ تحت كومة من الأوراق الذابلة ، وأواصل الليل بالنهار فى نظم القصائد ، ومتى فرغت من قصيدة أخذت أغنيها كالبلبل الغرد ، أغنيها وأشتغل فى حديقتى ، والربيع يقبل وينقضى ، والخريف يأتى

تلو الخريف ، وأنا أزرع ؛ وأحصد ، وأنظم القصائد . كنت أجد فى القراءة ، والعزف على القيثار سرورا ليس بعده سرور ، وكنت فى الشتاء أبحث عن الشمس ، وفى الصبح أسبح فى ماء الغدير ، وكانت حياتى مجموعة من العمل الشاق ، ولكنى كنت سعيدا مرتاح البال : أقابل إرادة السماء بنفس طائعة مطمئنة وهأنذا أوشك أن أغادر الحياة كما دخلتها .

الناس يحبون الحياة ، ولديهم دائما أعمال ، يشفقون أن يخترمهم الموت قبل أن يفرغوا منها ، فهم عبيد الأيام والساعات وهم محبوبون طالما هم يعيشون ، ومتى طواهم الموت فقل أن يذكرهم أحد ، وإن ذكروا فبطيبة أو خبيثة ، أما أنا فأغادر الحياة وحيدا ، ولم أخلف فيها ماشرفنى أو يوصمنى ، وليس لى فيها ماأحرص عليه ، فأنا سعيد فى الحياة ، سعيد فى الممات ، وسيان عندى البقاء والعدم» انتهى ماجاء فى الجريدة المذكورة .

أقول : إنما اخترت هذا الشاعر لأنه من الأمور الغريبة لتوغله فى القدم ، فلتجز هذه الدرجة إلى ماهو أعلى منها وهى الآتية فى :

الجوهرة الثالثة: آثار الحب العالية وهى الفلسفة

فاعجب لحكمة الأمم المتوغلة فى القدم وهى التى سأذكرها لك الآن كيف اصطلحت واتفقت مع الحكم التى عرفتها أمم بعدها، ولا مواصلة بين الأولين والآخرين، فاعجب هنا من قصائد (المهابارانا) السنسكريتية ومعلوم أن (المهاباراتا) مجموعة علواءات ، أو قصائد حماسية ، تحوى أكثر من مائتى ألف بيت فى وصف الحروب القديمة ، ويقدرون أنها وضعت فى القرن الخامس عشر أو السادس عشر قبل المسيح ، فأصبحت وكأنها دائرة معارف لعلوم الحكمة البرهانية وتعاليمها ومنبع آداب وجمال لا ينضب :

ومن المجموعة الشعرية الأخرى التى تضارعها شهرة وأهمية هى (الرامايانا) فهذان الكتابان فى الهند بمثابة (الإلياذه) و (الأوديسا) فى بلاد اليونان ، ولئن نسب كتابا الأغريق إلى شاعر فرد هو (هوميرس) (رغم قول القائلين اليوم بأن هذا الشاعر لم يوجد أصلا) فإن شاعر (الرامايانا) يدعى فلميكى، أما علواءات (المهاباراتا) فتعرف باسم (فياسا) جامعها فقط ، إن المهاباراتا المذكورة تشمل قسما عظيما منها يختص باسم (البهجاوات جيتا) وهذه خاصة ترجمتها إلى الانجليزية السيدة (انى بزانت) فاطلع عليها قراء اللغة الانجليزية فى زماننا . ولقد وصفت (مسز بزانت) المذكورة هذه القصيدة التى ترجمتها إلى الإنجليزية قائلة ماملخصه : «بين التعاليم الثمينة المودعة فى (المهاباراتا) الكتاب الهندى العظيم ، ليس من تعليم أندر وأثمن من (البهجاوات جيتا) ومعناه «نشيد السيد» فمنذ أن أرسلت هذا النشيد الفخم شفتا (كريشنا) الإلهتان فى ميدان الوغى ليهدئ انفعالات تلميذه وصديقه (ارجونا) : كم من قلب هو ظمآن وشدد ، وكم من روح معذبة قد اقتاد اليه ؛ إنما الغرض منه رفع طالب الرفعة من أدنى دركات التضحية السطحية إلى أعلى المراتب حيث تتضاءل الرغبات ، وحيث يمكث الحكيم الصميم فى تأمل هادئ ، بينما جسده وعقله يقومان فى نشاط بالواجبات المنوطة به فى الحياة ، فالحكمة الحكيمة حقا لاتعنى انعزال الجانب الروحى من الإنسان ، بل توجب تحقيق اختباراته فى الأعمال الزمنية اليومية ، كائنة حقارتها ماكانت ، على أن يفكر المرء فى رقيه الخلقى والروحى . وعلى أن يعلم أن الحواجز القائمة دون ذلك الرقى ليست متأتية من الخارج . بل هى منبثقة من داخل النفس ، ولبلوغ الرفعة الروحية لابد من الحصول على كمية خاصة من التوازن والانسجام النفسى بحيث يصبح المرء غير متأثر بالمسرات والآلام ، بالشوق والنفور وغيره من الانفعالات المتناقضة المتعاقبة

فليتعلم القارئ، إذن فن ترويض نفسه على أن لاتجذبه الجواذب . ولا تزجره الزواجر . بل يستخلص من هذه وتلك دروسا تقوده وتهديه إلى أعلى المبادىء فى وسط المحن والغموم ، فيقوم بواجبه كله على أتم وجه ممكن لا لأنه ينتظر نتائج عمله بل لأن القيام بالواجب مفروض عليه . يعمل لأن فى العمل شرفا وترويضا وفائدة يعمل ليعمل ويزرع البذور دون أن ينتظر لنفسه جنى الثمار اه .

***

أنا اخترت نقل هذه القطعة من كلام هذه السكاتبة المترجمة معجبا بتعالم صدرت قبل الميلاد بنحو ١٦ قرنا ونار انبعثت من الوجدان الإنسانى العميق . ثم ظهرت الآن حديثا . فأدهشنا والله هذا القول أدهشنا لأننا نرى روح الانسان الوثابة لم تفتأ تجد . ولن تفتأ حتى تقرب من الحقيقة ، وهل الحقيقة التامة إلا أن أعمل حبا فى نفس العمل : نعم هو ذلك . فهاهنا يقول الله : «سبح لله مافى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم . له ملك السموات والأرض يحيى ويميت وهو على كل شىء قدير» . إن عمل الله موجه للمصالح العامة كما قدمناه . وكل من كان أقرب إلى نفس للصالح العامة بشوق فهو إلى الحكمة العليا أقرب ولن يبلغ هذه المرتبة أحد بمجرد القراءة . بل لابد من شعور يفيض من النفس بعد الإطلاع والتعمق . أما ظواهر العلم فلا تعطى هذا الشعور والإدراك الجيل . وقد آن أن أحدثك عن سير علم الحكمة فى العالم بعد ذلك التاريخ ولقد تقدم فى (سورة الحجرات) عند آية : «وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا» حكمة (كنفوشيوس) حكيم الصين المتوفى سنة ٣٧٨ ق م وأنه جعل نظامها هكذا :

(١) أولا مشاهدة الأشياء والأفعال المحيطة بنا .

(٢) ثانيا : متى كملت المعرفة خلصت الأفكار وتنزهت الأغراض .

(٣) ومتى تنزهت الأغراض تهذبت الأخلاق وتنقت النفوس .

(٤) ومتى تنقت النفوس انتظمت الأسر .

(٥) ومتى انتظمت الأسر انتظمت الدول .

(٦) ومتى انتظمت الدول أصبحت الأرض كلها تمرح فى السعادة والحبور :

هذا ملخص ماتقدم هناك وهو هنا أكثر وضوحا مع الاختصار ، اللهم إنك أنت العزيز الحكيم سبحت لك الأفلاك . سبح لك مافى السموات والأرض ، لأن كل مافيهما يرى لك عزة بها قهرت كل مادة فصارت مصوغة كما تريد وهذه الصياغة محكمة فأنت عزيز وأنت حكيم :

ينظر العقلاء فى سمواتك وأرضك فيرون مادة بلا نهاية يرونها . وحكمة فى تلك الصور لا حد لها ، ثم يرجعون إلى الحقائق والعقول فماذا يرون ؟ يرونك جعلت العقول المنقطعة التواصل . المتباعدة المناهج . المنفصلة المساكن . المتطاولة الأزمنة . ترمى لغرض واحد . وماهو هذا الغرض ؟ هو تسبيحك وتقديسك بحب وشوق وغرام لك وولوع .

يارباه : هاهى ذه (المهابارتا) باللغة السنسكريتية قبل ٣٥ قرنا وهى مائتا ألف بيت . هذه (الرامايانا) هاتان موسوعتان لعلوم أمم وأمم قبلنا. وهاهى ذه خلاصة من أولى المجموعتين . فكانت النتيجة نظرة عامة فى الوجود ، وحب لخالقه ، وصبر على السراء والضراء ، وذلك كله تابع للحب، وها هو ذا الشاعر الصينى منذ ٢٤ قرنا تراه يحوم حول هذا المعنى بدون تعمق ، وهاهو ذا فى نفس ذلك القرن الفيلسوف كنفوشيوس الصينى يلقى لنا درسا فى عدة أسطر ، فترى علم الفلسفة كلها ملخصة فيها ، فقد ذكر ظواهر الطبيعة التى تشمل الرياضيات والطبيعيات ، وانتقل إلى تهذيب النفس وآداب الأسرة ونظام الدولة .

هذا ملخص فلسفة الأمم الحديثة قد ظهرت عند الصين قبل الميلاد ، والترتيب هو نفس الترتيب ولما كانت فلسفة اليونان قد نقلت إلى علماء الاسكندرية ، وإلى الفرع الشامي والفرع الأثيني بعد الميلاد وأيام حكم الرومان قرءوا نفس هذه الفلسفة على هذا الأسلوب نفسه ، وانتقلت إلى المسلمين بنفس هذا الترتيب ، ظواهر الأشياء ، ثم معرفة الله ، تهذيب النفس ، ثم الأسرة الخ وهو نفس ماقاله كنفوشيوس الصيني ولما وصلت هذه الفلسفة إلى أوروبا وقرأها (بيكون) الانجليزى غير النظام ، ولكن الجوهر واحد، فقال أولا إن جميع العلوم نسميها تواريخ ، والتواريخ ترجع لقوة الذاكرة، فالذاكرة تذكرنا بالتاريخ البشرى والتاريخ الأثرى الذى جاء فى الديانات وبالتاريخ العلمى ، فنقول التاريخ الطبيعى والتاريخ الرياضى الخ وهاهنا يختص أناس بعد هذه العلوم بالبحث فى نظام الطبيعة ومعرفة الله ومعرفة النفس ، فهاهنا نظام عام فى مقابلة نظام أجسامنا الخاص، وهاهنا مدبر عام لهذا النظام فى مقابلة المدبر الخاص لأجسامنا وهى نفوسنا فكان علم النفس التى بها يعرف المنطق فعلم الجمال فنظام الأمة والأسرة والقوانين العامة ، إذن نظام الفلسفة الذى صوره (بيكون) هو نفس النظام القديم المنقول عن اليونان ؛ وهو هو ذلك الذى أجمله (كونفوشيوس) .

الله أكبر ؛ علم واحد ونظام واحد تهتدى به العقول قديما وحديثا . وتسمعك فى كتابك تقول : سبح لله مافى السموات والأرض فكان جميع المسلمين على نمط واحد ، وكيف لا يكونون على نمط واحد والمنبع واحد ، وكيف لا يكونون على نمط واحد ونحن نرى كنفوشيوس الصيني الذى بهر الصين بحكمته مغرما بك غرام كتاب (المهابارانا) ومافيه من (البهجاوات جيتا) الذى اتضح فيه معنى آية هى فى نفس سورة الحديد ، كتاب البهجاوات جيتا الذى ترجم إلى الانجليزية حديثا ، وقد ترجمته فتاة ، هذا الكتاب نتيجته قد ظهرت فى آية فى نفس هذه السورة ، أى سورة الحديد ، يقول الله : «اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر فى الأموال والأولاد كمثل غيث أعجب الكفار نباته ، ثم يهيج فتراه مصفرا ثم يكون حطاما وفى الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والأرض أعدت للذين آمنوا بالله ورسله ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم ، ماأصاب من مصيبة فى الأرض ولا فى أنفسكم إلا فى كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير ، لكيلا تأسوا على مافاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم والله لايحب كل مختال فخور» .

أفلا تعجب معى أيها الذكى المطلع على هذا التفسير ؛ فهل كان يدور بخلدى حينما ابتدأت فى كتابة تفسير (سورة الحديد) وأنا أرتب هذا الموضوع أن خلاصة مافى كتاب (البهجاوات جيتا) هى نفسها فى آية من هذه السورة ، إذ يقول تعالى : إن مايصيبكم أيها الناس قد كان عندى فى كتاب ، وانما أقص عليكم ذلك لأجل ألا تفرحوا ولا تحزنوا ، فإذا كان كل شىء مرتبا منظما عندى فماشأنكم أنتم ؟ وكيف تفرحون بشىء لا عمل لكم فيه ، أم كيف تحزنون على شىء فاتكم وأنا الذى قضيت بفواته لكم ، فلتكن حياتكم حياة تسليم فى كل وقت ، وقد ضربت لكم المثل المحسوس ، وهى الأم تستعذب العذاب فى سبيل مرضاة ابنها لأنها تحبه ، فالحب يجعل الصعب سهلا ، أحبت الأم ابنها فهى لا يهنأ لها طعام ولا شراب ولا حياة إلا بإرضائه وإسعاده .

هذا مثل مشاهد لآثار الحب ، وليست الفلسفة الملخصة من تاريخ علوم الأمم قديما وحديثا المعبر عن نتائجها بقوله تعالى : « سبح لله مافى السموات والأرض » الخ إلا نبراسا للحب : أى حب صانع العالم ، وحب نفس العالم من حيث نظامه ، وحب الناس وإسعادهم ، وهذا الحب نتائجه استعذاب العذاب فى سبيل انتهاج الخطة المثلى التى اختطها مبدع العالم من حيث المعرفة العامة وسعادة المجموع ، فإذا كانت الأم مغرمة

بابنها وهذا الغرام أنساها الآلام . فهكذا كان حكماء الأمم قديماً ، وهكذا سيكون حكماء هذه الأمة الإسلامية في مستقبل الزمان .

يا الله ؛ تقطعت قلوبنا أسى وحسرة على أمم الإسلام ، فأنلنا مانريد فوق ماأنلتنا ، يا الله : أنا لا أدرى وأنا أكتب هذا الموضوع بأى فكر أكتب ، أكاد أكون منفذا لفكر ليس لى .

تحدثا بنعمة الله ، جلست حين أردت الابتداء فى هذا الموضوع ، فرأيته موضوعا مشتتا غير منتظم وكل ماليس منتظما فليس يشوق لقراءته ، لأن الجمال يتبع النظام ، وماليس منتظما ليس بجميل ؛ هنالك ودعت القلم والقرطاس وقلت إلى الملتق ، ثم رأيت الشمس أمامى ضحى ، وقد تقدم فى هذا التفسير فى أول (سورة يونس) عند الكلام على الشمس وضيائها كيف نصح الأطباء بأن يجلس الإنسان فى الشمس عاريا ماعدا العورة شرعا ، وماعدا الرأس طبا ، ففعلت ذلك وبقيت فيها أتلقى أشعتها ، وأحمد خالقها ، الذى علمنا علما يجهله أكثر هذا النوع المتمدين الإنسانى ، الذى حرمت عاداته عليه أن تباشر أشعة الشمس جسمه وهى أكبر نعمة حظى بها النبات والحيوان ، وحرمها الإنسان لجهالته ، وبذر وأسرف فى الملابس جهلا وغرورا ، ورثها عن الآباء تقليدا ، وما أقبح التقليد ، فجلست نحو ساعتين ، وفى أثناء ذلك كنت أحس بسعادة ، لأنى تلقيت أشعة الشمس ولو قليلا من ساعات النهار ؛ وما كدت أقوم من مجلسى حتى رأيت فى نفسى عجبا ، رأيت هذا الموضوع المتشعب قد رتب اثنى عشر فصلا منظمة مرتبة ، فلم يسعنى إلا أن قمت من فورى وقيدت الفصول التى أسمعتها لك قريبا ، وأخذت أشرحها ؛ وهذا تمام الفصل العاشر منها .

الفصل الحادى عشر : فى بيان أن الحب على مقدور العلم

إن هذا المقام ظاهر فى كثير من مواضيع هذا التفسير ، ولكن نذكر هنا جملة وجيزة تناسب هذا المقام ، الأمم تسبح ربها ، وما فى السموات والأرض يسبح لله ، وفلاسفة الصين واليونان والعوالم كلها تسبح له . والتسبيح ذكر ، والذكر يتبعه الفكر ، ألم تر إلى قول الله تعالى : «الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السموات والأرض» الخ والتفكر يوجب المعرفة والمعرفة يتبعها الحب .

الأعمى لا يحب الصورة الجميلة لأجل جمالها ، لأنه لم يعرف . هكذا عمى القلوب لا يعرفون جمال هذه الدنيا . لأن عيون قلوبهم لم تشاهدها ، وهذا باب واسع لا آخر له ، وانظر آخر حديث فى البخارى قال حدثنى أحمد بن إشكاب حدثنا محمد بن فضيل عن عمارة بن القعقاع عن أبى زرعة عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال النبى صلى الله عليه وسلم : «كلمتان حبيبتان إلى الرحمن ، خفيفتان على اللسان ، ثقيلتان فى الميزان سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم» اهـ .

فهاتان الكلمتان الخفيفتان على اللسان هما التسبيح المقرون بالحمد تارة وبعظمة الله أخرى الله أكبر . نطق اللسان بها وهى سهلة عليه ، ولكن الميزان بها ثقيل ، وهل يثقل الميزان إلا بما أودع فى التسبيح من العلوم التى يعقلها الإنسان . وهل لعلوم التسبيح آخر ؟ أليس له ملك السموات والأرض ، أليس يحيى ويميت ، وهو الأول والآخر والظاهر والباطن الخ . كل هذه مقرونة بالتربية ، وهذه يعوزها علوم وعلوم ، وعلى مقدار الغرام بالعلم والوصول للحقائق يثقل الميزان ، وإذا لم نحس فى أنفسنا فى الحياة الدنيا بهجة العلم وارتقاء النفس به والابتهاج بآثاره فلاوزن فى الآخرة ، إن الميزان فى الآخرة على مقدار ما حصلنا فى الدنيا فإن كنا من العباد ، فالميزان على مقدار إحساسنا بآثارها ، وإن كنا من المفكرين فعلى مقدار علومنا

وتأثرنا بها يزداد ميزاننا رجحانا « إن ربى على صراط مستقيم » . انتهى الكلام على الفصل الحادى عشر والحمد لله رب العالمين .

الفصل الثانى عشر

فى أن الله عز وجل توارى عنا بحجبه ، ولكنه قذف لنا كرات لا حصر لعددها ؛ وهى الشموس والكواكب ؛ وهو يقربها ويبعدها ليجذبنا إلى حضرته العلية ، وجعل الشطرنج والنرد عند اللاعبين مثلا لذلك كما جعل الجمال والحب الأدنيين مثلين لجماله وحبه الأعليين

وضع الله للناس فى الأرض عجائب لولا حوادث الموت والحياة ومزعجات الليالى لذهلت عقولهم ، فمن سرج تجرى فى سقف مرفوع تدور حولهم ، ومن حدائق وحقول تحيط بهم ، ومناظر بهجات ، ولم يكتف بتلك الكرات البعيدة الجميلة ، بل أرسل لهم شهبا تقترب من أرضهم ليوقظهم إلى العلا ، كأنه يقول : هذه نموذج للشموس والكواكب ، ونسبة هذه إلى صانعها كنسبة صفات الكرة والصولجان والنرد والشطرنج إلى مخترعها ، أو كنسبة آلات النور وآلات الصوت إلى مخترعها ، وهو (إديسون) فى زماننا .

الله أكبر : صنع العبد بالنسبة لصنع صانعه أقل بما لا حد له من عمل الأطفال وهم يركبون العيدان ويجرون فى الطرقات بالنسبة لآبائهم وهم يركبون الجمال والخيل . جل الله : أين نحن من عجائب مدهشات أشار لها الله تبارك وتعالى هنا فى هذه الآيات فقال إنه له ملك السموات والأرض وإنه يحيى ويميت وإنه على كل شىء قدير الخ فما هو هذا الملك ؟ هذا الملك منه شمسنا ، منه مجرتنا ، مجرتنا التى يقول (سيرز) (وهو أحد علماء مرصد جبل (ولسن) إن فيها ٣٠ ألف مليون نجم ، ويقول (نتايلى) وهو أحد أساتذة الفلك فى (هارفرد) إنها مائة ألف مليون نجم ، ويبلغ قطع المجرة الأطول ٢٢٠٫٠٠٠ سنة ضوئية ، وهى المسافة التى يقطعها الضوء فى ٢٢٠٫٠٠٠ سنة بسرعة ١٨٦٠٠٠ ميل فى الثانية الواحدة ، هذه مجرة واحدة ، أو هذه جزيرة واحدة من الجزائر التى خلقها الله فى هذا البحر الواسع ذلك البحر الذى امتلأ بمادة ليست ماء ولكنها أمر أشبه بخيالنا سموه الأثير ، تبارك الله رب العالمين .

فهذه الجزيرة التى سميناها مجرة فيها شموس كشمسنا أو أعظم بما لا حد له ، وعدد الشموس من ٣٠ ألف مليون شمس إلى مائة ألف مليون شمس ، فهذه الجزيرة الواحدة لها أخوات فما عدد هذه الأخوات يا ترى ؟ عدد ما يمكن معرفته منها مليونان (كما يقوله هبل أحد علماء مرصد جبل ولسن) على اعتبار أن تلسكوب المرصد المذكور فى الوقت الحاضر ١٠٠ بوصة ، وكل واحد من هذه الجزائر التى سميناها مجرات يبعد عن الآخر مليونى سنة ضوئية ، وأبعدها عنا يبعد ١٤٠ مليون سنة ضوئية ، ومتى تم بناء التلسكوب الجديد الذى سيكون قطر مرآته ٢٠٠ بوصة يتمكن الراصدون من الوصول به إلى ١٦ مليون مجرة من هذه المجرات بدلا من مليونين ، والمجرة الواحدة من هذه الستة عشرة مليون فيها مادة تكفى أن يكون منها نحو ألفى مليون نجم .

هذه آراء علماء الفلك فى معرفة ملك الله (وبعبارة أخرى) هذا آخر ما يفهمه النوع الإنسانى فى تفسير قوله تعالى : « له ملك السموات والأرض » فيقال :

أولا

أولا : ما الذى عرف الناس من ملك السموات

وثانيا : ماذا عرفوا من ملك الأرض

والإجابة عن الأول أن الناس يظنون اليوم أن هذا الملك يصل إلى ١٦ مليون مجرة تضرب فى ألفى مليون شمس كشمسنا ، ما هذه العظمة ؟ ماهذا الملك العظيم ؟ ماهذا الابداع ؟ هذا هو قول المصلى ، الله أكبر » وهذا قوله فى صلاته » الحمد لله رب العالمين » وهذا قوله (الرحمن الرحيم) وهذا هو التسبيح : (سبح لله مافى السموات والأرض) . يقرأ المسلم : (ومن الليل فسبحه وأدبار النجوم) فى آخر سورة الطور ، ثم يقرأ بعدها (والنجم إذا هوى) . أقسم الله بالنجم وهذا بيت القصيد ، أقسم بالنجم ليلفتنا إليه لنعرف سعة ملكه الذى ظهر بعضه فى زماننا ، ولذلك يقول فى (سورة الواقعة) (فلا أقسم بمواقع النجوم وإنه لقسم لو تعلمون عظيم) .

عجب ! يقول (لو تعلمون) ولقد علمنا اليوم بعض تلك العظمة التى بها نفهم أمرنا بالتسبيح فى آخر نفس سورة الواقعة ، ونفهم الأخبار بأنه (سبح لله ما فى السموات والأرض) فى أول الحديد .

أيها المسلمون : القرآن لهذا نزل ، أيها المسلمون : أنتم مأمورون أن تسبحوا ، وهذا هو التسبيح ، وهل يكفينا فى هذا المقام : أى فى الإجابة عن السؤال الأول ؛ وهو ملك الله المذكور فى آية : (سبح لله مافى السموات والأرض) أن نؤلف صفحات أو كتبا ، إن الإجابة يعوزها آلاف آلاف من العلماء فى آلاف الآلاف من السيارات والأرضين وهم يدونون فلا يستطيعون سبيلا لنهاية الإجابة ، هاهو ذا علم الفلك أرانا شذرة من العلم فأدهشنا ، هاهو ذا علم الفلك يحدثنا :

فياسعد حدثنا بأخبار من مضى فأنت خبير بالأحاديث ياسعد

وقال ابن الفارض :

وعلى تفنن واصفيه بحسنه يفنى الزمان وفيه مالم يوصف

يقول علم الفلك ولو على سبيل الظن إذا هو الممكن لنا ونحن على هذه الأرض : إن ١٦ مليون من المجرات التى قدرها علماء الفلك بحسب المرصد الذى بنى الآن وقطره ٢٠٠ بوصة يضربها فى ٢ مليون كوكب يبلغ الحاصل من ذلك كله ٣٢ ألف مليون مليون كوكب (وبعبارة أخرى) أن الشموس التى يقدر وجودها الناس اليوم فى ملك الله الذى نسبحه ونعظمه فى هذه الآيات ، هى هذه الأعداد التى يذهل العقل فى تقديرها بعد أن كان هذا النوع الإنسانى لا يعرف من عظمة الله إلا شمسا واحدة ، وهى شمسنا هذه التى يذهل العقل حين يرى أن ذوات الأذناب الدائرات حولها كسمك البحر عدا ، وهكذا النيازك والشهب ، فالمجموعة الشمسية تذهلنا عظمتها ، والمجرة التى تشمل المجموعة أشد إذهالا لنا ، وعدد المجرات أعظم وأعظم . هذا هو الذى به نفهم قوله تعالى : « قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربى لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربى » وهذا مبدأ تفسيره ، إن تفسير كتاب الله كل علم ظهر ، وكل علم يظهر ، وإذا كان الإجمال هكذا مدهشا لاحد له فالتفصيل من باب أولى ؛ فليقل علماء الفلك اليوم إننا نظن أن الشمس الآن قد مضى من عمرها خمسة ملايين مليون سنة ، وأن الأرض قد مضى لها نحو ألفى مليون سنة ، وأن عمر الحياة عليها نحو ٣٠٠ مليون سنة ، وعمر الإنسان عليها ٣٠٠ ألف سنة .

وليقولوا كـذلك[1] : (إن الشمس ستبقى مدة تتراوح بين ٥٠ مليون مليون سنة و ٥٠٠ مليون مليون سنة ، فليقولوا ذلك ، وسيقول غيرهم كلاما غير هذا : وهكذا ليقولوا ان هناك شموسا أكبر من شمسنا ٢٥ مليون مرة كشمس من شموس الجوزاء ، وضوء شمسنا بالنسبة لضوء ذلك الكوكب كضوء الحباحب بالنسبة لضوء الشمس ، ثم ليقولوا إن هناك شموسا لاتبلغ سوى جزء من عشرة آلاف جزء من تألق شمسنا ، فليقولوا ذلك وليقولوا فالأمر عظيم ومدهش ، فليقولوا فإنهم إنما يفسرون قوله تعالى هنا «سبح لله مافى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم له ملك السموات والأرض» فهذا هو ملك السموات وهذه هى الإجابة على السؤال الأول .

الإجابه على السؤال الثانى : وهو ملك الأرض

فما هو ملك الأرض ياترى ، الأرض سيار يتبع الشمس ، إذن هو عدم صرف ، وكيف لايكون عدما وهذا الملك الذى اطلعت عليه بحسب ماوصل إليه العقل الإنسانى لو أن الأرض صغرت فصارت جوهرافردا يكون كله ألف مليون أرض كأرضنا بحجمها الحالى : أى أن الملك يصغر بنسبة صغرها هى ، فهى صغرت حتى صارت جوهرا فردا ، فيكون الملك كله ألف مليون أرض ، كهذا الحجم الحالى ، إذن الأرض عدم والسكان عليها لا معنى لذكرهم أيضا لأنها هى أشبه بالعدم فهى إذن عدم ، ولكن عند البحث نجد مافوقها من العوالم يدهشنا أيضا ، فهو يفعل فى عقولنا مافعلته أعداد المجرات اللاتى يظن أنها ربما تبلغ ١٦ مليون مجرة ، وهى الآن مليونان اثنان : أى ماعلم منها . ثم هذه الأعداد بالنسبة لما عرفناه ومالم نعرفه أعظم وأعظم ، والمجرة الواحدة تحوى مادة لا تقل على أن يصاغ منها نحو ألفى مليون شمس وهكذا إلى آخر ماتقدم . فنفس هذه الحيرة قد أذهلتنا فى العوالم التى على أرضنا التى تشبه العدم ، حيوان أنواعه تعد بمئات الألوف . ونبات كذلك ومعادن ، وغرائب لاحصر لها . والذى قلناه فى تلك العوالم نقوله فى هذا العالم الذى يشبه العدم .

عجب حياتنا كلها . عجب هذا الوجود! سعادة تنتظر نفوسنا بعد مفارقة هذه الدار . نور ، بهجة ، جمال لك الحمد يا الله على العلم وعلى الحكمة . فلنقتصر فى هذا المقام الذى لاحصر له على زهرات من العلم . ونذكر بعض جمال النبات وجمال الحيوان مما تقدم شرحه فى هذا التفسير . ولنذكر بعض جمال النبات المذكور فى المجلد التاسع عشر :

(١) فمنها أن هناك شجرة تسمى (شجرة البقرة) من كراكاس وهى تعطى لبنا خالصا سائغا للشاربين وأهل كراكاس يتغذون منه . ومن العجب أن صفات هذا اللبن هى نفس صفات لبن البقر ويفضل عليه بأن الأحماض لا تؤثر فيه . ومن عجب أيضا أنه يستخرج منه عطر .

(٢) وشجرة (ذات اليد) يستعمل ورقها لعلاج الصرع وهى تنبت فى البرازيل .

(٣) وشجرة الحرير : وهى شجرة باسقة جدا (والمسيو برتران بوكانديه) يقول : إن فى كازاما منى مراكب طولها ١٥ مترا فى عرض مترين ونصف ، تصنع الواحدة من ساق إحدى هذه الأشجار وتزرع الشجر عند ميلاد الغلام ، فاذا كبر وعقل واستقل أخذ كل مايلزمه من هذه الشجرة . فلها فاكهة ولها وبر قطنى حريرى كثير جدا تقذفه على الأرض إلى مسافات بعيدة . تراها كأن السماء أمطرت لؤلؤا وثلجا . وهذا الوبر يجعل فى الوسادات والفرش الوثير .

---

(١) يقول المؤلف : إن أكثر هذه الحقائق من الكتاب السنوى الثانى الذى يحتوى على مجموعة المحاضرات التى ألقيت فى مؤتمر المجمع المصرى للثقافة العلمية لسنة ١٩٣١ .

(٤) وشجرة الدهن : تزرع فى الصين ، يصنع منها شمع كشمع العسل فيضىء ، وهكذا يستخرج منه دهن ونوع من الزيت .
(٥) وشجرة الثعابين : تزرع فى البرازيل ، وجذرها يستعمل فى الشفاء من لسع الثعابين .
(٦) وشجرة الـكثرى اليابانى) ولها لبن وقشدة .
هذا ملخص ماتقدم هناك ، أنا لست الآن إلا فى مقام ذكر ملك الأرض ، وملك الأرض اكتفينا منه ببعض زهرات العلم ، وهذا التفسير فيه كثير من علم النبات فى مواضع مختلفة تـكفى اللبيب فلنقف عند هذا الحد ، إنا ذكرنا ستة أشجار فقط ، فألفينا حريرا وفاكهة ، وشفاء من الصرع ، وشفاء من لدغ الحيات ولبنا ودهنا وعطرا ، ومراكب كبيرة ، وعجائب كثيرة ، فأصبحنا أمام هـذه الشجرات الست وما يماثلها مما يعد بمئات الألوف من النبات كأننا فى حيرة المجرات والشموس والسيارات والأرضين العظيمة عظمة لاحد لها فيا قل وفيا كثر ، إذن فلننقض فى الـكلام على شذرات من علم الحيوان فنقول :

شذرات من علم الحيوان

أنا الآن فى مقام التسبيح ، والذى نسبحه وهو صانع العالم له ملك السموات والأرض ، ومن ملك الأرض الحيوان ، وقد قلنا ان فى هذا التفسير مايكفى للثقافة العامة فى أمم الاسلام ، ولـكن لابد من ذكر نبذ من أجمل ماتقدم ، فأذكرك أيها الذكى بما تقدم فى (سورة طه) عند قوله تعالى : «قال ربنا الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى» فانظر هناك تجد :
(١) الثعالب ونحوها تعلم منها الإنسان حرفة الصيد .
(٢) ومن الفيران تعلم سكنى الـكهوف .
(٣) ومن نحو الظباء تعلم أن يعيش فى الآجام .
(٤) ومن النمل اتخذ البيوت .
(٥) ومن حيوان يسمى (الـكستور) بنى الجسور المتينة لمنع السيل .
(٦) ومن الدب فى الأقطار الشمالية تعلم صناعة السفن .
(٧) ومن العنكبوت تعلم الصيد بالشبكة .
(٨) ومن بعض السمك تعلم صناعة النجارة باستعمال البلطة والمنشار .
(٩) ومن السرطان فى البحر تعلم صناعة الدروع التى تقى جسمه النبال .
(١٠) ومن أم الحلول تعلم أحقاق النشوق .
(١١) ومن الخنزير تعلم حراثة الأرض .
(١٢) ومن الهرة تعلم الاحتراس من الروائح المتصاعدة من الفحم .
وهكذا من الصناعات التى تبلغ ٣١ صناعة مذكورة ، وهذه قل من جل من تلك الصناعات الحيوانية التى عرفها الحيوان وقلده الإنسان فيها ، فمملكة الحيوان مملوءة من العجائب كمملكة النبات فيما تقدم ، فاقرأ بقية ماذكر فى (سورة طه) .

ثم اعجب مما حفظ به الحيوان من الهلاك ، فهو كما كمل بالصناعات العجيبة النافعة فعاش قرير العين أسبغت عليه نعم أخرى بها حفظ من الهلاك ، فانظر ماتقدم فى (سورة المؤمنون) عند آية : «وما كنا عن الخلق غافلين» وتأمل الفيران مثلا كيف كان لونها السواد ، ذلك لأنها مضطهدة من جميع الناس لأنها مسلطات على زروعهم بأكلها ، وعلى أجسامهم بما تنقل لهم من العدوى : ولـكن الصانع الحـكم الذى برأها هو

الذي يدافع عنها ، بمـاذا يكون ذلك الدفاع ؟ يكون الدفاع بأمر عدمي ، ماهو ذلك العدمي ؟ هو عـدم اللون وهو السـواد ، فانه إذا حرم من الخروج نهارا ، فلابد له من السعى ليلا ، ولو كان لونه غير السواد لظهر فهذا حفظ .

أيها المسلمون : لهذا يقول الله : «سبح لله مافى السموات والأرض وهو العزيز» عز أى غلب وقهر هذه المواد ولم يبال بالأهواء ، كأن يقال لـماذا لايكون الفأر كالطاوس جمالا وبهجة ، فـلا يكون هناك جواب غير نفس العلم (الحكيم) فهو حكيم فى صنعه ، وبحكمته سود الفيران لتحيا محاربة للإنسان ، لأنه يريد حياة الخصمين معا لا أحدهما ، وبهذه المخاصمة تتم الحياة ، ولو عاش الإنسان بغير مضاد له لـكان أقرب إلى البله ، ولضعف تفـكيره ، ومثل ماقلنا فى الفيران نقول فى عشرات الحيوانات المذكورات هناك من الأسود والنمور اللاتى تشبه آجامها ماحولها فى الصحارى والقفار ، ولو أن ألوانها لم تـكن كذلك وكانت واضحة لرأتها فرائسها ففرت منها فهلـكت تلك الحيوانات المفترسة فى يوم أو بعض يوم ، وهكذا نقول فى نحو الجمال (الإبل) إنما كان لونها كلون ماحولها فى الجبال والوهاد ، لأنها لو لم تـكن كذلك لافترستها السباع لظهور ألوانها . الله أكبر « يسبح لله مافى السموات والأرض وهـو العزيز الحكيم ، له ملك السموات والأرض » .

وهكذا يقال فى طائر ليلى بأمريكا مذكور هناك ؛ فهو ذوذيل طويل أبيض يقق ، ولـكن هذا البياض ليلا لايضره لأن له سلاحا يقيه العطب ، وهى الرائحة الـكريهة كرائحة الظربان ، كما ان الزنابير الملونة ألوانا براقة بالنهار لاتخشى العطب من هجوم أعدائها ، لأن هؤلاء الأعداء يعلمون ماعندها من السلاح والـكراع وقس على هذا بقية الحيوانات المذكورة هناك فراجعه .

ومثل ذلك يقال فى أنواع الحشرات من أبى دقيق المذكورات فى (سورة الروم) المرسوم صورها هناك كما رسمت صور كثيرة للحيوانات المتقدمة فى (سورة المؤمنون) ففى هذه التى فى سورة الروم ترى نوعا من حشرات أبى دقيق لها لون جميل شديد اللمعان ، وهذه الحشرات إذا أمسكتها بيدك لوثت جسمك وثيابك بمادة قذرة ، عرفت ذلك كل الحيوانات فتحامتها ، ولـكن المدهش أن هناك حيوانات أخرى لا سلاح لهـا تعيش مع هذه فى مكان واحد ، وتلون كلونها حذو القذة بالقذة فتتحاماها أعداؤها فيـكثر نسلها (ارجع إلى هذا المقام هناك تجد تفننا فى أساليب الدفاع بالمشابهة فى الألوان اختصارا فى سـور الطبيعة البديعة .

نعم هذاهو الملك ، وهذا هو الإبداع ، وحسن الصنع والتزويق ، وإظهار الجمال تفنن فى المجرات ، تفنن فى الشموس ، تفنن فى السيارات تفنن فى النبات ، كل هذه أفانين وأفانين لا حد ولا انتهاء .

جمهوريات الحيوانات

ضرب مثل يذكرنا باجتماع الأرواح بعد مفارقة الأجسام

يظهر لنا أن كل ما نتصف به جمل ضرب مثل لنا ، ومن الأمثال المضروبة لنا جمال الصور فى كل ما نراه ، فإننا نفرح به ثم يزول ، كأنه يقال : هناك جمال لا يزول وهذا جمال زائل ، فابحث عما لا يزول من الجمال الذى هو السبب فيما يزول ألا وهو جمال الله ، نفرح بملك وبسلطان ثم يزولان ، فيقال هناك ملك وسلطان دائمان فابحثوا عنهما « وإذا رأيت ثم رأيت نعيما وملـكا كبيرا » .

ننظر النحل والنمل ونحوها تفرح بالمملكات التى تحكمها وتـكون لها أشبه بالأستاذ للتلميذ والأم لولدها والأب الرءوف لأبنائه ، ونرى السيارات تدور حول الشمس ، والأقمار تدور حول الأرض ، والأبناء ترجع

لأمهاتها رجوع مودة وحب وألفة وانعطاف ، والجيوش ترجع للقواد فى أمورها ، وهذا درس لنا نحن فى الحياة كأنه قيل لنا : إن الله شمس والأرواح تستمد منه استمداد السيارات من الشمس . إن أرواحكم جاءت من عند الله . وإذا رجعت إليه وتركت هذه الأجسام فقد نالت بغيتها كما يرجع الماء إلى البحر . والحجر المرمى به إلى الأرض ، والزق المنفوخ فى الماء إلى أصله وهو الهواء ، ولكن الفرق بين الممثل به والممثل له عظيم ، لأن الله ليس كمثله شىء ، فهو يجل عن الأفهام . فهذا ضرب مثل . والأمثال يكفى فيها التقريب تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا «تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن وإن من شىء إلا يسبح بحمده ولكن لاتفقهون تسبيحهم إنه كان حليما غفورا» . كتب فى فجر يوم الخميس ٢٠ رمضان سنة ١٣٥٠ هجرية الموافق ٢٩ يناير سنة ١٩٣٢ م

مذاكرة

حضر اليوم صديق العلامة الذى اعتاد مناقشتى فى هذا التفسير فقال : إن هذا القول حسن فى ذاته من حيث إنه تفسير لآية : «سبح لله مافى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم . له ملك السموات والأرض يحيى ويميت وهو على كل شىء قدير» نعم هاهنا ظهرت قدرة الله فرأينا النوع الإنسانى المستمر المدهش ولكن هنا نقطة أحب أن أعرفها . لقد ذكرت أن جمهوريات الحيوانات أمثال مضروبات لنا من حيث إن اجتماع أرواحنا بعد الموت يكون مثل اجتماع جمهورية النحل مثلا على « يعسوبها » وهى الملكة وهذا القول مبهم أحب إيضاحه ؟ فقلت : قد طال المقال . فقال : ولكن لابد من تفصيل هذه المسألة لئلا تذهب فيها الآراء كل مذهب فقلت :

النحل حول اليعسوب ضرب مثل لرجوع الناس لربهم

ومقدمة ذلك الصلاة إلى القبلة توجها إلى الله حول الكرة الأرضية

أيها العزيز : إن هذا الخاطر مكث فى نفسى أياما فجاء سؤالك على مقياسه : وبيانه أن التسبيح والتقديس والتكبير هيام بصانع العالم . وهذا الهيام يزداد بازدياد العلم الذى ماهو إلا شرح هذه الممالك المذكورة فى أول (سورة الحديد) وهى ملك السموات والأرض والإحياء والإماتة فيهن إلى آخر ماتقدم . وهذا الهيام يتمثل فى الصلاة . وهيئة الصلاة حول الكرة الأرضية كهيئة اجتماع النحل حول يعسوبها . فالكعبة فى المركز كما أن ملكة النحل فى وسط النحلات . وأهل آسيا وأفريقيا والمسلمون من أمريكا واستراليا صوبها فاذا تأملت ببصيرتك المصلين وجدتهم قد ولوا وجوههم صوبها . وهى فى وسطهم فتوجه المصلين جميعا نحو مركز واحد وهى القبلة كاجتماع النحل حول اليعسوب . فهؤلاء يحيطون بكرة وهؤلاء يمثلون كرة .

وهذه الأرواح الإسلامية الحية العائشة فى أجسامها هى التى سترجع إلى ربها بعد الموت ويجمعهم عليه وأنا أعرف من سؤالك أنك تخاف أن يظن ظان أنه اجتماع مادى فيجعلها مغمزا من المغامز فى التفسير . فقال نعم هذا هو الذى خطر لى مع إرادة تبيان أتم ، فقلت أيها الأخ الذكى : أنا أوضح المقام بأتم من هذا فأقول :

إن سر الصلاة والتسبيح كما قدمنا الحب لصانع العالم ، والحض على الصلاة فى كل دين حق نزل من السماء فتح باب لذلك الحب ؛ فالمصلى الجاهل يصلى أولا للخوف من عقاب ربه ، وللطمع فى جنته ، ولكن ليس هذا كل شىء ، بل المهم الوصول لحال الحب ، والحب يحصل بتكرار العبادات ونحوها ، ثم الدراسة ومعرفة جمال هذه الدنيا كالمذكور هنا فى (سورة الحديد) إذ تفصله العقول ، الصلاة فى الإسلام كلتان اثنتان :

تكبير وسلام ، ومما أدهشني أن هاتين الكلمتين هما سر كل السر ، فالتكبير يرجع لجميع المعارف في الأرض والسموات ، وحكمة الحكماء المستخرجة فيهما ، والسلام يرجع لاجتماع الأرواح كلها ، وإذا كانت الآية فيها : « هو الأول والآخر والظاهر والباطن » فهي إذن تشير إلى أنه لا مادة كما تقدم في سورة النور عند آية النور ، إذ قد اتضح هناك بما جاء في العلم الحديث أن العوالم كلها حركات في الأثير إلى آخر ما تقدم هناك ، فالله هو الأول والآخر ، وهذه شئون من شئونه صدرت عن حضرته وتجلت لعيوننا ولعيون الحيوان كما هو نظرية [اينشتين] إذن الموجود هو الله والأرواح الطيبة والخبيثة ، وما أول الفاتحة إلا صفات الله من رحمة وملك ، وأنه محمود الخ وكل ذلك راجع لأول الأمرين وهو الله ، وما آخرها إلا المنعم عليهم والمغضوب عليهم ، وهذه هي عوالم الأرواح الصالحة وغيرها في الأبدان أو في البرازخ ، والسلام راجع إلى الأرواح الطيبة ، فأول الفاتحة يرجع للتكبير وآخرها يرجع للتسليم ، ثم التحيات في التشهد موجهات لله ، ويليها السلام على الأنبياء والمرسلين وجميع الصالحين ، وعلى النبي صلى الله عليه وسلم وعلى آله وإبراهيم وآله وهذا راجع للكلمة الثانية وهي السلام ﴿ وبعبارة أخرى ﴾ الصلاة في الإسلام مختصرة في تكبير وتسليم ، تكبير لصانع العالم وتسليم على الصالحين من الأرواح والملائكة ، فلننظر إلى المسألة التي نحن فيها نجد أن المسلمين حول الكرة الأرضية يصلون متوجهين إلى القبلة ، وهذا رمز إلى اجتماعهم على ربهم بعد الموت ، ويرمز لهذا كما قلناه اجتماع النحل على يعسوبها ، وتكورها حولها، فهاهنا أمران : حب النحل وإعظامها ليعسوبها ، وثانيهما اتحادها ونزع الغل من قلوبها فكونت مملكة واحدة ، فالأول في مقابلة التكبير في الصلاة ، والثاني في مقابلة السلام ، فهاهنا عظمت النحلات وأحبت ملكتها ، ثم هي مع بعضها متحابات متحدات ، فأول الأمرين كتكبير الصلاة ، وثانيهما كالسلام في الصلاة ، إذن وصلنا إلى مطلوبكم من السؤال ، فتوجه المصلي للقبلة مرموز له بتوجيه النحل للملكة وتسليم المسلم على صالحي الملائكة ، وكل روح صالحة كالسلام والتعاطف والمودة الحاصلة بين أفراد النحل الملتف حول ملكة النحل .

إذن جمهوريات الحيوانات التي نراها في الأرض كالنمل وكالنحل وكالأرضة وكالغربان وكلاب البحر ضربت مثلا كصلاة المسلم التي ترجع لأمرين اثنين : حب الله بالعلوم والمعارف ، ويشير لها التكبير والمودة والتعاطف والسلام والأمانة الحاصلات بين جميع الأرواح ، المسلمين منهم وغير المسلمين، من كل من كانوا على دين صحيح غير منسوخ قبل مبعث النبي صلى الله عليه وسلم .

فقال صاحبي: أنت كنت ترمى بعيدا ، إذ جعلت المنظور لنا في بعض السنين من نحل يمر فوق رءوسنا كأنه كرة قد التف حول ملكته في حقول بلادنا المصرية مثلا لصلاة المسلم الراجعة إلى كلتين، ولاجتماع الأرواح بربها ، ولكن أريد إيضاحا أتم . فقلت : نعم هناك [فرقان : الأول] أن اجتماع النحل على اليعسوب اجتماع جسمي واجتماع الأرواح على ربها اجتماع روحي قلبي (الفرق الثاني) أن يعسوب النحل محسوس مادي والله عز وجل منزه عن المادة ، ولذلك احتاج الناس إلى القبلة ليتوجهوا إليها ، ولذلك سميت بيت الله ، ففي المثل مادي توجه لمادي ، والممثل به أرواح توجهت إلى من ليس كمثله شيء يتعالى عن الأرواح والملائكة والعقول .

فقال : الحمد لله على نعمة العلم . الآن قد تجلت لنا بهجة جملة الآيات في أول (الحديد) فإذا رأينا السيارات تجري حول الشمس ، ورأينا كل ولد يرجع لأمه ، ورأينا كل حجر يرجع إلى الأرض بعد قذفه ورأينا أفراد كل مملكة من ممالك الأرض يتجهون إلى رؤسائهم ، ورأينا الحشرات وسائر الحيوانات ترجع لرؤسائها . فمرجع ذلك كله أمران : حب وإعظام من جهة ، واتحاد والتئام من جهة أخرى ، وهذه كلها

ضرب مثل محسوس لأمر معقول وهو حب الله إعظاما ، واتحاد النفوس أدبا ونظاما وهذا المعقول عبر عنه بالتكبير والسلام ، وهاتان الكلمتان وزعت عليهما أقوال الصلاة كلها ، فهاهنا أمور معقولة وأمور محسوسة بحاسة البصر ، وأمور مسموعة بالأذن . فالمشاهد بحاسة البصر نظام الحيوان ، والمسموع بالأذن الصلوات مختصرة بالتكبير والسلام ومطولة بتفصيلها ، والمعروف بالعقل الأرواح وصانعها ، فالمحسوس بالبصر ضرب مثل للمسموع بالأذن مختصرا ، والمسموع بالأذن مختصرا ضرب مثل للصلاة مطولة ، والصلاة فحواها توجه الأرواح إلى خالقها ، إذن العوالم كلها متشابهات . فقلت : لقد أحسنت تلخيصا . فقال : كفى هذا البيان فى تفسير الآيات فى أول (سورة الحديد) . كتب قبل غروب يوم الجمعة ٢١ رمضان سنة ١٣٥٠ هجرية .

بهجة هذا المقام فى التسبيح وجماله

يوم الأربعاء ٢٦ من شهر رمضان المعظم سنة ١٣٥٠ هجرية — الثالث من شهر فبراير سنة ١٩٣٢ م حضر صديق العالم الذى اعتاد محادثتى فى هذا التفسير ، فأخذ يحادثنى فى المقالة السابقة التى تختص بآية «سبح لله مافى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم ، له ملك السموات والأرض يحيى ويميت وهو على كل شىء قدير » وقال : لقد تجلت معانى هذه الآيات واضحة بحيث يرى المسبح كأنه فى روضات الجنات ، وكيف لا يكون فى روضات الجنات وهو عند النطق بالتسبيح مستحضرا تلك المعانى ، يشعر كأنه منضم إلى أرواح أخرى تعطف عليه ويعطف عليها ، وهم يتسابقون معا إلى الزلفى إلى صانع العالم فتتجدد فى نفوسهم السعادة وروح الحياة والبهجة .

سبحان الله : أهذا هو التسبيح وما فى معناه من التحميد وأمثالها ، وهذه المعانى كلها مخبوءة فيه ؟ أهذا هو جمالها ؟ إذن التسبيح الذى يخطر لأغلب المصلين والمسبحين تسبيح جاف لا يطفئ غلة ، ولا يشفى من علة ، فقلت : نعم إن التسبيح مرتبط بحياة النفس وسعادتها وبهجتها ، وهو التغلغل فى العلوم والجمال هذا سر الآيات فى آخر (سورة الحشر) . فقال وما سرها ؟ فقلت : من سرها الذى ستقرؤه هناك قوله تعالى : « له الأسماء الحسنى يسبح له ما فى السموات والأرض » . إن حسن أسماء الله راجع إلى المدلول ، ومن آثار ذلك المدلول هذا الجمال المشاهد فى هذا العالم الذى عبر عنه بقوله : « له ملك السموات والأرض » فوصف الأسماء بذلك فتح باب يلج منه الحكماء العاشقون الممتلئون حياة وحكمة المرموز لهم بآية : « يا يحيى خذ الكتاب بقوة وآتيناه الحكم صبيا » . إن هذه الأرض خلق فيها أناس لهم طبائع خالفت أهل عصرهم إذ يحيون بدافع قوى فى أنفسهم ، ذلك هو الحياة الحقيقية فيكونون بذلك نورا لأممهم ، ذلك النور هو سر خفى فى أنفسهم التى أحست بجمال العالم المرموز له بأن أسماء الله حسنة فهذه النفوس هى التى بها ترتقى أمم وأمم فى معراج الحياة بحسب درجتها الحسية أو المعنوية ، ولقد تجلى فى نفسى معنى أحب أن أبديه الآن وهو أن فى هذه الأرض أناسا يشعرون من الآن بأنهم فى حضرة ربهم مجذوبين بعواطف هم مجبولون عليها فينطبق عليهم المثل الذى ضربناه فى المقال السابق من حيث إنهم مع أممهم مسوقون إلى ربهم ، فهؤلاء يرون فى نفوسهم عطفا على أممهم وحبا لربهم ، فنفوسهم من الآن تشعر كأنها فى حضرة ربها ، وهؤلاء يستوى عندهم الموت والحياة ، والأحوال العارضة عليهم ، فلا الفرح يستخفهم ، ولا الحزن يقعدهم ، وهذا هو الكمال الحقيقى .

ومن أعجب العجب أن هذه المعانى التى تجلت فى نفسى من إشراق أنوار التسبيح فى آيات أول الحديد يكاد ينطق ببعض نتائجها عالم أمريكى يسمى (ستانلى هول) وهو أكبر علماء النفس فى أمريكا ورئيس

إحدى جامعاتها الكبرى ، وقد بلغ ٧٧ سنة من عمره ، هذ العالم لما اطلعت على آرائه دهشت فإنها أشبه بأثر من آثار الآية والله يقول فى القرآن : « بل هو آيات بينات فى صدور الذين أوتوا العلم » وقد قررنا مرارا فى هذا التفسير أن نتائج مباحثات العقلاء كلها وحكمهم التى أدركتها عقولهم يتضمنها القرآن ، وهذا من عجائب ، بل من معجزاته فقال صديق ، لقد شوقتنى لمقاله ، فأريد أن أسمعه ملخصا ؟ فقلت : قرأت فى بعض الكتب ما نصه :

« كتب (مستيرولز) الكاتب الإنكليزى المعروف مقالا عن النجاح قال فيه : إن مستر لويد جورج ليس من الناجحين بينما هو بعد (اينشتين) صاحب نظرية النسبية منهم ، وقد ختم مقاله بهذه العبارة : « ليست الثروة ، أو الشهرة ، أو المقام دليلا على النجاح ، فإنما يقاس النجاح الحقيقى بنسبة ما عملنا إلى ما كان يمكننا عمله » .

أما (ستانلى هول) وهو أكبر علماء النفس فى أمريكا ، ورئيس إحدى جامعاتها الكبرى ، وقد بلغ السابعة والسبعين من عمره ، لحاز بذلك الشيخوخة الهنية ،والسمعة الطيبة ، وخدم أمته بجملة تآليف قيمة فانه يرى شروطا أخرى للنجاح ، فقد وضع هذاالعالم كتابا حديثا عن تاريخ حياته ، وعقدفصلا عن شروط النجاح الإنسانى قال فيه : « إن أول شرط لذلك هو الصحة ، فان الأعمال العظيمة التى قام بهاعظماءالناس فى هذا العالم إنما أدوها وهم فى أحسن أيام صحتهم ، وليس من يشك فى أن المرضى قد أتوا أحيانا بالعجائب ولكن هذا من الشذوذ فإنما القاعدة هى أن الصحة شرط للنجاح حتى ليصح أن يقول : « لكى تنجح يجب أن تكون حيوانا صحيحا » .

والشرط الثانى : هو معرفة القوى الكامنة فى أنفسنا ، ففى كل منا قوى كامنة يعرفها الصوفيون عندما يشعرون بأن فيضا من الذات القدسية اتصل بهم ، وكأن حياة جديدة قد لا بست بشرتهم ، فالمؤلف يشعر بها عند ما تتملكه الفكرة ، وتندفع فى ذهنه تريد أن تتكشف وتتوضح .

والشرط الثالث: هو كيفية ضبطعواطفنا ، فنحن فى أغلب أيامنا نتراوح بين التفاؤل والتشاؤم ، فان تعلمنا كيف نضبط عواطفنا ، فلايستخفنا النجاح ،ولا يثبطعزمتنا الفشل الطارئ ، وإذا وقفنا عندحد الاعتدال دون غلو فى السرور والاغتمام كان النجاح أقرب إلى أعمالنا .

والشرط الرابع : هو غرس العطف فى أخلاقنا فإن الذين لايعطفون يفقدون صلتهم بالطفولة بل بطفولتهم ولا نجاح للأديب ، أو الشاعر ، أو السياسى إلا بغرس العطف فى نفسه وتنشئتها عليه .

والشرط الخامس : هو حب الطبيعة ، فيجب على الناس أن يكثروا من المشى فى الحقول ، لرؤية أحسن المناظر وأسراها ، ويحسن أن يمشى الإنسان صحبة آخرين وخير الوطنية ما كانت أصولها نابتة من الحقول.

والشرط السادس: هو رقى فن العواطف ، فعاطفة الغضب ، أو الخوف ، أو الطمع ، إذا تركت فى حالها الأولى نتج عنها أضرار كبرى ، فإذا هذبت عادت بالفائدة ، وخير مثال لذلك هو العاطفة الجنسية ، فهى إذا لم تهذب صارت غلة حيوانية ، وإذا لم تضبط أدت إلى خراب العائلات ، وهدم البيوت ، بينما هى عند رفعها تصير حبا جميلا يعمل على ارتقاء الإنسان ، وهى فى هذه الحال أصل للأدب وخير ما يحرك القرائح للشعر وسائر الفنون .

الشرط السابع: هو إيجاد توازن بين المزاج العملى والمزاج الذهنى: فمن الناس من يكون مزاجهم ذهنيا يحبون البقاء ،وادعين ، يتأملون ويفكرون ، كما هو شأن أكثر التجار ورجال الأعمال ، وكلاهما لا يمكن أن يعتبر ناجحا راقيا ، لأن الترقى والنجاح إيجاد توازن بين هذين الخلقين .

أما الشرط الثامن: فهو الولاء، وهو يريد بذلك ولاءنا لأصدقائنا، ولعائلاتنا، ولأمتنا، وولاءنا أيضا للعلم والنوع الإنسانى. انتهى.

هذا هو نهاية الكلام على اللطيفة الأولى فى قوله تعالى. «سبح لله مافى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم، له ملك السموات والأرض يحيى ويميت وهو على كل شئ قدير» والحمد لله رب العالمين.

اللطيفة الثانية

فى قوله تعالى: «يعلم ما يلج فى الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء، وما يعرج فيها»
مع قوله: «آمنوا بالله ورسوله وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه» الخ

ولا جرم أن ماء البحر الميت له بخار يرتفع إلى السماء، وهنا ماء يصب فيه، فهذا يلج فى الأرض وهذا يخرج منها، فأين الانفاق من هذا البحر إذا لم يعلمه المسلمون؟ فقد جاء فى إحدى جرائدنا المصرية يوم ١٦ شوال سنة ١٣٤٩ هجرية — ٦ مارس سنة ١٩٣١ م تحت العنوان الآتى ما نصه:

ثروة البحر الميت

كنوز لا يستفيد منها أحد

فى أوائل عام ١٩٣٠ م جرى اتفاق بين الدولة البريطانية وشركة دولية على استثمار البحر الميت المشهور وقد تكفلت الحكومة البريطانية أن تمنح تلك الشركات الحقوق التامة لاستثمار هذا البحر الذى لا يثمن على شرط واحد وهو أنه بعد عشر سنوات يجب على الشركة أن تستخرج لا أقل من ١٠٫٠٠٠ طن من البوتاس النقى ومن السنة الحادية عشر أيضا يجب أن تستخرج فى كل عام لا أقل من ٥٠٫٠٠٠ طن، ومن الحسنات التى تزيد قيمة المواد المستخرجة من هناك كون البحر الميت قريبا من قناة السويس الباب لكل أسواق العالم المهمة، أربعة وسبعون ميلا فى الطول وعشرة أميال فى العرض تبلغ مساحة ذلك البحر، وفى كل يوم يبخر ما يقدر بـ ٦٠ مليون طن من المياه، وهذه الكمية المدهشة تزيد بكثير عما يفرغه نهر الأردن يوميا فى ذلك البحر، ولولا بحار صغيرة عديدة تكسر مياهها فيه لأصبح قطعة يابسة من الأرض منذ قرون عدة واليوم نرى أن البحر الميت يرتفع مستوى سطحه بين كل مدة وأخرى بالرغم من الكمية الهائلة التى تتبخر يوميا، ومنذ سنة ١٨٨٣ حتى سنة ١٩٣٠ ارتفع مستواه ٣٨٠ قدما، أما عمقه فيبلغ ١١١٠ أقدام وهكذا يكون عمق سطح البحر الميت أوطأ من سطح البحر المتوسط بألفين وستمائة وقدمين.

ولقد كان من أعظم أمانى الإنجليز فى زمن الحرب الكبرى أن يضعوا أيديهم على هذا البحر، لكى يستثمروا كنوزه التى طالما حلموا بوجودها، وها هو ذا الآن اكتسح (الجنرال اللنبى) فلسطين وامتلك البحر الميت بجيوشه الجرارة، حتى أمر فئة من الكيمائيين أن تحلل مياهه، ولقد كانت نتيجة التحليل أن تلك المياه هى بوتاس أو ما يقدر بـ ٢٫٠٠٠٫٠٠٠٫٠٠٠ طنا من هذا المعدن و ٩٨٠٫٠٠٠٫٠٠٠ طنا من المغنزيا و ١١٫٩٠٠٫٠٠٠٫٠٠٠ طنا من كلورات الصودا و ٢٢٫٠٠٠٫٠٠٠٫٠٠٠ طنا من كلورات المغنزيا و ٦٫٠٠٠٫٠٠٠٫٠٠٠ طنا من كلورات الكلس، وهذه الكميات الهائلة تثبت أن البحر الميت الصغير هو أغنى بحر بين كل البحار فى العالم.

ولقد كانت دهشة (الجنرال اللنبى) عظيمة عند ما اطلع على النتيجة لدرجة أنه قال جملته المأثورة: «حقا هذه هى مروج الذهب!». أما قيمة المواد التى ذكرناها فتقدر بـ ١٫٢٠٠٫٠٠٠٫٠٠٠٫٠٠٠

دولارا ، أو مايعدل ٣٠٠ مرة من قيمة مجموع ديون بريطانيا العظمى كلها فى الحرب للولايات المتحدة ، ومن الغريب أن تكون هذه الثروة الطائلة مدفونة بين مد الأمواج وجزرها فى مساحة صغيرة هى أوطأ من سطح البحر بـ ١٢٩٢ قدما .

وعلاوة على المعادن الطبيعية يمكن لفلسطين أن تستفيد من البحر الميت استفادة مهمة ثانية . فقد قدم المهندسون الألمان تقريرا بكيفية إيصال البحر المتوسط بنهر الأردن الأعلى بواسطة نفق ، وهذه الطريقة لاتحفظ المياه الموجودة فى البحر الميت فحسب ، بل تستخرج منها قوة كهربائية تعادل مليون حصان يمكن توزيعها لادارة دولاب الأعمال فى كل فلسطين وسوريا حتى تركيا

أما الأتراك فقد كانوا يعيشون فى بلدان تدر عليهم الذهب أنهارا ولكنهم كانوا غافلين لايعرفون كيف يستثمرونها ، ولم تكن الحياة يوما إلا فريسة النشط المجتهد وكفى اهـ .

...

ومما يناسب هذه الآية أيضا ماجاء فى جريدة الأهرام بتاريخ يوم الاثنين ٢٣ مارس سنة ١٩٣١ م الموافق ٤ ذى القعدة سنة ١٣٤٩ هجرية فقد جاء فيها تحت العنوان التالى مانصه :

كهربة القطر المصرى ومشروع القطارة

خلاصة خطبة حسين (بك) سرى فى المجمع العلمى

قال : لقد آن لمصر أن تفكر جديا فى تحويل جهود بنيها نحو الصناعات حتى تتمكن من الزيادة المطردة فى عدد سكانها من إيجاد موارد رزق جديدة لهم بجانب الزراعة ، وحتى يمكنها مواجهة الصعوبات الاقتصادية بجبهة متنوعة الموارد ، وهى لن تصبح بلدا صناعيا حقا حتى يتمكن رجالها الفنيون من إيجاد حل موفق لتوليد القوى المحركة من موارد داخل حدود المملكة وبأسعار قليلة تمكن المصنوعات المحلية من منافسة مثيلاتها الأجنبية .

ثم ذكر أن هذه الموارد هى مساقط المياه التى يمكن بواسطتها توليد الكهرباء لادارة مختلف الآلات مبينا أفضلية هذا النوع من التوليد على غيره ، ثم استعرض الموجود حاليا من القوى فى القطر المصرى وحلل مايحتاج إليه القطر من القوى الكهربائية فى مدى قرن يبدأ من سنة ١٩٤٥ قاصر الحساب التفصيلى على الوجه البحرى ، وذاكرا فى النهاية حسابا إجماليا للوجه القبلى .

وقال إنه يؤمن كل الإيمان بأن الصناعات التى يجب أن تزدهر فى هذا القطر هى تلك الصناعات التى تكون مواردها الأولية من ناتج الزراعة كالنسيج القطنى والسكر والورق والكتان والتى تستخرج موادها الأولية من تربة مصر كالزجاج والأسمدة ، أو لتحويل ناتج الزراعة إلى مواد غذائية كالدقيق ، وعمل حسابا للقوى اللازمة لكل ذلك فى خلال القرن من ١٩٤٥ ـ ٢٠٤٥ وعلى حسابه تحتاج مصر سنة ٢٠٤٥ إلى نحو ٣٥٠ ألف كيلوواط .

ثم بين أن هناك موردين للقوة الكهربائية الأول منخفض القطارة للوجه البحرى ، وخزان أسوان للوجه القبلى . ثم أخذ يشرح مشروع منخفض القطارة موضحا ذلك بخرائط مساحية ورسومات هندسية ، مشيرا إلى أن الفضل فى اكتشاف ذلك المنخفض العظيم يعود إلى الدكتور (بول) مدير مساحة الصحارى وقد أشاد به سرى بك لما يقوم به من المباحث الجليلة فى مشروع الانتفاع بالمنخفض لتوليد القوى المحركة ، ثم وصف المنخفض وصفا جغرافيا وجيولوجيا ، وهو كائن فى الجزء الشمالى من صحراء ليبيا فى منتصف

المسافة بين وادى النيل والحدود الغربية ، ويبلغ متوسط عمقه ٦٠ مترا ، وأوطأ نقطة فيه منخفضة عن سطح البحر ١٣٤ مترا ، وهى أوطأ نقطة اكتشفت حتى الآن فى قارة أفريقيا ، ثم أشار المحاضر إلى تبليغه الحكومة خبر هذا الاكتشاف فى سنة ١٩٢٧ وبيانه الفائدة العملية التى تعود على البلاد من استغلال سقوط المياه فيه ، ولخص الأسس التى وضعها لهذا المشروع وأهمها :

(١) حفر نفق تمر فيه المياه من البحر إلى هذا المنخفض .

(٢) حفظ منسوب المياه ثابتا ، وذلك يقتضى أن الوارد من مياه البحر ، ومايسقط من المطر يساوى ما يتبخر من سطح البحيرة التى تكون فيه أولا ومايتسرب إلى الأرض .

(٣) تقدير منسوب سطح المياه فيه ، وبالتبعية مقدار سقوط المياه مابين النفق والتربينات .

ثم فصل هذه الأركان وماتم من البحث حتى الآن ، وخصوصا التجارب التى جرت فى (بحيرة قارون) لمعرفة مقدار التبخر ، ومقدار مايتسرب من الماء إلى الصحراء لحفظ النسبة بين الوارد من المياه من البحر أو من الأمطار ، والفاقد تبخرا فى الجو وتسربا فى الأرض .

ثم ذكر النقطة الجوهرية فى المشروع ، وهى القوة التى يمكن توليدها من سقوط المياه مفضلا جعل منسوب سطح البحيرة خمسين تحت الصفر . وهكذا تتولد لدينا قوة مقدارها ١٨٠ ألف كيلوواط عند مخرج المحطة ؛ ولايؤثر ذلك على عملية الصرف فى مديرية الفيوم التى تتسرب مياهها الآن من بحيرة قارون إلى القطارة .

ثم عرض لبناء القناة التى توصل المياه من البحر إلى المنخفض مفضلا أن تكون فى العشرين كيلو مترا الأولى المجاورة للشاطىء ترعة عادية تحفر فى الأرض الجيرية ، ثم تدخل المياه فى نفق طوله ٤٥ كيلو مترا وقطره ١٧ مترا حتى تصل إلى المنخفض .

واقترح تنفيذ هذا المشروع على ثلاث درجات ، لأن الوجه البحرى لايستطيع أن يستعمل ١٨٠ ألف كيلو واط رأسا ، لذلك يقترح جعل النفق ثلاثة أنفاق حقيقية ، فيولد أولا نحو ٦٠ ألف كيلوواط ، فإذا تحققت آماله فى كهربة القطر المصرى فيبدأ سنة ١٩٧٠ ببناء نفق ثان لتوليد نحو ٦٠ ألف كيلو واط أخرى وفى بداية القرن الحادى والعشرين يبنى الثالث ويتم المشروع .

ثم رد على الأسئلة التى وجهت إليه فيما يتعلق بنفقات المشروع ، فقال : إن الجواب تقريبى لا يتحمل مسئوليته لكثرة المباحث الاختبارية التى يجب اجراؤها فى أرض لم تدرس درسا جيولوجيا وافيا ، وإنما يقدر النفقات اللازمة لتتميم الثلث الأول من المشروع وتوليد نحو ٦٧ ألف كيلو واط بنحو ١٠ مليونا ونصف مليون من الجنيهات .

ثم وازن فى الختام بين هذا المشروع ومشروع مماثل لتوليد القوى الكهربائية بإقامة محطة تربينات بخارية على النيل ، وبرهن على أن مشروع القطارة من الوجهة المالية وبصرف النظر عن مميزاته الوطنية وفوائده الاقتصادية الأخرى أفضل من المشروع البخارى . انتهى ماجاء فى الجريدة المذكورة .

هذا هو نهاية الكلام على اللطيفة الثانية فى قوله تعالى : «يعلم مايلج فى الأرض ومايخرج منها وماينزل من السماء وما يعرج فيها» والحمد لله رب العالمين .

اللطيفة الثالثة فى قوله تعالى:

اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو الخ

دخلت أحد المساجد الذى يقرب من منزلنا بشارع زين العابدين يوم الجمعة ٣٠ سبتمبر سنة ١٩٣٢ فسمعت القارىء يتلو فى (سورة الكهف) آية : «إنما مثل الحياة كماء أنزلناه من السماء» فما أسرع أن سنح لى ما يأتى : وهو أن تمثيل الحياة بالماء النازل من السماء ظهر بعض سره الآن ، ذلك أنه تقدم فى هذ التفسير أن علماء عصرنا يقولون : إن الحياة ليست من هذه الأرض ، بل هى من عالم آخر ، وأقول إذن كما أن الماء والضوء والحرارة تنزل من السماء هكذا الحياةوهى منزلة من عالم روحى يمثل له بالماء ، ومن أراد فهم هـذا الموضوع حق فهمه فليقرأ رسالتى المسماة « مرآة الفلسفة » المذكورة فى (سورة محمد) صلى الله عليه وسلم عند آية : « فاعلم أنه لا إله إلا الله » انتهت اللطيفة الثالثة ، كتب ليلة أول أكتوبر سنة ١٩٣٢ م

اللطيفة الرابعة فى قوله تعالى :

« ما أصاب من مصيبة فى الأرض ولا فى أنفسكم إلا فى كتاب من قبل أن نبرأها
إن ذلك على الله يسير ، لكيلا تأسوا على مافاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم
والله لا يحب كل مختال فخور »

خطر لى فى صلاة العشاء قبيل فجر يوم الثلاثاء ١٣ سبتمبر سنة ١٩٣٢ م وأنا أقول : «السلام عليك أيها النبى ورحمة الله وبركاته ، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين» ما يأتى :

السلام على قسمين : سلام أدنى ، وسلام أعلى ، فالسلام الأدنى : هو السلام العام الذى تنشده أمم الإسلام فى الأرض الآن ، وهذا الذى جاء الإسلام مقدمة له ، أما السلام الأعلى فهو الذى يعم الأمم والأفراد وهو الذى إليه تشد الرحال ، وتعقد الآمال ، وهو أن يدرس هذه الدنيا دراسة صادقة ، ويعرف مادب وطار ولا يغادر حكمة إلا قرأها ، ولا علما إلا اطلع على عجائبه ، لافرق بين العلويات والسفليات ، حتى تقتنع النفس اقتناعا تاما بحسن النظام وجمال الوضع .

ومتى وصل الإنسان إلى هذا المقام أصبح فى عيشة راضية وهو لم يزل فى الدنيا ، ودخل فيمن قال الله فيهم « رضى الله عنهم ورضوا عنه » وذلك لأنه يرى أن كل دقيق وجليل قد وضع بحكمة ، ويرى أن كل مصيبة فى الحياة أو الموت لا محيص منها لرقينا ، وانه لولا ذلك لم يكن ارتقاء ، وذلك على سبيل العلم والبحث والاستقراء ، وههنا يفهم العاقل آية : «ما أصاب من مصيبة فى الأرض ولافى أنفسكم إلا فى كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير ، لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم » وهذه الطائفة فى النوع الإنسانى قليلة جدا ، بل نادرة وإن كانوا يقرءون هذه الآية ويؤمنون بها ، لأن الإيمان غير الإيقان وإن كان مقدمة له ، وهذا هو السر فى كون أمة الإسلام هم الحامدون ، وفى أن ذكر أهل الجنة « سبحان الله وبحمده » كل ذلك يرجع إلى وصول أقوام إلى ذلك يقينا لا تقليدا . انتهت اللطيفة الرابعة .

وبهذا تم تفسير (سورة الحديد) والحمد لله رب العالمين .

تفسير سورة المجادلة

هى مدنية

آياتها ٢٢ — نزلت بعد المنافقون

بسم الله الرحمن الرحيم

قَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّتِى تُجَادِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِى إِلَى اللهِ وَاللهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ * الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسَائِهِمْ مَا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِى وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ * وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا ذَلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ * فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ذَلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ * إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللهَ وَرَسُولَهُ كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ * يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللهُ وَنَسُوهُ وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ * أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا فِى السَّمٰوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ * أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَاجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللهُ وَيَقُولُونَ فِى أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَاجَوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللهَ الَّذِى إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ * إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ

لِيَحْزُنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ انْشُزُوا فَانْشُزُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ * ءَأَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَءَاتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ * أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ * أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ * لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ * يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ * اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنْسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ * إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ * كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ * لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا ءَابَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ *

هذه السورة ثلاثة أقسام

القسم الأول فى تفسير بسملة (سورة المجادلة) وما بعدها إلى (سورة تبارك) .

القسم الثانى فى أحكام الظاهرة من أول السورة إلى قوله : « وللكافرين عذاب أليم » .

القسم الثالث فى أحكام المجالس من النجوى والتفسح فيها ومناجاة الرسول صلى الله عليه وسلم ، ومن ذم المنافقين وما يتبعه من قوله تعالى : « إن الذين يحادون الله ورسوله » إلى آخر السورة .

القسم الأول : فى تفسير بسملة سورة المجادلة

وما بعدها إلى سورة تبارك

(١) ــ ملخص السورة

اللهم إنا نحمدك ونشكرك على نعمة العلم وبهجة الحكمة ، لقد أنرت بصائرنا وأسعدتنا بالعرفان ، هذه الرحمات المترادفات فى أول هذه السور : (المجادلة ، والحشر ، والممتحنة ، والصف ؛ والجمعة ، وسورة المنافقين ، والتغابن ، والطلاق والتحريم ، وسورة الملك) .

هى عشر سور ذكرت الرحمات فى أوائلها عشرين مرة ، إن هذه الرحمة موجهة فى هذه السور العشر غالبا لمنهج خاص ، وطريق معبد ، ومهيع طريف بديع ، ذلك أن الأمم يعوزها علم وعمل ؛ والعمل هنا فى هذه السور العشر راجع إلى نظام الأسرة ونظام الدولة ، فلئن رأينا التى تجادل رسول الله صلى الله عليه وسلم فى زوجها ، وتشتكى إلى الله ، والله يسمع تحاورهما ، وقد رحم المرأة وجعلها قريرة العين مع زوجها فهذا كله من الرحمة الإلهية العامة التى يراد بها حفظ الأسرة ، وبقاء الألفة بين الزوجين ، وثبات الأحوال وزوال الشقاق ، فهذه رحمة وجهت لنظام الأسرة ، وحفظ العشرة ، ودوام الألفة ، فعلى الولاة أن يستيقظوا للم شعث الأسرات والأمم أسوة برسول الله صلى الله عليه وسلم ، فهذا إنما هو مثل ضربه الله لذلك وليس خاصا بهذه المرأة ، نعم هى حادثة وقعت أيام النبوة ولكنها مضرب أمثال للولاة والحكام أن يستنبطوا الطرق للم الشعث وجمع الكلمة ، ويتبع ذلك آداب المعاشرة من ترك النجوى التى بها يحزن الإخوان فى المجلس ويسوؤهم فعل المتناجين ، وهكذا التفسح فى المجالس ، ثم ترك مضايقة الرسول صلى الله عليه وسلم لأن وقته لا يتسع لذلك ، فليقدم الذى يريد مناجاته صدقة ، ثم التخفيف بترك تلك الصدقة ، ثم النهى عن موالاة الأعداء بخيانة الأمة وتفريق الكلمة . إذن (سورة المجادلة) راجعة فى جملتها إلى :

(١) ألفة الأزواج فى المنازل .

(٢) وألفة الأصحاب فى المجالس .

(٣) والأدب مع الحكام بترك مضايقتهم لكثرة أعمالهم .

(٤) ورفق الحكام بالمحكومين إذا رأوا أمرا يثقلهم .

(٥) ومجانبة خيانة الأمة بموالاة أعدائها ، وبالنفاق والشقاق ، فإن ذلك يضعفها ويفرق جمعها ويذلها ،

إذن الرحمة فى (سورة المجادلة) موجهة بنوع أخص إلى حفظ الأسرة وحفظ الدولة .

تفسير البسملة وتلخيص سورة الحشر

أما فى (سورة الحشر) وهى السورة الثانية فإن الرحمة فيها موجهة إلى حفظ الدولة كالشق الأخير من (سورة المجادلة) فكأن السورتين سورة واحدة ، لحفظ الأسرة ، وحفظ نظام المجالس ، وحفظ الدولة فى المجادلة تبعها فى الحشر ما يفيد ذلك . وبيانه أن اليهود هنا تخاذلوا وتباغضوا ، والتخاذل يتبعه انبعاث الرعب فى القلوب ، ومتى انبعث الرعب فى القلوب زال الأمن ، ولم تنفع الحصون ، وقطعت الأشجار ، وكان الجلاء عن الوطن ، أو الاستعباد فيه . يقول الله فى الموالين لهؤلاء : « لأنتم أشد رهبة فى صدورهم من الله » ويقول: « بأسهم بينهم شديد تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى ذلك بأنهم قوم لا يعقلون » فهؤلاء اليهود المذكورون فى هذه السور تقدم فى بعضهم ما يقرب من هذا فى (سورة آل عمران) عند آية : « ألم تر

إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يدعون إلى كتاب الله ليحكم بينهم ثم يتولى فريق منهم وهم معرضون » فإنهم هنالك اتكلوا على شفاعة آبائهم وهم مذنبون ، فنبذوا كتاب الله وهو التوراة فى الأحكام الشرعية ، فأصابهم التخاذل فتفرقوا شذر مذر ، وأخذ المسلمون ديارهم ، وذلك مشروح هناك شرحا ضافيا ، وهناك سر (ا ل م) فى أول السورة فارجع إليه إن شئت ، فما هنا وماهناك ضرب مثل للأمم كلها ومنهم المسلمون ، فإذا سمعت الله يقول : « تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى ذلك بأنهم قوم لايعقلون » فمعناه أن كل أمة على هذه الشاكلة فإنها لا تعقل ، فآباؤنا العرب فى الجاهلية يصح أن نقول فيهم ذلك ، لأنهم كانوا فريقين : فريق يتبعون الأكاسرة فى جهة بلاد الفرس ، وفريق يتبعون القياصرة فى جهة بلاد الشام وما والاها ، وإذا رأينا الأمم الإسلامية العربية بعد العصر الأول قد تفرقوا ، وذاق بعضهم بأس بعض ؛ فلنا الحق أن نحترس مما وقعوا فيه ، وأن نقول : تجب المحبة العامة وإلا حقت علينا كلة الله إذ يقول : « تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى ذلك بأنهم قوم لا يعقلون » .

وإذا رأينا بلاد العراق قد دخلت فى عصبة الأمم فى هذه الأيام وأنا أكتب هذا صباح يوم الجمعة ٢٨ أكتوبر سنة ١٩٣٢ — الموافق ٢٨ جمادى الثانى سنة ١٣٥١ هجرية ، وزال عنها احتلال الانجليز وأعلن ذلك فى الجرائد شرقا وغربا ، وإذا رأينا أمة الترك استقلت من قبلها ، وأمة الأفغان كذلك ، وأمة الفرس أيضا ، فمعنى هذا أن هذه الأمم الإسلامية التى استقلت بعد الحرب الكبرى المنتهية سنة ١٩١٨ م قد نبذت الشقاق ، وخلصت من النفاق ، ولم يصبها ما أصاب الأمم الجاهلة المتخاذلة التى قال الله فيها : « تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى ذلك بأنهم قوم لايعقلون » أى أن هؤلاء قوم لا يعقلون . هذه الشنشنة وهى الاتحاد طارئة على هذه الأمم بسبب ما أنعم الله عليهم به من رحمة التواصى بالحق ، فأصبحوا على نمط الذين ذكروا هنا فى [سورة الحشر] إذ جاء فيها أن الأنصار يحبون المهاجرين ويؤثرونهم على أنفسهم ، وهؤلاء المتحدون على الضد من الذين نافقوا .

(٣) تفسير البسملة وتلخيص سورة الممتحنة

ثم أليس من العجب العجاب أن ترى (سورة الممتحنة) تجرى على نفس هذا الأسلوب إذا ابتدئت بالنهى عن اتخاذ الأعداء أولياء كما فى سورة الحشر قبلها ، وكما فى آخر سورة المجادلة من حيث المعنى ، إذن هذه السور أشبه بسورة واحدة فصل بينها بذكر الرحمة لتذكير الناس بنعمة العلم وإيقاظهم للاتحاد ولم الشمل وحفظ الجمع . ومن أجمل الحكم أن يذكر فيها امتحان المهاجرات ، وهل هن مؤمنات حقا ، وربما كن منافقات ، ومعنى هذا ألا نذر أحدا من الأمم التى تناوئنا يدخل معنا إلا بعد امتحانه ، سواء أكان ذكرا أم أنثى ، وإن كان الامتحان فى السورة خاصا بالإناث ، وإذا احترسنا من المرأة فالاحتراس من الرجل من باب أولى :

(٤) تفسير بسملة سورة الصف

والرحمة فى (سورة الصف) واضحة متممة لما تقدم ، فإننا إذا حفظنا الأسرات والمجالس والدولة ، ونبذنا المنافقين ، فتمام ذلك أننا إذا حاربنا الأعداء لا نكون متخاذلين ، بل نكون صفا واحدا كأننا بنيان مرصوص ، ومستحيل أن يكون الناس كالبنيان المرصوص فى الحرب ، وقتال العدو ، وحفظ الدولة ، والتعاون فى الأعمال العامة إلا بعد نبذذوى النفاق بعد امتحانهم وإخراجهم من صفوف الأمة حتى لا يكونوا

سببا فى تفريق الصفوف ، ومتى اجتمعت الصفوف كان النصر المذكور فى آخر (سورة الصف) « نصر من الله وفتح قريب » .

(٥) تفسير بسملة سورة الجمعة

ومن أعجب العجب أن يتبع اتحاد الصفوف فى الحرب باتحاد النفوس فى صلاة الجمعة ، فليس الاتحاد على العدو بمغن عن الاتحاد فى العبادات الموجب لتقارب القلوب وانتظام الألفة ، بل لا انتظام لصفوف القتال إلا بعد الانتظام فى الأعمال العامة والعبادات كصلاة الجمعة ، ومن عجب أن يذكر فيها أن الذين آتاهم الله كتابه ثم لم يصلوا إلى أمثال هذه النتائج فأولئك مثلهم « كمثل الحمار يحمل أسفارا » . (وبعبارة واضحة) إن أمم الإسلام الحالية ، وأخص بالذكر الأمة العربية التى أنا واحد منها إذا لم يصلوا لهذه الدرجة من المنعة والقوة بترك التخاذل والعمل بكتاب الله فى الأعمال العامة فإنهم عمهم نصيب من آية « مثل الذين حملوا التوراة » ومن آية : « تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى ذلك بأنهم قوم لا يعقلون » لأنهم اجتمعوا فى اللغة والدين والعادات والنسب وتجاور الأوطان ، واختلفوا فى أمور فرعية فى الدين فجعلوها أصلا وتخاذلوا .

وأنا أحمد الله إذ رأيت فى هذه الأمم من سعدوا بالألفة ، وهن الأمم الأربعة المتقدمة ، وإحداهن عربية والأخريات منها تركية ، ومنها أفغانية ، ومنها فارسية ، ولقد رأيت من اهتمام بقية أبناء العرب ما يشرح الصدر فى زماننا ، فهذه اليمن ، وهذه نجد ، وهذه الحجاز ، كل هذه الأمم مستقلة ، ولكن بقيت مصر وبقيت بلاد سوريا وفلسطين وبلاد شمال أفريقيا : طرابلس وتونس والجزائر ومراكش .

أيتها الأمم العربية المستقلة وغير المستقلة ، عار عليكم أن يكون هذا كتاب ربكم وأنتم تتلونه ، والحوادث قد أيقظتكم ، ومع ذلك لا تتحدون .

يجب أن يكون السودانى المسلم العربى وغير العربى مع المصرى ، وسكان شمال أفريقيا وأهل فلسطين وسوريا والحجاز ونجد واليمن والعراق كلهن أمة واحدة ، إن لم يفعلوا ذلك فان مثلهم كمثل آبائنا العرب فى الجاهلية ، وكمثل اليهود إذ قال الله فيهم : « تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى ذلك بأنهم قوم لا يعقلون » .

أيها المسلمون : أيها العرب : هذا هو المقصود الأعظم من هذه السور ، ولهذا أنزل القرآن ، وإذا ظنت هذه الأمم أن اختلاف أوطانها أو ملوكها أو مذاهبها كالشافعية والحنفية والمالكية والحنبلية والزيدية والوهابية والشيعية وغيرها يوجب تخاذلها وعدم اتحادها ، فإن ذلك يدل على عدم تبصرها وعلى جهلها .

فياعجبا لأمة الإسلام ! (تلك الأمة التى جاء الدين لها ، وهو يجمع الأمم كلها فى دولة واحدة ، يضم تحت رايتها كل نحلة وملة ، ويحافظ على عباد الله) كيف تجعل ما به الإتفاق عين ما به الشقاق ، ويقول كل أصحاب مذهب نفسى نفسى ، وبقية العرب وبقية المسلمين كفار أو فساق : وربما استحلوا دماءهم وأموالهم وقتلوهم تقتيلا .

والحق الصراح أن هذا إذا ظهر فى هذه الأمم فإنه ينطبق عليها قوله تعالى : « تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى ذلك بأنهم قوم لا يعقلون » وإنى أرى أن أمم الإسلام عربية وغير عربية اليوم تسعى جهدها للكمال والاتحاد .

(٦) تفسير بسملة سورة المنافقين

ولما كانت السور الخمس السابقة مدارها على نظام الألفة المنزلية تارة ، ونظام الأمة بنبذ النفاق ثانيا أكد الشق الثانى فى سورة المنافقين أن هذه السورة وتناسقها وتلاحقها يدعو للبحث والتفكير فيها ، كررت السور التى تدعو إلى الوفاق وترك الشقاق ، وهذه السورة سادستها ، وذلك دلالة على أن هذا الدين يسع أمما وأمما ، وليس ديننا ضيق الصدر ، وسع ديننا منافقى المدينة ، ووسع صدر رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد الله بن أبى ابن سلول ، وسعه وهو القائل فى إحدى الغزوات كما سيأتى : « لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل » ، وسعه ولم يكدر صفو ابنه المسلم بقتله لهذا القول ، خيفة أن يقال : إن محمدا يقتل أصحابه ، دين واسع ، ولكن بعض الفرق الإسلامية تبيح قتل المسلمين تدينا لأنهم كفار فى نظرهم ، نظريات خاطئة ، ونفوس ضائعة ، وعقول نائمة بالتقليد الأعمى ، وسع ديننا المنافقين فيه ، ووسع جميع الديانات أن تعيش تحت كنف دولة الإسلام ، ولكن الأمم الإسلامية العربية لم تقدر فى القرون المتأخرة أن تعيش فى دولة واحدة تباعدا عن الحق وجهلا بالدين .

(٧) تفسير بسملة سورة التغابن

ولما كان مقام حفظ الدولة من النفاق قد جاء فيه ما يكفى لذوى الألباب أتبعه بسورة التغابن يراد بها استراحة القلوب وشرح الصدور بتذكير الناس بعوالم السموات والأرض المسبحات لربها فيها ، وتذكير الناس بالأمم الخالية ، والقرون الماضية ، وإنذار بعضهم بالنار ، وتبشير آخرين بالجنات ، ثم إراحة الأفئدة بأن المصائب مقدرة فى الأزل ، فعلى الناس أن يرحموا نفوسهم ، ولا يحملوها مافوق طاقتها من الغم على مافات ، لأنهم لابد لهم فى وقوعه ، فعلى الإنسان إذن أن يصفح عن ذنوب أهله وذريته لأنهم مسجرون ، وقد جعلوا اختبارا له لينظر أيصبر ، فكما صبر رسول الله صلى الله عليه وسلم على المنافقين فى المدينة يجب على رب الأسرة أن يتحمل مايصيبه فى سبيل حفظ أسرته اقتداء بنبيه صلى الله عليه وسلم ، وليعف وليصفح .

(٨) تفسير بسملة سورة الطلاق

وإذا طلق المسلمون أزواجهم ، فعلى المطلق ، وعلى القاضى ، وعلى سائر الحكام أن يكونوا عادلين فى المعاملة ، وليلاحظوا النفقة والعدة ، وذلك رجوع إلى نظام الأسرة اقتداء بالرسول صلى الله عليه وسلم ، إذ عامل أزواجه أمهات المؤمنين بالرفق واللين والشفقة ، فكما أن الله سمع قول المرأة التى تجادل فى زوجها وتشتكى إلى الله .

(٩) تفسير بسملة سورة التحريم

هكذا هو سبحانه ألهم رسوله أن يكون قدوة فى حفظ الزوجات والمعاشرة ، فأعرض عن إذاعة بعض الأسرار التى أذاعتها إحدى أمهات المؤمنين ، وضرب الله الأمثال لحسن المعاشرة فى الدنيا والصبر على مضض المعاملة فيها بامرأة نوح إذ صبر عليها ، وكذا امرأة لوط ، فهذان مثلان ضربا لرسول الله صلى الله عليه وسلم اطمئنانا لقلبه فيصبر على الزوجات كما صبر نوح ولوط ، وهكذا مريم ابنة عمران وآسية امرأة فرعون صبرتا فدخلتا الجنة . فهذه الأمثال الأربعة المضروبة مثلا لدوام المعاشرة والصبر على المعاشرين وإن كانوا كافرين أومنافقين رجالا ونساء ، وهكذا صبره صلى الله عليه وسلم وحفظه لأهل بيته ، كل ذلك ليثبت به فؤاد المسلمين

فى معاشرة الأهل المذكورة فى سورة التغابن: « يا أيها الذين آمنوا إن من أزواجكم وأولادكم عدوا لكم فاحذروهم » . هذا نموذج لأهم المقصود بهذه السور التسع المتتابعات .

(١٠) تفسير بسملة سورة تبارك

ثم أتبعتها بعاشرتها وهى « سورة تبارك الذى بيده الملك » وأشار إلى ماقلناه كله فى هـذا المقام فقال فى أولها « ليبلوكم أيكم أحسن عملا » . فكأنه يقول : إن جميع ما تقـدم من أحوال الأمم ، ونفاق بعض رجالها ، وشقاق نسائها ، ومايتبع ذلك ، كل هذا إنما جعلته اختبارا لكم وامتحانا ، وهنا أخذ يخرج بعقل المسلم من ساحات الأرض الضيقة إلى ساحات السموات الواسعة ، ويشرح عالم السموات والأرضين ، والليل والنهار والجبال والجنات الواسعات فى الدنيا وفى الآخرة ، وكذلك جهنم ترويحا لنفوس الناس ، وإرشادا إلى أن هذا هو المقصود الأتم من الحياة ، وماتقدم إنما هو مقدمات ، وقد تقدم نظير هذا فى (سورة البقرة) عند آيات الطلاق والخلع ونحوها . وإلى هنا تم الكلام على القسم الأول فى تفسير بسملة سورة المجادلة وما بعدها إلى سورة تبارك ، وإنما فعلنا ذلك لأن الرحمة تقدم الكلام عليها كثيرا فى هذا التفسير ، فاكتفينا هنا بذكر ملخص السور العشر مخافة التطويل .

كتب صباح يوم الجمعة ٢٨ جمادى الثانية سنة ١٣٥١ هجرية الموافق ٢٨ اكتوبر سنة ١٩٣٢ م والحمد لله رب العالمين .

القسم الثانى : فى أحكام المظاهرة

التفسير اللفظى

بسم الله الرحمن الرحيم

روى «أن خولة بنت ثعلبة ظاهر منها زوجها أوس بن الصامت فاستفتت رسول الله صلى الله عليه وسلم أوقالت : يارسول الله إن زوجى أوس بن الصامت تزوجنى وأنا شابة غنية ذات أهل ومال حتى إذا أكل مالى وأفنى شبابى ، وتفرق أهلى ، وكبر سنى ظاهر منى وقد ندم ، فهل من شئ يجمعنى وإياه وتفتينى به ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : حرمت عليـه ، فأعادت الكرة وهو يعاود الجواب حتى قالت : أشكو إلى الله فاقتى ووحدتى ، قد طالت له صحبتى ، ونثرت له بطنى ، وإن لى صبية صغارا ، إن ضممتهم إلى جاعوا ، وإن ضممتهم إليه ضاعوا ، وجعلت ترفع رأسها إلى السماء ، وتستغيث وتشكو إلى الله ، فنزلت هذه الآيات الأربع ، فقال لها صلى الله عليه وسلم : ادعى لى زوجك ، فتلا عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم» (قد سمع الله قول التى تجادلك فى زوجها) تجادلك : أى تخاصمك وتكلمك فى شأن زوجها (وتشتكى إلى الله) تظهر مابها من المكروه (والله يسمع تحاوركما) مراجعتكما الكلام (إن الله سميع) يسمع شكوى المضطر (بصير) بحاله (الذين يظاهرون منكم من نسائهم) الظهار أن يقول الرجل لامرأته : أنت على كظهر أمى ، وألحق بالظهر الفقهاء كل جزء من أنثى محرم ، وهذا كان من أيمان الجاهلية (ماهن أمهاتهم) أى مااللاتى يجعلونهن من زوجاتهم كالأمهات بأمهات : أى لسن بأمهاتهم (إن أمهاتهم إلا اللائى ولدنهم) فلاتشبه بهن فى الحرمة إلا من ألحقها الله بالحاقهن كالمرضعات وأزواج الرسول صلى الله عليه وسلم (وإنهم ليقولون منكرا من القول) لايعرف فى الشرع (وزورا) كذبا (وإن الله لعفو غفور) لما سلف إذا تاب الإنسان منه (والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا) أى يعودون لتحليل ماحرموا ، أويعودون لنقض ماقالوا ، أولتداركه ، والعود للنقض أو للتدارك أوللتحليل نتيجتها متقاربة ، وذلك إما بالسكوت عن الطلاق بعد الظهار زمانا يمكنه أن

يطلقها فيه وإما بالندم فيرجع إلى الألفة بعد الظهار ، أو استباحة الوطء، وللملامسة والنظر بشهوة ، أو مجرد العزم على وطئها أو نفس الوطء . والأول قول الشافعي . والثاني قول ابن عباس . والثالث قول أبي حنيفة . والرابع قول مالك . والخامس للحسن وقتادة وطاوس والزهري . وهناك وجه سادس : أن الظهار كان في الجاهلية فالتلفظ به نفسه رجوع إلى حال الجاهلية . ووجه سابع : أنه لا يقع الظهار إلا إذا كرر لفظ الظهار، وإلا لم يكن عود، فإن لم يكرر اللفظ فلا كفارة ، وهذا الأخير قول أهل الظاهر .

هذا ملخص الأقوال : فإذا عاد المظاهر بعدم التلفظ بالطلاق أو بالندم، أو بالعزم على الوطء ، أو بنفس الوطء إلى آخر ماتقدم (فتحرير رقبة) أي فالواجب عليهم إعتاق رقبة (من قبل أن يتماسا) أي أن يستمتع كل من المظاهر والمظاهر منها بالآخر فيحرم عليه الاستمتاع قبل التكفير، فلا جماع ولا لمس بشهوة ونحو ذلك (ذلكم) أي ذلكم الحكم بالكفارة (توعظون به) أي إن غلظ الكفارة وعظ لكم حتى تتركوا الظهار ولا تعاودوه (والله بما تعملون) من التكفير وتركه (خبير) ثم أخذ يذكر حكم من لم يقدر على الرقبة فقال (فمن لم يجد) الرقبة (فصيام شهرين متتابعين من قبل أن يتماسا) فإن أفطر بغير عذر فليستأنف، وإن أفطر بعذر ففيه خلاف ، وإن جامع ليلا عصى الله . ولا ينقطع التتابع عند الشافعي. وعند أبي حنيفة ومالك ينقطع التتابع (فمن لم يستطع) الصوم لهرم، أو مرض مزمن، أو شبق مفرط (فإطعام ستين مسكينا) ستين مدا ، وهو رطل وثلث مما يخرج في زكاة الفطر ، ويقول أبو حنيفة : يعطى كل مسكين نصف صاع من بر أو صاعا من غيره، ولم يذكر التماس مع الطعام اكتفاء بذكره مع الآخرين (ذلك) البيان والتعليم للأحكام فرض (لتؤمنوا بالله ورسوله) أي لتصدقوا بالله ورسوله في قبول شرائعه ورفض ما كنتم عليه في جاهليتكم (وتلك حدود الله) لا يجوز تعديها (وللكافرين) الذين لا يقبلونها (عذاب أليم) في نار جهنم .

مسائل

(١) من ظاهر من امرأته مرارا ، فالشافعي وأبو حنيفة يوجبان لكل مظاهرة كفارة ، مالم يكن في مجلس واحد وأراد التأكيد فتكون كفارة واحدة ، وأما مالك فجمل المظاهر في مجالس متفرقة ليس عليه إلا كفارة واحدة .

(٢) يقول مالك رحمه الله: إن أراد التكفير بالإطعام يجوز له الوطء قبله ، وعند غيره يحمل الإطعام على غيره .

(٣) إذا جامع قبل أن يكفر فعليه كفارة واحدة عند مالك وأبي حنيفة والشافعي وأحمد وسفيان ، وبعضهم يقول : عليه كفارتان .

انتهى القسم الثاني من السورة، والحمد لله رب العالمين .

القسم الثالث

في أحكام المجالس من النجوى والتفسح فيها ، ومناجاة الرسول صلى الله عليه وسلم ومن ذم المنافقين وما يتبعه

قال تعالى : (إن الذين يحادون الله ورسوله) يعادونهما ، أو يختارون حدودا غير حدودهما (كبتوا) أخزوا أو أهلكوا (كما كبت الذين من قبلهم) من كفار الأمم الماضية (وقد أنزلنا آيات بينات) تدل على صدق الرسول وما جاء به (وللكافرين عذاب مهين) يذهب تكبرهم وعزهم (يوم يبعثهم الله جميعا فينبئهم بما عملوا)

الظرف متعلق بمعين (أحصاه الله) حفظ الله ما عملوا وأحاط به عددا لم يغب منه شيء (ونسوه) لأنه كثير، وهم به متهاونون (والله على كل شيء شهيد) لايغيب عنه شيء.

الكلام على النجوى وأحكامها

قال تعالى (ألم تر أن الله يعلم ما فى السموات وما فى الأرض) الكليات والجزئيات (ما يكون من نجوى ثلاثة) مايقع من أسرار ثلاثة: أى مسارة ومشاورة: أى ما من شيء يناجى به ثلاثة بعضهم بعضا (إلا هو رابعهم) بالعلم يعلم نجواهم كأنه حاضر معهم ومشاهدهم (ولا خمسة إلا هو سادسهم) وإنما خص هذه الأعداد لأن الله وتر يحب الوتر (ولا أدنى من ذلك) ولا أقل كالواحد والاثنين (ولا أكثر) كالستة فما فوقها (إلا هو معهم) يعلم مايجرى بينهم (أينما كانوا) بالعلم والقدرة (ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة) إظهارا لذنوبهم ليفتضحوا ويجازوا (إن الله بكل شيء عليم) ثم إن اليهود والمنافقين كانوا يتناجون ويتغامزون بأعينهم إذا رأوا المؤمنين فيظن المؤمنون أنهم يتناجون بما يسوءهم كأن يكون بلغهم خبر عن سرية هزمت أو كثر فيها القتل فيحزنون لذلك، فنهاهم رسول الله ﷺ ثم عادوا لمثل مانهوا عنه، فهذا قوله تعالى: (ألم تر إلى الذين نهوا عن النجوى ثم يعودون لما نهوا عنه ويتناجون بالإثم والعدوان) وهو ذلك السر الذى كان بينهم لأنه يكون إما مكرا وإما كيدا بالمسلمين أو شيئا يسوءهم، وهذان إثم وعدوان. وقوله (ومعصيت الرسول) أى يوصى بعضهم بعضا بمعصيته صلى الله عليه وسلم (وإذا جاءوك حيوك بما لم يحيك به الله) فقد كان اليهود يدخلون على رسول الله صلى الله عليه وسلم ويقولون: السام عليك يامحمد، والسام الموت، والله يقول: «وسلام على عباده الذين اصطفى» و «ياأيها الرسول» و «ياأيها النبى» (ويقولون فى أنفسهم لولا يعذبنا الله) أى يقولون فيما بينهم: لو كان نبيا لعاقبنا الله (بما نقول) من الاستخفاف به (حسبهم جهنم يصلونها) أى حال كونهم يدخلونها (فبئس المصير) المرجع جهنم.

ورد فى حديث البخارى «أن رهطا من اليهود دخلوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا: السام عليك فقال: وعليكم، فقالت عائشة: السام عليكم ولعنكم الله وغضب عليكم، فقال النبى صلى الله عليه وسلم: ياعائشة عليك بالرفق، وإياك والعنف والفحش» اهـ.

ثم خاطب الله المؤمنين فقال (ياأيها الذين آمنوا إذا تناجيتم فلاتتناجوا بالإثم والعدوان ومعصيت الرسول) كما يفعل المنافقون (وتناجوا بالبر والتقوى) كخير للمسلمين وعدم معصية الرسول (واتقوا الله الذى إليه تحشرون) فيما تأتون وتذرون (إنما النجوى من الشيطان) أى إنما النجوى بالإثم والعدوان منه فانه المزين لها والمحرض عليها (ليحزن الذين آمنوا) أى إنما يزين الشيطان ذلك ليحزن المؤمنين، وفى البخارى ومسلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «إذا كانوا ثلاثة فلا يتناجى اثنان دون الثالث، فإن ذلك يحزنه» وهذه الجملة الأخيرة لأبى داود (وليس بضارهم شيئا) الضمير فى ليس إما للتناجى وإما للشيطان (إلا بإذن الله) إلا ما أراد الله تعالى (وعلى الله فليتوكل المؤمنون) فليكل المؤمنون أمرهم لله.

الكلام على التفسح فى المجالس

قال تعالى (ياأيها الذين آمنوا إذا قيل لكم تفسحوا فى المجالس فافسحوا) أى إذا قيل لكم توسعوا فيها وليفسح بعضكم عن بعض فوسعوا وتنحوا، وقد كانوا يتنافسون فى مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم ويحبون القرب منه، فكانوا إذا رأوا رجلا مقبلا تضاموا فى مجلسهم، فأمرهم الله أن يفسح بعضهم لبعض

بقوله « فافسحوا » (يفسح الله لكم) فيما تريدون التفسح فيه من المكان والرزق والصدر وفى الجنة .

واعلم أنه لافرق فى هذا بين أن يكون المجلس فى صلاة الجمعة ، أوفى صف القتال ، أوفى حلقة العلم ، أوالذكر وفى بعضها وردت أحاديث أسندت السبب إليها ، والآية أعم (وإذا قيل انشزوا فانشزوا) أى ارتفعوا عن مواضعكم حتى توسعوا لإخوانكم فارتفعوا (يرفع الله الذين آمنوا منكم) بامتثال أوامره(والذين أوتوا العلم) والعالمين منكم خاصة (درجات والله بما تعملون خبير) وهذه الدرجات فى الدنيا بالرتبة والشرف وفى الآخرة فى الجنة ، فكان ابن مسعود إذا قرأها يقول : يا أيها الناس افهموا هذه الآية ولترغبنكم فى العلم . وقال صلى الله عليه وسلم : « فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب » وعنه صلى الله عليه أيضا : « يشفع يوم القيامة ثلاثة : الأنبياء ، ثم العلماء ، ثم الشهداء » .

وورد أن سليمان خير بين العلم والمال والملك ، فاختار العلم ، فأعطى المال والملك معه ، وورد أيضا : أوحى الله إلى إبراهيم عليه السلام : يا إبراهيم إنى عليم أحب كل عليم . ثم إن فى قوله «انشزوا» تفسيرا آخر: أى إذا قيل لكم انهضوا إلى الصلاة ، وإلى الجهاد ، وإلى كل خير ، فانهضوا ولا تقصروا عنه ، وقوله « والله بما تعملون خبير » تهديد لمن لم يمتثل الأمر :

حكم مناجاة الرسول صلى الله عليه وسلم

قال تعالى (ياأيها الذين آمنوا إذا ناجيتم الرسول فقدموا بين يدى نجواكم صدقة) أى فتصدقوا قدامها ، شبهت النجوى بمن له يدان على سبيل الاستعارة المكنية ، وذلك فيه [أمران : الأول] إعظام مناجاة الرسول صلى الله عليه وسلم ، فإن الإنسان إذا وجد الشىء بمشقة استعظمه ، وإذا ناله عفوا وبسهولة احتقره (والثانى) نفع الفقراء ، وذلك أن أهل الميسرة منهم كانوا يكثرون المناجاة معه صلى الله عليه وسلم دون الفقراء حتى تأذى بذلك النبى صلى الله عليه وسلم فنهاهم الله عن ذلك وأمرهم بالصدقة قبل أن يتناجوا مع النبى صلى الله عليه وسلم (ذلك) أى الصدقة (خير لكم) من الإمساك (وأطهر) لقلوبكم من الذنوب ، أو أطهر لقلوب الفقراء ، (فإن لم تجدوا) الصدقة ياأهل الفقر فتكلموا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بما شئتم بغير التصدق (فإن الله غفور) متجاوز لذنوبكم (رحيم) لمن تاب منكم ، وهذه تفيد طلب الصدقة من الأغنياء دون الفقراء قبل المناجاة ، قيل إنهم يتصدقون لكل كلمة بدرهم ، ومع الاختلاف فيما أهى للندب أو الوجوب نسخت بآية « أأشفقتم » الآتية ، وعن على رضى الله عنه : «إن فى كتاب الله آية ما عمل بها أحد غيرى ، كان لى دينار فصرفته فكنت إذا ناجيته تصدقت بدرهم » وقوله (أأشفقتم) أى أبخلتم وخفتم العيلة والفاقة إن قدمتم ، وهذا هو قوله (أن تقدموا بين يدى نجواكم صدقات فإذ لم تفعلوا) ما أمرتم به (وتاب الله عليكم) تجاوز عنكم ونسخ الصدقة قبل المناجاة بعد عشر ليال ، وإذ بمعنى إن (فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأطيعوا الله ورسوله) فيما أمر ونهى (والله خبير بما تعملون) فهو محيط بأعمالكم ونياتكم .

الكلام فى المنافقين

قال تعالى (ألم تر إلى الذين تولوا) والوا (قوما غضب الله عليهم) وهم اليهود (ماهم منكم ولا منهم) لأنهم منافقون مذبذبون بين ذلك ، ولولا النفاق لم يوالوا اليهود المغضوب عليهم (ويحلفون على الكذب) وهو ادعاء الاسلام (وهم يعلمون) أنهم كاذبون . روى أنه صلى الله عليه وسلم كان فى حجرة من حجراته فقال يدخل عليكم الآن رجل قلبه قلب جبار ، وينظر بعين شيطان ، فدخل عبد الله بن نبتل المنافق ،

وكان

وكان أزرق فقال صلى الله عليه وسلم : علام تشتمنى أنت وأصحابك ؟ فحلف بالله ما فعل ، ثم أمر أصحابه فحلفوا فنزلت» (أعد الله لهم عذابا شديدا إنهم ساء ما كانوا يعملون) فتمرنوا على سوء العمل وأصروا عليه (اتخذوا أيمانهم جنة) وقاية دون دمائهم وأموالهم (فصدوا عن سبيل الله) فصدوا الناس عن الإيمان بدين الله بتثبيطهم وتحريشهم (فلهم عذاب مهين) ذكر العذابين: الأول للقبر، والثانى عذاب الآخرة (لن تغنى عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) تفسيره واضح مما سبق فى التفسير (يوم يبعثهم الله جميعا) الظرف متعلق بقوله « لن تغنى » (فيحلفون له كما يحلفون لكم) لأن الأخلاق تلازم الإنسان فى الآخرة كما كانت ملازمة له فى الدنيا (ويحسبون أنهم على شئ) فى حلفهم الكاذب ، ذلك أنهم لاعتيادهم رواج الأيمان الكاذبة فى الدنيا وخدعهم يظنون أن الله كذلك تروج عنده الأيمان الكاذبة (ألا إنهم هم الكاذبون) البالغون غاية الكذب (استحوذ عليهم الشيطان) استولى عليهم ، يقال حذت الإبل وأحذتها إذا استوليت عليها (فأنساهم ذكر الله) لايذكرونه بقلوبهم ولا بألسنتهم (أولئك حزب الشيطان) جنوده وأتباعه (ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون) وأى خسر أعظم من أن يفوت عليهم النعيم الأبدى (إن الذين يحادون الله ورسوله أولئك فى الأذلين) أى فى جملة من يلحقهم الذل فى الدنيا والآخرة ، فاذا كانت عزة الله لانهاية لها فذل أعدائه عظيم (كتب الله) فى اللوح المحفوظ وأبرز آثاره فى نظام العالم أن يغلب هو ورسله ، وهذا قوله تعالى (لأغلبن أنا ورسلى) فمنهم من ألقنه الحجة فيغلب بها ، ومنهم من أعطيه القوة فيغلب بالسيف ، لأنه لايبقى فى الوجود إلا ما هو أصلح له وأنفع (إن الله قوى) فهو ينصر أنبياءه (عزيز) غالب أعداءه (لاتجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله) فاذن إيمان المؤمنين يفسد بموادة الكافرين ، ومن كان مؤمنا حقا لايوالى كافرا ، لأن من أحب أحدا امتنع أن يوالى عدوه . واعلم أنه ليس فى مخالطتهم ومعاشرتهم محظور ، إنما المحظور مناصحتهم وإرادة الخير لهم دينا ودنيا مع كفرهم ، قال تعالى مبالغا فى زجر موادتهم (ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم) فهؤلاء وإن كان الميل لهم أمرا طبيعيا يجب أن يقاوم هذا الميل لكفرهم . ومن ذلك أن حاطب بن أبى بلتعة كتب إلى أهل مكة كما سيأتى فى (سورة الممتحنة) بالمناصحة فنهى عن ذلك بهذه الآية هو وأمثاله (أولئك كتب فى قلوبهم الإيمان) أثبته فيها (وأيدهم بروح منه) من عند الله ، وهو نور القلب والنصر والإيمان والقرآن (ويدخلهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها رضى الله عنهم ورضوا عنه) ولا جرم أن رضوان الله بعد دخول الجنة أعظم من الجنة (أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون) أى الفائزون. انتهى التفسير اللفظى للقسم الثالث من السورة ، والحمد لله رب العالمين .

لطائف هذه السورة

(١) فى قوله تعالى : « قد سمع الله قول التى تجادلك فى زوجها وتشتكى إلى الله والله يسمع تحاوركما »
(٢) فى قوله تعالى : « أأشفقتم أن تقدموا بين يدى نجواكم صدقات » .
(٣) فى قوله تعالى : « كتب الله لأغلبن أنا ورسلى » .
(٤) فى قوله تعالى : « لاتجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله » ؟

اللطيفة الأولى والثانية

اعلم أن هذه السورة كالمتممة لسورة الحديد ، وكالمفصلة لبعض مافيها ، ذلك أن الله قال فى أواخر سورة الحديد « لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس » وقد تقدم أن الآية تفيد أن الله تعالى أعطى أنبياءه العدل ، وأعانهم بالقوة المادية ، فيستعملون القهر بالسيف والرمح عند الاقتضاء ، فهاهنا أمران : قانون ونظام تام فى الدولة ، وجيش وسلاح يحافظ على ذلك النظام ؛ فإذن لابد من شريعة وقضاة وحكام ، ثم لابد من جند ودفاع وشرطة يحملون السيوف ليحافظوا على الأمن فى الداخل ، ويصدوا العدو من الخارج ، وهذا كل النظام ، ولا ريب أن من يعطى هذه القوة فليس هناك من قوة فوق قوته ، ولا راد لقضائه ، وعلى الناس أن يسمعوا ويطيعوا وليس ذلك للأنبياء وحدهم ، بل إذا ولى عليهم عبد حبشى وخاطبهم بالقانون ورفع السيف فوق رءوسهم وجب عليهم أن يطيعوه ؛ فلما كان ذلك مقتضى القانون وقوة السيف جعل الله سورة قدسمع بعد ذلك ليبين أن من الحوادث مايقبل الأخذ والرد ، ومراعاة الجمهور ، وحفظ القلوب ، ألا ترى أن الله سمع قول امرأة شكت إلى الله ضياع عيالها عند أبيهم وجوعهم عندها فما أسرع أن نزل الوحى بما يسر قلبها ، هكذا لما نزلت آية المناجاة وظهر أن ذلك فيه صعوبة عليهم نزلت الآية بعدها لنسخ ذلك الأمر ؛ والمقصود من هذا أن الله عز وجل يعلم الحكام كيف ينظرون فى أمر رعاياهم ، فاذا أصدروا أمرا فليبحثوا فى أمر الرعية فان وجدوه قد أحرجهم وشق عليهم فلا عار عليهم إذا رجعوا عنه فان فى ذلك المصلحة العامة للحكام والمحكومين . جاء فى آخر (سورة الحديد) : « وجعلنا فى قلوب الذين اتبعوه رأفة ورحمة » فأراد أن يعلم حكام المسلمين هذه الرأفة والرحمة ، ويقول : إذا أمرتم بأمر ترون فيه مصلحة الجمهور ، ثم تعسر تنفيذه على الرعية فلا ترهقوهم من أمرهم عسرا ، ولا تجعلوا القوة التى خولتكموها من السيف والجيش الحافظين للقانون عسفا بالناس وظلما لهم ، بل كونوا ذوى رأفة ورحمة كما جاء فى آية أخرى : « ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم فى الأمر » فهذا من العفو عنهم جاء من طريق الوحى . أن القرآن إنما نزل ليعلم الناس ، وهذا من أعظم التعاليم ، ولذلك تجد الأمم العظيمة تراعى مصالح الجمهور ؛ بل إنهم زادوا على ذلك أنهم جعلوا البلاد تحت أمر نوابهم المنتخبين من تلك البلاد ، فكأن الله يقول : أيها الحكام المسلمون : إذا كنت أنا الذى نسخت آية الصدقة بآية أخرى وليس بينهما إلا عشر ليال ، وأنا العليم بكل شئ وأعلم أنى سأنزل الآية ، وأنها ستشق عليهم ، وأنى سأنسخها ، وأنكم ستقولون : إثبات الانفاق ونفيه معناه أنه لافائدة فى هذه الآيات التى شغلت بها هذه السورة ، وإذا كان الله يعلم كل شئ فما أجدره أن لايأمر ولا ينهى توفيرا للزمن ، وهو بكل شىء عليم كأنه تعالى يقول : أنا أعلم أنكم تقولون ذلك ، ولكنى فعلت ذلك وأثبت الآيتين تعليما لكم حتى تنهجوا نهج الكمال وحفظ قلوب الرعية ، ولا تكونوا كالفرنجة الذين يضربون المسلمين بالمدافع فى شمال أفريقيا وفى الهند إذا عصوا لهم أمرا ، إن ذلك مما يزيل ملكهم سريعا ، فلذلك علمتكم بهذه الآيات كيف تحفظون القلوب وتحافظون على الدولة . هذا هو السر فى جعل هذه السورة بعد سورة الحديد . انتهى الكلام على اللطيفتين ، الأولى والثانية ، والحمد لله رب العالمين .

اللطيفة الثالثة

فى قوله تعالى : « كتب الله لأغلبن أنا ورسلى إن الله قوى عزيز »

اعلم أن القانون المسنون فى هذه الدنيا ، وفى نظام البرية أن من عمل عملا لمصلحة عامة وكان جديرا بها فإن الله يساعده ويحفظه ، ويخلصه من المصائب ، وإذا أصابه مكروه فذلك لرفعة شأنه وزيادة معونته لتقوى روحه على ذلك الأمر العظيم ، فلتجرب ذلك أيها الذكى ، بل ليكن استدلالك على صحة الدين بمثل هذا ، فذلك هو البرهان على صدق النبوة ، ففكر فيما أقول وقم بنصيبك من منفعة الإنسانية بشرط أن تكون قادرا عليه ، وثابر بجد على ما تقدر عليه من نفع المسلمين أو بقية النوع الإنسانى ، فإنك تجد الله معك فى كل حركة وكلمة ، لايفوتك ولايتركك، فان وجدت الأمر كما ذكرت لك بان لك صدق قوله تعالى : « لأغلبن أنا ورسلى » ، وكلما كان العمل أعم كان نظر الله للعامل أتم ، وكلما كان العمل أضعف كانت المساعدة على مقتضاه .

وكم من مسلم يتصدق على من يقدر على العمل ويظن أنه يفعل حسنا . وكم من مؤمن يكب على عمل مبرور كالحج ؛ أو الصلاة ، أو الصيام؛ ويظن أن المبالغة فى ذلك العمل هى كل شىء ، والحق أن الإسلام أمر أعم مما يظن هؤلاء ، الإسلام يوجب أن يقوم الناس بالآداب النفسية ، والأعمال الجسمية، ومساعدة الناس مااستطاعوا لذلك سبيلا ، ومن قصر أو اقتصر على بعض ذلك فهو مذنب متى كان له قدرة على ما هو أعظم وهى المنافع العامة للمسلمين ، أو للعالمين ، لأن الله رب كل شىء ، وأقرب الناس إليه من كان خيره أعم .

هذا معنى : « لأغلبن أنا ورسلى » فبهذا فليعرف الناس صدق الأنبياء عملا لا سماعا على شريطة أن يلاحظوا ما كتبناه ، وبهذا تم الكلام على اللطيفة الثالثة ، والحمد لله رب العالمين .

اللطيفة الرابعة

فى قوله تعالى : « لاتجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله » الخ.

اعلم أن الله كرر هذه الآيات فى سور كثيرة. وجعل الوعيد شديدا على من والى الأعداء ، وذلك هو مصيبة الإسلام اليوم . إن الأمة الإسلامية اليوم أصبحت فى أخريات الأمم ، وأبناؤها فى شمال أفريقيا وفى مصر وغيرها يوالون الفرنجة وينصرونهم على أبناء جنسهم ، ذلك داء عضال قد استحكم ، وقد كررنا أن هذه الأمة سيزول منها هذا الشر المستطير ، وتأخذ حظها بين الأمم فى زمن قريب . انتهت اللطيفة الرابعة. وإلى هنا تم الكلام على سورة المجادلة ، والحمد لله رب العالمين .

تفسير سورة الحشر

هى مدنية

آياتها ٢٢ — نزلت بعد البينة

بسم الله الرحمن الرحيم

سبح لله ما فى السموات وما فى الأرض وهو العزيز الحكيم * هو الذى أخرج
الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر ما ظننتم أن يخرجوا
وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف
فى قلوبهم الرعب يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدى المؤمنين فاعتبروا يا أولى الأبصار *
ولولا أن كتب الله عليهم الجلاء لعذبهم فى الدنيا ولهم فى الآخرة عذاب النار *
ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله ومن يشاق الله فإن الله شديد العقاب * ما قطعتم
من لينة أو تركتموها قائمة على أصولها فبإذن الله وليخزى الفاسقين * وما أفاء
الله على رسوله منهم فما أوجفتم عليه من خيل ولا ركاب ولكن الله يسلط رسله
على من يشاء والله على كل شىء قدير * ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله
وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل كى لا يكون دولة بين
الأغنياء منكم وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا واتقوا الله إن
الله شديد العقاب * للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم
يبتغون فضلا من الله ورضوانا وينصرون الله ورسوله أولئك هم الصادقون * والذين
تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون فى صدورهم
حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه
فأولئك هم المفلحون * والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا
الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل فى قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا إنك رءوف

رَحِيمٌ * أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ
لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ
لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ * لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ
قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ * لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً
فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ * لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى
مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى
ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ * كَمَثَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ
وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي
بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ * فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ
فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ
وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ * وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ
أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ * لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ
الْفَائِزُونَ * لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ
الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ * هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ
وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ * هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ
الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ * هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ
الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ
الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ *

هذه السورة ثلاثة أقسام

(١) فى ذكر غلبة الله ورسوله لأعدائه فى قوله : « هو الذى أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب » إذ أخرجوا من ديارهم وأخذ منهم الفىء ومايتبع ذلك من أول السورة إلى قوله : « ربنا إنك رءوف رحيم »

(٢) فى ذكر أخلاق المنافقين ، وأنهم هم وأهل الكتاب الذين نافقوا لهم مغلوبون على أمرهم كمثل أهل بدر ، أوبنى قينقاع ، وكمثل الشيطان الذى يغر الإنسان ثم يتبرأ منه من قوله تعالى : « ألم تر إلى الذين نافقوا يقولون لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب لئن أخرجتم لنخرجن معكم ولانطيع فيكم أحدا أبدا وإن قوتلتم لننصرنكم والله يشهد إنهم لكاذبون » إلى قوله « وذلك جزاء الظالمين » .

(٣) فى ذكر نصائح للمؤمنين ، وإعظام أمر القرآن ، ووصف الله بأوصاف الجلال والجمال ، لأن هذا هو المقصود من هذه الحياة من قوله تعالى : « ياأيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ماقدمت لغد واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون » إلى آخر السورة .

القسم الأول من السورة

التفسير اللفظى

(بسم الله الرحمن الرحيم)

اعلم أن الله لما ذكر سورة المجادلة وكانت ترجع إلى أحكام شرعية وتقريع للمنافقين ونحو ذلك ، وأعقبها الله بهذه السورة ، وكانت فى جملتها تشبه سابقتها ، ولم يكن فى ذلك ذكر الله الذى هو المقصود الأعظم ابتدأ هذه السورة وختمها بالتسبيح ، وبذكر أوصافه تعالى حتى يكون القارىء متذكرا أوصافه العالية سبحانه ، وهذا قوله (سبح لله مافى السموات ومافى الأرض) باللسان وبالقلب من عقلائهم ، فأما غيرهم فبلسان الحال بحيث يدل كل مخلوق على أن صانعه منزه عن المادة ولواحقها ، أو أن كل مخلوق منقادله ، يتصرف فيه ، وينفذ فيه أمره كيف يشاء ، فجميع أجزاء السموات والأرض فيها هاتان الدلالتان : ترفع فاعلها وتنزهه ، وانقيادها له وخضوعها (وهو العزيز) القاهر لكل مخلوق ، الغالب من حاد عن الجادة (الحكيم) فيما يصنعه :

روى أن هذه السورة نزلت بأسرها فى بنى النضير ، وذلك «أن النبى صلى الله عليه وسلم حين قدم المدينة صالح بنوالنضير رسول الله صلى الله عليه وسلم على ألا يكونوا عليه ولا له ، فلما ظهر يوم بدر قالوا هذا النبى الذى جاء نعته فى التوراة ، فلما هزم المسلمون يوم أحد ارتابوا ونكثوا ، فخرج كعب بن الأشرف فى أربعين راكبا إلى مكة ، فحالف أبا سفيان عند الكعبة ، فأمر صلى الله عليه وسلم محمد بن مسلمة الأنصارى فقتل كعبا غيلة ، ثم خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم مع الجيش إليهم فحاصرهم إحدى وعشرين ليلة ، وأمر بقطع نخيلهم ، فلما قذف الله الرعب فى قلوبهم طلبوا الصلح ، فأبى عليهم إلا الجلاء على أن يحمل كل ثلاثة أبيات على بعير ماشاءوا من متاعهم فجلوا إلى الشام إلى أريحاء وأذرعات ، ثم إن عبد الله بن أبى ابن سلول قبل ذلك قال لهم هو وأصحابه لاتخرجوا من حصنكم ، فإن قاتلوكم فنحن معكم ولانخذلكم ولننصرنكم ، ولئن أخرجتم لنخرجن معكم ، فحصنوا الأزقة ، وبعد ذلك أرادوا مكيدة فكشف أمرها ، فخرج إليهم صلى الله عليه وسلم مع الجيش وحاصرهم كما تقدم ، وهذا قوله تعالى (هوالذى أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر) أى فى أول حشرهم : أى جمعهم من جزيرة العرب ونفيهم إلى الشام ، وآخر ذلك الحشر إجلاء

عمر إياهم من خيبر إلى الشام، وكان هؤلاء من سبط لم يصبهم جلاء قط، وهم أول من خرج من أهل الكتاب من جزيرة العرب ، والحشر إخراج جمع من مكان إلى آخر (ما ظننتم أن يخرجوا) لشدة بأسهم ومنعتهم (وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله) أى أن حصونهم تمنعهم من بأس الله (فأتاهم الله) عذابه وهو الرعب والاضطرار إلى الجلاء. (من حيث لم يحتسبوا) وهو أن الله أمر نبيه صلى الله عليه وسلم بقتالهم وإجلائهم ، وكانوا لايظنون ذلك (وقذف فى قلوبهم الرعب) الخوف الشديد بقتل سيدهم كعب بن الأشرف (يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدى المؤمنين) فإنهم كانوا ينظرون إلى الخشب فى منازلهم فيهدمونها، وينزعون مااستحسنوه منها فيحملونه على إبلهم ، ويخرب المؤمنون باقيها، ويقلعون العمد ، وينقضون السقوف، وينقبون الجدران، لئلا يسكنها المؤمنون حسدا منهم وبغضا (فاعتبروا ياأولى الأبصار) أى فاتعظوا بحالهم فلاتغدروا، ولاتعتمدوا على غير الله ، وهذه الآية استدل بها على ربع الدين الإسلامي ، وهو القياس ، وأنه حجة من حيث إنه أمر بالمجاوزة من حال إلى حال، وحملها عليها فى حكم لما بينهما من المشاركة المقتضية له (ولولا أن كتب الله عليهم الجلاء) الخروج من أوطانهم (لعذبهم فى الدنيا) بالقتل والسبي كما فعل ببنى قريظة (ولهم فى الآخرة عذاب النار) سواء أجلوا أم قتلوا (ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله ومن يشاق الله فإن الله شديد العقاب) ولما نزل صلى الله عليه وسلم ببنى النضير وأمر بقطع النخيل؛ قالوا: قد كنت يامحمد تنهى عن الفساد فى الأرض ، فما بال قطع النخل وتحريقها ؟ فوجد المسلمون فى أنفسهم من قولهم وخشوا أن يكون ذلك فسادا فى الأرض فقطع بعضهم، وقال بعضهم: لاتقطعوا فإنه مما أفاء الله عليكم، وقال الآخرون: بل نغيظهم ، فنزلت هذه الآية بتصديق من نهى، وبتحليل من قطع ، وهي (ماقطعتم من لينة) أى أى شيء قطعتم من لينة ، واللينة : النخلة الكريمة ، والجمع أليان (أوتركتموها قائمة على أصولها فبإذن الله) فبأمره : أى فقطعها وتركها بإذن الله ، وإنما أذنا فى ذلك وقطعتم بإذننا النخل لتطهر البلاد منهم (وليخزى الفاسقين) على فسقهم بما غاظهم (وماأفاء الله على رسوله) أى ماأعاده عليه، وصيره إليه، أورده إليه، لأنه أولى به، لأن المصلحين فى الأرض أولى الناس بما فيها (منهم) من بنى النضير (فما أوجفتم) أى فما أجريتم على تحصيله، والوجيف : سرعة السير (عليه من خيل ولاركاب) والركاب ماركب من الإبل، غلب فيه كما غلب الراكب على راكبه وذلك أن قرى بنى النضير كانت على ميلين من المدينة، فمشوا إليها رجالا إلارسول الله صلى الله عليه وسلم، فإنه ركب جملا ، أوحمارا ، ولم يكن ليجرى معهم عظيم قتال (ولكن الله يسلط رسله على من يشاء) بقذف الرعب فى قلوبهم (والله على كل شيء قدير) فهو يسلط ظواهر الأسباب تارة وبواطنها أخرى .

ولما تم الكلام على جلاء بنى النضير وعلى فيئهم أعقبه بالكلام على مصرف هذا الفيء فقال سبحانه (ماأفاء الله على رسوله من أهل القرى) أى من أموال كفار أهل القرى كقريظة والنضير وفدك وخيبر (فلله وللرسول ولذى القربى) وهم بنوهاشم وبنوالمطلب (واليتامى والمساكين وابن السبيل كى لا يكون دولة بين الأغنياء منكم) أى إنما حكمنا بذلك وجعلناه لهؤلاء المذكورين لئلا يكون الفيء الذى حقه أن يعطى المذكورين ليعيشوا به متداولا بين الأغنياء دائرا بينهم كما كان فى الجاهلية يتكاثرون به ، والدولة مايدول للانسان : أى يدور من الجد والحظ (وما آتاكم الرسول فخذوه) أى ماأعطاكم من قسمة غنيمة ؛ أوفيء فاقبلوه (ومانهاكم عنه فانتهوا) أى مانهاكم عن أخذه فانتهوا عنه ولا تطلبوه (واتقوا الله) أن تخالفوه وتتهاونوا فى أمره (إن الله شديد العقاب) لمن خالف رسوله صلى الله عليه وسلم، وليست الآية خاصة بالفيء فنحن مأمورون أن نتبعه فى كل شيء أمرا ونهيا ، ثم أبدل من « لذى القربى » وما بعده قوله (للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم) فإن كفار مكة أخرجوهم وأخذوا أموالهم (يبتغون فضلا

من الله ورضوانا وينصرون الله ورسوله) بأنفسهم وأموالهم (أولئك هم الصادقون) الذين ظهر صدقهم، ثم عطف على المهاجرين قوله (والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم) وهم الأنصار، فهم لزموا المدينة والإيمان، وتمكنوا فيهما من قبل هجرة المهاجرين (يحبون من هاجر إليهم) ولايثقل عليهم (ولا يجدون فى صدورهم) فى أنفسهم (حاجة) ماتحمل عليه الحاجة من الطلب والحسد والحزازة والغيظ (مما أوتوا) مما أعطى المهاجرون من الفىء وغيره (ويؤثرون على أنفسهم) أى ويقدمون المهاجرين على أنفسهم، حتى إن من كان عنده امرأتان نزل عن واحدة وزوجها من أحدهم (ولو كان بهم خصاصة) أى فاقة (ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون) الفائزون بالثناء العاجل، والثواب العاجل.

روى أن عمر رضى الله عنه قرأ: «ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى» حتى بلغ «للفقراء المهاجرين» إلى قوله: «والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان، ولا تجعل فى قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا إنك رءوف رحيم» وهى الآية الآتية، ثم قال هذه قد استوعبت المسلمين عامة، قال: وماعلى وجه الأرض مسلم إلا وله فى هذا الفىء حق إلا ماملكت أيمانكم.

وللشافعى قولان: أحدهما أن الفىء للمقاتلة، والثانى وهو الأنسب بالآية لمصالح المسلمين، ويبدأ بالمقاتلة ثم بالأهم فالأهم من مصالح المسلمين، وأكثر العلماء أنه يصرف جميعه لجميع المسلمين كما هو قول عمر، وأحد القولين عند الشافعى، قال تعالى: (والذين جاءوا من بعدهم) عطف على المهاجرين، ودخل فى هذا الفىء كل من هو مولود إلى يوم القيامة فى الإسلام: أى وذلك من العطف المذكور على المهاجرين كما تقدم عن عمر (يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان) أى لإخواننا فى الدين السابقين، وهم المهاجرون والأنصار، وهذا خبر بمعنى الأمر، أمر الذين جاءوا بعد الصدر الأول أن يستغفروا لهم، قالت عائشة رضى الله عنها: أمروا بأن يستغفروا لهم فسبوهم (ولا تجعل فى قلوبنا غلا للذين آمنوا) أى حقدا لهم (ربنا إنك رءوف رحيم) فحقيق بنا أن تجيب دعاءنا.

انتهى الكلام على القسم الأول من السورة، والحمد لله رب العالمين

القسم الثانى

فى ذكر أخلاق المنافقين، وأنهم هم وأهل الكتاب الذين نافقوا لهم مغلوبون على أمرهم كمثل أهل بدر أوبنى قينقاع، أوكمثل الشيطان الذى يغر الإنسان ثم يتبرأ منه

ولما أتم الكلام على بنى النضير وعلى تقسيم الفىء أعقبه بإتمام الكلام على ماحصل من المنافقين قبل الجلاء، كما تقدم فى التفسير قريبا من مناصحة عبد الله بن أبى ابن سلول لليهود هو ومن معه، وقوله لهم: «لئن أخرجتم لنخرجن معكم» الخ فقال (ألم تر إلى الذين نافقوا يقولون لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب) أى الذين بينهم وبينهم أخوة الكفر والصداقة والموالاة (لئن أخرجتم) من دياركم (لنخرجن معكم ولا نطيع فيكم) فى قتالكم وخذلانكم (أحدا أبدا) أى من رسول الله والمؤمنين (وإن قوتلتم لننصرنكم) لنعاونكم (والله يشهد إنهم لكاذبون) لعلمه بأنهم لايفعلون ذلك، وهو قوله (لئن أخرجوا لايخرجون معهم ولئن قوتلوا لاينصرونهم) وهذا هو الذى كان، فإنهم أخرجوا من ديارهم وماخرجوا معهم، وتوجه المسلمون لقتالهم فلم يدافعوا عنهم (ولئن نصروهم) على الفرض والتقدير (ليولن الأدبار) منهزمين (ثم لاينصرون) أى ينهزم اليهود ثم لا تنفعهم نصرة المنافقين (لأنتم أشد رهبة) أى أشد مرهوبية (فى صدورهم من الله)

فلذلك

فلذلك يظهرون لكم فى العلانية خوف الله وأنتم أهيب فى صدورهم منه (ذلك بأنهم قوم لايفقهون) لايعلمون الله وعظمته حق يخشوه حق خشيته (لايقاتلونكم) أي اليهود والمنافقون (جميعا) مجتمعين (إلا فى قرى محصنة) بالدروب والخنادق (أو من وراء جدر) لفرط رهبتهم (بأسهم بينهم شديد) أى إن البأس الشديد الذى يوجفون به إنما هو إذا حارب بعضهم بعضا، ولو قاتلوكم لم يبق ذلك البأس والشدة، لأن من حارب الله ورسوله يجبن (تحسبهم جميعا) مجتمعين متفقين (وقلوبهم شتى) متفرقة لا ألفة بينهم لافتراق عقائدهم، واختلاف مقاصدهم (ذلك بأنهم قوم لايعقلون) مافيه صلاحهم، ولا يعلمون أن تشتت القلوب يوهن القوى ويضعفها. ثم قال: مثل اليهود (كمثل الذين من قبلهم) أى كمثل أهل بدر، أو كمثل بنى قينقاع (قريبا) أى فى زمان قريب، ثم بين ذلك فقال (ذاقوا وبال أمرهم) أى سوء عاقبة كفرهم فى الدنيا (ولهم عذاب أليم) فى الآخرة، ومثل المنافقين مع بنى قريظة حيث خذلوهم (كمثل الشيطان) مع الإنسان (إذ قال للإنسان اكفر فلما كفر قال إنى برىء منك إنى أخاف الله رب العالمين) فهؤلاء المنافقون فعلوا مع اليهود كما فعل الشيطان مع الإنسان، إذ يستغويه بكيده ثم يتبرأ منه، ومن هذا الاستغواء أنه استغوى قريشا يوم بدر وقال: «لا غالب لكم اليوم من الناس وإنى جار لكم» الخ (فكان عاقبتهما) أى عاقبة الإنسان الكافر والشيطان (أنهما فى النار خالدين فيها وذلك جزاء الظالمين) وهذا القول يدخل فيه ماذكر من استغواء الشيطان للكفار يوم بدر، ومارُوى عن برصيصا الراهب الذى حكى أنه كان كثير العبادة، ثم أغواه الشيطان أن يتعلم الاسم الأعظم الذى تجاب به الدعوات، ثم تكاثرت عليه الناس، وأخيرا أتوا له بأجمل فتاة ليقوم بأمرها، فأبى أولا، ثم أخذ يدعو الله لها وهى تشفى كما مرضت بدعائه، ثم إن الشيطان سول له فواقعها، فحملت منه، ثم أغواه أن يقتلها ويدفنها، ثم جاء إلى إخوتها فى المنام فأخبرهم، فوجدوها مدفونة فهدوا صومعة برصيصا وقتل الملك ذلك الراهب، وانتهى الأمر، وهذه الحكاية وإن كانت من أقاصيص بنى إسرائيل فهى ذات مغزى يناسب مانحن فيه وان لم تكن حقيقية.

فانظر كيف فعل المنافقون بالمدينة مع اليهود ماتشاهده كل يوم من أعمال الناس يضل بعضهم بعضا ويغوونهم ثم يتركونهم، وهذا العمل بعينه هو الذى يفعله أمم أوروبا الآن، ألم تر أنهم فتحوا مدارس فى بلاد سوريا وأظهروا أنهم خلقوا لرقى الأمم وإسعادها وأن الله خلقهم لذلك. وأذاعوا العلوم والمعارف واشتاق الشبان والشيوخ لذلك الشعب الفرنسى النافع للإنسانية، وكانت نساؤهم تتمنى أن يشاهدوا هؤلاء الرافعين للإنسانية، فلما كانت الحرب الكبرى أخذوا تلك البلاد، وأخذوا يذيقونهم سوء العذاب، ويوقعون بهم النكال.

اللهم إن فعل المنافقين مع اليهود، وفعل الشيطان مع برصيصا العابد هو الذى نشاهده كل يوم من أوروبا، إن الله أنزل هذا القرآن ليبين للمسلمين وجوه النفع، يقرأ بعض المسلمين هذه الآيات فيقولون فى أنفسهم «تلك أمة قد خلت» وأى شىء المنافقون ويهود بنى النضير؟ لقد ماتوا، ومن هو برصيصا الراهب وشيطانه الذي هو من أقاصيص بنى إسرائيل؟ نقول لهم هذا هو الذى ترونه كل يوم، إن الشيطان الذى ظهر لبرصيصا فى تلك الحكاية كان يتظاهر بالصلاة، فلا يزال يصلى أربعين يوما ولا ينفلت من صلاته فظن برصيصا أنه أحسن منه، فلما لقنه الدعوات قبلها وكان قبوله للدعوات سبب وقوع الفتاة عنده.

إن هذه حال أوروبا الآن حرفا بحرف: يتظاهرون بالمدنية، ويفتحون المدارس، ويقولون نمدن الشعوب، ونرقى الجنس البشرى، ثم هم فى الوقت نفسه يمتصون دماء الشعوب، ويقتلون الأمم ويبتزون المال ويجعلون الناس طعمة لهم، وفاكهة وأبا، متاعا لهم وتقوية لشهواتهم وفسوقهم.

ومن هذا القبيل ماقاله (غاندى) الحكيم الهندى فى زماننا مامعناه : «إن الشيطان يفلح فى إضلال الناس إذا ظهر وفى فمه ذكر الله» .

فهذا كمثل قصة برصيصا الكاهن ، فهذه الآيات يجب على المسلمين أن يتذكروها ، ويؤلفوا رسائل سياسية تناسبها بألفاظ وأمثال يفهمها الناس ، وفى كتاب [كليلة ودمنة] من الأمثال مافيه مقنع ؛ لأنه كتاب كله سياسة ، فانظره إن شئت . وإلى هنا تم الكلام على القسم الثانى من السورة ، والحمد لله رب العالمين .

القسم الثالث

فى ذكر نصائح المؤمنين ، وإعظام أمر القرآن ، ووصف الله تعالى بأوصاف الجلال والجمال لأن هذا هو المقصود من هذه الحياة

ولما أتم الكلام على أخلاق المضلين من المنافقين والضالين ، وحذر من أفعالهم ، شرع ينصح المسلمين بلزوم التقوى فقال (ياأيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ماقدمت لغد) ليوم القيامة ، وإنما سماه غدا لدنوه وقربه ؛ أو لقرب مايدل عليه من عذاب الدنيا وعذاب القبر (واتقوا الله) تكريره للتأكيد (إن الله خبير بما تعملون) وهذا وعيد (ولا تكونوا كالذين نسوا الله) نسوا حقه (فأنساهم أنفسهم) أى أنساهم حظوظ أنفسهم فلم يقدموا لها خيرا ينفعها ، ولم يدرسوها ويعرفوا العالم حولها حتى يفطنوا لها (أولئك هم الفاسقون) الكاملون فى فسوقهم (لايستوى أصحاب النار وأصحاب الجنة) وهم الذين كملت نفوسهم فدخلوا الجنة . والذين استمهنوها فاستحقوا النار (أصحاب الجنة هم الفائزون) بالنعيم المقيم .

إن الآيات المتقدمة فيها عبر وأمثال ، ومنها قوله : « كمثل الشيطان » وقوله « كمثل الذين من قبلهم قريبا ذاقوا وبال أمرهم » فإن ذلك رمز إلى ماذكرناه من انخداع النفوس الإنسانية بشياطين الإنس تارة وبشياطين الجن تارة أخرى ، ألا ترى أن وعد المنافقين بالمدينة لليهود ، ووعد الشيطان لأهل مكة يوم بدر مثالان ينطبقان على كل ما ابتلى به الناس فى هذه الدنيا ، إن الناس لاعذاب عليهم ولا شقاوة إلا من جهة الجهل فالجهل هو الباب الواسع الذى فتح لهذا الإنسان فأوقعه فى الشقاء ، والضلال والإغواء لايخرجان عن أمرين : إما أن يكونا بلسان الأحياء من بنى آدم ، وإما أن يكونا بهواجس فى نفوسنا ، وآراء داخل قلوبنا ، وهذا منسوب لشياطين الجن :

(١) فالشره فى الطعام الذى يعقبه المرض .

(٢) والبخل بالمال الذى يعقبه كراهة الناس .

(٣) والخوف من الموت الذى يورث الجبن فيتبعه قهر الأعداء .

(٤) والإسراف فى المال الذى يتبعه الفقر .

كل ذلك من آراء من داخل النفس ، فهى شيطانية من شياطين الجن أو الهوى أو النفس ، وأما من خارجها فهى من شياطين الإنس ، وأعم الأمور وأهمها فى أيامنا الحاضرة ما ابتلى به المسلمون من ضحك الفرنجة عليهم ، وابتلائهم إياهم بالأنسجة المزخرفة ، والصناعات الجميلة ، والنساء البهيات الطلعة ، واستغوائهم إياهم تارة بالماديات ، وتارة بالمعنويات ، كأن يعلموهم فى مدارسهم ، ويغشون على عقولهم ، ويقولون لهم نحن نتشر المدنية والحرية حتى إذا ما أناموا العقول ، وابتزوا الأموال ، وأصبح الشرق كأنه منوم (بالفتح) تنويما مغناطيسيا انقضوا على البلاد فأورثوها النكال والبوار ، وجروا عليها الحرب ، وورثوا أرض المسلمين

وديارهم، فهذا من الأمثال المضروبة فى هذه السورة : « كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر فلما كفر قال إنى برىء منك إنى أخاف الله رب العالمين » .

إن الأوروبى لايقول للشرقى اكفر ولكنه يقول له : دع الأمور القديمة ، واعلم أن الديانات أصبحت لاقيمة لها ، ويبغضونه فى عادات آبائه وأجداده ، ويحقرون ذلك فى عينيه ، وهكذا ينقضون عزائمه حلقة حلقة حتى ينخلع من وطنه ودينه وهو لايشعر ، فاذا جاء دور الاحتلال وأخذ البلاد أصبح ذلك المفتون بهم فيمن شملهم الذل (ولات حين مناص) .

ذلك هو الذى صنعه الأسبانيون فى بلاد الأندلس ، وهو الذى استمر بعد ذلك فى مصر وسوريا وشمال أفريقيا، دخل الفرنجة بلادنا، وكان دخولهم أشبه بالحكاية المنقولة عن بنى إسرائيل التى ابتدعوها كضرب الأمثال من باب الاستعارة التمثيلية ، وقد أشرنا إليها فيما تقدم ، فان الشيطان المسمى بالأبيض الذى أرسله إبليس لإضلال برصيصا الراهب فيما يزعمون هم العلماء فى الكليات فى أوروبا ورجال الدين . ثم إن حضور الأبيض فى صومعة برصيصا وإظهاره العبادة والصلاة والصيام حتى صار لايأكل إلا كل أربعين يوما مرة أشبه بما يقوله أولئك العلماء الأوروبيون ورجال الدين فى المدارس من أنهم جاءوا لترقية أبناء الشرق، ثم إن قول ذلك الشيطان لبرصيصا : سأعلمك كلمات تدعو بها الله فيستجيب لك ، كقول الأوروبى لأحد الخديويين فى مصر سابقا : [قل للعسكر يتركوا الدعوات والعبادات ،لأن المتدين ضعيف الإرادة،أما حر العقيدة فإنه شجاع] ؛

وأما دعاء برصيصا بتلك الدعوات واستجابتها وحب الناس له والتفافهم حوله،ثم وقوعه أخيرا فى الذنب الذى نصبه له ذلك الشيطان إذ أوقع بنت الملك فى مرض أشبه بالجنون ، ودلهم على برصيصا فحضرت عنده وأغراه بالفسق بها فحملت،ثم أمره فقتلها،ثم أخبر أهلها فى المنام، وعرفهم محلها الذى دفنت فيه فى الجبل ، فهو بعينه مانفعله أوروبا الآن يتدخلون فى كل شىء بصفة الإصلاح ويكتبون إلى دولهم حتى إذا حان وقت ابتلاع البلاد أحاطوا بها من كل جانب بسبب مالديهم من الرسوم ومعرفة الأماكن والعورات، فيسهل فتح البلاد وتصبح ملكا لهم، وهذا قتل للأمة كما قتل الملك برصيصا الراهب لوقوعه فى جريمتين: الزنا والقتل ، وهؤلاء الشرقيون وقعوا فى جريمتين : الانخلاع من الفضائل ، وهذا بالزنا أشبه ، وترك حبل الأمور على غاربها ، وهذا قتل للأمة، فإذن يستحقون القتل، وقتلهم استعبادهم .

ألا ترى أن هـذا كله فى ضمن الآية ، أفلا ترى معى أن جميع مانخطىء فيه فى صحتنا ومالنا وسياستنا وتجارتنا إنما هو من آراء تكون فى أفئدتنا من داخلها أو من الخارج، أفلا ترى أن قوله تعالى (ياأيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ماقدمت لغد) بعد ماتقدم للاشارة إلى أنه يجب الحرص على مافى هذه السورة ونحوها من المعانى، أفلا ترى أن قوله تعالى بعد ذلك (لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون) إنما جىء به بعد هذه التشبيهات للاشارة إلى عظم خطرها وأهميتها بالنسبة للمسلمين ، وإلافلماذا لم يذكر هذا القول إلا فى هذا المقام ؟ ولماذا يمثل الجبل برجل ذى عقل ، وقد قرىء عليه القرآن فيكون خاشعا مشفقا من باب التخييل، ثم يعقبه بقوله(وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون) وذلك كله لأجل تعليم المسلمين التفكر ، وطريق التفكر يكون بمثل ما كتبناه فإن القرآن لم ينزل إلا ليتفكر فيه، وفى هذه السورة فتح أعظم باب للفكر، ولذلك أعظم أمر القرآن وأمر الأمثال، وقال : «لعلهم يتفكرون» .

إن جميع بنى آدم مسحورون إما بفكر داخلى ، وإما بشيطان إنسى . إن شياطين الإنس هم كثير من

أهل أوروبا يختصون بأموال الشرقيين لاسيما المسلمين ، ويجدون فى بقائهم جاهلين ، ليكونوا لهم خولا وعبيدا خاضعين . لعمرى لقد أعطيت الآية من العناية مايليق بهذا التفسير ، فلأتمم الكلام على بقية السورة (هو الله الذى لاإله إلا هو عالم الغيب والشهادة) ماغاب عن الحس من عوالم الملائكة ، وماحضر من الأجرام المادية ، والسر والعلانية ، والآخرة والدنيا ، والمعدوم والموجود (هو الرحمن الرحيم ، هو الله الذى لا إله إلا هو الملك القدوس) المنزه عن القبائح ، وعن كل مايلابس المادة ومافيه نقص (السلام) الذى سلم الخلق من ظلمه . إذ جعلهم على نظام يكفل رقيهم ، ولا تعرف هذا حق المعرفة إلا إذا رجعت إلى تفسير قوله تعالى : « بيدك الخير » فى [سورة آل عمران] . وأيضا هو الذى سلم من النقائص ، وكل آفة تلحق الخلق فيكون السلام أعم من القدوس (المؤمن) واهب الأمن ، ولذلك ترى كل مخلوق فى الأرض يعيش وهو فى أمن نسبى ، فالطائر فى جوه ، والحية فى وكرها ، والسمك فى البحر ، والإنسان فى القرية ؛ ولا يعيش قوم على الأرض مالم يكن هناك حراس يحرسون قراهم وإلا هلكوا ، فهذا من معانى « المؤمن » (المهيمن) الشهيد على عباده بأعمالهم الذى لايغيب عنه شىء ، أوالرقيب الحافظ لكل شىء ، فهو على الأول راجع للعلم وعلى الثانى للقدرة (العزيز الجبار) أى الغالب الذى جبر خلقه على ما أراده ، أوجبر حالهم : أى أصلحه ، وربما دخل المعنى الثانى فى عموم الأول ، لأنه يسوقهم إلى مايريد ، ومن ذلك إصلاح حالهم (المتكبر) البليغ الكبرياء والعظمة (سبحان الله عما يشركون) نزه ذاته عما يصفه به المشركون (هو الله الخالق) المقدر للأشياء على مقتضى الحكمة (البارئ) الموجد لكل شىء بريئا من التفاوت (المصور) الموجد لصورها وكيفياتها كما أراد ، ولاجرم أن هذه المعانى يمكن معرفتها من تتبع أجزاء هذا التفسير ، فإن آثار ذلك فيما كتبناه من جمال هذه الدنيا ونظامها وعجائبها (له الأسماء الحسنى) لدلالتها على محاسن المعانى ، ومحاسن المعانى تظهر فى مظاهر هذا الوجود ، فمن جهل نظام هذه الدنيا التى نحن فيها فقد جهل آثار صفات الله ، ومن جهل أثر الصفة جهل نفس الصفة ، والله لايعرف بذاته ، وإنما يعرف بصفاته ، فهذا كله حث على العلوم التى أنزلها الله على قلوب عباده فى الشرق والغرب ؛ والحكمة فى هذا الوجود من الفلك وعلوم الطبيعة . ومن ظن أن تلاوة أسماء الله ، أومعرفة معانيها وشرحها كافية فهو جاهل ، وإنما تعرف الأسماء بالآثار ، فمن جهل الآثار فقد بار .

ولعمرى ما أوقع أمة الإسلام فى الخبال ، وأضاعها فيما مضى من القرون والأجيال ، إلا ما اعتراها من الجهالة ، وما أحاط بها من الجهال الذين اكتفوا بالقشور وتركوا العلوم ، فعميت الأبصار .

فياليت شعرى كيف تعرف المصور إلابآثاره : أى بالصور التى صورها فى المعادن والنبات والحيوان ، وكيف نعرف أنه رحمن رحيم إلا إذا درسنا نظام الحيوان ، فندرك لطفه ورحمته به ؟ وكيف ندرك حفظه لكل شىء ، إلا إذا تتبعنا الأشياء بقدر طاقتنا البشرية ؟ وكيف نفهم قوله : (يسبح له مافى السموات والأرض) وأنه منزه عن النقائص كلها إلا إذا شاهدنا كمال صنعه بالدراسة ، فنهتدى بالكمال فى الأثر إلى الكمال فى المؤثر ، وقوله (وهوالعزيز) أى الغالب (الحكيم) الجامع للكمالات بأسرها ، فإن الحكمة ترجع للكمال فى القدرة والعلم .

وإلى هنا تم الكلام على القسم الثالث من السورة ، والحمد لله رب العالمين .

بهجة الحكمة ونور العلم

فى قوله تعالى : « لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعا من خشية الله وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون ، هو الله الذى لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم ، هو الله الذى لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر سبحان الله عما يشركون ، هو الله الخالق البارئ المصور له الأسماء الحسنى يسبح له مافى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم » .

إن أول هذه الآيات ضرب مثل وتخييل ، وهذا التمثيل مثل ماجاء فى قوله تعالى : « إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا » . والمراد من ذلك توبيخ الإنسان على عدم تخشعه عند تلاوة القرآن ، لقساوة قلبه ، وقلة تدبره ، والتصدع التشقق . إن الجبل مع صلابته ورزانته لو أعطى تمييزا لأشفق من خشية الله ، وحذر من ألا يؤدى حق الله تعالى فى تعظيم القرآن ، والكافر مستخف بحقه ، معرض عما فيه من العبر والأحكام ، كأنه لم يسمعها ، وصفه بقساوة القلب ، فهو غافل عما يتضمنه القرآن من المواعظ والأمثال ، والوعد والوعيد ، وتمييز الحق من الباطل ، والواجب مما لايجب ، بأحسن بيان ، وأوضح برهان ، ومن وقف على هذا وفهمه أوجب له الخشوع ، ولقد دل على أن ذلك تمثيل قوله تعالى بعد ذلك « وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون » ثم شرع فى المقصود الأعظم ، والمهم الأتم من هذه المقدمة العظيمة ، وهو تبيان أسماء الله الحسنى .

[وبعبارة أخرى] إن الله عز وجل ابتدأ سورة الحشر بقوله : « سبح لله مافى السموات ومافى الأرض وهو العزيز الحكيم » فهو منزه عن كل مالا يليق بالربوبية فى ذاته وصفاته وأفعاله ، وذلك كله مقتضى التسبيح ، فلا يكون من أفعاله مايشعر بالنقص أو الشر ، وكل مافى العالم من الشرور والنقائص إن هى إلا مقدمات للخير والكمال ، وهو الذى عز فى سلطانه ، وقهر كل مخلوق أن يسير على مقتضى أمره ، وهو حكيم فيما يدبره من النظم العجيبة ، والأفعال البديعة . وختم السورة بوصف القرآن بأن الجبال تصدع من خشيته ، وجعل هذا مقدمة لما بعدها ، وهو الإشارة إلى أسمائه الحسنى ، تلك الأسماء التى تبلغ ٩٩ اسما ، وقد دخل فى معانيها هذا الوجود كله من سموات وأرضين ، ودخل فيها أيضا أعمال المكلفين ، ففيها العلم وفيها العمل ، وهذا عجب والله وأى عجب ! أن يصف القرآن بأن الجبال تخشع من خشية الله لو أنها سمعته ، ثم يتبع ذلك بأسمائه التى وصفها بأنها حسنى ، وهذه الأسماء تتضمن الوجود كله ، والقرآن كله ، لأن معانى القرآن كلها وجميع هذه المخلوقات لاتخرج عن معانى هذه الأسماء :

(١) ألم تر أن الرحمة التى تضمنها اسما (الرحمن الرحيم) تدل على إرادته الخير والنعمة والإحسان إلى خلقه جميعهم ، وأن كل نقمة ، وكل نازلة ، وكل خطب أسود يلم بهم لم تخرج عن كونها ممهدات ومعدات لرحمات واسعة تشمل هؤلاء المنكوبين الأذلاء ، ولن يعرف هذا حق المعرفة إلا أناس صفت نفوسهم ، ودرسوا علوم هذه الدنيا دراسة كاملة ، أوقوم قرءوا هذا التفسير بإمعان أو أكثره ، فإنهم لاجرم يوقنون بأن كل نقمة فى هذه العوالم نعمة عظيمة لأنها مقدمة لها ، بل لا تتم تلك النعم العظيمة إلا بتلك النقائص والآلام التى جعلت أساطين لها ودعائم ومقومات .

(٢) ولما كانت الرحمة بدون حكمة فى الفعل تدعو إلى عدم النظام والخطل فى الأحكام ، أعقبه بما يدل على نظام الأمور وحفظ التوازن فى العوالم كلها ، ولو آلم ذلك الأحياء من هذه المخلوقات فقال : « هو الله الذى لا إله إلا هو الملك » فوصف نفسه أولا بالرحمة حتى يعلم نوع الإنسان أن انفراده بالحكم فى هذه العوالم وسياسته فى نظامها لا يقتضى ظلما ، فهو منفرد بالملك ، متصرف بالأمر والنهى فى جميع خلقه ، وهم تحت ملكه وقهره وإرادته ، ولكن ذلك كله مسبوق بالرحمة ، فليس انفراده بالملك كانفراد ملوك الأرض بملكهم ، لأنهم يظلمون الناس ويسخرونهم لشهواتهم ، وتلك الشهوات تطمس وتغطى تلك الرحمة الكامنة فى النفوس ، ذلك أن المستبدين بالملك يرون أنهم إن لم يكن لهم فى ذلك الملك منافع فلا فائدة فيه ، والمنافع عندهم خاصة بالشهوات واللذات التى تعرفها البهائم ، وهم فى قلوبهم رحمة ، ولكن تلك اللذات تغطى هذه الرحمة وتطمسها كما تطمس تلك اللذات رحمات الناس بالحيوان عند ذبحه . فهو يعلم أن الحيوان متألم عند ذبحه ، وفى قلبه رحمة له ، ولكن تلك الرحمة قد نامت تحت ذلك الغطاء لاسيما أن الشرائع المنزلة أبدت ذلك ، هكذا هؤلاء الملوك والأمم المستبدون قد أنامت الرحمات التى كمنت فى قلوبهم تلك اللذات العاجلة فلم يحسوا بآلام تلك الأمم المظلومة ، لاسيما إذا أيد ذلك كتابهم (بتشديد التاء) ورجال سياستهم الذين يثيرون الجشع فى أفئدتهم ، ويبيحون لهم الفتك والظلم ، وهذه الإباحة من مخلوق لا تدفع إثما ولا تمنع ذنبا ، بخلاف الاباحة الدينية فهى مقدسة . هذا كله فى أفعال العباد ، فهم إذا ملكوا بطشوا بطش الجبارين ونامت الرحمات ، وليسوا عند الظلم والبطش بمريدين الخير للمظلومين المبطوش بهم . كلا . بل هم إنما يريدون منافع نفوسهم لا غير . أما الله عز وجل فإنه منفرد بالملك والتصرف ، ولكنه ليس كالملوك والأمم المستبدة ، بل رحمته كاملة تامة شاملة .

هذه هى الحكمة فى أنه ذكر انفراده بالألوهية والملك بعد وصفه بالرحمة :

(٣) ويشير إلى ماقررناه فى هذا المقام أنه ذكر بعد ذلك أنه (القدوس) أى البليغ فى النزاهة عما يوجب نقصانا فى ذاته وصفاته وأفعاله . ولذلك يقول الملائكة : «سبوح قدوس رب الملائكة والروح» . ألا تعجب أيها الأخ منى كيف يكون ذكر انفراده بالألوهية والملك بعد وصفه بالرحمة قد اقتضى أن يخالف من انفردوا بالملك من الخلق فى أن هذا الانفراد وسيلة لسلب الرحمة من قلوبهم ، فهم إذن غير منزهين ولا طاهرين والله مخالف لهم ، فهو منزه من كل مالا يليق له ، ثم كيف يصرح بما فهم ضمنا مما تقدم بقوله (القدوس) ؟

(٤) و (٥) ثم أكد ذلك المعنى بقوله بعده (السلام المؤمن) وهو ذو السلامة من كل نقص وآفة ، وهذا مصدر وصف به للمبالغة ، وزاده تأكيدا بوصفه بأنه واهب الأمن ، فقد أمن الخلائق من ظلمه ، وقد أمن من آمن به من عذابه إذا كان مطيعا بخلاف المنفردين بالملك من الناس ، فهم ليسوا منزهين عن الظلم ، ولا سالمين من النقص ، ولا آمنة رعاياهم بوائقهم كما ترى ذلك فى الأمم الأوروبية التى تحكم بعض بلاد الإسلام ، فهؤلاء المحكومون أبدا فى فزع وجزع من ظلم هؤلاء ، ومقتهم وشرهم ؛ ولكن هذه الأمم الإسلامية يجب أن تطمئن ، لأن الله رحمن رحيم : ملك قدوس ، سلام مؤمن ، وإذا كان هو المتصرف فى الخلق بالرحمة فهو لم يسلط هؤلاء على المسلمين تشفيا وانتقاما . كلا . ثم كلا . جل الله ، ولكنه سلطهم على المسلمين حتى يستيقظوا من غفلتهم ، ويقوموا من رقدتهم ، وهنالك يخرج تلك الأمم من ديار الإسلام ، لأنه قدوس ، ولأنه سلام ، ولأنه مؤمن ، فالناس فى أمان ، وربهم منزه عن الظلم ، ولكنه يلهم بعض عباده أن يؤذوا آخرين ليوقظهم هو بذلك الايذاء ، كما أنه سبحانه يلهم الآساد والنمور والوحوش أن تهاجم قطعان الماشية وتقتنص

منها

منها ما يكون به قوتها، فتستفيد الآساد قوتها، وتستفيد القطعان الاتحاد والوئام والمحبة، لأن القطيع كله يجرى حثيثا عند مهاجمة الآساد والذئاب له، وهناك لايقتنص إلا واحدة من مائة أو ألف، وهذه الواحدة تكون ضعيفة ولكن بقية أفراد القطيع يحتمى بعضها ببعض، ويتدخل بعضها فى بعض، وهذا هو الاتحاد الذى لايتم إلا بالمحبة، وبهذه المحبة يعيش القطيع بالسعادة والسلام، فهذه الأمم الهاجمة على ديار الإسلام لن تبقى فيها إلا ريثما تستيقظ تلك الأمم، ولن تأخذ منها إلا ما تأخذه الآساد من قطعان الماشية، لحفظها شبع بطونها، ولكن حظ الأمم المقهورة الإسلامية الاتحاد والوئام وانتشار العلم الذى يوجبه توالى الضغط المنصب على هذه الأمم، إن الله قدوس وسلام و مؤمن.

(٦) وهو الرقيب الحافظ لكل شىء، الشهيد على عباده بأعمالهم فلا يغيب عنه شىء، والقائم على خلقه برزقهم، وذلك معنى اسمه (المهيمن)، ويقال إنه مأخوذ من الأمن فهو (مؤيمن) قلبت الهمزة هاء.

(٧) و (٨) و (٩) ثم أتبع ذلك بصفات العزة والغلبة، فهو (العزيز) الغالب غير المغلوب (الجبار) الذى جبر خلقه على ما أراده (المتكبر) الذى تكبر عن كل مايوجب حاجة أو نقصا، وهو البليغ الكبرياء والعظمة، وهذه الصفات المسبوقات بالرحمة وبالأمن وبالسلامة متممات لها، وكيف تكون رحمة وأمنا وسلامة إلا بالاحتياط لها والأخذ بأسبابها؟ وكيف يداوى الطبيب المريض إذا لم يقطع عضوه الفاسد حفظا لسلامة جسمه؟ فلا يبالى بألم المريض ولا أنينه، لأن رحمته بهذا المريض رحمة صادقة بخلاف رحمة الأم المشفقة على ولدها أن يلاقى المصاعب، فهى رحمة جاهلة، فذكر الملك أولا والعزة والجبروت والكبرياء ثانيا، وذكر القدس والسلام والأمن والهيمنة فيما بين ذلك لإفادة أن الرحمة ليست كرحمة الأمهات، بل يضرب لها المثل برحمة الأب ورحمة الحكومات العادلة التى لاتبالى بالآلام القليلة فى جانب المنافع الكثيرة، ولذلك يقتلون القاتل، لأن الألم الناجم من قتله يختص بعشيرته، ولكن المنافع تعم الأمة كلها لأنها تكون فى أمان من الظلم، ويصبحون فى سلام واطمئنان، فالآلام القليلة إذا أدت إلى منافع كثيرة تكون خيرا لاشرا، فإذلال الغرب للشرق الآن من الله عز وجل، فهو سبوح قدوس، منزه عن العبث فى أفعاله: أى أنه لم يسلط هؤلاء على هؤلاء للاذلال أو للانتقام. كلا والله. وإنما هو سبحانه يريد اليسر ولا يريد العسر، وإنما فعل ذلك كما يفعل الطبيب بالمريض، يؤلمه ساعة ويريحه عشرات السنين، وليس هناك سبيل للطبيب فى نفع المريض غير ذلك، هكذا الله عز وجل قد علم سبحانه أن هذه الأمم لايرفعها إلا هذا الأذلال والإحراج وتسليط الظالمين عليها، وتكون فائدة الظالمين مادية حقيرة، وفائدة المظلومين معنوية دائمة، ثم هو بعد ذلك قد يخفض هذه الأمم الظالمة ويرفع المظلومة: «وتلك الأيام نداولها بين الناس»، ثم رجع إلى التنزيه ثانيا يؤكد هذه المعانى فقال: (سبحان الله عما يشركون).

واعلم أن معانى الرحمة وما معها، والكبرياء، وما شاكلها، تجتمع كلها فى نظام هذه المخلوقات. أليس من العجب أن نرى العناصر التى تبلغ فوق الثمانين متضادة متنافرة، فمنها محرق كالأكسوجين والصودا والبوتاسا ومنها ماليس كذلك كالأدروجين فهو غاز لايورث احتراقا ولكنه هو قهرها وأذلها وصورها، فخلق الماء من الأكسوجين والأدروجين، وجعل القطن من مواد محرقة، وأخرى غير محرقة كما تراه موضحا فى [سورة البقرة] عند آية الطير وإبراهيم، أليس هذا معنى قوله بعد ذلك:

(١٠) و (١١) و(١٢): (هو الله الخالق) المقدر للاشياء على مقتضى الحكمة (البارئ) الموجد لها بريئا من التفاوت (المصور) الموجد لصورها وكيفياتها كما أراد، فهذه الصفات أفادت الأمرين معا: قهر هذه العناصر وإذلالها: وقد خلع عنها مالبست من صفاتها وألبسها لباسا آخر كما ترى، أن الصودا والبوتاسا فى القطن قد عريت عن احراق وأصبحت ملبسا، فهاهنا اجتمعت الكبرياء والعظمة والقهر مع الملك والسلامة

والأمان والهيمنة والرحمة . ومن أعجب العجب أن تصبح هذه المادة المتشاكسة المتنافرة متوادة متحابة ولم يكن ذلك إلا برحمة وأمان وسلام أولا ، وكبرياء وقهر ثانيا، وهذا معنى قوله: (سبحان الله عما يشركون) ومعنى قوله فى أول السورة : (سبح لله مافى السموات والأرض) وهذا هو قوله بعد ذلك : (له الأسماء الحسنى) لأنها دالة على محاسن المعانى ، وختم ذلك بمجمل ماتقدم كله ، بل بمجمل هذا الوجود ، فذكر أنه يسبح له مافى السموات والأرض ، وأنه عزيز حكيم ، فالتسبيح راجع للتنزه عن قصد الشر ، والعزة راجعة لصفات القهر المتقدمة ، وباجتماعهما معا اتصف بأنه (حكيم) وحكمته ظاهرة واضحة عند الحكماء وحدهم، أولئك الذين يشهدون فى صور الموجودات كالفواكه والأقوات والملابس عناصر متنافرات ، قهرها وذللها لتسلب صفات الشر عنها وتلبس خلع الخير ، فأما سلبها صفات الشر فذلك بصفات السلام والقهر والكبرياء والبطش والعلو والملك ، وأما إلباسها لباس النفع فذلك بصفات الرحمة والسلامة والأمان والهيمنة والقدس والتنزه .

واعلم أيها الذكى أن هذه المعانى جميعها ظاهرة واضحة لذوى البصائر فى هذه الدنيا وهم أحياء يرونها بأعينهم فى ملابسهم وما كلهم ومشاربهم ، فكأن الماء وهم يشربونه يخاطبهم قائلا : ها أناذا مصور مبروء مخلوق من عنصرين متنافرين ، فبالكبرياء والملك كان اجتماعى ، وبالرحمة والرأفة والسلامة والأمان كانت هذه المنافع المزجاة إليكم بشربى ؛ وهكذا يقول القطن للابسه لو كان يعقل مايلبس ، أو يفهم لغة الجمادات الناطقات المتكلمات لذوى البصائر لا الجاهلين الغافلين، إذ يقول :

أيها الإنسان :أنت تلبسنى ولاتعلم أنى مكون من عناصر بعضها نيران محرقة ، ولكن هذه النار أصبحت بردا وسلاما عليك وعلى الناس أجمعين كما كانت النار بردا وسلاما على إبراهيم .

أيها الإنسان : إنك لجهلك وقلة عقلك وغفلتك وقف عقلك عند إبراهيم وناره ، وظننت أن آيات الله خاصة بخوارق العادات . كلا . ثم كلا . إن آيات الله تحيط بك من كل جانب ، وها أناذا أحيط بجسمك ، وأقيك حر الشمس ، وأنا نفسى مركب من مواد بعضها محرقة ولم أحترق أنا ولم أحرقك ؛ فالعجائب تحيط بك أيها الإنسان وأنت لاتشعر بما هو ظاهر واضح لك : « قتل الإنسان ما أكفره » . « إنه كان ظلوما جهولا » .

هذه لغة الماء ولغة القطن ، ومثلها لغة الذرة والقمح ؛ وكل ماتراه يحيط بك ، تذهب إلى حقل الذرة فيعجبك رونقه ، ولكن ذلك بالنظر الظاهرى ، أما هو فإنه يخاطبك بلسان حاله الذى هو أفصح من لسان المقال ، ويذكرك بما فيه من العناصر المذكورة فى (سورة البقرة) فارجع إليها ، ويريك أن الكبريت الذى يستوقد الناس النار به هو نفسه داخل فى ضمن الذرة ، ويقول لك :

أيها الإنسان . أنت تأكل المحرق لجسمك وهو الكبريت الداخل ضمن أجزائى ، ولكنك لاتحترق وأنا لاأحترق به ، فأنا معجزة ماثلة أمامك ، الجاهل لايعرف من آيات الله فى هذا المقام إلا نار إبراهيم ، والحكيم العالم يشاهد إبداع الله فى المشاهدات أمامه والله يقول لكم يابنى آدم : « وما نرسل بالآيات إلا تخويفا » . فالجاهلون لايعرفون إلا خوارق العادات ، والحكماء يرون هذه المعانى تحيط بهم فلايعوزهم خوارق العادات.

محاورات بينى وبين أحد الأصدقاء

اطلع على هذا بعض الأصدقاء الأعزاء العلماء ، فقال : إن ماتقدم كله حسن ، ولكنى الآن أريد أن أفهم معنى كون أسماء الله حسنى وأفهم هذا الحسن بالمشاهدة والعيان تفصيلا ؟ ، وأما هذا فما هو إلا إجمال ،

وأريد أن أقص عليك ماذكره الغزالى فى كتابه الذى جعله شرحا لأسماء الله الحسنى ، وبعد أن أتم مقاله أود أن تريني هذا الحسن عيانا ؟ لأن الله يقول: «سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم » وأنت طالما قلت لنا إن هذا هو الزمان الذى يرى الله الناس فيه الآيات ؟ فقلت : أنا لاأمنع أن تذكر ماقاله الامام الغزالى فى هذا المقام ، وأنا إن شاء الله أريك هذه المعانى عيانا ومشاهدة لتنال اليقين والسعادة فى الحياة الدنيا قبل الموت ، وأسأل الله أن يلهمنا جميعا الخير ، فذلك إذن (فصلان : الفصل الأول) ماقاله الإمام الغزالى فى معنى هذه الأسماء (الفصل الثانى) فى عجائب ومحاسن أسماء الله الحسنى فى العوالم المشاهدات .

الفصل الأول : فى معانى هذه الأسماء

من كلام الغزالى رحمه الله تعالى

فقلت : أسمعنى ما قاله الغزالى رحمه الله فى معانى هذه الأسماء . فقال : (الرحمن الرحيم) هما اسمان مشتقان من الرحمة ، وملخص المعنى الذى قاله . إن الرحمة لاتكون تامة إلا إذا شملت المستحق وغيره ؛ وشملت الضروريات والحاجيات والكماليات والدنيا والآخرة ، والرحيم من الناس عادة يحس بألم فى نفسه من رقته على المرحوم ، وهذا الألم مستحيل فى جانب الله ، فتكون الرحمة أتم ، لأن رحمتنا فيها إزالة الألم عن أنفسنا ، وليست كذلك رحمة الله ، والرحمن أخص من الرحيم ، ولذلك لايسمى به غير الله ، فهو جار مجرى العلم ، فالرحمن للسعادة الأخروية ، وهذه الرحمة خاصة بالله :

(١) هو عطوف على العباد بالإيجاد .

(٢) والهداية إلى الإيمان وأسباب السعادة .

(٣) والإسعاد فى الآخرة .

(٤) والإنعام بالنظر إلى وجهه الكريم .

وحظ العبد من اسم الرحمن أن يرحم العبد الغافل فيعظه باللطف ، وأن ينظر إلى العصاة بعين الرحمة ، وأن تكون معاصى الناس كأنها معاصيه ، فيسعى فى إزالتها .

وحظ العبد من اسم (الرحيم) أن يسعى فى إزالة فاقة كل محتاج ، فإن عجز فبالدعاء وإظهار الحزن اه .

(الملك) هو الذى يستغنى فى ذاته وصفاته وأفعاله وبقائه عن كل ما سواه ، ويستمد سواه الوجود وسائر الصفات منه ، والعبد لايتصور أن يكون ملكا مطلقا بهذا المعنى ، فهو لا يستغنى عن كل شىء ، بل هو مفتقر أبدا ، ولما كان يملك شيئا ويفتقر إلى شىء كان له شوب فى الملك ، وأعظم ملك فى العباد هو المستغنى عن كل ماسوى الله ، وقد أطاعته رعيته الخاصة به قلبه ولسانه وقالبه وجنده وشهوته وغضبه وهواه وسائر أعضائه وقواه ، فإذا ملكها ولم تملكه واستغنى عن الناس واحتاج الناس إليه فى حياتهم العاجلة والآجلة فهو الملك فى العالم الأرضى ، وهذه رتبة الأنبياء ، ويليهم العلماء ، وملكهم على قدر إرشادهم واستغنائهم عن الاسترشاد وبهذه الصفات يقرب العبد من الملائكة ، وهذا الملك عطية من الحق .

أوصى بعض العارفين تلميذه فقال: (كن ملكا فى الدنيا تكن ملكا فى الآخرة) ومعناه اقطع طمعك وشهوتك عن الدنيا فإن الملك فى الحرية والاستغناء .

(القدوس) الله قدوس أى منزه عن كل صفة من صفات العباد الكاملة كالقدرة والعلم الخ فضلا عن نواقصها ، وقدرته وجميع صفات الكمال فيه ما كان ينبغى أن يعبر عنها بالألفاظ التى تدل على مايظنه الخلق

كمالا فيهم ، ولولا أن الرخصة وردت فى الشرع باطلاق ذلك لم يجز ، إن الناس نظروا فى أنفسهم فوجدوا نقصا وكمالا ، فنفوا عنه النقص وأثبتوا الكمال ولكن الله فوق كمالهم فضلا عن نقصهم .

(تنبيه) حظ العبد من هذا الاسم أن يكون علمه متعلقا بما هو دائم فيكون منزها عن كل مايشارك فيه البهائم من كل محسوس ومتخيل وكل متغير بحيث لو سلب آلة العلم بقى العلم فى نفسه ، وهكذا تكون إرادته قدسية ، أى أنه لا يلحظ فى نفسه إلا لقاء الله والفرح بقربه ولا يكتفى بالجنة ونعيمها ؛ وبالجملة جميع الإدراكات الحسية والخيالية يشارك الإنسان فيها البهائم فيتعالى عنها فى الدنيا والآخرة ، ومن لم تكن همته إلا فى الله فدرجته على قدر همته ، وبالجملة من رقى علمه عن درجة المحسوسات والتخيلات وقدس إرادته عن مقتضى الشهوات فقد نزل بحبوحة حظيرة القدس . هذا ملخص كلامه رحمه الله .

أقول : وإياك أيها الذكى أن تظن أن هذا ينافى ما كتبناه فى هذا التفسير ، بل هو عينه . وحب الله وحب لقائه لن يتم لأمرئ فى هذه الحياة الدنيا إلا بأمر واحد ، وهو عشق العلم والغرام بالطبيعة ودرسها درسا مدققا ، وكتابنا هذا كاف لنيل هذه الدرجة وفتح باب المزيد منها .

(السلام) هو الذى تسلم ذاته عن العيب ، وصفاته عن النقص ، وأفعاله عن الشر . أقول : وقد تقدم فى هذا التفسير براهين كثيرة على أنه لا شر فى هذا العالم إلا وقد جعل مقدمة الخير ، حتى أن الموت مقدمة لصفاء الروح وخروجها من سجنها ، وحظ العبد من هذا الاسم أن يسلم قلبه من الحقد والغش وإرادة الشر ، وأن تسلم جوارحه من الآثام والمحظورات ، ومثل هذا العبد يأتى الله بقلب سليم ؛ فهذا العبد سلام قريب من السلام المطلق الحق ولا سلام لمن أصبح عقله أسير شهواته .

(المؤمن) هو الذى يعزى إليه الأمن والأمان بإفادته أسبابه ، وسده طرق المخاوف ، والمؤمن المطلق هو الذى يستمد منه كل أمن وأمان ، وجميع حواس الإنسان تعطيه من الأمن ما يلائمها كالعين تبصر العدو فتتحاشاه ، واليد تبطش به فيكون الأمان من شره ، فالمؤمن هو الذى خلقها ، ولاجرم أن الإنسان فى أصل فطرته ضعيف ، وهذه الجنود من العقل والجوارح قوة له بها يتعاطى الطعام والشراب ، ويدافع الأعداء فذلك كله من صنع المؤمن ، ومن جنود الأمن والأمان والدين والعقائد ، والآراء الشريفة التى تجعل الإنسان فى أمان فى الدنيا والآخرة ، وحظ العبد من هذا الاسم أن يأمن الناس شره ، وأن يكون عضدا لكل خائف ، وأحق الناس بشرف هذا الوصف من يكون سببا فى أمان الناس من عذاب الآخرة بتعليمهم وتقويمهم ، وأفضل الناس فى ذلك الأنبياء ، وليس وصف الله بأنه مؤمن بمانع أن يكون الله مخوفا ، فإنه منه الأمن وأسبابه ، ومنه الخوف وأسبابه ، كما أنه معز ومذل ، وخافض ورافع ، ولا يمنع أحد الوصفين الآخر ، وقد ورد التوقيف بالمؤمن ولم يرد بأنه مخوف .

(المهيمن) أى القائم على خلقه بأعمالهم وأرزاقهم وآجالهم ، فهو مطلع ومستول عليهم وحافظ ، وكل من هو مشرف على كنه الأمر مستول عليه حافظ له ، فهو مهيمن عليه ، والإشراف يرجع إلى العلم ، والاستيلاء إلى كمال القدرة . والحفظ إلى الفعل ، فالجامع لهذه المعانى اسمه المهيمن ، وهل يجمعها على سبيل الاطلاق إلا الله ، وحظ العبد من هذا الاسم أن يهمن أو يشرف على أغوار أسراره ؛ ويستولى على تقويم أحواله وأوصافه ، ويحفظها على الدوام ؛ فذلك مهيمن على قلبه ؛ فان أشرف على عباد الله يتعرف بواطنهم بالاستدلال بظواهرهم والتفرس فيها كان نصيبه من هذا المعنى أوفر وحظه أتم .

(العزيز) هو الخطير الذى يقل وجود مثله ، وتشتد الحاجة إليه ، ويصعب الوصول إليه ، فهذه أربعة معان إن لم تجتمع فى الموصوف لايسمى عزيزا ، فالأرض والشمس نفعهما عظيم ولا نظير لهما

(يحسب)

[بحسب الظاهر عند أهل الأرض وإلا فكم من شموس وأرضين كما تقدم] والحاجة مشتدة إليهما ، ولكن نحن نشاهدهما فلم يصعب الوصول إليهما ، فأين العزة إذن ؟ وحظ العبد من هذا الاسم أن يحتاج إليه العباد فى أهم أمورهم فى الحياة الدنيا والآخرة ، والأنبياء أولى بهذه الصفة ؛ ويقرب منهم الخلفاء الراشدون والعلماء الخ .

(الجبار) هو من تنفذ مشيئته فى كل أحد على سبيل الاجبار ، ولا تنفذ فيه مشيئة أحد ، ولا يخرج عن قبضته أحد ، وتقصر الأيدى دون حمى حضرته ، والجبار من العباد من ارتفع عن الأتباع ونال درجة الاستتباع بحيث يجبر الخلق بهيئته وصورته على الاقتداء به ومتابعته فى سمته وسيرته فيفيد الخلق ولا يستفيد ولا يشاهده أحد إلا ويفنى عن ملاحظة نفسه ويصير متشوقا إليه غير ملتفت إلى ذاته ولا يطمع أحد فى استدراجه ، وهذه صفة الأنبياء لاسيما خاتمهم صلى الله عليه وسلم .

(المتكبر) هو الذى يرى الكل بالنسبة له حقيرا بالإضافة إلى ذاته ، ولا يرى العظمة والكبرياء إلا لنفسه وذلك هو الله ، والمتكبر من العباد على هذا المنوال تكبره باطل ، والمتكبر من العباد هو الزاهد العارف فينزه سره عما يشغله من الخلق ، ويتكبر على كل شيء سوى الحق فيحقر الدنيا والآخرة جميعا بحيث لا يشغلانه عن الحق تعالى .

أقول : وأنت أيها الذكى خبير أن عجائب العوالم تجعل فى النفس قربا لمبدعها ، وإرشاد الخلق وإنقاذ الأمم من ضعفها ، كل هذا لم يخرج عن كونه مقربا لله تعالى .

(الخالق البارىء المصور) فالأول راجع للتقدير ، والثانى للإيجاد ، والثالث للتصوير . إن المهندس يفكر فى نظام المنزل ، فهو له مقدر ، يقدر مالا بد منه من الخشب واللبن والمساحة الخ ، ثم يكون البناء ثم يكون الذى ينقش ظاهره ، وهذا بالترتيب : « الخالق البارىء المصور » ولكن الله هو الذى يتولى هذه الأفعال الثلاثة بنفسه .

أقول : ومن نعم الله عز وجل أن هذا التفسير من قرأ أكثر ما فيه أو مقدارا كبيرا منه أدرك بحق وصدق ويقين عجائب اسمه تعالى المصور ، فإنه يرى الاتقان فى كل صغير وكبير كالعين والأذن وتركيبهما وبدائع النظم فى أعالى العوالم وأسافلها ، ولقد أطال فى ذلك الإمام الغزالى : ولكن زماننا والحمد لله زمان هذه العلوم فبذلك فليفرح المسلمون ، فبشرى لهم بنابغين سيظهرون فى بلاد الإسلام ، يزرعون ما بذرنا فى الأفئدة ، وسيكونون حقا خير أمة أخرجت للناس . وحظ العبد من اسمه تعالى المصور أن يحصل فى نفسه صورة الوجود كله على هيئته حتى يحيط بالعالم علويه وسفليه من المجرات والشموس والسدم .

أقول : ومن قرأ أكثر هذا التفسير فقد نال هذه الأمنية إن كان من الأذكياء العاشقين للعلم ، وهكذا يشرف على صورة الإنسان من حيث بدنه وأعضاؤه الجسمانية ، فيعلم مفصلها بالتشريح وترتيب أجزائها ، وعددها والحكمة فى خلقها ، ثم يشرف على صفات الانسان المعنوية ومعانيه الشريفة التى بها إدراكاته وإراداته ، وكذلك يعرف صور الحيوانات والنباتات ظاهرا وباطنا بقدر وسعه حتى يحصل نفس الجميع وصورته فى قلبه ومعرفة الأمور الجسمانية صورة مصغرة للأمور الروحية ، وهاهنا يدخل فى عالم الملائكة وهم المتصرفون فى عالم السموات والأرضين ، وهم الملهمون بأمر الله لكل إنسان وحيوان ؛ فحظ العبد من هذا الاسم اكتساب الصور العلمية المطابقة للصورة الوجودية ، فان العلم صورة فى النفس مطابقة لصورة المعلوم ، وهذا فى الحادث ، أما علم الله بالصور فهو سبب فى وجود الصور فى الأعيان ، هذا كله فى الاسم (المصور) .

أما الخالق والبارئ فليس للعبد حظ فيهما إلا بطريق المجاز ، إن للعبد علما وقدرة ، وهذان لا ارتباط لهما بالتأثير فى عوالم السموات والأرضين ، نعم للانسان أعمال كالصناعات والسياسات والعبادات والمجاهدات ، فإذا هذب العبد نفسه وساسها وانفرد بأمور لم يسبق لها نظير كصنع الطيارات والراديو فى زماننا ، فإن المخترع يطلق عليه هذا الاسم مجازا فيقال خالق وبارئ ، فهذا فى حق الله حقيقة وفى حق العبد مجاز ، بخلاف الصبور الشكور ، فهما فى حق العبد حقيقة ، وفى حق الله مجاز ؟ وينبغى أن تلاحظ أيها الذكى مع المشاركة فى الاسم التفاوت بين المقامين .

هذا ملخص ما كتبه الامام الغزالى مع تغيير يسير كضرب الأمثلة ، فهو قد مثل للمخترعين بالشطرنج وأنا أمثل الآن بما لا حصر له من الأمثلة . ومن أعجب العجب أن يكون دين الاسلام هذا مقامه وأن يكون المسلم باختراعه قريبا من ربه ، والمسلمون نيام كأنهم لم يقرءوا كلام علمائهم فناموا ففر العلم والاختراع إلى بلاد أوروبا ، وانتقل إلى أمريكا والشرق الأقصى ، أما بلاد الاسلام فلا ، وأنا أنذر أمم الاسلام قاطبة صاعقة العذاب الهون بما كانوا يجهلون .

اللهم لك المشتكى ، أمة تكون أسماؤك أنفسها أعينها نبراسا لهدايتهم للاختراع ، والاختراع يقربهم من من حضرتك العلية وهم لا يعلمون ، ولا يدرسون إلا القشور .

اللهم إنى أبرأ إليك من الكتمان ، وها أنذا أنشر لهم ما فتحت به على وألهمتنيه حق ألقاك ، وقد فعلت ما قدرت عليه ، ولا تؤاخذنى بتقصيرى فإنى وعزتك قد نشرت مع إعانتك لى بقدر إمكانى ، ولا يكلف الله نفسا إلا وسعها ، وهو أرحم الراحمين . انتهى الكلام على الفصل الأول ، والحمد لله رب العالمين .

الفصل الثانى

فى تبيان محاسن أسماء الله الحسنى بالمعاينة والمشاهدة

مصداقا لقوله تعالى : « وقل الحمد لله سيريكم آياته فتعرفونها » . وقوله « إن علينا للهدى »

وقوله : « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق »

هنا لك ابتدأ صاحبى يسألنى قائلا : مامعنى كون أسماء الله حسنى ؟ أمحاسنها فى ألفاظها أم فى معانيها ؟ أم فى الآثار المنطبقة على معانيها ؟ وأنا أذكر أنه ورد فى بعض الآثار أن من أحصى أسماء الله الحسنى عددا دخل الجنة ، ورأيت للعلماء أقوالا فى ذلك ، فمن قائل من حفظها ، ومن قائل من فهم معناها ، ومن قائل من تخلق بها ، وأنا لا أدرى ماهو الحق من ذلك ، وأيضا هاهو ذا الإمام الغزالى يضرب أمثالا فى تفسيره لهذه الأسماء بذكر أعضاء النحلة وتركيبها ، وتركيب العين وعجائب طبقاتها وهكذا مما تقدم شرحه ، فهاأناذا أريد أن أرى بعين البصر بعض هذه العجائب على شريطة أن تكون داخلة تحت أسماء الله الحسنى دخولا حقيقيا ؟ فقلت : ياصاح : أنا أجيبك بعون الله فى المقامين (المقام الأول) فى تبيان ماهو الحق من هذه الأقوال (المقام الثانى) فى تبيان محاسن الأسماء الحسنى بالعيان والمشاهدة .

المقام الأول : فى تبيان ماهوا لحق من هذه الأقوال

اعلم أيها الأخ الذكى أن هذه الأقوال لم تكن فى أمم الإسلام سدى ، فالقول الأول يناسب الأطفال ليحفظوا هذه الأسماء ، وهذا يناسب عقولهم لأنهم لا يعقلون المعانى ، والقول الثانى يلقى إلى الطفل متى عقل فيقال له : إن الجنة ودخولها لن تكون بمجرد اللفظ ، لأن اللفظ يراد به المعنى ، ومتى زاد تعقلا يقال له :

أيها الفتى : أنت فهمت المعنى ، وعرفت أن الله رحيم وقدوس الخ فاقرأ القرآن وادرس العلوم تجد فى الأول محرمات فاجتنبها ، وواجبات فقم بها ، لتبرأ من العيوب الإنسانية ، وتتحلى بالصفات الملكية ، فلا بد لك من علم وعمل ؛ ثم إذا ازداد تعقلا يقال له : أيها الإنسان : لا سعادة فى هذه الحياة إلا بالوقوف على الحقائق ، ولن يقف الانسان على الحقائق وقلبه مفعم بالرذائل ، فاذا صفت نفسه قبلت الحكمة والعلم ، وظهرت له نفس هذه الدنيا بصورة بهجة جميلة ، وكأنها جنات ، يحس بها والناس لايعلمون ، ويكون ذلك مقدمات للجنات الحقيقية ، والسعادة الأبدية ، بمشاهدة صانع هذه العوالم بعد الموت ، ولن يطمع امرؤ عدم عشق هذه العجائب فى الدنيا فى أن يرى ربه إلا من وراء حجاب ، وعلى مقدار حجابه المسدول عليه فى هذه الحياة الدنيا يسدل عليه الحجاب يوم القيامة وبعد الموت ، لأنه لادرجة هناك مستأنفة ؛ فالحياة الدنيا هى أس السعادة وأس الشقاء ، وهنالك يشتاق العاقل إلى أن يسمع :

المقام الثانى من الفصل الثانى

فقال صديق : أريد أن تذكر لى بالمشاهدة معنى (اللطيف ؛ والنور الهادى) فانى رأيت فى شرح الغزالى فى معنى اللطيف أنه هو العالم بدقائق المصالح وغوامضها ؛ وما دق منها وما لطف ، ثم يسلك فى إيصالها إلى المستحق سبيل الرفق دون العنف ، فإذا اجتمع الرفق فى الفعل واللطف فى العلم تم معنى اللطف . ولا يتصور كمال ذلك فى العلم والفعل إلا لله تعالى . فأما إحاطته بالدقائق والخفايا ، فلا يمكن تفصيل ذلك بل الخفى مكشوف فى علمه كالجلى من غير فرق ، وأما رفقه فى الأفعال ولطفه فيها فلا يدخل أيضا تحت الحصر ، إذ لايعرف اللطف فى الفعل إلا من عرف تفاصيل أفعاله ، وعرف دقائق الرفق فيها ، وبقدر اتساع المعرفة فيها تتسع المعرفة بمعنى اسم اللطيف ، وشرح ذلك يستدعى تطويلا ، ثم لايتصور أن يفى بعشر عشره مجلدات كبيرة ، وإنما يمكن التنبيه على بعض جمله ، فمن لطفه خلقه الجنين فى بطن الأم فى ظلمات ثلاث وحفظه فيها وتغذيته بواسطة السرة إلى أن ينفصل فيستقل بالتناول بالفم ، ثم إلهامه إياه عند الانفصال التقام الثدى وامتصاصه ولو فى ظلام الليل من غير تعلم ومشاهدة ، بل فلق البيضة عن الفرخ وقد ألهمه التقاط الحب فى الحال ، ثم تأخير خلق السن عن أول الخلقة إلى وقت الحاجة للاستغناء فى الاغتذاء باللبن عن السن ثم إنباته السن بعد ذلك عند الحاجة إلى طحن الطعام ، ثم تقسيم الأسنان إلى عريضة للطحن ، وإلى أنياب للكسر ، وإلى ثنايا حادة الأطراف للقطع ، ثم استعمال اللسان الذى الغرض الأظهر منه النطق فى رد الطعام إلى المطحن كالمجرفة ، ولو ذكر لطفه فى تيسير لقمة يتناولها العبد من غير كلفة يتجشمها ، وقد تعاون على إصلاحها خلق لايحصى عددهم من مصلح الأرض وزارعها ، وساقيها وحاصدها ، ومنقيها وطاحنها وعاجنها وخابزها ، إلى غير ذلك لكان لايستوفى شرحه ، وعلى الجملة فهو من حيث دبر الأمور حكم ، ومن حيث أوجدها جواد ، ومن حيث رتبها مصور ، ومن حيث وضع كل شىء فى موضعه عدل ، ومن حيث لم يترك فيها دقائق وجوه الرفق لطيف ، ولن يعرف حقيقة هذه الأسامى من لم يعرف حقيقة هذه الأفعال ، ومن لطفه بعباده أنه أعطاهم فوق الكفاية وكلفهم دون الطاقة ، ومن لطفه أنه يسر لهم الوصول إلى سعادة الأبد بسعى خفيف فى مدة قصيرة ، وهى العمر ، فانه لانسبة لها بالاضافة إلى الأبد ، ومن لطفه إخراج اللبن الصافى من بين الفرث والدم وإخراج الجواهر النفيسة من الأحجار الصلبة ، وإخراج العسل من النحل ، والابريسم من الدود ؛ والدر من الصدف . وأعجب من ذلك كله خلقه الانسان من النطفة القذرة وجعله مستودعا لمعرفته ، وحاملا لأمانته ، ومشاهدا لملكوت سمواته ؛ وهذا أيضا رفق لايمكن إحصاؤه

(تنبيه) حظ العبد من هذا الوصف الرفق بعباد الله تعالى والتلطف بهم فى الدعوة إلى الله والهداية إلى سعادة الآخرة من غير ازدراء وعنف ، ومن غير خصام وتعصب ، وأحسن وجوه اللطف فيه الجذب إلى قبول الحق بالشمائل والسيرة المرضية والأعمال الصالحة فانها أوقع وألطف من الألفاظ المزينة اه .

***

وقال فى معنى (النور الهادى) مانصه : «النور هو الظاهر الذى به كل ظهور ، فإن الظاهر فى نفسه المظهر لغيره يسمى نورا ، ومهما قوبل الوجود بالعدم كان الظهور لامحالة للوجود ، ولا ظلام أظلم من العدم فالبرىء عن ظلمة العدم ، بل عن إمكان العدم والمخرج كل الأشياء من ظلمة العدم إلى ظهور الوجود جدير بأن يسمى نورا ، والوجود نور فائض على الأشياء كلها من نور ذاته ، فهو نور السموات والأرض ، وكما أنه لاذرة من نور الشمس إلاوهى دالة على وجود الشمس المنورة ، فلا ذرة من موجودات السموات والأرض وما بينهما إلا وهى بجواز وجودها دالة على وجوب وجود موجدها ، وما ذكرناه فى معنى الظاهر يفهمك معنى النور ويغنيك عن التعسفات المذكورة فى معناه .

(الهادى) هو الذى هدى خواص عباده أولا إلى معرفة ذاته حتى استشهدوا بها على معرفة مخلوقاته وهدى عوام عباده إلى مخلوقاته حتى استشهدوا بها على ذاته ، وهدى كل مخلوق إلى مالا بد منه فى قضاء حاجاته ، فهدى الطفل إلى التقام الثدى عند انفصاله ، والفرخ إلى التقاط الحب وقت خروجه ، والنحل إلى بناء بيته على شكل التسديس لكونه أوفق الأشكال لبدنه ، وأحواها وأبعدها عن أن يتخللها فرج ضائعة وشرح ذلك مما يطول ، وعنه عبر قوله تعالى : « الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى » ، وقوله تعالى : « والذى قدر فهدى » والهداة من العباد الأنبياء والعلماء الذى أرشد الخلق إلى السعادة الأخروية : وهدوهم إلى صراط الله المستقيم ، بل الله الهادى لهم على ألسنتهم ، وهم مسخرون تحت قدرته وتدبيره اه .

***

هذا ماقاله الإمام الغزالى ؛ وأنا أريد أن أشاهد هذه الأمور عيانا : أى أشاهد هدايته لمخلوقاته بالصور المشاهدة ، وكيف كان لطفه بهم مشاهدة أيضا ، فقلت ياصاح : إن هذا التفسير مفعم بهذه العجائب فارجع إلى (سورة البقرة) فى الطبعة الثانية ، ففيها عجائب كثيرة مثل تدرجه فى خلقه طبقا عن طبق ، فتراه هناك مصورا بالتصوير الشمسى عند آية الطير وإبراهيم ، والعزير وحماره ، وهكذا فى سور كثيرة . فقال نعم ولكنى أريد الآن أمرا آخر ، وهو التلطف فى هداية الناس فى الأرض ، وكيف يتوصلون إلى أعاظم الأمور بأصاغرها ؟ فقلت : ذلك هو علم الهندسة والحساب والجبر والفلك والطبيعة ، فمن درس هذه العلوم أدرك ذلك اللطف والهداية والنور ، فإذا كان ذا بصيرة فإنه يعرف أنه قد ارتقى فى الهندسة من الخط والزاوية والمثلث والمربع إلى الكرات والمكعبات ودراسة الكواكب فى السموات ، ذلك مدون فى كتب جميع الأمم غاية الأمر أن أكثر هذا النوع الإنسانى يدرسون ويفهمون ولكن لا يعقلون أن هذا لطف بهم وهداية بل يعيشون ويموتون وكأنهم لا يدرسون ولا يعلمون .

فقال نعم ، هذا حسن ، ولكن الأحسن منه أن تريني مثالا واحدا كما وعدت فى أول المقال ؟ فقلت : الآن أحدثك حديثا جميلا ، ولكن هذا الحديث سأحدثك به إن شاء الله فى (سورة الملك) عند آية «ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح » الخ فارتقب ذلك هناك ، إن هذه العلوم السماوية والأضواء كلها مرتبطات بأسماء الله ، وهل الأسماء إلا دالة على الصفات ، وهذه الآثار دالات على الصفات ، وهكذا ستشاهد عجائب النبات والأزهار فى (سورة النبأ) فى المجلد الخامس والعشرين من هذا التفسير .

هذا هو نهاية الكلام على قوله تعالى : « لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية

الله وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون ، هو الله الذي لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم ، هو الله الذي لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر سبحان الله عما يشركون ، هو الله الخالق البارئ المصور له الأسماء الحسنى يسبح له ما في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم » .

وبهذا تم تفسير سورة الحشر ، والحمد لله رب العالمين .

تفسير سورة الممتحنة

هي مدنية

آياتها ١٣ — نزلت بعد الأحزاب

بسم الله الرحمن الرحيم

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ * إِنْ يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُمْ بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ * لَنْ تَنْفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ * قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ * رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ * عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوَدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ * لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا

إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ * إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَآتُوهُمْ مَا أَنْفَقُوا وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ وَاسْأَلُوا مَا أَنْفَقْتُمْ وَلْيَسْأَلُوا مَا أَنْفَقُوا ذَلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ * وَإِنْ فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُمْ مِثْلَ مَا أَنْفَقُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ * يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ *

هذه السورة فيها مسئلتان

الأولى : ألا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء فيفشون إليهم أسرار المسلمين .

الثانية : مسئلة المؤمنات المهاجرات وامتحانهن ونحو ذلك .

مقدمة

قال المفسرون : إن سارة التي كانت مغنية ونائحة بمكة أتت المدينة تشكو الحاجة ، فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بني عبد المطلب أن يعطوها ماتحتاج إليه ، فأعطوها نفقة وكسوة وحملوها ، فجاء لها حاطب ابن أبي بلتعة ، وكتب معها كتابا إلى أهل مكة ، وأعطاها عشرة دنانير وكساها ، وهذا نصه : «من حاطب ابن أبي بلتعة إلى أهل مكة إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يريدكم فخذوا حذركم » ، فأخبره جبريل ، فبعث صلى الله عليه وسلم عليا وعمارا وعمر وطلحة والزبير والمقداد وأبا مرثد ، وكانوا فرسانا ، وقال : انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ ، فإن بها ظعينة معها كتاب من حاطب إلى أهل مكة فخذوه منها وخلوها ، فإن أبت

فاضربوا عنقها فأدركوها فجحدت وحلفت ، فهموا بالرجوع ، فقال على : والله ما كذبنا ، ولا كذب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وسل سيفه ، وقال لها : أخرجى الكتاب أو تضعى رأسك ، فأخرجته من عقاص شعرها ، فاستحضر رسول الله صلى الله عليه وسلم حاطبا ، وقال : ماحملك عليه ؟ فقال يارسول الله ما كفرت منذ أسلمت ، ولا غششتك منذ نصحتك ، ولا أحببتهم منذ فارقتهم ، ولكنى كنت امرأ ملصقا فى قريش ، ولم أكن من أنفسها ، وكل من معك من المهاجرين لهم قرابات بمكة يحمون أهاليهم وأموالهم غيرى فخشيت على أهلى فأردت أن آخذ عندهم يدا ، وقد علمت أن الله ينزل عليهم بأسه ، وأن كتابى لايغنى عنهم شيئا ، فصدقه وقبل عذره ، فقال عمر : يارسول الله دعنى أضرب عنق هذا المنافق ، فقال صلى الله عليه وسلم : ومايدريك ياعمر لعل الله قد اطلع على أهل بدر فقال لهم اعملوا ماشئتم فقد غفرت لكم ، ففاضت عينا عمر رضى الله عنه ، فنزل :

بسم الله الرحمن الرحيم

(ياأيها الذين آمنوا لاتتخذوا عدوى وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة) تفضون إليهم المودة بالمكاتبة ، والباء زائدة ، أوتلقون إليهم أخبار الرسول صلى الله عليه وسلم بسبب مودتكم لهم (وقد كفروا بما جاءكم من الحق) الجملة حالية (يخرجون الرسول وإياكم) من مكة (أن تؤمنوا بالله ربكم) أى لأن آمنتم : أى يفعلون ذلك لأجل إيمانكم بالله الخ (إن كنتم خرجتم جهادا فى سبيلى وابتغاء مرضاتى) فلاتتخذوا عدوى وعدوكم أولياء ، وأبدل من قوله «تلقون» قوله تعالى (تسرون إليهم بالمودة وأنا أعلم بما أخفيتم وماأعلنتم) أى منكم (ومن يفعله منكم) أى من يفعل الاتخاذ منكم (فقد ضل سواء السبيل) أخطأه (إن يثقفوكم) يظفروا بكم (يكونوا لكم أعداء) ولاينفعكم إلقاء المودة إليهم (ويبسطوا إليكم أيديهم وألسنتهم بالسوء) مايسوءكم فيقتلون ويشتمون (وودوا لو تكفرون) أى وتمنوا كفركم : أى ارتدادكم فتكونون سواء . والمقصود أن الاختلاف فى العقائد يجعل التناصح معدوما ؛ فلاتناصحوهم لأنهم لايرحمونكم إذا ظفروا بكم (لن تنفعكم أرحامكم ولاأولادكم) أى قراباتكم ولاذريتكم الذين توالون المشركين لأجلهم (يوم القيامة يفصل بينكم) يفرق بينكم من شدة الهول (والله بما تعملون بصير) فيجازيكم عليه .

وإلى هنا تم الأمر فى اتخاذ الأعداء أولياء . فلم يبق إلا مايقوى ذلك بالاقتداء بالأنبياء السابقين كما هى طريقة القرآن . فلذلك قال (قد كانت لكم أسوة حسنة) قدوة . وهى اسم لما يؤتسى به (فى إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إنا برآء منكم) كظريف وظرفاء (ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم) أى بدينكم أوبمعبودكم (وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبدا حتى تؤمنوا بالله وحده) فاذا تبرأ إبراهيم وأصحابه من قومهم فليتأس حاطب والمؤمنون بهم ، فلكم أن تتأسوا بإبراهيم فى جميع أموره إلا فى الاستغفار لأبيه المشرك فلاتتأسوا به ، فان إبراهيم كان قد قال لأبيه « لأستغفرن لك » فلما تبين له إقامته على الكفر تبرأ منه ، وهذا قوله تعالى : (إلا قول إبراهيم لأبيه لأستغفرن لك وما أملك لك من الله من شىء) وهذه الجملة ليست مقصودة بالاستثناء إنما المقصود به قوله لأبيه ، ثم أمر الله المؤمنين أن يقولوا تتميما للوصية السابقة قبل الاستثناء (ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير ، ربنا لاتجعلنا فتنة للذين كفروا) بأن تسلطهم علينا فيفتنون بعذاب لا تتحمله ، أو فيظنوا أنهم على الحق ، أولاتعذبنا بأيديهم ، ولا بعذاب من عندك ، فيقولوا : لو كان هؤلاء على الحق ما أصابهم ذلك .

وملخص ذلك أن الفتنة إما عذاب المؤمنين ، وإما مايترتب عليه من ظن الكافرين أنهم على الحق لنصرتهم عليهم (واغفر لنا) مافرط منا من مكاتبة الكافرين (ربنا إنك أنت العزيز الحكيم) ومن هذه صفته فهو

حقيق أن يجير من يتوكل عليه، ويجيب داعيه، ثم أكد ماتقدم من التأسى فقال (لقد كان لكم فيهم أسوة حسنة) اقتداء حسن، ثم أبدل من «لكم» (لمن كان يرجو الله واليوم الآخر ومن يتول) أى يعرض عن الإيمان ويوالى الكفار (فإن الله هو الغنى الحميد) أى الغنى عن خلقه المحمود المستحق الحمد من جميع خلقه، ثم إن هذه الآيات حملت المسلمين أن يظهروا براءتهم من أقربائهم، وعداوتهم لهم، ولما كان ذلك شديدا عليهم أردفه بوعد قد تم فيما بعد فقال (عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم مودة والله قدير) على ذلك (والله غفور) لما فرط من موالاتهم (رحيم) بالتوفيق فى المستقبل، وقد فعل الله ذلك ويسر فتح مكة وأظفرهم الله عليهم، فأسلم قومهم وتم بينهم التحاب، وعسى من الله وعد على عادات الملوك حيث يقولون: عسى أولعل، والمحتاج لايشك فى تمام ذلك، ومن تمام ذلك الوعد أنهم خالطوهم، وناكحوهم، وتزوج النبى صلى الله عليه وسلم أم حبيبة بنت أبى سفيان، ولان لهم أبوسفيان، ثم أسلم أخيرا.

ثم أخذ الله سبحانه يبين من نهى المؤمنين عن موالاتهم، ومن لم ينههم عنها. فمن ذلك أن خزاعة صالحوا رسول الله صلى الله عليه وسلم على ألا يقاتلوه ولايعينوا عليه أحدا، فرخص الله فى برهم. ومن ذلك أن أسماء بنت أبى بكر قدمت أمها إلى المدينة بهدايا وهى مشركة. فقالت أسماء: لاأقبل منك هدية ولاتدخلى بيتى حتى أستأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم فأذن لها، وفى هذين وأمثالهما قال الله تعالى (لاينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم) أى لاينهاكم الله عن بر الذين لم يقاتلوكم فى الدين الخ (وتقسطوا إليهم) وتعدلوا فيهم بالإحسان إليهم والبر (إن الله يحب المقسطين) العادلين (إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم فى الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم) كمشركى مكة. فإنهم قسمان: قسم سعى فى إخراجهم من مكة، وقسم ساعدهم على ذلك وأعانهم (ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون) لأنهم وضعوا الموالاة فى غير أهلها.

وهنا أخذ يذكر القسم الثانى من السورة الذى ابتدئ بمسألة المؤمنات المهاجرات. وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما صالح أهل مكة بالحديبية اشترط سهيل بن عمرو — كما تقدم فى سورة الفتح — أنه لايأتيك منا أحد وإن كان على دينك إلا رددته إلينا وخليت بيننا وبينه؛ فلم يأته أحد من الرجال إلا رده، وأولهم أبوجندل بن سهيل للذكور وهم جميعا مسلمون ثم جاءت مؤمنات مهاجرات منهن سبيعة بنت الحارث الأسلمية وهى مسلمة، فأقبل زوجها مسافر المخزومى طالبا لها، فنزلت: (ياأيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتحنوهن) فاختبروهن بما يغلب على ظنكم وانظروا هل توافق قلوبهن ألسنتهن، أم هن منافقات؟ فكان صلى الله عليه وسلم يستحلف المرأة أنها ماخرجت من بغض زوج، ولارغبة عن أرض إلى أرض، ولالحدث أحدثته، ولاالتماس دنيا. وما خرجت إلا رغبة فى الإسلام؛ وحبا لله ورسوله. فاذا حلفت على ذلك لم يردها، فاستحلف صلى الله عليه وسلم سبيعة فحلفت فلم يردها، وأعطى زوجها مهرها وماأنفق عليها، فتزوجها عمر بن الخطاب رضى الله عنه. وقوله (الله أعلم بإيمانهن) أى المطلع على مافى قلوبهن وإنما أنتم تكتفون بالظواهر (فإن علمتموهن مؤمنات) أى إن ظننتموهن ظنا غالبا بالحلف وظهور الأمارات (فلاترجعوهن إلى الكفار) أى إلى أزواجهن فى الكفر، وبين سببه فى قوله (لاهن حل لهم ولاهم يحلون لهن وآتوهم ماأنفقوا) مادفعوا من مهر إليهن (ولا جناح عليكم أن تنكحوهن) نفى عنهم الجناح فى تزوج هؤلاء المهاجرات (إذا آتيتموهن أجورهن) مهورهن (ولا تمسكوا بعصم الكوافر) العصمة مايعتصم به من عقد وسبب، والكافرة مفردة الكوافر هى التى بقيت فى دار الحرب، أوالتى لحقت بدار الحرب مرتدة فلا يكن بينكم وبينهن عصمة، ولاعلقة زوجية، فمن كانت له امرأة كافرة بمكة فلا تعد من نسائه، لأن اختلاف الدارين قطع العصمة بينهما كما قاله ابن عباس (واسألوا ما أنفقتم) من مهور أزواجكم

اللاحقات بالكفار ممن تزوجهن منهم (وليسألوا ما أنفقوا) من مهور نسائهم المهاجرات ممن تزوجهن منكم (ذلكم حكم الله) أى جميع ماذكر فى هذه حكم الله . ثم استأنف فقال (يحكم بينكم والله عليم حكيم) يشرع ماتقتضيه الحكمة، وليس فى إبقاء النساء نقض للعهد، لأنه روى عن على أن سهيلا قال : لا يأتيك منا رجل وإن كان على دينك إلا رددته : أى بخلاف المرأة، فرد المهر إذن يكون مندوبا لاواجبا . وقيل إن رد النساء واجب كالرجال، إذن يكون رد المهر المذكور واجبا . وهل الآية منسوخة أوهى غير منسوخة ؟ فلاترد المال على الأول ونرده على الثانى إذا شرطنا ذلك مع الكفار رأيان . ولما نزلت الآية المتقدمة أبى المشركون أن يؤدوا مهر الكوافر فقال تعالى (وإن فاتكم) سبقكم وانفلت منكم (شىء من أزواجكم) أى أحد من أزواجكم (إلى الكفار فعاقبتم) أى ظهرتم وكانت العاقبة لكم على الكفار بأن أصبتم الغنيمة منهم (فآتوا الذين ذهبت أزواجهم مثل ماأنفقوا) فأعطوا المسلمين الذين ارتدت زوجاتهم بدار الحرب مهور زوجاتهم من هذه الغنيمة (واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون) ثم بين مبايعة النساء فقال (ياأيها النبى إذا جاءك المؤمنات يبايعنك) الجملة حال (على ألا يشركن بالله شيئا ولا يسرقن ولايزنين ولايقتلن أولادهن) وهو وأد البنات (ولايأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن) ذلك أن المرأة كانت تلتقط المولود فتقول لزوجها هو ولدى منك، فالبهتان مجاز عن الولد إذ تلصقه بزوجها كذبا، وذلك أن بطنها التى تحمل الولد فيه بين اليدين والفرج الذى هو محل الولادة بين الرجلين، وقد بايعه صلى الله عليه وسلم نحو ٤٥٧ امرأة ، ولم يصافح امرأة منهن قط، وممن بايعه هند. فلما سمعت هذه الجملة من الآية قالت : إن البهتان لقبيح، وما تأمرنا إلا بالرشد ومكارم الأخلاق (ولايعصينك فى معروف) أى فى حسنة تأمرهن بها . ومن كلام هند له صلى الله عليه وسلم لما قال : « على ألا يشركن بالله شيئا » والله إنك لتأخذ علينا أمراً مارأيناك أخذته على الرجال ! وكان قد بايع الرجال يومئذ على الإسلام والجهاد فقط ، ولما قال « ولا يسرقن » قالت هند : إن أبا سفيان رجل شحيح وإنى أصبت من ماله هنات فلاأدرى أيحل أملا ؟ فقال أبوسفيان : ماأصبت من شىء فيما مضى فهو حلال، فضحك صلى الله عليه وسلم وعرفها وقال لها : وإنك لهند بنت عقبة ؟ قالت نعم ، فاعف عما سلف عفا الله عنك ، ولما قال «ولايزنين» قالت هند : أوتزنى الحرة ؟ ولما قال «ولايقتلن أولادهن» قالت هند : ربيناهم صغارا وقتلتهم كبارا، فأنتم وهم أعلم، وكان ابنها حنظلة بن أبى سفيان قد قتل يوم بدر، فضحك عمر حتى استلقى ، وتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم، والباقى تقدم، وجواب الشرط قوله (فبايعهن) على هذا (واستغفر لهن الله) عما مضى (إن الله غفور) لما سلف (رحيم) بالتوفيق فى المستقبل، وهذه البيعة كانت بعد فتح مكة بعد أن فرغ من بيعة الرجال، وقد كان صلى الله عليه وسلم على الصفا وعمر قاعد أسفل منه يبايعهن عنه بأمره ، ويبلغهن عنه، وكانت هند متقنعة متنكرة خوفا من النبى صلى الله عليه وسلم أن يعرفها لما صنعت بحمزة. (ياأيها الذين آمنوا لاتتولوا قوما غضب الله عليهم) وهم اليهود ، إذكان بعض الفقراء من المسلمين يوالونهم ليصيبوا من ثمارهم (قد يئسوا من الآخرة) أى من حظهم فيها، لعلمهم بأنهم خالفوا مافى التوراة التى فيها وصف النبى صلى الله عليه وسلم، فعاندوه وقاوموه، فهم يائسون من ذلك الحظ كيأس الكفار من رجوع من ماتوا ودفنوا فى القبور منهم، وهذا قوله (كما يئس الكفار من أصحاب القبور) .

انتهى التفسير اللفظى للسورة كلها ، والحمد لله رب العالمين .

خاتمة تفسير هذه السورة

اعلم أن هذه السورة مناسبة لما قبلها من حيث إن السورة المتقدمة فيها ذم المنافقين الذين حرضوا اليهود على القتال، وذم اليهود الذين يظنون جميعا وقلوبهم متفرقة ، ووصفهم بعدم العقل ، وذم الذى يتبع الشيطان فى وسوسته وخداعه . فأما هذه السورة فإنها تعليم للمسلمين، ينهاهم عن موالاة الأعداء لئلا يكونوا جميعا وقلوبهم شتى، ولئلا يوصفوا بعدم العقل، وإذا فعلوا ذلك ينطبق عليهم « مثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر فلما كفر قال إنى برىء منك » فجاءت هذه السورة بعد المتقدمة إيقاظا للمسلمين أن يكونوا يدا واحدة، وألا يطلعوا العدو على أسرارهم ، فإذا فعلوا ذلك انطبقت عليهم الأمثال المضروبة فى الكفار فى السورة السابقة، علم الله أن المسلمين سيصابون بهذا الداء ، فحذرهم عاقبة سوء فعلهم ، وكرره فى مواضع كثيرة ، وهذا الداء قد استفحل فى المسلمين اليوم، وغلبوا على أمرهم . أما الفرنجة فإنهم متحدون لما بينهم من الاشتراك فى اقتسام أمم الإسلام وظلمهم .

حكاية مصرية

أخبرنى رجل من الصالحين، تركى الأصل: ذكر لى أن ابنه كان ببلاد فرنسا بصحبة أحد أبناء الأمراء لتربيته هناك، قال : وبينما هو يوما جالس فى جماعة من علية القوم، إذ قدم له أحدهم طباقا (التبغ) ليشربه، فقال : لا أدخن اليوم فإنى صائم ، فقال له رئيس إحدى الكليات : عجبا لك ! أتبقى على هذه العقائد العتيقة بعد ما تنورت وعظم شأنك، وارتقى عقلك، وكان بين الجالسين فيلسوف من علماء الهنود البوذيين ، فلما أرادوا الانصراف قال ذلك البوذى للشاب التركى المصرى : إذا كان الغد فقابلنى فى مكان كذا، فلما قابله توجه به إلى كنيسة تقام فيها الصلوات، وفيها رئيس تلك الكلية يصلى، فقال له انظر ماذا ترى ؟ قال أرى رئيس الكلية يصلى ، قال : لهذا طلبتك، إن هؤلاء يريدون أن يرجعونا عن أدياننا حتى يصطادونا بسهولة فلنحذرهم فإنهم لنا مهلكون مخادعون اه .

وأقول : لقد قرأت فى جرائدنا المصرية اليوم أن كثيرا من علماء فرنسا، ومدرسى الكليات ، وعلماء الأدب والحكمة قد أرسلوا خطابا إلى العسكر المحاربين ببلاد مراكش ، يحضونهم على مواصلة القتال لاستعباد المسلمين هناك، فهؤلاء من الذين حذرنا الله منهم، ووجب على المسلمين أن يفهموا أهل أوربا فإنهم يريدون هلاك المسلمين وابتلاعهم .

لطائف هذه السورة

الأولى فى قوله تعالى : « ياأيها الذين آمنوا لاتتخذوا عدوى وعدوكم أولياء » .
الثانية فى قوله تعالى : « فامتحنوهن الله أعلم بإيمانهن » .

اللطيفة الأولى

إن آثار هذه الآية اليوم ظاهرة فى مصر والشام والهند ، وأظهر حركات اليقظة بادية اليوم فى بلاد الهند فقد جاء فى جرائدنا المصرية يوم ٢ فبراير سنة ١٩٣٢ م ماملخصه أن الكتلة الوطنية هناك قائمة بحركة العصيان المدنى : أى إنهم لا يريدون أن يشتروا شيئا من تجار الإنجليز ، والانجليز يذيقونهم العذاب الشديد،

ولكن

ولكن هؤلاء لايبالون بما يصيبهم حفظا لحريتهم، وحبا لبلادهم، وقد زاد الانجليز عليهم الظلم، فأمروا بالأخذ بمجرد الشبهة بدون تحقيق.

وبالجملة فإن المقالة قد ختمت بهذه العبارة: «وهذا السلاح الاقتصادى الوحيد هو الذى يشجع الكثيرين على الاعتقاد أن أشد الحكومات إرهاباً وسطوة لابد وأن تحنى رأسها فى النهاية أمام الحركة الوطنية الهندية، حتى إن الذين يعتقدون بأن مذهب غاندى خشن وقديم، ويرجع إلى عدة أجيال إزاء التقدم العصرى أصبحوا الآن من الساخطين على أساليب الحكومة الحاضرة» وهذا أشبه بقبس من قوله تعالى: «يأيها الذين آمنوا لاتتخذوا عدوى وعدوكم أولياء» وبهذا تم الكلام على اللطيفة الأولى، والحمد لله رب العالمين.

اللطيفة الثانية فى قوله تعالى

«فامتحنوهن الله أعلم بإيمانهن»

حضر صديق العالم الذى اعتاد مباحثتى فى هذا التفسير، فقال: لقد تقدم فى (سورة الحجرات) عند آية: «أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى» إنى سألتك فى أمر امتحان النساء والرجال، وقلت لك مامعناه: إن الله عز وجل شرع الامتحان، وامتحن القلوب كما فى (سورة الحجرات) وأمرنا أن نمتحن المؤمنات كما فى هذه السورة، فالامتحان إذن مشروع فى الجملة، ولقد ذكرت أنت قبل صفات الرجل الكامل وماشابه ذلك. فحفزنى ذلك أن أسألك فى هذا الموضوع، فهل ماشاع من أن الحكومات تريد بحث جسم الرجل وجسم المرأة، أهما قويان، وهل بهما عاهة أومرض؟ وهل هناك عارض عرض لهما يجعل ذريتهما ضعيفة كداء الزهرى وغيره؟ ولكنك أحلتنى على هذه السورة، وإنى أسألك فيها، فقلت: أتذكر ذلك، وهاهو ذا الجواب:

اعلم أن الله عز وجل أعطى جميع الناس والحيوان فى الأرض قوة يحكمون بها، فحكم الحيوان ظاهرى بالغريزة، والمقصود من وجود الأرواح فى هذه الأرض كمالها، ولا كمال إلا بالعقول، ولاعقول كاملة إلا فى أجسام قوية، ولامنفعة لعقول وأجسام قويين إلامع حسن الأخلاق التى بها كمال المعاشرة. وإذا كان الرجل لا يكمل إلا بقوة بدنه، وحسن خلقه، ورجاحة عقله، وهكذا المرأة، فوجب أن ينظر فى أمر الزواج نظرا محدودا بحيث تكون الأخلاق والأجسام والعقول صالحة للمشاركة فى الحياة، وهذه يستحيل أن يحددها القانون. وقد جاء فى شريعتنا فى مذهب الشافعى أن الجنون والجذام والبرص كلهن مبيحات فسخ العقد وافتراق الزوجين، والتفصيل فى الفقه، وليس هذا محله. إذن أيها الصديق شريعتنا المطهرة لم تذرهذا الباب أيضا، فالجنون مرض فى العقل، والجذام مرض فى الجسم، ولاجرم أن الأخلاق يضعفها ضعف الجسم، كما يضعفها أيضا ضعف العقل.

وعليه أقول: إن هذا المقام لايعوزه كثير عناء، فعلى العقلاء بعدنا أن يبحثوا هذا الموضوع، وأن يفكروا فى أقوال الأئمة ويلخصوها، ويرجعوا لأصل الدين ومقاصده، وليبنوا أحكامهم الاجتهادية على ذلك الأصل، وعلى ما استنتجوه منه، ولتكن الأحكام على مقتضى مايصل إليه نظرهم، ومايفتح الله به عليهم، فليس لى الآن أن أحكم بما لم أشاهد من أحوال ستكون فى المستقبل، فلكل مقام مقال، والله جعل ديننا يسرا «يريد الله بكم اليسر ولايريد بكم العسر» فديننا يسر، واليسر والعسر تعرفه العقول فى كل زمان بحسبه، مع حفظ أصل الدين، والمحافظة على أساسه وقوانينه «والله يقول الحق وهو يهدى السبيل».

فقال حسن هذا، ولكني أريد ضرب مثل يقرب لي هذا المقال ؟ فقلت :

اعلم أن الله عز وجل أودع في الإنسان وفي الحيوان كما قدمت لك قوة بها يحكم على مايراه، أهو موافق أم مباين ؟ والحكم بالغرائز لايعوزه نصب ولا بحث عميق، فالحشرات ترى النار فتسرع إليها حثيثا ، فتقع فيها فتموت، وهي إنما قصدت الضوء ولم تقصد الاحتراق ، فهي حفظت شيئا وغابت عنها أشياء ، ومامن رجل أوامرأة إلا وهو يفرق بين من يحب ومن لا يحب ممن يريد أن يصاحبه أو يعاشره . فالرجل يرى المرأة فيعجبه جمالها فيتزوجها، وأصل الوضع الإلهي أن حسن الشكل وصباحة الوجه واعتدال القامة ، كل ذلك منشؤه الصحة، ومتى كانت المرأة صحيحة الجسم والولد كذلك كان النسل على مقتضاهما، فإذا رأينا الشاب يهوى شابة لبهجة جمالها، فهما لم يطلبا إلا قضاء شهوتهما المبنية على بهجة الظواهر ، والحكمة الأصلية بقاء النسل المخبوء تحت تلك المظاهر البراقة المهيجة المنعشة، يريد الله بقاء النسل بهذه المظاهر ، ويريد الإنسان بها التمتع .

هاهنا تقابل المقصدان: المقصد الإلهي، والمقصد الإنساني الحيواني . الله يريد بالزواج أوأي اقتران الولد وهو الذي سلط الشهوة المنبعثة بسبب نتائج الصحة على الحيوان والإنسان . هاهنا تقابل المقصدان ورجعا إلى نقطة واحدة، صانع يريد أن تكون صنعته في الولد متقنة، وذوشهوة يريد أن يكون المشتهى مقبولا، فقبول الصورة للتمتع . وقبولها لجودة الذرية اتحدا وبهما نال الحيوان شهوته، وأجاد الله صنعته، هذا أصل الصنع الإلهي في كل حيوان ومنه الإنسان .

الله أكبر : حصل اقتران وتزاوج واختلاط على أي سبيل كان وبأي وسيلة ، ولكن ليس ذلك بكاف لنوع الإنسان، لأن أحواله غير أحوال الحيوان ، فإن أحواله مختبطة مختلطة، مشتتة متشعبة، لاتجزئه نظرة ولاتكفيه لحظة ، وإذا كنا نراه لم يكتف في تعاطي الطعام والشراب بمجرد لذته وحسن ظواهره ، بل رأيناه يجد في البحث ويقاسي الأمرين في الدقة، حتى إنه في أيامنا هذه أخذت أوضاع الطعام والشراب تتغير وصار ما كان خيرا بالأمس شرا اليوم ، وما كان مقبولا أصبح مرذولا .

الله أكبر : ألم يصبح الخبز المنخول الذي تصنع منه الفطائر وأنواع الرقاق وأمثالها مرذولا مبغضا مكروها يحدث الإمساك والمرض . إذن لذة الطعام ليست بدالة على جودته . أليس الخبز الذي فيه نخالته بحيث لاينخل هو الذي أصبح المعول عليه الآن في الصحة . وبهذه النخالة ومامعها مما يسميه الناس (السن) في بلادنا المصرية يصبح الخبز نافعا في الصحة، لأن مايرميه الناس هو الذي فيه قوة الأبدان وصحتها ، ويتبع ذلك قوة العقل، ومتى نخل الدقيق كان الخبز المصنوع منه أقل تغذية ، وهو يوجب الإمساك ، والعكس بالعكس .

وإذا كان طبخ الطعام أصبح اليوم في كشف الطب الحديث من مسببات الأمراض ، وكذلك السكر، بل الأطعمة الطازجة التي لم تدخل النار في إنضاجها كالخضر والفاكهة هي النافعة في الصحة على شرط النظافة .

أقول : إذا كان الأمر كذلك في الطعام وقد تغير الرأي الآن فيه ، ومعلوم أن البدوي الغر الجاهل في البادية أسعد وأصح بدنا من المتعلم المترف المنعم ، والعالم الجليل ، والفيلسوف العظيم ، والملك الكبير ، فكل هؤلاء يأكلون متبعين عادات أسلافهم ، يتغالون في التفنن في الأكل والشرب ، ويتبع ذلك ضعف أبدانهم، وسقم أجسامهم، وموت إحساسهم، ثم موتهم الأدبي، ثم الطبيعي ، ويتبع الجيل الجيل، والملك الملك، والعالم العالم، وهم يرون أهل البدو في سعادة لأنهم يقللون البذخ في طعامهم وشرابهم، فأماهم فانهم لايذكرون

ولا

ولا يعقلون، ويعيشون ويموتون ، وهم ساهون سامدون لاهون ، فجاء العلم الآن وقال : أيها النائمون : استيقظوا أنتم غافلون، هذه اللذة معناها أنكم تمرضون وتموتون فى عناء .

أقول : إذا كان الأمر كذلك فى الطعام والشراب أفلا يكون كذلك فى اقتران الرجل بالمرأة ؟ فنقول: إذا كانت لذة الطعام لا يكتفى بها فى جودته، فأحرى بنا ألا نحكم ظواهر الجمال فى صلاحية المرأة للحياة الزوجية وإذا كان الطبيب لا يكتفى فى معرفة المرض بما يسمعه من وصف مريضه ، ولا بما يسمعه بواسطة آلة السمع التى يسلطها على دقات قلبه ، ولا بما يراه من لون بوله ، ولا بجس نبضه ، بل نراه يسلط الأشعة على بعض أعضائه لتخترق الأشعة جلده ، وتتغلغل فى جسمه ، فتظهر لنا ماخفى عنا ، وحينئذ يحكم على حال المريض ويصف الدواء .

حقيق بنا ألا ندع بابا من أبواب البحث إلا ولجناه، ولاطريقا من طرق التدقيق إلا سلكناه ؛ فليبحث الرجل، ولتبحث المرأة، ولينظرا فى أمرهما ، أفى أحدهما مرض معد ؟ أو ضعف قوة عقلية أوجسمية ؟ وهل ذريتهما إذا حصلت تكون ضارة بالمجتمع لما فيها من المرض المعدى . وإذا لم تكن ضارة من هذه الجهة هل تكون على الأمة لضعف أجسامها ، أولضعف عقولها ؟ وهل يكون ضرها أكثر من نفعها ، أم بالعكس ؟ وكل ماكان ضره أكثر من نفعه يجب الاحتراس من بقائه، لأننا نرى الحكمة الإلهية ، والميزان المنصوب فى السماء والأرض ألا موجود إلا على هذه الشريطة نفعها أكثر من ضرها .

هذا هو المثل الذى ضربته لك أيها الأخ الذكى ، وعلى العلماء بعدنا البحث والتنقيب بكل ما أوتوا من علم، وما نالوا من حكمة، والله هو الولى الحميد، وهو حسبنا ونعم الوكيل، فاكتفى صاحبى بذلك وقال: الحمد لله رب العالمين .

انتهت اللطيفة الثانية ، وبها تم تفسير (سورة الممتحنة) .

تفسير سورة الصف

هى مدنية

آياتها ١٤ — نزلت بعد التغابن

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ * إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ * وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ * وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ

مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَٰذَا سِحْرٌ مُبِينٌ * وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰ إِلَى الْإِسْلَامِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ * يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ * هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ * تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ * وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ فَآمَنَتْ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ *

وهذه السورة فيها لوم وتعنيف على مخالفة الفعل والقول ، فإنهم وعدوا الصدق فى القتال فولوا يوم أحد، وفيها ذكر ما يحبه الله من القتال، وفيها ذكر موسى وعيسى عليهما السلام .

تفسير بعض الألفاظ

بسم الله الرحمن الرحيم

(سبح لله مافى السموات ومافى الأرض وهو العزيز الحكيم) تفسيره معلوم (لم تقولون مالا تفعلون) إذ قلتم لو علمنا أحب الأعمال إلى الله تعالى لبذلنا فيه أموالنا وأنفسنا ، فأنزل الله : « إن الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفا » فوليتم يوم أحد (كبر مقتا عند الله أن تقولوا مالاتفعلون) المقت أشد البغض (صفا) مصطفين (كأنهم بنيان مرصوص) فى تراصهم من غير فرجة، والرص اتصال بعض البناء بالبعض واستحكامه (وإذ قال موسى) أى واذكر إذ قال الخ (لم تؤذوننى) بالعصيان والقذف بما ليس فى (وقد تعلمون أنى رسول الله إليكم) أى بسبب ماجئتكم به من المعجزات (فلما زاغوا) عن الحق (أزاغ الله قلوبهم) صرفها عن قبول الحق والميل إلى الصواب (والله لايهدى القوم الفاسقين) هداية توصلهم إلى معرفة الحق (مصدقا لما بين يدى من التوراة ومبشرا) حالان (اسمه أحمد) يريد محمدا صلى الله عليه وسلم . يقول عيسى : إن دينى

مصدق

مصدق بالكتب الإلهية السابقة التى أشهرها التوراة وبآخر الرسل وهو محمد صلى الله عليه وسلم (ومن أظلم ممن افترى على الله الكذب وهو يدعى إلى الإسلام) أى لا أحد أظلم ممن يدعى إلى الإسلام فيضع موضع إجابته الافتراء على الله بتكذيب رسوله صلى الله عليه وسلم (يريدون ليطفئوا نور الله) أى أن يطفئوا ، واللام مزيدة للتأكيد ، ونور الله دينه أوكتابه أوحجته (بأفواههم) بطعنهم (والله متم نوره) مبلغ غايته بنشره وإعلائه (ولو كره الكافرون) ارغاما لهم (أرسل رسوله بالهدى) بالقرآن (ودين الحق) الملة الحنيفية (ليظهره على الدين كله) ليعليه على جميع الأديان (ولو كره المشركون) لأنهم لايحبون إلا الإشراك ، وهوفيه التوحيد المحض . وقوله (تؤمنون بالله ورسوله) مستأنف لبيان التجارة المنجية من عذاب أليم . وذلك أمران : إيمان مكمل للنفس ، وجهاد مكمل للغير (ذلكم) أى ماذكر من الإيمان والجهاد (إن كنتم تعلمون) أى إن كنتم من أهل العلم ، فإن هؤلاء يعلمون أن الإنسان عليه أمران تكميل نفسه وإكمال غيره . ثم قال : أن تؤمنوا وتجاهدوا (يغفر لكم ذنوبكم ويدخلكم جنات تجرى من تحتها الأنهار ومساكن طيبة فى جنات عدن ذلك الفوز العظيم) ثم قال : ولكم إلى هذه النعمة المذكورة نعمة أخرى عاجلة محبوبة ، وهذا قوله (وأخرى تحبونها) ثم أبدل من أخرى قوله (نصر من الله وفتح قريب) عاجل أى تنصرون على قريش وتفتح لكم مكة ومابعدها من البلدان وفى قوله « تحبونها » شىء من التوبيخ على محبة العاجلة (وبشر المؤمنين) معطوف على تؤمنون : أى كأنه يقول : آمنوا وجاهدوا أيها المؤمنون ، وبشرهم أيها النبى بما وعدتهم عاجلا وآجلا (من أنصارى إلى الله) أى من جندى متوجها إلى نصرة الله (نحن أنصار الله) أى الذين ينصرون الله ، والحواريون أصفياء محبون ، وهم أول من آمن به ، وكانوا اثنىعشر رجلا ، وحوارى الرجل صفيه من الحور وهو البياض الخالص (فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم) بالحجة أوبالحرب بعد رفع عيسى عليه السلام (فأصبحوا ظاهرين) أى فصاروا غالبين .

انتهى تفسير بعض الألفاظ .

إيضـــاح

كأن الله يقول : كيف تعدون أيها المسلمون وتخلفون ، وتعاهدون وتنقضون ؟ فما أشد المقت والغضب والعقاب على من اتصف بهذه الخلة الشنعاء ، والطريقة السوءى ، فليكن فعل المؤمن مصدقا لقوله . وهذا القول يشير إلى ماحصل للمسلمين اليوم من بوار التجارات ، وضياع الأقوات ، وذهاب المجد . وبيانه أن المسلم يستبيح إخلاف الوعد إلا قليلا من الصادقين . وكذلك الكذب والحلف . والفرنجة بين ظهرانينا قد أصبحت التجارة فى أيديهم بأغلى الأثمان لأنهم غالبا يحفظون الوعد ، ويتظاهرون بأنهم صادقون مخلصون وقلما يخلفون .

فأما المسلمون : أى الجهلة منهم ، فالحلف ذائع شائع ، والكذب وإخلاف الوعد كل ذلك مباح فى نظرهم لذلك تنصرف الناس عنهم ويتوجهون إلى محال الفرنجة التى يقولون فيها إن الثمن محدد ، مع أنهم يعلونه أضعافا مضاعفة ، ولكن صدق القول وعدم إخلاف الوعد هما الخلتان اللتان اتصف بهما الفرنجة بيننا ، مع نظافة محالهم وحسن اللقاء والبشاشة . وأهم هذه الأوصاف صدق الوعد الذى من خالفه وقع فى أشد الغضب ، وهو مقت الله ، وأى مقت أشد مما نحن فيه الآن ؟ أصبحنا لايأمن بعضنا بعضا إلا قليلا . فبارت التجارة ، وقلت الأمانة ، هذا من المقت الذى حل بأمة الإسلام اليوم :

يطلب الله منا أن تطابق أفعالنا أقوالنا ، وأن نكون صفا واحدا فى قتال العدو . ومقتضى ذلك أننا نكون صفا واحدا فى أمور الحياة كلها، فلاجهاد إلا مع نظام الأحوال الداخلية ، وجميع مرافق الحياة . فالجندى فى الحرب محتاج للطرق الحديدية، وماقبلها من زراعة وتجارة وصناعة وأمن ومدارس، وهذا كله لايكون إلا بحكومة منظمة تحفظ البلاد . وهناك يكون الاتحاد، والاتحاد هو الذى عليه نظام هـذا العالم . فهذا هو سر قوله تعالى: « إن الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفا » ثم أتبع ذلك بغرضين :

الغرض الأول: أن يوقع اليأس فى قلوب الكافرين من محاولتهم إضعاف الإسلام ، وأن الله سيظهره ، وأن يسلى النبى صلى الله عليه وسلم على كفر من كفر .

الغرض الثانى : تحريض المسلمين على كمال أنفسهم، وتكميل غيرهم ووعدهم بالنصر . فقال فى الغرض الأول مايفيد أن موسى أرسل لقومه فزاغوا عنادا فختم الله على قلوبهم لأن الأعمال الظاهرة من الأقوال والأفعال لها آثار تقع فى القلب ، فتكسبه نورا تارة وظلمة أخرى ، وهؤلاء زيغهم عن الحق ، وعنادهم أكسب قلوبهم ظلمة فختم عليها . وهكذا عيسى عليه السلام جاء مصدقا بالتوراة مبشرا بمحمد صلى الله عليه وسلم فكفر به قومه، فليكن لك يامحمد أسوة بمن سبق من الأنبياء فقد صبروا على إيذاء قومهم وتكذيبهم . ثم قال: وإن الله قضى أن من قام بالحق منصور . فهل يتصور هؤلاء أن يمنع الهداية عن عباده : إن الله حكم أن يرفع منار الحق، ويهدم بنيان الباطل ، إذ لايبقى إلا الأصلح للوجود . فليس يؤخر الله رقى الإنسان لأجل طائفة تكره الفضائل .

والغرض الثانى كأن الله يقول فيه ، أيها المسلمون : الإيمان بالله والجهاد هما الخلتان اللتان بهما تفوزون فى الدارين، إذ لافوز فى الدنيا ولا فى الآخرة إلا بعلم وعمل ، والإيمان أفضل مافى العلم، والجهاد أفضل مافى العمل، فلتكن فيكم الخصلتان أضمن لكم ثلاث خلال : غفران الذنوب، ودخول الجنة، والنصر المصحوب بالفتح قريبا، ولتقتدوا بحواريى عيسى إذ قالوا : « نحن أنصار الله » ونصرناهم على أعدائهم فأصبحوا ظاهرين عليهم، ولاجرم أن النصارى ظاهرون على اليهود إلى الآن، وإلى يوم القيامة، هكذا ستكونون أيها المسلمون ظاهرين على أمم العالم قاطبة، هذا معنى هذه السورة .

أقول : ولكن فى هذا الزمان لاظهور للمسلمين إلا قليلا ، ذلك لأنهم لم يقوموا بالصدق والجهاد ، والجهاد لايتم إلا بنظام تام فى الدولة كما تفعل الأمم المحيطة بنا .

ثم لتعلم أيها الذكى أنى موقن أن هذا التفسير سيكون من دلائل الرقى الإسلامى المنتظر قريبا ، وأن الله سيؤيد الدين بنشره ، وأنه سيقرؤه الأذكياء من المسلمين فى حياتنا وبعد موتنا ، وستكون لهم آثار حسنة .

إن وعد الله حق، وقد وعد المجاهدين بالنصر ، والجهاد يبتدئ من تعليم الصبيان فى المكاتب ، إلى المزارع والحقول، إلى التجارة ، إلى إنشاء الطرق والتلغراف (البرق) إلى صنع الطيارات والمدافع ، إلى علم السياسة والعمران والاقتصاد ، كل ذلك من الجهاد ، وتمامه غلبة العدو وحفظ البلاد ، وقد تضمن هذا التفسير ذلك كله ، وحض عليه ، فلتكن مجاهدا بما سمعت ، ولتحرض المسلمين على الأخذ بأسباب العمران والرقى، فهذا أوائل أسباب الجهاد ، بل لاجهاد إلا بعلم ، فاذا لم يكن علم فلاجهاد ، كما هو حاصل فى الإسلام اليوم .

جهلوا جميع العلوم التى بها الحياة فناموا فأخذتهم الفرنجة ، فأول كل شىء فى الجهاد اليوم هو العلم ، هو بث الفكرة، إن العالم اليوم هو المجاهد الأكبر ، هو الذى يحيى مااندرس من الجد، فاذا كانت هذه حال

العلم أفلا أقول لك بحق إن الله سيذيع هذا التفسير وينشره ، وينشر نظيره من آراء أرباب الأفكار الثاقبة فى مصر والهند وجميع بلاد الإسلام ، ويقرؤه ويقرؤها الأذكياء من المسلمين ، ويخرجون الناس من الظلمات إلى النور ، نعم هذا سيتم حقا كما قال تعالى : « والله متم نوره » وكما قال : « ليظهره على الدين كله » .

أقول : ولا أخشى فى الحق لومة لائم إن ظهور الإسلام سيكون فى الأزمان المقبلة ، وسيظهر فضله ويعلو شأنه .

أيها الذكى : كن عبدا لربك مخلصا له ، واقصد بالإسلام منفعة الجنس البشرى كله والمسلمين خاصة ، وتعرف هذا من سابق هذا التفسير ، ثم إن قوله تعالى : « ومبشرا برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد » . قد تقدم الكلام عليه فى ﴿ سورة البقرة ﴾ و ﴿ آل عمران ﴾ وغيرهما نقلا عن انجيل برنابا ، فارجع إليه هناك إن شئت .

وإلى هنا تم الكلام على سورة الصف ، والحمد لله رب العالمين .

تفسير سورة الجمعة

هى مكية

آياتها ١١ — نزلت بعد الصف

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى السَّمٰوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ * هُوَ الَّذِى بَعَثَ فِى الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِى ضَلَالٍ مُبِينٍ * وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * ذَلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ * مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِئَايَاتِ اللهِ وَاللهُ لَا يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ * قُلْ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ * قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ * يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا

نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ * وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انْفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ *

هذه السورة مناسبة لما قبلها تمام المناسبة ، إن فى السورة السابقة الأمر للمؤمنين بالجهاد وأن يكونوا صفا كأنهم بنيان مرصوص ، وفيها توبيخهم على أنهم وعدوا أن يقدموا فى الجهاد أنفسهم وأموالهم فولوا الأدبار يوم أحد ، فأمر الله المؤمنين فى هذه السورة بالسعى إلى ذكر الله وصلاة الجمعة ليكونوا صفوفا منظمة فيها كصفوف الحرب ، وعنف اليهود ووبخهم على أنهم حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار ، وليس ذلك خاصا باليهود ، بل كل أمة تركت مقاصد دينها ، ولم تعمل فهى كالحمير ، فذكرها هنا ليذكر المسلمين كيف يقولون ما لا يفعلون ، فإذا أصبح ذلك خلقا فيهم والعياذ بالله أصبحوا مثل اليهود يحملون الكتب ولا ينتفعون بها ، فلم يواجه الله المسلمين بذلك بل وكلها إلى الفطن والعقول الذكية ، وأيضا ذكر فى السورة السابقة التجارة الأخروية الرابحة بالجهاد ، وهنا ذكر التجارة التى هى دنيوية ، وهذه السورة مبدوءة بما يفيد أن النبى صلى الله عليه وسلم مرسل للأميين ولمن بعدهم إلى يوم القيامة ، ويلى ذلك ذم اليهود على عدم عملهم بكتابهم ، ويليه وجوب السعى لنداء الجمعة وتوبيخ من لم يسارع إليها . ولنشرع فى تفسير السورة فنقول :

التفسير اللفظى

بسم الله الرحمن الرحيم

(يسبح لله ما فى السموات وما فى الأرض الملك القدوس العزيز الحكيم) فكل شىء فى السموات والأرض إذا نظرت إليه دلك على وحدانية خالقه وعلى تنزيهه، وجميع الأشياء مسخرة له مقهورة ، فالتسبيح إما دلالة للعقلاء ، وإما حصول الآثار فى الأشياء المسخرة لله (هو الذى بعث فى الأميين) هم العرب ، والأمى هو الذى يكون على ما خلق عليه كأنه منسوب إلى أمه (رسولا منهم يتلو عليهم آياته) مع أنه هو نفسه أمى مثلهم (ويزكيهم) يطهرهم من دنس الشرك (ويعلمهم الكتاب) أى القرآن (والحكمة) السنة (وإن كانوا من قبل) من قبل إرسال محمد صلى الله عليه وسلم (لفى ضلال مبين ، وآخرين منهم) أى من المؤمنين ، وهم المؤمنون إلى يوم القيامة من جميع الأمم ، ومنهم الفرس .

روى عن أبى هريرة رضى الله عنه ، قال : [كنا جلوسا عند النبى صلى الله عليه وسلم إذ نزلت سورة الجمعة فتلاها ، فلما بلغ : « وآخرين منهم لما يلحقوا بهم » قال له رجل يارسول الله : من هؤلاء الذين لم يلحقوا بنا ؟ فلم يكلمه حتى سأله ثلاثا ؛ قال : وسلمان الفارسى فينا ، فوضع رسول الله صلى الله عليه وسلم يده على سلمان وقال : والذى نفسى بيده لو كان الإيمان بالثريا لتناوله رجال من هؤلاء] أخرجاه فى الصحيحين وقوله (لما يلحقوا بهم) أى لم يلحقوا بهم بعد وسيلحقون (وهو العزيز) فى تمكينه من هذا الأمر الخارق للعادة (الحكيم) فى اختياره وتعليمه (ذلك فضل الله) أى ذلك الفضل الذى امتاز به على أقرانه فضل الله (يؤتيه من يشاء) تفضلا وعطية (والله ذو الفضل العظيم) الذى يحتقر فى جانبه نعيم

الدنيا والآخرة ، فإذا كان محمد قد أرسلته إليكم أيها الأميون وإلى من يأتى بعدكم فإنى آمرهم أن يعملوا بالكتاب ولا يكونوا كاليهود الذين لم يعملوا بكتابهم ، وهو قوله (مثل الذين حملوا التوراة) أى علموها وكلفوا العمل بها (ثم لم يحملوها) لم يعملوا بها ولم ينتفعوا (كمثل الحمار يحمل أسفارا) أى كتبا من العلم يتعب فى حملها ولا ينتفع بها ، وقوله « يحمل أسفارا » صفة لا حال ، لأن الحمار لم يقصد أن يكون معينا (بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله والله لا يهدى القوم الظالمين) وهم اليهود ، والمخصوص بالذم محذوف ، ثم إن شأن من لم يعمل بالكتاب الذى أنزل إليه أن يكون غافلا جاهلا محبا للحياة الدنيا تاركا للاخرة ، فأعقبه بما يدل على ذلك بأوضح سبيل كأنه يقول : أيها الناس : أنتم كالحمير ، فلا عقل ولا تفكير ولا هدى ولا كتاب منير ، ولو كنتم مهديين وللحق عارفين لفرحتم بالموت وتمنيتم لقاء الله ، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه ، فتشوا فى صدوركم ، وانظروا ما نقش فى قلوبكم ، وسلوا ضمائركم ، ألستم للموت كارهين وللقاء الله مبغضين ، وللحياة محبين ! ولو كانت الأعمال مرضية ، والنفوس مضيئة قوية ، مشرقة بنور ربها لأعرضت عن الدنيا إعراضا ، وفرحت بلقاء الله ، وتمنت الموت ، والموت باب يدخله لله المحبون ويلجه بسرور وفرح الصالحون ، ولكنكم لا تحبون الموت لما ران على قلوبكم من الخبائث ، وما ختم عليها وهذا قوله تعالى (قل يا أيها الذين هادوا) تهودوا (إن زعمتم أنكم أولياء لله من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين) كانوا يقولون : نحن أبناء الله وأحباؤه : أى إن كان قولكم حقا وأنتم على ثقة منه فتمنوا على الله أن يميتكم وينقلكم سريعا لتحظوا بكرامته ، وتفرحوا بإسعاده ، والتمتع بالنظر إلى وجهه الكريم (ولا يتمنونه أبدا بما قدمت أيديهم) بسبب ما قدموا من الكفر والمعاصى (والله عليم بالظالمين) فيجازيهم (قل إن الموت الذى تفرون منه فإنه ملاقيكم) أى لا ينفعكم الفرار منه ، فما الإنسان فى الدنيا إلا كما قال طرفة بن العبد :

لَعَمْرُكَ إنَّ الْمَوْتَ مَا أَخْطَأَ الْفَتَى ... لَكَالطِّوَلِ الْمُرْخَى وَثِنْيَاهُ بِالْيَدِ

مَتَى مَا يَشَأْ يَوْمًا يَقُدْهُ لِحَتْفِهِ ... وَمَنْ يَكُ فِى حَبْلِ الْمَنِيَّةِ يَنْقَدِ

وقوله (ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون) فيجازيكم عليه (يأيها الذين آمنوا إذا نودى للصلاة) أى إذا أذن لها عند جلوس الإمام على المنبر للخطبة (من يوم الجمعة) أى فى يوم الجمعة وسمى بذلك لاجتماع الناس فيه للصلاة ، وكانت العرب تسميه العروبة (فاسعوا إلى ذكر الله) فامضوا إليه مسرعين قصدا ، والسعى دون العدو ، والذكر الخطبة ، أو الصلاة (وذروا البيع) واتركوا المعاملة (ذلكم) أى السعى إلى ذكر الله (خير لكم) من المعاملة فى ذلك الوقت (إن كنتم تعلمون) مصالح أنفسكم ، أو من أهل العلم (فإذا قضيت الصلاة) أديت وفرغ منها (فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله) كعيادة المريض ، وحضور الجنازة » وزيارة الإخوان فى الله ، وطلب العلم ، والتصرف للتجارة ، وهذا الأخير هو المباح ، وما سواه مندوب أو واجب .

وعن عراك بن مالك : أنه كان إذا صلى الجمعة انصرف فوقف على باب المسجد ، وقال : اللهم أجبت دعوتك ، وصليت فريضتك ، وانتشرت كما أمرتنى ، فارزقنى من فضلك وأنت خير الرازقين » .

وقوله (واذكروا الله كثيرا) واذكروه فى مجامع أحوالكم ، ولا تخصوا ذكره بالصلاة ، بل اذكروه قياما وقعودا ومضطجعين ، والطاعة أيضا من أنواع الذكر (لعلكم تفلحون) .

روى أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يخطب للجمعة فمرت عير تحمل الطعام من دقيق وبر وزيت وغيرها ، قدم بها دحية بن خليفة الكلبى من الشام بالتجارة ، وكان إذا قدم لم تبق عاتق بالمدينة إلا أتته، ثم يضرب بالطبل ليؤذن الناس بقدومه فيخرج إليه الناس ليبتاعوا منه ،فخرج الناس إليه إلا اثنى عشر ، فنزلت (وإذا رأوا تجارة أولهوا انفضوا إليها) أى إذا رأوا تجارة تفرقوا إليها ، أولهوا تفرقوا إليه ، واللهو هنا الطبل المذكور (وتركوك قائما) على المنبر (قل ما عند الله) من الثواب (خير من اللهو ومن التجارة والله خير الرازقين) إذ لا يفوتهم رزق الله بترك البيع ، فهو خير الرازقين . انتهى التفسير اللفظى للسورة كلها ، والحمد لله رب العالمين .

فى هذه السورة لطيفتان

(١) فى قوله تعالى : « فتمنوا الموت إن كنتم صادقين » .

(٢) فى قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا إذا نودى للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون » .

اللطيفة الأولى فى قوله تعالى :

« فتمنوا الموت إن كنتم صادقين »

اعلم أن فى هذه السورة تبيان حقيقة الولاية وشرح أصولها ، وأحوال الأمة الإسلامية ، وبيانه أن الله ابتدأ السورة بأن الأمة الأمية أرسل الله لها رسولا أميا ليتلو عليهم الكتاب ويعلمهم ، ثم أردف ذلك بذم اليهود على أنهم أعطوا الكتاب فلم يعملوا به فأصبحوا كالحمير ، ولا داعى لذلك فى كتابنا المقدس إلا إذا كان لتهذيبنا ورقينا وإسعادنا ، إن القرآن ذكر للعالمين ، وليس مجرد ذم اليهود بدون فائدة لنا وإنما ذمهم بأنهم حمير تلميحا لنا اذا خالفنا وتعريضا بالأمم الإسلامية النائمة اليوم الذين ناموا عن العلم الحكمة، وللأمة الإسلامية مراتب ثلاث الأولى أنها حين أنزل عليها القرآن كانت بدوية فكانت تلقن الكتاب تلقينا (الثانية) أنها بعد اتساع الملك أصبحت دارسة للعلوم ملمة بالمعارف الواسعة (الثالث) أن يصطفى الله منها أناسا يكونون واقفين على أسرار هذا الوجود ، محبين لربهم ، عاشقين له ، مولعين بالآخرة ، متمنين أن يكونوا معه ناظرين إلى وجهه الكريم بما قدموا من صالح الأعمال فأول المراتب رمز لها بأول السورة، وهو قوله : « هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين » والثانى رمز له بذم اليهود على عدم العمل بالكتاب ؛ فإذن هو عدح العالمين بالكتاب العاملين به ومعرفة الكتاب تستلزم علوم شيء . والثالثة رمز لها بقوله لليهود « قل يا أيها الذين هادوا إن زعمتم أنكم أولياء لله من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين » .

واعلم أن هذا هو السر المصون ، والجوهر المكنون والنور المبين والحسن والبهاء ، والإشراق الإلهى الذى أرسله الله للأمة الإسلامية تعليما لهم وتفهيما .

علم الله أن المسلمين سيقعون فى هذا الدور الذى أصبحنا فيه ، فأخذ يعلمنا اليوم ماجهلناه ، ويدرس

لنا

لنا ماأغفلناه ، ويذكرنا مانسيناه ، يذم اليهود ويقول إنكم أيها اليهود كالحمير ، لماذا ؟ لأنكم أعطيتم كتابا فلم تعلموا مافيه ، وإن علمتم لم تعملوا .

أيها الذكى : قل لى : أليس هذا هو الذى وقعنا فيه الآن ؟ أليست هذه حالنا ؟ أصبحت الأمم كلها فى الشرق والغرب متعلمين ، وأمم المسيحية تلاميذ آبائنا هم العلماء فى سائر العلوم ونحن أقل الأمم علما ، وأخسهم منها حظا .

ياعجبا كل العجب ! أمة يأتى نبيها بلا كتابة ولاقراءة ويقول الله «ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم» ويقول فى آية أخرى : « ن ، والقلم ومايسطرون » ، وفى أخرى : اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم ، علم الإنسان مالم يعلم » ؟

يقول الله « علم الإنسان مالم يعلم » لعلمه أن كتاب الله يستلزم قراءة جميع العلوم واستيعابها ، أمة هذا شأنها تصبح أقل الأمم علما وأكثرها جهلا ، أمة ينزل القرآن عليها ويحفظه أبناؤها عن ظهر قلب ويكتفون بذلك فى أكثر البلاد الإسلامية ، وهم عن العلم معزولون ، وعن طريق الرشاد ناكبون ، وفى ميدان الحرب والسياسة مخذولون ، ألاساء مايصنع الجاهلون ، يكتفون بما دون الأئمة رحمهم الله من علم الفقه ويظنون أنه لاشىء وراءه كذبوا والله ، القرآن بحاله لم يغير منه شىء ، ولم ينسخ ، وهو باق ، فليدرس القرآن وليفهم ، لما وقع المسلمون فى هذا الداء الوبيل قرونا وقرونا أصبحوا عبرة الأمم ، ومثلا فى الجهالة والضعف ، ولكن بعد مابينا فى هذا التفسير ، وهكذا كثيرا من علماء الاسلام شرقا وغربا ستكون أمة لم ينجب الدهر مثلها . ومامثل الأمم الإسلامية المستقبلة إلا كمثل زرع وضع فى أرض خصبة لم تضعف بتكرار الزراعة فيها ، ثم سقيت وسمدت ، فإن زرعها يكون أسرع نباتا ، وأغزر ثمرا ، وأعظم نفعا ، ذلك مستقبل المسلمين ، فإنهم سيجيئون عقب أمم نامت نوما عميقا ، والعقول بحالها مهيئة مستعدة للعلم والعمل فينبغون ويرشدون ، والله هو الولى الحميد :

الكلام على الولاية

علم الله أن المسلمين فى القرون المتأخرة سيكثر فيهم الكلام فى الولاية والأولياء ، فأنزل هذه الآية بشكل لايكدر صفو المسلمين ، فلم يقل : أيها المسلمون ، إذا أنتم كرهتم الموت فلستم خواص لله ، لم يقل ذلك وترك الأمر للعقول تفكر فيه ، بل خاطب اليهود وقال لهم : إن كنتم خواص الله حقا فما لكم لاتحبون الموت بقلوبكم ، كلا . أنتم لستم خواص لله ، بل أنتم كعامة الناس تفرون من الموت والموت ملاقيكم .

هذا ظاهر القول ، ولكن حقيقة تعليم المسلمين ، فهو من حيث الظاهر ذم لليهود من جهة وتكذيب ومن جهة أخرى تعليم للمسلمين ليعرفهم من هم أولياء الله ،

من هو الولى

اعلم أن النوع الإنسانى وكل أنواع الحيوان يكرهون الموت بالطبع كراهة تامة ، إن فى الموت قطع اللذات وفراق الأحباب ، والإنسان بعد الموت جيفة قذرة ، يأكله الدود ، وتعافه النفس ، فالموت أكبر المصائب فى أرضنا ، لذلك فر منه الإنسان والحيوان ، وهذا الفرار نعمة من الله عليهم ، إن العالم الذى نحن فيه أحيط بالجهالة العمياء من جميع جهاته ، وبعض الجهالة نافع ، فإذا سلط الله على الحيوان وعلى

الإنسان الجهل بمصيره بعد الموت ، فذلك ليحافظ الحى على حياته ، إذ لو علم أن هناك حياة أخرى فى عالم ألطف من هذا لسارع إلى الخروج من هذه الحياة مع أن وجود الإنسان فى الأرض دروس لابد منها حتى يهنأ له المقام هناك ، فحياتنا إذن نعمة وجهلنا بالموت نعمة ، وإنما كان الجهل بالموت نعمة لأننا لانعرف المصالح لضعف قوانا العاقلة ولو كملت عقولنا لعرفنا مصالحنا ، وأن الحياة فى الأرض دروس نحافظ عليها ولو كان هناك عالم أجل من هذا ونبقى فى سجن الأرض حتى يأتى الوقت الذى فيه نفارقها ، ونحن مزودون بالقوى والأخلاق التى تساعدنا على الرقى هناك ، ولكن علم الله أننا لانقدر على الإحاطة بهذه العلوم ، وأننا لأقل مرض أو حزن أو ألم نغادر الأرض ونتركها لعلمنا أننا أحياء فى عالم آخر ولو فى أدنى درجات الحياة ، لذلك ترى الإنسان والحيوان كل منهما مجبول على كراهة الموت وحب هذه الحياة . فلا فرق بين المسلم واليهودى والمجوسى والحيوان فى هذه الحياة . ولما كانت حياتنا فى الدنيا للدراسة والعلم للارتقاء هنا ، وكان ترك الناس بلا مذكر يحملهم على الغفلة ذكروا تارة بالأنبياء ، وأخرى بالحكماء ، وآونة بعلماء الأرواح ، فيقولون لهم : « إن لكم حياة بعد الموت فجدوا للوصول إليها » وهؤلاء إذا سمعوا هذا القول يعملون كل على قدر جهده وطاقته مع كراهة الموت التى غرست فى القلوب ، فترى المسلمين يصلون ويصومون ، كذا جميع الأمم تعبد على طريقها ، ولكنهم يكرهون الموت لأنه لايقين عندهم بأن هناك حياة بعد الموت : إذا فهمت هذا فلنبحث فى معنى (الولى) .

اعلم أن كل مسلم فى الأرض ، أو تابع لنبى لم ينسخ دينه ، فهو ولى الله ، قال تعالى : «الله ولى الذين آمنوا » والولى من تولاه الله برعايته وتولى هو الله بطاعته ، فكل مؤمن فى الأرض فهو ولى؛ وليس المقام فى الولاية العامة إنما نحن الآن فى مقام الولاية الخاصة كما قال تعالى : « إن زعمتم أنكم أولياء لله من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين » وهنا يكون الكلام فنقول :

قد علمت نظرية الموت وأنها مبغضة عند جميع الناس ، ولكن فى كل جيل وفى كل أمة نبغ أناس سارعوا إلى العلم والعمل والدراسة والنظر والفكر ، واطلعوا على أعاجيب الخليقة ، وأسرار الطبيعة ، وأدركوا أن هناك جمالا وبهجة وحكمة وعلما ، وأن هذه العوالم تدار بيد لم نرها ، وبحكمة فوق متناولنا فيشتاقون شوقا حقيقيا ، بل يهيمون هياما ، ويفرطون فى العشق : أى عشق تلك الإدارة التى أدارت هذا العالم ، وهؤلاء يحبون النوع البشرى حبا جما فيفيضون الخير عليه ، و يرسلون من قلوبهم أشعة العرفان إلى أقاصيه وأدانيه ، ويرون أنهم خلفاء الله فى أرضه ، وأنهم بما استكملت نفوسهم من علم ، وبما تحلت جوارحهم من عمل جديرون أن يكونوا آباء للنوع الإنسانى ، فهم إذن خلفاء الأنبياء والقائمون مقامهم ، وهؤلاء يبعثهم الله آنا فآنا يوقظون النائمين ، وينصحون المستيقظين ، وإذا حرصوا على الحياة فإنما يحرصون عليها للغاية المذكورة ، والأعمال المشكورة . وفى الوقت نفسه يقول الواحد منهم : « رب قد آتيتنى من الملك وعلمتنى من تأويل الأحاديث فاطر السموات والأرض أنت ولى فى الدنيا والآخرة توفنى مسلما وألحقنى بالصالحين » يقولها لا كما تقال الآن بل يكون هذا القول خارجا من النفس بل هو حالها وإن لم ينطق به ، فترى الرجل منهم يعيش ليكمل نفسه ويكمل غيره فإذا علم أنه قد أتم ماعليه ، وأنه لم يبق عنده كمال إلا وقد أخذه عنه تابعوه ، فانه إذ ذاك يحب الموت لعلمه أن الحياة لم يبق لها قيمة ، وأن روحه قد أصبحت ملائمة لذلك العالم العلوى مناسبة له فتأنف إذ ذاك من البقاء هنا ، وهذه الطائفة القليلة فى أرضنا إذا جاءها الموت كانت مسترخية مطمئنة منشرحة الصدر ، وإذ ذاك تموت موتا يسرها .

هذا هو الولى كما تقدم فى قوله تعالى : « أنت ولى فى الدنيا والآخرة توفنى مسلما وألحقنى بالصالحين »

لأن

لأن روحى تناسب تلك الأرواح الشريفة وترتاح لمناجاتها ، هذا هو الولى الخاص ، وهذه الطائفة هى التى قال الله فيها : « وقليل من عبادى الشكور » . وقد قلنا فى هذا التفسير مرارا أن الأمم الإسلامية سيذيع فيها التعليم وترتقى وتأخذ حظها فى الأمم ، ومامثل الأولياء فى المسلمين فى العصر الحاضر بالنسبة للأولياء فى الأجيال المقبلة إلا كمثل جهل المسلمين اليوم بالنسبة لرقى الأمم الإسلامية المستقبلة ، فالأذكياء فى أمة أشبه بالأمة ، وكذلك الحكام ، فهذا ولى الله الخاص الذى امتاز عن الناس حوله من مسلمين وغيرهم كما قال تعالى : « إن زعمتم أنكم أولياء لله من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين » .

هذا هو الولى أوضحه القرآن فأما ذلك الذى يفرح بكثرة الأتباع للشهوة أو بتقبيل اليد أو نحو ذلك فإنما هو رجل ابتعد عن ولاية الله واقترب من ولاية الشيطان ، فإن القرب من الله يستدعى احتقار الحياة الدنيا، وقد قلنا أن هذا لا يكون إلا لمن ذكرناه .

ثم اعلم أيها الذكى أن عذاب النوع الإنسانى فى الدنيا والآخرة إنما يكون بالجهل ، فكل عذاب ناشئ من الجهل ، والعلم هو الذى يمنع العذاب ، ومن عذاب الدنيا أن الموت موكل بنا ونحن له كارهون ، فالنظام العام لا يتغير ، ونحن للنظام العام كارهون ، والكمال يقضى أن تكون العقول تحب ما يقتضيه النظام العام ، ولا سبيل إلى ذلك فى أرضنا كما قدمنا إلا بصرف النفس إلى الكمال العلمى والكمال الخلقى ، فلا تذر حجرا ولا شجرا إلا فكرت فيه ، ولا تدع علما إلا اطلعت عليه بقدر الإمكان ، وابحث عن الأسباب والنتائج ، وفى هذا التفسير ما يغنى اللبيب ، وفكر فى كل شئ عام وخاص ، وخذ من كل شئ عبرة ، واجعل هذا ديدنك وأحب منفعة الناس بقلبك وبعملك لأن الناس أشبه بنفس واحدة قد تفرقت إلى نفوس كثيرة ، وليكن هذا ديدنك ، فإنك إذا فعلت ذلك وواظبت عليه تجد الله أمامك فى كل أمر ، وتجده يمينك ولا يتركك ويأخذ بيدك ولا تزال تتقرب إليه وهو يلحظك حتى تعرف الحقائق التى ذكر فى هذا التفسير بعضها ، وإذن تصبح نفسك موافقة للنظام العام ، فلا ترى فى الموت إلا خروجا من سجن إلى حرية ، فإن لم تجد فى نفسك هذا اليوم فستجده غدا ، ومن جد وجد ، فأحرص الحرص كله أن تكون نافعا للناس بعلم أو بعمل أو بهما ، وأن تكون عاشقا للحكمة التى نقشها الله بيده فى هذا الوجود ، وأبرزها فى كل موجود ، وإذن تكون ولى الله حقا ، فلا تخاف ولا تحزن ، وكيف تحزن على ما خلفت وأنت موقن أن الله يحفظه ، أو تخاف من أمر فى المستقبل ، وأنت عرفت الحقائق ، والله هو الولى الحميد . انتهى الكلام على اللطيفة الأولى .

اللطيفة الثانية فى قوله تعالى :

يا أيها الذين آمنوا إذا نودى للصلاة من يوم الجمعة

لألخص لك أيها الذكى هنا ما جاء فى الأخبار وأقوال الفقهاء :

(١) — (مسلم) : «خير يوم طلعت عليه الشمس يوم الجمعة ، فيه خلق آدم ، وفيه أدخل الجنة ، وفيه أخرج منها » .

(٢) — (البخارى ومسلم) : « فيه ساعة لا يوافقها عبد مسلم وهو يصلى يسأل الله شيئا إلا أعطاه إياه وأشار بيده يقللها » .

(٣) — (البخارى ومسلم) : « من اغتسل يوم الجمعة غسل الجنابة ثم راح فى الساعة الأولى فكأنما قرب بدنة ، ومن راح فى الساعة الثانية فكأنما قرب بقرة ، وذكر فى الثالثة الكبش الأقرن ،

وفى الرابعة الدجاجة ، وفى الخامسة البيضة . فإذا أحرم الإمام حضرت الملائكة يستمعون الذكر » .

(٤) — (مسلم) : « من توضأ فأحسن الوضوء ، ثم أتى الجمعة واستمع وأنصت ، غفر له مابين الجمعة والجمعة .

(٥) — (البخارى) : « لايغتسل رجل يوم الجمعة ويتطهر مااستطاع من الطهور ، ويدهن من دهنه ، ويمس من طيب بيته ، ثم يخرج فلم يفرق بين اثنين ، ثم يصلى ما كتب له ، ثم ينصت إذا تكلم الإمام إلا غفر له مابين الجمعة إلى الجمعة الأخرى » .

(٦) — (مسلم) : قال صلى الله عليه وسلم لقوم يتخلفون عن الجمعة : « هممت أن آمر رجلا أن يصلى بالناس ثم أحرق على رجال يتخلفون عن الجمعة بيوتهم » .

(٧) — (الفقهاء) : تجب على كل مسلم حر بالغ عاقل ذكر مقيم إذا لم يكن له عذر فى تركها ، ولا جمعة على صبى ولا مجنون ، ولا على النساء ، ولا العبيد .

(٨) — (الفقهاء) يقول أبو حنيفة : لاجمعة على أهل السواد سواء أكانت قريتهم قريبة أم بعيدة . وقال الشافعى : يلزمهم إذا سمعوا نداء مؤذن جهورى الصوت ، وحدد الزهرى ذلك بستة أميال ، وربيعة بأربعة أميال ، ومالك والليث بثلاثة أميال .

(٩) — التخلف عنها لعذر جائز إذا كان هناك طين ودحض وزلق أو نحو ذلك .

(ا) كان النداء يوم الجمعة أوله إذا جلس الإمام على المنبر على عهده صلى الله عليه وسلم وأبى بكر وعمر ، فلما كان عثمان وكثر الناس زاد النداء الثانى على الزوراء ، وهو موضع عند سوق المدينة ، قريب من المسجد ، ويقال إنه مرتفع كالمنارة .

(ب) السعى إلى ذكر الله بالقلب والخشوع ، وقد نهوا أن يأتوا إلى الصلاة إلا وعليهم السكينة والوقار ، وفى حديث البخارى ومسلم : « إذا سمعتم الإقامة فامشوا إلى الصلاة وعليكم السكينة والوقار ولا تسرعوا ، فما أدركتم فصلوا ، ومافاتكم فأتموا » .

(١٠) — (الفقهاء) : لاتنعقد بأقل من أربعين رجلا عند الشافعى وأحمد وإسحق ، ابن عمر شرط أن يكون فى الأربعين وال ، والشافعى لم يشترط هذا الشرط : على بن أبى طالب شرط أن تكون الجمعة فى مصر جامع ، وأبو حنيفة على هذا الرأى .

(ا) تعقد عند أبى حنيفة بأربعة ، والوالى شرط عنده :

(ب) الأوزاعى وأبو يوسف قالا تنعقد بثلاثة بشرط أن يكون الوالى فيهم .

(ج) الحسن : تنعقد باثنين كسائر الصلوات .

(د) ربيعة : تنعقد باثنى عشر رجلا .

(هـ) لاتنعقد إلا فى موضع واحد من البلد ، وهو قول الشافعى ومالك وأبو يوسف .

(و) وقال أحمد : تصح بموضعين إذا كثر الناس وضاق الجامع . ورد فى البخارى ومسلم أنه صلى الله عليه وسلم قال : « إذا قلت لصاحبك يوم الجمعة أنصت والإمام يخطب فقد لغوت » .

هذا هو نهاية الكلام على اللطيفة الثانية فى قوله تعالى : «يا أيها الذين آمنوا إذا نودى للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون ، فإذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون ، وإذا رأوا تجارة أولهوا انفضوا إليها

وتركوك

وتركوك قائما قل ماعند الله خير من اللهو ومن التجارة والله خير الرازقين » .

وبهذا تم تفسير (سورة الجمعة) يوم الجمعة ١٩ من ذى الحجة الحرام سنة ١٣٤٣ هجرية . الموافق ١ يوليو سنة ١٩٢٥ م .

تفسير سورة المنافقون

هى مدنية

آياتها ١١ — نزلت بعد الحج

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ * اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ * وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ * وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ * سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ * هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُّوا وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ * يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ * وَأَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ * وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ *

فى هذه السورة مسئلتان : وصف المنافقين ، والحض على الإنفاق قبل الموت .

التفسير اللفظي

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(إذا جاءك المنافقون) عبد الله بن أبي وأصحابه (والله يعلم إنك لرسوله) كلام مستأنف ليس من كلام المنافقين (والله يشهد إن المنافقين لكاذبون) أي في قولهم : « نشهد إنك لرسول الله » لأنهم أضمروا خلاف ماأظهروا، وكل من أخبر بشيء وهو يعتقد خلافه فهو كاذب ، فالكذب هنا مخالفة اللسان للجنان (اتخذوا أيمانهم جنة) سترا يستترون به من القتل، وقد كانوا يحلفون بالله إنهم لمنكم ويقولون « نشهد إنك لرسول الله » (فصدوا عن سبيل الله) أي منعوا الناس عن الإيمان والجهاد في السر (ذلك) إشارة للحال المذكورة من النفاق والكذب الخ (بأنهم آمنوا ثم كفروا) أي بسبب أنهم آمنوا ظاهرا ثم كفروا سرا ، فتمرنوا على الكفر وصار التلون سجية لهم (فطبع على قلوبهم) ختم عليها واستحكم الكفر فيها (فهم لايفقهون) حقيقة الإيمان ولايعرفون صحته .

ثم وصف هيئاتهم الظاهرة والباطنة، فهم في الظاهر ضخام الأجسام صباحها، ومنطقهم عذب، ولكلامهم عذوبة وحلاوة، وهم في الباطن كأنهم خشبات نخر جوفها، فهي في الظاهر ضخمة حسنة ، وفي الباطن فارغة مجوفة، فلذلك تراهم جبناء، حتى إذا سمعوا مناديا ينادي، أوانفلتت دابة ، أونشدت ضالة ، ظنوا أنهم هم المقصودون ، وأن أمرهم افتضح، فهم سيهانون، لأن المريب يكاد يقول خذوني ، والسارق يكاد إذارأى القيد أن يقول ضعوني، فخذ حذرك منهم فالله كافيك أمرهم ولاعنهم، وهذا قوله تعالى (وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم وإن يقولوا تسمع لقولهم كأنهم خشب مسندة) الخشب جمع خشباء ، وهي الخشبة التي نخر جوفها، شبهوا بها في حسن المنظر، وقبح المخبر ، فهم كأشباح بلا أرواح ، أوأجسام بلا أحلام، ومعنى «مسندة» أي إلى الحائط فليست بأشجار مثمرة ينتفع بثمرها وغيره في المستقبل (يحسبون كل صيحة) واقعة (عليهم هم العدوفاحذرهم) لأنهم متهمون ، وقوله (قاتلهم الله) دعاء عليهم كأنه سبحانه يطلب من ذاته أن يلعنهم (أنى يؤفكون) أي كيف يصرفون عن الحق (وإذا قيل لهم تعالوا يستغفر لكم رسول الله لووا رؤوسهم) أي أمالوها وأعرضوا بوجوههم رغبة عن الاستغفار ، وقوله (يصدون) أي يعرضون عما دعوا إليه (وهم مستكبرون) عن الإيمان .

روي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين لقي بني المصطلق على المريسيع وهو ماء لهم وهزمهم وقتلهم ازدحم على الماء رجلان : رجل يقال له (جهجاه) وهو أجير عمر ، ورجل يقال له (سنان الجهني) وهو حليف عبد الله بن أبي واقتتلا ، فصرخ جهجاه وقال ياللمهاجرين، وسنان قال ياللأنصار ، فأعان جهجاها رجل من المهاجرين ولطم سنانا فقال عبد الله للمهاجر : ماصحبنا محمدا إلا لنلطم ، والله مامثلنا ومثلهم إلا كما قال : (سمن كلبك يأكلك) أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل (يريد بالأعز نفسه وبالأذل رسول الله صلى الله عليه وسلم) ثم قال لقومه : لو أمسكتم عن هذا وذويه فضل الطعام لم يركبوا رقابكم ، فلاتنفقوا عليهم حتى ينفضوا من حول محمد ، فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال عمر : دعني أضرب عنق هذا المنافق يارسول الله ، قال إذن ترعد أنف كثيرة بيثرب ، قال فإن كرهت أن يقتله مهاجر فأمر به أنصاريا ، قال: فكيف إذا تحدث الناس أن محمدا يقتل أصحابه ! ثم قال صلى الله عليه وسلم لعبد الله: أنت صاحب الكلام الذي بلغني، قال والله الذي أنزل عليك الكتاب ماقلت شيئا من ذلك وإن زيدا (يريد زيد بن أرقم المبلغ) لكاذب، فنزلت هذه الآيات، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لزيد بن أرقم : ياغلام : إن الله صدقك وكذب المنافقين ، فلما بان كذب عبد الله قيل له : قد نزلت فيك آي شداد، فاذهب

إلى

إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يستغفر لك، فلوى رأسه وقال: أمرتمونى أن أومن فآمنت، وأمرتمونى أن أزكى فزكيت، ومابقى إلا أن أسجد لمحمد، ولم يلبث إلا أياما حتى اشتكى ومات، وقوله (سواء عليهم أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم) أى سواء عليك الاستغفار وعدمه (لن يغفر الله لهم) لرسوخهم فى الكفر (إن الله لايهدى القوم الفاسقين) الخارجين الذين لا يمكن إصلاحهم (هم الذين يقولون) للأنصار (لاتنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا) يريد فقراء المهاجرين (ولله خزائن السموات والأرض) فهو الذى بيده الرزق والقسم (ولكن المنافقين لايفقهون) ذلك لجهلهم (يقولون لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين) أى ولله الغلبة والقوة ولمن أعزه من رسوله والمؤمنين، وهذا القول قد تقدم شرحه فى ذكر السبب (ولكن المنافقين لايعلمون) لفرط جهلهم ثم قال (ياأيها الذين آمنوا لاتلهكم أموالكم ولاأولادكم عن ذكر الله) نهى للمؤمنين أن تشغلهم الأموال وتدبيرها عن ذكر الله بالقلب واللسان فى الصلاة والعبادات وفى سائر الأوقات كما شغلت المنافقين (ومن يفعل ذلك) اللهو بها (فأولئك هم الخاسرون) وأى خسر أعظم ممن باع حقيرا فانيا بعظيم باق (وأنفقوا مما رزقناكم) أى بعض أموالكم (من قبل أن يأتى أحدكم الموت) أى دلائله (فيقول رب لولا) هلا (أخرتنى) أمهلتنى (إلى أجل قريب) أمد غير بعيد (فأصدق) فأتصدق (وأكن من الصالحين) يتدارك مافات (ولن يؤخر الله نفسا) ولم يمهلها (إذا جاء أجلها) آخر عمرها (والله خبير بما تعملون) فمجاز عليه.

انتهى التفسير اللفظى للسورة كلها، والحمد لله رب العالمين.

إيضاح

اعلم أن (سورة الجمعة) إنما دعت إلى فهم كتاب الله وحوز العلم والحكمة، وألا يكون المؤمنون كاليهود الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها، واتضح فيها صفة الولى، وأنه هو الذى سارع إلى الخيرات، ولم يبال بالموت بل يتمناه، ثم ذكر الصلاة، وذكر الله فى كل حين لإنماء المحبة الإلهية فى النفس حتى تحب لقاء الله فلما فرغ منها أتى بهذه السورة التى أماطت اللثام عن الصبر على إيذاء المنافقين، وعداوة الأصحاب المخادعين، وبيانه أن الإنسان فى هذه الدنيا يقوم بما قسم له من الأعمال، وكلما كان أكثر نفعا وأبعد أثرا كانت العداوة له أعظم خطرا، وحساده أشد ضررا، وترى الزوج يسعى على زوجته، والوالد يكسب لأبنائه، والأستاذ يجد لارتقاء تلاميذه وينصحهم، ومع ذلك كم من زوجة كانت هى الداء العضال لزوجها، وكم من ولد كان حسرة ونقمة على والديه، وكم من تلميذ كان حربا عوانا على أستاذه، فأنزل الله فى القرآن: «ياأيها الذين آمنوا إن من أزواجكم وأولادكم عدوا لكم فاحذروهم» وقال: «إنما أموالكم وأولادكم فتنة» وأنزل (سورة التحريم) الآتية قريبا، وذكر فيها إيذاء الزوجات لأزواجهن، وأنزل هذه السورة بعد (سورة الجمعة)، كل ذلك ليعلم الصبر على المصائب، والحق أن فى أكثر الناس استعدادا لأعمال الشريعة، ولكن من يجوز الامتحان ويصبر عليه قليل. ألا ترى أن كثيرا من الناس يسعى فى الأعمال النافعة حتى إذا صدمته صدمة أوأصابته نكبة، أوآذاه من أحسنوا إليه، أوواجهوه بالازدراء والسخرية والتهكم، فانه ينصرف عن نفعهم، ويقلع عن نصحهم، ويرجع لقعريته مدحورا، ذلك لأنه لا قدرة له على السير فى الامتحان، وليس من رجال هذا الميدان، ولاهو من طالبى الجميلات الحسان، فيرجع القهقرى، ويترك الورى، كأنه لا يسمع ولا يرى، خائبا وهو كليل، كأن الله بهذه السورة يقول: أيها المؤمنون: هاهو ذانبى أمددته بالقرآن، وجعلت الناس يلتفون حوله ويعظمونه، فليس منكم من يعظمه الناس ويجلونه مثله، فالمعلمون منكم والمدرسون لاينالون من

تعظيم تلاميذهم ماناله، ولايؤثرون فى قلوبهم ماأثره، ثم إنه آذاه المنافقون من أصحابه، وأوحى الله إليه بما أسروا فى أنفسهم، وماأظهروا بألسنتهم، ومع ذلك لم تهن عزيمته، ولم تضعف همته، بل دام على النصح والإرشاد وهذا من خلق الصبر والعزيمة؛ فصاحب العزيمة لايثنيه عن عزيمته الجيوش الجرارة، ولا السيوف البتارة، ولاالأصدقاء الخائنون، ولاالأبناء العاصون، ولاالزوجات الماكرات، فالعزيمة والهمة يخضع لها الجبارون، ويذل لها المتكبرون؛ ولا يقف فى طريقها أعظم الصعاب، ولاعيب من عاب.

يستعظم المعلم أنفة من تلقى علمه، أفلا يذكر هذا المعلم أن خير الخلق قد آذاه من أسلم على يديه، ثم ظهر نفاقه وثبت بالقرآن، والنبى صلى الله عليه وسلم صابر على من آذوه: ماض فى عمله، مطيع لربه: والله هو الولى الحميد.

فتكون إذن (سورة الجمعة) للعلم والعمل (والمنافقون) للصبر وقوة الأمل: «والعصر، إن الإنسان لفى خسر، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر» فلأوصينك بالحق فقم به فى هذه الأمة التى خفضها الجهل، وأزرى بها الكسل، وسترى من تلاميذك وبعض أسرتك من يناوئونك إما سرا وإما جهرا، فلتسر فى طريقك.

واعلم أن الرجل إذا سافر فشاكته شوكة فإنه لايضيع الزمن فى الكلام عليها ولا فى الشكوى منها، بل يتبع الركب ولايتوقف فيضيع الزمن لأجل الشوكة وكيف دخلت؛ ويأخذ فى سبها، فإن ذلك كله ضياع لمصالحه، فهكذا هنا هؤلاء المنافقون الذين يحيطون بالعامل الصادق من كل جانب لاينبغى أن يصدوك عن عملك: «فاصدع بما تؤمر وأعرض عن الجاهلين، إنا كفيناك المستهزئين».

انتهى تفسير سورة المنافقين، والحمد لله رب العالمين.

تفسير سورة التغابن

هى مدنية

آياتها ١٨ — نزلت بعد التحريم

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمٰوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ * خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ * يَعْلَمُ مَا فِي السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ * أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * ذَٰلِكَ بِأَنَّهُ

كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوْا وَاسْتَغْنَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ * زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ * فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ * يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ * وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ * مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ * وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ * اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِنْ تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ * إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ * فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِأَنْفُسِكُمْ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * إِنْ تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ * عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ *

مقدمة

هذه السورة مع ماقبلها تتحدان فى أمر، وهو الصبر على القرناء، فسورة المنافقين فيها صبر النبى صلى الله عليه وسلم على نفاق من حوله، جىء بها لتكون ذكرى للعلماء، أوللحكام أنهم إذا رأوا منافقين من إخوانهم وتلاميذهم ورعاياهم فلايقعدن ذلك بهممهم عن الجد والتشمير فى خدمة المجموع، وسورة التغابن ذكر فيها أن من الأزواج والأولاد أعداء، فيكون الملخص من هذين ألا ييئس الإنسان مما يقاسى من الأصحاب والتلاميذ والرعية والزوجة والولد.

وملخص ذلك أن الإنسان فى الدنيا وحده، فلا يطمعن فيها أن يكون واثقا كل الثقة بأحد ؛ فإذا كانت (سورة الجمعة) للعلم والعمل فسورتا (المنافقين والتغابن) للصبر، فإذن دينا يحرض على الأعمال القلبية وهى عنده بالمقام الأول، فبغير الصبر لاعلم ولاعمل ، ثم إن السورتين اشتركتا أيضا فى الإنفاق والحث عليه فى آخرهما . ولنشرع فى التفسير اللفظى فنقول :

التفسير اللفظى

بسم الله الرحمن الرحيم

(يسبح لله ما فى السموات وما فى الأرض) التسبيح بالدلالة على تنزيه الصانع وكماله ، وبأن هذه المخلوقات مسخرة منقادة ، فالانقياد تسبيح ، والدلالة تسبيح ، وقوله (له الملك وله الحمد) فهو يتصرف تصرف اختصاص فلاحمد إلا له ، لأنه مصدر الخيرات ، ومفيض البركات (وهو على كل شىء قدير) يفعل ما يشاء ، ولاجرم أن عدم تناهى القدرة على الأشياء مما يوجب جلال الملك ، واتساع نطاق الحمد (هو الذى خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن) فإذا متم وبعثتم رجعتم إليه بصفاتكم التى متم عليها .

وفى حديث مسلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن الله خلق للجنة أهلا خلقهم لها وهم فى أصلاب آبائهم ، وخلق للنار أهلا خلقهم لها وهم فى أصلاب آبائهم » اهـ

وإنما كان ذلك لأن كل مخلوق تابع لاستعداده المستمد من النظام العام ، وهذا الاستعداد مخلوق فيه للتربية كما يربى النبات والحيوان ، ولذا أعقبه بقوله (والله بما تعملون بصير) أى عالم وبصير بكفركم وإيمانكم اللذين هما من عملكم ، وبما كان سببا لهما من استعدادكم ، وبما يكون نتيجة لهما من جزائكم (خلق السموات والأرض بالحق) بالحكمة البالغة ، ولقد ظهر أثر تلك الحكمة فى تصويركم فكنتم مختلفين فى الصور كما اختلفتم فى العقائد ، فإذا كان فى صوركم السوداء والبيضاء والتى بينهما ، فهكذا فى عقائدكم الكفر والإيمان والعصيان ، فالكفر كالسواد ، والإيمان كالبياض ، والوسط بينهما كالصفرة والحمرة فى أهل الصين وأهل أمريكا الأصليين ، فإذا كانت هذه حالكم فى صوركم التى اقتضاها النظام ولم يكن هناك تناقض بل النظام محكم ، ولم يقل أحد من الحكماء ، ولا الفلاسفة أن السواد خطأ ، أو البياض خطأ ، أو الصفرة أو الحمرة النحاسية ، هكذا سيكون فى العالم الروحى نظام ستفقهونه بعد الموت إذا انكشف عنكم الغطاء ، فإنكم سترون أن كفر الكافر من حسن نظامنا كما كان إيمان المؤمن من حسن نظامنا ، فإذا كان الحنظل فى الأرض والبطيخ والعقرب والجراد والذئب والغزال والسم والغذاء والنار والماء ، كل ذلك من مقومات هذا الوجود ، أومن حسن نظامه ، هكذا ستعرفون فى عالم الأرواح أن اختلاف العقائد لمصالح كمصالح اختلاف الأغذية والأدوية والمهلكات فى هذه الحياة . وسترون أن الأنبياء والعلماء والحكماء أشبه بالزراع يزرعون الزارع لمصالح الانسان ، وأن العقائد الزائغة كالحشائش التى يتعمد الفلاح اقتلاعها من الأرض بفأسه ، هذه المعانى بعض مايفهم من قوله (وصوركم فأحسن صوركم وإليه المصير) فليجد المرء منكم أن يكون ممن تأهلوا للقاء الله بقلوب صافية عاقلة ، وليحذر أن تكون صورته القلبية مشوهة فلا يصلح للقاء الله كما لا يصلح المشوهو الوجوه للقاء الملوك ، ولا لأنس الأصحاب (يعلم ما فى السموات والأرض ويعلم ما تسرون وما تعلنون والله عليم بذات الصدور) فلا تخفى عليه خافية ، قد استوى فى علمه ظواهر الأمور وبواطنها ، ثم خاطب أهل مكة قائلا (ألم يأتكم نبأ الذين كفروا من قبل) كقوم نوح وهود وصالح (فذاقوا وبال أمرهم) أى ضرر كفرهم فى الدنيا وهو ما لحقهم من العذاب ، وهكذا الأمم الماضية التى كانت وتركت ما يجب عليها من أمة الإسلام فى القرون الآخرة ذاقت وبال أمرها فى الدنيا فأصبحوا عبرة الأمم ومضرب الأمثال بالجهل والذل ، فهؤلاء يصلحون للاعتبار بهم ، فهم قد وقعوا فى عذاب الاحتلال واحتلال أهل أوروبا لغفلتهم وجهلهم ، فهؤلاء يصلحون لأن يعتبر بهم المسلمون الحاليون والذين يأتون بعدهم ، بل الاعتبار بهم أقرب ، لأنهم ذاقوا وبال أمرهم . وفى التعبير بقوله : « ألم يأتكم نبأ الذين كفروا من قبل » فتح باب للاعتبار بالتاريخ ، لا فرق بين قوم نوح وقوم من أمم الإسلام كأهل الأندلس الذين أذاقهم أوروبا كأس الذل ، وأخرجتهم من ديارهم

كما أخرج المسلمون اليهود من جزيرة العرب . بمثل هؤلاء، فليعتبر المسلمون . وقوله (ولهم عذاب أليم) أى فى الآخرة، وهكذا المسلمون المقصرون فى فروض الكفايات، وهى جميع العلوم والصناعات سيعذبون بعد الموت عذاب التقصير لاعذاب الكفر لأنهم مؤمنون .

واعلم أن كثيرا من أهل العلم اليوم فى بلاد الإسلام غافلون نائمون ، فقد بلغنى أن أحدهم اطلع على ما كتب فى (سورة البقرة) من قولى: (إن علم الأجنة يحرم تركه على المسلمين) فظن ذلك الغافل أن هذا القول شئ اخترعته، ففرح بذلك وقال: إن هذا ليس فى الدين، وقد وهم، لأن هذا ليس واجبا عينيا بل هو فرض كفاية ، وهكذا جميع العلوم والصناعات والأمة كلها تعذب بترك فرض الكفاية ، لأنه نقص لاحق بالأمة كلها (ذلك) المذكور من الوبال والعذاب (بأنه) بسبب أن الشأن (كانت تأتيهم رسلهم بالبينات) بالمعجزات (فقالوا أبشر يهدوننا) أى أنكروا أن يكون الرسل بشرا ، فهم لاينكرون أن يكون معبودهم حجرا، وينكرون أن يكون رسول المعبود إنسانا ، كأن الرسول يجب أن يكون أشرف من المرسل الذى أرسله (فكفروا) أى جحدوا وأنكروا (وتولوا) أعرضوا (واستغنى الله) عن إيمانهم وعبادتهم (والله غنى) عن خلقه (حميد) فى أفعاله .

هذا تمام الكلام فى كفرهم وتكذيبهم الأنبياء، ثم أتبعه بذكر إنكار البعث فقال : (زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا قل) يامحمد لهم (بلى وربى لتبعثن) هذا قسم ليؤكد به الجواب (ثم لتنبؤن بما عملتم) بالمحاسبة والمجازاة (وذلك على الله يسير) أى أمر البعث والحساب يوم القيامة (فآمنوا بالله ورسوله) محمد صلى الله عليه وسلم (والنور الذى أنزلنا) وهو القرآن (والله بما تعملون خبير) فمجاز عليه وقوله (يوم يجمعكم ليوم الجمع) متعلق بتنبئون ، ويوم الجمع هو يوم القيامة، إذ يجمع الله فيه الأولين والآخرين ، وأهل السموات وأهل الأرضين (ذلك يوم التغابن) مستعار من تغابن القوم فى التجارة ، وهو أن يغبن بعضهم بعضا ، كأن يبيع أحدهم الشىء بأقل من قيمته . فهذا غبن للبائع، أو يشتريه بأكثر من قيمته، فهذا غبن للمشترى، وأى غبن أعظم من أن قوما ينعمون وقوما يعذبون، وأن قوما مغبونين مظلومين فى الدنيا أصبحوا فى الآخرة غابنين لمن غبنوهم فى الدنيا وظلموهم: إن الكفار غبنوا فى شرائهم، لأنهم اشتروا الضلالة بالهدى والعذاب بالمغفرة . وأما المؤمنون فقد ربحت تجارتهم (ومن يؤمن بالله ويعمل صالحا) أى عملا صالحا (يكفر عنه سيئاته ويدخله جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا ذلك الفوز العظيم ، والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار خالدين فيها وبئس المصير) وهذا هو التغابن . فالمؤمن الذى عمل الصالحات فى الجنة، والكافر فى النار، وهذا هو ملخص التغابن .

وهاهنا يرد السؤال فيقال: ولم هذا ؟ وكيف خلقتهم ونوعتهم ؟ هلا جعلتهم جميعا سعداء ، مع أنك قادر على كل شىء ؟ وكيف تعذب وأنت أرحم الراحمين ؟ إن العقل هنا لايستطيع الإجابة على هذا . ومما يؤيد هذا السؤال ويقويه أنه يقول (ما أصاب من مصيبة إلا بإذن الله) أى بقضاء الله وقدره وإرادته، ولاجواب على هذا السؤال إلا ماجاء فى أول السورة: «هو الذى خلق السموات والأرض بالحق وصوركم فأحسن صوركم» وقد تضمن الاختلاف فى الصور، فالاختلاف هنا كالاختلاف هناك . ومن الحكماء وأرباب البصائر من يعرفون سر هذا الاختلاف؛ وأن وجود الحنظل والبطيخ، والبقة والفيل، والحر والبرد، والمر والحلو، مشابهات تمام المشابهة لما فى العقول من كفر وإيمان، وخير وشر، وجهل وعلم، وأن النظام فى الحالين واحد، ولكنهم لايريدون أن يذكروا الحقائق التى عرفوها، لأن جمهور النوع الإنسانى غير كفؤ لفهم هذه الحقائق فلذلك يكتمونها، وهكذا أنت أيها الذكى إذا كنت ممن عرفوا الحقائق، فأنت مضطر أن تكتمها عن الناس

فى هذا الموضوع وحده، لأن عقولهم لا تتحمله ، وهذا المقام فيه مقال واسع فى (سورة الأعراف) عند قوله تعالى : « ورحمتى وسعت كل شىء » فارجع إليه إن شئت .

هذا فى معنى الآية من حيث العلم . أما مغزاها من حيث العمل فإن سورة المنافقين المتقدمة ؛ وأنهم كانوا يؤذون رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومايأتى فى هذه السورة بعد هذه الآية من إيذاء الأزواج والأولاد للبعولة والآباء، فإن الله يبين لنا أن هذه المصائب مقدرة، فإذا عاب المنافقون نبيهم وأنكروا نعمته، وإذا أنكر التلاميذ نعمة أساتذتهم، والأبناء نعمة آبائهم، فلايحزن النبى ولا الأساتذة ولا الآباء ، وكيف يحزنون على شىء قدر عليهم قبل خلقهم ؟ كما لا ينبغى أن يحزن الناس على الاختلاف فى الكفر والإيمان والجنة والنار، لأن ذلك الاختلاف من جملة النظام الذى وجد عليه العالم، وليس معنى هذا أن الإنسان لا يعمل ولا يجد فى هداية الكافرين، ونصح العاصين، وتأنيب المنافقين، وإرشاد وتأديب النساء والبنين كلا: إنما ذلك القول ليستروح به الناس بعد أن يكونوا قد عملوا مايجب عليهم وأتموه ، فأما إذا لم يتموا ما يجب عليهم من هداية أوتهذيب لأنفسهم ولغيرهم، وسعى فى الكسب والعمل لهم ولغيرهم فإنهم معذبون بهذا عذابا شديدا ، ويكون ذلك وفق القضاء .

وملخص هذا أن الإنسان يتم مايجب عليه له ولغيره، ثم بعد ذلك لايبالى بما يأتى به القضاء ، وهذا هو التوكل : ولما كان هذا تمام السعادة فى الدنيا والآخرة بحيث يكون الإنسان مجدا فى عمله ، والقيام بأمره ، والسعى لتمام الأمور ، مريحا نفسه من عناء الهم والغم ، لعلمه أنه قد فعل كل مايجب عليه ، وأن مافوق ذلك ليس فى طاقته ، فمهما كان من خير أوشر بعد ذلك فلن يهوله أمره ، ولن يحزن عليه ، لذلك أعقبه بقوله (ومن يؤمن بالله يهد قلبه) يوفقه لليقين، وهذا هو عين اليقين، وأى نعمة أعظم من هذه النعمة،جد فى عمل واستراحة من غم وحزن واطمئنان نفس، ووثوق بفضل ، وعلم بأنه لم يقصر (والله بكل شىء عليم) والقلوب من جملة الأشياء فهو مطلع عليها (وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول فإن توليتم) فلابأس عليه (فإنما على رسولنا البلاغ المبين) لأن وظيفته التبليغ وقد بلغ فماذا عليه بعد ذلك ؟ هل يكلف بما فوق طاقته ؟ إذن هو لا يحزن بعد ذلك، وقد هدى الله قلبه ، وعرف أن للقضاء والقدر أثرا تاما فى البرية .

هكذا كل امرئ فى الأرض فليفعل مايجب عليه،وليس عليه غير ذلك . ولهذا أشار بقوله (الله لا إله إلا هو وعلى الله فليتوكل المؤمنون) أى فليفعلوا غاية جهدهم ، ثم ليكلوا إلى الله نتائج أعمالهم . ولا يحزنوا على مايصيبهم، إذ ليس فى طاقتهم رده . وإنما الحزن يكون على التقصير . ونموذج التوكل مسألة التبليغ : فقد بلغ النبى صلى الله عليه وسلم وليس عليه بأس إذا لم يؤمنوا . نعم إذا أمر بقتالهم وهو قادر وقصر فإنه يؤاخذ على ذلك . لأن فى القتال ضررا قليلا لطائفة من الناس فيدخلون فى الإيمان ثم يأتى بعدهم مالا نهاية له من الأمم إلى يوم القيامة ، فيدخلون فى الدين طوعا لا كرها .

ثم أعقبه بمسألة تصيب الناس فى داخل منازلهم ؛ وهى مما ينبغى التوكل فيه بعد التأديب الشديد والقيام بالنظام على أتم وجه فقال (ياأيها الذين آمنوا إن من أزواجكم وأولادكم عدوا لكم) أى إن من الأزواج أزواجا يعادين بعولتهن ويخاصمنهم ؛ ومن الأولاد أولادا يعادون آباءهم ويعقونهم . وهكذا الأزواج والأولاد يكونون سبب جبنكم عن القتال وبخلكم بالمال وجهلكم ؛ لأنهم يشغلونهم بجلب المال لهم ؛ كما اتفق لعوف بن مالك الأشجعى . وكان ذا أهل وولد . فاذا أراد أن يغزو بكوا عليه ورققوه وقالوا إلى من تدعنا ؟ فيرق عليهم فيقيم .

وأيضا

وأيضا كان رجال آخرون من أهل مكة أرادوا أن يأتوا النبي صلى الله عليه وسلم . فأبى أزواجهم وأولادهم أن يدعوهم أن يأتوا النبي ﷺ . فلما أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى الناس قد فقهوا في الدين فهموا أن يعاقبوهم فنزل قوله تعالى « يا أيها الذين آمنوا إن من أزواجكم وأولادكم عدوا لكم » (فاحذروهم) ولا تأمنوا غوائلهم (وإن تعفوا) عن ذنوبهم بترك المعاقبة (وتصفحوا) بالإعراض وترك التثريب عليها (وتغفروا) بإخفائها وتمهيد معذرتهم فيها (فإن الله غفور رحيم) يعاملكم بمثل ما عملتم ويتفضل عليكم وهذا العمل هو الذي فعله النبي ﷺ مع المنافقين فانه لم يعاقبهم وعفا عنهم وحذرهم ، فالإنسان إذن في منزله أشبه بقائد الجيش في حومة الوغى لا ينفك عن مهاجمة عدوه وصيانة عسكره ، فهو دائما في حذر . ثم أتى بالنتيجة وأبان أننا اليوم سائرون لله في هذه الحياة ، وليس هؤلاء الأولاد ولا النساء ولا الأصحاب هم المقصودون ، بل المقصود الأعظم الوصول إلى الله ، ولو كان المقصود هؤلاء لكانوا نعمة لا نقمة فيهم ، ونعيما لا عذابا ، ولكن الله جعل السم في دسمهم ، والعذاب في نعيمهم ، والشقاء مخبوءا في الاسترواح لهم ، ليكون ذلك دليلا أن هؤلاء ليسوا نهاية الأعمال إنما هم ممن ابتلينا بهم في طريق سفرنا الطويل الشاق .

والنتيجة أننا نكون في دار لا يكون الخير فيها مشوبا بالشر ، وهذا قوله تعالى (إنما أموالكم وأولادكم فتنة) اختبار لكم (والله عنده أجر عظيم) لمن آثر محبة الله وطاعته ، إذن فليكن المقصد الأعظم نهاية الأمر لا الوقوف في أثناء السفر .

ولما كانت هذه الأمور فيها اختلاط على النفس واختباط فلا يدري الإنسان ماذا يعمل وجب عليه صيانة أهله وولده ، ووجب عليه جهاد عدو البلاد والنزال معه للحرب ، فلا يدري ماذا يصنع إن حارب العدو ترك أهله ، وإن بقي مع أهله دخل العدو البلاد ، وهكذا يعيش الإنسان بين المتناقضات وهو في حيرة ، والفؤاد معذب بين الأمور العامة والخاصة ، لذلك أعقبه بما يفيد أن الإنسان يفكر فيما فيه المصلحة بقدر طاقته ، وهذا قوله تعالى (فاتقوا الله ما استطعتم) أي ابذلوا في تقواه جهدكم وطاقتكم (واسمعوا) مواعظه (وأطيعوا) أوامره (وأنفقوا) في وجوه الخير لوجهه وائتوا (خيرا لأنفسكم) أو وأنفقوا إنفاقا خيرا (ومن يوق شح نفسه) الذي استوجبته الفتنة بالأموال والأولاد (فأولئك هم المفلحون) أي هم الفائزون (إن تقرضوا الله) بصرف المال فيما أمرتم به (قرضا حسنا) مقرونا بالإخلاص وطيب القلب غير مكترثين بما تسمعون من أولادكم وأزواجكم (يضاعفه لكم) عشرا وسبعمائة أو أكثر (ويغفر لكم) ببركة الإنفاق (والله شكور) يعطي الجزيل بالقليل (حليم) لا يعاجل بالعقوبة (عالم الغيب والشهادة) ما غاب وما شوهد (العزيز الحكيم) تام القدرة والعلم .

انتهى تفسير (سورة التغابن) والحمد لله رب العالمين .

تفسير سورة الطلاق

هي مدنية

آياتها ١٢ — نزلت بعد الانسان

بسم الله الرحمن الرحيم

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا * فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِنْكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا * وَاللَّائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَاللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا * ذَٰلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنْزَلَهُ إِلَيْكُمْ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا * أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ وَإِنْ كُنَّ أُولَاتِ حَمْلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ وَإِنْ تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَىٰ * لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا * وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُكْرًا * فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا * أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ آمَنُوا قَدْ أَنْزَلَ

اللهُ إليكم ذِكرًا * رَسُولاً يَتلُوا عليكم آياتِ اللهِ مبيِّنَاتٍ ليُخرِجَ الَّذِينَ آمنُوا وَعمِلُوا الصَّالِحاتِ مِنَ الظُّلُماتِ إلى النُّورِ وَمَنْ يُؤمِنْ باللهِ وَيَعْمَلْ صالِحًا يُدْخِلْهُ جنَّاتٍ تَجرِى مِنْ تحتِها الأنْهارُ خالِدِينَ فِيها أبدًا قدْ أحْسَنَ اللهُ لَه رِزقًا * اللهُ الَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمٰوَاتٍ وَمِنَ الأرْضِ مِثلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الأمْرُ بَينَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أنَّ اللهَ عَلى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأنَّ اللهَ قدْ أحاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلمًا *

مقدمة

هذه السورة فيها معاملة الزوجات حال بقائهن فى العصمة وحال مفارقتهن من الإمساك بالمعروف، ومن الطلاق والعدة، ومن الإنفاق فى مدتها، فناسب أن تذكر بعد (سورة التغابن) التى ذكر فيها الصبر والعفو عن الأزواج والأولاد الذين هم فتنة، فهاهنا أبان أن من هؤلاء الذين فتنتم بهم من تقدرون على مفارقتهم، فلتكن المفارقة بالمعروف كما يكون الإمساك بالمعروف. أما الأولاد والأصحاب الذين لامفر من صحبتهم كالأبناء العاقين، وكالمنافقين أزمان النبوة، فليس لهؤلاء حال يتبرأ منهم الإنسان إلا حال الكفر، فإذن تكون البراءة. أما فيما عدا ذلك فلتكن النصيحة والتأديب تارة والعفو والصفح أخرى، ثم يتخلل تلك الأحكام الشرعية فى هذه السورة ذكر التوكل وإرجاع الأمور إلى الله كما فى (سورة التغابن) إذن هذه السورة كالمتممة للتى قبلها والموضحة لبعض ماأجمل فيها.

ولما طال الكلام فى هذه السور على علوم المعاملة، وهذا يجعل الإنسان إذا استغرق فيه ناسيا ذكر ربه ختم السورة بأن الله خلق سبع سموات وسبع أرضين، وأنزل قضاءه وأمره بينهن بنظام حسن، ليعلمنا علم مبدعاته، ورقى نفوسنا ببدائع حكمه، وعظيم آياته، هذا ملخص هذه السورة إجمالا.

ملخص الأحكام فى هذه السورة

(١) إن المطلقة عدتها ثلاثة قروء، وهى الأطهار، أوالحيضات رأيان.

(٢) ولاتخرج من البيت حتى تنقضى عدتها إلا فى أحوال خاصة.

(٣) فاذا شارفت العدة أن تنقضى فللرجل الخيار إما أن يراجعها وإما أن يفارقها بالمعروف.

(٤) وإذا راجعها أوفارقها فليشهد على ذلك ذوى عدل.

(٥) المرأة التى يئست من المحيض، والتى لم تحض عدة كل منهما ثلاثة أشهر:

(٦) الحامل عدتها بوضع الحمل وينفق على الحامل حتى تضع حملها وتخرج من العدة.

(٧) فإذا أرضعت المرأة فلها أجر الإرضاع.

(٨) الانفاق من المعسر ومن الموسر كل بقدره اهـ.

التفسير اللفظى

بسم الله الرحمن الرحيم

(ياأيها النبى) قل لأمتك (إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن) أى لزمان عدتهن ، وهو الطهر لأنها تحصل فى العدة عقيب الطلاق فلايطول عليها زمان العدة ، وقد كان ابن عمر طلق امرأته وهى حائض ، فذكر ذلك عمر لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فتغيظ منه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم قال : مره فليراجعها ثم يمسكها حتى تطهر ، ثم تحيض ، ثم تطهر ، فإن بدا له أن يطلقها فليطلقها قبل أن يمسها . فتلك العدة التى أمر الله أن يطلق لها النساء . وفى رواية لمسلم أنه قال : « مره فليراجعها ثم ليطلقها طاهرا أو حاملا » . (وأحصوا العدة) واضبطوها وأكملوها ثلاث أقراء كوامل لانقصان فيها ، وإنما خوطب الأزواج لغفلة النساء (واتقوا الله ربكم) فى تطويل العدة والإضرار بهن و (لاتخرجوهن من بيوتهن) أى من مساكنهن التى يسكنها قبل العدة ، وهى بيوت الأزواج ، فتكون السكنى إذن واجبة ، فلايخرجهن البعولة غضبا عليهن وكراهة لمساكنهن ، أولحاجة لهم إلى المساكن ، وألا يأذنوا لهن فى الخروج ، إذا طلبن ذلك ، إذ لا أثر لإذنهم فى دفع الحظر (ولايخرجن) بأنفسهن إن أردن ذلك (إلا أن يأتين بفاحشة مبينة) كالبذاءة على أهل زوجها فيحل إخراجها لسوء خلقها ، وكخروجها قبل انقضاء عدتها (وتلك) الأحكام المذكورة (حدود الله ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه) بأن عرضها للعقاب (لاتدرى) أيها المطلق (لعل الله يحدث بعد ذلك أمرا) فربما حصلت لك الرغبة فى المطلقة فراجعتها ، وفى الحديث : « أبغض الحلال إلى الله الطلاق » ، وقال صلى الله عليه وسلم : « أيما امرأة سألت زوجها الطلاق من غير مابأس به حرام عليها رائحة الجنة » أخرجه أبوداود والترمذى (فإذا بلغن أجلهن) شارفن آخر العدة (فأمسكوهن) فراجعوهن (بمعروف) بحسن عشرة وإنفاق مناسب (أوفارقوهن بمعروف) أى اتركوهن حتى تنقضى عدتهن فتبين منكم (وأشهدوا ذوى عدل منكم) على الرجعة وعلى الفراق ، وهذا مندوب كالإشهاد على التبايع ، وعن الشافعى أنه واجب فى الرجعة (وأقيموا الشهادة لله) أيها الشهود عند الاقتضاء (ذلكم) أى جميع مافى الآية (يوعظ به من كان يؤمن بالله واليوم الآخر) فإنه الذى ينتفع به؛ ولما كان هذا المقام فيه الكلام على الطلاق والعدة وعدم الإخراج من المسكن وتعدى حدود الله وإقامة الشهادة وما يناسب ذلك من القضايا والمشاكل الكثيرة التى تنغص العيش وتورث الألم أنزل الله فيه هذه الآية (ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لايحتسب) فإذا لم يطلق الرجل امرأته فى الحيض فتطول مدة عدتها ولم يخرجها من مسكنها ولم يتعد حدود الله ولم يكتم الشاهد شهادته ، ولم يعص الله المؤمن على وجه العموم فى سائر أحواله فإن الله يخرجه من الغموم والوقوع فى المضايق ويفرج عنه ويعطيه الخلاص ويرزقه من جهة لاتخطر بباله ، وبالاختصار من اتقى الله جعل له مخرجا ومخلصا من غموم الدنيا والآخرة ، ومن غمرات الموت ، ومن شدائد يوم القيامة : قال صلى الله عليه وسلم : « إنى لأعلم آية لو أخذ الناس بها لكفتهم : ومن يتق الله ، فما زال يقرؤها ويعيدها » وروى أن عوف بن مالك أسر المشركون ابنا له ، فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : أسر ابنى ، وشكا إليه الفاقة ، فقال : ماأمسى عند آل محمد إلا مد ، فاتق الله واصبر ، وأكثر من قول : لا حول ولاقوة إلا بالله العلى العظيم ، فعاد إلى بيته وقال لامرأته : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرنى وإياك أن نستكثر من قول لاحول ولاقوة إلا بالله العلى العظيم ، فقالت نعم ما أمرنا به ، فجعلا يقولان ذلك ، فبينما هو فى بيته إذ قرع ابنه الباب ومعه مائة من الإبل تغفل عنها العدو فاستاقها فنزلت ، وقوله (ومن يتوكل

على

على الله فهو حسبه) أى ومن يكل إليه أمره فهو كافيه فى الدارين (إن الله بالغ أمره) أى يبلغ ما يريد لايفوته مراد ولا يعجزه مطلوب (قد جعل الله لكل شىء قدرا) تقديرا وتوقيتا ، وهذا بيان لوجوب التوكل على الله وتفويض الأمر إليه ، لأنه إذا علم أن الرزق وغيره لها أوقات ومقادير محدودة لم يحزن على مافاته منها .

دفع وهم

ثم اعلم أيها الذكى أن كثيرا من الناس يقرءون أمثال هذه الآيات ولا يفهمون المقصود منها ، فربما ترك الإنسان الحزم فى أمر والتفكير فيه والسعى فى طلبه فيفوته فيقول إنى توكلت على الله ، وهذا توكل لاقيمة له ، بل التوكل أن تعمل كل مايمكنك عمله ، وتكل ماعداه إلى الله ، وكم من مسلم يسمع حديث عوف ابن مالك ويظن أن هذا هو التوكل ، ولم يدر أن هذا قد انقطعت به الأسباب ، فلم يبق له إلا الالتجاء إلى رب الأرباب ، أما من عنده قدرة وعقل فعليه أن يسخرهما فى عمله مجدا ، ولايترك فرجة ولا خللا فى نظامه ويكل أمر النتيجة لربه ، فأما من ليست لديه حيلة فليس له إلا الرجوع بالقلب إلى الله ، فإذن التوكل للقادر علم وعمل وتوجه بالقلب إلى الله . فأما العاجز فليس له إلا الالتجاء بالقلب ، هذا تحقيق المقام ، فأكثر المسلمين يأخذ الأمور من وجه واحد وينسى ماعداه ، وهذا هو الذى قعد بالهمم ، وأمات الأمم ، فرجعت القهقرى ، قال تعالى (واللائى يئسن من المحيض من نسائكم) لكبرهن (إن ارتبتم) أى أشكل عليكم حكمهن وجهلتم كيف تكون عدتهن (فعدتهن ثلاثة أشهر) أى فهذا حكمهن ، وقيل : ان ارتبتم فى دم البالغات مبلغ اليأس أهو دم حيض أو استحاضة فعدتهن ثلاثة أشهر ، وإذا كانت هذه عدة المرتاب بها فغيرها أولى بذلك ، وقد قدر العلماء سن اليأس بستين سنة ، أو بخمس وخمسين سنة (واللائى لم يحضن) وهن الصغيرات فعدتهن ثلاثة أشهر ، فأما الشابة التى كانت تحيض فارتفع حيضها قبل بلوغ سن الآيسات فهذه تنتظر سن اليأس ثم تعتد بثلاثة أشهر إلا أن يعاودها الدم فتعتد بثلاثة أقراء ، وهذا مذهب أكثر العلماء ، وقال عمر رضى الله عنه : تتربص تسعة أشهر فإن لم تحض تعتد بثلاثة أشهر . وهذا قول مالك وما قبله قول الشافعى وعطاء وعثمان وغيرهم ، وقال الحسن : تتربص سنة فإن لم تحض تعتد بثلاثة أشهر ، وهذا كله فى الطلاق ، وأما المتوفى عنها زوجها فعدتها أربعة أشهر وعشر سواء أكانت ممن تحيض أو لاتحيض ، وأما الحامل فعدتها بوضع الحمل سواء أطلقها زوجها أومات عنها ، وهذا قوله تعالى (وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن) مطلقات كن أومتوفى عنهن أزواجهن (ومن يتق الله) فى أحكامه فيراعى حقوقها (يجعل له من أمره يسرا) يسهل عليه أمره ويوفقه للخير (ذلك) أى ماذكر من الأحكام (أمر الله أنزله إليكم ومن يتق الله) فى أحكامه فيراعى حقوقه (يكفر عنه سيئاته ويعظم له أجرا) بالمضاعفة (أسكنوهن من حيث سكنتم) أى بعض مكان سكناكم (من وجدكم) أى من سعتكم وطاقتكم ، فالموسر يوسع عليها فى المسكن والنفقة ، والفقير يفعل على قدر طاقته (ولاتضاروهن) لا تؤذوهن (لتضيقوا عليهن وإن كن أولات حمل فأنفقوا عليهن حتى يضعن حملهن) فيخرجن من العدة ، وهذه الآية أوجبت النفقة للحامل مدة الحمل ، والرجعية حكمها أنها لها النفقة والسكنى على الزوج مادامت فى العدة ، لأنها فى حكم الزوجة فلتبق فى البيت المملوك له والمؤجر ، وإلا فلها أجرة السكن . وأما البائن بالطلاق الثلاث ، أو بالخلع ، أو باللعان ، فلها السكنى حاملا وغير حامل ، وقيل لاسكنى لها إلا إذا كانت حاملا ، وهل لها نفقة ؟ قيل لانفقة لها إلا أن تكون حاملا ، وهو قول الحسن وابن عباس والشافعى وأحمد ، وقيل تجب بكل حال ، وهو قول ابن مسعود والنخعى والثورى وأصحاب الرأى ، فإذن أصحاب الرأى يجعلون السكنى والنفقة عامتين فى الجميع ، ثم قال تعالى (فإن أرضعن

لكم) بعد انقطاع علقة النكاح (فآتوهن أجورهن) على الإرضاع (وائتمروا بينكم بمعروف) أى ليقبل بعضكم من بعض إذا أمره بالمعروف ، أوليتراض الأب والأم على أجر مسمى ، فهو أمر للزوجين معا أن يأتوا بالمعروف وماهو الأحسن ، ولا يقصدوا الضرر ، وعلى ذلك لايقصر الرجل فى حق المرأة ونفقتها ، ولا المرأة فى حق الولد ورضاعه (وإن تعاسرتم) فى حق الولد وأجرة الرضاع فلم يعط الرجل الأم الأجرة ، ولم ترض الأم بإرضاعه فليس له إكراهها على الإرضاع ، إذن فليستأجر للصبى مرضعا غير أمه ، وهذا قوله تعالى (فسترضع له أخرى) أى امرأة أخرى (لينفق ذو سعة من سعته ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله) فلينفق كل من الموسر والمعسر ما بلغه وسعه (لا يكلف الله نفسا إلا ما آتاها) فإن الله لا يكلف نفسا إلا وسعها ، وهذا القول تطييب لقلب بالمعسرين الذين وعدهم باليسر فقال (سيجعل الله بعد عسر يسرا) عاجلا أو آجلا ، وهذه الآية وهو قوله تعالى : « لا يكلف الله نفسا إلا ما آتاها » تفتح بابا واسعا لمباحث العلوم والصناعات المذكورة فى (سورة البقرة) عند قوله تعالى: « لا يكلف الله نفسا إلا وسعها ، » فإذا رأيت القضاة يحكمون على زيد بمائة قرش فى الشهر للمرأة ، وعلى خالد بألفى قرش على حسب طاقتهما ، هكذا يجب على زيد من العلوم أو الصناعات مايطيقه ، وعلى خالد بأكثر أو بأقل ، وكما خلق الله فى الأمة الأغنياء والفقراء ، هكذا خلق فيها قدرا وطاقات مختلفات فى العلوم والصناعات فليمتحن التلاميذ فى العلوم التى يجب أن يعمم تعليمها ، وليجعل كل تلميذ فى العلم الخاص به ويتبحر فيه .

ولما كان هذا المعنى المذكور فى : « لا يكلف الله نفسا إلا ما آتاها » ينتقل من الفرد إلى الجماعة ، ومن مسألة الإنفاق على النساء إلى سائر فروع الحياة وكانت الأمة التى تهمل القدر والاستعداد كبعض المسلمين اليوم آيلة للخراب ، لأنها أهملت ما خلقه الله لها من العقول النيرة المخبوءة فى أجسام أبناء الفقراء وأبناء الأغنياء فلم تستخرج تلك المواهب ولم تستقص القوى والقدر التى خبأها الله فى أبنائها ، فضاعت سياستها ، وبارت أرضها ، وقلت حاصلاتها ، وضاع الفكر فيها ، وأصبحت طعمة لغيرها من الأمم كـكثير من أمم الشرق الآن ، لما كان الأمر كذلك أعقب ما تقدم سبحانه بقوله (وكأين من قرية) أى أهل قرية (عتت عن أمر ربها ورسله) أى أعرضت عنه إعراض العاتى المعاند فأهملت شئون أرضها وطبقاتها وجبالها ومعادنها وحاصلاتها وقوى الشبان فيها (فحاسبناها حسابا شديدا) أثبتنا ذنوبهم جميعها فى صحف الحفظة (وعذبناها عذابا نكرا) منكرا فى الدنيا بالذل والاستعباد مثلا (فذاقت وبال أمرها) أى عقوبة كفرها ومعاصيها (وكان عاقبة أمرها خسرا) لاربح فيه أصلا (أعد الله لهم عذابا شديدا) يوم القيامة (فاتقوا الله يا أولى الألباب) ياذوى العقول ، ثم نعتهم فقال (الذين آمنوا قد أنزل الله إليكم ذكرا) هو القرآن ، وأرسل إليكم (رسولا يتلو عليكم آيات الله مبينات) صفة لرسول ، ويصح أن يكون رسولا مبدلا من ذكر كأن الرسول نفس الذكر مبالغة (ليخرج الذين آمنوا وعملوا الصالحات من الظلمات إلى النور) أى ليخرج من علم سبحانه وقدر أنه يؤمن (ومن يؤمن بالله ويعمل صالحا يدخله جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا قد أحسن الله له رزقا) فى هذا القول تعظيم لما رزقوا من الثواب ، ثم إن هذه السورة مرجع أحكام شرعية ومناهج دينية ، وأدلة فقهية ، وفتاوى إسلامية ، وضعت لإقامة العدل ونهج الصراط السوى ، وذلك العدل على نهج العدل الذى فى السموات والأرض الجارى بين المشرقين والمغربين . وما أهل الأرض ولا أحكامهم ولا شرائعهم ولا دياناتهم إلا لمحة من نور العدل العام ، وقبسة من إشراقه ، وقبضة من نوره ، وزهرة من شجرته فلئن قضى القضاة على كراسى الحكم بين العباد ، وأعطوا زيدا مايجب على عمرو ، وقالوا للحامل عدتك وضع الحمل ، وللتى تحيض عدتك ثلاثة قروء ، فكم بين السموات والأرض من قضاء فى هذا الفضاء الصامت

لفظا

لفظا الناطق معنى ! فكم فى حكم بيننا نرى أثره ولا نسمع النطق بحكمه، نرى الشمس محكوما عليها أن تطلع من مواضع فى الشرق وتغرب فى أماكن فى الغرب لا تجاوزها فى دقائق وثوان لا تنفك عنها بحسب النظر الظاهرى وإن كانت الأرض هى الجارية ولكن الحكم لا يتغير ، ونرى الرياح قد حكم عليها والسحب مأمورة والأنهار جارية بالحكم المحتم عليها والمزارع يحكم عليها أن تكون فى زمن خاص ؛ فليس للقطن أن ينبت فى البلاد الباردة ، ولا أن يثمر فى زمن الشتاء ، ولا للنخل أن ينبت فى البلاد الباردة ، ولا أن يثمر إلا بعد عدد من السنين ، وقضى على المزارع أن تكون قصيرات الأعمار ، فيزرع القمح والذرة والشعير والعدس والفول وتحصد كلها بعد أشهر معدودات ، ولا تنمو إلا فى فصول خاصة ، كل ذلك حكم لمصلحة الناس فلو أن تلك المزارع لا تثمر إلا بعد سنين كالنخل لضاق الناس ذرعا فى الحياة ، ولقل سكان الكرة الأرضية هذه أحكام حكم بها الله ونتائجها سعادة الناس وراحتهم ، كما أن حكم القاضى بنفقة الحامل على المذاهب كلها وبنفقة غيرها على بعض المذاهب لمنفعة المطلقة ، فانظر أى الحكمين أكثر منفعة ؟ أحكم لمصلحة أشخاص مخصوصين متنازعين ، أم حكم لسعادة هؤلاء المتنازعين وغيرهم وغيرهم من كل أهل دين ونحلة ؟ بل كل حيوان ونبات على الأرض ، لذلك أعقب ما تقدم سبحانه بقوله (الله الذى خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن) أى وخلق مثلهن فى العدد من الأرض ، وهذا العدد ليس يقتضى الحصر ، فإذا قلت عندى جوادان تركب عليهما أنت وأخوك فليس يمنع أن يكون عندك ألف جواد وجواد ، هكذا هنا فقد قال علماء الفلك كما تقدم « إن أقل عدد ممكن من الأرضين الدائرة حول الشموس العظيمة التى نسميها نجوما لا يقل عن ثلثمائة مليون أرض » ، هذا فيما عرفه الناس ، وهذا القول من هؤلاء ظنى ، فلم يدع أحد أنه رأى أو قطع بشئ من ذلك ، اللهم إلا علماء الأرواح . فإنهم لما سألوها قالت : « عندنا كواكب آهلة بالسكان لا يحصى عددها وفيها سكان أنتم بالنسبة لهم كالنمل بالنسبة للإنسان » هذا معنى ماقالوا ، ارجع لما نقلته لك عن الأستاذ (ظاليلى) لما أحضرت روحه وسألوها ، وإياك أن تقول إنى أجزم بهذا القول ، بل أقول لكم : فكروا وادرسوا فالعلم علمكم والدين دينكم ، ولا يجوز أن تختص أوروبا بالبحث ونحن سنترك لكم الأرض ونمضى منها ونهاجر إلى الله متى جاء الأجل ، وقوله (يتنزل الأمر بينهن) أى يجرى أمر الله وقضاؤه بينهن ، وينفذ حكمه فيهن (لتعلموا أن الله على كل شىء قدير وأن الله قد أحاط بكل شىء علما) فالله خلق السموات والأرض وهن يتنزل الأمر بينهن لندرس هذه العوالم ونعقلها ، فنعلم عموم القدرة والعلم فيهما ، ولا يتم ذلك إلا إذا كانت دراستنا لتلك العوالم كدراسة الفقهاء لعلم الفقه ، إن الفقيه لا قدرة له على إصدار الأحكام ، والقاضى ليس بقادر أن يصدر حكما ، والمفتى لا يستخرج الأحكام من الدين إلا بعد دراسة تامة ، هكذا لا يعرف سعة علم الله وقدرته ، ولا يفرح بنظام السموات إلا من أضاع العمر فى مباحث العلوم الفلكية والطبيعية ، وقد تضمن هذا التفسير حظا عظيما من تلك المباحث .

انتهى تفسير سورة الطلاق ، والحمد لله رب العالمين .

تفسير سورة التحريم

هي مدنية

آياتها ١٢ – نزلت بعد الحجرات

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ * قَدْ فَرَضَ اللهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ * وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ * إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ * عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللهِ تَوْبَةً نَصُوحًا عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ * ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ * وَضَرَبَ اللهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ

ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ * وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ *

هذه السورة قسمان

القسم الأول في نساء النبي صلى الله عليه وسلم ، وحلف النبي صلى الله عليه وسلم ألا يشرب العسل إرضاء لبعضهن ، وفي اطلاع الله على ماأفشين من سر أمرهن بكتمه وما يتبع ذلك من أول السورة إلى قوله : « ومأواهم جهنم وبئس المصير » .

القسم الثاني ضرب مثل لذلك بامرأة نوح وامرأة لوط عليهما السلام من قوله تعالى : « ضرب الله مثلا للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما » إلى آخر السورة .

مقدمة في مناسبة هذه السورة لما قبلها

سورة الطلاق كلها في حسن المعاشرة مع النساء والقيام بحقوقهن . وهذه السورة فيما حصل منهن مع النبي صلى الله عليه وسلم تعليما لأمته ، وأن يحذروا أمر النساء ، وأن يعاملوهن بالسياسة اللطيفة كما عاملهن صلى الله عليه وسلم بذلك وينصحوهن نصحا مؤثرا .

أسباب نزول هذه الآيات ماجاء في البخاري ومسلم من حديث عائشة رضي الله عنها ، قالت : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحب الحلواء والعسل ، وكان إذا انصرف من العصر دخل على نسائه ، وكان يمكث عند زينب بنت جحش ، فيشرب عندها عسلا ، فتواطأت أنا وحفصة أن أيتنا دخل النبي صلى الله عليه وسلم عليها فلتقل له إني أجد منك ريح مغافير أكلت مغافير ، فدخل على إحداهما ، فقالت ذلك له ، فقال بل شربت عسلا عند زينب بنت جحش ولن أعود » . والمغافير صمغ حلوله رائحة كريهة ينضجه شجر يقال له العرفط يكون بالحجاز .

وقد كانت عائشة وحفصة متصافيتين متظاهرتين على سائر أزواج النبي صلى الله عليه وسلم ، ويقال إن التي دخل عليها النبي صلى الله عليه وسلم وحرم على نفسه العسل أمامها هي حفصة ، فأخبرت عائشة بذلك مع أن النبي صلى الله عليه وسلم استكتمها الخبر كما استكتمها ماأسرها به من الحديث الذي يسرها ويسر عائشة إذ قال لها لاتخبري أحدا ، وذلك الحديث أنه قال : « إن أباك وأبا عائشة يكونان خليفتين على أمتي من بعدي » ، فصار السر لها بأمرين : بتحريم العسل الذي كان يبقيه عند زينب بنت جحش ، وبأمر الخلافة اهـ .

هذا ملخص ماجاء في الأحاديث ، وفي الروايات تناقض يسير ، ولكني استخلصت الزبد المتفق مع سير الآية ، وهناك روايات أخرى مثل كون التي شرب عندها العسل هي حفصة ، ومثل كون التحريم إنما كان لمارية القبطية لا للعسل ، لأن مارية القبطية كان صلى الله عليه وسلم دخل معها في بيت حفصة فغضبت حفصة لذلك فأرضاها بما تقدم ، فلندع ذلك الاختلاف ولنسر في التفسير على وجه واحد ، لأن قصة مارية لم تأت من طريق صحيح ، وكون المتظاهرتين حفصة وعائشة هو من حديث لابن عباس المروي في الصحيحين ، ولنشرع الآن في تفسير السورة فنقول ومن الله التوفيق :

التفسير اللفظى

بسم الله الرحمن الرحيم

(يأيها النبى لم تحرم) من شرب العسل (ما أحل الله لك تبتغى مرضاة أزواجك) أى حال كونك تبتغى (والله غفور) لك تحريم ما أحل لك (رحيم) رحمك حيث لم يؤاخذك (قد فرض الله لكم تحلة أيمانكم) أى قدر الله لكم ما تحللون به أيمانكم ، وهى الكفارة المذكورة فى سورة المائدة ، فيقال إن النبى صلى الله عليه وسلم لما قالت له حفصة أكلت مغافير وقال لها كما قال لعائشة : سقتنى زينب شربة عسل قالت : جرست نحله العرفط : أى أكلته فصار منه العسل ، حينئذ حلف ألا يشربه ، فعوتب على ذلك ، أو شرع الله لكم الاستثناء فى أيمانكم ، يقال حلل فلان فى يمينه إذا استثنى فيها ، وذلك أن يقول إن شاء الله عقبها حتى لا يحنث ، ويقال : إن تحريم الحلال يمين عند بعض الأئمة ، فسواء أكان صلى الله عليه وسلم حلف فعلا فكفر ، أو مجرد تحريم الحلال يمين فيكفر عنه فالأمر ظاهر ، لأن الكفارة مشروعة ، وما بعدها أخذ به بعض الأئمة ، والاستثناء فى اليمين مشروع ، وقوله (والله مولاكم) متولى أموركم (وهو العليم) بما يصلحكم (الحكيم) المتقن فى أفعاله وأحكامه (وإذ أسر النبى إلى بعض أزواجه) وهى حفصة (حديثا) تحريم العسل ، ومسئلة الخلافة المذكورتين (فلما نبأت به) فلما أخبرت حفصة عائشة رضى الله عنهما بالحديث (وأظهره الله عليه) وأطلع النبى صلى الله عليه وسلم على افشائه الذى يحزن قلب زينب إذا علمته ، إذ ينكسر قلبها لما ترى من أن إحدى أزواجه صلى الله عليه وسلم قدرت أن تحتال حتى حلف ألا يشرب العسل فى بيتها ، وذلك نكاية لها وألم عظيم ، وفى إفشاء أمر الخلافة خلل فى سياسة الأمة وتفريق لجامعتها ، إذ يحصل التنافر والشقاق قبل وفاة النبى صلى الله عليه وسلم على الخلافة كما حصل بعد وفاته ، وفى هذا تعجيل لما لا تحمد عقباه وجواب لما قوله (عرف بعضه) أى عرف صلى الله عليه وسلم حفصة بعض ما أفشت من السر (وأعرض عن بعض) أى عن إعلام بعض ، كأن يذكر لها إفشاء مسألة تحريم العسل ويترك مسألة الخلافة لئلا تهلع وتحزن على إفشائه أشد من الحزن على إفشاء مسألة العسل مثلا أو العكس (فلما نبأها به قالت من أنبأك هذا قال نبأنى العليم الخبير) أى العليم بما تكنه الضمائر ومخفيات الأمور ، ثم خاطب حفصة وعائشة فقال (إن تتوبا إلى الله) فقد وجد منكما ما يوجب التوبة ، وهو ميل قلوبكما عن الواجب من امتحان حضرة الرسول صلى الله عليه وسلم بحب ما يحبه وكراهة ما يكرهه ، وهذا قوله (فقد صغت قلوبكما وإن تظاهرا عليه) أى وإن تظاهرا عليه بما يسوءه (فإن الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين) فهؤلاء جميعا ينصرونه (والملائكة بعد ذلك ظهير) متظاهرون ، أو فوج مظاهر له ، وإنما ذلك كله لعظم أمر إفشاء السر ، لاسيما فى مسألة السياسة ، فانه ربما أزال دولة بتمامها بالثورات والفتن (عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجا خيرا منكن مسلمات مؤمنات) منقادات مصدقات (قانتات) مواظبات على الطاعات (تائبات) عن الذنوب (عابدات) متعبدات (سائحات) صائمات : إذ الصائم يسيح فى النهار بلا زاد (ثيبات وأبكارا) أى عذارى جمع بكر ، يقال إنه صلى الله عليه وسلم غضب من إفشاء سره وجازى حفصة بأن طلقها فجاءه جبريل وأمره بمراجعتها ، وقيل لا بل هم بطلاقها ، فقال له جبريل لا تطلقها فانها صوامة قوامة ، وإنها من نسائك فى الجنة . ولما كان هذا القول خاصا بأمر النبى صلى الله عليه وسلم وأزواجه أردفه بخطاب عام فقال : (يأيها الذين آمنوا قوا أنفسكم) بترك المعاصى وفعل الطاعات (وأهليكم) بالنصح والتأديب (نارا وقودها الناس والحجارة) أى نارا تتقد بهما اتقاد غيرها بالحطب (عليها ملائكة) تلى أمرها وهم الزبانية (غلاظ

شداد) غلاظ الأقوال شداد الأفعال (لايعصون الله ما أمرهم) فيما مضى (ويفعلون مايؤمرون) فيما يستقبل فليتق الله الناس ، وليتركوا المعاصى ، وليؤدبوا نساءهم ، وينهوهن عما لايحل ، فرب امرأة أفشت سرا فأهلكت أمة بتمامها ، وأوقدت فيها نار الفتنة ، فحاذروا أن تعطوا سركم إليهن ، فإذا كان الله عصمنى أن يذيع سرى وأطلعنى عليه فليس يتفق لكم ذلك ، فليكتم المرء سره لئلا تفسد امرأته عليه أمره ، وتنغص عيشه ، وتصبح حياة المرء فى قلق ونغص وهكذا لتكن المرأة صالحة ، وإلا كانت الحياة لاتطاق بين الزوجين وتفوت على أهل المنزل المصالح المادية والمعنوية فيكون الفوت ثم الموت ، فيجد الزوجان أنهما أضاعا حياتهما فلا يكون لهما جزاء إلا جهنم ، لأن الناقص فى أخلاقه وأعماله ليس له إلا ذلك « ومن كان فى هـذه أعمى فهو فى الآخرة أعمى وأضل سبيلا » .

واعلم أن الحياة المنزلية هى أس الحياة العمرانية ، ومن لم ينظم أهل بيته فهو عن تدبير أمر الدولة أعجز فلم يستعن صلى الله عليه وسلم على امرأتين من نسائه بالله وجبريل والملائكة والمؤمنين إلا لما فى أمر تدبير المنزل وحياته من الأهمية ، ولم يذكر جهنم وزبانيتها إلا لما فى ذلك من سر حياة الأمة ، فالأمة مركبة من أسرات ، والأسرات إذا كانت حياتها على غير أساس لحياة المجموع كذلك ، لأن الأمة ماهى ، إلا أفرادها وهى فرد مكرر ، والفرد إذا كانت سياسته فى الداخل غير منتظمة فقد ضاعت دولته ، هذا هو السر فى ذكر الله والملائكة ، وذكر جهنم ونارها وحجارتها .

أمر الله المسلمين أن يقوا أنفسهم وأهليهم نارا ، فنار يوم القيامة مما جنيناه فى الدنيا ، وهو فى هذا المقام تنغيص العيش ، وضياع أمر الأسرة ، والشقاق والنزاع المتوالى ، وفى قوله : « لايعصون الله ما أمرهم » إشارة إلى أن الأسرة إذا كانت مفككة الأوصال غير مجتمعة الرأى لاتطيع المرأة زوجها ولا الولد أباه كانت سائرة على نهج يخالف نظام الله الذى نظم السموات والأرض وجعلهما مرتبطين ، وجعل ملائكته طوع أمره : « ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسـه » وذلك هو الموجب لجهنم ، إن نار جهنم فى هذا المقام لم تخرج عن كونها نتيجة المنافرات والمشاجرات والأكدار والتنغيص المحرقات للقلوب فى الدنيا ، فاذا مات الناس دخلوا فى جنس ما كانوا فيه فى الدنيا ، فهل جزاء السيئات إلا السيئات ؟ قوم كانوا فى نزاع دائم وقلوبهم لم تعرف فى الدنيا إلا المشاجرات والشتائم ، فأين يذهبون إلا المدارس التى استعدوا لها فى الدنيا ، وهى مدارس نارية محرقة ، فقد أحرقت القلوب فى الحياة بتنغيصهم ، فأحرقت الأجساد والقلوب معا بعد الموت جزاء وفاقا ، ليكون ذلك طهارة لهم إن كانوا مؤمنين ، فأما الذين كفروا فيقال لهم (ياأيها الذين كفروا لاتعتذروا اليوم) وذلك حين يعاينون النار (إنما تجزون ما كنتم تعملون) فإن أعمالكم السيئة ألزمتكم العذاب ، فإن الجهالة والعناد وإنكار الحق قد وضعت على قلوبكم حجابا فى الدنيا ، فلما متم حجبتم عن الجمال المطلق كما يعذب المؤمنون بفعل المعاصى كترك تأديب زوجاتهم ، وكفساد نظام الأسرات المترتب على ذلك ، ولذلك قال تعالى لهم : (ياأيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحا) بالغة ، أوذات نصح تنصح صاحبها بترك العود إلى الذنب . والتوبة النصوح تجمعها ستة أشياء :

(١) على الماضى من الذنوب الندامة .

(٢) وللفرائض الإعادة .

(٣) ورد المظالم .

(٤) واستحلال الخصوم .

(٥) وأن تعزم على ألا تعود .

(٦) وأن تربى نفسك فى طاعة الله كما ربيتها فى معصيته :

ثم قال تعالى (عسى ربكم أن يكفر عنكم سيئاتكم ويدخلكم جنات تجرى من تحتها الأنهار) وفى ذكر عسى إطماع جريا على عادة الملوك، وقوله (يوم لايخزى الله النبى والذين آمنوا معه) متعلق بيدخلكم، وفيه تعريض بأن المناوئين لهم يخزون، حال كونهم (نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم) على الصراط (يقولون) إذا أطفئ نور المنافقين الذين — مثلهم كمثل الذى استوقد نارا فلما أضاءت ماحوله ذهب الله بنورهم وتركهم فى ظلمات لايبصرون — (ربنا أتمم لنا نورنا واغفر لنا إنك على كل شىء قدير) ولا جرم أن الأنوار على مقتضى الأعمال فيسألون إتمامها (ياأيها النبى جاهد الكفار) بالسيف (والمنافقين) بالحجة والزجر والوعيد (واغلظ عليهم) واشدد على الفريقين بالقول والفعل (ومأواهم) مصير المنافقين والكافرين (جهنم وبئس المصير) جهنم. ولما كانت هذه السورة مسوقة لأزواج النبى صلى الله عليه وسلم، وأعقب ذلك أن أمر المؤمنين أن ينصحوا زوجاتهم ويؤدبوا أنفسهم وهددهم بالنار، ثم أتى بنصائح عامة أعقبه بما يفيد أن الرجل ليس عليه إلا ماأمر به، والمرأة ليس عليها إلا ماأمرت به، فإذا خالفت المرأة الرجل بعد نصحها وأذنبت، وكان الرجل فاسقا والمرأة صالحة فلاذنب إلا على المذنب منهما وليس على الآخر من سبيل، وبين ذلك بمثلين: مثل للمرأة الفاسقة التى صلح زوجها، ومثل للمرأة الصالحة التى كفر زوجها، فكل عليه وزره، ولايحمل من إثم صاحبه شيئا مادام قائما بما عليه خير قيام، فقال تعالى (ضرب الله مثلا) بين الله صفة (للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما فلم يغنيا عنهما) أى لم يدفعا عنهما (من الله شيئا وقيل ادخلا النار مع الداخلين) فهاتان المرأتان لما خانتا الرسولين أدخلتا النار ولم ينفعهما صلتهما بالنبيين، بل ذاقتا وبال أمرهما: هكذا هؤلاء الكفار يعاقبون على معاداتهم للمؤمنين بلا محاباة ولاينفعهم مابينهم وبين المؤمنين من النسب والمصاهرة، ولو كان الذى يتصل به الكافر نبيا، كما لم ينفع المرأتين لما خانتا الرسولين أنهما زوجتاهما فعذبتا على خيانتهما وإفشائهما أسرارهما، فدخلت المرأتان النار مع سائر الداخلين، إذ لافرق بين الشريف والصعلوك فى العقوبة، فهى لاتترك أزواج الأنبياء كما لا تذر أزواج العصاة والعصاة جميعا (وضرب الله مثلا للذين آمنوا امرأة فرعون) وهى آسية بنت مزاحم، فقد آمنت لما غلب موسى عليه السلام السحرة، فلما علم فرعون بإيمانها عذبها فصرف الله العذاب عنها، شبه حال المؤمنين فى أن اتصالهم بالكافرين لايضرهم بحال آسية، فهى مرضية عند الله، مع أنها متصلة بمن ادعى الألوهية، اذكر (إذ قالت) وهى تعذب (رب ابن لى عندك بيتا فى الجنة) قريبا من رحمتك، أو فى أعلى درجات المقربين (ونجنى من فرعون وعمله) من نفسه الخبيثة وعمله السيء (ونجنى من القوم الظالمين) من القبط التابعين له فى الظلم، ثم عطف على امرأة فرعون قوله (ومريم ابنت عمران) التى لازوج لها فليتسل بها الأرامل، ففضل الله يسع المزوجات واللاتى لاأزواج لهن، ثم وصف مريم فقال (التى أحصنت فرجها) حفظت فرجها من الرجل (فنفخنا فيه) فى فرجها (من روحنا) من روح خلقناه بلا توسط أصل (وصدقت بكلمات ربها) بالشرائع التى شرعها الله لعباده بكلماته المنزلة على أنبيائه (وكتبه) الكتب المنزلة على الأنبياء (وكانت من القانتين) المطيعين، وهم رهطها وعشيرتها، لأنهم كانوا أهل بيت وصلاح.

انتهى التفسير اللفظى للسورة كلها، والحمد لله رب العالمين.

خاتمة لتفسير هذه السورة

وازن أيها الذكى بين أول السورة وآخرها تجد المعنى متسقا، فإذا تظاهر على النبى صلى الله عليه وسلم امرأتان فهاهماتان امرأتان: امرأة نوح، وامرأة لوط تظاهرتا على عبدين صالحين وهما زوجاهما، فإذا

حل

حل بهما؟ أدخلتا النار ، ولم ينفعهما اتصالها بالنبيين ، وهذا المثل وما بعده لم يجعلا للزوجات فحسب ، بل عمم الأمر لكل امرأة عاصية أو كافرة اتصلت بمؤمن ، ولكل امرأة صالحة أو رجل صالح اتصل بكافر ، فهو فى معنى : « لن تنفعكم أرحامكم ولا أولادكم يوم القيامة يفصل بينكم » ، وبهذا تم الكلام على (سورة التحريم) والحمد لله رب العالمين . كتب يوم الأحد ٢٣ ذى الحجة سنة ١٣٤٣ هجرية ــ الموافق ١٤ يوليو سنة ١٩٢٥ م .

تفسير سورة الملك

هى مكية

آياتها ٣٠ ــ نزلت بعد الطور

بسم الله الرحمن الرحيم

تَبَارَكَ الَّذِى بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ * الَّذِى خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ * الَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمٰوَاتٍ طِبَاقاً مَا تَرَى فِى خَلْقِ الرَّحْمٰنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ * ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئاً وَهُوَ حَسِيرٌ * وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُوماً لِلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ * وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ * إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقاً وَهِىَ تَفُورُ * تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ * قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللهُ مِنْ شَىْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ فِى ضَلَالٍ كَبِيرٍ * وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِى أَصْحَابِ السَّعِيرِ * فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ فَسُحْقاً لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ * إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ * وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ * أَلاَ يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ * هُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ * ءَأَمِنْتُمْ

مَنْ فى السَّماءِ أنْ يَخسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فإذا هِيَ تَمُورُ * أمْ أمِنتُمْ مَنْ فِي السَّماءِ أنْ يُرسِلَ عَلَيْكُمْ حاصِباً فَستَعلَمُونَ كيفَ نذيرِ * وَلقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبلِهِمْ فَكيفَ كانَ نَكيرِ * أوَلَمْ يَرَوْا إلى الطَّيرِ فَوْقَهُمْ صافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ ما يُمْسِكُهُنَّ إلاَّ الرَّحْمٰنُ إنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ * أمَّنْ هٰذا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَكُمْ يَنصُرُكُمْ مِنْ دُونِ الرَّحْمٰنِ إنِ الْكافِرُونَ إلاَّ فِي غُرُورٍ * أمَّنْ هٰذا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إنْ أمْسَكَ رِزْقَهُ بَلْ لَجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ * أفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أهْدَى أمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ * قُلْ هُوَ الَّذِي أنشأكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأبْصارَ وَالْأفْئِدَةَ قَلِيلاً ما تَشْكُرُونَ * قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأكُمْ فِي الْأرْضِ وَإلَيْهِ تُحْشَرُونَ * وَيَقُولُونَ مَتَى هٰذا الْوَعْدُ إنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ * قُلْ إنَّما الْعِلْمُ عِنْدَ اللهِ وَإنَّما أنا نَذِيرٌ مُبِينٌ * فَلَمَّا رَأوْهُ زُلْفَةً سِيئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَقِيلَ هٰذا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَدَّعُونَ * قُلْ أرَأيْتُمْ إنْ أهْلَكَنِيَ اللهُ وَمَنْ مَعِيَ أوْ رَحِمَنا فَمَنْ يُجِيرُ الْكافِرِينَ مِنْ عَذابٍ ألِيمٍ * قُلْ هُوَ الرَّحْمٰنُ آمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ * قُلْ أرَأيْتُمْ إنْ أصْبَحَ ماؤُكُمْ غَوْراً فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِماءٍ مَعِينٍ *

هذه السورة تشتمل على وصف السموات ، وأن نظام هذا العالم لا عوج فيه ولا اختلاف ، وعلى وصف عذاب الكافرين فى الدنيا والآخرة ، وتخلل ذلك تذكير الإنسان بخلقه ورزقه وما أشبه ذلك .

إن الكلام على هذه السورة ينحصر فى (ثلاثة أقسام : القسم الأول) فى تفسير البسملة : أى ما ذكر فيها من الرحمتين مع جميع الرحمات العشرين اللواتى فى البسامل التى فى السور العشر التابعات لها إلى سورة المرسلات (القسم الثانى) فى التفسير اللفظى للسورة كلها (القسم الثالث) فى اللطائف :

القسم الأول

فى الكلام على الرحمتين المذكورتين فى البسملة هنا مع جميع الرحمات فى السور العشر التى بعدها

لما كانت الرحمتان المذكورتان فى البسملة هنا فى (سورة الملك) تقدم الكلام عليهما فى أول (سورة المجادلة) وجب أن نحصر الكلام الآن فى الرحمات العشرين المذكورات فى السور العشر التى تليها من أول (سورة القلم) إلى (سورة المرسلات) فنقول :

إن الرحمات فى هذه السورة موجهات إلى تخلية الأمم من الرذائل وتحليتها بالفضائل، ألا ترى أن العذاب الشديد والإنذار للناس فى هذه السور يقصد به الإقلاع عن الآراء الشريرة ، والأعمال الخبيثة ، فلذلك تجد هذه السورة مشحونة بالكلام على إهلاك الأمم فى الحياة الدنيا، وعلى عذاب الآخرة ، فهاهنا وجهت الرحمات إلى الإنذار وبه يتخلى الناس عن رذائلهم ، فلا تحلية بالفضائل إلا بعد التخلية من الرذائل ، فأما التحلية بالفضائل فذلك ماجاء فى غضون هذه السور من أخلاق نوح وصبره على قومه سنين وسنين ، وما أبدع فى الدعوة من شرح العوالم العلوية والسفلية ، فهذه فضائل فى الأنبياء تحلوا بها ، وهكذا نبينا صلى الله عليه وسلم الذى نودى مرة بصفة المدثر فى ثيابه والمزمل ، فهذه نفوس كاملة تحلت بصفات الجمال وناجت ربها فى دياجى الظلمات ، وعرفت أخبار الأرواح الناقصة المسميات بالجن تريد تكميلها كما عرفت النفوس الكاملة فى ذاتها اللاتى هى ملقيات ذكرا ، فهذه النفوس الكاملة القائمة بذلك ذكرت فى مقابلة الناقصة المتردية فى هاوية الهلاك ، وهؤلاء الكاملون يدعون الناقصين ليلحقوا بهم فى الكمال ، وهناك نفوس متوسطة ، وهى النفوس اللوامة ، ولكن لها فضلها فى الجهاد ، وهناك نفوس أخرى كملت أخلاقها فقيل لها : « يوفون بالنذر ويخافون يوما كان شره مستطيرا » ، وهناك نفوس مفارقة للمادة ، وهى التى عبر عنها بالملقيات ذكرا للاعذار وللانذار ، فهذه مجامع ما فى هذه السور من الرحمات ، إن الإنذار بالإهلاك والتدمير والعذاب الأليم رحمة ليتخلى الانسان بذلك عن الرذائل خوفا من نتائجها ، وهكذا معرفة أخلاق النفوس الكاملة (المتوجهة لربها فى ظلمات الليالى ، وهى تدعوه وتناجيه وتسهر على إسعاد غيرها) تدعو حثيثا إلى الاقتداء بها ، فتتوجه لخالقها ، وتدعوه ليساعدها فى ارتقائها وفى انتشال غيرها من أوحال المادة ورذائل الأخلاق .

هذه مجمل الرحمات فى هذه السور إلى آخر (سورة المرسلات) فلنبدأ فى تفصيلها سورة سورة فنقول ومن الله التوفيق :

الرحمات فى سورة القلم

أقسم الله فيها بالقلم دلالة على شريف منزلته ، وعظيم قدره ، إن رحمة الله بالأقلام وفن الكتابة ونشر الصحف واتساع نطاق المعارف رحمة عامة تضاهى فى عمومها إشراق الكواكب والشموس وضياءها الأرجاء ، وإذا أقسم الله بالقلم فقد أقسم بالشمس وبالقمر وبالنجم ، ولكن نعمة القلم أعلى منزلة وأشرف وأكمل ألا ترى رعاك الله أن العلم وحده الذى يرفع الأرواح إلى العلى ، بالعلم الهداية ورقى النفس إلى الكمال ، وبدون العلم الذى لا قيام له إلا بدولة القلم والإنشاء لا كمال لهذه النفوس ، تلك النفوس التى أنزلت إلى الأرض وعاشت بالأضواء المشرقة من الشمس والقمر والكواكب فالكواكب السماوية المشرقات على الأرض كأنهن أظارير بين النفوس الإنسانية تربية أولية ، ولكن نفوس الأنبياء والأقلام التى تكتب ما يقولون ، والأقاويل الحسنة هى المكملات لهذه النفوس ، فالكواكب والأقمار والنجوم مقدمات ، والأنبياء والعلماء نهايات ، جل الله وجل العلم ، سيأتى القسم بالشمس ، وتقدم القسم بالنجم وبالقمر ، والقسم بالقلم جاء فى الوسط بينهما ، إن أمة الإسلام ، وإن كانت اليوم ضعيفة القوة ، فهى هى الأمة التى كانت سببا فى انتشار التعليم بين الأمم كلها فى أوروبا وفى الشرق الأقصى ، العلم قد ملأ الأقطار ، ولكنه فى القرون الماضية قد تخطى أمة الإسلام ، وأحاط بها من الشرق والغرب ، كأنه يقال لهم : أيتها الأمم الإسلامية : أقسم ربكم بالقلم وبالقلم علمتم الأمم ، وبالقلم تعلمت الأمم ، إن هذه الأمة اليوم أخذت تتعلم وستقود الأمم إلى الفلاح ، لأنها أمة وسط ، وهم شهداء على الناس ، ولن يكونوا شهداء على الناس بحق وصدق إلا بتعميم العلم الذى أقسم

الله بالقلم الذى يسطره ، إن رحمة الله عز وجل قد ظهرت نتائجها التى لا حصر لها فى نشر العلم فى العالم كله بالقلم بعد الرسالة المحمدية التى كانت سببا فى بث هذه الروح فى الأمم ، وأى رحمة أعظم من هذه ، وهى التى لا رحمة توازيها فى كوكب ولا شمس ولا قمر وقد ظهرت على يديه صلى الله عليه وسلم والأجر سيكون على مقدار ذلك الإنتشار ، فإن نعيم الإنسان على مقدار آثاره بين الأمم ، وهل يكون الفضل منتشرا لا مرئ إلا على مقدار ماله من الفضائل رحمة عامة بالعرفان ناجمة من الاتصاف بأخلاق حسان ، فهل صاحب هذه الفضائل والعوارف ينسب له الجنون كلا . بل إنه جاء ليكمل النفوس الناقصة اللاتى لا تعرف إلا المداهنة ورذائل الأخلاق ، ولذلك أمر بالصبر على تكذيب المكذبين ، وحكم عليه ألا يقف فى الفضائل دون الغايات ، فإذا رأى نبيا من الأنبياء كيونس عليه السلام الذى لولا أن تداركه نعمة من ربه لنبذ بالعراء وهو مذموم فاجتباه ربه فجعله من الصالحين ، فإنه يصدع بما أمر به ويصبر لحكم ربه ولا يكون كصاحب الحوت إذ نادى وهو مكظوم ، إذن رحمة الله تعالى تجلت واضحة لرسوله صلى الله عليه وسلم فى أخلاقه وعوارفه ، فهو صبور كما أمره الله ، ومن الرحمات فى هذه السورة تبيان نتائج البخل الحاصل من أصحاب الجنة ، وكيف كان هذا الشح سببا فى إبادتها وإهلاكها ، وكيف كانت التوبة عليهم نعمة وفيها بيان الفرق بين المتقين والمجرمين اهـ

(سورة الحاقة) — إن سورة الحاقة أشبه بتفصيل لما أجمل فى (سورة القلم) فالرحمات فيها مفصلة لبعض ما أجمل فى تلك ، ففى سورة القلم جعل الناس فريقين : فريق مجرمون ، وفريق مسلمون ، ولكل جزاءه ، وفيها أصحاب الجنة وأشحاؤها الذين لا يراعون الأخوة العامة ، وإنما يريدون اتباع شح نفوسهم ، فهؤلاء ذاقوا عذاب الدنيا بإبادة أشجارها وأثمارها ، ولهذه المناسبة ذكر عذاب الآخرة وأنه أكبر ، فهاهنا جاء ذكر العذابين ، فثمود وعاد وفرعون وقوم نوح هلكوا ؛ وسيهلك العالم كله يوم القيامة ، فهاهنا تفصيل أتم للهلاك ، ففى سورة القلم هلكت جنة بشح أهلها ، وهاهنا ذكر هلاك أمم بل زوال الأرض وما عليها ، وتبع هذا ذكر ما سيلاقيه الفريقان من عيشة راضية وعيشة ليس فيها طعام إلا من غسلين ، كل هذا من الرحمات الواسعة ، فذكر العذاب فى الدارين يوجه النفوس إلى الأعمال الشريفة التى تؤدى إلى النعيم .

(سورة المعارج) — ويقرب من ذلك وصف أوسع فى (سورة المعارج) ، أفلا تعجب معى كيف أبان سبب ذلك كله . الله أكبر : إن الجنة والنار خلقتا لأجل هذه النفوس ، هذه النفوس المسكينة المخلوقة فى أرضنا المحبوسة فيها قد جعلت بهيئة محزنة ، كيف لا وهى التى إذا مسها الشر جزعت ، وإذا مسها الخير منعت هذا هو السر الأكبر فى هذا الإنسان، الإنسان فى عمومه أشبه بالطفل يبكى لأدنى شىء ، وإذا أعطى المال بخل به كأنه يظن أنه مخلوق وحده والناس مسخرون جميعا له وقد عمى عن هذا الجمال الرائع فى السموات والأرض والأنهار ، والجمال الذى به ينتفع البار والفاجر ، جهل هذا الإنسان المسكين أنه يشترك مع جميع نوع الإنسان فى المنافع ، فإذا لم يفكر إلا فى نفسه ، فهذا هو المبدأ الأول لإذلاله وشقائه ، فأصحاب الجنة بادت أشجارهم فيها ، لأنهم لم يفكروا فى غيرهم من الناس . فهذا أشبه بذكر السبب الذى به عوقبوا بذلك ، لأنهم منعوا الخير عن الناس ﴿ وبعبارة أخرى ﴾ إن الإنسان خلق ليعلم ، ومن أجل الأعمال اتجاه النفس للمنفعة العامة عموم الأنوار وعموم المنافع القلبية العلمية بين الأمم ، ومن أجل الرحمات فى هذه السورة تلك الصفات الشريفة التى بها يصقل الإنسان نفسه فتضىء وتشرق بعد إظلامها بحب النفس ، [وبعبارة أخرى أيضا] إن النفس فى أول أمرها تميل إلى أن تختص بكل نعمة ولا تفكر فى غيرها كما قدمنا ، وعليها وحدها بإغاثة الله أن تصقل بصقال الكمال فتصير مهذبة ، وذلك بالعبادات وإنفاق المال فى وجوهه ، فتكون للانسان فى حياته وجهات ثلاثة ، وجهة إلى نفسه يكملها ؛ ووجهة إلى ربه ليعبده ،

ووجهة

ووجهة إلى الناس فيكون نافعا لهم . فأما تكميل نفسه فذلك بالأخلاق الفاضلة كحفظ الأمانة ، والصدق فى الوعد والعهد ، وإليه الإشارة بقوله : « والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون » . وأما توجهه إلى ربه فذلك بنحو الصلوات ، وإليه الإشارة بقوله : « إلا المصلين الذين هم على صلاتهم دائمون » . وأما وجهته إلى الناس ، فذلك أنه يمد يد المساعدة لهم ، وإليه الإشارة بقوله : « والذين فى أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم» إذن أعظم أسرار هذه السورة أنها كشفت القناع عن سر الأسرار ، وهو هذه النفس ، وأبانت أنها ناقصة ، ولن يخرجها من هذا النقص إلا تهذيبها باجتهاد الإنسان وجده هو بنفسه والمثابرة على الصبر على الأعمال الشريفة وعن الشهوات ، وذلك تفصيل لما أجمل فى آخر (سورة القلم) من قوله تعالى : « فاصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب الحوت إذ نادى وهو مكظوم » والحياة لا كمال فيها إلا بالصبر ، ومن الصبر ما أسبغ عليه صلى الله عليه وسلم إذ كان الذين كفروا عن يمين وشمال يؤذونه فصبر ففاز ، هكذا كل امرئ فى الدنيا لا سعادة ولا فوز له إلا بالصبر على تحمل الشاق فى أمر تهذيب نفسه وتكميل غيره هذا من أسرار تسمية هذه السورة بالمعارج ، إذ لا عروج ولا صعود إلا باستخراج ما كمن فى النفوس من الكمال والجمال ولن يتم ذلك إلا بصفائها من الأدران والأخلاق الناقصة ، فهى إنما تعرج من حال نقصها المعبر عنه بقوله تعالى : « إن الإنسان خلق هلوعا » إلى كمالها بالآداب التى شرحناها هنا ، وهى مأخوذة من آيات السورة.

(سورة نوح) — ويتلو ذلك فى وضوح الرحمة إنذار نوح عليه السلام لقومه ، وكيف هلكوا بعد أن أنذرهم فلم يسمعوا ، ولكن فى هذه السورة اتضح جمال النفوس وبهاؤها ، ففى التى قبلها شرح الله كيف يكون معراج النفس من خستها ، وفى هذه السورة أبان كيف تلبس تاج العرفان . وكمال الإنسان كمالان : كمال علمى ، وكمال أدبى ، فالكمال الأدبى تقدم فى السورة قبلها إذ يصف قوما بأنهم ينفقون من أموالهم ، وبأنهم حافظون فروجهم الخ . وهاهنا ذكر الكمال العلمى بطريق شيق ، إذ ذكر خلق السموات وإنارة القمر فيها ، وإشراق الشمس . وذكر النبات بعد أن ذكر التوبة والاستغفار . فهو لم يطل القول فى الكمال الأدبى لأنه تقدم فى السورة قبلها . ولكنه فصل القول تفصيلا فى الكمال العلمى الذى لا تمام له ولا كمال إلا باستيفاء الكمال الأدبى أولا ، ولذلك عوقب القوم أشد عقاب ، هلاك فى الدنيا وعذاب فى الآخرة . لماذا ذلك ؟ لأنهم أعطوا علما جما فأعرضوا عنه :

(سورة الجن) — طال القول فى هذه السور فى الكفر والإيمان ، والمعاصى والطاعات والنعيم والعقاب يفصل بعضه بعضا ، ويتبع بعضه بعضا . ولكن بقيت هناك نقطة لا بد من تفصيلها . وهى قوله تعالى : « ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت » ، فالعالم متشابه . فهذه الأرض التى نسكنها ظهر اليوم أن العناصر فيها هى أنفسها من عناصر الشمس . واستبان أيضا بالكشف الحديث أن أشعة المعادن فى الأرض مثلا كأشعة العناصر التى فى الشمس ، فهذه العوالم من هذه الجهة لا تفاوت فيها . وإذا كان ذلك كذلك فى العالم المادى فهكذا يرى العالم الروحى . فإذا كان فى عالم الإنسان وهو العالم العاقل المنظور فيه مسلمون وفيه مجرمون . هكذا فى عالم الجن العاقل الذى لا نراه مسلمون ومجرمون . فإذا كان هناك تشابه بين عناصر الأرض والشمس فى العالم المادى . فهكذا هناك تشابه بين عالم الجن وعالم الانسان باعتبار أن الجميع من العالم الذى يحس ويعقل ، وهذه الدرجات المختلفات فى نوع الإنسان يرى نظيرها فى عالم الجن الذى لا نراه ، وهذا كله طبعا سمعى لا دخل للعقل فيه ، ولذلك جاء فى هذه السورة بطريق الوحى ، فكأن السور السابقة على هذه السورة كانت أقرب إلى عالم الشهادة ، وهذه السورة صارت أقرب إلى عالم الغيب الذى جاء به الوحى . ولما وصلت الحال إلى ذلك العالم الغائب عنا وجاء فيه ذكر الوحى ناسب أن يشرح كيف كان بدء ذلك الوحى فأتى بسورتى :

(المزمل والمدثر) — وفيهما صفتان عامتان : صفة الإشراق فى النفس ، وصفة هداية النفوس الأخرى ، فأما إشراق النفس فلن يكون إلا بالتهجد وقيام الليل ، لأن الروح لاتقوى على تحمل المشاق إلا بإشراقها ، والقيام بالليل معين لها على ذلك ، لأن الإنسان إذ ذاك يخاطب ربه كأنه يراه ، وهذه ترفع النفس عن هذا العالم المادى ، فإذا كملت بذلك رفعت إلى درجة أعلى ، وذلك بأنها تفيض النور على غيرها ، وأول الأمرين واضح فى سورة المزمل ، وثانيهما واضح فى سورة المدثر ، ففى أولاهما تكميل النفس ، وفى ثانيتهما تكميلها لغيرها ، والثانى مرتب على الأول ، ولذلك جاء بعده :

(سورة القيامة) — ولما كانت النفس الكاملة فى نفسها تكمل غيرها (والكمال على قسمين : كمال مبدئى ، وكمال نهائى ، فالكمال المبدئى أن تصير النفس لوامة تجاهد للكمال ، والكمال النهائى أن تكون النفس كاملة ، وإن لم تصل لدرجة من علمها) جىء بسورة القيامة أولا وفيها ذكر النفس اللوامة ، وأتبعت بسورة (الإنسان) وفيها ذكر النفس الكاملة التى وإن كانت مخلوقة من أمشاج وابتليت بأنواع من المحن فإنها فازت ونجت ، وصارت من الأبرار ، وشربت من كأس كان مزاجها كافورا ، وصارت نفسا مطمئنة تعطى لا لجزاء ولا لشكور :

(سورة المرسلات) وهذه النفوس المتقدمة نهاية سعادتها أن تكون فى حبور تتلقى الأمر والنهى عن الله نفسه فى العالم الثانى كما يتلقى الملائكة الكرام المذكورون فى أول (سورة المرسلات) عند آية « فالملقيات ذكرا » ويتخلل ذلك الإنذار والتبشير ، وذكر العذاب والنعيم .

هذا مجمل الرحمات فى هذه السور العشر من (سورة القلم) إلى (سورة المرسلات) وإنما فعلنا ذلك هنا مخافة التطويل ، لأن الرحمة تقدم الكلام عليها كثيرا فى هذا التفسير ، والرحمة لاحد لها ولا حجر عليها ، ولنشرع الآن فى تفسير السورة فنقول ومن الله التوفيق :

التفسير اللفظى

بسم الله الرحمن الرحيم

(تبارك الذى بيده الملك) فله الأمر والنهى والسلطان ، فيعز من يشاء ويذل من يشاء (وهو على كل شىء قدير) من الممكنات ، ومن ذلك الإنعام والانتقام (الذى خلق الموت والحياة) قدرهما (ليبلوكم) ليعاملكم معاملة المختبرين أيها المكلفون (أيكم أحسن عملا) أصوبه وأخلصه ، وأحسن عقلا ، وأورع عن محارم الله ، وأسرع فى طاعته (وهو العزيز) الغالب المنتقم ممن عصاه (الغفور) لمن تاب إليه (الذى خلق سبع سموات طباقا) طبقا على طبق بعضها فوق بعض ، يقال : طابقت النعل إذا خصفتها طبقا على طبق ، فهو من باب الوصف بالمصدر ، والكلام على السموات وتحقيقها وكونها سبعا قدسبق فى سورة البقرة فلانعيده (ماترى فى خلق الرحمن من تفاوت) وقرئ : من تفوت ، كالتعهد والتعاهد وهو الاختلاف وعدم التناسب ، فإن كلامن المتفاوتين فات عنه بعض مافى الآخر ، والجملة صفة ثانية لسبع ، وضع فيها خلق الرحمن موضع الضمير للاشعار بأنه يخلق ذلك بقدرته الباهرة رحمة وتفضلا ، وأن الرحمة عامة فى هذه العوالم (فارجع البصر هل ترى من فطور) الفطور الشقوق ، والمقصود منها الخلل من فطره إذاشقه فكأن المختل فى نظامه مشقوق متباعد كل شق منه عن الآخر (ثم ارجع البصر كرتين) رجعتين أخريين فى ارتياد الخلل : أى ارجع البصر مرارا كثيرة كما فى لبيك وسعديك إن أرجعت البصر تطلب أن ترى ذلك الخلل (ينقلب) ينصرف (إليك البصر خاسئا) صاغرا ذليلا مبعدا لم ير مايهوى من الخلل كأنه طرد عنه طردا (وهو حسير) كليل منقطع لم يدرك ماطلب من أن يرى خللا فى النظام ، ثم أعقبه بذكر بعض مايرى من النظام المشاهد وجماله

لتكون

لتكون زينته وحسنه دليلا على جمال ماوراءه من حسن النظام والإتقان والإحكام فقال (ولقد زينا السماء الدنيا) القربى من الأرض ، وهى التى يراها الناس (بمصابيح) كواكب مضيئة بالليل ، فكما زين الناس منازلهم ومساجدهم بمصابيح ، وهى السرج التى يوقدونها فيها هكذا زين الله سمواته بمصابيح ، ولكن لانسبة بينها وبين مصابيحكم ، والتعبير بمصابيح لينبه الناس إلى المقايسة والموازنة بين السرج والكواكب التى سماها بأسماء السرج فى البيوت ليلاحظوا الفرق بين النظامين نظام منازلنا ونظام السموات العام ، فإذا كان الناس ينظمون منازلهم وينتهى نظامها بالسرج ، هكذا نظم الله السموات وزينها بالكواكب والنسبة بين نظامنا ونظامه كالنسبة بين سرجنا فى البيوت وبين الكواكب ، فليس رجع البصر كرتين يجعله ينقلب مقطوعا عن أن يرى خللا فى النظام فحسب بل الأمر أعظم ، إن النظام يفوق جماله الحصر ، وأى نسبة بين سرج الناس وسرج الله ، فأرضنا بالنسبة لبعض الكواكب لاقدر لها فضلا عن جبالها وعن السرج فى البيوت ، فكأن قوله : « الذى خلق سبع سموات طباقا » انتقال من الكلام عن اليأس من رؤية الخلل إلى القول بأن النظام لاحد لنهايته ، فهو ترق فى الوصف ، يقول أولا إن النظام لا خلل فيه ، ثم يقول بل الأمر أعظم من ذلك ، وضرب مثلا بالسراج وبالكواكب ، كل هذه المعانى تؤخذ من التعبير بلفظ مصابيح ، ولعمرى من هذا تشم بلاغة القرآن ، وبهذا فلتعرف ، عبر بالمصابيح مشيرا إلى عدم تناهى الحسن ودقة النظام ، وليس عند نوع الإنسان من قوة يدرك بها علو النظام وغاية الإتقان أكثر من التعبير بمصابيح ، وقوله (وجعلناها رجوما للشياطين وأعتدنا لهم عذاب السعير) إتمام للكلام على النظام ، يقول : إن النظام المتناهى فى الحسن لايتم إلا بجمع الأضداد بحيث لا يكون أحد الضدين بدون الآخر ، فهذه المصابيح التى زينا بها السماء لاتقف عند الزينة بل بأضواء الكواكب والشموس يكون مافى الأرض من رزق وحياة وموت تبعا للناموس الذى سنناه ، والقدر الذى أمضيناه ، فيكون فى العالم الإنسانى وعالم الأرواح التى فارقت أجسادها نفوس تتقاذفها الأهواء فى عالم المادة ، وتصطهر بأنواع الذنوب والشهوات فى الدنيا ، وتقتحم مانهينا عنه بحيث تفتنها الشهوات ، وتجذبها اللذات التى نجمت من العناصر المتفاعلة بسبب الأضواء المشعة النازلة من عالم الكواكب المشرقة فى السماء التى هى زينتها ، فهى كما كانت زينة السماء ، وأسبابا لرزق ذوى الصلاح والأنبياء والعلماء والحكماء ، هكذاهى سبب لتكون الأرزاق المهيجة لشهوات شياطين الإنس وشياطين الجن ، وهذا العالم قد اختلط فيه الضر بالنفع بحسب مايظهر ، وخلق كل على حسب مااستعد له ، فالنفوس التى هى مستعدة للفضائل والنفوس الشريرة كلاهما استمد من هذه المادة المسخرة المقهورة بالقدرة التى أضاءت الكواكب فأشرقت عليها وبها تكونت صور الحيوانات والنباتات ، فإذن النجوم صارت سببا لعذاب النفوس الخبيثة بما سببت لها بأمر الله غذاءها وشهواتها ، ومن ذلك أن المنجمين تكون لهم فيها رجوم وظنون ، فهم أيضامن شياطين الانس فالعصاة شياطين ، والمنجمون شياطين ، والمعاندون الجاحدون شياطين ، كل هؤلاء استمدوا شيطنتهم من مظاهر الطبيعة المصورة بواسطة الحرارة والضوء من الكواكب ، وهذا معنى قوله : « وأعتدنا لهم عذاب السعير » أى فى الآخرة ، فمن كان محترق القلب باللذات فى الدنيا وانجذب إلى الشهوات وقالت له نفسه هل من مزيد منها ، وغفل عن جمال هذه العوالم ، ولم يعرف من هذه العوالم إلا شهواته ، أما عقله فإنه قد حجب عن الجمال والكمال ، فهذا هو الذى هيىء له عذاب السعير على مثال ماعود نفسه فى الدنيا ، إن الجمال فى العالم الذى لاحد له التدمج فى ذكر مصابيح لاتعرفه النفوس المحجوبة ، إن السماء قد أضاءت على البر والفاجر ، فالفجار حصرت نفوسهم فى شهواتهم فلم ينظروا إلى السماء فوقهم نظر فكر وعقل ، وكأنه قيل : ارجع البصر يامحمد هل ترى من اختلاف فى طراز هذا العالم ، بل ليس لهذا

النظام نهاية فى الحسن ، ولكن ليس يعقل هذا إلا نفوس شريفة لم تنحصر فى شهواتها ، بل كان لها إدراك يفوق غيرها من الناس ، فأما الشياطين وهى النفوس الناقصة فليس لها حظ من الحياة إلا مابه قوام الجسم ، وكما أن أنوار الشمس فيها حرارة وضوء ، وبالحرارة تكون الحياة ، وبالضوء تكون الهداية ، هكذا النفوس الناقصة لم تأخذ من آثار الكواكب والشموس إلا مابه الحياة الناجمة من آثار الحرارة ، أما هداية العاقلة التى ترسمها الأضواء للأبصار وتتلقاها البصائر بالبحث والتنقيب ؛ فهؤلاء الشياطين مبعدون عنها ، وهؤلاء هم الذين أعددنا لهم عذاب السعير فى الآخرة لأنا نضع كل شىء فى موضعه فندخلهم فيما يشاكل حالهم فى الدنيا وهم كانوا محبوسين فى نيران الغضب ، ونيران الحرص ، ونيران البخل ، ونيران الحقد ونيران الطمع وهكذا ، فهذه النيران كلها تطلع على القلوب بعد الموت ويوم القيامة ، ثم تصير نارا مشاهدة يراها كل امرئ ملازمة : « إن عذابها كان غراما » .

ولما كان الكفار من شياطين الإنسان أو تلاميذهم الذين يصغون لوسوستهم أعقبه بقوله : (والذين كفروا بربهم عذاب جهنم وبئس المصير ، إذا ألقوا فيها سمعوا لها شهيقا) صوتا كصوت الحمير (وهى تفور) تغلى بهم غليان المرجل بما فيه (تكاد تميز من الغيظ) تتفرق غضبا عليهم ، وهذا من باب الاستعارة التمثيلية يمثل شدة اشتعالها بهم (كلما ألقى فيها فوج) جماعة من الكفرة (سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير) يخوفكم هذا العذاب ، وهذا سؤال توبيخ (قالوا بلى قد جاءنا نذير فكذبنا وقلنا مانزل الله من شىء إن أنتم إلا فى ضلال كبير) والمعنى أفرطنا فى التكذيب (وقالوا لو كنا نسمع) كلام الرسل فنتقبله اعتمادا على مالاح من معجزاتهم (أو نعقل) فنتفكر فى حكمه ومعانيه مستبصرين حتى نوقن بعقولنا (ما كنا فى أصحاب السعير) فى عدادهم (فاعترفوا بذنبهم) حين لا ينفعهم ، والاعتراف إقرار عن معرفة (فسحقا لأصحاب السعير) أى بعدا : أى أبعدهم الله من رحمته (إن الذين يخشون ربهم بالغيب) يخافون عذابه حال كونه غائبا عنهم لم يعاينوه بعد أو حال كونهم هم غائبين عنه (لهم مغفرة) لذنوبهم (وأجر كبير) فلا نسبة بينه وبين لذات الدنيا ، ثم أخذ يشرح عموم علم الله بالغيب والشهادة لمناسبة قوله « يخشون ربهم بالغيب » (وأسروا قولكم أو اجهروا به إنه عليم بذات الصدور) أى بالضمائر قبل أن يعبر عنها سرا أو جهرا (ألا يعلم من خلق) ألا يعلم السر والجهر من أوجد الأشياء على مقتضى علمه وحكمته ، وكيف يخلقها وهو لا يعلمها ؟ (وهو اللطيف) باستخراج مافى الصدور (الخبير) بما فيها من السر والوسوسة ، فهو حقيق إذن أن يخشى بالغيب ، فكأن هذه الآيات لتبيان أن خشية الله بالغيب واجبة (هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا) لينة سهلة ليسهل لكم السلوك فيها ولا يمتنع المشى فيها لحزونتها وغلظها وخلق فيها أنواع المعادن والحجارة والطين وسائر المواد التى تصلح للأنواع المختلفة من الصناعات والأعمال ، فمن طين خاص للأوانى إلى حجارة مختلفة للبناء ، إلى جبال طلقة الهواء ، وأخرى مكسوة بالأشجار ، إلى أرض صالحة للزرع ، إلى أخرى لا تصلح ولكن تستخرج منها المعادن ، إلى صحارى واسعة وفيافى قاحلة كالتى بين مصر وطرابلس ، يقل فيها الماء لتصعب سكناها لتكون فاصلة بين الممالك ، ليقل تحرش بعضها ببعض ، ولينظف فيها الهواء من العفونات ويلطف ويكون بمثابة مرشح الماء ليصلح للشرب إلى جهات ثلجية فى القطبين تبقى مئات الألوف أو عشراتها لتستريح من الأعمال النباتية والحيوانية حتى إذا جاء أجلها أديرت الأرض دورة بحادث فجائى فصار القطب خط استواء وبالعكس ويبتدىء دور العمل ، والدليل على ذلك أن جهة القطبين قد وجد بالقرب منها فيلة عظيمة مطمورة فى باطن الأرض مما دل على أن هذه الجهات كانت خط استواء فانقلبت فجأة إلى قطبين ، فالأرض مذللة لنا وفيها مالا يحصى من المنافع فلذلك أعقبه بقوله (فامشوا فى مناكبها) فى جوانبها مشيا عقليا ومشيا عمليا ،

فالعقل بالاستدلال وبالبحث فى منافعها ، والعمل باستخراج ما فيها من المنافع والمعادن (وكلوا من رزقه) والتمسوا من نعم الله (وإليه النشور) المرجع فيسألكم هل شكرتم نعمه ؟ هل قبلتموها وانتفعتم بها حتى تؤدوا شكره ؟ .

ولما ذكر نعمه أخذ يحذر من عقوبته فقال : (أأمنتم من فى السماء أن يخسف بكم الأرض فإذا هى تمور) أى أأمنتم الله الذى هو فى السموات وفى الأرض يعلم سركم وجهركم : أى أأمنتم خسفه بكم الأرض كما خسف بقارون فإذا هى تضطرب أى تحرك الأرض عند الخسف بكم حتى يقلبكم إلى أسفل وتعلو الأرض عليكم وتمور فوقكم وتجىء وتذهب (أم أمنتم من فى السماء أن يرسل عليكم حاصبا) أى ريحا ذات حجارة صغار كما فعل بقوم لوط (فستعلمون كيف نذير) كيف إنذارى إذا شاهدتم المنذر به ولكن لا ينفعكم العلم حينئذ ، وكيف يأمنون من فى السماء أن يصب عليهم العذاب من فوقهم ومن تحتهم ؛ وقد ذلل لهم الأرض وزين لهم السماء بمصابيح ، فإذا لم يشكروا النعمة بالبحث فيهما والانتفاع والتفكر فهو حرى أن يقلب النعمة نقمة ، فإذا زين السماء وذلل الأرض فهو قادر أن يجعل المزين والمذلل للتعذيب لا للانعام إذا لم يكن للنعمة موضع ، وكيف يأمنون ذلك وقد حصل لمن قبلهم من الأمم (ولقد كذب الذين من قبلهم فكيف كان نكير) أى إنكارى عليهم بإنزال العذاب تارة من تحتهم وتارة من فوقهم . إن الله كما ذلل الأرض وزين السموات لم يذر ما بينهما بلا نظام ورحمة (أو لم يروا إلى الطير فوقهم) فى الهواء (صافات) باسطات أجنحتهن فى الجو عند طيرانها (ويقبضن) أى ويضممنها إذا ضربن بها جنوبهن وقتا بعد وقت للاستظهار بذلك القبض على التحريك ، والمعنى ويصففن ويقبضن ، وذلك أن الطير فى أكثر الأوقات يكون صافا أجنحته ، ثم هو يقبضها وقتا بعد وقت ، فالبسط هو الأصل ، والقبض يكون آنا فآنا (ما يمسكهن) فى الجو حال القبض والبسط وهن أجسام كثيفة من طبعها أن تقع على الأرض بالجاذبية (إلا الرحمن) الذى خلقهن على شكل خاص أدهش علماء العصر الحاضر حينما شرعوا فى فن الطيران فأدركوا بعض تلك الحكم التى قاومت طبع الجاذبية وجعلت الهواء مسرحا للطير كما تسرح الأنعام فى البرية . إن هذه الخلقة دقيقة الصنع حتى إن الطائر فى خلقه مختصر من الأنعام فوق الأرض ، فلكل عضو كثيف فى الأنعام عضو يقابله فى الطير غاية فى الخفة أو الصغر أو اللطف ، فكيف ترى الجناحين قد خف حملهما وقد كسيا بالريش الخفيف المكون من أنابيب مجوفة وشعرات حريرية ، وجعل لها المنقار مدببا كيلا تصادم الهواء فى طيرانها فيعوق جريها بخلاف ذوات الأربع فإن وجوهها عريضة وأرجلها المقدمة القائمة مقام الجناحين ثقيلة منهية بما تعتمد عليه عند سيرها فى الأرض من حافر أو خف أو ظلف ، لذلك أعقبه بقوله (إنه بكل شىء بصير) أى يعلم كيف يخلق الغرائب ويدبر العجائب ، وإذا كانت هذه بعض العجائب التى أبرزناها والحكم التى أظهرناها فهل أمنتم أن ندبر بحكمتنا عذابا نصبه عليكم صبا ، فنحن نغير النظم بحكمتنا ، فقد أبدعنا الطيور فى الجو فقويت على مغلبة ثقلها فلم تسقط على الأرض ، هكذا نحن نقدر أن نغير حالكم ونهلككم بقدرتنا وحكمتنا فمن ذا الذى ينصركم منا ؟ ألكم جنود يمنعونكم من عذابنا وقد رأيتم سطوتنا وبطشنا ؟ (أمن هذا الذى هو جند لكم ينصركم من دون الرحمن إن الكافرون إلا فى غرور) لا معتمد لهم ، وعبر بلفظ الرحمن فى مقام العذاب إشعارا بأنه برحمته أبقى الناس فى الأرض مع ظلمهم وجهالتهم ، لأن رحمته وسعت كل شىء ، وسعت البار والفاجر ، والطير فى السماء ، والأنعام على الأرض (أمن هذا الذى يرزقكم إن أمسك رزقه) أم من يشار إليه ويقال هذا الذى يرزقكم إن منع المطر عنكم أو أوقف الهواء فلم تجر الرياح ؛ أو جعل ماء البحر غورا ، ومحصل ذلك أنكم لا جند لكم ينصرونكم إن عذبكم ، ولا رازق يرزقكم إن حرمكم ، فلما لم يتعظوا

أضرب عن ذلك وقال (بل لجوا) تمادوا (فى عتو ونفور) فى عناد وشراد عن الحق (أفمن يمشى مكبا على وجهه أهدى أمن يمشى سويا على صراط مستقيم) يقال كببته فأكب : أى أمن يمشى وهو يتعثر كل ساعة ويخر على وجهه لوعوث طريقه واختلاف أجزائه أهدى يمشى قويا سالما من العثار على طريق مستوى الأجزاء والجهة ، فالمكب على وجهه مثل المشرك ، والذى على صراط مستقيم مثل للموحد ، وهذا المكب على وجهه هو الذى يحشر على وجهه فى النار يوم القيامة ، ومن يمشى سويا الآن بالتوحيد هو الذى يحشر على قدميه إلى الجنة .

ولما ذكر فيما تقدم زينة السماء وتذليل الأرض وإمساك الطير فى الهواء أخذ هنا يذكر ماهو أقرب إلينا وهو خلق أنفسنا فقال : (قل هو الذى أنشأكم وجعل لكم السمع والأبصار) لتسمعوا المواعظ ولتنظروا صنائعه فتبتهجوا بزينة السماء بالكواكب وتسخير الأرض وتذليلها ، وتعقلوا كيف أمسك الطير فى جو السماء (والأفئدة) لتتفكروا فيما ذكر وتعتبروا وتستفيدوا فوائد مادية وأخرى عقلية (قليلا ماتشكرون) باستعمالها ثم لخص هذا كله فقال : (قل هو الذى ذرأكم فى الأرض) فقوله « ذرأكم » أى خلقكم يشمل السمع والبصر والعقل ومنافع الأعضاء ، وقوله « فى الأرض » يشمل جميع المنافع المذكورة من تذليلها وتسهيلها وإشراق الكواكب عليها الخ ومافوقها من طيور فى الجو ، وقوله (وإليه تحشرون) أى للحساب ، هل شكرتم هذه النعم ؟ هل فكرتم فيها ؟ هل عقلتم ذلك ؟ .

ولما أتم الكلام على النعم والحساب عليها أخذ يذكر المنكرين لتلك النتيجة الغائبة عنا وهى الحشر والعقاب فقال : (ويقولون متى هذا الوعد) أى الحشر وما يتقدمه من الخسف فى الدنيا وإرسال الحاصب (إن كنتم صادقين) أيها النبى والمؤمنون (قل إنما العلم عند الله) أى علم وقته (وإنما أنا نذير مبين) أبين لكم الشرائع (فلما رأوه) أى العذاب الموعود (زلفة) أى حال كونه قريبامنهم (سيئت وجوه الذين كفروا) أى ساءت رؤية الوعد وجوههم بأن علتها الكآبة والمساءة ، وغشيتها القترة والسواد (وقيل) هذا الذى كنتم به تدعون) أى وقال الزبانية هذا الذى كنتم تسألون تعجيله وتقولون ائتنا بما تعدنا استهزاء ، فقوله « تدعون » على هذا من الدعاء لامن الدعوى فهو على وزن تفتعلون (قل أرأيتم إن أهلكنى الله) أماتنى (ومن معى) من المؤمنين (أو رحمنا) بتأخير آجالنا (فمن يجير الكافرين من عذاب أليم) وهذا القول لمشركى مكة الذين كانوا يتمنون هلاك محمد صلى الله عليه وسلم ومن معه ، يقول : إن هلكنا أو رحمنا فلامجير لكم من العذاب ، وقد فسرها ابن عباس بما يأتى :

« أرأيتم إن أهلكنى الله» أى فعذبنى «ومن معى أو رحمنا» أى فغفر لنا فنحن مع إيماننا خائفون فى أن يهلكنا بذنوبنا ، لأن حكمه نافذ فينا ، فمن يجيركم أو يمنعكم من عذاب أليم وأنتم كافرون ؟ اه .

ثم قال (قل هو الرحمن آمنا به وعليه توكلنا فستعلمون من هو فى ضلال مبين) منا ومنكم (قل أرأيتم إن أصبح ماؤكم غورا) غائرا فى الأرض بحيث لاتناله الدلاء (فمن يأتيكم بماء معين) جار أو ظاهر سهل المأخذ : أى أخبرونى إن صار ماؤكم ذاهبا فى الأرض فمن يأتيكم بماء ظاهر تراه العيون ؟ إذن لابد أن يقولوا هو الله تعالى ، حينئذ يقال لهم : فلم تجعلون معه من لايقدر على شىء أصلا شريكا له فى العبادة ! انتهى تفسير السورة اللفظى ، والحمد لله رب العالمين .

لطائف هذه السورة

(١) فى قوله تعالى : « الذى خلق الموت والحياة » .
(٢) وفى قوله : « ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح » الخ .
(٣) وفى قوله : « أولم يروا إلى الطير فوقهم صافات » .
(٤) وفى قوله : « قل هو الذى أنشأكم وجعل لكم السمع والأبصار » الخ .

اللطيفة الأولى: فى قوله تعالى
«الذى خلق الموت والحياة»

لننظر الآن لم قدم الموت على الحياة ، وكيف يبتدئ السورة بما يفيد أن خيره عام شامل ، ثم يبتدئ بذكر الموت مع أن الموت عدم ، والعدم ليس خيرا لا كثيرا ولا قليلا ؟ فنجيب على ذلك فنقول :

إن النظر السطحى فى هذه الأرض التى نسكنها والجهل هما اللذان جعلا أهلها معذبين ، فالجهل سبب العذاب فى الدنيا بالذلة وسبب العذاب فى الآخرة بجهنم وبأنواع الذل والإهانات ، ومن الجهل عدم فهم نعمة الموت ، إن الموت مزرعة الحياة وحقلها ، ولولا الموت لم تكن الحياة ، فتقديم الموت أشبه بتقديم السبب على المسبب والأصل فى الفرع ، وإيضاحه أن نقول :

إن الحيوان والنبات هما اللذان يعتريهما الموت والحياة ، وقد وضع الله فى طبيعة أكثر النبات وأكثر الحيوان كثرة الذرية كثرة مفرطة جدا ، وتلك الكثرة الطبيعية لحكمة ، وهى أنها تكون ضمانا لبقاء الأنواع على الأرض ، فلولا هذه الكثرة المفرطة لانقرض كثير منها ولم يعوض بمثله فى الأرض ، فلو تركت تلك الذرية المتعاقبة حينا من الدهر لامتلأ وجه الأرض بالحيوان فلم تعد الأرض تصلح لحيوان جديد ، فموت هذه المخلوقات وسرعة فنائها هى النعمة العظمى لأنها تخلى وجه الأرض لما بعدها ، فالموت أشبه بالتخلية ، والحياة أشبه بالتحلية ، وهذا هو السر فى تقديم الموت ، ولأضرب لك مثالا لذلك فأقول :

(١) إذا نظرت إلى مقدار ما فى النخل من لقاح ، وما فى الذرة مما ينتشر فى الهواء أو يقع على الأرض تجده لو صادف صلاحا وأثمر كله لم تسعه الأرض .

(٢) كلنا نرى السمك وما فى باطنه من المقادير الكبيرة من البيض الصغير الدقيق جدا وهو عدد غزير كثير يسمى (البطروخ) يأكله الناس ويباع فى الأسواق ، فلو أن هذا البيض كله صار سمكا لأصبح البحر الملح قطعة جامدة .

(٣) نرى أن فى البيوت من أنواع الحشرات كالبق والبراغيث وأمثالها مالو تركت ولم يهلكها الناس ولم يسلط عليها البرد فيهلكها وغيرها من الحشرات كالجراد وغيره لأصبحت الأرض كلها مغلفة بطبقة منها فامتنعت الحياة عليها :

(٤) ذكر العلامة (وولاس) عشبا ينتج من البذر كل سنة ثلاثة أرباع مليون بذرة ، وقدر أنه لو عاش هذا النسل ثلاث سنين فقط وأعقبت كل بذرة فى هذه المدة ما بقى مكان فى الأرض غير مغطى بها ، وقال : لو أن كل نبات أنتج حبتين اثنتين فى السنة واستمر النسل على الإنتاج لبلغ عدد الانتاج فى السنة الحادية والعشرين ٥٧٦ ر ٠٤٨ ر ١

(٥) إن بعض الحيوانات الدقيقة المسماة (ميكروبات) إذا استمرت على التوالد مدة خمسة أيام بدون انقطاع لملأ المحيط كله بنسله إلى عمق ميل .

(٦) وميكروب الوباء (الكوليرا) الذى يتضاعف كل عشرين دقيقة لو مضى عليه يوم واحد وهو يسير بهذا المعدل بلاعائق لبلغ وزنه ٧٣٦٦ طنا ، وبلغ عدده رقم ٥ وإلى يمينه ٢١ صفرا .

(٧) والفيل معلوم أنه أبطأ الحيوان ولادة ، فان الفيلة لاتلد إلامرة واحدة فى كل عشرين سنة ، وقد حسب أحد العلماء أنه إذا استمر التناسل بدون عائق لبلغ نسل الزوجين بعد ٧٥٠ سنة ١٩ مليون فيل .

(٨) الجراد كثيرا مايهجم على القرى والمزارع وهو كالسحاب فيأكل ما أمامه ، ومتى لم يجد ما يأكله أكل بعضه بعضا .

(٩) السمك الذى يشرب الناس زيته لتقوية الجسم ، تبيض فى العام الواحد الواحدة من إناثيه مليونى بيضة ، فلو أصبحت كل هذه البيضات المستخرجة من سمكة واحدة فى سنة واحدة سمكا لصار البحر كتلة جامدة .

(١٠) بعض المحار فى البحار تبيض الواحدة ستين مليونا من البيض ، وهذا النسل لو بقى كله مابين عام وعامين لزاد على الكرة الأرضية .

(١١) الذباب الذى ينغص عيش الإنسان إذا تكاثرأمامه تبيض الأنثى منه خمس أوست مرات ، وفى كل مرة تبيض من ١٢٠ بيضة إلى ١٥٠ بيضة ، فلو عاشت كلها لم يعش شىء على الأرض معها . هذا قل من كل من سرعة تكاثر الحيوان والنبات ، فلولا الموت لم تكن حياة ، هذا هو السر فى تقديم الموت على الحياة .

(١٢) ربما كان حيوان يعيش على آخر ، فإذا انقرض ذلك الآخر مات الحيوان ، مثال ذلك الثعابين تعيش فى بعض البلادعلى الجرذان ، وبموت الجرذان وانقراضها تموت الثعابين وتنقرض من تلك الجهة ، فإذا كثرت القطط أكلت الجرذان وبفنائهافنى الثعابين ، إذن تكون حياة القطط هلاكا لنوعين الجرذان والثعابين ، وذلك فى بعض البلاد ، وهذه رحمة عظمى .

(١٣) جراثيم المرض المسمى (الملاريه) إنما تعيش فى جسم الناموس ، فإذا أزيل الناموس زال معه ذلك الحيوان المهلك .

(١٤) لولا حياة البقر ماابتلى الإنسان بالدودة الوحيدة ، إنها تعيش أولا فى لحم البقر ، ثم تنتقل إلى جسم الإنسان وتعيش فى أمعائه ، فلو لم يكن بقر لم تكن دودة وحيدة .

بهذا وأمثاله من الحكمة التى أشرقت بها الأرض وأضاء نورها نعرف نعمة الله فى الموت ، ونعرف السر فى تقديم الموت على الحياة فى هذه السورة .

ياسبحان الله : ظهر أن الموت نعمة على الأحياء ، هوأصل الحياة لمن فى الأرض لغير الميت ، ولكن هل هو نعمة للميت ؟ نعم هو نعمة كبرى لسببين : الأول أن ينتقل من هذه الأرض الضيقة التى ضاقت صدورها وضاقت هى بمن فيها فكثر الموت . الثانى أن يدخل فى عالم أوسع منها ، فهذا من سر تقديم الموت على الحياة .

انظر أيها الذكى لكلمتين فى هذه السورة : الموت فى أولها ، ولفظ مصابيح فى وسطها ، وكيف اختير اللفظان فيها ، انظر كيف كان تقديم الموت على الحياة نظر فيه لعلم الطبيعة والتاريخ الطبيعى ، وكيف كان اختيار لفظ المصابيح لذلك الجمال وللموازنة بين نظامنافى بيوتنا ونظام العالم كله كما تقدم ، وليكون مذكرا بقوله تعالى : « الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح » فمثل هناك لنظام الله فى العالم بنظام مصباحنا حتى نعقل كيف نظم على مقدار عقولنا ، وهنا يشير إلى أن نوازن مابين الدقة هناك والضعف هنا ، فترى مالا يتناهى من المحاسن فى ذلك النظام ، مثل هذه المعانى لايدركها ولا يعقلها من قصروا بلاغة القرآن على أساليب الكلام ، وقد بينا بعضه فى سور كثيرة ووازنا بينه وبين كلام العرب ، فأين الثريا وأين الثرى ، من أين للبليغ اللفظى أن يستعرض علوم الحيوان والنبات كلها لأجل تقديم لفظة على أخرى ؟ من أين له أن يستعرض نظام الكوكب ونظام البيوت لأجل لفظة جاءت مجازا ، فالحق والحق قلت إن هذا القرآن يطالب جميع العلوم ، فليدرس المسلمون علوم الطبيعة ، وعلوم الفلك ، وعلوم هذه الدنيا كلها وإلا فلا رقى لهم ولا قرآن لهم إلا ما تحفظه الأطفال ويعربه النحويون ويستدل به الفقهاء فى أحكام القضاء ثم يحرمون من كل نعيم فى الحياة بعد ذلك فى الدنيا والآخرة ، ولقد نصحت وأفرغت جهدى ، وسيتولى الله الأمة برعايته ، ويحيطها بكرامته ، ويحرسها بكلاءته . انتهى الكلام على اللطيفة الأولى ، والحمد لله رب العالمين .

اللطيفة الثانية فى قوله تعالى : ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح

لقد كتبنا فيها فى سورة متقدمة ، وفى هذه السورة ، قال الله فى (سورة الصافات) : « إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب ، وحفظا من كل شيطان مارد ، لايسمعون إلى الملأ الأعلى ويقذفون من كل جانب دحورا ولهم عذاب واصب » ، وهنا قال فيها : « وجعلناها رجوما للشياطين وأعتدنا لهم عذاب السعير » فهاهنا أمران : طرد عن الاستماع ، وعذاب فى الآخرة ، إن كل مافى القرآن من عذاب فى الآخرة يتقدمه عذاب فى الدنيا ، فهذه الشياطين فى الدنيا محجوبون عن الاستماع ، وفى الآخرة لهم جهنم ، وإن أردت أن تفهم نتائج هذه المعانى بنفسك فانظر فى أمتك التى أنت فيها وفى مجالسها وتأمل الناس حولك فاجلس فى مجلس عام وخاطبهم بجمال النجوم وبهجة هذا العالم ، فانك ستجد قليلا منهم يفرحون ، والباقى لايبالون ، فهؤلاء الذين لايحبون هذه المباحث هم تلاميذ الشياطين الذين هم عن السمع معزولون ، تلك الشياطين عزلت عن السمع لما فى العالم الأعلى ، وهؤلاء نظراؤهم عزلوا عن معرفة بهجة العلوم ، وهى من بهجة العالم الأعلى ، فأولئك عن السمع معزولون ، كلاهما غير مستعد لهذه الأمور العجيبة ، ثم تأمل أيضا فى الناس حولك تجد الجهال منهم قد تلوح منهم التفاتة إلى العلماء فيحزنون على جهلهم ، وقلة علمهم ، وحرمانهم من التمتع بالمباحث العلمية الشريفة ، فهذا مبدأ العذاب فى الدنيا ، وسيكون بعد الموت ويوم القيامة أشد ، فينتقل من العذاب النفسى ويرتقى إلى الجسمى ، فهذا أثر من آثار هذه الآيات تراها فى الدنيا وأنت حى ترزق . انتهى الكلام على اللطيفة الثانية ، والحمد لله رب العالمين .

اللطيفة الثالثة: فى قوله تعالى

«أو لم يروا إلى الطير فوقهم صافات ويقبضن ما يمسكهن إلا الرحمن» والكلام عليها فى مقامين
المقام الأول فى علم الطيران الحديث ومناسبته لطيران الطير ،
المقام الثانى فى بنية الطيور ، وأن أجسامها مختصرة من أجسام ذوات الأربع

المقام الأول

إن قارئ هذه الآية يمر عليها مر الكرام ، يقرأ : « أو لم يروا إلى الطير فوقهم صافات ويقبضن » وقد خرج منها خاوى الوفاض ، بادى الأنفاض ، يمر عليها كما يمر الطير فى الهواء ، ولكن مسألة طيران الطير ليست سهلة التناول ، إنها أمرها عجب لقد مرت العصور والدهور والناس يقصون فى حكاياتهم ويتخيلون أنه لو كان لهم أجنحة كأجنحة الطير لطاروا إلى أحبابهم ، وسعدوا كما سعد الطير فى طيرانه فى الهواء ، ألا ترى أن هذا مذكور فى قصة حسن الصائغ البصرى ، وفى آداب اليونان ما يشير إلى ذلك الخيال ، ولما أفاق الإنسان من سباته العميق أخذ يفكر عسى أن يكون هذا الخيال يوما ما حقيقة ، وعسى أن يتاح له أن يطير كما يطير الطير ، ظن الناس أن الإنسان ليس عليه ألا يجعل له ريشا كريش الطائر بحيث تكون نسبته إلى جسمه كنسبة ريش الطائر إلى جسمه ، وتكون أجنحته أيضا على تلك النسبة ، فكر الناس فى ذلك وقاموا بهذه التجربة ، وأذكر لك منهم :

(١) رجلا إيطاليا فى بلاط الملك جيمس الرابع الاسكتلندى فى بدء القرن السادس عشر :
(٢) وبعد ذلك بنحو قرن قام راهب ألمانى بالتجربة أيضا .
(٣) وحاول مركيز فرنسى عاش فى أواسط القرن الثامن عشر أن يطير بالأجنحة .
(٤) وعباس بن فرناس صاحب صحاح الجوهرى .

فهؤلاء الأربعة نموذج لمن حاولوا الطيران قبل هذا القرن الذى نحن فيه فأخفقوا جميعا ، وأما الأول فإنه لما حاول الطيران لعبور بحر المانش ، وقد استعد بجناحين عظيمين مصنوعين من ريش طيور مختلفة وثب عن برج قصر (سترلنغ) فهوى إلى الحضيض فكسر عظمه ورض جسمه ومات ، والثانى سقط فمات كذلك ، والثالث وهو المركيز حاول أن يقطع نهر الرين ، فعمل تجارب ، فبدا له أن يقلع عن العمل فنجا ، والرابع أراد أن يطير فسقط فمات كما هو معروف ، هذه أول خطوة .

(الخطوة الثانية) : فى هذه الخطوة رأى الإنسان أن طيران الطير ليس بقوة الأجنحة فحسب ، وإنما هناك أمر آخر فليس يكفى الإنسان أن يلبس ريشا على النسبة المتقدمة ليطير . كلا . والذى عرف ذلك رجل يسمى (بورلى) سنة ١٧١٣ م فدرس حركات الطيور ، وقدر قوة عضلاتها الصدرية ، فتبين له عجز الإنسان أن يضارع الطير بهذه الوسيلة ، كما ثبت بالاختبار أن الانسان فشل فى هذه التجربة ، فيئس الناس من الطيران .

(الخطوة الثالثة : عمل المناطيد[١]) فى هذه الخطوة وقد يئس الناس من الطيران كالطير رجعوا إلى مسألة السفينة فى البحر . إن السفن إنما تسير فى البحر لأنها مصنوعة بطريقة خاصة بحيث يكون حجمها

(١) انظر صورة المنطاد والكلام عليه فى المجلد الحادى والعشرين من هذا التفسير اهـ .

أ كبر من حجم الماء الذى يعادلها وزنا ، فلو أن حجمها كان أقل من حجم الماء المذكور لغرقت ، هكذا هنا صنعوا المناطيد من موادّ خفيفة تكون أخف من الهواء ، كما أن السفينة أخف من الماء ، كما نرى الريش يطير ، وكما نرى طيارات الأطفال فى الأعياد ، وكان اختراع المنطاد سنة ١٧٨٢ م فلم يكن غير ثلاث سنين حتى قطع بحر المانش من (دوفر) إلى (كاليه) فى المنطاد سنة ١٧٨٥ م والذى قام به (جان بيار بلانشاد) وهو معدود من أكابر الذين جادوا بأنفسهم ، وهو معروف عند جميع المشتغلين بهذا الفن ، ومعنى هذا أن الإنسان لا يمكنه أن يطير لأن جسمه أثقل من الهواء ، فالمنطاد شئ وطيران الإنسان فى الجو شئ آخر ، وبقى الناس فى حيص بيص من أجل طيران الإنسان كما يطير الطير . الطير يطير وجسمه أثقل فلم لا يطير الإنسان وقد عرفنا أن الأجنحة لا تكفى فأين السر إذن ؟ وهنا جاءت :

(الخطوة الرابعة) وابتداؤها سنة ١٨٩١ م إذ قام (ليليانتال) وراقب الطيور فى حركاتها عشرين سنة ، وبنى عدة على شكل طيارة منبسطة الأجنحة ، ووضع آلة للموازنة فى طيارته وقوة محركة لاطالة مدة الطيران ، وقال : إنى درست من هذه الطيور أن سر الطيران يتم للانسان إذا تسنت له قوة رافعة كافية لأن تدفعه بالسرعة الواجبة للارتفاع عن الأرض ، وحينئذ يمكنه أن يحوم فى الفضاء كما يشاء ، ولكنه مع نجاحه المبدئى أيضا سقط فمات سنة ١٨٩٦ م .

ومما كشفه أيضا أن الأجنحة المحدودة فيها قوة للرفع تزيد عنها فى الأجنحة المنبسطة ، ولكن كان هناك شابان أمريكيان فى تلك الآونة هما الأخوان (ويلبور) و (أورفيل رايت) يشتغلان سرا فى بلدهما (دايتن أوهايو) فى درس علم الطيران وإجراء الامتحانات الصغيرة الابتدائية من المركبات الهوائية ، وقد كان محركهما إلى ذلك نجاح (ليليانتال) فى الامتحانات التى قام بها بما اصطنع من الطيارات المنبسطة الأجنحة والمسيرة بالقوة ، لكنهما لم يعمدا إلى بنيان مركبة كبيرة قبل سنة ١٩٠٠ ، ومنذ ذلك العهد أخذا يمتحنانها ويحسنان فيها ويضيفان إليها حتى كانت سنة ١٩٠٥ م ، فطار أحدهما فى الهواء مسافة أربعة وعشرين ميلا فى مدة ثمان وثلاثين دقيقة فوق حقل بالقرب من بلدهما ، فكان الأخوان أول من وفق إلى النجاح فى اكتشاف سر مبدأ الطيران وفتح مملكة الهواء لمساعى الإنسان .

وفى سنة ١٩٠٧ م أعلنت حكومة الولايات المتحدة رغبتها فى الحصول على طيارة من أوصافها أن تكون أجزاؤها سهلة التركيب والتفكيك تسهيلا لنقلها فى مدة لا تتجاوز الساعة الواحدة ؛ ومعدة لحمل رجلين يبلغ وزنهما على الأقل ٣٥٠ بونا ؛ وتقطع مسافة أربعين ميلا ، فجوابا على هذا الاعلان قدم الأخوان إحدى طياراتهما للامتحان ، وفى سنة ١٩٠٨ جاء (أورفيل رايت) بالطيارة إلى (واشنطون) وفى خلال الامتحانات الابتدائية غير الرسمية طار طيرانا مدهشا استمر فيه ساعة و ٢٥ دقيقة و ٢٠ ثانية ، ثم أراد القيام بالامتحان الرسمى فعين الملازم فى الجيش (سلفردج) للركوب معه ، فحلقت الطيارة فى الفضاء ، وكانت فى بدء الطيران عند رغائب المراقبين ، ولكن الرفاص الخشبى انكسر من سرعة دورانه فسقطت الطيارة ، وقتل الملازم (سلفردج) ، أما (أورفيل) فأصيب بجراح ورضوض بليغة حالت دون إجراء الامتحانات فى تلك السنة ، ولكن فى السنة التالية امتحنت طيارة (رايت) مرة أخرى فأتمت شروط الحكومة التى قبلتها واشترتها ودفعت لمخترعيها الأخوين جائزة مالية قدرها ٢٥ ألف دولار .

أما فى فرنسا فكان تقدم الطيران سريعا وعجيبا ، لأنه لم يكن أحد قبل بدء سنة ١٩٠٨

قد طار أكثر من ثمانمائة واثنين وأربعين ذراعا ، ولكن لم تنقض تلك السنة حتى كان الطيار الفرنسوى (فارنهام) قد تمكن من الطيران مسافة ٢٥ ميلا ونصف ميل ، وحتى كان (ويلبور رايت) الأمريكى فى أواخر تلك السنة قد طار مدة ساعة و ٤٥ دقيقة و ٢٢ ثانية وقطع ٦١ ميلا .

سنة ١٩٠٩ م يرزل ذكرها فى التاريخ بأنها فاتحة العهد الجديد فى فن الطيران ، لأن ماتم فيها من الأعمال العجيبة يدل على سرعة تقدم هذا الفن إلى درجة تفوق حد التصديق ، ففى الولايات المتحدة طار (كان كورتس) مدة ٦٧ دقيقة ونصف دقيقة ، وطار (أورفيل رايت) فى فورت ماير مدة ساعة و ٢١ دقيقة يحمل معه راكبا ، وقد قطع مسافة ٥٠ ميلا ، وفى فرنسا ربح (كورتس) الجائزة فى السباق الذى جرى فى (ريمس) وقام (بليريو) بمطيره التاريخى المشهور ، إذ قطع لأول مرة بحر المانش من فرنسا إلى انجلترا مجتازا مسافة ٣١ ميلا فى مدة ٣٧ دقيقة ، وقام (فارنهام) بمطير عجيب استمر فيه ٤ ساعات و ١٧ دقيقة و٣٥ ثانية قاطعا مسافة ١٣٧ ميلا ، وطار كل من (أورفيل رايت) و (الاثام) و (بولهان) لحلق إلى أعلى من ألف وخمسمائة قدم وطار (بولهان) من لندن إلى مانشستر ، وطار (لورتس) من البنى إلى نيويورك ، وطار (هملتون) من نيويورك إلى فيلادلفيا ، وطار القبطان (رولز الانجليزى) من انجلترا إلى فرنسا ، ثم عاد دون توقف فقطع بحر المانش ذهابا وإيابا فى مطير واحد ، وما زال فن الطيران فى ذلك العهد بين تجربة واختبار واصطلاحات وتحسينات وإضافات هامة حتى قام الكونت (زابلين) الألمانى المشهور الذى نظر إلى هذا الفن نظرة باحث ، فأنشأ فى بلده المعامل الكبيرة ، وكانت فاتحة أعماله الجليلة اجتياز الأوقيانوس الأتلنتيكى فى الهواء ، وبعدها ابتدأ ببناية المناطيد الهوائية التى تنقل الركاب جاعلا لها أوقاتا محددة للسفر على نحو ما هو الأمر مع البواخر والقطرات الحديدية ، فما فكر فيه (الكونت زبلين) الألمانى من عشرات السنين يفكر فيه الآن دول الحلفاء ويقومون بتنفيذه ، كان فن الطيران فى عهد طفولته يوم استلم زمامه الألمان ، وهذا ماوجه له الأنظار والأفكار بمزيد الاهتمام ، ولا سيما من حيث استخدامه فى الحرب للاستكشاف والدفاع والهجوم برا وبحرا ،ولقد كان للمركبات الهوائية (الايروبلان) أوبساط الريح شأن يذكر فى الحرب العالمية الماضية من سرعة قضاء المهمات ، أو من حيث قيام رجل أو اثنين فى مركبة هوائية بما لايقدر على القيام به غير كوكبة من الفرسان .

وتستخدم الطيارات فى تدمير الأساطيل وتشتيت الجيوش وتخريب الحصون برمى القذائف الانفجارية من علو لاينالها فيه رصاص البنادق وكرات المدافع .

* * *

ها أنا ذا لخصت لك علم الطيران ، فمن أجنحة أهلكت الطائرين ، ومن يأس قعد بالطائر ، إلى منطاد يطير بخفته ، إلى طيارات تطير كما يطير الطير ، أجسامها ثقيلة ولها محركات وقوات موازنة وترفع بقوة ثم تحوم إلى أساطيل فى الهواء، تحمل الجيوش والمدافع ، وأنواع التجارات المختلفات حتى يخلو وجه الأرض من الطرق الحديدية .

لعلك تقول : إنك قرأت موضوعا فكتبته لمناسبة الآية ، وأى علاقة للآية بهذا التاريخ الطويل العريض ؟ أقول لك : إن الآية بهذا القول يظهر سرها ، أليس من العجب أن (ليليا نتال) أخذ يدرس الطيور فى طيرانها عشرين سنة ! لم هذا كله ؟ ولم كان الطيارون فى أول أمرهم إذا طاروا بالأجنحة يموتون ولم لجأوا إلى ألا يطير إلا المناطيد ، ونكصوا على أعقابهم فلم يجسروا على طيران الإنسان ! ثم ماهذا الجهد والجد والعناء كله ؟ ثم لم يوفق الناس إلا فى أيامنا هذه للطيران ، ومعنى هذا كله أن قوله تعالى: «أولم يروا

إلى الطير فوقهم صافات ويقبضن مايمسكهن إلا الرحمن » لاتعرف بعض حقائقه إلا بهذا العلم ، أى أن طيران الطائر ليس أمرا سهلا كما يتصوره الناس ، فماهو إلا أن يزود بأجنحة ويطير . كلا . فقدسقط الناس وماتوا لما ظنوا ذلك ، وإذا قلنا إن السفينة تجرى فوق البحر فالطير ليس على هذا النظام ، بل الطير جسمه أثقل من الهواء ، أما السفينة فجسمها أخف من الماء الذى على مقدار حجمها ، ولذلك تزيح من البحر ماء على مقدار وزنها ، ولم يعرف الإنسان سر الطيران حتى قطع شوطا بعيدا ، فقوله : «ما يمسكهن إلا الرحمن» ليس مما يدرك بسهولة ، بل يدرك بهذا العلم : أى إن هذا العلم هو الذى نعرف منه مقدار الصنائع والدقائق والحكم التى أودعها الطائر حتى طار ، إن كل شئ فى نظر الجاهل سهل ، وفى نظر العالم يحتاج إلى أبحاث ، ياليت شعرى : من كان يظن من أمم الأرض قبل هذا القرن أن طيران الطائر فيه هذه الحكم والأسرار .

بهذا تفهم فى هذا العصر وحده معنى قوله تعالى : « إنه بكل شئ بصير » ، هذا العصر هو الذى فيه يظهر سر القرآن وسر الوجود ، فإذا كان العالم يظهر سره الآن فالقرآن يظهر سره الآن ، لأن هذا فعله وهذا قوله وهما متلازمان ، فليقرأ هذا المسلمون وليعلموا « بل هو قرآن مجيد فى لوح محفوظ » وبهذا انتهى الكلام على المقام الأول ، والحمد لله رب العالمين .

المقام الثانى فى بنية الطيور ، وأن أجسامها مختصرة من أجسام ذوات الأربع

أعلم أن الأصناف الأربعة من الحيوان البرى وهى : الأنعام ، والبهائم ، والسباع ، والوحوش أكمل بنية وأتم نظاما من الطيور والجوارح ، وكأن هذين قد جعلا مختصرين من الأربعة الأول ، ولو أنك نظرت إلى الطير صافات فى جو السماء لخيل لك أنها صورة مصغرة من البقر والجاموس إذا كنت من الناظرين فى علم الطبيعة بعقولهم لامقتصرين على حواسهم ، فإذا رأيت أبا قردان وهو يأكل الدود فى الأرض المصرية والجاموس يرعى فى مرعاه لرأيت للجاموس أسنانا وآذانا ظاهرة ومعدة وكرشا ومثانة وخرزات ظهر ، وجلدا ثخينا وشعرا كما كان للغنم صوف وللابل وبر ، وهو ينزو ويلد ويرضع أولاده ويربيها ، أما أبو قردان مثلا وسائر الطيور فإنها مختصرة من الحيوان البرى ، فليس للطير أسنان ولا آذان بينة ولا معدة ولا كرش ولا مثانة ولا خرزات ظهر ولا جلد ثخين على أبدانها ولا شعر ولا صوف ولا وبر ، وهذا جدول ذلك :

فى حيوان البر	فى الطير
المبدل منه	البدل
الأسنان	المنقار
المعدة	الحوصلة
الكرش	القانصة
الجلد الثخين وما عليه	الريش
الحمل والولادة والإرضاع	البيض وتربية الفراخ
رأس عريضة	مناقير مدببة ورءوس صغيرة

ثم إن الريش جعل لباسا لها ودثارا يقيها الحر والبرد ، وهو غطاء ووطاء ووقاية من الآفات العارضة ، وهو فوق ذلك يعينها على النهوض والطيران ، أما المناقير والرءوس الصغيرة فإنها لو لم تكن كذلك بل كانت كالبهائم لعاقها ذلك عن سرعة الطيران ، لأنها تصادم الهواء فيعوقها عن سرعة الطيران . انتهى الكلام على اللطيفة الثالثة ، والحمد لله رب العالمين ،

اللطيفة الرابعة فى قوله تعالى : هو الذى أنشأكم وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة الخ

يقول الله إنه أنشأنا ، وإنه خلق لنا السمع والأبصار ، ثم يقول إن شكرنا قليل ، وياليت شعرى : أى شكر لمن يخلق فى هذا العالم ثم يغادره وهو غافل عما فيه ، هذه مسألة الطيران يراها أمرا سهلا فى بادئ النظر ، ثم يتضح فى آخر الأمر أنها احتاجت إلى أعمار وعصور حتى عرفها الإنسان ، وكم فى الدنيا عندنا من مجهول ، إن أسماعنا وأبصارنا وعقولنا نحن مسئولون عنها يوم القيامة ، ومسئولون عنها فى الدنيا ، أما سؤال الدنيا فواضح ، إننا لما أهملنا التفكير فيما حولنا حرمنا منافعه ، والآخرة أدهى وأمر .

إن المسلمين اليوم مهملون مواهبهم وعقولهم وأسماعهم وأبصارهم ، أفلا نخجل حينما نرى أن علم الطير وطيرانه فى الجو لم يقم به إلا قوم ليسوا مسلمين حتى اضطررنا أن ننقل أبحاثهم ونجعلها تفسيرا للقرآن .

إن المسلمين لاتظهر مواهبهم التى أودعت فيهم إلا إذا عمموا التعليم للذكور والإناث تعميما تاما ، ثم اصطفوا منهم طوائف للتعليم العالى ، وقامت مدارسهم بكل ما يطلبه المجتمع من تجارة وحدادة وحياكة وكهربا ، وما شابه ذلك بحيث تكون للمدارس كلها كأنها مملكة لاتحتاج إلى إبرة من الخارج ولا آلة ، فهم الذين يصنعون الآلات والأدوات وهم الذين يحرثون ويزرعون ويطبخون ويخدمون وينظفون الأوانى ، وبالجملة يفعلون كل شئ ، ولا يفوتهم علم من العلوم الطبيعية والرياضية وغيرها إلا خصص له منهم طائفة . انظر هذا المقام فى سورة آل عمران عند الكلام على قوله تعالى : « ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يدعون إلى كتاب الله ليحكم بينهم » .

ذلك كله فرض كفاية بإجماع أئمة الدين ، وفرض الكفاية إذا أهمل أثم المسلمون جميعا ، فالمسلمون آثمون اليوم ، والعذاب واقع الآن فى الدنيا بتسلط الفرنجة ، وفى الآخرة بعذاب أليم ، قال تعالى : « ولعذاب الآخرة أشد وأبقى » انتهى الكلام على اللطيفة الرابعة ، والحمد لله رب العالمين .

* * *

وإذا فرغنا من الكلام على هذه اللطائف الأربع فلنشرع الآن فى ذكر اللطائف العامة التى لم يكن لها وجود عند التأليف ، والتى لم يفتح الله بها إلا عند تقديم هذه السور للطبع :

اللطائف العامة فى هذه السورة

(١) اللطيفة الأولى فى قوله تعالى : « ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور » .

(٢) فى قوله تعالى : « ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوما للشياطين » :

(٣) فى قوله تعالى : « أو لم يروا إلى الطير فوقهم صافات ويقبضن ما يمسكهن إلا الرحمن إنه بكل شئ بصير » .

اللطيفة الأولى

فى قوله تعالى: « ماترى فى خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور »

اعلم أن هذه الآية فيها من العلوم المنتشرة اليوم عجيبتان تعدان معجزتين في القرآن ، وبيانه أنك إذا نظرت فى المادة وفى ألوانها لاتجد أبدا فيها شقوقا وفطورا ، فإذا رجعنا البصر ألف مرة وألف مرة إلى الألوان وإلى الأجسام كالحجر والشجر فاننا لانرى فطورا ، فاعجب ثم اعجب من العلم اليوم فى أمر المادة وفى أمر الألوان ، أما المادة فلقد تقدم الكلام عليها فى مواطن كثيرة ، ومن أهمها ماجاء فى (سورة النور) عند آية : « الله نور السموات والأرض » فإن هى إلا ذرات كهربائية سالبة جاريات حول أخرى موجبة وعدد حركاتها فى الثانية نحو ٦ آلاف مليون مليون مرة ، فنراها حجرا وشجرا وجبلا وجملا وسحابا وكثبانا وذئابا ورحابا ، وبين كل ذرة من ذرات الحجارة والشجر وغيرها فروج وفطور بحيث لو كان على ذرة منها سكان تناسبها لم يكن لأحدهم أن ينظر الذرة التى تليها إلا بمنظار معظم (وبعبارة أخرى) إن الفروج بين كل ذرة من ذرات المادة والأخرى كالمسافة التى بين الأرض وبين النجوم والشمس والقمر ، إذن مع كون المادة عبارة عن حركات ضوئية ترى ذراتها غير متصلة ، إذن كلها فطور وشقوق ، ولكن لشدة الإحكام والإتقان وعدم التفاوت لانرى شقوقا تخيفنا وتزعجنا ولا فطورا ، فالمادة مع أنها مفعمة بالفطور بل هى أولها وآخرها فطور تكاد تكون فراغا كالذى بين السماء والأرض ومع ذلك ترى لافطور فيها ، إذن عالم المادة عجيب ، فطور ولا فطور ، كما أن أرضنا دائرة غير دائرة ، نحن نراها ساكنة ولكنها دائرة لاتهدأ وذلك لشدة الإحكام والإتقان ، وازدياد الأمان لمن عليها .

الفطور فى الألوان

وكما قلنا فى المادة نقول فى ألوانها ، ألوانها سبعة : البنفسجية ، والنيلية ، والزرقة ، والخضرة ، والصفرة والبرتقالية والحمرة ، ولم نر فى لون منها فطورا وشقوقا ، فهذا لون الزرقة الذى يراه الإنسان فى السماء فلننظره فهو أحد الألوان السبعة ، فإذا نظرناه ولم نجد فى المادة التى قام بها شقوقا لأنها محكمة مع كونها ذات فروج عظيمة جدا وهوات واسعات كما تقدم ، فهكذا نفس الزرقة لانجد فيها لونا يداخلها ويقاطعها ، وهذا بحسب الظاهر وما نراه بالعين ، ولكن الحقيقة أن فى كل لون من الألوان السابقة خطوطا سوداء مقاطعة كشفها وأبرزها فى الرسم العلماء ، فكل معدن من المعادن له ضوء خاص ، وهذا الضوء تقاطعه خطوط سود ، وهذه الخطوط السود تختلف فى ضوء كل معدن عن الخطوط السود فى ضوء كل معدن سواه ، وبهذا الاختلاف فى الخطوط السود : أى الفطور والشقوق اللونية قدر الناس أن يعرفوا مافى الكواكب والشموس من المعادن المختلفات بخطوطها السود فى أضوائها ، وبهذه الطريقة عرفوا أن عناصر الأرض من عناصر الشمس ، فهاتان معجزتان قرآنيتان ظهرتا فى الكشف الحديث ، وعسى أن نزيد المقام تبيانا فى (سورة النبأ) عند آية : « وبنينا فوقكم سبعا شدادا » وإلى هنا تم الكلام على اللطيفة الأولى فى قوله تعالى : «ماترى فى خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور » كتب قبيل الفجر يوم الأربعاء ١٤ ديسمبر سنة ١٩٣٢ م — ١٦ شعبان سنة ١٣٥١ هجرية .

اللطيفة الثانية فى قوله تعالى : ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح

مسامرة بينى وبين صديق العالم الذى اعتاد محادثتى فى هذا التفسير

حضر اليوم ٣١ مايو سنة ١٩٣٢ م وأخذ يحادثنى قائلا : لقد ذكرت فى (سورة الذاريات) مجمل الكلام على ضوء الشمس ، وكيف عرف الناس منه عجائب وعجائب ، ووعدت أنك تشرح المقام كله فى هذه السورة ، ووعدت أيضا بذلك فى آخر (سورة الحشر) كما أنك وعدت أن تشرح عجائب النبات وبدائعه بأوضح مما تقدم فى التفسير فى (سورة النبأ) فأرجو أن تفى بما وعدت الآن . فقلت : حبا وكرامة : « وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسئولا » هاأنا ذا أحدثك حديثا جميلا ، انظر هداك الله إلى ضوء الشمس يأتى من نافذة فى مصراع الباب ويدخل فى حجرتك ، فأما الجاهل فإنه لايرى فى هذا النور سرا ولا علما وإنما هو أمر عادى ، ولكن أهل العلم يقولون .

(أولا) — إن هذا النور بدخوله فى الحجرة المظلمة قد أعطانا علمين : العلم الأول أن النور يسير على خط مستقيم ، العلم الثانى أن هذا النور الذى يسير على خط مستقيم فى الحجرة تصحبه حرارة ، فهذان علمان : علم أدركناه بحاسة البصر ، وعلم أدركناه بحاسة اللمس ؛ فالأول هو الخط المستقيم ، والثانى هى الحرارة .

(ثانيا) — إن هذا النور يدهشنا أمره ونعجب من سره ، ذلك أن النور الداخل فى الحجرة المستقيم الخط الحار اللمس نراه يحمل صور الأبنية والأماكن والأشجار التى مر بها ولكنه يعكسها فيكون الأعلى أدنى وبالعكس ، وذلك بسبب سيره على الخطوط المستقيمة كما ستراه واضحا قريبا .

(ثالثا) — إن هذا النور السائر المستقيم الخط الملازم للحرارة الذى يقلب وضع الصور فيجعل عاليها سافلها سريع السير جدا ، فهو يسير فى الثانية الواحدة ١٨٥١٥٧ ميلا فى الثانية ، ويدور حول الأرض فى سبع ثانية واحدة .

(رابعا) — إن هذا النور إذا أخذنا مرآة صغيرة وتلقيناه بها فأنا نراه أخذ ينعكس على الحائط فى الحجرة ، وتكون هناك زاويتان : إحداهما زاوية السقوط ، والأخرى زاوية الانعكاس ، وهذا مشاهد فى الأماكن التى فيها ماء وقد سقط ضوء عليه من النوافذ فإن الضوء ينعكس على الحائط الآخر المقابل لما سقط منه الضوء ، وكلما اضطرب الماء اضطربت صورة الضوء المنعكسة على ذلك الحائط هكذا هذه المرآة كلما حركناها تحرك الضوء المنعكس عنها تبعا لها ، فهذا هو المسمى عند علماء الطبيعة انعكاس الضوء .

(خامسا) — وبما تقدم يفهم الناس أولا لماذا يرون صورهم فى المرآة كأن المسافة التى بين صورهم وبين المرآة مماثلة للمسافة التى بينهم وبين تلك المرآة ، ثانيا : لماذا تكون أيمانهم فى الصورة جهة الشمال ؟ ولماذا تكون شمائلهم جهة اليمين فى الصورة .

(سادسا) — يرون أن الماء كالمرآة سواء بسواء ، فهو يعكس الضوء كما تعكسه المرآة كما قدمناه .

(سابعا) — إذا وصلوا إلى هذه النقطة : أى مسألة الماء يرون أمرا عجبا ! يرون أن الصور فى الماء يحصل لها انكسار ، إذ معلوم أن النور يمشى على خط مستقيم ولكنه فى الماء ينكسر ولايستقيم . فقال صاحبى الانكسار ليس جمالا . فقلت ستعلم علم اليقين أن هذا الانكسار هو الجمال كله ، فلولا انكسار الضوء الآتى من الشمس السائر فى الجو الملاقى للهواء الجوى وما فيه من الذرات والهباء ، تلك اللاتى تجعله يجرى على غير استقامة . فينتشر فى الكرة الأرضية ، ويكون عند الناس شفق وفجر وصبح .

أقول

أقول : لولا ذلك الانكسار لم يكن صبح ولا شفق ولا جمال فى المناطق الباردة ، فالانكسار هنا اعتدال، اقرأ هذا المقام فى أول (سورة الزمر) فهناك ترى العجب العجاب ، وترى علم الطبيعة وعلم الفلك متآخيين ومتصاحبين ومتحابين ومتعانقين ، وذلك كله موضح بالصور الشمسية هناك . فقال حسن فقلت :

(ثامنا) « إن العقلاء متى وصلوا إلى هـذا المقام أخذوا يبحثون فى الزجاج ، كما بحثوا فى الماء من حيث انكسار الضوء ، فهو ينكسر فى الزجاج كما انكسر فى الماء ، وهناك يستخرجون (قاعدتين : القاعدة الأولى) أن الماء ينكسر إلى جهة من الجهتين عند مروره من جسم لطيف إلى كثيف وينكسر إلى الجهة الأخرى إذا مر من كثيف إلى لطيف .

(تاسعا) — وهنالك يدخلون فى علم العدسات ، وكل ما تقدم مقدمة له ، وذلك بأن ينظروا أولا فى أنواع الزجاج المذكور ذلك أن الزجاج طوع أيدى الناس وليس كالماء ، فهم يقدرن أن يجعلوا الزجاجة محدبة الوجهين فتكون منتفخة من الناحيتين ، ويقدرون أن يجعلوها مقعرة الوجهين ، فتكون من وسطها كالحصر النحيل ، وقد وجدوا لها فى الحال الأولى خاصة تخالف الحال الثانية ، ولكن الماء ليس كذلك ، بل هو جسم لا يقدر الإنسان أن يحكمه كما قدمناه ، فالعدسات المحدبة الوجهين تكبر الأجسام وقد تقربها، والمقعرة الوجهين تصغر الأجسام وتبعدها ، وهناك يدخل الناس فى باب العمل بهذا العلم والانتفاع به فيجعلون هذه الزجاجات مقويات لأبصارهم ، مقربات للصور تارة ، مبعدات لها أخرى على حسب الأبصار طولا وقصرا.

(عاشرا) — وهنالك يركبون الزجاجات المكبرة بعضها مع بعض بهيئة مخصوصة فيكون المنظار المعظم والآلة المكبرة التى قد تكبر الجسم عشرين ألف مرة فى زماننا هذا .

• • •

فقال صاحبى : حسن والله ما تقول ، إذن الناس انتقلوا من ضوء داخل من نافذة فى حجرة مظلمة إلى انعكاسه على الحائط وانقلاب صوره ، وهكذا تدرجوا فى العلم من انعكاس الضوء إلى انكساره وإلى تكبيره للصور وتصغيره وقربها وبعدها ، إلى مساعدة العلماء فى الأرض بتقوية أبصارهم بالزجاجات البصرية ، إلى تكبير الجسم ٢٠ ألف مرة لازدياد العلم واليقين .

الله أكبر : هذا أحسن جدا ، ولكن هذه الهداية ، واللطف اللذان تضمنتهما أسماء الله الحسنى كاسمه اللطيف ، واسمه النور ، واسمه الهادى التى كلامنا فيها لا يتم ذلك فيها إلا بالمشاهدة التى عليها بنيت سؤالى فأريد أن أشاهد ذلك عيانا وإن كنت تصورته بذهنى كما تصورت كلام الإمام الغزالى رحمه الله تعالى بعقلى

فقلت : هذا المقام لخصه الأستاذ (بول برت) الأستاذ بالسربون بفرنسا ، ووزير وزارة المعارف الفرنسية الذى ترجمته من الفرنسية إلى الأنجليزية زوجته (جوسيفيا كليتون) الإنجليزية الاسكتلندية ، وهاك ترجمته من صفحة ١٦٤ من ذلك الكتاب المسمى « العلوم الطبيعية » إلى صفحة ١٧٦ فقد جاء فيه تحت العنوان التالى مانصه :

أشعة الضوء

أخذ الأستاذ (بول برت) يخاطب تلميذه فى الفصل قائلا :

(س) جورج : من أين جاءت الحرارة ؟ .

(ج) من النار ياسيدى .

(س) ثم واصل هذه النار خارج حجرة الفصل الذي تدرس فيه .

(ج) آه : أمن خارج الحجرة . كلا . بل هي من الشمس .

(س) حسن جدا ، ولكن أترى النار والشمس ليس لهما إلا الحرارة وحدها ؟

(ج) كلا . إنهما يعطيان أيضا نورا .

(س) حقا هذا ، وإذا كانت الحرارة مصاحبة للنور فإننا إذا نظرنا إلى النور نعرف بواسطة رؤيته أن هناك حرارة ، وهذا أسهل من معرفة الحرارة بواسطة الترمومتر (مقياس الحرارة) .

وهنا أخذ المؤلف يثبت أن الضوء يجرى على خط مستقيم ، وأن الحرارة تصاحبه ، فقال : إننا أولا نرى النور يتحرك على خط مستقيم ، انظر في هذه الحجرة من حجرات المدرسة ، فإنك ترى ضوء الشمس يسطع على مصراعى بابها من الخارج وهما مقفلان (انظر شكل ٢٨) .

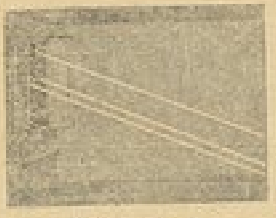

(شكل ٢٨)

ولكن لما كان في هذين المصراعين ثقوب رأينا الأشعة دخلت منها على استقامة في الحجرة مخترقة مالا حصر له من الذرات الصغيرة الترابية الرائعة في جو الحجرة .

ثم قال للتلميذ : ضع يدك في خط من هذه الخطوط الضوئية ، إنك ستحس بحاسة اللمس بالحرارة ثم قال : لاجرم أن هذا برهان آخر على أن الحرارة مصاحبة للنور .

الحجرة المظلمة

ثم قال الأستاذ : إن هذه المسألة تدعونى أن أريك أمرا عجيبا غريبا يابول ، اذهب إلى الحجرة المظلمة وضع قطعة ورق مقوى أبيض حرف (س) (انظر شكل ٢٩) تحت خطوط الشعاع الشمسية (ا د) و (ب ج) وهكذا تلك الخطوط اللامعات من خلال مصراعى الباب :

ألا تعجب معى من ذلك ، فهذه المناظر وإن كانت واضحة متميزة مفصلة على اللوحة (فدونك هذه البركة التى بجانب منزل [جيمس] وهذه الطريق المرتفعة وفيها العربة) تراها منقلبة ، وهذا عجب عجاب ! قد جعلت أعاليها أسافلها وأسافلها أعاليها ، ولكن تعليل ذلك أمر سهل ، فإنك ترى أطراف شجرة الحور عند حرف (ا) مثلا قد جرت الأشعة الشمسية منها على خط مستقيم كما تقدم ، ولكن بعض تلك الأشعة فقط أمكنها أن تدخل من ذلك الثقب حتى وصلت إلى لوحة الورق المقوى عند حرف (د)

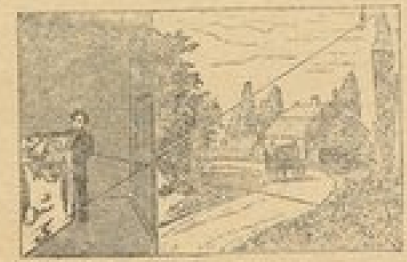

(شكل ٢٩)

الصور الخارجة ظهرت واضحة مفصلة على لوحة الورق المقوى حرف (س) ولكن جعل عاليها سافلها

ثم إن بعض أشعة أخرى من تلك الأشعة اللامعة الحاملة لصورة جذع (شجرة الحور) المذكورة أمكنها أيضا أن تخترق الثقب وتدخل الحجرة ، وهى جارية على خط مستقيم فتصل إلى (ج) انظر شكل ٢٩

وكما أمكن ذلك عند الحرفين (د) و (ج) يمكن أيضا فيما بينهما ، وبسبب ذلك ترى أن شجرة الحور عاليها سافلها ، ومثل ماقلناه في ذلك نقول بكل وضوح في جميع مناظر النقط الأرضية ، فتكون الأعالى أسافل

وبالعكس

وبالعكس يجرى النور على خطوط مستقيمة متقاطعة فتكون صور مقلوبة ، ثم شرع المؤلف يذكر سرعة ضوء الشمس ، وهذا تقدم ، وأخذ يشرح بعد ذلك انعكاس الضوء فرسم هذين الشكلين :

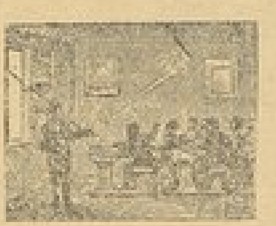

(شكل ٣٠)
شعاع الشمس يرى منعكسا على الحائط عند حرف (ا) بواسطة الزجاجة العاكسة الضوء .

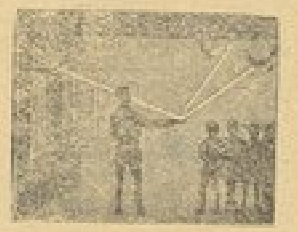

(شكل ٣١)
هناك علاقة بين اتجاه الشعاع الضوئى الواصل لزجاجة والشعاع الضوئى المنعكس عنها الواصل تارة إلى حرف (ا) وتارة إلى حرف (ب) بحسب اتجاه الشعاع الواصل إلى الزجاجة أولا .

وهاهنا أخذ يوضح ذلك . فقال : فها أنت ذا ترى على حائط حجرة المدرسة جزءا من الشعاع الشمسى قد ظهر عند نقطة (ا) فمتى حركنا المرآة تحرك ذلك الشعاع مثل حركتها فى اتجاهها ، إن هذه النقطة الشعاعية صورها ضوء الشمس ثم سقطت على المرآة ، ومن المرآة أخذت تظهر ثانيا ، وهذا يسمى انعكاس الضوء ، ثم أخذ المؤلف يشرح هذا الموضوع فقال : لندخل الحجرة المظلمة (شكل ٣١ المتقدم) ثم لنضع المرآة فى وسط ضوء الشمس الذى يخترق النافذة (ر) التى فى مصراع الباب مخترقا ظلام الحجرة ، ومتى وصل إلى المرآة أخذ ينعكس عنها مرتدا إلى الحائط الآخر جاريا فى الهواء المفعم بالذرات الهبائية الترابية واصلا إلى نقطة (ا) إذا أنا أمسكت بالمرآة على هيئة استقامة ، فإذا أنا أملت المرآة فإن نقطة الشعاع تصل إلى حرف (ب) فى الشكل المذكور ، وعلى هذا تكون هناك علاقة تامة بين اتجاه الشعاع الساقط على المرآة واتجاه الشعاع المنعكس عنها .

وهانحن أولاء الآن شارعون فى معرفة قيمة هذه العلاقة شيئا فشيئا فنقول : فهذه توضح لنا كيف كانت المرآة مظهرة لنا صورنا إذا نحن وقفنا أمامها ، وكيف ترينا تلك المرآة أن صورنا تبعد عن المرآة خلفها بمقدار البعد الذى بين أجسامنا وبين تلك المرآة ، ولذلك نرى المتوحشين إذا نظروا وجوههم فى المرآة لا يزالون يبحثون وراءها عن ذلك الذى يرونه ماثلا أمامهم من خلفها ، وكيف نرى الصورة فى الناحية المخالفة لناحية أجسامنا وأيضا نرى الناحية اليمنى من أجسامنا مصورة فى الناحية اليسرى والعكس بالعكس .

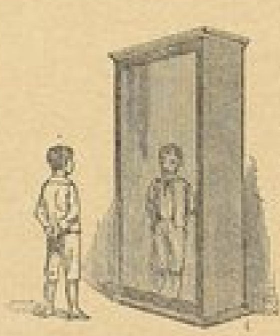

(شكل ٣٢)
المرآة التى انطبعت فيها الصورة

قال : ولما كان هذا المبحث يعوزه بعض المذكرات الهندسية ليتجلى واضحا وجب تأجيله حتى تعرف تلك المذكرات ، ثم شرع بعد ذلك فى هذا المبحث ، وهنا أخذ يشرح المرآة فقال : هذه المرآة التى استعملناها منذ دقائق لم تكن إلا من زجاج مطلى بالقصدير ، وبعض المرايات

تصنع من المعادن بعد أن تصقل صقلا جيدا ، وهكذا كل سطح مصقول لامع يمكننا استعماله مرآة .
فهاك شكل ٣٤ وهو الآتى :

فهاهى ذه الزجاجة المملوءة ماء (شكل ٣٣) ، انظر فهاأناذا أرفعها قليلا إلى مسافة أرفع من عينى حتى يمكنها أن تنظر سطح الماء من أسفل الزجاجة ، إن هذا السطح قد ظهر لى كأنه فضة مصقولة صقلا جيدا ، انظر إليها أنت نفسك ، فها أنت ذا ترى جميع الصور التى حولها قد عكست عليها واضحة ظاهرة كما تتضح وتظهر على وجه المرآة الحقيقية سواء بسواء . هذا تمام المقال فى هذا الموضوع ، والحمد لله رب العالمين .

(شكل ٣٣)
سطح الماء قد انعكست فيه الصور وظهرت كما ظهرت فى وجه المرآة سواء بسواء .

ثم أخذ يشرح انكسار الضوء فقال : فلنذر الكلام فى موضوع انعكاس الضوء ، ولنبتدئ المقال فى انكساره فنقول :

انكسار الضوء

إن لفظ انكسار الضوء قد وضع للحقيقة التى تراه منطبقا عليها ، فانظر رعاك الله هذه الزجاجة المملوءة ماء (شكل ٣٥) هاأنا ذا وضعت فيها عصافة من التبن ، والعصافة قد ظهرت لأعيننا وهى مكسورة فى الماء ، وهكذا نراها تزداد اقترابا من الوضع الأفقى كلما أوغلت فى دخولها فى الماء ، هاأنت ذا تعلم علم اليقين أن العصافة ليس بها انكسار ، هذا لاتشك فيه ، ولكنك لن تقدر أن تمنع مخيلتك من تصورها مكسورة .

وهناك تجربة أخرى تثبت نفس النتيجة التى قدمناها ، وهو ما تراه فى (شكل ٣٤) هنا .

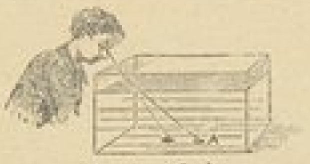

(شكل ٣٤)
إن الشعاع اللامع هاهو ذا أخذ ينكسر حينما دخل الماء ، وهو الذى أظهر أن قطعة النقد (بى) قد ظهرت عند حرف (ا) فى الماء . وهذا المنكسر جاء بدل النقطة الحقيقية التى كان عنها هذا الانكسار .

(شكل ٣٥)
العصافة من التبن ظهرت كأنها مكسورة فى الماء ، وهذا هو الانكسار .

ثم أخذ يصف الصندوق فى هذا الشكل ، فقال : هذا صندوق من القصدير ، وقد وضعت فيه قطعة (بى) من النقود فى قاعة ، وها أناذا أضع الماء فى قاع الصندوق ، تعال هنا يا جيمس وقف بحيث تقدر أن تنظر الحافة البعيدة من البى ، هاأناذا أصب الماء فى الصندوق قليلا قليلا مع الاحتراس حتى أتجنب أن يتحرك البى من مكانه ، فقل لى يا جيمس ما الذى تراه ؟ فأجاب : هاأناذا أرى قطعة النقد ترتفع وتتحرك رويدا رويدا نحو نقطة (ا) . فقال الأستاذ : نعم ذلك حاصل بسبب أن الشعاع الضوئى اللامع من قطعة النقد أخذ ينكسر كما انكسر من العصافة المتقدمة قريبا ، هذا هو المسمى « انكسار الضوء » وهاهنا قاعدة مطردة ، وهى أن الشعاع متى مر من وسط لطيف إلى وسط كثيف فإنه يميل إلى جهة من جهتيه كما رأيت فيما تقدم وإذا مر من وسط كثيف إلى وسط لطيف مال إلى الجهة الأخرى .

واعلم أن الزجاج المسطح يفعل فى الضوء ما يفعله الماء من حيث الانكسار . هاأناذا أضع قطعة من الزجاج سميكة مسطحة (انظر شكل ٣٦) .

ويمكنك أن ترى الشعاع الضوئى يميل كما مالت العصافة فيما تقدم ، فإذا

(شكل ٣٦)
انشعاع الكتاب فى مروره من الزجاجة إلى الهواء يميل وهذا انكسار بسيط .

(شكل ٣٧)
الشعاع حينما فارق الكتاب مال في مروره أولا من الهواء إلى الزجاجة ، ثانيا من الزجاجة إلى الهواء فهذا انعكس مرتين .

أنا وضعت تلك القطعة من الزجاج على بعد مسافة كبعدها من الكتاب (انظر شكل ٣٧) فإن ميل الشعاع في هذا الحال ينكسر انكسارين : الانكسار الأول يكون حينما يسير الشعاع من الكتاب في الهواء إلى القطعة الزجاجية، ويتخللها . الثاني حينما يخرج الشعاع من قطعة الزجاج إلى الهواء ثانيا .

العدسات : (البلوريات)

وهنا أخذ يشرح أحوال الزجاج الذي ليس مسطحا ، بل هو إما محدب وإما مقعر ، والمحدب والمقعر أمرهما عجب فلكل منهما عمل خاص في الصور الواردة عليه ، فهذا مكبر وهذا مصغر ، وبيانه أننا إذا وضعنا قطعة من الزجاج غير مسطحة بل هي محدبة الوجهين فإن ميل الضوء عنها يكون أتم وأكمل .

(س) — يا بول بماذا تسمى هذه القطعة الزجاجية التي في شكل ٣٨ المعنونة بحرف (ا) التي هي محدبة الوجهين :

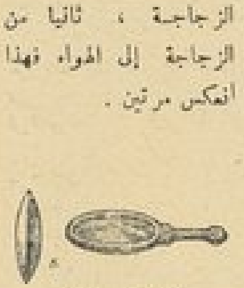

(شكل ٣٨)
عدسات محدبة الوجهين مدورة الناحيتين

(ج) فأجاب قائلا : أسميها زجاجة معظمة للصورة .

(س) نعم هو كذلك ولكن علماء الطبيعة يسمونها (عدسة) أو (بلورية) إن اسمها العادي (الزجاجة المكبرة) يدل على حقيقتها ، لأنها تكبر الأشياء الصغيرة خذ هذه في يدك وانظر إلى حروف المطبعة الدقيقة في هذا الكتاب (شكل ٣٩) . ثم قال له : حسن ما الذي جعلك متعجبا في دهش ، فأجابه التلميذ قائلا : ولم لا أعجب يا سيدي، إني لم أر شيئا ألبتة ، فقال الأستاذ : انتظر رويدا ، لا تضع العدسة على عينك ، ولا تجعل أنفك على الكتاب ، بل انظر كما جرت به عادتك ، ولكن بواسطة الزجاجة المكبرة فاجعلها أولا قريبة من الكتاب (انظر شكل ٣٩) ارفعها قليلا قليلا إلى أعلى وأنت لا تزال تنظر بها ، فها أنت ذا ترى الحروف أكبر شيئا فشيئا فاستمر في الرفع حتى تراها مفصلة ، ولكن إذا داومت على ذلك واستمررت في رفع الزجاجة المكبرة فإنك ترى الحروف تصغر شيئا فشيئا حتى لا تعود ترى ألبتة إذن البعد المناسب يجب أن يعرف، وكل ما كان أطول منه أو أقصر يجب أن توضع له عدسة ؛ وهذه العدسة التي معك الآن تكبر الأشياء بالضعف ، ويجب أن تجعل العدسة قريبة من الجسم المنظور بمقدار بوصة .

(شكل ٣٩)
زجاجتان محدبتا الوجهين مكبرتان

الزجاجة المركبة المعظمة : (المكروسكوب)

أولا : إذا وضعنا عدة عدسات معا بهيئة خاصة فإنها ترينا الشيء أكبر مما هو عليه من حيث حجمه ١٠ مرات أو ١٢ مرة مثل حجمه الحقيق وهذه تسمى (الزجاجة المركبة المعظمة)

ثانيا : (المكروسكوب) يصنع من عدسات أكثر نظاما في ترتيبها وأبدع إحكاما في تركيبها (انظر شكل ٤٠) .

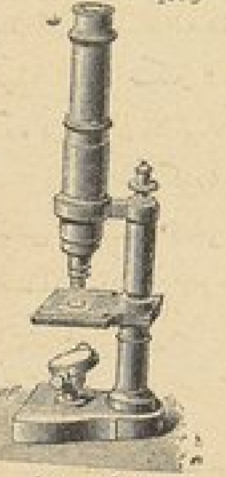

(شكل ٤٠)
المكروسكوب يعظم الصور أكبر

إن (المكروسكوب) (١) فيه قوة عظيمة جدا على تكبير الصور ، فقد يعظم الحجم ١٠٠ مرة ، و٢٠٠ مرة ، بل ألف مرة أكبر من الحجم الحقيق .

ثم قال : إن ما أقوله فى أمر (المكروسكوب) ربما لايدهشك ، ولايحدث عندك غرابة ، لأنك تقول فى نفسك : وما قيمة تكبير الشىء عشرة أومائة أو ألف ؟ إن الرجل المخرف الدجال ربما يقول لنا أنا أكبر الشىء ألف ألف مرة ، فإذا كبرت بالمكروسكوب الجسم عشرات أو مئات فذلك ليس بمدهش لأنا سمعناه. والجواب على ذلك أن أقول لك : إن طريقة العد عند الدجال غير طريقتها هنا فى المكروسكوب ، لأن طريقتنا هنا أننا إذا قلنا إن المكروسكوب يكبر الشىء عشر مرات فمعناه أنه إذا كان طوله عشر البوصة يصبح ذلك الطول بواسطة المكروسكوب طول البوصة بتمامها ، وهذا ليس معناه أنه كبر عشر مرات فحسب . كلا. بل إننا إذا قلنا إن هذا الجسم كبر طوله عشر مرات فمعناه أنه كما كبر فى طوله كبر فى عرضه كبر فى عمقه ، وبضرب ١٠ فى ١٠ فى ١٠ يصير ألف ، فقول الدجال : إنى أكبره مليون مرة ليس أمر أكثر من أنه زاد طوله فجعله ١٠٠ ومتى زاد طوله مائة كان عرضه كذلك وعمقه ، فهذا هو المليون بعينه ، إذن تعبيرنا نحن أقرب إلى عدم ضجيج الجهلاء ودهشتهم وتعبيره أدنى إلى ضجيجهم ودهشتهم .

لا أمر أعجب ، ولا منظر أدهش وأدعى إلى سرور نفسك وبهجتها من أن تشهد بنفسك أيها القارىء الكريم بالزجاجة المكبرة عجائب المخلوقات أمامك ، أنا لا أقدر أن أعبر لك عما يخالج نفسك من الدهشة والغرابة والبهجة والاستحسان والروعة عند امتحانك حشرة ، أو زهرة ، أو أى شىء حولك ، أو نفس جلدك وثوبك وغيرها ، بماذا تدرس هذه العجائب كلها بزجاجة مكبرة ثمنها شلنان اثنان لاغير .

هل فى الوقت سعة لتفصيل ما تظهره هذه الآلة البديعة من العجائب التى تدهش اللب وتحير العقل وتبعث على الحيرة والعجب آلاف من الأحياء الصغيرة السابحات فى قطرة ماء فى مستنقع وملايين كثيرة من الأجسام الصغيرة الحمراء فى قطرة من الدم ، أنا لا أجد وقتا للتوسع والتفصيل ، فذلك ليس فى الإمكان .

التلسكوب ، أو (سبيكلاس) الآلة المقربة

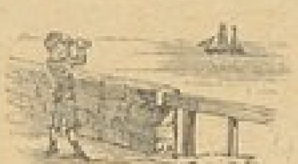

(شكل ٤١)
تلسكوب يكبر الجسم من حيث المسافة ، وينتج ذلك أن الجسم يصير قريبا .

وهناك نوع من (المكروسكوب) يكبر الأجسام باعتبار قربها (ومعنى هذا أن الأجسام البعيدة صغرها البعد ، فهذا التلسكوب متى كبرها ظهرت قريبة ، فهذا تكبير للبعيد فيصير فى النظر قريبا) فهذه مكبرة تكبيرا يظهر أثره فى اقتراب الأجسام (انظر شكل ٤١)

وهذا التلسكوب بواسطة وضع عدسات مختلفات بهيئة أخرى ونظام خاص ، فهذه كما تسمى سبيكلاس تسمى تلسكوب (شكل ٤١) بمساعدة هذه الآلة تقدر أن تدرس النجوم وتنظر فيها عجائب مفصلة تفصيلا بديعا لا ترى بالعين المجردة .

(١) كلمة مكرسكوب كلمة مركبة من كلمتين يونانيتين : ميكروس صغير ، وسكوبو : تنظر إلى : اهـ

زجاجة العين ، أو المنظار

وهناك نوع آخر من الزجاجات المكبرات للأحجام معلوم للعموم ، وهو المنظار المعتاد ، وهو عبارة عن قطعة من الزجاج صغيرة بيضاوية الشكل يضعها أمام عينه من اعترى نظره ضعف .

قال المؤلف لتلاميذه : وها أناذا ملزم أن أضع هذا المنظار على عينى لأنى كبير السن ، فها أنت ذا ترى أن هاتين عدستان بسيطتان مكبرتان ولكن قليلا ، فخذهما فى يدك واستعملهما كما كنت تستعمل الزجاجة المكبرة قليلا ، وانظر هل يمكنك أن تقرأ بها ؟ فأجاب هنرى وقد حرك رأسه قائلا : آه : ها أناذا أرى ، لماذا ؟ أنا لست الوحيد فى المدرسة الذى يحتاج إلى منظار يضعه على عينيه ، إن جيمس (وإن كان شابا) يعوزه منظار على عينيه ، فلما وضعها هنرى على عينيه وجدها على هيئة خلاف ما تقدمه ، فحصلت للتلاميذ حيرة ، لأن هذا المنظار مبعد لامقرب كالأول .

(شكل ٤٢)

عدستان مقعرتان من الجانبين معا ، فهذه بدل أن تجعل الحجم كبيرا تريه للأعين صغيرا ، وبدل أن تجعله قريبا تجعله بعيدا .

فقال الأستاذ : أنا أشرح الموضوع لكم تمام الشرح : يجب أن تعلموا أن هناك عدسات أخرى غير المحدبة وهى المقعرة (انظر شكل ٤٢) .

تعال هنا يا جيمس بجانبى ، وأحضر معك منظاريك ولكن لاتضعهما على عينيك ، وأنا كذلك لا ألبسهما ثم تعال هنا يا هنرى ، يا من عيناه قويتان سليمتان ، لا قصر فيهما ولا طول ، تعال معنا أيضا ، فلنقرأ نحن الثلاثة فى كتبنا ذات الحروف المتحدة من حيث مطبعتها ، أما أنا فإنى ملزم أن أجعل الكتاب بعيدا عن عينى جدا على طول ذراعى حتى أقدر أن أتبين حروف الكتاب ، لأن نظرى طويل ، فأما جيمس فإنه على العكس منى ملزم أن يجعل الحروف بجانب عينيه ، لأن نظره قصير ، وأما أنت يا هنرى فإن نظرك معتدل ، لذلك تضع الكتاب فى المسافة المعتدلة التى تبعد نحو ثمان بوصات عن عينك (انظر شكل ٤٣) فلنضع مناظرنا على أعيننا أنا وجيمس ، الآن صار النظر تاما ، نحن الثلاثة قد وضعنا كتبنا فى مسافة واحدة (انظر شكل ٤٤).

(شكل ٤٣)

هنرى سليم النظر ، وأنا طويل النظر ، وجيمس قصير النظر .

(شكل ٤٤)

نحن لبسنا مناظيرنا أنا وجيمس ، ونظرنا المنحرف قد اعتدل الآن كنظر جيمس .

ثم قال الأستاذ : إن سبب هذه العجائب سأوضحه عند قراءة علم التشريح والآن نريد أن ندع الكلام على العدسات المصغرة ، ولنجعل كلامنا خاصا بالعدسات المكبرة ، إننا إلى الآن لم نستعملها إلا فى أمر واحد ، وهو أننا نضعها بين أعيننا وبين الأشياء التى نريد أن نبصرها ، ولكنا الآن نريد أن نستعملها استعمالا آخر ، وهو (بؤرة العدسة) ، انظر الآن هذه العدسة قد وضعتها فى ضوء الشمس (انظر شكل ٤٥) .

(شكل ٤٥)

إن جميع الأشعة الضوئية قد اجتمعت عند نقطة (ا) المسماة بؤرة .

ثم قال : انظر هذه المرة ما يأتى : ها أناذا وضعت العدسة فى ضوء الشمس (شكل ٤٥) وقد وضعت وراءه قطعة من الورق، وهذه الورقة أخذت أوجه نحوها بالتدريج العدسة ، فها أنت ذا (أولا) ترى أن بقعة بيضاء حرف (ا) حاصلة فى الورقة فى بعد خاص ، ظاهرة على الورقة أمامك ، وهذه البقعة يأخذ شكلها فى الصغر شيئا فشيئا كلما اقتربت منها العدسة شيئا فشيئا أيضا ، ولا تزال تصغر حتى تصير نقطة صغيرة فى مقدارها ، ولكنها فى أثناء تدرجها فى الصغر تتدرج أيضا فى ازدياد لمعانها وضيائها ، ولا عجب فى ذلك، لأن ألوان ضوء الشمس كلها التى سقطت على العدسة قد اجتمعت معا فى هذه النقطة . (ثانيا) هذه النقطة نسميها (بؤرة العدسة) فى الاصطلاح ، ومعناها فى اللغة العربية حفرة النار . (ثالثا) إذا أردنا أن نستعمل هذه العدسة زجاجة مكبرة وجب علينا إذ ذاك أن نضع الجسم المراد تكبيره بين العدسة وبين بؤرتها ، إياك أن تنسى ذلك .

(شكل ٤٦)
عند البؤرة (ا) فوق يدك كل الأشعة قد اجتمعت معا .

ثم قال الأستاذ : تعال هنا يا جيمس وضع يدك فوق قطعة الورق (شكل ٤٦) انظر تجد أن بؤرة العدسة تضىء على يدك ، ولكن لماذا أراك تسحب يدك فترجعها إلى الوراء ؟ فأجاب : ذلك لأنى أحس بأن النقطة شديدة الحرارة . (رابعا) فأجاب الأستاذ : حسن جدا ، إن هذا يدلك على أن الحرارة دائما تصاحب النور ، وأن البؤرة الجامعة للألوان هى عينها أيضا بؤرة جامعة للاشراق والإضاءة فهى مجمع الألوان والإشراق ، كلما كانت العدسة أوسع وأكبر كانت كميات النور التى تجمعها من الشمس فى مركز النور وهى البؤرة أعظم ؛ وكانت تلك البؤرة أكثر إشراقا وأشد حرارة على مقدار ما جمعت من الأنوار .

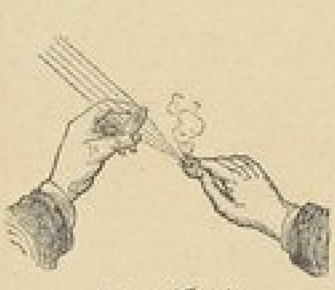

(شكل ٤٧)
عند بؤرة عدستى الصغيرة (ا) كل أشعة الحرارة اجتمعت معا فأوقدت قطعة الصوفان .

(خامسا) إننا بهذه العدسة الصغيرة نقدر على إيقاد النار فى الصوفان (شكل ٤٧) ، ولكن ليس من الواجب المحتم علينا للوصول إلى هذه النتيجة العجيبة ، وهى إيقاد النار بسبب هذه البؤرة أن تكون العدسة من زجاج . كلا . بل تكون هذه النتيجة ، ولو كانت العدسة من أى جسم شفاف ، مثلا الثلج جسم شفاف ، ولقد نعلم أن قائد السفينة فى الأقطار الشمالية القطبية يوقد النور بالأشعة الشمسية الضعيفة فى الأقطار القطبية الشمالية المجتمعة فى بؤرة عدسة كبيرة جدا متخذة من الكتل الثلجية الكبيرة .

الله أكبر ، فكم يتعجب سكان تلك الأقطار ، وهم الأسكيمو من ذلك المنظر البديع ، ولكم يدهش البحارة التابعون لقائد السفينة من ذلك المنظر البديع الذى أبرزه العلم فأخرج الحرارة من البرودة وكأن الضد نشأ من ضده ، ذلك أمر عجيب .

(شكل ٤٨)
القطعة الزجاجية حللت النور الشمسى إلى سبعة ألوان : البنفسجى، والنيلى ، والأزرق والأخضر، والأصفر، والبرتقال والأحمر ، واجتماع هذه السبعة يسمى : سبكترام .

الألوان

ها نحن الآن نريد أن نبحث فى تجاريب خاصة بأمر أكثر عجبا ، وأجمل منظرا ، وأشد بهجة فى القلوب ، مظهر تحليل النور وتفرق أشعته والكلام على ألوان الشمس السبعة ، ها هى ذه قطعة بلور ذات ستة وجوه (انظر شكل ٤٨) .

فها هى ذه أنا أديرها فى ضوء الشمس فوق هذه الورقة ، فها نحن أولاء نرى أنها فى وضع خاص تحدث فوق الورقة نقطة ذات ألوان كثيرة ، فإذا نظرنا بعناية إلى هذه النقطة وتأملناها نجد أن مركزها يشتمل على لونين ، وهما أصفر وأخضر ، وعلى أحد الناحيتين الحمرة ، وعلى الناحية الأخرى الزرقة والبنفسجية ، ولا جرم أنكم قد لاحظتم (قوس قزح) ، ومعلوم أن الألوان المجتمعة فيه سبع ، فإذا ابتدأنا بالبنفسجى الذى هو أسفل الألوان التى فى (قوس قزح) قلنا هكذا : البنفسجى ، النيلى ، الأزرق ، الأخضر ، الأصفر ، البرتقالى ، الأحمر .

هذا بحسب الظاهر ، ولكن فى الحقيقة أن هناك أنواعا من الطيف كثيرة يختلط بعضها ببعض ممزجات متحدات من الأحمر إلى البنفسجى بحيث لايقدر الإنسان أن يميز أولها من آخرها ، ولا مبدأها من منتهاها .

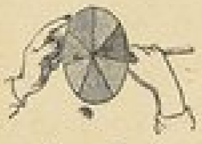

(شكل ٤٩)
الضوء الأبيض حاصل بسبب اتحاد الألوان السبع (ألوان ضوء الشمس).

وعلى ذلك تكون دراسة ألوان ضوء الشمس تختص بهذه الألوان السبع المجتمعة فى صورة (قوس قزح) المعروف ، وهى التى أظهرتها لنا الزجاجة البلورية المسدسة الأوجه التى بها عرفنا كيف يتفرق النور وينتشر فيصير ألوانا مختلفة .

إن ما تقدم به نعلم أن الألوان كلها مجتمعة فى ضوء الشمس وإن كانت بحسب الظاهر بيضاء لا لون لها .

تركيب ضوء الشمس الأبيض

لنبرهن الآن بتجربة بسيطة على ما تقدم فنقول : ها هى ذه قطعة من الورق المقوى مدورة ، إنى لونتها بسبعة الألوان الظاهرة فى (قوس قزح) (شكل ٤٩) .

إن الورق المقوى المتقدم فى مركزه فتحة صغيرة ، وفيها قد أقمت عودا ، وعلى ذلك ها أناذا أديرها بسرعة على هذا العود كأنها تدور حول محور ، ها أنتم أولاء ترون الألوان قد اختفت اختفاء تاما بعد الدوران وكانت ظاهرة قبله ، وأصبحت هذه الورقة المقواة بيضاء تسر الناظرين .

على أنه ليس من الضرورى أن أرسم الورقة بسبعة الألوان حتى تظهر بيضاء عند دورانها السريع ، إنه ليجزئنى فى ذلك أن أرسم الثلاثة الألوان الرئيسية ، وهى الأحمر والأصفر والأزرق ، وسبب ذلك أن بقية الألوان مشتقات من هذه الثلاث ، وهى : البرتقالى ، والأخضر ، والبنفسجى (المؤلف: لم يذكر السابعة ، وهو النيلى) .

ثم شرع يبين ذلك فقال : إن هذه الثلاثة تحصل باتحاد اثنين من هذه الثلاث ، وبيانه أننا ننظر فى قطعة أخرى من الورق المقوى ونلون نصفها بالحمرة والنصف الآخر بالزرقة ونفعل فيها ما فعلناه بسابقتها ، فلما فعل ذلك ظهر اللون البنفسجى ، ثم إنه لون قطعة أخرى نصفها بالحمرة ونصفها الآخر بالصفرة ، فأدارها بسرعة فظهر اللون البرتقالى ، ثم إن لونى الصفرة والزرقة أنتجا الخضرة .

ما معنى ألوان المادة المشاهدة

ما الذى نعنى بقولنا هذا : الورق المقوى أو غيره أبيض أو ذاك أخضر أو أحمر أو أسود ؟

(الجواب) : إن معنى أن الورق المقوى أبيض ، أو أى شىء آخر أبيض أنه قد نشر وأذاع كل ما وصل إليه من الألوان السبعة ولم يمتص منها شيئا ، والأزرق والأحمر قد امتص كل منهما ما وصل إليه من الأشعة ولم يمتص الأول الزرقة ، ولا الثانى الحمرة ، أما الأسود فإنه قد امتص جميع الأشعة فلم يبق منها شيئا ينكسر

عنه وينتشر انتشاراً فسأل أحد التلاميذ المؤلف قائلا : ما سبب هذا ؟ فأجاب: أنا الساعة لست على استعداد للاجابة ، فلتقنعوا مؤقتا بهذه المعرفة .

وعلى هذه الطريقة يكون قولنا : إن الماء أبيض ، وإن الحمرة حمراء ، وإن الحبر أسود ، معناه أن الماء أجاز لجميع الألوان السبعة أن تقاطعه وتمر فى طريقها به ، ولم يحبس لونا منها ، ولم يمر لون من الألوان السبعة فى الحمر إلا لون الحمرة ، والبقية قد امتصها ذلك السائل ، أما الحبر فقد امتص جميع الألوان ولم يسمح بمرور واحد منها به ، ذلك هو المعنى الذى يفهم من هذه الصفات اللونية ، إن التلون يحصل بإحدى حالين إما بانتشار الضوء ، وإما بمروره من جسم شفاف ؛ فمثال الأول ما تقدم من انتشار الضوء بواسطة الورق القوى الملون ، ومثال الثانى أن نضع بين أعيننا وبين الضوء أجساما غازية ، أو أجساما سائلة ، أو أجساما صلبة شفافة كالزجاج .

ومن أندر ما عرف من صفات الأجسام وعجائبها أن الجسم الواحد يكون له لونان باعتبارين مختلفين: أى بانتشار الضوء عنه ، أو بمروره منه بهيئة جسم شفاف ، ثم أتى بورقة شفافة رقيقة جدا من الذهب وقال : انظروا هذه ، فهى صفراء متى انتشر الضوء عنها : أى إن لونها نفس لون الذهب المعروف، ولكن إذا نظرناها فى حال وضعها بين أعيننا وبين ضوء الشمس فإنها تظهر لنا خضراء ، ومثل هذه الحال فى المواد قليل جدا اهـ .

ملخص ما تقدم

فقال صاحبى : ما ملخص هذا ؟ فقلت : ملخصه أن هذا العقل الإنسانى يستنتج أعاظم الأشياء من أصاغرها ، فإنه لما رأى الضوء دخل حجرته على خط مستقيم ومعه الحرارة استخرج منه أمرين : ملازمة الحرارة للضوء ، وذلك بحاسة اللمس ، وكون جريه على خط مستقيم بحاسة البصر ، ثم أخذ يستنتج مافوق ذلك مثل إن الأجسام ترسم على الأجسام القابلات للضوء على هيئة مقلوبة ، وإن الضوء إذا وقع على جسم شفاف كالماء فإنه ينعكس عنه وتكون هناك زاويتان : زاوية للسقوط وزاوية للانعكاس ، ومن وضع فى يده مرآة وانعكس عنها النور كان ذلك المنعكس تابعا لحركة المرآة ، ثم انتقل العقل الإنسانى من هذه المبادىء إلى ما هو أشرف منها ، فنظر فى أمر الصور المرسومة فى المرآة ، فوجد أن المسافة التى بين الإنسان وبين المرآة مساوية للمسافة المقدرة بين نفس المرآة وبين الصورة التى يخيل له أنها وراء المرآة ، وهذه راجعة إلى المسألة المشابهة لهاهنا ، ثم رأى أن يمينه أصبح فى الصورة يسارا وبالعكس ، فوجد هذه المسألة راجعة إن أن الصور ترسم مقلوبة كما تقدم قبل ذلك .

هنالك أخذ يوازن مابين الماء والزجاج ، فوجدهما يقبلان الصور لأنهما شفافان ، ثم أخذ الإنسان يبحث فى انكسار الضوء كما عرف انعكاسه ، وهو فى حال الانكسار تعتريه أحوال : مثل أن الجسم فى بعض أحواله يكون حجمه أكبر مما هو عليه إذا غمره الماء ، فبدا لهذا الإنسان النشط أن يتخذ العدسات ، فجعل منها ماهو مكبر للأجسام الصغيرة ، ومنها ماهو مصغرلها ، ومنها ماهو مقرب لمسافتها ، فكانت العدسات المحدبة الوجهين مكبرات للأجسام ، وبوضع عدد منها بهيئة منتظمة أمكنه أن يكبر الحشرات بالآلات المعظمة (مكرسكوب) وبوضع آخر منتظم أمكنه أن يقرب مناظر الأشياء البعيدة (تلسكوب) .

ثم انتقل من هذا إلى أمر طبى ، فاستعمل العدسات على العيون الإنسانية ، فإن كانت مقعرة نفعت طويل النظر ، وإن كانت محدبة (وظيفتها تصغير الأجسام) نفعت قصير النظر ، وهاهنا أخذ الإنسان ينظر

فى الألوان فوجد أن (قوس قزح) فى السماء شرح له ضوء الشمس شرحا وافيا فدهش إذ رأى سبعة ألوان واضحات أمامه مبتدئة من الأسفل إلى الأعلى على هذا النمط : بنفسجى ، نيلى أزرق ، أخضر ، أصفر ، برتقالى، أحمر . فالأحمر أعلى فى قوس قزح، والبنفسجى أقرب إلى الأرض هنالك خطر لهذا الإنسان أن ينظر جسما شفافا عسى أن يرى هذا المنظر ، فماذا فعل ؟ أخذ صمامه من البلور ، ذلك الجسم الجميل المستخرج من الرمل مع أجسام أخرى مثل البوتاسا أو الصودا ، وجعله مضلعا ، فرأى هذه الألوان واضحة خلفه ، فكان الأزرق والبنفسجى من جهة ، والأحمر من جهة أخرى والأصفر والأخضر فى الوسط .

سبحانك اللهم : زوقت السحاب وجملته بقوس قزح ، وجعلته للناس درسا جميلا ليبتهجوا بالمناظر الجميلة ، عجب ! هذه حدائق وجنات ، الأزهار فى الحدائق ذوات ألوان كألوان الطيف . وهذه البلورة المضلعة تصنع نفس هذه الألوان البديعة التى تكاد تكون مجردة عن المادة .

اللهم إنك لايحجبك عن الإبداع أمر ما ، فهذا السحاب فى السماء خلقته لإصلاح حال كل حى على الأرض ، ولكن فى أثناء ذلك لم تدع التزويق والإبداع وتحسين أشكال السحاب .

فقال صاحبى : هل ما ترجمته من هذا المقال أحدث أثرا غير ما ذكرته الآن فى نفسك . فقلت : لقد تقدم ذكر الآلة المكبرة للأجسام فشاقنى ذلك أن أقابل الأستاذ شوقى بك بكير الذى هو أعظم عالم طبيعى فى مصر ، وهو يسكن حلوان ، وأرانى (المكرسكوب) الذى عنده ، وأطلعنى على رجل الذبابة التى كبرها أربعة آلاف مرة ، وذلك فى يوم (شم النسيم) سنة ١٩٣٢ ثم وضع حجرا صغيرا لايؤبه به استخرجه من جهة تسمى (الحوف) وهو واد يمتد فى وسط الجبل الشرقى بالبلاد المصرية ، وما كاد يضع هذا الحجر تحت الآلة حتى ظهرت أنواع من القواقع مختلفات الشكل مما دل على أن هذه الأحجار ، وهذه الصخور وهذه الجبال قد خلقت فى البحر ثم اعترتها أحوال عظيمة غيرت نظام الأرض وأوضاعها ، فظهرت تلك الجبال على ظهر الأرض كما هو الرأى السائد عند علماء هذا الزمان .

ومما قاله إذ ذاك إن فى وادى الحوف المذكور نباتات تخرج بالفطرة تنفع للمداوة ، فإذا زرعناها فقدت خواصها ، وهذا عجب يدل على أن العناية الإلهية رتبت نظام العوالم لثمرات خاصة وأكثر الناس لايعلمون .

هنالك أرانى أمرا عجبا ! فقال انظر ، فنظرت إذا فوق سقف منزله سلكان مصنوعان من النحاس ، دقيقا صنعهما ، موضوعان بهيئة هندسية بحيث يميل السلك الأول عن خط الشمال إلى الغرب عشرين درجة ويميل الثانى عن الأول نحو ٦٠ درجة ، وهذان السلكان يجتمعان فى زاوية عند الحائط ، وقداتصل بهما سلك نزل إلى أسفل المنزل واتصل بالآلة (الراديو) .

فهذان السلكان فوق سقف المنزل يتلقيان ما يأتى به الجو من الأصوات التى فى الجهات الأوروبية وغيرها المحصورة بين هذين السلكين ، فكل موج من الأمواج الواقعة بينهما يلتقطهما هذان السلكان ويتلقاه عنهما السلك النازل إلى الآلة فى الدور الأسفل من المنزل : «فتبارك الله أحسن الخالقين» .

سلوك من النحاس تكون فوق السقف توضع بهيئة خاصة ، تعطى قوة سحرية بأن تسلب من الجو حركات الأصوات الجارية فى الأثير فتحيلها إلى صوت كالذى صدر هناك فى باريس أو لندن أو برلين أوفينا. إن هذا الأمر عجيب ! فقال صاحبى : هذا من أعجب العجب ! فكفى هذا فى الاستطراد ، فهل من رجوع إلى المبحث الذى كنا فيه ، وهو ضياء الشمس ؟ فقلت نعم .

ضوء الشمس كما يفيد الهداية يفيد الحياة

أيها الصديق : تقدم كلامنا فى أن ضوء الشمس منه صنع الناس الأعاجيب ، فى الهداية به اهتدوا إلى غرائب وغرائب تقدم وصف بعضها فى هذا المقام .

رباه ، خلقت الشمس وأرسلت منها ضوءا لأرضنا برحمتك ونعمتك ، وجعلت لها نظاماتاما فى سيرها، فنظمنا أعمالنا بنظام سيرها ، ثم نوعنا فى الانتفاع بذلك النور البديع .

ثم أننا نظرنا نظرا آخر فألفينا هـذا النور ليس قاصرا على هدايتنا . كلا . بل هو مفيد لنفس حياتنا ، فهو حياة كما هو هداية ، إن النور يسطع على الورق فى الأشجار والحشائش وسائر النبات ، فيمتزج بالعصارات الجاريات فى تلك النباتات ، فيكون التفاعل والامتزاج ، فيتم نمو النبات (تقدم هذا واضحا فى سورة يس مشروحا مصورا بالتصوير الشمسى عند آية : سبحان الذى خلق الأزواج كلها) وكيف كان النور مساعدا على تغذية النبات وجلبه من الهواء مواد الكربون السابحة فيه فيقوى النبات ويعيش ، وبه تكون حياة الحيوان والإنسان .

فقال صاحبى : ما أجمل هذا القول ، فهلا أفضت فيه كما أفضت فى هداية النور . فقلت : أيها الصديق أنت تعلم أن هذا تقدم فى سور كثيرة مستوفى موضحا ، ولكن إن شاء الله تعالى سأبحث بحثا مفصلا فى (سورة النبأ) ، وأذكر هناك إن شاء الله تعالى عجائب أبهج مما تقدم عند آية . « لنخرج به حبا ونباتا ، وجنات ألفافا» وهناك إن شاء الله تعالى ترى بهجة الأشجار والشجرات والنجوم: أى النبات الذى لا ساق له وكيف تنوع الشجر فى هيئة أغصانه وأوراقه ، وكيف تكون الأزهار وهى مصورات قد تبدت أنواع كأسها وتويجها ، وأعضاء ذكورها ، وأعضاء إناثها بحيث ترى واضحة فى الشكل ، وكيف كان من الذكور والإناث ماجاء فى زهرة واحدة كالقطن ،ومنهاماجاء فى زهرتين فى نبات واحد كالذرة، ومنها ماجاء فى نباتين وهما إما فى جهة واحدة فيحصل اللقح فالثمر كالنخل ، لأن اللقاح قد يحصل بالهواء ، أو بفعل الإنسان ، وإما أن يكون الذكر فى قارة والأنثى فى أخرى كما فى الصفصاف ، فكل صفصاف أوروبا إناث ، وكل صفصاف آسيا ذكور ، لذلك لم ير الناس لهذا النوع ثمرا ألبتة ، وهناك ترى عجائب الأزهار ، وكيف حار العلماء فلم يهتدوا لتنظيم أنواع النبات إلا بواسطة أزهارها ، وما عدا ذلك لم يجدوا له قيمة ، وهناك ترى كيف كان ماله فلقة واحدة كالقمح وكالنخل يخالف تركيبه ماله فلقتان كالفول والبطيخ ، وكيف كانت العلاقة بين الثمرات والحبوب وبين نظام أجزاء النبات محكمة كما ستراه هناك إن شاء الله تعالى ، وبهذا انتهى الكلام على اللطيفة الثانية فى قوله تعالى : « ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح » . والحمد لله رب العالمين . كتب يوم الخميس ٥ صفر سنة ١٣٥١ هـ ـ ٩ يونيو سنة ١٩٣٢ م قبيل الظهر .

اللطيفة الثالثة

فى قوله تعالى : « أو لم يروا إلى الطير فوقهم صافات ويقبضن ما يمسكهن إلا الرحمن » الخ

سألنى العلامة صديق الذى اعتاد محادثتى فى هذا التفسير . فقال : ما السر فى ذكر : « إنه بكل شىء بصير » بعد ذكر أن الطير صافات فى جو السماء ، وأن الله هو الممسك لها ، ثم ما عجائب الطيور وما تعريفها وما أقسامها ؟ إنى أرجو أن تذكر لى هنا مجملا من ذلك ليعلم المسلمون فى أقطار الأرض أنهم مقصرون فى هذه الآية ، وأنهم عليهم أن يفهموا هذه العجائب ، فلن يشكروا النعمة حتى يعرفوها ، والمعرفة أساس السعادة فى الحياتين . فقلت : لقد ذكرت فى هذا التفسير مقالات كثيرة على الطيور وعلى غيرها . فقال :

ولكن

ولكن المجمل فى هذا المقام لابد منه مع بيان صور أهم الطيور ومنافعها بقدر الإمكان . فقلت : أمامى الآن كتاب الأستاذ (بول بيرت) الوزير الفرنسى الذى ترجمته زوجته الإنجليزية (جوسفينا كلايتون) مدام بول برت الاسكوتلاندية وفيه المختصر المطلوب وصور الطيور . لا بد قبل الشروع فى مختصر الكلام على الطيور أن أقدم مقدمة فى مجمل علم الحيوان فأقول :

أقسام الحيوان أربعة[1]

القسم الأول : الحيوانات الفقرية

وهى تشمل : الإنسان ، وذوات الأربع ، والطيور ، والزواحف ، والسمك

فهذه الخمس هى أقسام الحيوان الذى اشتمل على هيكل عظمى وفقرات ودم ، فالإنسان والبهائم من الخيل ، والبغال والحمير ، والأنعام من الإبل ، والبقر والغنم ، والسباع كالذئب ، والكلاب ، والطيور الجارحة وغير الجارحة ،والزواحف كالحيات ، والعقارب ، والسمك فى البحر ، وهو معروف ، كل هذه لها عظام ردم ، ولكل نوع من هذه أصناف كثيرة .

القسم الثانى : الحيوانات الحلقية

أى التى تركب جسمها من حلقات مجتمعات منضمات يكون منها جسم هذا الحيوان ، وهذا القسم أنواع وهى : الحشرات ، والعناكب ، وذوات الأرجل الكثيرة والحيوانات القشرية ، والدود .

أما الحشرات فهى ما كان لها ستة أرجل ، ولها إما جناحان كالذباب ، وإما أربعة أجنحة كأبى دقيق الذى يعيش فى بلادنا المصرية ويكون منه الدود الذى يفسد شجر القطن ، وهذا سلبنا قطننا ، فلذلك يدرسه الناس الآن فى مصر بعض الدراسة ، وهناك حشرات أخرى لها أربعة أجنحة تسمى باللسان الإفرنجى (دراكوفلاى) .

أما العناكب (جمع عنكبوت) فهى مالها ثمانية أرجل ضعف مالذوات الأربع ، وأما ذوات الأرجل الكثيرة فهى ماقد تصل أرجلها إلى عشرين زوجا من كل ناحية عشرين رجلا ، ويقال لها فى بلادنا المصرية (أم أربعة وأربعين) .

وأما الحيوانات القشرية فهى تشمل قراض الخشب وحيوانا يسمى (كرايفش) باللسان الأفرنجى ، وهو مركب من حلقات مدمجة قوية ، وأما الدود فهو يشمل دود الأرض والعلق ، وهذان رؤوسهما متصلة بجسمهما ، وليس لهما أرجل ، وليس جلدهما صلبا قشريا كجلد كرايفش .

القسم الثالث

الحيوانات الهلامية التى جسمها أشبه بالفالوذج الذى هو نوع من الأطعمة ، ومن هذا حيوان يسمى (القوقعة) وهذا الحيوان جسمه يكون من هذا الهلام ،وقد أعطى وقاية من المحار تقيه العاديات والمهلكات وهى معدة كمنزل تسكن فيه ، ومنه حيوان يسمى باللسان الأفرنجى (ميوزل) وجسمه محفوظ بين صدفتين

(١) انظر تفصيل هذا المقام فى المجلد الحادى عشر من هذا التفسير فى سورة الحج عند الكلام على آية « يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له » اهـ .

من المحار ، فهذا القسم وهو الثالث من أقسام الحيوان لاعظم له ، فليس من ذوات الفقرات ، ولا حلقات له فليس من ذوات الحلقات ، فهو إذن حيوان هلامي .

القسم الرابع : الحيوانات الشعاعية

وهذه منها ماهو على شواطئ البحار المسمى (سمك النجم) ومنها ماهو في البحار يعيش كهيئة مستعمرات مكونة من تلك الحيوانات الصغيرة ، ومن اجتماعها تتكون أجسام صخرية ، وقد تتكون منها جزائر ، فترى هذين النوعين يختصان بأمرين : الأول أن لهما فما مركزيا يشاهد في الوسط . الثاني أن الحيوانات حول ذلك الفم ترجع إلى حلقات ضوئية تحيط بذلك الفم أوالمدخل ، ثم إن مشاهدة صورتها تدخل في النفس عجبا ! فإن سمك النجم تراه على هيئة بهجة ذات خمسة فروع تحيط بمركزها ، وتلك الفروع كأنها أصابع الإنسان ، وذلك الوسط كالكف ، وكل أصبع من هذه الأصابع محلى بأهداب تغطيه ، وفي أصول تلك الأهداب تشاهد نقطا مضيئة كأنها مصابيح لامعة على طول تلك الأصابع ، وهناك أيضا الحيوان المسمى باللسان الأفرنجي (بوليبا) فإنك ترى الفم المتقدم أو المدخل ليس متسعا كما في سمك النجم ، بل تراه نقطة صغيرة تحيط بها حيوانات لاحصر لها مجتمعة بهيئة ثمان ورقات جميلات ذات شعاع جميل ، وكل هذا تراه موضحا بالصور الفوتوغرافية في سورة الحج عند آية : « ياأيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له »الخ فراجعه هناك إن شئت اه .

• • •

وقد جاء في الكتاب الإنجليزي المذكور في صفحة ٤٤ وما بعدها ما ترجمته : « إن الطيور لها منقار وريش وجناحان ورجلان » . فالمنقار يمكن رؤيته في رأس هذا الطائر الذي أحضرته لأجل الدرس(هذا كلام المؤلف الفرنسي) ، ثم وصف هذا المنقار فقال : إنه حجاب عظمي يكون غلافا وغطاء للفكين ، أما الريش فانه في حال كمال نموه يشتمل على ما يأتي :

(١) أولا : أنبوبة بها ينبت الريش في جلد الطائر .

(٢) ويلي هذه الأنبوبة ساق تحمل فوق كل واحد من جانبيها (دوارة تدل على جهة الريح) ، وهذه الدوارات أيضا تحمل دوارات أصغر منها ، وهؤلاء أيضا قد يحملان (كما في الإوز) دوارات هوائية أقل من الحاملات لها ، وكل هذه الدوارات ملتصقة ببعضها بإحكام ومنسوجة نسجا بديعا منتظما .

وليس كل ريش تام النظام على هذا المنوال ، وإنما وصفنا هذا لما تم نماؤه كما قدمناه ، أما الأجنحة فإنها عادة قوية متينة ، بها يقدر الطائر أن يطير في الهواء ، وبعض الأجنحة ترى قصيرة جدا مثل أجنحة النعامة بهاتقدر أن ترتفع عن الأرض ، وبعض الأجنحة يستعملها الطائر استعمال السمك لزعانفه وبمساعدتها تعوم تحت الماء ، إن كل طائر يبيض ، ومعظم الطير يبنى عشا ، إن البيض مركب أولا من قشرة حجرية تحوى في داخلها مادة بيضاء ، وفي داخل هذه مادة أخرى صفراء .

ثم يقول المؤلف : إنه أرى التلاميذ بيضتين : إحداهما نيئة والأخرى منضجة بالنار ، فلما فتح الأولى أمام الطلبة فما كان داخل القشر أسرع إلى الانحدار في الطبق . ثم قال . انظروا ألستم ترون في وسط المادة الصفراء مادة صغيرة بيضاء . هذا هو أصل الجنين الذي يخلق في البيضة ومنها يخرج فروج صغير إذا حافظنا عليه مدة كافية لينمو في البيضة تحت حضن الدجاجة . ثم قال : هاأناذا الآن أنزع قشر البيضة المنضجة

بالنار

بالنار . وهاأنا ذا أقسمها بهدوء تام ومحافظة عليها إلى قسمين حتى تميزوا موضع المادة البيضاء وموضع المادة الأخرى الصفراء .

كيف تصير البيضة طائرا صغيرا؟

إن البيض متى حفظ فى مكان دافئ فى مدة طويلة معينة من الزمان فإن الجرثومة البيضاء التى تلمع وسط المادة الصفراء التى هى أصل الفروج تنقلب بالتدريج طائرا صغيرا ، ينمو فى سجنه وفى أثناء نموه يمتص ما حوله من المادة الصفراء والبيضاء حتى يصير كبيرا يملأ داخل القشرة ، وحينئذ يكسرها هو بمنقاره هنالك يخرج أعمى لاحراك له مثل هذه الحمامة الصغيرة (انظر شكل ٥٠) أو كمثل مايخرج من البيضة ، وهو نشيط الحركة خفيف عالم كيف يلتقط من الأرض مايقوته من الطعام ، وكيف يجرى على الأرض وذلك كهذا الفروج (شكل ٥١) ومن صغار الطير ما يخرج وقد استعد لما هو فوق ذلك ، فلا يكتفى بالجرى فى الأرض ، بل يعوم فى البحر أو النهر ، وذلك كالإوز والبط ، وهاهنا أخذ المؤلف يشرح حضن البيض بالطريق الصناعية بحيث يقوم الإنسان بهذه العملية بدل الأم ، وأبان صور الصندوق الذى يقوم مقام الأم فى حفظ حياة الجنين ، ودوام الحرارة المماثلة للحرارة الطبيعية للأم فى عشها المناسب لحال نوع الطير هيئة ومقدارا .

(شكل ٥٠)
حمامة خرجت من
قشرتها وهى عمياء ولا
تقدر على الحركة

(شكل ٥١)
فروج خارج من بيضة
الدجاجة قادر على
السعى

الطيور على قسمين : طيور مهاجرة وطيور غير مهاجرة

ثم أخذ المؤلف يقول : لست أقتصر معكم فى الطير على ماتقدم ، بل أقول لكم : إن من الطير ماله هجرة كل عام فى أوقات محددة تحديدا تاما ، مثال ذلك : الخطاف والسمانى [1] ، وهو (السلوى) والبلبل . فهذه طيور تعيش فى البلاد الحارة فى زمن الشتاء ، فاذا أقبل فصل الصيف هاجرت إلى بلادنا (يريد المؤلف بلاد أوروبا) فتعيش على الحشرات المخلوقات فيها ، وتبنى أعشاشها ، وتحضن بيضها ، وتربى صغارها ، ومتى أقبل فصل الشتاء ، وقلت الحشرات قفلن راجعات إلى أقطارهن الحارة فى أفريقيا ، وبذلك أبد الآبدين ودهر الداهرين .

وهنالك طيور أخرى مهاجرة بهيئة مخالفة للسابقة كالإوز والبط الوحشيين ، فان هذه تعيش فى الأقطار الشمالية الباردة ، فاذا اشتد عليها البرد شتاء أقبلت تسعى إلى بلادنا (يريد أوروبا) . وهاهنا أخذ يشرح أنواع الطيور وهى :

(١) الجارحة .
(٢) الطيور المقلدة للانسان (كالقرود) ذوات المناظر الجميلة ، والأصوات البديعة .
(٣) والحمام .

(١) بضم أوله وآخره نون مقصورة بوزن حبارى .

(٤) والطيور الدجاجية .

(٥) والطيور الخائضة .

(٦) والنعام .

(٧) والطيور النسوجة الأرجل .

(٨) وأنواع العصفور الدورى . وهاك تفصيلها :

أولا — (الطيور الجارحة) : إن من الطيور ما تعيش على لحم الحيون الحى من طيور أخرى ومن ذوات الأربع ومن الزواحف فلذلك سميت طيورا جارحة ، ولذلك تراها قد وهبت سلاحا حادا قويا به تحدث تمزيق فرائسها .

(ا) ألا ترى إلى هذا المنقار الحاد المصوع كهيئة الشص والخطاف والكلاب (انظر شكل ٥٢)

(ب) وإلى هذا المخلب الطويل المعد لاختراق أجسام الفرائس والقبض عليها (انظر شكل ٥٣)

(شكل ٥٢)
منقار الطيور الجارحة
الحاد المقوس

(شكل ٥٣)
مخالب الجوارح

(ج) وإلى الجناح الطويل المحدد . إنهن يطرن سراعا بخفة ، ومن أمثلة ذلك أن صقرا من النوع المسمى بالافرنجية (فلكون) فر من غابة بلدة فى وسط فرنسا تسمى (فونتيبلو) عثر عليه فى اليوم الثانى بجزيرة مالطة .

الجوارح على قسمين

إن الطيور الجارحة تنقسم إلى قسمين: جارحة ليلية وجارحة نهارية ، فمن الثانية النسر (شكل ٥٤) وهو يعيش على لحوم الحيوانات الميتة ، وبعض هذا النوع عظيم الحجم يعيش فى أوروبا ، إن النسور لها منفعة عظيمة جدا فى الأقطار الحارة ، لأنها تنظف الجو من الرمم التى إذا بقيت أفسدت الهواء ، وأماتت الأحياء ، ومن طيور هذا النوع الحدأة الكبيرة التى تعيش فى شمال أمريكا (شكل ٥٥) ، وهى حدأة كبيرة الحجم قد يصل مقياسها (إذا مدت جناحيها) من طرف إلى طرف ١٢ قدما ، ومنها نسر جبال الألب (شكل ٥٦) وهذا أيضا كبير الحجم كسابقه ، وهو ذو لحية ، ومنها الصقر (شكل ٥٧) ، وهذا أقوى أجنحة وأحد مخاليب من النسر ، وهذه تعيش على لحم الحيوان الحى ، ومنها الباز ، وهو نوع من الصقور (شكل ٥٨) وهو أشد قوة على مقتضى حجم جسمه وأكثر جراءة ، وهذا النوع قديما كان الناس فى بلادنا (يريد بلاد أوروبا كالإنجليز) يربونه ، ولا يزال أهل الجزائر يصيدون به إلى الآن ، وهكذا فى بلاد الشرق ، ومن ذلك نوع آخر من الصقور (شكل ٥٩) وهاك صورها بالترتيب :

(شكل ٥٤)

(شكل ٥٤)
النسر

(شكل ٥٥)
حداة شمال أمريكا

(شكل ٥٦)
نسر الألب

(شكل ٥٧)
الصقر

(شكل ٥٨)
الباز

(شكل ٥٩)
صقر آخر

ونوع آخر من الصقور أيضاً (شكل ٦٠) ومنه نوع يسمى صقر العصفور الدورى (شكل ٦١) ، ومنه الحدأة (شكل ٦٢) وهاك صورهن .

(شكل ٦٠)
صقر آخر أيضاً

(شكل ٦١)
صقر العصفور الدورى

(شكل ٦٢)
حدأة

هذا هو نهاية الكلام على الطيور الجارحة النهارية . ولنشرع الآن فى الكلام على الطيور الجارحة الليلية ، فنقول ومن الله التوفيق :

الكلام على الطيور الجارحة الليلية

(١) هى طيور لها ريش زغبى به تقدر أن تطير فلا يسمع لطيرانها صوت .

(٢) ولها آذان مفتحة واسعة جداً .

(٣) وأعين مدورة متجهة إلى الأمام ، وهاك صور بعضها :

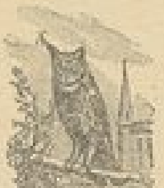

(شكل ٦٣)
البومة العادية

(شكل ٦٤)
بومة المرى

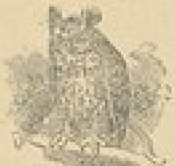

(شكل ٦٥)
بومة الصقر

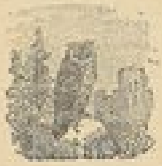

(شكل ٦٦)
أصغر البوم حجماً
كالطائر الأسود

إن هذه الجوارح الليلية لا تذر فأرا ، ولا حيوانا ضارا إلا أهلكته ، لأجل ذلك يحافظ عليها الناس لتساعدهم فى إبادة المهلكات ، ومن الناس من يجهلون فائدتها فيتلاعبون بها ، ويسمرونها فى أبواب بيوت مواشيهم حماقة وهم لا يعقلون ، وبهذا تم الكلام على الطيور الجارحة بقسميها ، والحمد لله رب العالمين .

النوع الثانى : الطيور المقلدة للإنسان كالقرود

وهى فصيلة الببغاء

والببغا له منقار غليظ ولسان لحمى به يقدر على تقليد الإنسان فى النطق ، واثنتان من أصابع رجليه متجهتان إلى الامام ، واثنتان إلى الخلف ، وبذلك يسهل له الاستمساك بالأغصان والتسلق عليها ، وعجيب ذكائه وفهمه جعله يسمى (قرد ذوات الريش) كالقرد ، وهذا النوع يسكن الأقطار الحارة ، وبهجة ألوانه وبديع صوته الظريف يسحران قلوب سكان الأقطار الاستوائية فى الدنيا الجديدة والقديمة ويستهويان أفئدتهم وهم طربون .

(شكل ٦٧)
الببغاء

النوع الثالث : الحمام

وهو ظاهر ، فلا حاجة بنا إلى الكلام عليه .

النوع الرابع : الطيور الدجاجية

وتسمى بالفرنجية (كليناسن) و (كالينا) باللاتينية معناها الدجاجة ، ومن هذا النوع ما يسمى (بيزنت) (شكل ٦٨) والطاووس (شكل ٦٩) والديك الرومى (شكل ٧٠) وهذه الطيور الدجاجية تشبه الدجاج فى أنها تأكل الحبوب وهاك صورها :

(شكل ٦٨
بيزنت

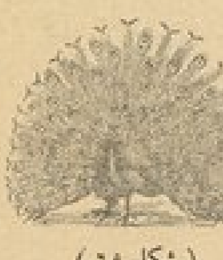

(شكل ٦٩)
طاووس

(شكل ٧٠)
ديك رومى

النوع الخامس : الطيور الخائضة

سميت بذلك لأنها ذات أرجل طويلة عارية ، وأكثرها تعيش فى المستنقعات ، وتخوض فى الوحل والماء ، وقد منحت رقابا طويلة ، ومناقير كذلك فضلا عن أرجلها الطويلة ، بها تقدر أن تقتنص الحيوانات

الصغيرة التى عليها مدار حياتها ، وهاك منها البجع (شكل ٧١) وما يسمى بالافرنجية (هيرون) (شكل ٧٢) والكركى (شكل ٧٣) وطير الماء (شكل ٧٤) وهاك صورها :

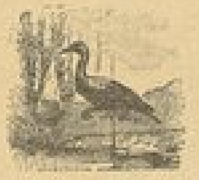
(شكل ٧٤)
طير الماء

(شكل ٧٣)
الكركى

(شكل ٧٢)
هيرون

شكل (٧١)
البجع

النوع السادس : النعام

وهذا النوع حجمه كبير وأجنحته (وإن كانت قصيرة جدا) تساعده على أن يجرى بسرعة عظيمة ، إن هذا النوع يسكن بلاد أفريقيا ، وله أصبعان فقط ، ويبلغ ارتفاعه أكثر من سبعة أقدام ، وترى فى (شكل ٧٥) الآتى نعامة أفريقيا وارتفاعها ٧ أقدام ، وفى (شكل ٧٦) نعامة أمريكا المسماة (رهيا) ، وهى أصغر ، ولها ثلاثة أصابع ، وفى (شكل ٧٧) نعامة استراليا وبور نيو المسماة : (كسورى)

(شكل ٨٧)
نعامة استراليا ، وبورنيو المسماة : كسورى

(شكل ٧٦)
نعامة أمريكا المسماة (رهيا) وهى أصغر لها ثلاثة أصابع

(شكل ٧٥)
نعامة أفريقيا ، وارتفاعها سبعة أقدام

وهذا النوع كبير الحجم ولكنه يتضاءل أمام ما كشفه الكاشفون من نوعه فى (مداغشقر) و (زيلندة الجديدة) مما لم يبق له وجود الآن من هذا النوع ، وإنما عثر الناس على بعض عظام وبيض له ، وكل بيضة تعادلست بيضات من الكسورى الحى الآن ، أو تعادل مائة وخمسين بيضة من بيض الدجاج ، وهاك صورتها التى عثروا عليها (انظر شكل ٧٨) .

(شكل ٧٨)
هيكل طير كبير من الجزيرة الجديدة لم يبق لها وجود الآن ارتفاعها ١٠ أقدام

النوع السابع : الطيور المنسوجة الأرجل

وهذا النوع ترى أصابعه متحدة مع بعضها بنوع من الجلد أو النسيج لتقدر به على العوم بسهولة (انظر شكل ٧٩) وهذا يساعد الطير ، على أن يعوم بسهولة ويخترق الماء بدون أقل مقاومة ، إن هذا الطائر إذا دفع برجليه إلى خلف ، فإن ذلك يساعده على السير إلى الأمام ، ومن هذا النوع (شكل ٨٠) و (شكل ٨١) (وشكل ٨٢) وهاك صورها بالترتيب فى الصفحة التالية :

(شكل ٧٩)

(شكل ٨٠)
البط

(شكل ٨١)
الأوز

(شكل ٨٢ : نوع من
الأوز يسمى : سوال)

وهذه الثلاثة تتجد فى أنها منسوجة الأكف كما قدمنا فتحسن العوم والطيران ، ولكن مشيها ضعيف جدا ، ولهن مناقير عريضة مسلحة بنوع نصل حاد يقوم بما تقوم به الأسنان الابتدائية ، ومن هذا النوع أيضا طائر الماء (شكل ٨٣ الآتى) وطائر يسمى بالأفرنجية (البتروس) (شكل ٨٤) وآخر يسمى بالأفرنجية أيضا (بلكان) (شكل ٥٨) ومنها الأشر النهم (شكل ٨٦) ، وبهذا تم الكلام على النوع السابع من الطيور ، والحمد لله رب العالمين :

(شكل ٨٣)
طائر الماء

(شكل ٨٤)
البتروس

(شكل ٨٥)
بلكان

(شكل ٨٦)
الأشر النهم

النوع الثامن

من الطيور والعصفور الدورى ، فهذا النوع لا هو من الطيور الجارحة ، ولا من المنسوجة الأرجل ولا غيرها وهذا النوع يشمل كثيرا من الطيور الصغيرة ، وبعضها له أصبعان متجهان إلى الأمام وآخران متجهان إلى الخلف ، بهما يسهل للطائر أن يتسلق على سوق الأشجار ، ومن هذا النوع (قراض الخشب) (شكل ٨٧) الذى يضر بظلمه ، وعسفه أشجار غاباتنا (يريد انكلترا) . ضررا بليغا ، وهو إنما يبحث فى الثقوب التى صنعتها الحشرات من قبله ، وترى فى (شكل ٨٨) صور الغراب ، وهو معروف ، وهاك صورهن :

وبعض هذا النوع يشبه بعض الشبه الطيور الجارحة ، وبعضه ذو منقار لطيف به يقتنص الحشرات مثل البلبل ، ومثل الطير الأسود ، ومثل الطير المستأنس بأمريكا وهو جميل وصغير جدا حتى أن أصغره لا يكون أكبر من ذكر النحل ، وبعضه له منقار واسع يأكل به الناموس ، والخطاف يفعل ذلك ، ومنه ماله منقار غليظ قصير به يأكل كل نوع من أنواع الحب ، وذلك كالقنبرة وخطاف المنازل ، ومنه نوع آخر يستعمل منقاره القوى كما يستعمل الناس

(شكل ٨٧)
قراض الخشب

(شكل ٨٨)
غراب

فيقلب به الأرض ليستخرج بعض الجثث الميتة فيها فيأكلها، ومن ذلك أيضا الغراب المتقدم فى (شكل ٨٨) وهو معروف .

يقول مؤلف الكتاب الذى ترجمت منه هذه القطعة : « إن فى بلادنا نحو ٢٠٠ مائتى صنف من هذا النوع » ، وهذا آخر ماترجمته فى هذا المقام من الكتاب المذكور ، والحمد لله رب العالمين :

تبصرة فى هذه الطيور

أيها المسلمون : يقول الله : «أو لم يروا إلى الطير فوقهم صافات ويقبضن» ثم يختم الآية بقوله : «إنه بكل شىء بصير» .

الله أكبر ، الله أكبر : جل الله ، جل الله : قد قدمنا فى (سورة : قٓ) أن (الم) التى ابتدأت بها (سورة البقرة) هى مفتاح خزائن العلوم كلها ، وقدمنا بعض هذا فى سورة البقرة عند طبع الجزء الثانى عند آية الطير وإبراهيم وما حولها ، وفى سورة آل عمران ، ولشد ما اتضح لى اليوم وأيقنته حقا وصدقا، أن (الم) جعلت مفاتيح للعلوم ومهاميز بها يساق المسلمون إلى السعادة فى الدنيا والآخرة .

وأقول بأعلى صوتى : أيها المسلمون : هذا السر قد ظهر الآن ، يقول المسلم : مامعنى هذه الحروف ؟ فيصل فى البحث إلى ماقلناه فى سورة البقرة ، ظهر سر (الم) فى اللغة وفى بدائع الكيميا ، فاقرأه هناك وظهر فى سورة آل عمران فى عدم اتكال المسلمين على غيرهم من الأولياء والصالحين ، بل عليهم الجد ، وهاهنا يو بخنا الله على جهلنا بعلوم الطير التى نام عنها المسلمون وعرفه أهل أوروبا وأهل الشرق الأقصى .

رباه : إليك المشتكى . رباه : نام المسلمون . رباه : ناموا وناموا . اللهم أيقظهم إنك سميع الدعاء ، وأنا موقن بسماع الدعاء ، سبحان الله : أليس من عجائب هذه الطيور أن منها النسر الذى ينظف الأقطار الاستوائية من رمم الحيوان ، ولولاه لم يعش هناك إنسان ولا حيوان ، أو ليس منها البوم التى تأكل أمثال الفيران المهلكات لزرع الإنسان بأكله ونفس الإنسان بالعدوى كما قدمناه فى هذا التفسير عن كبار الأطباء فى هذا العصر ، أفليس من هذه الطيور كما قدمنا المهاجرات من الأقطار الحارة إلى الأقطار الباردة فتأكل الحشرات حياة لها وسعادة لنوع الإنسان ، ألسنا نرى الطيور مقسمة على الأقطار ، وعلى الليل والنهار ، وعلى الهواء وعلى الأشجار ، وعلى الشواطىء والمستنقعات ، وعلى البحار ، لتكون من المنظمات المساعدات على نظام هذه العوالم العجيبات [١] .

هذا معنى قوله تعالى : « مايمسكهن إلا الرحمن إنه بكل شىء بصير » فها هى ذه الرحمة ، رحمة نفس الطائر مثلا بأكله الحشرات ، ورحمة الحيوان والإنسان ببقاء الزرع لموت المهلكات من تلك الحشرات .

هذا بعض السر فى اختصاص المقام بالاسم (الرحمن) وبالاسم (بصير) . وإلى هنا تم الكلام على (سورة الملك) والحمد لله رب العالمين . كتب صباح يوم الأربعاء ١٣ سبتمبر سنة ١٩٣٢ م .

---

(١) مما يناسب الطير مسألة الطيران فى الجو بالطيارات التى تقدمت قريبا ، ونريد أن نبين هنا أن الطيارات قد صورت بالتصوير الشمسى فى أوائل سورة النحل ، وقد شرحت أيضا فى سورة المائدة عند آية ابنى آدم : (المؤلف) .

تفسير سورة القلم

هى مكية

إلا من آية ١٧ إلى آية ٣٣ ، ومن آية ٤٨ إلى آية ٥٠ فمدنية

آياتها ٥٢ — نزلت بعد العلق

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

نٓ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ * مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ * وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ
مَمْنُونٍ * وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ * فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ * بِأَيِّكُمُ الْمَفْتُونُ * إِنَّ
رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ * فَلَا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ * وَدُّوا
لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ * وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ * هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ * مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ
مُعْتَدٍ أَثِيمٍ * عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ * أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ * إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا
قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ * سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ * إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ
إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ * وَلَا يَسْتَثْنُونَ * فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ
نَائِمُونَ * فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ * فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ * أَنِ اغْدُوا عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِنْ
كُنْتُمْ صَارِمِينَ * فَانْطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ * أَنْ لَا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مِسْكِينٌ *
وَغَدَوْا عَلَىٰ حَرْدٍ قَادِرِينَ * فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ * بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ * قَالَ
أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ * قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ * فَأَقْبَلَ
بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ * قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ * عَسَىٰ رَبُّنَا أَنْ يُبْدِلَنَا
خَيْرًا مِنْهَا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا رَاغِبُونَ * كَذَٰلِكَ الْعَذَابُ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا
يَعْلَمُونَ * إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ * أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ *
مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ * أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ * إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا

تَخَيَّرُونَ * أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا بَالِغَةٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ * سَلْهُمْ أَيُّهُمْ بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ * أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ * يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ * خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ * فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهَٰذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ * وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ * أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ * أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ * فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ * لَوْلَا أَنْ تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ * فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ * وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ * وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ *

هذه السورة أربعة مقاصد

(١) حسن الأخلاق النبوية من أول السورة إلى قوله : «وإنك لعلى خلق عظيم» .

(٢) سوء أخلاق بعض الكفار وجزاؤهم من قوله « فستبصر ويبصرون » إلى « سنسمه على الخرطوم » .

(٣) ضرب مثل لهم بأصحاب الجنة البخلاء من قوله « إنا بلوناهم » إلى قوله «لو كانوا يعلمون» .

(٤) تقريع للمجرمين ، وأمر بالصبر لسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم لئلا يكون كصاحب الحوت من قوله «إن للمتقين عند ربهم جنات النعيم» إلى آخر السورة .

المقصد الأول : حسن الأخلاق النبوية

التفسير اللفظى

بسم الله الرحمن الرحيم

(ن) النون الدواة . قال الشاعر :

إذا ماالشوق برح بى إليهم   ألقت النون بالدمع السجام

ويطلق على الحوت ، وفى بعض الحيتان مادة تصلح للكتابة (والقلم) وهو كل مايخط به (وما يسطرون) وما يكتبون : أى والذى يكتب به من الكتب (ماأنت بنعمة ربك بمجنون) أقسم الله بالدواة وبالقلم ، وبكل مايكتب من كتب الخير ، إنك يامحمد ماأنت مجنونا حال كونك منعما عليك بالنبوة وحصافة الرأى وكيف تكون مجنونا والكتب والأقلام والمداد قد استعدت للعمل فى الشرق والغرب بما ينزل عليك من

الوحى ؟ أهذا هو الجنون ، إن الله أنعم عليك بنعمة العلم والنبوة ، وقد أعد الأمم للتلق عنك فلست بمجنون وأى شهادة أعظم من نتائج الأعمال ، فهى الشواهد النواطق . وإدخالها بطريق القسم أبلغ فى الشهادة من قول المتنبى :

الخيل والليل والبيداء تعرفنى والسيف والرمح والقرطاس والقلم

قال المؤلف الانجليزى كارليل فى كتابه المسمى (البطولة والأبطال) حينما تكلم على صاحب شريعتنا صلى الله عليه وسلم فى نحو سنة ١٢٠٠ هجرية ماملخصه : « إن البناء الذى لايحسن البناء لايدوم بناؤه طويلا ، وكلما دام البناء دل على صدق البناء (بتشديد النون) فى صناعته والنبى محمد صلى الله عليه وسلم أخرج أمة إلى الوجود فدامت هذه الأمة ألفا ومائتى سنة ، إن البناء الدعى لايدوم بناؤه عشرات السنين فضلا عن المئات والألوف ، ولو كان محمد صلى الله عليه وسلم غير نبى وبناؤه على غير أساس لم يدم هذه الأزمان كلها ثم أخذ يكذب الأوروبيين فى دعواهم أنه غير نبى ، وأنه اخترعها لحاجة فى النفس ، وشنع غاية التشنيع » اهـ .

أقسم الله بالدواة وبالقلم وبالكتب عالما أن هذا الدين يبقى ، وأنه ستتحرك به الأقلام وتسطر الكتب وتخط ، وكل ماتصف بذلك لايكون باطلا ، إذ الباطل لاثبات له ، والحق هو الباقى .

أقسم بهذه الثلاثة مستدلا بتحققها فى الزمان المقبل بعد القسم وهو عالم بذلك على صدق الرسالة لأن الزبد وهو مايعلو وجه الماء عند سقى الأرض يذهب ويرمى به ولا بقاء له ، والماء الذى تحته هو الذى يبقى فى الأرض ويسقى الزرع ، فكل باطل ذاهب ، وكل حق باق ، فبقاء هذا الدين بكتابة الأقلام وتسطير الكتب دليل على أن محمدا صلى الله عليه وسلم غير مجنون .

أقسم الله بهذه الثلاثة فتحا لباب التعليم العام بالقلم والكتابة ، إن هذا الدين لم ينزل لأجل ألف وثلثمائة وثلاث وأربعين سنة . كلا . ثم كلا . لم ينزل القرآن لأجل جيلنا والأجيال قبله فقط ، إن الله جعل أمتنا الحالية ومن قبلها مقدمات لأمم ستأتى بعدنا ، وتكون أرقى منا علما وأخلاقا ونظاما ومدنية ، فهؤلاء حينما يقرءون هذه الآية يفكرون فيها ويقولون : إن الله لايقسم إلا بأمر عظيم ، فإذا أقسم بالشمس والقمر والليل والفجر ونحو ذلك فإنما هو لعظمة الخلق وجمال الصنع ، أما الدواة والقلم والكتب فما عظمة صنع الله فيها أ كالشمس هى ، أم كالقمر والكواكب ؟ إن الله لم يقسم بها إلا ليعلمنا ويذكرنا بأعمالنا نحن فكما خلق وصور وزوق فى سمواته وأرضه فليكن لنا فى الكتب والأقلام أعمال نرقى بها نفوسنا ومدننا وأحوالنا الاجتماعية ، فلنعمم التعليم .

إن الله أقسم بالكتب وبالأقلام هنا : وأقسم بالرق المنشور فى سورة الطور ليذكر المسلمين لاسيما فى هذه العصور أن يكون التعليم عاما حتى يكون الرق منشورا ، والأقلام متحركة ، والكتب مسطورة عامة ، ذلك من مضمون هذا القسم فضلا عن نفى الجنون المصرح به فى الآية ردا على قول الكفار : « ياأيها الذى نزل عليه الذكر إنك لمجنون » .

وكأنه يقال : كيف تسمونه بالجنون وقد استعدت الكتب أن تنشر باسمه والأقلام أن تخط وتشرح مايقول وسيكون هناك أمم وأمم تتعاقب بعده ولها نظام عظيم ، ويكون القلم والكتاب فى كل مكان .

أقسم الله بهذه الثلاثة ليذكر المسلمين اليوم قائلا : هاأنا ذا أقسمت بالقلم وبالكتاب ، ولم تكن أمة من أمم الفرس والروم والصين حين نزول الوحى تعمم التعليم ، ولم يعم التعليم فى أوروبا وأمريكا إلا بعد اصطدام الشرق والغرب فى الحروب الصليبية ، إن اصطدامها ولد هذه الحركة القلمية ، وأول ظهورها

فى الغرب ، وها هى ذه امتدت إلى الشرق ، وستأخذون حظكم منها موفورا ، إن تعميم التعليم وعصر الكتب والورق لم يكن إلا بعد نزول القرآن بل بفضل القرآن لاسيما بعد التحارب والتصادم ، وكأنما الشرق والغرب كانا زندين قدحتهما العناية الربانية فتولدت بينهما شرارة . تلك الشرارة هى العلم ، وأول من أثرت فيه هو الغرب ، إن الغرب قد طغى على الشرق ، فتحرك لقتله ، فرجع الغرب بخفى حنين ، ولكنه حمل بين جنبيه العلم والنور فرقى الأمم فى بضع مئات السنين ، ذلك كله سر القرآن .

الله أقسم بهذه الثلاثة علما منه بتحققها وانتشارها فى كل بيت فى الأمم بعد أزمان النبوة ، فهو رمز وإشارة إلى ماحصل فى العالم الآن . وستكون أمة الإسلام لها القدح المعلى ، وكما كان نبيها آخر الأنبياء فها هى ذه الآن ستكون آخر الأمم تعميما للتعليم ، وكما كان شرعها ناسخا للشرائع هكذا سيكون تعليمها العام بشكل ينسخ الأشكال الحاضرة الآن فى أمريكا وأوروبا ، وسيكون فى نظام تعليمنا مايدهش الشرق والغرب ، وتكون رحمة للعالمين ، لأننا سندخل فيه أننا خير الأمم ، وأننا رحمة للعالمين ، وأن جيوشنا تكون أقوى الجيوش ، لالنهدم بل لنصلح الأمم الظالمة ، ولا نبتغى وراء ذلك مأربا ، وسيكون فى هذه الأمة مجتهدون يأخذون الأحكام من القرآن ، وينظرون بعقولهم نظرا ثاقبا ، وسيكون تعليم جميع العلوم السماوية والأرضية للمستعدين مشوبا بذكر خالقه وحبه ، وإذن تكون العلوم كلها مرتبطة بالصانع .

هذا هو الذى سيكون ميزة أمم الإسلام ، وهذا المهيع يحدث فيهم حكماء نابغين لانظير لهم يقودون أممهم والأمم الأخرى إلى سبيل الفلاح « ليظهره على الدين كله » وسيكون عصر المسلمين المستقبل عصر سلام مع الأمم ، وعصر علم ، وعصر حكمة ، ولذلك أعقبه بقوله (وإن لك لأجرا غير ممنون) أى لثوابا على احتمال مايقولون والصبر عليه غير مقطوع ، فكون الأجر غير ممنون فيه رمز إلى عدم انقطاع هذه الأمم التى تتعاقب فيزداد الأجر بازدياد الأمم ودوامها ، وقوله (وإنك لعلى خلق عظيم) هو المذكور فى قوله تعالى : «خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين» وذلك بالتساهل مع الناس فيأخذ بظواهرهم ولا يدقق على البواطن ، وذلك بالتسامح والتغافل لاالغفلة ، وهذا معنى العفو ، والباقيان مفهومان .

قالت عائشة رضى الله عنها : « كان خلقه القرآن» ، ألست تقرأ القرآن : «قد أفلح المؤمنون» ، وإذا رجعت إلى مافى سورة المنافقين وقد ظهر نفاق عبد الله ابن أبى ونزل به الوحى ، وإنه لم يقتله أدركت مكارم أخلاقه صلى الله عليه وسلم وحلمه وصبره . انتهى الكلام على المقصد الأول من السورة ، والحمد لله رب العالمين .

المقصد الثانى : سوء أخلاق بعض الكفار وجزاؤهم

قال تعالى (فستبصر ويبصرون ، بأيكم المفتون) أى بأيكم الجنون ، فالمفتون كالمعقول والمجلود كلها مصادر (إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله) وهؤلاء هم المجانين على الحقيقة (وهو أعلم بالمهتدين) الفائزين بكمال العقل ، ثم أمره أن يصمم على معاصاتهم ، إذ قالوا : نعبد الله مدة وآلهتنا مدة أخرى ، فقال (فلا تطع المكذبين) وهم مشركو مكة (ودوا لو تدهن) أى ودوا لوتلين لهم وتوافقهم بترك الطعن فى آلهتهم أو توافقهم فى شركهم أحيانا (فيدهنون) فهم تمنوا أن تترك بعض ما أنت عليه مما لا يرضونه مصانعة لهم ومداهنة فيفعلوا مثل ذلك ويتركوا بعض مالا ترضى به فتلين لهم ويلينون لك فلا تطعهم (ولا تطع كل حلاف) كثير الحلف فى الحق والباطل (مهين) حقير الرأى من المهانة وهى الحقارة (هماز) عياب (مشاء بنميم) نقال للحديث على وجه السعاية (مناع للخير) يمنع الناس عن الخير كالإنفاق

والإيمان والعمل الصالح (معتد) متجاوز الحد فى الظلم (أثيم) كثير الآثام (عتل) جاف غليظ ، يقال عتله إذا قاده بعنف وغلظة (بعد ذلك) أى مع ما وصفناه به من الصفات المذمومة (زنيم) وهو الدعى الملصق فى القوم وليس منهم فهو دعى قريش وليس منهم ، وهذا وصف الوليد ابن المغيرة ؛ وقد ادعاه أبوه بعد ثمانى عشرة سنة من مولده ، ويقال ، الزنيم هو الذى له زنمة كزنمة الشاة ، وكانت له زنمة يعرف بها ، ويعرف أيضا بالشر كما تعرف الشاة بزنمتها ، هذه معان ثلاثة ذكرها المفسرون : فهو ملصق فى قريش ، وله زنمة ظاهرة ، وأيضا يعرف بالشر ، فربما كانت هذه الثلاثة كلها أو بعضها فيه ، ولقد وصف بعشرة أوصاف هى سيئات الأخلاق فى مقابلة عظمة خلقه صلى الله عليه وسلم ، ثم أخذ يقرعه على غروره فقال (أن كان ذا مال وبنين) أى كذب بآياتنا وهو القرآن لأجل كونه ذا مال وبنين ، وكان ماله تسعة آلاف مثقال من فضة ، وبنوه عشرة ، وإنما قدرنا فعل كذب لأنه دل عليه بقوله (إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير) أحاديث (الأولين) فى كذبهم (سنسمه على الخرطوم) على أنفه مهانة له وعلما يعرف به ، وتلك السمة هى المهانة والإذلال كما تقول : جدع أنفه ، ورغم أنفه ، وكفى بسوء سمعته فى الدنيا بهذه الآيات وفى الآخرة بالفضيحة والعذاب مهانة ، أو هى سمة ظاهرة على الأنف بدون مجاز فيقال : ان أنفه أصيب بجراحة يوم بدر فبقى أثرها سمة له ، وإذن يكون ذلك من علامات النبوة . انتهى المقصد الثانى من السورة ،والحمد لله رب العالمين .

المقصد الثالث

ضرب مثل لأهل مكة ولكل ذى جهالة من أهل الأرض وحرص وطمع

وقصة أصحاب الجنة أنهم قوم من أهل الصلاة كانت لأبيهم جنة بقرية يقال لها ضروان ، وكانت على فرسخين من صنعاء ، وكان يأخذ منها قوت سنة ويتصدق بالباقى على الفقراء ، فلما مات قال بنوه : إن فعلنا ما كان يفعل أبونا ضاق علينا الأمر ونحن أولوا عيال ، فحلفوا ليقطعنها وهم داخلون فى الصباح خيفة من المساكين ولم يستثنوا حصة المساكين فأحرقها الله ، وهذه هى القصة (إنا بلوناهم) أى بلونا أهل مكة بالقحط (كما بلونا أصحاب الجنة) التى ذكرناها الآن (إذ أقسموا ليصرمنها) ليقطعنها (مصبحين) داخلين فى الصباح (ولا يستثنون) ولا يخرجون حصة المساكين كما كان يفعل أبوهم (فطاف عليها) على الجنة (طائف) بلاء طائف (من ربك) أى من عذاب ربك ، ولا يكون الطائف إلا ليلا (وهم نائمون فأصبحت كالصريم) كالبستان الذى صرم قطع ثماره بحيث لم يبق منه شىء (فتنادوا مصبحين ، أن اغدوا على حرثكم) أى بأن اخرجوا إليه غدوة (إن كنتم صارمين) قاطعين له (فانطلقوا وهم يتخافتون) يتسارون فيما بينهم لئلا يسمع المساكين يقولون (أن لايدخلنها اليوم عليكم مسكين) أى لا تمكنوه من الدخول فأن مفسرة (وغدوا على حرد قادرين) أى وغدوا على جد فى المنع قادرين عند أنفسهم (فلما رأوها) أول ما رأوها وهى محترقة بالطائف الربانى (قالوا إنا لضالون) طريق جنتنا فأين الطريق إليها ؟ ثم تأملوا فعرفوا أنها هى جنتهم وأنها احترقت ، فقالوا مضربين عما تقدم : (بل نحن محرومون) حرمنا خيرها لجنايتنا على أنفسنا (قال أوسطهم) أى أفضلهم فى الرأى وفى السن (ألم أقل لكم لولا تسبحون) أى هلا تذكرون الله وتتوبون إليه من خبث نيتكم (قالوا سبحان ربنا إنا كنا ظالمين) بمنعنا المساكين (فأقبل بعضهم على بعض يتلاومون) يلوم بعضهم بعضا (قالوا ياويلنا) دعوا على أنفسهم بالويل (إنا كنا طاغين) فى منعنا حق الفقراء والمساكين ولم نشكر نعمة الله بالإنفاق منها (عسى ربنا أن يبدلنا خيرا منها)

ببركة التوبة والاعتراف بالذنب ، وروى أنهم أبدلوا جنة خيرا منها (إنا إلى ربنا راغبون) راجون العفو طالبون الخير (كذلك العذاب) أى مثل ذلك العذاب الذى ذكرناه من عذاب الدنيا نفعل بمن تعدى حدودنا وخالف أمرنا سواء أكان من أهل مكة مشركى العرب أومن غيرهم من أمم الإسلام أوأمم أوروبا وبلاد الشرق ، فهذه قاعدة عامة مطردة لايفلت منها فرد ولا مجموع ، ولقد أصبحت هذه القاعدة مشاهدة الأثر فى زماننا ، وقد كنا منذ سنين نظن معاشر المسلمين أن دول أوروبا التى ظلمت الشرق لارادع لها ولا زاجر ، وكنا نقول : أين وعد الله بإهلاك الظالمين ، فحصلت وقائع غيرت وجه المسكونة ، فماذا حصل ؟ كانت دول أوروبا فى بلاد الشرق لها فى كل دولة منها امتياز واختصاص وتعاظم ، فيكونون فى البلاد ضيوفا فى حين أنهم ساداتها بقوانين يصدرونها ، فيقتل الرجل منهم المسلم الوطنى أو الشرقى الصينى والهندى ثم يفلت من العقاب إذ لايحاكم إلا فى محاكم دولته ، فلقد قلب الله الآية ، والدهر قلب ، فطردهم الترك من بلادهم ، فلا اختصاص لهم فى البلاد ولا امتياز ، وهكذا دولة إيران ، وفى أثناء كتابة هذا التفسير بل فى أثناء تفسير هذه السورة قامت ضجة وثورة فى بلاد الصين ضد أوروبا يطلبون ألا يسود عليهم الأجنبى فى بلادهم ، وقد أجابت الأمم إلى ذلك ويمدون المعدات لإجابة الطلب كما أجابوا بلاد الترك من قبل ، ومن قبل هؤلاء فعل أهل اليابان ذلك ، ولقد سلط الله دولة الروس (البلشفية) فهؤلاء يساعدون كل من أراد أن يطرد هؤلاء الظالمين من بلاده ، ولهم قواد عند الأمير عبدالكريم ببلاد مراكش للمساعدة على إخراج الظالمين .

كل ذلك مبدأ لما سيحصل فى الأمم المستقبلة فستكون حرة لاسلطان عليها لظلم أوروبا التى هرمت وشاخت وستقوم دول شابة فى الشرق ، وقد ابتدأت تتحرك اليوم وتحل محل هؤلاء الظالمين ، كل ذلك داخل فى معنى هذه الآية ، فإن أصحاب الجنة استأثروا بالثمر وحرموا الفقراء ، وهذه الدول ظنت أن الناس مخلوقون لخدمتهم فأرادوا استعبادهم فقلب الله الآية ، وسيدور الفلك دورته ويتم الله نصر المظلومين الذى ابتدأ الآن وسيزيد ارتقاؤه فى المستقبل القريب .

فهذه الأمم اليوم تذوق عذاب الخزى فى هذه الحياة الدنيا بالفقر المدقع الذى استولى على بلادها ، وبالبلشفية التى أصبحت كالسوس تنخر فى عظامها ، وقريبا يذهب ظلمها المتداعى إلى السقوط (ولعذاب الآخرة أكبر) أعظم منه (لو كانوا يعلمون) لاحترزوا عن الفعل الذى يؤدى إليه . انتهى الكلام على المقصد الثالث من السورة ، والحمد لله رب العالمين :

المقصد الرابع

تقريع المجرمين ، وأمر بالصبر لنبينا صلى الله عليه وسلم لئلا يكون كصاحب الحوت

قال تعالى (إن للمتقين عند ربهم جنات النعيم) أى جنات ليس فيها إلا التنعم الخالص ، لا الجنات الدنيوية التى يشوبها العذاب بزوال ثمرها وخلو اليد منها . ثم أخذ يرد على من قال من الكفار : إن صح أننا نبعث كما يزعم محمد ومن معه لم يفضلونا بل نكون أحسن حالا منهم ، لأن من أحسن فى الدنيا إلينا فهو محسن إلينا فى الآخرة ، فقال : (أفنجعل المسلمين كالمجرمين) ثم خاطبهم على طريق الالتفات فقال : (مالكم كيف تحكمون) هذا الحكم المعوج وكيف تسوون بين العاصى والمطيع فضلا عن أن تفضلوا العاصى على المطيع ، ثم أخذ يقطع عليهم الحجة ويسد عليهم أبوابها فقال : هل تلقيتم كتابا من السماء فقرأتم فيه أنكم تختارون ماتشاءون بحيث تكونون وأنتم مجرمون كالمسلمين الصالحين ! بل هل أعطيناكم عهودا أكدناها بالأيمان المؤكدة عاهدناكم عليها فاستوثقتم بها ، فهى ثابتة إلى يوم القيامة فأقسمنا لكم بها أنا حكمناكم وأعطيناكم

ما تحكمون لأنفسكم ، بل ألهم أناس يشاركونهم فى هذا القول ويذهبون مذهبهم مع أنه لا يسلم لهم بهذا القول أحد ولا يساعدهم ، ولا كتاب لهم ينطق به ، ولا عهد لهم عند الله ، وإذا زعموا أن لهم أناسا يذهبون مذهبهم فليأتوا بهم يوم شدة الأمر وصعوبة الخطب ويقال لهم اسجدوا وقت تلك الشدة توبيخا لهم على ترك السجود فى الدنيا ، وذلك إما فى النزع أو بعد الموت فلا يقدرون على السجود وأبصارهم خاشعة ، والذلة محيطة بهم ، مع أنهم كانوا يدعون إلى السجود فى الدنيا وهم متمكنون منه : هذا هو قوله تعالى (أم لكم كتاب فيه تدرسون ، إن لكم فيه لما تخيرون ، أم لكم أيمان علينا بالغة إلى يوم القيامة إن لكم لما تحكمون ، سلهم أيهم بذلك زعيم ، أم لهم شركاء فليأتوا بشركائهم إن كانوا صادقين ، يوم يكشف عن ساق ويدعون إلى السجود فلا يستطيعون ، خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة وقد كانوا يدعون إلى السجود وهم سالمون) .

فقوله : تدرسون : أى تقرءون ، وتخيرون: أى تختارون ، وأيمان: أى عهود ، وبالغة : أى متناهية فى التوكيد ، وقوله : إلى يوم القيامة : أى ثابتة لكم علينا إلى يومها ، وقوله : سلهم أيهم بذلك زعيم : أى أيهم بذلك الحكم قائم يدعيه ويصححه، وقوله : يكشف عن ساق: متعلق بيأتوا : أى يوم يشتد الأمر ويصعب ، فهو كناية عن الشدة ، وقد كانوا إذا ابتلوا بشدة كشفوا عن الساق ، وذلك كما تقول للأقطع البخيل : يده مغلولة مع أنه لا يد له ولا غل ، فهكذا هنا لا ساق ولا كشف ، وقوله : خاشعة أبصارهم : أى ذليلة، وقوله: وقد كانوا يدعون إلى السجود: أى فى الدنيا ، وقوله : وهم سالمون : أى أصحاء . ثم إن قوله فى أول هذه الآيات : «أم لكم كتاب فيه تدرسون ، إن لكم فيه لما تخيرون» أصله أن بالفتح ، لأنه مدروس لوقوع الدرس عليه ، وإنما كسرت لوجود اللام فى خبرها .

ثم قال تعالى (فذرنى ومن يكذب بهذا الحديث سنستدرجهم من حيث لا يعلمون ، وأملى لهم إن كيدى متين ، أم تسئلهم أجرا فهم من مغرم مثقلون ، أم عندهم الغيب فهم يكتبون ، فاصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب الحوت إذ نادى وهو مكظوم ، لولا أن تداركه نعمة من ربه لنبذ بالعراء وهو مذموم ، فاجتباه ربه فجعله من الصالحين ، وإن يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم لما سمعوا الذكر ويقولون إنه لمجنون ، وما هو إلا ذكر للعالمين) .

يقول الله سبحانه : خل يا محمد بينى وبين من يكذب بهذا القرآن فإنى عالم بما ينبغى أن يفعل به مطيق له فلا تشغل قلبك بشأنه ، وتوكل على فى الانتقام منه ، إنا سندنيهم من العذاب درجة درجة ، ونستنزلهم إليه حتى نورطهم فيه فنوالى النعمة عليهم ونرزقهم الصحة والعافية فتزداد معاصيهم من الجهة التى لا يشعرون أنها استدراج ، فكلما جددوا معصية جددنا لهم نعمة وأنسيناهم شكرها وأنا أمهلهم فإن استدراجى لهم وكيدى قوى متين .

ثم كأنه يقول : يا محمد : ماذا ينقمون منك ؟ أأنت تسألهم أجرا على تبليغ الرسالة فثقل عليهم فامتنعوا كلا . بل هل عندهم علم الغيب المكتوب فى اللوح المحفوظ فهم يكتبون منه ما يحكمون به ! فلا هذا ولا ذاك إذن القوم معاندون ، لم يبق إلا أن تصبر لحكم ربك فقد حكم بإمهالهم وتأخير نصرتك ، فإنهم إن أمهلوا لم يهملوا ، وأخذ يذكره بحادثة يونس عليه السلام ، إذ غضب على قومه وفارقهم ، ونزل إلى السفينة فابتلعه الحوت ، ودعا ربه فى بطنه فقال : «لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين» وهو مملوء غيظا وهذا هو قوله تعالى « فذرنى ومن يكذب بهذا الحديث » أى كله إلى فإنى أكفيكه « سنستدرجهم من حيث لا يعلمون» سندنيهم ونقربهم من العذاب « وأملى لهم » أمهلهم « إن كيدى متين » جعل الإحسان

كيدا كما جعله استدراجا لكونه فى صورة الكيد (متين) شديد (أم تسألهم أجرافهم من مغرم مثقلون ، أم عندهم الغيب فهم يكتبون ، فاصبر لحكم ربك) وهو إمهالهم (ولا تكن كصاحب الحوت) وهو يونس عليه السلام (إذ نادى وهو مكظوم) مملوء غيظا ، وقوله (لولا أن تداركه نعمة من ربه) أى رحمة (لنبذ بالعراء) أى لطرح بالفضاء من بطن الحوت (وهو مذموم) أى مليم مطرود من الرحمة والكرامة « فاجتباه ربه » وذلك بأن رد الوحى إليه (فجعله من الصالحين) أى الكاملين فى الصلاح بأن عصمه فلم تبق له زلة ، وهذه الآية نزلت لما هم أن يدعو على ثقيف ، أو بأحد حين حل بالمسلمين ماحل فأراد أن يدعو على المنهزمين (وإن يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم) أى إنهم لشدة عداوتهم ينظرون إليك شزرا بحيث يكادون يزلون قدمك ويرمونك ، يقال نظر إلى نظرا يكاد يصرعنى : أى لو أمكنه أن يصرعنى بنظره لفعله ، أو يقال إنهم يكادون يصيبونك بالعين ، وذلك أن العين كانت فى بنى أسد فكان الرجل منهم يتجوع ثلاثة أيام فلا يمر به شىء فيقول فيه : لم أر كاليوم مثله إلا أهلك ، فطلب من بعض العيانين أن يقول فى رسول الله صلى الله عليه وسلم مثل ذلك ، فقال : لم أر كاليوم مثله رجلا فعصمه الله من ذلك ، وفى الحديث : «العين حق وإن العين لتدخل الجمل القدر والرجل القبر» . وعن الحسن : رمية العين هذه الآية .

وقوله : (وإن يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم) إن مخففة من الثقيلة ، فهى للتأكيد واللام واقعة فى خبرها ، وقوله (لما سمعوا الذكر) أى حين سمعوا القرآن (ويقولون) حسدا على ما أوتيت من النبوة (إنه لمجنون) إن محمدا لمجنون حيرة فى أمره وتنفيرا عنه (وما هو) أى القرآن (إلا ذكر) إلا وعظ (للعالمين) للجن والإنس : أى جننوه لأجل القرآن مع أنه ذكر عام لايدركه ولا يتعاطاه إلا من كان أهلا له اهـ .

إيضاح

إن هذه الآيات متلاحقة متواصلة المعنى ، فان أصحاب الجنة ضربوا مثلا لمن أعطوا نعمة فبخلوا بها عن الناس ، وحرصوا عليها ، فنزل بهم السوء وأحاط بهم ، فزالت نعمتهم ، وهكذا الاستدراج فى النعم ، فإن الإنسان يعطى النعمة ولا تزال تتوالى عليه وهو غافل ساه ، فيظن أن الله أحبه ، وأن هذا العز يدوم فإذا نعمته زائلة وهمه حاضر ، هذا الحكم يشمل الأفراد ويشمل الأمم ، الأفراد والأمم مشتركون فى هذه القواعد .

واعلم أن هذه القضية مسلمة عند علماء الاجتماع ، فما من دولة إلا ولها زمان ترتقى فيه ، وتكون أشبه بالدابة ترعى فى مرعاها سائمة هائمة آمنة مطمئنة ، فلا تلبث أن تأكل ما يضرها فتمرض أو تموت ، وما مثل الأمة وهى فى عنفوان عظمتها إلا كمثل ما وصفه علماء الطب الحديث فى النمسا وألمانيا إذ قالوا : إن أكثر من نراهم أصحاء الأبدان أقوياء الجسم حمر الخدود ، موردى الوجنات ، لما فى تغذيتهم من المواد الكثيرة الغذاء ، كاللحم والبيض واللبن ، فهؤلاء لا يزالون هكذا حتى تتخطفهم المنون وهم لا يشعرون ، وأما ذلك الذى نراه ضعيف الجسم كثير الأمراض فهؤلاء الذى نسميه قويا لأن جسمه قدر أن يخرج منه الفضلات الباقيات فى جسمه التى لو بقيت لأهلكته : أما الأول الذى يظن الناس أنه قوى ويحسدونه فإنه هو الضعيف فى نظرنا لأنه دائما أو غالبا يموت فجأة وهو غافل ، وما مثل جسد الأول وجسد الثانى إلا كمثل بيت لم تجعل له مصارف لما فيه من القاذورات وبيت قد جعل له ذلك ، فالثانى خير من الأول قالوا وهذا هو السر فى أنا نرى كثيرا من الضعفاء المهزولين يعمرون وكثيرا من الأقوياء يموتون فجأة وهم فى عنفوان الشباب .

إذا عرفت هذا فهمت أحوال الدول . فالأمم إذا استبحر عمرانها . وتكاثر نسلها ، واستعمرت الأرض واستكثرت من الشهوات جرها ذلك إلى البطنة وسوء الحال ، فيقول غيرها من الأمم ما أحسن حالهم ويهابونهم ، ولكنهم يكونون قد أشرفوا على الهرم وقاربوا الهلاك .

وهذه دول أوروبا الحالية أمرها على هذه الحال أصبحوا وهم شرهون متنعمون لم يظهرهم إلا تفوقهم فى الصناعة ، ولكنهم مشرفون على حال الهرم وضياع المدنية ، كما ذهبت دولة اليونان والرومان ، وآبائنا العرب القدماء ، وهذه الحال طبيعية فى الأمم : فأما الأمم التى هى فى حال البداوة فإن أخلاقها وعقولها قابلة للرقى ، ومتى جاء دورها ولم شعثها ، وسيقت لحرب الأمم العظيمة أهلكتها وحلت محلها ، فدولة الرومان أزالها أولئك المتوحشون من الأمم التى نزحت قديما من آسيا ، فأزالوا تلك الدولة وحلوا محلها ، وذلك فى نحو القرن الرابع والخامس بعد الميلاد ، وهكذا دولتنا العربية زالت قديما وحلت محلها أمم أخرى كالتتار وكالسلجوقيين وغيرهم ، وأمم أوروبا لاحقة بهم قريبا ، ألا ترى إلى بلاد مراكش فى أيامنا الحاضرة كيف اتحدت دولتان عظيمتان على قتالهم ، وتعدادهم رجالا ونساء نحو مليون كما يقال ، وهم جهال ، ومع ذلك دوخوا الدولتين معا ، وفرنسا تستعين بأمم كثيرة من السنغال وتحارب إخواننا مع أنهم جزء قليل من بلاد مراكش ، فهذه الأمم الإسلامية التى لم يقتل النعيم والبطنة هممها ، ولم تدنس الشهوات عقولها ، متى جاء وقتها ، وتسلمت مقاليد المدنية أزالت تلك الأمم من مراكزها ، فأمم الشرق اليوم أشبه بذلك الرجل النحيف المريض ، وأمم الغرب أشبه بذلك الرجل الضخم الجسم الآكل من المواد الكثيرة التغذية ، فهذا هو الاستدراج والاستنزال ثم يكون الهلاك .

أمر الله الصادقين فى أعمالهم أن يصبروا لأن دولة الباطل زائلة ، ودولة الحق غالبة ، فها هو ذا سبحانه يقول للقائمين بالحق صبرا صبرا ، لا يكن أحدكم مستعجلا فان هؤلاء مستدرجون وفى العذاب واقعون .

فاذا قرأت هذا أيها المسلم فاعلم أن يوم الأمم الشرقية آت وإياك أن تقول ، لم لم ينصرنا الله ؟ وأذكرك بصاحب الحوت فإن أمم الإسلام الحالية تحتاج إلى مدة تستكمل قوتها فيها، فاعمل لها فلك أجر الفاتحين وإن لم يكن على يديك ، وإن ركبت متن العجلة بؤت بالندامة ، وندمت ندامة الكسعى، فاعمل لأمتك وانتظر النتيجة ، وأذكرك أيضا بأن سيدنا محمدا صلى الله عليه وسلم أخبر بفتح فارس والروم ، وفتح القسطنطينية ، وفارس لم تفتح فى زمانه ، والقسطنطينية فتحت بعده بنحو تسع قرون ، فاصبر لحكم ربك كما صبر ولا تكن كصاحب الحوت فتولى هاربا وتدخل كسر بيتك وتقول مالى وللمسلمين . كلا . ثم كلا فالله سائلك لاسيما بعد التبيان فى هذا التفسير الذى أنا موقن أن حركة الشرق ستنهض فى إبان ظهوره ، وتشتد بقراءته وقراءة ما يماثله من كتب العلماء فى البلاد الإسلامية ، وبهذا تم الكلام على (سورة القلم) والحمد لله رب العالمين . كتب عصر يوم الخميس ١٦ يوليو سنة ١٩٢٥ م (١)

---

(١) [تذكرة] عاق ضيق المقام عن أن نبين أنواع القلم مثل: الطومار ومختصره ، وثلثيه وثلثه ، وقلم الغبار ، وقلم الرقاع ، فأخرنا الكلام على ذلك كله مع صور حروفه إلى سورة العلق إن شاء الله تعالى .

تفسير سورة الحاقة

هى مكية

آياتها ٥٢ — نزلت بعد سورة الملك

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الْحَاقَّةُ * مَا الْحَاقَّةُ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ * كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ * فَأَمَّا
ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ * وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ * سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ
سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ * فَهَلْ
تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ * وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ بِالْخَاطِئَةِ * فَعَصَوْا رَسُولَ
رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَابِيَةً * إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ * لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ
تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ * فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ * وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ
وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً * فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ * وَانْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ
وَاهِيَةٌ * وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ * يَوْمَئِذٍ
تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ * فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا
كِتَابِيَهْ * إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ * فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ * فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ *
قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ * كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ * وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ
بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ * وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ * يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ *
مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَهْ * هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ * خُذُوهُ فَغُلُّوهُ * ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ * ثُمَّ
فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ * إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ * وَلَا يَحُضُّ
عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ * فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ * وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ * لَا يَأْكُلُهُ
إِلَّا الْخَاطِئُونَ * فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ * وَمَا لَا تُبْصِرُونَ * إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ *

وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلاً مَا تُؤْمِنُونَ * وَلاَ بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ * تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ * وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ * لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ * فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ * وَإِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ لِلْمُتَّقِينَ * وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنْكُمْ مُكَذِّبِينَ * وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ * وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ * فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ *

هذه السورة مقصدان

المقصد الأول : هلاك الأمم فى الدنيا من أول السورة إلى قوله « أذن واعية » .

المقصد الثانى : فى عذاب الآخرة مختوما بإثبات النبوة ودحض مفترياتهم من قوله : « فإذا نفخ فى الصور نفخة واحدة » إلى آخر السورة .

المقصد الأول : هلاك الأمم فى الدنيا

التفسير اللفظى

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(الحاقة) أى القيامة ، الساعة الواجبة الوقوع ، الثابتة المجىء ، التى هى آتية لاريب فيها ، يقال حق الشىء يحق : أى وجب ، وهذه مبتدأ خبره هذه الجملة (ما الحاقة) أى أى شىء هى ؟ (وما أدراك ما الحاقة) أى أى شىء أعلمك ما هى ؟ فلا علم لك بكنهها ، فلقد بلغت من الشدة والهول أنه لايبلغها علم المخلوقين (كذبت ثمود وعاد بالقارعة) أى الحاقة المذكورة التى تقرع قلوب الناس بالمخافة والأهوال ، وتقرع الأجرام بالانفطار والانتشار فتكون هباء منفرقا فى كل مكان (فأما ثمود فأهلكوا بالطاغية) وهى الواقعة التى تجاوزت الحد فى الشدة ، وذلك بالصيحة أو الرجفة ، لأنهم كذبوا بالقارعة (وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر) شديدة الصوت فى الهبوب لها صرصرة ، أو الباردة (عاتية) جاوزت الحد والمقدار (سخرها عليهم) سلطها عليهم ، هى جملة مستأنفة لبيان فعلها (سبع ليال وثمانية أيام حسوما) حاسمات حسمت كل خير واستأصلته ، وحسمتهم أى قطعتهم بعذاب الاستئصال فلم تبق منهم أحدا ، وهى جمع حاسم ، وهذا من شؤمها ونحسها ، وهى كانت أيام العجوز من صبيحة الأربعاء إلى غروب الأربعاء الآخر ، وسميت عجوزا لأنها عجز الشتاء (فترى القوم فيها صرعى) موتى جمع صريع (كأنهم أعجاز نخل خاوية) أصول نخل متآكلة الأجواف (فهل ترى لهم من باقية) أى من بقاء ، أو من نفس باقية (وجاء فرعون ومن قبله) ومن تقدمه (والمؤتفكات) أى المنقلبات ، وهى قرى قوم لوط انقلبت بهم (بالخاطئة) أى بالخطأ ، أو بالأفعال ذات الخطأ العظيم (فعصوا رسول ربهم) لوطا (فأخذهم أخذة رابية) شديدة زائدة فى الشدة بنسبة زيادتهم فى القبح (إنا لما طغا الماء) أى ارتفع الماء وقت الطوفان ارتفاعا جاوز الحد (حملناكم) أى آباءكم (فى الجارية) وهى سفينة نوح عليه السلام (لنجعلها) أى الفعلة (لكم تذكرة) عبرة (وتعيها) وتحفظها (أذن واعية) حافظة لما تسمع منتفعة به . انتهى الكلام على المقصد الأول من السورة ، والحمد لله رب العالمين .

المقصد الثانى : فى عذاب الآخرة واختتامه بإثبات النبوة

فهو لشرح أحوال القيامة بعد ذكر ما حل بالمكذبين بها فى الحياة الدنيا وهلاكهم فيكون العذاب مذكورا على الترتيب الطبيعى

قال تعالى (فإذا نفخ فى الصور نفخة واحدة) وهى النفخة الأولى (وحملت الأرض والجبال) أى رفعت عن أماكنها (فدكتادكة واحدة) أى ضرب بعضها ببعض حتى تندق وترجع كثيبا مهيلا (فيومئذ) أى فحينئذ (وقعت الواقعة) نزلت النازلة ، وهى القيامة ، وهذه الجملة جواب إذا ، وقوله (وانشقت السماء) أى فتحت أبوابا (فهى يومئذ واهية) مسترخية ساقطة القوة (والملك على أرجائها) على جوانبها ، وهى جمع رجا بالقصر ، وهذا تمثيل لخراب السماء بخراب البنيان فى الأرض وانطلاق أهله إلى أطرافه وحوله ، فكأن الملائكة وهم سكان السموات لجأوا إلى أطرافها بعد خرابها (ويحمل عرش ربك فوقهم) فوق الملائكة الذين هم على الأرجاء (يومئذ ثمانية) أى ثمانية صفوف من الملائكة لايعلم عددهم ، وهم اليوم أربعة ، وهذا من باب التمثيل لعظمة يوم القيامة بما نشاهد من أحوال الملوك يوم خروجهم على الناس للقضاء العام (يومئذ تعرضون) للمحاسبة تشبيها بعرض السلطان العسكر ليتعرف أحوالهم (لا تخفى منكم خافية) سريرة على الله تعالى ، فإذن ليس العرض للاطلاع عليها ، وإنما المراد إفشاء الحال والمبالغة فى العدل . ثم أخذ يفصل أحوال العرض فقال (فأما من أوتى كتابه بيمينه فيقول هاؤم) أى خذوا كتابى (اقرءوا كتابيه) وهاء اسم فعل ، والميم تلحق بها عند مخاطبة جمع الذكور ، وهاء كتابيه للسكت (إنى ظننت أنى ملاق حسابيه) أى علمت أنى معاين حسابى (فهو فى عيشة راضية) ذات رضى يرضى بها صاحبها (فى جنة عالية) مرتفعة المكان لأنها فى السماء والدرجات والأبنية ، والأشجار (قطوفها) ثمارها (دانية) قريبة من مريديها ، ينالها القاعد والقائم والمتكئ ، ويقال لهم (كلوا واشربوا) أكلا وشربا (هنيئا بما أسلفتم) بما قدمتم من الأعمال الصالحة (فى الأيام الخالية) الماضية من أيام الدنيا (وأما من أوتى كتابه بشماله فيقول) حين يرى سوء العاقبة ، وقبح عمله ، وشناعة مرآه (ياليتنى لم أوت كتابيه ، ولم أدر ما حسابيه ، ياليتها) ياليت الموتة التى متها (كانت القاضية) القاطعة لأمرى فلم أبعث بعدها (ما أغنى عنى ماليه) أى لم ينفعنى ما جمعته فى الدنيا ، والمفعول محذوف لم يغن عنى شيئا (هلك عنى سلطانيه) تسلطى على الناس ، وبقيت فقيرا ذليلا ، أوخلت عنى حججى التى كنت أحتج بها فى الدنيا ، فيقول الله لخزنة جهنم (خذوه فغلوه) أى اجمعوا يديه إلى عنقه (ثم الجحيم صلوه) أى لا تدخلوه إلا النار العظمى (ثم فى سلسلة ذرعها) طولها (سبعون ذراعا) أى طويلة (فاسلكوه) فأدخلوه فيها بحيث تلف على جسده فلا يقدر على التحرك ، ثم ذكر سببه فقال (إنه كان لايؤمن بالله العظيم ، ولايحض على طعام المسكين) أى ولا يحث غيره على بذل طعامه ، وعن بعضهم أنه كان يأمر أهله بتكثير المرقة لأجل المساكين ويقول : خلعنا نصف السلسلة بالإيمان أفلا نخلع النصف الثانى بالإطعام (فليس له اليوم هاهنا حميم) أى ليس له فى الآخرة قريب ينفعه ويشفع له (ولا طعام إلا من غسلين) أى صديد (لا يأكله إلا الخاطئون) أصحاب الخطايا ، يقال : خطئ الرجل إذا تعمد الخطأ المضاد للصواب (فلا أقسم) أى فأقسم ولفظ لا زائد (بما تبصرون ومالا تبصرون) أى بالمشاهدات والتى لم تشاهد ، وهذا جمع كل شئ من المخلوقات ، وشمل الخالق (إنه) أى القرآن (لقول رسول) يبلغه عن الله (كريم) على الله ، وهو محمد صلى الله عليه وسلم ، أو جبريل (وما هو بقول شاعر) كما يزعم بعضكم (قليلا ما تؤمنون) أى تصدقون تصديقا قليلا لما ظهر

لكم صدقه (ولا بقول كاهن) كما يدعى آخرون منكم (قليلا ما تذكرون) أى تذكرون تذكرا قليلا ، هو (تنزيل من رب العالمين) نزله على لسان جبريل عليه السلام (ولو تقول علينا) أى اختلق علينا محمد (بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين) أى بيمينه (ثم لقطعنا منه الوتين) وهو عرق يخرج من القلب ويتصل بالرأس ، وهو تصوير لاهلاكه بأفظع مايفعله الملوك بمن يغضبون عليه، وهوأن يأخذ القاتل بيمينه ويضرب عنقه بالسيف ، والمقصود أنه لو كذب علينا وتكلف الإخبار عنا لقتلناه إما قتلا معنويا وذلك بأن نهيء له من يبطل حجته ، ويعيت دعوته ، أو نسلبه قوة البيان فلا يتكلم بهذا الكذب ، وإما نميته ؛ إذن ليس القصد من الأخذ باليمين وقطع الوتين إلا النتيجة ، وهى ألا ينشر الأكاذيب ، ولاجرم أن كل متكلف القول غير معبر عما امتلأ به فؤاده ، ووعاه صدره ، وجاشت به نفسه ، بحيث يفيض القول منه فيضا ، لاتعتد دعوته ، ولا يسمع قوله ، وهذه عادة الله فى خلقه ، فليس لامرئ متكلف من نصيب فى قبول السامعين. إن المؤلفين والخطباء والشعراء إذا لم يكن تآليفهم وخطابتهم جائشة بها صدورهم فإن قولهم مرفوض والسامع له ، وقارئ كتبهم لايميل إليها ، ولا يخامر قلبه حبها ، وفى التنزيل : « وما أنا من المتكلفين » ثم قال تعالى (فما منكم من أحد) أيها الناس (عنه) عن قتل محمد صلى الله عليه وسلم (حاجزين) ولفظ أحد فى معنى الجماعة فلذلك وصف بالجمع (وإنه) أى القرآن (لتذكرة) لعظة (للمتقين) إذ غيرهم لاينتفع به (وإنا لنعلم أن منكم مكذبين) فنجازيهم عليه (وإنه لحسرة على الكافرين) حينما يرون ثواب المؤمنين (وإنه لحق اليقين) الذى لاريب فيه (فسبح باسم ربك العظيم) أى نزه ربك العظيم واشكره إذ جعلك أهلا لأن يوحى إليك ، أو فسبح الله بذكر اسمه العظيم تنزيها له عن الرضى بالتقول ، وشكرا إليك .انتهى التفسير اللفظى للمقصد الثانى من السورة ، والحمد لله رب العالمين .

إيضاح

اعلم أن هذه السورة سيقت لتبيان هلاك الأمم الجاهلة فى الدنيا بخرابها ، وفى الآخرة بعذابها إن التكذيب بالقيامة الذى بنى عليه هذان العذابان : عذاب الدنيا بخراب الدول ، وعذاب الآخرة بجهنم إنما هو عنوان على الجهالة ، فليس خراب تلك الأمم للتكذيب بالقيامة وحده ، فقدجاء فيها أن منهم من طفف المكيال والميزان ، ومنهم من ظلم عباد الله ، ومنهم من استغنى بالذكران عن النسوان ، فإذن يرجع الأمر إلى الجهالة ، فيصير الأمر هكذا : إن الأمم التى أقفلت عقول أبنائها وغفل رجالها تعذب عذابين : عذابا فى الدنيا ، وعذابا فى الآخرة ، وإذا ضرب الله مثلا بعاد وثمود وقوم لوط وقوم فرعون ، فمثل هذه الأمم كل أمة غافلة جاهلة العواقب لم تتق مايطرأ عليها من حوادث الدهر باعداد المعدات وإحياء أرضها وعقول أبنائها ، ومعرفة مافى هذه الدنيا من الصناعات والعلوم ، وإذاكان جهل الآخرة التى هى غائبة عنا لم نشاهدهايوجب عذاب جهنم ، فكيف إذن يكون جهل ما أحاط بالناس من مدمرات ومهلكات ! إنه أحرى أن يوجب الخزى فى الدارين .

وإيضاحه أن الآخرة أعد فيها عذاب جهنم ونعيم الجنة ، فمن جهل هذه العاقبة دخل جهنم ، ومعلوم أن الآخرة لم يعرفها الناس بعقولهم وإنما عرفوها بكلام أنبيائهم الصادقين المؤيدين بالمعجزات ، فيقال : إذا كانت هذه حال الناس إذا كذبوا أمراسمعوا لم يروه فكيف تكون حالهم إذارأوا الأمم حولهم قداستخرجت منافع مافى الأرض وملكت منها حظا وافرا لغرضين : إحياء أممهم وإماتة غيرهم ، فإذا هم أهملوا ماهو يقين عندهم ، وهو أن تلك الأمم المحيطة بهم ستنقض عليهم وربما أفنتهم كما أفنى أهل أوروبا سكان أمريكا الأصليين،

واستأصل

واستأصل الإنجليز سكان استراليا الأصليين إلا قليلا فإن العذاب يلحقهم فى الدنيا بانقضاض تلك الأمم عليهم : « ولعذاب الآخرة أشد وأبقى » .

ثم إن الإيمان بالآخرة لانتيجة له إلا العلم والعمل فى الدنيا ، فأى أمة غفلت عما أحاط بها من العلوم فى الأمم حولها ، ومادبرت من كيد وذل للضعفاء فإن هذه السورة تبين لها مقدار عذابها فى الدنيا بذلها وفى الآخرة بجهنم .

ولقد قلنا فى هـذا التفسير إن المسلم إذا ظن أن العذاب خاص بأمم معلومة فى الدنيا والآخرة ، وأنه هو مبرأ منه فليعلم أن هذا غرور اختلقه الوعاظ الكاذبون (انظر هـذا الموضوع فى سورة آل عمران عند قوله تعالى : « وغرهم فى دينهم ما كانوا يفترون » وفى سورة البقرة عند مسألة الشفاعة) .

إن سنة الله واحدة ، ولن يغيرها لأجل مسلم جاهل مغتر فى دينه . وأما تعلل المسلم بأنه غير مخلد فى جهنم فليعلم أن العذاب الطويل لا يطاق ، فالمسلم الذى يتكل هـذا الاتكال يحرم من السعادة فى الدنيا والآخرة ، فاذا ذكر الله ثمود وعادا ، أو قوم لوط الخ فلنا أن نذكر أيضا خراب الأندلس التى كان يعمرها المسلمون واحتلال مصر بالانجليز وبلاد شمال أفريقيا بقوم من الفرنجة ، وهكذا العراق والشام ، أليس هـذا هو عذاب الدنيا ، ألم يعذب الله المسلمين بجهلهم ، نعم هم يؤمنون بالآخرة ولكنهم لا يؤمنون بالمحسوسات المشاهدة من ظلم الأمم فلا يحافظون على بلادهم ، ولا يكون ذلك إلا بالعلوم والمعارف .

* * *

أيها المسلمون : ألستم تعدون أن هذا من الله ؟ أليس هذا تعجيلا للعذاب ؟ ألستم ترون أنكم بنومكم عن معرفة كمال الله وعظمته ، والاطلاع على آثاره وحكمته ، وبحرمانكم من خيرات ما خلق من البدائع والمنافع قد استحققتم غضبه ، لأنكم غير شاكرين ، ولا متقبلين نعمه .

ياعجبا ! أيظن المسلم أن الله يكتفى منه بأن يقول آمنت؟عجبا لأمة الإسلام! ألم يقرأ المسلمون : «أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لايفتنون » أى وهم لايختبرون ، فهذا هو الاختبار ، اختبر عقولكم فوجدها غافلة ، أحاط بها جمال الله فى صنائعه ، أحاط بها أمم الفرنجة بالمدافع والطيارات ، أحاطت بها صناعات الفرنجة تدخل بلادهم فيشترونها بأغلى الأثمان فتفتقر البلاد فتصير ملكا للأجانب ؛ أليس هذا من الاختبار ؟ ألم يقل الله على لسان قوم « وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا فى أصحاب السعير » ؟ ألم يقل الله : «إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا » ؟ ألم يذكر الله آيات كثيرة فى الحض على النظر والتفكر فى السموات والأرض ، غفل المسلمون فليستيقظوا ، ماتوا فليتنبهوا ، فقد جاء دورهم ، أفلم يقرأ المسلمون : « خذوه فغلوه ثم الجحيم صلوه ثم فى سلسلة ذرعها سبعون ذراعا فاسلكوه إنه كان لايؤمن بالله العظيم ولا يحض على طعام المسكين » .

أفلا يعلم المسلم أن الاقتصار على جمع المال وادخاره يحبس العقل فيظلم ، وتصبح النفس مكبلة به لاانفكاك لها منه ، فيعيش للمال ويموت متحسرا عليه : أى يعيش ولانظر له فى حكمة ، ولا علم ، ولادولة ، ولا منفعة أمة من الأمم ، لأنه حول وجهته إلى غرض واحد هو المال ، ومن كان هذا شأنه تكون جميع أحواله راجعة لهذا المعنى ، حتى إن كثيرا من عشاقه يعتريهم الوسواس فى آخر حياتهم ، فيقول أحدهم : أين سفنى البحرية ؟ أين قصورى ؟ أين كنوزى ؟ أين أموالى ؟ .

وإذا مات لايفارقه هذا الوسواس ، ولا يغادره هذا الخناس ، فهو كالمقيد بالسلاسل لاخلاص له منها ولا انفكاك ، فلا له فى الدنيا علم ولا عمل ، ولا فكر فى أمته ، وفى الآخرة يكون على منهجه لا يتعداه ، فلا يزال فى الجهالة العمياء .

حكاية

وهل لك أن أذكرك بحكاية البخيل الذى مات فى (مدينة أنجوليم) ، وقد رمز له بحرف (ل) وكان يسكن الطابق السفلى من داره ، فلما مرض لم يعلم أحد بمرضه ، فدخل رجال الحكومة فوجدوه شاخص البصر إلى كمية من النقود الذهبية الملقاة على مائدة أمامه ، فأخرجوه إلى المستشفى فمات ، حينئذ أحضره الجماعة الروحية بعد موته : أى أحضروا روحه . فقال : إنى لم أمت ، وكان ذلك فى ٢٥ أيلول سنة ١٨٦٣ ثم أحضروه مرة أخرى . فقال : ماذا تريدون منى؟ الأحرى بكم أن تردوا لى مالى الذى سرقوه منى ماأقبح عملهم ، أنا الذى تعبت مدة حياتى كلها لأجمع قليلا من النقود أستعين بها عند الحاجة فسرقوها منى وأحلوا بى الدمار ، أرجوكم سادتى أن تأخذوا بنصرتى ، وتسموا فى رد ما أخذوه منى ، فلما قيل له أنت ميت ولا تحتاج للمال ؟ قال : ماهذه الوقاحة ، هل الجنيهات فى نظركم لا تعد شيئا ، فلما ذكروه بأن الأجدر به أن يبحث عن كنزه فى السماء ، ردت الروح قائلة : ما أبلدكم دلونى على المكان الذى فيه كنزى ، وكفوا عن المزاح ، فقيل له ألا تعرف الله ؟ قال : ليس لى هذا الشرف ، أريد استرجاع مالى . انتهى المقصود منه نقلا عن كتابى [الأرواح] الذى ألفته فى هذا الصدد .

أفليس هذا الفتى الذى كان المال هو المقصود الأكبر من حياته قد كبله المال فصار فى سلسلته التى كبلته فلا يقدر على الانفصال عنها ، أليس قوله تعالى : «فى سلسلة ذرعها سبعون ذراعا فاسلكوه إنه كان لايؤمن بالله العظيم ولا يحض على طعام المسكين » يشير لنحو هذه الحكاية وأمثالها مما فى ذلك الكتاب وغيره مما امتلأت به بلاد أوروبا كلها ، وبلاد الإسلام محرومة منه .

ألم يجعل الله وضعه فى السلسلة الطويلة للجهل والبخل بالمال ، ولا جرم أن العقل متى كان غير منطلق من قيود الجهالة لايعقل النافع ، فهذا الفرنسى الذى لم ير بعد الموت أمامه إلا المال هو موضوع فى سلسلة معنوية أعظم من السلسلة الحسية ألف مرة ، إن المحبوس فى سجن قد يعيش فيه عشرات السنين ، ولكن الذى اعتراه عشق فملك قلبه وهو مطلق السراح فى القضاء قد يموت ، وقد يقتل نفسه ، وكثير من العشاق ماتوا لأنهم حبست عقولهم فى سورة واحدة لم ينالوها ، وربما جعلت لهم سلاسل حسية وإن كانت أقل فى التعذيب من السلاسل المعنوية .

إن عذاب الدنيا والآخرة بالسلاسل والضيق والاستعباد يكون بسببين : جهل بالمعقول ، وتقصير فى الأعمال وللأول الإشارة بقوله : « لا يؤمن بالله العظيم » والثانى بقوله : «ولا يحض على طعام المسكين».

إن للمعقول لذة غير لذة المال : لذة العلم ، لذة ارتقاء الأمة ، لذة النصر على أعداء الأمة ، لذة ارتقاء الصناعات الخ فما المال إلا آلة من آلات الحياة .

إيضاح السلسلة والعذاب بها

اعلم أن الناس عليهم واجبات : واجب للخالق ، وواجب للمخلوق ، فالواجب عليهم لخالقهم أن يعرفوه. وبعبارة أخرى أن يدرسوا نظامه فى العوالم كلها على قدر الإمكان ، فالعالم بالدراسة ، والجاهل بالعبادة ، لأنها تذكر بهذا العالم فى أثناء القراءة ، فإن قراءة الصلوات فيها الكلام على العالمين ، وعلى الربوبية الخ وفيها قراءة القرآن ، ولا جرم أن القرآن مذكر لهذا العالم .

وأما الواجب للمخلوق ، فهو المساعدة العامة والمعاشرة الجميلة ، فلن يصل لله إلا بعلم وصولا حقيقيا ، أو بعبادة وصولا ثانويا إجماليا ، ولن تكون روحه فى الحياة ، وبعد الممات فرحة بالأرواح الأخرى إلا إذا كانت تجلب لهم المساعدة ، وتتخذ مودتهم شعارا لها ، فليعاشر الناس بالأخلاق الحسنة إن لم يمكن بالمساعدة العامة لهم ، فاذن الإنسان يحظى بربه ومخلوقه بالعلم والعبادة أولا وبالنفع العام والأخلاق ثانيا ، فإن لم يوفق إلى أحدهما أو كلتيهما فإنه فى سلسلة لا تراها العيون ، ولكنها سلسلة أشد ضنكا وتعذيبا من سلسلة الحديد وهاك المثل المتقدم فى حكاية البخيل الذى أحضروا روحه . ألم يقل بعد موته إنه محتاج لماله ، ألم يقل إنه لايعرف الله وليس لهذا الشرف ، أليس هذا مصداق : « ومن كان فى هذه أعمى فهو فى الآخرة أعمى وأضل سبيلا » ، أليس هذا الرجل أعمى فى الدنيا وأعمى فى الآخرة ، ألم يكن محروما من معرفة الله كما أقر بنفسه ، ومن معرفة الحياة بعد الموت ، ومن محبة الناس ، لأنه بخيل ، أليس هذا هو قوله تعالى : « إنه كان لا يؤمن بالله العظيم ، ولا يحض على طعام المسكين » فضلا عن أنه هو نفسه ملزم أن يواسيهم بماله ؛ ولعلك تقول : أين السلسلة التى فى رقبته ؟ أقول لك : السلسلة هنا سلستان : حسية ومعنوية ، أما السلسلة المعنوية فانظر :

(١) ألست ترى أن رجلا ارتكبته الديون وهو شهير بالثروة فقام الدائنون عليه فحجزوا ما عليك ؛ فبعض أمثال هذا ينتحرون ؟ لماذا ؟ لأنهم يفتضحون ، ثم يتخلص هذا ؟ يتخلص من سلسلة معنوية أشد من السلسلة الحسية .

(٢) ألم يقل الله تعالى على لسان مريم : « ليتنى مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا » فإذن مريم تمنت الموت وفضلته على الحياة ، ولماذا ؟ لأنها وضعت فى سلسلة العار التى لا تنفصل عنها .

(٣) العاشق الذى تقدم ذكره يقدم على الموت تخلصا من السلسلة العشقية ، التى ربطته ربطا محكما ، وكم من امرئ اعتاد شرب الدخان ، أو الخمر أو عادات أخر فلازمته فلم تنفك عنه حتى أوردته الهلاك ، وأمثلة هذا المقام كثيرة .

وأما السلسلة الحسية ، فهاك وصفها ، انظر ألست ترى أن القمر يدور حول الأرض ، وهى تدور حول الشمس ، وهى دائرة حول كوكب آخر ، وهكذا سلسلة متناسقة إلى أن تصل إلى الشمس الكبرى فى المجرة فهذه شموس متصلات متناسقات كأنها أوراق شجرة كل جماعة فى غصن ، فهذه السلسلة المركبة من شموس وسيارات وأرضين باعتبار العلم الحديث متتالية متجاذبة متماسكة تماسك حلقة السلسلة ، والإنسان من بنى آدم حى على الأرض فوق حلقة من حلقات تلك السلسلة المحيطة بها كما وصفها المفسرون ، إذ قالوا : إن السلسلة تلتف عليه وتحيط به ، فالإنسان فوق هذه الأرض العائش فوق حلقة من السلسلة مربوط بها وهى محكمة عليه لا يقدر على فراق الأرض لأنه مجذوب إليها ، و وهو مع ذلك جاهل بما يحيط به ، لم يخترق حجب الكون حتى يعرف فاعله ، فذلك أحكم عليه رباط السلسلة لأنه لا يدرس إلا ما يسد جوعته ، وأما هذا الوجود فإنه

عنه في غفلة ، فلا يمكنه أن ينفذ منه ويخترق حجبه ليدرك بعقله ماوراءه ، وكيف ينفذ فيعرف إلا بسلطان العلم وقوة النفس وأجنحة الهمة ، فهو من هذه الوجهة محبوس لا قدرة له على معرفة ماوراء شهواته ، فإذا مات بقي محبوسا كما هو ، لأنه لم يتزود من الأرض معارف تعينه على السير هناك ، ألا ترى قول البخيل المتقدم : (أنا ليس لي شرف معرفة الله) ، فكأن الإنسان في الدنيا مربوط في سلسلة عظيمة جدا طولها آلاف الآلاف من الأميال ، بل لا يعرف مقياسها ، فإذن الواجب أمران . أولهما العلم بنظام ولو بطريق العبادة ، وإليه الإشارة بقوله : « إنه كان لا يؤمن بالله العظيم » فهذه العظمة لا تعرف إلا بدراسة هذا العالم لكل امرئ بمقدار طاقتهم . وثانيهما العمل ، وإليه الإشارة بقوله : « ولا يحض على طعام المسكين » ثم إن السلسلة حسية ، وهي هذا الوجود إذا كان مجهولا للانسان فإنه يموت وهو محبوس الفكر عن الصعود إلى ماوراء الحس ، وسلسلة معنوية ، وهي ماركز في النفوس من التعلق بأمر مخصوص ، فليس للانسان من دواء إلا بالعلم بالفضائل الخلقية . انتهى تفسير سورة الحاقة يوم الجمعة ١٧ يوليو سنة ١٩٢٥ م

تفسير سورة المعارج

هي مكية

آياتها ٤٤ — نزلت بعد سورة الحاقة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ * لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ * مِنَ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ * تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ * فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا * إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا * وَنَرَاهُ قَرِيبًا * يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ * وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ * وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا * يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ * وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ * وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ * وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنْجِيهِ * كَلَّا إِنَّهَا لَظَىٰ * نَزَّاعَةً لِلشَّوَىٰ * تَدْعُو مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ * وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰ * إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا * إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا * وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا * إِلَّا الْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ * وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ * لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ * وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ * وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ * إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ * وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ * إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ

مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ * فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ * أُولَئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُكْرَمُونَ * فَمَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ * عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ * أَيَطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ * كَلَّا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِمَّا يَعْلَمُونَ * فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ * عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ خَيْرًا مِنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ * فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ * يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ يُوفِضُونَ * خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ *

هذه السورة ثلاثة مقاصد

وهى أشبه بالتى قبلها ، فلذلك ذكرت عقبها ، فهى مبدوءة بوصف يوم القيامة وأهواله ، والنار وعذابها وذلك من أول السورة إلى قوله : « وجمع فأوعى » وهذا هو مقصدها الأول .

ومقصدها الثانى فى صفات الإنسان التى أوجبت له الجحيم ، وغرائزه الفطرية التى أوجبتها ، وكيف يجتهد لإزالة ذلك النقص حتى يرتقى إلى المعارج ، ويخرج من عالم المادة ، وذلك من قوله « إن الإنسان خلق هلوعا » إلى قوله : « أولئك فى جنات مكرمون » .

ثم المقصد الثالث فيه وعيد لأولئك الكافرين من قوله : « فمال الذين كفروا قبلك مهطعين ، عن اليمين وعن الشمال عزين » إلى آخر السورة .

المقصد الأول : وصف يوم القيامة وأهواله والنار وعذابها

التفسير اللفظى

بسم الله الرحمن الرحيم

(سأل سائل بعذاب واقع . للكافرين) كان أهل مكة يقول بعضهم لبعض : إن محمدا يخوفنا بالعذاب فمن أهل هذا العذاب؟ ولمن هو؟ وكان النضر بن الحارث خاصة ونحوه يقولون: «اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء » فنزلت هذه الآيات . يقول الله : دعا داع ، وطلب طالب ، كالنضر بن الحارث عذابا واقعا كائنا للكافرين ، فالباء فى بعذاب زائدة ، ويجوز أن يكون كقولك : دعا بكذا إذا استدعاه وطلبه فلا تكون الباء زائدة ، وقوله (ليس له دافع) أى إن العذاب واقع بهم لا محالة فلماذا يطلبونه استهزاء؟ فسيكون فى الدنيا بالقتل ، وفى الآخرة بالنار ، وقد قتل النضر بن الحارث يوم بدر ، فليس لهذا القتل ولا لعذاب الآخرة دافع يدفعه عنهم (من الله) أى يرده من جهته ، وكيف يرد وقد تعلقت به إرادته ؟ (ذى المعارج) أى ذى المصاعد ، وهى الدرجات التى يصعد فيها الكلم الطيب ؛ وذى النعم التى تكون درجات

متفاضلة ، وهى تصل إلى الخلق على مراتب مختلفة ، وذى المراتب التى جعلت حقوق الملائكة فيها ، وذى السموات التى هى درجات بعضها فوق بعض .

يقول الله : إن العذاب الذى طلبه السائلون واستبطئوه واقع بهم لامحالة ، وهو لم يفعل ذلك إلا لحكمة لأنه لم يفعل ذلك إلا ليضعهم فى دركاتهم التى أهلوا لها باستعدادهم ، وهو قد نظم العوالم كلها ، فجعل منها مصاعد ، ومنها دركات ، فليكن هؤلاء فى الدركات ، وليكن المؤمنون والملائكة فى الدرجات طبقا عن طبق بنظام تام . ثم أخذ يستأنف مبينا ارتفاع تلك الدرجات فقال (تعرج الملائكة والروح إليه فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة) قدم الملائكة لأنهم فى عالم الأرواح : أى العالم المبرأ عن المادة ، وأتبعهم بالروح أى أرواح المؤمنين ، فانها تذهب صاعدة عند الموت إلى مصاعد صعدها الملائكة ، يقتفون آثارهم على مقدار مراتبهم ، فيصعد هذان الصنفان إلى عرش الله ومهبط أمره فى يوم طويل مقداره خمسون ألف سنة من سنى الدنيا ، وليس ذكر الخمسين ألف سنة ، ولا ذكر الألف سنة للتحديد بالمدة ، بل المقصود أن مقام القدس الإلهى بعيد المدى عن مقام العباد ، فهم فى المادة مغموسون ، وفى أوحالها مغمورون ، وهناك عوالم ألطف وألطف ، درجات بعضها فوق بعض ، وكل عالم ألطف مما قبله ، وكل مالطف العالم العلوى كان أشد قربا وهكذا « وأن إلى ربك المنتهى » .

وتلك الدرجات المتتاليات لاحصر لها ، فعبر عن هذا كله بخمسين ألف سنة ، وإلا فهى بعيدة المدى ، والملائكة درجات بعضها فوق بعض ، وهكذا أرواح المؤمنين وكل منهم يعرج إلى الدرجات العلى .

كأنه عز وجل يقول : إن هؤلاء إذا عذبتهم فأنا لم أخلق الخلق إلا ليعبدون فيرتقوا إلى درجات القرب ويصعدوا إلى مراتب الكمال ، فأنا ذو المعارج ، فإن عذبت أهل مكة فذلك لنقص فى فطرهم وإلا فأساس خلق العالم الارتقاء ، أنا ذو المعارج ولست ذا الدركات ، فالأرواح لاتزال ترتقى إلى طبقا عن طبق فى الحياة وبعد الموت فى البرزخ ، وبعد دخول الجنة هم يتسابقون فى الاستعلاء طبقا عن طبق ، فارتقاء دائم إلى أبد الآبدين ، ودهر الداهرين ، ولا ارتقاء إلا بالكشف العلمى ، وعلمى لانهاية له ، وحكمى لا غاية لها ، فعبادى المخلصون لايزالون يزدادون منى اقترابا بالعلم فى الدنيا وفى البرزخ وفى الجنة ، بل أعلى درجات الجنة أن يكون الناس فى عالم روحى خالص من المادة للاستغراق فى العلم ، ولا معنى للقرب منى إلا بالعلم ، وشبهه العلماء بقرب الأستاذ من التلميذ ، فكلما ازداد علما ازداد من أستاذه قربا ، فهذا هو العروج الذى تعرجه الأرواح ، وهذا العروج لانهاية له ، فليعد بخمسين ألف سنة ، أوفليعد بأضعافها ، فالمقصد المراتب العظيمة ، قال تعالى : إذا سألوا استعجال العذاب على سبيل الاستهزاء والتكذيب بالوحى وكان هذا يورث ضجرك يامحمد (فاصبر صبرا جميلا) بلا جزع ولا شكوى ، لأنه أمر محقق وكل آت قريب (إنهم يرونه) أى العذاب (بعيدا) من الإمكان ، أو من الوقوع (ونراه قريبا) أى من الإمكان ، أومن الوقوع ، وقوله (يوم تكون السماء كالمهل) أى يقع يوم تكون السماء كدردى الزيت ، أوكالفضة المذابة فى تلونها (وتكون الجبال كالعهن) أى كالصوف المصبوغ ألوانا . فإن الجبال حمر وبيض وسود ، فإذا بست وفرقت وطارت فى الجو أشبهت العهن المنفوش إذا طيرته الريح (ولا يسأل حميم حميما) أى لايسأل قريب قريبه لشغله بشأن نفسه ، ولا يكلمه لشدة هول ذلك اليوم حال كونهم (يبصرونهم) أى يرى الأحماء الأحماء ، والحميم قبيل يقع موقع الجمع ، فلا يسأل حميم حميما حال كونهم يشاهدونهم ، وذلك لتشاغلهم فلم يتمكنوا من التساؤل . ثم استأنف فقال : (يود المجرم) يتمنى المشرك (لو يفتدى من عذاب يومئذ) أى من عذاب يوم القيامة (ببنيه وصاحبته

وأخيه

وأخيه) أى فلم يقف الأمر عند التشاغل عن سؤال الحميم حميمه ، بل أصبح الوضع مقلوبا ، فبعد أن كان فى الدنيا يدافع عنه وربما تقدم للقتل محافظة على حميمه والدفاع عنه صار فى الآخرة يود أن يفتدى به ، والصاحبة : الزوجة (وفصيلته) عشيرته (التى تؤويه) تضمه ويأوى إليها (ومن فى الأرض جميعاثم ينجيه) أى يتمنى لو ملك هؤلاء جميعا ثم يفتدى بهم جميعا (كلا) لا ينجيه من عذاب الله شئ (إنها) الضمير مبهم يفسره (لظى) اللهب الخالص ، أو علم للنار (نزاعة للشوى) أى لأطراف الإنسان كاليدين والرجلين ، أوجمع شواة : وهى جلدة الرأس تنزعها نزعا فتفرقها ثم تعود إلى ما كانت عليه (تدعوا) تجذب وتحضر (من أدبر) عن الحق (وتولى) عن الطاعة (وجمع فأوعى) وجمع المال فجعله فى وعاء وكنزه حرصا وتأميلا . وإلى هنا تم الكلام على المقصد الأول من السورة ؛ والحمد لله رب العالمين .

المقصد الثانى فى غرائز الإنسان

وووجوب تهذيبها حتى تنجو من هذه النار التى هى فى عالم المادة

وكيف يكون الصعود من الأخلاق الموجبة للنار إلى تلك المعارج ؟

قال تعالى (إن الإنسان خلق هلوعا) الهلوع ، فسره الله بما بعده كما قاله ابن عباس (إذا مسه الشر جزوعا ، وإذا مسه الخير منوعا) فهو قليل الصبر ، شديد الحرص ، فهو عند مس المكروه سريع الجزع ، وعند مس الخير سريع المنع والبخل ؛ فهذا طبع الإنسان وقد أمر بمخالفته ، فهو كفحل وقع فى وحل كلما تخلص من ورطة وقع فى أخرى ، فإن تخلص من ضر أتاه الخير وبالعكس ، فكأنما الخير والشر سلسلة طويلة قد أحاطت به فلا ينجو منها ، فهو لا يخلو من خير أوشر مدة حياته يتعاقبان عليه أمدالحياة وهوموثق بهما وبتعاقبهما ، فعند الشر يجزع ، وعند الخير يمنع ؛ فهذان الخلقان يتعاقبان عليه ، فكيف الخلاص من تلك السلاسل إذن ! لذلك أعقبه بالخلاص منها ، وذلك بعشر خصال :

(١) الصلاة.

(٢) المداومة عليها فى أوقاتها المعلومة .

(٣) والمحافظة عليها إذا ابتدءوا فيها بحضور القلب ، والخشوع ، ومراعاة السنن والفرائض .

(٤) التصديق بيوم الجزاء فيحاسب المرء نفسه فى الدنيا .

(٥) أن يعطوا من أموالهم الزكوات والصدقات لمن يسأل ولمن لايسأل وهو فقير فيظنه الناس غنيا.

(٦) أن يراعوا العهود والمواثيق .

(٧) أن يؤدوا الأمانات إلى أهلها .

(٨) وأن يحفظوا فروجهم عن الحرام .

(٩) أن يؤدوا الشهادات على وجهها ؛

(١٠) أن يكونوا مع هذا كله خائفين من عذاب ربهم .

فهذه الصفات العشرة هى التى تخلص الإنسان من تلك السلاسل التى قيدته بها طبائعه وغرائزه التى فطر عليها وعاداته ، وكلها راجعة إلى شيئين : الحرص والجزع ، وقد لخصتها لك بترتيب غير ماتراه فى الآية ليسهل عليك تعقله ، فقوله تعالى (إلا المصلين) استثناء للمصلين الموصوفين بما ذكر من نوع الإنسان كله كما أقسم بالعصر : أى الدهر كله . « إن الإنسان لفى خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوابالحق

وتواصو بالصبر » فالإنسان إذا ترك وشأنه فى خسر ، ولكنه إذا علم وهذب فهو خارج من الخسر ، وقوله (الذين هم على صلاتهم دائمون) لا يشغلهم شاغل عن أدائها فى أوقاتها (والذين فى أموالهم حق معلوم للسائل) الذى يسأل (والمحروم) وهو من لا يسأل فيحسب غنيا فيحرم (والذين يصدقون بيوم الدين) تصديقا موجبا للثمرة المطلوبة ، وهى أن يسخر نفسه وماله فى طاعة الله ومنفعة الناس ، وقوله (والذين هم من عذاب ربهم مشفقون) خائفون على أنفسهم (إن عذاب ربهم غير مأمون) أى لا ينبغى لأحد أن يأمن عذاب الله ، ولو أدى هذه الطاعات كلها وزاد عليها (والذين هم لفروجهم حافظون إلا على أزواجهم أو ماملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين ، فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون) ارجع إلى تفسير هذه الآيات فى سورة المؤمنين (والذين هم بشهاداتهم قائمون) يقومون بها عند الحكام ولا يكتمونها ولا يغيرونها ، والشهادة أمانة ، خصت بالذكر بعد الأمانات لعظم شأنها ، فبها تكون الأحكام (والذين هم على صلاتهم يحافظون) فيقدمون الوضوء ، وستر العورة ، والمكان الطاهر ، ويقصدون الجماعة أولا ، ثم يفرغون القلب عن الوسواس والالتفات إلى ماسوى الله تعالى مع الخشوع والخوف وإتمام الأركان على ماينبغى ، وأن لايكون مرائيا ، ولا قاصدا السمعة (أولئك فى جنات مكرمون) فيها بثواب الله تعالى . وإلى هنا تم الكلام على المقصد الثانى من السورة ، والحمد لله رب العالمين »

المقصد الثالث فى وعيد الكافرين

قال تعالى (فمال الذين كفروا قبلك) حولك (مهطعين) مسرعين مقبلين إليك ، مادى أعناقهم ، ومديمى النظر إليك ، متطلعين نحوك . ذلك أن جماعة من الكفار كانوا يجتمعون حول النبى صلى الله عليه وسلم يستمعون كلامه ، ويستهزئون به ، ويكذبونه ، يقول الله تعالى : مالهم ينظرون إليك وهم جالسون عندك ولا ينتفعون بما يسمعون منك (عن اليمين وعن الشمال عزين) عن يمينك وعن شمالك فرقا شتى حلقا حلقا ، والعزون جمع عزة ، وأصلها العزة : أى الجماعة ، يقال عزاه يعزوه إذا نسبه ، فكل فرقة تعتزى أي تنتسب إلى غير ماتعتزى إليه الأخرى (أيطمع كل امرىء منهم أن يدخل جنة نعيم) بلا إيمان ، وهذا رد لقولهم : لو صح مايقوله محمد لكنا أكثر حظا منهم فى الآخرة كما نحن كذلك فى الدنيا (كلا) ردع لهم عن هذا الطمع (إنا خلقناهم مما يعلمون) أى كيف يطمعون أن يدخلوا عالم القدس والأرواح الطاهرة ونحن خلقناهم من النطفة التى نقرها فى الأرحام ، وننقلهم حالا بعد حال ولا مناسبة بين هذه الحياة وبين الحال القدسية ، فلا بد من الاستكمال بالعلم والعمل (فلا أقسم برب المشارق والمغارب إنا لقادرون على أن نبدل خيرا منهم) أى نهلكهم ونأتى بخلق أفضل منهم ، أو نعطى محمدا صلى الله عليه وسلم بدلكم من هو خير منكم ، وقد تم ذلك بالأنصار بعد نكوص أهل مكة وكفرهم به (وما نحن بمسبوقين) بمغلوبين إن أردنا أن نفعل ذلك (فذرهم يخوضوا) فى باطلهم (ويلعبوا) فى دنياهم (حتى يلاقوا يومهم الذى يوعدون) ثم فسر ذلك فقال (يوم يخرجون من الأجداث) القبور (سراعا) مسرعين جمع سريع (كأنهم إلى نصب يوفضون) النصب كل شىء منصوب كالعلم والراية ونحوها ، وكل منصوب للعبادة ، ويوفضون يسرعون ، والنصب كجنب وكقفل وكقطب قراءات (خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة) أى ذليلة أبصارهم يغشاهم هوان (ذلك اليوم الذي كانوا يوعدون) يعنى يوم القيامة الذى كانوا يوعدون به فى الدنيا . انتهى التفسير اللفظى للمقصد الثالث من السورة ، والحمد لله رب العالمين .

لطائف

لطائف هذه السورة

(١) فى قوله تعالى : «من الله ذى المعارج» .
(٢) وفى قوله تعالى : «إن الإنسان خلق هلوعا . إذا مسه الشر جزوعا . وإذا مسه الخير منوعا» .
(٣) وفى قوله تعالى : «إنا خلقناهم مما يعلمون» الخ .

اللطيفة الأولى : فى قوله تعالى «من الله ذى المعارج»

لما وصلت إلى هذا المقام حضر صديق لى من أهل العلم ، فقال : هل لك أن أقص عليك حكاية عن آبائنا الأولين تناسب هذا المقام ؟ فقلت : إنى لذلك وامق :

حكاية الشعبي وملك الروم

قال : قرأت فى كتب الأولين أن عبد الملك بن مروان أرسل وفدا إلى ملك الروم وفيه الشعبى العالم المشهور ، فلما دخل الشعبى على ملك الروم قال له : إنكم تقولون إن الله لا أول له ، ولا شىء قبله ، وتقولون إن الإنسان يأكل فى الجنة ويشرب ولا يبول ولا يتغوط ، وتقولون إن نعيم الجنة لا ينفد ، فهل تقدر أن تضرب لى أمثالا مما نشاهده فى الدنيا حتى يقرب ذلك من عقول الناس ؟ .

فقال الشعبي : إن الأعداد أولها الواحد ، وما الأعداد إلا الواحد المكرر ؛ فبتكرار الواحد حصلت الأعداد أزواجها وأفرادها ولو عدمت الأعداد لم يعدم الواحد ، ولكن لو عدم الواحد عدمت الأعداد أزواجها وأفرادها ، والواحد المذكور لا شىء قبله ، فهذا مثل يكفى لأمرين : أن الله لا شىء قبله ، وأن الموجودات منه استمدت ، وأيضا تفنى الموجودات وهو الباقى .

أما كون الإنسان يأكل فى الجنة ويشرب ولا يبول ولا يتغوط ، فهذا له نظير فى الدنيا وهو الجنين فى بطن أمه ، فإنه لو بال أو تغوط لأهلكها ؛ لذلك جعل الله دم الأم ممتدا إليه من عرق متصل بالسرة يمتد فى سائر أطراف الجسم ، فلا بول ولا غائط له ، والأم تقوم مقامه فى هذا السبيل .

وأما كون نعيم الجنة لا ينفد فإننا نشاهد السراج فى الدنيا يقبس الناس منه ألف سراج ولا ينطفىء : هكذا نعيم الجنة .

فلما سمع ذلك ملك الروم ، قال : عجبت للمسلمين كيف جهلوا فلم يجعلوك ملكا عليهم ، ، فلما رجع إلى عبد الملك وجد الخبر عنده بتمامه ، فقال له عبد الملك : أتدرى لم قال لك : كيف جهل المسلمون فلم يجعلوك ملكا عليهم ؟ قال لا ، قال حسدنى عليك أراد أن أقتلك ، ولكن خاب فأله ، وأعطاه مالا جزيلا .

فلما أتم صاحبى هذه الحكاية قال لى : هكذا هنا يذكر الله المعارج ، ومعارج الآخرة ودرجاتها لم نرها فهل تذكر لنا معارج فى الدنيا حتى نقيس عليها معارج الآخرة ، وتكون معارج الدنيا مضرب أمثال لمعارج الآخرة ؟ فقلت : لأضرب لك سبعة أمثال .

(المثال الأول) السلسلة الحيوانية والنباتية والمعدنية المذكورة فى هذا التفسير فى مواضع كثيرة ، وقد وضحت فى (سورة آل عمران) فارجع إليها ، فإنك ترى هذه المعارج فى الدنيا واضحة ظاهرة ، لأنك ترى

المعادن درجات بعضها فوق بعض ، أدناه مما يلى التراب كالجص والزاج ، وأعلاه مما يلى النبات كالذهب والياقوت ، فكم فيها من معارج ومصاعد ، ثم النبات تبتدئ فيه من خضراء الدمن ، وهى تطلع أول النهار وتيبس فى وقت الظهيرة ، فهذا أدنى النبات ، ويرتقى درجات إلى مرتبة النخل الذى أشبه الحيوان بأنه إذا قطعت رأسه مات ، وبأن ذكره منفصل عن أنثاه ، وهكذا يكون الحيوان ؛ فأدناه ما كان أدنى إلى النبات مثل قوقعة تنبت على الصخور فيها دودة على شاطئ البحار ، وليس لها من عالم الحيوان إلا الحس والحركة البسيطة ، ولكنها مغروسة فى مكانها لا تبرحه ، وهى قد شاركت النبات فى الحس كما هو موضح فى محله ، وهكذا يرتقى الحيوان طبقا عن طبق إلى أن يصل إلى القرد فالإنسان كما عرفته مما تقدم فى هذا التفسير فهذه سلسلة أدناها الجص والزاج ، وأعلاها الإنسان ، ومن ذا يحصى مصاعد هذه السلسلة وقد عدا الحيوان بالملايين والنبات بمئات الآلاف ، لا يحصيها أحد ، ولا يقدر على ذلك ، فهذا مثل لمصاعد الآخرة أعطاه الله للعلماء فى الدنيا ، أما الجهال فأعطاهم مثلا يناسبهم ، جعل الناس درجات ، غنيا وفقيرا ليظهر لهم بعض تلك الدرجات بمقدار طاقتهم .

(المثال الثانى) الجنين فى بطن أمه ينتقل فى أطوار كثيرة فحين الخلقة الأولى لا يختلف عن كل حيوان ثم يأخذ فى التمايز والارتقاء طبقا عن طبق ، فيكون أولا دودة حقيرة فحلزونة فسمكة ثم يكون كالدبابات وهكذا إلى أن يشابه القرود ، ثم يكون إنسانا ، كل هذه السلسلة ينتقل فيها وهو فى بطن أمه ، وقد تقدم هذا فى (سورة آل عمران) .

(المثال الثالث) : درجات الإنسان بعد الوضع : يخرج من بطن أمه وهو لا يعقل ولا يسمع ولا يبصر ثم يسمع ويبصر ويعقل تدريجا حتى يصل إلى إنسان يفيض النور والعلم على أهل الأرض كلها باختراع أو علم أو نبوة ، أو يضئ قطعة منها كمملكة بالملك والسلطنة أو نحو ذلك ، فهذه مصاعد للإنسان لا يحصى عددها فى الحياة الدنيا ، فهذه أمثلة ثلاثة تريك المعارج فى الدنيا .

(المثال الرابع) ارتقاء أحوال الناس فى المال ، فمن صعلوك لا يملك قوته إلى مثر كبير يملك القناطير المقنطرة فيكون عنده مائة مليون .

(المثال الخامس : الجمال) من الناس من هو مثل فى القبح ، ومنهم من هو مضرب الأمثال فى الجمال وبينهما درجات لا تحصى .

(المثال السادس) الموجودات الحادثة منها ما هى فى غاية اللطف ، وهى الأثير الذى فيه تكونت هذه المادة ، ومنها ما هى فى غاية الكثافة كالحديد والذهب والحجارة الصلبة ، وبينهما درجات لا تحصى .

(المثال السابع) درجات الإنسان الأخلاقية : إنه يرتقى مهما كان نوعه ، كافرا أو مؤمنا ، فاسقا أو صالحا فى أخلاقه ارتقاء طبيعيا ، فبعد أن كان فى مبدأ حياته لا يفكر إلا فى شهوته الخاصة وهو طفل ، فلما كبر وتزوج وولد أصبح مشغوفا بأبنائه وبناته يسعى عليهم ويربيهم وينمى ثروتهم ، فهذا هو الترقى فى الخلق طبيعة ، لأنه انتقل من تكميل نفسه الجسمى إلى تكميل غيره الذى نسميه ابنا أو بنتا ، وهذا ارتقاء فى معارج الكمال جاء للناس والحيوان بالطبيعة ، ولكن الله لا يكتفى منا بذلك يريد أن يعلمنا الاستقلال فيكون ارتقاؤنا بإرادتنا وعلمنا وإلا بقينا فى عالم الكون والفساد الأعمى ، والارتقاء بإرادتنا هو ماسيجئ فى اللطيفة الثانية إن شاء الله تعالى .

واعلم أن هذه الدرجات والمعارج الحسية إنما هى سياحات للنفس ومناظر ، بدراستها ترتقى فى معارجها المعنوية إلى ربها الذى هو حاضر عندها ليس غائبا ، فبالبحث والعلم تنتقل النفس من حال إلى حال

في دراجات

فى درجات نفسية حتى إذا وصلت المنتهى لطافتها عاينت ربها ، وليس ذلك بمعارج حسية بل معنوية وما ذكرناه أمثلة لها ومدارس .

اللطيفة الثانية

فى قوله تعالى . إن الإنسان خلق هلوعا ، إذا مسه الشر جزوعا ، وإذا مسه الخير منوعا

إن هذه السورة كالموضحة للسورة قبلها ، فإن قوله تعالى هناك « إنه كان لايؤمن بالله العظيم ، ولا يحض على طعام المسكين » قد وضح هنا كما فسرناه هناك ، وقلنا مايفيد أن الإيمان يرجع للقوة العلمية ، والحض على طعام المسكين يرجع للقوة العملية ، وأن السلسلة هناك مبدؤها وسببها مايوصف به الإنسان من الجهالة بهذه العوالم فلا يدرس نظام هذه الشموس والكواكب المنتظمة التى أخذ بعضها ببعض وتجاذبت كأنها سلسلة واحدة ، فمن لم يفك نفسه من هذه العوالم إما بدراستها أو بعبادة صادقة بحضور قلب حتى يخلص لربها » ومن لم يفك عقال نفسه مما أحيط به من اللذات والشهوات والعادات فإنه لامحالة مقرون محبوس فى سلسلة تلك الشهوات لاينفك عنها ، فإذا مات وجد نفسه على ماهى عليه ، فالعوالم مجهولة ، وقد أحيط بها والشهوات لازالت تجاذبه ، فليخلص نفسه منها بالإحسان ، وليتقرب إلى أبناء جنسه ولينفعهم حتى يصعدوا معا إلى معارج الكمال ، هذا فحوى ماذكر فى السورة التى قبل هذه .

فأما مبدأ السلسلة المذكورة هناك التى أوضحها هنا فإنه بعد أن ذكر أن النار تنزع جلود الرءوس أو الأيدى والأرجل ذكر أن السبب فى ذلك أن الإنسان مجبول على جبلات غليظة فلا صبر على بلوى ولا شكر على نعمة والشكر على النعمة يكون بأن يصرفها إلى مصارفها التى خلقت لها ، وبين المخرج من ذلك بأمرين : أحدهما نفسى ، وثانيهما عملى ؟ أما النفسى فهو العلم المرموز له بالتصديق بيوم الدين ، والخوف من الله فهذان رمز بهما إلى كمال النفس بالعلم والحكمة ، وأما العملى فهو الصلاة والمداومة عليها والمحافظة والزكاة ، ومراعاة العهود والمواثيق ، وأداء الشهادات على وجهها ، وحفظ الفروج .

وملخص ماتقدم : ذكر سبب وقوع الإنسان فى السلاسل بعد الموت ، وذكر الخلاص من تلك السلاسل ولا خلاص منها فى الآخرة إلا إذا خلص منها فى الدنيا ، فالعلم خلاص من الجهل الذى يجعل الإنسان حائرا فى هذا الوجود ، وأدنى العلم أن يواظب على العبادة حتى يرسخ فى ذهنه أن وراء هذا العالم حالا أخرى بالتكرار ، ودفع الصدقات ، وأداء الأمانات وما أشبه مما تقدم كل ذلك تخليص للنفس من الجزع ومن الحرص ، فإعطاء المال مكروه عند النفس ، وأداء الشهادة فيه إغضاب للمشهود عليه وجلب عداوة وأداء الأمانة قطع للطمع فيها ، وكل هذا تقطيع لتلك السلسلة التى قيدتنا فى هذه المادة ، وإلى هنا تم الكلام على اللطيفة الثانية ، والحمد لله رب العالمين .

اللطيفة الثالثة فى قوله تعالى : إنا خلقناهم مما يعلمون

أى وقد علموا أنهم خلقوا من نطفة قذرة ، فأنى لهم الوصول إلى جناب القدس مالم يقطعوا مفاوز ، ويصعدوا مصاعد ، وأنى لهم بالمصاعد والمراتب إلا بالعلم والعمل ، ولو تأمل الناس درجات الحياة التى هم فيها وأن الطفل إذ كان فى أول حمله دودة فما مضى أربعون سنة حتى كان ذلك الطفل يدبر أمة بتمامها مثلا لأدركوا درجات الآخرة وعظمتها ، فإن الروح إذ تخرج من الجسد ترتقى طبقا عن طبق ، فإذا كانت المادة التى نحن فيها ارتقت فيها الروح الإنسانية من نفس كنفس الدودة إلى نفس حكيم أو نبى أو ملك فما بالك به

وقد خرج من الجسم ، فلنسمه هناك دودة في عالم الأرواح ، وهذه الدودة ترتقى هناك ارتقاء يفوق الوصف إذا كانت معها المعدات التى بها تسير هناك ، وإذا كان الارتقاء فى الأرض محدودا لأننا فى عالم المادة فالارتقاء هناك لاحد له يعرف ، ولا آخر يوصف ، لأنه هناك ارتقاء بالعلم ، وعلم الله لاحد له . فالإنسان لايزال يرتقى فيه إلى مالا يتناهى من الزمن .

هذا هو تفسير هذه الآيات والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم . فيعدون العدة بالعلم والعمل للسفر هناك ، وإلا قعدت بهم الحال ، وأوثقتهم السلاسل فى العذاب ، وبقوا فى عالم المادة الكثيف .

فلما سمع صاحبى هذا البيان ، قال : الحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات . إن هذا البيان يثلج الصدر وإنى لأزال أقول أنه ضرب أمثال ، وضرب الأمثال ليس برهانا ، وإنما هو تقريب للأذهان ؛ وياليت الناس يعرفون ذلك ، وأن الأرواح فعلا ترتقى فى ذلك العالم ، ولكن هذا الكلام الذى قلته أنت أشبه بكلام الصوفية الذين يقولونه بوجدانهم ، والوجدان ليس بدليل ، بل كثيرا مايكون الوجدان كاذبا فلا دليل عليه ، وغاية الأمر أنك حليته بالعلوم الطبيعية وبعلم الإنسان والنبات والحيوان والمعدن ، لأنك لكثرة دراستك وتآليفك فى هذه العلوم أصبحت فيك ملكة تضرب بها الأمثال ، فهل من مثال أقرب من هذا ؟ قلت نعم : أقص عليك مختصر ماقاله روح (غاليلى) المشهور حين أحضرتها الجمعية النفسية ، فهذه تشم منها رائحة تعرفك هذه الدرجات الأخروية ، وقد ذكرتها فيما مضى فى هذا التفسير نقلتها من كتابى (الأرواح) ، فلنذكر ملخص مايناسب هنا ، فذكر :

(١) كيف تكونت مادة العالم المشاهد ؟ وذكر التجاذب والنظام ودوران الكواكب .

(٢) بين أن المجرة هى الأصل ، ومنها اشتقت شموس ، ومن الشموس شموس إلى شمسنا فأرضنا فقمرنا فأقمار زحل وحلقاته النيرة ، والنجوم ذوات الأذناب التى هى أشبه بالمفتشين على الشموس .

(٣) ثم ذكر أن هناك ألوفا من المجرات منتشرة فى أقاصى العوالم ، كل مجرة فيها ملايين من الشموس وأبان أن شمسنا لها أخوات يدرن معها حول شمس أخرى ، وهذه الأخرى لها أخوات يدرن جميعا حول شمس أخرى ، وهكذا إلى أن تنقطع الفكر ، فهى كدواليب آلة واحدة . ثم قال : إن المجرات أشبه بالجزائر فى بحر الأثير العظيم .

(٤) ووصف الفضاء والزمان فقال إنه لاحد له وكذب الفلاسفة الذين قالوا إن هناك حدا له ، وسخر منهم ، وقال : إننا إذا جمعنا ألوفا فى ألوف من القرون والأحقاب لايكون هذا العدد إلا نقطة زهيدة فى الأبدية ، وإذا مضى من حياتنا الروحية عدد من القرون يوازى قدر مايكتب على طول خط الاستواء فانه ينقضى هذا العدد الجسم والنفس كأنها اليوم ولدت ، وإذا أضفنا إلى العدد المذكور سلسلة أخرى من الأعداد ممتدة من الأرض إلى الشمس أو أكثر فانه ينقضى هذا العدد الذى لايدرك قياسه من القرون والنفس لاتتقدم يوما واحدا إلى الأبدية فما أهمية عمر الإنسان على الأرض .

(٥) وذكر أن الملايين من الشموس المخلوقة فى المجرة القريبة حولها سيارات كسيارات شمسنا ، وأن منها شموسا كنجم (سريوس) الذى يربو حجمه وجماله ألوفا من المرات على حجم شمسنا ونورها ، وقال : إن هناك نجوما توائم تختلف وظائفها عن وظائف شمسنا ، ففى السيارات المحيطة بتلك الشموس المثناة لاتعد السنون والأيام كما فى أرضنا ، وأحوال الحياة فيها يتعذر على الناس تصورها ، ومن الشموس مالا سيارات لها ، إنما أحوال سكانها خير الأحوال .

(٦) وقال أيضا : إن البعد الشاسع بيننا وبين الأجرام القاصية لايقطعه النور إلا فى ألوف الألوف من

السنين

السنين ، وتصل أشعته لكم اليوم مع أنها ربما انبعثت قبل خلق الأرض بأمد مديد . ثم قال : فني هذه كما في غيرها تظهر حضارة الإنسان وعدم دنياه ، إنما سيأتى يوم فيه يبقى ذكر الأرض فى ذهننا كظل بخارى بعد أن نكون قد تدرجنا أجيالا لا عدد لها إلى العوالم العليا ، وحين نتأمل فى المستقبل عند بلوغنا هذا الحد لانرى نصب أعيننا إلا تعاقبا سرمديا من العوالم وأبدية ثابتة لا انقضاء لها . انتهى خاصة كلام روح غاليلى .

فلما سمع ذلك صاحبى قال : ياعجبا ! أهذا كلام الأرواح ؟ لقد أصبحنا فى زمان ظهرت فيه العجائب المدهشة ، فقد كان الناس يتمنون لو يسمعون كلام الأموات ويسألونهم ماذا حصل لهم ، فإن صح هذا كان من أعجب الأعاجيب وأبدع الحكم ، وكان أقرب إلى تفسير لفظ المعارج ، فها هو ذا أظهر لنا أن العوالم درجات وأن منها مالا نحلم بجماله كمالا وبهاء ، وأن أرضنا الحقيرة فى أثناء ارتقائنا بعد الدهور والعصور لاتكون إلا ظلا فى أذهاننا ، وأن هناك حياة أرقى من حياتنا بما لايتناهى كما كبرت شمسنا عن أرضنا ، وكما كبرت شموس أخرى وفاقت شمسنا حجما وبهاء آلافا مؤلفة ، فالجمال والعظم لاحد له ولا حصر فى العوالم طبقة فوق طبقة ، وجمال النظام فى الحياة كذلك لاحد له ولا نهاية فظهرت المعارج فى هذا المقام ظهورا واضحا :

ثم قال صاحبى : ولعل هذه المعارج تكون لنا فى حال البرزخ ، أما يوم القيامة فإنا نحشر ونجتمع فى صعيد واحد وهناك يكون أمر آخر .

ثم قال : وياليت روح (غاليلى) روح مسلم حتى كنا نصدق ماجاءت به ؟ فقلت له : الأرواح بعد الموت تطلع على مقدار استعدادها . والعلم مشترك بين الأمم . وإذا كنا نشك فى قول الأرواح الفرنجية فهذه نعمة على أمم الإسلام ليزدادوا علما بالبحث فى العوالم ويحضروا الأرواح . وتكون لهم جمعيات علمية . وإذن يبحثون بأنفسهم ، ويجدون فى أعمالهم ، ويعثرون على مالم يعرفه الفرنجية . والله هو الولى الحميد . وبهذا تم تفسير (سورة المعارج) وذلك فى يوم السبت ١٨ يونيو سنة ١٩٢٥ م والحمد لله رب العالمين .

تفسير سورة نوح

هى مكية

آياتها ٢٨ — نزلت بعد سورة النحل

بسم الله الرحمن الرحيم

إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ * أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ * يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ *

قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا * فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَاءِي إِلَّا فِرَارًا * وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي ءَاذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا * ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا * ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا * فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا * يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا * وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا * مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا * وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا * أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمٰوَاتٍ طِبَاقًا * وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا * وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا * ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا * وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا * لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا * قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا * وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا * وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا * وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا * مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا * وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا * إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا * رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا *

مقاصد هذه السورة إثنان

المقصد الأول : دعوة نوح عليه السلام لقومه ، وذلك من أول السورة إلى قوله « سبلا فجاجا » .

المقصد الثانى : كفرهم وعقابهم فى الدنيا والآخرة ، وذلك من قوله تعالى : « قال نوح رب إنهم عصونى واتبعوا من لم يزده ماله وولده إلا خسارا » إلى آخر السورة .

أما

أما الدعوة ففيها ثلاثة مباحث (المبحث الأول) ترك الذنوب الإيجابية والذنوب السلبية بالاستغفار منها ، فالذنوب الإيجابية كتعاطى الخمر والزنا والقتل، والذنوب السلبية كترك العلوم والصناعات ،فاذا تركوا هذه الذنوب كلها أو جلها أكثر الله لهم المال والبنين والبساتين والأنهار ، وذلك من أول السورة إلى قوله « وقد خلقكم أطوارا » .

(المبحث الثانى) : النظر فى خلق السموات والأرض والأنوار ، وذلك قوله تعالى : (ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقا . وجعل القمر فيهن نورا وجعل الشمس سراجا) .

(المبحث الثالث) : النظر فى خلق الإنسان ، وأنه يخلق من الأرض كما يخلق النبات ، والنظر فى أن الأرض مسخرة لنا نتصرف فيها كما نشاء تصرفا نتمكن به من كل مانحتاج إليه فى حياتنا ، وذلك من قوله تعالى : (والله أنبتكم من الأرض نباتا) إلى قوله (سبلا فجاجا) .

المقصد الأول : دعوة نوح لقومه

التفسير اللفظى

بسم الله الرحمن الرحيم

(إنا أرسلنا نوحا إلى قومه أن أنذر قومك) أى بالإنذار (من قبل أن يأتيهم عذاب أليم) الطوفان وعذاب الآخرة (قال ياقوم إنى لكم نذير مبين) أى أنذركم وأبين لكم (أن اعبدوا الله) وحده (واتقوه) بأن تفعلوا الطاعات وتتركوا المعاصى (وأطيعون) فيما آمركم به من العبادة والتقوى (يغفر لكم من ذنوبكم) أى بعض ذنوبكم ، وهى السابقة (ويؤخركم إلى أجل مسمى) أى إلى منتهى آجالكم فلا يعاقبكم (إن أجل الله إذا جاء لا يؤخر لو كنتم تعلمون) .

اعلم أن الأنبياء جاءوا لإصلاح الأحوال فى الدنيا والآخرة ، فهم يريدون نظام الحياة ونظام الممات ؛ ولما كان نظام الحياة يكون أرقى وأجمل فكلما استقامت الأمم وانتظم شملها كانت الأموال فيها أوفر إذا تم نظامها ، والأعمار تكون أطول والصحة أتم والأنهار أجمل ، والبساتين أكثر على مقتضى النظام الموضوع فعلى مقدار النظام يكون الهناء والسعادة فى الحياة ، فمن فرط فى صحته بأن أكثر من المآكل الضارة أو ترك الغذاء حتى هلك ، ومن قلت مزارعهم وتجاراتهم فقل غذاؤهم قصرت أعمارهم على تلك النسبة ، ولذلك كلما كثر الجدب فى الأمم قل التناسل ، وكلما عم الخصب كثر النسل ، ولا ريب أن طول الأعمار وقصرها يرجع لأسباب أكثرها مجهولة للناس ، والمعلوم منها المحافظة على الصحة ، ووفرة الغذاء ، والنظافة ومأشبه ذلك ، فأما مالا يعلم فهو عند الله تعالى لا يطلعنا عليه ، فهاهنا رتب على التقوى والطاعة أن تغفر ذنوبهم ، وأن تؤخر آجالهم ، ومتى جاءت الآجال التى حددها الله لهم لا تؤخر لحظة ، فالتقوى والطاعة يؤثران هذا الأثر ، وهو طهارة الأرواح وبقاء الأشباح إلى أمد محدود ، لأن التقوى منها حفظ الأمن والمسارعة إلى اكتساب الفضائل واستنتاج مافى باطن الأرض من المنافع ، فالتقوى ترك الذنوب ، وذلك يجعل فى البلاد أمنا واسعا ، والطاعة تشمل جلب المنافع المادية ، لأن الشكر على النعمة لا يتم إلا بمعرفتها وتقبلها من المنعم وصرفها فى وجوهها ، ومتى فعلوا ذلك طالت الأعمار إلى الأمد الذى يناسبها بعد انصراف الموانع بالتقوى والطاعات ؟ ومامثل العمر إلا كمثل جواد يجرى فى ميدان واسع له نهاية ، وهناك قصبة مركوزة فى آخره

علامة على نهاية الميدان ، والناس يتسابقون فى ذلك الميدان إلى تلك القصبة المغروسة ؛ فمنهم من يصادفه أثناء الجرى فوق جواده الذى عبرنا به عن العمر من يقتله فيخر صريعا فى أول الميدان ، ومنهم من يقتل بعد ذلك وهكذا ، ولا يصل إلى آخر الميدان إلا من لم يصادفه فى الطريق قاتل له ، أولم يسقط فيموت هكذا الناس فى الحياة يسيرون إلى النهايات ، فإذا منعتهم الموانع هلكوا ، وهذا مشاهد فى الدنيا كالأمة المصرية فإنها فى القرن الماضى لم يكن فيها إلا مليونان أو يزيدون ، فلما جاء الخديوى (محمد على) نظم قناطرها وجسورها ، فما تم مائة سنة ونيف حتى وصلت إلى ١٤ مليونا ، كل ذلك لحسن النظام وإقامة الترع والجسور والأمن فى البلاد ، فإذا جعل الله غفران الذنوب وطول الأعمار مرتبين على الطاعة فهو من هذا القبيل ، لأن الطاعة فيها الأمن فى البلاد وعدم ترك المواهب الجسمية والنفسية والأرضية ، وإياك أن تسمع مايحتج به العامة والجهلاء وصغار العلماء أن العمر محدد ، فتخصيص العمر منهم جهل فاضح ، لأن التحديد ليس خاصا بالعمر بل التحديد يشمل كل شىء فى الوجود ، بل حركات الكواكب والأقمار والشموس وأنفاس الإنسان فكلها مقدرة ، فتخصيص التقدير بالعمر غلط وخطأ فاحش ، فالله قدر كل شىء فكيف يخصصه الجهلاء بالأعمار والله قدرها وقدر غيرها وكتبها عنده لم نطلع عليها وأمرنا بالسعى والطلب ، فمن سعى كما أمره الله فإن هذا السعى وافق علم الله القديم فانه ينال نتائج هذا السعى فيطول عمره إلى الأمد المحدد وتزول الموانع فلا يموت كما قدر هو فى لوحه المحفوظ ، ومامثل النصائح التى جاءت من الديانات والحكماء والعلماء فى الأمم إلا كمثل طلع النخل وطلع الأشجار الأخرى ، فانه لايتناوله الإحصاء ، والذى يصادف الزهرات الإناث جزء قليل جدا ، وهذا الجزء القليل به ظهرت الثمرات وسعدت الحياة ، هكذا نصائح العلماء والحكماء والديانات كثيرة جدا ، ولكن الذى يعمل بها قليل ، ومن عمل بها وافق عمله ما كتب له ، والذى لم يعمل عرف بعد ذلك أنه قد كتب له أنه لايعمل لحرم الثمرات والمنافع التى ترتب على ذلك ، فأما من اتكل على القضاء ولم يعمل فذلك هو الخاسر المجهول الذى حكم عليه بالمذلة والهوان .

ثم قال تعالى (قال) نوح (رب إنى دعوت قومى) إلى الإيمان (ليلا ونهارا) أى دائما (فلم يزدهم دعائى إلا فرارا) عن الإيمان والطاعة (وإنى كلما دعوتهم) إلى الإيمان والطاعة (لتغفر لهم) بسببه (جعلوا أصابعهم فى آذانهم) أى سدوا مسامعهم (واستغشوا ثيابهم) تغطوا بها لئلا يرونى كراهة النظر ~ من فرط كراهة دعوتى (وأصروا) على كفرهم (واستكبروا استكبارا) عن اتباعى (ثم إنى دعوتهم جهارا . ثم إنى أعلنت لهم وأسررت لهم إسرارا) فكنت أعلن بأعلى صوتى ، ثم كررت لهم الدعاء معلنا ، فكنت أسر الرجل بعد الرجل أدعوه سرا لعبادتك وتوحيدك ، ثم بين ماكان يقول فقال (فقلت استغفروا ربكم) والاستغفار من الذنوب الإيجابية كالقتل ، والسلبية كترك العلوم اللازمة لنظام المجموع التى هى فرض كفاية تكتفى بها الأمة عن غيرها فتعرفون ما يناسب زمانكم من العلوم والصناعات فإن تركتم ذلك أثمت الأمة كلها ، وإن استغفرتم يغفر لكم ربكم (إنه كان غفارا) للتائبين (يرسل السماء عليكم مدرارا) يرسل المطر عليكم متتابعا ، وإطلاق السماء على المطر جاء فى قول الشاعر :

إذا نزل السماء بأرض قوم خلوا حيثما نزل السماء .

وقول الآخر :

إذا نزل السماء بأرض قوم رعيناه وإن كانوا غضابا

(ويمددكم بأموال وبنين) أى يكثر أموالكم وأولادكم (ويجعل لكم جنات) بساتين (ويجعل لكم أنهارا) وهذه هى نعم الدنيا التى يميل لها الإنسان ، ومن هذا شرع الاستغفار فى الاستسقاء ، ويقال : إن

الحسن

الحسن شكا رجل إليه الجدب . فقال له : استغفر الله ، وشكا آخر الفقر وقلة النسل ، وآخر قلة ريع أرضه فأمر الجميع بالاستغفار ، فسئل عن ذلك ؟ فتلا هذه الآية ، ولعل تكرار الاستغفار كما يمحو الذنوب يستمد المستغفر من ذكر الله فيه قوة تعينه على جلب المصالح ودفع المضار ، والله أعلم ، وقد بينت لك الحقيقة آنفا .

وبعد أن أدبهم الأدب العملى من حيث تهذيب النفوس ، ومكارم الأخلاق ، وتحلية النفس بالأعمال الإنسانية والدينية التى اشار إليها الاستغفار شرع يؤدبهم الأدب العلمى بدراسة علم التشريح والنفس والعوالم العلوية والسفلية فقال : (ما لكم لا ترجون لله وقارا) أى ما لكم لا تخافون لله عظمة ، أولا تعتقدون له عظمة فتخافوا عصيانه ، فالرجاء إما بمعنى الخوف مجازا ، وإما بمعنى الاعتقاد للمناسبة بينهما وكيف لا تخافون عظمته (وقد خلقكم أطوارا) أى تارات وكرات ، فكنتم نطفا فى الأرحام ، ثم صرتم علقا بعد أيام ثم مضغا تحير الأفهام ، والمضغ قد غيرت إلى عظام ، وعلى العظام اللحم « أنشأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين » .

واعلم أن الأطوار المذكورة قد وضحت فى سور كثيرة كسورة آل عمران وسورة المؤمنين وغيرها فى التفسير ، وهذا هو النظر فى الأنفس ، ثم أتبعه بالنظر فى العالم العلوى فالسفلى فقال (ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقا . وجعل القمر فيهن نورا وجعل الشمس سراجا) فهى كالسراج تزيل ظلمة الليل . واعلم أن كون السموات سبعا طباقا بعضها فوق بعض . والكلام على القمر والشمس قد مر الكلام عليه فى سور كثيرة من هذا التفسير . ففى سورة الفاتحة الإجمال . وفى البقرة وآل عمران تفصيل . وهكذا سور كثيرة فارجع إليه (والله أنبتكم من الأرض) إنباتا فنبتم (نباتا) وذلك أنكم تنمون كما ينموا النبات وتلدون وتموتون ورؤوسكم المرفوعة إلى أعلى كرأس النبات المغروسة فى الطين ، وبديكم وأرجلكم كأفرع النبات ، والمطالع على عروقكم وتشعبها وجرى الدم فيها وانتشارها فى أطراف الجسم يراها مشابهة لما فى الشجرة جذورا وفروعا وورقا ، فأنتم نبات مقلوب ، وأنتم فى أخلاقكم وأحوالكم مشابهون للنبات فى اختلافه فمنكم الحلو والمر ، والطيب والخبيث ، واستعدادكم مختلف كاستعداد النبات ، فلكل امرئ خاصة كما لكل نوع من النبات خاصة ، والعلوم والصناعات مقسمات على قواكم المختلفة كما قسمت المنافع من اللباس والطعام والفاكهة والدواء على أنواع النبات ، وكما أن كل نوع من النبات إذا فقد ذهبت خاصته على الناس وتعطلت المنافع الناتجة منه ، هكذا لكل جيل ولكل أمة ولكل فرد خاصة ومنفعة ، فإذا عطلت فقد فاتت المنفعة على الأمة وعلى النوع الإنسانى ، وكان نقص الأمة وذلها على مقدار ضياع تلك المنفعة ، فاذا لم يكن فى الأرض نبات القطن ، أو لم يكن فيها نبات الحنطة مثلا اضطر الناس ألا يلبسوا إلا من جلود الأنعام وأصوافها ورجعوا إلى العهد الأول فتأخروا فى مدنيتهم وتقدمهم ، وأيضا رجعوا إلى أكل نبات الأرض والذرة وذهبت منافع القمح عليهم ، وحصل فى الناس بعض الضيق بفقد القمح ، هكذا النوع الإنسانى إذا عطلت طائفة منه فلم تقم بما وجب عليها وما يؤهلها له استعدادها نقص النوع الإنسانى أو الأمة المقصرة وضعف على مقدار ذلك النقص (مثال ذلك) الأمة الإسلامية اليوم : إنها عطلت نصف مجموعها ، وهن النساء ، فلم يعلمن العلم ، وقد علموا أن الناس كلهم يعلمون بناتهم وهكذا عطلوا الصناعات فلم يقوموا بها : أى إن الرجال الذين خلقوا على استعداد تام بفطرهم فى المسلمين لصناعة البارود مثلا ونسج الأقمشة وصهر المعادن قد عطلوا عن عملهم . لأنهم لم يروه ولم يعرض عليهم لذلك أصبح نقص الأمة على مقدار النقص المذكور كما يتأخر النوع الانسانى بفقد القطن والحنطة فهذا معنى قوله : « والله أنبتكم من الأرض نباتا » فقد جمع هذه المعانى ، ولقد أجمع علماؤنا رحمهم الله : أن العلوم والصناعات فرض كفاية ومعنى هذا أن الأمة كلها تعاقب

على التهاون بها وعدم إبرازها للوجود كعقاب النوع الإنسانى بفقد القطن والقمح ثم يوم القيامة يؤخر المجموع الإسلامى عند الله بقدر تأخره عن تلك الصناعات . والمسلمون اليوم آثمون بإجماع علمائنا والإثم ظهر له أثر فى الدنيا بتسلط الفرنجة علينا وسيظهر أثره يوم القيامة على هذه النسبة وإذا قال المسلم : لا لا أنا مسلم فلتقل له إنما أنت مغرور : « وغرهم فى دينهم ما كانوا يفترون » ارجع إلى هذا المعنى فى سورة (آل عمران) .

وأنت أيها الذكى القارئ لهذا التفسير فلتكن من القائمين بأمر من حولك من الأمة لأنك عرفت الحقيقة وإياك أن تقصر وإلا كان إثمك أشد من الذين لايعلمون وهذا أمر سيتم ويعلو أمر هذه الأمة علوا عظيما فقم واصدع بالأمر واجهر بما عرفت وثق بأن الأمر سيكون وسترتقى هذه الأمم الإسلامية . هذا هو المستفاد من قوله تعالى (والله أنبتكم من الأرض نباتا . ثم يعيدكم فيها) مقبورين كما يعيد النبات (ويخرجكم إخراجا) بالحشر ثم أخذ يشرح النعم التى أعدها للانسان فى الأرض من سائر وجوه المنافع وأنها مهيأة للانسان طائعة له مسخرة كتسخير البساط للرجل يتقلب عليه كما يشاء إشارة إلى ما قدمنا من أن عليه أن يظهر مواهبه ، ولا ظهور للمواهب فى القوى الإنسانية إلا بالتسلط على الأرض وخيراتها فقال (والله جعل لكم الأرض بساطا) تتقلبون فيها بخلاف النبات فإنه خاضع لما هو فيه قانع بما حوله من غذاء وهو مكتف به ، أما أنتم فلستم كذلك ، بل جعلت الأرض لكم (لتسلكوا منها سبلا فجاجا) واسعة جمع فج : أى لتتخذوا منها سبلا فجاجا ، وإنما اقتصر على اتخاذ السبل لأنه أظهر أنواع الاتخاذ ، وإلا فالأرض جعلت لنا لمنافع لا تحصى ولا يزال الناس يجدون فى استخراجها اليوم وبعد اليوم .

وهذه الآيات أرتنا أن نوحا عليه السلام بأمر قومه بعلوم الأنفس وعلوم الآفاق من المعدن والنبات والحيوان والإنسان والسموات والشموس والأقمار ، وجميع منافع الأرض .

ولعلك تقول : لماذا تذكر هذا القول عند كل مناسبة ؟ أقول : لست أنا الذي قلت وإنما الله هو الذى قال ، فلعلك تقول الله ذكر الإجمال فما هذا التفصيل ؟ أقول لك : لماذا يؤلف آباؤنا الأولون علما برمته على آيات الميراث ، ولماذا يؤلف آباؤنا كتبا مستقلة فى الوقف مع أنه لم يرد إلا فى الحديث لماذا يجعلون للطهارة كتابا يسمونه (كتاب الطهارة) وإنما ذلك لأجل آيات محدودات ، ولماذا يقولون (كتاب الحج) مع أن الحج ليس له إلا آيات محدودات ، فلماذا تجيز تأليف كتب ملأت الشرق والغرب ، ومذاهب متشعبة فى علم الفقه المبنى على مائة وخمسين آية ولا تجيز أن أكتب صفحات معدودات على ما يبلغ ٧٥٠ آية فى القرآن

اللهم إن أمتنا الإسلامية غفلت غفلة عظيمة ، ونامت نوما عميقا ، اللهم إنى قد عملت جهدى وأديت الأمانة إلى أهلها ، وأنت أعنتنى على تأليف الكتاب ، وأنت الذى نشرته ، فلك الحمد ، وإني أرجو منك أيها الذكى أن تبث الدعوى فى هذه الأمة التى لا نصير لها ولا معين ، ولم تجد من يوضح لها الأمر ، ولو أن الأمة رأت من يعرفها الحقيقة لكانت أول أمة على سطح هذه الكرة ، وسيكون هذا إن شاء الله تعالى . وهذا هو نهاية الكلام على المقصد الأول من السورة ، والحمد لله رب العالمين .

المقصد الثانى

قال تعالى (قال نوح رب إنهم عصونى) فيما أمرتهم به (واتبعوا من لم يزده ماله وولده إلا خسارا) أى واتبعوا رؤساءهم الذين بطروا بأموالهم ، واغتروا بأولادهم ؛ فكان ذلك ازديادا لخسرانهم فى الآخرة وهكذا الذى اتبعوهم خسروا مثلهم . وعطف على (من) قوله (ومكروا مكرا كبارا) أى كبيرا عظيما

جدا . فهم يحتالون فى نبذ الدين بحيل عظيمة . ويحرشون الناس ويحرضونهم على مقاومة دعوة نوح وإيذائه (وقالوا لا تذرن آلهتكم) أى عبادتها (ولا تذرن ودا ولا سواعا ولا يغوث ويعوق ونسرا) هذه الأسماء الخمسة كانت أعظم المعبودين عند قوم نوح . وقد كانوا قوما صالحين فى الأزمان بين آدم ونوح فلما ماتوا كان أتباعهم يقتدون بهم ويأخذون بعدهم بأخذهم فى العبادة . ثم زين لهم الشيطان أن يصوروا صورهم . ففعلوا ظانين أن هذا أنشط للعبادة وأشوق لها . ثم لما طال الزمن عبدوا نفس تلك الصور فهذا مبدأ عبادة الأوثان . وإن أردت المزيد فارجع إلى (سورة البقرة) تجد المقال مفصلا فيها . فترى هناك كيف كانت عبادة الصابئين موجهة أولا للملائكة . فالكواكب . فالأصنام فى الأرض . ويقال: إن الأصنام التى عبدها قوم نوح صارت تعبد عند العرب :

الصنم	القبيلة
ود	كلب بدومة الجندل
سواع	هذيل
يغوث	مراد وبنى غطيف بالجرف عند سبأ
يعوق	همذان
نسر	حمير : آل ذى الكلاع

يقول ابن عباس : « هذه أوثان دفنها الطوفان فاستخرجها العرب فعبدوها » وهناك أصنام أخرى هذا بيانها :

الصنم	القبيلة
اللات	ثقيف
العزى	سليم ، وغطفان ، وجشم
مناة	خزاعة ، بقديد
إساف	لأهل مكة
نائلة	» »
هبل	» »

ثم قال تعالى (وقد أضلوا كثيرا) أى أضل الرؤساء ، أو الأصنام (ولا تزد الظالمين إلا ضلالا) أى إلا هلاكا، وقد بينه تعالى فقال (مما خطيئاتهم) أى من أجل خطيئاتهم وما زائدة (أغرقوا) بالطوفان (فأدخلوا نارا) وهو عذاب القبر وعذاب الآخرة (فلم يجدوا لهم من دون الله أنصارا) وقد كانوا يظنون أن الآلهة أنصارهم ، فخاب فألهم ، وضل سعيهم (وقال نوح رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا) أى أحدا وهذه الكلمة تستعمل فى النفى العام (إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ، ولا يلدوا إلا فاجرا كفارا) ولم يقل ذلك إلا بعد تجربتهم أجيالا (رب اغفر لى ولوالدى ولمن دخل بيتى) منزلى أو مسجدى أو سفينتى (مؤمنا وللمؤمنين والمؤمنات) أى يوم القيامة (ولا تزد الظالمين إلا تبارا) أى هلاكا . انتهى تفسير (سورة نوح) والحمد لله رب العالمين .

تفسير سورة الجن

هي مكية

آياتها ٢٨ — نزلت بعد سورة الأعراف

بسم الله الرحمن الرحيم

قل أوحي إلي أنه استمع نفر من الجن فقالوا إنا سمعنا قرءانا عجبا * يهدي إلى
الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا أحدا * وأنه تعالى جد ربنا ما اتخذ صاحبة ولا
ولدا * وأنه كان يقول سفيهنا على الله شططا * وأنا ظننا أن لن تقول الإنس والجن
على الله كذبا * وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقا *
وأنهم ظنوا كما ظننتم أن لن يبعث الله أحدا * وأنا لمسنا السماء فوجدناها ملئت
حرسا شديدا وشهبا * وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجد له
شهابا رصدا * وأنا لا ندري أشر أريد بمن في الأرض أم أراد بهم ربهم رشدا *
وأنا منا الصالحون ومنا دون ذلك كنا طرائق قددا * وأنا ظننا أن لن نعجز الله
في الأرض ولن نعجزه هربا * وأنا لما سمعنا الهدى ءامنا به فمن يؤمن بربه فلا يخاف
بخسا ولا رهقا * وأنا منا المسلمون ومنا القاسطون فمن أسلم فأولئك تحروا رشدا *
وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطبا * وأن لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء
غدقا * لنفتنهم فيه ومن يعرض عن ذكر ربه يسلكه عذابا صعدا * وأن المساجد
لله فلا تدعوا مع الله أحدا * وأنه لما قام عبد الله يدعوه كادوا يكونون عليه لبدا *
قل إنما أدعوا ربي ولا أشرك به أحدا * قل إني لا أملك لكم ضرا ولا رشدا * قل
إني لن يجيرني من الله أحد ولن أجد من دونه ملتحدا * إلا بلاغا من الله ورسالاته
ومن يعص الله ورسوله فإن له نار جهنم خالدين فيها أبدا * حتى إذا رأوا ما يوعدون

فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا * قُلْ إِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ مَا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَدًا * عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا * إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا * لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا *

مقدمة فى ملخص هذه السورة

ذكرت هذه السورة بعد سورة نوح لأن فيها تفصيلا لإجمال سبق هناك . وذلك أن سورة نوح فيها: « استغفروا ربكم إنه كان غفارا ، يرسل السماء عليكم مدرارا ، ويمددكم بأموال وبنين، ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارا » .

فالتوبة والاستقامة ونظام الأمة يعقبه المال والبنون والجنات والأنهار ، فربما ظن الناس أن الله إذا أعطى هذه النعم فقد رضى على الناس ، فقيل فى سورة الجن . كلا . ثم كلا . إنما أموالكم وأولادكم وأنهاركم وبساتينكم فتنة ، فلا فرق عندنا بين الخير والشر فى الابتلاء ، فنحن نبتلى بالشر ونبتلى بالخير ، وهذا فى قوله تعالى : « وأن لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقا لنفتنهم فيه » فكأنه يقول ، ليس الجنات والأنهار والأموال والبنون المذكورة فى سورة نوح نعمة من غير قيد بل هى اختبار للناس وامتحان لهم، هذا ما يقال فى المناسبة بين السورتين .

الكلام على تسمية السور

اعلم أن الله عز وجل سمى السور بأسماء تبعث على النظر وتوجب التفكير ، فسمى بالأنعام وببعضها كالبقرة ، وبالحيوانات الصغيرة ، وهى الحشرات كالنمل والنحل والعنكبوت ، وبما هو ألطف من ذلك كالنور كما سمى ببعض الأنبياء كيوسف ويونس وهود ، وببعض الأخلاق كالتوبة ، وببعض الكواكب العلوية ، كالشمس والقمر والنجم ، وببعض الأوقات كالليل والفجر والضحى ، وببعض المعادن كالحديد ، وببعض الأماكن كالبلد والبروج ، وببعض النبات كالتين ، وبكل شئ مما نراه ومالا نراه ، فهاهنا سمى بعالم غير هذه العوالم كلها ، وهو عالم لانراه وهم الجن ، وهذا العالم لم يعرف فى دين الإسلام إلا من طريق الوحى ، وليس للعقل عليه من دليل ، ولقد أصبح العالم المستتر عنا اليوم هو الشغل الشاغل لنوع الإنسان ، وظهرت آيات الله الكبرى فى الكرة الأرضية ، وأصبح العلماء فى أوروبا يجدون فى مباحث هذه العوالم ، راجع ما كتبناه فى [سورة البقرة] واقرأ ما هنالك تجد الأمم كلها تدرس عالم الملائكة والجن ، ويطلعون على غوامض هذه العوالم ، ولقد نقلنا كثيرا فى هذا التفسير من عجائب هذه العوالم، ولقد حدث الناس أرواح أصحابهم الذين ماتوا ، واتصل العالم الإنسانى بالعالم الجنى، وبعالم الأرواح الطاهرة وهم الملائكة، فإذا سمى الله سورة بهذا الاسم فمعناه أنه قد أعطى هذا العالم الخفى عنايته وسمى السورة باسمه كما اعتنى بالحديد وهو نوع من المعادن فسمى باسمه ، وهكذا توجهت عناية عزته وقدسه إلى النور وأنواع الحيوان والنبات والأوقات المختلفة ، وبكل شئ نراه ولا نراه لنجد فى البحث عن المعادن كلها وعن حساب الزمان ، ولا يكون

هذا إلا بالعلوم الرياضية ، ولنجد أيضا فى علم النبات والحيوان (وبعبارة أخرى) ثم بعلوم هذا العالم ، وهكذا فلنجد فى علم الأرواح كما جد فيه العالم الغربى .

اللهم إنك أنت الذى سميت هذه السور بهذه الأسماء ، سميت لهم أسماء الأشياء المتنوعة على الأرض حيوانا ونباتا ، وفى باطنها من المعادن ، وفى الجو كالرعد ، وفى السماء كالشمس والقمر والنور ، وكالأوقات المختلفة ، ثم إنك تجاوزت عالمنا وسميت باسم عالم الجن ، ذلك لنحثنا على البحث فى علم الأرواح ، فماذا جرى؟ نام المسلمون الذين أنزل عليهم الكتاب وحثهم على هذا ، وقام بهذه الأعمال كلها الذين لا يؤمنون بهذا الدين ، فياليت شعرى : أمستيقظ المسلمون أم نيام ؟ إن المسلمين اليوم وقبل اليوم بعد العصر الأول نيام . تالله ما نزل القرآن لمجرد التلاوة ، نزل القرآن للعلم ، فاذا بحث المسلم عن شروط الصلاة وأركانها وعن فروض الوضوء فما بحث إلا فى مقدمات معرفة الله لا فى معرفة الله ، لأن الوضوء لأجل الصلاة ، والصلاة لأجل حضور القلب ، وحضور القلب لتذكر الله ، وتذكر الله يعد القلب للعلم ، فالعلم إذن هو الغاية ، فكيف اجتهد المسلمون فى المقدمات وغفلوا عن العلوم التى هى أشبه بالغايات ، فعلم الفلك والنبات والمعدن والنور والظلام وعلم الأرواح هى العلوم المرقية للمجتمع ، الهادية للفكر ، المرقية للعقل ، التى تجلو الأنظار ، وتقيل العثار ، وتنفع الأهل والجار ، وتدفع العار ، وتوقظ النوام ، إن علم الجن وعلم الأرواح يورث اليقين بالله وباليوم الآخر ، ويحدث فى النفس أنسا وابتهاجا وانشراحا ، وسرورا وإيقانا ، وراحة وطمأنينة .

سمى الله سورة باسم الجن ليوقظ المسلمين لتعلم علم الأرواح ، وكأن الله ذكرها لايقاظنا نحن فى هذا الزمان ، لاستكناه الحقائق ، ومعرفة الدقائق ، والوقوف على الرقائق ، والإيقان بأن الموت إنما هو انتقال من حال إلى حال ، فلا تعظم على المرء سطوته ، ولا تخيفه سكرته ، ولا تزعجه نزعته ، ولا تضيق به ساحته ، بل يستقبله بقلب مملوء بالآمال ، فارغ البال ، فرح بفك العقال ، ولعلك تقول كيف أدرس هذا العلم ؟ وكيف أخاطب عالم الجن وعالم الملائكة ؟ وأين هذا العلم ؟ .

أقول : قد ألفت فيه كتابا سميته [كتاب الأرواح] وذكرت فيه ما جربه القوم فى أوروبا ، وكيف أحضروا الأرواح ، وما الشروط ، وما الواجب على الإنسان فى ذلك ؟ وما فوائد هذا العلم ومضاره ؟ .

وأنت إذا اطلعت عليه أمكنك استحضار أقاربك وأشياخك إذا راعيت الشروط وكنت صادق النية للعلم لا المال ، فإنك تجاب إلى طلبتك وتخاطبك الأرواح كما خاطبت الأوروبيين كما نقلنا بعض العلوم التى ألقتها الأرواح عليهم ، وسأذكر إن شاء الله تعالى ملخص منهج الكتاب فى آخر تفسير هذه السورة لتعرف إلى أى حد وصل نوع الإنسان فيما قصر فيه المسلمون مما حثهم عليه كتاب ديننا المقدس ، وكيف كان غير المسلم هو الذى بحث فى مقتضى أسماء هذه السور ، والمسلم هو الذى لم يعن بشئ منها ، وهو النائم قديما المستيقظ الآن ، وسيزيد استيقاظا بنشر العلوم والآراء بين الأمم الإسلامية خصوصا والشرقية عموما .

ثم اعلم أن علماءنا رحمهم الله قد ذكروا أن الجن أجسام عاقلة خفية تغلب عليهم النارية ، ومن قال منهم إنهم أرواح مجردة فهو لا ينافى ما تقدم ، لأن الأرواح المجردة منها ما هو أقرب إلى عالم المادة ، وهم هؤلاء الجن ، ومنهم من هو أقرب إلى عالم الروح : أى أنه خلص من المادة ، وهم المسمون ملائكة ، ومنهم من قال : إنهم هم النفوس البشرية التى ماتت ، وهذا لا ينافى القولين السابقين ، لأن النفوس البشرية من كان منهم أقرب إلى الشر وهو عالم المادة وذنوبه وشروره فهذا يسمى جنا ، ومن

كان منهم يقرب من عالم الأرواح المجردة تجريدا تاما ، فهو ملحق بالملائكة كما قال تعالى : « يوم يقوم الروح والملائكة صفا » .

فهاهنا عالمان خفيان : عالم أقرب إلى الجهالة ، وهم الجن . وعالم أقرب إلى الكمال ، وهم الملائكة ومن يقتربون منهم :

ثم إنه قد جاء في علم الأرواح أن الأرواح الجاهلة تحب التقرب من بنى آدم وتستمع أحاديثهم ، وبيانه أن الأرواح التى فارقت أجسادها من بنى آدم قسمان : قسم ارتقى فى الدنيا ، فهو إذا خلص من هذا العالم الأرضى استعد للتلقى من عالم الملائكة ، لأن روحه قد استعدت بالمواهب التى نالتها فى الدنيا للتلقى عن عالم أرقى من عالم الإنسان ، وقسم مات جاهلا لا يدرى من هذا الوجود إلا مامس حاجته ، فهذا لايمكن أن يعقل عن الملأ الأعلى ، فهذا يرجع إلى عالم الإنسان ، لأنه أقرب إليه ، ويفهم ويعقل مايقال من الآدميين ، لأنه لا يعرف غيرهم ، فأما العوالم الأخرى فهى محجوبة عنه كما حجبنا نحن عن عالم الملائكة المحيطين بنا الآن ، وهكذا حجبنا عن رؤية الله وهو معنا ، وحجبنا عن أن نعرف أن هنا كهرباء قبل كشفها مع أنها فى أجسامنا وتحيط بنا ، هكذا تلك الأرواح التى ماتت ناقصة بسبب الكبرياء أو الطمع أو الشره فإنها لايمكنها أن تقابل الأرواح الكاملة للتلقى عنها فترجع إلى بنى آدم وتتقرب منهم كما ترى الطفل يفهم من الطفل ، وترى المرأة الجاهلة لاتعقل إلا من جاهلة مثلها ، فهكذا الأرواح الناقصة لما كانت محبوسة عن التعلم من العالم الذى هو أعلى منها اضطرت أن تسمع الكلام الذى يقال لأهل الأرض وتعاشرهم وتعقل كلامهم .

فاذا سمعت ابن عباس يقول : إن الشياطين حيل بينهم وبين خبر السماء ، وأرسلت عليهم الشهب ، وأنهم رجعوا إلى قومهم وقالوا لهم حيل بيننا وبين خبر السماء ، وأرسلت علينا الشهب ، وأن قومهم قالوا لهم : ماذاك إلا من شىء حدث فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها ، فانظروا ماهذا الذى حال بيننا وبين خبر السماء ؟ فانطلقوا يضربون مشارق الأرض ومغاربها ، فمر النفر الذين أخذوا نحو تهامة بالنبى صلى الله عليه وسلم وهو بنخلة عامدين إلى سوق عكاظ ، وهو يصلى بأصحابه صلاة الفجر ، فلما سمعوا القرآن استمعوا له وقالوا هذا الذى حال بيننا وبين خبر السماء ، فرجعوا إلى قومهم فقالوا : « ياقومنا إنا سمعنا قرآنا عجبا يهدى إلى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا أحدا » فأنزل الله على نبيه صلى الله عليه وسلم « قل أوحى إلى أنه استمع نفر من الجن فقالوا إنا سمعنا قرآنا عجبا » الخ .

إذا سمعت هذا القول أو نحوه فى البخارى ومسلم عن ابن عباس فاعلم أن هذا هو الذى أظهره علم الأرواح الحديث ، لأن الأرواح الناقصة هى التى تأخذ من الإنسان لقربها من العالم الأرضى ، وهى بطبعها ممنوعة عن عالم الملائكة ، فلا يجوز لها ولا يتسنى أن تفهم عن العوالم العلوية إلا اختلاسا كما نرى أهل الأرض ، فن العامة يمنعون من حضور الدروس مع التلاميذ الذين استعدوا لدروس الهندسة والعلوم الأخرى ، والمنع تارة يكون بطبيعة العامة ، لأنهم لايعرفون مايقال فيتنحون ، وتارة بنظام المدارس وطرد من لم يكن من أهل الفن ، والعالم كله على وتيرة واحدة ونظام واحد ، فالأعمى فى الدنيا الجاهل لاينالها حظ مالم يستعد له إما بأنه هو يتركه ولا يقرب من المشتغلين به لأنه لايفهمهم ، وإما أنهم هم يطردونه عن مجالسهم كأهل الأرض ، فهذا القانون عام فى الأرض من أول خلق الإنسان عليها ، إذ لايعطى الشىء إلا لمستحقه فهذا هو طرد الشياطين عن استراق السمع وذكر الشهب وأنهم يحترقون بها إما حقيقة وإما ضرب مثل لما ذكرناه كما فى أحوال أهل الأرض .

ولما أرسل صلى الله عليه وسلم وكان للأرواح الناقصة بعض الوجهة فى الاستماع من بعض الملأ الأعلى

ما قد ينتفعون به كالمواعظ التي يتلقونها اختلاسا منعوا من تلك الدروس فعلا . وذلك لإيقاظهم إلى ما حصل في العالم الإنساني الذي هم أقرب إليه فيفهمون منه أكثر مما يفهمون عن الملأ الأعلى؛ ونبينا صلى الله عليه وسلم وإن كان هو نفسه مع الملأ الأعلى تعالميه يقولها لأهل الأرض، وأهل الأرض يفهمونها ؛ فلذلك يفهمها من هم أقرب إليهم ، وهم الأرواح الناقصة ، فهذا تفسير هذا المقام وإيضاحه بحسب ما ظهر من علم الأرواح :

وقد جاء في هذا العلم أن الأرواح بعد الموت تسير في الطريق التي سارتها في الحياة ، فإن كانت ناقصة لازمها النقص ، وإن كانت كاملة لازمها الكمال ، وهذه الناقصة قد تتجرد من بعض نقائصها بالنصائح التي تسمعها من الناس أو من عالم آخر إذا استعدت لذلك ، وهذا من أعجب العجب أن يأتي القرآن ويكون الكشف الحديث مطابقا له ، سائرا على نهجه .

يا للعجب ! سورة الجن سورة لا تعرفها العقول ، وتبقى في أمة الإسلام ألفا وثلثمائة سنة وعشرات السنين تتلقاها أمم عن أمم ، وأجيال عن أجيال ، ثم يأتي هذا العصر فتظهر الحقائق .

يا عجبا ! إن هذه من السمعيات، وهي التي لا دليل عليها من العقل ، ثم إنها تبقى محفوظة مقروءة حتى يأتي وقتها وتظهر في أوروبا ، يظهر في أوروبا أن الأرواح الناقصة تسمع كلام الناس وتهتدي به ، وأنها لا تعرف ما فوق طاقتها فلا تهتدي بهدى الأرواح العالية ، فيكون العالم من أهل الأرض أو النبي قد ارتقى في العلم والأرواح الناقصة المجردة من الأجسام لم تبلغ مبلغ ذلك العالم أو ذلك النبي فتتعلم منه ، وتكون تلك الأرواح أشبه بالآباء الجهال إذ يسمعون من أبنائهم المتعلمين العلم ، وحال الأرواح الناقصة بعد الموت هي حالهم المشاهدة في الدنيا ، فإننا نرى الجهال لا يجلسون في مجلس العلماء إلا قليلا في حال ما إذا نزل العلماء لإصلاح حالهم ، وفيما عدا ذلك تجد مجالس التعليم في أماكن خاصة لا يسمعها سواهم ، ولا يظهر من العلم للعامة إلا شذرات قليلة جدا ، فهم في حياتنا الدنيا ممنوعون من السمع ، وقد يشتد المنع إذا كان في سماعهم العلم مفسدة كما نرى في كل دولة أسرار أعمالها الحربية ، وهم يكتمون ما يعلمون في مصالح الحكومة عن الشعب إلا إذا صار ذلك أمرا نافذا فيظهرونه ، وكما نرى الأمم كلها شرقا وغربا لها خطط سياسية مكتوبة مكتومة بين أرباب الدولة ، ومن أفشى سرا منها لغيرهم حاكموه ، فهذا منع من السمع في الدنيا ، وبعد الموت له نظائر ؛ إذن كل هذا لحفظ الدرجات ونظام المجموع ، بل الملائكة أنفسهم درجات «وما منا إلا له مقام معلوم» وتلك الدرجات هي المعارج ؛ فالمنع من السمع لحفظ المعارج لأربابها ، فلنشرع الآن في تلخيص السورة، ثم تفسير الألفاظ ، ثم نأتي بشذرات من علم الأرواح فنقول : ان الذي ذكر في معرض أقوال الجن ١٦ حكمة وهذا نصها :

(١) إنهم سمعوا كتابا بديعا ، وهو القرآن يهدي إلى الصواب ، فآمنوا وتركوا الشرك .

(٢) وأن الرب تعالت عظمته لم يتخذ زوجة ولا ولدا كما يقول كفار الجن والإنس .

(٣) وأن الجهال من الجن كانوا يقولون قولا متجاوزا الحد في البعد عن الصواب بالنسبة لله تعالى ، إذ ينسبون له الصاحبة والولد .

(٤) وأنهم ما كانوا يظنون أن أحدا يكذب على الله بنسبة الصاحبة والولد إليه لاعتقادهم بصدق من يقولون هذا القول من الجن والإنس : وهذا هو عذرهم في اتباع هؤلاء الكاذبين الذين غشوهم .

(٥) وأن رجالا من الإنس كانوا يستعيذون في القفر برجال من الجن فزاد الجن الانس ضلالا باستعاذتهم بهم لظنهم أنهم يعيذونهم .

(٦) وأن الجن ظنوا كظنكم أيها الإنس أنه لن يبعث الله أحدا .
(٧) وأن الجن طلبوا خبر العالم العلوى المعبر عنه بالسماء فمنعوا .
(٨) وأن الجن كانوا يقعدون مقاعد خالية ليتمكنوا من السمع فمنعوا الآن برجم الشهب .
(٩) وأن الجن لا يدرون ماذا يحل بأهل الأرض أشر أم خير ؟ لأن حراسة السماء ومنع السمع لا بد أن يكون لأمر هام ، فإذا رأينا الحكومة شددت فى تعطيل الجرائد ومنع بيعها فى المملكة ، فذلك لا بد أن يكون لأمر هام فى الدولة ، إما لنفعها واما لضرها ،وقد كانت الحكومات القديمة والحديثة تجد فى منع الناس عن الأخبار الخاصة بالدولة فى الأمور الهامة ، فتراهم الآن يحكمون أحكاما عرفية أثناء الاضطراب أو الحروب ، ويمنعون الناس من التلفظ أو الكتابة فى شئ من أسرار الدولة ، أو أحوال الحرب العامة التى تضر بسير الحرب ، أو بسير الأمة ، وهذا أمر متعارف فى دول الأرض فهكذا دول الأرواح .
(١٠) وأن الجن منهم الأبرار ومنهم الفجار ،فلهم مذاهب ، وهم مختلفو الأحوال .
(١١) أن الجن علموا أنهم لن يفروا من أمر الله إن أراد بهم أمرا على هذه الأرض ، وأنهم لن يقدروا على الهرب منه إذا طلبهم .
(١٢) وأنهم لما سمعوا الهدى آمنوا به ، فالمؤمن لا ينقص ثواب عمله ولا يناله مكروه .
(١٣) وأنهم فريقان : مسلمون ، وجائرون عادلون عن الحق ؛ فالمسلم قصد طريق الحق وتوخاه ، وأما الجائر فإنه يكون وقودا للنار يوم القيامة .
(١٤) وأن الإنس والجن إذا استقاموا على الطريقة المثلى وسع الله عليهم رزقهم واختبرهم به ، ومن أعرض عن ذكر ربه يدخله عذابا شاقا .
(١٥) وأن المساجد لله فعلى من يدخلها أن يخلص لله فيها ولا يشرك به أحدا كما كان المشركون يفعلون .
(١٦) وأنه لما قام النبى صلى الله عليه وسلم يعبد الله كاد الجن يكونون عليه متراكمين من ازدحامهم عليه تعجبا مما رأوا من عبادته وسمعوا من قراءته .

ولما انتهى إلى هذا المقام قال الله لنبيه : « قل إنما أدعو ربى ولا أشرك به أحدا » ليبين الدعوة المذكورة فى آخر أقوال الجن ومباحثهم ، والمقول له صلى الله عليه وسلم أربعة مقاصد ، وهى :
(١) أنه يدعو ربه ولا يشرك به أحدا .
(٢) وأنه لا يملك دفع الضر عن الناس ، ولا يسوق إليهم رشدا ، لأن الضار والنافع والمرشد والمقوى إنما هو الله .
(٣) أنه لن يمنعه أحد من الله إن عصاه ، ولن يجد ملجأ يلجأ إليه دون الله ، وكيف يعصى الله ، ومن يعصى الله يدخله نار جهنم مخلدا ، ومتى جاء يوم عذابهم فى الدنيا أو فى الآخرة فسيعلمون أينا أضعف ناصرا وأقل عددا أهم أم أنا .
(٤) أنه صلى الله عليه وسلم لا يدرى متى يكون وقت تعذيبهم ، أقريب هو أم بعيد ، فالعلم لله وحده ولا يطلع على غيبه أحدا ، وكما منعت الشياطين من استراق العلم الذى لا طاقة لها به ، هكذا الملائكة درجات لكل منهم علم لا يتعداه ، والأنبياء أيضا لا ينالون من العلم إلا ما أوجبته المصلحة النبوية ، فإذا علم الأنبياء بعض العلم بالغيب ، فذلك يكون معجزة له ، ثم يحرسه

بالملائكة لتحفظ دعوته ، وليقوموا بإلهام الناس حفظ الشريعة بعدهم ليتم إبلاغ الدعوة وسريانها في العالم الإنساني . هذا هو ملخص السورة إجمالا . ولنشرع الآن في التفسير اللفظي للسورة كلها فنقول ومن الله التوفيق :

التفسير (اللفظي)

بسم الله الرحمن الرحيم

(قل) يا محمد (أوحى إلى أنه) أن الأمر والشأن (استمع نفر) النفر ما بين الثلاثة إلى العشرة (من الجن) قد تقدم الكلام هنا عليهم (فقالوا إنا سمعنا قرآنا) كتابا (عجبا) بديعا مباينا لكلام الناس في نظمه ورقة معناه ، والعجب مصدر بمعنى العجيب (يهدى إلى الرشد) إلى الحق والصواب (فآمنا به) بالقرآن (ولن نشرك بربنا أحدا) من خلقه (وأنه تعالى جد ربنا) أى تعالى رجال ربنا وعظمته . قال أنس : كان الرجل إذا قرأ البقرة وآل عمران جد فينا : أى عظم قدره (ما اتخذ صاحبة ولا ولدا) أى تعالى عظمة عن أن يتخذ زوجة لأنها إنما تكون للحاجة إليها ، ولا ولدا للاستئناس به (وأنه كان يقول سفيهنا) جاهلنا (على الله شططا) كذبا وعدوانا (وأنا ظننا أن لن تقول الإنس والجن على الله كذبا) أى كنا ظننا أن الأنس والجن صادقون فى قولهم إن لله صاحبة وولدا ، وأنهم لا يكذبون على الله فى ذلك (وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقا) فإن الرجل كان إذا أمسى بقفر قال : أعوذ بسيد هذا الوادى من شر سفهاء قومه ، فكانت هذه الاستعاذة تزيد الجن رهقا : أى تكبرا ، وتزيد الإنس رهقا أى ضلالا ، وأصل الرهق فى كلام العرب الاثم وغشيان المحارم ، ولا جرم أن الضلال أصل المحارم ، والكبر والعتو من المحارم (وأنهم) أى الإنس (ظنوا كما ظننتم) أيها الجن (أن لن يبعث الله أحدا) وهذا أيضا من كلام الجن بعضهم لبعض (وأنا لمسنا السماء) أى طلبنا خبرها (فوجدناها ملئت حرسا) أى حراسا ، وهو اسم جمع كالخدم (شديدا) قويا (وشهبا) جمع شهاب ، وهو المضىء المتولد من النار (وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع) أى مقاعد خالية عن الحرس والشهب ، أو صالحة للترصد والاستماع (فمن يستمع الآن يجد له شهابا رصدا) أى شهابا راصدا له ولأجله يمنعه عن الاستماع بالرجم ، ويصح أن يكون الرصد اسم جمع لراصد : أى ذوى شهاب راصدين (وأنا لا ندرى أشر أريد بمن فى الأرض) بحراسة السماء (أم أراد بهم ربهم رشدا) أى لا ندرى هل المقصود من المنع من الاستراق هو شر أريد بأهل الأرض أم أريد بهم الإصلاح ؟ وقد تقدم إيضاحه فى مقدمة تفسير السورة ، وفى التعبير بأريد فى باب الشر ، وأراد بهم ربهم فى باب الخير حسن أدب وتعليم للناس كيف يتأدبون فى القول فأسند الخير لله ولم يسند الشر إليه وإن كان كل من عند الله (وأنا منا الصالحون) المؤمنون (ومنا دون ذلك) أى قوم دون ذلك (كنا طرائق قددا) ذوى طرائق متفرقة مختلفة ، وقددا جمع قدة من قد إذا قطع (وأنا ظننا) علمنا (أن لن نعجز الله فى الأرض) أى لن نعجزه حال كوننا كائنين فى الأرض أينما كنا فيها (ولن نعجزه هربا) هاربين منها إلى السماء (وأنا لما سمعنا الهدى) القرآن (آمنا به فمن يؤمن بربه فلا يخاف) أى فهو لا يخاف (بخسا ولا رهقا) البخس النقص ، والرهق الظلم أو المكروه الذى يغشى المظلوم (وأنا منا المسلمون) وهم الذين آمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم (ومنا القاسطون) الجائرون العادلون عن الحق (فمن أسلم فأولئك تحروا رشدا) أى قصدوا طريق الحق وأما القاسطون فكانوا) فى علم الله (لجهنم حطبا) وقودا (وأن لو استقاموا) أى القاسطون (على الطريقة) أى طريقة الإسلام

(لأسقيناهم ماء غدقا) كثيرا : أى لوسعنا عليهم الرزق ، فإن الماء الغدق سبب سعة الرزق (لنفتنهم فيه ومن يعرض عن ذكر ربه يسلكه) يدخله (عذابا صعدا) شاقا يعلو المعذب ويغلبه (وأن المساجد لله) مختصة به فلا تدعوا مع الله أحدا) فلا تعبدوا فيها غيره ، والمراد بالمساجد ما يعبد الله فيها ، وبنيت لذلك فيدخل فيها الكنائس والبيع ، ولما كانت الأرض كلها مسجدا للمسلمين فعليهم ألا يعبدوا فيها غيره (وأنه لما قام عبد الله) محمد صلى الله عليه وسلم (يدعوه) يعنى يعبد الله ويقرأ القرآن ، إذ كان يصلى الفجر ببطن نخلة (كادوا) أى الجن (يكونون عليه لبدا) أى يركب بعضهم بعضا من الازدحام عليه حرصا على استماع القرآن (قل إنما أدعوا ربى ولا أشرك به أحدا) فليس ذلك ببدع يوجب تعجبكم واتحادكم على مقتى وقد قالوا قد جئت بأمر عظيم فارجع عنه فنحن نجيرك ، فقال لهم صلى الله عليه وسلم : (إنما أدعوا ربى ولا أشرك به أحدا) قل إنى لا أملك لكم ضرا ولا رشدا) أى لا أقدر على أن أدفع عنكم ضرا ، ولا أن أسوق إليكم رشدا ، فالله له الأمر (قل إنى لن يجيرنى من الله أحد) أى لن يمنعنى منه أحد إن عصيته (ولن أجد من دونه ملتحدا) ملجأ ألجأ إليه ، وحرزا أحترز به ، أو مدخلا فى الأرض مثل السرب أدخل فيه (إلا بلاغا من الله ورسالاته) أى أنا لن أجد ملجأ ألتجئ إليه إلا تبليغ رسالات الله ، فأنا إن لم أبلغها عصيت ربى ، وإن بلغتها نجوت من عذابه ، فهو يقول : لا ملجأ إلى إلا تبليغ الرسالة ، فهو الذى به أنجو من عذاب الله ، فإن تركت التبليغ ، وقعت فى الإثم المبين (ومن يعص الله ورسوله) فى الأمر بالتوحيد (فإن له نار جهنم خالدين فيها أبدا حتى إذا رأوا مايوعدون) فى الدنيا كوقعة بدر وما بعدها أو فى الآخرة (فسيعلمون من أضعف ناصرا وأقل عددا ، قل إن أدرى) أى ما أدرى (أقريب ماتوعدون أم يجعل له ربى أمدا) غاية تطول مدتها، فإنهم كانوا يقولون متى هذا الوعد ، فكأنه يقول هو كائن لا محالة ولكن لا أدرى ماوقته (عالم الغيب) هو عالم الغيب (فلا يظهر على غيبه أحدا) أى لا يطلع أحد على الغيب المختص به هو (إلا من ارتضى من رسول) لعلمه بعضه حتى يكون معجزة للنبوة (فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصدا) يدخل من بين يدى المرتضى ومن خلفه حراسا من الملائكة يحرسونه من كيد الشياطين وتخاليطهم (ليعلم) النبى الموحى إليه (أن قد أبلغوا رسالات ربهم) أن قد أبلغ جبريل والملائكة النازلون بالوحى ، أو ليعلم الله أن قد أبلغ الأنبياء رسالات ربهم : أى يظهر إبلاغ الرسالات محروسة من التغيير (وأحاط بما لديهم) بما عند الرسل (وأحصى كل شئ عددا) أى أحصى ما خلق وعرف ما خلق لم يفته شئ حتى مثاقيل الذر والخردل . انتهى التفسير اللفظى للسورة كلها . والحمد لله رب العالمين .

أقوال الناس قديما وحديثا فى الجن، و بدائع العلم الحديث فيها

وهو معجز للقرآن ظهرت فى هذا العصر كما قال تعالى : «سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق »

لقد أفضت الكلام فى سور كثيرة على هذا الموضوع ، فاقرأه فى (سورة البقرة) وفى (سورة آل عمران وفى سور كثيرة ، ولقد ذكرت فى (سورة آل عمران) نبذة من خطبة (السير أوليفر لودج) من أشهر علماء الطبيعة فى هذا العصر ببلاد الإنجليز ، إذ أكد على مجمع من كبار العلماء فى اجتماع رسمى أنه حادث الأموات . وأن هناك عقولا أسمى من عقولنا فى عالم الأرواح ، وأنهم يهتمون بنا . وأن إخوانه من الجمعية الروحية الذين ماتوا كلهم بعد موتهم وبرهنوا له ببراهين قاطعة أنهم هم الذين يكلمونه . وقال : إن كل مايقوله الأنبياء عن عالم الأرواح وعن الله فهو حق بلا تأويل . وقال إنه اشتغل بهذا الفن ٣٠ سنة فله الحق أن يحكم بما يقول . وكذلك نقلت عن اخوان الصفاء مما ذكرته فى كتابى (الأرواح) . إذ قالوا فى كتابهم

المشهور : إن رواح الأحياء بعد الموت هم الموسوسون إن كانوا أشرارا ، وهم الملهمون الناس الخير إن كانوا أخيارا . فارجع إليه هناك إن شئت ، وهاك خلاصة مما ذكرته فى كتاب الأرواح المذكور :

(١) قال شير محمد فى المجلس السابع: لقد جمعت بين ماجاء به الدين الإسلامى والكشف الحديث ، ذلك أن القوم يقولون : إن كل علم وكل خير وشر حاصلات فى الأفئدة منشؤها الأرواح الفاضلة والناقصة ، وهو عين قوله صلى الله عليه وسلم : « فى القلب لمتان : لمة من الملك ، ولمة من الشيطان » وهذا مصداق آية : سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم » والعجب أن الفرنجة يكشفون هذا ولا يعلمون أنه مصداق دين الإسلام .

(٢) ليس على الأرض كامل ، وظاهر الفضيلة والصلاح لايدل على الكمال التام فى الإنسان ، ولوكان كاملا لم يسجن فى هذه الأرض ، وهذا النقص فى الإنسان بسبب الذنوب القلبية التى لايعرفها الناس ،مثل الحقد والطمع والحسد الخ .

(٣) ليس للانسان من طريقة للتخلص من وسوسة الأرواح الشريرة إلا بالفضائل ، فهى التى تطردها .

(٤) الأرواح الشريرة قد تتقرب من الإنسان لمقاصد رديئة ، وربما تسمع بعض نصائح الإنسان عند استحضارها .

(٥) من الأرواح ما تستولى على جسد الإنسان ، ويحاول الأطباء شفاء ظواهر ذلك الجنون فى المارستان بلاطائل ، ولا فائدة إلا بالمعالجة الأدبية التى بها وحدها تخرج الروح من الجسم .

(٦) ليس فى مقدور الناس طرد الأرواح من اقترابها من الناس ، لأن ذلك يفيد فوائد كثيرة .

(٧) إن ما تقدم من أن الأرواح الناقصة تهتدى بكلام البشر يناسب ماجاء فى هذه السورة من قول الجن . « إنا سمعنا قرآنا عجبا . يهدى إلى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا أحدا ، وأنه تعالى جد ربنا ما اتخذ صاحبة ولا ولدا . وأنه كان يقول سفيهنا على الله شططا ، وأنا ظننا أن لن تقول الإنس والجن على الله كذبا ، وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقا . وأنهم ظنوا كما ظننتم أن لن يبعث الله أحدا » .

(٨) فى الأرض أرواح أشبهت الجن فى الجهل والشر ، مثل ذلك الغنى البخيل الذى مات وأحضروا روحه وقال : هاتوا لى مالى فيما تقدم فى الكتاب (أى كتاب الأرواح) ومثل ذلك الروح الطائش الذى قال : أنا أسلى نفسى الخ.

(٩) وهذا قوله تعالى : « ومن كان فى هذه أعمى فهو فى الآخرة أعمى وأضل سبيلا » .

(١٠) ومن الناس من يصدق كل مانلقى إليه الأرواح فتسد عليه المسالك فلا يسمع النصائح من غيرها فتغشه تلك الأرواح ، وهذا قوله تعالى : « وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقا » .

(١١) قول الروح : لا تغتر بظاهر الفضيلة فإنها تستر كبرا وحقدا الخ . وهذا قوله تعالى : « سأصرف عن آياتى الذين يتكبرون فى الأرض بغير الحق » .

هذا ملخص هذا المقال ، وعسى أن نوفق فى المستقبل لاصدار الملحق لهذا التفسير فنستوفى هذا المقام فيه ، ومن قرأ كتابنا [الأرواح] كفاه ، والحمد لله رب العالمين ، كتب صباح يوم الثلاثاء ٢٠ رمضان سنة ١٣٥١ هجرية = ١٧ يناير سنة ١٩٣٣ م .

• • •

ويحسن أن ننقل لك هنا أيها الذكى فهرست كتابنا (الأرواح) الذى ألفته ، لأنك تقف فيه على مجمل هذا العلم ، ويظهر لك سر القرآن فى آخر الزمان ، فليس فى طاقتى فى هذا التفسير أن أنقل أكثر من ذلك :

إن ملخص فهرس كتاب الأروح هو ما يأتى :

قراءة هذا الكتاب تدعو إلى اليقين ، وتصفى النفس ، وتذهب الحزن : أهم مذاهب الهنود فى معرفة الله تعالى ثلاثة : قوم لايفكرون إلا فى معرفة النفس ، وقوم يقولون للعالم إله ، ولكنه مختص بتعليم الناس وقوم يقولون إنه خالق ومنظم وعالم ومعلم ، وهذا الأخير هو الذى فى كتاب الفيدا ، تبيان كلام الأمم فى إثبات الأرواح وفى نفيها ، بيان ثبوت الأرواح بالآيات القرآنية وبالأحاديث ، قول قدماء الفلاسفة : إن أرواح الأموات هى الملهمة للأحياء ، وهى الموسوسة لهم بأمر الله ؛ (عذاب القبر) من كلام الغزالى رحمه الله ، وأن الأرواح بعد الموت لها ثلاثة أحوال : أسف على فائت ، وعلى ذنب ، وجزع من الجهل إخوان الصفا جاء فيه أن الأرواح كالشياطين وكالملائكة ، اعتراضات على المؤلف وأجوبة ، استدلال المؤلف على استحضار الأرواح بآية « وإذا وقع القول عليهم أخرجنا لهم دابة من الأرض تكلمهم » ، أسباب تحريك الموائد فى استحضار الأرواح ، إحضار زهور وفواكه على أيدى الأرواح فى أوروبا ، إحدى وعشرين سؤالا وجهت إلى الأرواح فى تحريك الموائد ، فأجابت بأن المغناطيسية فى الإنسان تساعد مغناطيسية الروح ، وتقول : إن الأحياء جهال جدا ، فى الأرواح جهال كما فى الأحياء ، إقرار الروح بالعذاب ، البخيل معذب ، والظالم تعتريه حسرة ، ومن الأرواح من طلبت المساعدة لتخلص من العذاب ، آيات قرآنية مطابقة لذلك ، روحان يقتيان ضاربا من ظالمهما ، الأرواح تنتقم بالوسوسة ، وتعطف على الباكين عليها ، كاهن وسيدة نجوا من الخطر بسماع هاتف ، مطابقة كلام الإمام الغزالى لما تقدم . ظهور أشباح ، وسماع ألحان ، ودق آلات طرب فى ألمانيا وشهدها كثيرون . الروح المزعجة والحديث معها . آراء العلماء والاحاديث الموافقة لما تقدم ، وصف الأرواح للسموات ، الجاهل فى الدنيا جاهل بعد الموت ، مطابقة القرآن لذلك ، الوساطة الروحية المستعملة لأمور الدنيا ضارة ويكون فيها الكذب ، وصف الأرواح لله عز وجل ، روح غاليلى ووصفها لنظام السموات وصفها ينطبق على آية « تعرج الملائكة والروح إليه فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة » تاريخ مناجاة الأرواح وطرق الاستحضار كالمائدة والفنجال واليد وهكذا ومجموعها ست ، أرواح تكتب بلا أقلام ، ظهور روح اسمها (كانى) وقد أعطتهم قطعا من ثوبها ، آيات قرآنية مطابقات للشريعة الإسلامية ، آداب من يحضرون الأرواح ، التنويم المغناطيسى ، براهين سقراط على بقاء النفس . وكيف نشأت الفكرة عند المؤلف وبراهين ابن مسكويه : طرق المقلدين فى أمر الروح . كلام الروح فى حب الإنسانية والفلسفة . محاورة (أوليفرلودج) مع ابنه الميت فى حرب الألمان . هل تدخن الأرواح . وهل تشرب الخمر ؟ الأرواح لها ثياب . فوائد الأنوار عند الأرواح . تعلم الأرواح لأهل الأرض وموافقته للقرآن ، مناجاة الأرواح فى أوروبا والإسلام ، الصوفية يناجون الملائكة بالذكر وترك اللذات (رأى أودنج) يصف جهنم ومستقبل الأمم والدول وأوروبا ومصر والاسلام ، الميت يدهش من علمه بالموت لامن الموت أخلاق الميت أحاطت به بعد موته ، قاعة السكينة ، وصف الروح لجهنم كوصف القرآن . انتهى .

هذا هو ملخص فهرس كتاب الأرواح وإن أردت المزيد فاقرأ كتبا تعد بمئات الألوف باللغات الافرنجية وتجد كتاب (على أطلال المادة) وكتاب (دائرة المعارف) كلاهما لصديقنا الأستاذ محمد فريد وجدى ، ففيهما غنية فى هذا العلم ، ولعلنا إن طالت الحياة نفصل القول تفصيلا فى ملحق نؤلفه بعد تمام طبع التفسير إن شاء الله تعالى اهـ .

وقبل ختام تفسير هذه السورة يحسن بنا أن نذكر هنا ماجاء فى إحدى المجلات المصرية ، وهى (مجلة اللطائف المصورة) مناسبا لآية : « وأحاط بما لديهم وأحصى كل شىء عددا » فقد جاء فيها تحت العنوان الآتى ما نصه :

لطيفة : فى قوله تعالى «وأحاط بما لديهم وأحصى كل شىء عددا»

عدد سكان العالم

أحصى أخيرا عدد سكان الكرة الأرضية فبلغ مليارين من النفوس : أى ألفى مليون ، وقد كان فى سنة ١٩١٠ م ألف وستمائة مليون فقط فبلغت الزيادة فى عشرين سنة ٤٠٠ مليون نسمة ، وعدد سكان العالم موزع كما يلى :

فى آسيا ٩٠٠ مليون ، وفى أوروبا ٥٠٠ مليون ، وفى أمريكا ٢٢٠ مليونا ، وفى أفريقيا ١٥٠ مليونا وفى استراليا ٨ ملايين :

وأما عدد سكان ممالك أوروبا فهو كالآتى : روسيا أوروبا ١١٥ مليونا ، ألمانيا ٦٢ مليونا ونصف ، وبريطانيا ٤٢٫٧ مليونا ، إيطاليا ٤١ مليونا ، فرنسا ٣٩٫٥ مليونا ، أسبانيا ٢١٫٣ مليونا ، بولونيا ٢٠ مليونا ، رومانيا ١٧ مليونا ، تشكوسلوفاكيا ١٣٫٦ مليونا ، المجر ٨ ملايين ، بلجيكا ٧٫٨ ملايين ، هولندا ٧٫٦ ملايين ، النمسا ٦٫٥ ملايين ، أسوج ٦ ملايين ، اليونان ٦ ملايين ، البرتغال ٥٫٤ ملايين ، بلغاريا ٤٫٥ ملايين ، أرلندا ٤٫٢ ملايين ، استونيا ٤٫١ ملايين ، سويسرا ٣٫٩ ملايين فانلاندا ٣٫٥ ملايين ، نروج ٢٫٧ مليون ، ليتوانيا ٢٫١ مليون ، تركيا أوروبا ٢ مليون ، ألبانيا ثلاثة أرباع المليون ، دوقية لوكسمبرج ٢٦٠ ألفا ، انتهى ماجاء فى المجلة المذكورة ، وبهذا تم تفسير (سورة الجن) والحمد لله رب العالمين . كتب عصر يوم الأحد ١٩ يوليو سنة ١٩٢٥ = ٢٨ ذى الحجة سنة ١٣٤٣ هجرية .

تفسير سورة المزمل

هى مكية

إلا قوله تعالى : « واصبر على مايقولون واهجرهم هجرا جميلا . وذرنى والمكذبين أولى النعمة ومهلهم قليلا » وقوله « إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثى الليل ونصفه وثلثه وطائفة من الذين معك والله يقدر الليل والنهار» إلى آخر السورة ، فمدنية

آياتها ٢٠ — نزلت بعد سورة القلم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ * قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا * نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا * أَوْ زِدْ عَلَيْهِ

وَرَتِّلِ الْقُرْءَانَ تَرْتِيلاً * إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً * إِنَّ نَاشِئَةَ الَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلاً * إِنَّ لَكَ فِى النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلاً * وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً * رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلاً * وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلاً * وَذَرْنِى وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِى النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلاً * إِنَّ لَدَيْنَا أَنكَالاً وَجَحِيمًا * وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا * يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَهِيلاً * إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولاً شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولاً * فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلاً * فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا * السَّمَاءُ مُنفَطِرٌ بِهِ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولاً * إِنَّ هَٰذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً * إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِن ثُلُثَىِ الَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ الَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْءَانِ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَى وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِى سَبِيلِ اللَّهِ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَءَاتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ *

ملخص الأحكام فى هذه السورة

(١) أن النبى صلى الله عليه وسلم أمر أن يقوم من الليل ثلثه ، أو نصفه ، أو ثلثيه ، فهو مخير بين هذه الثلاثة .

(٢) وهو فى ذلك يقرأ القرآن بتؤدة حرفا حرفا يقف على العالمين ، وعلى الرحيم ، وعلى الدين ، فيقطع القراءة آية آية .

(٣) وأن يذكر ربه ليلا ونهارا بالتسبيح والتهليل والتمجيد والصلاة والقراءة ودراسة العلم .

(٤) وأن يجرد نفسه إليه عما سواه .

(٥) وأن يتخذه وكيلا يكل إليه أموره متى فعل ما يجب عليه فيها .

(٦) وأن يصبر على ما يقولون فيه وفى ربه ، من أنه ساحر ، أو شاعر ، وفى أن ربه له صاحبة وولد .

(٧) وأن يهجرهم هجرا جميلا ، وذلك بالمجانبة والمداراة وعدم المكافأة .
(٨) وأن يكل أمرهم إلى الله ، فهو يكافئهم ويكفله .
(٩) وأن يتمهل زمانا قليلا فسيرى عاقبته وعاقبتهم .

فهذه الأمور التسعة طلبت من النبي صلى الله عليه وسلم ومن أتباعه ، ولما شق ذلك عليهم ، فقد كان الرجل يصلى الليل كله مخافة ألا يصيب ما أمر الله به من القيام . قال الله إنه يعلم أنه صلى الله عليه وسلم يقوم أقل من ثلثى الليل تارة ، ونصفه تارة أخرى ، وثلثه مرة ، وهكذا أصحابه ، وإحصاء الليل شاق عليهم فلا يقدرون على ضبطه ، ولا معرفة ساعاته ، فانتفخت أقدامهم من طول القيام ، نسخ ذلك وأمرهم بما تيسر من صلاة الليل ، ثم نسخ ذلك اليسير أيضا من صلاة الليل بالصلوات الخمس ؛ لأن المسلمين منهم المريض ، ومنهم المسافر للتجارة ، ومنهم المسافر للقتال فى سبيل الله ، فهؤلاء لايتيسر لهم القيام مع هذه الأعمال .

فالصلاة المفروضة كافية للأمة مع إيتاء الزكاة وإدامة استغفار الله فى مجامع أحوالهم ، لأن الإنسان لايخلو من تفريط .

هذا ملخص أحكام السورة ، وناسخها ومنسوخها ، ولنشرع الآن فى تفسير الألفاظ للسورة كلها فنقول ومن الله التوفيق :

التفسير اللفظى

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(ياأيها المزمل) بفتح الميم وكسرها ، وقرئ المتزمل : أى المتلفف فى ثيابه ، وهو النبى صلى الله عليه وسلم ، وذلك لأنه كان نائما مرتعدا مما دهشه من بدء الوحى ، إذ رجع إلى خديجة يرجف فؤاده فخوطب بهذا القول تهييجا له ، وقد كان متلففا فى قطيفة ، والمزمل كما يطلق على هذا المعنى يطلق على من تحمل الحمل : أى الذى تحمل أعباء النبوة ؛ فهذا المعنى يؤخذ من باب الكناية تعريضا ، فهو قول : ياأيها المتلفف بثيابه معرضا بأنه تحمل عبئا عظيما فليقم لحمل عبئه (قم الليل) أى قم إلى الصلاة وداوم عليها فيه (إلا قليلا نصفه) أى إلا نصفه ، فالنصف بدل من قليلا ، ولا جرم أن النصف قليل بالنسبة للكل (أو انقص منه قليلا) أى انقص من النصف (أو زد عليه) أى إلى الثلثين ، فيكون التخيير بين الثلث والنصف والثلثين وبقى النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه على هذه الحال يصلون بالليل اثنى عشر شهرا ، ثم خفف عنهم كما تقدم إيضاحه ، فصار المفروض ما تيسر من الصلاة بالليل ، ثم نسخ بالصلوات الخمس ، وصار قيام الليل سنة إلى يوم القيامة ، وبقى وجوبه فى حق النبي صلى الله عليه وسلم (ورتل القرآن ترتيلا) أى بينه بيانا ، واقرأه على تؤدة ، وتبين حروفه بحيث يتمكن السامع من عده مع الوقوف على كل آية كما تقدم ، وذلك ليتمكن المصلى من حضور القلب ، والتأمل والفكر فى حقائق الآيات ومعانيها ، فيستشعر العظمة والجلال بقلبه متى ذكر الله ، والرجاء والخوف عند الوعد والوعيد ، والاعتبار بالقصص والأمثال ، فنتيجة الترتيل حضور القلب ، فأما من يقرأ سورا كثيرة فى ركعة بحيث يكون هذا كهذ الشعر (الهذ سرعة القطع) أى بسرعة وعجلة فذلك لا صلاة له ، ولقد قام النبى صلى الله عليه وسلم بآية من القرآن ، وهى « إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم » ولقد أخبر صلى الله عليه وسلم بأنه سيأتى قوم يقرءون القرآن يقيمونه كما يقام السهم ، يتعجلونه ولا يتأجلونه ، لايجاوز تراقيهم ، وهى جمع ترقوة وهو العظم الذى بين ثغرة النحر والعاتق . ويقول ابن مسعود : « قفوا عند عجائبه وحركوا به القلوب ، ولايكن

هم أحدكم آخر السورة » (إنا سنلقى عليك قولا ثقيلا) أى سننزل عليك القرآن ، وفيه الأمور الشاقة من الأوامر والنواهى عليك وعلى أتباعك ، وكما أنها تثقل عليكم فى العمل فهى فى نفسها راجحة الوزن ليست من سفاسف الأمور وخفافها ، فهو كلام رصين وهو أيضا ثقيل فى الوحى فقد جاء فى حديث البخارى ومسلم أن الوحى كان يأتيه صلى الله عليه وسلم أحيانا فى مثل صلصلة الجرس ، وهذا أشده عليه فيفصم عنه وقد وعى ما قال ، وأحيانا يتمثل له الملك رجلا فيكلمه فيعى ما يقول ، وكان ينزل عليه الوحى فى اليوم الشديد البرد فيفصم عنه ، وإن جبينه ليتفصد عرقا ، ومعنى يفصم : يفارق ، ومعنى يتفصد : عرقا يجرى عرقه كما يجرى الدم من الفاصد ، فملخص ثقل القرآن فى أربعة أشياء : فى التكاليف وفى رجحان نفس القرآن من حيث المتانة والبلاغة والمعنى ، وفى الشدة على المنافقين لما ينالهم من الغم به ، وفى ثقل الوحى وشدته عند نزوله ، فهو راجح الوزن ، ثقيل الوحى ، ثقيل التكليف ، ثقيل على المنافقين يغيظهم (إن ناشئة الليل) أى قيام الليل (هى أشد وطأ) قرئ وطاء كغطاء ، ووطأ كقلب : أى أشد موافقة ومواطأة ، لأن القلب واللسان والسمع والبصر تكون بالليل أكثر مواطأة منها بالنهار على الأول ، وأوطأ للقيام وأسهل على المصلى للعبادة والخلوة برب العباد ، فإن الليل أفرغ للقلب من النهار ، ولا يعرض له فى الليل حوائج وموانع مثل النهار ، وأمنع من الشيطان ، وأبعد من الرياء ، وذلك على الثانى وهما متقاربان ، وقوله (وأقوم قيلا) وأثبت قراءة لأن القلب إذ ذاك حاضر ، والأصوات هادئة ، وأبين قولا ، ثم إن الناشئة مصدر نشأ إذا قام ونهض كالعافية ، ويجوز أن يقال النفس الناشئة التى تنهض من مضجعها للعبادة (إن لك فى النهار سبحا طويلا) تقلبا فى مهماتك واشتغالا بها ، فعليك بالتهجد ، فإن مناجاة الرب يعوزها الفراغ والتخلى (واذكر اسم ربك) ودم على ذكره ليلا ونهارا بالتسبيح والتهليل والتحميد والصلاة وقراءة القرآن (وتبتل إليه تبتيلا) انقطع إليه بالعبادة ، وجرد إليه نفسك عما سواه ، هو (رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو فاتخذه وكيلا) لأن اختصاصه بالألوهية يوجب أن توكل الأمور إليه (واصبر على ما يقولون) فيك وفى ربك مما تقدم ذكره (واهجرهم هجرا جميلا) بالمداراة والمجانبة وعدم المكافأة (وذرنى والمكذبين) دعنى وإياهم وكل أمرهم إلى ، فأنا لست فى حاجة إليك فى مكافأتهم ومجازاتهم (أولى النعمة) أرباب التنعم ، وهم صناديد قريش (ومهلهم قليلا) إمهالا أو زمانا قليلا (إن لدينا أنكالا) هذا علة لما قبله ، جمع نكل : قيودا ثقيلة (وجحيما) نارا محرقة (وطعاما ذا غصة) غير سائغ فى الحلق لا ينزل ولا يخرج ، وهو الزقوم وغيره (وعذابا أليما) وجيعا (يوم ترجف الأرض والجبال) يتزلزلان ويتحركان . وهو يوم القيامة (وكانت الجبال كثيبا مهيلا) الكثيب الرمل المجتمع . يقال : كثبت الشىء إذا جمعته فهو كثيب : أى مكثوب . والمهيل هو الذى إذا أخذت منه شيئا تبعك : أى منثورا (إنا أرسلنا إليكم) يا أهل مكة (رسولا شاهدا عليكم) يشهد عليكم يوم القيامة بالتكذيب والكفر (كما أرسلنا إلى فرعون رسولا) وهو موسى عليه السلام (فعصى فرعون الرسول) المتقدم (فأخذناه أخذا وبيلا) ثقيلا (فكيف تتقون إن كفرتم يوما يجعل الولدان شيبا) أى فكيف تتقون فى الآخرة عذاب يوم يجعل الولدان شيبا إن كفرتم فى الدنيا ، فهو يجعل الولدان شيبا من شدة هوله . وهذا تمثيل لشدة ذلك اليوم . فإن الهموم تضعف القوى وتسرع بالشيب . ثم وصف اليوم بالشدة أيضا فقال (السماء) على عظمها وشدة إحكامها تنفطر به وتنشق فكيف يكون غيرها من الخلائق ، وقوله (منفطر) إنما ذكر على تأويل السماء بالسقف فهو منشق (به) أى بيوم القيامة : أى إنها تنفطر بسبب شدة ذلك اليوم وهوله (كان وعده مفعولا) أى وعد الله كائنا (إن هذه) الآيات المشتملة على الوعيد (تذكرة) موعظة (فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلا) أى فمن شاء اتعظ بها واتخذ سبيلا إلى الله بالتقوى

والخشية (إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثى الليل) أى أقل منه وأكثر من النصف (ونصفه وثلثه وطائفة من الذين معك) أى تقوم أنت وطائفة من المؤمنين (والله يقدر الليل والنهار) إذ لا يعلم مقادير ساعاتهما على الحقيقة إلا هو (علم أن لن تحصوه) أى لن تحصوا تقدير الأوقات ، ولن تستطيعوا ضبط الساعات (فتاب عليكم) بالترخيص فى ترك القيام وعفا عنكم ورفع المشقة عنكم (فاقرءوا ماتيسر من القرآن) أى فصلوا ماتيسر عليكم من صلاة الليل ، فصار التهجد على أى وجه كان واجبا غير مقيد بنصف ولا غيره ، ثم نسخ بالصلوات الخمس (علم أن سيكون) أى أنه سيكون (منكم مرضى) فلا يقدرون على القيام بالليل (وآخرون يضربون فى الأرض) يسافرون حال كونهم (يبتغون من فضل الله) من رزقه بالتجارة أو طلب العلم (وآخرون يقاتلون فى سبيل الله) فلا فرق فى الإسلام بين الجهاد فى قتال العدو والجهاد فى التجارة لنفع المسلمين وطلب العلم . قال ابن مسعود رضى الله عنه : « أيما رجل جلب شيئا إلى مدينة من مدائن الإسلام صابرا محتسبا فباعه بسعر يومه كان عند الله من الشهداء ، ثم قرأ عبد الله قوله تعالى : وآخرون يضربون فى الأرض يبتغون من فضل الله وآخرون يقاتلون فى سبيل الله » (فاقرءوا ماتيسر منه) بمعنى ، صلوا وأعاده للتكرير (وأقيموا الصلاة) المفروضة ، كأنه يقول :صلوا وداوموا على الصلاة وقوموها ، فلا تكون قلوبكم غافلة ، ولا أفعالكم خارجة عن النظام المطلوب لها (وآتوا الزكاة) الواجبة (وأقرضوا الله قرضا حسنا) بالنفقات الأخرى فى سبيل الخيرات ، لأن ذلك باق لكم عند الله (وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله) أى تجدوا ثوابه ، وقوله (هو خيرا) مفعول ثان لتجدوه ، وهو ضمير الفصل (وأعظم أجرا) من الذى تؤخرونه إلى الوصية عند الموت (واستغفروا الله) فى جميع أحوالكم (إن الله غفور رحيم) يستر على أهل الذنوب والتقصير . انتهى التفسير اللفظى للسورة كلها ، والحمد لله رب العالمين .

فى هذه السورة لطيفتان

(١) فى قوله تعالى : « ورتل القرآن ترتيلا » .

(٢) فى قوله تعالى : « وآخرون يضربون فى الأرض يبتغون من فضل الله » الخ .

اللطيفة الأولى فى قوله تعالى: «ورتل القرآن ترتيلا»
مع قوله تعالى : «فاقرءوا ما تيسر من القرآن»

فهاهنا أمران : قراءة القرآن ، وترتيله ، أما قراءة القرآن فقد فسر بها قوله تعالى : « فاقرءوا ماتيسر منه » أى من القرآن ، وذلك بدراسته وتحصيل حفظه ، وألا يعرض للنسيان ، فيقرأ القرآن عشر آيات فى اليوم والليلة ، أو عشرين فيهما ، أو أربعين ، أو خمسين ، أو مائة ، أو مائتى آية ، أو خمسمائة آية ، وقد ورد فى كل ذلك أحاديث ، والمقصود أن الإنسان لايغفل عن قراءته ولو عشر آيات فى اليوم والليلة ، أما إذا زاد كثيرا فليس بمحمود ، ألا ترى إلى عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما فى الصحيحين قال قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم « ألم أخبر أنك تصوم الدهر وتقرأ القرآن كل ليلة ؟ قلت بلى يا رسول الله ولم أرد بذلك إلا الخير ، قال فصم صوم داود ، وكان أعبد الناس ، واقرأ القرآن فى كل شهر مرة ، قال قلت يانبى الله إنى أطيق أفضل من ذلك ، قال فاقرأه فى كل عشر ، قال قلت يارسول الله إنى أطيق أفضل من ذلك ، قال فاقرأه فى سبع ولا تزد على ذلك » .

فقد نهاه صلى الله عليه وسلم أن يتجاوز سبع القرآن كل يوم وليلة ، فأنزله بذلك إلى سبع ما كان يقرأ فى كل يوم وليلة ، والقصد من هذا النهى أن يرتله ويقف على معناه .

ولقد ورد فى الخمسين آية وما قبلها من الأربعين والعشرين والعشرة أن صاحبها لايكون من الغافلين ؛ وورد فى المائة أنه يكون من القانتين ، وفى المائتين أن القرآن لايحاجه ، وفى الخمسمائة أنه يكون له قنطار من الأجر ، وهذه الأحاديث وإن لم تسلن فى الصحاح فإنها تدلنا على ما كان عليه آباؤنا فى الصدر الأول أما حديث عبد الله بن عمرو بن العاص فهو فى الصحيحين .

الـكلام على ترتيل القرآن

وأما ترتيله فقد مر بيانه ، وملخصه :

(١) أنها تـكون مدا .

(٢) وأن يقرأ (بسم الله الرحمن الرحيم) يمد ببسم الله، ويمد بالرحمن ، ويمد بالرحيم .

(٣) وتـكون القراءة مفسرة حرفا حرفا.

(٤) ويقول (الحمد لله رب العالمين) ويقف .

(٥) ويقول (الرحمن الرحيم) ثم يقف ، ويقول (مالك يوم الدين) ثم يقف . ومعنى هذا أنه يقطع قراءته آية آية، وروى أنه صلى الله عليه وسلم يوم فتح مكة كان يقرأ على ناقته سورة الفتح فرجع فى قراءته .

هذا ملخص ماجاء فى أحاديث البخارى والنسائى والترمذى ومسلم ، وبهذا تم الكلام على اللطيفة الأولى فى قوله تعالى : « ورتل القرآن ترتيلا » والحمد لله رب العالمين .

اللطيفة الثانية

فى قوله تعالى : وآخرون يضربون فى الأرض يبتغون من فضل الله

ها أناذا نقلت لك كلام ابن مسعود فى تفسير هذه الآية : أن التاجر الصالح يكون كالمجاهد وأقول لك الآن ماقاله ابن عمر . ماخلق الله موتة أموتها بعد القتل فى سبيل الله أحب إلى من أن أموت بين شعبتى جبل أضرب فى الأرض أبتغى من فضل الله .

فهذا عبد الله بن مسعود ؛ وهذا ابن عمر كلاهما يفسر الآية بهذا ، فقد سويا بين السفر لطلب الرزق وبين الجهاد ، وأن الموت فى كل منهما شهادة ، وإذا كنا نسمع الأئمة رضى الله عنهم يستدلون بقوله تعالى « فاعتبروا ياأولى الأبصار » على ربع الأحكام الفقهية . وهو القياس لأن أصول الفقه ترجع إلى الأربعة : الـكتاب والسنة والإجماع والقياس ،فإذا كان ربع علم الفقه يرجع إلى القياس المبنى على هذه الآية .فـكيف يكون الأمر بالآية التى نحن فيها ؟ وهى قوله تعالى . « وآخرون يضربون فى الأرض يبتغون من فضل الله وآخرون يقاتلون فى سبيل الله» .

ياليت شعرى. ماذا يكون فى هذه الآية للمسلمين الذين هم الآن ثلثمائة وستون مليونا ؟ هؤلاء المسلمون الذين أخنى عليهم الدهر لماذا ؟ لأن تعاليمهم ناقصة بتراء ، إن علماء الإسلام قد دفنت منهم هذه الآية دفنا ومعنى هذا أنهم واروها عن العيون ودفنوها بين دفتى المصحف : أى لم يظهروها للأمة الإسلامية مشروحة كما شرحت الصلاة والزكاة .

أيها المسلمون . عجبت لـكم ! كيف تـكون الصلاة ؟ وكيف تـكون الزكاة ؟ فوالله لا زكاة ولا صلاة ولا حج ولا علم ولا عمل إذا لم يكن عند الأمة ثروة (إذن تـكون الثروة والقوة مقدمتان على الزكاة وعلى الحج ، ومن أين يزكى الناس إلا إذا كان عندهم مال ، ومن أين يحجون إذا لم يكن عندهم مال ، بل كيف

يصلون إذا كانوا جياعا لامال عندهم ، بل كيف يصلون ويصومون ويحجون إذا لم تكن بلادهم آمنة مطمئنة ولا تكون البلاد آمنة مطمئنة من لصوصها فى الداخل ، ومن أعدائها فى الخارج . إلا إذا كانت الدولة ذات مدافع وطيارات وجيوش جرارة ، وكيف يتم ذلك إلا بمال ونظام وحكومة ؟

يا أمة الإسلام . أليس ذلك كله قبل الزكاة . أى أن وجود المال مقدم على وجود الزكاة والحج والجهاد فى سبيل الله .

يا أمة الإسلام . ألم يقل الفقهاء : (إن مالا يتم الواجب إلا به فهو واجب) وقد استنتجوا من هذه القاعدة فروعا كثيرة ، منها أن الإنسان إذا غسل يديه إلى المرفقين يجب عليه أن يغسل وراء المرفقين جزءا من باب مالا يتم الواجب إلا به فهو واجب ، بل هم قالوا أيضا قولا إجماليا : إن العلوم والصناعات كلها واجبة على الأمة وجوبا كفائيا .

فليخصص لكل علم ولكل صناعة طائفة من الأمة يكون استعدادهم أقبل لذلك من غيرهم ، لقد راعى الله ذلك وأراده فذكر الضرب فى الأرض والابتغاء من فضله قبل أن يذكر الجهاد ، فكأنه جعل إكمال الأمور المعاشية مقدما على الجهاد ، فهو إذن كالطهارة التى لا تصح الصلاة إلا بها ، فإذا قال الفقهاء : إنه يجب على المصلى أن يقدم الطهارة لتصح الصلاة فليقل علماء الإسلام الآن بأعلى صوت : ليقدم علوم الصناعة والسياسة والتجارة واستخراج المعادن ، وعلوم طبقات الأرض ، وعلوم نظام أمم أوروبا ، وعلوم نظام المدارس ، وعلوم نظام الطيران فى الجو ، وعلوم السفن فى البحر ، وعلوم الرياح ، وعلوم الكهرباء وعلوم المغناطيس ، وعلوم الغواصات ، وعلوم الغازات الخانقة ، وعلوم الكواكب الثابتة ، وعلوم الكواكب السيارة ، وعلوم النبات ، وعلوم الحيوان ؛ وعلوم الطب ، وعلوم البيطرة ، إلى غير ذلك .

ليقل علماء الإسلام : فلتتقدم هذه العلوم وهذه الصناعات على المدافعة عن الأوطان التى هى بعض أنواع الجهاد ، إذ لا تمكن المدافعة عن البلاد اليوم إلا بهذه العلوم وبهذه الصناعات ، وإذا كان الجهاد واجبا فهذه مقدماته ، ومالا يتم الواجب إلا به فهو واجب ، وإنما الفرق بين هذه العلوم وبين الوضوء للصلاة أن الوضوء يجب على الفرد وأن هذه العلوم تجب على المجموع . إن المسلمين ناموا عن الواجب الكفائى الذى يعم الأمة كلها غفلة وجهالة ، أو ما علموا أن فرض الكفاية إذا فات ماتت الأمة ، أما فرض العين فإنه إذا فات لم يستضر به إلا الذى أهمل فيه . ففرض الكفاية عظيم جدا جليل ثمرته جليله ، والثواب عليه لاحد له وضاع البلاد والعباد مرتب على إهماله ، ولذلك نرى أن أمتنا الإسلامية لما جهلت هذا الفرض تخطفتها أمم أوروبا .

أمة الإسلام التى نراها اليوم ساكنة ساكتة وأمم أوروبا تتفق معا لقتل أهل مراكش الذين يحاربون مع الأمير عبد الكريم ، حتى إن أمريكا أرسلت طيارات لمساعدة فرنسا وأسبانيا ضده ، وأنا أكتب هذه السطور ، وأمم الإسلام لضعفها وقلة الحكماء فيها لاتبدى حراكا لجهلها وخوفها من أوروبا ، ولأن أغلب بلاد الإسلام فى أيدى الفرنجة ، ألا قاتل الله الجهالة .

فبالله : كيف غفل العلماء قديما ؟ أستغفر الله ، إنهم ما غفلوا ، إن ما قلته مستمد من كلامهم ؛ ولكن أقول : أهملوا ، أهملوا ، أهملوا : أى أهمل الأمر صغارهم ، أما حكماؤهم فقد وضحوه ولم يصل لعامة المسلمين . ترك العلماء ملوك الإسلام يجيشون الجيوش ويقهرون الأعداء بقوة السياسة والسيف ، ولم يساعدهم العلماء بما يقوى أركان دولهم ، كان يجب أن يبثوا فى الشعب ماذكر فى بطن الكتب أن ذلك كله جهاد ، كان يجب أن ينتشر فى البلاد ، كان يجب أن تؤلف له كتب كما ألف للصلاة والزكاة والبيوع والفرائض .

فياليت

فياليت شعرى من أين يكون بيوع أو مواريث أو قضايا وعبادات إذا لم تكن البلاد فيها كل ما تحتاج إليه ؟ فكيف أظلنا نحن المسلمين فى الثمرات ولم نظل فى الشجرات ، والثمرات هى الشرائع والأحكام والعبادات كالهبة والميراث والبيع والصلاة والزكاة ، ولم نظل فى الأصول أى فى الأشياء نفسها المخلوقة كالنبات والحيوان والمعادن والزراعه والتجارة والسياسة والعلوم الحديثة والقديمة ، لم نظل فى هذه مع أنه لا دين ولا شرع إلا بعد توافر تلك الأسباب كما جعلت الطهارة قبل الصلاة ، فمن لم يتوضأ فلا صلاة له هكذا فى الأمم إذا لم يكن لديها ما تحتاج إليه بمناسبة زمانها فلا شريعة لها ولا جهاد ولا عبادات ولا بيوع لأن مرافقها تصبح بيد غيرها ، وتكون محبوسة فى يد دولة أجنبية تذلها وتفعل بها ما فعل الإنسان فى الحيوان من ذبح وحمل عليه وإذلال .

علم الله أن أمة الإسلام ستنسى هذه الواجبات بغفلة صغار العلماء ، وعلم أننا سنصبح فى يد أوروبا فأنزل هذه الآيات لنتفطن لها ونقرأها ونفهم معناها ، فقدم الضرب فى الأرض والابتغاء من فضل الله على الجهاد من باب تقديم المقدمات على النتائج ، وتقديم الوضوء على الصلاة ، وقد أخذ الشافعى رضى الله عنه فى الوضوء بحديث : « ابدءوا بما بدأ الله به » ولذلك أوجب غسل الوجه قبل غسل اليدين ، وهكذا ما بعدهما مراعاة لهذا الحديث ، وإذا كانت مسألة الوضوء التى لا تخرب دولة إذا قدم الوجه على اليدين أو بالعكس قد تحرى لها الأئمة إلى هذا الحد وقدموا ما قدمه الله ، أفلا يكون ما يقال هناك يقال هنا ، وهو أن نظام الأمة يجب العناية به حتى يتسنى لنا الجهاد ، إذ لا جهاد إلا بما يقيم أمر البلاد من تجارة وصناعة وزراعة وإصلاح طرق وكهرباء وبخار وقطرات حديدية وهكذا مما لا يمكن حصره الآن من العلوم .

ولعلك تقول : هناك أمور واجبة وهنا أمر مباح ، تقول : إن هذا هو الخطأ فى الفهم ، هذا المباح الذى ذكرته قد أقررت بأنه فرض كفاية فأصبح واجبا على الأمة ، فلا بد من أن الحكومات الإسلامية تخصص لكل طائفة من الأمة أعمالا مما تجب فى الوقت الذى هى فيه ، ولعلك تذكر ما نقلته عن مدارس أمريكا فى (سورة آل عمران) وأنهم يعلمون فى المدارس من الصناعات التى تبلغ نحو سبعة آلاف صنعة نحو مائتى صنعة لتلاميذ المدارس ، وأن الصناعات عامة هناك ، وأن الصانع هناك يعتبر كالمهندس وكالطبيب وكالقاضى وما أشبه ذلك .

لعمرك إن هذا هو الحق ، وإن هذا هو ديننا ، ديننا الذى يقال فيه : «وآخرون يضربون فى الأرض يبتغون من فضل الله » العلم ، يبتغون من فضل الله الصناعة ، المعدن من الأرض ، طبقات الأرض ، سياسة الأمم ، علوم الجو ، علوم السفن ، وهكذا مما أسلفناه ، كل هذه داخلة فى قوله : «يبتغون من فضل الله » وجعل الذين يقاتلون فى سبيل الله فريقا ، وهذا الفريق أخره ، وإنما أخره لأجلنا نحن الآن لأجل أن أقول فى هذا التفسير لكم اقرءوا كلام ابن مسعود ، واقرءوا كلام ابن عمرو بن العاص وانظروا أليس المعنى عندهما هو ما قررناه ؟ ولأجل أن أقول : قد قدم الله هذه العلوم والصناعات على الجهاد كما قدم الوضوء على الصلاة ليعلم المسلم أنه إن حفر فى طبقات الأرض لاستخراج المعادن فهو فى سبيل الله ، وإن تاجر فهو مجاهد فى سبيل الله ، وإن قرأ علم البيطرة فهو مجاهد فى سبيل الله ، وإن قرأ علم النبات فهو مجاهد فى سبيل الله ، وإن قرأ علم الحيوان فهو مجاهد فى سبيل الله ، وإن قرأ علم السياسة فهو مجاهد فى سبيل الله ، وإن قرأ علم الطيارات فهو مجاهد فى سبيل الله ، وإن قرأ علم الغواصات فهو مجاهد فى سبيل الله ، وإن قرأ علم الفلك فهو مجاهد فى سبيل الله ، بل هو مقدم على من يقاتل الأعداء ، لأنه لا يتم قتال العدو إلا بهذه العلوم ، ومن أصلح الطرق الحديدية وأتى عليها بالقطرات فهو مجاهد فى سبيل الله ، وهكذا . فياليت شعرى لم لا تؤلف كتبا لهذا كثيرة ؟ انتهى .

قاعدة عامة لحياة الأمم

اعلم أن الله عز وجل لما خلقنا فى الأرض أعطانا مواهب ، وهى الأعضاء والحواس والعقول، وأعطانا منحا خارجة ، وهى الأرض وما أقلت ، والسماء وما أظلت ، وأوجب علينا أن نستعمل النعمتين ، نعمة أنفسنا ، ونعمة الآفاق ، فيجب علينا أن نقوى الأعضاء كاليدين والرجلين وسائر الأعضاء بالتمرين والحركات العضلية والمشى ، أو الأعمال فى الصناعات ، وأن نبحث فيما حولنا ، وفى الأرض والسماء ، لنستخرج ما كمن فيهما من المواهب الطبيعية والفلكية ، وهكذا لنقوى حاسة السمع والبصر فينا ، وهكذا قوة الخيال والذاكرة والمفكرة والحافظة والواهمة ، وقوة اليد بالكتابة والصناعات ، فإذن يجب علينا تقوية الأعضاء الخارجة والحواس الظاهرة والحواس الباطنة بالطرق العلمية المذكورة فى محالها . كل ذلك مأخوذ من قوله تعالى : « وآخرون يضربون فى الأرض يبتغون من فضل الله ، وآخرون يقاتلون فى سبيل الله » .

العبادة والأعمال الأخرى

هذه (سورة المزمل) ابتدئت بالعبادة والصلاة بالليل ، وكان النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه يصلون نصف الليل ، أو أكثر أو أقل . متى كان ذلك ؟ كان ذلك قبل أن يستفحل أمر الإسلام ، وتقوم الدولة على أساس متين ، فلما اتسع نطاق المسلمين هاجر قوم إلى الحبشة ، وآخرون إلى المدينة ، واتسع نطاق التجارة فلما حصل ذلك وسع الله لهم نطاق العمل ، فبعد أن كان صلاته فى جوف الليل تستغرق ثلثيه أو نصفه أصبح القوم فرقا شتى : ففرقة شغلها أمر التجارة وفرقة شغلها أمر الجهاد وهكذا ، لذلك وسع الله أمر الطاعة وجعلها شاملة كاملة ، وأفاد الناس أن هذه الأعمال هى من طاعات الله ، بل أقول إن الأمر فوق ذلك فإنا إذا وجدنا إنسانا يصلح لعلوم الزراعة ، أو لنفس الزراعة ، أو لأى عمل من الأعمال ، ووجدناه اشتغل بالعبادة أو الصوم وجب قهره والضغط عليه وعقابه ليتخذ له عملا لسعادة نفسه وأمته ، فمن قدر على علم أو صناعة نافعة للعموم فذلك أفضل ، فإن عجز فليعمل عملا نافعا فى تجارة ، أو إغاثة الملهوف ، أو نحو ذلك ، فان عجز عن هذا كله فليلتزم العبادات ليلا ونهارا ، فان الصحابة لما لم يتسع نطاق أعمالهم كلفوا بالعبادات الشاقة ، فلما كثرت عليهم الأعمال وقويت شوكتهم عملوا وعد ذلك من الجهاد ، ولو كان الانهماك فى العبادة أفضل لأمر الله بذلك ؛ ولكن الله صرف الناس عن الشاق فى صلاة الليل إلى الشاق فى التجارة عند الاقتضاء فذلك هو أفضل من صلوات النوافل ، فلا فرق بين علم وعلم ، ولا بين صناعة وصناعة ؛ كل ذلك حقا أفضل من العبادة كما قاله علماؤنا ، وكما نص عليه الإمام الغزالى فى (بداية الهداية) .

فعلى حكام المسلمين أن يقهروا رجال الصوفية جميعا على الأعمال ، وأن يستخرجوا أناسا يصلحون للأعمال من التكايا ليعملوا أو ليتعلموا صناعات أو علوما نافعة للأمة ، وحرام أن يترك المسلمون سبهللا بدون ضابط ولا قانون .

جل الله : يقول الله فى أول السورة : « يا أيها المزمل قم الليل إلا قليلا » أخرجه وأخرج أصحابه من فراشهم إلى الصلاة ، ثم أخرجهم من الصلاة : أى من الإكثار منها إلى الجهاد العام الذى يشمل كل علم وكل صناعة ، كأنه تعالى بهذه الإشارة يقول : إذا كان نبيكم وهو مزمل فى ثيابه وهو أكثركم طاعة قد أمرناه بالقيام فهكذا أنتم وأنتم أقل منه طاعة لنخرجكم إلى العبادات وإلى الأعمال وأن تكونوا كالمرسلين .

النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن كاسلا قط، بل كان مستمرا فى طاعة ربه على دين الخليل وقد نزل له الوحي ولما ارتجف فؤاده وزملوه فى ثيابه أمره أن يقوم الليل فمن باب أولى أمته الذين هم مقصرون فى جميع أعمالهم حثهم الله على العمل وعلى العبادات، وكأنه يقول: إذا كان النبي قد زمل فى ثيابه لحظة قد أمرته بالعمل فكيف بكم وأنتم لا تعملون وكل الأمم حولكم عاملة؟ فأنتم كأنكم مزملون فى ثيابكم أبدا ، فقوموا للعبادة وقوموا لغيرها من علم وصناعة .

ومن عجب أنه لم يقرن الجهاد وابتغاء الفضل من الأرض والعبادة كلها معا فى سورة واحدة إلا هذه ، ولم يظهر فى سورة فضل الضرب فى الأرض مثل ما ظهر فى هذه السورة، فكأن لفظ المزمل تشير إلى أن كل مايوجب الانقطاع عن العمل العام والعمل الخاص يجب أن يتخلص منه ، فكأن هذه السورة نزلت لحث الأمة على الأعمال كلها ، بل إن النبي صلى الله عليه وسلم مرسل لنا وقص الكلام علينا لإرشادنا ، فإن هذا القرآن الآن إنما هو لنا نحن الأحياء ننتفع به. إن نزول هذه السورة بهذا الترتيب عجيب يوجب عليهم القيام بالليل ثم ينسخ الوجوب عليهم ويبقيه على النبي صلى الله عليه وسلم ويوجههم إلى الأعمال العامة ، لماذا هذا كله ؟ ولماذا يقص علينا ؟ لابد أن يكون القصد أن ننظر نحن الآن ، فكلما اتسعت أعمال الأمة شمرنا عن ساعد الجد وفتحنا أبوابا لأعمال جديدة ولا نقف عند حد ، والله فتح لنا الباب فقال انظروا ها أنا ذا شغلتهم أولا بالعبادة ثم فرقتهم فرقا للعبادة وللعلم وللجهاد وللتجارة ؛ فهكذا أنتم افعلوا ما فعلته أنا مع الصحابة ، فإن لم يكن إلا العبادة فيها ، وإن كانت لكم دولة وأمة واتسع نطاق الأعمال فلا تدعوها وترجعوا للمساجد ، بل انتشروا فى الأرض وابتغوا من فضلى ، وأما صلاة الليل فهى نافلة لكم ، فافعلوا منها ما تقدرون عليه ، وإياكم أن تشغلكم عما يهمكم من أمور الحياة الدنيا .

لقد تدهورت الأمة الإسلامية اليوم بالنسبة لقراءة القرآن ، وخالفت ما أمر به النبي صلى الله عليه وسلم فى الحديث الصحيح وما أمر الله به فى القرآن ، أليس من الحزن أن المسلمين اليوم فى مصر وما عائلها يحفظون القرآن ويقرءونه صباحا ومساء يهذونه هذا : أى يسرعون فيه إسراعا مع أن القرآن جاء لنتفكر فيه ، وانظر كيف يأمر النبي صلى الله عليه وسلم أن يقرأ فى شهر ، ولما أطال ابن عمر القول عليه قال لا تزد عن سبعة أيام : أى أن ذلك أقل ما يمكن الفهم فيه .

إن الأمة الإسلامية منيت ورزئت بطائفة من المحدثين أيام العصر الأول اخترعوا أحاديث ودونوها ، وزعموا أنهم بها يتقربون لله تعالى ، وذكروا فيها فضائل وصفات وثوابا لمن قرأ سورة كذا ، فظن الناس أن هذا حق فدرجوا عليه وقرءوا القرآن وهذوه هذا : أى أسرعوا فى قراءته ، وهذا واضح فى كتاب (الإتقان فى علوم القرآن) فأصبحت الأمة اليوم فريقين : فريق لا يهتم بهذا الدين ولا بالقرآن، وفريق يقرأ القرآن ولا يتدبره ، ويقرؤه قوم فى رمضان مسرعين، ويقرءون القرآن فى كل ثلاثة أيام، أليس هذا من الجهالة العمياء ، قوم يحفظون القرآن ولا يعقلون ، وقوم لا يؤمنون بهذا الدين ، وهم أكثر من درسوا العلوم بأوروبا ؛ فالقراء والعباد قلوبهم فى غطاء وهم عنوان الإسلام ، فالناظر إليهم يقول هؤلاء عنوان الدين وما هم بعنوان الدين ، وإنما هم جهال الدين .

مزية الإسلام فى مستقبل الزمان

مزية الإسلام أنه سيعمل بهذه السورة وتفرق الأعمال على مجموع الأمة كما ظهر فى (فى سورة البقرة) ووضح هناك فاقرأه ، وأن تكون جميع العلوم منظورا فيها جهة الحياة الدنيا وجهة خالقها ، فتكون كل

حرفة وكل علم مشوقة إلى خالق هذا العالم على نحو ما بيننا فى هذا التفسير فيكون رجال الدين من هذه الأمة ملمين بأكثر العلوم إجمالا ، وعليه يبعثون فى كل علم همم أربابه إلى استكناه حقائقه مع التشويق لمبدعه من طريق هذا العلم والصناعة التى يكون المرء قائما بها ، والمتصفح لهذا التفسير يقدر أن يفعل ذلك فى كل علم وكل صناعة ، فإن فيه من كل فن طرفا مطبقا على الدين مذكورا فيه الجهة الإلهية المشققة للمقام الأقدس، وهذه المزية توجب النبوغ فى العلوم ، وتكون هذه الأمة أرقى الأمم وأعلاها علوما وصناعات ،

غرور المسلمين اليوم

كم من مسلم سمع حديثا مرويا فى فضل الحج ، أو فى فضل الصلاة ، أو فى فضل قراءة القرآن ، أو فى فضل الصدقة ، أو فى فضل عيادة المريض فهيأ له عقله ، وسولت له نفسه ، ودله شيخه أن الانقطاع إلى تلك الطاعة والإكثار منها أفضل ، وحينئذ يصبح ذلك المسلم مغرورا ، إن المغرورين من المسلمين قد أوضحناهم فى سورة (آل عمران) عند قوله تعالى : « وغرهم فى دينهم ما كانوا يفترون » فقد لخصنا ما قاله الإمام الغزالى هناك ، واستبان فى ذلك المقام أن المسلمين اليوم مغترون ، وهذا الغرور ورثناه عن القرون المتأخرة إذ أصبح المسلمون لا مرشدين لهم فتركوا وشأنهم يتخبطون فى دياجير الجهالة ، واستنام كل فريق فى طاعة من الطاعات ، فكل واحد من صالحى الأمة أصبح مشغولا بعمل من الأعمال الصالحة كقراءة الأوراد التى وضعها الشيوخ ، وكالحج ، وكقراءة القرآن ، ويكثرون من ذلك ، ويتركون الأمة ولا يفكرون فيها ، ولا فى صناعاتها ، ولا فى علومها ، ولا فيما يحفظ كيانها .

كل ذلك ابتلاء من الله للأمة ، وسيقيض من قراء هذا التفسير ، ومن غيرهم من يفهمون الأمة أن العلوم كلها ، والصناعات عبادات وجهاد ، وأن قوله تعالى . « يبتغون من فضل الله » بعد قوله « وآخرون يضربون فى الأرض » يشمل كل علم ، وكل صناعة ، وأن اختيار لفظ « من فضل الله » وعدم ذكر لفظ التجارة التى كانت أهم أغراض الصحابة فى الأعمال الدنيوية قد نظر فيه من جناب القدس الأعلى إلى ما نحن فيه الآن ، ففضل الله أعم من العلوم والصناعات وكل ما يحتاج إليه فى هذه الحياة الدنيا .

انظر ما تقدم فى سورة (آل عمران) فهناك تفصيل المغرورين كما ذكرت لك وتفصيل ما يجب على الأمة من تعميم العلوم الخ وكيف يتحد أبناء العرب من مراكش إلى العراق ، وكيف كانوا متفرقين بالجهالة ، فكم من امرىء قرأ الأحاديث الموضوعة ، أو الضعيفة المروية فى فضل عمل من الأعمال وفوت على نفسه وعلى أمته مزايا نفسه وما انطوت عليه من شمائل شريفة ، ومزايا منيفة ، وعلوم لطيفة ، وصناعات دقيقه ، وجهل أن هذه المذكورات من أجل ما يبتغى دين الإسلام .

نام العلماء ولم يذيعوا أمثال ما نقله السيوطى رحمه الله فى كتاب الإتقان عن قوم من المحدثين ، وكيف كثر فى القرون الأولى وذاع وملأ الأصقاع ، تلك الأحاديث الواردة فى فضل السور القرآنية وقراءتها ، وكيف كان أحد التابعين يدهش حينما يسمع تلك الروايات فركب ناقته وسافر أياما وأياما وقابل الراوى الذى روى الحديث ، فدله على من تلقاه عنه ، فسافر إليه عشرات الأيام ، كل ذلك وهو يضرب فى الأرض يبتغى إحقاق الحق وإبطال الباطل حتى وصل إلى من أذاع هذا الحديث ، فوجده رجلا زاهدا صالحا ، فقال له : كيف تقول إنك رويت كذا عن فلان وأنا لم أرو عنه؟ فقال ذلك الصالح : إنى أنا الذى زورت هذه الأحاديث لوجه الله تعالى ، فقال وكيف ذلك ؟ قال : لأنى وجدت المسلمين قد أكبوا على علم الفقه الذى أذاعه

أبو حنيفة النعمان، خفت أن يترك المسلمون القرآن إذا اشتغلوا بعلم أبي حنيفة. فقات هذه الأحاديث ورويتها وأذعتها ليحفظ القرآن ، فأكثر المسلمين اليوم مسحورون بأمثال تلك الأحاديث وهم تاركون لشئون دينهم. ثم إن القرآن يقرأ لمجرد التلاوة لا للفهم وهذه من الطامات الكبرى .

إن الله خلقنا فى الأرض ورزقنا مواهب بدنية ، ونعما أرضية ، ومنحا سماوية ، وقال : ياعبادي هذه نعمى فاشكروها ، وهذه آياتى فابتغوها ، وهذه أرضى فاضربوا فيها ، وزينوا أنفسكم بالعلوم والصناعات واستخرجوا كنوزى ، فإنى وعزتى وجلالى ماخلقتها باطلا، ولا أودعتها أرضكم لتكون عبثا عليها بلا عائدة ، فلم خلقت فيكم الأسماع والأبصار ، ولم علمتكم سبل الاستبصار ، ولم زودتكم بنعمة العقل ، ودقة السمع ، وبهجة البصر ، وأعطيتكم أقوى سلاح من الأعضاء الظاهرة والجوارح القوية ، ومكنتكم فى الأرض تمكينا وسلطتكم عليها تسليطا ، وقلت لكم : هاهى ذه أرضى فاعمروها ، وهذه حواسكم وجوارحكم فلا تهملوها وأنزلت عليكم فى كتابكم وآخرون يضربون فى الأرض يبتغون من فضلى فيها .

ويقول للمسلمين : لاعقولكم اتبعتموها، ولا آياتى فهمتموها ، ولا نعمى قبلتموها، ولا حواسكم توليتموها ولا جوارحكم مرنتموها، فهل أعطل نعمى لأجل جهلكم أو أبقى أرضى بلازرع لغفلتكم ؟ كلا. فأنا الحكيم العليم ؛ فإن توليتم عن إصلاح حواسكم وجوارحكم وعمارة أرضكم بطشت بكم وسلمتها لغيركم جزاء وفاقا ، الأرض أرضى ، والناس عبادي ، وأنا عالم من هو الذى يصلح لاستخراج ثمراتها والقيام بأمرها فهذا هو الذى أسلمه قيادها .

أيها المسلمون: كنتم قديما أولى من غيركم فسلمتكم قياد أرضى، والآن وجدت تعاليمكم مشوهة ، وعلومكم منحرفة ، ودروسكم مظلمة ، فسلبتكموها وأعطيتها لغيركم ، وهاهوذا آن الأوان لظهور مالم يظهر من كوامن غرائزكم وبواطن أرضكم ، ومزايا نفوسكم ، وإشراق علومكم، ولذلك بدت طلائع العلم والحكمة فى بلاد الإسلام وظهر أرباب العقول اليوم فى بلاد العرب والترك والفرس ، وسيزداد الأمر وتأخذ الأمم الإسلامية مكانتها . « اعلموا أن الله يحيي الأرض بعد موتها قد بينا لكم الآيات لعلكم تعقلون » .

انتهى تفسير سورة المزمل صباح يوم الثلاثاء ٢١ يوليو سنة ١٩٢٥ م وهو التاسع والعشرون من شهر ذى الحجة الحرام من سنة ١٣٤٣ هجرية . والحمد لله رب العالمين .

تفسير سورة المدثر

هى مكية

آياتها ٥٦ — نزلت بعد سورة المزمل

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

يَاأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنْذِرْ * وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ * وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ * وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ * وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ * وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ * فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ * فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ * عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ * ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا * وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا

مَمْدُودًا * وَبَنِينَ شُهُودًا * وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا * ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ * كَلَّا إِنَّهُ كَانَ
لِآيَاتِنَا عَنِيدًا * سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا * إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ * فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ * ثُمَّ قُتِلَ
كَيْفَ قَدَّرَ * ثُمَّ نَظَرَ * ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ * ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ * فَقَالَ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ
يُؤْثَرُ * إِنْ هَٰذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ * سَأُصْلِيهِ سَقَرَ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ * لَا تُبْقِي وَلَا
تَذَرُ * لَوَّاحَةٌ لِلْبَشَرِ * عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ * وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا
جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ
آمَنُوا إِيمَانًا وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ
مَرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ
يَشَاءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ * كَلَّا وَالْقَمَرِ * وَاللَّيْلِ إِذْ
أَدْبَرَ * وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ * إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ * نَذِيرًا لِلْبَشَرِ * لِمَنْ شَاءَ
مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ * كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ * إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ *
فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ * عَنِ الْمُجْرِمِينَ * مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ * قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ
الْمُصَلِّينَ * وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ * وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ * وَكُنَّا نُكَذِّبُ
بِيَوْمِ الدِّينِ * حَتَّىٰ أَتَانَا الْيَقِينُ * فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ * فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ
مُعْرِضِينَ * كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ * فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ * بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ
مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُنَشَّرَةً * كَلَّا بَلْ لَا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ * كَلَّا إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ *
فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ * وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ هُوَ أَهْلُ التَّقْوَىٰ وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ *

مقاصد هذه السورة

(أولا) ست أوامر للنبي صلى الله عليه وسلم وهي :

(١) الانذار .

(٢) وتكبير الله .

(٣) وتطهير الثياب :

(٤) وهجر ما يؤدى إلى العذاب .

(٥) ولا تمن على أصحابك بما تعلمهم من أمر الدين وتبلغهم من أمر الوحى كالمستكثر بذلك عليهم . ولا على الفقراء بما تعطيهم استكثارا منك لتلك العطايا فتعليمك وعطاياك يجب أن تكون موجهة لجناب الحق مع الإخلاص وعدم المنة على المتعلمين . ولا على الفقراء . فإن الخلق عيادة وأنت جعلت أبا لهم ، هذا فى أمر أصحابك وأتباعك .

(٦) فأما الكفار بك والمؤذون لك فاصبر على أذاهم . فمتى فعلت ذلك كنت شاكرا صابرا .

(ثانيا) تبيان العقاب المنزل على من خالف الدين وعاند الرسول دلالة على أن صبره صلى الله عليه وسلم عليهم عاقبته النصر له فى الدنيا والآخرة وخذلان المعاندين . وذكر من هؤلاء أوصاف الوليد بن المغيرة وأنه أعطى مالا وفيرا وعشرة بنين ورياسة ووجاهة . فعاقبه الله بعد نزول هذه السورة فنقصت أحواله كلها فى الدنيا . « ولعذاب الآخرة أخزى » . وذكر كيف استهزأ برسول الله صلى الله عليه وسلم وأدبر واستكبر وذم القرآن وجعله سحرا ، وأنذر على ذلك بسقر . ثم وصفها بأنها عليها تسعة عشر صفا من الملائكة إلى آخر ماسيأتى من عظيم أمرها . وذكر أن كل نفس مرهونة بعملها ، وأن أهم أعمال أهل النار ترك الأعمال وتعطيل القوى . فلا عقولهم يفكرون بها إذ يعرضون عن التذكرة كالحمير المستنفرة الفارة من الأسد ، ولا جوارحهم يستخدمونها فى الأعمال كالصلاة وغيرها ، ولا أموالهم يشكرون الله عليها فيعطون منها الفقراء . هذا ملخص السورة إجمالا . والحمد لله رب العالمين .

المقصد الأول

المدثر : هو لابس الدثار فإنه تأذى من قريش فتغطى بثوبه مفكرا وكان نائما متدثرا فنزلت . وفى البخارى ومسلم أن النبى صلى الله عليه وسلم قال « جاورت بحراء شهرا ، فلما قضيت جوارى هبطت فنوديت فنظرت عن يمينى فلم أر شيئا ، وقال مثل ذلك فى الشمال والخلف وجهة الرأس ، ثم قال : فأتيت خديجة فقلت دثرونى فدثرونى وصبوا على ماء باردا ، فنزلت . « يا أيها المدثر . قم فأنذر . وربك فكبر . وثيابك فطهر . والرجز فاهجر » .

وفى رواية قال ما يفيد أنه رأى الملك الذى جاءه بحراء قاعدا على عرش فى الهواء ، فأخذته رجفة شديدة الخ .

مقدمة لتفسير هذه السوره وصلتها بما قبلها

اعلم أن (سورة المزمل) ذكرت بعد (سورة الجن) لأن السورتين مشتركتان فى أن كلا منهما تفيد الاتصال مع العالم الروحى ، فسورة الجن لإعلام الناس أن الجن لهم اتصال بعالم الإنس ، وأنهم سمعوا القرآن فآمنوا به ، وسورة المزمل تشير إلى أن عالم الملائكة يتنزل على الأنبياء ، والأنبياء عنه يبلغون ، فيكون ذكر سورة المزمل كذكر السبب وراء المسبب ، لأن عالم الجن يسمع من النبى صلى الله عليه وسلم ، والنبى صلى الله عليه وسلم يتلقى عن عالم الملائكة ، فهو أسمع الجن ما يسمعه من الملائكة ، وأن الانسان الحى قد يكون واسطة بين عالمين روحانيين ، فإن هؤلاء الجن الذين سمعوا منه صلى الله عليه وسلم ما كان ليتسنى لهم أن يسمعوا من جبريل ولا أمثاله من الملائكة ، وأنى لهم ذلك وهم عن السمع معزولون ، وإنما يسمعون بالواسطة ، وهذا على حد قول الشاعر :

بكل تداوينا فلم يشف ما بنا على أن قرب الدار خير من البعد
على أن قرب الدار ليس بنافع إذا كان من تهواه ليس بذى ود

فالمتجاوران المتنافيان المتضادان لا يجتمعان ولا يتفاهمان ، والمتباعدان المتحدان مشربا يقتربان ويتناجيان . وروى « إن لله ملائكة يسوقون الأشكال إلى أشكالها » وهذا القرآن بين ظهرانينا فيه الكلام على الجن وعلى الملائكة ، ولكن لما كان المسلمون غير مستعدين لهذه العلوم فى الأزمان المتأخرة نقل الله العلم إلى بلاد الغرب وبحثوا فيه هم ، وأتوا بعجائب من الغرائب التى نطق بها كتابنا وذكرنا بعضها ، وسيظهر كل ما فى القرآن من سر ، وما سبب ذلك إلا الاستعداد ، فلما كانت الأمم الإسلامية قبل اليوم غير أهل لهذه العلوم صرفها الله عنهم إلى غيرهم وإن كان القرآن بين ظهرانيهم يقرءونه صباحا ومساء ، فيكون القرآن مع المسلمين كالملائكة مع الجن ، فهما فى عالم واحد روحانى ، فلما لم يأتلفا كلم الملائكة من تأهل للعلم من الناس وهو النبى صلى الله عليه وسلم ، والنبى صلى الله عليه وسلم علم الجن وإن لم يعلم به إلا من الوحى كما تقدم ؛ فالمسلمون كالجن ، والقرآن كالملائكة ، فلما لم يفهموه ولم يفكروا فيما اشتمل عليه جعل علومه تظهر على يد أمم أخرى ، وسيعرف أبناؤنا علوم الأمم ويتمون البحث .

هذه هى المناسبة بين سورة المزمل وسورة الجن ، وسورة المزمل فيها بعث الهمم على العبادات وقيام الليل لاستخراج ما كمن فى النفوس من المواهب فإن العبادات والذكر وهجر النوم والتوجه لله تبعث فى النفوس وجدانا لا تبعثه العلوم ، ولم يقم فى الأرض قائم بعمل إلا إذا تحرك إليه وجدانه ، إن أهل الأرض جميعا لا يقومون لتأسيس دولة ، أو إقامة عمل بموقظ يوقظهم ؛ وهذا الموقظ المحرك للهمم لا قدرة له على بعث تلك الهمم لما يريد إلا إذا انبعثت همته هو أولا .

هذه قاعدة مطردة ، أما الخطيب ، أو الواعظ أو المؤلف الذين خلت نفوسهم من الوجدان ومن الحب لما يقولون فان السامعين والقارئين لما يقولون وما يكتبون لا يحسون بوجدان فى نفوسهم . إن هناك صلة بين القائل والسامع والكاتب والقارئ ، فعلى مقدار تأثر الكاتبين والقائلين تكون الآثار فى نفوس السامعين قلة وكثرة هذا أمر لا مرد له ، فكل ذى وجدان مؤثر أثرا ما . وهذا الأثر بقاؤه فى الأمم يكون على مقدار القائمين به من حيث وجدانهم وآثارهم . فى سورة المزمل أمر بقيام الليل . وبقى الوجوب فى حقه ونسخ فى حق الأمة وبقى الندب . فصلاة الليل نافلة . وبذلك فتح الباب للأمة فليتهجد من يشاء كما تهجد النبى صلى الله عليه وسلم . وليعلم كل مطيع ومتهجد أنه بهذه الطاعة تنساق إليه طلائع الفهم ومقدمات العلم ، وإذن يدخل فى باب الحمد . وقد قدمنا فى الفاتحة وغيرها أن الحمد لا يتم إلا بالعلم . فالتهجد إذن مفتاح لانشراح الصدر وقبول العلم . فإذا تهجدت أيها الذكى فسترى فى قلبك آثار الانشراح لاسيما إذا استحضرت معانى القراءة وتوجهت بقلبك إلى الله وخاطبته كأنك تراه . ومتى انفتح لك باب الفهم وأحببت العلم فهاهو ذا باب الحمد ، فإنه لا حمد إلا على معلوم . والنعمة التى لا تعلم كيف تحمد عليها ؟ فمقام الحمد يستلزم معرفة ما فى السموات وما فى الأرض . إذن فادرس ما أمكنك من علم السموات والأرض . وقد أودعنا جواهر علومها فى هذا التفسير : وهذا من مبادئ مقام الحمد .

فإذا أمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم أن يتهجد بالليل فذلك لتعليمنا أن نوجه قلوبنا بذلك إلى الله وبه يفتح مغلق الفهم :

وهذا ما تقتضيه سورة المزمل . وأما سورة المدثر فهي للانذار والتعليم : فبسورة المزمل انفتح باب الفهم للمصلين ، فإذا انفتح ذلك الباب تعلموا مع الوجدان ، وإذن يصلحون لإرشاد غيرهم ، وذلك

هو

هو أول سورة المزمل ، فهذا الترتيب فى السور جعل مقصودا لتعليمنا ، وإلا فلماذا تكون سورة الجن فالمزمل فالمدثر ؟ .

ذكر الأوامر الستة التى أمر بها الرسول صلى الله عليه وسلم وهى جعلت تعليما لنا

اعلم أن من يتصدى لتعليم الناس يجب عليه أولا أن يكون موقنا بما يقول كما شرحناه ، بل يكون من وجدانه ، وأعظم شىء فى الدعوة النبوية أن يكون القائم بها موقنا أن ربه منزه عن كل ما هو من صفات الحوادث لا يبلغ وصفه الواصفون ، وأنه أجل من أن تعرف غاية كمالاته ، فإنه إذا اعتقد ذلك لاجرم سار فى دعوته غير هياب ولا وجل ؛ لأنه يعلم أنه ينشر دعوة لأعظم موجود ، وهو الفيض الوجود على كل موجود فيصبح ويمسى وهو مسرور الفؤاد فرح بما يلقى إليه صابر منشرح الصدر متوكل عليه ؛ لأنه موقن أنه مطلع عليه فلا يخاف من الناس ، وإذا تذكر الموت فرح به ؛ لأنه يعلم أنه قد اصطفى لذلك الأمر من بين الناس ، هذه المعانى يشير لها قوله (يا أيها المدثر . قم فأنذر . وربك فكبر) والداعى الناس إلى ربه الكبير لايتم له ذلك إلا إذا كان متخلقا بأخلاقه ، فإذا كان الله منزها بكبريائه عن سمات الحوادث ، أفلا يكون القائم بأمره منزها عن النقائص الإنسانية ، وكيف تكون المناسبة هناك مالم يكن قد تحلى المرء بالصفات الجميلة وتخلى عن الصفات الناقصة ، فعبر عن ذلك كله بقوله (وثيابك فطهر) .

اعلم أن هذه الجملة يعرف نظيرها عند العرب بطهارة النفس كالصدق والوفاء ، يقولون فلان طاهر الثياب إذا كان صادقا وفيا ، وإذا كان غادرا يقولون هو دنس الثوب ، ولا تزال هذه المعانى تستعمل إلى الآن فى بلادنا المصرية ، يقولون : فلان طاهر الذيل ، يريدون أنه لايلامس امرأة أجنبية .

وهذا القول من باب الكناية ، والكناية لفظ أطلق وأريد به لازم معناه مع جواز إرادة المعنى الأصلى ؛ والكناية أحد الأقسام الثلاثة فى علم البيان وهى : التشبيه ، والمجاز ، والكناية ، وهذه كثيرة فى القرآن فإذا سمعت قول الخنساء :

طويل النجاد رفيع العما د كثير الرماد إذا ماشتا

فاعلم أنها تريد أنه طويل القامة شريف بين قومه كريم ، هذه هى المعانى المقصودة لها ، أما كون علاقة السيف طويلة ، أو أن عماد البيت مرتفع ، أو أن رماد وقوده الذى يطبخ به الطعام كثير ، فليست هذه المعانى التى هى موجودة فعلا أو غير موجودة مقصودة لذاتها فربما وجدت وربما لم توجد ، وإذا وجدت فليست هى المقصود ، وأيضا قولها لما خطبها دريد بن الصمة :

معاذ الله يرضعنى حبركى قصير الشبر من جشم بن بكر

تقول : أنا لا أتزوجه لأنه قصير من قبيلة غير مرضية عندى ، ولكن لم تنطق بهذا القول بل قالت أنا لا أرضع ولدا قصيرا بهذه الصفة ، فكنت بارضاع من هذه صفته عن زواج والده ، فإذا منعت الرضاع فقد منعت الزواج ، ولا جرم أن الكناية أبلغ من الحقيقة ، فإذا لم تكن البلاغة فى كتاب الله فأين تكون ؟ فإذا سمع العربى قوله تعالى : « وثيابك فطهر » خطر بباله طهارة النفس وشرفها وبعدها عن كل ريبة ، فتكون طهارة النفس بالصفات الجميلة ، والأخلاق الفاضلة وبعدها عن الغل والحقد والحسد والمكر والخبث وكراهة الناس ؛ كل هذه هى الصفات المقصودة ، وذكر طهارة الثياب كذكر طول النجاد ، فإن من طال نجاد سيفه فهو طويل لا محالة .

واعلم أن هذه الملازمة : أى بين طهارة الثياب وطهارة القلوب التى جعلت كالملازمة بين طول النجاد وطول القامة قد ظهرت اليوم بأظهر معانيها ، وقد ذكرناها فى (سورة البقرة) عند قوله تعالى : «إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين » فهناك نقلت عن علماء أوروبا المشتغلين بأصول القوانين أن أكثر الناس قذرا فى جسمه وثيابه أكثرهم ذنوبا ، وأطهرهم بدنا وثيابا أبعدهم عن الذنوب ، وبنوا على ذلك أنهم أمروا المسجونين بكثرة الاستحمام ونظافة الثياب فحسنت بذلك الأخلاق ، وخرج المسجونون أقرب إلى الأخلاق الفاضلة منهم إلى الرذائل ؛ هذا هو قوله تعالى: «وثيابك فطهر» فكلما كان الانسان أطهر ثوبا وبدنا كان أقرب إلى طهارة النفس ولذلك كثرت الطهارة فى ديننا وأثنى عليها الأستاذ (بنتام) فى كتابه (أصول الشرائع) وقال : [إن كثرة الطهارة فى دين الإسلام مما يدعو معتنقيه إلى رقى الأخلاق والفضيلة إذا قاموا بأوامره فى النظافة خير قيام] .

فاذا عرف الداعى إلى الله ربه واستعد لذلك بطهارة الأخلاق والظواهر من ثوب وبدن فإنه يستعد إلى ترك ما يخل بأخلاقه الظاهرة والباطنة فينجو من العذاب ، وهو قوله (والرجز فاهجر) فالرجز العذاب أى فاترك أسباب العذاب يوم القيامة ، بل سوء الأخلاق هى العذاب فى الدنيا والآخرة ، اقرأ ما ذكرته فى سورة (البقرة) عن الفيلسوف اليونانى المسمى قابس الذى شرح أخلاق الناس ومواهبهم وجعل أكثر حياة الناس عذابا ، وأصحاب الأخلاق الفاضلة هم المنعمون فى هذه الدنيا ، فاذا يكون لفظ الرجز يشمل عذاب الدنيا والآخرة ، ففى الدنيا يحس الإنسان بمقت الناس وضيق صدره إذا ساءت أخلاقه ، وينقلب ذلك بعد الموت إلى عذاب آخر شديد .

هذا معنى قوله : « والرجز فاهجر » فكأن هجر الرجز من تمام طهارة النفس أومن لوازمها ، ومتى طهرت النفس وسلم الانسان من الآثام ، هنالك تكون نفسه قد استعدت للافاضة على الناس وهم يقبلون على الداعى ، وحينئذ لايبقى أمام الداعى إلا عقبتان : إحداهما الغرور والفخر والعظمة ، فيقول : أنامفيض والمعروف عليكم أيها الناس ، أنا أعظم قدرا ، ويحصل له الغرور العظيم . والعقبة الثانية أنه له أعداء وهؤلاء يؤذونه ويتربصون به الدوائر ، ويتعقبونه ولا يرحمونه ، ويذمونه فى كل مكان ، ويتألبون عليه ليلا ونهارا وذلك هو المثبط لأكبر الدعاة ، فإنهم حينما يرون العقبات أمامهم يكرون راجعين ويقولون : مالنا والقوم لايسمعون قولنا ، فلندخل فى كسر بيتنا ، ولنبتعد عن الناس ، فإنهم لا يفهمون ولا يعرفون قدر النعم ، ولا يشكرون المنعمين ، فلهاتين العقبتين قال الله تعالى (ولا تمنن تستكثر ولربك فاصبر) أى فلا تمن على أصحابك بما علمتهم وبلغتهم من الوحى حال كونك مستكثرا ذلك عليهم ، وقد قرئ تستكثر بالسكون على الإبدال من تمنن ، ولوجه ربك ولأمره فاستعمل الصبر على أذى من خالفك ، وملخصه ألا يمن على تابعيه ولا يجزع من أذى مخالفيه ؛ فهو أولا ذكر العلم ، ثم العمل ثم التبليغ ، وهذه الصفات إن لم تتوفر فى الداعى لا تتم دعوته .

واعلم أيها الذكى أن الذى أضر بأمتنا الإسلامية إنما هو الجهل بمقاصد القرآن ، فإنهم إذا سمعوا هذه الأوصاف ظنوا أن ذلك لايعنيهم ، وفاتهم أنهم أتباع النبى صلى الله عليه وسلم ؛ فليس يبلغ المسلم من سامعيه مايريد إلا إذا كان متحققا بالعلم الذى يلقيه وقد كملت نفسه ، فان نفوس الناس لها إحساس وشعور تدرك به مافى قلب القائل ؛ وتحس بأثره إن كان كاملا ، وتحس بالإعراض إن كان ناقصا .

ثم إنك بعد التحقق من هذا الكتاب ستجد فى نفسك أثرا ما وحبا لنفع الأمة ، فستقف فى طريقك العقبتان اللتان ذكرتا تعليما لك أنت فتقول فى نفسك مالى أنفع الناس وهم لا يقومون بما يجب عليهم نحوى

وقد

وقد علمت أن الشمس والقمر والكواكب لا ينفعها الناس ؛ وأن الله خلق الناس بفضله وأنت قد أعددت نفسك أن تكون خليفة قائما بالأمر ؛ فلتتخلق بأخلاق الله تابعا نبيك صلى الله عليه وسلم ، فتعطيهم العلم وتواسيهم بالمال إن قدرت ، ولا تطلب جزاء ولا شكورا ؛ وتصبر على أذية أعدائك .

وإياك أن يكون الذم والاحتقار والعدوات ما نعات لك عن الجد فى عملك والمضى فيه ، فلتلازم الصبر ، فان لم تصبر دل ذلك على ضعف فى قوتك النفسية فاحذر ، ولتعلم أن ما فى هذا القرآن من الوعد بالنصر لنبينا صلى الله عليه وسلم هو نفسه وعد لك بالنصر فى هذه الحياة ومابعدها اهـ .

* * *

لقد ذكرت لك أن (سورة الجن) أتى بعدها بسورة المزمل ثم المدثر لأن الجن ليس عندهم استعداد لتلقى العلوم عن عالم الملائكة ، وأنهم لا يلحقون لذلك العالم وإن كانوا معهم فى عالم الأرواح وأن المناسبة هى التى توجب العلم ، وأزيد الآن أن الحيوانات الذرية (المكروب) والكهرباء ومنافع البخار كانت حاضرة معنا ، ولكن كان استعدادنا لمعرفتها غير حاضر عندنا ، فالمعلوم حاضر ولكن الاستعداد لعلمه غير موجود فمنعنا عنه ، فليس منعنا عن الكهرباء لبعد المسافة بيننا وبينها ، ولا الحيوانات الذرية الضارة والنافعة فى داخل أجسامنا وخارجها لبعدها عنا بل هى موجودة فعلا فى داخل أجسامنا تعد بآلاف الآلاف وفى طعامنا وفى شرابنا ، ولكن الذى منعنا هو جهلنا وفقد الطرق الموصلة للمعرفة .

أفلا يحق لنا أن نقول بعد هذه المقدمات التى صارت معلومة إن بعد السعادة عن النوع الإنسانى فى حياته الدنيا وشقاءه فيها ليس ذلك لبعد السعادة عنه ولكن لجهله بالطرق الموصلة لها ، لقد صدق سقراط إذ يقول : [إن الناس ماأشقاهم إلا جهلهم فلو كان عندنا من العلم ما يكفينا لكنا فى الحياة الدنيا سعداء] .

أقول : ولكننا نتعلم القليل لنطير به إلى عالم نرتقى فيه هناك بذلك القليل ، ألا يمكننا الآن أن نفهم ماجاء فى (سورة الحديد) . « ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا » وأيضا قال تعالى « وهو الله فى السموات وفى الأرض يعلم سركم وجهركم ويعلم ما تكسبون » فليس بعد الله عنا بالمكان ، إذ ليس بجسم حتى نسافر إليه ، ولا بعض الأمكنة يختص به دون الآخر بل هو موجود لا يختص به مكان ولازمان ، وما منعنا من النظر إلى ذاته إلا أننا فى عالم لا يسمح بذلك ، فبعد المكانة وشدة الحجاب هى التى منعتنا أن نراه لا بعد المكان ، وليس ارتقاؤنا فى الأحقاب التالية سفر فى العوالم ، بل السفر بالهمة وقطع العقبات النفسية ، وكشف الحجب ، ولطف النفوس ، وكما لطفت النفوس اليوم عرفت بعض المعرفة أدق الحيوانات وبعض الأرواح معرفة قليلة ، هكذا ترتقى بعض النفوس على طول الزمان فتصل بخفة نفوسها وإشراق ذواتها إلى النظر لوجه الله ، وهذا فى حياة مجهولة لنا لانتخيلها الآن إلا بما ضربنا من الأمثال ، كان الناس يكذبون بكل حى غير ما عرفناه من الحيوان ، ويكذبون بالملك والجان فأصبحوا يحدثونهما ، فهكذا هناك ملائكة علويون لا يمكن لأهل الأرض مخاطبتهم ، وهكذا الله من فوقهم .

إن نفوسنا وإن كانت محبوسة فى هذه الأجسام نراها لاتطيق الحبس ، فهى تبحث فى السموات والأرض وبينما هى مفكرة فى الأرض إذا هى فى السماء ، إن نفوسنا قبسة من إشراق النور الإلهى ، ولذلك لم تجد لها سرورا فى العالم المادى

ثم قال تعالى (فإذا نقر فى الناقور) أى نفخ فى الصور ، وهو القرن الذى ينفخ فيه الملك ، مأخوذ

من النقر بمعنى التصويت ، وأصله القرع الذى هو سبب الصوت . يقول الله : ولربك يامحمد فاصبر على أذاهم فإن بين يديهم يوما عسيرا فيذوقون عاقبة كفرهم وأذاهم ، وتنال فيه جزاءك الحسن ونعيمك المقيم ، فجواب إذا محذوف كما ذكرنا دل عليه قوله (فذلك يومئذ يوم عسير) وأكده بقوله (على الكافرين غير يسير) وإذا كان كل عسر ينقلب فى آخر الأمر إلى يسر فهؤلاء يومهم عسر لا يسر معه ولا بعده ، كأن الله يقول : فاذا نقر فى الناقور عسر الأمر عليهم ، ويومئذ متعلق بالخبر . ثم أخذ يذكر أوصاف الوليد بن المغيرة ، وذلك أن النبى صلى الله عليه وسلم قام فى المسجد يصلى والوليد بن المغيرة قريب منه يسمع قراءته ، وهو يقرأ (حم . تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم ، غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذى الطول لا إله إلا هو إليه المصير) ، فلما فطن النبى صلى الله عليه وسلم إلى استماعه أعاد القراءة فانطلق الوليد حتى أتى مجلس قومه من بنى مخزوم فقال والله لقد سمعت من محمد آنفا كلاما ماهو من كلام الإنس ، ولا من كلام الجن ، والله إن له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإن أعلاه لمثمر ، وإن أسفله لمغدق ، وإنه يعلو وما يعلى عليه ، ثم انصرف إلى منزله ، فقالت قريش : صبأ والله الوليد ولتصبون قريش كلهم ، فقال أبو جهل : أنا أكفيكموه ، فانطلق حتى جلس إلى جنب الوليد حزينا ، فقال له الوليد : مالى أراك حزينا يا ابن أخى ؟ فقال ، وما يمنعنى أن أحزن وهذه قريش يجمعون لك نفقة يعينونك على كبر سنك ويزعمون أنك زينت كلام محمد ؟ وأنك تدخل على ابن أبى كبشة وابن أبى قحافة لتنال من فضل طعامهم ، فغضب الوليد وقال : ألم تعلم قريش أنى من أكثرهم مالا وولدا ، وهل شبع محمد وأصحابه من الطعام حتى يكون لهم فضل طعام ! ثم أتى مجلس قومه مع أبى جهل فقال لهم : تزعمون أن محمدا مجنون فهل رأيتموه يخنق قط ؟ قالوا اللهم لا ، قال تزعمون أنه كاهن فهل رأيتموه قط تكهن ؟ قالوا اللهم لا . قال تزعمون أنه شاعر فهل رأيتموه ينطق بشعر قط ؟ قالوا اللهم لا ، قال تزعمون أنه كذاب فهل جربتم عليه شيئا من الكذب ، قالوا اللهم لا ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يسمى الأمين قبل النبوة لصدقه ، ثم قال : ما هو إلا ساحر أما رأيتموه يفرق بين الرجل وأهله وولده ومواليه فهو ساحر ، وما يقوله سحر يؤثر ، فهذا هو ما سيأتى من قوله تعالى : « إنه فكر » أى فى أمر محمد والقرآن « وقدر » فى نفسه ماذا يمكنه أن يقول فى محمد وفى القرآن .

هذا وقد كان الوليد يسمى الوحيد ، لأنه وحيد فى قومه ، فماله كثير جدا ، فيه الزرع والضرع والتجارة يقال إنه كان ألف ألف درهم ، وقيل تسعة آلاف مثقال فضة ، وكان له بين مكة والطائف إبل وخيل ونعم وغنم وعبيد وجوار وكان له بستان بالطائف لا تنقطع ثماره شتاء وصيفا ، وكان أبناؤه عشرة يشهدون المحافل والمجامع أسلم منهم ثلاثة وهم خالد وهشام وعمارة ، ثم إن الوليد قد بسط الله له الرزق وطال عمره مع الجاه العريض والرياسة فى قومه ، وكان من أكابر قريش . ويسمى (ريحانة قريش) ، فهو ريحانه وهو وحيد ، فاذا عرفت هذا أمكنك فهم الآيات الآتية .

قال تعالى (ذرنى ومن خلقت وحيدا) أى ذرنى معه فإنى أكفيكه ، وكيف لا أكفيكه وقد كفر بنعمتى ؟ ألم أخلقه وحيدا فى قومه حتى نعتوه بذلك ؟ (وجعلت له مالا ممدودا) مبسوطا كثيرا ، أو ممدودا بالنماء ، (وبنين شهودا) حضورا معه بمكة يتمتع بلقائهم لا يحتاجون إلى سفر لطلب المعاش استغناء بنعمته وخدمه وعبيده يقومون مقامهم فى ذلك (ومهدت له تمهيدا) بسطت له فى العيش وطول العمر بسطا مع الجاه العريض والرياسة فى قومه (ثم يطمع) يرجو (أن أزيد) أى أزيده مالا وولدا وتمهيدا (كلا) لا أفعل ولا أزيد ، فأخذ ماله فى النزول بعد ذلك حتى هلك ثم علل ذلك فقال (إنه كان لآياتنا عنيدا) معاندا فلا يؤمن

يبعث ، ولا يوحد الله تعالى (سأرهقه صعودا) سأغشيه عقبة شاقة المصعد ، وهذا مجاز يراد به شدة الأمر عليه حتى جاء فى الحديث « أنه جبل من النار يصعد فيه سبعين خريفا ثم يهوى » (إنه فكر وقدره) تعليل للوعيد ، يقول الله . إذا أنا لم أزد ماله ونعمته فذلك لأنه معاند لآياتنا ، وإذا جشمته العذاب يوم القيامة فذلك لأنه فكر فيم تخيل طعنا فى القرآن وقدر فى نفسه ما يقول فيه (فقتل كيف قدر) أى لعن كيف قدر ، وهو على طريق التعجيب والإنكار والتوبيخ (ثم قتل كيف قدر) تكرير للمبالغة (ثم نظر) فى أمر القرآن (ثم عبس وبسر) قطب وجهه مما لم يجد فيه طعنا ولم يدر ما يقول (ثم أدبر) عن الحق (واستكبر) عن اتباعه (فقال إن هذا إلا سحر يؤثر) يدرس ويتعلم (إن هذا إلا قول البشر) تأكيد للجملة قبلها (سأصليه سقر) هذه مبدلة من قوله « سأرهقه صعودا » (وما أدراك ما سقر) تفخيم لشأنها حال كونها (لا تبقى ولا تذر.لواحة للبشر) البشر جمع بشرة : وهى ظاهر الجلد ، فهى تسود الجلود وتحرقها (عليها تسعة عشر) صنفا من الملائكة ، أوصفا ، وإنما جعلوا تسعة عشر لأن الحواس الظاهرة خمس ، والباطنة خمس ، وهى الحس المشترك ، والخيال ، والمفكرة ، والواهمة ، والذاكرة فهذه خمس تضم لما قبلها تكون عشرة ، ويضاف إليها أثنان الغضب والشهوة ، فهذه ١٢ ويضاف إليها سبعة طبيعية فى الإنسان وفى الحيوان ، وهى : الجاذبة والهاضمة والماسكة والدافعة والغاذية والنامية والمصورة ، فهذه سبع فى النبات والحيوان ، والاثنا عشر قبلها فى الحيوان والإنسان فهذه التسعة عشر نوعا من الصفات الحيوانية جمعت فى الإنسان ، فكان عذابه على مقدار ما فرط على هذه المنح (وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة)فليسوا من جنس المعذبين حتى يرقوا إليهم ويرحموهم . ولما سمع أبو جهل هذه الآية قال لقريش . أيعجز كل عشر منكم أن يبطشوا برجل منهم فنزلت هذه الآية (وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا) أى وما جعلنا عددهم إلا العدد الذى اقتضى فتنتهم ، وهو التسعة عشر ، فهم قد افتتنوا به واستقلوه واستهزءوا به واستبعدوه وقالوا : كيف يتولى هذا العدد القليل تعذيب الثقلين ؟ (ليستيقن الذين أوتوا الكتاب) أى ليكتسبوا اليقين بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم وصدق القرآن ، إذ يرون هذا العدد فى كتابهم (ويزداد الذين آمنوا إيمانا) بالإيمان به وتصديق أهل الكتاب (ولا يرتاب الذين أوتو الكتاب والمؤمنون) فى ذلك ، وهذا تأكيد للاستيقان وزيادة الإيمان (وليقول الذين فى قلوبهم مرض) شك ونفاق حينما يكونون بالمدينة فيما بعد الهجرة التى لم تكن معلومة لهم عند نزول هذه السورة (والكافرون) الجازمون بالتكذيب (ماذا أراد الله بهذا مثلا) أى أى شىء أراد بهذا العدد المستغرب استغراب المثل ، أو هو نفسه مضروب مثلا لشدة استبعاده عندهم (كذلك يضل الله من يشاء ويهدى من يشاء) أى مثل ذلك المذكور من الإضلال والهدى يضل الكافرين ويهدى المؤمنين (وما يعلم جنود ربك) أى جموع خلقه على ما هم عليه فى الحقيقة إلا هو ، وكيف يقف أحد على حصر الممكنات ومعرفة مستقرها ومستودعها وخواصها ؟ انظر ما ذكر فى أول سورة الملك فى أنواع الحيوان وتكاثره ، فما يعلم هذه كلها (إلا هو وما هى) أى وما هذه السورة المشتملة على سقر وعدة الخزنة (إلا ذكرى للبشر) إلا تذكرة لهم (كلا) ردع لمن أنكرها (والقمر ، والليل إذ أدبر) ولى ذاهبا (والصبح إذا أسفر) أى أضاء وتبين . وجواب القسم قوله (إنها لإحدى الكبر) يعنى إن جهنم البلايا الكبر والأمور العظام (نذيرا للبشر) أى كبرت سقر حال كونها منذرة للبشر . ثم قال (لمن شاء منكم أن يتقدم) إلى الخير (أو يتأخر) عنه ، فقد علمتم سقر وعذابها وملائكتها ، فمن تقدم إلى الخير أطلقناه ، ومن تأخر عن الخير سلكناه فيها (كل نفس بما كسبت رهينة) مرهونة عند الله ، أو مرتهنة فى النار بكسبها ومأخوذة بعملها ، وهذه الكلمة ليست وصفا بل هى مصدر كالشكيمة جعلت

بمعنى اسم المفعول ، ولو كانت وصفا لقيل رهين ، لأن فعيلا بمعنى مفعول يستوي فيه المذكر وغيره (إلا أصحاب اليمين) فإنهم فكوا رقابهم من الرهن بما أحسنوا من أعمالهم وهكذا الأطفال إذ لاتكليف عليهم ومثلهم الملائكة حال كونهم (فى جنات يتساءلون عن المجرمين) أى يسألون غيرهم عن حالهم فيقول المسئولون عن المجرمين للسائلين ما جرى بينهم وبين المجرمين من السؤال والجواب، وهذا صورة ما جرى . قلنا لهم ماسلككم فى سقر) أى أى شىء أدخلكم فيها ؟ (قالوا لم نك من المصلين) الصلاة الواجبة (ولم نك نطعم المسكين) ما يجب إعطاؤه (وكنا نخوض مع الخائضين أى نشرع فى الباطل مع الشارعين فيه (وكنا نكذب بيوم الدين حتى أتانا اليقين) الموت ومقدماته (فما تنفعهم شفاعة الشافعين) لو شفعوا لهم جميعا (فما لهم عن التذكرة معرضين) أى معرضين عن التذكير : أى عن القرآن وما فى معناه (كأنهم حمر مستنفرة) بالكسر أى نافرة ، وبالفتح أى منفرة مذعورة ، فهم مثلها فى إعراضهم ونفورهم عن استماع الذكر (فرت من قسورة) أى أسد (بل يريد كل امرىء منهم أن يؤتى صحفا منشرة) قراطيس تنشر وتقرأ ، إذ كانوا يقولون : لن نؤمن لك حتى تأتينا بكتاب من السماء (كلا بل لايخافون الآخرة ، كلا) ردع لهم (إنه تذكرة) أى إنه عظة عظيمة (فمن شاء ذكره) أى اتعظ به فيعود عليه نفعه (وما يذكرون إلا أن يشاء الله) أى إلا أن يشاء الله لهم الذكر فيتذكروا ويتعظموا (هو أهل التقوى) حقيق بأن يتقى (وأهل المغفرة) حقيق بأن يغفر للمتقين من عباده . انتهى التفسير اللفظي للسورة كلها ، والحمد لله رب العالمين .

لطيفة فى قوله تعالى. وما يعلم جنود ربك إلا هو وما هى إلا ذكرى للبشر كلا والقمر والليل إذا أدبر . والصبح إذ أسفر

إن فى ذكر إدبار الليل وإسفار الصبح ما يشير إلى أن الناس فى الحياة الدنيا كأنهم فى ظلمة ، فإذا جاء يوم القيامة ظهرت الحقائق كما يظهر الصبح إذا أدبر الليل ، إن الحياة فى الدنيا والآخرة وتناسقها ترتقى من حال مظلمة إلى حال ظاهرة واضحة ، فنحن اليوم فى حالك الحياة ، وكلما اقتربنا من الحقائق كان ذلك نورا لنا ، فإذا وصلنا إلى الحقائق وصولا تاما فى عالم غير عالمنا فهناك السعادة ، فالعلم بالحقائق هو نهاية السعادة ، والجهالة نهاية الشقاء ، بل قال (سقراط) : (إن الناس معذبون فى الأرض بجهالتهم ، ولو عرفوا الحقائق كما هى ما شقوا) فكأن ذكر الظلام فالضياء بعد ذكر القيامة وحديثها يشير إلى ذلك ، وهذا فى الموقفين كما هو معلوم ، وقول المصلى : « السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين » يشير إلى حال السلامة التامة ، ولاسلامة إلا بمعرفة الحقائق معرفة تامة ، إن ظواهر الدنيا كلها ظلمات وأحزان ، ولكن بواطن هذا العالم جمال وسعادة فلقد ضرب بين السعداء والأشقياء بسور من الجهل له باب باطنه فيه الرحمة متى عرفت الحقائق ، وظاهره من قبله العذاب باقتحامها .

ثم إن جنود ربك أعظمهم فى عالم السموات ، وهذا من أسباب ذكر الليل وأدباره ، والصبح وإسفاره فلأذكر لك الآن الجنود السماوية ، ثم أتبعها بالجنود الحيوانية ، والجنود النباتية ، لتطلع على صفوف من جنود ، وأنواع من عجائب جيوشه البديعة المنظمة ، وإنما نبدأ بالجنود السماوية تبركا بالآية ولتظهر العظمة فى جمال النجوم فنقول :

عدد النجوم

إن النجوم التى ترى بالعين المجردة محصورة وهى نحو ٣٠٠٠ فقط والمنظار المقرب يرينا نحو ١٠٠٫٠٠٠٫٠٠٠ فأما اللوحة الراسمة (الفوتوغرافية) فإنها إذا طال تعرضها للنور ترينا ملايين الملايين ، فإنها ترسم فى الساعة الواحدة ٣٦٠٠ ضعف ما ترسمه فى الثانية الواحدة ، وبهذه الطريقة كشف الفلكيون ما يعجز العين المجردة والمنظار المقرب .

أبعاد النجوم التى هو من جنود الله وأحجامها

الشعرى اليمانية

هى أثقل من الشمس جرما عشرين مرة ، وأضوأ منها خمسين مرة ، وأبعد منها ألف ألف بعدها عنا وتجرى بسرعة ألف ميل فى الدقيقة .

بنات نعش

واحدة منهن أضوأ من الشمس أربعمائة مرة ، والثانية أضوأ منها ٤٨٠ ، والثالثة أضوأ منها ألف مرة ، وسهيل أضوأ من الشمس ألفين مرة وخمسمائة مرة .

السماك الرامح

هو أضوأ من الشمس ثمانية آلاف مرة ، وهى أسرع النجوم سيرا ، وأشدها تألقا ، وأكبرها حجما ، فسرعته ثلاثمائة ميل فى الثانية الواحدة ، ونوره ثمانية آلاف ضعف نور الشمس ، وحجمه ثمانون ضعفا من حجمها ونوره يصل لنا فى مائتى سنة ، مع العلم بأن نور الشمس يصل إلينا من بعد ٩٢٫٥٠٠٫٠٠٠ ميل فى ثمان دقائق وثمان ثوان .

الثريا

تبعد عنا ألفا وخمسمائة بليون من الأميال ، ولست أطيل فى ذكر هذه الأقدار والأبعاد ، وأذكرك بما كتبته فى (سورة آل عمران) نقلا عن الأكادعية الفرنسية ، وبما كتبته فى (سورة البقرة) فى أوائلها من حيث تعداد النجوم وأضوائها ، فراجعه هناك إن شئت .

جنود الحيوان

ذكر حيوان البحر

إن فى البحار أنواعا عظيمة من الحيوان .

(الأخطبوط) — منه مايعيش فى مياه (نيوفوندلاند) وهذا يبلغ طوله نحو ستين قدما من طرف إلى طرف ، وبعض الحيتان يبلغ طولها سبعين قدما ومن الحيتان وهو المسمى (الكاشالوت) ما يطوف المحيط

عرضا وطولا ، وله أنياب محددة يسطو بها على ضعاف الحيوانات البحرية ، وإذا أصيب أى إصابة فتك فتكا ذريعا ، فقد حدث مرة أن حوتا من هـذا النوع هاجم مركبا أمريكيا ولم يزل به حتى حطمه وأنزله فى دركات المياه .

(حوت يسمى الروركال) — هذا الحوت يطول إلى ١٢٠ قدما .

(حوت يسمى سيبالد) — يبلغ طول هذا النوع من ٨٠ إلى ٩٠ قدما .

أما الحيوانات الصغيرة فى البحر فقد ذكر (سكورسبى) أن الحيوان المسمى (قرص البحر) ربما ملأ أميالا كثيرة من البحر ، والميل الواحد المكعب يشمل من هذا الحيوان ٢٣،٨٨٨،٠٠٠،٠٠٠،٠٠٠،٠٠٠ إن كثيرا من النوتية اجتازوا أميالا وأميالا فى البحر فوجدوا ماءها ملونا بتلك الحيوانات الدقيقة ، فكم يكون عدد الحيوانات فى تلك الأميال الكثيرة ؟ « وما يعلم جنود ربك إلا هو وما هى إلا ذكرى للبشر » .

الحشرات على وجه الأرض

إن الحشرات كثيرة ، وقد عد العلماء من أنواع الخنافس نحو ٨٠،٠٠٠ وأنواع الحشرات المعروفة الآن نحو ٢٠٠،٠٠٠ وهم يتوقعون أن يكشفوا من أنواعها ألف ألف .

ولأكتف من الحيوانات وجنودها بما ذكرناه استدلالا بما ذكر على مالم يذكر ، ولو أننا فتحنا باب الحيوانات الذرية التى فى أجسامنا كالكرات الحمراء والكرات البيضاء التى تحارب كل منها الحيوانات الداخلة عليها كحيوانات الوباء والجدرى الخ .

لو أننا فتحنا هذا الباب لوجدنا مالا يخطر بالبال من أعداد لانستطيع حصرها ، فالإنسان قد ملىء جسمه منها لتحافظ عليه وتقاتل مالا حصر له من أمثالها الهاجمات عليه لأمراضه أو لقتله مما أصبح اليوم معلوما مشهورا فلا نطيل به . اقرأ هذا المقام فى (سورة الفتح) عند تفسير مثل هذه الآية .

النبات وكثرته

ونكتفى من عالم النبات بأدق مافيه ، وذلك هو الطلع ، فانك إذا عددت حبات اللقاح فى زهرة (الفادنيا) وهو عود الصليب وجدتها تحتوى على ٣،٠٠٠،٠٠٠ أو ٤،٠٠٠،٠٠٠ من حبات اللقاح ، وهذا العدد فى زهرة واحدة ، فماذا يكون فى شجرة واحدة ؟ ثم فى بستان واحد ؟ ثم فى الكرة الأرضية كلها ؟ لابد أنك تقول : «وما يعلم جنود ربك إلا هو وما هى إلا ذكرى للبشر» ، إذن لاعجب إذا رأيت فوق بعض الغابات غيما عظيما سائرا فى الجو وما هو بماء ولا بتراب وإنما هو تلك الحبات المتطايرة من الأزهار اجتمعت فى الجو وسارت فى طرق مختلفة باختلاف الأنواع التى طارت منها وسارت إلى الزهرات فى الأقطار البعيدة لتلقحها من غير قصد ، والذى يصيب الزهرات من ذلك السحاب الطلعى قليل جدا ولكنه كاف فى نماء الثمرات فى أنحاء الكرة الأرضية ، فأما باقى ذلك الغيم الكثيف فإنه يتبدد وينتشر بلا فائدة معروفة للإنسان ، وإنما جعل هذا كله فى الطبيعة ليكون ضمانا لحفظ الأنواع النباتية ، ولولا ذلك لانعدمت هذه الأنواع من الأرض ، وليس يمكن أن يجاب السائل عن هذه الأعداد بغير جواب القرآن : « وما يعلم جنود ربك إلا هو وما هى إلا ذكرى للبشر » انتهى تفسير (سورة المدثر) يوم الأربعاء ٢٢ يوليو سنة ١٩٢٥ غرة المحرم الحرام سنة ١٣٤٤ والحمد لله رب العالمين .

ولقد

ولقد كنت كتبت مقالة مطولة تحت عنوان هذه الآية : « وما يعلم جنود ربك إلا هو وما هى إلا ذكرى للبشر » بتاريخ ٢٢ يناير سنة ١٩٢٧ م ولما كان المقام لايسعها أرجأنا درجها للملحق الذى وعدنا بنشره بعد تمام التفسير إن شاء الله وطالت الحياة اهـ .

تفسير سورة القيامة

هى مكية

آياتها ٤٠ — نزلت بعد سورة القارعة

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ * وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ * أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ * بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ * بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ * يَسْئَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ * فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ * وَخَسَفَ الْقَمَرُ * وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ * يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ * كَلَّا لَا وَزَرَ * إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ * يُنَبَّؤُا الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ * بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ * وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ * لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ * إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ * فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ * كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ * وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ * وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ * إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ * وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ * تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ * كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ * وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ * وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ * وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ * إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ * فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّى * وَلٰكِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى * ثُمَّ ذَهَبَ إِلَى أَهْلِهِ يَتَمَطَّى * أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى * ثُمَّ أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى * أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى * أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى * ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى * فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى * أَلَيْسَ ذٰلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى *

هذه السورة كلها فى وصف يوم القيامة ، وقد بدئت بالاستدلال بعجائب خلق الإنسان وتسوية عظامه . وختمت بمثل ذلك ، وبقيتها فى الحساب وأهوال القيامة .

التفسير اللفظى

بسم الله الرحمن الرحيم

(لاأقسم بيوم القيامة ، ولا أقسم بالنفس اللوامة) يقول الله : أقسم بيوم القيامة ، وأقسم بالنفس التى تلوم نفسها أبدا وإن اجتهدت فى الطاعة ، أو جنس النفوس ، فإن كل نفس يوم القيامة سواء أكانت بارة أم فاجرة تلوم نفسها ، إن عملت خيرا قالت كيف لم أزدد ، وإن عملت شرا قالت ياليتنى كنت تركته كما أفاده حديث مروى فى ذلك .

أقسم الله بالقيامة وبتلك النفس على بعثنا : أى لتبعثن ، فقد أقسم بعظمة القيامة ، والنفس الطماحة إلى الرقى ، الجامحة إلى العلو ، التى لاترضى بمرتبة إلاطلبت سواها ، ولا بحالة إلا أحبت مافوقها ، ورامت مافوقها ، وهذا القسم كأنه استدلال على القيامة ، يقول : إن مافى النفوس من حب الرقى وعدم الوقوف عند حد محدود فى هذه الحياة ، وفى كل حياة دليل على أن هناك حالا أخرى ينال فيها الإنسان ماكان يرغبه . إن طبع الإنسان يدل على القيامة ، إن طموح الناس للمعالى وجشعهم وحرصهم وازديادهم فى المال والعلم وعدم الوقوف على حال واحدة دليل على أن هناك حالا أخرى . إن النفوس الانسانية مشغوفة بالاستطلاع ، مجبولة على حب البحث ، مفطورة على حب الغلبة والقهر ، ذلك لتستطيع أن تملك أكثر مما ملكت ، وتحوز أكثر مما حازت ، وتعلم أكثر مما علمت ، إنها لاتكتفى بعلم ولا بمال ، وما رأينا ملكا يحكم أمة إلاطمع أن يأخذ غيرها ، ولا غنيا ورث مالا وزاد عليه إلا طمع فيما سواه ، ولا يملأ عين ابن آدم إلا التراب ، فهل خلقت هذه الشهوات والرغبات فينا عبثا ؟ كلا . ثم كلا . إن ذلك لم يكن إلا لسر سيتضح بعد الموت ويوم القيامة ، إن لم يكن للإنسان مثل تلك الغاية فالحياة باطلة وكل نظام فى الأرض خسران مبين ، لم تجد قوة كامنة فينا وفى الحيوان إلا لغاية ، فياليت شعرى ماغاية هذه الأطماع والحروب والتفانى فى العلوم ، والتملك والقهر ، وبناء السفن ، واختراع الأسلحة ، وما هذا الجشع ، وما هذا الهلع أكل هذا للحياة قصيرة لاتساوى كل هذا العناء ؟ يجيبك القرآن قائلا : أنا أقسم بالنفس التواقة إلى المعالى التى لاتقف عند حد ، ومعنى هذا أن تلك القوة أودعت فى نفوسنا ، لأنها خلقت لتكون فى عالم يطلع على كل شىء ولا يحزن على شىء وهو عالم الأرواح فى أعلى الجنان ، فما دام لم يصل إلى ذلك العالم فإنه يظن أنه خلق لهذه المادة وتملكها لعدم علمه بالحقائق فيتخبط فى الحياة ، إذن هذا القسم ذكر للاستدلال ، فطموح النفوس إلى العلا برهان على أنها ستكون فى عالم آخر تنال فيه بغيتها ، فإذا أقسم الله بمخلوقاته على حكمته وعلو شأنه وعظمته استدلالا على ذلك ، فهكذا هنا يقسم بالنفس اللوامة استدلالا على أنها واصلة يوما ما إلى عالم أكمل من هذا العالم لتنال فيه ماتطلبه . إن فى إلهام النحل جمع العسل ، وفى عدم إلهام الجراد والزنابير الجمع والادخار ، وأن الأول يعيش فى الشتاء والآخرين لايحتاجان فيه دليلا عجيبا لحكمة هذا القسم فتفطن .

إن هذا القسم وأمثاله لم يطرق آذان العرب ، أولئك الذين لايقسمون إلا بأشياء معهودة فيما بينهم ، لايتجاوزونها فيقسمون بالأب وبالعمر وبالكعبة ، ولكنهم لايقسمون بهذه الأقسام العجيبة التى فيها دلائل على مايقصد فى جوابها ، وفيها فتح باب للبراهين والحكمة والعلم .

ثم

ثم إن (لا) التى ذكرت قبل القسمين زائدة للتأكيد واردة فى كلام العرب ، ألا ترى إلى قول أمرىء القيس :

لا وأبيك العامرى لايدعى القوم أنى أفر

وقول غيره :

تذكرت ليلى فاعترتنى صبابة وكاد ضمير القلب لاينقطع

أقسم الله بالقيامة وبالنفس اللوامة التواقة للمعالى أننا سنبعث ، ثم أردفه باستنكار استبعاد ذلك ، إذ روى أن عدى بن أبى ربيعة سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أمر القيامة ، فأخبره به فقال . لو عاينت ذلك اليوم لم أصدقك ، أن يجمع الله هذه العظام فقال (أيحسب الإنسان) أى جنسه ، والمراد به المنكر للبعث المذكور وغيره (أن لن نجمع عظامه) بعد تفرقها ورجوعها رفاتا (بلى) أى نجمعها حال كوننا (قادرين على أن نسوى بنانه) أى نسوى سلامياته على صغرها ودقتها ونؤلف بينها حتى تستوى البنان ، فمن يقدر على جمع العظام الصغار فهو لامحالة على غيرها من الكبار أقدر .

واعلم أن عظام أصابع اليدين ثلاثون ، وعظام أصابع الرجلين ٢٨ فيكون مجموعهما ٥٨ وهذه عظام دقيقة وضعت لمنافع لولاها ماتمت تلك المنافع كالقبض والبسط واستعمال اليدين فى الجذب والدفع وغيرهما مما لايحصى ، فلولا دقة هذه العظام وحسن تركيبها ماانتظمت الأعمال المترتبة على اليدين ، وجميع العظام فى الانسان ٢٤٨ عضوا ، وهاك بيانها :

١٢٦		١٢٢	
٦	عظام الرأس .	٢	الزندان الأعليان .
٤	عظام الزوج .	٢	الزندان الأسفلان
١٤	عظام اللحى الأعلى .	١٦	عظام رسغى الكفين .
١٦	عظام الأسنان العليا .	٨	عظام مشط الكفين .
١	العظم الشبيه بالوتد .	٣٠	عظام أصابع اليدين .
٢	عظام اللحى الأسفل .	٢	عظام الوركين .
١٦	الأسنان السفلى .	٢	عظام الفخذين .
٢٤	فقار الصلب .	٢	عظام الركبتين .
٣	عظام العجز .	٤	قصب الساق :
٣	عظام العصعص .	٢	الكعبان .
٢٤	عظام الأضلاع	٢	العقبان .
٧	عظام القص .	٢	العظام الزورقية :
٢	الكتفان .	٨	عظام رسغى القدمين .
٢	رأسا الكتفين .	١٠	عظام مشطى القدمين .
٢	عضدان .	٢٨	عظام أصابع الرجلين .
	المجموع ٢٤٨	٢	عظم العانة .

وأنت ترى أن أصابع اليدين وحدهما فإنهما ٣٠ فاذا أضيف الرسغان ١٦ ومشطا الكفين ٨ كان

المجموع ٥٤ فيكون لكل يد ٢٧ وحدها من الرسغ إلى أطراف الأصابع ، وهذا العدد هو عين عدد الجمجمة ٦ مضافا إليها عدد الأسنان ٣٢ والفكين ١٦ .

أيها الذكي . ما أحسن العلم والحكمة ، انظر تجد عظام الإنسان مجموعة ، وكيف هندمت على هذا النظام لفوائد نافعة في الحياة ، انظر كيف ركب الرسغان في اليدين من ١٦ عظما ومشطا الكفين من ٨ ثم ركب مشطا كفي الرجلين ورسغاهما من أعظم متعددة لشدة الحاجة إلى العمل والحركة ، أما جمجمة الرأس فمن ستة أعظم لا غير ، إن أصابع اليدين والرجلين تبلغ عظامهما ٥٨ عظما ، وجمجمة الرأس لا تزيد عن ستة ، ذلك لأن الجمجمة لمجرد الوقاية ، أما الأصابع فهي للعمل ، فلذلك صنعت بدقة وإحكام ، وانظر إلى الفقرات كيف تعددت ولم تجعل عظمة واحدة ، ذلك لأنها لو كانت كذلك لعاقت الحركات ، ولا متنعت البركات ، ولم يعش بالسعادة والخير الإنسان ، فجعلت الفقراء متتاليات ليمكنه الحركة والسكون ، ويكون ذلك سهلا عليه أينما كان ، فلولا الفقرات وتفصيلها لم يقدر على الانحناء للأعمال والحركات المختلفة ، بل يكون منتصبا كالخشبة ، أو كالعمود ، ثم عطف على قوله : « أيحسب الإنسان » قوله (بل يريد الإنسان ليفجر أمامه) وهذا إضراب عما قبله ، يقول : إن الإنسان يريد أن يدوم فجوره فيما يستقبل من الزمان ، لا ينزع عن فجوره ، ولا يتخلى عن شروره ، ولذلك ترى الكافر من نوع الإنسان (يسأل أيان يوم القيامة) أي متى يكون يوم القيامة ؟ وهذا استبعاد واستهزاء (فإذا برق البصر) تحير فزعا عند رؤية أهوال القيامة (وخسف القمر) ذهب ضوءه (وجمع الشمس والقمر) جمعهما وصف واحد وهو ذهاب الضوء (يقول الإنسان يومئذ أين المفر) أي المهرب ، وهذا ظاهر في أحوال القيامة ونظيره في الدنيا ما يخص المرء في نفسه فيحار بصره فزعا ، ويذهب ضوء البصر عند الموت ويموت فيجتمع العقل الذي هو شبيه بالقمر مع الأرواح العليا التي كان يستمد منها الشبيهة بالشمس ، فيصير معنى العبارة : فإذا قامت القيامة يقول الإنسان يومئذ أين المفر ، وهذا كناية عن ساعة الموت ، وقد بينت لك فيما تقدم أن هذه الكناية ملىء بها القرآن ، فإذا ذكر يوم القيامة فقد ورى بحال الموت ، والحق أن الإنسان في حال موته تقوم قيامته الخاصة به ، فمتى فزع هو وذهب بصره واجتمع هو بالملأ الأعلى ، فهذا كل ما يخصه من أحوال الآخرة القريبة ، أما يوم القيامة فهو نتائج لما يلقاه في البرزخ ، فيكون ظاهر اللفظ للعموم ، والكناية يفقهها الخواص (كلا) ردع عن طلب المفر (لا وزر) لا ملجأ ولا حرز ولا جبل ، وقد كانوا إذا فزعوا يلجئون إلى الجبال فقيل لهم لا جبل لكم يومئذ تتحصنون فيه (إلى ربك يومئذ المستقر) مستقر الخلق (ينبأ الإنسان يومئذ بما قدم وأخر) بما قدم من عمل عمله وبما أخر منه لم يعمله (بل الإنسان على نفسه بصيرة) أي بل الإنسان على نفسه شاهد ، فتكون الهاء للمبالغة ، فالإنسان حجة بينة على أعمال نفسه ، لأنه يشاهدها (ولو ألقى معاذيره) ولو جاء بكل ما يمكن أن يعتذر به جمع معذار وهو العذر ، فذنوب الإنسان إذن ملازمة له لا تفارقه لأنها أخلاق ملازمة له ، لاصقة به ، تابعة له في حله وترحاله ، ناهيك بما ترى من العادات التي تأخذ بالألباب ، ولا تذر أربابها ككثرة الكلام وشرب الخمر والدخان وما أشبه ذلك ، فهذه الأخلاق تؤدي صاحبها وتقوم حجة بينة على نفسه فيقذف به في المهاوي البعيدة (لا تحرك) يا محمد (به) بالقرآن (لسانك) قبل أن يتم وحيه (لتعجل به) لتأخذه على عجلة مخافة أن ينفلت منك (إن علينا جمعه) في صدرك (وقرآنه) وإثبات قراءته في لسانك ، فالقرآن القراءة (فإذا قرأناه) أي قرأه عليك جبريل ، فجعل قراءة جبريل قراءته (فاتبع قرآنه) أي قراءته عليك (ثم إن علينا بيانه) إذا أشكل عليك شيء من معانيه فنحن نبينه لك ، وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا أشكل عليه شيء سأل جبريل عن معانيه ، لأنه

حريص على العلم فقيل له نحن نبينه لك ، وقوله تعالى (كلا) ردع للرسول صلى الله عليه وسلم عن العجلة وللكفار عن إنكار البعث ، يقول الله : أنتم أيها الكفار تريدون العاجلة وأنت أيها النبي تعجل عند تلقي الوحي (بل تحبون العاجلة) أى أنتم يابنى آدم تعجلون فى كل شىء لأنكم خلقتم من عجل وطبعتم عليه ، ومثال ذلك أنكم تحبون العاجلة الدنيا وشهواتها (وتذرون الآخرة) الدار الآخرة ونعيمها فلاتعملون لها (وجوه يومئذ ناضرة) حسنة مسرورة بالنعيم ، مسفرة مضيئة بيض ، يعلوها نور وبهاء ؛ مشرقة بالنعيم (إلى ربها ناظرة) أى تنظر إلى ربها عيانا بلا حجاب فتكون نضرة ، وهي تنظر إلى الخالق (ووجوه يومئذ باسرة) شديدة العبوس كالحة متغيرة مسودة قد أظلمت ألوانها وعظمت آثار النعمة والسرور منها لما أدركها من اليأس (تظن) يستيقن (أن يفعل بها فاقرة) أى داهية عظيمة تكسر فقار الظهر وتقصمه وأشد أنواع الفاقرة أن يحجب الإنسان عن رؤية الله (كلا) ردع عن إيثار الدنيا (إذا بلغت التراقى) أى إذا بلغت النفس أعالى الصدر ، وهى جمع ترقوة ، وهو العظام التى بين ثغرة النحر والعاتق وهذا كناية عن إشراف النفس على الموت . قال دريد بن الصمة :

ورب عظيمة دافعت عنها وقد بلغت نفوسهم التراقى

وقوله (وقيل من راق) أى وقال من حضره : هل من طبيب يرقيه ويداويه مما نزل به ، ويخلصه من ذلك برقيته ودوائه ؟ (وظن أنه الفراق) أى وظن المحتضر أن الذى نزل به فراق الدنيا ومحابها (والتفت الساق بالساق) أى والتوت ساقه بساقه فلا يقدر على تحريكها وهذا يكنى به عن التفاف شدة فراق الدنيا بشدة خوف الآخرة (إلى ربك يومئذ المساق) أى سوقه إلى الله تعالى وحكمه (فلا صدق) بالرسول والقرآن أولا صدق ماله : أى زكاه (ولاصلى) مافرض عليه الضمير فى صدق وصلى للإنسان ولكن (كذب وتولى) عن الطاعة (ثم ذهب إلى أهله يتمطى) يتبختر افتخارا بذلك ، ومن المط فإنك ترى المتبختر يمد خطاه . إذن أصله يتمطط (أولى لك فأولى) أى ويل لك مرة بعد مرة : أى أولاك الله ما تكرهه . واللام مزيدة ، فيكون الفاعل مضمرا والمفعول الثانى محذوف (ثم أولى لك فأولى) أى يتكرر عليه ذلك مرة بعد أخرى (أيحسب الإنسان أن يترك سدى) أى أيحسب الكافر أن يترك مهملا لا يؤمر ، ولا ينهى ، ولا يبعث ولا يجازى ، وكيف يهمل ؟ (ألم يك نطفة من منى يمنى) أى يراق فى الرحم (ثم كان علقة) أى صار النى قطعة دم جامد (فخلق فسوى) فخلق الله منه بشرا سويا (فجعل منه) من الإنسان (الزوجين الذكر والأنثى) أى الصنفين (أليس ذلك بقادر على أن يحيى الموتى) أى أليس الفعال لهذه الأشياء بقادر على إعادتها . انتهى التفسير اللفظى للسورة كلها ، والحمد لله رب العالمين .

لطيفة ذات شعبتين

الأولى فى قوله تعالى : وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة

الثانية فى قوله تعالى : ألم يك نطفة من منى يمنى ، ثم كان علقة فخلق فسوى فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى

فلنبدأ الكلام على الشعبة الأولى ، وهى النظر إلى وجه الله ، ونبدأ بما ورد فى الصحيح فنقول ومن الله التوفيق ،

جاء فى رواية البخارى ومسلم عن جرير بن عبد الله قال : « كنا عند رسول صلى الله عليه وسلم فنظر إلى القمر ليلة البدر ، وقال : إنكم سترون ربكم عيانا كما ترون هذا القمر لاتضامون فى رؤيته : أى

لا ينضم بعضكم إلى بعض ولا تزدحمون وقت النظر إليه ، فإن استطعتم ألا تغلبوا عن صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا » .

وفى حديث رواه مسلم ، قال : « إذا دخل أهل الجنة الجنة يقول الله تبارك وتعالى : هل تريدون شيئا أزيدكم ؟ فيقولون : ألم تبيض وجوهنا ، ألم تدخلنا الجنة وتنجنا من النار ؟ وقال فيكشف الحجاب فما أعطوا شيئا أحب إليهم من النظر إلى ربهم تبارك وتعالى » .

وروى عن أبى رزين العقيلى . قال « قلت : يارسول الله أ كلنا يرى ربه مخليا به يوم القيامة ، قال نعم ، قلت : وما آية ذلك فى خلقه ؟ قال يا أبا رزين أليس كلكم يرى القمر ليلة البدر مخليا به ؟ قلت بلى ، قال فالله أعظم ، إنما هو (أى القمر) خلق من خلق الله ، فالله أجل وأعظم » .

هذا ما أردت ذكره من الأحاديث فى هذا المقام ، هاأنت اطلعت على كلام النبوة ، وأنه صلى الله عليه وسلم أخبر فى الصحيح أن الناس بعد أن ينالوا جزاءهم المادى فى الجنة ينقلهم إلى مرتبة أعلى ومقام أجلى ، وهى أن يكشف لهم الحجاب فيرونه .

هذا هو الذى ورد فى الصحيح ، ومعنى هذا أن السعادة قسمان : حسية ، وعقلية ، والحسية هى الجنة ونعيمها ، والعقلية النظر إلى وجه الله ، وقد فضل الله النظر إليه عن الجنة وجعلها أفضل منها .

واعلم أن هذا القول ليس يعقله جميع الناس ، وإنما يعقله الخواص ، وها أناذا أبين هذا المقام بعض التبيان فأقول :

اعلم أن نفوس بنى آدم متفاوتة فى هذه الأرض ، فمنهم من لا يحب ربه إلا لأجل اللذات الحسية ، وليس له منها إلا هذا الحظ ، فاذا قابل ربه فليس يحب لقاءه لذاته بل للفوائد المترتبة عليه ، وبيانه أن الخدم والعبيد وأصحاب النفوس الضعيفة لا يحبون المخدومين ولا السادة ولا العظماء إلا لجلب منفعة أو لدفع مضرة ، فأما المحبة المبنية على الإخاء والإخلاص وتناسب الأرواح وتمازجها واتفاقها فلا ، وكيف يحب الذليل العزيز والنفسان مفترقتان ؟ وكيف يكون الحب إلا بالاتحاد فاتحاد الأنفس فى الصفات والأخلاق والعادات هو الموجب للحب ، وعدم الاتحاد هو الموجب للتفرق ، وحب العبد لله لن يكون قط إلا إذا كانت صلة ، وأين الصلة بين الخالق والمخلوق ، فلا سبيل للصلة بين الذاتين ، ولكن هناك أمر واحد هو العلم :

قد يحب الإنسان ربه لأنه آتاه بلذات يشتهيها ، فإذا ذهبت تلك اللذات فأين ذهب الحب ، وإذا مات وقد حرم أهله وماله وتمتع به أعداؤه فأين يكون الحب إذن ؟ لا يبقى إلا أمر واحد هو العلم ، العلم هو مبدأ الحب الحقيقى ، وكلما ازداد العبد علما بهذا العالم ازداد من خالقه قربا ؛ وقرب العبد من الله بالعلم بما فى هذا العالم من الجمال والحكمة ، وهذا أمر لا يدرك إلا بكثرة الممارسة والنظر والفكر ، فهذا الحب يكون باقيا ما بقى العلم ، فالمغرمون بالعلم فى الدنيا هم الفرحون بالنظر إلى وجهه يوم القيامة : أى بانكشاف الحقائق لنفوسهم ومعرفة ربهم معرفة أرقى من معرفة البصر ، إن البصر لا يرى إلا ظواهر الأجسام والعلم يدرك الظواهر والبواطن ، وكل يوم القيامة يعرف من الله على مقدار علمه فى الدنيا ، ويرى العابدون ربهم رؤية أقل من رؤية العلماء بما لا يتناهى .

ألا فليعجب المسلمون كيف كانت رؤية الله الواردة فى الصحيح أجل من الجنة ، وكيف كانت على مقدار العلم فى الدنيا ، ولا معنى للعلم فى هذا المقام إلى العلم بصفات الله ، وذلك بدراسة الآثار : أى بدراسة علوم الطبيعة والفلك ، وكل ماظهر من العلوم فى الأرض :

عجبا عجبا ! هل يعلم المسلمون ذلك ؟ هل يعلم أنهم بالعلم فى الدنيا ينظرون ربهم فى الآخرة ؟ هل يعلم المسلمون أن قراءة العلوم الطبيعية والفلكية من الوجهة الإلهية ترقيهم عند ربهم يوم القيامة كما أن قراءتها

من

من الوجهة الدنيوية ترقيهم فى الدنيا ، إذن المسلمون اليوم نائمون عما يقربهم من ربهم وعما يرقيهم فى دنياهم إذن رقى دولهم فى الدنيا ونبوغهم فى علوم الكائنات هو نفسه يفتح لهم باب النصر والسعادة فى الدنيا ، ونفس هذا الحب هو الباب للرؤية ، فإذن المسلمون اليوم لاهون عن أمرين : عن رؤية ربهم يوم القيامة ، وعن الرقى فى الدنيا ، أليس هذا من العجب ! جهالة فى الدنيا واحتجاب عن الله ، ورقى فى الدنيا ورؤية الله ، أحدهما بالجهل ، والثانى بالعلم ، هل يعلم المسلمون ذلك ؟ .

إياك أيها الذكى أن تشك فى قولى إن الرؤية فى الآخرة راجعة للعلم فقد قررها العلماء ، لا ترى الله بعينيك هاتين ؛ هاتان العينان ترى بهما الحيوان والإنسان والجماد ومرآتك وأولادك ؛ فأما العلم فانه يريك المتقدمين والمتأخرين ، ويريك علوم الهندسة والحساب ، فأنت توقن أن زوايا المثلث تساوى قائمتين بعقلك لا بعينك ، فهناك رؤية أجل من رؤية العين ، فهذا مثل ضربته لك لتعلم أن الله يرى بعين أخرى غير هذه العين ، بل هى أرقى منها . ومقدمة تلك العين العلوم فى الدنيا ، وأنت اليوم تعرف نفسك فإن رأيت أنك مغرم بعجائب هذه الدنيا وحكمها وبهجتها لذاتها . ورأيت فى قلبك غراما بالصانع . وكلما زدت علما بالعالم الذى نحن فيه زاد قلبك حنينا إلى من صنع هذه الصنعة . فاعلم أن هذا مبدأ لأسباب الرؤية . فكلما ازددت علما ازددت حبا وغراما وعشقا . وهكذا يتوالى العلوم يتوالى الحب وتسمو نفسك وترى أنك فى عالم غريب عن ذلك الجمال وتتمنى لو تكون فى خلوة مؤتنسا بهذا الجمال ؛ فاعلم أنك أنت الذى ستلاقى ربك ملاقاة أفضل من ملاقاة العابد الذى أحبه بالوجدان وحده وهو خال من العلم فرؤية القمر فى الحديث ضرب مثل لما ذكرناه ، فإذا تحققت بالعلم على الوجه الذى ذكرته لك رأيت فى نفسك عجبا ! رأيت حبك للناس يزداد ، وترى فى نفسك ميلا لرقيهم ، ثم هم يقبلون منك ، أتدرى لماذا ؟ لأنك أهل للعلم والتعليم لما بينك وبين الله من صلة ، وهى العلم ، فيمدك وتمد الناس ، وإذا أكثرت من الذكر اللفظى والقلبى زاد تلك العلاقة . وهنا نذكر الشعبة الثانية :

الشعبة الثانية

وفيها مقامان : المقام الأول فى قوله تعالى : « كلا إذا بلغت التراقى ، وقيل من راق ، وظن أنه الفراق ، والتفت الساق بالساق ، إلى ربك يومئذ المساق ، فلا صدق ولاصلى ، ولكن كذب وتولى ثم ذهب إلى أهله يتمطى ، أولى لك فأولى ، ثم أولى لك فأولى ، أيحسب الإنسان أن يترك سدى ، ألم يك نطفة من منى يمنى ، ثم كان علقة فخلق فسوى » .

المقام الثانى فى قوله تعالى : « فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى »

(المقام الأول) يصف الله تعالى حال الإنسان عند الاحتضار بصفات :

(١) أن تبلغ الروح التراقى صاعدة من الجسم إلى العالم الروحى .

(٢) ويقول من حول المحتضر : من ذا الذى يرقيه ، ومن المرض يشفيه ؟ وفى ذكر (راق) من البلاغة ما يعجز كل لبيب ويقف دونها كل منطيق ، وذلك أن حول المحتضر جماعتين ، أهله الباكون ، والملائكة الموكلون ، فبينما أهله يقولون نرقيه من الرقية ليشفى من مرضه يقول الملائكة بعضهم لبعض من يرقى روحه إذا خرجت فيصعد بها إلى ملائكة الرحمة أو ملائكة العذاب ، فهى إما للتورية ، وإما للكناية فهذه الكلمة لايحل غيرها محلها ، وهذه بلاغة تعجز أكابر الفصحاء ، فإنه لوحظ فيها عمل الملائكة وأعمال الإنسان ، وهذا كقول الشاعر :

خاط لى عمرو قباء . ليت عينيه سواء

وعمرو كان أعور فلايدرى أيريدأنه يكون أعمى أو يكون صحيح العينين ، فهكذا هنا لايدرى أهو من رقية الشفاء ، أو من الترقية التى تتبع الموت ، والحقيقة أن ملاحظة المعنيين فى هذا المقام من أدق التعبير ، وأعجب الأساليب ، وأبدع الأحكام ، فكأن الله يقول : إن الميت يندبه أهله ، ويبكيه خاله وعمه ، ويطلبون الطبيب لإنقاذه من الموت ، والملائكة إذ ذاك يتشاورون فى أمر هلاكه ، وفوت أملاكه ، ولا يزال الأولون يطبون والآخرون يقبضون حتى تزهق روحه إلى ذى العزة والجلال .

(٣) وظن المريض أن هذا هو الفراق .

(٤) والتفت الساق بالساق .

(٥) فهناك تصعد الروح إلى ربها .

(٦) ويحاسب على النقير والقطمير وحبة البر ، وحبة الشعير ، وهنا قرّع الإنسان على جهله بما يأتى : إنه كان نطفة ، ثم علقة فقدر الله خلقه ، ثم سواه ، وهذا المقام يشمل جملة علوم : التشريح ، وعلم الأجنة ، وعلم النبات ، وعلم الحيوان ، وعلم الطب ، وعلم السياسة والاجتماع ، وعلم الأخلاق ، وعلم التربية ، وعلم المنطق أيضا ، وسيجىء فى المقام الثانى علم إصلاح العالم الإنسانى الآن :

ذكرت لك سابقا أن النظر لوجه الله فى الآخرة لن يكون إلا للعاشقين هنا ، ولا عشق إلا بعلم ، ولا علم فى هذا المقام إلا بهذه العوالم الجميلة المحيطة بنا ، وقلت أيضا : إن العلوم التى بها نرقى أممنا هى أنفسها التى بها نحب ربنا ونراه ، وقلت : إن المسلمين عن هذا القول معرضون .

أقول : كنا نود أن نوضح هذا المقام بنبذة من علم التشريح لم يسبق ذكرها فى هذا التفسير من كتابى (الفلسفة) الذى ألفته للطبقة المتعلمة فى البلاد المصرية وغيرها ، وهى تشمل : وصف القدماء للدماغ والغشاءين الرقيق والغليظ ، وكذلك مافيه من التقاسيم والرئة والقلب ، وكيف يتفرع الدم منه إلى كل جزء من أجزاء الجسم ، وهكذا الطحال والكبد ليوازن الأذكياء بين وصف القدماء ووصف علماء العصر الحاضر الذى تقدم كثيرا فى هذا التفسير مشروحا موضحا بالصور الشمسية لاسيما فى أمثال (سورة فاطر) ولكن اخترت أن أرجئه لفرصة أخرى فى ملحق التفسير إن شاء الله تعالى وطالت الحياة ، والله هو الولى الحميد .

وهذا التشريح فى حد ذاته غير مقصود : وإنما يقصد لجملة علوم :

(١) العلم الأول — علم الطب : إن الطبيب يعتمد كل الاعتماد على علم التشريح الدقيق المستوفى ، فهو يبحث ويعرف كل عضو فى الجسد ومستقره ، فيعرف الرئة والقلب والطحال والكبد والمعدة والأمعاء الدقاق والغلاظ ، ويدرك العلاقة بين الأعضاء ، وبالجملة يكون الطبيب أعلم الناس بأعضاء الجسم وجميع ما يشتمل عليه .

(٢) العلم الثانى — علم الأجنة : المسمى (بيولوجى) ولست أقول إن علم التشريح يكون سبيلا لهذا العلم ، وإنما علم الأجنة بالنسبة لعلم التشريح أشبه بعلم اللغة بالنسبة لعلم الصرف ، فعلم الأجنة يبين سير الجنين فى النمو فى بطن أمه والدرجات التى مر عليها أثناء الحمل فيه ، وأما علم التشريح فقد عرفته .

(٣) العلم الثالث — علم النبات ؛ وليس المقصود أن علم النبات نتيجة لعلم التشريح ، بل هذا الاشتراك فى بعض خواص ، وهاك بيانها :

إن النبات يتغذى وينمو ويلد ويموت ، وإيضاحه أنك ترى الإنسان يزدرد الطعام فتلقاه القوة

الجاذبة فتمسكه فى المعدة الماسكة لئلا ينحدر قبل الهضم فتهضمه الهاضمة فتدفعه قوة أخرى وهى الدافعة ، ثم تتلق الخالص النقى منه قوة أخرى وهى الغاذية ، ثم أخرى وهى النامية ، ثم يلد المثل فتكون القوة المصورة ، فهذه سبع قوى ، الجاذبة ، الماسكة ، الهاضمة ، الدافعة ، الغاذية ، النامية ، المصورة .

فهذه القوى السبع فى الإنسان ، وفى الحيوان ، وفى النبات فبهذا لما درسنا التشريح درسنا معه قوى النبات ، وقوى الحيوان الذى اشترك معه فى تلك القوى السبع .

(٤) العلم الرابع — علم الحيوان : وقد علمت أن القوى السبع المذكورة عرفناها فى الحيوان مع الإنسان ، وهناك قوى أخرى خاصة بالحيوان والإنسان ولا تكون فى النبات ، وهى الحس والحركة ، والحس عبارة عن خمس حواس والحركة إما عن شهوة ، أو غضب ، أو للجلب والدفع ، فإذا درسنا حس الإنسان وحركته فقد درسنا معه الوصفين فى الحيوان .

(٥) العلم الخامس : من العلوم المناسبة للتشريح علم النفس ، ولقد بينت ملخصا منه فى هذا التفسير ، والنفس يفصل فيها القوة الشهوية ، والقوة الغضبية ، والقوة العاقلة ، ويبين خصائص تلك القوى وأحوالها .

(٦) العلم السادس — علم التربية : وهو (البيداجوجيا) ، وهو الفن الذى به يعلم التلميذ بأسهل الطرق ، وهذا الفن له ارتباط بعلم النفس وعلم النفس مرتبط بالتشريح .

(٧) العلم السابع — علم السياسة : وذلك أن العلامة الفارابى ألف كتابا يسمى (آراء أهل المدينة الفاضلة) وهذا الكتاب مبنى كله على علم التشريح ، فإنك تراه شرح الرأس ، وفقار الظهر ، وأعصاب الحس وأعصاب الحركة ، وقال : إن النخاع الشوكى متصل بالدماغ ، والأوامر تصدر من الدماغ محل الفكر إلى النخاع الشوكى ، والنخاع الشوكى موصل إلى الأعصاب المحيطة بالفقرات ، فتلتقط أعصاب الحس الأخبار وتوصلها إلى الأعضاء العاملة ، فتتحرك بأعصاب الحركة بعد انتقال الأوامر من أعصاب الحس ، وجعل الجسم كله مابين خادم ومخدوم كالفم والمعدة والأمعاء والكبد والحالبين والمثانة ، فكل واحد من هؤلاء خادم لما بعده وهكذا إلى آخرها فكما أن المنافع موزعة على الأعضاء ، هكذا أعمال المدينة توزع على الأشخاص ، كل بحسبه ، فلا توضع المعدة محل الرأس فى التفكير ، هكذا نظيرها فى نوع الإنسان ، وعلى ذلك يوضع كل واحد فى مركزه ، والرئيس فى مركزه ، وإن لم يوجد رئيس مستوفى الشروط فليكن جمع فيه هذه الشروط ، وقال : إن الأمة كلها يجب أن تكون على هذا الوضع ، والأمم على سطح الأرض يجب أن يكونوا هكذا كأنهم جسم واحد ، وحينئذ تكون أرضنا كرة فاضلة ، هذا ملخص الكتاب الذى بنى على التشريح .

(٨) العلم الثامن — علم ماوراء الطبيعة : ها أنت ذا عرفت أن علم التشريح أحاط به علوم سبعة من علم الأجنة إلى علم النبات والحيوان والنفس الخ ، وليس فى علم من هذه الثمانية ، وهى التشريح وما اتصل به شىء من معرفة الله ، ولذلك تجد عالم النبات ، أو الحيوان ، أو النفس ، أو الأجنة ، أو عالم الاجتماع ، أو عالم البيداجوجيا ، أو عالم الطب ، كل هؤلاء ، وكذا عالم التشريح يعيشون ويموتون ولا يدرون ربهم ولا اليوم الآخر ، هذه هى الحقيقة واضحة جلية .

إن التشريح ومامعه من العلوم السبعة يتعلمها الناس فى الشرق والغرب ولا تدلهم على خالق ولا بعث ، وأكثر الذين تعلموا هذه العلوم يكفرون بالديانات ، فإذن ما معنى قوله تعالى : « فخلق فسوى فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى » وقوله فى أول السورة : « بلى قادرين على أن نسوى بنانه » ؟ الجواب على ذلك أن هذا علم يدرس بنفسه كالعلوم الأخرى ، وهو علم ماوراء الطبيعة : أى العلم الذى لا يختص بفن ، بل ينظر

للعلوم كلها كأنها شجرة واحدة لها جذع وأغصان متفرعات عنه ويصبح العالم عند عالم هذا الفن كأنه شجرة واحدة مفرعة إلى فروع ، وكأنما هو جسم واحد له أعضاء متضامة ، فهؤلاء هم الذين يدرسون نظام الكون كله ، ويستخدمون جميع العلوم فى علمهم ، فمعنى كونه وراء الطبيعة أنه لايختص بعلم الرياضيات ولا بعلم الطبيعيات ، بل هو علم عام يبحث فى العلوم جميعها وتقسيمها ، ويستدل على العالم الذى لم يره وفى الله وفى النبوات وما أشبه ذلك ، ومنه مبدأ العلوم ، وهذا العلم هو طريق القرآن ، فصاحب هذا الفن ينظر من وجهة خاصة ، فليس ينظر من حيث سير الجنين فى نموه ، ولا من حيث القوى الحيوانية ، أو النباتية ، أو المرض والصحة ، وإنما ينظر من حيث حسن الصنعة والإتقان والإبداع ، فما أصحاب العلوم السابقة إلا كأصحاب الحقول يزرعونها ولا يعقلون مازرعوا من علم النبات ، هكذا هؤلاء يعرفون علومهم ولكن لايعنيهم حسن النظام والإتقان والاستدلال على الخالق ، ثم حبه ، ثم الغرام ، ثم النظر إلى وجهه ، فحينئذ قوله تعالى « بلى قادرين على أن نسوى بنانه » وقوله : « ألم يك نطفة من منى يمنى ، ثم كان علقة فخلق فسوى فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى » لايدل على المقصود فى هذا المقام إلا إذا نظر له من حيث الإتقان وإبداع الصنع ، ثم إنك تعلم أن العلوم السبعة المذكورة ضرورية للأمة ، وإلا كانت ذات نقص مشين ، فهذه العلوم كلها واجبة على الأمة لتحيا ، ولتحفظ ثروتها وقوتها ، وتصح أجسام أهلها ، ولكن ليس معنى هذا أنهم يعرفون الله بها ، بل إنما يعرف الله بالنظر الخاص من وجهة الصنعة والصانع ، فعلمت إذن أن العلوم المذكورة كلها مطلوبة ، لأنها واجبة فرض كفاية ، ومع ذلك لابد من النظر لها من حيث الوجهة الإلهية حتى تدل على الصانع الحكيم وعلى قدرته .

ضرب مثل بالقصر

واعلم أن الناس فى الدنيا أشبه بجماعة يسكنون قصرا بديعا ، فأكثر السكان مشغولون بلذاتهم وأحزانهم وأفراحهم ، وقليل منهم من فكر فى بنائه ، وحسن نظامه ، والإعجاب بالعالم الذى أبدعه ، والنظام الذى أخرجه ، والثروة التى أنتجته ، والغرام بمن بناه وحبه ، ثم الاقتداء به ، والشوق إلى لقائه ، هكذا أهل الأرض يسكنونها ويقرءون علومها ليعيشوا بها ، ومن العلوم التشريح المذكور فى هذه الآية ، ومااتصل به من علم الأجنة والنبات والحيوان والطب وعلم النفس وعلم التربية وعلم السياسة العامة ثم علم الأخلاق لأن له اتصالا تاما بعلم النفس ثم علم المنطق ، يقرأ الناس هذه العلوم ليعيشوا بها ، ولكن هناك علم ماوراء الطبيعة وهو الباحث عن النظام العام كما شرحناه فليس يتقنه إلا قليل ، وهؤلاء عليهم قوام النوع الإنسانى واجتماع كلمته ، والأنبياء أوحى إليهم مايؤيد هذا العلم ويتبعهم الحكماء .

فهل عرفت ماقلته لك : إن معرفة الله وارتقاء المدنية يرجعان لهذه العوالم المشاهدة ، فهى من حيث إنها متقنة توصلنا لصانعها ، ومن حيث إنها تنفعنا توصلنا لحياتنا الدنيا ، فهى للعقول مرقية ، ولله موصلة وللحياة متممة . انتهى الكلام على المقام الأول ، والحمد لله رب العالمين .

المقام الثانى فى قوله تعالى : فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى

لعلك فى المقام الأول هالك ماترى من علوم متعددة قد اقتضاها قوله تعالى : « فخلق فسوى » وكيف كان علم البحث فى النظام غير العلوم العشرة الأخرى ، وأنه لايلزم من علم الطب أن يعرف الإنسان الخالق مالم يدرس الدراسة المطلوبة ، فلئن عجبت من كثرة العلوم فلتعجبن ألف مرة كيف يكون قوله تعالى :

فجعل

«فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى» قد تضمن علما هو معجزة آخر الزمان ، وهو حكمة القرآن ، فانظر وتأمل فى الذكور والإناث على سطح الكرة الأرضية ، لقد ثبت يقينا أنك إذا حسبت الصنفين فى مواليد الأمم شرقا وغربا أمة أمة ، وقرية قرية ، وبلدة بلدة ، ومجموع الأمم وجدت الصنفين متكافئين عدا ، فعدد الذكور كعدد الإناث تقريبا ، وهذا التقريب للعوارض التى تحل بالأمم أحيانا ، ولما تحققت هذه النظرية فعلا ألفت كتابا مبنيا عليها وعلى حسن النظام فى العالم سميته (أين الإنسان) فأين الإنسان سر هذه الآية وأمثالها كقوله تعالى : «ومن كل شىء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون» .

هذا الكتاب لما ألفته أرسلته إلى بعض جرائد أوروبا ومجلاتها ، وساعدنى على ذلك سيدة من علماء بلاد الروسيا ، فقد عرضته فى مجتمع علمى ببلاد اليونان ، وممن أخذه الأستاذ (سنتلانه الطليانى) ، ولخص الكتاب تلخيصا ، وقرظه فى مجلته ، وترجمها المرحوم مصطفى بك رياض من الليانية إلى العربية ، والكتاب ألفته قبل الحرب الكبرى بأربع سنين ، وقد كنت أقول فى نفسى : (إن أوروبا تريد ظلم بلاد الإسلام فلأؤلفن كتابا يكون حجة عليها فى الأجيال المقبلة ، وليكون تذكرة للشبان المسلمين بعدنا . وملخصه يرجع إلى أن نظام هذه الدنيا والأمم والحكومات يجب أن يكون تابعا للنظام الإلهى ، فإنا نجده جعل الذكور والإناث متساويين عدا مما يدل أن هناك عناية بكل مخلوق ، وهكذا نجد العقول متفاوتة ، والأرض مختلفة البقاع والخواص ، ولا بد أن يكون هناك تناسب بين العقول والإدراكات والخواص الإنسانية وبين هذه الأرض وما عليها ، فليغير نظام الأرض والدول ، ولتكن أمم أرقى من هذه . ولما كان شرح الكتاب هنا يطول اختصرت القول ، وقد نقلت لك ما كتبه الأستاذ سنتلانه المذكور المترجم إلى العربية فيما تقدم فى هذا التفسير عند آية : «يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا» فى سورة الحجرات ، فقد أثبت هناك أن هذه الآية تحض المسلمين على أن يكون لهم وجهة تتجه إلى جمع العالم كله فى هيئة تعارف عام ، فاقرأه هناك :

(١) لتطلع على آراء الأوروبيين وفلاسفتهم فى النهضة التى نريدها للمسلمين .

(٢) ولتعلم أن الإسلام يشير إلى مدنية أرقى من مدنية المسلمين اليوم وقبل اليوم ومدنية أوروبا الآن .

(٣) وليكون ذلك داعيا أمم الإسلام أن يأخذوا بمقاليد العلم والحكمة ويتخذوا لهم أسلوبا لترقية النوع الإنسانى .

(٤) ولتعلم أن كتاب (أين الإنسان) من أجل معجزات القرآن فى هذا الزمان .

(٥) وليعلم المسلمون أن ديننا إلى الآن لم تظهر كوامنه ، وأن عجائبه لاتظهر إلا بحكماء وعلماء ومفكرين .

(٦) وليكون ملخص الكتاب الذى ذكرته مشوقا لك ومشجعا على سلوك سبل العلم والتفكير اهـ .

تذكرة فى قوله تعالى : بلى قادرين على أن نسوى بنانه

كتب يوم الثلاثاء ١٣ شوال سنة ١٣٥١ هجرية

اعلم أن مسألة تسوية البنان من أبدع ماجاء به الذكر الحكيم ، ومن أعجب المعجزات القرآنية ، لقد قدمت فى المجلد التاسع عشر من هذا الكتاب فى تفسير (سورة فصلت) تفصيل الكلام على آية : «حتى إذا ماجاءوها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون . وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا قالوا أنطقنا الله الذى أنطق كل شىء وهو خلقكم أول مرة وإليه ترجعون . وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم

سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم ولكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيرا مما تعملون » وهناك تقرأ تاريخ بصمات الأصابع ، وأنه تاريخ حديث النشأة ابتدأ ابتداء حقيقيا فى أيام حياتنا نحن سكان الأرض الآن : أى فى أواخر القرن التاسع عشر المسيحى ، ودخل الآن فى دور التنفيذ الفعلى فى الشرق والغرب ، وذلك مبنى على أن كل امرىء فى هذه الأرض لا تشابه خطوط أصابعه خطوط أصابع غيره ، وبذلك قامت هذه حجة على السارقين والقاتلين فى أوروبا والشرق الأقصى والشرق الأدنى ، ومنها بلادنا المصرية ، فالقضاة فى المحاكم الأهلية يعولون على بصمات الأصابع ، وهناك ترى رسوم أنواع الأكف بالتصوير الشمسى ، وأن خطوط الأصابع مهما تنوعت تنحصر فى أربعة أقسام ، وكل قسم تكون له أشكال لا نهاية لها .

الله أكبر : إذن ذكر البنان فى القرآن لحكمة لم يظهر أثرها فى الحياة الدنيا ظهورا واضحا إلا فى زماننا وترى فى (سورة يس) أيضا هيئة الشرطة فى اليابان ، وكيف عثروا على الشاب الذى قتل معشوقته بطريق بصمات أصابعه .

إن رحمة الله تجلت فى القرآن وفى الآفاق معجزات ومعجزات ، إذن لا عجب فيما أخبرنى به صديق محمود بك سالم الذى عاش أكثر حياته بأوروبا لاسيما فرنسا ، فقد قال فى مجمع عظيم مصرى وهو يخطب : إن عالما ألمانيا منذ بضع عشرات السنين اعتنق الإسلام فقيل له لماذا ؟ قال لآية : « بلى قادرين على أن نسوى بنانه » فإن الكشف عن أمر بصمات الأنامل لم تعرفه أوروبا فضلا عن العرب إلا فى زماننا هذا ، إذن هو كلام الله لا كلام البشر » . وبهذا تم الكلام على (سورة القيامة) والحمد لله رب العالمين .

تفسير سورة الانسان

هى مدنية

آياتها ٣١ — نزلت بعد سورة الرحمن

بسم الله الرحمن الرحيم

هَلْ أَتَىٰ عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا * إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا * إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا * إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلَ وَأَغْلَالًا وَسَعِيرًا * إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا * عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا * يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا * وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا * إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا * إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا * فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا * وَجَزَاهُمْ بِمَا

صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا * مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا *
وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا * وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِآنِيَةٍ مِنْ فِضَّةٍ
وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرًا * قَوَارِيرَ مِنْ فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا * وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا
كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلًا * عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلًا * وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ إِذَا
رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَنْثُورًا * وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا * عَالِيَهُمْ
ثِيَابُ سُنْدُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا *
إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا * إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ
تَنْزِيلًا * فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا * وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ
بُكْرَةً وَأَصِيلًا * وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا * إِنَّ هَٰؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ
وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا * نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا
أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلًا * إِنَّ هَٰذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا * وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا
أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا * يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ
لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا *

تشتمل هذه السورة على ثلاثة مقاصد (الأول) كيف خلق الله الإنسان ؟ تتمما لما ذكر فى آخر سورة القيامة ، وذلك من أول السورة إلى قوله : « سميعا بصيرا » (الثانى) فى جزاء الشاكرين والكافرين ، ووصف الجنة والنار ، وذلك من قوله : « إنا هديناه السبيل » إلى قوله . « وكان سعيكم مشكورا » . (الثالث) أمر النبى صلى الله عليه وسلم بالصبر ، وذكر الله ، والتهجد بالليل ، وذلك من قوله تعالى . « إنا نحن نزلنا عليك القرآن تنزيلا » إلى آخر السورة . ولنشرع فى تفسير السورة فنقول .

المقصد الأول : كيف خلق الله الإنسان

التفسير اللفظى

بسم الله الرحمن الرحيم

(هل أتى على الإنسان) أى قد مضى عليه (حين من الدهر) طائفة محدودة من الزمان الممتد الذى لاحد له حال كونه (لم يكن شيئا مذكورا) أى لايذكر ولا يعرف ، ولايدرى مااسمه ، وما المراد منه ،

وإنما كان يسمى بأسماء مختلفة ، فأما آدم أبو البشر فإنه بقى أربعين سنة طينا ، وأربعين سنة حمأ مسنونا وأربعين سنة صلصالا كالفخار ، فتم خلقه فى مائة وعشرين سنة كما يقال فى الآثار ، وهذه السنين ربما كانت رمزا إلى أزمان طويلة مجهولة لنا ، وأما بنو آدم فإنهم يسمون قبل خلقهم بهيئة الإنسانية نطفا فى الأصلاب ، ثم علقا ، ثم مضغا فى الأرحام ، ففى تلك الأيام لم يذكروا بشىء ، ثم أتبعه بذكر تاريخ العناصر الداخلة فى الإنسان قبل تكونه فى الأصلاب والأرحام فقال (إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج) أى أخلاط حال كوننا (نبتليه) أى مريدين اختباره (فجعلناه سميعا بصيرا) ليتمكن من مشاهدة الدلائل ، واستماع الآيات ، والتعقل والتفكر ، ذلك أننا خلقناه من النطفة ، وهى تكون فى الرجل وتكون فى المرأة ، فهاتان النطفتان باتحادهما يتكون الجنين ، ومن أين هاتان النطفتان ؟ هاتان النطفتان مخلوقتان من عناصر مختلفة وتلك العناصر آتية من النبات والحيوان الداخلين فى طعام الآباء والأمهات ، ومن الماء الذى يشربونه ، والأملاح التى يتعاطونها ، وجميع المواد التى دخلت فى أصول التغذية من الطعام والشراب عشرة ، وهى .

الأوكسوجين ، والأودروجين ، والكربون ، والأوزوت ، والكبريت ، والفوسفور ، والبوتاسيوم والمغنسيوم ، والكلسيوم ، والحديد .

فهذه هى العشرة التى تدخل فى كل نبات ، ومن باب أولى فى كل حيوان لأنها طعامه ، وفى كل إنسان فالنطفة إذن مكونة من هذه الأمشاج العشرة ، فهى أخلاط كونت ومزجت وصارت دما فنطفة فعلقة الخ فجعل لها السمع والبصر والعقل ، وهذه من عالم أشرف من عالم المادة الميتة التى هى فى أسفل درجات النقص والكمال إنما نزل إليها من عالم أرقى منها ، وهو العالم الإلهى الروحى ، فإما أن ترجع إلى حب المادة والاستكانة لهذه المشاهدات ، وإما أن تجد وتتفكر فترجع إلى عالم الكمال والجمال بالعلم والعمل ، وهذا هو قوله تعالى « نبتليه فجعلناه سميعا بصيرا » : أى نعامله معاملة المختبرين ، أنميل لأصله الأرضى من الأمشاج ليكون حيوانيا نباتيا معدنيا شهوانيا ، أم يكون إلهيا معتبرا بالسمع والبصر والعقل التى من طباع أرقى من طباع المادة التى تكون فيها ، فإذن الإنسان مكون من عالمين . عالم فاعل ، وعالم منفعل ، فالعالم الفاعل عالم الروح وهى إلهى ، والعالم المنفعل عالم المادة ، وهى الأمشاج ، فإذا حكم النفس وقهرها بحيث يتجاوز عن أخلاق المادة وعن الشهوات فقد صفت نفسه ، وسمت إلى عالم أعلى ، وإن صفت ومالت إلى المادة فإنها ترجع إلى أخلاقها وتدخل فى جهنمها وعذابها فى الدنيا بالحيرة والشكوك وتشابه أخلاط المادة عليها وذهولها من تتبعها « ولعذاب الآخرة أشد وأبقى » ولذلك أعقبه بالمقصد الثانى .

المقصد الثانى : فى جزاء الشاكرين والكافرين ، ووصف الجنة والنار

قال تعالى (إنا هديناه السبيل) فأعطيناه السمع والبصر والفؤاد ، وأنرنا له الحجة ونصبنا له الدلائل فى الأنفس والآفاق ، ليبتعد عن أصله الأرضى إلى سببه السماوى ، فهناك حواس وعقل له فى نفسه ، ويقابلها مخلوقات أرضية وسماوية تكون مسرحا لفكره ، ومغنما لعقله ، فنحن إذن هديناه السبيل حال كونه (إما شاكرا وإما كفورا) فبعض الناس شاكر بالاهتداء ، وبعضهم كفور بسبب الإعراض عنه . ثم شرع يبين حال الفريقين فقال (إنا أعتدنا للكافرين سلاسل) ليقادوا بها (وأغلالا) بها يقيدون (وسعيرا) بها يحرقون (إن الأبرار) جمع بر كأرباب جمع رب (يشربون من كأس) الكأس الزجاجة فيها الخمر ، أو يراد بها نفس الخمر مجازا (كان مزاجها كافورا) أى كان ما تمزج به كافورا لبرودته وعذوبته وطيب عرفه

ولا

ولا جرم أن ما فى الدنيا ليس فيه مما فى الجنة إلا الإسم ، فإذا قال المفسرون إنها اسم لعين فى الجنة ماؤها فى بياض الكافور ورائحته وبرده ، فقد قالوا ما يؤخذ من اللفظ ، وإلا ففى الجنة مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، وإنما أخذوه من قوله تعالى (عينا) لأنها بدل من كافورا ومعلوم أن الكافور لا لذة فيه وشرابه مضر ، فإذن يرجع المعنى إلى الأوصاف المذكورة من البرودة والرائحة الخ (يشرب بها) أى يشرب منها (عباد الله) أى أولياؤه (يفجرونها تفجيرا) يقودونها إلى منازلهم وقصورهم حيث شاءوا سهلا لا يمتنع عليهم ، فهؤلاء يشربون منها على طريق مزجها بالخمر ، ولما كان هذا النعيم له أسباب فى الدنيا أعقبه بقوله (يوفون بالنذر) بما أوجبوا على أنفسهم ، ولا جرم أن من وفى بما أوجبه على نفسه فهو على الوفاء بما أوجبه الله عليه أوفى (ويخافون يوما كان شره مستطيرا) أى شدائده منتشرة ، يقال استطار الفجر انتشر وظهر (ويطعمون الطعام على حبه) أى مع الاشتهاء والحاجة إليه ، أو على حب الله (مسكينا) فقيرا عاجزا (ويتيما) صغيرا لا أب له (وأسيرا) مأسورا من أسارى الكفار ، فقد كان صلى الله عليه وسلم يؤتى له بالأسير فيدفعه إلى بعض المسلمين فيقول أحسن إليه ، فهؤلاء يطعمون الطعام حال كونهم يقولون فى أنفسهم (إنما نطعمكم لوجه الله) فلا نمن عليكم ، أو نتوقع المكافأة فإنها تنقص الأجر ، وقد كانت عائشة رضى الله عنها تبعث الصدقة إلى أهل بيت من البيوت ثم تسأل المبعوث فإن ذكر دعاء دعت لهم بمثله ليبقى ثواب الصدقة لها خالصة عند الله ، فنحن نطعمكم حال كوننا (لا نريد منكم جزاء ولا شكورا) أى شكرا (إنا نخاف من ربنا) فلذلك أحسنا إليكم ولم نطالب المكافأة منكم (يوما) عذاب يوم (عبوسا) تعبس فيه الوجوه (قمطريرا) شديد العبوس ، يقال اقمطرت الناقة إذا رفعت ذنبها وجمعت قطريها (فوقاهم الله شر ذلك اليوم) لأنهم خافوا وتحفظوا (ولقاهم نضرة وسرورا) بدل عبوس الفجار وحزنهم (وجزاهم بما صبروا) على أداء الواجبات ، واجتناب المحرمات ، والإيثار على أنفسهم بالأموال (جنة) بستانا يأكلون منه (وحريرا) يلبسونه حال كونهم (متكئين فيها على الأرائك) جمع أريكة ، وهو السرير فى الحجلة ، والحجلة هى الناموسية المعروفة ، ولا يسمى السرير أريكة إلا داخلها (لا يرون فيها شمسا ولا زمهريرا) أى لا يؤذيهم حر الشمس ولا برد الزمهرير كما كان يؤذيهم فى الدنيا والزمهرير أشد البرد . فهواء الجنة معتدل ، فلا هو حار محم ، ولا بارد يؤذى ، ويقال فى لغة طيء . الزمهرير القمر ، قال راجزهم :

وليلة ظلامها قد اعتكر   قطعتها والزمهرير ما زهر

فيكون المعنى على هذا أن جو الجنة مضىء بذاته لا يحتاج فيه إلى شمس ولا إلى قمر ، وإذا كان الأمر كذلك دل هذا على أن الأحوال هناك مخالفة كل المخالفة لعالم أرضنا ، فلا البستان ، ولا الحرير ولا السرير ولا الأريكة كالذى نشاهده فى الدنيا بل هى مخالفة كل المخالفة كما قاله ابن عباس . قال تعالى (ودانية عليهم ظلالها) أى قريبة منهم ظلال أشجارها : أى وجنة أخرى دانية عليهم ظلالها ويصح أن تكون حالا أخرى أى حال كونهم متكئين وغير رائين ودانية (وذللت قطوفها تذليلا) أى سخرت للقائم والقاعد والمتكئ . أى تدنو ظلالها عليهم فى حال تذليل قطوفها عليهم ويصح أن تقول ودانية عليهم ظلالها ومذللة الخ والقطوف الثمار جمع قطف (ويطاف عليهم بآنية من فضة) أى يدير عليهم خدمهم كؤوس الشراب والآنية جمع إناء وهو كأس الشراب (وأكواب) أى من فضة جمع كوب وهو إبريق لا عروة له (كانت قواريرا . قوارير من

فضة) أى تكون جامعة بين صفاء الزجاجة وشفيفها وبياض الفضة ولينها يعنى أن آنية أهل الجنة من فضة بيضاء فى صفاء الزجاج فيرى مافى باطنها من ظاهرها وقوارير كل قوم تشا كل أرضهم وأرض الجنة أشبه بالفضة ولاجرم أن قوارير الدنيا من الرمل وبعض العناصر وقوارير الجنة من الفضة ولكنها تكون أصفى منها ، وقرىء قوارير من فضة بالرفع أى هى قوارير وهو على النصب بدل (قدروها تقديرا) أى إن السقاة والخدم الذين يطوفون عليهم قدروها لهم على قدر كفايتهم لا تزيد ولاتنقص فهى على قدر رى شاربها فهى ألذ لهم وأخف عليهم لاتغيض ولاتفيض (ويسقون) أى الأبرار (فيها) فى الجنة (كأسا) خمرا (كان مزاجها زنجبيلا عينا) بدل من زنجبيلا (فيها) فى الجنة (تسمى) تلك العين (سلسبيلا) ففى تلك العين طعم الزنجبيل ولا جرم أن العرب تستلذه وتستطيبه ، وسميت زنجبيلا لذلك وسلسبيلا لسلاسة انحدارها فى الحلق وسهولة مساغها وعذوبتها وطيبها وإنما جعل العرب الزنجبيل فى شرابهم لأنه يحصل فيه ضرب من اللذع . قال الأعشى :

كأن القرنفل والزنجبيل باتا بفيها وأريا مشورا

الأرى : العسل ، والمشور : المستخرج من بيوت النحل . وقال المسيب بن علس

فكأن طعم الزنجبيل به إذ ذقته وسلافة الخمر

فلذلك وصف الله به شراب أهل الجنة وشراب أهل الجنة على برد الكافور وطعم الزنجبيل وريح المسك ، ولا جرم أن هذا كله ماهو إلا أسماء لما فى الدنيا وهناك مالا عين رأت ولاأذن سمعت ، فالمعانى غير مانعهده ، والألفاظ لمجرد تخيل شىء نراه كما حققه ابن عباس (ويطوف عليهم ولدان مخلدون) دائمون (إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤا منثورا) من صفاء ألوانهم ، وانبثاثهم فى مجالسهم ، وانعكاس شعاع بعضهم إلى بعض ، واللؤلؤ المنثور أزين فى النظر من المنظوم (وإذا رأيت ثم) أى فى الجنة : أى إذا رأيت ببصرك ونظرت به (رأيت نعيما) لايوصف عظمه (وملكا كبيرا) فأدناهم منزلة من ينظر فى ملكه مسيرة ألف عام يرى أقصاه كما يرى أدناه ، هذا ملك غير العارفين ، أما ملك العارفين فليس يحد بمئات الألوف بسير الضوء لابسير الناس ، فإن العلوم والمعارف إذا انتقشت فى نفس العارف واطلع على تلك العوالم التى ذكرناها فى هذا التفسير فى سور مختلفة ورأى أن نظامها متناسق أصبح ينظر إليها نظر الفرح بما ملك ، وتصبح هذه كلها جنة له وسرورا لايفارقه ، فالعلم جنة العارفين (عاليهم ثياب سندس) أى يطوف عليهم ولدان حال كون المطوف عليهم عاليهم ثياب سندس ، وهو رقيق الديباج (خضر) جمع أخضر (وإستبرق) غليظ (وحلوا أساور من فضة) أى وقد حلوا أساور من فضة . قال ابن المسيب : لاأحد من أهل الجنة إلا وفى يده ثلاث أسورة : واحدة من فضة ، وأخرى من ذهب ، وأخرى من لؤلؤ ، وهذا يجمع بين ماهنا وما فى سور أخرى (وسقاهم ربهم شرابا طهورا) وهذا الشراب غير ماتقدم وأرقى منه ، فشراب الله غير شراب السقاة فى الجنة ، فشراب السقاة بآنية الفضة والأكواب والكأس التى مزاجها زنجبيل ، وهذه يطاف عليهم بها ، أما الشراب الطهور فالذى يسقيه لهم ربهم ، ووصف بالطهور لحكمة سأذكرها فى أواخر تفسير هذه السورة إن شاء الله تعالى ثم يقال لأهل الجنة (إن هذا كان لكم جزاء وكان سعيكم مشكورا) مجازى عليه غير مضيع ، وشكر الله لعباده أن يرضى منهم بالقليل ، ويعطيهم الجزيل من الخيرات . انتهى المقصد الثانى .

المقصد الثالث : أمر النبي صلى الله عليه وسلم بالصبر ، وذكر الله ، والتهجد بالليل

قال تعالى (إنا نحن نزلنا عليك) يا محمد (القرآن تنزيلا) متفرقا آية بعد آية ، ولم ننزله جملة واحدة لحكمة بالغة تقتضى تخصيص كل شيء بوقت معين ، فليثبت قلبك ولينشرح صدرك (فاصبر لحكم ربك) بتأخير نصرك على كفار مكة وغيره (ولا تطع منهم آثما أو كفورا) أى لا تطع كل واحد من مرتكب الإثم ومن متجاوز الحد فى الكفر ، فأو بمعنى الواو ، فاذا قال لك الآثم وهو عتبة : اترك الصلاة وأنا أزوجك ابنتى وأسوقها إليك بغير مهر ، وإذا قال الكفور وهو الوليد بن المغيرة : أنا أعطيك من المال حتى ترضى إذا رجعت عن هذا الأمر فلا تطع واحدا منهما ولا غيرهما ، فقد أعددنا لك نصرا فى الدنيا وجنة فى الآخرة قد عرفت وصفها ، فلتستعد للنعيم المقيم بالصبر أولا ، وداوم على ذكر ربك لاسيما وقت صلاة الفجر ووقت الظهر والعصر ، وهذا قوله تعالى (واذكر اسم ربك بكرة وأصيلا) فهو إما بمعنى الدوام ، وإما بمعنى الوقتين المذكورين (ومن الليل فاسجد له) أى وبعض الليل فصل له تعالى كصلاة المغرب والعشاء (وسبحه ليلا طويلا) أى وتهجد له طائفة من الليل طويلة ، فأما هؤلاء فإنهم غافلون عن هذه المعالى (إن هؤلاء يحبون العاجلة ويذرون وراءهم) أمامهم (يوما ثقيلا) شديدا ، فالثقيل يكون باهظا للحامل ، فلذلك أمرناك بصلاة المغرب والعشاء وصلاة التهجد الطويلة لتكون فى مأمن من هذا اليوم الثقيل ، وكيف يغفلون عنا و(نحن خلقناهم وشددنا أسرهم) وأحكمنا ربط مفاصلهم بالأعصاب ، فالأسر الأوصال قد شدت بعضها إلى بعض بالأعصاب وامتدت فيها العروق واتصلت وشدت عليها فكيف نتركهم سدى بعد هذا الإحكام والعناية فى الخلق (وإذا شئنا بدلنا أمثالهم تبديلا) فإن عادتنا أن نزيل ما لا يصلح للرقى من خلقنا ، فنهلك هؤلاء ونبدل أمثالهم فنجعلهم مكانهم يكونون أطوع منهم (إن هذه) السورة (تذكرة) كسائر القرآن (فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلا) تقرب إليه بالطاعة (وما تشاءون إلا أن يشاء الله) أى وما تشاءون ذلك إلا وقت أن يشاء الله مشيئتكم (إن الله كان عليما) بما استعد له كل أحد (حكيما) لايشاء إلا على مقتضى الحكمة والنظام العدل (يدخل من يشاء فى رحمته) فيهديه ويوفقه للطاعة على حسب استعداده (والظالمين) الذين لم يستعدوا للهداية (أعد لهم عذابا أليما) انتهى التفسير اللفظي للسورة كلها ؛ والحمد لله رب العالمين .

لطائف هذه السورة

(١) فى قوله تعالى : « إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعا بصيرا » .
(٢) فى قوله تعالى : « ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا » .
(٣) فى قوله تعالى : « ولقاهم نضرة وسرورا » .
(٤) فى قوله تعالى : « وسقاهم ربهم شرابا طهورا » .

اللطيفة الأولى في قوله تعالى : إنا خلقنا الانسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعا بصيرا

يقول الله : إن الإنسان مخلوق من نطفة ، والنطفة مكونة من أمشاج ، وما الأمشاج فى الإنسان إلا الأكسوجين ، والأدروجين ، والكربون ، والأوزوت ، والكبريت ، والفوسفور ، والبوتاسيوم ، والمغنيسيوم والكلسيوم ، والحديد .

فهذه هي الأمشاج والأخلاط التي كون منها الإنسان ، والإنسان يتولد فيه النطفة ، والنطفة يكون منها إنسان جديد ، فهذا الإنسان مبدؤه من الحديد والفوسفور والكبريت الخ .

الإنسان مركب من مواد بعضها محرق ، فالفسفور سريع الاشتعال متى عرض للهواء ، والبوتاسيوم جسم أبيض فضى لماع لين كشمع العسل يصهر على درجة ٥و٩٢ ويتطاير على درجة دون الأحمرار ، ولون بخاره أخضر جميل ، ومتى لامس الهواء تغير لونه ، ومتى ألقيت قطعة من البوتاسيوم فى الماء فإنك ترى كرات البوتاسيوم تحمر بسبب شدة ارتفاع الحرارة الناتجة عن التفاعل ، ويلتهب الأدروجين المتصاعد ، وتدور كرات البوتاسيوم بعضها على بعض سابحة على بعد من سطح الماء ، ثم بعد زمن تحول إلى بوتاسا وتسقط على الماء فيتكون بخار الماء ، وتحصل فرقعة بسبب التفاعل . والبوتاسيوم داخل فى تركيب ملح البارود ، والبارود يدخل فى تركيبه ملح البارود المذكور والكبريت والفحم ، ومعلوم أن الفوسفور داخل فى تركيب العظام ، حتى إن الأنوار التى تشاهد من وقت لآخر فوق المقابر إنما نشأت من ملامسة الفوسفور للهواء الجوى فتحصل إضاءة .

فهذه أربعة عناصر من عشرة كلها نارية وثلاثة منها لتركيب البارود ، ثم الحديد يظهر أثره فى الكرات الدموية ، فلولا الحديد لم يكن فيها لون الحمرة .

انظر أيها الذكى إلى صنع الإنسان ، انظر إلى عناصر يدخلها هذه المواد الجهنمية المحرقة ، ألا ترى أن تفاعلها مع بقية العناصر لطف حدتها ، ماهو السر الذى أوجب أن تكون هذه المتناقضات ذات حس وحركة وعقل . فوسفور وبارود مع مواد أخرى تصبح عاقلة مفكرة حكيمة .

جسم الإنسان ذو مادة مشتعلة ، لذلك نراه يحب القتال ، نراه يستعمل بعض عناصر جسمه لإهلاك غيره ، يصنع البارود من الفحم وأخويه ويقذف به على أبناء جنسه ، خلق الانسان من صلصال ، والصلصال هو الفخار ، والفخار طين أحميت عليه النار ، والإنسان دخلت فى تركيبه المواد النارية :

الإنسان ذو روح غير ساكنة كثيرة الحركة كثيرة الوثوب لاتفتأ تتقلب ، فبينما هى تفكر فى الخير إذا هى انتقلت إلى الشر ، وإذا فكرت فى مكان شرقى انتقلت إلى نظيره فى الغرب من غير زمان ؛ وإذا فكرت فى الماء الشفاف الجميل تذكرت نجوم السماء بلا زمن ، فنفوسنا لاحد لها تقطع الفيافى والأبعاد الطويلة بلا زمان .

هذه قدرة هائلة لذلك وضعت فى قطعة من المادة محترقة ، وكيف تعيش الروح ذات الحركات البعيدة والتنقلات المدهشة إلا فى مكان يناسبها ، لابد من المناسبة بين المكان والسكان ، فالكبريت والفوسفور والبوتاسيوم ، كل هذه أجسام وثابة طيارة فجعلت فيها النفس الطيارة الوثابة « وربك يخلق ما يشاء ويختار » .

حكم نسجت بيد حكت ثم انتسجت بالمنتسج

لذلك نرى الأجسام الحيوانية والإنسانية سريعة الدوران تموت بلا بطء وتنحل سريعا فى أزمان مختلفة هذا هو السبب فى قراءة الحكمة وزول الديانات تنبيها للناس أن حياتهم لا تدوم ، وكيف تدوم والجسم مركب من عناصر سريعة الانفصال ، قليلة الثبات ، متقلبة ، فالجسم ذائب ، والروح

بحركتها

بحركتها السريعة ترجع إلى عالمها اللطيف ، انتهى الكلام على اللطيفة الأولى ، والحمد لله رب العالمين .

اللطيفة الثانية فى قوله تعالى : ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا

هذه الآية ترجع إلى الإحسان وإذابة المهجة فى خدمة النوع الإنسانى ، إن الآية مدح فى السخاء بحيث يكون الإنسان نعمة على الفقراء من أمته والضعفاء ، وعلى من هو أجنبى عنه ، بل هو من أعدائه فالمسكين واليتيم قد يكونان من أمته ، فأما الأسير فإنه من قوم أعداء حاربوهم فأسروا فريقا منهم ، فهؤلاء الأسرى حمد الله الإحسان إليهم ، فملخص الآية أن الإنسان يجب أن يكون نورا ونافعا لبنى وطنه وغيرهم ، فإن جميع الناس عباد الله وأقربهم إليه ألطفهم بعباده ، وكلما زاد الإنسان رأفة بهم زاد من الله قربا .

هذا هو الصراط المستقيم ، فليكن الإنسان على سنن الله وصراطه المستقيم ، ألا ترى أنه أرسل الشمس والقمر والنجوم . فأضاءت على البر والفاجر ، والخبيث والطيب ، والصحيح والمريض ، فكلما عم نفع الإنسان كان إلى ربه أقرب ، ويشاهد ذلك فى الإلهامات التى تتوالى عليه ، وفى المساعدات الدائمة ، فلتكن فيك خصلتان : حب العلم مع حب الله ، وحب الناس ، ففكر فيهما وتخلق بهما والله يكون معك ، فهذا هو المقصود من الآية .

أما ذكر السبب وتعيينه فى نزول الآية كأن يروى أنها نزلت فى رجل يسمى أبا الدحداح من الأنصار صام يوما ، فلما كان وقت الإفطار جاء مسكين ويتيم وأسير ، فأطعمهم ثلاثة أرغفة ، وبقى له ولأهله رغيف واحد ، أو كان يروى أنها نزلت فى سيدنا على رضى الله عنه ، إذ نذر هو وفاطمة رضى الله عنهما وفضة جاريتهما أن يصوموا ثلاثة أيام إن برىء الحسن والحسين ، فلما برئا واستقرض على رضى الله عنه صاعا وخبز خمسة أقراص ، فوضعوها بين أيديهم ليفطروا ، فلما جاء مسكين أعطوه ولم يأكلوا ، وفى الليلة الثانية وقف يتيم فأعطوه ولم يأكلوا ، وفى الليلة الثالثة أسير .

فسواء كان السبب هذا أو ذاك أو غيرهما فلا تضيع زمانك فى تحقيق الحوادث ، واشتغل بما هو أهم لك ، وهو مقصود الآية أن تكون عونا لجميع الناس فى وطنك وغير وطنك .

وإن من شرائط العلو العطف فى البؤس على العدو

فأما العامة فإنهم لاحظ لهم إلا أن يتسلوا بتلك الحكايات ويتفكهوا بها ، ويرون أنهم لاقبل لهم بشىء من هذا ، فأما العالم فإنه يعتبر بذلك ويفكر فى إسعاد نفسه ورقيه بأشرف الأخلاق وأجل الأعمال . انتهى الكلام على اللطيفة الثانية ، والحمد لله رب العالمين .

اللطيفة الثالثة فى قوله تعالى : ولقاهم نضرة وسرورا

إن تلك النضرة والسرور هما اللذان يؤخذان من قوله تعالى : «وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة» فهذه النضرة والجمال فى الوجوه سببهما النظر لوجه الله ، والنظر لوجه الله يرجع إلى العلم والحكمة ، فعلى مقدار العلم بالصنعة يكون القرب من الصانع ، وهنا يمكن إيضاح هذا المقام فى اللطيفة الآتية :

اللطيفة الرابعة فى قوله تعالى : وسقاهم ربهم شرابا طهورا

هنا يقف القارىء وقفة ليعرف أين محل الطهور من الشراب؟ وأى مناسبة للشراب حتى يوصف بالطهور إن الطهارة ليست من صفات الشراب التى تجعله لذيذا فى الطعم، بل يقال ماء فرات، أوشراب لذيذ، أوشراب ممزوج بالزنجبيل ، وما أشبه ذلك مما تقدم فى هذه السورة ونحوها ، فليس الطهور من الصفات التى بها تكون اللذة ، وإنما يحسن هذا الوصف للماء الذى نتطهر به من الحدث والنجس فيقال طهور، نعم إن الماء الطهور قد يكون صالحا للشرب ، لكن ليس وصف الطهارة هو الذى جعله كذلك بل العذوبة وكونه باردا وما أشبه ذلك من كونه خاليا من المواد الضارة للإنسان، وأن تكون جراثيمه قد ذهبت منه ، وأن يكون مروقا مصفى ، إذن فلنبحث عن السبب فى ذكر الطهور وإلا كان هذا مما لايناسب البلاغة والفصاحة ، وإذا كان القرآن أفصح كلام وأبلغه فلماذا يكون هذا التعبير ؟ فنجيب على ذلك بما يأتى .

اعلم أن الوصف بالطهارة إنما جاء هنا ليوجه العقول إلى المقصود من الجنة ومن النعيم فيها ، وليدلنا على المقصد الذى ترمى إليه تربية الإنسان فى هذه الدنيا .

إن أحوال الجنة التى ذكرت فى هذه السورة وغيرها لاتعدو أمرين اثنين لاثالث لهما : لذة جسمية ، ولذة روحية ، فاللذة الجسمية واضحة فى هذه السورة ، فترى البساتين والولدان والخمر الممزوجة والأرائك والجو المعتدل والحرارة والضوء الجميل البهج بلا شمس ولا قمر والظلال والقطوف الدانية والنعيم والملك الكبير والثياب من سندس أخضر وحرير غليظ ، والتحلى بالأساور الفضية والذهبية واللؤلؤية ، والنساء الجميلات ، والحور البديعات المقصورات فى الخيام التى لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان .

هذه مجامع النعم الجسمية ، أما النعم الروحية فهى طهارة نفوسهم من عالم المادة وخلوصها من الطبيعة ، وارتقاؤها إلى عالم القدس والأرواح وقربها من العالم الإلهى البديع ، وكلما كانت أبعد عن المادة كانت أقرب إلى الله وأكثر اطلاعا على بهجة العوالم ونظام الخليقة العام ، فإذا كانت اللذات الجسمية تحضر بأيدى الخدم ويطوف بها عليهم ولدان ويحظون بالحور ، فاللذات العقلية ينالونها من ربهم مباشرة ، فلذلك قيل «وسقاهم ربهم» وهل يسقى الله إلا ما كان أقرب إلى الكرامة والعالم الروحى العالى، فإسناد السقى إلى الله راجع إلى أن الشراب ليس جسميا ، فالولدان يطوفون بالأكواب والأباريق ويسقون الخمر ، والله لايسقى الخمر ولا يعطى شرابه فى أكواب وأباريق ، ولكن شراب الله العلوم والحكمة ، وهاهنا يفهم ذكر الطهور فالطهارة هنا الخلوص من المادة بجميع أنواعها ، وهذه أعلى اللذات فى الجنة ، وإياك أن يهجس فى قلبك أن المفسرين الذين أشاروا إلى هذا كانوا مخدوعين ، أو أنهم قالوه لمجرد التقليد ، إياك أن يهجس فى نفسك هذا وأمثاله ، وإنما يخطر هذا فى بال الذين هم محجوبون لم يتعلموا تعلما كاملا .

اللذات الحسية واللذات العقلية فى الحياة الدنيا

اعلم أن الناس فى هذه الدنيا يتمتعون باللذتين ؛ الحسية والعقلية وهم لايشعرون ، وأن وصفى اللذات المذكورين فى هذه السورة قد وجدت مقدماتهما فى الدنيا ، ولأضرب لك مثلين :

(المثل الأول) : انظر إلى الرجال والنساء فى الكرة الأرضية ، إنهم فى أول حياتهم لاينظرون من الحياة

إلا إلى شهواتهم الجسمية ، فالرجل يريد المرأة والمرأة تريد الرجل للشهوة البدنية ، ويأكلون ويشربون ويستلذون لقضاء مآرب الأنفس وحدها ، فإذا انقضى الدور الأول من الحياة جاء دور آخر فرأينا الرجل والمرأة أخذا يتركان تلك اللذات ووجدناهما منكبين على طفل أو طفلة ، فأخذا يقبلانه معا ، فبعد أن كانت القبل محصورة بينهما أصبحت منصبة على الطفل وعلى الطفلة ، وكلما ازدادا كبرا ازدادا زهدا فى أنفسهما وحرصا على أبنائهما ، فلا يزالان يبتعدان عن المادة لأنفسهما ويقتربان من التخلى عنها لأبنائهما ، حتى إذا قرب الرحيل ودعا العالم وفرحا بأن لهما خلفا يقوم مقامهما .

الرجل والمرأة عاشا فى أول الحياة باللذة الجسمية ، وفى آخرها باللذة العقلية ، فهذا انتقال طبيعى من حال جسمية إلى حال عقلية ، ألا ترى أن الرجل يفدى ولده بماله إذا وقع فى خطر ، مع أن كثيرا من الأبناء لايرجى منهم نفع لآبائهم ، فإن طبيعة الحياة الحيوانية المحافظة على النسل بدون مقابل ، فأما المنافع المادية التى قد تكون من الأبناء فهى أشبه بالظل للشجر يأتى غير مقصود لذاته . انتهى المثل الأول .

(المثل الثانى): من المعلوم أن مايفعل بالطبيعة عاما للناس يجوز فعل مثله بالإرادة ، وما كان بالإرادة أرقى مما كان بالطبيعة ، ترى الناس جميعا يحرصون على أولادهم ويغذونهم بما لهم ، ويقدمون لهم كل مايملكون لتعليمهم، بل إننا نرى فوق ذلك أن الأبناء فى الأمم التى ارتقت يبذل آباؤهم عليهم كثيرا من أموالهم، ليكونوا قادة الشعوب ورؤساء فى الحكومات، وقليل من هؤلاء المتعلمين الذين لهم رواتب باهظة فى الحكومات من يفضل عن مصرفهم شىء لآبائهم ، فإن مناصبهم ومظاهرهم تحتم عليهم أن يصرفوا كل مايأتيهم ولا يبقى شىء إلا لمن كان مقترا أو كان مرتشيا ، ولايبقى غالبا للأمهات وللآباء شىء ، ومن غير الغالب تجد منهم المواسين المكرمين للأبوين ، فهذا كله جاء من قبيل الفطرة لعمومه سائر الناس . فأما مايأتى بالإرادة فهو الحكمة والعلم وخلوص القلب لهما ، وها أنا ذا أبينه لك فأقول :

اعلم أننا نرى الناس فى الشرق والغرب ينقادون للممتازين بالحكمة والعلم، أوالزهد فى الدنيا والصلاح ، وهذه غريزة فى النوع الإنسانى وفطرة فيه شائعة بحيث تجدها فى كل أمة ، فالعامة من كل أمة ، والخاصة يحترمون الأنبياء ، والعامة وحدهم يخضعون للوعاظ ، والخاصة يحبون الحكماء، فترى القسيس عندالنصارى والحاخام عنداليهود ، والشيخ عند المسلمين ، كل هؤلاء معظمون عند العامة الذين حولهم ،لأنهم فى نظرهم قد حملوا شريعة نبيهم ، وقد يكون فى هؤلاء من لم يحمل تلك الشريعة حقا ، ولكن الغريزة قد تخطئ فى الأشخاص ولكنها لا تخطئ من حيث العموم، كما أن غريزة الطعام فى الإنسان صادقة لحفظ الحياة، ولكنها قد تقع فى أكل ما يضر بصحتها فذلك لا يمنع كونها صادقة ؛ هى صادقة من حيث نظامها والخطأ فى الجزئيات لا ينافى الصدق فى الكليات .

وترى الناس يعظمون الذى يعتقدون أنه حائز صفة العلم ويقدسونه ، وكلما ازداد علما ازداد فى نظرهم محبة ورغبة ، وهكذا يحبون الشجعان الذين ذكرت لهم تواريخهم والمحسنين ، أتدرى لماذا هذا كله ؟ لأن العلم شىء خارج عن المادة ، والشجاع أقدم على هلاك نفسه لمنفعة غيره ، والمحسن حرم نفسه وأعطى غيره (وبعبارة أخرى) أن الناس يعظمون من تخلص من المادة وسلطانها بالزهد، أو يبذل المال واشتهر بذلك ، أو يبذل النفس ، وهذا أقل الكمال ، ويعظمون من تحلى بالعلم ، لأن العلم كمال للروح ، والناس ميالون بفطرهم لكل ما هو من عالم الأرواح ، الناس ينقادون للأنبياء ويحبونهم لأنهم اتصفوا بالأمرين :

الزهد فى المال ، والتحلية بالعلم ، وبعض الحكماء يقلدهم فى ذلك ؛ وليس يعقل أن يبرع الإنسان فى علم مالم يحبه . فالمحبة أساس النجاح فى العلم .

كثير من الناس، من نبذوا المال والأهل وعكفوا على العلم غراما ، وهم ينالون لذة لايعرفها الناس وإلا لم يتمكنوا من التبرز فيه ، إذا رأينا فى الناس من أضاع ثروته لأجل امرأة غير حسنة السمعة ورفت من وظيفته . وخرج من كل ماملك ، فيقال له : أنت عاقل فلماذا رضيت بضياع شرفك وصيتك وعظمة آبائك وثقة الناس بك ؟ أكل هذا لأجل امرأة ، فيجيب : هاتوا لى قلبا غير هذا القلب ، أنا أعلم هذا كله ولكن لاأملك نفسى .

هذا النوع من الناس موجود فى كل أمة ، ووجد فى بلادنا المصرية كل ذلك للذة وليس يعرفها إلا الذى هو متلبس بها .

إذا كان هذا فى باب اللذات الحسية فهكذا وجد فى النوع الإنسانى فى كل أمة من حصلت لهم هذه اللذه فى باب العلم والحكمة فعكفوا عليها ولم يبالوا بضياع المال والثروة ولايريدون إلا الحكمة ، وكما أن الذى عكف على المرأة ينال من الذم والاحتقار مالا حصر له يكون الذى عكف على لذة العلم قد نال مالا حصر له من المدح والثناء والإعظام ، فهو فى نفسه فى لذة والناس حوله يمدحونه ويثنون عليه .

عجب! لماذا كلاهما فى لذته ! فكيف ذكره الناس الأول وذموه، وأحبوا الثانى وعظموه ومدحوه ! الجواب على ذلك : أن الأول شرب شراب اللذات من المخلوق ، والثانى شربها من الخالق ، الشراب الأول ليس طهورا ، والشراب الثانى طهور طهر النفس من رجس المادة ، ورجع الروح إلى عالمها المحبوب ، فشراب الأولين غير طهور ، وشراب الآخرين طهور .

فياليت شعرى أيرضى ذلك الذى أحب العلم فى هذه الحياة الدنيا أن يعكف بعد الحياة الدنيا على غير العلم ؛ كلا والله فإذا كان الله سقاه شراب العلم الذى طهره من المادة وأدرانها فإنه بعد الموت لا يشرب إلا من شراب ربه ويزيد فيه مايشاء ، وهذا قوله : « نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم » فالنور الذى رآه فى الدنيا يراه يوم القيامة ، وهل نور أجل من العلم ! إن الشراب الطهور هو العلم ، وأما بقية أوصاف الجنة وأحوالها فإنها تكون لمن لم يعشقوا العلم فى الحياة الدنيا ؛ « ومن كان فى هذه أعمى فهو فى الآخرة أعمى وأضل سبيلا » .

إن فى الجنة مالاعين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، إن من لم يفهم أحوال هذه الدنيا وهو فيها يموت أعمى ، ولا يمكن لامرىء أن يعقل ما فى هذه السورة إلا إذا فكر فى أحوال أهل الأرض وبغير العلم والفكر لا يصل الإنسان لسعادة فى الدنيا ولا فى الآخرة اهـ

هذا هو نهاية الكلام على (سورة الدهر) وقد كتب ذلك يوم الجمعة الثالث من شهر المحرم الحرام سنة ١٣٤٤ هجرية الموافق ٢٤ من شهر يوليو سنة ١٩٢٥ م ، والحمد لله رب العالمين .

تفسير سورة المرسلات

هى مكية

إلا آية : وإذا قيل لهم اركعوا لا يركعون . فمدنية

آياتها ٥٠ — نزلت بعد سورة الهمزة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا * فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا * وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا * فَالْفَارِقَاتِ فَرْقًا *
فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا * عُذْرًا أَوْ نُذْرًا * إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ * فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ *
وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ * وَإِذَا الْجِبَالُ نُسِفَتْ * وَإِذَا الرُّسُلُ أُقِّتَتْ * لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ *
لِيَوْمِ الْفَصْلِ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ * وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ * أَلَمْ نُهْلِكِ
الْأَوَّلِينَ * ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ الْآخِرِينَ * كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ * وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ *
أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ * فَجَعَلْنَاهُ فِى قَرَارٍ مَكِينٍ * إِلَىٰ قَدَرٍ مَعْلُومٍ * فَقَدَرْنَا
فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ * وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ * أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا * أَحْيَاءً
وَأَمْوَاتًا * وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ وَأَسْقَيْنَاكُمْ مَاءً فُرَاتًا * وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ
لِلْمُكَذِّبِينَ * انْطَلِقُوا إِلَىٰ مَا كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ * انْطَلِقُوا إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَاثِ
شُعَبٍ * لَا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِى مِنَ اللَّهَبِ * إِنَّهَا تَرْمِى بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ * كَأَنَّهُ جِمَالَتٌ
صُفْرٌ * وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ * هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنْطِقُونَ * وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ *
وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ * هَٰذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْنَاكُمْ وَالْأَوَّلِينَ * فَإِنْ كَانَ لَكُمْ
كَيْدٌ فَكِيدُونِ * وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ * إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِى ظِلَالٍ وَعُيُونٍ * وَفَوَاكِهَ
مِمَّا يَشْتَهُونَ * كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ * إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ *

وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ * كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلاً إِنَّكُمْ مُجْرِمُونَ * وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ * وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ * وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ * فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ *

هذه السور المتلاحقة متشابهة المقاصد ، فنى هذه السورة وصف المكذبين وعذابهم ، والمتقين ونعيمهم ويتخلل ذلك وصف خلق الإنسان ، والأرض والجبال ، وعموم القدرة ، وعظمة الخالق جل وعلا .

التفسير اللفظى

بسم الله الرحمن الرحيم

(والمرسلات عرفا . فالعاصفات عصفا . والناشرات نشرا . فالفارقات فرقا . فالملقيات ذكرا) قدعلمت ما جاء فى (سورة الدهر) وكيف جاء فى أواخرها «وسقاهم ربهم شرابا طهورا» وعرفت هناك أن هذا الشراب يطهر شاربه عن الميل إلى اللذات الحسية والركون إلى ماسوى الحق ، فيجرد لمطالعة جماله ماتذا بلقائه ، باقيا ببقائه ، وعلمت أن هذا منتهى درجات الصديقين ، فهاهنا ابتدأ الله السورة بقوله «والمرسلات عرفا» الخ ، أقسم الله بطوائف من الملائكة ومن الأرواح التى نزلت إلى عالم الأجسام فى أرضنا ؛ ومنهم الأنبياء والحكماء وأكابر العلماء .

أقسم الله بهذه الأرواح المرسلات عرفا : أى لأجل الإحسان والمعروف ؛ فأما الملائكة فانها تلقى الوحى إلى الأنبياء ، والإلهام إلى العلماء والصالحين ، وأما النفوس الإنسانية الكاملة فإنها تعلم غيرها ، فكل هؤلاء أرسلوا لأجل الإحسان والمعروف للناس بالأمر والنهى ، وهم يعصفون ماسوى الحق فيبعدونه كما تبعد العواصف التراب والتبن والهباء ، وينشرون آثارهم فى الأمم وفى النفوس الحية ويفرقون بين الحق والباطل فيلقون ذكرا ، أما الملائكة فلهداية الناس ، وأما الأنبياء فللتبليغ وتكميل النفوس ، وأما الأرواح الكاملة فإنها تهذب ولا تذكر إلا الله فى القلب واللسان ، فالملائكة والأرواح المرسلة إلى أجسامها فى الأرض هى المقسم بها لأنها إما سقاها ربها شرابا طهورا ، وإما لا تزال فى طريق الوصول لذلك السقى ، وليس يكمل فى نفسه أو يكمل غيره إلا أمثال هذه النفوس من الملائكة والأنبياء ، والأرواح المستعدة للكمال ، وإنما حملنا المرسلات على هؤلاء لأن إلقاء الذكر لايكون إلا من عاقل ؛ أما الرياح فليست تلقى الذكر إلا على حسب التأويل فاخترنا الأول ، وقوله (عذرا أو نذرا) أى للاعذار والإنذار من الله وجواب القسم قوله (إن ماتوعدون) من أمر الساعة ومجيئها (لواقع) أى لكائن نازل لامحالة . فإن قيل متى يكون؟ يجاب بقوله تعالى (فإذا النجوم طمست) محقت وذهب نورها (وإذا السماء فرجت) فتحت فكانت أبوابا (وإذا الجبال نسفت) كالحب ينسف بالمنسف (وإذا الرسل أقتت) عين لها وقتها الذى يحضرون فيه للشهادة على الأمم بحصوله ، فإنهم لايتعين لهم قبله ، وجواب الشرط معلوم مما قبله : أى وقع الفصل ويقال (لأى يوم أجلت) أى أخرت وأمهلت ، فهذا استفهام بمعنى التهويل والتعجيب ، كأنه قيل : أى يوم هذا الذى أجل اجتماع الرسل إليه ؟ إنه ليوم عظيم ؛ ثم بين ذلك اليوم فقال (ليوم الفصل) وهو الذى يفصل فيه بين

الخلائق ، فهذا هو اليوم الذى أجل اجتماع الرسل له (وما أدراك مايوم الفصل) تعجيب ثالث وتعظيم لأمره ثم أبان المقصود من هذا التهويل وصرح بالمراد فقال (ويل) أى ثبات الهلاك ودوامه (يومئذ) ظرف أوصفة (للمكذبين) بذلك اليوم ،وهذا خبر (ألم نهلك الأولين) الأمم الخالية المكذبة (ثم نتبعهم الآخرين) جملة مستأنفة : أى ثم نفعل بأمثالهم من الآخرين ما فعلنا بالأولين لأنهم كذبوا مثل تكذيبهم ؛ وهذا وعيد لأهل مكة (كذلك) أى مثل ذلك الفعل الشنيع (نفعل بالمجرمين) بكل من أجرم (ويل يومئذ للمكذبين) بما أوعدنا (ألم نخلقكم من ماء مهين) حقير ، وهو النطفة المشروح الكلام عليها فى (سورة الإنسان) وفى (سورة القيامة) (فجعلناه فى قرار مكين) مقر يتمكن فيه ، وهو الرحم حال كونه مؤخرا (إلى قدر معلوم) أى إلى مقدار من الوقت معلوم قد علمه الله وهو تسعة أشهر فأكثر أوأقل (فقدرنا) أى فقدرنا ذلك تقديرا ، وفى قراءة بالتشديد (فنعم القادرون) أى فنعم المقدرون له نحن ، ويجوز أن يكون الفعل واسم الفاعل معا من القدرة (ويل يومئذ للمكذبين) بنعمة الفطرة وحكمة الخلق وحسن التقدير (ألم نجعل الأرض كفاتا) أى كافتة : أى جامعة ضامة ، يقال كفت الشيء إذا ضمه وجمعه فهو مصدر وصف به، وقوله (أحياء وأمواتا) مفعولان لكفاتا : أى جامعة أمواتا فى بطنها وأحياء على ظهرها ولذلك تسمى الأرض إما لأنها تضم الناس كأنها أم تضم أولادها (وجعلنا فيها رواسى شامخات) جبالا ثوابت متصلة بالطبقة الصوانية التى هى أبعد طبقات الأرض عن سطحها ، وتلك الطبقة تضم فى جوفها كرة النار المشتعلة العظيمة التى هى باطن الأرض ، وظاهرها هذه القشرة التى نحن عليها ، وهى طبقات أعلاها هى التى نحن عليها ، وأدناها الصوانية ، والجبال ممتدة إلى هذه الصوانية ثابتة عليها ، ولولا الطبقة الصوانية التى امتدت منها الجبال لهوت القشرة ومن عليها فى النار التى فى باطنها التى هى البحر المسجور المذكور فى (سورة الطور) كما تقدم ، فهذه الجبال رست فى أبعد الأعماق ، وشمخت إلى أعالى الجو ، فهى طوال ذاهبة علوا كما ذهبت سفلا ، وهذه الجبال مخازن للمياه التى تنزل من السحب فتنتشر بما فى باطنها وتحفظ فى طبقاتها ثم تخرج للأنهار الجاريات تستمد بمائها ، والثلج يدوم فوقها أمدا طويلا ، وينزل فى باطن الجبل شيئا فشيئا ليجرى من العيون الجاريات تسقى الناس والأنعام والزرع تدريجا على طول السنة ، وهكذا تكون تلك الجبال كأنها مسنيات تحفظ الرياح والسحاب الجاريات بين تلك الجبال الممتدات إلى بعد عظيم فى اليابسة فتخرج السحاب من فوق البحار وتمتد إلى مسافات طويلة لأن الجبال تحفظ الرياح والسحاب من الذهاب يمينا أو يسارا ، بل تبقى إلى أن تصل إلى مابعد من اليابسة ، فتسقى الزرع ، وتدر الضرع ، وهذا هو قوله تعالى (وأسقيناكم ماء فراتا) إما بالسحاب الذى حفظته الجبال بارتفاعها ، وإما بالعيون النابعات منها التى يمدها الثلج الذى يذوب شيئا فشيئا فوق ظهرها متنزلا إلى بطنها ، ساعيا إلى عيونها الجاريات (ويل يومئذ للمكذبين) بأمثال هذه النعم ، فهؤلاء المكذبون يقال لهم (انطلقوا إلى ما كنتم به تكذبون) من العذاب (انطلقوا) كرر للتوكيد (إلى ظل) أى إلى ظل دخان جهنم (ذى ثلاث شعب) يتشعب لشدة عظمته ، لأننا نرى الدخان العظيم يتشعب ويتفرق كما تتفرق الذوائب ، وفى التعبير بالثلاث إما للاشارة إلى أن عالم المادة فيه الطول والعرض والعمق والمادة محل حبس الأنفس ، أو إلى الحس والخيال والوهم ، فهذه الثلاثة هى التى تسبب العذاب للانسان ، ثم وصف الظل بقوله (لاظليل) وهذا تهكم بهم : أى لامظل (ولا يغنى) أى وغير مغن لهم (من اللهب) أى من حر اللهب : أى غير دافع شيئا منه (إنها) أى النار (ترمى بشرر) وهو مايتطاير من النار (كالقصر) أى كل شرارة كالقصر فى عظمها ، ويقال هو الغليظ من الشجر ، الواحدة قصرة (كأنه) يعنى الشرر (جمالات) جمع الجمال (صفر) جمع أصفر : أى لون ذلك الشرر أصفر :

﴿ فائدة ﴾ سئل ابن عباس عن قوله تعالى : « ترمى بشرر كالقصر » ؟ فقال : هى الخشب العظام المقطعة ، وكنا نعمد إلى الخشبة فنقطعها ثلاثة أذرع وفوق ذلك ودونه وندخرها للشتاء ، وكنا نسميها : القصر (ويل يومئذ للمكذبين . هذا يوم لا ينطقون . ولا يؤذن لهم فيعتذرون . ويل يومئذ للمكذبين) بهذا اليوم (هذا يوم الفصل) بين المحق والمبطل والمحسن والمسيء (جمعناكم) يامكذبى محمد (و) المكذبين (الأولين) هذا بيان وتقرير للفصل (فإن كان لكم كيد فكيدون) أى فإن كان لكم حيلة فى دفع العذاب فاحتالوا على بتخليص أنفسكم من العذاب ، يقال كدت فلانا إذا احتلت عليه (ويل يومئذ للمكذبين) بالبعث (إن المتقين فى ظلال) جمع ظل (وعيون) جارية فى الجنة (وفواكه مما يشتهون) لذيذة مشتهاة ، فهم مستقرون فى ظلال حال كونهم مقولا لهم (كلوا واشربوا هنيئا) خالص اللذة لايشوبه تنغيص (بما كنتم تعملون) فى الدنيا (إنا كذلك نجزى المحسنين) فأحسنوا تجزوا بهذا (ويل يومئذ للمكذبين) بالجنة فإن لهم العذاب المخلد . ثم خاطب المكذبين مهددا لهم فى الدنيا فقال (كلوا وتمتعوا قليلا) لأن متاع الدنيا قليل (إنكم مجرمون) كافرون ، فكل مجرم يأكل ويتمتع أياما قلائل ثم يبقى فى الهلاك الدائم (ويل يومئذ للمكذبين) بالنعم (وإذا قيل لهم اركعوا) أطيعوا واخضعوا ، أو صلوا ، أو اركعوا فى الصلاة (لايركعون) لايمتثلون ، ولقد أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ثقيفا بالصلاة فقالوا لانحنى : أى لا نركع فإنها مسبة (ويل يومئذ للمكذبين) بالأمر والنهى (فبأى حديث بعده) بعد القرآن (يؤمنون) إذا لم يؤمنوا به ، وهو معجز بذاته مشتمل على الحجج الصحيحة . انتهى التفسير اللفظى للسورة كلها ، والحمد لله رب العالمين .

لطائف هذه السورة

(١) فى قوله تعالى : «ألم نهلك الأولين» الخ .
(٢) فى قوله تعالى : «ألم نخلقكم من ماء مهين» .
(٣) فى قوله تعالى : « ألم نجعل الأرض كفاتا أحياء وأمواتا» الخ .

اللطيفة الأولى في قوله تعالى : ألم نهلك الأولين ثم نتبعهم الآخرين

ذكر الله إهلاك الأمم السابقة بتقصيرهم فى الإيمان ، وذكر أنه يفعل مع الآخرين مافعله بالأولين ، فإذا قصرت أمة فى الإيمان بالله وأهلكها فيما مضى فهو هكذا يفعل بالتى تكذب فيما بعد فيهلكها ، والعبرة فى هذا أنه يجب على المسلمين أن يتبصروا ويتذكروا ويقيسوا الأشباه بأشباهها ، فما فعل بالأولين يفعل بالآخرين فلتنظر أمة الإسلام ماحل ببلاد الأندلس ، فإن إكبابهم على الملاهى والتنعم والكسل والتقليد الأعمى أضاع بلادهم وأخذتها الفرنجة ، كذلك يفعل الله بالمقصرين من أمم الإسلام ، لأن الله جعل الأولين عبرة للآخرين ، دخل الفرنجة بلاد الجزائر وبلاد تونس ، وعرجوا على مصر وأخذوها ، كل هذا لأنه فعل بالآخرين كما فعل بالأولين ، فقد قصر أهل الأندلس فأزالهم الله ، فلما قصر بقية المسلمين ولم يعمموا التعليم ولم يفكروا فيه ولم ينهجوا نهج الأمم المفكرة أذاقهم الله الخزى فى الحياة الدنيا ، وسيزول هذا الخزى قريبا كل هذا يؤخذ من قوله تعالى : « كذلك نفعل بالمجرمين » ولكن على طريق الاعتبار والقياس ، لا على طريق النص كما قال تعالى : « فاعتبروا يا أولى الأبصار » وإذا قال الله : « ويل يومئذ للمكذبين » بآيات

الله

الله وأنبيائه فويل كذلك لمن لم يفهم ماهو حاصل بالأمم الإسلامية من الذل والقهر بسبب جهلها ، فالويل للمسلمين من حيث مجموعهم إذا داموا على ماهم عليه من حيث التقصير فى العلوم والصناعات التى هى واجبة على مجموع الأمة وجوبا كفائيا ، فإذن المسلمون إذا لم يفكروا فى ذلك يزيد عذاب الفرنجة عليهم ، فهم وإن لم يكونوا مكذبين فهم عاصون والعذاب يقع عليهم فى الدنيا بذهاب دولهم ، وفى الآخرة بعذاب جهنم ، وهذا إجماع من علماء الإسلام ، لأنهم يعتقدون أن العذاب يقع على الأمة كلها فى الدنيا والآخرة بترك فروض الكفايات ، وفروض الكفايات هى التى بها نظام الدول العام بحيث يشترك فيه الشعب كله بإخلاص . انتهى الكلام على اللطيفة الأولى ، والحمد لله رب العالمين .

اللطيفة الثانية فى قوله تعالى : ألم نخلقكم من ماء مهين

الكلام فى النطفة ، والجنين فى الرحم ، ومدة الحمل ، وتقدير الله لذلك ، والنظام المتبع فيه ، كل ذلك يراد به معرفة الأجنة ، وعجائب الخلق ، والتفكر فى ذلك ، وهذا يرجع لعلوم كثيرة قد شرحناها فى (سورة القيامة) قريبا ، وتقدم فى سور أخرى منها سورة (آل عمران) بطريق أوسع ، فراجعه هناك إن شئت .

اللطيفة الثالثة فى قوله تعالى : ألم نجعل الأرض كفاتا أحياء وأمواتا

الأرض تسع الحى والميت ، وفيها الجبال الشامخات ، والماء الذى يسقى الزرع ويدر الضرع ، ذكر الأرض التى تقلنا وتحملنا ، وتضمنا فى بطنها إذا متنا ، وفيها مخازن الماء ، ومسقياتها وما يمسكها لئلا تتشتت وتزول ، وذلك يوجب تيقظ الإنسان للأمور العامة ، فيدرس الأرض وطبقاتها ، ومن على ظهرها وجبالها وهواءها وسحابها ومطرها وعيونها وأنهارها ، والتفرج على عجائبها ، ثم أوعد المعرضين بالعذاب فى جهنم ، وكما أن الناس إذا حلت الجيوش فى بلادهم على جهلهم وظلمهم ونومهم ، وخرافاتهم لاينطقون لانقطاع حججهم فيقول المستعمر لبلادهم افعلوا كذا فيفعلون . ولا تقرءوا من العلم إلا مابه تؤمرون ، ولا تفكروا إلا على قدر مانحن مريدون ، وإياكم أن تنطقوا بالشكوى فإنكم تغرقون ، وبالمدافع تضربون ، وبالنار تحرقون ، وبالصواعق من الطيارات تهلكون ، أنتم مأمورون لا آمرون ، وسامعون لامتكلمون ، وعبيد لنا مسخرون . لتخرسن ألسنة الأمم المغلوبة ، ولتكن الحرية مسلوبة ، والجماهير فى أيدينا ألعوبة ونحن القاهرون وهم المقهورون ، فلا رقيب منه نخاف ، ولا من محنة الأيام وغوائلها نضطرب .

أقول : إذا كان هذا هو الحاصل الآن فى بلاد الشرق حيث يفعل الأوروبيون معهم ذلك فما بالك بيوم القيامة ، إذ تنقطع الحجة ويصبح المرء مقطوع الأمل من كل عمل ، مسلوب اللب والمال والولد ، مفقود الأصحاب والأهل ، محروما من كل سند وخل وولد ، هنالك لاينطقون ولا يؤذن لهم فيعتذرون .

(حكاية) دخل (هولاكو) التتارى مدينة بغداد وأحضر الخليفة العباسى وهو غافل لايدرى ، فلما أحضر بين يديه المائدة نظر فوجد فوقها أوانى مملوءة جواهر فى كل طبق نوع كالزمرد والياقوت والمرجان والذهب والزبرجد والماس ، فقال له (هولاكو) كل ، فقال : هذا لايؤكل ، فقال (هولاكو) أتدرى من أين هذا ؟ إنه من خزائنك أحضرته جنودى الآن ، إنك قد أهملت الملك فلست تصلح له ، والله سلبه منك ، ثم قتله هو وابنه وذهبت الدولة اهـ .

انظر كيف فعل الله بالأولين منا ، فلما لم يعتبر المتأخرون فعل بهم مافعل بالأولين ، وتقصير المسلمين إنهم كانوا عن التفكر معرضين ؛ وفى النزاع مجدين ، وعن الاتحاد نائمين .

ذكر الله نقمة على الأولين والآخرين ، وذكر نعمه بالخلق على الناس ، ونعمه بالأرض وجبالها ومائها وذكر بعد ذلك الويل للمكذبين بذلك .

وإلى هنا تم الكلام على سورة المرسلات ؛ والحمد لله رب العالمين .

كتب ليلة السبت ٤ من شهر المحرم الحرام سنة ١٣٣٤ هجرية .

(تم بحمد الله وحسن توفيقه الجزء الرابع والعشرون من كتاب الجواهر فى تفسير القرآن الكريم ، ويليه الجزء الخامس والعشرون ، وأوله تفسير سورة النبأ)

فهرس

الجزء الرابع والعشرين

من كتاب

الجواهر فى تفسير القرآن الكريم

صفحة

٢ تفسير (سورة الرحمن) مكتوبة مشكلة .

٤ تقسيم السورة إلى ثلاثة أقسام . القسم الأول : فى تفسير البسملة وتبيان أن ما فى السورة كلها كأنه تفسير للرحمة ، ومجمل ذلك كله ثمانية مباحث .

١٠ بهجة العلم فى هذا المقال ، وهو تفسير البسملة فى سورة الرحمن :

١٢ مقدمة فى مناسبة السورة لما قبلها . وفى هذا المقام ذكر ملخص أكثر السورة وهو ١٥ مبحثا من أولها إلى آية : « يسأله من فى السموات والأرض كل يوم هو فى شأن » ويتبع ذلك أحوال الناس فى الآخرة من النعيم والعذاب .

١٥ القسم الثانى فى عجائب عالم الدنيا التى فى هذه السورة .

التفسير اللفظى لأولها من قوله : «الرحمن علم القرآن» إلى قوله تعالى : «يرسل عليكما شواظ من نار ونحاس فلا تنتصران» .

٢٢ بيان أن فى هذا القسم لطيفتان : الأولى فى قوله تعالى : «ووضع الميزان» وهى فى بيان كيف كانت مساحة الفدان من الأرض ، وكيف كان كل مكيل وموزون وغيرهما فى البلاد المصرية راجعا لنظام بناء الهرم الذى يرجع فى نظامه إلى نسبة عجيبة بين أوضاعه وبين أوضاع مدار الأرض حول الشمس ، وكيف كان ضلع الهرم مساويا لجزء من ربع مليار من محيط الدائرة الشمسية ، والضلع المذكور يساوى ٤٠٠ ذراع بلدى أو ٣٦٠ هنداسة الخ .

٢٦ اللطيفة الثانية فى قوله تعالى : «يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان» .

فصل فى اللؤلؤ ، وتكوين اللؤلؤ .

٢٧ جوهرة فى قوله تعالى : «يرسل عليكما شواظ من نار ونحاس فلا تنتصران» .

٢٨ القسم الثالث فى عجائب عالم الآخرة من قوله تعالى : «فإذا انشقت السماء» إلى آخر السورة .

٣٠ لطيفة فى قوله تعالى : «كل من عليها فان» وقوله تعالى «تبارك اسم ربك ذى الجلال والإكرام» .

٣١ اللطائف العامة فى هذه السورة ، وهى ثلاث :

اللطيفة الأولى فى آية : «ووضع الميزان ألا تطغوا فى الميزان» مع قوله تعالى : «مرج البحرين يلتقيان بينهما برزخ لا يبغيان» :

٣٤ الكلام على سمك (بلاس) وكيف نشأ فى بيضاته المنظمات ، وكيف تم خلقه حالا بعد حال يشاهد فى الرسم شكل ٥ ، ٦ ، ٧ .

صفحة

٤٠ شكل ٩ نسيج عنكبوت الحدائق .
شكل ١٠ نحل عسل الخلايا حاملا كرات الطلع الصفراء من هذا النبات المسمى (سم النمر) .
٤١ شكل ١١ قرص النحل مع خلاياه .
٤٢ شكل ١٢ قرص عسل النحل المشتمل على ذكور النحل وعاملاته والخلايا التي فيها العسل .
٤٣ شكل ١٣ طائفة من النحل مزدحمة على شجر التفاح .
شكل ١٤ عش النحل الحجرى .
٤٤ شكل ١٥ عش للنحلة المفردة وحدها فى هيكل قوقعة الحدائق .
٤٥ شكل ١٦ ترى النحل المستقل الذى يعيش فى قص ورق الأشجار أو فى تجاويف وخلايا مرتبة منتظمة.
٤٦ شكل ١٧ النحل الثاقب للخشب متعلقا بفكيه فى حال سكون
٤٧ شكل ١٨ خلايا النحل ثاقب الخشب :
شكل ١٩ النحل الثاقب للخشب وهو خارج من خليته .
٤٨ شكل ٢٠ النحل البناء .
٤٩ شكل ٢١ عش زنبار الخشب .
٥٠ شكل ٢٢ قطعة من العش ، أو قرص الزنابير من بلاد البرازيل متصلة بغصن من الشجرة .
٥١ شكل ٢٣ عش الزنبور البناء .
شكل ٢٤ عش نمل الخشب .
٥٢ شكل ٢٥ جماعة النمل تسوم ماشيتها .
٥٣ شكل ٢٦ النمل النجار فى عمله .
شكل ٢٧ برج صنعه النمل الأبيض فى شرقى أفريقيا ، وقد صنعها النمل من مواد الأبيض بفكيه بعد أن مضغها ، وهى مرتفعة كالقلعة .
٥٤ مسامرة فى العجائب المتقدمة .
٥٥ ترية الأمم الإسلامية فى مستقبل الزمان. درجات الحيوان فى الإدراك ودرجات الإنسان .
٥٧ عصر الاختراع والاكتشاف وبيان السهم أو الصاروخ ، معجزة هذا القرآن .
٥٩ اللطيفة الثانية : عجائب الحسبان فى سورة الرحمن . وبيان مزايا خواص الواحد ووحدة الله تعالى ، وفى كل من الوحدتين خواص متشاكلة .
٦١ بيان عجائب الأعداد .
٦٢ الفصل الثانى فى عجائب العدد الكامل والأعداد المتحابة وحساب الجذر والتربيع ، وفى هذا الفصل مسائل المسألة الأولى: فى بيان أن العدد إما كامل ونحوها الخ .
٦٦ انحطاط تعالم الحساب فى بلاد الإسلام ، وأن علم الأوفاق الذى ملأ الأقطار الإسلاميه ضاربها معطل لقواها فوجب محو جميع هذه العلوم من بلاد الإسلام .
٦٧ سؤال ورد على المؤلف ، وهو : كيف نرى الخلفاء الراشدين الذين لم يدرسوا الرياضيات التى يقول العلماء إنها تمرن الإنسان على العدل والصدق أعدل (بشهادة علماء أوروبا فى زماننا) من ملوك الفرس والروم فى زمانهما ، مع أن المدارس فى تلك الممالك كانت مكتظة بالطلاب الذين يدرسون تلك العلوم والجواب على هذا الاعتراض .

صفحة
٧١ بيان أن اللآلىء على ثلاثة أنواع : طبيعية ومولدة ، وصناعية ، اللؤلؤ الطبيعى ، وبيان سبب تكونه ، واللؤلؤ المولد ، وأن الناس أخذوا يربونه كما يربون السمك ، أما اللؤلؤ الصناعى أو المقلد ، فهو طلاء لماع لسمك يطلى به خرز من الزجاج بعد مزجه بشىء من الشمع .
بيان جمال هذا المقام العلمى فى الحكمة .
٧٤ تفسير (سورة الواقعة) مكتوبة مشكلة ، وهى ثلاثة أقسام .
٧٦ القسم الأول فى تفسير البسملة .
٧٨ القسم الثانى فى ذكر السابقين وأصحاب الميمنة وأصحاب المشأمة وجزائهم .
مقدمة فى مناسبة السورة لما قبلها . التفسير اللفظى لهذه السورة .
٨١ القسم الثالث فى ذكر العجائب الكونية .
٨٣ فى هذه السورة لطيفتان . اللطيفة الأولى فى قوله تعالى : «إنهم كانوا قبل ذلك مترفين» وتبيان الرسالة التى أرسلتها إلى بلاد مراكش تحذيرا لهم من الذى يشربونه ؛ وقد أصبح لهم عادة ضارة ، وذلك بسبب الأمة التى استعمرت بلادهم وبيان ضرر الشاى والسكر فى علم الطب الحديث ، وذكر أن الفرنجة فعلوا مع أهل الأندلس مايفعلونه معنا الآن :
٨٦ اللطيفة الثانية فى قوله تعالى : «نحن قدرنا بينكم الموت» ، والكلام على قوم طالت أعمارهم ، وأن أناسا عاشوا مائتى سنة ، وهناك ١٧٠ إنسانا كل منهم عاش ١٠٠ سنة الخ .
٨٨ تفسير (سورة الحديد) آياتها مكتوبة مشكلة .
٩١ بيان أن هذه السورة أربعة أقسام : القسم الأول تفسير البسملة .
٩٤ مقدمة فى اتصال هذه السورة بما قبلها .
القسم الثانى فى صفات الله تعالى وأسماء الله الحسنى الخ .
التفسير اللفظى لهذه السورة .
٩٦ لطيفة فى قوله تعالى : «يعلم مايلج فى الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها» .
٩٧ القسم الثالث فى الحض على الانفاق . القسم الرابع فى آية : «يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم» .
١٠٠ ذم البخل فى آية : «الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل ومن يتول فإن الله هو الغنى الحميد» .
التحريض على العدل : «لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط» .
١٠٢ فى هذه السورة لطائف ثلاث (اللطيفة الأولى) فى قوله تعالى : «فضرب بينهم بسور» .
١٠٣ (الثانية) فى قوله تعالى : «وجنة عرضها كعرض السماء والأرض» .
(الثالثة) فى قوله تعالى : «ورهبانية ابتدعوها» وتبيان المعجزة القرآنية من كتاب [الجريدة النفيسة فى تاريخ الكنيسة] .
١٠٥ اللطائف العامة للسورة كلها ، وهى أربع :
اللطيفة الأولى فى آية : «سبح لله مافى السموات والأرض» الخ : وبيان أنها تشتمل على اثنى عشر فصلا .

صفحة

١٠٧ الفصل الأول فى النظام التكوينى .
١٠٨ الفصل الثانى فى النظام التشريعى .
١٠٩ الفصل الثالث فى ذكر الآلام التى تحيق بالإنسان . الفصل الرابع أول مثله ضربه الله لفعله فى خلقه هو فعل الأم فى طفلها . الفصل الخامس فى أن الأب يأخذه ولده بعد أن يكبر إلى الحقل الخ . الفصل السادس فى أن المعلم يزيد فى تعليم الفلاح وتثقيفه الخ . الفصل السابع فى أن ماهو أوسع مدى من الأم حتى العلم ذلك أن الحكومة والقضاء قد يحكم عليه بالتغريب :
١١٠ الفصل الثامن فى التربية الإلهية . الفصل التاسع فيما نشاهده من رحمة الأم بولدها . الفصل العاشر فى التربية العامة فى مدارس العالم الإنسانى قديما وحديثا . الفصل الحادى عشر فى بيان أن الحب على مقدار العلم . وفيه ثلاث جواهر : الجوهرة الأولى فى وصف الحب .
١١١ الجوهرة الثانية وهى طبقة الشعراء .
١١٢ الجوهرة الثالثة آثار الحب العالية وهى الفلسفة .
١١٦ الفصل الثانى عشر فى أن الله توارى عنا بحجبه وقذف لنا كرات لاعدد لحصرها .
١١٧ ماالذى عرف الناس من ملك السموات اليوم ؟ وأنهم اليوم ينتظرون قريبا أن يكون المعلوم للناس ٣٢ ألف مليون مليون كوكب .
١١٧ ماالذى عرفه الناس من ملك الأرض ؟ وهاهنا بعض بدائع الأشجار و١٢ عجيبة من عجائب الحيوان .
١٢٠ جمهوريات الحيوانات . ضرب مثل يذكرنا باجتماع الأرواح بعد مفارقة الأجسام .
١٢١ النحل حول اليعسوب . ضرب مثل لرجوع الناس لربهم ، ومقدمة ذلك الصلاة إلى القبلة توجها إلى الله حول الكرة الأرضية .
١٢٣ بهجة هذا المقام فى التسبيح وجماله .
١٢٥ اللطيفة الثانية فى قوله تعالى : «يعلم مايلج فى الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها» مع قوله : « آمنوا بالله ورسوله وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه » .
بيان أن ثروة البحر الميت كنوز لم يستفد منها المسلمون لجهلهم واستفاد منها الأوروبيون لعلمهم .
١٢٦ كهربة القطر المصرى ومشروع القطارة ، وخلاصة خطبة سرى بك فى ذلك »
١٢٨ اللطيفة الثالثة فى قوله تعالى : «اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو» .
اللطيفة الرابعة فى قوله تعالى : «ماأصاب من مصيبة فى الأرض ولا فى أنفسكم إلا فى كتاب» .
١٢٩ (تفسير سورة المجادلة) مكتوبة مشكلة ، وبيان أن هذه السورة ثلاثة أقسام .
١٣١ القسم الأول فى تفسير البسملة وتلخيص (سورة الحشر) وتفسير البسملة فى هذه السورة متبوع بتفسير كل بسملة فى أول السور إلى أول (سورة الملك) مع الإشارة فى كل بسملة إلى الرحمات التى فى سورتها .
١٣٥ القسم الثانى فى أحكام المظاهرة . التفسير اللفظى .
١٣٦ ثلاث مسائل فى المظاهرة .
القسم الثالث فى أحكام المجالس والنجوى والتفسح فيها . الكلام على النجوى وأحكامها . الكلام على التفسح فى المجالس :

صفحة

١٣٨ حكم مناجاة الرسول ، الكلام على المنافقين .
١٣٩ لطائف فى هذه السورة أربع .
١٤٢ (تفسير سورة الحشر) مكتوبة مشكلة .
١٤٤ بيان أن هذه السورة هى ثلاثة أقسام . القسم الأول تفسيرها اللفظى .
١٤٦ القسم الثانى فى ذكر أخلاق المنافقين ، وهو تابع للتفسير اللفظى .
١٤٨ القسم الثالث فى ذكر نصائح المؤمنين وإعظام أمر القرآن . التفسير اللفظى .
١٥١ بهجة الحكمة ونور العلم فى قوله تعالى : « لو أنزلنا هذا القرآن على جبل » وهاهنا تفسير لكثير من أسماء الله الحسنى .
١٥٤ محاورات بينى وبين أحد الأصدقاء ، وفيها فصلان .
١٥٥ الفصل الأول فى معانى أسماء الله الحسنى من كلام الإمام الغزالى رحمه الله تعالى .
١٥٨ الفصل الثانى فى بيان محاسن أسماء الله الحسنى بالمعاينة . وفى هذا الفصل مقامان :
المقام الأول فى تبيان الحق من الأقوال الأربعة فى أن من حفظ هذه الأسماء دخل الجنة .
١٥٩ المقام الثانى فى معنى : اللطيف والنور والهادى إلى آخره ، وهل هذه المعانى مشاهدة لنا ؟ .
١٦١ (سورة الممتحنة) مكتوبة مشكلة .
١٦٣ تفسير السورة اللفظى .
١٦٦ بيان أن فى هذه السورة لطيفتان : اللطيفة الأولى فى قوله تعالى : « ياأيها الذين آمنوا لاتتخذوا عدوى وعدوكم أولياء » .
١٦٧ اللطيفة الثانية فى قوله تعالى : « فامتحنوهن الله أعلم بإيمانهن » وهل يكشف على الزوج والزوجة قبل الزواج كما تفعله بعض الممالك خيفة أن يكون هناك نسل ضعيف يشل حركة الأمة ونحوها .
١٦٩ (سورة الصف) مكتوبة مشكلة .
١٧٠ تفسير بعض الألفاظ .
١٧١ إيضاح لما تقدم .
١٧٣ (سورة الجمعة) السورة مكتوبة مشكلة .
١٧٤ مناسبتها لما قبلها .
التفسير اللفظى لهذه السورة .
١٧٦ بيان أن فى هذه السورة لطيفتان .
اللطيفة الأولى فى قوله تعالى : « فتمنوا الموت إن كنتم صادقين » .
١٧٧ الكلام على الولاية ، ومن هو الولى ؟ .
١٧٩ اللطيفة الثانية فى قوله تعالى : « ياأيها الذين آمنوا إذا نودى للصلاة من يوم الجمعة » وبيان الأحاديث الواردة فيها ، والأحكام الفقهية ، واختلاف الفقهاء فى عدد من تنعقد بهم الجمعة .
١٨١ (سورة المنافقين) مكتوبة مشكلة .
١٨٢ التفسير اللفظى لسورة المنافقين .
١٨٣ إيضاح أن سورة الجمعة للعلم والعمل ، وسورة المنافقين للصبر وقوة الأمل .
١٨٤ (سورة التغابن) السورة مكتوبة مشكلة .

صفحة
١٨٥ مقدمة فى تفسيرها .
١٨٦ تفسير اللفظى .
١٩٠ (سورة الطلاق) السورة مكتوبة مشكلة .
١٩١ مقدمة فى تفسيرها . ملخص الأحكام فى السورة ثمانية أحكام .
١٩٢ التفسير اللفظى:
١٩٦ (سورة التحريم) مكتوبة مشكلة .
١٩٧ بيان أن فى هذه السورة قسمان :
القسم الأول فى نساء النبى صلى الله عليه وسلم ، القسم الثانى فى ضرب مثل بامرأة نوح وامرأة لوط .
مقدمة فى مناسبة السورة لما قبلها .
١٩٨ التفسير اللفظى لهذه السورة .
٢٠٠ خاتمة لتفسير هذه السورة .
٢٠١ (سورة الملك) مكتوبة مشكلة .
٢٠٢ بيان أن الكلام على هذه السورة ينحصر فى ثلاثة أقسام : البسملة ، التفسير اللفظى ، اللطائف .
الكلام على الرحمتين المذكورتين فى هذه السورة مع جميع الرحمات فى السور العشر بعدها .
٢٠٣ الرحمات فى سورة القلم ، وفى الحاقة ، وفى المعارج ، وفى نوح ، وفى الجن ، والمزمل ، والمدثر والقيامة والمرسلات .
٢٠٦ التفسير اللفظى لسورة الملك .
٢١١ بيان أن لطائف هذه السورة أربع ، الأولى فى قوله تعالى «الذى خلق الموت والحياة» .
٢١٣ اللطيفة الثانية فى قوله تعالى « ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح » .
٢١٤ اللطيفة الثالثة فى آية : «أو لم يروا إلى الطير فوقهم صافات» وفيها مقامان :
المقام الأول : كيف عرف الناس أن يطيروا فى الجو ؟ وأن ذلك مبنى على محاولة تقليد الطير .
٢١٧ المقام الثانى فى بنية الطيور ، وأن أجسامها مختصرة من أجسام ذوات الأربع .
٢١٨ اللطيفة الرابعة فى قوله تعالى: «هو الذى أنشأكم وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلا ماتشكرون»
بيان أن اللطائف العامة فى هذه السورة ثلاث .
٢١٩ اللطيفة الأولى فى قوله تعالى : « ماترى فى خلق الرحمن من تفاوت» .
القطور فى الألوان .
٢٢٠ اللطيفة الثانية فى قوله تعالى : « ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح » .
٢٢٢ شكل ٢٨ صورة الضوء ، وهو على خط مستقيم فى الحجرة المظلمة ، وفى شكل ٢٩ الصور الخارجة ظهرت واضحة مفصلة على لوحة الورق ، فظهر عاليها سافلها فيه .
٢٢٣ شكل ٣٠ شعاع الشمس يرى منعكسا على الحائط ، وفى شكل ٣١ ظهور علاقة بين اتجاه الضوء الشمسى الواصل للزجاجة وبين اتجاه ضوء الشعاع المنعكس عنها ، وفى شكل ٣٢ المرآة التى انطبعت فيها الصورة .
٢٢٤ شكل ٣٣ ظهرت فيه صورة سطح الماء قد انعكست فيه الصور ، وشكل ٣٤ ظهر فيه انكسار

صفحة

ضوء قطعة النقد ، وشكل ٣٥ أيضا فيه انكسار للشعاع ، ٣٦ فيه شعاع الكتاب يمر من الزجاجة إلى الهواء وفيه انكسار .
٢٢٥ شكل ٣٧ ، ٣٨ ، ٣٩ ، ٤٠ الشعاع فارق الكتاب ومر من الهواء إلى الزجاجة ، ثم منها إلى الهواء والعدسة المحدبة الوجهين ، وزجاجتان محدبتا الوجهين ، والمكروسكوب .
٢٢٦ شكل ٤١ تلسكوب يكبر الجسم .
٢٢٧ شكل ٤٢ عدستان مقعرتان من الجانبين ، وفي شكل ٤٣ ظهور اختلاف الأنظار قصرا وطولا ، وفي شكل ٤٤ اعتدالها بعد لبس المناظير المناسبة .
وفي شكل ٤٥ هيئة اجتماع الأشعة في بؤرة .
٢٢٨ شكل ٤٦ هيئة تبين كيف تكون هذه الأشعة محرقة ، وفي شكل ٤٧ هيئة حرق الصوفان بتلك الأشعة ، وفي شكل ٤٨ هيئة تحليل الضوء الشمسي إلى ألوانه السبعة بمروره بالزجاجة .
٢٢٩ شكل ٤٩ هيئة الضوء الأبيض باتحاد الألوان السبعة . ومامعنى ألوان المادة المشاهدة ؟ .
٢٣٠ ملخص ماتقدم كله .
٢٣٢ ضوء الشمس كما يفيد المادة يفيد الحياة .
اللطيفة الثالثة في قوله تعالى : «أو لم يروا إلى الطير فوقهم صافات» الخ .
٢٣٣ أقسام الحيوان أربعة : القسم الأول الحيوانات الفقرية . القسم الثاني الحيوانات الحلقية . القسم الثالث الحيوانات الهلامية . القسم الرابع الحيوانات الشعاعية .
٢٣٥ كيف تكون البيضة طائرا صغيرا ؟ .
شكل ٥٠ حمامة خرجت من بيضتها وهي عمياء .
شكل ٥١ فروج خرج قادرا على المشي .
٢٣٦ شكل ٥٢ منقار الطيور الجارحة ، وشكل ٥٣ مخالب الجوارح .
٢٣٧ بيان أن الجوارح على قسمين ، شكل ٥٤ النسر ، وشكل ٥٥ حدأة شمال أمريكا ، وشكل ٥٦ نسر الألب وشكل ٥٧ الصقر ، وشكل ٥٨ الباز ، وشكل ٥٩ صقر آخر :
هنا ٧ صور لصقر ، وعصفور دوري ، وحدأة ، وأنواع أربعة من البوم :
٢٣٨ الكلام على الطيور المقلدة للانسان ومنها الببغاء شكل ٦٧ .
النوع الثالث : الحمام . النوع الرابع : الطيور الدجاجية ، وفيها صور كالطاووس ، والديك الرومي .
بيان أن النوع الخامس : الطيور الخائضة ، ولها أربع صور كالبجع والكركي وطير الماء . النوع السادس النعام .
بيان أن له ثلاثة أشكال ، وهنا هيكل طير كبير لم يبق له وجود الآن ، شكله كبير جدا عثروا على بقاياه في الجزيرة الجديدة .
٢٣٩ النوع السابع الطيور المنسوجة الأرجل .
٢٤٠ بيان أشكال من شكل ٧٩ إلى شكل ٨٢ .
شكل ٨٣ إلى ٨٦ طائر الماء والبتروس وبلكان ، والطائر النهم، ثم قراض الخشب ، والغراب ؛
النوع الثامن الطيور والعصفور الدوري

صفحة

٢٤١ تبصرة فى هذه الطيور .
٢٤٢ (سورة القلم) وكتابتها مشكلة .
٢٤٣ بيان أن فى هذه السورة أربعة مقاصد .
المقصد الأول حسن الأخلاق النبوية .
التفسير اللفظى لهذه السورة .
٢٤٥ المقصد الثانى سوء أخلاق بعض الكفار وجزاؤهم .
٢٤٦ المقصد الثالث ضرب مثل لأهل مكة ولكل ذى جهالة من أهل الأرض وحرص وطمع .
٢٤٧ المقصد الرابع تفسير : «إن للمتقين عند ربهم جنات النعيم» إلى آخر السورة .
٢٤٩ إيضاح لما تقدم .
٢٥١ (سورة الحاقة) مكتوبة مشكلة .
٢٥٢ بيان أن فى هذه السورة مقصدان : المقصد الأول هلاك الأمم فى الدنيا .
تفسيرها اللفظى :
٢٥٣ المقصد الثانى : فى عذاب الآخرة واختتامه بإثبات النبوة .
٢٥٤ إيضاح تفسير الآيات بعلم الأرواح فى عصرنا .
٢٥٧ إيضاح السلسلة والعذاب بها .
٢٥٨ (سورة المعارج) مكتوبة مشكلة ، وبيان أن فى هذه السوره ثلاثة مقاصد .
المقصد الأول وصف يوم القيامة وأهواله والنار وعذابها .
تفسيرها اللفظى .
٢٦١ المقصد الثانى فى غرائز الإنسان ووجوب تهذيبها حتى تنجو من هذه النار .
٢٦٢ المقصد الثالث فى وعيد الكافرين ، وهو تفسير قوله تعالى: «فمال الذين كفروا قبلك مهطعين» إلى آخر السورة .
٢٦٣ لطائف هذه السورة ثلاث :
اللطيفة الأولى فى قوله تعالى« من الله ذى المعارج»
٢٦٥ اللطيفة الثانية فى قوله تعالى : « إن الإنسان خلق هلوعا» الخ .
اللطيفة الثالثة فى آية : «إنا خلقناهم مما يعلمون » .
٢٦٧ (سورة نوح) مكتوبة مشكلة وبيان أن مقاصد هذه السورة اثنان تفسيرها اللفظى .
٢٦٩ المقصد الأول دعوة نوح لقومه .
٢٧٢ المقصد الثانى أنواع الأصنام عند العرب وعند قوم نوح مثل : ود ، وسواع ، ويغوث ، ويعوق ، ونسرا ، واللات والعزى الخ ، وكيف كان كل منها تابع لقبيلة .
٢٧٤ (سورة الجن) مكتوبة مشكلة .

صفحة
٢٧٥ ملخص ما فى هذه السورة ، وهى ١٦ حكمة من أقوال الجن ، ثم يليها أوامر الله لنبيه صلى الله عليه وسلم .
الكلام على تسمية السور .
٢٨٠ تفسير السورة اللفظى .
٢٨١ أقوال الناس قديما وحديثا فى الجن وبدائع العلم الحديث فيها. وهاهنا محادثات الأرواح، وهى مصداق لآيات هذه السورة التى لم تظهر آثارها ظهورا واضحا إلا فى هذا الزمان .
٢٨٤ (سورة المزمل) مكتوبة مشكلة .
٢٨٥ ملخص الأحكام فى هذه السورة .
٢٨٦ التفسير اللفظى لهذه السورة .
٢٨٨ فى هذه السورة لطيفتان: اللطيفة الأولى فى قوله تعالى «ورتل القرآن ترتيلا» .
٢٨٩ اللطيفة الثانية فى قوله تعالى : «وآخرون يضربون فى الأرض يبتغون من فضل الله» الخ .
٢٩٢ قاعدة لحياة الأمم .
٢٩٣ مزية الإسلام فى مستقبل الزمان .
٢٩٤ غرور المسلمين اليوم .
٢٩٥ (تفسير سورة المدثر) : ذكر الأوامر الستة التى أمر بها صلى الله عليه وسلم ، وهى جعلت تعليما لنا .
٣٠٤ لطيفة فى قوله تعالى : «وما يعلم جنود ربك إلا هو وما هى إلا ذكرى للبشر» .
٣٠٥ بيان عدد النجوم ، والكلام على الشعرى اليمانية ، والسماك الرامح ، والثريا ، ثم تعداد عجائب لبعض حيوان البحر مثل الأخطبوط وغيره ، ثم الحشرات والنبات وكثرته .
٣٠٧ (سورة القيامة) .
تفسيرها اللفظى .
٣١١ لطيفة فى آية : «وجوه يومئذ ناضرة» وفى آية: «ألم يك نطفة من منى يمنى» الخ .
٣١٧ تذكرة فى آية: «بلى قادرين على أن نسوى بنانه» .
٣١٨ (سورة الإنسان) مكتوبة مشكلة .
٣١٩ مقاصد هذه السورة ثلاث : المقصد الأول كيف خلق الله الإنسان .
تفسيرها اللفظى .
٣٢٠ المقصد الثانى فى جزاء الشاكرين والكافرين ووصف الجنة والنار .
٣٢٣ بيان أن فى هذه السورة لطائف أربع اللطيفة الأولى فى قوله تعالى: « إنا خلقنا الإنسان » الخ الآية.
٣٢٥ اللطيفة الثانية فى آية : «ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا» وبيان أن المقصود من هذه الآية الإحسان لكل من على ظهر الأرض .
اللطيفة الثالثة فى قوله تعالى «ولقاهم نضرة وسرورا» .

صفحة

٣٢٦ اللطيفة الرابعة فى قوله تعالى : «وسقاهم ربهم شرابا طهورا» .
اللذات الحسية واللذات العقلية ، وضرب أمثال لذلك .

٣٢٩ (سورة المرسلات) مكتوبة مشكلة .
٣٣٠ التفسير اللفظى لهذه السورة .
٣٣٢ لطائف هذه السورة ثلاث :
اللطيفة الأولى فى قوله تعالى : «ألم نهلك الأولين ، ثم نتبعهم الآخرين» .
٣٣٣ اللطيفة الثانية فى قوله تعالى : «ألم نخلقكم من ماء مهين» .
اللطيفة الثالثة فى قوله تعالى : «ألم نجعل الأرض كفاتا ، أحياء وأمواتا» :

COLUMBIA UNIVERSITY LIBRARIES
0036758485
BP
130.4
.J27
v. 23-24
NOV 21 1973